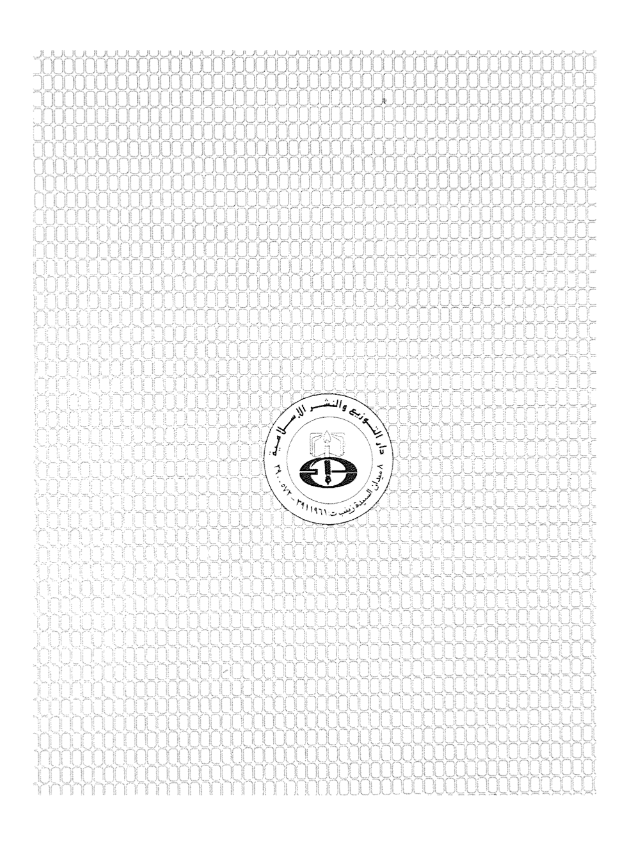
الدولة الأموية

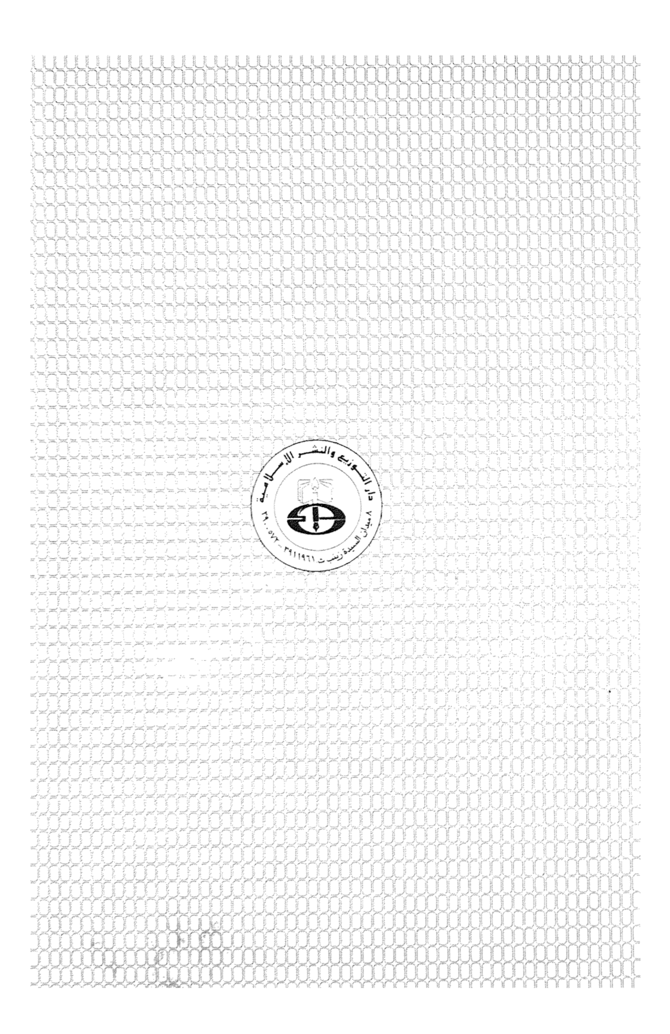
عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار

الجزء الأول

الدكتور علي محمد محمد الصلابي



دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢


دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينب ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢

الدولة الأموية
عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار
«دراسة شاملة»

الجزء الأول

تأليف الدكتور
علي محمد محمد الصَّلَّابي

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/١٥٦٨٣

الترقيم الدولي: I.S.B.N

977 - 265 - 659 - 0





مصـــــر-القاهـــــرة -السيدة زينب ص.ب ١٦٣٦

٢٥١ ش بورسعيد ت: ٢٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٢٩٢١٤٧٥

مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٢٩١١٩٦١

www.eldaawa.com

email:info@eldaawa.com

المؤلف فى سطور

على محمد محمد الصَّلاَّبى

- ولد فى مدينة بنغازى بليبيا عام ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣م.
- حصل على درجة الإجازة العالية «الليسانس» من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقدير ممتاز، وكان الأول على دفعته عام ١٤١٣/ ١٤١٤هـ الموافق ١٩٩٢/ ١٩٩٣م.
- نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلامية كلية أصول الدين قسم التفسير وعلوم القرآن عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- نال درجة الدكتوراة فى الدراسات الإسلامية بمؤلفه «فقه التمكين فى القرآن الكريم» من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام ١٩٩٩م.
- صدرت له عدة كتب:

١ ـ عقيدة المسلمين فى صفات رب العالمين.

٢ ـ الوسطية فى القرآن الكريم.

* سلسلة «صفحات من التاريخ الإسلامى فى الشمال الإفريقى».

٣ ـ صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامى والشمال الأفريقى.

٤ ـ عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

٥ ـ الدولة العبيدية (الفاطمية) الرافضية.

٦ ـ فقه التمكين عند دولة المرابطين.

٧ ـ دولة الموحدين.

٨ ـ الدولة العثمانية. . عوامل النهوض وأسباب السقوط.

٩ ـ فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح.

١٠ ـ فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

١١ ـ الحركة السنوسية في ليبيا.

(أ) الإمام محمد بن علي السنوسي ومنهجه في التأسيس.

(ب) محمد المهدي السنوسي، وأحمد الشريف.

(جـ) إدريس السنوسي، وعمر المختار.

١٢ ـ فقه التمكين في القرآن الكريم.

١٣ ـ السيرة النبوية.. عرض وقائع وتحليل أحداث.

١٤ ـ الانشراح ورفع الضيق في سيرة أبي بكر الصديق، شخصيته وعصره.

١٥ ـ فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

١٦ ـ تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان.. شخصيته وعصره.

١٧ ـ أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.. شخصيته وعصره.

١٨ ـ سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي بن أبي طالب.. شخصيته وعصره.

١٩ ـ الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.

٢٠ ـ معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.

٢١ ـ عمر بن عبد العزيز.. معالم التجديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوة.



إلى كل مسلم حريص على إعزاز دين الله تعالى أهدى هذا الكتاب، سائلاً المولى عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى أن يكون خالصًا لوجهه الكريم، قال تعالى: ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ [الكهف : ١١٠]

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾ [النساء: ١]

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا (٧٠) يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا، أما بعد:

هذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة، وقد صدر منها السيرة النبوية.. عرض وقائع وتحليل أحداث، أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، والحسن بن على، رضى الله عنهم جميعًا، وقد سميت هذا الكتاب «الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار» ويتحدث هذا الكتاب عن الجذور التاريخية للأسرة الأموية، وشهادة التاريخ بين الهاشميين والأمويين، وموقف بنى أمية من الدعوة الإسلامية، وعن الأمويين الذين أسلموا منذ بداية الدعوة الإسلامية وعن المصاهرات بين بنى هاشم وبنى أمية، وعن شخصية معاوية بن أبى سفيان وعصره، رضى الله عنه، فيتطرق لاسمه ونسبه وكنيته وأسرته، وعن إسلام أبى سفيان والد معاوية رضى الله عنه، وعن هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية رضى الله عنهما، وعن إخوان وأخوات معاوية، ويتحدث عن زوجات معاوية وأولاده وعن إسلام معاوية رضى

الله عنه، وشيء من فضائله، وعن رواية معاوية لحديث رسول الله ﷺ، وعن الأحاديث الباطلة التي لا تصح في شأن معاوية مدحًا وذمًا، ويتكلم الكتاب عن دور بني أمية في عهد رسول الله ﷺ، وعهد الخلافة الراشدة، ويشير إلى متى بدأ نجم معاوية في الظهور وعن ولايته على دمشق وبعلبك والبلقان في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعلاقته بعمر رضي الله عنهما، ويبين الكتاب جهود معاوية رضي الله عنه على جبهة الشام، وعن سنّ نظام الصوائف والشواتي في عهد عمر، وعن تكوين أسطول إسلامي في البحر، وعن أعمال معاوية في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنهما، فيوضح فتوحاته في عهده، وإصراره في الطلب من عثمان السماح له بالغزو البحري، وعن غزوه لقبرص واستسلام أهلها وطلب الصلح ثم نقض القبارصة للصلح ثم فتحها، ويتعرض الكتاب لحقيقة الخلاف بين أبي ذر ومعاوية وموقف عثمان رضي الله عنهم منه، ويرد الكتاب عن الشبهات التي ألصقت بعثمان رضي الله عنه كاتهامه بإعطاء أقاربه من بيت المال، وتعيينه لأقاربه في مناصب الدولة على حساب المسلمين، ويتطرق الكتاب لأسباب فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه كالرخاء وأثره في المجتمع وطبيعة التحول الاجتماعي في عهده وظهور جيل جديد، واستعداد المجتمع لقبول الشائعات، ومجيء عثمان بعد عمر رضي الله عنهما، وخروج كبار الصحابة من المدينة، والعصبية الجاهلية، وتوقف الفتوحات بسبب موانع طبيعية أو بشرية، والمفهوم الخاطئ للورع، وظهور جيل جديد من الطامحين، ووجود طائفة موتورة من الحاقدين، والتدبير المحكم لإثارة المآخذ ضد عثمان رضي الله عنه، واستخدام الأساليب والوسائل المهيِّجة للنَّاس، ودور عبد الله بن سبأ في تحريك الفتنة، وموقف معاوية بن أبي سفيان في الفتنة، ويتحدث عن مشورة عثمان لولاة الأمصار ورأي معاوية في ذلك، وعن مقتل عثمان وموقف الصحابة منه، وعن معاوية في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ويتطرق الكتاب إلى اختلاف الصحابة في الطريقة التي يأخذ بها القصاص من قتلة عثمان، وإلى معركة صفين وإلى تسلسل الأحداث، ابتداءً من إرسال أم حبيبة أم المؤمنين بنت أبي سفيان لنعمان بن بشير بقميص عثمان إلى معاوية وأهل الشام، ودوافع معاوية رضي الله عنه في عدم بيعة علي رضي الله عنه ورده على أمير المؤمنين عليّ، وعن تجهيز أمير المؤمنين علي لغزو الشام،

وإرساله جرير بن عبد الله إلى معاوية بعد معركة الجمل لدعوته للبيعة، ومسيرة أمير المؤمنين على إلى الشام، وخروج معاوية إلى صفين، وبداية المناوشات بين الطرفين، والموادعة بينهما ومحاولات الصلح ثم نشوب القتال ثم الدعوة إلى التحكيم. ويتكلم الكتاب عن مقتل عمّار بن ياسر رضى الله عنه وأثره على المسلمين، وعن المعاملة الكريمة أثناء الحرب والمواجهة، ومعاملة الأسرى عند أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وعن عدد القتلى، وعن تفقد أمير المؤمنين على للقتلى وترحمه عليهم، وعن موقف لمعاوية مع ملك الروم فى تلك الأحداث، وعن قصة باطلة فى حق عمرو بن العاص بصفين، وعن إصرار قتلة عثمان رضى الله عنه أن تستمر المعركة، وعن نهى أمير المؤمنين على شتم معاوية ولعن أهل الشام، وعن التحكيم، وعن نص وثيقة التحكيم وعن قصة التحكيم المشهورة وبيان بطلانها، وعن حقيقة قرار التحكيم، ومكان انعقاد المؤتمر، وأشار الكتاب إلى إمكانية الاستفادة من حادثة التحكيم فى فض المنازعات بين الدول الإسلامية، هذا وقد بينت موقف أهل السنة والجماعة من تلك الحروب، وتكلمت عن تغيير الموازين لصالح معاوية بعد معركة صفين، وعن المهادنة بين أمير المؤمنين على ومعاوية رضى الله عنهما، وعن استشهاد أمير المؤمنين على واستقبال معاوية خبر مقتله، ثم تحدثت عن المشروع الإصلاحى الكبير فى عهد الحسن بن على والذى توّج بوحدة الأمة وذلك بتنازل الحسن بالخلافة لمعاوية رضى الله عنهما، وأشرت إلى مراحل الصلح وشروطه وأسبابه ومعوقاته، ونتائجه، كما وضحت الفقه الكبير فى مقاصد الشريعة وفقه المصالح والمفاسد وفقه الخلاف الذى تميز به الحسن بن على والذى بنى عليه مشروعه الإصلاحى العظيم، والذى ترتب عليه دخول الأمة الإسلامية فى مراحل جديدة تمّ فيها بيعة معاوية رضى الله عنه من جميع الصحابة الأحياء وأبناء الأمة. ووضحت صفات معاوية رضى عنه والتى من أهمها، العلم والفقه، والحلم والعفو، والدهاء والحيلة، وعقليته الفذة وقدرته على الاستيعاب، وتواضعه وورعه، وبكاؤه من خشية الله، ونقلت ثناء العلماء على معاوية، وأشرت إلى دخول دولة بنى أمية فى خير القرون والتى قال فيها رسول الله ﷺ: «خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[1]، وتحدثت عن عاصمة الدولة

(١) البخارى، رقم (٦٦٩٥).

الأموية وأحاديث الرسول ﷺ فى فضـائل أهل الشام، وعن أهل الحل والعقد فى عهد معاوية رضى الله عنه، وعن الشورى، وحرية التعبير وعن سياسته الداخلية، من الإحسان إلى كبار الشخصيات من شـيوخ الصحابة، وأبنائهم، وحسن علاقته مع الحسن والحسين وابن الزبير وابن عـباس وغيرهم رضى الله عنهم، وبينت بيان بطلان تعـميم معـاوية سب أميـر المؤمنين علىٍّ على منابر الدولة الأمـوية، وزعم بعض المؤرخين بأن معاوية سمّ الحسن بن على، فـأثبتت بالحجج العلمية والبراهين الساطعة بطلان ذلك أيضًا، وتعرضت لموقف معاوية من قـتلة عثمان بعد ما أصبح أميـر المؤمنين، وكذلك مقـتل حجر بن عـدى رضى الله عنه، وموقف عـائشة أم المؤمنين من مقتله. كما أوضحت حرص معاوية على مباشرة الأمور بنفسه وتوطين الأمن فى خلافته، فـتحدثت عن مجلسه فى يومه، وعن الدواوين المـركزية التابعة له، كـديوان الرسـائل، وديوان الخـاتم، وديوان الـبـريد، وعن نظام الحـجـابة، والحرس، والشرطة، وعن حسن اخـتياره للرجال والأعوان وعن استـخدامه للمال فى تأكيـد ولاء الأعوان وتأليف القلوب واتباعـه سياسـة الشدة واللين، وسيـاسة المنفعة المتبادلة بين بنى أمية ورعيتهم، واتخاذه سياسة إعلامية للإشادة به وبخلافته وجعل الناس يمـيلون إليهم، وعن اهتمـامه بجهـاز الاستخبـارات، وبناء الجيش الإسلامى وتطويره، وعن فقهه الكبير فى سياسة الموازنات بين القبائل، والعشائر، وأعيان المجتمع وعن سياسته مع الأسرة الأموية، وتكلمت عن حياته فى المجتمع، وعن اهتماماته العلمـية والتاريخية والشعرية واللغوية والعلوم التـجريبية، وأفردت مبحثًا فى علاقته بالخـوارج، ووسائله فى تحجيم دورهم وإضعافهم، وبينت النظام المالى فى عهده، ومـصادر دخل للدولة، كالزكاة، والجزية، والخـراج، والعشور، والصـوافى، والغنائم، وعن النفقـات العامـة، كالنفـقات العـسكرية، والإدارية، والاجـتمـاعيـة، واهتمـامه بالزراعـة والتـجارة الداخليـة والخارجـية، والحـرف والصناعات، وأثـرت قضيـة الشبهـات حول مـصارف الأموال فى عـهد مـعاوية وناقشتها بعلم وإنـصاف، كالتفرقة فى العطاء وكذبة إعطاء مصـر طعمة لعمرو بن العاص، وكالتوسع فى إنفاق الأموال لتـأليف القلوب واكتساب الأنصار، ومظاهر التـرف عند الأمويين، وأفـردت مبـحثـا عن القضـاء فى عهـد معـاوية، والدولة الأمـوية، وصلته بالـعهـد الراشدى وتخـلى الخلفاء عن ممارسـة القـضاء وفـصل

السلطات، ومرتبات القضاة وتسجيل الأحكام والإشهاد عليها، وأعوان القضاة، كالمنادى والحاجب، والترجمان أو المترجم، والمراقبة والمتابعة، وعن مصادر الأحكام القضائية فى العهد الأموى وعن اختصاص القضاة وذكرت أسماء أشهر القضاة فى عهد معاوية. كما أشرت إلى ميزات القضاء فى عهد معاوية والأموى عمومًا، وإلى خطاب عمر بن الخطاب إلى معاوية رضى الله عنهما فى القضاء، وتكلمت عن مؤسسة الشرطة فى عهد معاوية وواجباتها، كحماية الخليفة وولاة الأمصار ضد مناوئيهم فى الداخل، ومعاقبة المذنبين والخارجين عن القانون، وتنفيذ العقوبات الشرعية، وعن قوات ومؤسسات أخرى وعلاقتها بالشرطة كالحرس والعرفاء، وصاحب الاستخراج أو العذاب، وجهاز الحسبة، ونظام المراقبة، ومؤسسة الدرك، وتحدثت عن مؤسسة الولاة والإدارة فى عهد معاوية رضى الله عنه، وأهم الأقاليم التابعة لدولته وأسماء أشهر ولاته وأهم أعمالهم فى تلك الأقاليم، وعندما تحدثت عن المدينة النبوية ترجمت لشخصية أبى هريرة رضى الله عنه حيث توفى بها عام ٥٨ هـ أو ٥٩ هـ، وقد عاش فى عهد معاوية ما يقرب من ثمانى عشرة سنة، وقد تعرض هذا الصحابى الجليل لهجمة ظالمة من قبل أعداء الصحابة فى القديم والحديث، وتلقف تلك الاتهامات الباطلة مجموعة من المستشرقين فرأيت لزامًا علىّ أن أدافع عن هذا الصحابى الجليل الذى يعتبر من أكبر رواة السنة النبوية الشريفة، فعرفت به وبشىء من حياته، كعبادته وعفافه وحلمه وعفوه، واهتمامه بالعلم ورددت على الشبهات التى أثيرت حوله، والتى هدفها التشكيك فيما وصل إلينا من سنة رسول الله ﷺ وذلك بالطعن فى هذا الصحابى الجليل رضى الله عنه، وكان لسان حالى فى مجادلة أولئك الكذابين قول الشاعر:

وإذا اضطررت على الجدال ولم تجد ... لك مهربًا وتلاقت الصَّفان

فاجعل كتاب الله درعًا سابغًا ... والشرع سيفك وابد فى الميدان

والسنة البيضاء دونك جُنَّة ... واركب جواد العزم فى الجولان

واثبت بصبرك تحت ألوية الهدى ... فالصبر أوثق عدة الإنسان

واطعن برمح الحق كل معاند ... لله درُّ الفارس الطعان

واحمل بسيف الصِّدق حملة ... مخلص متجردًا لله غير جبان

هذا؛ وقد وصفت حركة الفتوحات فى عهد معاوية رضى الله عنه، وقدمت بين يدى حركة الفتوحات مقدمة تناقش الشبهات التى ألصقت كذبًا وزورًا وبهتانًا بحركة الفتوحات أن معاوية رضى الله عنه حمى وعزّز منجزات الموجة الأولى فى حركة الفتح التى قادها وخطط لها الخلفاء الراشدون، فالموجة الثانية لحركة الفتوح هى التى بدأت فى عهد معاوية نفسه واستمرت فيما بعد لكى تبلغ أقصى اتساعها فى عهد الوليد بن عبد الملك، لقد وصفت ما قام به معاوية من حركة الجهاد ضد الدولة البيزنطية واهتمامه بفتح القسطنطينية، وتخطيطه الاستراتيجى للاستيلاء عليها، كاهتمامه بدور صناعة السفن فى مصر والشام وتقوية الثغور البحرية بهما، واستيلاؤه على الجزر الواقعة شرقى البحر المتوسط، وتحصينه أطراف الشام الشمالية، وقد قام بحصار القسطنطينية، وقد توفى أبو أيوب الأنصارى فى حصار القسطنطينية، وقد ترك أبو أيوب رضى الله عنه فى وصيته بأن يدفن فى أقصى ما يمكن من أرض العدو ، وهذه صورة رائعة تدل على تعلقه بالجهاد، فيكون بين صفوفهم حتى وهو فى نعشه على أعناقهم، وأراد أن يتوغل فى أرض العدو حيًا وميتًا، وكأنما لم يكفه ما حقق فى حياته فتمنى مزيدًا عليه بعد مماته، وهذا ما لا غاية بعده فى مفهوم المجاهد الحق بالمعنى الأصح الأدق.

هذا؛ وقد استطاع معاوية رضى الله عنه أن يضيق الخناق على الدولة البيزنطية بالحملات المستمرة برًا وبحرًا، وقد أرهق البيزنطيين وأذاقهم ألوان الضنك والخوف، وأنزل بهم خسائر فادحة بالرغم من كل ذلك لم يستطع اقتحام القسطنطينية بسبب عوامل عديدة سيراها القارىء فى الكتاب بإذن الله تعالى، وقد دخل معاوية فى علاقات سلمية مع الدولة البيزنطية وتم تبادل المراسلات، والخبرات، والسفراء فيما بين الدولتين الأموية والبيزنطية، وواصل معاوية فتوحاته فى الشمال الإفريقى، وانطلقت حملة معاوية بن حديج رضى الله عنه فى عهده، وبرز اسم عقبة بن نافع فى تلك الفتوحات وقام ببناء مدينة القيروان بتونس اليوم وكان ذلك فى عهد معاوية، وقد أصبحت القيروان مركز الإشعاع الحضارى الإسلامى بالمغرب وعاصمتها العلمية. وسيمضى القارىء مع الفتوحات فى الشمال الإفريقى حتى استشهاد عقبة رحمه الله تعالى، وتحدثت فى فتوحات معاوية فى

الجناح الشرقى للدولة الأموية فى خراسان وسجستان وما وراء النهر، وعن فتوحات السند فى عهده ولخصت أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات والتى من أهمها، أثر الآيات والأحاديث النبوية فى نفوس المجاهدين، وسنن الله فى الفتوحات، كسنة الله فى الاتحاد والاجتماع، وسنة الأخذ بالأسباب، وسنة التدافع، وسنة الله فى الظلم والظالمين، وسنة الله فى المترفين، وسنة الله فى الطغيان والطغاة، وسنة التدرج، وسنة تغيير النفوس، والتخطيط الاستراتيجى للفتوحات عند معاوية، وسياسته تجاه الروم، وجبهة الشمال الإفريقى، وجبهة سجستان وخراسان وما وراء النهر، وإدارته للشورى فى حركة الفتوحات، ومركزية القيادة والإمداد فى إدارته، ونظام الألوية والرايات واهتمامه بالعيون والبريد، والحدود البرية للدولة، واهتمامه بالأسطول والحدود البحرية، وبديوان الجند والعطاء، والأثر العلمى والاقتصادى والاجتماعى فى عهده، وتحدثت عن بعض كرامات المجاهدين فى عهده.

إن من فضائل الدولة الأموية فى عهد معاوية وعبد الملك وابنيه الوليد وسليمان الفتوحات الواسعة التى تمت على أيديهم، والتى امتدت ديار الإسلام نتيجة ذلك بين الصين فى الشرق وبلاد الأندلس وجنوبى فرنسا فى الغرب. وكان الخلفاء يرسلون أبناءهم إلى الجهاد ويشهدون القتال، وكان الصحابة وكبار التابعين من ضمن تلك الجيوش، فحركة الفتوحات أشرفت عليها الدولة وتفاعل معها المجتمع الإسلامى بكل ألوانه من العلماء والفقهاء والتجار والزهاد والعباد، وتحركت تلك الجيوش فى المشارق والمغارب، كان الفاتحون لتلك الشعوب المترامية الأطراف قد جاءوها بالعدل والإحسان ومطالب الروح ومطالب البدن، وجاءوا إليهم بدين الإسلام الذى يقرّر الإنسانية بمعناها الصحيح فى هذه الأرض؛ لذلك كان الإسلام سريع المدخل إلى نفوسهم، لطيف التخلل فى الأفكار، قوى التأثير على الألباب والعقول، وجاء الفاتحون لتلك الشعوب بالحقائق التى سعد بها أصحاب محمد وأسعدوا بها تلك الأمم، قال الشاعر:

الله أكبر إن دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
طلعت به شمس الهداية للورى ... وأبى لها وصف الكمال أفولا
والحق أبلج فى شريعته التى ... جمعت فروعًا للهدى وأصولا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

لقد كانت الفتوحات الكبرى فى عهد معاوية والدولة الأموية دليلاً ملموسًا على حيوية الأمة وتفاعلها مع دين الله وحرصها على هداية الشعوب.

هذا؛ وقد تكلمت عن فكرة ولاية العهد والخطوات التى اتبعها معاوية لبيعة يزيد، من مشاورات، وحملات إعلامية، وقبول أهل الشام لبيعة يزيد، وبيعة الوفود، وطلب البيعة من أهل المدينة واعتراض عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن الزبير والحسين بن على رضى الله عنهم عن تلك البيعة، وعن أسباب ترشيح معاوية لابنه يزيد، كالحفاظ على وحدة الأمة، وقوة العصبية القبلية، ومحبة معاوية لابنه وقناعته به، وعن الانتقادات التى وجهت لمعاوية بشأن البيعة ليزيد، وعن المآخذ على فكرة ولاية العهد فى عهد معاوية، وعن الأيام الأخيرة من حياته وعن دعائه وهو فى سكرات الموت وقوله: اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل ما لم يَرْجُ غيرك فإنك واسع المغفرة، ليس لذى خطيئة مهرب إلا إليك ثم مات.

وتحدث الكتاب عن عهد يزيد بن معاوية بن أبى سفيان وأهم صفاته وبيعته وموقف الحسين بن على وعبد الله بن الزبير منها، والأسباب التى أدت إلى خروج الحسين والفتوى التى بناها على خروجه، وعزم الحسين على الذهاب إلى الكوفة ونصائح الصحابة والتابعين ورأيهم فى ذهابه إليها، وعن موقف يزيد من أحداث الكوفة ودور عبيد الله بن زياد فى القضاء على مسلم بن عقيل وأنصاره، وعن أحداث معركة كربلاء واستشهاد الحسين بن على رضى الله عنه وعن المواقف الرائعة التى كانت بجانب الحسين رضى الله عنه وموقف يزيد بن معاوية من قتله ومن أبناء الحسين وذريته، وبينت من المسئول عن قتل الحسين، وذكرت أقوال الناس فى يزيد بن معاوية وهل يجوز لعنه؟ وحذرت من الأساطير التى نسجت حول مقتل الحسين رضى الله عنه ووضعت أهم الدروس والعبر والفوائد من سيرته فى نقاط، والتى كان من أهمها: هدى رسول الله ﷺ فى يوم عاشوراء، وآداب التعامل مع المصائب فى الإسلام والتحقيق فى مكان رأس الحسين، وحكم الإسلام فى تقديس أضرحة الأئمة وزيارة قبر الحسين وقدسية كربلاء، وهدى الإسلام فى زيارة القبور، والبناء عليها واتخاذها مساجد، وخروج الحسين رضى الله عنه، واستغلال القوى المضادة للإسلام لمقتله وحادثة كربلاء، ثم تحدثت عن وقعة الحرّة،

وما قيل حول انتهاك الأعـراض فى تلك الوقعة ودواعى فشل أهل المدينة فى تلك المعركة، وتكلمت عن حركـة ابن الزبير فى عهد يزيد، وأسباب اخـتيار ابن الزبير لمكة فى مقاومـته للحكم الأموى، وأسباب خـروجه عليهم والجهـود السلمية التى بذلها يزيد لاحـتواء ابن الزبير، والجهـود الحربية أيضًا، وحـصار الكعبة وضـربها بالمنجنيق واحتراقها ووفاة يزيد بن معـاوية المفاجىء، ثم تحدثت عن خلافة معاوية ابن يزيد ومدة حكمه وتنازله عـن الخلافة وتركه للأمر شورى، ثم ذكـرت خلافة عبد الله بن الزبير، وشيـئًا من سيرته وصفاته وبيعة الناس له بالخلافـة وكون بيعته كانت شرعـية، فقد بايعـه معظم المسلمين إلا أقليم الأردن، وبعض الشخـصيات المهمة بالحـجاز كعبـد الله بن عمر وابن عبـاس ومحمد بن الحنفيـة، ثم تعرضت لخروج مروان بن الحكم على ابن الزبير وأهمية مؤتمر الجابية ومعركة مرج راهط فى حـسم الصراع لصـالح البـيت الأموى، وتحـدثت عن ضم مـصر للدولة الأمـوية ومحاولتها لإعادة العراق والحجاز لهـيمنتها، وعن تولى عبد الملك الزعامة الأموية بعد وفاة أبيـه مروان وبينت سياســته الداخلية وترتيبه للأولـويات فى الصراع حتى استطاع القضـاء على الخليفة الشرعى عبد اللـه بن الزبير رضـى الله عنه، وأشرت إلى أهم أسبـاب سقوط خلافة ابـن الزبير رضى الله عنه ثم دخلت فى عهـد عبد الملك بن مروان، وصـراعه مع الخوارج، ودور المهـلب بن أبى صفرة فى القـضاء على الخـوارج الأزارقـة، واهتمـام الدولة الأمـوية بمحـاربة الخوراج الـصفـرية، وترجمت لشخصيات من الخوارج كقطرى بن الفجاءة وعمران بن حطان، وذكرت شيئًا من أشـعارهم وأشرت إلى أسباب فشل الخوارج فى عهـد عبد الملك، وقمت بدراسة لثـورة عبد الرحمـن بن الأشعث وأسباب خـروجه وموقف العلمـاء منها وأسباب فـشلها، وتكلمت عن جهود عـبد الملك فى توحيد الدولة والـقضاء على الثورات الداخلية وعن النظام الإدارى وأهم الدواوين التى كـانت فى عهده كديوان الرسـائل،والعطاء والخـراج والخـاتم، والبـريد، وعن دوره فى تعـريب الدواوين وأسبـاب ذلك والنتـائج التى ترتبت عليه، وعـن إدارته للإقليم وألمحت للخطوط العامة لسياسته فى إدارة شئون الدولة، كالمشاورة واعتماده على أهل الشام، ووضع الشخص المـناسب فى المكان المناسب ومتـابعة أخـبار الولاة، وتقديـم الأقرباء فى

المناصب وحفظ التوازن القبلى، وتسامحه مع أهل الكتاب واحترام وتقدير الشخصيات البارزة فى المجتمع، وتحجيم الولاة إذا أرادوا تجاوز الخطوط الحمراء، . . إلخ. وترجمت لأهم ولاته كالحجّاج بن يوسف الثقفى، وذكرت النظام المالى فى عهده وأشرْت إلى القطاع الزراعى والصناعى، ودور عبد الملك فى إحداث دور ضرب العملة، وتعريب النقد وتطرقت للعمارة والبناء والنظام القضائى والشرطة فى عهده، واهتمامه بالعلماء والشعراء، وأفردت فصلاً كاملاً عن الفتوحات فى عهده وعهد ولديه الوليد وسليمان لكى نعطى صورة متكاملة عنها بسبب ترابطها ببعضها، ولخصت أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات، كأسباب دخول الإسلام فى البلاد المفتوحة، كعالمية الدعوة، والمعاملة السمحة الكريمة من المسلمين، وكتفسير حركة التعريب بين الشعوب من هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة، وتعريب الدواوين وتفوق الحضارة الإسلامية. . إلخ.

وتحدثت عن عقد عبد الملك لولاية العهد لابنه الوليد ثم سليمان وموقف العالم الجليل سعيد بن المسيب من ذلك وما تعرض له من الابتلاء بسبب ذلك، وذكرت وصية عبد الملك لابنه الوليد عند موته ووصيته لبنيه، ثم دخلت فى عهد الوليد بن عبد الملك وتحدثت عن أهم أعماله الحضارية والإنسانية، من توسيع المسجد النبوى، وبناء المسجد الأموى، والمستشفيات فى عهده، وكفالة الدولة للمحتاجين وتطوير الطرق، وغير ذلك من الأعمال.

وترجمت لزوجته أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، فذكرت خشيتها لله وجودها وكرمها، وبينت بطلان ما ينسب إليها فى كتب الأدب فى قصتها المكذوبة مع وضاح اليمن، وحذرت من الأكاذيب والأباطيل التى تذكر أحيانًا فى كتب التاريخ والأدب فى حق مثل هذه التابعية الجليلة، ثم دخلت فى عهد سليمان بن عبد الملك وتحدثت عن سياسته العامة، ومفهوم الشورى عنده وسياسته فى اختيار الولاة وسياسته تجاه الحركات المعارضة وعلاقته بالعلماء وتقريبه لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة، ونسفت بعض الشبهات الملصقة بسيرته كوصف بعض المؤرخين له بأنه المصيبة العظمى فى الأكل؛ فبنيت بطلان ذلك ثم ذكرت جهود رجاء بن حيوة فى تولية عمر بن عبد العزيز، ثم دخلت فى عهد الإصلاحى

الكبير والمجـدد الشهير عمـر بن عبد العزيز، فتـحدثت عن حياته وسـيرته وطلبه للعلم، وعن أهم أعماله فى عهـد الوليد وسليمان، وعن خلافته وبيعـته ومنهجه فى إدارة الدولة، واهتمامه بالشورى والعدل وسـياسته فى رد المظالم وعزله لجميع الولاة الظالمين، ورفع المظالم عن الموالى وأهل الذمة وإقامة العدل لأهل سمرقند، وعن الحريات فى دولته، كالحرية الفكرية والعقدية والسيـاسية والشخصية، وحرية التجـارة والكسب، وذكرت أهم صـفاته، كشـدة خوفه من اللـه تعالى، وزهده، وتواضعـه وورعه، وحلمه وصفـحه وعفوه، وصبـره، وحزمه، وعدله وتـضرعه ودعائه واستجـابة الله له، وتحدثت عن معالم التجديد عند عمـر بن عبد العزيز، كالشورى، والأمانة فى الحكم وتوكيل الأمناء، وإحيائه مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومبدأ العدل، وعن شـروط المجدد، كأن يكون معروفًا بصفـاء العقيدة وسـلامة المنهـج، وأن يكون عالمًا مـجـتهـدًا، وأن يشـمل تجديده مـيـدان الفكر والسلوك، وأن يعم نفـعه أهل زمانه، وتكلمت عن اهـتمام عـمر بن عبـد العزيز بعقـائد أهل السنة والجمـاعة، فى توحـيد الألوهيـة وفى باب أسماء اللـه الحسنى وصفاته العلى، وفى مـفهوم الإيمان، والإيمان باليـوم الآخر والمعتقدات الغيـبية، كعـذاب القبر ونعـيمه والمعـاد، والميزان والحوض والصـراط والجنة والنار، ورؤية المؤمنين ربهم فى الجنة والدعوة للاعتصام بالكتاب والسنة وسنة الخلفاء الراشدين، وموقفه من الصحابة والخلاف بينهم وموقـفه من أهل البيت. وتحدثت عن معاملته للخوارج والشـيعة والقـدرية وعن حياته الاجـتماعيـة، واهتمامـه بأولاده وأسرته ومنهجه فى تربيته لأولاده كاختيار المعلم والمؤدب الصالح، وتحديد المنهج العلمى، وتحـديد طريقة التـأديب والتـعليم، وتحديد أوقـات وأولويات التـعليم، ومراعـاة المؤثرات التعليمية، وعن نتـائج ذلك المنهج وتأثر ابنه عبد الملك به، وتكلمت عن حياته مع الناس، واهتمـامه بإصلاح المجتمع، وتذكيـره الناس بالآخرة، وتصحيح المفاهيم الخـاطئة، وإنكاره العصـبية القبليـة، وتقديره لأهل الفضل وقـضائه ديون الغارمين، وفك أسرى المسلمين، وإغنائه المحـتاجين عن المسألة، ودفع المهور من بيت المال، وجهوده فى التقريب بين طبقات المجتمع، ومعاملته للشعراء، واهتمامه الكبير بالعلماء، ومشاركتهم الفعّالة مـعه لإنجاح مشروعه الإصلاحى، فتقربوا منه

وشدوا أزره للسير فى منهجه التجديدى، وتعهدوه بالنصح والتذكير بالمسئولية، واستعدادهم لتولى مختلف مناصب الدولة وأعمالها، وتحدثت عن المدارس العلمية فى عهده وعهد الدولة الأموية، كمدرسة الشام والحجاز، والعراق ومصر.. إلخ، وعن منهج التابعين فى تفسير القرآن الكريم، وجهودهم فى خدمة السنة، ودور عمر بن عبد العزيز فى تدوينها، وأشرت إلى منهج التزكية والسلوك عند التابعين وأخذت مدرسة الحسن البصرى مثالاً على ذلك فتحدثت عنها وعن تلاميذها كأيوب السختيانى، ومالك بن دينار، ومحمد بن واسع، وبينت براءة الحسن البصرى من الاعتزال، وتحدثت عن علاقة الحسن البصرى بعمر بن عبد العزيز ورسائله إليه، التى يبين فيها صفات الإمام العادل فى نظره، وذكرت موقف عمر ابن عبد العزيز وأسباب رفعه لحصار القسطنطينية واهتمامه بالدعوة الشاملة، ووضعه لقانون التفرغ للدعاة والعلماء وحضه على نشر العلم وتعليمه وتوجيه الأمة إلى أهميته، وإرسال العلماء الربانيين فى شمال أفريقيا وغيرها لتعليم الناس وتربيتهم على الكتاب والسنة، وإرساله الرسائل الدعوية إلى الملوك بالهند وغيرها، وتشجيعه غير المسلمين على الدخول فى الإسلام.

وأفردت مبحثًا لإصلاحاته المالية وسياسته الحكيمة فى ذلك، وحرصه على ترسيخ قيم الحق والعدل ورفع الظلم، فبينت أهداف السياسة الاقتصادية عنده، من إعادة توزيع الدخل والثروة بشكل عادل وتحقيق التنمية الاقتصادية والرفاهية الاجتماعية، وأشرت لتحقيق تلك الأهداف كتوفير المناخ المناسب للتنمية، ورد الحقوق لأصحابها وفتح الحرية الاقتصادية بقيود، واتباع سياسة زراعية جديدة تمنع بيع الأرض الخراجية، وتعتنى بالمزارعين وتخفف الضرائب عنهم، وحث الناس على الإصلاح والإعمار وإحياء أرض الموات، وتوفير مشاريع البنية التحتية، وتحدثت عن سياسته فى الإنفاق العام، كإنفاق عمر على الرعاية الاجتماعية وترشيد الإنفاق فى مصالح الدولة، كقطع الامتيازات الخاصة بالخليفة وبأمراء الأمويين، وترشيد الإنفاق الإدارى والحربى.

وتكلمت عن المؤسسة القضائية، فى عهده وبعض اجتهاداته الفقهية كرأيه فى الهدية لولاة الأمر ونقض الأحكام إذا خالفت النصوص الشرعية وغير ذلك من الاجتهادات الفقهية والقضائية، وتحدثت عن سياسته الإدارية وأشهر ولاته وحرصه

على انتقاء عماله من أهل الخير والصلاح، وإشرافه المباشر على إدارة شئون الدولة وعن قدراته في التخطيط والتنظيم وعن أسلوبه في الوقاية من الفساد الإداري، كالتوسعة على العمال في الأرزاق وحرصه على الوقاية من الكذب، والامتناع عن أخذ الهدايا والهبات والنهي عن الإسراف والتبذير، ومنع الولاة والعمال من ممارسة التجارة، وفتح قنوات الاتصال بين الوالي والرعية، ومحاسبته لولاة من قبله عن أموال بيت المال، وتطرقت إلى مفهوم المركزية واللامركزية في إدارة عمر بن عبد العزيز واهتمامه بمبدأ المرونة، وتوظيفه للوقت في خدمة الدولة والرعية، وممارسته لمبدأ تقسيم العمل في الإدارة، وحرصت على بيان بواعث عمر ابن عبد العزيز في إصلاحه وتجديداته، المالية والسياسية والإدارية، . .إلخ، وأشرت إلى حرصه على تنفيذ أحكام الشريعة على الدولة والأمة والمجتمعات والأفراد، وأشرت إلى آثار التمسك بأحكام القرآن الكريم والسنة النبوية وهدى الخلافة الراشدة على دولته، من التمكين والأمن والاستقرار، والنصر والفتح، والعز والشرف وبركة العيش ورغده، وعشت مع الأيام الأخيرة من حياة هذا المصلح الكبير حتى وفاته.

إن ظهور عمر بن عبد العزيز في تلك المرحلة التاريخية الحرجة من تاريخ الأمة ومحاولته العظيمة للعودة بالحياة إلى تحكيم الشريعة وآفاق الخلافة الراشدة الملتزمة بمعطيات القرآن والسنة، ظاهرة فذة تحمل في دلالتها ليس على بطولة القائد فحسب، وإنما على قدرة الإسلام نفسه على العودة باستمرار لقيادة الحياة السياسية والتشريعية والحضارية في نهاية الأمر وصياغتها بما ينسجم ومبادئه الأساسية[1].

إن خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية على من لا يزال يردد الكلمات والأصوات القائلة: إن الدولة التي تقوم على الأحكام الإسلامية والشريعة عرضة للمشاكل والأزمات وعرضة للانهيار في كل ساعة، وإنها ليست إلا حُلمًا من الأحلام ولا يزال التاريخ يتحدى هؤلاء، ويقول لهم: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

ولقد سار نور الدين زنكي المتوفى عام ٥٦٨هـ على منهج عمر بن عبد العزيز وأخذه نموذجًا ومثالاً له في القدوة والتأسي، فآتت محاولته الإصلاحية ثمارها للأمة وساهمت في نهوضها وعودة الوعي لها وتغلبت على أعدائها الصليبيين،

---

(١) في التأصيل الإسلامي للتاريخ، د. عماد الدين خليل، ص (٦٢).

وطهرت بيت المقدس على يدى تلميذه القائد الأشم، البطل المغوار صلاح الدين الأيوبى، كثر الله من أمثاله فى جيلنا.

إن الإصلاح - كما يفهمه المسلمون الصادقون لا كما يروّج أعداء الإسلام - هو الغاية من إرسال الله تعالى الرسل إلى الناس، قال شعيب عليه السلام لقومه الغارقين فى الضلال والفساد فى العقيدة والسلوك: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وقد اضطلع بمهمة الإصلاح لشئون البشر - بعد مصلح الإنسانية الأعظم محمد - صلوات الله عليه وسلامه - وسار على منهاج النبوة خلفاؤه الراشدون، وعلماء الأمة الأبرار كعمر بن عبد العزيز، والأمة الآن فى أشد الحاجة لمعرفة هدى المصلحين ابتداء من النبى الكريم ﷺ، فقد أصابها التخلف والتيه والتفرق والضعف والاستكانة.

إن فقه حركة التاريخ الإسلامى يرشدنا إلى أن عوامل النهوض وأسباب النصر كثيرة منها صفاء العقيدة، ووضوح المنهج، وتحكيم شرع الله فى الدولة، ووجود القيادة الربانية التى تنظر بنور الله وقدرتها فى التعامل مع سنن الله فى تربية الأمم وبناء الدول وسقوطها، ومعرفة علل المجتمعات وأطوار الأمم، وأسرار التاريخ، ومخططات الأعداء من الصليبيين واليهود والملاحدة والفرق الباطنية، والمبتدعة وإعطاء كل عامل حقه الطبيعى فى التعامل معه، فقضايا فقه النهوض، والمشاريع النهضوية البعيدة المدى متداخلة متشابكة لا يستطيع استيعابها إلا من فهم كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، وارتبط بالفقه الراشدى المحفوظ عن سلفنا العظيم، فعلم معالمه وخصائصه وأسباب وجوده وعوامل زواله واستفاد من التاريخ الإسلامى وتجارب النهوض، فأيقن بأن هذه الأمة ما فقدت الصدارة قط وهى وفية لربها ونبيها ﷺ، وعلم بأن الهزائم العسكرية عرض يزول، أما الهزائم الثقافية فجرح مميت، والثقافة الصحيحة تبنى الإنسان المسلم، والأسرة المسلمة، والمجتمع المسلم، والدولة المسلمة، على قواعدها المتينة من كتاب الله وسنة رسوله، وهدى الخلفاء الراشدين، ومن سار على نهجهم، وعبقرية البناء الحضارى الصحيح هى التى أبقت صرح الإسلام إلى يومنا هذا بعد توفيق الله وحفظه.

إن سيرة عمر بن عبد العزيز تمدنا بالمفهوم الصحيح لكلمة الإصلاح؛ المفهوم القرآنى الأصيل الذى فهمه علماؤنا المصلحون فهمًا صحيحًا وطبّقوه تطبيقًا سليمًا، لا المفهوم الغربى الحديث الذى تسرَّب إلى أذهان بعض المفكرين السياسيين المقلدين للغرب فى حقّه وباطله حتى أصبح من المسلم به عند كثير من أبنائنا اليوم أن الثورة أعمّ وأشمل وأعمق من الإصلاح الذى يرادف فى الغرب معنى التغيير الخفيف الذى يحدث بتدرج ودون عنف، بينما الثورة هى عندهم انقلاب جذرى دون تدرّج، عنيف ومفاجىء، وما دروا أن الإصلاح بالمفهوم القرآنى الصحيح له معنى أشمل وأعمّ وأكبر من الثورة، فهو دائمًا نحو الأحسن والأكمل، بينما الثورة قد تكون من الصالح إلى الفاسد أصلاً، ويتم ذلك بتغيير سلطة بسلطة وحاكم بحاكم[١].

إن عمر بن عبد العزيز نموذج إصلاحى لمن يريد السير على منهاج النبوة وعهد الخلافة الراشدة، ولقد أخلص لله تعالى فى مشروعه الإصلاحى، فتولى الله توفيقه وأطلق ألسنة الناس بمدحه والثناء عليه، قال الشاعر أحمد رفيق المهدوى الليبى:

فإذا أحب الله باطن عبده ... ظهرت عليه مواهب الفتاح

وإذا صفت لله نية مصلح ... مال العباد عليه بالأرواح

هذا؛ وقد تحدثت عن عهد يزيد بن عبد الملك وهشام، وعهد الوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد، وأشرت إلى أهم أعمال يزيد وهشام واعتبرت وفاة هشام بداية الانحدار والضعف للدولة الأموية، وتعرضت للدعوة العباسية وجذورها التاريخية ومشروعها الذى قدمته لأتباعها فى المرحلة السرية والعلنية، وتكلمت عن قيادتها، وهيكلها التنظيمى والبعد التخطيطى وقراءة الواقع عند زعمائها، وفقهها الحركى المستمد من ابن عباس، ومتى أعلنت الثورة العباسية، وتحدثت عن الخليفة الأموى الأخير مروان بن محمد وجهوده فى القضاء على الثورات التى اندلعت فى عهده، وعن انتصار العباسيين على الأمويين فى معركة الزاب، وأفردت مبحثًا لأسباب سقوط الدولة الأموية وناقشتها من خلال سنن الله فى حركة المجتمعات وبناء الدول وسقوطها، ومن الأسباب التى ذكرتها: الثورة المضادة على حركة عمر بن عبد العزيز الإصلاحية، والظلم والترف

(١) آثار الإمام محمد بشير الإبراهيمى (٢/٦) .

والانغماس فى الشهوات، ونظام ولاية العهـد، وتعطيل خيار الشورى، والثورات ضد النظام الأموى كثورة الحسـين بن على رضى الله عنه، وثورة زيد بن على بن الحسين، وثورات الخوارج المستمرة، ومن الأسـباب التى ذكرتها: العـصبيـة، والموالى، وفشل الأمويين فى إيجاد تيـار حضارى، والنزاع الداخلى بين الأسرة الحاكـمة، وفشلهم فى آخر عهدهم فى تكوين جيش نظامى مرتبط بالدولة وموالٍ لها، ومدافع عن شرعيتها، وأشرت إلى أسباب فشل مروان فى إنقاذ الخلافة الأمـوية، فذكرت عدم شرعيته ونقله لعاصمـة الدولة إلى حرّان، وعدم قدرته على تنظيم حكـومة مركزية قوية، واحـتقاره للخصوم فى خراسان، والاستبـداد بالرأى، وإبعاد الأولياء وتقريب الأعداء، ولم يلجأ إلى المال والسيـاسة فى تفتيت الخـصوم، وشؤم بدعـة الجهميـة على الدولة، وانحلال الضبط، وتجـاوز الاحتياط وضـعف الثقة بينه وبين رجـاله وبغض الناس له، وخذلان أهل الشام له فى معـركة الزاب، وتكلمت عن الدعوة العبـاسية وكيف اسـتفادت من تلك الأسباب. وفى نهاية الكتاب قمت بدراسة علمية لبعض الكتب التى ساهمت فى تشويه تاريخ صدر الإسلام كـالإمامة والسياسة المنسوب زورًا لابن قتـيبة، وكتاب نهج البلاغة، وكتاب الأغانى للأصفهـانى، وتاريخ اليعقوبى، ومروج الذهب للمسعودى، وحذرت من بعض المـستشـرقين الذين عمـلوا على تشويه التاريـخ الإسلامى وطمس حقائقه الناصعة ثم خاتمة الكتاب.

إن تاريخ الدولة الأمـوية تعرض لهجـمة شـرسة من قبل خـصومـه وأعدائه، وحاولوا طمـس كل ما لهم من فضـائل وإيجابيـات وتوسعـوا فى ذكر السلبـيات وافتـرى عليهم الكذب، فنسب لهم مـا لم يكن منهم، ويعود ذلك إلى أن كـتابة التاريخ إنما كـانت فى عهد خصـومهم السياسـيين من بنى العباس هذا مـن جهة، ومن جهة ثانية، فـإن هذه الكتابة كانت بأيدٍ شيعية حـاقدة لا تعرف الإنصاف ولا العدل ولا تتكلم بعلم ولا معرفة. وقد تحدث الدكتور حمدى شاهين فى كتابه عن الدولة الأموية المفتـرى عليها عن أسباب تزوير التـاريخ الأموى، ومناهج المؤرخين فى كتـابتهـا، فمن أراد التوسع فليـرجع إليه. وأمـا عن منهجى فى كـتابة الدولة الأموية فـقد التـزمت بمنهج أهل السنة والجمـاعة فى النقد والحكـم على الآخرين والذى من قواعده، الخوف من الله عز وجل عند الكلام فى الآخرين، وتقديم حسن الظن بالمسلم، والكـلام فى الناس يجب أن يكون بعلم وإنصـاف لا بجـهل وظلم،

كحال أهل البدع، والعدل فى وصف الآخرين والعبرة بكثرة الفضائل، والنظر فى حال الجارح، والتثبت من الأخبار، وغير ذلك من القواعد المعروفة عند أهل السنة، وقد تركت الحديث عن الدولة الأموية بالمغرب لقناعتى بأن دولة عبد الرحمن الداخل لها علاقة أصيلة بتاريخ الأندلس وتعتبر جزءًا من تاريخها لا يمكن فصله.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الثلاثاء الساعة الخامسة وثمان دقائق بعد صلاة العصر بتاريخ ٢من ربيع الآخر/١٤٢٦هـ الموافق ١٠/٥/٢٠٠٥م.

والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عملى لوجهه خالصًا ولعباده نافعًا، وأن يثيبنى على كل حرف كتبته، ويجعله فى ميزان حسناتى، وأن يثيب إخوانى الذين ساهموا فى إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[فاطر: ٢]. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

على محمد محمد الصَّلاَّبى

الأخوة القرّاء الكرام، يسر المؤلف أن تصله ملاحظاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبه من خلال دور النشر، ويطلب من إخوانه الدعاء بظهر الغيب بالإخلاص والصواب ومواصلة المسيرة فى خدمة تاريخ أمتنا.

عنوان المؤلف

E_mail : abumohamed2@maktoob.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الجذور التاريخية للأسرة الأموية :

ينتسب الأمويون إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وفى عبد مناف يلتقى بنو أمية مع بنى هاشم، وكان بنو عبد مناف يتمتعون بمركز الزعامة فى مكة، لا يناهضهم فيه أحد من بطون قريش.. وجميع قريش تعرف ذلك وتسلم لهم الرياسة عليها[١]

أولاً : شهادة التاريخ بين الهاشميين والأمويين :

كان بنو عبد مناف بن قصى وحدة واحدة فى محاولتهم اقتسام السلطة فى مكة مع بنى عمهم عبد الدار بن قصى، الذى فضله والده على سائر أبنائه، رغم شرفهم عليه، وجعل له الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، وكان زعيمهم فى هذه المحاولة هو عبد شمس، أبو أمية، إذ كان أس بنى عبد مناف، وتفرقت قريش على ذلك بين فريقين، عبد مناف وعبد الدار، ثم تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار، فولى الرفادة والسقاية هاشم بن عبد مناف، وذلك أن عبد شمس كان رجلاً سفارًا، قلما يقيم بمكة، وكان مقلاً ذا ولد، وكان هاشم موسرًا[٢].. وهكذا كانت السلطة فى مكة عبارة عن مراكز نفوذ تقررها الأهمية الاقتصادية، دون أن يكون لأسرة ما أو زعيم ما السيادة الكاملة على غرار ما كان لقصى زعيم قريش الأول[٣].. وكذلك اشترك بنو عبد مناف معًا فى جهودهم لتنظيم التجارة بين مكة وما حولها[٤]، وهكذا كانوا يدًا واحدة تتحرك فى تفاهم وتآلف، فلما ماتوا رثاهم الشعراء معًا، دون تفريق بينهم، تمامًا كما كانوا يمتدحونهم معًا[٥]، وهكذا تقتضى

٩

(١) النجوم العوالى للعصامى (٣/ ٢) . (٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٣٧، ١٣٨، ١٤١) .
(٣) الحجاز والدولة الإسلامية، ص (٨٧). (٤) تاريخ الطبرى (٢/ ٢٥٢) .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٤٤ ـ ١٤٨)

طبيعة الحياة العربية فى الجـاهلية أن يتناصر أبناء الأب الواحد، وأن تجتمع كلمتهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلا[١]، وأما الروايات التى تزعم وجود عداء مستحكم بين بنى هاشم وبنى عبد شـمس وأمية قبل الإسلام، فهى واهيـة الأسانيد، لا تثبت، فهى تروى أن هاشمًا وعبد شمس ولدا ملتصقين ففصل بينهما بالسيف، فكان بين أبنائهما الدماء لأجل ذلك[٢]، فهذه رواية لقيطة ليس لهـا راو، تفوح منها رائحة الأسطورة والخيال، ويكذبها ما رواه ابن اسـحاق من أن عبد شمس كان أسن بنى عبد مناف[٣]. والروايات التى تروى أن منافرات حدثت بين هاشم وأمـية بن عبد شمس، وبين عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية[٤]، وكلتا الروايتين ترويان عن هشام الكلبى وهو راوية شـيعى كذاب يرويهـما كلتيهـما عن رجال مجـهولين لا يُعرف أسماؤهم[٥]، إذ إن هذه الروايات كما يبدو واضحًا من سندها المعتل ومتنها المصطنع كانت صدى لما حدث فيما بعد من صراع بين بنى أمية وبنى هاشم حاول الرواة أن يجعلوا له سندًا تاريخيًا ثابتًا، وتظل حقيقة العلاقة الطيبة بين الفريقين لا شك فيها[٦]، ولذلك يقول ابن خلدون : كان لبنى عبد مناف فى قريش جمل من العدة والشرف لا يـناهضهم فيها أحـد من سائر بطون قريش، وكان فـخذاهم بنو أمية وبنو هاشم هما جميعًا يتمون لعبد مناف، وينتسبون إليه، وقريش تعرف ذلك وتسأل لهم الرياسة عليـهم، إلا أن بنى أمية كانوا أكثـر عددًا من بنى هاشم وأوفر رجالاً، والعزة إنما هى بالكثرة، قال الشاعر: وإنما العزة للكاثر[٧]..

ولعل مـا يشير إلـيه ابن خلدون من تفـوق بنى أميـة قد اتضح قـبيل مـبعث الرسول ﷺ لما مـات عبـد المطلب بن هاشم الذى ورث شرف أبيـه وبرز نجم أبى سفيان بن حـرب، فذلك ما يبدو من هذا الوصف الدقيق لطبيـعة العلاقة بين بين بنى أميـة وبنى هاشم على لسان مـعاوية بن أبى سـفيان رضى الله عـنه لما سُئل: أيكم كان أشرف أنتم أم بنو هاشم؟ فـأجاب: كنا أكثر أشرافـًا وكانوا هم أشرف، وكان فيهم عبد المطلب ولم يكن فينا مثله، فلما صرنا أكثر عددًا وأكثر أشرافًا، ولم

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٢٢).
(٢) النزاع والتخاصم للمقريزى، ص (١٨١).
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٣٧).
(٤) النزاع والتخاصم، ص (١٨١)، الدولة الأموية، شاهين، ص (١٢٢).
(٥) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١١٢).
(٦) المصدر نفسه، ص (١٢٣).
(٧) تاريخ ابن خلدون (٣/ ٢).

يكن فيهم واحد كواحدنا، فلم يكن إلا كقرار العين حتى قالوا: منا نبى، فجاء نبى لم يسمع الأولون والآخرون بمثله، محمد ﷺ، فمن يدرك هذه الفضيلة وهذا الشرف؟[1]. إن كل ذلك لا ينفى احتمال وجود نوع من التنافس بين الجانبين قبل الإسلام، فى ضوء ما نعرف من طبيعة الحياة العربية فى مكة قبل الإسلام، ولكنه تنافس يحدث بين الإخوة أحيانًا، وبين أبناء الأب الواحد، غير أنه لم يتطور ليصبح تربصًا وعداء كما يزعم المتزيدون[2]، ولدينا من شواهد التاريخ ما يدل على قوة العلاقة بين بنى هاشم وبنى أمية، فقد كان عبد المطلب بن هاشم - زعيم الهاشميين فى عصره - صديقًا لحرب بن أمية -، زعيم الأمويين - كما كان العباس بن عبد المطلب بن هاشم صديقًا حميمًا لأبى سفيان بن حرب بن أمية، وفى قصة إسلام أبى سفيان عند فتح مكة، ودور العباس فيها أكبر دليل على ذلك، كما سنبينها فى الصفحات القادمة بإذن الله، والغريب أن المقريزى الذى ألف كتابًا خاصًا عن علاقات الهاشميين والأمويين وجعل محوره النزاع والتخاصم ، يعترف بالصداقة الوطيدة التى كانت بين العباس وأبى سفيان[3]، فإذا كانت الصداقة الوطيدة قائمة، ووطيدة بين زعماء البيتين - الأموى والهاشمى - وهما أبناء أب واحد، وهو عبد مناف بن قصى، فإن الحدس بتأصيل النزاع بينهما بعد الإسلام والرجوع به إلى ما قبل الإسلام لا سند له من تاريخ[4].

إن الكتاب المنسوب للمقريزى «النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم» لا يمكن أن يتصور عاقل أن يد المقريزى قد خطت حرفًا واحدًا من هذا الكتاب. لأن المقريزى لا يمكن أن ينزل إلى هذا الدرك من إلغاء العقل، والجهل بالأحكام، فمؤلف هذا الكتاب ألفه صاحبه فى عصر الانحدار الطائفى، والتهافت العاطفى، وتخلى فيه عن صفة المؤرخ، وبعد عن سجية العلماء، حيث جعل هذا الكتاب متنفسًا عن بغضاء مكتومة، وحقد دفين، جعلها أساسًا لحكمه وشعارًا لكتابه[5]، ويرى الدكتور إبراهيم شعوط أن الكتاب منسوب للمقريزى[6]، والذى يهمنا أن ما قرّره صاحب الكتاب من أن العداوة مستحكمة بين بنى أمية وهاشم وأنها قديمة لا

---

(١) البداية والنهاية (١٣٨/٨) .
(٢) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٢٣).
(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢).
(٤) المصدر نفسه، ص (٥).
(٥) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، ص (٢٠٩).
(٦) المصدر نفسه، ص (٢١٣).

يثبت هذا الادعاء أمام البحث العلمى النزيه، إن الذين ينظرون إلى تاريخ بنى أمية من خلال موقف أبى سفيان من الإسلام فى مكة، ومن خلال ما دار بين على ومعاوية رضى الله عنهما من حروب يبنون على ذلك -كما فعل العقاد- أوهامًا من صراع تاريخى قبل الإسلام وبعده بين بنى هاشم وبنى أمية، وتلك أوهام ليس لها من التاريخ إلا رواية ملفقة أو أحداث عارضة لا تمثل قط صراعًا بين هذين الفرعين الكريمين من بنى عبد مناف، وهما ذروة الشرف فى قريش[1]، والذى يظهره البحث العلمى النزيه، وبعد ترك الروايات والأساطير الساقطة يتضح أن العلاقة بين البطنين كانت طبيعية مثلها مثل العلاقة بين باقى بطون قريش.

ثانيًا: موقف بنى أمية من الدعوة الإسلامية :

لقد كان تعامل الأمويين مع الدعوة الناشئة هو نفس تعامل بقية بطون قريش للدعوة الجديدة من أمثال بنى مخزوم وبنى هاشم وغيرهم، ولنأخذ على ذلك مثالاً وهو كيفية تعامل بنى هاشم رهط النبى ﷺ وأقرب بطون قريش إليه مع الدعوة، فإن منطق العصبية السائد فى الجاهلية يقتضى أن يتلقف بنو هاشم الدعوة الجديدة التى تحقق لهم العزة والشرف بالإيمان والنصرة وأن يقفوا خلف النبى الهاشمى بالتأييد والبذل، وقد وقفوا إلى جواره فعلاً فى بعض المواقف ولعل أشهرها حصار الكافرين لهم فى شعب بنى هاشم، ولكنهم فى النظرة الشاملة انقسموا عليه بين مؤيد ومعارض، ومؤمن وكافر، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من قبائل مكة، والمثال المشهور لكفار بنى هاشم هو أبو لهب عم النبى ﷺ الذى كان أول من جهر بعداوة الإسلام لما جهر الرسول بدعوته، ولم يكتف بالمعارضة الصريحة بل عضدها بالعمل والكيد، فقد مارس صورًا شتى من تعذيب الرسول ﷺ وصد الناس[2] عنه، وكانت معه زوجته أم جميل بنت حرب الأموية، وابناه عتبة وعتيبة اللذان طلقا بنتى النبى ﷺ رقية وأم كلثوم ليشغلا محمدًا[3] ببنتيه، وكان ابنه عتبة يشارك فى إيذاء النبى ﷺ حتى دعا عليه فنهشه أسد فى بعض أسفاره[4]، بل إن أبا لهب لم يدخل مع قومه شعب بنى

---

(١) المناهج الإسلامية لدراسة التاريخ، د. محمد رشاد خليل، ص (٢٤).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٤، ٦٥)، والسيرة للصلابى (١/ ٤ - ٤).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢١٩)، الدولة الأموية، شاهين، ص (١٢٥).

(٤) أنساب الأشراف (١/ ١٣٠، ١٣١).

هاشم لما حاصرتهم قريش[١] فيه، ولما لم يستطع الخروج مع قريش لقتال الرسول يوم بدر استأجـر بدلاً منه العاص بن هشام بن المغـيرة بأربعة آلاف درهم[٢]، وقد كان أبو لهب في كفره وعناده مثالاً مشـهوراً ولكنه لم يكن الهاشمى الوحيد الذى كفر بالنبى ﷺ وجهد فى إيذائه وحربه، فـقد كان فى أسرى المشركين يوم بدر من بنى هاشم العـبـاس بن عبـد المطلب وعـقـيل بن أبى طالب ونوفل بن الحـارث، وحليفهم عتبة بن عمرو بن جحدم، وقد قبل الرسول ﷺ فداءهم فيمن افتدى من أسرى قريش[٣]، وكان أبو سفـيان بن الحارث بن عبد المطلب ممن شهـد قتال يوم بدر مع المشـركين ونجـا من القتل والأسـر[٤]، وهو ابن عم النبى ﷺ وأخوه من الرضاعة ـ أرضعتهما حليـمة السعدية أيامًا ـ وكان يألف رسول الله وكان له تربًا، فلما بعث رسول الله عاداه عـداوة لم يعادها أحد قط، ولم يدخل الشعب مع بنى هاشم وهجا رسول الله وأصحابه، وكان من المجاهرين بالظلم له ﷺ، ولكل من آمن به قبل الهجرة[٥].

إن أعظم النصرة والتأيـد لقيهما النبى ﷺ من عـمه أبى طالب الذى تحمل فى سبيل ذلك ضغوطًا هائلة من قريش، ولكنه ظل حتى اللحظات الأخيرة من حياته وفيًـا لدين آبائه، فمات عـلى ملة الأشياخ من قـومه[٦]، وظل العبـاس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ الآخـر فى مكة، واشتـرك مكرهًا ضده فى غـزوة بدر وأسر بها، ولكنه لم يهـاجر إلى المدينة ويعلن إسلامه إلا والرسول ﷺ فـى طريقه لفتح مكة[٧]، وقد أسلم فى مكة نفر من بنى هاشم وبذلوا فى سبـيل الدعوة الكثير مثل على بن أبى طالب وحـمزة بن عـبد المطلب، وجـعفـر بن أبى طالب وغيـرهم، ولكنهم كـانوا يشـاركون غـيرهم من غـيـر بنى هاشم فى ذلك كـأبى بكر وعمـر وعثمان، ولم يكن بذلهم لأنهم هاشميـون بل لأنهم مسلمون، ويظل إيمانهم دليلاً على صدق القـول باختـلاف استجـابة الأفراد للدعـوة الإسلاميـة بغض النظر عن انتماءاتهم الـقبلية[٨]، وبالنسبـة لبنى أمية وموقـفهم من الإسلام فإن مـؤرخينا لا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٣٩).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٨٣)
(٣) تاريخ الطبرى (٢/ ٤٦٥، ٤٦٦).
(٤) المصدر السابق (٢/ ٤٦٢).
(٥) فى اختصار المغازى والسير ، لابن عبد البر، ص (٤٤).
(٦) زاد المعاد (٢/ ٤٦)، السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٥٦).
(٧) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٢) .
(٨) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٢٧).

يتحدثون عنهم كبطن مستقل من بطون قريش، وإنما يتحدثون عنهم مع غيرهم من بنى عبد شمس والد أمية، فيعدونهم وحدة واحدة[1]، وقد كانوا أبناء أب واحد وتربطهم علاقات التصاهر والترابط الاجتماعى، ولذلك فإنهم عند حديثهم عن عداء بنى أمية للرسول يذكرون اسمى عتيبة وشيبة ابنى ربيعة بن عبد شمس، رغم أنهما ليسا من بنى أمية. . ويذكرون معهما أيضًا أبا سفيان بن حرب وعقبة بن أبى معيط، فأما عقبة بن أبى معيط هذا فقد كان من مردة قريش، فقد تفل فى وجه رسول الله ﷺ، وأنه رمى عليه ﷺ سلا جزور وهو يصلى، وأنه خنقه بثوب فى عنقه حتى دفعه أبو بكر الصديق[2]، وقد نال جزاءه لما أمر النبى ﷺ بقتله بعد أسره يوم بدر، والغريب أنه كان يذكره بما بينهما من رحم[3]، ومثل هذه النماذج الطائشة لم ينفرد بها بنو أمية أو عبد شمس فى مكة آنذاك[4]،وأما معارضة عتبة وشيبة ابنى ربيعة فمعلومة ومشهورة، ومع هذا لما هاجر الرسول ﷺ إلى الطائف وصده عنها أهلها وتبعه الصبيان والغلمان يرمونه ويصيحون به لجأ إلى حائط ابنى ربيعة عتبة وشيبة، فلما رأياه على هذا الحال تحركت له رحمهما، فدعوا غلامًا نصرانيًا يقال له: عداس، فقالا له: خذ قطعًا من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق ثم اذهب إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه[5].

ثالثًا: أمويون مسلمون منذ بداية الدعوة الإسلامية:

وإذا جارينا نهج المؤرخين فى الحديث عن بنى أمية وبنى عبد شمس معًا، فإننا نرى منهم جماعة كانوا من السابقين إلى الإسلام، فمنذ المرحلة السرية للدعوة وقبل الجهر بها كان قد أسلم كل من عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية، وكان إسلامه على يد أبى بكر الصديق فى أيام الإسلام الأولى[6]، وكذلك كان إسلام خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، وقد أسلم فى هذه المرحلة السرية -التى دامت حوالى ثلاث سنين[7]- أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس[8]، كما أسلم فى مرحلة مبكرة حليفان لبنى أمية وهما عبد الله بن جحش بن رئاب وأخوه

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧٠، ٧١).
(٢) البخارى ، رقم (٣٦٨٧، ٣٨٥٦).
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢١٢).
(٤) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٢٧).
(٥) السيرة النبوية (١/ ٢٩٢، ٢٩٣).
(٦) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٦٠).
(٧) تاريخ الطبرى (٢/ ٣١٨).
(٨) السيرة النبوية لابن هشام(١/ ٢٦٣).

أبو أحمد بن جحش وهما ابنا عمة النبى ﷺ فأمهما أميمة بنت عبد المطلب[1]، وفى الهجرة الأولى إلى الحبشة شارك نفر من مسلمى بنى أمية مثل عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وزوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو[2]، كما كان لبنى أمية مشاركة فى الهجرة الثانية ومعهم بعض حلفائهم، وقد ذكر الدكتور حمدى شاهين قائمة طويلة بأسمائهم، مما يؤكد استجابة بعض بنى أمية للإسلام منذ بداية الدعوة[3]، وقد ساهمت نساء بنى أمية وعبد شمس فى صنع مسيرة الإسلام وفى إعطاء الأسوة وضرب المثل فى نبل التضحية وعزيز العطاء، فقد أسلمت رملة بنت شيبة بن ربيعة زوجة عثمان بن عفان، وهاجرت معه إلى المدينة، وثبتت معه على دينه رغم مقتل أبيها وعمها وابنه فى بدر مما أهاج عليها غضب هند بنت عتبة فقالت تعيبها:

لحى الرحمن صابئة بوج	ومكة أو بأطراف الحجون
تدين لمعشر قتلوا أباها	أقتل أبيك جاءك باليقين[4]

وهاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط إلى المدينة فى الهدنة التى كانت بين النبى والمشركين فى الحديبية على أن الصورة الأزهى والنموذج الأرقى فى ذلك المجال هو إسلام أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان، فقد أسلمت مبكراً[5]، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة، وسيأتى الحديث عنها بإذن الله تعالى.

رابعًا: المصاهرات بين بنى هاشم وبنى أمية:

لم يكن بين بنى هاشم وبنى أمية من المباغضة والعداوة والمنافرة التى اخترعها وابتكرها أعداء الإسلام والمسلمين ونسجوا الأساطير والقصص حولها، فالحقيقة التاريخية تقول بأن علاقتهم كانت علاقة أبناء العمومة والإخوان والخلان، فهم من أقرب الناس فيما بينهم، يتبادلون الحب والتقدير، والاحترام، ويتقاسمون الهموم والآلام والأحزان، فبنو أمية وبنو هاشم كلهم أبناء أب واحد، وأحفاد جد واحد،

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٦٢).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٣١٥).
(٣) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٣١).
(٤) نسب قريش، ص (١٠٤، ١٠٥).
(٥) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢٠٩).

وأغصان شجرة واحدة قبل الإسلام وبعد الإسلام، وكلهم استقوا من عين واحدة ومنبع صاف واحد، وأخذوا الثمار من دين الله الحنيف الذى جاء به رسول الله الصادق الأمين، المعلم، المربى، خاتم الأنبياء والمرسلين، ولقد كان بين أبى سفيان وبين العباس صداقة يضرب بها الأمثال[1]، كما كانت بينهم المصاهرات قبل الإسلام وبعده، وكان على رأسهم رسول الله ﷺ الذى زوّج ثلاثًا من بناته الأربع من بنى أمية، وهذه نماذج من المصاهرات بينهم:

أ ـ عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية، فقد تزوج رقية بنت رسول الله ﷺ ثم بعد وفاتها تزوج أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ .

ب ـ أبو العاص بن الربيع وهو من بنى أمية، فقد تزوج زينب بنت رسول الله ﷺ، وولدت زينب له ابنة وهى أمامة، وتزوجها على بن أبى طالب رضى الله عنه بعد وفاة فاطمة الزهراء[2].

جـ ـ خديجة بن على بن أبى طالب، تزوجها عبد الرحمن بن عامر بن كريز الأموى[3].

د ـ رملة بنت على بن أبى طالب، تزوجها معاوية بن مروان بن الحكم[4].

هـ ـ زينب بنت الحسن المثنى بن الحسن بن على بن أبى طالب تزوجها الوليد بن عبد الملك بن مروان[5].

و ـ فاطمة بنت الحسين بن على بن أبى طالب ، تزوجها عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان[6]، وقد اكتفيت ببيان بعض منها، وفيها كفاية لمن أراد الحق والتبصر[7].

---

(١) الشيعة وأهل البيت، ص (١٤١).

(٢) الأسماء والمصاهرات بين أهل البيت والصحابة ، لأبى معاذ السيد بن أحمد الإسماعيلى، ص (٢٢).

(٣) المصدر نفسه، ص (٢٣).

(٤) نسب قريش، ص (٤٥)، جمهرة أنساب العرب، ص (٨٧) .

(٥) نسب قريش، ص (٥٢)، الأسماء والمصاهرات بين أهل البيت والصحابة، ص (٢٢).

(٦) الأسماء والمصاهرات بين أهل البيت والصحابة، ص (٢٥).

(٧) الشيعة وأهل البيت، ص (٢٢٤).



الفصل الأول

معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه

من مولده حتى نهاية عهد الخلافة الراشدة

المبحث الأول

اسمه ونسبه وكنيته وأسرته

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته ومولده:

هو معاوية بن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب أمير المؤمنين ملك الإسلام، أبو عبد الرحمن، القرشى الأموىُ المكى[1]، ولد قبل البعثة بخمس سنين، وقيل بسبع، وقيل: بثلاث عشرة، والأول أشهر[2]، وكان رجلاً طويلاً، أبيض، جميلاً، مهيبًا، وقد تفرس فيه والده ووالدته منذ الطفولة بمستقبل كبير، فهذا أبو سفيان ينظر إليه وهو يحبو فيقول لوالدته: إن ابنى هذا لعظيم الرأس، وإنه لخليق أن يسود قومه، فقالت هند: قومه فقط، ثكلتُه إن لم يسد العرب قاطبة[3]، وعن أبان بن عثمان قال: كان معاوية يمشى مع أمه هند، فعثر، فقالت: قم لا رفعك الله، وأعرابى ينظر، فقال: لمَ تقولين له؟ فوالله إنى لأظنه سيسود قومه، قالت: لا رفعه الله إن لم يسد إلا قومه[4].

ثانيًا: إسلام أبى سفيان والد معاوية رضى الله عنهما:

كان أبو سفيان من عتاة الجاهلية الذين حاربوا الإسلام . . وكتب السيرة النبوية وصفت أعماله ضد الدعوة الإسلامية إلا أن الله تعالى أراد الهداية له، فأسلم قبل فتح مكة بقليل، وقد أكرمه رسول الله ﷺ فى فتح مكة وأعلن: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن»[5]، وفى هذا الإكرام النبوى الشريف لأبى سفيان لفتة تربوية، ففى تخصيصه ﷺ بيت أبى سفيان شىء يشبع ما تتطلع إليه نفس أبى سفيان، وفى هذا تثبيت له على الإسلام وتقوية لإيمانه[6]، وكان هذا الأسلوب النبوى

---

(1) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٠).
(2) الإصابة (٦/ ١٥١) .
(3) البداية والنهاية (١١/ ٣٩٨).
(4) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢١) .
(5) البخارى رقم (٤٢٨٠).
(6) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٣) .

الكريم عاملاً على امتصاص الحقد من قلب أبى سفيان، وبرهن له بأنَّ المكانة التى كانت له عند قريش لن تنتقص شيئًا فى الإسلام، إن هو أخلص له، وبذل فى سبيله[1]، وهذا منهج نبوى كريم، على العلماء والدّعاة إلى الله أن يستوعبوه، ويعملوا به فى تعاملهم مع الناس[2]. وقد حسن إسلام أبى سفيان وشاهد المواقع وقدم خدمات جليلة للإسلام، فقد كان مع رسول الله ﷺ فى حنين، وشارك فى حصار الطائف وفقد إحدى عينيه فيها، وفى اليرموك فقد الثانية[3]، وبعد ثقيف أرسله رسول الله ﷺ مع المغيرة بن شعبة لهدم اللات[4]- صنم ثقيف- وقد كانت اللات معظمة عند قريش كذلك، وكانوا يحلفون بها، وهذا دليل على تغلغل الإيمان فى قلب أبى سفيان رضى الله عنه، لقد أسلم أبو سفيان إذن بعد أن ظل حبه للرياسة وممارسته لها حائلاً بينه وبين الإسلام. وقد راعى رسول الله ﷺ هذه العوامل النفسية المؤثرة على نفس أبى سفيان ونفوس علية القوم من قريش بعد الفتح، فقد جعل من دخل دار أبى سفيان آمنًا، كما أعطاه من غنائم حنين مع غيره ممن سموا آنذاك بالمؤلفة قلوبهم[5].

ولم ينس أبو سفيان ما فعله ضد الإسلام أيام الجاهلية، وحرص على مضاعفة جهده فى خدمة الإسلام، وقال عنه ابن كثير: من سادات قريش فى الجاهلية، وتفرّد فيهم بالسؤدد بعد يوم بدر، ثم لما أسلم حسن بعد ذلك إسلامه، وكانت له مواقف شريفة، وآثار محمودة فى اليرموك وما قبله وما بعده[6].

وروى عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا صوت رجل واحد يقول: يا نصر الله اقترب، والمسلمون يقتتلون هم والروم، فذهبت أنظر فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد[7]، وروى أنه كان يوم اليرموك يقف على الكراديس: فيقول الناس: الله الله إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهمَّ هذا يوم من أيامك، اللهمَّ أنزل نصرك على عبادك[8]، وقيل: مات سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث أو أربع وثلاثين[9]،

---

(١) قراءة سياسة للسيرة النبوية لمحمَّد رواس، ص (٢٤٥).
(٢) السيرة النبوية للصلاّبى (٢/٤٩٧).
(٣) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢٠٣).
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٤/١٩٥).
(٥) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٤٢).
(٦) البداية والنهاية (١١/٣٩٧).
(٧) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢٠٣).
(٨)، (٩) المصدر نفسه، ص (٢٠٣).

وصلى عليه ابنه معاوية، وقيل: بل صلى عليه عثمان، وله ثلاث وثمانون، وقيل: كان له بضع وتسعون سنة[١].

ثالثًا: هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية رضى الله عنهما:

هى أم معاوية، أسلمت يوم الفتح، بعد إسلام زوجها أبى سفيان، فأقاما على نكاحهما، ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرِّجال، بايع النساء -وفيهنّ هند بنت عتبة وكانت متنكرة، خوفًا من رسول الله ﷺ أن يعرفها، لما صنعت بحمزة - على ألا يشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن، وأرجلهن، ولا يعصين فى معروف، ولما قال النبى ﷺ: ولا يسرقن، قالت هند: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى، ويكفى بنىَّ، فهل علىَّ من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها ﷺ: خذى من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف، ولما قال: ولا يزنين، قالت هند: وهل تزنى الحرّة؟ ولما عرفها رسول الله ﷺ قال لها: وإنك لهند بنت عتبة؟ قالت: نعم، فاعف عمّا سلف عفا الله عنك. وقد بايعن رسول الله ﷺ من غير مصافحة، فقد كان لا يصافح النساء، ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلّها الله له، أو ذات محرم منه، وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها: أنها قالت: لا والله! ما مست يد رسول الله يد امرأة قط[٢]. وروى ابن سعد بسنده عن عبد الله بن الزبير إنه لما بايعت هند تكلمت فقالت: يا رسول الله، الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه، لتنفعنى رحمك يا محمد، إننى امرأة مؤمنة بالله، مصدقة برسوله، ثم كشفت عن نقابها وقالت: أنا هند بنت عتبة، فقال رسول الله ﷺ: مرحبًا بك. فقالت: والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب إلى أن يذلوا من أهل خبائك ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض من أهل خباءٍ أحب إلىَّ أن يُعزوا من أهل خِبائك، قال: - وأيضًا والذى نفسى بيده -. قالت: يا رسول الله، إنَّ أبا سفيان رجل ممسك، فهل علىَّ حرج أن أُطعم من الذى له عِيالنا، قال: لا أراه إلا بالمعروف[٣]. ولما أسلمت هند وبايعت عادت إلى

---

(١) االتبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢٠٤).
(٢) البخارى رقم (٥٢٨٨) مسلم رقم (١٨٦٦).
(٣) الطبقات الكبرى (٨/١٧٢)، البخارى رقم (٣٨٢٥).

بيتـها فجـعلت تكسر صنمًـا كان عندها حتى فلذته فلذة وهى تـقول: كنت منك فى غرور[1]، ولما رأت المسلمـين ببيت الله الحـرام قالت: والله مـا رأيت الله عُبـد حق عبادته فى هذا المسجد قبل الليلة، والله إن باتوا إلا مصلين قيامًا وركوعًا وسجودًا[2].

وكان لهند فى جاهليـتها موقف مع زينب بنت المصطفى ﷺ، فـقد كانت بمكة مع زوجها أبى العاص بن الربيع وأرسل النـبى ﷺ من يأتيه بها إلى المدينة، وكان ذلك بعد «بدر» ولم تجف دماء قريش بعد، وكانت «هند» قد أصيبت بأبيها وأخيها وعمها، وكانت تطوف على مجـالس قريش وأنديتها تُذكى نار الثأر، وتؤجج أوار الحرب، وفى الـطريق لقيت زينب بنت رسـول الله ﷺ، وكان قـد تسرَّب خـبر استـعدادها للخـروج لأبيهـا، فقالت هند: أى بنـت محمـد، بلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك!!.. أى ابنة عمى، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يعينك فى سفرك، أو بمال تبلغين به إلى أبيك، فعندى حاجـتك فلا تستحى منى، فإنه لا يدخل بين النساء ما يكون بين الرجال، تروى زينب رضى الله عنها ذلك، وتقول: ووالله ما أراها قالت إلا لتـفعل[3]. ثم يوم خـروج زينب يتعـرض لها رجال مـن قريش، يريدون إرجاعهـا، فتسقط من على ناقتـها وكانت حاملاً، فـتنزف، وتسمع هند، فتخرج مسـرعة وترفع عقيرتها فى وجه قومها: مـعركة مع أنثى عزلاء؟ أين كانت شجاعتكم يوم بدر؟ وتحـول بينهم وبين زينب وتضمها إليها وتمـسح عنها ما بها، وتصلح شأنها، حـتى استأنفت الخروج إلى أبيـها فى أمن وأمان[4]. وكانت هند امرأة حازمة شاعرة ذات نفس وأنفة. ويروى أنها كانت قبل أبى سفيان عند الفاكه بن المغيرة، وكان من فتيان قريش، له مجلس يأتيه ندماؤه فيدخلون بغير استئذان، فدخلتـه هند يومًا وليس فيـه أحد، فنامت فيه، وجـاء بعض ندماء الفاكـه فدخل البيت، ورأى هند نائمـة فخرج، فلقـيه الفاكـه خارجًا، ثم دخل فـوجد هند فى المجلس نائمة فقذفها بالرجل، فشرى[5] الأمر إلى أن اتفقوا على أن يتحاكموا إلى كاهن فى بعض النواحى، فحملها أبوها عتبة وخرج معهم الفاكه حتى إذا دنوا من الكاهن رآها أبوها متـغيرة مصـفرًا لونها، فخـلا بها وقال: يا بُنية مـالى أراك قد

---

(١) الطبقات (٨/ ١٧٢).
(٢) نحو رؤية جديدة للتاريخ، ص (٢٠٠).
(٣) المصدر نفسه، ص (٢٠٨)، فرسان من عصر النبوة، ص (٨٥٣).
(٤) المصدر نفسه، ص (٢٠٨).
(٥) فشرى: بمعنى عظم وتفاقم.

اصفرّ لونك وتغيّر جسـمك، فإن كنت قد ألمت بذنب بأخبريني حتى أفل[١] هذا الأمر قبل أن نفتضح على رؤوس الناس. فقالت: يا أبتي إني لبريئة، ولكني أعلم أنا نأتي بشرًا يخطئ ويصـيب، فأخشى أن يخطئ فيّ بقـول يكون عارًا علينا إلى آخر الدهر. قال عتبة: فإني سأختبره، فخبأ له حبة برّ في إحليل مهر[٢]، ثم ربط عليها، فلما أتى الكاهن قال: قد خبأت لك خبيئًا فما هو؟ قال: ثمرة في كَمَرة، قـال: بيِّن، قال: حـبة بُر في إحليل مـهر. فـأجلسـوا هندًا بين نساء ثم سـألوا الكاهن، فقام فـضرب بيده بين كتفي هـند وقال: قومي حصانًا غـير زانية ولَتَلِدَنَّ ملكًا يقال له معاوية، فوثب الفاكـه، فأخذ بيدها وقال: امرأتي، فنزعت يدها من يده وقالت: والله لأحرصنَّ أن يكون من غيرك، فتـزوجها أبو سفيان، وولدت له معاوية[٣]. هذا وقد توفيت في ولاية عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٤].

رابعًا: من إخوان وأخوات معاوية رضي الله عنه:

١ ـ يزيد بن أبي سفيان: وكان يقال له يزيد الخير، وهـو أفضل بني أبي سفيان، أسلم يوم الفتـح وشهد حنينًا، وأعطاه النـبي ﷺ من غنائمها مـائة بعيـر وأربعين أوقيّة[٥] واستعمله أبو بكر على أول الجيوش التي أرسلهـا إلى الشام وكانت مهمته الوصول إلى دمشق وفتـحها ومساعدة الجيوش الإسلامـية الأخرى عند الضرورة، وكان جـيش يزيد أول الأمـر ثلاثة آلاف رجل، وقبل رحـيل جيش يزيـد أوصاه الخليفة أبو بكر وصـية بليغة عاليـة المستوى، تشتمل علـى حكم باهرة في مجالي الحرب والسلم، وشـيعه ماشـيًا وأوصاه بما يأتي: إني قد وليـتك لأبلوك وأجرِّبك وأخَرِّجك، فإن أحسنت رددتك إلى عـملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك، فعليك بتـقـوى الله فـإنه يرى من باطنك مـثل الذي من ظاهرك، وإن أولـى الناس بالله أشدهم توليًـا له، وأقرب الناس من الله أشـدهم تقربًا بعـمله، وقد وليـتك عمل خالد[٦]، فإياك وعبِّية الجاهلية[٧] فإن الله يبغضها ويبغض أهلها، وإذا قدمت على

---

(١) أي: حتى أفك.

(٢) من اختبار الكاهن، فإن عرف سأتوه وإلا تركوه.

(٣) التبيين في أنساب القرشيين، ص (٢١٩).

(٤) المصدر نفسه، ص (٢١٩).

(٥) المصدر نفسه، ص (٢٠٤).

(٦) يعني خالد بن سعيد بن العاص وكان قد استعفى أبا بكر فأعفاه.

(٧) يعني التعصب لما كان عليه أهل الجاهلية.

جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضًا، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها، والتخشع فيها، وإذا قدم عليكم رسل عدوك فأكرمهم وأقْلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا ترينّهم فيروا خَلَلَك[1]، ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة عسكرك[2]، وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولى لكلامهم، ولا تجعل سرك علانيتك فيخلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تُصدق المشورة، ولا تخزُ عن المشير خبرك فتُؤتى من قبل نفسك، واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عنك الأستار، وأكثر حرسك، وبدِّدهم في عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النَّوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تَخَفْ من عقوبة المستحق ولا تلجَّنَّ فيها، ولا تسرع إليها، ولا تتخذ لها مدفعًا، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسَّس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العبّاثين، وجالس أهل الصدق والوفاء واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر، ويدفع النصر، وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له. قال ابن الأثير: وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعًا لولاة الأمر[3]. ومن فوائد هذه الوصية:

- أن الولايات والمناصب ليست حقًا ثابتًا لأصحابها وإنما بقاؤهم فيها مرهون بالإحسان والنجاح في العمل، ومن واجب المسئول الأعلى أن يَعْزلهم إذا أساؤوا، وإن هذا الشعور يدفع صاحب العمل إلى مضاعفة الجهد في بذل الطاقة ليصل إلى مستوى أعلى من النجاح في العمل، أما إذا ضمن البقاء فإنه قد يميل إلى الكسل والاشتغال بمتاع الدنيا، فيخل بمسئولته ويعرّض من تحت ولايته إلى أنواع من الفساد والفوضى والنزاع .

---

(١) يعنى لا تطلعهم على دخيلة أمرك فيطلعوا على عيوبك . (٢) ليروا قوة المسلمين .

(٣) الكامل لابن الأثير (٢/ ٦٤، ٦٥) .

- إن تقوى الله عـز وجل هى أهم عوامل النجاح فى العـمل، لأن الله تعالى مطلع على ظاهر أعمال الناس وباطنهم، فإذا اتقوه فى باطنهم فَحَرِىٌّ بهم أن يتقوه فى ظاهرهم، وبذلك يتجنب الوالى كل مظاهر الفســاد والإفساد، التى تكون عادة من الاستجابة للعواطف الجامحة التى لا تلتزم بتقوى الله تعالى.

- التحـذير من التـعصب للآباء والأجـداد والأقوام، فإن الـتعصب لـذلك قد يحـمل الإنســان على الانحراف عن الـطريق المستـقيم، إذا كان مـا عليـه الآباء والأجداد مخالفًا للاستقامة، إضــافة إلى أنه يضعف من الانتماء للرابطة الإسلامية الوحيدة وهى الأخوة فى الله .

- الإيجاز فى الموعظة فـإن كثير الكلام يـنسى بعضه بعضًــا،فيضيع المقـصود، ويغلب على السامع الإعجاب ببـلاغة المتكلم إن كان بليغًا عن استيـعاب ما يقول والاستـفادة من مواعظه، وإن لم يكن بلـيغًا فإن المـلل يأخذ بالسامع فـلا يعى ما يقول المتكلم.

- إذا أصلح المسئول نفســه وتفقد عيوبه وجعل من نفسه نموذجًـا صالحًا للقدوة الحسنة فإن ذلك يكون سببًا فى صلاح من هم تحت رعايته .

- الإهتمام بإقامة الصلاة كاملة مظهرًا ومخْـبرًا؛ مَظْهَرًا من ناحية إكمال أقوالها وأفعالها، ومَخْبَرًا من ناحية الخـشوع فيها وحضور القلب مع الله تعالى، فإن هذه الصلاة الكاملة يقـام بها ذكر الله فى الأرض، وتهـذّب السلوك، وتقوِّى القلوب، وتبعث على ارتياح النفوس، وتعتبر ملاذًا للمسلم عند الشدائد.

- إكرام رسل العدو إذا قـدموا مع الاحتراس منهم، وعدم تمكينهم من مـعرفة واقع الجيش الإسلامى، فإكرامهم نوع من الدعوة إلى الإسلام فيما إذا عرف العالم ما يتـحلى به المسلمون من مـكارم الأخلاق، ولكن لا يصل هذا الإكـرام إلى حد إطلاعهم على بطانة أمـور المسلمين، بل ينبغى إطلاعهم على قـوة جيش المسلمين ليُرهبوا بذلك أقوامهم[1].

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩/ ١٩٤).

- الاحتفاظ بالأسرار، وعدم التهاون بإفشائها، خاصة فيما يتعلق بأمور المسلمين العامة، فإن الحكيم يستطيع التعرف على الأمور وإن تغيرت وجوهها ما دام سره حبيسًا فى ضميره، فإذا أفشاه اختلطت عليه الأمور ولم يستطع التحكم فيها.

- إتقان المشورة أهم من النظر فى نتائجها، فإن المستشار وإن كان حصيف الرأى ثاقب الفكر، فإنه لا يستطيع أن يفيد من استشاره حتى ينكشف له أمره بغاية الوضوح، فإذا أخفى المستشير بعض تفاصيل القضية فإنه يكون قد جنى على نفسه، حيث قد يتضرر بهذه المشورة.

- إن على القائد وكل مسئول أن يكون مخالطًا لمن ولى أمرهم على مختلف طبقاتهم ليكون دقيق الخبرة بأمورهم، وفى هذا أكبر العون له على تصور مشكلاتهم والمبادرة بإيجاد الحلول لها، أما المسئول الذى يعيش فى عزلة ولا يختلط إلا بأفراد من كبار رعيته، فإنه لا يصل إليه من المعلومات إلا ما كان من طريق هؤلاء، وقد لا يكشفون له الأمور بكل تفصيلاتها، فقد يحللون له الأمور على غير وجهها الصحيح.

- الاهتمام بأمر حراسة المسلمين خاصة من مكامن الخطر، واختيار الحرّاس الأمناء من ذوى النباهة وعدم وضع الثقة الكاملة بهم، بل لا بدَّ من الرقابة عليهم حتى لا يؤتى المسلمون من قبلهم.

- أن يسلك المسئول فى عقاب المخالف مسلكًا وسطًا، فلا يتهاون فيترك عقوبة المستحق، فإن ذلك يجرِّئه على مزيد من المخالفة، ويجرئ غيره على ارتكاب المخالفات، فتسود الفوضى وينفلت الأمر، ولا يشتد فى العقوبة فينفِّر الرعية، ويدفعهم إلى التسخط والتحزب، بل تكون عقوبته بحكمة واتزان بعد النظر والتروى بحيث تؤدى غرضها التربوى بدون إثارة ضجة، ولا دفع إلى النقد والتسخط[١].

- أن يكون لدى المسئول يقظة وانتباه لكل ما يجرى فى حدود المسئولية المناطة به حتى يشعر أفراد الرعية بأن هناك اهتمامًا بأمورهم فيزيد المحسن إحسانًا ويقتصر

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩/ ١٩٥) .

المسىء عن الإساءة، ولكن بدون تجسس عليهم، فإن ذلك يعتبر فضيحة لهم، وقد ينقطع بذلك خيط العلاقة الذى يربط المسئول بأفراد رعيته، من المودة والإعجاب والشكر على الجميل، وهذا الخيط ما دام قائمًا فإنه يمنع أصحاب الجنوح من ارتكاب المخالفات التى تفسد المجتمع وتحدث الفوضى، فإذا انقطع ولم يكن هناك عاصم من تقوى الله تعالى فإن أهم الحواجز التى تحول دون الانطلاق وراء الشهوات تكون قد تحطمت، ويصعب بعد ذلك علاج الأمور لأنها تحتاج إلى قوة رادعة وهذه لها سلبياتها المعروفة.

- أن يحرص المسئول على مجالسة أهل الصدق والوفاء والعقول الراجحة، وإن سمع منهم ما يكره أحيانًا من النقد والتوجيه، فإن ذلك يعود عليه وعلى من استرعاه الله أمرهم بالنفع، وأن لا يجالس أصحاب اللهو والأهداف الدنيوية فإن هؤلاء وإن أنس بكلامهم وثنائهم فإنهم يحولون بينه وبين التفكير فى الأمور الجادة، فلا يستفيق بعد ذلك إلا والنكبات قد حلت به وبمن ولى أمورهم.

- أن يصدق القائد فى لقاء الأعداء وأن لا يجبن، فإن جُبنه يسرى على جنده، فيقع بذلك الفشل والهزيمة، وفى غير الحرب أن يكون المسئول شجاعًا فى مواجهة المواقف، وأن لا يضعف فيسرى ضعفه على من هم تحت إدارته من العاملين، فيقل بذلك مستوى الأداء ويضعف الإنتاج.

- أن يتجنب القائد الغلول، وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها، هذا فى مجال الحرب، وفى مجالات السلم أن يتجنب المسئول أية استفادة دنيوية من علمه لا تحل له شرعًا، مثل أخذ الهدايا التى يقصد لها دفعها الأستفادة من المسئول فى مجانبة الحق، فإن ذلك من الغلول، والغلول كما جاء فى هذه الوصية يقرب إلى الفقر، ويدفع النصر.

ومن هذه الفوائد تتبين لنا عظمة الوصية التى أوصى بها أبو بكر رضى الله عنه أحد قواده، وهى تبين لنا أنه كان يعيش بفكره مع قضايا المسلمين، وأنه كان يتصور ما قد يواجهه قواده فيحاول تزويدهم بما ينفعهم فى تلافى الوقوع فى المشكلات، وحلها إذا وقعت، وهذه الوصية وأمثالها تسجِّل إضافة جديدة لمواقف

أبى بكر المتعددة[1]، وجاء فى رواية أن أبا بكر رضى الله عنه لم ينس اللمسات الإنسانية فى وصيته لجيش يزيد حيث وصاه بدستور المسلمين للحرب المكون من عشر نقاط تجسد إنسانية الحضارة الإسلامية وروحها المفعمة بالرحمة، والشفقة، وقد جاءت هذه الوصية على شكل مقتبس من رسول الله ﷺ، فقد قال: أيها الناس: قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تفسدوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بعيراً إلا لأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.. اندفعوا باسم الله[2].

وقد استفاد منها يزيد بن أبى سفيان غاية الاستفادة، ولما فتح الشام، فى عهد عمر ولّى الفاروق يزيد فلسطين وناحيتها، ثم لما مات أبو عبيدة استخلف معاذ بن جبل، فلما مات معاذ بن جبل استخلف يزيد بن أبى سفيان، ثم مات يزيد فاستخلف أخاه معاوية، وكان موت هؤلاء كلهم فى طاعون عمواس سنة ثمان عشرة، وقيل: مات يزيد سنة تسع عشرة بعد فتح قيسارية، وقيل: بل مات قبل فتح قيسارية وإنما افتتحها معاوية[3]. وقال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله البصرى: جزع عمر على يزيد جزعًا شديداً، وكتب إلى معاوية بولايته على الشام[4].

٢ ـ عتبة بن أبى سفيان: يكنى أبا الوليد، ولد على عهد رسول الله ﷺ ولاه عمر بن الخطاب الطائف وصدقاتهم، ثم ولاه معاوية مصر حين مات عمرو بن العاص، وحكى عنه أنه اعترضه إعرابى وهو على مكة فقال: أيها الخليفة. قال: لست به ولم تبعد. قال: فيا أخاه. قال: أَسْمَعْتَ فقل، قال: شيخ من بنى عامر يتقرب إليك بالعمومة، ويختص بالخؤولة[5]، ويشكو إليك كثرة العيال، ووطأة الزمان، وشدة فقر، وترادف ضُرّ، وعندك ما يسعه ويصرف عنه بؤسه، أستغفر

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩/١٩٦) .

(٢) صور من تسامح الحضارة الإسلامية مع غير المسلمين، سلامة الهرفى، ص (٦٢)، نقلاً عن تاريخ الطبرى (٣/٢٢٧).

(٣) التبين فى أنساب القرشيين، ص (٢٠٥).

(٤) المصدر نفسه، ص (٢٠٥).

(٥) المصدر نفسه، ص (٢٠٧)، قادة فتح الشام ومصر، ص (٩٩).

الله منك، وأستعينه عليك. قال: قد أمرنا لك بغناك، فليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك[1]، وكان خطيبًا فصيحًا، يقال: إنه لم يكن فى بنى أمية أخطب منه[2]، وأقام بمصر واليًا سنة ثم توفى بها، ودفن فى مقبرتها سنة أربع وأربعين وقيل سنة ثلاث وأربعين[3].

٣ ـ عنبسة بن أبى سفيان: يكنّى أبا عثمان، روى عن أبى أمامة قال: لما حضر عنبسة بن أبى سفيان الموت اشتد جزعه وجاءه الناس يعودونه، فجعل عنبسة يبكى ويجزع، فقال له القوم: يا أبا عثمان ما يبكيك وما يحزنك وقد كنت على سمت من الإسلام حسن وطريقة إن شاء الله حسنة؟! فازداد حزنًا وشدة بكاء وقال: ما يمنعنى ألا أبكى وأن لا يشتد حزنى من هول المطلع، وما يدرينى ما أُشرفُ عليه غدًا، وما قدمت من كبير عمل تثق به نفسى[4].

٤ ـ أم حبيبة بنت أبى سفيان رضى الله عنها: هى رملة بنت أبى سفيان زوج النبى ﷺ، تكنى أم حبيبة وهى بها أشهر من اسمها، وأمها صفية بنت أبى العاص بن أمية، ولدت رضى الله عنها قبل البعثة بسبعة عشر عامًا وكانت قبل النبى ﷺ عند عبيد الله بن جحش بن رِئاب بن يعمر الأسدى من بنى أسد بن خزيمة، فأسلما ثم هاجرا إلى الحبشة فولدت حبيبة وبها كانت تكنى، وقد ارتد زوجها عبيد الله بن جحش عن الإسلام ودخل فى النصرانية فهلك وهو على تلك الحالة، وتمسكت بدينها وذلك من فضل الله عليها ليتم لها الإسلام والهجرة فأبدلها الله عز وجل به خير البشر وأفضلهم سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، وهى أقرب أزواجه نسبًا إليه وأكثرهن صداقًا رضى الله عنها وأرضاها[5]. قال الذهبى عنها: وهى من بنات عم الرسول ﷺ، وليس فى أزواجه من هى أكرم نسبًا إليه منها ولا فى نسائه من هى أكثر صداقًا منها، ولا من تزوج بها وهى نائية الدار أبعد منها، عُقد له ﷺ عليها بالحبشة وأصدقها عنه صاحب الحبشة أربع مائة دينار، وجهزها بأشياء[6].

---

(١) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢٠٨).

(٢)، (٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (٢٠٨).

(٥) الطبقات لابن سعد (٨/٩٦ ـ ١٠٠)، مجمع الزوائد (٩/٢٤٩).

(٦) سير أعلام النبلاء (٢/٢١٩).

وقد ورد لهـا بعض المناقب التى تدل على علو مكانتـها وعظيم شأنـها رضى الله عنها وأرضاها، ومن تلك المناقب:

أ- أنها كانت ممن هاجر فى الله الهجرة الثانية إلى الحبشة فارة بدينها رضى الله عنها، فقد روى الحاكم بإسناده إلى إسـماعيل بن عمرو بن سعيـد بن العاص قال: قالت أم حبيـبة: رأيت فى النوم عبيـد الله بن جحش زوجى بأسوأ صورة وأشـوهه، ففزعت فقلت: تغـيرت والله حاله، فإذا هو يقـول حيث أصبح: يا أم حبيـبة إنى نظرت فى الدين فلم أر دينًا خيرًا من النصرانية وكنت قـد دنت بها، ثم دخلت فى دين محمد، ثم قد رجعت إلى النصرانية، فقلت: واللـه ما خير لك وأخبرته بالرؤيا التى رأيت له فلم يحفل بها وأكب على الخـمر حتى مات فأرى فى النوم كـأن آتيًا يقول لى: يا أم المؤمنين ففزعت، وأولتها أن رسول اللـه ﷺ يتزوجنى قالت: فما هو إلا أن انقضت عدتى فمـا شعرت إلا برسول النجـاشى على بابى يستأذن، فإذا جاريـة له يقال لها: أبرهة كانت تقوم على ثيابه ودهنه فدخلت علىَّ فقالت: إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ كتب إلىَّ أن أزوجكه فقالت: بشرك الله بخير، قالت: يقول لك الملك وكِّلى من يزوجك فأرسلت إلى خـالد بن سعيد بن العـاص فوكلته[1].. ففى هذا الحديث فضيلة ظاهرة ومنقبة عالية لأم المؤمنين أم حـبيبة رضى الله عنها، وهى أنها كانت ممن شرف بالهجرة إلى أرض الحبشة وثبتت على إسلامها وهجرتها[2].

ب ـ ومن مناقبهـا أنها أكرمت فراش رسـول الله من أن يجلس عليه أبوها، لما قدم المدينة لعقد الهدنة بين الرسول ﷺ وبين قريش ومنعته من الجلوس عليه؛ لأنه كان يومئذ على الشـرك ولم يكن قد أسلم[3]، فقد روى ابن سعـد بإسناده إلى محمد ابن مسلم الزهرى قال: لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة جاء إلى رسول الله وهو يريد غزو مكة، فكلمه أن يزيد فى هدنة الحديبـية فلم يقبل عليه رسول الله ﷺ، فقام فـدخل على ابنته أم حبـيبة، فلما ذهب ليـجلس على فراش النبى ﷺ طوته دونه، فقال: يا بنيـة أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه، فـقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك، فقال: يا بنية أصابك بعدى شر[4].

---

(١) المستدرك، ك معرفة الصحابة (٤/ ٢٠ ـ ٢١).

(٢) العقيدة فى أهل البيت، ص (١١٣). (٣) المصدر نفسه، ص (١١٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٣)، الطبقات الكبرى (٨/ ٩٩، ١٠٠).

ج ـ ومن مناقبها ما رواه ابن سعد والحاكم عن عوف بن الحارث قال: سمعت عائشة تقول: دعتنى أم حبيبة زوج النبى ﷺ عند موتها فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك، فقالت: غفر الله لك ذلك كله وتجاوز وحللك من ذلك، فقالت: سررتنى سرك الله، وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك، وتوفيت سنة أربع وأربعين فى خلافة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما[١].

٥ ـ **أم الحكم بنت أبى سفيان رضى الله عنهما:** هى أم عبد الرحمن بن أم الحكم، كانت من مسلمة الفتح، كانت حين نزول قوله تعالى: ﴿**ولا تُمْسِكُوا بعِصَمِ الْكوافر**﴾[الممتحنة: ١٠] تحت عياض بن غنم الفهرى، ففارقها حينئذ، فتزوجها عبد الله بن عثمان الثقفى[٢].

٦ ـ **عزة بنت أبى سفيان رضى الله عنهما:** ذكرها ابن شهاب فى حديث أم حبيبة فى الرضاع، أخرج مسلم حديثها وهو ما يروى عن أم حبيبة أنها قالت: يا رسول الله هل لك فى أختى؟ قال: ما أصنع بها؟ قالت: تنكحها، قال: أتحبين ذلك؟ قالت: نعم لست بمخلية لك وأحبّ من شركنى فى خير أختى[٣]، فبيَّن لها رسول الله ﷺ أن ذلك لا يحل له[٤]، إذ لا يجوز فى الإسلام الجمع بين الأختين[٥]. هذا؛ وقد عقد رسول الله ﷺ على أم حبيبة بنت أبى سفيان سنة ست للهجرة[٦]، وكان عمرها ٣٣ سنة يوم عقد عليها رسول الله، وقال الذهبى: فكان لها يوم قدم بها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية إلى المدينة بضع وثلاثون سنة[٧]، وقد توفيت سنة ٤٤هـ[٨].

٧ ـ **أميمة بنت أبى سفيان:** ولدت أبا سفيان بن حويطب بن عبد العُزّى وجويرية، وذكرها ابن قدامة فى التبيين فى أنساب القرشيين باقتضاب[٩].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٣).
(٢) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢٠٩).
(٣)، (٤) مسلم رقم (١٤٤٩).
(٥) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٤٢).
(٦) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٠).
(٧)، (٨) المصدر نفسه (٢/ ٢٢٢).
(٩) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢٠٩).

خامسًا: زوجات معاوية رضى الله عنه وأولاده:

١ ـ من نساء معاوية رضى الله عنه ميسون بنت بحدل الكلبى، ولدت له يزيد ابن معاوية، وأمة رب المشارق فماتت صغيرة[1]، وكان معاوية رضى الله عنه يجل ميسون بنت بحدل ويحترمها إلا أنها كانت تحن إلى مرتع طفولتها فى البادية، وتكثر ذكر أهلها وحياتهم البسيطة، وبعدهم عما يكدرهم، وتزهد فى حياة القصور، بما فيها من الخدم والوصيفات، وذات يوم تذكرت باديتها وحنت إلى أترابها وأناسها، وتذكرت مسقط رأسها فبكت وتنهّدت فقالت لها بعض حظاياها: ما يبكيك وأنت فى مُلْكٍ يضاهى ملك بلقيس؟ فتنفست الصعداء ثم أنشدت:

لبيت تخفق الأرواح فيه	أحبّ إلىَّ من قصر منيف
وبكر[2] يتبع الأظعان شقبًا	أحبّ إلىَّ من بَغْلٍ زفوف[3]
وكلب ينبح الطّراق عنى	أحبّ إلىَّ من قطٍ أليف
ولبسُ عباءةٍ وتقرّ عينى	أحبّ إلىَّ من لبس الشفوف[4]
وأكل كُسيرة فى كِسْر بيتى	أحبّ إلىَّ من أكل الرّغيف[5]
وأصوات الرّياح بكلّ فجٍّ	أحبّ إلىَّ من نقر الدفوف
وخِرْق من بنى عمى نحيف	أحبّ إلىَّ من عِلْج كليف[6]
خشونة عيشى فى البدو أشهى	إلى نفسى من العيش الطّريفِ
فما أبغى سوى وطنى بديلاً	فحسبى ذاك من وطن شريف

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/٢٤٦، ٢٤٧).

(٢) البكر: الفتى من الأبل والشقب: الذكر من ولد الناقة.

(٣) زفوف: مسرع.

(٤) الشفوف: جمع شف: وهو الثوب الرقيق الذى يشفُّ ما وراءه.

(٥) الكسيرة: القطعة من الخبز، الكِسْر: طرف الخباء من الأرض.

(٦) الخِرق: الفتى السّمح الكريم، العلج: الشديد.

فلما دخل معاوية عـرَّفته الحظيّة بما قالت، وقيل: إنه سمـعها وهي تنشد ذلك فقال: ما رضيت ابنة بحدل حتى جـعلتني عِلجًا علوفًا، هي طالق، مُرُوها فلتأخذ جميع ما في القصر فهو لها، ثمَّ سيـرها إلى أهلها بالبادية فأخذت معها ابنها يزيد فنشأ في البريّة فصيحًا[١].

ونقل البغدادي ـ رحـمه الله ـ في خزنة الأدب، إن معاوية لما طلقهـا قال لها: كنت فبنْتِ، فأجابتـه: ما سُررنا إذْ كُنَّا، ولا أسفنا إذْ بِنَّا[٢]. ولله درُّ القائل حيث أشار إلى هذا في قوله:

وحــــبّبَ أوطان الرّجــال إليـــهم	مـآرب قـضـاها الشـبـاب هنالك
إذا ذكـــــروا الأوطان ذكّــــرتـهم	عهود الصِّبا فـيها فحنّوا لذلكا[٣]

٢- ومن زوجاته، فاختة ابنة قرَظة بن عبد عمـرو بن نوفل بن عبد مناف، ولدت له عبد الرحمن وعبـد الله ابني معاوية، وكان عبد الله محمّقًا ضـعيفًا وكان يكنى أبا الخير، وأما عبد الرحمن[٤] فمات صغيرًا.

٣- ومن زوجاته، كنود بنت قَرَظة وهي أخت فاختة تزوجها منفردة عنها بعدها، وهي التي كانت معه حين افتتح قبرص[٥].

٤- وتزوج نائلة بنت عمـارة الكلبية ثم طلقـها[٦]، ومن بناته رملة تزوجهـا عمرو ابن عثمـان بن عفان[٧]، وهند بنت معـاوية تزوجها عبد الـله بن عامر[٨] وعائشة وعاتكة وصفية[٩].

سادسًا: إسلام معاوية رضي الله عنه وشيء من فضائله:

أسلم مـعاوية مع أبيـه وأخيـه يزيد رضي الله عنهم يوم الفـتح[١٠]، هذا على المشهور، ولكن يروى عنه أنه قال: أسلمت يوم القضـية ـ أي عمرة القضاء سنة ٧

---

(١) شاعرات العرب، ص (٣٩٦، ٣٩٧)، نساء من عصر التابعين، أحمد خليل، ص (٤٣).
(٢) خزانة الأدب (٣/ ٥٩٣)، نساء من عصر التابعين، ص (٤٣).
(٣) نساء عصر التابعين، ص (٤٤).
(٤) تاريخ الطبري (٦/ ١٤٧).
(٥) البداية والنهاية (١١/ ٤٦٢).
(٦)، (٧)، (٨) المصدر نفسه (١١/ ٤٦٣).
(٩) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (١٢٩).
(١٠) الإصابة (٣/ ٤٣٣)، التبيين في أنساب القرشيين، ص (١٠٥).

هـ ـ ولكن كتمت إسلامى من أبى، ثم علم بذلك، فقال لى: هذا أخوك يزيد وهو خير منك على دين قومه فقلت له: لم آل نفسى جهدًا، ولقد دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضاء وإنى لمصدق به، ثم لما دخل عام الفتح أظهرت إسلامى، فجئته فرحب بى وكتبت بين يديه[1]، وشهد معاوية ـ رضى الله عنه ـ مع رسول الله ﷺ حنينًا وأعطاه مائة من الأبل وأربعين أوقية من الذهب[2]، وقد ذكر العلماء لمعاوية رضى الله عنه فضائل كثيرة من هذه الفضائل:

١ ـ من القرآن الكريم:

فقد اشترك معاوية رضى الله عنه فى غزوة حنين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦]. ومعاوية رضى الله عنه من الذين شهدوا غزوة حنين وكان من المؤمنين الذين أنزل الله سكينته عليهم مع النبى ﷺ[3]، كما أنه ممن وعدهم الله الحسنى، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]. ومعاوية رضى الله عنه ممن وعدهم الله الحسنى، فإنه أنفق فى حنين والطائف وقاتل فيهما[4].

٢ ـ من السنة:

أ ـ دعاء الرسول ﷺ لمعاوية رضى الله عنه، ومن ذلك قوله ﷺ: «اللهم اجعله هاديًا[5]، مهديًا[6]، واهد به»[7].

وقال ﷺ: «اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب»[8].

ب ـ ما أخرجه مسلم من طريق عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول الله ﷺ، فتواريت خلف الباب، قال: فجاء

(١) البداية والنهاية (١١/ ٣٩٦).

(٢) المصدر نفسه (١١/ ٣٩٦).

(٣) الفتاوى (٤/ ٤٥٨).

(٤) المصدر نفسه (٤/ ٤٩٥).

(٥) هادياً: أى للناس أو دالاً على الخير.

(٦) مهديا: مهتدياً فى نفسه.

(٧) الشريعة (٥/ ٢٤٣٧) إسناده صحيح.

(٨) موارد الظمآن للهيثمى، تحقيق حسين الدارانى (٧/ ٢٤٩) إسناده حسن.

فحطأنى حطأةً وقال: اذهب وادع لى معاوية، قال: فجئت فقلت: هو يأكل، قال: ثم قال لى: اذهب فادع لى معاوية، قال: فجئت فقلت: هو يأكل، فقال: لا أشبع الله بطنه[1].

قال النووى معلقًا على هذا الحديث: وقد فهم مسلم رحمه الله من هذا الحديث أن معاوية لم يكن مستحقًا للدعاء عليه، فلهذا أدخله فى هذا الباب[2]، وجعله غيره من مناقب معاوية لأنه فى الحقيقة دعاء له[3]، ولذلك قال ابن عساكر عن حديث لا أشبع الله بطنه: أصح ما روى فى فضل معاوية.. وبعده حديث: «اللهم علمه الكتاب»، وبعده حديث: «اللهم اجلعه هاديًا مهديًا»[4]. وعن الحديث نفسه قال الذهبى: قلت: لعل أن يقال هذه منقبة لمعاوية لقوله ﷺ: «اللهم من لعنته أو سببته، فاجعل ذلك له زكاة ورحمة»[5]. وقال الألبانى: قد يستغل بعض الفرق هذا الحديث ليتخذوا منه مطعنًا فى معاوية رضى الله عنه، وليس فيه ما يساعدهم على ذلك، كيف وفيه أنه كان كاتب النبى ﷺ[6]، وقيل فى «لا أشبع الله بطنه»: أنها كلمة جرت على عادة العرب نحو: قاتله الله ما أكرمه، ويل أمه وأبيه ما أجوده، مما لا يراد معناه[7].

جـ ـ ما أخرجه البخارى من طريق أنس بن مالك، عن خالته أم حرام بنت ملحان قالت: نام النبى ﷺ يومًا قريبًا منى، ثم استيقظ يبتسم، فقلت: ما أضحكك؟ قال: أناس من أمتى عرضوا علىَّ، يركبون هذا البحر الأخضر، كالملوك على الأسرة، قالت: فادع الله أن يجعلنى منهم، فدعا لها، ثم نام الثانية، ففعل مثلها، فقالت قولها، فأجاباها مثلها، فقالت: ادع الله أن يجعلنى منهم، فقال: «أنت من الأولين»، فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت غازيًا أول ما ركب المسلمون البحر مع معاوية[8]، فلما انصرفوا من غزوتهم قافلين، فقُرِّبت إليها دابة لتركبها

---

(١) مسلم رقم (٢٦٠٤).

(٢) اسم الباب : من لعنه النبى صلى الله عليه وسلم أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلاً .

(٣)شرح صحيح مسلم للنووى (١٦/ ١٦٥) .

(٤) تاريخ دمشق (٦٢/ ٢٤) .

(٥) سير أعلام النبلاء (١٤/ ١٣٠) .

(٦) السلسلة الصحيحة (١/ ١٦٥) .

(٧) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص (٦٩).

(٨) وذلك فى إمارة معاوية على الشام فى خلافة عثمان سنة ٢٧هـ.

فصرعتها فماتت[1]. قال ابن حجر معلقًا على رؤيا رسول الله ﷺ قوله: «ناس من أمتى عرضوا علىّ غُزاة» يشعر بأنه ضحكه كان إعجابًا بهم، وفرحًا لما رأى لهم من المنزلة الرفيعة[2].

د ـ ما أخرجه البخارى من طريق أم حرام بنت ملحان رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا[3]، قالت: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: أنت فيهم. ثم قال النبى ﷺ: «أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر[4] مغفور لهم، فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: لا»[5].

قال المهلب[6] معلقًا على هذا الحديث: فى هذا الحديث منقبة لمعاوية لأنه أول من غزا البحر[7]. وكان معاوية رضى الله عنه يكتب الوحى لرسول الله ﷺ[8]، وكذلك رسائل النبى ﷺ إلى زعماء القبائل[9]، وكتابة معاوية للوحى لرسول الله ﷺ أتاح له لونًا من القرب الطبيعى من رسول الله ﷺ فى تلك الفترة التى أعقبت فتح مكة حتى وفاة رسول الله ﷺ، مما يستتبع بالضرورة التأثر بشخص الرسول الكريم ﷺ، والأخذ المباشر منه[10].

سابعًا: رواية معاوية لحديث رسول الله ﷺ:

يعد معاوية رضى الله عنه من الذين نالوا شرف الرواية عن رسول الله ﷺ، ومرد ذلك إلى ملازمته لرسول الله ﷺ بعد فتح مكة، وكان عمره فى فتح مكة حوالى ثمانى عشرة سنة[11]، ولكونه صهر رسول الله ﷺ وكاتبه فقد أتيحت له فرصة عظيمة مكنته من الاستفادة من رسول الله ﷺ، هذا وقد روى معاوية رضى

---

(١) فتح البارى على صحيح البخارى (٦/ ٢٢). (٢) المصدر نفسه (١١/ ٧٦).

(٣) أوجبوا: أى فعلوا فعلاً وجبت لهم الجنة.

(٤) مدينة قيصر: يعنى القسطنطينية، فتح البارى (٦/ ١٢٠).

(٥) فتح البارى على صحيح البخارى (٦/ ٢٢).

(٦) المهلب بن أحمد بن أبى صفرة الأسدى الأندلسى، مصنف شرح صحيح البخارى، توفى سنة ٤٣٥هـ انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٨٩)، مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٧).

(٧) فتح البارى (٦/ ١٢٠). (٨) البداية والنهاية (١١/ ٣٩٦).

(٩) الإصابة فى تمييز الصحابة (٣/ ٤٣٤). (١٠) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٤٥).

(١١) الطبقات الكبرى (٧/ ٤٠٦)، خلافة معاوية د. عمر العقيلى، ص (١٤).

الله عنه مـائة وثلاثة وستـين حديثـًا[1] عن رسـول الله ﷺ، واتفق له البخـارى ومسلم على أربعة أحاديث، وانفرد البخـارى بأربعة ومسلم بخمسة[2]، ومن هذه الأحاديث التى رواها معاوية رضى الله عنه:

١ ـ دخل معاوية على عبد الله بن الزبير وابن عـامر، فقام ابن عامر، ولم يقم ابن الزبير فقال معـاوية: مَهْ، قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يمثل له عباد الله قيامًا، فليتبوأ مقعده من النار»[3].

٢ ـ عن معـاوية بن أبى سفيان رضـى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبد خيرًا فقهه فى الدين»[4].

٣ ـ عن أبى سعـيد الخدرى رضى الله عنه قـال: خرج معـاوية على حلقة فى المسجد، فـقال: ما أجلسكم[5]، قالوا: جلسنا نذكر الله عـز وجل قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: الله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إنِّى لم استحلفكم تهمة لكم، وما كـان أحد بمنزلتى من رسول الله ﷺ أقلَّ عنه حديثـًا منى، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصـحابه، فقال: «ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله عـز وجل، ونحـمده على مـا هدانا للإسـلام ومنّ علينا بك، قـال: آلله مـا أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك. قال: أما إنىّ لم أستحلفكم تهمة لكم، وإنَّه أتانى جبريل عليه السلام فأخبرنى أنّ الله عز وجل يباهى بكم الملائكة»[6].

٤ ـ عن معبد الجهنى قال: كان معـاوية قلّما يُحدِّثُ عن رسول الله ﷺ شيئًا، ويقول هؤلاء الكلمات قلَّما يدعهنَّ أو يحدِّثُ بهنَّ فى الجمع، عن النبى ﷺ قال: «من يرد الله به خيرًا يفـقهه فى الدين، وإن هذا المال حُلوٌ خضرٌ فمن يأخـذه بحقه يبارك له فيه، وإياكم والتمادح، فإنَّهُ الذبح»[7].

---

(١) أسماء الصحابة الرواة لابن حزم، ص (٥٥)، مرويات خلافة معاوية، ص (٢٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٢).

(٣) الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد (٢٨/ ٤٠) إسناده صحيح.

(٤) المصدر نفسه (٢٨/ ٤٨) إسناده صحيح.

(٥) أى: فى المسجد.

(٦) الموسوعة الحديثية مسند أحمد (٢٨/ ٥٠) إسناده صحيح.

(٧) المصدر نفسه (٢٨/ ٥٢) إسناده صحيح.

٥ ـ عن عبد الرحمن بن عبد عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شَرِب الخمر، فاجلدوه، فإن عاد، فاجلدوه، فإن عاد فاجلدوه فإن عاد الرّابعة، فاقتلوه»[١].

٦- عن عيسى بن طلحة قال: سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤذّنين أطول الناس أعناقًا يوم القيامة»[٢].

٧- عن مجاهد وعطاء عن ابن عباس أن معاوية أخبره: أنه رأى رسول الله ﷺ قصَّر من شعره بمشقص فقلنا لابن عباس: ما بلغنا هذا إلا عن معاوية، فقال: ما كان معاوية على رسول الله متهمًا.

٨- عن الزهرى قال حدثنى حميد بن عبد الرحمن بن عوف أنَّه سمع معاوية يخطب بالمدينة يقول: : يا أهل المدينة، أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هذا يوم عاشوراء ولم يفرض علينا صيامه، فمن شاء منكم أن يصوم فليصم فإنى صائم» فصام النَّاس[٣] بداية.

٩- عن الحكَم بنِ ميناء أن يزيد بن جارية الأنصارى أخبره أنه كان جالسًا فى نفر من الأنصار، فخرج عليهم معاوية، فسألهم عن حديثهم، فقالوا: كُنَّا فى حديث من حديث الأنصار، فقال معاوية: ألا أزيدكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحبَّ الأنصار أحبَّهُ الله عز وجل، ومن أبغض الأنصار، أبغضه الله عز وجل»[٤].

١٠- عن أبى صالح عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية»[٥].

١١- قال محمد بن كعب القُرَظى، سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا انصرف من الصَّلاة: «اللَّهم لا مانع لما أعطيت ولا مُعطى لما منعت ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجَدُّ»[٦].

---

(١) الموسوعة الحديثية مسند أحمد (٢٨/ ٦١) إسناده صحيح.

(٢) المصدر نفسه (٢٨/ ٧٥) إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) المصدر نفسه (٢٨/ ٨١) إسناده صحيح.

(٤) المصدر نفسه (٢٨/ ٨٥) إسناده صحيح.

(٥) المصدر نفسه (٢٨/ ٨٩) صحيح لغيره.

(٦) المصدر نفسه (٢٨/ ١٠٠) إسناده صحيح.

١٢- عن أبى بردة عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شىء يصيب المؤمن فى جسده يؤذيه إلا كفَّر الله عنه به من سيِّئاته»[١].

١٣- وعن معاوية رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحقِّ لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على الناس»[٢].

١٤- وعن معاوية بن أبى سفيان أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من نسى شيئًا من صلاته فليسجد سجدتين وهو جالس»[٣].

١٥- وعن معاوية بن أبى سفيان، عن النبى ﷺ قال: «من كذب علىَّ متعمِّدًا فليتبوأ مقعده من النار»[٤].

١٦- وعن عمير بن هانىء قال: سمعت معاوية بن أبى سفيان على هذا المنبر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لاتزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتى أمر الله عز وجل وهم ظاهرون على الناس» فقام مالك بن يخامر السكسكىُّ فقال: يا أمير المؤمنين سمعت معاذ بن جبل يقول: وهم أهل الشام، فقال معاوية ورفع صوته: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذًا يقول: وهم أهل الشام[٥].

١٧- حدّثنا روح، قال: حدّثنا أبو أميّة عمرو بن يحيى بن سعيد قال: سمعت جدِّى يُحَدِّث أن معاوية أخذ الإداوة بعد أبى هريرة يتبع رسول الله ﷺ بها واشتكى أبو هريرة فبينما هو يوضئ رسول الله ﷺ رفع رأسه إليه مرة أو مرتين وهو يتوضأ، فقال: يا معاوية إن وليت أمرًا فاتق الله عز وجل واعدل، قال: فما زلت أنى مُبتلًى بعملٍ لقول النبىّ ﷺ حتى ابتُليت[٦].

---

(١) الموسوعة الحديثية مسند أحمد (٢٨/١٠٧) إسناده صحيح.

(٢) المصدر نفسه (٢٨/١١٦) إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) المصدر نفسه (٢٨/١١٨) صحيح لغيره.

(٤) المصدر نفسه (٢٨/١١٨) صحيح لغيره.

(٥) المصدر نفسه (٢٨/١٢٩) إسناده صحيح.

(٦) المصدر نفسه (٢٨/ ١٣٠) رجاله ثقات رجال الصحيح غير أن جد عمرو بن يحيى - وهو سعيد بن عمرو ابن سعيد بن العاص لم يتبين لنا سماعه من معاوية، فقد ذكر البخارى فى تاريخه الكبير(٣/ ٣٣١) فقال: ويُروى فى فضائل معاوية أشياء ضعيفة تحتمل وذكر منها هذا الحديث.

١٨- وعن أبى عامر عبد الله بن لُحَىٍّ، قال: حججنا مع معاوية بن أبى سفيان، فلمّا قدمنا مكة قام حين صلّى صلاة الظهر، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأُمَّة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، ـ يعنى الأهواء ـ كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة، وإنه سيخرج فى أمتى أقوام تَجَارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله. والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم، لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به»[1]

ثامنًا: من الأحاديث الباطلة التى لا تصح فى شأن معاوية مدحًا وذمًا:

١ ـ من الأحاديث الباطلة التى لا تصح فى مدح معاوية: وقد ساق ابن عساكر فى ترجمته لمعاوية أحاديث واهية وباطلة طوّل بها جدًا، فمن الأباطيل المختلقة:[2]

أ ـ عن واثلة مرفوعًا: كاد معاوية أن يبعث نبيًا من حلمه وائتمانه على كلام ربى[3].

ب ـ وعن أبى موسى: نزل عليه الوحى، فلما سُرِّى عنه طلب معاوية، فلما كتبها -يعنى آية الكرسى- قال: غفر الله لك يا معاوية ما تقدم إلى يوم القيامة[4].

جـ ـ وعن أنس: هبط جبريل بقلم من ذهب، فقال: يا محمد، إن العلىَّ الأعلى يقول: قد أهديت هذا القلم من فوق عرشى إلى معاوية، فمره أن يكتب آية الكرسى به ويشكله ويعجمه، فذكر خبرًا طويلا[5].

د ـ وعن ابن عباس، قال: لما أنزلت آية الكرسى، دعا معاوية فلم يجد قلمًا، وذلك أن الله أمر جبريل أن يأخذ الأقلام من دواته، فقام ليجىء بقلم، فقال النبى ﷺ: خذ القلم من أذنك، فإذا قلم ذهب مكتوب عليه لا إله إلا الله، هدية من الله إلى أمينه معاوية.

هـ ـ وعن حذيفة مرفوعًا: يبعث معاوية وعليه رداء من نور الإيمان[6].

---

(١) الموسوعة الحديثية مسند أحمد (٢٨/ ١٣٥) إسناده حسن.

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٧، ١٢٨).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ١٢٨) موضوع.

(٤)، (٥) المصدر نفسه (٣/ ١٢٩) موضوع.

(٦) المصدر نفسه (٣/ ١٣٠) موضوع.

و ـ وعن أنس مرفوعًا: لا أفتقد أحدًا غير معاوية، لا أراه سبعين عامًا، فإذا كان بعد أقبل على ناقة من المسك، فأقول: أين كنت؟ فيقول في روضة تحت العرش .

ز ـ وعن ابن عمر مرفوعًا: يا معاوية، أنت مني وأنا منك، لتزاحمنِّي على باب الجنة[1].

قال الذهبي بعد ذكر هذه الأحاديث وغيرها: فهذه الأحاديث ظاهرة الوضع والله أعلم[2]. وقد ذكر أكثر هذه الأحاديث الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة[3]، وقال ابن كثير بعد أن ذكر حديثًا منها وقد أورد ابن عساكر بعد هذا أحاديث كثيرة موضوعة[4]، والعجب منه مع حفظه واطلاعه كيف لا ينبِّهُ عليها وعلى نكارتها وضعف حالها[5].

٢ ـ من الأحاديث الباطلة في ذم معاوية: قال ابن الجوزي: قد تعصب قوم ممن يدعي السنة فوضعوا في فضله أحاديث ليغضبوا الرافضة، وتعصب قوم من الرافضة فوضعوا في ذمه أحاديث، وكلا الفريقين على الخطأ القبيح[6]، ومن الأحاديث الواهية في ذمه:

أ- الحديث المنسوب إلى رسول الله ﷺ: «يطلع عليكم رجل يموت على غير سنتي فطلع معاوية». وقام النبي ﷺ خطيبًا، فأخذ معاوية بيد ابنه يزيد وخرج ولم يسمع الخطبة، فقال النبي ﷺ: «لعن الله القائد والمقود»، أي يوم يكون للأمة مع معاوية ذي الإساءة. وهذا الحديث لا يصح وهو كذب على رسول الله، وهو من الكذب الموضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث، ولا يوجد في شيء من دواوين الحديث التي يرجع إليها في معرفة الحديث، ولا له إسناد معروف[7]. ثم من المعلوم من سيرة معاوية أنه كان من أحلم الناس، وأصبرهم على من يؤذيه، وأعظم الناس تأليفًا لمن يعاديه، فكيف ينفر عن رسول الله ﷺ، مع أنه أعظم الناس مرتبة في الدين والدنيا، وهو محتاج إليه في كل أموره؟ فكيف لا يصبر

---

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣١) موضوع.
(٣) الفوائد المجموعة، ص (٤٠٣ ـ ٤٠٧).
(٤) البداية والنهاية (١١/ ٤٠٩).
(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣١).
(٦) الموضوعات (٢/ ١٥).
(٧) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٨).

على سماع كلامه وهو بعد الملك يسمع كلام من يسبّه فى وجهه، فلماذا لا يسمع كلام النبى ﷺ؟ وكيف يتخذ النبى ﷺ كاتبًا من هذه حاله[1].

٣ـ دور بنى أمية فى عهد رسول الله ﷺ: رغم إسلام الكثير من رجال بنى أمية منذ بداية الدعوة، وتضحياتهم وهجرتهم إلى الحبشة، ورغم إسلام جميع بنى أمية عند فتح مكة، وترحيب الرسول بهم وفرحه بإسلامهم، والاعتماد عليهم فى جلائل الأعمال وقد أفسح لهم مكانًا فى دولته لتستفيد بجهودهم ومقدرتهم، فقد أعطى الرسول ﷺ لأبى سفيان ميزة لم يعطها أحدًا من أهل مكة، حين قال: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن»[2]، وهذا شرف كبير حازه أبو سفيان يدل على تقدير الرسول للزعماء وأصحاب الكلمة فى قومهم، واستعمل الرسول ﷺ أبا سفيان على نجران، واتخذ ابنه معاوية كاتبًا له[3]. روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس، أن أبا سفيان طلب من النبى ﷺ أن يؤمره حتى يقاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين، وأن يجعل معاوية كاتبًا بين يديه، فاستجاب له النبى ﷺ[4]، وكان أول والٍ على مكة ـ وهى أشرف بلاد الله ـ بعد فتحها رجلاً من بنى أمية، هو عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس، يروى ابن إسحاق عن زيد بن أسلم أنه قال: لما استعمل النبى ﷺ عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهمًا، فقال: أيها الناس: أجاع الله كبد من جاع على درهم، فقد رزقنى رسول الله ﷺ كل يوم درهمًا فليست بى حاجة إلى أحد[5]، كما استعمل رسول الله ﷺ عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على قرى خيبر ووادى القرى وتيماء وتبوك، وقبض رسول الله ﷺ وعمرو عليها[6]، كما استعمل الحكم بن سعيد بن العاص على سوق مكة[7]، واستعمل خالد بن سعيد بن العاص على صنعاء[8]، واستعمل أبان بن سعيد بن العاص على البحرين، وقبض رسول الله ﷺ وهو

---

(١) أمير المؤمنين معاوية لابن تيمية، جمع وتقديم محمد مال الله، ص (٨٨).

(٢) البخارى رقم (٤٢٨٠).　　(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١١).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى (١٦/ ٦٢).

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٦٩ ـ ١٤٩)، تاريخ خليفة بن خياط، ص (٩٧).

(٦)، (٧) منهاج السنة (٣/ ١٧٥، ١٧٦).　　(٨) خليفة بن خياط، ص (٩٧).

عليها[١]، كما كان أبان وخالد ابنا سعيد بن العاص، ومعاوية بن أبى سفيان إضافة إلى عثمان بن عفان رضى الله عنهم ـ من كتاب الرسول ﷺ[٢].

وخلاصة القول: فقد قبض رسول الله ﷺ ومُعظم رجالات بنى أمية على مختلف الأعمال، من الولاية والكتابة، وجباية الأموال، ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال الرسول ﷺ أكثر منهم[٣]، واستعمال النبى ﷺ لأكثر رجال بنى أمية، أكبر دليل على كفاءتهم وأمانتهم[٤]. وأما قوله ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[٥]، فهذه الكلمات، جعل بعض الناس منها سبة فى جبين بنى أمية وحدهم، وجعلوا يعيرونهم بأنهم الطلقاء وأبناء الطلقاء، ولم يفهموا أن هؤلاء الطلقاء وأبناءهم قد أسلموا وحسن إسلامهم، وكانت لهم مواقف مشهودة فى نصرة الإسلام فى حياة الرسول ﷺ وبعده فى الفتوحات فى عهد خلفائه الراشدين[٦]، ونحب أن نشير إلى عدة نقاط متعلقة بوصف الطلقاء منها:

١ ـ إن هذا الاتهام وليد عصر الخصومة الحزبية الحادة، لما تفجرت الأحقاد ضد بنى أمية فى أواخر عهد عثمان رضى الله عنه، وبعد بروز نجم معاوية بن أبى سفيان وخلافه مع على بن أبى طالب رضى الله عنه، حيث أصبح ذلك الوصف يعنى عندهم أنهم قوم ضعاف الإيمان، دخلوا الإسلام رغبة فى غنائمه، أو رهبة من القتل، ليكيدوا لأهله ويفيدوا أنفسهم.

٢- أن أبا سفيان بن حرب وابنه معاوية ليسا من الطلقاء بالمعنى الدقيق السابق لهذه الكلمة، فقد أسلم أبو سفيان قبيل فتح مكة والرسول وجيشه بمر الظهران خارجها، وقد جاء فور إسلامه يدعو قومه إلى المسالمة والفتح، أما معاوية ابنه فقد أكدت بعض الروايات أنه أسلم قبل الفتح أيضًا، غير أنه كان يخفى إسلامه ـ شأن بعض الناس آنذاك ـ لمكانته من أبيه الذى كان يقود القتال ضد المسلمين، فقد روى أنه أسلم سرًا يوم عمرة القضاء، أو عام الحديبية[٧]، وإنما وضعهم المؤرخون فى زمرة هؤلاء الطلقاء لقرب وقت إسلام أبى سفيان من الفتح، ولأنه كان زعيم مكة

---

(١) منهاج السنة (٣/ ١٧٥، ١٧٦). (٢) تخريج الدلالات السمعية، ص (١٥٩-١٦٢).
(٣) منهاج السنة (٣/ ١٧٥)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص(١٢).
(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١٢). (٥) الطبقات (٢/ ١٤١، ١٤٢).
(٦) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٨). (٧) البداية والنهاية (١١/ ٣٩٦).

الذى ارتبط إسلامه بإسلامها، كما أن معاوية كان إسلامه سراً لم يشع، ولم يعرف إسلامه إلا مع الطلقاء بعد فتح مكة.

٣- إن وصف الطلقاء لا يقتضى الذم، فإن الطلقاء هم مسلمة الفتح الذين أسلموا عام فتح مكة وأطلقهم النبى ﷺ، وكانوا نحو من ألفى رجل، ومنهم من صار من خيار المسلمين كالحارث بن هشام وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل، ويزيد بن أبى سفيان وحكيم بن حزام، وأبى سفيان بن الحارث، ابن عم النبى ﷺ الذى كان يهجوه ثم حسن إسلامه، وعتاب بن أسيد الذى ولاه النبى مكة لما فتحها، وغير هؤلاء ممن حسن إسلامهم.

٤- إن النظرة الإسلامية فى هذا الشأن أن الإسلام يجب ما قبله، ويفسح المجال للإفادة من جميع الطاقات والقدرات ويدفع بها نحو تحقيق غاياته الكبرى، وينزل الناس منازلهم، وأن خيار الناس فى الإسلام خيارهم فى الجاهلية إذا فقهوا، ولم يمنع تأخر إسلام خالد وعمرو بن العاص من تبوئهما المكانة العالية عند النبى ﷺ، فأرسل عمراً أميراً على ذات السلاسل، وسمّى خالداً سيف الله.. هذا مع حفظ المكانة الأسمى والمنزلة العظمى للسابقين الصادقين فى الإسلام، ومن هؤلاء السابقين كان جماعة من بنى أمية وغيرهم، كما كان من الطلقاء بنى أمية وغيرهم[1].

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٤٤).

المبحث الثانى

الأمويون ومعاوية فى عهد أبى بكر وعمـــر وعثمـان رضى الله عنهم

أولاً: فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه:

واجه المسلمون بعد مـوت نبيهم ﷺ ظروفًا عصيبة وأجـمع المسلمون على بيعة أبى بكر خليـفة لرسـول الله ﷺ، وقام بجـهود عظيـمة فى مـواجهـة الأخطار، فحارب المـرتدين حتى ردهم إلى الإسلام والجمـاعة، وبدأ حركة الفـتوح فى بلاد الفرس والروم، وكان أول كتاب كتبه أبو بكر بشأن حروب الردة إلى عامله الأموى على مكة عتاب بن أسيد حـيث كتب إليه بركوب من ارتد من أهل عمله بمن ثبت على الإسلام، فواجههم عتاب فى تهامة حتى ظفر بهم[١]، ثم جهز من أهل مكة وأعمالهـا خمسمائة رجل وأمـر عليهم أخاه خالد بن أسـيد، فاشتركـوا فى قتال المرتدين باليمن[٢]، وإعادة أهل حـضرموت وكندة إلى حظيـرة الإسلام[٣]، وفى حروب المسلمين ضد مسيلمة الكذاب كـان قائد الجيش خالد بن الوليد الذى جعل على قيادة المهاجرين فى جـيشه أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عـبد شمس ومعه زيد بن الخطاب[٤]، فقاتل أبو حذيفة قتـالاً مجيدًا، ولما انكشف المسلمون فى أول القتال كـان أبو حذيفة يهتف فـيهم: يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفـعال، وقاتل حتى قُتل رضى الله عنه[٥]، وحمل راية المهاجرين يومـذاك مولاه سالم وقاتل بها حتى قُتل أيضًا[٦]، وشهد حروب اليمامة ضـد مسيلمة معاوية رضى الله عنه[٧]، كمـا استشهـد من حلفاء بنى أميـة عكاشة بن محـصن الأسدى فى قتال طليـحة الأسدى[٨]، وساهم العلاء الحضرمى حليفـهم أيضًا فى إخماد الردة فى البحرين،

---

(١) تاريخ الطبرى (٣/ ٣١٩)، الدولةالأموية المفترى عليها، ص (١٤٨).

(٢) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٢٢، ٣٢٩، ٣٣٠).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ٣٣٠ ـ ٣٤٢).

(٤) المصدر نفسه (٣/ ٣٨١).

(٥) المصدر نفسه (٣/ ٢٩١).

(٦) المصدر نفسه (٣/ ٢٩١، ٢٩٢)، الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٤٨).

(٧) البداية والنهاية (١١/ ٣٩٦).

(٨) ديوان الردة للعتوم، ص (٨٦).

ففعل وظفر بهم بعد بلاء حسن وآيات عجيبة[١]، وكان من الطبيعى بعد انتهاء حروب الردة وعودة المرتدين إلى حظيرة الدين وانصياعهم للحكومة الراشدة، أن تطمح الأبصار إلى تخليص الشعوب المستعبدة من حكوماتها الظالمة ودعوتها إلى الإسلام، وبدأ ما عُرف فى التاريخ بحركة الفتوح الكبرى على جبهتى فارس والروم. . وقد كان لبنى أمية دور بارز فى هذه الحروب مما يؤكد عمق التزامهم الإسلامى وحيوية دورهم التاريخى فى هذه الفترة، غير أننا نشير فى البداية إلى وضوح سمتين ظاهرتين صاحبتا حركة الفتوح[٢]:

الأولى: هى تعاظم دور مسلمة الفتح وطلقاء مكة فى الفتوح - ومنهم بعض بنى أمية - وقد كان ذلك متوقعًا لسببين، الأول: هو ما قرره أبو بكر من ضرورة عدم الاستعانة بمن ارتد عن الإسلام ثم عاد إليه فى الفتح[٣]. وقد كان هذا يعود إلى حرص أبى بكر الصديق رضى الله عنه على نقاء هذه الفتوحات من آثار رقة الدين أو شهوات هذه النفوس التى لم تخلص بعد للإسلام، أو لم تبرهن على إخلاصها له.

والثانى: يعود إلى حرص هؤلاء السادة والأشراف على تعويض ما فاتهم من خدمة قضية الإسلام، وأن يلحقوا بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الإسلام فسادوا بذلك وعلت أقدارهم[٤].

والسمة الظاهرة الثانية: هى تركز نشاط الأمويين فى الفتوح على جبهة الشام، يشاركهم فى ذلك كثير من الفاتحين من أهل مكة عمومًا، ويبدو أن ذلك كان أمرًا مقصودًا من الخليفة الصديق الذى أدرك وجود صلات عميقة الجذور بين بنى أمية والمكيين والقبائل العربية المقيمة ببلاد الشام تحت الحكم البيزنطى، تلك الصلات التى تعمقت من خلال النشاط التجارى المتواصل بين مكة والشام فى الجاهلية، والذى كان بنو أمية أبرز قواده ورواده[٥].

وأما عن مشاركة الأمويين فى حروب الفتح، فقد جاءت مبكرة، حيث شارك الوليد بن عقبة بن أبى معيط مع خالد بن الوليد فى فتوح العراق الأولى، وشهد

---

(١) تاريخ الطبرى (٣/٣٠١ - ٣١٣)، سيرة أبى بكر الصديق الصّلابى، ص (٢٢٥).

(٢) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٤٨).

(٣) تاريخ الطبرى (٣/٣١٩، ٣٤٧).

(٤) الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (١٤٩).

(٥) المصدر نفسه، ص (١٤٩).

معه قتل هرمز، وأرسله خالد إلى أبى بكر بالغنائم وبشارة الفتح وإخباره عن جمع جديد من الفرس[1]، ثم وجهه الخليفة مددًا إلى عياض بن غُنم الذى كان قد أمره بفتح العراق من جهة الشمال، وكان يحـاصر دومة الجدل فيجد العنت والمشقة فى فتحها، فأشـار عليه الوليد باستمداد خالد بن الوليد، فاستمـده، فأنجده، وفتحوا معًـا دومة الجندل[2]، ثم ولاه أبو بكر على النصف من صـدقات قضـاعة مما يلى دومة الجندل[3]، ولكن الخليفة ما لبث أن كتب إليه يعـرض عليه الجهاد فى سبيل الله، ويخيره بينه وبين أن يظل على عمله الذى ولاه إياه فأجابه بإيثار الجهاد، فوجه به إلى الشام[4]، وكان أول لواء عقده أبو بكر فى حروب الشـام لخالد بن سعيد بن العاص الأموى ثم عزله وولى بدله يزيد بن أبى سفـيان بن حرب الأموى أيضًا[5]، وأما جـيش يزيد بن أبى سفيـان، فكان أول جيش كبـير يوجهـه أبو بكر إلى الشام ويودعه ماشيًا[6]، ثم أتبعه بثلاثة جيوش أخرى يقـودها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وأبو عبيدة بن الجراح[7]، يقول الذهبى عن يزيد بن أبى سفيان: وهو أحد الأمراء الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لغزو الروم، عقد له أبو بكر، ومشى تحت ركابه يسايره ويودعه ويوصيه، وما ذلك إلا لشرفه، وكمال دينه[8].

ثم أتبع الصديق بأناس آخـرين يرغبون فى الجـهاد وألحقهم بجـيش يزيد وجعل عليهم أميرًا معـاوية بن أبى سفيان[9].. وخرج أبو سفيـان بن حرب ـ وهو يومئذ شيخ كبير[10]. كما اشتـرك فى الجهاد فى الشام أيضًا خالد بن سـعيد، وأبان بن سعيد، وعمرو بن سعيد، وقاتلوا جميعًا هناك وقتلوا، حتى قيل: ما فتحت بالشام كورة من كورها إلا وجد عندها رجل من بنى سعـيد بن العاص شهيدًا[11]، وقبل

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٥٤).

(٢) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٩٠)، الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (١٤٩).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ٣٩٠).

(٤) المصدر نفسه (٣/ ٣٨٩، ٣٩٠).

(٥) المصدر نفسه (٣/ ٣٨٧).

(٦) فتوح الشام للواقدى (١/ ٣ ـ ٤).

(٧) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٩٤).

(٨) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٢٨).

(٩) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٩١).

(١٠) لما توفى كان عمره ثمانية وثمانين عامًا، ولما حضر اليرموك كان عمره أكثر من سبعين عامًا.

(١١) النزاع والتخاصم، ص (٤٦)، الدولة الأموية حمدى شاهين، ص (١٥٠).

معركة اليرموك عقد قادة الجيوش مؤتمرًا للحرب فى الجولان.. ومر بهم أبو سفيان بن حرب فقال: ما كنت أظن أن أبقى حتى أرى أغلمة من قريش يذكرون أمر حربهم، ويتذاكرون ما يكيدون به عدوهم - فى منزلى - ولا يحضرونى، فاشترك معهم فى مشورتهم، فأفسحوا له، فأسهم معهم فى رسم خطة القتال[1]. ولما أزفت ساعة الحرب فى اليرموك عمد قادة الفريقين إلى إذكاء حماس الجنود، فبينما كان الروم يحضضهم القسيسون والرهبان، وينعون لهم النصرانية، حتى تشجعوا وخرجوا للقتال الذى لم يكن بعده قتال مثله[2]، كان المسلمون يتبادرون إلى لقاء الخطب البليغة والأرجاز المثيرة[3]، بل أنهم عينوا أحد كبار شيوخهم والمخضرمين من رجالهم فى مهمة «القاص» وكان ذلك الرجل هو أبو سفيان بن حرب نفسه[4]، ولا شك أن توليه ذلك العمل المهم هو أكبر دليل على صدقه وإخلاصه فى دينه وإسلامه، إذ إن قادة الجيش لو علموا فيه آنذاك غير هذا الإخلاص ما جعلوه أمينًا على تعبئة حماس الجند وإثارة حميتهم الإسلامية، ولو علم الجنود منه غير ذلك الصدق ما كان لعمله فيه ذلك الأثر العظيم، وقد كان اختيارًا موفقًا فعلاً يتسق مع طبيعة تكوين ذلك الجيش الذى يضم الكثير من أهل مكة وقبائل العرب الذين تأخر إسلامهم، والذين احتفظوا بثقتهم القديمة فى أبى سفيان، زعيمهم الذى خبروه[5]، وكان أبو سفيان رضى الله عنه يقف على الكراديس[6]، فيقول: الله الله، إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل النصر على عبادك[7].

ثانيًا: فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

عندما توفى الصديق عام ١٣هـ بويع الفاروق بالخلافة وسار على نهج صاحبيه فى استعمال بنى أمية والثقة بهم، فلم يعزل أحدًا منهم من عمل، ولم يجد على أحد منهم مأخذًا، والكل يعرف صرامة عمر، وتحريه أمر ولاته وعماله وتقصيه

(١) فتوح الشام للواقدى (١/ ٩٩) . (٢) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٩٥).
(٣) المصدر نفسه (٣/ ٣٩٥، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠١).
(٤) المصدر نفسه (٣/ ٣٩٧). (٥) الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (١٥١).
(٦) الكراديس: جمع كردوس: القطعة العظيمة من الخيل أو الكتيبة من الجند.
(٧) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢٠٣).

أعمالهم وأخبارهم، ومحاسبتهم بكل دقة وحزم، فاستمرارهم فى عهده يدل على أمانتهم وكفايتهم، فقد بقى يزيد بن أبى سفيان واليًا على دمشق، كما زاد عمر فى عمل معاوية بالشام[١].

١ ـ بدأ نجم معاوية فى الظهور:

بدأ نجم معاوية رضى الله عنه فى الظهور فى ميدان العمل السياسى والإدارى فى عهد الخليفة عمر رضى الله عنه، فقد ولاه فتح قيسارية[٢] سنة خمس عشرة للهجرة[٣]، وجاء فى كتاب توليته له: أما بعد، فقد وليتك قيسارية فسرْ إليها واستنصر الله عليهم، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، الله ربنا وثقتنا ومولانا فنعم المولى ونعم النصير[٤]. كانت هذه المهمة الجسيمة اختبارًا كبيرًا من عمر لمعاوية فى ميدان الواقع، فقد استطاع تجاوز هذا الاختبار بكل نجاح، فقد سار إلى قيسارية بجنوده الذين أعدهم له أخوه يزيد بن أبى سفيان ـ أحد ولاة الشام لعمر رضى الله عنه- وكانت تلك المدينة محصنة وبأس أهلها شديد، فحاصرها معاوية طويلاً وزاحف أهلها مرات عديدة، فلم ييأس معاوية، فصمم على فتحها، واجتهد فى القتال حتى فتح الله على يديه، وكان فتحه كبيرًا فقد قتل من أهلها ما يقرب من مائة ألف[٥]، وبعث بالفتح والأخماس إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه[٦]، وقد أثبت معاوية ـ بعد توفيق الله ـ بهذا الفتح جدارته وحسن قيادته، فأكسبه ذلك ثقة الجميع، فأسند له أخوه يزيد ـ أمير دمشق ـ مهمة فتح سواحل الشام، وقد أبلى فى ذلك بلاءً حسنًا[٧]، فكان يقيم على الحصن اليومين والأيام اليسيرة فربما قوتل قتالاً شديدًا، وربما رمى ففتحها، وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر ما يحتاج لها إليه من المسلمين فإن حدث فى شىء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الإمداد[٨]،

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١٥).

(٢) قيسارية : على ساحل الشام، تعد فى أعمال فلسطين، ياقوت (٤/ ٤٢١).

(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٥٩).

(٤) تاريخ الطبرى (٤/ ٤٣١).

(٥) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، ص (٦٣، ٦٤).

(٦) البداية والنهاية (٧/ ٥٤).

(٧) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٥٩).

(٨) فتوح البلدان للبلاذرى، ص (١٣٤).

ويرى الدكتور عبد الرحمن الشجاع أن مدن الشام تساقطت تحت ضربات المجاهدين الواحدة تلو الأخرى، لأن الروم كانوا من الهزيمة بمكان لا يجعلهم يفكرون في المقاومة؛ فتساقطت مدن بيروت، وصيدا، ونابلس، واللد، وحلب، وأنطاكية، وكانت قيسارية آخر مدن الشام فتحًا على يد معاوية بن أبي سفيان، وكان ذلك بعد القدس[1].

وكان عبادة بن الصامت على ميمنة جيش المسلمين في حصار قيسارية، فقام رضي الله عنه بوعظ جنده ودعاهم إلى تفقد أنفسهم والحيطة من المعاصي، ثم قاد هجومًا قتل فيه كثيرًا من الروم، لكنه لم يتمكن من تحقيق هدفه، فعاد إلى موقعه الذي انطلق منه، فحرّض أصحابه على القتال، وأبدى لهم استغرابه الشديد لعدم تحقيق أهداف ذلك الهجوم فقال: يا أهل الإسلام، إني كنت من أحدث النقباء سنًا وأبعدهم أجلاً، وقد قضى الله أن أبقاني حتى قاتلت هذا العدو معكم.. والذي نفسي بيده ما حملت قط في جماعة من المؤمنين على جماعة من المشركين، إلا خلوا لنا الساحة وأعطانا الله عليهم الظفر، فما بالكم حملتم على هؤلاء فلم تزيلوهم؟[2] ثم بين لهم ما يخشاه منهم، فقال: إني والله لخائف عليكم خصلتين، أن تكونوا قد غللتم، أو لم تناصحوا الله في حملتكم[3]، وحض أصحابه على طلب الشهادة بصدق، وأعلمهم أنه سيكون في مقدمتهم وأنه لن يعود إلى مكانه، إلا أن يفتح الله عليه أو يرزقه الشهادة[4]، فلما التحم المسلمون والروم، ترجل عبادة عن جواده وأخذ راجلاً، فلما رآه عمير بن سعد الأنصاري نادى المسلمون يعلمهم بما فعل أميرهم ويدعوهم إلى الاقتداء به، فقاتلوا الروم حتى هزموهم وأحجروهم في حصنهم[5]. وبعد فتح قيسارية ونجاح معاوية في فتح سواحل دمشق ولاه عمر ابن الخطاب ولاية الأردن وكان ذلك عام ١٧هـ[6].

(١) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص (٣٥٥).
(٢) الأنصار في العصر الراشدي، ص (٢٠٧). (٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه، ص (٢٠٩).
(٦) تاريخ الطبري (٦٧/٤)، خلافة معاوية للعقيلي، ص (١٧، ١٨).

٢ ـ ولايته على دمشق وبعلبك والبلقاء:

في سنة ثمان عشرة للهجرة توفى يزيد بن أبى سفيان رضى الله عنهما فى طاعون عمواس، فولى عمر معاوية عمل أخيه ـ دمشق وبعلبك والبلقاء ـ[1]، وقد كان لعمل عمر هذا أكبر الأثر على نفسية والد معاوية ووالدته، فحين عزّاً عمر أبا سفيان فى وفاة ابنه يزيد قال: يا أمير المؤمنين من وليت مكانه؟ قال: أخوه معاوية. قال: وصلت رحمًا يا أمير المؤمنين. وكتب أبو سفيان لمعاوية ينصحه فى بداية عمله هذا، فمما قال: يا بنى إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم وقدمهم عند الله وعند رسوله ﷺ وقصر بنا تأخيرنا، فصاروا قادة وسادة، وصرنا أتباعًا، وقد ولوك جسيمًا من أمورهم فلا تخالفهم، فإنك تجرى إلى أمد فنافس، فإن بلغته أورثته عقبك[2]، وكذلك كتبت له والدته هند بنت عتبة تقول: والله يا بنى إنه قل أن تلد أمٌّ مثلك وإن هذا الرجل قد استنهضك فى هذا الأمر، فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت[3].

وكان بعض الناس ـ لا سيما شيوخهم ـ استغربوا تولية عمر رضى الله عنه لمعاوية رضى الله عنه مع حداثة سنه ووجود من هو أكبر منه وأفضل، لذا سوغ عمر رضى الله عنه عمله هذا ـ حيث قالوا: ولَّى حدث السن ـ بقوله: تلومونني فى ولايته، وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اجعله هاديًا مهديًا واهد به»[4].

٣ ـ معاوية فى موكب عظيم وإنكار عمر عليه:

كان عمر رضى الله عنه ـ وهو الخبير بمعادن الرجال ـ يدرك أكثر من غيره ما يتمتع به معاوية من صفات تؤهله للقيادة، فحين قدم عمر الشام وافاه معاوية بموكب عظيم أنكره عليه عمر فقال: أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال: نعم. قال: مع ما بلغنى عنك من طول وقوف ذوى الحاجات ببابك. قال: هو ما بلغك

---

(١) الطبقات الكبرى (٧/٤٠٦)، أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٦١).

(٢) البداية والنهاية (١١/٣٩٩) المقصود أورثته عقبك أى: الحمد.

(٣) المصدر نفسه (١١/٣٩٩).

(٤) السلسلة الصحيحة (٤/٦١٥) رقم (١٩٦٩) وقال الألبانى: حديث صحيح.

من ذلك. قال: ولم تفعل هذا؟ لقد هممت أن آمرك بالمشى حافيًا إلى بلاد الحجاز. قال: يا أمير المؤمنين إنا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة، فيجب أن تظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز للإسلام وأهله ويرهبهم، فإن أمرتنى فعلت، وإن نهيتنى انتهيت، فقال له عمر: ما سألتك عن شىء إلا تركتنى فى مثل رواجب[1] الضرس، لئن كان ما قلت حقًا، إنه لرأى أريب[2]، ولئن كان باطلاً إنه لخديعة أديب[3]. قال: فمرنى يا أمير المؤمنين قال: لا آمرك ولا أنهاك. فقال رجل: يا أمير المؤمنين، ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه، فقال عمر: لحسن مصادره وموارده جَشَّمناه ما جَشَّمناه[4]. وفى رواية أن الرجل الذى قال لعمر: ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه هو عبد الرحمن بن عوف، وكان مع عمر حين استقبلهما معاوية بهذا الموكب العظيم[5].

وهذا الجواب من معاوية ـ رضى الله عنه ـ يدل على خبرة سياسية عالية، ومعرفة واعية بأحوال الأمم، ودراية كاملة بسياسة الرعية والمحافظة على الوضع الأمنى للدولة التى يحكمها، ومن أجل هذا رضى عمر سياسته على الرغم من أنها تخالف سياسة عمر فى اهتمامه بأحوال رعيته وبحث شكاواهم، ولعل كلمة عمر ـ رضى الله عنه ـ من أجل ذلك جشمناه ما جشمناه تدل على رضاه عن سياسة معاوية[6].

وكان عمر رضى الله عنه يتعهد معاوية بالتربية والوعظ والنصح، وأحيانًا يشتد ويغلظ عليه، فعن أسلم مولى عمر رضى الله عنه قال: قدم علينا معاوية وهو أبيض أو أبضُّ الناس وأجملهم، فخرج إلى الحج مع عمر، فكان عمر ينظر إليه، فيعجب له، ثم يضع أُصبُعَه على متنه ثم يرفعها عن مثل الشِّراك، فيقول: بخ بخ، نحن إذًا خير الناس، أن جُمع لنا خير الدنيا والآخرة، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، سأحدثك، إنّا بأرض الحمّامات والريف، فقال عمر: سأحدثك ما بك إلطافك نفسك بأطيب الطعام وتصبحك حتى تضرب الشمس متنيك وذوو الحاجات وراء الباب. قال: فلما جئنا ذا طوى أخرج معاوية حلْة فلبسها، فوجد

---

(١) الرواجب: جمع راجبة: وهى ما بين عقد الأصابع من داخل أى: أضيق ما يكون.

(٢)، (٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه (١١/٤١٦).

(٦) الأمويون بين الشرق والغرب، لمحمد الوكيل (١/ ٣٠).

عمر منها ريحًا كأنه ريح طيب، فقال: يعمد أحدكم فيخرج حاجاً تَفلاً، حتى إذا جاء أعظم بُلدان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا فى الطيب فلبسهما، فقال معاوية: إنما لبستهما لأدْخل فيهما على عشيرتى أو قومى، والله لقد بلغنى أذاك ههنا وبالشام، والله يعلم إنى لقد عرفتُ الحياء فيه ثم نزع معاوية ثوبيه، ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما[١]، وقال عمرو بن يحيى بن سعيد الأموى، عن جَدِّه قال: دخل معاوية على عمر وعليه حُلَّةٌ خضراء فنظر إليها الصّحابة، فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدِّرَّة، فجعل يضربه بها، وجعل معاوية يقول: يا أمير المؤمنين، الله الله فىَّ، فرجع عمر إلى مجلسه، فقال له القوم: لم ضربته يا أمير المؤمنين وما فى قومك مثله؟، فقال: والله ما رأيت إلا خيرًا وما بلغنى إلا خير، ولكنِّى رأيته ـ وأشار بيده[٢]ـ فأحببت أن أضع منه[٣]، وكان عمر بن الخطاب إذا رأى معاوية قال: هذا كسرى العرب[٤].

وكان معاوية رضى الله عنه فى إمارته بالشام فى أبهة الملك وزيه من العديد والعدة، وكان يرى أنه فى ثغر تجاه العدو ويحتاج إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد[٥]، وإظهار الملك والسلطان، وكان يرى أن الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين، ومراعاة المصالح، وإنما ذمه لما فيه التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الأغراض والشهوات، فلو كان الملك مخلصًا فى غلبه للناس أنه لله ولحمله على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن ذلك مذمومًا[٦]، وقد قال الله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٣] لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل فى النبوة والملك، وكانت أبهة معاوية فى الملك لها أغراض ومقاصد شرعية، ولذلك سكت عمر رضى الله عنه، وذات يوم ذكر معاوية عند عمر فقال: دعوا فتى قريش وابن سيدها، إنه لمن يضحك فى الغضب ولا يُنال منه إلا على الرِّضا، ومن لا يأخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه[٧]، ومهما يكن فى هذه الرواية وغيرها من مبالغة، فإن ثقة عمر فى معاوية تظل فوق مستوى الشبهة والشك[٨]،

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤١٧).
(٢) يعنى: أشار بيده إلى أعلى.
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٤١٨).
(٤) المصدر نفسه(١١/ ٤١٧)،الاستيعاب،ص(٦٦٨).
(٥) ابن خلدون إسلاميًا،عماد الله خليل، ص(٧٨).
(٦) المصدر نفسه، ص (٧٨).
(٧) البداية والنهاية (١١/ ٤١٥) .
(٨) الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (١٥٤).

فقد برهن معاوية لعمر عمق فهمه لضـرورات السياسة وتغير البيئة والمجتمع، وأثر ذلك كله على التطوير السيـاسى لأدوات الحكم، ومهما يكن من أمـر فقد عظمت مكانة معاوية عند عمر رضى اللـه عنه، فولاه أهم أقاليم دولته، وزاد فى ولايته، ولم يعزله، على كثرة من كان يعزل من عماله وأمرائه، وكان معجبًا بذكائه وإدارته ولا يكتم ذلك الإعـجاب[1] حـتى قال يومًـا لجلسائـه تذكرون كـسرى وقـيصـر ودهاءهما وعندكم معاوية[2].

٤- جهود معاوية رضى الله عنه على جبهة الشام:

لما تولى معـاوية أمر الشام، وانطلق عـمرو بن العاص لفـتح مصر، أصـبحت مهمة حـماية الحدود الشامية للدولة الإسلاميـة والتوسع منها منوطة به، وتتلخص أهم إنجازاته العسكرية فى أمرين هـما: سن نظام الصوائف والشواتى[3]، وتكوين أسطول بحرى إسلامى لأول مرة فى تاريخ الإسلام[4].

أ- سن نظام الصـوائف والشـواتى فى عـهـد عـمـر: أصـيب الروم على يد جنود الإسلام بهزائم مريرة مـتتالية، فقدوا على أثرها الشام ومـصر، بكل ما تمثلانه من أهميـة اقتـصادية وسـياسيـة وعسكرية، غـير أنهم لم يسـلموا بهذه الهـزائم، بل استـمرت هجماتهم على الشـام من خلال الدروب الجبليـة التى تفصلهم عن باقى أجزاء إمـبراطورية الروم، مما جعل عمـر بن الخطاب يقول فى جولتـه بالشام سنة ١٦هـ: والله لـوددت أن الدرب جـمـرة بـيننا وبينهـم لنا مـا دونه، وللـروم مـا وراءه[5]، وفى رحلته هذه إلى الشام سمى عمـر الصوائف والشواتى، وسد فروج الشام ومســالكها[6]، ومن المحتمل أن يكون هدف الروم مـن هجماتهم على المدن الإسلاميـة الحدودية منذ البداية، هو اعتمـاد ذلك كتدبير وقـائى لحماية بلاد الروم وردع المسلمين، لكن اسـتجابة معاوية كـانت فوق التحدى، فقـد نقل المعركة إلى بلاد العـدو، وابتعـد بالحرب عن بلاد المسلمـين، وكان لا بد لمعـاوية ـ من أجل

(١) الدولة الأموية، حمدى، ص (١٥٧).
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣٠).
(٣) الصوائف: غزو بلاد الروم فى الصيف والشواتى فى الشتاء.
(٤) الدولة الأموية، حمدى، ص (١٥٤).
(٥) تاريخ اليعقوبى (٢/ ١٣٣).
(٦) تاريخ الطبرى (٤/ ٦٢)

تحقيق ذلك الهدف ـ من تطوير وسائل الدفاع، واعتبار العواصم والثغور مجرد قواعد متقدمة واجبها تلقى الصدمة والإنذار، مع استخدام هذه القواعد مركز انطلاق للهجمات المضادة، وقد قاد معاوية بنفسه بعض هذه الصوائف منها صائفة سنة ٢٢هـ، حيث دخل بها بلاد الروم فى عشرة آلاف، وصائفة ٢٣هـ[١]، حيث أوغل حتى بلغ عمورية، ومعه من أصحاب رسول الله ﷺ، عبادة بن الصامت، وأبو أيوب الأنصارى، وأبو ذر الغفارى، وشداد بن أوس[٢].

ب ـ تكوين أسطول إسلامى فى البحر: ويعود الفضل إلى الله ثم إلى معاوية فى هذه المرحلة المبكرة إلى فتح باب الجهاد فى البحر الذى أصبح ضروريًا لحماية الشام ومصر، ومواجهة النشاط المتزايد للأسطول البيزنطى، وغاراته المتكررة على سواحل الإقليمين، وإمداداته للثائرين بهما. وقد استطاعت عمليات الصوائف والشواتى أن تضع حدًا للتهديدات البرية، لكن المدن الساحلية، بداية من إنطاكية ونهاية بالأسكندرية، بقيت تحت رحمة البحرية البيزنطية، وأدرك معاوية أيضًا أنه من المحال تطوير عمليات الفتوح فى أفريقيا ما لم يتم انتزاع السيطرة البحرية من البيزنطيين[٣]، ولم يبدأ معاوية فى غزو البحر فعليًا إلا فى عهد عثمان وسيأتى بيان ذلك بإذن الله تعالى.

ثالثًا: معاوية رضى الله عنه فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه:

حينما جاء عثمان إلى الخلافة كان معاوية رضى الله عنه واليًا على معظم الشَّام، فأقرَّه عثمان عليها[٤]، كما أقرَّ بعض الولاة الآخرين على ولاياتهم، كاليمن، والبحرين، ومصر وغيرها من الولايات، وقد تطورت الأحداث، وضُمَّت إلى معاوية بعض المناطق الأخرى حتى أصبح معاوية هو الوالى المطلق لبلاد الشام، بل أصبح أقوى ولاة عثمان، وأشدّهم نفوذًا، وقد كان فى بداية خلافة عثمان ولاة آخرون، منهم: عمير بن سعد الأنصارى، وكان على حمص، وينافس معاوية بن أبى سفيان فى المكانة لدى عثمان رضى الله عنه إلا أن عميرًا

(١) تاريخ الأمم والملوك (٤/ ١٤٤، ١٦٠).

(٢) المصدر نفسه (٤/ ٢٤١)، الدولة الأموية حمدى، ص (١٥٥).

(٣) معاوية بن أبى سفيان، بسام العسلى، ص (٤٠).

(٤) تاريخ خليفة بن خياط، ص (١٥٥).

مرض مرضًا أعيــاه عن القيام بأعباء الولاية، فطلب من الخليفة عثــمان أن يعفيه، فأعفاه، وضم ولايتــه إلى معاوية بن أبى سفيان، وبذلك زاد نفوذ معــاوية، فامتد إلى حمص التى ولى عليها من قبله عبد الرحمن بن خالد بن الوليد[1]، كما تُوفى علقمة بن محــرز، وكان على فلسطين، فضمّ عثمان ولايتــه إلى ولاية معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه، فــاجتمعت الشَّام لمعاوية بعد سنتين من خــلافة عثمان رضى الله عنه، وأصبح الوالى المطلق فيها طيلة السنوات الباقــية من خلافة عثمان رضى الله عنه حتَّى توفى عثمان وهو عليــها كما هو معروف[2]، وقد كانت فترة معاوية على الشَّام مليئة بالأحــداث، وكانت الشَّام من أهم مناطق الجهاد، ومع أن الشَّام فى داخلها قد استقرت أوضــاعها، وسادها الإسلام، وقلَّت محاولات الروم إثارة القلاقل فيها، إلا أن الشام كانت مــتاخمة لأرض الروم، وبالتالى كان المجال مفتوحًا أمام معاوية للجهاد فى تلك النواحى وسيأتى الحديث عنها بإذن الله، وقد كان لمعاوية ثقله السياسى فى الدولة الإسلامية أواخر خلافة عثمان رضى الله عنه، إذ كان ضمن الولاة الذين جــمعهم عثمان ليــستشيرهم، حــين بدأت ملامح الفتنة تلوح فى الأفق، كــما ظهــرت له آراء خــاصة فى هذا الاجتــماع، وجَّــههــا إلى عثمان[3] رضى الله عنه، وسيأتى الحديث عنها بإذن الله تعالى.

١ ـ فتوحات حبيب بن سلمة الفهرى رضى الله عنه:

كان حبيــب بن سلمة الفهرى من أبرز أمراء الجهــاد فى زمن ولاية معاوية على بلاد الشَّام، فــعند أجلبت الروم على المسلمين بالشام بجــموع عظيمة أوّل خــلافة عثمان، كتب مــعاوية إلى عثمان يستمده، فكتب عثمــان إلى الوليد بن عقبة والى الكوفة -عندما انتهى من مهمته فى أذربيجان وعاد إلى الموصل-، جاء فى خطاب الخليفة إلى الوليد بن عقبة: أمَّا بعد، فإن معاوية بن أبى سفيان كتب إلىَّ يخبرنى: أن الرُّوم قد أجلبت[4] على المسلمــين بجــموع عظيــمــة، وقد رأيت أن يمــدّهم إخوانهم من أهل الكوفــة، فإذا أتاك كتابى هذا، فابعث رجــلاً ممَّن ترضى نجدته، وبأسه، وشــجاعتــه، وإسلامه فى ثمانيــة آلاف، أو تسعة آلاف، أو عــشرة آلاف

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٤٢).

(٢) المصدر نفسه (٥/ ٤٤٣).

(٣) الولاية على البلدان (١/ ١٧٦).

(٤) أجلبت: تجمّعت للحرب.

إليهم مـن المكان الذى يأتيك فيـه رسولى[1] والسَّلام. فقـام الوليد فى الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بعد، أيها الناس، فإن الله قد أبلى المسلمين فى هذا الوجه بلاءً حسنًا، وردَّ عليهم بـلادهم التى كفرت، وفتح بلادًا لم تكن افتتحت، وردَّهم سـالمين غانمين مأجورين، فالحمد لـله رب العالمين، وقد كتب إلىَّ أميـر المؤمنين يأمرنى أن أندب منكم مـا بين عشرة آلاف إلى ثمـانية آلاف، تمدُّون إخوانكم من أهل الشام، فإنَّهم قد جاشت عليهم الروم، وفى ذلك الأجر العظيم، والفضل المبين، فانتدبوا -رحمكم الله- مع سليمان بن ربيعة، فانتدب النّاس، فلم يمض ثلاثة حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فمضوا، حتى دخلوا الشام إلى أرض الروم، وعلى جند أهل الشام حـبيب بن مسلمة بن خالد الفهرىُّ، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة الباهلىُّ، فشنُّوا الغارات على أرض الروم، فأصاب الناس ما شاءوا من سبى، وملأوا أيديهم من المغنم، وافتتـحوا بها حصونًا كـثيرة[2]، وكان على المسلمين حبـيب بن مسلمة، وكان صاحـب كيد لعـدوه، فاجـمع أن يبيت قـائدهم الموريان ـ أى: يبـاغته لـيلاً ـ فسمعته امرأته أمُّ عبد الله بنت يزيد الـكلبية يذكر ذلك، فقالت: فأين موعدك؟ قال: سرادق الموريان أو الجنة. . ثم بيتهم، فغلبهم. وأتى سرادق الموريان فوجد امرأته، قد سبقته إليه[3]، وواصل حبيب جهاده، وإنتصاراته المتوالية فى أراضى أرمينية، وأذربيجان، ففتحها إمّا صلحًا، أو عنوة[4].

وقد كـان حبيب بن سلمـة الفهرى من أبرز الـقادة الذين حاربوا فى أرمـينية البيزنطية، فقـد أباد جيوشًا بأكملها للعدوِّ،وفتح حصـونًا، ومدنًا كثيرة[5]، كما غزا ما يلى ثغور الجزيرة العراقية من أرض الروم فافتتح عدة حصون هناك، مثل شمشاط، وملطية، وغيرها[6].

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/٢٤٧).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٢٤٧)، عثمان بن عفان للصَّلَّابى، ص (١٨١).

(٣) تاريخ الطبرى (٥/٢٤٨).

(٤) الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين، لحمدى شاهين، ص (٢٥٢).

(٥) حروب الإسلام فى الشّام فى عهود الخلفاء الراشدين، ص (٥٧٧).

(٦) عثمان بن عفان للصَّلابى، ص (٢٠٥).

٢ ـ غزوات معاوية فى عهد عثمان فى البر:

أدرك معاوية رضى الله عنه بأن إزالة خطر الروم وتهديدهم للمسلمين لا يتم إلا بمواصلة غـزو الروم وتنشيط حـركة الجـهاد بشكل مـستـمر فى الثـغور الـشامـية والجزرية[١]، وشحنـها بالمرابطين وتعـهدها على الدوام، وقـد أخذ منه ذلك وقـتًا طويلاً وبذل فيه جـهدًا كبيرًا خلال ولايتـه تلك فى عهد عثمـان، ففى سنة خمس وعشرين للهجرة قـام معاوية بجولة عسكرية على الثغور الشاميـة، فوجد الحصون فيـما بين أنطاكية وطرسـوس خالية فوقـف عندها جماعة من أهل الشـام والجزيرة وقنسرين حتى انصرف من غزاته، ثم أغـزى بعد ذلك بسنة أو سنتين يزيد بن الحر العبسى الصـائفة وأمره ففعل مـثل ذلك، وكانت الولاة تفعله[٢]، وفى سنة إحدى وثلاثين غزا من ناحـية المصيصة فـبلغ درولية[٣]، فلما خرج جـعل لا يمر بحصن فيما بينه وبيـن أنطاكية إلا هدمه[٤]، وكذلك الشأن فى الثغـور الجزرية فقد أولاها عنايته فقد وجـه فى الأيام الأولى لولايته تلك، كلاً من حبيب بن مـسلمة الفهرى وصفوان بن المعطل السلمى إلى شمـشاط ففتحها. كما وجـه حبيب بن مسلمة إلى إعادة فتح ملطية بعد أن انتقضت، ففتحها عنوة، ورتب فيها رابطة من المسلمين مع عاملها، كما قام معاوية بـنفسه بعد ذلك بحملة أخرى يريد التوغل فى أرض الروم فقد مرَّ على ملطيـة فشحنها بجماعة من أهل الشام والجـزيرة وغيرهما وذلك لكى تكون طريقًا آمنًا لحـملات الصوائف. كمـا غزا حصن المرأة من الثغـور الجزرية فى السنة نفسها[٥]، وكان يتعـهد حصن الحدث، وبنى مدينة مـرعش وأسكنها الجند،

---

(١) الثغور الشامية والجزرية هى شريط طويل من القلاع والحصون يمتد على الحدود الشمالية للدولة الإسلامية مع الدولة البيزنطيـة، ويبدأ هذا الشريط من ملطية إلى الفرات الأعلى إلى طرسـوس بالقرب من ساحل البحر المتوسط. وينقسـم خط هذه القلاع إلى مجموعتين: إحداهما تسـمى بـ(الثغور الجزرية) وهى تمثل الجزء الشـمالى الشـرقى من هذا الخط ومن أهم ثغور هذا القسـم: ملطية، وزبطرة، وحـصن منصور، والحدث ومرعش وشمشاط. والمجموعة الثانية تسـمى بالثغور الشامية وهى تمثل الجزء الجنوبى الغربى من ذلك الخط وأهم ثغور ذلك القسـم: عين زربة، وأذنة، وطرطوس، وهرقلة، ويفـصل بين المجموعـتين فاصل طبيعى وهو جبل اللكام. انظر: أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٦٧).

(٢) فتوح البلدان، ص (٦٩).

(٣) المصيصة ودرولية من الثغور الشامية.

(٤) فتوح البلدان، ص (١٦٩).

(٥) تاريخ خليفة بن خياط، ص (١٦٧)، فتوح البلدان، ص (١٨٩).

وكل هذه المدن والحصون من الشغور الجزرية[1]، ولما اطمأن معاوية إلى قوة جانبه بعد تلك الإجراءات أخذ يغزو فى عمق الأراضى الرومية، فقد قاد بنفسه غزوة سنة اثنين وثلاثين للهجرة توغل فيها بجيشه حتى وصل مضيق القسطنطينية[2].

٣ ـ معاوية يلتمس من عثمان رضى الله عنهما السماح له بالغزو البحرى:

كان معاوية رضى الله عنه يلح على عمر فى غزو البحر، ويصف له قرب الرُّوم من حمص، ويقول: إن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلابهم، وصياح دجاجهم، حتى كان ذلك يأخذ بقلب عمر، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لى البحر وراكبه، فإن نفسى تنازعنى إليه، فكتب إليه عمرو: إنى رأيت خلقًا كبيرًا يركبه خلق صغير، إن ركن خرَّق القلب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق. فلما قرأ عمر بن الخطاب كتاب عمرو بن العاص كتب إلى معاوية: أن لا، والذى بعث محمدًا بالحق لا أحمل فيه مسلمًا أبدًا، وتالله لمسلم أحبُّ إلىَّ مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لى، وقد تقدمت إليك، وقد علمت ما لقى العلاء منِّى، ولم أتقدم إليه فى ذلك[3]. ولكن الفكرة لم تبرح نفس معاوية، وقد رأى فى الرُّوم ما رأى، فطمع فى بلادهم وفتحها، فلمَّا تولَّى الخلافة عثمان عاود معاوية الحديث، وألحَّ به على عثمان، فردّ عليه عثمان رضى الله عنه قائلاً: أن قد شهدت ما ردَّ عليك عمر ـ رحمه الله ـ حين استأذنته فى غزو البحر. ثم كتب إليه معاوية مرَّة أخرى يهوِّن عليه ركوب البحر إلى قبرص فكتب إليه: فإن ركبت معك امرأتك فاركبه مأذونًا وإلا فلا[4]. كما اشترط عليه الخليفة عثمان رضى الله عنه أيضًا بقوله: لا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيِّرهم، فمن اختار الغزو طائعًا، فاحمله وأعنه[5]، فلما قرأ معاوية كتاب عثمان نشط لركوب البحر إلى

---

(١) فتوح البلدان، ص (١٨٧ ـ ١٩٦).

(٢) تاريخ خليفة، ص (١٦٧)، تاريخ الطبرى (٤/ ٣٠٤)، أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٦٩).

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٥٨).

(٤) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٥٣٨).

(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٦٠)

قبرص، فكتب لأهل السواحل يأمرهم بإصلاح المراكب، وتقريبها إلى ساحل عكًا، فقد رمَّه ليكون ركوب المسلمين منه إلى قبرص[1].

٤ ـ غزو قبرص:

أعدَّ معاوية المراكب اللازمة لحمل الجيش الغازى، واتَّخذ ميناء عكًا مكانًا للإقلاع، وكانت المراكب كثيرة، وحمل معه زوجه فاختة بنت قرظة، كذلك حمل عبادة بن الصَّامت امرأته أمَّ حرام بنت ملحان معه فى تلك الغزوة[2]، وأمُّ حرام هذه صاحبة القصَّة المشهورة: عن أنس بن مالك رضى الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺكان يدخل على أمِّ حرام بنت ملحان، فتطعمه، وكانت أمُّ حرام تحت عبادة بن الصَّامت، فدخل عليها رسول الله ﷺيومًا، فأطعمته، ثم جلست تفلى من رأسه، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك. فقالت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: ناس من أمتى عُرضوا علىَّ غزاة فى سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكًا على الأسرَّة، أو مثل الملوك على الأسرَّة وقالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم! فدعا لها ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ، وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟! قال: ناس من أمتى عرضوا علىَّ فى سبيل الله ـ كما قال فى الرواية الأولى ـ. قال: أنت من الأوَّلين. فركبت أمّ حرام بنت ملحان فى البحر فى زمن معاوية، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر، فهلكت[3]. ورغم أن معاوية رضى الله عنه لم يجبر الناس على الخروج، فقد خرج معه جيش عظيم من المسلمين[4]، مما يدل أن المسلمين قد هانت فى أعينهم الدُّنيا بما فيها، فأصبحوا لا يعبأون بها بالرَّغم من أنها قد فتحت عليهم أبوابها، فصاروا يرفلون فى نعيمها. إن المسلمين قد تربّوا على أنّ ما عند الله خير، وأبقى، وأن الله اصطفاهم لنصرة دينه، وإقامة العدل، ونشر الفضيلة، والعمل على إظهار دين الله على كلّ ما عداه، وهم يعتقدون: أنّ هذه المهمَّة هى

(١) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/٥٣٨).

(٢) البداية والنهاية (٧/١٥٩).

(٣) البخارى رقم (٢٨٧٧).

(٤) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص (٣٥٦).

رسالتهم الحقيقية، وأن الجهاد في سبيل الله هو سبيل الحصول على مرضاة الله، فإن هم قصَّروا في مهمَّتهم، وقعدوا عن أداء واجبهم، فسيمسك الله عنهم نصره في الدُّنيا، ويحرمهم مرضاته في الآخرة، وذلك هو الخسران المبين، من أجل هذا هُرعوا مع معاوية، وتسابقوا إلى السفن يركبونها، ولعلَّ حديث أمِّ حرام قد ألمَّ بخواطرهم، فدفعهم إلى الخروج للغزو في سبيل الله تصديقًا لحديث رسول الله ﷺ، وكان ذلك بعد انتهاء فصل الشتاء في سنة ثمان وعشرين من الهجرة-٦٤٩م[١]، وسار المسلمون من الشام وركبوا من ميناء أم حرام لتركب دابَّتها، فنفرت الدّابة، وألقت أمَّ حرام على الأرض، فاندقت عنقها، فماتت[٢]، وترك المسلمون أمَّ حرام بعد دفنها في أرض الجزيرة عنوانًا على مدى التضحيات التى قدَّمها المسلمون في سبيل نشر دينهم، وعرف قبرها هناك بقبر المرأة الصالحة[٣].

واجتمع معاوية بأصحابه، وكان فيهم: أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاريُّ، وأبو الدَّرداء، وأبو ذر الغفاريُّ، وعبادة بن الصَّامت، وواثلة بن الأسقع، وعبد الله بن بشر المازنيُّ، وشدّاد بن أوس بن ثابت، والمقداد بن الأسود، وكعب الحبر بن ماتع، وجبير بن نضير الحضرمي. وتشاوروا فيما بينهم، وأرسلوا إلى أهل قبرص يخبرونهم: أنهم لم يغزوهم للاستيلاء على جزيرتهم[٤]، ولكن أرادوا دعوتهم لدين الله، ثمَّ تأمين حدود الدولة الإسلامية بالشام، وذلك لأنَّ البيزنطيين كانوا يتخذون من قبرص محطَّة يستريحون فيها؛ إذا غزوا، ويتموَّنون منها، إذا قلَّ زادهم، وهي بهذه المثابة تهدِّد بلاد الشام الواقعة تحت رحمتها، فإذا لم يطمئن المسلمون على مسالمة هذه الجزيرة لهم، وخضوعها لإرادتهم، فإن وجودها كذلك سيظلُّ شوكة في ظهورهم، وسهمًا مسدَّدًا في صدورهم، ولكنَّ سكان الجزيرة لم يستسلموا للغزاة، ولم يفتحوا لهم بلادهم، بل تحصّنوا في العاصمة، ولم يخرجوا لمواجهة المسلمين، وكان أهل الجزيرة ينتظرون تقدّم الروم للدّفاع عنهم، وصدّ هجوم المسلمين عليها[٥].

---

(١) جولة تاريخية في عصر الخلفاء، ص (٣٥٦).
(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٥٩).
(٣) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، ص (٣٥٧).
(٤) المصدر نفسه، ص (٣٥٧).
(٥) المصدر نفسه، ص (٣٥٧).

٥ ـ الاستسلام وطلب الصلح:

تقدّم المسلمون إلى عاصمة قبـرص «قسطنطينا» وحاصروها وما هى إلا ساعات حتى طلب الناس الصلح، وقدّمـوا للمسلمين شروطًا، واشتـرط عليهم المسلمون شروطًا، وأما شرط أهل قبرص، فكان طلبـهم ألا يشترط عليهم المسلمون شروطًا تورّطهم مع الروم، لأنهـم لا قبل لهم بـهم، ولا قدرة لهم عـلى قتـالهم، وأمّـا شروط المسلمين، فهى:

أ ـ ألا يدافع المسلمون عن الجزيرة، إذا هاجم سكانها محاربون.

ب ـ أن يدلّ سكان الجزيرة المسلمين على تحركات عدوّهم من الروم.

ج ـ أن يدفع سكان الجزيرة للمسلمين سبعة آلاف ومائتى دينار فى كل عام.

د ـ أن يكون طريق المسلمين إلى عدوّهم عليهم.

هـ ـ ألا يسـاعدوا الروم إذا حـاولوا غزو بلاد المسـلمين، ولا يُطلعـوهم على أسرارهم[١].

وعاد المسلمون إلى بلاد الشام، وأثبتت هـذه الحملة قدرة المسلمين على خوض غمـار المعارك البحـرية بجدارة، وأعطت المسلمـين فرصة المـران على الدخول فى معارك من هذا النوع مـع العدوّ المتربص بهم، سواء بالهجـوم على بلاد الشام، أو على الإسكندرية[٢].

٦ ـ عبد الله بن قيس قائد الأسطول الإسلامى فى الشام:

استعمل معاوية بن أبى سفيان على البحر عبد الله بن قيس الجاسىّ حليف بنى فزارة، فغزا خمسين غزاة ما بين شاتيـة، وصائفة فى البحر، ولـم يغرق فيه أحد، ولم ينكب، وكان يدعـو الله أن يرزقه الله العافيـة فى جنده، وألا يبتليـه بمصاب أحد منهم، ففعل، حتّى إذا أراد أن يصيبه وحـده، خرج فى قاربه طليعة، فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم، وعليه سؤّال يعترّون[٣] بذلك المكان، فتصدق عليهم،

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/٢٦١).

(٢) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص (٣٥٨، ٣٥٩).

(٣) يعترّون: يتعرضون للناس دون أن يسألهم.

فرجعت امرأة من السُّوَّال إلى قريتها، فقالت للرجال: هل لكم فى عبد الله بن قيس ؟ قالوا: وأين هو ؟ قالت: فى المرفأ، قالوا: أى عدوّة الله، ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس؟ فوبّختهم، وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله على أحد فساروا إليه، فهجموا عليه، فقاتلوه، وقاتلهم، فأصيب وحده، وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه، فجاءوا حتى أرقوا، والخليفة منهم سفيان بن عوف الأزدى، فخرج فقاتلهم، فضجر وجعل يعبث بأصحابه، ويشتمهم، فقالت جارية عبد الله: واعبد الله، ما هكذا كان يقول حين يقاتل! فقال سفيان: وكيف كان يقول؟ قالت: الغمرات ثم ينجلينا وأصيب فى المسلمين يومئذ، وذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الجاسى[1]، وقيل لتلك المرأة التى استثارت الروم على عبد الله ابن قيس: كيف عرفته؟ قالت: كان كالتَّاجر، فلمّا سألته، أعطانى كالملك، فعرفت أنه عبد الله بن قيس[2]. وهكذا حينما أراد الله تعالى أن يمنَّ بالشهادة على هذا القائد العظيم أتيحت له وهو فى وضع لا يضرُّ بسمعة المسلمين البحرية، حيث كان وحده يتطلع ويراقب الأعداء، فكانت تلك الكائنة الغريبة التى أبصرت غورها تلك المرأة الذكية من نساء تلك البلاد، حيث رأت ذلك الرَّجل يظهر من مظاهره الخارجيَّة بمظهر التُّجار العاديين، ولكنَّه يعطى عطاء الملوك، فلقد رأت فيه أمارات السِّيادة مع بساطة مظهره، فعرفت أنه قائد المسلمين، الذى دوّخ المحاربين فى تلك البلاد، وهكذا كانت سمات ذلك القائد وسخاؤه البارز حتى مع غير المسلمين سببًا فى كشف أمره، ومعرفة مركزه، ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً، فيتم بذلك الهجوم عليه، وظفر بالشهادة، وهكذا يضرب قادة المسلمين المُثُل العليا بأنفسهم، لتتمَّ الإنجازات الكبرى على أيديهم، وليكونوا قدوة صالحة لمن يخلفهم، فقد قام هذا القائد الملهم بمهمة الاستطلاع بنفسه، ولم يكل الأمر إلى جنوده، وفى انفراده بهذه المهمة مظنة للتورط مع الأعداء، والهلاك على أيديهم، ولكنه مع ذلك يغامر بنفسه، فيتولى هذه المهمة، ثمّ نجده يتخلق بأخلاق الإسلام العليا حتى مع نساء الأعداء، وضعفتهم فيمد لهم يد الحنان، والعطف، ويسخو لهم بالمال الذى هو من أعزِّ ما يملك الناس، ونجده قبل ذلك مع جنده رفيقًا صبورًا، ليس معنِّفًا،

---

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٦٠).

ولا مستكبرًا، وإذا ادلهمت الخطوب، تفانى لكشف الغمّة، ولم يلجأ إلى لوم أصحابه، وتعنيفهم، ولم يهيمن عليه الارتباك الذى يفسد العمل، ويعجّل بالخلل، والفوضى.

وأمّا خليفته سفيان الأزدىُّ، فلعله وقع فيما وقع فيه من الارتباك، والاشتغال بطرح اللائمة على جنده لكونه حديث العهد بأمور القيادة، ولكن مما يُحفظ له: أنَّه لما نبَّهته جارية عبد الله بن قيس إلى ذلك الأسلوب الحكيم الذى كان أميره ينتهجه فى القيادة سارع فى التأسى به فى ذلك، ولم يحمله التكبُّر على عدم سماع كلمة الحقّ، وإن صدرت من جارية مغمورة. وهذا مثل من أمثلة التجرد من هوى النفس، هذا الخلق العظيم الذى كان غالبًا فى الجيل الأوَّل، وبه تمّ إنجاز الفتوحات العظيمة، ونجاح الولاة، والقادة فى إدارة أمور الأمة، فلله درُّ أبناء ذلك الجيل ما أبلغ ذكرهم وما أبعد نحورهم! وما أعظم وطأتهم فى الأرض على الجبارين، أو ما أعذب لمساتهم فى الأرض على المستضعفين والمساكين[1].

٧ـ القبارصة ينقضون الصلح:

فى سنة اثنتين وثلاثين هجرية، وقع سكان قبرص تحت ضغط رومى عنيف أجبرهم على إمداد جيش الرُّوم بالسُّفن، ليغزوا بها بلاد المسلمين، وبذلك يكون القبرصيون قد أخلوا بشروط الصلح، وعلم معاوية بخيانة أهل قبرص، فعزم على الاستيلاء على الجزيرة، ووضعها تحت سلطان المسلمين، فقد هاجم المسلمون الجزيرة هجومًا عنيفًا، فقتلوا، وأسروا، وسلبوا، وهجم عليها جيش معاوية من جانب، وعبد الله بن سعد من الجانب الآخر، فقتلوا خلقًا كثيرًا، وسبوا سبيًا كثيرًا، وغنموا مالا جزيلا[2]، وتحت ضغط القوات الإسلامية اضطر حاكم قبرص أن يستسلم للفاتحين ويلتمس منهم الصلح، فأقرهم معاوية على صلحهم الأول[3]، وخشى معاوية أن يتركهم هذه المرة بغير جيش يرابط فى الجزيرة، فيحميها من غارات الأعداء، ويضبط الأمن فيها حتى لا تتمرد على المسلمين، فبعث إليهم اثنى عشر ألفًا من الجنود، ونقل إليهم جماعة من بعلبك، وبنى هناك مدينة، وأقام فيها مسجدًا، وأجرى معاوية على الجنود أرزاقهم، وظلّ الحال على

---

(١) التاريخ الإسلامى (١٢/٢٠٤).

(٢) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص (٣٥٩، ٣٦٠).

(٣) البلاذرى، ص (١٥٨).

ذلك، الجزيرة هادئة والمسلمون آمنون من هجمات الروم المفاجئة، ولاحظ المسلمون أنّ أهل قبرص ليس فيهم قدرات عسكرية، وهم مستضعفون أمام من يغزوهم، وأحس المسلمون أن الروم يغلبونهم على أمرهم، ويسخّرونهم لصالحهم، فرأوا أن من حقهم عليهم أن يحموهم من ظلم الروم، وأن يمنعوهم من تسلطّ البيزنطيين وقال إسماعيل بن عيّاش: أهل قبرص أذلاء مقهورون ويغلبهم الروم على أنفسهم، ونسائهم، فيحق علينا أن نمنعهم، ونحميهم[1].

٨ ـ ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه:

وقد جاء في سياق هذه الغزوة المذكورة خبر أبي الدرداء رضى الله عنه حينما نظر إلى سبى الأعداء فبكى، ثمّ قال: ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه، فانظر إلى هؤلاء القوم بينما هم ظاهرون قاهرون لمن ناوأهم، فلما تركوا أمر الله ـ عز وجلّ ـ وعصوه، صاروا إلى ما ترى[2].

وجاء في رواية: فقال له جبير بن نفير: أتبكى وهذا يوم أعزّ الله فيه الإسلام وأهله، فقال: ويحك، إن هذه كانت أمّة قاهرة لهم ملك، فلما ضيّعوا أمر الله، صيرّهم إلى ما ترى، سلط الله عليهم السبى، وإذا سلط على قوم السّبى، فليس لله فيهم حاجة، وقال: ما أهون العباد على الله تعالى، إذا تركوا أمره[3].

إن ما تفوّه به أبو الدرداء يعتبر مثلاً للبصيرة النافذة، والفقه فى أمر الله تعالى، فهذا الصحابى الجليل يبكى حسرة على هؤلاء الذين أعمى الله بصائرهم، فلم ينقادوا لدعوة الحق، فباءوا بهذا المصير المؤلم، حيث تحولوا من الملك، والعزة إلى الاستسلام والذّلة، لإصرارهم على لزوم الباطل، والتكبر على الخضوع لدعوة الحق، ولو أنهم عقلوا، وتدبّروا لكان فى دخولهم فى الإسلام بقاء ملكهم، وعمران ديارهم، والظفر بحماية دولة الإسلام، وإن هذا التفكير العميق من أبى الدرداء مظهرٌ من مظاهر الرّحمة، والعطف، تفتحت عنه نفسه الزكية، فتشكل ذلك فى الظاهر على هيئة دموع تتحدّر من عينى هذا الرجل العظيم، ليعبّر عمّا يجول فى نفسه من نظرات الحنان، والرّحمة، والأسى على مصير تلك الأمة التى

---

(١) جولة تاريخية، ص (٣٦١).
(٢) التاريخ الإسلامى (١٢/ ٣٩٦).
(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٥٩).

اجتمع البقاء على الضلال، والمآل السيئ بزوال الملك، والوقوع فى الذل والهوان، وإنّه بقدر ما يفرح المسلم بدخول الناس فى الإسلام، فإنه يحزن من رؤية الكافرين وهم يعيشون فى ضلال مع إدراكه ما ينتظرهم من العذاب الأليم المؤبد فى الآخرة، فكيف إذا أضيف إلى ذلك وقوعهم فى الأسر، والتشرّد، وتعرضهم للقتل فى الحياة الدنيا؟[1]

٩ ـ معاوية يولى عبادة بن الصامت رضى الله عنهما على قسمة غنائم قبرص:

قال عبادة بن الصامت لمعاوية رضى الله عنهما: شهدت رسول الله ﷺ فى غزوة حنين والناس يكلمونه فى الغنائم، فأخذ وبرة من بعير، وقال: مالى مما أفاء الله عليكم من هذه الغنائم إلا الخمس، والخمس مردود فيكم[2]. فاتق الله يا معاوية! واقسم الغنائم على وجهها، ولا تعط منها أحدًا أكثر من حقه! فقال له معاوية: قد وليتك قسمة الغنائم، ليس أحد بالشّام أفضل منك، ولا أعلم، فاقسمها بين أهلها، واتق الله فيها، فقسمها عبادة بين أهلها، وأعانه أبو الدرداء، وأبو أمامة[3].

وعبادة بن الصامت رضى الله عنه من مؤسسى المدرسة الشامية، فقد وجهه عمر إلى الشام قاضيًا ومعلمًا، فأقام بحمص ثم انتقل إلى فلسطين فولى قضاءها، واستقر به المقام فيها، فكان أول من تولى قضاء فلسطين، وكان أيضا يعلم أهلها القرآن، وظل على هذا النحو إلى أن مات بها[4]، وقد أسهم عبادة رضى الله بنصيب كبير فى تنفيذ سياسة الخلافة الراشدة العلمية والتربوية والجهادية، وكان رضى الله عنه من أهل الزهد والخشونة، فعندما وصل إلى حمص قال لأهلها: ألا أن الدنيا عرض حاضر، وإن الآخرة وعد صادق، ألا أن للدنيا بنين وإن للآخرة بنين، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن كل أم يتبعها بنوها[5].

١٠ ـ حقيقة الخلاف بين أبى ذر ومعاوية وموقف عثمان -رضى الله عنه- منه:

إن مبغضى عثمان بن عفان رضى الله عنه كانوا يشنّعون عليه أنه نفى أبا ذر رضى الله عنه إلى الربذة، وزعم بعض المؤرخين: أن ابن السوداء عبد الله بن سبأ

---

(١) التاريخ الإسلامى (١٢/ ٣٩٧). (٢) البداية والنهاية (٤/ ٣٥٣).

(٣) الرياض النضرة، ص (٥٦١). (٤) عبادة بن الصامت، صحابى كبير وفاتح مجاهد، ص (٨٤).

(٥) الاكتفاء، الكلاعى (٣/ ٣١٠).

لقى أبا ذر فى الشام، وأوحى إليه بمذهب القناعة، والزهد، ومواساة الفقراء، ووجوب إنفاق المال الزائد عن الحاجة، وجعله يعيب معاوية، فأخذه عبادة بن الصامت إلى معاوية، وقال له: هذا والله الذى بعث إليك أبا ذر. فأخرج معاوية أبا ذر من الشام[1]، وقد حاول أحمد أمين أن يوجد شبهًا بين رأى أبى ذر، ورأى مزدك الفارسى، وقال إن وجه الشبه جاء من أن ابن سبأ كان فى اليمن وطوّف فى العراق، وكان الفرس فى اليمن، والعراق قبل الإسلام، فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقّى هذه الفكرة من مزدكية العراق، واعتنقها أبو ذر على حسن النية فى اعتقادها[2]. وكل ما قيل فى قصَّة أبى ذر، مما يُشنَّع به على عثمان باطل لا يُبنى على رواية صحيحة، وكلُّ ما قيل حول اتصال أبى ذر رضى الله عنه بابن السَّوداء باطل لا محالة[3]. والصحيح: أن أبا ذرّ رضى الله عنه نزل فى الربذة باختياره، وأنّ ذلك كان بسبب اجتهاد أبى ذرّ فى فهم آية خالف فيه الصَّحابة، وأصرَّ على رأيه، فلم يوافقه أحد عليه، فطلب أن ينزل بالربذة[4]، التى كان يغدو إليها زمن النبى ﷺ، ولم يكن نزوله بها نفيًا قصريًا، أو إقامة جبرية، ولم يأمره الخليفة بالرجوع عن رأيه، لأن له وجهًا مقبولاً، لكنَّه لا يجب على المسلمين الأخذ به[5].

وأصح ما روى فى قصة أبى ذرّ رضى الله عنه ما رواه البخارى فى صحيحه عن زيد بن وهب، قال: مررت بالرَّبذة، فإذا أنا بأبى ذرٍّ رضى الله عنه، فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشَّام، فاختلفت أنا ومعاوية فى ﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا إنَّ كثيرا مِّن الأحبار والرُّهبان ليأكُلُون أموال النَّاس بالباطل ويصُدُّون عن سبيل اللَّه والَّذين يكنزُون الذَّهب والفضَّة ولا يُنفقُونها في سبيل اللَّه فبشِّرهُم بعذابٍ أليمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] قال معاوية: نزلت فى أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا، وفيهم، فكان بينى وبينه فى ذاك، وكتب إلى عثمان يشكونى، فكتب إلىَّ عثمان أن اقدم المدينة، فقدمتها، فكثر علىَّ الناس حتَّى كأنهم لم يرونى قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال لى: إن شئت تنحيت فكنت قريبًا، فذاك الذى أنزلنى هذا المنزل، ولو أمّروا علىَّ حبشياً، لسمعت وأطعت[6]. وقد أشار هذا الأثر إلى أمور مهمة منها:

---

(١) المدينة المنوّرة فجر الإسلام (٢/ ٢١٦ ، ٢١٧) .
(٢) فجر الإسلام، ص (١١٠).
(٣) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/٢١٧).
(٤) كانت منزلاً فى الطريق بين العراق ومكة.
(٥) المدينة المنورة، فجر الإسلام (٢/٢١٧).
(٦) البخارى، ك الزكاة رقم (١٤٠٦).

أ ـ سأله زيد بن وهب، ليتحقَّق ممَّا أشاعه مبغضو عثمان: هل نفاه عثمان أو اختار أبو ذرّ المكان؟ فجاء سياق الكلام: أنه خرج بعد أن كثر النّاس عليه يسألونه عن سبب خروجه من الشَّام، وليس فى نص الحديث: أنَّ عثمان أمره بالذهاب إلى الربذة، بل اختارها بنفسه، ويؤيد هذا ما ذكره ابن حجر عن عبد الله بن الصَّامت قال: دخلت على أبى ذرٍّ عند عثمان، فحسر رأسه، فقال: والله ما أنا منهم ـ يعنى الخوارج ـ فقال: إنَّما أرسلنا إليك لتجاورنا بالمدينة، فقال: لا حاجة لى فى ذلك، ائذن لى بالرَّبذة. قال: نعم[1].

ب ـ قوله: كنت بالشَّام: بيَّن السَّبب فى سكناه الشَّام ما أخرجه أبو يعلى عن طريق زيد بن وهب، حدَّثنى أبو ذرٍّ، قال: قال لى رسول الله ﷺ «إذا بلغ البناء ـ أى المدينة ـ سَلْعًا، فارتحل إلى الشَّام» فلمَّا بلغ البناء سلعًا، قدمت الشام فسكنت فيها[2].

جـ ـ إنَّ قصة أبى ذر فى المال جاء من اجتهاده فى فهم الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥]. وروى البخارى عن أبى ذر ما يدل على أنَّه فسَّر الوعيد «يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا» الآية، وكان يخوِّف النَّاس به، فعن الأحنف بن قيس، قال: جلستُ إلى ملأ من قريش فى مسجد المدينة، فجاء رجل خَشِن الشَّعر، والثِّياب، والهيئة، حتى قام عليهم، فسلَّم، ثم قال: بشِّر الكانزين بَرَضف[3] يُحمى عليه فى نار جهنَّم ثم يوضع على حلمة ثدى أحدهم، حتَّى يخرج من نُغضى كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه، يتزلزل[4]. ثمَّ ولَّى فجلس فى سارية، وتبعته، وجلست إليه، وأنا لا أدرى من هو، فقلت له: لا أرى القوم إلا قد كرهوا الذى قلت، قال: إنَّهم لا يعقلون شيئًا. واستدلَّ أبو

---

(١) فتح البارى (٣/ ٢٧٤).   (٢) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٩).

(٣) الرَّضف. الحجارة المحماة، واحدها: رضفة.

(٤) نغض: العظم الدقيق الذى على طرف الكتف، يتزلزل: يضطرب.

ذرّ رضى الله عنه بقول رسول الله ﷺ «ما أحبُّ أنَّ لى مثل أحد ذهبًا، أنفقه كُلَّه إلا ثلاثة دنانير»[٥].

د ـ وقد خالف جمهور الصحابة أبا ذرّ، وحملوا الوعيد على مانعى الزّكاة واستدلوا على ذلك بالحديث، الذى رواه أبو سعيد الخدرى، قال: قال النّبى ﷺ: «ليس فيما دون خمس أواق صدقة[١]، وليس دون خمس ذَوْد صدقة، وليس فيما دون خمسة أوسق صدقة». وقال الحافظ ابن حجر: ومفهوم الحديث: أنَّ ما زاد على الخمس ففيه صدقة، ومقتضاه: أنَّ كلَّ ما أخرجت منه الصَّدقة، فلا وعيد على صاحبه، فلا يسمى ما يفضل بعد إخراج الصدقة كنزًا[٢]، هذا وقد فصلت فى موضوع أبى ذرّ وخلافه مع معاوية رضى الله عنهما فى كتابى عثمان بن عفان رضى الله عنه، وأثبت بالحجج والأدلة والبراهين أن عثمان رضى الله عنه لم ينف أبا ذرٍّ، رضى الله عنه، إنما استأذنه، فأذن له، ولكنَّ أعداء عثمان رضى الله عنه كانوا يشيعون عليه بأنَّه نفاه، ولذلك لما سأل غالب القطان، الحسن البصرى: عثمان أخرجٍ أبا ذر؟ قال الحسن: لا، معاذ الله[٣]، وكل ما روى فى أنَّ عثمان نفاه إلى الربذة فإنه ضعيف الإسناد، لا يخلو من علة قادحة، مع ما فى متنه من نكارة لمخالفته للمرويَّات الصحيحة والحسنة، التى تبيِّن أن أبا ذر استأذن للخروج إلى الرّبذة، وأنَّ عثمان أذن له[٤]، بل إن عثمان أرسل يطلبه من الشام، ليجاوره بالمدينة، فقد قال له عندما قدم من الشام: إنا أرسلنا إليك لخير، لتجاورنا بالمدينة[٥]. وقال له أيضا: كن عندى، تغدو عليك وتروح اللقاح[٦]. أفمن يقول ذلك ينفيه؟![٧]. ولم تنصّ على نفيه إلا رواية رواها ابن سعد، وفيها بريدة بن سفيان الأسلمى الذى قال عنه الحافظ ابن حجر: ليس بالقوى، وفيه رفض. فهل تقبل رواية رافضى تتعارض مع الروايات الصحيحة، والحسنة[٨]؟

واستغل الرّافضة هذه الحادثة أبشع استغلال، فأشاعوا أن عثمان رضى الله عنه نفى أبا ذر إلى الربذة، وأن ذلك مما عيب عليه من قبل الخارجين عليه، أو أنّهم

---

(١) البخارى: ك الزكاة رقم (١٤٠٧). (٢) البخارى رقم (١٤٠٥).

(٣) فتح البارى (٣/ ٢٧٢). (٤) تاريخ المدينة، ابن شبَّة، ص (١٠٣٧)، إسناده صحيح.

(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١١٠).

(٥) تاريخ المدينة، ص (١٠٣٦، ١٠٣٧) إسناده حسن.

(٦) الطبقات، لابن سعد (٤/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٧) فتنة مقتل عثمان (١ / ١١١). (٨) المصدر السابق نفسه.

سوّغوا الخروج عليه[1]، وعاب على عثـمان رضى الله عنه ذلك ابن المطهر الحلّى الشيعى المتوفى سنة ٧٢٦هـ، بل زاد: أن عـثمان رضى الله عنه ضرب أبا ذرٍّ ضربًا وجيعًا، ورد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية ردًا جامعًا قويًا[2]، وكان سلف هذه الأمَّة يعلمون هذه الحقيقة، فإنَّه لما قيل للحسن البصرىِّ: عثمان أخرج أبا ذرٍّ؟ قال: لا، معاذ الله[3]. وكان ابن سـيرين إذا ذُكر له أنَّ عـثمان رضى الله عنه سـيَّر أبا ذر، أخذه أمرٌ عظيم، ويقول: هو خرج من نفسه، ولم يسيِّره عثمان[4]، وكما تقدم فى الرِّواية الصحيحة الإسناد: أنَّ أبا ذرّ رضى اللـه عنه لما رأى كثرة النَّاس عليه خشى الفتنة، فذكر ذلك لعثمان كأنه يستأذنه فى الخروج، فقال له عثمان رضى الله عنه: إن شئت تنحيت فكنت قريبًا[5]. كما أن أبا ذرٍّ رضى الله عنه لم يتأثر لا من قريب ولا من بعيـد بآراء عبد الله بن سـبأ اليهـودىِّ، وقد أقام بالـرَّبذة حتى توفى، ولم يحـضر شـيئًـا مما وقع فى الفتن[6]، ثمَّ إنه قد روى حـديثًا من أحـاديث النَّهى عن الدخول فى الفتنة[7]، وبعد وفاة أبى ذر رضى الله عنه ضمّ أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه عياله إلى عياله[8]، فرضى الله عن جميع الصحابة الأبرار، الطيبين الأطهار.

١١ - اتهام عثمان رضى الله عنه بإعطاء أقاربه من بيت المال:

اتُّهم عثمان رضى الله عنه من قبل الغـوغاء، والخوارج بإسرافه فى بيت المال، وإعطائه أكـثره لأقاربه، وقـد ساند هذا الاتِّهـام حملة دعـائية باطلة قـادها أعداء الإسـلام ضدَّه، وتسـرَّبت فى كـتب التـاريخ، وتعـامل معـهـا بعض المفكِّرين، والمؤرخين على أنها حقائق، وهى باطلة لم تثبت، لأنها مختلقة، والذى ثبت من إعطائه أقاربه أمور تعد من مناقبه، لا من المثالب[9] فيه. إن عثمان رضى الله عنه كان ذا ثروة عظيمة، وكان وصولاً للرحم[10] يصلهم بصلات كثيرة وفيرة، فنقم

---

(١) فتنة مقتل عثمان (١/ ١١١).
(٢) منهاج السنة لابن تيمية (٦/ ١٨٣).
(٣) تاريخ المدينة (١٠٣٧) إسناده صحيح.
(٤) المصدر السابق.
(٥) البخارى، ك: الزكاة رقم (١٤٠٦).
(٦) أحداث الفتنة الأولى بين الصحابة فى ضوء قواعد الجرح والتعديل، ص (١٧٤).
(٧) المصدر نفسه، ص (١٧٤).
(٨) تاريخ الطبرى (٥/ ٣١٤).
(٩) عثمان بن عفان للصلاَّبى، ص (١٤٨).
(١٠) فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص (٨٢).

عليه أولئك الأشرار، وقالوا إنه إنما كان يصلهم من بيت المال، وعثمان قد أجاب عن موقفه هذا بقوله: وقالوا: إني أحبُّ أهل بيتي، وأعطيهم.. فأمّا حبِّي لهم؛ فإنَّه لم يمل معهم إلى جور، بل أحمل الحقوق عليهم.. وأما إعطاؤهم، فإني إنّما أعطيهم من مالي، ولا استحلُّ أموال المسلمين لنفسي، ولا لأحد من الناس، وقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرَّغية من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وأنا يومئذ شحيح حريص، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي[1]، وفني عمري، وودَّعت الذي لي في أهلي، قال الملحدون ما قالوا؟[2]. وكان عثمان قد قسَّم ماله، وأرضه في بني أمية، وجعل ولده كبعض مَنْ يعطي، فبدأ ببني أبي العاص، فأعطى آل الحكم؛ رجالهم عشرة آلاف، فأخذوا مائة ألف، وأعطى بني عثمان مثل ذلك، وقسم في بني العاص، وفي بني العيص، وفي بني حرب[3]. فهذه النصوص وغيرها وممَّا اشتهر عنه، وما صحَّ من الأحاديث في فضائله الجمّة تدل على أن ما قيل فيه من إسرافه في بيت المال، وإنفاق أكثره على أقاربه، وقصوره، حكايات بدون زمام، ولا خطام[4].

إن سيرة عثمان -رضي الله عنه- في أقاربه تمثِّل جانبًا من جوانب الإسلام الكريمة الرحيمة، لقوله تعالى: ﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا﴾ [الإسراء: ٢٦]. كما أنَّها تمثِّل جانبًا عمليًا من سيرة المصطفى ﷺ، فقد رأى عثمان رضي الله عنه من رسول الله ﷺ وعلم من حاله ما لم ير، أو يعلم غيره من منتقديه وعقل من الفقه ما لم يعقله مثله من جمهرة النَّاس، وكان ممَّا رأى شدَّة حبِّ رسول الله ﷺ لأقاربه وبرِّه لهم، وإحسانه إليهم، وقد أعطى عمَّه العباس ما لم يعط أحدًا عندما ورد عليه مال البحرين[5]، ولعثمان وسائر المؤمنين في رسول الله أعظم القدوة[6]، وقد ردَّ ابن تيمية ـ رحمه الله ـ على من اتَّهم عثمان بتفضيله أهله

---

(١) جاوزت أعمارهم.

(٢) تاريخ الطبري (٥/ ٣٥٦).

(٣) المصدر نفسه (٥/ ٣٥٦).

(٤) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب، ص (٨٣).

(٥) البخاري، ك: الجزية.

(٦) البداية والنهاية (٧/ ٢٠١).

بالأموال الكثيرة من بيت المال فقال: وكان يؤثر أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال حتَّى إنَّه دفع إلى أربعة نفر من قريش زوَّجهم بناته أربعمائة ألف دينار، ودفع إلى مروان ألف ألف دينار ـ مليون دينار ـ فالجواب يقال: أين النقل الثابت بهذا؟. نعم كان يعطى أقاربه، ويعطى غير أقاربه أيضًا، وكان يحسن إلى جميع المسلمين، وأمَّا هذا القدر الكثير فيحتاج إلى نقل ثابت، ثم يقال ثانيًا: هذا من الكذب البيِّن، فإنه لا عثمان ولا غيره من الخلفاء الراشدين أعطوا أحدًا ما يقارب هذا المبلغ[1].

١٢ـ هل عيَّن عثمان رضى الله عنه أحدًا من أقربائه على حساب المسلمين؟

لم يعين عثمان رضى الله عنه أحدًا من أقاربه على حساب المسلمين ولو أراد أن يجامل أحدًا من أقاربه على حساب المسلمين لكان ربيبه محمد بن أبى حذيفة أولى النَّاس بهذه المجاملة، ولكنَّ الخليفة أبى أن يوليه شيئًا ليس كفئًا له بقوله: يابنىَّ لو كنت رضًا ثم سألتنى العمل، لاستعملتك، ولكن لست[2] هناك ولم يكن ذلك كراهية له، ولا نفورًا منه، وإلا لما جهَّزه من عنده، وحمله، وأعطاه حين استأذن فى الخروج إلى مصر[3]، وأمَّا استعمال الأحداث فكان لعثمان رضى الله عنه فى رسول الله أسوة حسنة فقد جهَّز جيشًا لغزو الرُّوم فى آخر حياته، واستعمل عليه أسامة بن زيد، رضى الله عنهما[4]، وعندما توفى الرَّسول ﷺ تمسَّك الصديق رضى الله عنه بإنفاذ هذا الجيش، لكنَّ بعض الصحابة رغبوا فى تغيير أسامة بقائد أحسن منه، فكلَّموا عمر فى ذلك ليكلم أبا بكر، فغضب أبو بكر لَمَّا سمع هذه المقالة، وقال لعمر: يا عمر استعمله رسول الله ﷺ ،وتأمرنى أن أعزله[5]. ويجيب عثمان بنفسه على هذه المآخذ أمام الملأ من الصحابة بقوله: ولم

(١) منهاج السنة (٣/ ١٩٠).

(٢) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٢٤٧).

(٣) المصدر السابق (١/ ٢٤٧)، تاريخ الطبرى (٥/ ٤١٦).

(٤) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٢٤٧)، تاريخ الطبرى (٥/ ٤١٦).

(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٤١٦).

أستعـمل إلا مجتمـعًا، محتلمًـا، مرضيًا، وهؤلاء أهل عـملهم، فسلوهم عنهم، وهؤلاء أهل بلدهم، وقـد ولى من قبلى أحـدث منهم، وقيل لرسـول الله ﷺ قيل لى فى استعـماله لأسامة،أكذلك؟ قالوا: نعم يعيبـون للنَّاس مالا يفسرون[1].
ويقول عليّ رضـى الله عنه: ولا يولِّ -أى عثمـان - إلا رجلاً سـويًا، عدلاً، وقد ولىَّ رسول الله ﷺ عتّاب بن أسـيد على مكّة وهو ابن عشرين سنة[2]، ولم يكن ولاة الأمصار فى عهد عثـمان رضى الله عنه جاهلين بأمور الشَّرع، ولم يكونوا من المفـرِّطين فـى الدِّين، وإذا كانـت لهم ذنوب، فلهم حـسنات كثيرة، ومع ذلك فإن سيئات وذنوب هؤلاء تعود عليهم ولم يكن لها تأثير فى المجتمع المسلم، وقـد تتبعنا آثار هؤلاء الولاة أيَّام ولايتهم، ووجـدناها عظيمة الفائدة للإسلام والمسلمـين، وقد اهتدى على يدى ولاة عثمـان مئات الألوف إلى الإسلام، وبسبب فتوحاتهم انضم إلى ديار الإسلام أقاليم واسعة، ولو لم يكن عند هؤلاء من الشجاعة والدِّين ما يحثـهم على الجهاد، ما قادوا الجيوش إلى الجهاد، وفيـه مظنة الهلاك، وفيه ترك الراحة، ومتاع الدنيـا. وقد تتبعت سيرة هؤلاء الولاة، فـوجدت لكل واحد منهم فتـحًا، أو فتوحًـا فى الجهات التى تجاور ولايته، مع مناقب وصفات حـسنة تؤهله للقيادة، وقد فصلت فى كتابى عن عثمان رضى الله عنه فى مبحث مستقل حقيقة ولاة عثمان[3] رضى الله عنه.

إن الذى يرجع إلى الصـحيح المـمحّص من وقـائع التـاريخ، ويتتـبع سيـرة الرجال الذين استـعان بهم أمير المؤمنين ذو النورين - رضـوان الله عليهم - وما كان لجهـادهم من جميل الأثر فى تاريخ الدعـوة الإسلامية، بل مـا كان لحسن إدارتهم من عظيم النتائج فى هناء الأمّـة، وسعادتها، فـإنه لا يستطيع أن يمنع نفـسه عن الجـهر بالإعـجاب، والفـخر كلمّـا أمعن فى دراسـة ذلك من أدوار التاريخ الإسلامى[4].

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٥٥) . (٢) البداية والنهاية (٧/ ١٧٨)
(٣) عثمان بن عفان للصلّابى. ص (٢٩٤).
(٤) حاشية المنتقى من منهاج الاعتدال، ص (٣٩).

إن عثمان رضى الله عنه وولاته انشغلوا بمدافعة الأعداء، وجهادهم، وردّهم، ولم يمنعهم ذلك من توسيع رقعة الدولة الإسلامية، ومدّ نفوذها فى مناطق جديدة، وقد كان للولاة تأثير مباشر فى أحداث الفتنة؛ حيث كانت التهمة موجهة إليهم، وأنّهم اعتدوا على الناس، ولكنّنا لم نلمس حوادث معينة يتّضح فيها هذا الاعتداء المزعوم، والمشاع، كما اتُّهم عثمان بتولية أقاربه، وقد دحضنا تلك الفرية. وهكذا نرى أنّ عثمان لم يألُ جهدًا فى نصح الأمة، وفى تولية من يراه أهلاً للولاية، ومع هذا لم يسلم عثمان، وولاته من اتهامات وجهت إليهم من قبل أصحاب الفتنة فى حينها، كما أن عثمان رضى الله عنه لم يسلم من كثير من الباحثين فى كتاباتهم غير المحقّقة عن عهد عثمان وخصوصًا الباحثين المحدثين الذين يطلقون أحكامًا لا تعتمد على التحقيق، أو على وقائع محددة، يعتمدون فيها على مصادر موثوقة، فقد تورّط الكثير منهم فى الرّوايات الضّعيفة، والرافضيّة، وبنو أحكامًا باطلة وجائرة فى حق الخليفة الرّاشد عثمان بن عفان، مثل طه حسين فى كتابه «الفتنة الكبرى»، وراضى عبد الرحيم فى كتابه «النظام الإدارى والحربى»، وصبحىّ الصالح فى كتابه «النُّظم الإسلامية»، ومولوى حسين فى كتابه «الإدارة العربية»، وصبحى محمصانى فى كتابه «تراث الخلفاء الراشدين فى الفقه»، والقضاء، وتوفيق اليوزبكى فى كتابه «دراسات فى النظم العربية والإسلامية»، ومحمد الملحم فى كتابه «تاريخ البحرين فى القرن الأول الهجرى»، وبدوى عبد اللطيف فى كتابه «الاحزاب السياسية فى فجر الإسلام»، وأنور الرِّفاعى فى كتابه «النظم الإسلامية»، ومحمد الرِّيِّس فى كتابه «النظريات السياسية»، وعلى حسنى الخربوطلى فى كتابه «الإسلام والخلافة»، وأبى الأعلى المودودى فى كتابه «الملك والخلافة» وسيد قطب فى كتابه «العدالة الاجتماعية»، وغيرهم[1].

ولقد أكثر المؤرخون من الحديث عن محاباة عثمان أقاربه، وسيطرتهم على أزمة الحكم فى عهده، حتى أثاروا عليه نقمة كثير من الناس، فثاروا ناقمين عليه إطلاقه يد ذوى قرباه فى شئون الدولة[2]، وأقارب عثمان الذين ولاهم رضى الله عنه

---

(١) الولاية على البلدان (١/ ٢٢٢ - ٢٣٢).

(٢) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٥٩).

أولّهم معاوية بن أبى سفيان، والثـانى عبد الله بن أبى السرح، والثالث الوليد بن عقبة، والرابع سعيد بن العاص، والخامس عبد الله بن عامر، هؤلاء خمسة ولاهم عثـمان، وهم من أقـاربه، وهذا فى زعمـهم مطعن عليه، فلو أخـذنا إحصـائية لوجدنا أن عـدد الولاة فى عهد عـثمان سـتة وعشـرون واليًا، ألا يصح أن يكون خمسة من بنى أمية يستـحقون الولاية، وبخاصة إذا علمنا أن النبى ﷺ كان يولىّ بنى أمية أكثر من غيرهم؟ علمًا بأن هؤلاء الولاة لم يكونوا كلّهم فى وقت واحد، بل كان عثمـان رضى الله عنه ولىّ الوليد بن عقبة، ثمّ عزله، فـولى مكانه سعيد ابن العاص، فلم يكونوا خمـسة فى وقت واحد، ولم يتوفّ عثـمان إلا وقد عزل أيضا سعـيد بن العاص، فعندمـا توفى عثمان لم يكن من بنـى أمية من الولاة إلا ثلاثة وهم معاوية، وعبد الله بن سعد بن أبى السرح، وعبد الله بن عامر بن كريز فقط، عزل عثمان الوليد بن عقبة، وسعيد بن العاص، ولكنّه عزلهما من أين؟ من الكوفة التى عزل منها عمـر سعد بن أبى وقاص، الكوفة التى لم ترض بوالٍ أبدًا، إذ عزلُ عثـمان رضى الله عنه لأولئك الولاة لا يعتبر مطعـنًا فيهم، بل مطعن فى أهل الشغب فى المدينة التى ولُّوا عليها[1].

إن بنى أمية كان رسول الله ﷺ يستعـملهم فى حياته، واستعملهم بعده من لا يُتهم بقـرابة منهم أبو بكر، وعمر، رضى الله عنهمـا، ولا نعرف قبيلة مـن قبائل قريش فيـها عمّال لرسول الله ﷺ أكثـر من بنى عبد شمس! لأنهم كانوا كـثيرين وكان فيهم شرف وسؤدد، فاستعمل النبى ﷺ عتّاب بن أسيد بن أبى العاص على مكة، وأبا سـفيـان بن حرب على نجـران، وخالد بن سـعيـد على صدقـات بنى مدحج، وأبان بن سعـيد على بعض السّرايا ثمّ على البحرين. فعـثمان رضى الله عنه، لم يستعمل إلا من استعمله النبى ﷺ، ومن جنسهم، وقبيلتهم، وكذلك أبو بكر وعمـر بعده، فقـد ولى أبو بكر يزيد بن أبى سفيـان فى فتوح الشـام، وأقرّه عمر، ثمّ ولى عمر بعده أخاه معاوية[2].

والسؤال الذى يطرح نفســه أأثبت هؤلاء كفاءتهم أم لا؟ والحقيقـة العلمية التى أثبتها فى كتابى عن عثمان رضى الله عـنه بأن ولاة عثمان أثبتوا كفاءتهم، فالولاة

(1) حقبة من التاريخ، ص (75).

(2) منهاج السنة (3/ 175، 176).

الذين ولاهم عثمان رضى الله عنه من أقاربه قد أثبتوا الكفاءة والمقدرة فى إدارة شئون ولاياتهم، وفتح الله على أيديهم الكثير من البلدان، وساروا فى الرعية سيرة العدل والإحسان[1]، فمثلاً معاوية رضى الله عنه كانت سيرته مع الرعية فى ولايته من خير سير الولاة مما جعل النّاس يحبونه، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ قال «خيار أئمتكم ـ حكامكم ـ الذين تحبونهم، ويحبونكم، وتصلون عليهم ـ تدعون لهم ـ ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم، ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم» [2]، وقد بين القاضى ابن العربى وأثبت أن رسول الله استكتب معاوية، وأن سند ولايته الأعمال فى الدولة الإسلامية لم يكن لأحد قبله، ولم يكن لأحد بعده، حيث اجتمع على توليته: رسول الله ﷺ ، ومن بعده خلفاؤه الثلاثة، ثم صالحه وأقرّ له بالخلافة الحسن بن على بن أبى طالب[3].

١٣ ـ أسباب فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه:

قال الزهرى: ولى عثمان اثنتى عشرة سنة أميرًا للمؤمنين، أوّل ستّ سنين منها لم ينقم الناس عليه شيئًا، وإنّه لأحبُّ إلى قريش من عمر بن الخطاب، لأنّ عمر كان شديدًا عليهم، أمّا عثمان، فقد لان لهم، ووَصَلَهم، ثمّ حدثت الفتنة بعد ذلك، وقد سمّى المؤرّخون المسلمون الأحداث فى النِّصف الثانى من ولاية عثمان ٣٠ ـ ٣٥هـ (الفتنة)، التى أدَّت إلى استشهاد عثمان رضى الله عنه[4]، وكان المسلمون فى خلافة أبى بكر، وعمر، وصدرًا من خلافة عثمان، متَّفقين، لا تنازع بينهم، ثم حدثت فى أواخر خلافة عثمان أمور، أوجبت نوعًا من التفرق، وقام قوم من أهل الفتنة، والظلم فقتلوا عثمان، فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان[5]، وكان المجتمع الإسلامى فى خلافة الصديق، والفاروق، والنِّصف الأوَّل من خلافة عثمان يتَّصف بالسِّمات الآتية:

أنه -فى عمومه ـ مجتمع مسلم بكل معانى الإسلام، عميق الإيمان بالله واليوم الآخر، مطبق الإسلام بجدية واضحة، والتزام ظاهر، وبأقلّ قدر من المعاصى وقع فى أى مجتمع فى التَّاريخ.

---

(١) تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة (١/٤١٧) .

(٢) مسلم، ك الإمارة رقم (٦٥).

(٣) العواصم من القواصم، ص (٨٢).

(٤) طبقات ابن سعد (١/٣٩ ـ ٤٧)، الخلفاء الرّاشدون للخالدى، ص (١١٢).

(٥) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٠)

- أنه المجتمع الذى تحقَّق فيه أعلى مستوى للمعنى الحقيقىِّ للأمَّة بمعناها الرَّبانى، فهى الأمة التى تربط بينها رابطة العقيدة، بصرف النظر عن اللغة، والجنس، واللَّون، ومصالح الأرض القريبة، وهذه لم تتحقَّق فى التاريخ كما تحققت فى الأمة الإسلامية.

- أنه مجتمع أخلاقى يقوم على قاعدة أخلاقية واضحة مستمدة من أوامر الدين، وتوجيهاته.

- أنه مجتمع جادٌّ، مشغول بمعالى الأمور لا بسفاسفها، وليس الجدُّ بالضرورة عبوسًا، وصرامة، ولكنه روح تبعث الهمّة فى الناس، وتحثُّ على النشاط، والعمل، والحركة.

- أنه مجتمع مجنَّد للعمل، فى كلِّ اتجاه، تلمس فيه روح الجنديَّة واضحة لا فى القتال فى سبيل الله فحسب، ولكن فى جميع الاتجاهات، فهو معبأً من تلقاء نفسه بدافع العقيدة، وبتأثير شحنتها الدّافعة لبذل النشاط فى كلِّ اتجاه[1].

- أنه مجتمع متعبِّدُ نلمس فيه روح العبادة واضحة فى تصرفاته، ليس فقط فى أداء الفرائض، والتطوّع بالنَّوافل ابتغاء مرضاة الله، ولكن فى أداء الأعمال جميعًا، والعمل فى حسِّه عبادةٌ، يؤديه بروح العبادة[2].

هذه من أهم صفات عهد الخلفاء الراشدين ـ بصفة عامة ـ إلا أن تلك السِّمات كانت أقوى كلماً اقتربنا من عهد النبوة، وتضعف كلَّما ابتعدنا عن عصر النُّبوة، وقد بدأ التغير على عهد الخلافة الراشدة مع ظهور فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه، وكان لظهور هذه المحنة العظيمة التى مرت بها الأمة أسباب منها:

أ - الرخاء وأثره فى المجتمع: وغنىٌّ عن الإشارة أنَّ النِّعم، والخيرات، وتلك الواردات من الفتوح سيكون لها أثرها على المجتمع، إذ تجلب الرَّخاء وما يترتَّب عليه من انشغال النَّاس بالدُّنيا، والافتتان بها، كما أنَّها مادة للتنافس، والبغضاء، خاصة بين أولئك الذين لم يصقل الإيمان نفوسهم، ولم تهذبهم التَّقوى من أعراب البادية، وجفاتها، ومن مسلمة الفتوحات، وأبناء الأمم المترفة، وقد أدرك

---

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١٠٢). (٢) المصدر نفسه، ص (١٠٢).

عثمان رضى الله عنه هذه الظاهرة وأنذر بما سيئول إليه أمر الأمّة من التَّبذُّل والتغيُّر فى كتابه الموجه إلى الرّعية: فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاثة فيكم: تكامل النِّعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن[1]. وحدث ما توقعه عثمان رضى الله عنه، وبدأ التغير يظهر أثره أولاً على أطراف الدّولة الإسلامية ثم أخذ يزحف إلى عاصمة الخلافة، ممّا دفع عثمان رضى الله عنه إلى تذكير المسلمين فى خُطَبه بضرورة الحذر من التهالك على الدنيا، وحطامها، فكان مما قاله فى إحدى خطبه: إنّ الله إنَّما أعطاكم الدُّنيا، لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها، لتركنوا إليها، إن الدنيا تفنى، وإن الآخرة تبقى، ولا تبطرنَّكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية، . . . واحذروا من الله الغير، والزموا جماعتكم، لا تصيروا أحزابًا[2]، ثم قرأ: ﴿واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣، ١٠٤].

وفى مثل هذه الظروف، والخيرات، فاضت الدُّنيا على المسلمين وتفرّغ الناس بعد أن فتحوا الأقاليم، واطمأنُّوا فأخذوا ينقمون على خليفتهم[3]. ومن هنا يُعلم أثر الرخاء فى تحريك الفتنة، ومن هنا أيضًا يمكن فهم مقالة عثمان رضى الله عنه لعبد الرَّحمن بن ربيعة ـ له صحبة ـ وهو على الباب[4]: إن الرَّعية قد أبطر كثيرًا منهم البطنة، فقصرِّ بهم، ولا تقتحم بالمسلمين، فإنِّى خاشٍ أن يبتلوا[5].

ب - طبيعة التحول الاجتماعىّ فى عهد عثمان رضى الله عنه: حدثت تغيرات اجتماعية عميقة، ظلَّت تعمل فى صمت، وقوة لا يلحظها كثير من الناس، حتى ظهرت على ذلك الشكل العنيف المتفجِّر بدءًا من النِّصف الثانى من خلافة عثمان

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٥). (٢) أحداث وأحاديث الهرج، ص (٥٦٧).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٣٦٢).

(٤) المقصود بالباب: منطقة فى جهة أذربيجان، معجم البلدان (١/ ٣٠٣).

(٥) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٦٢).

بلغت قمّة فورانها فى التمرُّد الذى أدَّى إلى استشهاد عثمان رضى الله عنه[1]، ولما توسَّعت الدولة الإسلامية عبر حركة الفتوح، حصل تغيُّر فى تركيبة المجتمع واختلالات فى نسيجه، لأنَّ هذه الدَّولة بتوسُّعها المكانى، والبشرىِّ، ورثت ما على هذه الرقعة الواسعة من أجناس، وألوان، ولغات، وثقافات، وعادات، ونظم، وأفكار، ومعتقدات، وفنون أدبية، وعمرانية، ومظاهر، وظهرت على سطح هذا النسيج ألوان مضطربة، وخروقات غير منتظمة، صيَّرت المجتمع غير متجانس فى نسيجه التَّركيبىِّ، وبالذات فى الأمصار الكبرى المؤثِّرة: البصرة، الكوفة، والشّام، ومصر، والمدينة، ومكة، فقد كانت الأمصار الكبيرة بموقعها وأهميتها تدفع لجيوش الفتوح، وتستقبلها وهى عائدة، وقد نقص عددها بالموت والقتل، وتستقبل بدلا منهم أو أكثر منهم أعدادًا وفيرة من أبناء المناطق المفتوحة؛ فرس، وترك، وروم، وقبط، وكرد، وبربر، وكان أكثرهم من الفرس، أو النَّصارى العرب، أو غيرهم، أو من اليهود[2]، وأكثر سكان هذه الأمصار، هؤلاء من القبائل العربيَّة من جنوبها، وشمالها، وشرقها، والذين لم يكونوا ـ عادة ـ من الصَّحابة، وبمعنى أدق ليسوا ممَّن تلقَّوا التَّربية الكافية على يد رسول الله ﷺ، أو على أيدى الجيل الأوَّل من الصحابة، إمَّا لانشغالهم بالفتوح، أو لقلة الصحابة، وقد حصلت تغيراتٌ فى نسيج المجتمع البشرىِّ المكوَّن من الجيل السَّابق، وسكّان البلاد المفتوحة، والأعراب، ومن سبقت لهم ردَّة، واليهود، والنَّصارى، وفى تكوين نسيج المجتمع الثَّقافى، وفى بسطة عيش المجتمع، وفى ظهور لون جديد من الانحرافات، وفى قبول الشائعات[3].

ج- ظهور جيل جديد: فقد حدث فى المجتمع تغيُّر أكبر، ذلك أن جيلاً جديدًا من الناس ظهر، وأخذ يحتل مكانه فى المجتمع وهو غير جيل الصحابة، جيل يعيش فى العصر غير الذى كانوا يعيشون فيه، ويتَّصف بما لا يتَّصفون به، فهو جيل[4] يعتبر فى مجموعه أقلَّ من الجيل الأوَّل الذى حمل على كتفه عبء بناء الدّولة، وإقامتها، فقد تميز الجيل الأوَّل من المسلمين بقوَّة الإيمان، والفهم السَّليم

---

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٦٦).
(٢) دراسات فى عهد النبوة، ص (٣٧٩).
(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٣٨٠).
(٤) الدولة الأموية، يوسف العش، ص (١٣٢).

لجوهر العقيدة الإسلاميَّة، والاستعداد التّام لإخضاع النَّفس لنظام الإسلام المتمثل في القرآن والسنَّة، وكانت هذه المميزات أقل ظهوراً في الجيل الجديد الذى وُجد نتيجة للفتوحات الواسعة، وظهرت فيه المطامع الفرديَّة، وبُعثت فيه العصبية للأجناس، والأقوام، وبعضهم يحملون رواسب كثيرة من رواسب الجاهليَّة التى كانوا عليها، ولم ينالوا من التربية الإسلامية على العقيدة الصحيحة السَّليمة مثل ما نال الرَّعيل الأوَّل من الصَّحابة رضى الله عنهم على يد رسول الله ﷺ وذلك لكثرتهم، وانشغال الفاتحين بالحروب والفتوحات الجديدة[1]، فالصَّحابة كانوا أقلَّ فتنًا من سائر من بعدهم، فإنَّه كلما تأخَّر العصر عن النبوة كثر التفرق والخلاف[2]، ووجد دعاة الفتنة فى المنحرفين من الجيل الجديد بغيتهم.

د- استعداد المجتمع لقبول الشائعات: ندرك من خلال هذا الخليط غير المتجانس في نسيج المجتمع أنه صار مهيَّأً للهزَّات، مستعداً للاضطراب، قابلاً لتلقِّى الإذاعات، والأقاويل والشائعات[3]، ولهذا لما كان الناس فى خلافة أبى بكر وعمر أقرب عهدًا بالرِّسالة، وأعظم إيمانًا، وصلاحًا، وأئمتهم أقوم بالواجب، وأثبت فى الطمأنينة لم تقع فتنة، إذ كانوا فى حكم القسط، أى النفوس المطمئنة[4]، ولما كان فى آخر خلافة عثمان، وخلافة علىٍّ، كثر أهل النفس اللَّوَّامة التى تخلط عملاً صالحًا، وآخر سيئًا؛ فصار فيهم شهوة، وشبهة مع الإيمان، والدِّين، وصار ذلك فى بعض الولاة، وبعض الرَّعايا، ثمَّ كثر هذا القسم، الذى خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا، فنشأت الفتنة التى سببها ما تقدَّم من عدم تمحيص التَّقوى، والطَّاعة فى الطَّرفين، واختلاطهما بنوع من الهوى، والمعصية فى الطَّرفين، وكل منهم متأوِّلٌ وأنه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وأنَّه مع الحقِّ، والعدل، ومع هذا التأويل نوع من الهوى، ففيه من الظنِّ، وما تهوى الأنفس، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحقِّ من الأخرى[5]، ويوضِّح هذا الواقع بدقة أكثر ذلك الحوار الذى دار بين أمير المؤمنين على بن أبى طالب، وأحد أتباعه، قال الرَّجل: ما بال

(١) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/٣٥٦).

(٢) ذو النورين عثمان بن عفان، مال الله، ص (٩٩).

(٣) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص (٣٨٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/١٤٨).

(٥) المصدر نفسه (٢٨/١٤٩).

المسلمين اختلفوا عليك، ولم يختلفوا على أبى بكر، وعمر؟ قال على: لأنَّ أبا بكر، وعمر كانا واليين على مثلى، وأنا اليوم والٍ على مثلك[1]، وكان أمير المؤمنين عثمان بن عفان مدركًا لما يدور فى وسط المجتمع حيث قال فى رسالته إلى الأمراء: أمّا بعد، فإن الرَّعية قد طعنت فى الانتشار، ونزعت إلى الشَّره، وأعْداها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة، وأهواء مسرعة، وضغائن محمولة، يوشك أن تنفر، فتُغيِّر[2].

هـ- مجىء عثمان بعد عمر، رضى الله عنهما: كان مجىء عثمان رضى الله عنه مباشرة بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، واختلاف الطبع بينهما مؤديًا إلى تغيُّر أسلوبهما فى معاملة الرَّعية، فبينما كان عمر قوى الشكيمة، شديد المحاسبة لنفسه، ولمن تحت يديه، كان عثمان ألين طبعًا، وأرقَّ فى المعاملة، ولم يكن يأخذ نفسه، أو يأخذ النَّاس بما يأخذ به عمر ،حتَّى يقول عثمان لنفسه: يرحم الله عمر، ومن يطيق ما كان عمر يطيق؟![3] لكن النَّاس، وإن رغبوا فى الشَّوط الأوَّل من خلافته، لأنَّه لان معهم، حتَّى أصبحت محبَّته مضرب المثل، فقد أنكروا عليه بعد ذلك، ويرجع هذا إلى نشأة عثمان فى لطفه، ولين عريكته، ورقة طبعه ودماثة خلقه، ممّا كان له بعض الأثر فى مظاهر الفرق عند الأحداث بين عهده، وعهد سلفه عمر بن الخطَّاب، وقد أدرك عثمان ذلك حين قال لأقوام سجنهم: أتدرون ما جرّأكم علىَّ؟ ما جرَّأكم علىَّ إلا حلمى[4]، وحين بدأت نوايا الخارجين -وقد ألزمهم عثمان الحجَّة فى ردّه على المآخذ التى أخذوها عليه أمام الملأ من الصَّحابة والنَّاس- أبى المسلمون إلا قتلهم وأبى عثمان إلا تركهم، لحلمه، ووداعته قائلاً: بل نعفو، ونقبل، ولنصبرهم بجهدها، ولا نحادّ أحداً حتى يركب حداً، أو يبدى كفراً[5].

و- خروج كبار الصَّحابة من المدينة: كان عمر رضى الله عنه قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج فى البلدان إلا بإذن، وأجلٍ، فشكوه، فبلغه فقام،

---

(1) مقدمة ابن خلدون، ص (١٨٩).

(2) التمهيد والبيان، ص (٦٤).

(3) تاريخ الطبرى (٥/٤١٨).

(4) المصدر نفسه (٥/ ٢٥٠).

(5) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٣٦٤).

فقــال: ألا أنِّى قد سننت الإسلام سَنَّ البـعير، يبـدأ فيكون جذعًـا، ثم ثَنيًا، ثمّ رباعيًا، ثم سديسًا، ثمّ بازلا[1]، فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان، ألا فإنَّ الإسلام قد نَزَل، ألا وإنَّ قريشًا يـريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عـباده، ألا فأمّا وابن الخطاب حىٌّ فـلا، إنى قائم دون شِـعب الحرَّة، آخـذ بحلاقـيم[2] قريش، وَحُجَزِها أن يتهـافتوا فى النَّار[3]. لقد كان عمـر يخاف على هؤلاء الصَّحابة من انتشارهم فى البلاد المفتوحة، وتوسُّعهم فى القطاع والضِّياع؛ فكان يأتيه الرَّجل من المهاجرين، وهو ممَّن حـبس فى المدينة، فيستأذنه فى الخـروج، فيجيبه عـمر: لقد كان لك فى غزوك مع رسـول الله ما يبلغك، وخير لك مـن الغزو اليوم ألا ترى الدُّنيا، ولا تراك[4]، وأمَّا عثمان فقد سمح لهم بالخروج، ولان معهم.

ز ـ العصـبية الجـاهلية: يقول ابن خلدون: لما استكمل الـفتح، واستكمل للملَّة الملك، ونزل العـرب بالأمـصـار فى حـدود مـا بينهم وبين الأمم من البـصـرة، والكوفة، والشّام ومصـر، وكان المختصُّون بصحبة الرَّسـول ﷺ والاقتداء بهديه، وآدابه: المهـاجرين والأنصـار، وقريش، وأهل الحـجاز، ومن ظفـر بمثل ذلك من غيـرهم، وأمَّا سائر العـرب من بنى بكر بن وائل، وعبـد القيس، وسائر ربيـعة، والأزد، وكندة، وتميم، وقضاعة، وغيـرهم فلم يكونوا فى تلك الصحبة بمكان إلا قليل منهم. وكانـت لهم فى الفتوحـات قدم، فكانوا يرون ذلك لأنفسـهم مع ما يدين به فضـلاؤهم من تفضيل أهل السَّابقـة، ومعرفة حـقِّهم، وما كانوا فـيه من الذهول، والدَّهش لأمر النُّبوّة، وتردُّد الوحى، وتنـزل الملائكـة، فلمَّا انحصر ذلك العباب، وتنوسى الحال بعض الشَّىء، وذل العدوُّ، واستفحل الملك، كانت عروق الجاهـليَّة تنبض، ووجـدوا الرِّياسة عليـهم من المهاجـرين، والأنصار، وقـريش، وسواهم، فأنفت نفوسهم منه، ووافق ذلك فى أيَّام عثمان، فكانوا يظهرون الطعن فى ولاته بالأمصـار، والمؤاخذة لهم باللَّحـظات، والخطوات، والاستبطاء عـليهم بالطاعات، والتَّـجنِّى بسؤال الاستبـداد منهم، والعزل، ويفيضـون فى النَّكير على عثمان، وفشت المقالة فى ذلك فى أتباعهم، وتناولوا بالظُّلم فى جهاتهم، وانتهت

---

(١) البازل : الذى انشق نابه بدخوله فى التّاسعة.
(٢) الحلاقيم : جمع حلقوم .
(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٤١٣) .
(٤) المصدر نفسه (٥/ ٤١٤).

الأخبار بذلك إلى الصَّحابة بالمدينة، فارتابوا، وأفاضوا فى عزل عثمان، وحمله على عزل أمرائه، وبعث إلى الأمصار من يأتيه بالخبر. . فرجعوا إليه فقالوا: ما أنكرنا شيئًا، ولا أنكره أعيان المسلمين ولا عوامُّهم[1].

ح- توقُّف الفتوحات بسبب حواجز طبيعية أو بشرية: حيث توقَّفت الفتوح فى أواخر عهد عثمان أمام حواجز طبيعية أو بشرية لم تتجاوزها، سواء فى جهات فارس، وشمالى بلاد الشَّام، أو فى جهة إفريقية، توقفت الغنائم على أثرها، فتساءل الأعراب: أين ذهبت الغنائم القديمة؟ أين ذهبت الأراضى المفتوحة التى يعدونها حقًا من حقوقهم[2]، وانتشرت الشائعات الباطلة التى اتهمت عثمان رضى الله عنه بأنه تصرف فى الأراضى الموقوفة على المسلمين وفق هواه، وأنه أقطع منها لمن شاء من النَّاس، وقد كان لها أثر، وواقع على الأعراب، خاصة وأنَّ معظمهم بقى بدون عمل يقضون شطرًا من وقتهم فى الطعام، والنَّوم، والشطر الآخر بالخوض فى سياسة الدَّولة، والحديث عن تصرُّفات عثمان التى كانت تهولُها السيئةً، وقد أدرك أحد عمَّال عثمان هذا الأمر، وهو عبد الله بن عامر، فأشار على الخليفة حيث طلب من عماله ـ وهم وزراؤه، ونصحاؤه ـ أن يجتهدوا فى آرائهم، ويشيروا عليه، فأشار عليه أن يأمر النَّاس بالجهاد ويجمرهم فى المغازى حتَّى لا يتعدَّى همُّ أحدهم قمل فروة رأسه، ودبر دابته[3]، وفى ذلك الجو من الحديث، والفكر عند أفراد تعوَّدوا الغزو، ولم يفقهوا من الدِّين شيئًا كثيرًا يمكن أن يتوقع كلُّ سوء، ويكفى أن يحرِّك هؤلاء الأعراب، وأن يُوجَّهوا توجيهًا، فإذا هم يثورون، ويحدثون القلاقل والفتن، وهذا ما حدث بالفعل، فإنَّ الأعراب ـ بسبب توقف الفتوحات ـ ساهموا فى بوادر الفتنة الأولى، وكانوا سببًا من أسباب اندلاعها[4].

ط- المفهوم الخاطىء للورع بتحريم الحلال: الورع فى الشريعة طيِّبٌ، وهو أن يُترك ما لا بأس به، مخافة مما فيه بأس، وهو فى الأصل ترفع عن المباحات فى الله، ولله، والورع شىء شخصى يصحُّ للإنسان أن يطالب به نفسه، ولكن لا

(1) تاريخ ابن خلدون (2/477).
(2) تحقيق مواقف الصحابة (1/344).
(3) تاريخ الطبرى (2/340).
(4) تحقيق موقف الصَّحابة فى الفتنة (1/353).

يصح أن يطالب به الآخرين، ومن أخطر أنواع الورع: الورع الجـاهل الذى يجعل المباح حرامًـا، أو مفروضًا، وهذا الذى وقع فيه أصـحاب الفتنة[1]، فقد اسـتغلَّ أعداء الإسلام يومـها مشاعرهم هذه، ونفـخوا فيها، فـرأوا فيما فعله عـثمان من المباحات، أو المصالح خروجًا على الإسلام، وتغييرًا لسنَّة من سبقه، وعظمت هذه المسائل فى أعـين الجهلة، فاستـباحوا -أو أعانوا من اسـتباح ـ دم الخليفـة الراشد عثمان بن عفّان رضى الله عنه، وفتحوا على المسلمين باب الفتنة إلى اليوم[2].

ى- ظهور جـيل جديد من الطامـحين: وجد فى الجيل الثـانى من أبناء الصحابة رضى الله عنهم من يعـتبر نفســه جديرًا بالحكم والإدارة، ووجد أمـثال هؤلاء أنَّ الطريق أمـامهم مـغلق، وفى العـادة أنه متى وجـد الطَّامـحون الذين لا يجـدون لطموحهم مـتنفسًا، فإنَّهم يدخلون فى كل عملـية تغيير، ومعـالجة أمر هؤلاء فى غاية الأهمية[3].

ك- وجود طائفة مـوتورة من الحاقدين: لقد دخل فى الإسلام منافـقون موتورون اجتمع لهم من الحقد، والذكاء والدَّهاء، مـا استطاعوا به أن يدركوا نقاط الضَّعف التى يستطيـعون من خلالهـا أن يوجدوا الفتـنة، ووجدوا من يسـتمع إليهم بآذان صاغية، فكان من آثار ذلك ما كان[4]، فقد عرفنا سابـقًا وجود يهود، ونصارى، وفرس، وهؤلاء جمـيعًا معروف باعث غيظهم، وحـقدهم على الإسلام، والدولة الإسلامـية، ولكنَّنا هنا نضيف من وقع عليـه حدٌ أو تعزير لأمـر ارتكبه فى وسط الدولة، وعاقبه الخليفة، أو ولاته فى بعض الأمصار، وبالذّات البصرة، والكوفة، ومـصر، والمـدينة، فاسـتـغلَّ أولئك الحـاقـدون من يهود، ونـصارى، وفـرس، ومجموعات من أصحاب الجرائم كـان معظمهم من الأعراب، ممن لا يفقهون هذا الدِّين على حقيقته، فتكوَّنت لهؤلاء جمـيعًا طائفة، وصفت من جميع من قابلهم بأنَّهم أصحـاب شر، فقـد وُصفُوا: بالغوغـاء من أهل الأمصار، ونزَّاع القـبائل، وأهل الميـاه، وعبـيـد المدينة[5]، وبأنهم ذؤبان العـرب[6]، وأنَّهم حـثـالة النَّاس

---

(١) الأساس فى السنة (١٦٧٦/٤).
(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص (٥١٧).
(٣) الأساس فى السنة (١٦٧٦/٤).
(٤) المصدر نفسه (١٦٧٦/٤).
(٥) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص(٣٩٢).
(٦) المصدر السابق، ص (٣٩٢).

ومتَّفـقون على الشَّر[١]، وسفهاء عـديمو الفقه[٢]، وأرذال من أوباش القبائل[٣]، فهم أهل جفاء، وهمج، ورعاع من غـوغاء القبائل، وسفلة الأطراف الأراذل[٤]، وأنَّهم آلة الشيطان[٥]، وقـد تردَّد فى المصادر اسم عـبـد الله بن سـبأ الصَّنعـانى اليهـودىّ ضمن هؤلاء الموتورين الحاقـدين، وأنه كان من اليـهود، ثمّ أسلم، ولم يُنقِّب أحد عن نواياه، فتنقَّل بين البلدان الإسلاميَّة باعتباره أحد أفراد المسلمين[٦]، وسيأتى الحديث عنه بإذن الله.

ل ـ التّدبير المحكم لإثارة المآخذ ضدّ عثمان رضى الله عنه: كان المجتمع مهيَّأً لقبول الأقاويل، والشـائعات نتيجـة عوامل وأسباب مـتداخلة، وكانت الأرض مهـيَّأةً، ونسيج المجتـمع قابلاً لتلقى الخروقات، وأصـحاب الفتنة أجمـعوا على الطّعن فى الأمـراء بحجَّـة الأمر بالمعـروف، والنّهى عن المنكر، حـتى اسـتمـالوا النَّاس إلى صفوفـهم، ووصل الطَّعن إلى عثمان بن عفـان رضى الله عنه نفسه باعتـباره قائد الدَّولة، وإذا ما حصـرنا الدّعاوى التى رُوِّجت ضد الخليفة، وطعنوه بهـا، فيمكننا تصنيفها إلى مجموعات:

- مواقف شخصيَّة له قبل توليه الخلافة (تغيبه عن بعض الغزوات، والمواقع).
- سياسته الإدارية النَّافذة: توليه أقربائه، طريقته فى التَّولية.
- اجتهادات خاصة به، أو بمصلحة الأمَّة (إتمام الصَّلاة بمنى، جمع القرآن، الزِّيادة فى المسجد.
- معاملته لبعض الصحابة: عمَّار، أبى ذرّ، ابن مسعود.

وقد بينت موقف عثـمان رضى الله عنه فى كلٍّ ما وجه إليه فى كتـابى «تيسير الكريم المنان فى سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان شخصيته وعصره». وقد حدث تزيُّد فى إبراز المطاعن على عـثمان رضى الله عنه سـواء فى عهده، وما واجـهوه بها، وردُّه عليها فى حينه، أو ما تُقوِّل عليـه فيما بعد عند الرُّواة، والكتَّاب، فإنها لم تصح، ولم تصل إلى حدٍّ أن تكون سببًا فى قتله[٧].

---

(١) الطبقات (٣/ ٧١) هذا وصف ابن سعد.
(٢) دراسات فى عهد النبوة، ص (٣٩٢).
(٣) شذرات الذهب (١/ ٤٠) هذا وصف ابن العماد.
(٤) شرح صحيح مسلم (١٥/١٤٨، ١٤٩).
(٥) تاريخ الطبرى (٥/٣٢٧).
(٦) دراسة فى عهد النبوة، ص (٣٩٤).
(٧) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص (٤٠٠).

إن المآخذ السَّابق ذكرها والمدوَّنة فى تاريخ الطَّبرى، وغيره من كتب التاريخ والمرويّة عن طريق المجاهيل، والإخباريين الضُعفاء ـ خاصةً الشيعة ـ كانت وما تزال بليَّة عظمى على الحقائق فى سير الخلفاء والأئمَّة، خاصة فى مراحل الاضطرابات والفتن، وقد كان مع الأسف لسيرة عثمان أمير المؤمنين رضى الله عنه من ذلك الحظٍّ الوافر، فرواية الحوادث ووضع الأباطيل على النَّهج الملتوى بعض ما نال تلك السيرة النيرة، من تحريف المنحرفين، وتشويه الغالين، بغية التأليب عليه، أو التشهير به. وقد أدرك عثمان رضى الله عنه بنفسه ذلك عندما كتب إلى أمرائه: أمّا بعد، فإن الرَّعية طعنت فى الانتشار ونزعت إلى الشرِّ، أعداها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة، وأهواء متسرّعة، وضغائن محمولة[١]، وقال ابن العربى على تلك المآخذ: قالوا متعدِّين متعلِّقين برواية كذَّابين: جاء عثمان فى ولايته بمظالم، ومناكير، . . . هذا كله باطل سندًا ومتنًا[٢].

م- استخدام الأساليب والوسائل المهيِّجة للنَّاس: وأهم هذه الأساليب: إشاعة الأراجيف، حيث تردّدت كلمة الإشاعة، والإذاعة كثيرًا، والتَّحريض، والمناظرة، والمجادلة للخليفة أمام النَّاس، والطَّعن على الولاة، واستخدام تزوير الكتب، واختلاقها على لسان الصَّحابة رضى الله عنهم، كعائشة، وعلىٍّ، وطلحة، والزبير، والإشاعة بأن على بن أبى طالب رضى الله عنه الأحق بالخلافة، وأنَّه الوصى بعد رسول الله ﷺ، وتنظيم فرق فى كل من البصرة، والكوفة، ومصر، أربع فرق من كلٍّ مصر ممّا يدل على التَّدبير المسبق، وأوهموا أهل المدينة أنهم ما جاءوا إلا بدعوة الصَّحابة، وصعَّدوا الأحداث، حتى وصل الأمر إلى القتل[٣]، وإلى جوار هذه الوسائل استخدموا مجموعة من الشعارات منها: التكبير ومنها: أنَّ جهادهم هذا ضدَّ المظالم، ومنها: أنَّهم لا يقومون إلا بالأمر بالمعروف، والنَّهى عن المنكر، ومنها: المطالبة باستبدال الولاة، وعزلهم، ثمَّ تطورت المطالبة إلى خلع عثمان، إلى أن تمادوا فى جرأتهم، وطالبوا، بل سارعوا إلى قتل الخليفة، وخاصةً حينما وصلهم الخبر بأنَّ أهل الأمصار قادمون لنصرة الخليفة، فزادهم حماسهم المحموم لتضييق الخناق على الخليفة، والشوق إلى قتله بأىِّ وسيلة[٤].

---

(١) التمهيد والبيان، ص (٦٤).

(٢) العواصم من القواصم، ص (٦١ ـ ٦٣).

(٣) دراسات فى عهد النبوة، ص (٤٠١).

(٤) المصدر نفسه، ص (٤٠٢).

ن- دور عبد الله بن سبأ فى تحريك الفتنة: فى السَّنوات الأخيرة من خلافة عثمان رضى الله عنه بدت فى الأفق سمات الاضطراب فى المجتمع الإسلامىّ نتيجة عوامل التَّغيير التى ذكرتها، وأخذ بعض اليهود يتحيَّنون فرصة الظهور مستغلِّين عوامل الفتنة، ومتظاهرين بالإسلام، واستعمال التَّقيَّة، ومن هؤلاء: عبد الله بن سبأ الملقَّب بابن السَّوداء. وإذا كان ابن سبأ لا يجوز التَّهويل فى شأنه كما فعل بعض المغالين فى تضخيم دوره فى الفتنة[1]، فإنه كذلك لا يجوز التَّشكيك فيه، أو الاستهانة بالدَّور الذى لعبه فى أحداث الفتنة، كعامل من عواملها، على أنَّه أبرزها، وأخطرها، إذ أنَّ هناك أجواء للفتنة مهَّدت له، وعوامل أخرى ساعدته، وغاية ما جاء به ابن سبأ آراء، ومعتقدات ادّعاها، واخترعها من قبل نفسه، وافتعلها من يهوديَّته الحاقدة، وجعل يروِّجها لغاية ينشدها، وغرض يستهدفه، وهو الدس فى المجتمع الإسلامى بغية النَّيل من وحدته، وإذكاء نار الفتنة، وغرس بذور الشِّقاق بين أفراده، فكان ذلك من جملة العوامل التى أدَّت إلى قتل أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه، وتفرُّق الأمة شيعًا وأحزابًا[2].

وخلاصة ما جاء به أنه أتى بمقدِّمات صادقة، وبنى عليها مبادئ فاسدة راجت لدى السُّذَّج، والغلاة، وأصحاب الأهواء من النَّاس، وقد سلك فى ذلك مسالك ملتوية لبَّس فيها على من حوله، حتى اجتمعوا عليه، فطرق باب القرآن بتأوّله على زعمه الفاسد، حيث قال: لَعَجبٌ ممن يزعم أنَّ عيسى يرجع، ويكذِّب بأن محمَّدًا يرجع، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، فمحمد أحق بالرجوع من عيسى[3]. كما سلك طريق القياس الفاسد من ادِّعاء إثبات الوصيَّة لعلىٍّ رضى الله عنه بقوله: إنَّه كان ألف نبىٍّ، ولكل نبىٍّ وصىٌّ، وكان علىٌّ وصىَّ محمد، ثمّ قال: محمد خاتم الأنبياء، وعلى خاتم الأوصياء، وحينما استقر الأمر فى نفوس أتباعه انتقل إلى هدفه المرسوم، وهو خروج النَّاس على الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، فصادف ذلك هوى فى نفوس بعض القوم، حيث قال لهم: من أظلم ممَّن لم يُجز وصيّة رسول الله ﷺ، ووثب على وصىِّ رسول الله ﷺ، وتناول أمر الأمّة، ثم قال لهم بعد

(١) مثال سعيد الأفغانى فى كتابه «عائشة والسياسة».
(٢) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٢٧)
(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٧).

ذلك: إن عثمان أخذها بغير حقٍّ، وهذا وصيُّ رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر، فحرِّكوه، وابدأوا بالطَّعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنَّهى عن المنكر، تستميلوا النَّاس، وادعوهم إلى هذا الأمر[1]، وبثَّ دعاته، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السِّر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنَّهى عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كلِّ مصر منهم إلى مصر آخر بما يضعون، فيقرأه أولئك في أمصارهم، وهؤلاء في أمصارهم، حتَّى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرُّون غير ما يبدون، فيقول أهل كل مصر: إنّا لفي عافية مما ابتلى به هؤلاء، إلا أهل المدينة فإنَّهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا: إنَّا لفي عافية مما فيه النَّاس[2].

ويظهر من هذا النَّصِّ الأسلوب الذي تبعه ابن سبأ، فهو أراد أن يوقع في أعين الناس بين اثنين من الصَّحابة، حيث جعل أحدهما مهضوم الحقِّ وهو عليٌّ، وجعل الثاني مغتصبًا وهو عثمان، ثم حاول بعد ذلك أن يحرِّك النَّاس -خاصَّة في الكوفة- على أمرائهم باسم الأمر بالمعروف، والنَّهى عن المنكر، فجعل هؤلاء يثورون لأصغر الحوادث على ولاتهم، علمًا بأنَّه ركَّز في حملته هذه على الأعراب الذين وجد فيهم مادّة ملائمة لتنفيذ خطّته، فالقرَّاء منهم استهواهم عن طريق الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وأصحاب المطامع منهم هيّج أنفسهم، بالإشاعات المغرضة المفتراة على عثمان، مثل تحيزه لأقاربه، وإغداق الأموال من بيت مال المسلمين عليهم، وأنّه حمى الحمى لنفسه، إلى غير ذلك من التُّهم، والمطاعن التى حرك بها نفوس الغوغاء ضدّ عثمان رضى الله عنه، ثمّ إنه أخذ يحض أتباعه على إرسال الكتب بأخبار سيئة مضخمة عن مصرهم إلى بقية الأمصار، وهكذا يتخيل النّاس في جميع الأمصار أنّ الحال بلغ من السوء ما لا مزيد عليه، والمستفيد من هذه الحال هم السبئية، لأن تصديق ذلك من الناس يفيدهم في إشعال شرارة الفتنة داخل المجتمع الإسلامي[3].

هذا وقد شعر عثمان رضى الله عنه بأن شيئًا ما يحاك في الأمصار، وأنّ الأمّة تمخض بشرٍّ، فقال: والله أن رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات، ولم

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/٣٤٨) . (٢) المصدر السابق (٥/٣٤٨) .

(٣) الدولة الأموية يوسف العش، ص (٦٨)، تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٠).

يحرّكها[١]، على أن المكان الذى رتع فيه ابن سبأ هو مصر، وهناك أخذ ينظّم حملته ضدّ عثمان رضى الله عنه، ويحثّ على التوجّه إلى المدينة لإثارة الفتنة بدعوى أنّ عثمان أخذ الخلافة بغير حقّ، ووثب على وصىّ رسول الله، يقصد عليّاً[٢]، وقد غشهم بكتب ادعّى أنها وردت من كبار الصحابة حتى إذا أتى هؤلاء الأعراب المدينة المنّورة واجتمعوا بالصحابة لم يجدوا منهم تشجيعًا، وتبرّأوا ممّا نسب إليهم من رسائل تؤلّب النّاس على عثمان[٣]، ووجدوا عثمان مقدّرًا للحقوق، بل وناظرهم فيما نسبوا إليه، وردّ عليهم افتراءهم وفسر لهم صدق أعماله؛ حتى قال أحد هؤلاء الأعراب وهو مالك بن الأشتر النّخعى: لعله مُكر به وبكم[٤]، ويعتبر الذهبى: أنّ عبد الله بن سبأ المهيّج للفتنة بمصر، وباذر بذور الشّقاق والنّقمة على الولاية ثمّ الإمام - عثمان - فيها[٥]، ولم يكن ابن سبأ وحده وإنّما كان عمله ضمن شبكة من المتآمرين، وكان أخطبوطًا من أساليب الخداع، والاحتيال، والمكر، وتجنيد الأعراب، والقرّاء وغيرهم، ويروى ابن كثير أنّ من أسباب تألُّب الأحزاب على عثمان ظهور ابن سبأ، وذهابه إلى مصر، وإذاعته بين النّاس كلامًا اخترعه من عند نفسه، فافتتن به بشر كثير من أهل مصر[٦].

إنّ المشاهير من المؤرّخين والعلماء من سلف الأمّة وخلفها يتّفقون على أنّ ابن سبأ ظهر بين المسلمين بعقائد، وأفكار، وخطط سبئيّة، ليلفت المسلمين عن دينهم، وطاعة إمامهم، ويوقع بينهم الفرقة، والخلاف، فاجتمع إليه من غوغاء الناس ما تكوّنت به الطائفة السّبيئيّة المعروفة، التى كانت عاملاً من عوامل الفتنة المنتهية بمقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضى الله عنه. والذى يظهر من خطط السّبئيّة أنّها كانت أكثر تنظيمًا، إذ كانت بارعة فى توجيه دعايتها، ونشر أفكارها، لامتلاكها ناصية الدّعاية، والتّأثير بين الغوغاء والرّعاع من النّاس، كما كانت نشيطة فى تكوين فروع لها سواء فى البصرة، أم الكوفة، أم مصر، مستغلة العصبية القبليّة ومتمكنة من إثارة مكامن التّذمُّر عند الأعراب، والعبيد، والموالى، عارفة بالمواضع الحسّاسة فى حياتهم، وبما يريدون[٧].

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٥٠) . (٢) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٠)، تاريخ الطبرى (٥/٣٤٨).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٠)، تاريخ الطبرى (٥/ ٣٦٥) .

(٤) المصدر نفسه (١/ ٣٣١) . (٥) المصدر نفسه (١/ ٣٣٨) .

(٦) البداية والنهاية (٧/ ١٦٧ ، ١٦٨) . (٧) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٩) .

س- موقف معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه فى الفتنة:

فى يوم من أيام سنة ثلاث وثلاثين جلس والى الكوفة سعيد بن العاص فى مجلسه العام، وحوله عامَّة النَّاس، وكانوا يتحدَّثون، ويتناقشون فيما بينهم، فتسلَّلَ الخوارج من السَّبئيين إلى المجلس، وعملوا على إفساده، وعلى إشعال نار الفتنة، وجرى كلام وحوار فى المجلس بين سعيد بن العاص، وبين أحد الحضور، وهو خنيس بن حُبيش الأسدى، واختلفا على أمر، وكان سبعة من الخوارج أصحاب الفتنة جالسين، منهم: جندب الأزدىُّ، الذى قتل ابنه السَّارق بسبب تورطه فى قضية قتل، ومنهم الأشتر النَّخعى، وابن الكوَّاء، وصعصعة بن صحوان، فاستغل أصحاب الفتنة المناسبة، وقاموا بضرب خُنيس الأسدى فى المجلس، ولَمَّا قام أبوه يساعده، وينقذه، ضربوه، وحاول سعيد منعهم من الضَّرب، فلم يمتنعوا، وأُغمى على الرَّجل وابنه من شدَّة الضَّرب، وجاء بنو أسد للأخذ بثأر أبنائهم، وكادت الحرب تقع بين الفريقين، ولكنَّ سعيدًا تمكَّن من إصلاح الأمر[1]، ولما علم عثمان بالحادثة، طلب من سعيد بن العاص أن يعالج الموضوع بحكمة، وأن يضيق على الفتنة ما استطاع، وذهب الخوارج المفتونون إلى بيوتهم، وصاروا ينشرون الإشاعات، ويُذيعون الافتراءات والأكاذيب ضدّ سعيد والى الكوفة، وضدًّ عثمان، وضدًّ أهل الكوفة، ووجوهها، فاستاء أهل الكوفة منهم، وطلبوا من سعيد أن يعاقبهم، فقال له سعيد: إنَّ عثمان قد نهانى عن ذلك، فإذا أردتم ذلك، فأخبروه، وكتب أشراف أهل الكوفة، وصلحاؤهم إلى عثمان بشأن هؤلاء النَّفر، وطلبوا منه إخراجهم من الكوفة، ونفيهم عنها، فهم مفسدون مخرِّبون فيها، فأمر عثمان واليه سعيد بن العاص بإخراجهم من الكوفة، وكانوا بضعة عشر رجلاً، وأرسلهم سعيد إلى معاوية فى الشام بأمر عثمان، وكتب عثمان إلى معاوية بشأن هؤلاء، فقال له: إنَّ أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفرًا خلقوا للفتنة. فَرُعْهُم، وأخِفْهم، وأدِّبهم، وأقم عليهم، فإن آنست منهم رشدًا، فاقبل منهم[2].

ومن الذين تمَّ نفيهم إلى الشام، الأشتر النَّخعىُّ، وجندب الأزدىُّ، وصعصعة ابن صوحان، وكميل بن زياد، وعمير بن ضابئ، وابن الكوَّاء[3]، ولما قدموا على

(١) تاريخ الطبرى (٥/٣٢٣).

(٢) المصدر السابق (٥/ ٣٢٤).

(٣) الخلفاء الراشدون، ص (١٣١).

معاوية رحب بهم، وأحسن ضيافتهم، وأجرى عليهم بأمر عثمان ما كان يُجرى عليهم بالعراق، وجعل لا يزال يتغدَّى، ويتعشَّى معهم، فقال لهم يومًا: إنكم قوم من العرب لكم أسنان، والسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرفًا، وغلبتم الأمم، وحويتم مراتبهم، ومواريثهم، وقد بلغنى أنكم نقمتم قريشًا، وإنَّ قريشًا لو لم تكن، لعدتم أذلة كما كنتم[1]. كان عثمان رضى الله عنه يدرك أنَّ معاوية للمعضلة، فله من فصاحته وبلاغته، وله من حلمه، وصبره، وله من ذكائه، ودهائه ما يواجه به الفتن، ومن أجل ذلك ما إن تقع المعضلة حتَّى يرسلها لابن أبى سفيان كى يحلَّها، وفعلاً بذل معاوية رضى الله عنه ما بوسعه من أجل إقناع هؤلاء النَّفر؛ أكرمهم أوّلاً، وخالطهم، وجالسهم، وعرف سرائرهم من خلال هذه المجالسة قبل أن يحكم عليهم بما نُقل عنهم، وبعد أن أزال الوحشة عنهم، وأزال الكلفة بينه وبينهم، لاحظ أنَّ النَّعرة القبلية هى التى تحرِّكهم، وأنَّ شهوة الحكم والسُّلطة هى التى تثيرهم، فكان لا بدَّ أن يلج عليهم من زاويتين اثنتين:

الأولى: أثر الإسلام فى عزَّة العرب.

الثانية: دور قريش فى نشر الإسلام وتحمُّل أعبائه، فإن كان للإسلام أثرٌ فى تكوينهم، فلا بدَّ أن يرعَوا لهذا الحديث، بعد هذا وضع أمامهم صورة لوضع العرب، وقد انقلبوا بالإسلام أمَّة واحدة تخضع لإمام واحد، وودعوا حياة الفوضى، وسفك الدِّماء، والقبليَّة المنتنة[2]، ويتابع معاوية حديثه معهم، فيقول: إن أئمَّتكم لكم إلى اليوم جُنَّة[3]، فلا تشذوا عن جُنَّتكم، وإنَّ أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور، ويحتملون منكم المؤونة، والله لتنتهنَّ أو ليبتلينَّكم الله بمن يسومكم، ثمَّ لا يحمدكم على الصَّبر، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرَّعيَّة فى حياتكم، وبعد موتكم، فقال رجل من القوم: أمَّا ما ذكرت من قريش، فإنها لم تكن أكثر العرب، ولا أمنعها فى الجاهلية، فتخوفنا، وأما ما ذكرت من الجُنَّة، فإن الجُنَّة إذا اخترقت خلص إلينا. فقال معاوية: عرفتكم الآن، علمت أن الذى أغراكم على هذا قلة العقول، وأنت خطيب القوم، ولا أرى لك عقلاً.

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٤).

(٢) معاوية بن أبى سفيان، لمنير الغضبان، ص (١٠١).

(٣) جنة: وقاية.

أُعْظِم عليك أمر الإسلام، وأذكِّرك به، وتذكِّرني الجاهليَّة؟ وقد وعظتك وتزعم لما يُجنُّك أنه يخترق، ولا ينسب ما يخترق إلى الجُنَّة، أخزى الله أقوامًا أعظموا أمركم، ورفعوا إلى خليفتكم[1].

وعرف معاوية أنَّ الإشارة العابرة لن تقنعهم، ولا بد من شرح مسهب لواقع قريش أوَّلاً، فقال: افقهوا - ولا أظنكم تفقهون - أنَّ قريش لم تعزَّ في جاهلية ولا في إسلام إلا بالله -عزَّ وجلَّ- لم تكن أكثر العرب، ولا أشدَّهم، ولكنَّهم كانوا أكرمهم أحسابًا، وأمحضهم أنسابًا، وأعظمهم أخطارًا، وأكملهم مروءةً، ولم يمتنعوا في الجاهلية، والناس يأكل بعضهم بعضًا، إلا بالله الذى لا يُستَذَل من أعزَّ، ولا يوضع من رفع، هل تعرفون عربًا، أو عجمًا، أو سودًا، أو حمرًا إلا قد اصابه الدّهر في بلده، وحرمته بدولةٍ، إلا ما كان من قريش، فإنَّه لم يردهم أحد بكيد إلا جعل الله خدَّه الأسفل، حتى أراد الله أن ينقذ من أكرمٍ، واتَّبع دينه من هوان الدُّنيا، وسوء مردِّ الآخرة، فارتضى لذلك خير خلقه، ثمَّ ارتضى له أصحابًا، فكان خيارهم قريشًا، ثمَّ بنى هذا الملك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم، ولا يصلح ذلك إلا عليهم، فكان الله يحوطهم وهم على دينه، وقد حاطهم الله في الجاهليَّة من الملوك الذين كانوا يدينونكم. أفٌّ لك، ولأصحابك ولو أن متكلمًا غيرك تكلَّم، ولكنَّك ابتدأت، فأمَّا أنت يا صعصعة فإنَّ قريتك شرُّ قرى عربية، أنتنها نبتًا، وأعمقها واديًا، وأعرفها بالشَّرِّ، وألأمها جيرانًا، لم يسكنها شريف قط ولا وضيع إلا سُبَّ بها، وكانت عليه هُجنة. ثمَّ كانوا أقبح العرب ألقابًا، وألأمها أصهارًا، نزّاع[2] الأمم، وأنتم جيران الخطِّ وفعلة فارس، حتَّى أصابتكم دعوة النَّبيّ ﷺ، ونكبتك دعوته، وأنت نزيع شطير[3] في عمان، لم تسكن البحرين، فتشركهم في دعوة النَّبي ﷺ، فأنت شرُّ قومك، حتى إذا أبرزك الإسلام، وخلطك بالنَّاس، وحملك على الأمم التي كانت عليك، أقبلت تبغي دين الله عوجًا، وتنزع إلى اللآمة، والذِّلة، ولا يصنع ذلك قريش، ولن يضرَّهم، ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم، إنَّ الشَّيطان عنكم غير غافل، قد عرفكم بالشَّر من بين أمَّتكم، فأغرى النَّاس، وهو صارعكم، لقد علم أنَّه لا

---

(1) تاريخ الطبري (٥/ ٣٢٤).

(2) النزاع: جمع نزيع وهو الغريب

(3) الشطير: الغريب.

يستطيع أن يردَّ بكم قـضاء الله، ولا أمرًا أراد الله، ولا تدركون بالشـّـر أمرًا إلا فتح الله عليكم شـرًا منه، وأخزى، ثـم قام وتركـهم، فتـذامروا، فـتقـاصرت إليـهم أنفسهم[1] وبذلك بذل معاوية كلَّ طاقاته الفكريَّة، والثقافية، والسياسية، لإقناعهم:

- عرض لهم أولاً أمر قريش فى الجاهلية والإسلام.
- تناول قبائل هؤلاء النّفر، ووضعها فى الجاهلية، حيث كانت تعانى سوء المناخ، ونتن المنبت من الناحية الطبيعية، ثمّ الذلة والتبعية لفارس من الناحية السياسية، إلى أن أكرمها الله بالإسلام فعزت بعد ذلٍّ، وارتقت بعد هوانٍ.
- تناول معـاوية رضى الله عنه صعصعـة بن صوحان خطيب القـوم، وكيف تلكأ عن تلبية نداء الرسالة، وقد دخل قومه بها، ثمّ عاد وانضم إلى الإسلام، ورفعه الإسلام ثانية بعد انحدار.
- كشف مـعاوية رضى الله عنه مخطّطات صـعصعـة، وأصحابه، وكيف يبـغون الفتنة، ويبغون دين الله عوجًا.
- وإن الشيطان هو وكـر هذه الفتنة، ومحرّك هذا الشّـر، وبذلك ربط تاريخ الأمة بالله، ثمّ الإسلام، والعقيدة، ثمّ كـشف عن زيف هؤلاء النّفر، وفضحهم عن آخرهم، وأبان عن مخطّطاتهم، وصلتها بدعوى الجاهلية[2].

جلسة أخرى:

ثمّ أتاهم القابلة فتـحدَّث معهم طويلاً، ثم قال: أيُّها القـوم، ردُّوا علىَّ خيرًا، أو اسكتوا، وتفكَّروا، وانـظروا فيمـا ينفعكم، وينفع أهليكم، وينفع عـشائركم، وينفع جماعة المسلمين، فاطلبوه تعـيشوا، ونعش بكم. قال صعصعة: لست بأهل لذلك، ولا كرامة لك أن تطاع فى معصية الله. فقال معاوية: أو ليس ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله، وطاعته، وطاعة نبيه ﷺ، وأن تعتصموا بحبله جميعًا، ولا تفرقـوا؟ قالوا: بل أمرت بالفرقـة، وخلاف ما جـاء به النَّبى ﷺ! قال: إنِّى آمركم الآن، إن كنت فعلت، فـأتوب إلى الله، وآمركم بتقواه، وطاعـته، وطاعة نبيِّه ﷺ، ولزوم الجماعة، وكراهة الفرقة، وأن توقروا أئمتكم، وتدلوهم على كلِّ

(١) تاريخ الطبرى (٥/٣٢٦).

(٢) معاوية بن أبى سفيان، للغضبان، ص (١١١).

حسن ما قدرتم، وتعظوهم فى لين، ولطف فى شىء إن كان معهم. قال صعصعة: فإنا نأمرك أن تعتزل عملك فإنَّ من المسلمين من هو أحقُّ به منك. قال معاوية: من هو؟ قالوا: من كان أبوه أحسن قِدَمًا من أبيك، وهو بنفسه أحسن قدمًا منك فى الإسلام، قال معاوية: والله إن لى فى الإسلام قدمًا، ولغيرى كان أحسن قدمًا منَّى، ولكنَّه ليس فى زمانى أحدٌ أقوى على ما أنا فيه منّى، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطَّاب، فلو كان غيرى أقوى منّى، لم يكن لى عند عمر هوادة، ولا لغيرى، ولم أحدث من الحدث ما ينبغى لى أن أعتزل عملى، ولو رأى ذلك أمير المؤمنين، وجماعة المسلمين، لكتب بخطٍّ يده، فاعتزلت عمله، ولو قضى الله أن يفعل ذلك، لرجوت أن يعزم له على ذلك إلى ما هو خير. فمهلاً فإنَّ فى ذلك وأشباهه ما يتمنَّى الشيطان، ويأمر، ولعمرى لو كانت الأمور تُقضى على رأيكم، وأمانيكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يومًا ولا ليلة، ولكنَّ الله يقضيها، ويدبِّرها وهو بالغ أمره، فعاودوا الخير، وقولوه. قالوا: لست لذلك أهلاً. قال معاوية: أما والله إنَّ لله سطوات، ونقمات، وإنِّى لخائف عليكم أن تتابعوا فى مطاوعة الشَّيطان حتَّى تُحلَّكم مطاوعة الشَّيطان، ومعصية الرّحمن دار الهوان من نقم الله فى عاجل الأمر، والخزى الدّائم فى الآجل، فوثبوا عليه، فأخذوا بلحيته، ورأسه، فقال: مه! إن هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأى أهل الشّام ما صنعتم بى وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم، فلعمرى إنَّ صنيعكم ليشبه بعضه بعضًا، ثم قام من عندهم. فقال: والله لا أدخل عليكم مدخلاً ما بقيت[1].

هذه المحاولة الأخيرة التى بذل فيها معاوية أمير الشَّام كلَّ جهده واستعمل حلمه، وثقافته، وأعصابه كى يثنيهم عن الفتنة، إنَّه يدعوهم إلى تقوى الله، وطاعته، والاستمساك بالجماعة، والابتعاد عن الفرقة، وإذا بهم يرفعون عقيرتهم قائلين: ليس لك أن تطاع فى معصية الله[2]. وبحلمه الكبير، وصدره الواسع عاد فذكَّرهم بأنَّه لا يأمرهم إلا بطاعة الله، وعلى حدِّ زعمهم، فهو يتوب من المعصية، إن وقعت، ثمَّ يعود لدعوتهم إلى الطَّاعة، والجماعة، والابتعاد عن

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣٠ ، ٣٣١) .

(٢) المصدر السابق نفسه (٥/ ٣٣٠).

تفريق كلمة الأمَّة، ولو كان الوعظ يجدى معهم، لأمكن أن تتأثَّر قلوبهم لهذه المعاملة، وهذا اللُّطف، وهو يوجِّههم إلى أن يستعملوا الأسلوب الهادىء عن العظة، واللين فى النُّصح، فوجدوا المجال رحبًا أن يكشفوا عن مكنون قلوبهم.
فقالوا: فإنَّا نأمرك أن تعتزل عملك، فإنَّ فى المسلمين من هو أحقُّ به منك، وانتبه معاوية انتباهًا مفاجئًا إلى ما يكنُّون، فأحبَّ أنَّ يتعرف جانبًا غامضًا عليه، لعلَّ فى هذا التعرُّف ما يوصله إلى من يحركُهم، ويبث فى ذهنهم الأراجيف المغرضة، ولكنَّهم أخفوا ما يكنُّون، واكتفوا بالإشارة إلى أنَّهم يحبون أن يدع العمل لمن هو أفضل منه، ولمن أبوه أفضل من أبيه، ثم تحلَّم عليهم أكثر فأكثر رغم الأسلوب الفجِّ الذى سلكوه معه، وهم يأمرونه بأن يعتزل العمل. وهنا نجد لمعاوية جوابًا مستفيضًا عن وجهة نظره فى الحكم، والإمارة، والقيادة، وقد لخَّص معاوية إجابته فى ستٍّ نقاط أساسيَّة ومهمَّة:

- هى أنَّ له قدمًا، وسابقة فى الإسلام، فهو حامى ثغر الشَّام منذ وفاة أخيه يزيد بن أبى سفيان رضى الله عنهما.

- أنَّ هناك فى المسلمين من هو أفضل منه، وأكرم، وأحسن سابقة، وأكثر بلاءً، وهو يرى أنَّه أقوى من يحمى هذا الثَّغر الإسلامىَّ العظيم ـ الشَّام ـ فمنذ أن تولاه تمكن من ضبطه، وسياسته، وفهم نفسيَّات أهله حتَّى أحبُّوه.

- إنَّ الميزان الحساس، والمعيار الدَّقيق الذى يقيِّم الولاة هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه، الذى لا تأخذه فى الله لومة لائم، فلو وجد من معاوية شططًا، أو انحرافًا عمل له طيلة خلافته، كما ولاه من قبل رسول الله ﷺ على بعض عمله، واستخدمه كاتبًا بين يديه، وولاه أبو بكر الصديق من بعده، ولم يطعن فى كفاءته أحد.

- إنَّ اعتزال العمل يجب أن يستند لأسباب موجبة للاعتزال، فما هى الحجَّة التى يقدِّمها دعاة الفتنة، ليتمَّ الاعتزال على أساسها؟

- إنَّ الذى يقرِّر العزل عن العمل، أو البقاء فى الإمارة ليس هؤلاء الأدعياء، إنَّ ذلك من حق أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه، وهو الذى له الحقُّ فى تعيين الولاة، وعزلهم.

- إنَّ أمير المؤمنين عثـمان يوم يقرِّر عزل معاوية، فهـو واثق أنَّ أمره خير كله، ولا غضاضة فى ذلك فهو أمير مأمور، وهو أمر خليفة المسلمين[1].

كان ختام الجلسة مؤسفًا أشدَّ الأسف، مؤلمًا أشدَّ الألم، لقد حذَّرهم نقمة الله، وغضبه، وحـذَّرهم الانقياد إلى أهوائهم وغرورهم، فماذا كـان منهم مقابل ذلك؟ وثبوا عليه وأخـذوا برأسه ولحيته، وعنـدئذ زجرهم، وقمعهم، ووجَّـه لهم كلامًا قاسيًـا مبطَّنًا بالتهديد، وعـرف أنَّ هؤلاء يستحيل أن ينصاعـوا للحقِّ، فلا بدَّ من إبلاغ أمرهم لأميـر المؤمنين عثمان رضـى الله عنه، وكشف هويَّاتهم، وخطرهم، ليرى فيهم أمير المؤمنين رأيًا آخر[2].

ف- كتابة معاوية إلى عثمان رضى الله عنهما بشأن أهل الفتنة من الكوفة:

كتب مـعاوية إلى عثـمان رضى الله عنهمـا قائلاً: بسم الله الرحـمن الرحيم، لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبى سفيان، أما بعد، يا أمير المؤمنين، فإنك بعثت إلىَّ أقوامًا يتكلمـون بألسنة الشياطين وما يُملون عليهم، ويأتون النَّاس - زعموا - من قِبَل القرآن فيشبهون على الناس، وليس كل النَّاس يعلم ما يريدون، وإنما يريدون فـرقة ويقربون فـتنة، قد أثقلهـم الإسلام وأضجـرهم، وتمكنت رُقَى الشيطان من قلوبهم، فقد أفسدوا كثيرًا من النَّاس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة، ولست آمن إن أقـاموا وسط أهل الشام أن يغـروهم بسحرهم وفـجورهم فارددهم إلى مصـرهم، فلتكن دارهم فى مصرهم الذى نما فيـه نفاقهم[3]، فكتب عثـمان إلى سعـيد بن العاص بـالكوفة، فردّهم إليـه، فلم يكونوا إلا أطلق ألسنة منهم حين رجعوا، وكتب سعيد إلى عثـمان يضجّ منهم، فكتب عثمان إلى سعيد أن سيِّرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وكان أميرًا على حمص[4]، فلما وصلوا إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، اسـتدعاهم، وكلَّمهم كلامًا شديدًا، وكان ممَّا قاله لهم: يـا آلة الشيطان، لا مرحبًا بكم، ولا أهلاً، لـقد رجع الشيطان محسورًا خـائبًا، وأنتم مازلتم نشيطون فى الباطل، خَسَّـرَ الله عبد الرحمن إن لم

---

(1) معاوية بن أبى سفيان، صحابى كبير، وملك مجاهد، ص (114 - 117).

(2) معاوية بن أبى سفيان للغضبان، ص (117، 118).

(3)، (4) تاريخ الطبرى (5/331) .

يؤدّ بكم ويخزكم! يا معشر من لا أدرى من أنتم أعرب، أم عجمٌ، لن تقولوا لى كما كنتم تقولون لسعيد ومعاوية، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عَجمته العاجمات، أنا ابن فاقىء الرِّدَّة، والله لأذلنَّكم! وأقامهم عبد الرحمن بن خالد عنده شهرًا كاملاً، وعاملهم بمنتهى الحزم، والشدَّة، ولم يَلن معهم كما لان سعيد، ومعاوية، وكان إذا مشى مشوا معه، وإذا ركب ركبوا معه، وإذا غزا غزوا معه، وكان لا يدع مناسبة إلا ويذلهم فيها، وكان إذا قابل زعيمهم صعصعة بن صوحان يقول له: ى بن الخطيئة! هل تعلم أنَّ من لم يصلحه الخير أصلحه الشَّرُّ، وأن من لم يصلحه اللِّين أصلحته الشدَّة؟ وكان يقول لهم: لماذا لا تردُّون علىَّ، كما كنتم تردُّون على سعيد فى الكوفة، وعلى معاوية بالشام؟ لماذا لا تخاطبوننى، كما كنتم تخاطبونهما؟ ونفع معهم أسلوب عبد الرَّحمن بن خالد، وأخرسهم حزمه، وشدَّته، وقسوته، وأظهروا له التَّوبة والنَّدم، وقالوا له: نتوب إلى الله، ونستغفره، أقلْنَا أقالك الله، وسامحنا سامحك الله.

بقى القوم فى الجزيرة عند عبد الرَّحمن بن خالد، وأرسل عبد الرّحمن أحد زعمائهم وهو الأشتر النَّخعى إلى عثمان ليخبره بتوبتهم، وصلاحهم، وتراجعهم عمَّا كانوا عليه من الفتنة، فقال عثمان للأشتر: احلُلْ أنت ومن معك حيث شئتم، فقد عفوت عنكم. قال الأشتر: نريد أن نبقى عند عبد الرَّحمن فى الجزيرة مدَّةً، أظهروا فيها التَّوبة، والاستقامة والصَّلاح[1]، وسكت أصحاب الفتنة فى الكوفة إلى حين، وكان هذا فى سنة ثلاثة وثلاثين، بعدما تمَّ نفى رؤوس الفتنة إلى معاوية فى الشَّام، ثمَّ إلى عبد الرّحمن بن خالد، فرأى أصحاب الفتنة فى الكوفة أنَّ المصلحة تقتضى أن يسكتوا إلى حين[2].

إلا أن بقية دعاة الفتنة كانوا يشتغلون فى البصرة، ومصر، وغيرها وفى سنة أربع وثلاثين ـ السنة الحادية عشرة من خلافة عثمان ـ أحكم عبد الله بن سبأ خطته، ورسم مؤامرته، ورتب مع جماعته السَّبئيِّين الخروج على الخليفة، وولاته، فقد اتَّصل ابن سبأ اليهودى من وكر مؤامراته فى مصر بالشَّياطين من حزبه فى البصرة، والكوفة، والمدينة، واتفق معهم على تفاصيل الخروج، وكاتبهم، وكاتبوه، وراسلهم، وراسلوه،

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/٣٢٧).

(٢) الخلفاء الراشدون للخالدى، ص (١٣٤).

وكان ممَّن كاتبهم، وراسلهم السَّبئيُّون في الكوفة، بضعة عشر رجلاً منهم منفيون في الشَّام، ثمَّ في الجزيرة عند عبد الرَّحمن بن خالد بن الوليد، وبعد نفي أولئك الخارجين، كان زعيم السَّبئيِّين الحاقدين في الكوفة يزيد بن قيس[1]. وقد خلت الكوفة في سنة أربع وثلاثين من وجوهها، وأشرافها، لأنَّهم توجَّهوا للجهاد في سبيل الله، ولم يبق إلا الرُّعاع، والغوغاء الذين أثر فيهم السَّبئيون والمنحرفون، وشحنوهم بأفكارهم الخبيثة، وهيَّجوهم ضدَّ والي عثمان إلى الكوفة سعيد بن العاص رضي الله عنه[2]. واستطاع القعقاع بن عمرو التميميُّ أمير الحرب بالكوفة أن يقضي على التحرك الأوَّل بقيادة يزيد بن قيس، ولما رأى يزيد شدة القعقاع ويقظته، وبصيرته، لم يجاهره بهدفهم وخطتهم في الخروج على الخليفة عثمان، وخلعه، وأظهر له أن كل ما يريده هو وجماعته عزل الوالي سعيد بن العاص، والمطالبة بوالٍ آخر مكانه، فاستُجيب لطلبهم، ولذلك أطلق القعقاع سراح الجماعة، لما سمع كلام يزيد، ثمّ قال يزيد: لا تجلس لهذا الهدف في المسجد، ولا يجتمع عليك أحد، واجلس في بيتك واطلب ما تريد من الخليفة، وسيحقّق لك ذلك بإذن[3] الله، واستمر يزيد بن قيس في إشعال الفتنة، واضطر إلى تعديل خطّته في الخروج، وبعد كيد ومكر وتدبير من أتباع السبئيِّن، قرّر الغوغاء والرُّعاع بقيادة يزيد بن قيس منع سعيد بن العاص من دخول الكوفة وكان سعيد بالمدينة[4].

ولما خرج السبئيُّون، والغوغاء طلبًا للفتنة، والتمرد، وإحداث القلاقل بقي في المسجد وجوه المسلمين، وأشرافهم، وحلماؤهم، فصعد المنبر نائب الوالي عمرو ابن حُريث وطالب المسلمين بالأخوَّة، والوحدة، ونهاهم عن التفرق، والاختلاف، والفتنة، والخروج، ودعاهم إلى عدم الاستجابة للخارجين والمتمرِّدين[5]، قال القعقاع بن عمرو التميمي: أتردُّ السَّيل عن عبابه، فاردد الفرات عن أدراجه، هيهات، لا والله لا تُسكِّن الغوغاء إلا المشرفيَّة[6]، ويوشك أن تُنتضى، ثمَّ

(1)، (2) الخلفاء الراشدون للخالدي، ص (135). (3) تاريخ الطَّبري (5/337).
(4) المصدر نفسه (5/338). (5) الخلفاء الرَّاشدون، للخالدي، ص (139).
(6) نوع من السيوف.

يعجُّون عجيج العتدان[1]، ويتمنون ما هم فيه، فلا يردهم عليهم أبدًا، فاصبر، فقال: أصبر، وتحوَّل إلى منزله[2].

واستطاع أهل الفتنة أن يمنعوا سعيد بن العاص من دخول الكوفة ورجع إلى المدينة، وكان من رأيه أن من الحكمة عدم مواجهتهم، وعدم تأجيج نار الفتنة، بل محاولة إخمادها، أو تأجيل اشتعالها على الأقلِّ، وبعد رجوعه إلى المدينة أخبر سعيد عثمان بما حصل. فقال له عثمان: ماذا يريدون؟ هل خلعوا يدًا من طاعة؟ وهل خرجوا على الخليفة؟ وأعلنوا عدم طاعتهم له؟ قال له سعيد: لا، لقد أظهروا أنَّهم لا يريدونني واليًا عليهم، ويريدون واليًا آخر مكاني. قال له عثمان: من يريدون واليًا؟ قال سعيد بن العاص: يريدون أبا موسى الأشعريَّ، قال عثمان: قد عيَّنا وأثبتنا أبا موسى واليًا عليهم، ووالله لن نجعل لأحد عُذرًا ولن نترك لأحدٍ حجة، ولنصبرنَّ عليهم كما هو مطلوب منَّا، حتى نعرف حقيقة ما يريدون، وكتب عثمان إلى أبي موسى بتعيينه واليًا على الكوفة[3]، وكان أبو موسى رضي الله عنه يقوم بتهدئة الأمور، وينهى النَّاس عن العصيان. وقال لهم: أيها الناس لا تخرجوا في هذه المخالفة، ولا تعودوا لمثل هذا العصيان، والزموا جماعتكم، والطاعة، وإياكم والعجلة، اصبروا، فكأنَّكم بأمير[4]. فقالوا: فصلِّ بنا، قال: لا، إلا على السمع والطاعة لعثمان[5] بن عفان، قالوا: على السَّمع، والطاعة لعثمان. وما كانوا صادقين في ذلك، لكنَّهم كانوا يخفون أهدافهم الحقيقيَّة عن الآخرين. وكان أبو موسى يصلي بالنَّاس إلى أن جاءه كتاب عثمان بتعيينه واليًا على الكوفة، وكتب عثمان بن عفان إلى الخارجين من أهل الكوفة: أما بعد، فقد أمَّرت عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرشنَّ لكم عرضي، ولأبذُلنَّ لكم صبري، ولأستصلحنَّكم بجهدي، واسألوني كلَّ ما أحببتم، ممَّا لا يعصى الله فيه، فسأعطيه لكم، ولا شيئًا كرهتموه لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عندما أحببتم، حتَّى لا يكون لكم عليَّ حجَّة. وكتب بمثل ذلك إلى الأمصار[6]، رضي الله عن أمير المؤمنين عثمان، ما كان أصلحه وأوسع صدره، وكم ظلمه السَّبئيُّون والخارجون الحاقدون، واختلفوا عليه.

---

(١) تنتضى: أخرج السيف من غمده، العتدان: قيل الحولي من أولاد الماعز.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٣٣٨).

(٣) المصدر نفسه (٥/٣٣٩).

(٤) أى: يأتيكم من قبل أمير المؤمنين عثمان.

(٥) تاريخ الطبرى (٥/٣٣٩).

(٦) المصدر نفسه (٥/٣٤٣).

ع ـ مشورة عثمان لولاة الأمصار ورأى معاوية فى ذلك:

واجه عثمان بن عفان الفتنة بوسائل وأساليب متنوعة منه: إرسال لجان تفتيش وتحقيق إلى الولايات، ومحاولة معرفة أغراض أهل الفتنة، واستطاع أن يخترق صفوفهم، وأقام الحجة على الغوغاء والمتمردين بالحوار والنقاش، والاستجابة لبعض مطالبهم. وقد فصلت الحديث عن سياسة عثمان فى التعامل مع الفتنة فى كتابى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه.

ومن الأساليب التى اتخذها عثمان رضى الله عنه مشورته لولاة الأمصار رضى الله عنه. حيث بعث إلى ولاة الأمصار واستدعاهم على عجلٍ، وكانوا: عبد الله بن عامر، ومعاوية بن أبى سفيان، وعبد الله بن سعد، وأدخل معهم فى المشورة سعيد بن العاص، وعمرو بن العاص وهم من الولاة السابقين وكانت جلسة مغلقة وخطيرة، وقال فيه كل المشاركين برأيه، وكان رأى معاوية: أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد فيكفيك كل رجل منهم ما قبله، وأكفيك أنا أهل الشام[1]، وبعد أن سمع عثمان من المشاركين اقتراحاتهم قام، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: كل ما أشرتم به علىَّ قد سمعت، ولكلٍّ أمر باب يؤتى منه، إنَّ هذا الأمر الذى يخاف على هذه الأمَّة كائن، وإن بابه الذى يغلق عليه، فيُكفكف به اللِّين، والمؤاتاة والمتابعة، إلا فى حدود الله تعالى ذكره، التى لا يستطيع أحد أن يبادى بعيب أحدها، فإن سدَّه شىء فرفق، فذاك والله ليُفتحنَّ، وليست لأحد علىَّ حجة حقٍّ، وقد علم الله إنِّى لم آل الناس خيرًا، ولا نفسى. والله إنَّ رحا الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحرِّكها، كفكفوا النَّاس، وهبوا لهم حقوقهم، واغتفروا لهم، وإذا تعوطيت حقوق الله، فلا تُدهنوا فيها[2]. فمنع عثمان رضى الله عنه الولاة من التَّنكيل بمثيرى الشَّغب، وحبسهم، أو قتلهم، وقرَّر أن يعاملهم بالحسنى واللِّين[3]، وطلب من عماله أن يعودوا إلى أعمالهم، وفق ما أعلنه لهم من أسلوب مواجهة الفتنة التى كان كلُّ بصير يرى أنَّها قادمة[4]، وقبل أن يتوجه معاوية بن أبى سفيان إلى الشَّام أتى عثمان وقال له: يا أمير المؤمنين، انطلق معى

---

(١) الكامل (٢/ ٢٧٨) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٥١).
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٥١).
(٣) خلافة عثمان، د. السلمى، ص (٧٧).
(٤) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص (١٥١).

إلى الشَّام، قبل أن يهجم عليك من الأمور والأحداث مالا قِبَل لك بها. قال عثمان: أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء، ولو كان فيه قطع خيط عنقى. قال له معاوية: إذًا أبعث لك جيشًا من الشَّام، يقيم فى المدينة، لمواجهة الأخطار المتوقعة، ليدافع عنك، وعن أهل المدينة، قال عثمان: لا، حتى لا أقترّ على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق، بجند تساكنهم، ولا أضيِّق على أهل الهجرة والنُّصرة. قال له معاوية: يا أمير المؤمنين، والله لتُغتالنَّ، أو لتُغزينَّ. قال عثمان: حسبى الله ونعم الوكيل[1].

ولقد حدث كل ما توقعه معاوية، فجاءت جموع أهل الفتنة لتحاصر عثمان رضى الله عنه وتغتاله فى النهاية. وحين جاء هؤلاء الثوار من مختلف الأقاليم لا نجد من بينهم جماعة من أهل الشام[2]، من كل ما سبق نجد أننا أمام وال كبير يشق طريقه بجدارة من بين الولاة إلى ما هو أبعد من الولاية، فقد استطاع أن يجعل من إقليم الشام الإقليم المهيأ لقيادة بقية الأقاليم فى الدولة الإسلامية بما عمق فيه من حسن الطاعة للقيادة، وبما ثبت فيه من دعائم الاستقرار، وقطعه لأسباب الفتنة وعوامل الفرقة فيه. وهذا ما لا نجده فى غيره من الأقاليم[3].

غ - مقتل عثمان رضى الله عنه وموقف الصحابة من ذلك:

اشتد الحصار على عثمان رضى الله عنه، حتى منع من أن يحضر للصَّلاة فى المسجد، وكان صابرًا على هذه البلوى التى أصابته كما أمره رسول الله ﷺ بذلك، وكان مع إيمانه القوى بالقضاء والقدر، يحاول أن يجد حلاً لهذه المصيبة، فنراه تارة يخطب الناس عن حرمة دم المسلم، وإنه لا يحل سفكه إلا بحقه، وتارة يتحدث فى الناس ويظهر فضائله وخدماته الجليلة فى الإسلام، ويستشهد على ذلك ببقية العشرة رضوان الله عليهم[4]، وكأنه يقول: مَنْ هذا عمله وفضله هل من الممكن أن يطمع بالدنيا ويقدمها على الآخرة، وهل يعقل أن يخون الأمانة ويعبث بأموال الأمة ودمائها، وهو يعرف عاقبة ذلك عند الله. وهو الذى تربى على عين النبى ﷺ والذى شهد له وزكاه وكذلك أفاضل الصحابة. ومتى؟ بعد ما

(١) تاريخ الطبرى (٥/٣٥٣).

(٢) عبد الله بن سبأ، للعودة، ص (١٥٢)، أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٧٦).

(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٧٦).

(٤) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد على، ص (٨٥).

تجاوز السبعين وقارب الثمانين من عمره، أهكذا تكون معاملته؟ واشتدت سيطرة المتمردين على المدينة حتى أنهم ليصلون بالناس فى أغلب الأوقات[١]،وحينها أدرك الصحابة أن الأمر ليس كما حسبوا، وخشوا من حدوث ما لا يحمد عقباه، وقد بلغهم أن القوم يريدون قتله، فعرضوا عليه أن يدافعوا عنه، ويخرجوا الغوغاء عن المدينة إلا أنه رفض أن يراق دم بسببه[٢]، وأرسل كبار الصحابة أبناءهم دون استشارة عثمان رضى الله عنه، ومن هؤلاء الحسن بن على رضى الله عنهما، وعبد الله بن الزبير، فقد كان عثمان يحب الحسن ويكرمه، فعندما وقعت الفتنة وحوصر عثمان رضى الله عنه أقسم على الحسن رضى الله عنه بالرجوع إلى منزله، وذلك خشية عليه أن يصاب بمكروه[٣]، وقد قال عثمان للحسن رضى الله عنهما: أرجع ابن أخى حتى يأتى الله بأمره[٤]، وقد صحت روايات أن الحسن حمل جريحًا من الدار يوم الدار[٥]، كما جرح غير الحسن، عبد الله بن الزبير، ومحمد بن حاطب، ومروان بن الحكم، كما كان معهم الحسين بن على، وابن عمر رضى الله عنهما[٦].

وقد كان على رضى الله عنه من أدفع الناس عن عثمان رضى الله عنه، وشهد له بذلك مروان ابن الحكم[٧]، كما أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه، إن عليًا أرسل إلى عثمان فقال: إن معى خمسمائة دارع، فأذن لى فأمنعك من القوم، فإنك لم تحدث شيئًا يستحل به دمك، فقال: جزيت خيرًا، ما أحب أن يهراق دم فى سببى[٨]، وقد وردت روايات عديدة تفيد وقوفه بجانب عثمان رضى الله عنهما، أثناء الحصار فمن ذلك: أن الثائرين منعوا عن عثمان الماء حتى كاد أهله يموتون عطشًا، فأرسل على رضى الله عنه إليه بثلاث قرب مملوءة ماء فما كادت تصل إليه، وجرح بسببها عدة من موالى بنى هاشم وبنى أمية حتى وصلت.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥١٥) .
(٢) فتنة مقتل عثمان (١/ ١٦٧) صحيح الإسناد .
(٣) تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ٨٠٢-١٢) .
(٤) الرياض النضرة نقلاً عن الحسن بن على ودوره السياسى، ص (٤٦).
(٥) الطبقات لابن سعد (٨/ ١٢٨) بسند صحيح.
(٦) تاريخ خليفة، ص (١٧٤).
(٧) تاريخ الإسلام، ص (٤٦٠ - ٤٦١)، إسناده قوى.
(٨) تاريخ دمشق، ص (٤٠٣).

ولقد تسارعت الأحداث فوثب الغوغاء على عثمان فقتلوه رضى الله عنه، وأرضاه، ووصل الخبر إلى الصحابة وأكثرهم فى المسجد، فذهبت عقولهم، وقال على لأبنائه وأبناء أخيه: كيف قتل عثمان وأنتم على الباب؟ ولطم الحسن، وكان قد جرح[1]، وضرب صدر الحسين وشتم ابن الزبير وابن طلحة، وخرج غضبان إلى منزله وهو يقول: تبًا لكم سائر الدهر، اللهم أنى أبرأ إليكم من دمه أن يكون قتلت أو مالأت على قتله[2]، وهكذا كان موقف على رضى الله عنه، نصحًا وشورى، سمعًا وطاعة، ووقفة قوية بجانبه أثناء الفتنة، ومن أدفع الناس عنه، ولم يذكره بسوء قط، يحاول الإصلاح وسد الخرق بين الخليفة والخارجين عليه لكن الأمر فوق طاقته، وخارج إرادته، إنها إرادة الله عز وجل أن يفوز أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه بالشهادة[3].. ويبوء المفسدين بالإثم.

إن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنكر قتل عثمان، وتبرأ من دمه، وكان يقسم على ذلك فى خطبه، وغيرها؛ إنه لم يقتله ولا أمر بقتله، ولا مالأ عليه، ولا رضى، وقد ثبت ذلك عنه بطرق تفيد القطع[4]، خلافًا لما تزعمه الشيعة الرافضة من أنه كان راضيًا بقتل عثمان رضى الله عنهما[5]، وقال الحاكم بعد ذكر بعض الأخبار الواردة فى مقتله رضى الله عنه: فأما الذى ادعته المبتدعة من معونة أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، فإنه كذب وزور، فقد تواترت الأخبار بخلافه[6]. وقال ابن تيمية: وهذا كله كذب على علىٍّ رضى الله عنه، وافتراء عليه، فعلى رضى الله عنه لم يشارك فى دم عثمان رضى الله عنه، ولا أمر ولا رضى، وقد روى عنه ذلك وهو الصادق البار[7]، وقد قال على رضى الله عنه: اللهم أنى أبرأ إليك من دم عثمان[8].

وقد شوهت بعض كتب التاريخ مواقف الصحابة من فتنة مقتل عثمان، وذلك بسبب الروايات الضعيفة والموضوعة التى ذكرها كثير من المؤرخين، والمتتبع لأحداث الفتنة فى تاريخ الإمام الطبرى، وكتب التاريخ الأخرى من خلال روايات

---

(1) ابن أبى عاصم، الآحاد والمثانى (1/ 125) نقلاً عن خلافة على، ص (87).

(2)، (3) مصنف ابن أبى شيبة (15/ 209) إسناده صحيح.

(4) البداية والنهاية (7/ 202). (5) العقيدة فى أهل البيت بين الإفراط والتفريط، ص (129).

(6) المستدرك (3/ 103). (7) منهاج السنة (4/ 406).

(8) العقيدة فى أهل البيت بين الإفراط والتفريط، ص (229)، الطبقات (3/ 3) إسناده حسن.

أبى مخنف، والواقدى، وابن أعثم، وغيـرها من الأخبار التى حبكت بطريقة ذات ميول عدائية للتاريخ الصحيح يشعر أن الصحابة هم الذين كانوا يحركون المؤامرة، ويثيرون الفتنة، فأبو مخنف ذو الميول الشيعية لا يتورع فى اتهام عثمان بأنه الخليفة الذى كثرت سقطاته، فـاستحق ما استحق، ويظهر طلحـة فى مروياته كواحد من الثائرين على عثمان، والمؤلبين ضده، ولا تختلف روايات الواقدى عن روايات أبى مخنف، وقد كثرت الروايات الشيعية التى تتـهم الصحابة بالتآمر ضد عثمان رضى الله عنـه، وأنهم هم الذين حـركـوا الفـتنة، وأثاروا الناس، وهذا كلـه كـذب وزور[1]، وخلافًا للروايات الموضوعـة والضعيفة فقد حـفظت لنا كتب المحدثين، بحمـد الله، الروايات الصحيـحة التى يظهر فـيها الصـحابة من المؤازرين لعثـمان والمنافحين عنه والمتـبرئين من قتله[2]، والمطالبين بدمه بعد مقـتله، وبذلك يستبعد أى اشتراك لهم فى تحريك الفتنة، أو إثارتها[3].

إن الصحابة جـميعًا رضى الله عنهم أبرياء من دم عـثمان رضى الله عنه، ومن قال خـلاف ذلك، فكلامه باطل، ولا يسـتطيع أن يقيم عليـه أى دليل ينهض إلى مرتبة الصـحة، ولذلك أخرج خليفـة فى تاريخه عن عبد الأعلى بن الـهيثم، عن أبيه، قال: قلت للحسن: أكـان فيمن قتل عثمان أحـد من المهاجرين، والأنصار؟ قال: لا، كانـوا أعلاجًا[4] من أهل مصـر. وقال الإمام الـنَّووى: ولم يشارك فى قتله أحد من الصحابة، وإنما قتله همج، ورعاع من غوغاء القبائل، سفلة الأطراف والأراذل، تحزَّبوا، وقصدوه من مـصر، فعجزت الصحابة الحـاضرون عن دفعهم، فحصـروه حتَّى قتل، رضى الله عنه[5]، وقد وصفـهم الزبير رضى الله عنه بأنهم غوغاء من الأمصار، ووصفتهم السيدة عائشة بأنَّهم نزَّاع القبائل[6]، ووصفهم ابن تيمية بأنهم خوارج مفـسدون ضالون، باغون معتدون[7]، ووصفهم الذهبىُّ بأنهم رؤوس شرٍّ، وجفاء[8]، ووصفهم ابن العماد الحنبلى فى الشذرات بأنَّهم أراذل من

---

(١) تحقيق مواقف الصحابة (٢٠/ ١٤ - ١٨).

(٢) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على للصَّلاَّبىّ، ص (١٢٢).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (٢٠/ ١٤ - ١٨).

(٤) العلج : كل جاف شديد من الرِّجال ، عثمان بن عفان للصَّلاَّبىّ، ص (٤٥٠).

(٥) شهيد الدار عثمان بن عفان، ص (١٤٨).

(٦) شرح النووى على صحيح مسلم (١٥/ ١٤٨).

(٧) منهاج السنة (٢/ ١٨٩ ـ ٢٠٦).

(٨) دول الإسلام للذهبى (١/ ١٢).

أوباش القبائل[1]، ويشهد على هذا الوصف تصرُّف هؤلاء الرُّعاع منذ الحصار إلى قتل الخليـفة رضى الله عنه ظلمًا. وعدوانًا، فكـيف يمنع الماء عنه، والطعام وهو الذى طالما دفع من ماله الخاص ما يـروى ظمأ المسلمين بالمجّان[2]، والذى يساهم بأموال كثيرة عندما يلمُّ النَّاس مجاعة، أو مكروه، وهو الدائم العطاء عندما يصيب النَّاس ضـائقة، أو شدَّة من الـشدائد[3]، حتى أن عليّـا رضى الله عنه يصف هذا الحال، وهو يؤنب المحاصرين بقوله: يا أيهـا الناس، إن الذى تفعلونه لا يشبه أمر المؤمنين، ولا أمر الكافـرين، فلا تمنعوا عن هـذا الرّجل الماء، ولا المادة ـ الطعام ـ فإنّ الروم وفارس لتـأسر وتطعم وتسقى[4]. لقد صحَّت الأخـبار وأكّدت حوادث التـاريخ على براءة الصَّحـابة من التَّحـريض على عثـمان أو المشـاركة فى الفـتنة ضدّه[5]، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابى تيسير الكريم المنان فى سيرة عثمان ابن عفان[6].

(١) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٤٨٢)، شذرات الذهب (١/ ٤٠)

(٢) تيسير الكريم المنان فى سيرة عثمان بن عفان، ص (٤٥٠).

(٣) التمهيد والبيان، ص (٢٢٤).

(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٠٠).

(٥) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ٨).

(٦) عثمان بن عفان للصَّلاَّبىّ، ص (٤٥١ - ٤٦٦).

المبحث الثالث

معاويـــة بـــن أبـــى سفيان

فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنهما

كان مـعاوية رضى الله واليًـا على الشام فى عـهدى عمـر وعثـمان رضى الله عنهمـا، ولما تولى على رضى الله عنه الخلافـة أراد عزله ـ ويبـدو أنه كانت هناك ضغوط على علىٍّ رضى الله عنه من قـبل الغوغاء لكى يعزل معـاوية، وخصوصًا أن الغوغاء يعـرفون معاوية جـيدًا، والذى جعلنى أقول ذلك أن العـلاقة بين على ومعاوية قبل خلافـة على، لا يوجد ما يشوبها، بل كانت جيـدة، كما أن الغوغاء فيما بعد ضغطوا على أمير المؤمنين على فى عزل قيس بن سعد من مصر، ونجحوا فى ذلك، وترتب على ذلك ضـياع مـصر، وقـد فصلت ذلك فى كـتابى أسـمى المطالب فى سيرة أمـير المؤمنين على بن أبى طالب، هذا وقد اختـار أمير المؤمنين على بدلاً من معـاوية عبـد الله بن عمر، فـأبى عليه عبـد الله قبـول ولاية الشام واعتـذر عن ذلك، وذكـر له القرابة والمصـاهرة التى بينهـما[1]، ولم يلزمه أمـير المؤمنين على وقبل منه طلبه بعدم الذهاب إلى الشام، وأما الروايات التى تزعم أن عليًا قام بالتـهجم على عبد الله بن عـمر -رضى الله عنه- لاعتزاله وعـدم وقوفه إلى جانبه، ففى ذلك الخبر تحريف وكذب[2].

وأقصى مـا وصل إليه الأمـر فى قضيـة عبد الله بن عـمر وولاية الشـام ما رواه الذهبى من طريق سفيان بن عيينة: عن ابن نافع عن أبيه عن ابن عمر قال: بعث إلىَّ على قال: يا أبا عـبد الرحـمن، إنك رجل مطاع فى أهل الشام، فـسرْ فقـد أمرتك عليـهم، فقلت: أذكـرك الله وقرابتى من رسـول الله ﷺ، وصحـبتى إيـاه، إلا ما أعفيتنى، فأبى علىٌّ، فاستعنت بحفصة فأبى، فخرجت ليلاً إلى مكة[3]، وهذا دليل قاطع على مبايعة ابن عمـر، ودخوله فى الطاعة، إذ كيف يوليه علىٌّ وهو لم يبايع. وفى الاستيعاب، لابن عبد البر من طريق أبى بكر بن أبى الجهم عن ابن عمر أنه قال

(١) المصنف لابن أبى شيبة (٧/ ٤٧٢) إسناده صحيح. (٢) استشهاد عثمان ووقعة الجمل، ص (١٦٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٢٤) رجاله ثقات.

حين احتضر: ما آسى على شيء إلا تركى قتال الفئة الباغية مع على رضى الله عنه[1]، وهذا مما يدل أيضًا على مبايعته لعليٍّ، وإنه إنما ندم على عدم خروجه مع على للقتال، فإنه كان ممن اعتزل الفتنة، فلم يقاتل مع أحد، ولو كان قد ترك البيعة، لكان ندمه على ذلك أكبر وأعظم، ولصرح به، فإن لزوم البيعة والدخول فيما دخل الناس فيه واجب، والتخلف عنه متوعد عليه برواية ابن عمر نفسه أن النبى ﷺ قال: «من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية»[2]. وهذا بخلاف الخروج للقتال مع على، فإنه مختلف فيه بين الصحابة، وقد اعتزله بعض الصحابة، فكيف يتصور أن يندم ابن عمر على ترك هذا القتال، ولا يندم على ترك البيعة لو كان تاركًا لها، مع ما فيه من الوعيد الشديد، وبهذا يظهر بطلان قول بعض المؤرخين فى زعمهم من ترك ابن عمر البيعة لعلى رضى الله عنه، حيث ثبت أنه كان من المبايعين له بل من المقربين منه، الذين كان يحرص على توليتهم، والاستعانة بهم، لما رأى فيه من صدق الولاء والنصح له[3]، وبعد اعتذار ابن عمر عن قبول ولاية الشام، أرسل أمير المؤمنين علىّ سهيل بن حنيف بدلاً منه، إلا أنه ما كاد يصل مشارف الشام حتى أخذته خيل معاوية وقالوا له: إن كان بعثك عثمان فحيهلا بك وإن كان بعثك غيره فارجع[4]، وكانت بلاد الشام تغلى غضبًا على مقتل عثمان ظلمًا وعدوانًا.

أولاً: اختلاف الصحابة فى الطريقة التى يأخذ بها القصاص من قتلة عثمان:

إن الخلاف الذى نشأ بين أمير المؤمنين على من جهة، وبين طلحة والزبير وعائشة رضى الله عنهم من جهة أخرى، ثم بعد ذلك بين على ومعاوية رضى الله عنهما.. لم يكن سببه ومنشؤه أن هؤلاء كانوا يقدحون فى خلافة أمير المؤمنين على وإمامته، وأحقيته بالخلافة والولاية على المسلمين، فقد كان هذا محل إجماعٍ بينهم، قال ابن حزم: ولم ينكر معاوية قط فضل علىّ، واستحقاقه الخلافة، ولكنْ اجتهاده أدّاه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان رضى الله عنه على البيعة، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان[5].

(١) الاستيعاب (٦/ ٣٢٦) بحاشية كتاب الإصابة.
(٢) مسلم، ك الإمارة رقم (١٨٥١).
(٣) الانتصار للصحب والآل، ص (٥٠٧).
(٤) تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٣٩)، خلافة على، لعبد الحميد، ص (١١٠).
(٥) الفصل فى الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٦٠)

وقال ابن تيمية: ومعاوية لم يدّع الخلافة، ولم يبايع له بها حين قاتل عليًا، ولم يقاتل على أنه خليفة، ولا أنه يستحق الخلافة، ويقرون له بذلك، وقد كان معاوية يقرُ بذلك لمن سأله عنه، ولا كان معاوية وأصحابه يرون أن يبتدئوا عليًا وأصحابه بالقتال، ولا فعلوا[١]، وقال أيضًا: وكل فرقة من المتشيعين مقرّة مع ذلك بأن معاوية ليس كفؤًا لعلى بالخلافة، ولا يكون خليفة مع إمكان استخلاف على، فإن فضل على وسابقته وعلمه ودينه وشجاعته، وسائر فضائله كانت عندهم ظاهرة معلومة، كفضل إخوانه أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم[٢].

إن منشأ الخلاف لم يكن قدحًا فى خلافة أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وإنما اختلافهم فى قضية الاقتصاص من قتلة عثمان، ولم يكن خلافهم فى أصل المسألة، وإنما فى الطريقة التى تعالج بها هذه القضية، إذ كان أمير المؤمنين على رضى الله عنه موافقًا من حيث المبدأ على وجوب الاقتصاص من قتلة عثمان، وإنما كان رأيه أن يرجىء الاقتصاص من هؤلاء إلى حين استقرار الأوضاع، وهدوء الأمور، واجتماع الكلمة، وهذا هو الصواب[٣]، قال النووى: وأعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة، فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم وصاروا ثلاثة أقسام: قسم ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق فى هذا الطرف، وأن مخالفه باغ، فوجب عليهم نصرته، وقتال الباغى عليه فيما اعتقدوه ففعلوا ذلك، ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن مساعدة إمام العدل فى قتال البغاة فى اعتقاده، وقسم عكس هؤلاء: ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق فى الطرف الآخر، فوجب عليهم مساعدتهم وقتال الباغى عليه، وقسم ثالث: اشتبهت عليهم القضية، وتحيروا فيها، ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين فاعتزلوا الفريقين، وكان هذا الاعتزال هو الواجب فى حقهم، لأنه لا يحل الإقدام على قتال مسلم حتى يظهر أنه مستحق لذلك، ولو ظهر لهؤلاء رجحان أحد الطرفين، وأن الحق معه، لما جاز لهم التأخر عن نصرته فى قتال البغاة عليه[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٧٢) .
(٢) المصدر نفسه (٣٥/ ٧٢).
(٣) احداث وأحاديث فتنة الهرج، ص (١٥٨).
(٤) شرح النووى على صحيح مسلم (١٥/ ١٤٩).

ثانيًا: معركة صفين (٣٧هـ):

- تسلسل الأحداث التى قبل المعركة:

١ ـ أم حبيبة بنت أبى سفيان، ترسل النعمان بن بشير بقميص عثمان إلى معاوية وأهل الشام:

لما قُتل عثمان رضى الله عنه أرسلت أم المؤمنين، أم حبيبة بنت أبى سفيان إلى أهل عثمان: أرسلوا إلىّ بثياب عثمان التى قُتل فيها، فبعثوا إليها بقميصه مضرّجًا بالدم، وبخصلة الشعر التى نتفت من لحيته، ثم دعت النعمان بن بشير، فبعثته إلى معاوية، فمضى بذلك وبكتابها[١].

وجاء فى رواية: خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بالدماء، ومعه أصابع نائلة التى أصيبت حين دافعت عنه بيدها[٢]، وكانت نائلة بنت الفرافصة الكلبية زوج عثمان كلبية شامية[٣]، فورد النعمان على معاوية بالشام فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس، وعلق الأصابع فى كم القميص يرفع تارة ويوضع تارة، والناس يتباكون حوله، وحث بعضهم بعضًا على الأخذ بثأره[٤]، وجاء شرحبيل بن السمط الكندى وقال لمعاوية: كان عثمان خليفتنا، فإن قويت على الطلب بدمه وإلا فاعتزلنا[٥]. وآلى رجال الشام ألاَّ يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش، حتى يقتلوا قتلة عثمان، ومن عرض دونهم بشىء أو تفنى أرواحهم[٦]، وكان ذلك ما يريده معاوية، فقد كانت الصورة التى نقلها النعمان بن بشير إلى أهل الشام كانت بشعة: مقتل الخليفة، سيوفًا مصلتة من الغوغاء على رقاب الناس بالمدينة، بيت المال منتهك مسلوب، وأصابع نائلة مقطوعة، فهاجت النفوس والعواطف، واهتزت المشاعر، وتأثرت بها القلوب، وذرفت منها العيون. ولذلك كان إصرار معاوية ومن معه من أهل الشام على المطالبة بدم عثمان، وتسليم القتلة للقصاص قبل البيعة. وهل تتصور أن يتم مقتل أمير المؤمنين وسيد

---

(١) تاريخ الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين، ص (٥٣٩). (٢) البداية والنهاية (٧/ ٥٣٩).

(٣) تاريخ الدعوة الإسلامية لمحمد جميل، ص (٣٩٨). (٤) البداية والنهاية (٧/ ٥٣٩) سندها ضعيف.

(٥) الأنساب (٤/ ٤١٨)، تاريخ الدعوة الإسلامية ص (٣٩٨).

(٦) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٠٠).

المسلمين من حاقدين محتالين متآمرين، ولا يتماوج العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه للقصاص من أصحاب هذه الجريمة البشعة[1]؟

٢ ـ دوافع معاوية رضى الله عنه فى عدم البيعة:

كان معاوية رضى الله عنه واليًا على الشام فى عهد عمر وعثمان رضى الله عنهما، ولما تولى الخلافة علىّ رضى الله عنه أراد عزله وتولية عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، فاعتذر ابن عمر، فأرسل علىّ سهل بن حنيف بدلاً منه، إلا أنه ما كان يصل مشارف الشام ـ وادى القرى ـ حتى عاد من حيث جاء، إذ لقيته خيل لمعاوية عليها حبيب بن مسلمة الفهرى، فقالوا له: إن كان بعثك عثمان فحيهلا بك وإن كان بعثك غيره فارجع[2]، لقد امتنع معاوية وأهل الشام عن البيعة ورأوا أن يقتصّ على رضى الله عنه من قتلة عثمان رضى الله عنه ثم يدخلون البيعة[3]، وقالوا: لا نبايع من يأوى القتلة[4]. وتخوّفوا على أنفسهم من قتلة عثمان رضى الله عنه الذين كانوا فى جيش على، فرأوا أن البيعة لعلى لا تجب عليهم قبل القصاص، وأنهم إذا قوتلوا على ذلك كانوا مظلومين، قالوا: لأن عثمان قتل مظلومًا باتفاق المسلمين، وقتلته فى عسكر على، وهم غالبون لهم شوكة، فإذا بايعنا ظلمونا واعتدوا علينا وضاع دم عثمان، وكان معاوية رضى الله عنه يرى أن عليه مسئولية الانتصار لعثمان والقود من قاتليه، فهو ولى دمه، والله يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]. لذلك جمع معاوية الناس، وخطبهم بشأن عثمان، وأنه قتل مظلومًا على يد سفهاء منافقين لم يقدروا الدم الحرام،، إذ سفكوه فى الشهر الحرام فى البلد الحرام، فثار الناس، واستنكروا وعلت الأصوات، وكان منهم عدد من أصحاب رسول الله ﷺ، فقام أحدهم واسمه مرة بن كعب فقال: لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما تكلمت: «.. وذكر الفتن وقربها، فمر رجل متقنع فى ثوب، فقال: هذا يومئذ على الهدى، فقمت إليه، فإذا هو عثمان بن عفان، فأقبلت عليه بوجهه فقلت: هذا؟ قال: نعم»[5].

---

(١) معاوية بن أبى سفيان، للغضبان، ص (١٧٨ - ١٨٣).
(٢) تاريخ الطبرى (٥/٤٦٦).
(٣) البداية والنهاية (٧/١٢٩).
(٤) العواصم من القواصم، ص (١٦٢).
(٥) صحيح سنن ابن ماجة (١/ ٢٤).

وهناك حديث آخر له تأثيره في طلب معاوية القود من قتلة عثمان، وكان منشطًا ودافعًا قويًا للتصميم على تحقيق الهدف، وهو: عن النعمان بن بشير عن عائشة رضي الله عنهما قالت: أرسل رسول الله ﷺ . . فكان من آخر كلمة أن ضرب منكبه، فقال: يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصًا، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني ثلاثًا، فقلت لها: يا أم المؤمنين فأين كان هذا عنك؟ قالت: نسيته والله ما ذكرته، قال: فأخبرته معاوية بن أبي سفيان فلم يرض بالذي أخبرته، حتى كتب إلى أم المؤمنين أن اكتبي إليَّ به، فكتبت إليه كتابًا[1].

لقد كان الحرص الشديد في تنفيذ حكم الله في القتلة السبب الرئيسي في رفض أهل الشام بزعامة معاوية بن أبي سفيان بيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ورأوا أن تقديم حكم القصاص مقدم على البيعة، وليست لأطماع معاوية في ولاية الشام فضلاً عن طلبه للخلافة، إذ كان يدرك إدراكًا تامًا أن هذا الأمر في بقية الستة من أهل الشورى، وأن عليًا أفضل منه وأولى بالأمر منه[2]، فعن أبي مسلم الخولاني أنه قال لمعاوية: أنت تنازع عليًا أم أنت مثله؟ فقال: لا والله إني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر مني، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلومًا، وأنا ابن عمه، والطالب بدمه، فأتوه، فقولوا له، فليدفع إليَّ قتلة عثمان وأسلم له، فأتوا عليًا فكلموه، فلم يدفعهم إليه[3].

وأما ما شاع بين الناس قديمًا وحديثًا أن الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما كان سببه طمع معاوية في الخلافة، وأن خروج هذا الأخير على عليّ وامتناعه عن بيعته كان بسبب عزله عن ولاية الشام، فهذه روايات لا تصح ولا تثبت، فقد جاء في كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينوري، وهو لا يثبت له، وإنما صاحبه ذو أنفاس شيعية رافضية، فقد ذكر أنَّ معاوية ادّعى الخلافة، وذلك من خلال الرواية التي ورد فيها ما قاله ابن الكواء لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: اعلم أن معاوية طليق الإسلام، وأنا أباه رأس الأحزاب، وأنه ادعى الخلافة من غير مشورة فإن صدقك فقد حلّ خلعه، وإن كذبك فقد حرم عليك كلامه[4]، وهذا

(١) مسند أحمد رقم (٢٤٠٤٥) حديث صحيح.
(٢) خلافة علي بن أبي طالب، لعبد الحميد، ص (١١٢).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٤٠)، رجاله ثقات وإسناده جيد.
(٤) الإمامة والسياسة (١/ ١١٣).

كلام لا يثبت عن أمير المؤمنين على وإنما من كلام الشيعة الروافض، وسيأتى الحديث عن كتاب الإمامة والسياسة وبيان كذبه وزوره ودوره فى تشويه حقائق التاريخ فى موضعه بإذن الله، وقد امتلأت كتب التاريخ والأدب بالروايات الموضوعة والضعيفة التى تزعم أن معاوية اختلف مع على من أجل الملك والزعامة والإمارة[1]. والصحيح أن الخلاف بين على ومعاوية رضى الله عنهما كان حول مدى وجوب بيعة معاوية وأصحابه لعلى قبل توقيع القصاص على قتلة عثمان أو بعده، وليس هذا فى أمر الخلافة فى شىء، فقد كان رأى معاوية رضى الله عنه، ومن حوله من أهل الشام أن يقتص علىّ رضى الله عنه من قتلة عثمان، ثم يدخلون بعد ذلك فى البيعة[2]، يقول القاضى ابن العربى أن سبب القتال بين أهل الشام وأهل العراق يرجع إلى تباين المواقف بينهما: فهؤلاء - أى أهل العراق - يدعون إلى علىّ بالبيعة وتأليف الكلمة على الإمام، وهؤلاء - أى أهل الشام - يدعون إلى التمكين من قتلة عثمان ويقولون: لا نبايع من يؤوى القتلة[3]، ويقول إمام الحرمين فى «لمع الأدلة»: إن معاوية وإن قاتل علياً، فإنه لا ينكر إمامته ولا يدّعيها لنفسه، وإنما كان يطلب قتلة عثمان ظاناً منه أنه مصيب، وكان مخطئًا[4].
ويقول الهيثمى: ومن اعتقاد أهل السنة والجماعة أنّ ما جرى بين معاوية وعلى رضى الله عنهما من الحروب، لم يكن لمنازعة معاوية لعلى فى الخلافة؛ للإجماع على أحقيتها لعلىّ، فلم تهج الفتنة بسببها، وإنما هاجت بسبب أن معاوية طلب تسليمه قتلة ابن عمّه فامتنع على[5]، لقد تضافرت الروايات وأشارت إلى أنّ معاوية رضى الله عنه اتخذ موقفه للمطالبة بدم عثمان، وأنه صرح بدخوله فى طاعة على رضى الله عنه إذا أقيم الحد على قتلة عثمان، ولو افترض أنه اتخذ قضية القصاص والثأر لعثمان ذريعة لقتال على وطمعًا فى السلطة، فماذا سيحدث لو تمكن على من إقامة الحد على من قتلة عثمان؟ حتمًا ستكون النتيجة خضوع معاوية لعلى ومبايعته له، لأنه التزم بذلك فى موقفه من تلك الفتنة، كما أن كل من حارب معه كانوا يقاتلون على أساس إقامة الحد على قتلة عثمان، على أن

(١) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (٢/ ١٤٥). (٢) البداية والنهاية (٨/ ١٢٩)، فتح البارى (١٣/ ٩٢).
(٣) العواصم من القواصم، ص (١٦٢). (٤) لمع الأدلة فى عقائد أهل السنة والجماعة، ص(١١٥).
(٥) الصواعق المحرقة (٢/ ٦٢٢)، هذا هو اجتهاد معاوية، وإن كان الصواب هو أن يسلم معاوية ويطالب بالدعوة للقصاص.

معاوية إذا كان يخفى فى نفسه شيئًا آخر لم يعلن عنه، سيكون هذا الموقف بالتالى مغامرة، ولا يمكن أن يقدم عليها إذا كان ذا أطماع[1].

إن معاوية رضى الله عنه كان من كتّاب الوحى، ومن قادة الصحابة، وأكثرهم حلمًا، فكيف يعتقد أن يقاتل الخليفة الشرعى، ويهرق دماء المسلمين من أجل مُلك زائل؟ وهو القائل: والله لا أخير بين الله وبين غيره إلا اخترت الله على ما سواه[2]، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال فيه: «اللهم اجعله هاديًا مهديًا، واهد به»[3]، وقال: «اللهم علمه الكتاب وقه العذاب»[4]. وأما وجه الخطأ فى موقفه من مقتل عثمان رضى الله عنه، فيظهر فى رفضه أن يبايع لعلى رضى الله عنه قبل مبادرته إلى الاقتصاص من قتلة عثمان، ويضاف إلى ذلك خوف معاوية على نفسه لمواقفه السابقة من هؤلاء الغوغاء، وحرصهم على قتله، بل ويلتمس منه أن يمكنه منهم، إن الطالب للدم لا يصح أن يحكم، بل يدخل فى الطاعة ويرفع دعواه إلى الحاكم، ويطلب الحق عنده[5]، وقد اتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتصّ من أحد ويأخذ حقه دون السلطان، أو من نصبه السلطان لهذا الأمر، لأن ذلك يفضى إلى الفتنة وإشاعة الفوضى[6]. ويمكن القول: إن معاوية رضى الله عنه كان مجتهدًا، متأولاً يغلب ظنه أن الحق معه، فقد قام خطيبًا فى أهل الشام بعد أن جمعهم وذكّرهم أنه ولى عثمان ـ ابن عمه ـ وقد قُتل مظلومًا، وقرأ عليهم الآية الكريمة: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]. ثم قال: أنا أحب أن تعلمونى ذات أنفسكم فى قتل عثمان، فقام أهل الشام جميعهم وأجابوا إلى الطلب بدم عثمان، وبايعوه على ذلك، وأعطوه العهود والمواثيق على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم حتى يدركوا ثأرهم أو يفنى الله أرواحهم[7].

وإذا قارنّا بين طلحة والزبير رضى الله عنهما، ومعاوية لاحظنا أنهما أقرب إلى الصواب من معاوية رضى الله عنه ومن معه من أربعة أوجه؛ كان أولها: مبايعتهما

---

(١) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٥٠).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥١).
(٣) صحيح سنن الترمذى للألبانى رقم (١٨ ـ ٣) (٣/ ٢٣٦).
(٤) فضائل الصحابة (٢/ ٣١٩) إسناده حسن.
(٥) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٥١).
(٦) تفسير القرطبى (٢/ ٢٥٦).
(٧) صفين لابن مزاحم، ص (٣٢)، تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٥٢).

لعليّ رضى الله عنه طائعين مع اعترافهما بفضله، ومعاوية لم يبايعه وإن كان معترفًا بفضله[1]. والثانى: منزلتهما فى الإسلام وعند المسلمين وسابقتهما على معاوية ولاشك أن معاوية دونهما فيها[2]. الثالث: أنهما أرادا قتل الخوارج على عثمان فقط، ولم يتعمدا محاربة على ومن معه فى وقعة الجمل[3]، بينما أصر معاوية على حرب علىّ ومن معه فى صفين[4]، والرابع: لم يتهما علياً بالهوادة فى أخذ القصاص من قتلة عثمان، ومعاوية ومن معه اتهموه بذلك[5]. ونضيف نقطة خامسة: أن طلحة والزبير اقتنعا بصواب موقف على ودخلا فى الطاعة عندما اتفقا مع القعقاع بن عمرو إنما الحرب بإثارة الغوغاء والسبئية لها .

٣ ـ معاوية يرد على أمير المؤمنين على رضى الله عنهما:

بعث على رضى الله عنه كتبًا كثيرة إلى معاوية، فلم يرد عليه جوابها، وتكرر ذلك مرارًا إلى الشهر الثالث من مقتل عثمان رضى الله عنه فى صفر، ثم بعث معاوية طُومارًا[6] مع رجل، فدخل به على علىٍّ رضى الله عنه، فقال له على: ما وراءك؟ قال: جئتك من عند قوم لا يريدون إلا القَوَد[7]، كلهم موتور[8]، تركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان، وهو على منبر دمشق، فقال على: اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان. ثم خرج رسول معاوية من بين يدى على، فهمَّ به أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان يريدون قتله، فما أفلت إلا بعد جهد[9].

٤ ـ تجهيز أمير المؤمنين على لغزو الشام:

بعد وصول رد معاوية لأمير المؤمنين على رضى الله عنهما عزم الخليفة على قتال أهل الشام، وكتب إلى قيس بن سعد بمصر يستنفر الناس لقتالهم، وإلى أبى موسى الأشعرى بالكوفة، وبعث إلى عثمان بن حنيف بالبصرة بذلك، وخطب

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ١٢٩)، وفتح البارى (١٣/ ٩٢).

(٢) كان طلحة والزبير من العشرة المبشرين بالجنة .

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١١٣)، تاريخ الطبرى (٥/ ٤٧٥) .

(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٦١٢ ـ ٦١٥) .

(٥) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٣٩) ، البداية والنهاية (٧/ ٢٥٩) .

(٦) الطومار: الصحيفة .

(٧) القود: القتل بالقتيل .

(٨) الموتور: صاحب الثأر .

(٩) البداية والنهاية (٧/ ٢٤٠).

الناس فحثهم على ذلك، وعزم على التجهز وخرج من المدينة، وهو عازم أن يقاتل بمن أطاعه من عصاه وخرج عن أمره، ولم يبايعه مع الناس، وجاء إليه ابنه الحسين رضى الله عنهما فقال: يا أبتِ دع هذا، فإن فيه سفك دماء المسلمين، ووقع الاختلاف بينهم، فلم يقبل منه ذلك، بل صمم على القتال، ورتّب الجيش، فدفع اللواء إلى محمد بن الحنفية، وجعل ابن عباس على الميمنة، وعمر بن أبى سلمة على المسيرة وقيل: جعل على الميسرة عمرو بن سفيان بن عبد الأسد، وجعل على مقدمته أبا ليلى بن عمرو بن الجراح ابن أخ أبى عبيدة، واستخلف على المدينة قثم ابن العباس، ولم يبق شىء إلا أن يخرج من المدينة قاصدًا الشام، جاءه ما يشغله عن ذلك[1]، وقد تمَّ تفصيل ذلك من خروج عائشة وطلحة والزبير رضى الله عنهم إلى البصرة إلى معركة الجمل، فليرجع إليه فى كتاب «أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب»[2].

٥ - إرسال أمير المؤمنين على جرير بن عبد الله إلى معاوية بعد معركة الجمل:

ذُكر أن المدة بين خلافة أمير المؤمنين علىّ إلى فتنة السبئية الثانية أو ما يسمى البصرة، أو معركة الجمل، خمسة أشهر وواحد وعشرون يومًا، وبين دخوله الكوفة شهر، وبين ذلك وخروجه إلى صفين ستة أشهر[3]، وروى شهران أو ثلاثة[4]، وقد كان دخول أمير المؤمنين الكوفة يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاثين، فقيل له: انزل بالقصر الأبيض: فقال: لا، إن عمر بن الخطاب كان يكره نزوله، فأنا أكره لذلك، فنزل فى الرحبة وصلَّى بالجامع الأعظم ركعتين، ثم خطب الناس فحثهم على الخير، ونهاهم عن الشر، ومدح أهل الكوفة فى خطبته هذه، ثم بعث إلى جرير بن عبد الله، وكان على همدان من زمان عثمان، وإلى الأشعث بن قيس وهو على نيابة أذربيجان من أيام عثمان يأمرهما أن يأخذا البيعة له على من هنالك ثم يُقبلان إليه، ففعلا ذلك، فلما أراد على أن يبعث إلى معاوية يدعو إلى بيعته، قال جرير بن عبد الله البجلى: أنا ذاهب إليه يا أمير المؤمنين، فإنَّ بينى وبينه وُدًا، فآخذ لك البيعة منه، فقال الأشتر: لا تبعثه يا أمير

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٢٤٠ ، ٢٤١) .

(٢) على بن أبى طالب للصَّلاَّبىّ (١/ ٤٩٨ - ٦٢٤) .

(٣) مروج الذهب (٢/ ٣٦٠) .

(٤) التاريخ الصغير للبخارى (١/ ١٠٢).

المؤمنين، فإنى أخشى أن يكون هواه معه. فقال على: دعه، فبعثه وكتب معه كتابًا إلى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ويخبره بما كان فى وقعة الجمل، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس، فلمَّا انتهى إليه جرير بن عبدالله، أعطاه الكتاب، وطلب معاوية رضى الله عنه عمرو بن العاص ورؤوس أهل الشام، فاستشارهم، فأبوا أن يبايعوا حتى يقتل قتلة عثمان، أو يسلم إليهم قتلة عثمان، وإن لم يفعل قاتلوه ولم يبايعوه حتى يقتلهم عن آخرهم. فرجع جرير إلى على فأخبره بما قالوا، فقال الأشتر: ألم أنهك يا أمير المؤمنين أن تبعث جريرًا؟ فلو كنت بعثتنى لما فتح معاوية بابًا إلا أغلقته. فقال له جرير: لو كنت لقتلوك بدم عثمان. فقال الأشتر: والله لو بعثتنى لم يعينى جواب معاوية، ولأعجلنَّه عن الفكرة، ولو أطاعنى فيك أمير المؤمنين، لحبسك وأمثالك حتى يستقيم أمر هذه الأمَّة. فقام جرير مغضبًا فأقام بقرقيسياء وكتب إلى معاوية يخبره بما قال وقيل له، فكتب إليه معاوية يأمره بالقدوم عليه[1]. وهكذا كان الأشتر سببًا فى إبعاد الصحابى جرير بن عبد الله، الذى كان واليًا على قرقيسياء وعلى غيرها، ورأسًا فى قبيلته بجيلة، ويضطره إلى مفارقة أمير المؤمنين على، وهذا الصحابى جرير بن عبد الله البجلى قال: ما رآنى رسول الله ﷺ إلا تبسم فى وجهى، وقال ﷺ: «يطلع عليكم من هذا الباب رجل من خير ذى يمن، على وجهه مسحة ملك»[2].

٦ ـ مسيرة أمير المؤمنين على إلى الشام:

استعد أمير المؤمنين على لغزو الشام، فبعث يستنفر الناس، وجهز جيشًا ضخمًا، اختلفت الروايات فى تقديره، وكلها روايات ضعيفة[3]، إلا رواية واحدة حسنة الإسناد ذكرت أنه سار فى خمسين ألفًا[4]، وكان مكان تجمع جند أمير المؤمنين بالنخلة[5]، وهو على ميلين من الكوفة آنذاك، فتوافدت عليه القبائل من شتى إقليم العراق[6]، واستعمل أمير المؤمنين على رضى الله عنه أبا مسعود

(١) البداية والنهاية (٧/ ٢٦٥) . (٢) مسلم رقم (٢٤٧٥).

(٣) أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب (٢/ ٦٣٠).

(٤) تاريخ خليفة، ص (١٩٣) بسند حسن .

(٥) النخلة: موقع قرب الكوفة من جهة الشام، معجم البلدان (٥/ ٢٧٨).

(٦) خلافة على بن أبى طالب، لعبد الحميد، ص (١٨٨).

الأنصـارى، وبعث من النخـيلة زياد بن النضـر الحارثى طليـعـة فى ثمانيـة آلاف مـقاتل، وبعث شـريح بن هانئ فى أربعـة آلاف، ثم خـرج على رضى الله عنه بجيشه إلى المدائن (بغـداد) فانضم إليه من فيها من المقاتلة، وولى عليـها سعد بن مسـعود الثقفـى، ووجه منها طليـعة فى ثلاثة آلاف إلى الموصل[١]، وسلك على رضى الله عنه طريق الجـزيرة الرئيسـى على شط الفرات الشـرقى حتى بلغ قـرب قرقيسياء[٢]، فأتته الأخـبار بأن معاوية قد خـرج لملاقاته وعسكر بصفين، فـتقدم على رضى الله عنه إلى الرقة[٣]، وعبر منها الفرات غربًا ونزل على صفين[٤].

٧ ـ خروج معاوية إلى صفين:

كان معـاوية جاداً فى مطاردة قتلة عثـمان رضى الله عنه فقد اسـتطاع أن يترصد بجماعة ممن غزا المدينة من المصريين أثناء عودتهم وقتلهم ومنهم: أبو عمرو بن بديل الخزاعى[٥]، ثم كانت له أيد فى مصر، وشيعـة فى أهل «خربتا» تطالب بدم عثمان رضى الله عنه، وقد استطاعت هذه الفـرقة من إيقاع الهزيمة بمحمـد بن أبى حذيفة فى عدة مواجهات عام ٣٦هـ، كما استطاع أيضًا أن يوقع برؤوس مدبرى ومخططى غزو المدينة من المصريين مثل عبد الرحـمن بن عديس، وكنانة بن بشر، ومحمد بن حذيفة، فحبسهم فى فلسطين، وذلك فى الفترة التى سبقت خروجه إلى صفين، ثم قتلهم فى شهـر ذى الحجة عام ٣٦هـ[٦]، وعندما علم معاوية بتـحرك جيش العراق نحو صفين جمع مستشاريه من أعـيان أهل الشام، وخطب فيهم وقال: إن علياً نهد إليكم فى أهل الـعراق. . فـقـال ذو الكـلاع الحمـيـرى: علـيك أم رأى وعلينا أم فعال[٧]. وكان أهل الشام قـد بايعوا معاوية على الطلب بدم عـثمان رضى الله عنه والقتال[٨]، وقد قام عمـرو بن العاص رضى الله عنه بتجهيـز الجيش وقاد الألوية، وقام فى الجيش خطيبًـا يحرضهم، فقال: إن أهل العراق قد فرقـوا جمعهم وأوهنوا

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/٦٠٣) بسند منقطع .

(٢) قرقيسياء: بلد يقع على نهر الخابور عند مصبه فى الفرات ، معجم البلدان (٤/٣٢٨) .

(٣) الرقة: مدينة مشهورة ـ فى سوريا اليوم ـ على نهر الفرات الشرقى، معجم البلدان (٣/١٥٣).

(٤) تاريخ الطبرى (٥/٦٠٤).

(٥) المحن لأبى العرب التميمى، ص (١٢٤)، خلافة على، لعبد الحميد، ص (١٩١).

(٦) خلافة على، لعبد الحميد، ص (١٩١).

(٧) الإصابة (١/ ٤٨٠)، خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (١٩٢).

(٨) أنساب الأشراف (٢/٥٢) بسند منقطع، وخلافة على، ص (١٩٢).

شوكتهم، وفلوا حدهم، ثم إن أهل البصـرة المخالفين لعلى قد وترهم وقتلهم، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل، وإنما سار فى شرذمة قليلة ومنهم من قد قتل خليـفتكم، فالله الله فى حقكم أن تضـيعوه، وفى دمكم أن تبطلوه[١].

وسار معاوية فى جيش ضخم، اختلفت الروايات فى تقديره، وكلها روايات منقطعة أسانيـدها، وهى عين الروايات التى قـدرت جيش على رضى الله عنه، فـقدر بمائة وعشـرين ألفًا[٢]، وقدر بسـبعين ألف مـقاتل، وقدر بـأكثر من ذلك بكثـير إلا أن الأقرب للصـواب أنهم ستون ألف مـقاتل، فهى وإن كـانت منقطعة الإسناد إلا أن راويها صفـوان بن عمرو السكسى، حمصى مـن أهل الشام ولد عام «٧٢هـ»، وهو ثبت ثقـة، وقد أدرك خلق ممن شـهد صفـين، كمـا تبين من دراسـة ترجمـته[٣]، والإسناد إليه صـحيح[٤]، وكان قـادة جيش معـاوية على النحو التالى: عـمرو بن العاص، على خيول أهل الشام كلهـا، والضحاك بن قيس على رجالة الناس كلهم، وذو الكلاع الحميـرى على ميمنة الجيش، وحبـيب بن مسلمة على ميـسرة الجيش، وأبو الأعور السلمى على المقدمة، هؤلاء هم القادة الكبار وتحت كل قائد من هؤلاء قادة وزعوا على حسب القبائل، وكان هذا التـرتيب عند مسيرهم إلى صفين، ولكن أثناء الحرب تغـير بعض القادة، وظهر قـادة آخرون مما اقتضـته الظروف، ولعل هذا يكون السـبب فى اختـلاف أسمـاء القادة فى بعض المصـادر[٥]. وبعث معـاوية أبا الأعور السلمى مقدمة للجيش، وكان خـط سيرهم إلى الشمال الشرقى من دمشق، ولما بلغ صفين أسفل الفرات، عـسكر فى مكان سـهل فسيح، إلى جانب شريعة ماء فى الفرات، ليس فى ذلك المكان شريعة غيرها وجعلها فى حيزه[٦].

٨ ـ القتال على الماء:

وصل جـيش على بن أبى طالب رضى اللـه عنه إلى صفـين، حـيث عـسكر معاوية، ولم يـجد موضعًا فـسيحًا سهـلاً يكفى الجيش، فعسكـر فى موضع وعر نوعًا ما إذ أغلب الأرض صخـور ذات كدى وأكمات[٧]، ففوجىء جـيش العراق

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ١٠٦) بسند منقطع

(٢) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (١٩٤)، المعرفة والتاريخ (٣/ ٣١٣).

(٣) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٩٠)

(٤) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص(١٩٤)

(٥) امتداد العرب فى صدر الإسلام، صالح العلى، خلافة على، ص (١٩٤)

(٦) صفين لنصر بن مزاحم، ص (١٦٠، ١٦١).

(٧) خلافة على بن أبى طالب، لعبد الحميد، ص(١٩٦)

بمنع معاوية عنهم الماء، فهرع البعض إلى على رضى الله عنه يشكون إليه هذا الأمر، فأرسل على إلى الأشعث بن قيس فخرج فى ألفين، ودارت أول معركة بين الفريقين، انتصر فيها الأشعث واستولى على الماء[1]، إلا أنه قد وردت رواية تنفى وقوع القتال من أصله مفادها: أن الأشعث بن قيس جاء إلى معاوية فقال: الله الله يا معاوية فى أمة محمد ﷺ! هبوا إنكم قتلتم أهل العراق، فمن للبعوث والذرارى؟ إن الله يقول: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ [الحجرات: ٩] قال معاوية: فما تريد؟ قالوا: خلوا بيننا وبين الماء، فقال لأبى الأعور: خلِّ بين إخواننا وبين الماء[2].

وقد كان القتال على الماء فى أول يوم تواجها فيه فى بداية شهر ذى الحجة فاتحة شر على الطرفين من المسلمين، إذ استمر القتال بينهما متواصلاً طوال هذا الشهر، وكان القتال على شكل كتائب صغيرة، فكان على رضى الله عنه يخرج من جيشه كتيبة صغيرة يؤمر عليها أميرًا، فيقتتلان مرة واحدة فى اليوم فى الغداة أو العشى، وفى بعض الأحيان يقتتلان مرتين فى اليوم، وكان أغلب من يخرج من أمراء الكتائب فى جيش على الأشتر، وحجر بن عدى، وشبث بن ربعى، وخالد بن المعتمر، ومعقل بن يسار الرياحى، ومن جيش معاوية أغلب من يخرج؛ حبيب بن مسلمة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وأبو الأعور السلمى، وشرحبيل بن السمط، وقد تجنبوا القتال بكامل الجيش خشية الهلاك والاستئصال، وأملاً فى وقوع صلح بين الطرفين تصان به الأرواح والدماء[3].

٩ ـ الموادعة بينهما ومحاولات الصلح:

ما إن دخل شهر المحرم، حتى بادر الفريقان إلى الموادعة والهدنة، طمعًا فى صلح يحفظ دماء المسلمين، فاستغلوا هذا الشهر فى المراسلات بينهم ولكن المعلومات عن مراسلات هذه الفترة ـ شهر المحرم ـ وردت من طرق ضعيفة[4]، مشهورة، إلا أن

---

(١) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/ ٢٩٤) بسند حسن.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤١)، مرويات أبى مخنف، ص (٢٩٦).

(٣) خلافة على بن أبى طالب، لعبد الحميد، ص (١٩٧، ١٩٨)، تاريخ الطبرى (٥/ ٦١٤)، البداية والنهاية (٧/ ٢٦٦).

(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٦١٢، ٦١٣)، خلافة على بن أبى طالب، ص (١١٩).

ضعفها لا ينفى وجودها. كان البادىء بالمراسلة، أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، فأرسل بشير بن عمرو الأنصارى، وسعيد بن قيس الهمدانى وشبث ابن ربعى التميمى إلى معاوية رضى الله عنه يدعوه كما دعاه من قبل إلى الدخول فى الجماعة والمبايعة فرد معاوية عليه برده السابق المعروف، بتسليم قتلة عثمان أو القود منهم أولاً، ثم يدخل فى البيعة، وقد تبين لنا موقف على من هذه القضية[1]، كما أن قُرَّاء الفريقين قد عسكروا فى ناحية من صفين، وهم عدد كبير، قد قاموا بمحاولات للصلح بينهما، فلم تنجُ تلك المحاولات لالتزام كل فريق منهما برأيه وموقفه[2]. وقد حاول اثنان من الصحابة وهما أبو الدرداء، وأبو أمامة رضى الله عنهما الصلح بين الفريقين، فلم تنجح مهمتهما، فتركا الفريقين ولم يشهدا معهما أمرهما[3]، وكذلك حضر مسروق بن الأجدع أحد كبار التابعين وخطب الناس فى محاولة منه لرأب الصدع بينهم، فقال: أيها الناس أنصتوا، ثم قال: أرأيتم لو أن مناديًا ناداكم من السماء فسمعتم كلامه ورأيتموه فقال: إن الله ينهاكم عما أنتم فيه، أكنتم مطيعيه، قالوا: نعم، قال: فوالله لقد نزل بذلك جبرائيل على محمد.. فما زال يأتى من هذا. ثم تلا: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]. ثم انساب فى الناس فذهب[4]. وقد انتقد ابن كثير التفصيلات الطويلة التى جاءت فى روايات أبى مخنف ونصر بن مزاحم، بخصوص المراسلات بين الطرفين فقال:... ثم ذكر أهل السير كلامًا طويلاً جرى بينهم وبين على، وفى صحة ذلك عنهم وعنه نظر، فإن فى مطاوى ذلك الكلام من على ما ينتقص فيه معاوية وأباه، وأنهم إنما دخلا فى الإسلام ولم يزالا فى تردد فيه، وغير ذلك، وأنه قال فى غضون ذلك: لا أقول إن عثمان قُتل مظلومًا ولا ظالمًا، وهذا عندى لا يصح من على رضى الله عنه[5]. وموقف على رضى الله عنه من قتل عثمان رضى الله عنه واضح، وقد بينته فى كتابى عن عثمان بن عفان رضى الله عنهما وفى هذا الكتاب.

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٦١٣)، خلافة على بن أبى طالب، ص (١٩٩).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٦١٤). (٣) البداية والنهاية (٧/ ٢٧٠).

(٤) الطبقات (٦/ ٧٨)، القرّاء ودورهم فى الحياة العامة فى صدر الإسلام والخلافة الأموية، هادى حسين حمود.

(٥) البداية والنهاية (٧/ ٢٦٩).

ثالثًا : نشوب القتال:

عادت الحرب على ما كانت عليه فى شهر ذى الحجة من قتال الكتائب والفرق والمبارزات الفردية، خشية الالتحام الكلى إلى أن مضى الأسبوع الأول منه، وكان عدد الوقعات الحربية بين الفريقين إلى هذا التاريخ أكثر من سبعين وقعة، وذكر أنها تسعون[١]، إلا أن عليًا أعلن فى جيشه أن غدًا الأربعاء سيكون الالتحام الكلى لجميع الجيش، ثم نبذ إلى معاوية يخبره بذلك[٢]، فثار الناس فى تلك الليلة إلى أسلحتهم يصلحونها ويحدونها، وقام عمرو بن العاص بإخراج الأسلحة من المخازن لمن يحتاج من الرجال ممن فل سلاحه، وهو يحرض الناس على الاستبسال فى القتال[٣]، وبات جميع الجيش فى مشاورات وتنظيم للقيادات والألوية[٤].

١ ـ اليوم الأول :

أصبح الجيشان فى يوم الأربعاء قد نظمت صفوفهم، ووزعوا حسب التوزيع المتبع فى المعارك الكبرى، قلب، وميمنة، وميسرة، فكان جيش على رضى الله عنه على النحو التالى[٥]: على بن أبى طالب على القلب، وعبد الله بن عباس على الميسرة، وعمّار بن ياسر على الرجالة، ومحمد بن الحنفية حامل الراية، وهشام بن عتبة (المرقال) حامل اللواء، والأشعث بن قيس على الميمنة. وأما جيش الشام، فمعاوية فى كتيبة الشهباء أصحاب البيض والدروع على تل مرتفع وهو أمير الجيش، وعمرو بن العاص قائد خيل الشام كلها، وذو الكلاع الحميرى على الميمنة على أهل اليمن، وحبيب بن مسلمة الفهرى على الميسرة على مضر، والمخارق بن الصباح الكلاعى حامل اللواء[٦]، وتقابلت الجيوش الإسلامية ومن كثرتها قد سدت الأفق، ويقول كعب بن جعيل التغلبى أحد شعراء العرب[٧]، وذلك عندما رأى الناس فى ليلة الأربعاء وقد وثبوا إلى نبالهم وسيوفهم يصلحونها استعدادًا لهذا اليوم:

---

(١) الأنباء بتواريخ الخلفاء، ص (٥٩)، شذرات الذهب (١/ ٤٥).

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٢٧٣).

(٣) سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٤٠) ضعيف.

(٤) على بن أبى طالب للصلّابى (٢/ ٦٣٥).

(٥) تاريخ خليفة بن خياط، ص (١٩٣)، بسند حسن إلى شاهد عيان.

(٦) المصدر نفسه، ص (١٩٣).

(٧) الأعلام للزركلى (٦/ ١٨٠).

أصـبـحت الأمة فى أمـر عـجب والملك مـجـمـوع غـداً لمن غلب

فـقلت قـولاً صادقًـا غـير كـذب إن غـداً تهلـك أعـلام العـرب[1]

وتذكر بعض الروايات الـضعيفـة أن عليًا خطب فى جـيشه، وحـرضهم على الصبر والإقدام والإكـثار من ذكر الله[2]، وتذكر أيضًا أن عمـرو بن العاص، قد استعرض جـيشه، وأمرهم بتسوية الصفوف وإقـامتها[3]، وهذه الروايات لا يوجد مانع من الأخذ بها، لأن كل قائد يحرض جيشه ويحمسه، ويهتم بكل ما يؤدى به إلى النصر. والتحم الجيشان فى قتال عنيف، استمر محتدمًا إلى غروب الشمس لا يتوقف إلا لأداء الصـلاة، يصلى كل فريق فى معـسكره وبينهما جـثث القتلى فى الميدان تفصل بينهما، وسأل أحد أفراد جيش على رضى الله عنه حين انصرافه من الصلاة، فقـال: ما تقول فى قتلانا وقـتلاهم يا أمير المؤمنين؟ فـقال: من قتل منا ومنهم يريد وجه الله والدار الآخرة دخل الجنة[4]. وقد صبـر بعضهـم على بعض فلم يغلب أحد أحدًا، ولم ير موليًا حتى انتهى ذلك اليوم. وفى المساء خرج على رضى الله عنه إلى ساحة القتال فنظر إلى أهل الشـام، فدعا ربه قائلاً: اللهم اغفر لى ولهم[5].

٢ ـ اليوم الثانى:

فى يوم الخميس تذكـر الروايات أن عليًا رضى الله عنه قد غلس بصـلاة الفجر واستعـد للهجوم، وغير بـعض القيادات، فوضع عبـد الله بن بديل الخزاعى على الميـمنة بدلاً من الأشـعث بن قيـس الكندى الذى تحـول إلى الميسـرة[6]، وزحف الفريقان نحو بعضهما، واشتبكوا فى قتال عنيف أشد من سابقه، وبدأ أهل العراق فى التقـدم، وأظهروا تفوقًا على أهل الشـام واستطاع عبـد الله بن بديل أن يكسر ميسرة معاوية وعليها حبيب بن مسلمة، ويتقدم باتجاه كتيبة معاوية (الشهباء) وأظهر شجـاعة وحماسًـا منقطع النظير، وصاحب هذا التـقدم الجزئى، تقدم عـام لجيش

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٢٧٣) ، تاريخ الطبرى (٥/ ٦٢٦) .

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٢٢) من طريق أبى مخنف .

(٣) الطبقات (٤/ ٢٥٥) من طريق الواقدى .

(٤) سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٤٤، ٣٤٥) بسند ضعيف .

(٥) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/ ٢٩٧) بسند صحيح .

(٦) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٣٠) .

العراق، حتى أن معاويـة، قد حدثته نفسه بترك ميدان القـتال، إلا أنه صبر وتمثل بقول الشاعر:

أبت لـي عـفـتي وأبى بـلائي	وأخـذي الحـمـد بالثـمن الربيح
وإكـراهي على المكروه نفـسي	وضـربي هامـة البطل المشـيح
وقـولي كلما جشـأت وجـاشت	مكانك تحـمدي أو تـستـريحي[1]

واستحث كتيبته الشهباء، واستطاعوا قتل عـبد الله بن بديل، فأخذ مكانه في قيادة الميمـنة الأشتر، وتماسك أهل الشام وبايعوا بعضـهم على الموت، وكروا مرة أخرى بشدة وعزيمة، وقتل عدد من أبرزهم ذو الكلاع، وحوشب، وعبيد الله بن عمـر بن الخطاب رضي الله عنهما. وانقلب الأمـر لجيش الشام، وأظهر تقـدمًا، وبدأ جـيش العـراق في التـراجع، واسـتـحر القـتل في أهل الـعراق، وكـثـرت الجراحات، ولما رأى علي جيشه في تراجع، أخذ يـناديهم ويحمسهم، وقاتل قتالاً شديدًا واتجه إلى القلب حيث ربيعة، فثارت فـيهم الحمية وبايعوا أميرهم خالد بن المعمر على الموت وكانوا أهل قتال[2].

وكان عـمّار بن ياسـر رضي الله عنه قد جـاوز الرابعة والتـسعـين عامًـا، وكان يحارب بحـماس، يحرض النـاس، ويستنهض الهمم، ولكنـه بعيد كل البـعد عن الغلو، فقد سمع رجلاً بجواره يقول: كـفر أهل الشام، فنهاه عمار عن ذلك وقال: إنما بغوا علينا، فنحن نقاتلهم لبغيهم، فإلهنا واحد، ونبينا واحد، وقبلتنا واحدة[3].

ولما رأى عمار رضي الله عنه تقهقر أصحابه، وتقدم خصومه، أخذ يستحثهم، ويبين لهم أنهم على الحق ولا يغرنهم ضربات الشاميين الشديدة، فيقول رضي الله عنه: من سره أن تكتنفه الحور العين فليقدم بين الصفين محتسبًا، فإني لأرى صفًا يضربكم ضربًا يرتاب منه المبطلون، والذي نفسي بيده، لو ضربونا حتى يبلغوا منا سعفات هجر، لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل، ولعلمنا أن مصلحينا على

---

(١) تاريخ الطبري (٥/ ٦٣٦).

(٢) الإصابة (١/ ٤٥٤) ، أنساب الأشراف (٢/ ٥٦) بسند حسن إلى قتادة .

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (١٥/ ٢٩٠) الإسناد حسن لغيره .

الحق وأنهم على الباطل[1]، ثم أخذ فى التقدم، وفى يده الحربة ترعد لكبر سنه- ويشتد على حامل الراية هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ويستحثه فى التقدم ويرغبه ويطمعه فيما عند الله من النعيم، ويطمع أصحابه أيضًا فيقول: أزفت الجنة وازينت الحور العين، من سره أن تكتنفه الحور العين، فليتقدم بين الصفين محتسبًا. وكان منظرًا مؤثرًا فهو صحابى جليل مهاجرى بدرى جاوز الرابعة والتسعين يمتلك كل هذا الحماس وهذا العزم والروح المعنوية العالية واليقين الثابت، فكان عاملاً هامًا من عوامل حماس جيش العراق ورفع روحهم المعنوية مما زادهم عنفًا وضراوة وتضحية فى القتال حتى استطاعوا أن يحولوا المعركة لصالحهم، وتقدم هاشم بن عتبة بن أبى وقاص وهو يرتجز بقوله:

أعور يبغى أهله مَحَلاً قد عالج الحياة حتى ملاً

لا بد أن يَفُلّ أو يُفَلا[2]

وعمار يقول: تقدم يا هاشم، الجنة تحت ظلال السيوف، والموت فى أطراف الأسل[3]، وقد فتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين.

اليوم ألقى الأحبة محمّدًا وحزبه[4]

وعند غروب شمس ذلك اليوم (الخميس)، طلب عمار شربة من لبن ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال لى: «إن آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن»[5]. ثمّ تقدم واستحث معه حامل الراية هاشم بن عتبة بن أبى وقاص الزهرى فلم يرجعا وقتلا[6]، رحمهما الله ورضى الله عنهما.

٣ـ ليلة الهرير ويوم الجمعة:

عادت الحرب فى نفس الليلة بشدة واندفاع لم تشهدها الأيام السابقة، وكان اندفاع أهل العراق بحماس وروح عالية حتى أزالوا أهل الشام عن أماكنهم، وقاتل

---

(١) مجمع الزوائد (٧/ ٢٤٣)، خلافة على بن أبى طالب ، عبد الحميد، ص (٢١٩) إسناده حسن.

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٥٢). (٣) الأسل: الرماح.

(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٥٢).

(٥) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/ ٣٠٢، ٣٠٣)، بسند منقطع. (٦) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٥٢).

أمير المؤمنين على قـتالاً شديداً وبايع على الموت[1]، وذكر أن عليًا رضى الله عنه صلى بجيشـه المغرب صلاة الخوف[2]، وقال الشافعى: وحفظ عن على أنه صلى صلاة الخوف ليلة الهرير[3]، يقول شاهد عيان: اقتتلنا ثلاثة أيام وثلاثة ليالى حتى تكسرت الرماح ونفدت السهام، ثم صرنا إلى المسايفة فاجتلدنا بها إلى نصف الليل حتـى صرنا نعـانق بعضنا بعض، ولما صـارت السيـوف كالمناجل تضـاربنا بعـمد الحديد، فلا تسمع إلا غمغمة وهمهمة القوم، ثم ترامينا بالحجارة وتحاثينا بالتراب، وتعاضـينا بالأسنان، وتكادمنا بالأفواه إلى أن أصـبحوا فـى يوم الجمعـة وارتفعت الشمس، وإن كانت لا ترى من غبـار المعركة، وسقطت الألوية والرايات، وأنهك الجيش التعب وكلت الأيدى وجفت الحلوق[4].

ويقول ابن كثير فى وصف ليلة الهرير ويوم الجـمعة: وتعاضوا بالأسنان، يقتتل الرجلان حتى يثخنا، ثم يجلسان يستريحـان وكل واحد منهما ليهمر على الآخر، ويهمر عليه، ثم يقومـان فيقتتلان كما كانا، فـإنا لله وإنا إليه لراجعون، ولم يزل ذلك دأبهم حتى أصـبح الناس من يوم الجمعة وهم كـذلك، وصلى الناس الصبح إيمـاؤهم فى القتـال حتى تضـاحى النهار وتوجـه النصر لأهل العـراق على أهل الشام[5].

٤ ـ الدعوة إلى التحكيم:

إن ما وصل إليـه حال الجيشـين بعد ليلة الهرير لم يـكن يحتمل مزيد قـتال، وجاءت خطبة الأشعث بن قيس زعيم كندة أصـحابه ليلة الهرير فقال: قد رأيتم يا معشـر المسلمين ما قد كـان فى يومكم هذا الماضى، وما قد فنى فـيه من العرب، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ، فما رأيت مثل هذا قط، ألا فليبلغ الشاهد الغائب، إن نحن توافقنا غدًا إنه لفناء العـرب، وضيعة الحرمات، أما والله

---

(١) المستدرك (٣/ ٤٠٢) قال الذهبى: ضعيف ، خلافه على، ص (٢٢٦).

(٢) سنن الكبرى للبيهقى (٣/ ٢٥٢) قال الألبانى: رواه البيهقى بصيغة التمريض، إرواء الغليل (٣/ ٤٢).

(٣) تلخيص الحبير (٢/ ٧٨)، خلافة على بن أبى طالب، ص (٢٢٧).

(٤) شذرات الذهب (١/ ٤٥)، وقعة صفين، ص (٣٦٩).

(٥) البداية والنهاية (٧/ ٢٨٣).

ما أقول هذه المقالة جزعًا من الحرب، ولكنى رجل مسن، وأخاف على النساء والذرارى غدًا إذا نحن فنينا، اللهم إنك تعلم أنى قد نظرت لقومى ولأهل دينى فلم آلُ[1].

وجاء خبر ذلك إلى معاوية فقال: أصاب ورب الكعبة، لئن نحن التقينا غدًا لتميلن الروم على ذرارينا ونسائنا ولتميلن أهل فارس على أهل العراق وذراريهم، وإنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنهى، ثم قال لأصحابه: اربطوا المصاحف على أطراف القنا[2]، وهذه رواية عراقية لا ذكر فيها لعمرو بن العاص ولا للمخادعة والاحتيال، وإنما كانت رغبة كلا الفريقين، ولن يضير معاوية أو عمرو بشىء أن تأتى أحدهم الشجاعة فيبادر بذلك، وينقذ ما تبقى من قوى الأمة المتصارعة، إنما يزعج ذلك أعداء الأمة الذين أشعلوا نيران هذه الفتنة، وتركوا لنا ركامًا من الروايات المضللة بشأنها، تحيل الحق باطلاً، وتجعل الفضل كالمناداة بتحكيم القرآن لصون الدماء المسلمة جريمة ومؤامرة[3] وحيلة، ونسبوا لأمير المؤمنين على أقوالاً مكذوبة تعارض ما فى الصحيح على أنه قال: (إنهم ما رفعوها، ثم لا يرفعونها، ولا يعملون بما فيها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهنًا ومكيدة)[4]، ومن الشتائم قولهم عن رفع المصاحف: إنها مشورة ابن العاهرة[5]، ووسّعوا دائرة الدعاية المضادة على عمرو بن العاص -رضى الله عنه- حتى لم تعد تجد كتابًا من كتب التاريخ إلا فيه انتقاص لعمرو بن العاص، وأنه مخادع وماكر بسبب الروايات الموضوعة التى لفقها أعداء الصحابة الكرام، ونقلها الطبرى، وابن الأثير وغيرهما، فوقع فيها كثير من المؤرخين المعاصرين مثل حسن إبراهيم حسن فى تاريخ الإسلام، ومحمد الخضرى بك فى تاريخ الدولة الأموية، وعبد الوهاب النجار فى تاريخ الخلفاء الراشدين وغيرهم كثير، مما ساهم فى تشويه الحقائق التاريخية الناصعة.

---

(١) وقعة صفين للمنقرى، ص (٤٧٩).
(٢) المصدر نفسه، ص (٤٨١ - ٤٨٤).
(٣) الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص (٣١٦).
(٤) الكامل (٢/٣٨٦).
(٥) المصدر نفسه، (٥/٦٦٢، ٦٦٣).

إن رواية أبى مخنف تفترض أن عليًا رفض تحكيم القرآن لما اقترحه أهل الشام، ثم استجاب بعد ذلك له تحت ضغط القراء، الذين عرفوا بالخوارج فيما بعد[1]، وهذه الرواية تحمل سبًا من على لمعاوية وصحبه يتنزه عنه أهل ذاك الجيل المبارك، فكيف بساداتهم وعلى رأسهم أمير المؤمنين على، ويكفى للرواية سقوطًا أن فيها أبا مخنف الرافضى المحترق، فهى رواية لا تصمد للبحث النزيه، ولا ما يرويه الامام أحمد بن حنبل عن طريق حبيب بن أبى ثابت قال: أتيت أبا وائل ـ أحد رجال على بن أبى طالب ـ فقال: كنا بصفين، فلما استحر القتل بأهل الشام قال عمرو لمعاوية: أرسل إلى على المصحف، فادعه إلى كتاب الله، فإنه لا يأبى عليك، فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣]. فقال على: نعم، أنا أولى بذلك، فقال القُراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج، بأسيافهم على عواتقهم فقالوا: يا أمير المؤمنين ألا نمشى إلى هؤلاء حتى يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقام سهل بن حنيف الأنصارى رضى الله عنه فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول الله ﷺ فى الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، وذلك فى الصلح الذى كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين، ثم حدثهم عن معارضة عمر رضى الله عنه للصلح يوم الحديبية، ونزول سورة الفتح على رسول الله ﷺ فقال على: أيها الناس إن هذا فتح فقبل القضية ورجع، ورجع الناس[2]. وأظهر سهل بن حنيف رضى الله عنه اشمئزازًا ممن يدعون إلى استمرار الحرب بين الإخوة وقال: أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم[3]، وبيّن لهم بأنه لا خيار عن الحوار والصلح لأن ما سواه فتنة لا تعرف عواقبها، فقد قال: ما وضعنا سيوفنا على عواتقنا إلى أمر إلا أسهلن بنا إلى ما نعرفه قبل هذا الأمر، ما سد منها خُصمًا إلا تفجر علينا خُصم ما ندرى كيف نأتى له[4]، وفى هذه الروايات الصحيحة رد على دعاة الفتنة، ومبغضى الصحابة الذين يضعون الأخبار المكذوبة، ويضعون الأشعار وينسبونها إلى أعلام الصحابة والتابعين الذين شاركوا فى

---

(١) الكامل (٥/ ٦٦٢، ٦٦٣).

(٢) مصنف ابن أبى شيبة (٨/ ٣٣٦)، مسند أحمد مع الفتح الربانى (٨/ ٤٨٣).

(٣)، (٤) البخارى رقم (٤١٨٩).

صفين، ليظهروهم بمظهر المتحمس لتلك الحرب ليزرعوا البغضاء في النفوس، ويعملوا ما في وسعهم على استمرار الفتنة[1]. إن الدعوة إلى تحكيم كتاب الله دون التأكيد على تسليم قتلة عثمان إلى معاوية، وقبول التحكيم دون التأكيد على دخول معاوية في طاعة علي والبيعة له، تطور فرضته أحداث حرب صفين، إذ أن الحرب التي أودت بحياة الكثير من المسلمين، أبرزت اتجاهًا جماعيًا رأى أن وقف القتال وحقن الدماء ضرورة تقتضيها حماية شوكة الأمة، وصيانة قوتها أمام عدوها، وهو دليل على حيوية الأمة ووعيها وأثرها في اتخاذ القرارات[2].

إن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قبل وقف القتال في صفين ورضي التحكيم وعد ذلك فتحًا ورجع[3] إلى الكوفة، وعلق على التحكيم آمالاً في إزالة الخلاف وجمع الكلمة، ووحدة الصف، وتقوية الدولة، وإعادة حركة الفتوح من جديد. إن وصول الطرفين إلى فكرة التحكيم ساهمت فيه عدة عوامل، منها:

أ ـ أنه كان آخر محاولة من المحاولات التي بذلت لايقاف الصدام وحقن الدماء سواء تلك المحاولات الجماعية، أم المحاولات الفردية التي بدأت بعد موقعة الجمل ولم تفلح، أم الرسائل التي تبودلت بين الطرفين لتنفيذ وجهات نظر كل منهما، ولم تُجْد ـ هي الأخرى ـ شيئًا، وكان آخر تلك المحاولات ما قام به معاوية في أيام اشتداد القتال حيث كتب إلى علي رضي الله عنه يطالبه بتوقف القتال فقال: فإني أحسبك أن لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بك ما بلغت لم نجنها على أنفسنا، فإنا إن كنا قد غُلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منا ما ينبغي أن نندم على ما مضى ونصلح ما بقي[4].

ب ـ تساقط القتلى وإراقة الدماء الغزيرة ومخافة الفناء، فصارت الدعوة إلى إيقاف الحرب مطلبًا يرنو إليه الجميع.

جـ ـ الملل الذي أصاب الناس من طول القتال، حتى كأنهم على موعد لهذا الصوت الذي نادى بالهدنة والصلح، وكانت أغلبية جيش علي في اتجاه الموادعة

(١) الإنصاف فيما وقع في تاريخ العصر الراشدي من الخلاف، ص (٥٣٠).

(٢) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٨).

(٣) المصدر نفسه رقم (٦١٩٢)

(٤) الأخبار الطوال للدينوري، ص (١٨٧)، دراسات في عهد النبوة، ص (٤٣٢)

وكانوا يرددون: قد أكلتنا الحـرب، ولا نرى البقاء إلا فى الموادعة[1]، وهذا ينقض ذلك الرأى المتـهـافت الذى رُوِّج بأن رفع المصـاحف كان خـدعـة من عمـرو بن العاص. والحق أن فكرة رفع المصاحف لم تكن جـديدة، وليست من ابتكار عمرو ابن العـاص، بل رفع المصحـف فى الجمل ورشق حـامله كـعب بن سور قـاضى البصرة بسهم وقتل.

د ـ الاستجابة لصـوت الوحى الداعى للإصلاح، قال تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيءٍ فـردُّوهُ إلى الله والرسُـول﴾ [النسـاء : ٥٩] ويؤيد هذا مـا قـاله على بن أبى طالب حينما عرض عليه الاحتكام إلى كتاب الله، قال: نعم أنا أولى بذلك، بيننا وبينكم كتاب الله[2].

٥ ـ مقتل عمّار بن ياسر -رضى الله عنه- وأثره على المسلمين:

يعد حديث رسول الله ﷺ لعمّار رضى الله عنه: «تقتلك الفئة الباغية»[3] من الأحاديث الصحيحة والثابتة عن النبى ﷺ. وقد كان لمقتل عمّار رضى الله عنه أثر فى معركة صفـين، فقد كان علمًا لأصحاب رسول الله يتبـعونه حيث سار، وكان خزيمة بن ثابت حضر صفين وكان كافًا سـلاحه، فلما رأى مقتل عمّار سل سيفه وقاتل أهل الشام، وذلك لأنه سمع حـديث رسول الله ﷺ فى عمّار: «تقتله الفئة الباغـية»[4]، واستـمر فى القتال حـتى قُتل[5]، وكان لمقتل عمّـار أثر فى معسكر معاوية، فهذا أبو عبد الرحـمن السلمى دخل فى معسكر أهل الشام، فرأى معاوية وعمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عـمرو، وأبو الأعور السـلمى، عند شرعة الماء يسقون، وكانت هى شـربة الماء الوحيدة التى يستقى منها الفريقـان، وكان حديثهم عن مقتل عمّـار بن ياسر، إذ قال عبد الله بن عمـرو لوالده: لقد قتلنا هذا الرجل وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال، قال: وأى رجل؟ قال: عمّار بن ياسر.. قال فيه رسول الله ﷺ: «تقتله الفئة الباغية». فقال عمرو لمعاوية: لقد قتلنا الرجل وقد

(١) صفين ص٤٨٢ ـ ٤٨٥ ، دراسات فى عهد النبوة، ص (٤٣٣).
(٢) مصنف ابن أبى شيبة (٨/٣٣٦).   (٣)، (٤) مسلم رقم (٢٩١٦).
(٥) خلافة على، ص (٢١١).

قال فيه رسول الله ﷺ ما قال! فقال معاوية: اسكت فوالله ما تزال تدحض[1] فى بولك، أنحن قتلناه؟ إنما قتله من جاء به[2]، فانتشر تأويل معاوية بين أهل الشام انتشار النار فى الهشيم، وجاء فى رواية صحيحة أن عمرو بن حزم دخل على عمرو بن العاص فقال: قُتل عمار وقد قال فيه رسول الله ﷺ: «تقتله الفئة الباغية». فقام عمرو بن العاص فزعًا يرجع حتى دخل على معاوية، فقال له معاوية: ما شأنك؟ فقال: قُتل عمار، فقال معاوية: قُتل عمار فماذا؟ قال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول له: «تقتلك الفئة الباغية» فقال له معاوية: دحضت فى بولك، أو نحن قتلناه، إنما قتله على وأصحابه، جاءوا به حتى ألقوه بين رماحنا، أو قال بين سيوفنا[3]. وفى رواية صحيحة أيضًا: جاء رجلان عند معاوية يختصمان فى رأس عمار يقول كل واحد منهما: أنه قتله، فقال عبد الله بن عمرو بن العاص: ليطلب به أحدكما نفسًا لصاحبه، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئة الباغية». قال معاوية: فما بالك معنا؟ قال: إن أبى شكانى إلى رسول الله ﷺ فقال: «أطع أباك ما دام حيًا ولا تعصه. فأنا معكم ولست أقاتل»[4].

من الروايات السابقة نلاحظ أن الصحابى الفقيه عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما حريص على قول الحق، والنصح، فقد رأى أن معاوية وجنده، هم الفرقة الباغية لقتلهم عمارًا، فقد تكرر منه هذا الاستنكار فى مناسبات مختلفة، ولا شك أن مقتل عمار رضى الله عنه قد أثر فى أهل الشام بسبب هذا الحديث، إلا أن معاوية رضى الله عنه أوَّل الحديث تأويلاً غير مستساغ، ولا يصح فى أن الذين قتلوا عمار هم الذين جاءوا به إلى القتال[5]، وقد أثر مقتل عمار كذلك على عمرو بن العاص، بل كان استشهاد عمار دافعًا لعمرو بن العاص للسعى لإنهاء الحرب[6]، وقد قال رضى الله عنه: وددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة[7]، وقد جاء فى البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: كنا

(١) الدحض: الزلق ، والداحض: من لا ثبات له ولا عزيمة فى الأمور .

(٢) مسند أحمد (٢/٢٠٦) إسناده حسن .   (٣) مصنف عبد الرزاق (١١/ ٢٤٠) بسند صحيح.

(٤) مسند أحمد (١١/ ١٣٨، ١٣٩) قال أحمد شاكر: سنده صحيح.

(٥) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (٣٢٥).

(٦) معاوية بن أبى سفيان، الغضبان، ص (٢١٥).

(٧) أنساب الأشراف (١/ ١٧٠)، عمرو بن العاص للغضبان، ص (٣٠٦).

نحمل لبنة لبنة، وعمّار لبنتين لبنتين، فرآه النبى ﷺ، فينفض التراب عنه ويقول: «ويح عمّار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار». قال عمّار: أعوذ بالله من الفتن[1]، وقال ابن عبد البر: تواترت الآثار عن النبى ﷺ أنه قال: «تقتل عمار الفئة الباغية». وهذا من إخباره بالغيب وأعلام نبوته ﷺ، وهو من أصح الأحاديث[2]، وقال الذهبى بعد ما ذكر الحديث: وفى الباب عن عدة من الصحابة، فهو متواتر[3].

- فهم العلماء للحديث:

أ- قال ابن حجر: وفى هذا الحديث علم من أعلام النبوة، وفضيلة ظاهرة لعلى وعمار، وردٌ على النواصب الزاعمين أن عليًا لم يكن مصيبًا فى حروبه[4]، وقال أيضًا: دل الحديث: «تقتل عمارًا الفئة الباغية»، على أن عليًا كان المصيب فى تلك الحروب، لأن أصحاب معاوية قتلوه[5].

ب - يقول النووى: وكانت الصحابة يوم صفين يتبعونه حيث توجه لعلمهم بأنه مع الفئة العادلة لهذا الحديث[6].

ج- قال ابن كثير: كان على وأصحابه أدنى الطائفتين إلى الحق من أصحاب معاوية، وأصحاب معاوية كانوا باغين عليهم، كما ثبت فى صحيح مسلم من حديث شعبة عن أبى سلمة عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى، قال: حدثنى من هو خير منى - يعنى أبا قتادة - أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»[7]. وقال أيضًا: وهذا مقتل عمار بن ياسر رضى الله عنهما مع أمير المؤمنين على بن أبى طالب، قتله أهل الشام، وبان وظهر بذلك سر ما أخبر به الرسول ﷺ من أن تقتله الفئة الباغية، وبان بذلك أن عليًا محق، وأن معاوية باغ، وما فى ذلك من دلائل النبوة[8].

د- وقال الذهبى: هم طائفة من المؤمنين، بغت على الإمام على، وذلك بنص قول المصطفى صلوات الله عليه لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»[9].

---

(1) البخارى رقم (447).
(2) الاستيعاب (3/ 1140).
(3) سير أعلام النبلاء (1/ 421).
(4) فتح البارى (1/ 646).
(5) المصدر نفسه (13/ 92).
(6) تهذيب الأسماء واللغات (2/ 38).
(7) البداية والنهاية (6/ 22).
(8) المصدر نفسه (7/ 277).
(9) سير أعلام النبلاء (8/ 209).

هـ- قال القاضى أبو بكر بن العربى فى قوله تعالى: ﴿وإن طائفتان﴾ [الحجرات: ٩]، هذه الآية أصل فى قتال المسلمين، والعمدة فى حرب المتأولين، وعليها عوّل الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من هذه الملة، وإياها عنى النبى ﷺ بقوله: «تقتل عمار الفئة الباغية»(١).

و- وقال ابن تيمية: وهذا يدل على صحة إمامة على ووجوب طاعته، وأن الداعى إلى طاعته داع إلى الجنة، والداعى إلى مقاتلته داعٍ إلى النار - وإن كان متأولاً - وهو دليل على أنه لم يكن يجوز قتال على، وعلى هذا فمقاتله مخطئ - وإن كان متأولاً - أو باغ - بلا تأويل -، وهو أصح القولين لأصحابنا، وهو الحكم بتخطئة من قاتل عليًا، وهو مذهب الأئمة الفقهاء الذين فرعوا على ذلك قتال البغاة المتأولين(٢). وقال أيضًا: مع أن عليًا أولى بالحق ممن فارقه، ومع أن عمار قتلته الفئة الباغية - كما جاءت به النصوص - فعلينا أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله ونقر بالحق كله، ولا يكون لنا هوى، ولا نتكلم بغير علم، بل نسلك سبل العلم والعدل، وذلك هو اتباع الكتاب والسنة، فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض، فهذا منشأ الفرقة والاختلاف(٣).

ز- وقال عبد العزيز بن باز: قال ﷺ فى حديث عمار: «تقتل عمار الفئة الباغية» فقتله معاوية وأصحابه فى وقعة صفين، فمعاوية وأصحابه بغاة، لكن مجتهدون ظنوا أنهم مصيبون فى المطالبة بدم عثمان(٤).

ح- وقال سعيد حوى: بعد أن قتل عمار الذى وردت النصوص مبينة أنه تقتله الفئة الباغية، تبين للمترددين أن عليًا كان على حق، وأن القتال معه كان واجبًا، ولذا عبّر ابن عمر عن تخلُّفه بأنه يأسى بسبب هذا التخلف، وما ذلك إلا أنه ترك واجبًا وهو نصرة الإمام الحق على الخارجين عليه بغير حق كما أفتى بذلك الفقهاء(٥).

- الرد على قول معاوية رضى الله عنه: إنما قتله من جاء به(٦):

إن جل الصحابة والتابعين قد فهموا من قول رسول الله ﷺ لعمار: «تقتلك

---

(١) أحكام القرآن (٤/ ١٧١٧).
(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٣٧).
(٣) المصدر نفسه (٤/ ٤٤٩، ٤٥٠).
(٤) فتاوى ومقالات متنوعة (٦/ ٨٧).
(٥) الأساس فى السنة (٤/ ١٧١٠).
(٦) مسند أحمد (٢/ ٢٠٦) إسناده حسن.

الفئة الباغية»[1]، أن المقصود جيش معاوية رضى الله عنه، مع أنهم معذورون فى اجتهادهم؛ فهم يقصدون الحق ويريدونه، ولكنهم لم يصيبوه، وفئة على أولى بالحق منهم كما قال ﷺ[2]، ومع أن الأئمة لم يعجبهم تأويل معاوية ـ كما سأنقل ـ إلا أنهم عذروه فى اجتهاده، فها هو ابن حجر يقول فى قوله ﷺ: «يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»[3]. فإن قيل: كان قتله بصفين وهو مع على، والذين قتلوه مع معاوية، وكان معه جماعة من الصحابة، فكيف يجوز عليهم الدعاء إلى النار؟ فالجواب: أنهم كانوا ظانين أنهم يدعون إلى الجنة، وهم مجتهدون لا لوم عليهم فى اتباع ظنونهم، فالمراد بالدعاء إلى الجنة الدعاء إلى سببها، وهو طاعة الإمام وكذلك معذورون للتأويل الذى ظهر لهم[4].

وقال القرطبى: وقال الإمام أبو المعالى فى كتاب الإرشاد، فصل «على رضى الله عنه»: كان إمامًا حقًا فى توليته، ومقاتلوه بغاة، وحسن الظن بهم يقتضى أن يظن بهم قصد الخير وإن أخطأوه[5]، وقال أيضًا: وقد أجاب على رضى الله عنه عن قول معاوية بأن قال: فرسول الله ﷺ إذن قتل حمزة حين أخرجه، وهذا من على رضى الله عنه إلزام، لا جواب عنه، وحجة لا اعتراض عليها، قاله الإمام الحافظ أبو الخطاب بن دحية[6]، وقال ابن كثير: فقول معاوية: إنما قتله من قدمه إلى سيوفنا، تأويل بعيد جدًا، إذ لو كان كذلك لكان أمير الجيش هو القاتل للذين يقتلون فى سبيل الله، حيث قدمهم إلى سيوف الأعداء[7]، وقال ابن تيمية: وهذا القول لا أعلم له قائلاً من أصحاب الأئمة الأربعة ونحوهم من أهل السنة، ولكن هو قول كثير من المروانية ومن وافقهم[8]، وقال ابن القيم معلقًا على هذا التأويل: نعم التأويل الباطل تأويل أهل الشام قوله ﷺ لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»[9]، فقالوا: نحن لم نقتله، إنما قتله من جاء به حتى أوقعه بين رماحنا، فهذا هو التأويل الباطل المخالف لحقيقة اللفظ وظاهره، فإن الذى قتله هو الذى قتله، لا من استنصر به[10].

---

(١) مسلم رقم (٢٩١٦).
(٢) معاوية بن أبى سفيان، ص (٢١٠ ـ ٢١٤).
(٣) البخارى رقم (٤٤٧).
(٤) فتح البارى (١/ ٦٤٥).
(٥) التذكرة (٢/ ٢٢٢).
(٦) المصدر نفسه (٢/ ٢٢٣).
(٧) البداية والنهاية (٦/ ٢٢١).
(٨) منهاج السنة (٤/ ٤٠٦).
(٩) مسلم رقم (٢٩١٦).
(١٠) الصواعق المرسلة (١/ ١٨٤، ١٨٥).

٦- من هو قاتل عمّار بن ياسر؟

قال أبو الغـادية الجهنى وهو يحدث عن قتله لعـمار: فلما كان يوم صـفين، أقبل يستن أول الكتـيبة رَجِـلاً، حتى إذا كان بين الصـفين فأبصـر رجلٌ عورة، فطعنه فى ركبته بالرمح فعثر، فانكشف المغفر عنه، فضربته فإذا هو رأس عمار. ثم قتل عمارًا، واستسقى أبو غادية، فـأتى بماء فى زجاج، فأبى أن يشرب فيها، فأتى بماء فى قدح فـشرب، فقال رجل: . . . يتورع عـن الشرب فى الزجاج ولم يتورع عن قتل عمار[1]، ويخبر عـمرو بن العاص رضى الله عنه الخبر فـيقول: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: «قاتل عـمار وسالبه فى النار»[2]. قال ابن كـثير ومعلوم أن عمارًا كان فى جيش على يوم صفين، وقتله أصحاب معاوية من أهل الشام، وكان الذى تولى قتله يقال له أبو الغادية، رجل من أفناء الناس، وقيل إنه صحـابى[3]، وقال ابـن حجـر: والظن بالصحـابة فى تلك الحروب أنهم كـانوا متـأولين للمـجتـهد المخطىء أجـر، وإذا ثبت هذا فى حق آحاد الناس فـثبـوته للصحـابة بالطريق الأولى[4]، وقـال الذهبى: وابن ملجم عند الروافض أشـقى الخلق فى الآخـرة، وهو عندنا أهل السنـة ممن نرجـو له النار، ونجـوّز أن الله يتجـاوز عنه، لا كما يقـول الخوارج والروافض، وحكمـه حكم قاتل عثـمان، وقاتل الزبير، وقاتل طلحة، وقاتل سعيد بن جـبير، وقاتل عمار وقاتل خارجة، وقاتل الحسين، فكل هؤلاء نبرأ منهم ونبغضهم فى الله، ونكل أمورهم إلى الله عز وجل[5]، وقد وفق الألبانى فى تعليقـه على قول ابن حجر: هذا حق، لكن تطبيقه على كل فرد من أفـرادهم مشكل، لأنه يلزم تناقض القاعدة المذكورة بمثل حديث التـرجمة، أى (قاتل عمـار وسالبه فى النار)[6]، إذ لا يمكن القول بأن أبا غادية القاتل لـعمار مأجور، لأنه قـتله مجتهـدًا، ورسول الله ﷺ يقول: «قاتل عمار فى النار»[7]، فالصواب أن يقـال: إن القاعدة صحيـحة، إلا ما دل الدليل

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ٢٦٠، ٢٦١).
(٢) السلسلة الصحيحة (٥/ ١٨، ١٩).
(٣) البداية والنهاية (٦/ ٢٢٠).
(٤) الإصابة (٧/ ٢٦).
(٥) تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، ص (٦٥٤).
(٦) السلسلة الصحيحة (٥/ ١٨، ١٩)
(٧) المصدر نفسه (٥/ ١٨، ١٩).

القاطع على خلافها، فيستثنى ذلك منها كما هو الشأن هنا، وهذا خير من ضرب الحديث الصحيح بها[1]. وقد ترجم لأبى الغادية الجهنى ابن عبد البر فقال: اختلف فى اسمه، فقيل: يسار بن سبُع، وقيل: يسار بن أزهر، وقيل: إن اسمه مسلم. سكن الشام ونزل فى واسط، يعدُّ فى الشاميين، أدرك النبى ﷺ وهو غلام، رُوى عنه أنّه قال: أدركت النبى ﷺ وأنا أيفع، أرد على أهلى الغنم، وله سماع من النبى ﷺ قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»[2]، وكان محبًا لعثمان، وهو قاتل عمار بن ياسر، وكان يصف قتله إذا سئل عنه لا يباليه، وفى قصته عجبٌ عند أهل العلم[3].

٧ ـ المعاملة الكريمة أثناء الحرب والمواجهة:

إن وقعة صفين كانت من أعجب الوقائع بين المسلمين. . كانت هذه الوقعة من الغرابة إلى حد أن القارئ لا يصدق ما يقرأ، ويقف مشدوهًا أمام طبيعة النفوس عند الطرفين، فكل منهم كان يقف وسط المعركة شاهرًا سيفه وهو يؤمن بقضيته إيمانًا كاملاً، فليست معركة مدفوعة من قبل القيادة يدفعون الجنود إلى معركة غير مقتنعين بها، بل كانت معركة فريدة فى بواعثها، وفى طريقة أدائها، وفيما خلفتها من آثار. فبواعثها فى نفوس المشاركين يعبر عنها بعض المواقف التى وصلت إلينا فى المصادر التاريخية، فهم إخوة يذهبون معًا إلى مكان الماء فيستقون جميعًا، ويزدحمون وهم يغرفون الماء، وما يؤذى إنسان إنسانًا[4]، وهم إخوة يعيشون معًا عندما يتوقف القتال، فهذا أحد المشاركين يقول: كنا إذا تواعدنا من القتال دخل هؤلاء، فى عسكر هؤلاء، وهؤلاء فى معسكر هؤلاء. . وتحدثوا إلينا وتحدثنا إليهم[5]، وهم أبناء قبيلة واحدة ولكل منهما اجتهاده،

---

(١) السلسلة الصحيحة (٥/ ١٩).

(٢) مسند أحمد (٤/ ٧٦) وسنده حسن.

(٣) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب رقم (٣٠٨٩).

(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٦١٠)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٤١)، مرويات أبى مخنف، ص (٢٩٦).

(٥) البداية والنهاية (٧/ ٢٧٠)، دراسات فى عهد النبوة، ص (٤٢٣).

فيقاتل أبناء القبيلة الواحدة كل فى طرف[1] قتالاً مريراً، وكل منهما يرى نفسه على الحق وعنده الاستعداد لأن يُقْتَل من أجله، فكان الرجلان يقتتلان حتى يُثْخِنا (وهنًا وضعفًا) ثم يجلسان يستريحان، ويدور بينهما الكلام الكثير، ثم يقومان فيقتتلان كما كانا[2]، وهما أبناء دين واحد يجمعهما، وهو أحب إليهما من أنفسهما، فإذا حان وقت الصلاة توقفوا لأدائها[3]، ويوم قتل عمار بن ياسر صلى عليه الطرفان[4]، ويذكر شاهد عيان اشترك فى صفين: تنازلنا بصفين، فاقتتلنا أيامًا، فكثر القتلى بيننا حتى عقرت الخيل، فبعث على إلى عمرو بن العاص أن القتلى قد كثروا فأمسك حتى يدفن الجميع قتلاهم فأجابهم، فاختلط بعض القوم ببعض حتى كانوا هكذا -وشبك بين أصابعه- وكان الرجل من أصحاب على يشد فيقتل فى عسكر معاوية، فيستخرج منه، وقد مر أصحاب على بقتيل لهم أمام عمرو، فلما رآه بكى وقال: لقد كان مجتهداً أخشن فى أمر الله[5]. وكانوا يسارعون إلى التناهى عن المنكر حتى فى مثل هذه المواقع، فكانت هناك مجموعة عرفوا بالقراء، وكانوا من تلامذة عبد الله بن مسعود من أهل العراق ومن أهل الشام معًا، فلم ينضموا إلى أمير المؤمنين على، ولا إلى معاوية بن أبى سفيان، وقالوا لأمير المؤمنين: إنا نخرج معكم ولا ننزل عسكركم، ونعسكر على حدة حتى ننظر فى أمركم وأمر أهل الشام، فمن رأيناه أراد ما لا يحل له، أو بدا منه بغى كنا عليه، فقال على: مرحبًا وأهلاً، هذا هو الفقه فى الدين، والعلم بالسنة، من لم يرض بهذا فهو جائر خائن[6]. والحقيقة أن هذه المواقف منبعثة من قناعات واجتهادات استوثقوا منها فى قرارة أنفسهم وقاتلوا عليها[7].

---

(١) تاريخ الطبرى . نقلاً عن دراسات فى عهد النبوة، ص (٤٢٤).

(٢) البداية والنهاية (١٠/ ٢٧٢) .

(٣) تاريخ الطبرى، نقلاً عن دراسات فى عهد النبوة، ص (٤٢٤).

(٤) تاريخ دمشق (٨/ ٢٣٣)، دراسات فى عهد النبوة، ص (٤٢٤).

(٥) أنساب الأشراف (٦/ ٥٦) بسند حسن .

(٦) صفين، ص (١١٥)، دراسات فى عهد النبوة، ص (٤٢٤).

(٧) دراسات فى عهد النبوة، ص (٤٢٤).

٨ - معاملة الأسرى عند أمير المؤمنين على رضى الله عنه:

إن المعاملة الحسنة للأسير وإكرامه فى صفين من الأمور البدهية بعد ما استعرضنا المعاملة الكريمة أثناء القتال، وقد بين الإسلام معاملة الأسرى، فقد حث رسول الله ﷺ على إكرام الأسرى، وإطعامه أفضل الأطعمة الموجودة، هذا مع غير المسلمين، فكيف إذا كان الأسير مسلمًا؟، لا شك إن إكرامه والإحسان إليه أولى، ولكن الأسير فى هذه المعركة يعتبر فئة وقوة لفرقته[1]، لذلك كان على رضى الله عنه يأمر بحبسه، فإن بايع أخلى سبيله، وإن أبى أخذ سلاحه ودابته، أو يهبها لمن أسره ويحلفه ألا يقاتل، وفى رواية: يعطيه أربعة دراهم[2]. وغرض الخليفة الراشد من ذلك واضح، وهو إضعاف جانب البغاة وقد أتى بأسير يوم صفين فقال الأسير: لا تقتلنى صبرًّا! فقال على رضى الله عنه: لا أقتلك صبرًا إنى أخاف الله رب العالمين، فخلى سبيله ثمّ قال: أفيك خير تبايع[3].

ويبدو من هذه الروايات أن معاملته للأسرى كانت كما يلى:

- إكرام الأسير والإحسان إليه.

- يعرض عليه البيعة والدخول فى الطاعة، فإن بايع أخلى سبيله.

- إن أبى البيعة أخذ سلاحه ويحلفه ألا يعود للقتال ويطلقه.

- إن أبى إلا القتال تحفظّ عليه فى الأسر ولا يقتله صبرًا[4]. وقد أتى رضى الله عنه مرة بخمسة عشر أسيرًا، ويبدو أنهم جرحى، فكان من مات منهم غسله وكفنه وصلى عليه[5]. ويقول محب الدين الخطيب معلقًا على هذه الحرب: ومع ذلك، فإن هذه الحرب المثالية هى الحرب الإنسانية الأولى فى التاريخ التى جرى فيها المتحاربان معًا على مبادئ الفضائل التى يتمنى حكماء الغرب لو يعمل بها فى حروبهم، ولو فى القرن الحادى والعشرين، وإن كثيرًا من قواعد الحرب فى

---

(١) كتاب قتال أهل البغى من الحاوى الكبير، ص (١٣٣، ١٣٤).

(٢) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (٢٤٣).

(٣) الأم للشافعى (٤/ ٢٢٤) (٨/ ٢٥٦).

(٤) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (٢٤٣).

(٥) تاريخ دمشق، تحقيق المنجد (١/ ٣٣١)، خلافة على بن أبى طالب، ص (٢٤٣).

الإسلام لم تكن لتعلم وتدون لولا وقوع هذه الحرب، ولله فى كل أمر حكمة[1]، قال ابن العديم: قلت: وهذا كله حكم أهل البغى، ولهذا قال أبو حنيفة: لولا ما سار على فيهم، ما علم أحد كيف السيرة فى المسلمين[2].

٩ - عدد القتلى:

تضاربت أقوال العلماء فى عدد القتلى، فذكر ابن أبى خيثمة أن القتلى فى صفين بلغ عددهم سبعين ألفًا، من أهل العراق خمسة وعشرون ألفًا، ومن أهل الشام خمسة وأربعون ألف مقاتل[3]، كما ذكر ابن القيم أن عدد القتلى فى صفين بلغ سبعين ألفًا أو أكثر[4]، ولا شك أن هذه الأرقام غير دقيقة، بل أرقام خيالية، فالقتال الحقيقى والصدام الجماعى استمر ثلاثة أيام مع وقف القتال بالليل إلا مساء الجمعة فيكون مجموع القتال حوالى ثلاثين ساعة[5]، ومهما كان القتال عنيفًا، فلن يفوق شدة القادسية التى كان عدد الشهداء فيها ثمانية آلاف وخمسمائة[6]، وبالتالى يصعب عقلاً أن نقبل تلك الروايات التى ذكرت الأرقام الكبيرة.

١٠ - تفقد أمير المؤمنين على القتلى وترحمه عليهم:

كان أمير المؤمنين على رضى الله عنه بعد نهاية الجولات الحربية يقوم بتفقد القتلى، فيقول شاهد عيان: رأيت عليًا على بغلة النبى ﷺ الشهباء، يطوف بين القتلى[7]، وأثناء تفقده القتلى ومعه الأشتر، مر برجل مقتول - وهو أحد القضاة والعباد المشهورين بالشام - فقال الأشتر - وفى رواية أخرى عدى بن حاتم -: يا أمير المؤمنين أحابس[8] معهم؟ عهدى والله به مؤمن، فقال على فهو اليوم مؤمن. ولعل هذا الرجل المقتول هو القاضى الذى أتى عمر بن الخطاب وقال: يا أمير المؤمنين، رأيت رؤيا أفظعتنى، قال: ما هى؟ قال: رأيت الشمس والقمر يقتتلان والنجوم معهما نصفين قال: فمع أيهما كنت؟ قال؟ مع القمر على الشمس، فقال

---

(١) العواصم من القواصم، ص (١٦٨، ١٦٩) من تعليق الخطيب فى الحاشية.

(٢) بغية الطالب فى تاريخ حلب (١/٣٠٩)، خلافة على، ص (٢٤٥).

(٣) الأنباء للقضاعى، ص (٥٩) نقلاً عن خلافة على، ص (٢٤٥).

(٤) الصواعق المرسلة (١/٣٧٧) بدون سند، تحقيق محمد دخيل الله.

(٥) الدولة الأموية، ص (٣٦٠ - ٣٦٢).

(٦) تاريخ الطبرى (٤/٣٨٨).

(٧) مصنف ابن أبى شيبة.

(٨) حابس بن سعد الطائى مخضرم، قتل بصفين.

عمر: قـال تعالى: ﴿وجعلْنا اللَّيْلَ والنَّهارَ آيتيْنِ فمَحَوْنا آية اللَّيْل وجعلْنا آية النَّهار مُبْصِرةً﴾ [الإسراء: ١٢] فـانطلق فوالله لا تعـمل لى عمـلاً أبدًا، قال الراوى: فبلغنى أنه قـتل مع معاوية بصـفين[١]. وقد وقف علىٌّ على قتـلاه وقتلى معاوية فقال: غفـر الله لكم، غفر الله لكم، للفريقين جـميعًا[٢]، وعن يزيد بن الأصم قال: لما وقع الصلح بين على ومعاوية، خرج على فـمشى فى قتلاه فقال: هؤلاء فى الجنة، ثم خـرج إلى قتلى معـاوية فقـال: هؤلاء فى الجنة، ويصيـر الأمر إلىَّ وإلى معـاوية[٣]، وكان يقـول عنهم هم: المؤمنون[٤]، وقـوله رضى الله عنه فى صفين لا يكاد يختلف عن قوله فى أهل الجمل[٥].

١١ - موقف لمعاوية مع ملك الروم:

استغل ملك الروم الخلاف الذى وقع بين أمـير المؤمنين على ومعاوية رضى الله عنهـما، وطمع فى ضم بعض الأراضى التى تحت هيـمنة معـاوية إليه، قـال ابن كثـير: وطمع فى مـعاوية ملك الروم بعـد أن كان أخـشاه وأذله، وقهـر جندهم ودحاهم، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب على تدانى إلى بعض البلاد فى جنود عظيـمة وطمع فيـه، فكتب معـاوية إليه: والله لئن لم تنتـه وترجع إلى بلادك يا لعـين، لأصطلحن أنا وابن عمى عليك ولأخـرجنك من جمـيع بلادك، ولأضيقنَّ عليك الأرض بما رحـبت، فعند ذلك خاف ملك الروم وانكف، وبعث يطلب الهدنة[٦]. وهذا الأثر يدل على أن الخـلاف الذى بينه وبين على رضى الله عنه لن يبقى لحظة واحدة فيما لو تعـرض أمن الدولة الإسلامية فى الشام للخطر، ولولا أن الروم يعلمـون أن هذه الخلافـات قابلة للنسـيان المطلـق ما أخذوا تحـذير معاوية مأخذ الجد وكفوا أيديهم[٧].

---

(١) مصنف ابن أبى شيبة (١١/ ٧٤) بسند منقطع.
(٢) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (٢٥٠).
(٣) مصنف بن أبى شيبة (١٥/ ٣٠٣) بسند حسن.
(٤) تاريخ دمشق (١/ ٣٣١، ٣٢٩)، خلافة على، ص (٢٥١).
(٥) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (٢٥١)، تنزيه لخال المؤمنين، ص (١٦٩).
(٦) البداية والنهاية (٨/ ١٢٢).
(٧) الدور السياسى للصفوة فى صدر الإسلام، ص (٢١١).

١٢ - قصة باطلة فى حق عمرو بن العاص بصفين:

قال نصر بن مزاحم الكوفى: وحمل أهل العـراق وتلقَّاهم أهل الشام فاجتلدوا وحمل عمرو بن العاص فاعترضه على وهو يقول:

قـــد علمت ذات الـقـــرون الميل	والخـضـــر والأنامل الطـفـول[1]

إلى أن يقول: ثم طعنه فـصرعه واتقاه عـمرو برجله، فبدت عـورته، فصرف على وجهــه عنه وارتُثَّ. فقال القـوم: أفلتَ الرجل يا أميـر المؤمنين. قال: وهل تدرون من هو؟ قالوا: لا. قـال: فإنه عـمرو بن العاص تلقـانى بعورته فـصرفت وجهى[2]، وذكر القصة - أيضًا - ابن الكلبى، كما ذكر ذلك السهيلى فى الروض الأنف، وقول على: إنه اتقانى بعورته فأذكرنى الرَحِمَ إلى أن قال: . . ويروى مثل ذلك عن عـمرو بن العـاص مع -على رضى الله عنــه - يوم صفـين، وفى ذلك يقول الحارث بن النضر الشهمى: رواه ابن الكلبى وغيره.

أفى كل يوم فـارس غـــيـر منتـهٍ	وعـورته وسط العـــجـاجـة بداية
يكـف لهـــــا عـنه علـى سنـانه	ويضحك منه فى الخلاء معاوية[3]

والرد على هذا الافتراء والأفك المبيــن كالآتى: فراوى الرواية الأولى، نصر بن مزاحم الكوفى صاحب وقعـة صفين، شيعى جلد لا يستغـرب عنه كذبه وافتراؤه على الصــحابة، قــال عنه الذهبى فى الميزان: نصــر بن مزاحم الكوفى: رافـضى جَلد، تركوه، قال عنه العقيلى: شيعــى فى حديثه اضطراب وخطأ كثير، وقال أبو خيثمـة: كان كذابًا[4]، وقال عنه ابن حجـر: قال العجلى: كان رافضيًـا غاليًا. . ليس بثـقة ولا مـأمون[5]. وأما الكلـبى، هشام بن محـمد بن الســائب الكلبى، فاتفـقوا على غلوه فى التشيع، قــال الإمام أحمد: من يحـدث عنه؟ ما ظننت أن أحـدًا يحدث عنه، وقـال الدارقطنى: متـروك[6]، وعن طريق هذين الرافـضيـين

---

(١) الطفول: جمع طفل، بالفتح، وهو الرخص الناعم.

(٢) وقعة صفين، ص (٤٠٦ - ٤٠٨)، قصص لا تثبت، سليمان الخراشى (٦/ ١٦).

(٣) الروض الأنف (٥/ ٤٦٢) ، قصص لا تثبت (٦/ ١٩).

(٤) ميزان الاعتدال (٤/ ٢٥٣، ٢٥٤). (٥) لسان الميزان (٦/ ١٥٧).

(٦) المجروحين لابن حبان (٣/ ٩١)، تذكرة الحفاظ (١/ ٣٤٣)، معجم الأدباء (١٩/ ٢٨٧)، قصص لا تثبت (١/ ١٨)

سارت هذه القصة في الآفاق وتلقفهـا من جاء بعدهم من مؤرخي الشيعة، وبعض أهل السنة ممن راجت عليهم أكاذيب الرافضة[1]، وتعد هذه القصة أنموذجًا لأكاذيب الشيعة الروافض وافتراءاتهم على صحابة رسول الله، فقد اختلق أعداء الصحابة من مؤرخي الرافضة مثالب لأصحاب رسول الله ﷺ، وصاغوها على هيئة حكايات وأشعار لكي يسهل انتشارها بين المسلمين، هادفين إلى الغض من جناب الصحابة الأبرار - رضي الله عنهم - في غفلة من أهل السنة الذين وصلوا متأخرين إلى ساحة التحقيق في روايات التاريخ الإسلامي، بعد أن طارت تلكم الأشعار والحكايات بين القصَّاص، وأصبح كثير منها من المسَلَّمات، حتى عند مؤرخي أهل السنة للأسف[2].

١٣ - مرور أمير المؤمنين علي بالمقابر بعد رجوعه من صفين:

لما انصرف علي أمير المؤمنين رضي الله عنه من صفين مرّ بمقابر، فقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة من المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، أنتم لنا سلف فارط، ونحن لكم تبعٌ، وبكم عمّا قليل لاحقون، اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم، الحمد لله الذي جعل الأرض كفاتًا، أحياءً وأمواتًا، الحمد لله الذي خلقكم وعليها يحشركم، ومنها يبعثكم، وطوبى لمن ذكر المعاد وأعدّ للحساب، وقنع بالكفاف[3].

١٤ - إصرار قتلة عثمان رضي الله عنه على أن تستمر المعركة:

إن قتلة عثمان كانوا حريصين على أن تستمر المعركة بين الطرفين، حتى يتفانى الناس، وتضعف قوة الطرفين، فيكونوا بمنأى عن القصاص والعقاب، ولذلك فإنهم فزعوا وهم يرون أهل الشام يرفعون المصاحف، وعلي رضي الله عنه يجيبهم إلى طلبهم، فيأمر بوقف القتال وحقن الدماء، فسعوا إلى محادثة تثني أمير المؤمنين عن عزمه، لكن القتال توقف، فسقط في أيديهم، فلم يجدوا بدًا من الخروج على علي رضي الله عنه، فاخترعوا مقولة (الحكم لله) وتحصنوا بعيدًا عن الطرفين، والغريب أن المؤرخين لم يركزوا على ما فعله هؤلاء في هذه المرحلة،

---

(١) قصص لا تثبت (١/ ٢٠) . (٢) المصدر نفسه (١/ ١٠) .

(٣) البيان والتبيان للجاحظ (٣/ ١٤٨) ، فرائد الكلام للخلفاء الكرام، ص (٣٢٧).

كما فعلوا فى معركة الجـمل، رغم أنهم كانوا موجودين فى جيش على، وعن سر إخفاق تلك المفاوضات التى دامت أشهرًا عديدة، وعن الدور الذى يمكن أن يكون قتلة عثمان قد قاموا به فى معـركة صفين لإفشال كل محاولة صلح بين الطرفين، لأن إصلاح على مع معاوية هو أيضًا اصطلاح عل دمائهم، فلا يعقل أن يجتهدوا فى الفتنة فى وقعة الجمل، ويتركوا ذلك فى صفين[1].

١٥ - نهى أمير المؤمنين على عن شتم معاوية ولعن أهل الشام:

روى أن عليًـا - رضى الله عنه - لما بلغـه أن اثنين من أصحـابه يظهران شـتم معاوية ولعن أهل الشام أرسل إليـهما: أن كفّا عمّا يبلغنى عنكما، فـأتيا فقالا: يا أمير المؤمنين: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قـال: بلى وربّ الكعبة المسدّنة، قالا: فلم تمنعنا من شـتمهم ولعنهم؟ قال: كـرهت لكم أن تكونوا لعّانين، ولكن قـولوا: اللهم احـقن دماءنـا ودماءهم، وأصلح ذات بـيننا وبينهم، وأبعـدهم من ضلالتهم حتى يعـرف الحق من جهله، ويرعوى عن الغى من لجج به[2]، وأما ما قيل من أن عليـاً كان يلعن فى قنوته معـاوية وأصحابه، وأن مـعاوية إذا قنت لعن علياً وابن عباس والحسن والحسين، فهو غير صحيح، لأنَّ الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا أكـثر حرصًا من غـيرهم على التقيد بأوامـر الشارع الذى نهى عن سباب المسلم ولعنه[3]، فقد روى عن رسـول الله ﷺ قوله: «من لعن مؤمنًا فـهو كقتله»[4]، وقوله ﷺ: «ليس المؤمن بطعـان ولا بلعّان»[5]، وقوله ﷺ: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شـهداء يوم القيامة»[6]، كما أن الرواية التى جاء فـيها لعن أمير المؤمنين فى قنوته لمعـاوية وأصـحابه، ولعن مـعاويـة لأميـر المؤمنين وابن عبـاس والحسن والحسـين لا تثبت من ناحية السنـد حيث فيها أبو مـخنف لوط بن يحيى الرافضى المحترق الذى لا يوثق فى رواياته. كمـا أن فى أصح كتب الشيعة عندهم النهى عن سب الصحـابة، فقد أنكر على من يسب مـعاوية ومن معه فـقال: إنى

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص (١٤٧).
(٢) الأخبار الطوال، ص (١٦٥) نقلاً عن تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (٢/ ٢٣٢).
(٣) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ٢٣٢). (٤) البخارى، ك الأدب (٧/ ٨٤).
(٥) السلسلة الصحيحة للألبانى رقم (٣٢٠)، صحيح سنن الترمذى (٢/ ١٨٩) رقم (١١١٠).
(٦) مسلم (٤/ ٢٠٠٦) رقم (٢٥٩٨).

أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب فى القول، وأبلغ فى العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم[1]. فهذا السب والتكفير لم يكن من هدى على باعتراف أصح كتاب فى نظر الشيعة[2].

رابعًا: التحكيم:

تم الاتفاق بين الفريقين على التحكيم بعد انتهاء موقعة صفين، وهو أن يحكّم كل واحد منهما رجلاً من جهته، ثم يتّفق الحكمان على ما فيه مصلحة المسلمين، فوكّل معاوية عمرو بن العاص، ووكل على أبا موسى الأشعرى رضى الله عنهما جميعًا، وكتب بين الفريقين وثيقة فى ذلك، وكان مقر اجتماع الحكمين فى دومة الجندل فى شهر رمضان سنة ٣٧هـ، وقد رأى قسم من جيش على رضى الله عنه أن عمله هذا ذنب يوجب الكفر فعليه أن يتوب إلى الله تعالى، وخرجوا عليه فسموا الخوارج، فأرسل على رضى الله عنه إليهم ابن عباس -رضى الله عنهما- فناظرهم وجادلهم، ثم ناظرهم على رضى الله عنه بنفسه، فرجعت طائفة منهم وأبت طائفة أخرى، فجرت بينهم وبين على رضى الله عنه حروب أضعفت من جيشه وأنهكت أصحابه، وما زالوا به حتى قتلوه غيلة.

تعتبر قضية التحكيم من أخطر الموضوعات فى تاريخ الخلافة الراشدة، وقد تاه فيها كثير من الكتاب، وتخبط فيها آخرون، وسطروها فى كتبهم ومؤلفاتهم، وقد اعتمدوا على الروايات الضعيفة والموضوعة التى شوهت الصحابة الكرام وخصوصًا: أبا موسى الأشعرى الذى وصفوه بأنه كان أبله ضعيف الرأى مخدوع فى القول، وبأنه كان على جانب كبير من الغفلة، ولذلك خدعه عمرو بن العاص فى قضيّة التحكيم، ووصفوا عمرو بن العاص رضى الله عنه بأنه كان صاحب مكر وخداع، فكل هذه الصفات الذميمة حاول المغرضون والحاقدون على الإسلام إلصاقها بهذين الرجلين العظيمين اللذين اختارهما المسلمون ليفصلا فى خلاف كبير أدّى إلى قتل الكثير من المسلمين، وقد تعامل الكثير من المؤرخين والأدباء والباحثين مع الروايات التى وضعها خصوم الصحابة الكرام على أنها حقائق

(١) نهج البلاغة، ص (٣٢٣).

(٢) أصول مذهب الشيعة (٢/ ٩٣٤).

تاريخية، وقد تلقاها الناس منهم بالقبول دون تمحيص لها، وكأنها صحيحة لا مرية فيها، وقد يكون لصياغتها القصصية المثيرة وما زعم فيها من خداع ومكر أثر في اهتمام الناس بها، وعناية المؤرخين بتدوينها، وليعلم أن كلامنا هذا ينصب على التفصيلات لا على أصل التحكيم حيث إن أصله حق لا شك فيه[1].

خامسًا : نص وثيقة التحكيم :

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - هذا ما تقاضى عليه عليُّ بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما، فيما تراضيا فيه من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

٢ - قضية علي على أهل العراق شاهدهم وغائبهم، قضية معاوية على أهل الشام شاهدهم وغائبهم.

٣ - إنّا تراضينا أن نقف عند حُكم القرآن فيما يحكم من فاتحته إلى خاتمته، نُحيي ما أحْيا، ونُميت ما أمات. على ذلك تقاضينا وبه تراضينا.

٤ - وإن عليًا وشيعته رضوا بعبد الله بن قيس ناظرًا وحاكمًا، ورضي معاوية بعمرو بن العاص ناظرًا وحاكمًا.

٥ - على أن عليًا ومعاوية أخذا على عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه وذمّته وذِمّة رسوله، أن يتخذا القرآن إمامًا، ولا يعدوا به إلى غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطورًا، وما لم يجدا في الكتاب ردّاه إلى سنة رسول الله الجامعة، لا يتعمّدان لها خلافًا، ولا يبغيان فيها بشبهة.

٦ - وأخذ عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص على علي ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرضا بما حكما به مما في كتاب الله وسنة نبيه، وليس لهما أن ينقُضا ذلك ولا يخالفاه إلى غيره.

٧ - وهما آمنان في حكومتهما على دمائهما وأموالهما وأشعارهما وأبشارهما وأهاليهما وأولادهما، ما لم يعدوا الحق، رضي به راض أو سخط ساخط، وإن الأمة أنصارهما على ما قضيا به من الحق مما في كتاب الله.

(١) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص (٣٧٨)، تنزيه لخال أمير المؤمنين معاوية، ص (٣٨).

٨ - فإن توفى أحد الحكمين قبل انقضاء الحكومة، فلشيعته وأنصاره أن يختاروا مكانه رجلاً من أهل المعدلة والصلاح، على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق.

٩ - وإن مات أحد الأميرين قبل انقضاء الأجل المحدود فى هذه القضية، فلشيعته أن يُولوا مكانه رجلاً يرضون عدله.

وقد وقعت القضية بين الفريقين والمفاوضة ورفع السلاح.

١٠ - وقد وقعت القضية بين الفريقين والمفاوضة ورفع السلاح .

١١ - وقد وجبت القضية على ما سمّيناه فى هذا الكتاب، من موقع الشرط على الأميرين والحكمين والفريقين، والله أقرب شهيد وكفى به شهيدًا، فإن خالفا وتعدّيا، فالأمّة بريئة من حُكمهما، ولا عهد لهما ولا ذمّة.

١٢ - والناس آمنون على أنفسهم وأهليهم وأولادهم وأموالهم إلى انقضاء الأجل، والسلاح موضوعه، والسبل آمنة، والغائب من الفريقين مثل الشاهد فى الأمر.

١٣ - وللحكمين أن ينزلا منزلاً متوسطًا عدلاً بين أهل العراق والشام.

١٤ - ولا يحضرهما فيه إلا من أحبًا عن تراضٍ بينهما .

١٥ - والأجل إلى انقضاء شهر رمضان، فإن رأى الحكمان تعجيل الحكومة عجّلاها، وإن رأى تأخيرها إلى آخر الأجل أخّراها.

١٦ - فإن هما لم يحكُما بما فى كتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الأجل، فالفريقان على أمرهم الأول فى الحرب.

١٧ - وعلى الأمّة عهد الله وميثاقه فى هذا الأمر، وهم جميعًا يد واحدة على من أراد فى هذا الأمر إلحادًا أو ظلمًا أو خلافًا.

وشهد على ما فى هذا الكتاب الحسن والحسين، ابنا على، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب، والأشعث بن قيس الكندى، والأشتر بن الحارث، وسعيد بن القيس الهمدانى، والحصين والطفيل ابنا الحارث بن عبد

المطلب، وأبو سعيد بن ربيعة الأنصاري، وعبد الله بن خباب بن الأرت، وسهل ابن حنيف، وأبو بشر بن عمر الأنصاري، وعوف بن الحارث بن عبد المطلب، ويزيد بن عبد الله الأسلمي، وعقبة بن عامر الجهني، ورافع بن خديج الأنصاري، وعمر بن الحمق الخزاعي، والنعمان بن عجلان الأنصاري، وحجر بن عدى الكندي، ويزيد بن حجية النكري، ومالك بن كعب الهمداني، وربيعة بن شرحبيل، والحارث بن مالك، وحجر بن يزيد، وعلبة بن حجية. ومن أهل الشام، حبيب بن مسلمة الفهري، وأبو الأعور السلمي، وبشر بن أرطأة القرشي، ومعاوية بن خديج الكندي، والمخارق بن الحارث الزبيدي، ومسلم بن عمرو السكسي، وعبد الله بن خالد بن الوليد، وحمزة بن مالك، وسبيع بن يزيد الحضرمي، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعلقمة بن يزيد الحضرمي، ويزيد بن أبجر العبسي، ومسروق بن حبلة العكي، وبسر بن يزيد الحميري، وعبد الله بن عامر القرشي، وعتبة بن أبي سفيان، ومحمد بن أبي سفيان، ومحمد بن عمرو بن العاص، وعمّار بن الأحوص الكلبي، ومسعدة بن عمرو العتبي، والصباح بن جلهمة الحميري، وعبد الرحمن بن ذى الكلاع، وتمامة بن حوشب، وعلقمة بن حكم.

وكتب يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين[١].

سادسًا : قصة التحكيم المشهورة وبطلانها من وجوه:

لقد كثر الكلام حول قصة التحكيم، وتداولها المؤرخون والكتاب على أنها حقيقة ثابتة لا مرية فيها، فهم بين مطيل في سياقها، ومختصر، وشارح ومستنبط للدروس، وبانٍ للأحكام على مضامينها، وقلما تجد أحدًا وقف عندها فاحصًا محققًا، وقد أحسن ابن العربي في ردها إجمالاً وإن كان غير مفصل، وفي هذا دلالة على قوة حاسته النقدية للنصوص، إذ إن جميع متون قصة التحكيم لا يمكن أن تقوم أمام معيار النقد العلمي، بل هي باطلة من عدة وجوه[٢].

---

(١) انظر: الوثائق السياسية، ص (٥٣٧، ٥٣٨)، الأخبار الطوال للدينوري، ص (١٩٦ - ١٩٩)، أنساب الأشراف (١/ ٣٨٢)، تاريخ الطبري (٥/ ٦٦٥ ، ٦٦٦)، البداية والنهاية (٧/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص (٤٢ - ٤٠).

١ - أن جميع طرقها ضعيفة، وأقوى طريق وردت فيه هو ما أخرجه عبد الرزاق والطبرى بسند رجاله ثقات عن الزهرى مرسلاً قال: قال الزهرى: فأصبح أهل الشام قد نشروا مصاحفهم، ودعوا إلى ما فيها، فهاب أهل العراقين، فعند ذلك حكموا الحكمين، فاختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى، واختار أهل الشام عمرو بن العاص فتفرق أهل صفين حين حكم الحكمان، فاشترطا أن يرفعا ما رفع القرآن ويخفضا ما خفض القرآن، وأن يختار لأمّة محمد ﷺ، وأنهما يجتمعان بدومة الجندل، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذرح، فلما انصرف علىّ خالفت الحرورية وخرجت - وكان ذلك أول ما ظهرت - فآذنوه بالحرب، وردوا عليه: أن حكَّمَ بنى آدم فى حكم الله عز وجل، وقالوا: لا حكم إلا لله سبحانه، وقاتلوا، فلما اجتمع الحكمان بأذرح، وافاهم المغيرة بن شعبة فيمن حضر من الناس، فأرسل الحكمان إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير فى إقبالهم فى رجال كثير، ووافى معاوية بأهل الشّام، وأبى على وأهل العراق أن يوافوا، فقال المغيرة بن شعبة لرجال من ذوى الرأى من قريش: أترون أحدًا من الناس برأى يبتدعه يستطيع أن يعلم أيجتمع الحكمان أم يفترقان؟ قالوا: لا نرى أحدًا يعلم ذلك، قال: فوالله إنى لا أظن أنى سأعلمه منهما حين أخلو بهما وأرجعهما، فدخل عمرو بن العاص وبدأ به، فقال: يا أبا عبد الله، أخبرنى عما أسألك عنه، كيف ترانا معشر المعتزلة، فإنا قد شككنا فى الأمر الذى تبين لكم من هذا القتال، ورأينا أن نستأنى ونتثبت حتى تجتمع الأمّة، قال: أراكم معشر المعتزلة خلف الأبرار، وأمام الفجار، فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك، حتى دخل على أبى موسى فقال له مثل ما قال لعمرو، وقال أبو موسى: أراكم أثبت الناس رأيًا، فيكم بقية المسلمين، فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك، فلقى الذين قال لهم ما قال من ذوى الرأى من قريش، فقال: لا يجتمع هذان على أمر واحد، فلما اجتمع الحكمان وتكلما، قال عمرو بن العاص: يا أبا موسى، رأيت أول ما تقضى به من الحق أن تقضى لأهل الوفاء بوفائهم، وعلى أهل الغدر بغدرهم، قال أبو موسى: وما ذاك؟ قال: ألست تعلم أن معاوية وأهل الشّام قد وفوا، وقدموا للموعد الذى واعدناهم إياه؟ قال: بلى، قال عمرو: اكتبها فكتبها

أبو موسى، قال عمرو: يا أبا موسى، أأنت على أن تسمى رجلاً يلى أمر هذه الأمّة؟ فسمه لى، فإن أقدر على أن أتابعك فلك علىّ أن أتابعك، وإلا فلى عليك أن تتابعنى، قال أبو موسى: أسمى لك معاوية بن أبى سفيان! فلم يبرحا مجلسهما حتى استبا، ثم خرجا إلى الناس، فقال أبو موسى: إنى وجدت مثل عمرو كمثل الذى قال الله عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]. فلما سكت أبو موسى تكلم عمرو فقال: أيها الناس وجدت مثل أبى موسى كمثل الذى قال الله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]. وكتب كل واحد منهما مثله الذى ضرب لصاحبه إلى الأمصار[١].

والزهرى لم يدرك الحادثة فهى مرسلة، ومراسيله كأدراج الرياح لا تقوم بها حجة[٢]، كما قرّر العلماء ، وهناك طريق أخرى أخرجها ابن عساكر بسنده إلى الزهرى وهى مرسلة، وفيها أبو بكر بن أبى سبرة قال عنه الإمام أحمد: كان يضع الحديث[٣]. وفى سنده أيضًا الواقدى، وهو متروك[٤]، وهذا نصها: ... رفع أهل الشّام المصاحف وقالوا: ندعوكم إلى كتاب الله والحكم بما فيه، وكان ذلك مكيدة من عمرو بن العاص، فاصطلحوا وكتبوا بينهم كتابًا على أن يوافوا رأس الحول أذرح، وحكموا حكمين ينظران فى أمور الناس فيرضون بحكمهما، فحكّم على أبا موسى الأشعرى، وحكم معاوية عمرو بن العاص، وتفرق الناس فرجع على إلى الكوفة بالاختلاف والدغل، واختلف عليه أصحابه فخرج عليه الخوارج من أصحابه ممن كان معه، وأنكروا تحكيمه وقالوا: لا حكم إلا لله. ورجع معاوية إلى الشام بالألفة واجتماع الكلمة عليه، ووافى الحكمان بعد الحول بأذرح فى شعبان سنة ثمان وثلاثين، واجتمع الناس إليهما وكان بينهما كلام اجتمعا عليه فى السر خالفه عمرو بن العاص فى العلانية، فقدم أبا موسى فتكلم وخلع عليًا ومعاوية، ثم تكلم عمرو بن العاص فخلع عليًا وأقر معاوية، فتفرق الحكمان ومن كان اجتمع إليهما، وبايع أهل الشام معاوية فى ذى القعدة سنة ثمان وثلاثين[٥].

---

(١) المصنف (٥/٤٦٣)، مرويات تاريخ الطبرى، ص (٤٠٦).
(٢) المراسيل لابى حاتم، ص (٣)، الجرح والتعديل (١/٢٤٦).
(٣) تهذيب التهذيب (١٢/٢٧)، مرويات تاريخ الطبرى، ص (٤٠٦).
(٤) مرويات تاريخ الطبرى، ص (٤٠٦).
(٥) تاريخ دمشق (١٦/٥٣).

وأمـا طرق أبى مخنف فـهى مـعلولة به، وبأبى جناب الكلبى، فـالأول: وهو أبو مخنف لوط بن يحـيى، ضعيف ليس بثـقة[1]، وإخبـارى تالف غالٍ فى الرفض. وأما الثانى قال فيه ابن سعد: كان ضعيفًا[2]، وقال البخارى وأبو حاتم: كان يحيى القطان يضعفه[3]، وقال عثمان الدارمى: ضعيف[4]، وقال النسائى: ضعيف[5].

هذه طرق قصة التحكيم المشهـورة، والمناظرة بين أبى موسى وعمرو بن العاص المزعومة، أفمـثل هذا تقوم به حجة، أو يعول على مـثل ذلك فى تاريخ الصحابة الكرام وعـهد الخلفـاء الراشدين، عـصـر القدوة والأسـوة، ولو لم يكن فى هذه الروايات إلا الاضطراب فى مـتونهـا لكفاها ضعـفًا، فكيف إذا أضـيف إلى ذلك ضعف أسانيدها[6].

٢ - أهميـة هذه القضـية فى جـانب الاعتـقاد والتشريع: ومع ذلك لم تنقل لنا بسند صحيح، ومن المحال أن يطبق العلماء على إهمالها مع أهميتها وشدة الحاجة إليها[7].

٣ - وردت رواية تناقض تلك الروايات تمامًا. وذلك فيـما أخـرجه البـخارى فى تاريخه مختصرًا بسند رجاله ثقـات، وأخرجه ابن عـساكر مطولاً، عن الحصين بن المنذر أن معـاوية أرسله إلى عمرو بن العـاص فقال له: إنه بلغنى عن عمـرو كذا وكذا فاذهب فانظر ما هذا الذى بلغنى عنه، فأتيته فقلت: أخبرنى عن الأمر الذى وُلِّيت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فـيه؟ قال: قد قال الناس وقالوا ولا والله ما كان مـا قالوا ولكن لما اجتـمعت أنا وأبو موسى قلت له: مـا ترى فى هذا الأمر؟ قال: أرى أنه فى النفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، قال: فقلت: أين تجعلنى من هذا الأمر أنا ومـعاوية؟ قال: أن يستعن بكما ففـيكما معونة، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما[8].

وقد روى أبو موسى عن تورّع عمـرو ومحاسبته لنفســه، وتذكُّره سيرة أبى بكر وعمر، وخوفه من الإحداث بعدهمـا، قال أبو موسى: قال لى عمرو بن العاص:

(١) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ٢٢٣). (٢) مرويات أبى مخنف ص (٤٠٧).
(٣) التاريخ الكبير (٤/ ٢/ ٢٦٧)، الجرح والتعديل (٩/ ١٣٨).
(٤) التاريخ للدارمى، ص (٢٣٨)، تحقيق مواقف الصحابة. (٢/ ٢٢٣).
(٥) الضعفاء والمتركون، ص (٢٥٣). (٦) مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى، ص (٤٠٨).
(٧) المصدر نفسه، ص (٤٠٨). (٨) التاريخ الكبير (٥/ ٣٩٨).

والله لئن كان أبو بكر وعمر تركـا هذا المال وهو يحلُّ لهما، غُبِنا وأخطآ أو نقص رأيهمـا، ووالله ما كانا مـغبونين ولا مـخطئين ولا ناقصى الرأى. ووالله مـا جاء الوهم والضعف إلا من قِبلنا[1].

٤- إن معاوية كان يقر بفـضل على عليه وأنه أحق بالخلافة منه: فلم ينازعه الخلافة ولا طلبـها لنفـسه فى حيـاة على، فقـد أخرج يحـيى بن سليمـان الجعـفى بسند جيد[2]، عن أبى مسلم الخـولانى أنه قال لمعاوية: أنت تنازع عليًا فـى الخلافة أو أنت مـثله؟ قـال: لا، وإنى لأعلم أنه أفـضل منى وأحق بالأمـر، ولكن ألسـتم تعلمون أن عثمان قتل مظلومًا وأنا ابن عمه ووليه، أطلب بدمه؟ فأتوا عليًا فقولوا له يدفع لنا قتلة عثمان وأسلم له، فأتوا عليًا فكلموه فلم يدفعهم إليه[3]، فهذا هو أصل النزاع بين على ومـعاوية رضى اللـه عنهمـا، فالتـحكيم من أجل حل هذه القضية المتنازع عليها لا لاختيار خليفة أو عزله[4].

ويقول ابن حزم فى هذا الصدد: إن عليًا قاتل معاوية لامتناعه من تنفيذ أوامره فى جمـيع أرض الشام، وهو الإمام الواجب طاعـته، ولم ينكر معـاوية قط فضل علىّ واستحقـاقه الخلافة، لكن اجتهاده أدّاه إلى أن رأى تقـديم أخذ القود من قتلة عثمان على البيعة، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان والكلام فيه من أولاد عثمان وأولاد الحكم بن أبى العاص لسنّه وقوته على الطلب بذلك، وأصاب فى هذا وإنما أخطأ فى تقديمه ذلك على البيعة فقط[5]. وفهم الخلاف على هذه الصورة - وهى صورته الحـقيقـية - يبين إلى أىّ مـدى تخطئ الروايات السابقة عـن التحكيم فى تصوير قـرار الحكمين، إن الحكمـين كانا مـفوضين للحكم فى الخـلاف بين على ومعاوية، ولم يـكن الخلاف بينهما حـول الخلافة ومن أحق بها منهـما، وإنما كان حول توقيع القصاص على قتلة عـثمان، وليس هذا من أمر الخلافة فى شىء، فإذا ترك الحكمان هذه القضية الأساسية، وهى ما طلب إليهما الحكم فيه، واتخذا قرارًا فى شأن الخلافة، كما تزعم الرواية الشائعة، فـمعنى ذلك أنهما لم يفقها موضوع النزاع، ولم يحيطا بموضوع الدعوى، وهو مـستبعد جدًا[6].

---

(١) العواصم من القواصم، ص (١٧٨ - ١٨٠). (٢) فتح البارى (١٣/ ٨٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٤٠) (٤) مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى، ص (٤٠٩).

(٥) الفصل فى الملل والنحل (٤/ ١٦٠). (٦) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (٢/ ٢٢٥)

٥ - أن الشروط التى يجب توافرها فى الخليفة هى العدالة والعلم، والرأى المفضى إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح، وأن يكون[1] قرشيًا، وقد توافرت هذه الشروط فى على -رضى الله عنه- فهل بيعته منعقدة أم لا؟ فإن كانت منعقدة - ولا شك- وقد بايعه المهاجرون والأنصار أهل الحل والعقد، وخصومه يقرون له بذلك، فقول معاوية السابق يدل عليه بأن «الإمام إذا لم يَخْل عن صفات الأئمة، فرام العاقدون له عقد الإمامة أن يخلعوه، لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً باتفاق الأئمة، فإن عقد الإمام لازم، لا اختيار فى حله من غير سبب يقتضيه، ولا تنتظم الإمامة ولا تفيد الغرض المقصود منها إلا مع القطع بلزومها، ولو تخير الرعايا فى خلع إمام الخلق على حكم الإيثار والاختيار لما استتب للإمام طاعة ولما استمرت له قدرة واستطاعة ولما صح لمنصب الإمام معنى[2]. وإذًا فليس الأمر بهذه الصورة التى تحكيها الروايات أن كل من لم يرض بإمامه خلعه، فعقد الإمامة لا يحله إلا من عقده، وهم أهل الحل والعقد، وبشرط إخلال الإمام بشروط الإمامة، وهل على رضى الله عنه فعل ذلك واتفق أهل الحل والعقد على عزله عن الخلافة وهو الخليفة الراشد حتى يقال إن الحكمين اتفقا على ذلك، فما ظهر منه قط إلى أن مات -رضى الله عنه- شىء يوجب نقض بيعته، وما ظهر منه قط إلا العدل، والجد والبر والتقوى والخير[3].

٦ - أن الزمان الذى قام فيه التحكيم زمان فتنة، وحالة المسلمين مضطربة مع وجود خليفة له، فكيف تنتظم حالتهم مع عزل الخليفة! لا شك أن الأحوال ستزداد سوءًا، والصحابة الكرام أحذق وأعقل من أن يقدموا على هذا، وبهذا يتضح بطلان هذا الرأى عقلاً ونقلاً.

٧ - أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حصر الخلافة فى أهل الشورى وهم الستة، وقد رضى المهاجرون والأنصار بذلك، فكان ذلك إذنًا فى أن الخلافة لا تعدو هؤلاء إلى غيرهم ما بقى منهم واحد، ولم يبق منهم فى زمان التحكيم إلا سعد بن أبى

(١) الأحكام السلطانية الماوردى، ص (٦)، الأحكام السلطانية لأبى يعلى، ص (٢٠)، غياث الأمم، ص (٧٩) وما بعدها.

(٢) غياث الأمم، ص (١٢٨)، مرويات أبى مخنف، ص (٤١٠).

(٣) الفصل فى الملل والأهواء والنحل (٤/٢٣٨).

وقاص وقد اعتزل الأمر ورغب عن الولاية، والإمارة، وعلى بن أبى طالب القائم بأمر الخلافة، وهو أفضل الستة بعد عثمان فكيف يتخطى بالأمر إلى غيره[1].

٨ - أوضحت الروايات أن أهل الشام بايعوا معاوية بعد التحكيم: والسؤال ما المسوغ الذى جعل أهل الشام يبايعون معاوية؟ إن كان من أجل التحكيم؛ فالحكمان لم يتفقا ولم يكن ثمة مبرر آخر حتى ينسب عنهم ذلك، مع أن ابن عساكر نقل بسند رجاله ثقات عن سعيد بن عبد العزيز التنوخى[2]، أعلم الناس بأمر الشام[3] أنه قال: كان على بالعراق يدعى أمير المؤمنين، وكان معاوية بالشام يدعى الأمير فلما مات على دعى معاوية بالشام أمير المؤمنين[4].

فهذا النص يبين أن معاوية لم يبايع بالخلافة إلا بعد وفاة على، وإلى هذا ذهب الطبرى، فقد قال فى آخر حوادث سنة أربعين: وفى هذه السنة بويع لمعاوية بالخلافة بإيلياء[5]، وعلق على هذا ابن كثير بقوله: يعنى لما مات على قام أهل الشام فبايعوا معاوية على إمرة المؤمنين لأنه لم يبق له عندهم منازع[6]، وكان أهل الشام يعلمون أن معاوية ليس كفئا لعلى بالخلافة، ولا يجوز أن يكون خليفة مع إمكان استخلاف على رضى الله عنه، فإن فضل على، وسابقته، وعلمه، ودينه، وشجاعته، وسائر فضائله.. كانت عندهم ظاهرة معروفة، كفضل إخوانه، أبى بكر، وعمر، وعثمان وغيرهم رضى الله عنهم[7]، وإضافة إلى ذلك فإن النصوص تمنع من مبايعة خليفة مع وجود الأول، فقد أخرج مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»[8]، والنصوص فى هذا المعنى كثيرة[9]، ومن المحال أن يطبق الصحابة على مخالفة ذلك[10].

٩- أخرج البخارى فى صحيحه عن ابن عمر قال: دخلتُ على حفصة ونوساتها[11] تنطف[12] قلت: قد كان من أمر الناس ما ترين، فلم يجعل لى من الأمر شىء، فقالت: الحق فإنهم ينتظرونك وأخشى أن يكون فى احتباسك عنهم

(١) مرويات تاريخ أبى مخنف، ص (٤١١).
(٢) سعيد بن عبد العزيز التنوخى ثقة إمام (التقريب).
(٣) تهذيب التهذيب (٤/ ٦٠).
(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٧٦).
(٥) المصدر نفسه (٦/ ٧٦).
(٦) البداية والنهاية (٨/ ١٦).
(٧) الفتاوى (٣٥/ ٧٣).
(٨) صحيح مسلم (٣/ ١٤٨٠).
(٩) سنن البيهقى (٨/ ١٤٤).
(١٠) مرويات أبى مخنف، ص (٤١٢).
(١١) نوساتها: ضفائرها.
(١٢) تنطف: تقطر.

فرقة، فلم تدعه حتى ذهب، فلما تفرق الناس خطب معاوية قال: من كان يريد أن يتكلم فى هذا الأمر فليطلع لنا قرنه، فلنحن أحق به منه ومن أبيه، قال حبيب ابن مسلمة: فهلا أجبته؟ قال عبد الله: فحللت حبوتى وهممت أن أقول أحق بهذا الأمر منك مَنْ قاتلك وأباك على الإسلام، فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم ويحمل عنى غير ذلك، فذكرت ما أعد الله فى الجنان. قال حبيب: حفظت وعصمت[1].

هذا الحديث قد يفهم منه مبايعة معاوية بالخلافة، وليس فيه تصريح بذلك، وقد قال بعض العلماء: إن هذا الحديث كان فى الاجتماع الذى صالح فيه الحسن بن على رضى الله عنه معاوية -رضى الله عنه- وقال ابن الجوزى: إن هذه الخطبة كانت فى زمن معاوية لما أراد أن يجعل ابنه يزيد ولى عهده، ويراها ابن حجر فى التحكيم[2]، ودلالة النص على القولين الأولين أقوى. فقوله: فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم.. دليل على اجتماع الكلمة على معاوية، وأيام التحكيم أيام فرقة واختلاف لا أيام جمع وائتلاف[3].

١٠- حقيقة قرار التحكيم: ليس من شك فى أن أمر الخلاف الذى رأى الحكمان رده إلى الأمة، أو إلى أهل الشورى ليس إلا أمر الخلاف بين على ومعاوية حول قتلة عثمان، ولم يكن معاوية مدعيًا للخلافة، ولا منكرًا حق علىّ فيها، كما تقرر سابقًا، وإنما كان ممتنعًا عن بيعته، وعن تنفيذ أوامره فى الشام حيث كان متغلبًا عليها بحكم الواقع لا بحكم القانون، مستفيدًا من طاعة الناس له بعد أن بقى واليًا فيها زهاء عشرين سنة[4]، وقد قال ابن دحية الكلبى فى كتابه «أعلام النصر المبين فى المفاضلة بين أهل صفين»: قال أبو بكر محمد بن الطيب الأشعرى -الباقلانى- فى مناقب الأئمة: فما اتفق الحكمان قط على خلعه - على بن أبى طالب- . . . وعلى أنهما لو اتفقا على خلعه لم ينخلع حتى يكون الكتاب والسنة المجتمع عليهما يوجبان خلعه، أو أحد منهما على ما شرطا فى الموافقة بينهما، أو إلى أن يبيّنا ما يوجب خلعه من الكتاب والسنة، ونصّ كتاب علىّ - عليه السلام - اشترط على الحكمين أن يحكما بما فى كتاب الله عز وجلّ من فاتحته إلى خاتمته

---

(١) البخارى (٥/ ٤٨) .
(٢) فتح البارى (٧/ ٤٦٦) .
(٣) مرويات أبى مخنف
(٤) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (٢/ ٢٣٤) .

لا يجاوزان ذلك ولا يحيدان عنه، ولا يميلان إلى هوى ولا إدهان، وأخذ عليهما أغلظ العهود والمواثيق، وإن هما جاوزا بالحكم كتاب الله فلا حكم لهما . . والكتاب والسنة يثبتان إمامته، ويعظمانه ويثنيان عليه، يشهدان بصدقه وعدالته، وإمامته، وسابقته في الدين، وعظيم جهاده في جهاد المشركين، وقرابته من سيد المرسلين، وما خص به من القدم في الحلم والمعرفة بالحكم، ووفور الحلم، وأنه حقيق بالإمامة، وأهل لحمل أعباء الخلافة[1].

١١ - مكان انعقاد المؤتمر: كان الموعد المحدد لاجتماع الحكمين - كما جاء في الوثيقة - في رمضان في عام ٣٧هـ، إذا لم تحدث عوائق، في موضع وسط بين العراق والشام، وهذا الموضع المختار هو دومة الجندل[2]، في روايات موثقة، وأذرح[3] في روايات أخرى دونها في الإتقان، ولعل لقرب المكانين من بعضهما أثر في اختلاف الروايات، إذ يقول خليفة بن خياط[4]: ويقال بأذرح وهي من دومة الجندل قريب، وقد تم الاجتماع في الموعد المحدد بدون عوائق[5].

إن المكان الذي اجتمع فيه الحكمان هو دومة الجندل، وهذا بخلاف ما جزم به ياقوت الحموي من أن التحكيم حدث في أذرح، واستدل على ذلك ببعض روايات لم يبينها، وبالأشعار، وبخاصة بشعر ذي الرمة[6]، في مدح بلال بن أبي بردة[7] وهو قوله:

أبوك تلافى الدين والناس بعدما تشاءوا وبيت الدين منقلع الكسر

فشد إصار الدين أيام أذرح ورد حروبًا قد لقحن إلى عقر[8]

١٢ - هل حضر سعد بن أبي وقاص اجتماع الحكمين: اجتمع الحكمان في موعدهما المحدد، ومع كل واحد منهما بضع مئات يمثلون وفدين، وفد عن أهل العراق، وآخر يمثل أهل الشام، وطلب الحكمان من عدد من أعيان قريش

---

(١) أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهل صفين ص (١٧٧).

(٢) دومة الجندل: غرب مدينة الجوف في شمال الجزيرة العربية.

(٣) أذرح: اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة من نواحي البلقاء.

(٤) تاريخ خليفة، ص (١٩١، ١٩٢).

(٥) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد ص (٢٦٧).

(٦) ذي الرمة: هو غيلان بن عقبة توفي ١١٧هـ، سير أعلام النبلاء (٥/٢٦٧).

(٧) بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى الأشعري، تهذيب تاريخ دمشق (٣/٣٢١).

(٨) ديوان ذي الرمّة، ص (٣٦١ ـ ٣٦٢)، نقلاً عن خلافة علي، ص (٢٧٢).

وفضلائهم الحضور لمشاورتهم والاستئناس برأيهم، ولم يحضر الاجتماع عدد من كبار الصحابة كانوا قد اعتزلوا القتال منذ بدايته، وأفضل هؤلاء: سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فإنه لم يحضر التحكيم ولا أراد ذلك ولا همَّ به[1]، فعن عامر بن سعد أن أخاه عُمر انطلق إلى سعد فى غنم له خارجًا من المدينة، فلمّا أتاه رآه سعد قال: أعوذ بالله من شرِّ هذا الركب، فلمًّا أتاه قال: يا أبة، أرضيت أن تكون أعرابيًا فى غنمك، والناس يتنازعون فى الملك بالمدينة؟ فضرب سعد صدر عمر وقال: اسكت، فإنِّى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى»[2]

سابعًا : هل يمكن الاستفادة من حادثة التحكيم فى فض النزاعات بين الدول الإسلامية؟

يمكن الاستفادة من حادثة التحكيم فى فض النزاعات بين الدول الإسلامية، وذلك بتحمل قادة البلاد الإسلامية جميعًا مسئولياتهم ومن ورائهم الأمّة الإسلامية التى يحكمونها فى الضغط الجادِّ الصادق، على الطرفين المتنازعين، لكى يوقفا ما بينهما من قتال، ويلجآ إلى التحكيم الشرعى فى الإسلام، فيرسل هذا الطرف حكمًا من قبله، وذلك حكمًا آخر من قبله أيضًا، للفصل فى النزاع القائم وذلك على ضوء ما يلى:

١ - تحديد صلاحيات الحكمين فى إصدار الأحكام التى لا بُدَّ منها لحل المشكلات التى هى سبب النزاع.

٢ - جعل مصادر التشريع الإسلامى هى المرجع الوحيد لإصدار تلك الأحكام والحلول التى تفصل فى مسائل النزاع.

٣ - أخذ العهد على كل طرف من طرفى النزاع، وأخذ العهد على جميع قادة البلاد الإسلامية بقبول ما يصدره الحكمان من أحكام، وحلول مشروعة لإنهاء النزاع الرّاهن، على أنها واجبة التنفيذ بحكم الإسلام، وأن الخروج عليها، أو الرضا بذلك الخروج يترتب عليه الإثم شرعًا.

---

(١) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد ص (٢٧٢).

(٢) المسند (١/١٦٨) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح (٣/٢٦)، خلافة على بن أبى طالب، للسُلمى، ص(١٠٧).

٤ - إذا أصدر الحكمان ما اتَّفَقَا عليه من أحكام، وحلول، وانقاد لها الطرفان المتنازعان، قُضى الأمر، وكفى الله المؤمنين القتال.

٥ - إذا رفض أحد الطَّرفين، أو كلاهما، الانقياد لقضاء الحكمين اعتبر الطرف الرافض هو الطرف الباغى، سواء صدر الرفض من أحدهما، أو من كليهما، ووجب شرْعًا على القوات الإسلامية فى الأقطار الأخرى أن تضع نفسها تحت تصرُّف ما يصدره الحكمان من قرارات عسكرية، من أجل التدخل لحسم النزاع بالقوة على وجه لا تترتب عليه أضرار ومخاطر هى أكبر من ضرر النزاع القائم.

٦- ويكون من صلاحيّات الحكمين -بالاتفاق - إصدار القرارات التى تخص كيفية تحريك القوات المسلحة فى الأقطار الإسلامية الأخرى، من أجل حل النزاع القائم على ضوء ما سلف بيانه[1]، ولعلّ اللجوء إلى مثل هذه الطريقة فى حل المنازعات بين الأقطار الإسلامية، كفيل بسد الطريق على أيّة قوة خارجية تتدخل فى نزاعات المسلمين، بحجة أنَّ بعض أطراف النِّزاع دعاها إلى هذا التدخل.. ومن ثم تستغل هذه الفرصة، لكى تتآمر على المسلمين، فتعمل على تصعيد تلك النزاعات، وفرض الحلِّ الذى يَحْلو لها، ويكون فيه مصلحتها فقط، وليعانى المسلمون، بعدئذ، من آثار ذلك الحلِّ أسوأ ممّا كانوا يُعَانُون من فتنة النِّزَاع نفسها، فهذه المعاناة لا تهمها فى شىء، لا، بل إنَّ هذه المعاناة هى من جملة الاهتمامات التى فرضت من أجل تفجيرها ذلك الحل المشؤُوم، قلنا: لعل اللُّجُوء إلى التحكيم، على نحو ما سلف بيانه، يسد الطريق فى وجه تلك القوى الخارجيّة التى تبغى فى صفوف المسلمين الفساد، هذا، وإن الصفة الإلزاميَّة شرعًا للحل عن طريق التحكيم الذى عرضناه - تستند إلى إجماع الصحابة، فقد أجمع الصحابة كلهم فى عهد النِّزاع الذى نشب بين على ومعاوية على اللجوء إلى التحكيم، والقبول به.. سواء فى ذلك الصحابة الذين كانوا مع على، والصحابة الذين كانوا مع معاوية، والصحابة الذين اعتزلوا الفريقين، كسعد بن أبى وقاص، وابن عمر، وغيرهما - رضى الله عنهم أجمعين[2].

(١)، (٢) الجهاد والقتال فى السياسة الشرعية (٣/ ١٦٦٥).

ثامنًا: موقف أهل السنة من تلك الحروب:

إن موقف أهل السنة والجماعة من الحرب التى وقعت بين الصحابة الكرام - رضى الله عنهم- هو الإمساك عما شجر بينهم إلا فيما يليق بهم -رضى الله عنهم- لما يسببه الخوض فى ذلك من توليد العداوة والحقد والبغض لأحد الطرفين، وقالوا: إنه يجب على كل مسلم أن يحب الجميع ويترضى عنهم، ويترحم عليهم، ويحفظ لهم فضائلهم، ويعترف لهم بسوابقهم، وينشر مناقبهم، وأن الذى حصل بينهم إنما كان عن اجتهاد والجميع مثابون فى حالتى الصواب والخطأ، غير أن ثواب المصيب ضعف ثواب المخطىء فى اجتهاده، وأن القاتل والمقتول من الصحابة فى الجنة، ولم يجوز أهل السنة والجماعة الخوض فيما شجر بينهم، وقبل أن أذكر طائفة من أقوال أهل السنة التى تبين موقفهم فيما شجر بين الصحابة، أذكر بعض النصوص التى فيها الإشارة إلى ما وقع بين الصحابة من الاقتتال وبما وصفوا به فيها وتلك النصوص هى[1]:

١ - قال تعالى: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

ففى هذه الآية أمر الله تعالى بالإصلاح بين المؤمنين إذا ما جرى بينهم قتال، لأنهم إخوة، وهذا الاقتتال لا يخرجهم عن وصف الإيمان حيث سماهم الله - عز وجل - مؤمنين وأمر بالإصلاح بينهم، وإذا كان حصل اقتتال بين عموم المؤمنين ولم يخرجهم ذلك من الإيمان، فأصحاب رسول الله ﷺ الذين اقتتلوا فى موقعة الجمل وبعدها أول من يدخل فى اسم الإيمان الذى ذكر فى هذه الآية، فهم لا يزالون عند ربهم مؤمنين إيمانًا حقيقيًا، ولم يؤثر ما حصل بينهم من شجار فى إيمانهم بحال لأنه كان عن اجتهاد[2].

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة الكرام (٢/٧٢٧)، تنزيه لخال المؤمنين معاوية بن أبى سفيان من الظلم والضيق فى مطالبته بدم أمير المؤمنين عثمان، ص (٤١).

(٢) العواصم من القواصم ص (١٦٩، ١٧٠)، أحكام القرآن (٤/١٧١٧).

٢ - عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»[1]. والفرقة المشار إليها فى الحديث هى ما كان من الاختلاف بين على ومعاوية رضى الله عنهما، وقد وصف ﷺ الطائفتين معًا بأنهما مسلمتان وأنهما متعلقتان بالحق، والحديث علم من أعلام النبوة؛ إذ وقع الأمر طبق ما أخبر به عليه الصلاة والسلام، وفيه الحكم بإسلام الطائفتين: أهل الشام وأهل العراق، لا كما يزعمه فرقة الرافضة والجهلة من تكفيرهم أهل الشام، وفيه أن أصحاب على أدنى الطائفتين إلى الحق، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن عليًا هو المصيب، وإن كان معاوية مجتهدًا وهو مأجور إن شاء الله، ولكن على هو الإمام فله أجران كما ثبت فى صحيح البخارى: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»[2].

٣ - وعن أبى بكرة قال: بينما النبى ﷺ يخطب جاء الحسن فقال النبى ﷺ: «ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»[3]. ففى هذا الحديث شهادة من النبى ﷺ بإسلام الطائفتين أهل العراق وأهل الشام، والحديث فيه رد واضح على الخوارج الذين كفروا عليًا ومن معه ومعاوية ومن معه بما تضمنه الحديث من الشهادة للجميع بالإسلام. ولذا كان يقول سفيان بن عيينة: قوله: فئتين من المسلمين يعجبنا جدًا. قال البيهقى: وإنما أعجبهم لأن النبى ﷺ سماهم جميعًا مسلمين، وهذا خبر من رسول الله ﷺ بما كان من الحسن بن على بعد وفاة على فى تسليمه الأمر إلى معاوية بن أبى سفيان[4].

فهذه الأحاديث المتقدم ذكرها فيها الإشارة إلى أهل العراق الذين كانوا مع على وإلى أهل الشام الذين كانوا مع معاوية بن أبى سفيان، وقد وصفهم النبى ﷺ بأنهم من أمته[5]. كما وصفهم بأنهم جميعًا متعلقون بالحق لم يخرجوا عنه، كما شهد لهم ﷺ بأنهم مستمرون على الإيمان ولم يخرجوا عنه بسبب القتال الذى حصل بينهم، وقد دخلوا تحت عموم قوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا

---

(١) مسلم (٢/ ٧٤٥).
(٢) البخارى مع شرحه فى فتح البارى (١٣/ ٣١٨).
(٣) البخارى، ك الفتن رقم (٧١٠٩).
(٤) الاعتقاد للبيهقى، ص (١٩٨)، فتح البارى (١٣/ ٦٦).
(٥) فى صحيح مسلم (٢/ ٧٤٦) تكون فى أمتى فرقتان.

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات:٩]. وقد قدمنا أن مدلول الآية ينتظمهم رضى الله عنهم أجمعين، فلم يكفروا ولم يفسقوا بقتالهم بل هم مجتهدون متأولون، وقد بين الحكم فى قتالهم ذلك على بن أبى طالب رضى الله عنه كما مر معنا. فالواجب على المسلم أن يسلك فى اعتقاده فيما حصل بين الصحابة الكرام رضى الله عنهم مسلك الفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة، وهو الإمساك عما حصل بينهم -رضى الله عنهم- ولا يخوض فيه إلا بما هو لائق بمقامهم، وكتب أهل السنة مملوءة ببيان عقيدتهم الصافية النقية فى حق أولئك الصفوة المختارة، وقد حددوا موقفهم من تلك الحرب التى وقعت بينهم فى أقوالهم الحسنة التى منها[1]:

١- سئل عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى عن القتال الذى حصل بين الصحابة فقال: تلك دماء طهر الله يدى منها، أفلا أطهر بها لسانى؟! مثل أصحاب رسول الله ﷺ مثل العيون، ودواء العيون ترك مسها[2]. قال البيهقى معلقًا على قول عمر ابن عبد العزيز رحمه الله تعالى: هذا حسن جميل لأن سكوت الرجل عما لا يعنيه هو الصواب[3].

٢- سئل الحسن البصرى رحمه الله تعالى عن قتال الصحابة فيما بينهم فقال: قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا[4]. ومعنى قول الحسن هذا أن الصحابة كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا، وما علينا إلا أن نتبعهم فيما اجتمعوا عليه، ونقف عندما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأيا منا، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله - عز وجل - إذ كانوا غير متهمين فى الدين[5].

٣- سئل جعفر بن محمد الصادق عما وقع بين الصحابة فأجاب بقوله: أقول ما قال الله: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢][6].

٤- قال الإمام أحمد رحمه الله بعد أن قيل له: ما تقول فيما كان بين على ومعاوية قال: ما أقول فيهم إلا الحسنى[7]، وعن إبراهيم بن آرز الفقيه قال

---

(١) عقيدة أهل السنة فى الصحابة (٢/ ٧٣٢).
(٢) الإنصاف للباقلانى، ص(١٦)، الطبقات (٥/ ٣٩٤).
(٣) مناقب الشافعى، ص (١٣٦).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣٢).
(٥) المصدر نفسه (١٦/ ٣٣٢).
(٦) الإنصاف للباقلانى، ص (١٦٤).
(٧) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى، ص (١٦٤).

حضرت أحمد بن حنبل وسأله رجل عما جرى بين على ومعاوية، فأعرض عنه فقيل له : يا أبا عبد الله هو رجل من بنى هاشم فأقبل عليه فقال: اقرأ ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ [البقرة: ١٤١].

٥- وقال ابن أبى زيد القيروانى فى صدد عرضه لما يجب أن يعتقده المسلم فى أصحاب رسول الله ﷺ، وما ينبغى أن يذكروا به، فقال : وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكره، والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج، ويظن بهم أحسن المذاهب[(١)].

٦- وقال أبو عبد الله بن بطه أثناء عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة: ومن بعد ذلك نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ، فقد شهدوا المشاهد معه وسبقوا الناس بالفضل، فقد غفر الله لهم وأمرنا بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم، وفرض ذلك على لسان نبيه وهو يعلم ما سيكون منهم وأنهم سيقتتلون، وإنما فضلوا على سائر الخلق لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم وكل ما شجر بينهم مغفور لهم[(٢)].

٧- قال أبو بكر بن الطيب الباقلانى: ويجب أن يعلم أن ماجرى بين أصحاب النبى ﷺ ورضى الله عنهم من المشاجرة نكف عنه ونترحم على الجميع ونثنى عليهم، ونسأل الله تعالى لهم الرضوان والأمان والفوز والجنان، ونعتقد أن علياً عليه السلام أصاب فيما فعل وله أجران،وأن الصحابة رضى الله عنهم ما صدر منهم كان باجتهاد ،فلهم الأجر ولا يفسقون ولايبدعون. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا﴾ [الفتح: ١٨] وقوله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» فإذا كان الحاكم فى وقتنا له أجران على اجتهاده فما ظنك باجتهاد من رضى الله عنهم ورضوا عنه،ويدل على صحة هذا القول قوله ﷺ للحسن رضى الله عنه: «إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله

---

(١) رسالته المشهورة مع شرحها الثمر الدانى، ص (٢٣).

(٢) الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة، ص (٢٦٨).

به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[1]، فأثبت العظمة لكل واحدة من الطائفتين، وحكم لهما بصحة الإسلام، وقد وعد الله هؤلاء القوم بنزع الغل من صدورهم بقوله تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخوانا على سُرُرٍ مُتقابلين﴾ [الحجر:٤٧]... إلى أن قال: ويجب الكف عمّا شجر بينهم والسكوت عنه[2].

٨- وقال ابن تيمية فى صدد عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة فيما شجر بين الصحابة: يمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المروية فى مساويهم منها ما هو كذب، ومنها ما هو زيد فيه، ونقص، وغير عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون،وإما مجتهدون مخطئون[3].

٩- وقال ابن كثير: أما ما شجر بينهم بعده -عليه الصلاة والسلام- فمنه ما وقع من غير قصد كيوم الجمل، ومنه ما كان عن اجتهاد كيوم صفين، والاجتهاد يخطئ ويصيب ولكن صاحبه معذور وإن أخطأ ومأجور أيضًا، وأما المصيب فله أجران[4].

١٠- وقال ابن حجر: واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك، ولو عرف المحق منهم لأنهم لم يقاتلوا فى تلك الحروب إلا عن اجتهاد بل ثبت أنه يؤجر أجرًا واحدًا،وأن المصيب يؤجر أجرين[5].

فأهل السنة مجمعون على وجوب السكوت عن الخوض فى الفتن التى جرت بين الصحابة رضى الله عنهم بعد قتل عثمان، والترحم عليهم وحفظ فضائل الصحابة والاعتراف لهم بسوابقهم، ونشر محاسنهم رضى الله عنهم و أرضاهم[6].

تاسعًا: تغير الموازين لصالح معاوية بعد معركة صفين:

بعد معركة صفين بدأت الموازين تتبدل لصالح معاوية رضى الله عنه، فقد خرج الخوارج من جيش على رضى الله عنه،وانشغل بقتالهم، بينما ازداد أمر معاوية

---

(١) البخارى . ك الفتن رقم (٧١٠٩).

(٢) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولايجوز الجهل به، ص (٦٧- ٦٩).

(٣) العقيدة الواسطية مع شرحها لمحمد خليل هراس، ص (١٧٣).

(٤) الباعث الحثيث، ص (١٨٢).

(٥) فتح البارى (١٣/ ٦٣٤)، عقيدة أهل السنة (٢/ ٧٤٠).

(٦) عقيدة أهل السنة (٢/ ٧٤٠).

قوة لا سيما بعد انتهاء أمـر التحكيم، وعدم الوصول إلى حل جذرى وكان معاوية رضى الله عنه يعمل بشتى الوسائل سراً وعلانيـة على إضعاف جانب أمير المؤمنين على رضى الله عنه، واستـغل ما أصاب جيـشه من تفكك وخلاف، فأرسل جـيشًا إلى مصر بقيـادة عمرو بن العاص رضى الله عنه، سيطر عليها وضمـها إليه، وقد ساعده على ذلك عدة أمور منها:

١- انشغال أمير المؤمنين على بالخوارج.

٢- عامل أمـير المؤمنين على رضى الله عنه على مصر - مـحمد بن أبى بكر- لم يكن على قدر من الدهاء كسلفه قيس بن سـعد الساعدى الأنصارى، فدخل فى حرب مع المطالبين بدم عثمان ولم يسايسهم، كما كان يصنع الوالى السابق فهزموه.

٣- اتفـاق مـعاوية مـع المطالبـين بدم عثـمـان رضى الله عنه فى مـصـر فى الرأى، فساعده فى السيطرة عليها[١].

٤- بُعد مصر عن مركز أمير المؤمنين على رضى الله عنه وقربها من الشام.

٥- طبيعتهـا الجغرافية فهى متصلة بأرض الشـام عن طريق سيناء وتمثل امتدادًا طبيعيًـا، وقد أضافت مصر قوة كـبيرة لمعاوية رضى الله عنه، قوة بشريـة واقتصادية كبيرة، وكذلك أرسل معاوية بعـوثه إلى شمال الجزيرة الغربية، ومكة والمدينة، وإلى اليمن ولكن لم تلبث هذه البعوث أن ردت على أعقـابها عندما أرسل أمير المؤمنين علىٌّ من يصدها[٢]، وعمل معاوية رضى الله عنه على استمـالة كبار أعيان القبائل وعمال على رضى الله عنه، فقد حاول سـحب قيس بن سعد رضى الله عنه عامل علىّ على مصر إليه فلم يستطع، ولكنه استطاع أن يثير شك حاشية على رضى الله عنه ومسـتشاريه فيه فـعزله[٣]، وكان عـزل سعد عن ولاية مـصر مكسـبًا كبـيرًا لمعاوية، كما حاول سحب زياد بن أبيه عامل على رضى الله عنه على فارس ففشل فى ذلك[٤]، وقد استطاع معاوية رضى الله عنه أن يؤثر على بعض الأعيان والولاة بسبب ما يمنيهم ويعدهم به، ولما يرونه من علو أمـر معاوية وتفرق أمر على رضى

---

(١) الطبقات (٣/ ٨٣) خلافة على، لعبد الحميد، ص (٣٥١) سند صحيح.

(٢) تاريخ خليفة، ص (١٩٨) بدون سند. (٣) ولاة مصر، ص (٤٥، ٤٦).

(٤) الاستيعاب (٢/ ٥٢٥ ، ٥٢٦).

الله عنه؛ إذ يقول فى إحدى خطبه: ألا إن بسرًا قد اطلع من قبل معاوية،ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهـرون عليكم باجتماعهم على باطلـهم وتفرقكم عن حقكم، وبطاعتهم أميرهم ومـعصيتكم أميركم،وبأدائهم الأمانة وبخيـانتكم،استعملت فلانًا فغلَّ وغدر وحمل المال إلى مـعاوية،واستعملت فلانًا فـخان وغدر وحمل المال إلى معاوية، حتى لو ائتمنت أحدهم على قدح خشيت على عِلاَقَتِه،اللهم إنى أبغضتهم وأبغضونى، فأرحهم منى وأرحنى منهم[1]. ولم يستسلم أمير المؤمنين على رضى الله عنه لهذه المصائب،وهذا التقاعس،والتخاذل فـقد بذل جهده فى استنهاض همة جيشه بكل ما أوتى من علم وفصاحة وبيان،فخطبه الحماسية المشهورة التى اشتهرت عنه،وتعتبر من عيون التراث لم يقلهـا من فراغ أو خيال، بل مرّ تجرعه،وواقع أليم عاصره، ولقد ذكرت منها فى كتابى عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه[2].

عاشرًا: المهادنة بين أمير المؤمنين على ومعاوية رضى الله عنهما:

بالرغم من كل هذه المحـاولات والجهود المضنيـة لم يستطع أميـر المؤمنين على رضى الله عنه أن يحـقق مايـريد؛ إذ لم يستطع أن يغـزو الشـام بسبب التـفكك والتصدع الذى حـدث فى داخل جيشه، وتفرق كلمتـهم، وظهور الأهواء،فاضطر أمير المؤمـنين على رضى الله عنه فى سنة أربعين للهجـرة أن يوافق لمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه على أن يكون العراق له،والشام لمعاوية، ولا يدخل أحدهما على صاحبه فى عمله بجيش ولا غارة ولا غزو[3]،قال الطبرى فى تاريخه : وفى هذه السنة -٤٠هـ- جـرت بين على وبين معـاوية رضى الله عنهـما المهادنـة بعد مكاتبات جـرت بينهما، يطول بذكـرها الكتاب على وضع الحرب بينهـما،ويكون لعلى العراق،ولمعاوية الشام،فلا يدخل أحدهمـا على صاحبه فى عمله بجيش ولا غارة ولا غزو[4]، ويبدو أن هذه المهادنة لم تستمـر، فمعاوية أرسل بسر بن أرطأة إلى الحجاز واليمن فى العام الذى استشهد فيه على رضى الله عنه[5].

---

(١) التاريخ الصغير (١/ ١٢٥) بسند منقطع وله شواهد.

(٢) أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب (٢/ ١٠٢٠).

(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٥٦)، خلافة على، عبدالحميد، ص (٣٥٦).

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٥٦).

(٥) التاريخ الصغير للبخارى (١/ ٤١)، وخلافة على أبى طالب، ص (٤٣١).

الحادى عشر: استشهاد أمير المؤمنين على واستقبال معاوية خبر مقتله:

ولما لم يتمكن على رضى الله عنه من تجهيز الجيش بما يصبو ويريد، ورأى خذلانهم، كره الحياة وتمنى الموت، وكان يتوجه إلى الله بالدعاء ويطلب منه عز وجل أن يعجل منيته، فمما روى عنه أنه خطب يومًا فقال: اللهم إنى قد سئمتهم وسئمونى، ومللتهم وملونى، فأرحنى منهم وأرحهم منى، فما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم، ووضع يده على لحيته[1]، وقد ألح علىٌّ رضى الله عنه فى الدعاء فى أيامه الأخيرة، فعن جندب قال: ازدحموا على علىٍّ رضى الله عنه حتى وطئوا على رحاله، فقال: اللهم إنى قد مللتهم وملونى، وأبغضتهم وأبغضونى، فأرحنى منهم وأرحهم منى[2]، وفى رواية أخرى عن أبى صالح قال: شهدت عليًا وضع المصحف على رأسه حتى سمعت تقعقع الورق، فقال: اللهم إنى سألتهم ما فيه فمنعونى، اللهم إنى قد مللتهم وملونى، وأبغضتهم وأبغضونى، وحملونى على غير أخلاقى، فأبدلهم بى شرًا منى، وأبدلنى بهم خيرًا منهم، ومث قلوبهم ميثة الملح فى الماء[3]، وفى رواية: فلم يلبث إلا ثلاثًا أو نحو ذلك، حتى قتل رحمه الله[4]، وقال الحسن بن على: قال لى على رضى الله عنه: إن رسول الله ﷺ سنح لى الليلة فى منامى، فقلت: يا رسول الله ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدد؟[5] قال: ادع عليهم، قلت: اللهم أبدلنى بهم من هو خير منهم، وأبدلهم بى من هو شر منى لهم. قال الحسن رضى الله عنه: فخرج فضربه الرجل[6].

ولما جاء خبر قتل على إلى معاوية رضى الله عنهما جعل يبكى، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال : ويحك إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم[7]. وكان معاوية يكتب فيما ينزل به يسأل على بن أبى طالب رضى الله عنه عن ذلك، فلما بلغه قتله قال: ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبى طالب، فقال له أخوه عتبة: لا يسمع هذا منك أهل الشام، فقال له: دعنى عنك[8]، وقد

---

(١) مصنف عبدالرزاق (١٠/ ١٥٤) بإسناد صحيح، الطبقات(٣/ ٤).

(٢) الآحاد والمثانى لابن أبى عاصم (١/ ٣٧) بإسناد حسن، خلافة على، ص (٤٣٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٤٤).

(٤) المحن، ص (٩٩) لأبى العرب، وخلافة على، لعبد الحميد، ص (٤٣٢).

(٥) الأود: العوج، اللدد: الخصومة.

(٦) تاريخ الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين، ص (٦٤٩).

(٧) البداية والنهاية (٨/ ١٣٣).

(٨) الاستيعاب (٣/ ١١٠٨).

طلب معاوية رضى الله عنه فى خلافته من ضرار الصُّدائى أن يصف له عليًا رضى الله عنه فقال: أعفنى يا أمير المؤمنين، قـال: لتصفنَّه، قال: أما إذا لابد من وصفه فكان والله بعيد المدى، شديد القُوى، يقول فصلاً[(١)]، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبـه، وتنطق الحكمة من نواحيه، ويـسـتوحش من الدنيا وزهرتها، ويـستأنس بالليل ووحشته، وكان غزير العبرة، طويل الـفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن، وكان فينا كأحَدنـا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن -والله- مع تقريبه إيانا وقربه منا- لانكاد نكلمه هيبة له، يعظِّم أهل الدين ويُقرِّب المساكين، لا يطمع القويُّ فى باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله. وأشهد أنى قد رأيته فى بعض مواقفه - وقد أرخى الليل سُدولَه[(٢)]، وغارت نجومه- قابضًا على لحيته، يتململ تململ السليم[(٣)]، ويبكى بكاء الحزين، ويقول : يادنيا غُرِّى غيرى، إلىَّ تعرضتِ أم إلىَّ تشـوَّفتِ؟ هيهات هيـهات، قد باينتك ثلاثًـا لا رجعة فيـها، فعمـرك قصير، وخطرك كثـير، آه من قلة الزاد، وبُعد السفـر، ووحشة الطريق، فبكى مـعاوية وقال: رحم الله أبا الحـسن، كان والله كذلك، فكيف حـزنك عليه ياضرار؟ قال: حزن من ذبح ولدها وهو فى حجرها[(٤)].

وعن عمر بن عبدالعزيز -رحمه الله- قال: رأيت رسول الله ﷺ فى المنام وأبو بكر وعمـر جالسان عنده فـسلمت عليه وجلست، فـبينما أنـا جالس إذ أتى بعلى ومعاوية فأدخلا بيتًا وأجيف[(٥)] الباب وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج على وهو يقول: قُـضى لى ورب الكعبة، ثم مـا كان بأسرع من أن خرج مـعاوية وهو يقول: غُفر لى ورب الكعبة[(٦)].

---

(١) الاستيعاب (٣/ ١١٠٧).

(٢) سدوله : سدلته.

(٣) السليم: الملدوغ، كانت العرب تسميه كذلك تفاؤلاً بشفائه.

(٤) الاستيعاب (٣/ ١١٠٨).

(٥) أجيف الباب : رُدَّ وأغلق.

(٦) البداية والنهاية (٨/ ١٣٣).

المبحث الرابع

معاوية رضى الله عنه فى عهد الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم

كانت بيعة الحسن بن على رضى الله عنهما فى شهر رمضان من سنة ٤٠ هـ، وذلك بعد استشهاد أمير المؤمنين على بن أبى طالب- رضى الله عنه- على يد الخارجى عبد الرحمن بن ملجم المرادى[١]، وقد اختار الناس الحسن بعد والده، ولم يعين أمير المؤمنين أحدًا من بعده، فعن عبد الله بن سبع قال: سمعت عليًا يقول: لتُخضبن هذه من هذا[٢]، فما ينتظر بى الأشقى[٣]. قالوا: يا أمير المؤمنين، فأخبرنا به نبير[٤] عترته، قال: إذن والله تقتلون بى غير قاتلى. قالوا: فاستخلف علينا، قال: لا، ولكن أترككم إلى ما ترككم إليه رسول الله ﷺ، قالوا: فما تقول لربك إذا أتيته؟ -وقال وكيع[٥] مرة-: إذا لقيته؟ قال: أقول: اللهم تركتنى فيهم ما بدا لك، ثم قبضتنى إليك وأنت فيهم، فإن شئت أصلحتهم وإن شئت أفسدتهم[٦]، وفى رواية: أقول: اللهم استخلفتنى فيهم ما بدا لك ثم قبضتنى وتركتك فيهم[٧]، وبعد مقتل على صلَّى عليه الحسن بن على وكبر عليه أربع تكبيرات، ودفن بالكوفة، وكان أول من بايعه قيس بن سعد، قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وقتال المُحلِّين، فقال له الحسن رضى الله عنه: على كتاب الله وسنة نبيه، فإن ذلك يأتى من وراء كل شرط؛ فبايعه وسكت، وبايعه الناس[٨]، وقد اشترط الحسن بن على على أهل العراق عندما أرادوا بيعته فقال لهم: إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت[٩]، وفى رواية قال لهم: والله لا أبايعكم إلا على ما أقول لكم، قالوا:

---

(١) الطبقات (٣/ ٣٥-٣٨) تحقيق د. إحسان عباس.
(٢) أى: لتخضبن لحيته من دم رأسه.
(٣) مجمع الزوائد (٩/ ١٣٩)، مسند أحمد (٢/ ٣٢٥) حسن لغيره.
(٤) نبير عترته: نهلك أقرباءه، لسان العرب (٤/ ٥، ٥٣٨).
(٥) وكيع بن الجراح، ثقة حافظ عابد، التقريب، ص (٥٨١).
(٦) مسند أحمد (٢/ ٣٢٥) حسن لغيره، الموسوعة الحديثية.
(٧) كشف الأستار عن زوائد البزار (٣/ ٤ ٢).
(٨) تاريخ الطبرى (٦/ ٧٧).
(٩) المصدر نفسه (٦/ ٧٧).

ما هو؟ قال: تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت[1]،وفى رواية ابن سعد: إن الحسن بن على بن أبى طالب بايع أهل العراق بعد علىٍّ على بيعتين، بايعهم على الإمرة، وبايعهم على أن يدخلوا فيما دخل فيه، ويرضوا بما رضى به[2].

ويستفاد من الروايات السابقة ابتداء الحسن رضى الله عنه فى التمهيد للصلح فور استخلافه، وقد باشر الحسن بن على سلطته كخليفة، فرتب العمال، وأمّر الأمراء، وجند الجنود، وفرق العطايا، وزاد المقاتلة فى العطاء مائة مائة، فاكتسب بذلك رضاءهم[3]، وكان فى وسعه أن يخوض حربًا لاهوادة فيها ضد معاوية، وكانت شخصيته الفذة من الناحية العسكرية والأخلاقية، والسياسية، والدينية تساعده على ذلك مع وجود عوامل أخرى، كوجود قيس بن سعد بن عبادة، وحاتم بن عدى الطائى وغيرهما فى صفه من الذين لهم من القدرات القيادية الشىء الكثير، إلا أن الحسن بن على، مال إلى السلم والصلح لحقن الدماء، وتوحيد الأمة، والرغبة فيها عند الله، وزهده فى الملك، وغير ذلك من الأسباب.

وقد قاد الحسن بن على مشروع الإصلاح الذى توّج بوحدة الأمة، وقد تنازل الحسن بن على من موقف قوة، وهناك دلائل تشيرُ إلى ذلك منها:

١ - الشرعية التى كان يملكها الحسن:

لقد اختير الحسن بن على بعد والده اختيارًا شوريًا، وأصبح الخليفة الشرعى على الحجاز واليمن والعراق، وكل الأماكن التى كانت خاضعة لوالده، وقد استمر فى خلافته ستة أشهر، وتلك المدة تدخل ضمن الخلافة الراشدة التى أخبر عنها رسول الله ﷺ بأن مدتها ثلاثون سنة ثم تكون ملكًا، فقد روى الترمذى بإسناده إلى رسول الله ﷺ حيث قال: «الخلافة فى أمتى ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك»[4]، وقد علق ابن كثير على هذا الحديث فقال: إنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن على، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية فى ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين سنة، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ، فإنه توفى فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة من

(١) الطبقات، تحقيق د. محمد السلمى (١/ ٢٨٦، ٢٨٧).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٣١٦، ٣١٧)

(٣) تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى، ص (٦٧)، مقاتل الطالبيين، ص (٥٥).

(٤) سنن الترمذى مع شرحها تحفة الأحوذى (٦/ ٣٩٥ - ٣٩٧) حديث حسن.

الهجرة، وهذا من دلائل النبوة صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليمًا[1]، وبذلك يكون الحسن بن على خامس الخلفاء الراشدين[2]، وقد تحدث عن شرعية الحسن بن على بالخلافة كثير من علماء أهل السنة منهم أبو بكر بن العربي[3]، والقاضي عياض[4]، وابن كثير[5]، وشارح الطحاوية[6]، والمناوي[7]، وابن الحجر الهيثمي[8]، ولو أراد الحسن أن يتعب معاوية بحكم أن الشرعية معه لأمكن ذلك، ولقام بترتيب حملة إعلامية منظمة فى أوساط أهل الشام، لكسب ثقتهم، أو على الأقل زعزعة موقف معاوية بينهم، فقد كان يملك قوة معنوية ونفوذًا روحيًا لا يستهان به بحكم الشرعية التى يستند إليها، ولكونه حفيد الرسول ﷺ.

٢- تقييم الحسن بن على للموقف وقدراته القيادية:

فعندما قال له نفير بن الحضرمى: إن الناس يزعمون إنك تريد الخلافة، فقال: كانت جماجم العرب بيدى يسالمون من سالمت، ويحاربون من حاربت، فتركتها ابتغاء وجه الله[9]، فهذه شهادة الحسن رضى الله عنه، بأنه كان فى وضع قوى، وبأن أتباعه على استعداد لمحاربة من يريد أو مسالمتهم، كما كان -رضى الله عنه- يملك من الملكات الخطابية والفصاحة البيانية، وصدق العاطفة، وقوة التأثير، والقرب من رسول الله ﷺ ما يجعله أكثر قوة وتماسكًا، ودليلنا على ذلك، ما قام به من استنفار أهل الكوفة للخروج مع والده، وكان أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه قد ثبط الناس ونهاهم عن الخروج والقتال والفتنة، وأسمعهم ما سمعه من رسول الله من التحذير من الاشتراك فى الفتنة[10]، فقد أرسل على -رضى الله عنه- قبل الحسن محمد بن أبى بكر، ومحمد بن جعفر، ولكنهما لم ينجحا فى مهمتهما، وأرسل على بعد ذلك هشام بن عقبة بن أبى وقاص، ففشل فى مهمته لتأثير أبى موسى عليهم[11]، وأتبعه على بعبد الله بن عباس، فأبطأوا عليه،

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ١٣٤).

(٢) مآثر الإنافة (١/ ١٠٥)، مرويات خلافة معاوية، ص(١٥٥). (٣) أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٧٢٠).

(٤) شرح النووى على صحيح مسلم (١٢/ ٢٠١). (٥) البداية والنهاية (١١/ ١٣٤).

(٦) شرح الطحاوية، ص (٥٤٥). (٧) فيض القدير (٢/ ٤٠٩).

(٨) الصواعق المحرقة (٢/ ٣٩٧). (٩) البداية والنهاية (١١/ ٢٠٦).

(١٠) تاريخ الطبرى (٥/ ٥١٤)، مصنف بن أبى شيبة (١٥/ ١٢) إسناده حسن.

(١١) خلافة على بن أبى طالب، ص (١٤٤)، لعبد الحميد، سير أعلام (٣/ ٤٨٦).

فأتبعه بعمار بن ياسر والحسن[1]، وكان للحسن أثر واضح، فقد قام فى الناس خطيبًا وقال: أيها الناس، أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يليه أولو النهى[2] أمثل فى العاجلة، وخير فى العاقبة، فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به[3] وابتليتم، ولبى كثير من أهل الكوفة، وخرجوا مع عمار والحسن إلى على ما بين ستة إلى سبعة آلاف رجل[4]، ولا ننسى أن أبا موسى الأشعرى كان واليًا على الكوفة، ومن قيادات العراق المحبوبين من عهد عمر، وهو من هو فى علمه وزهده ومكانته عند الناس، ومع ذلك فقد استطاع الحسن أن يكسب أهل الكوفة لصفه وخرجوا معه.

٣- وجود بعض القيادات الكبيرة فى صفه:

كان معسكر الحسن بن على فيه من القيادات الكبيرة، كأخيه الحسين، وابن عمه عبد الله بن جعفر، وقيس بن سعد بن عبادة -وهو من دهاة العرب-، وعدى بن حاتم وغيرهم، فلو أراد الخلافة لأعطى المجال لقياداته للتحرك نحو تعبئة الناس والدخول فى الحرب مع معاوية، وعلى الأقل يكون خليفة على دولته إلى حين.

٤- معرفته لنفسية أهل العراق:

كان له قدرات خاصة فى التعامل مع أهل العراق ومعرفة نفوسهم، ولذلك زاد لهم فى العطاء منذ بداية خلافته، كما أن مهمته التى قادها فى نجاح مشروعه الإصلاحى كانت أصعب من حربه لمعاوية، ومع ذلك تغلب على الكثير من العوائق التى واجهته، فقد حاولوا قتله، ورفض بعض الناس الصلح، وغير ذلك من العوائق إلا أنه تغلب عليها كلها، وحقق الأهداف التى رسمها من حقن الدماء، ووحدة الأمة، وأمن السبيل، وعودة حركة الفتوح.. إلخ مما يدل على قدراته القيادية الفذّة.

٥- تقييم عمرو بن العاص ومعاوية لقوات الحسن رضى الله عنهم:

فقد جاء فى البخارى: استقبل -والله- الحسن بن على معاوية بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: إنى أرى لا تُولى حتى تقتل أقرانها. فقال

(١) فتح البارى (١٣/ ٥٣)، على بن أبى طالب للصلّابى (٢/ ٦٠).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٥١٦)، أولو النهى: أصحاب العقول.

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٥١٦).

(٤) مصنف عبد الرزاق (٥/ ٤٥٦، ٤٥٧) بسند صحيح للزهرى.

معاوية- وكان خير الرجلين-: أى عمرو، إن قُتل هؤلاء من لى بأمور الناس، من لى بنسائهم، من لى بضيعتهم؟ فبعث إليه رجلين من قريش من بنى عبد شمس -عبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز- فقال: اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه قولا له، واطلبا إليه[1].

أ- فعمرو بن العاص رضى الله عنه، القائد العسكرى الشهير، والسياسى المحنك والذى عركته الحروب يقول: إنى أرى كتائب لا تولى حتى تقتل أقرانها.

ب- وأما معاوية رضى الله عنه، فتقييمه للموقف العسكرى بأنه لا يستطيع أحد أن ينتصر ويحقق حسمًا عسكريًا إلا بعد خسائر فادحة للطرفين، ولا يستطيع معاوية حتى لو كان هو المنتصر أن يتحمل تركة الحرب من أرامل وأيتام وقتل خير المسلمين، وما يترتب على ذلك من مفاسد كبرى اجتماعية وسياسية واقتصادية وأخلاقية للأمة الإسلامية، ولذلك اختار معاوية شخصيتين كبيرتين من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن أصحاب النفوذ فى المجتمع الإسلامى ولهما حضور واحترام عند الحسن، وهما من قريش، فالشخصيتان اللتان أرسلهما معاوية رضى الله عنه تدل على حرصه على نجاح الصلح مع الحسن بأى ثمن ممكن، وقد ظل زمام الموقف بيد الحسن بن على رضى الله عنه ويد أنصاره، ولو لم يكن الحسن مرهوب الجانب لما احتاج معاوية إلى أن يفاوضه، ويوافق على ما طلب من الشروط والضمانات، ولكان عرف ضعف جانب الحسن، وانحلال قوته عن طريق عيونه، ولدخل الكوفة من غير أن يكلف نفسه مفاوضة أحد أو ينزل على شروطه ومطالبه[2].

كان الحسن بن على رضى الله عنه ذا خلق يجنح إلى السلم، وكان رضى الله عنه يملك رؤية إصلاحية واضحة المعالم، خضعت لمراحل وبواعث، وتغلب على العوائق، وكتب شروطه، وترتب على صلحه نتائج، وأصبح هذا الصلح من مفاخر الحسن على مر العصور وتوالى الأزمان، فكان فى صلحه مع معاوية وحقنه

---

(١) البخارى، ك الصلح رقم (٢٧٠٤).

(٢) دراسة فى تاريخ خلفاء الدولة الأموية، ص (٦١).

لدماء المسلمين، كعثمان فى جمعه للقرآن، وكأبى بكر فى حربه للمرتدين[1]، ولا أدل على ذلك فى كون هذا الفعل من الحسن يعد علمًا من أعلام النبوة، ما أخرجه البخارى من طريق أبى بكرة رضى الله عنه قال: رأيت النبى ﷺ على المنبر -والحسن بن على على جنبه- وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[2].

أولاً: أهم مراحل الصلح:

مر الصلح بمراحل من أهمها:

المرحلة الأولى: دعوة رسول الله ﷺ للحسن بأن يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، فتلك الدعوة المباركة دفعت الحسن رضى الله عنه إلى الإقدام على الصلح بكل ثقة وتصميم[3].

المرحلة الثانية: شرط البيعة الذى وضعه الحسن رضى الله عنه أساسًا لقبول مبايعة أهل العراق له، ذلك الشرط الذى نص على أنهم يسالمون من سالم، ويحاربون من يحارب[4].

المرحلة الثالثة: وقوع المحاولة الأولى لاغتيال الحسن رضى الله عنه بعد أن كشف عن نيته فى الصلح مع معاوية رضى الله عنه، وهذه المحاولة يبدو إنها قد جرت بعد استخلافه بقليل[5].

المرحلة الرابعة: خروج الحسن بجيش العراق من الكوفة إلى المدائن، وإرساله للقوة الضاربة من الجيش، وهى الخميس إلى مسكن بقيادة قيس بن سعد بن عبادة[6].

المرحلة الخامسة: خروج معاوية رضى الله عنه من الشام وتوجهه إلى العراق بعد أن وصل خبر خروج الحسن من الكوفة إلى المدائن بجيوشه.

المرحلة السادسة: تبادل الرسل بين الحسن ومعاوية، ووقوع الصلح بينهما رضوان الله عليهما.

---

(1) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (134).
(2) البخارى رقم (7109).
(3) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (317).
(4) المصدر نفسه، ص (156).
(5) المصدر نفسه، ص (126).
(6) المصدر نفسه، ص (128).

المرحلة السابعة: محاولة اغتيال الحسن رضى الله عنه، فبعد نجاح مفاوضات الصلح بين الحسن ومعاوية رضى الله عنهما، شرع الحسن رضى الله عنه فى تهيئة نفوس أتباعه على تقبل الصلح الذى تم، فقام فيهم خطيبًا ليبين لهم ما تم بينه وبين معاوية، وفيما هو يخطب هجم عليه بعض معسكره محاولين قتله، لكن الله سبحانه وتعالى أنجاه كما أنجاه من قبل(1).

المرحلة الثامنة: تنازل الحسن بن على عن الخلافة وتسليمه الأمر إلى معاوية رضوان الله عليهم أجمعين، بعد أن أنجى الله سبحانه وتعالى الحسن بن على من الفتنة التى وقعت فى معسكره، ترك المدائن وسار إلى الكوفة وخطب فى أهلها فقال: أما بعد فإن أكيس الكيس(2) التُّقى، وإن أحمق الحمق الفجور، وإن هذا الأمر الذى اختلفت فيه أنا ومعاوية؛ إما كان حقًا لى تركته لمعاوية إرادة إصلاح هذه الأمة وحقن دمائهم، أو يكون حقًا كان لامرئ كان أحق به منى ففعلت ذلك ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾(3) [الأنبياء: ١١١].

ثانيًا: أهم أسباب ودوافع الصلح:

وأما أهم الأسباب والدوافع للصلح الذى تمَّ بين الحسن ومعاوية فهى:

١ - الرغبة فيما عند الله وإرادة صلاح هذه الأمة: قال الحسن بن على رضى الله عنه ردًا على نفير الحضرمى عندما قال له: إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة. فقال: كانت جماجم العرب بيدى، يسالمون من سالمت، ويحاربون من حاربت فتركتها ابتغاء وجه الله(4).

٢ - دعوة الرسول ﷺ له: إن دعوة الرسول ﷺ بأن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين(5) دفعت الحسن إلى التخطيط والاستعداد النفسى للصلح والتغلب على العوائق التى فى الطريق، فقد كان هذا الحديث الكلمة الموجهة الرائدة للحسن

---

(1) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (١٣٩).

(2) أكيس: أعقل، والكيس: العقل، لسان العرب (٢٠١/١٦)، ومن أراد التوسع فليراجع خلافة مرويات معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (١٢٦- ١٤٩).

(3) المعجم الكبير (٢٦/٣) إسناده حسن.

(4) البداية والنهاية (٢٠٦/١١).

(5) البخارى رقم (٧١٠٩).

فى اتجاهاته وتصـرفاته ومنهج حيـاته، فقد حلت فى قـرارة نفسه واسـتولت على مشاعـره وأحاسيسه واخـتلطت بلحمه ودمه، ومن خـلال هذا التوجيه واستـيعابه وفهـمه له بنى مـشروعـه الإصلاحى وقـسم مراحله، وكـان متيـقنًا من نتـائجه، فالحديث النبوى كان دافعًا أساسيًا وسببًا مركزيًا فى اندفاع الحسن للإصلاح.

٣- حقن دماء المسلمين: قال الحسن رضى الله عنـه: . . . خشيت أن يجئ يوم القيامة سبعون ألفًا، أو أكـثر، أو أقل، كلهم تنضح أوداجهم دمًا، كلهم يستعدى الله فيم هُرِيقَ دمه؟[1] وقال رضى الله عنه: ألا إن أمر الله واقع إذ لا دافع له وإن كره الناس، إنى ما أحببت أن لـى من أمة محمد مثقال حبـة من خردل يهراق فيه محجمة من دم، قد علمت ما ينفعنى ممًّا يضرنى، الحقوا بطيتكم[2].

٤- حرصه على وحدة الأمة: قام الحسن بن على خطيبًا رضى الله عنه فى إحدى مراحل الصـلح فقال: أيهـا الناس، إنى قد أصـبحت غـير مـحتمل على مـسلم ضغينة[3]، وإنى ناظر لكم كنظرى لنفـسى، وأرى رأيًا، فلا تردوا علىَّ رأيى، إن الذى تكرهون من الجماعة أفـضل مما تحبون من الفرقة[4]، وقد تحقق بفضل الله. ثم حرص الحسـن على وحدة الأمة ذلك المقصد العظيم، فقد ارتأى رضى الله عنه أن يتنازل عن الخلافة حقنًـا لدماء المسلمين، وتجنبًا للمفاسد العظـيمة التى ستلحق الأمة كلها فى المآل إذا بقى مصرًا على موقفه، من استمرار الفتنة، وسفك الدماء، وقطع الأرحام واضطراب الســبل، وتعطيل الثغور وغيـرها، وقد تحققت -بـحمد الله- وحدة الأمة بتنازله عن عرض زائل من أعـراض الدنيا حتى سمّى ذلك العام عام الجماعة[5]، وهذا يدل على فقه الحـسن فى معرفته لاعتبـار المآلات ومراعاته التصرفات.

٥- مقتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: ومن الأسباب التى دعت أمير المؤمنين الحسن بن على إلى الصلح ما رُوِّع به من مقتل أبيه، فقد ترك ذلك فراغًا كبيرًا فى جبهـة العراق، وأثر اغتيـاله على نفسية الحـسن رضى الله عنه، فترك فيـها حزنًا

---

(١) البداية والنهاية (١١/٢٠٦).

(٢) تاريخ دمشق (١٤/٨٩)، بطيتكم: جهتكم.

(٣) الضغينة: الحقد.

(٤) الأخبار الطوال، ص (٢٠٠).

(٥) اعتبارات المآلات ومراعاة نتائج التصرفات، ص (١٦٧).

وأسى شديدًا، فقد قتل هذا الإمام العظيم بدون وجه حق، ولم يرع الخوارج سابقته فى الإسلام وأفضاله العظيمة، وخدماته الجليلة التى قدمها للإسلام، فقد كانت حياته حافلة بالقيم والمثل والعمل على تكريس أحكام الشريعة على مستوى الدولة والشعب، لقد كان على رضى الله عنه معلمًا من معالم الهدى، وفارقًا بين الحق والباطل، فكان من الطبيعى أن يتأثر المسلمون لفقده. ويشعروا بالفراغ الكبير الذى تركه، فقد كان وقع مصيبة مقتله على المسلمين عظيمًا، فجللّهم الحزن، وفاضت مآقيهم بالدموع، ولهجت ألسنتهم بالثناء والترحم عليه، وكان مقتله سببًا فى تزهيد الحسن فى أهل العراق أولئك الذين غمرتهم مكارم أخلاق أمير المؤمنين وشرف صحبته، فأضلتهم الفتن والأطماع، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، ونستثنى من أولئك الصادقين المخلصين لدينهم وخليفتهم الرّاحل العظيم رضى الله عنه وأرضاه، فقد كان مقتله ضربة قوية وجهت لعهد الخلافة الراشدة وكانت من أسباب زوالها فيما بعد.

٦- شخصية معاوية: إن تسليم الحسن بن على الخلافة إلى معاوية مع أنه كان معه أكثر من أربعين ألفًا بايعوه على الموت، فلو لم يكن أهلاً لها لما سلمها السبط الطيب إليه ولحاربه[1]، فقد ذكر المترجمون والمؤرخون لسيرته فضائل كثيرة وأعمالاً جليلة يأتى ذكرها بإذن الله تعالى فى هذا الكتاب.

٧- اضطراب جيش العراق وأهل الكوفة: كان لخروج الخوارج أثر فى إضعاف أمير المؤمنين على رضى الله عنه، كما أن الحروب فى الجمل وصفين والنهروان، تسببت فى ملل أهل العراق للحرب ونفورهم منها، وخاصة أهل الشام فى صفين، فإن حربهم ليس كحرب غيرهم، فمعركة صفين الطاحنة لم تفارق مخيلتهم، فكم يتمت من الأطفال، ورملت من النساء، بدون أن يتحقق مقصودهم ولولا الصلح أو التحكيم الذى رحب به أمير المؤمنين على وكثير من أصحابه لكانت مصيبة على العالم الإسلامى لا يتخيل آثارها السيئة، فكان هذا التخاذل عن المسير مع على رضى الله عنه إلى الشام مرة أخرى من فريق منهم، وتميل إليه نفوسهم، وإن كانوا يعلمون أن عليًا على حق[2]، فقد تسلم الحسن رضى الله عنه الخلافة، وجيش

(١) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص (٥٧).

(٢) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد على، ص (٣٤٥).

العـراق مضطرب وأهل الكـوفة مـترددون فى أمـرهـم[1] وهذا ليس على إطلاقه، فجيش الحـسن يمكن تقويته، كما أن هناك فـصائل منه على استعـداد للقتال على رأسهم قيس بن سعد الخزرجى وغيره من القادة[2].

٨- قوة جيش معاوية: وفى الجانب الآخر كان معاوية رضى الله عنه يعمل بشتى الوسائل سرًا أو عـلانية على إضعاف جانب أهل العـراق منذ عهد على رضى الله عنه، فاستغل مـا أصاب جيشه من تفكك وخلاف، واجتـمعت لمعاوية رضى الله عنه عوامل ساعدت على قوة جبهته منها: طاعة الجيش له، اتفاق الكلمة عليه من أهل الشام، خبـرته الإدارية فى ولاية الشام، وثبات مصادره المالية، وعـدم تحرجه من دفع الأموال من أجل تحقيق أهدافه التى يراها مصلحة للأمة.

ثالثًا: شروط الصلح:

تحدثت الكتب التـاريخية والمـصادر الحديثـية وأشارت إلى حـصول الصلح وفق شروط وضعها الطرفان، وقد تناثرت تلك الشروط بين كتّاب التاريخ، وحاول بعض العلماء جمعها وترتيبها واستئناسًا إلى ما وصلوا إليه نذكر أهم شروط الصلح منها:

١ - العمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء: وقد ذكر هذا الشرط مجموعة من العلماء منهم ابن الحـجر الهيثمـى حيث ذكر صورة الصلح بين الحـسن ومعاوية، وجاء فيهـا: صالحه على أن يُسلم إليه ولاية المسلمين وأن يعمل فـيهم بكتاب الله وسنة رسـول الله ﷺ وسيرة الخلـفاء الراشدين المهـديين[3]، وحتى بعـض كتب الشيعة ذكرت هذا الشرط، وهذا دليل على تـوقير الحسن بن على لأبى بكر وعمر وعثمان وعلى إلى حـد جعل من أحد الشروط على معاوية بـن أبى سفيان رضى الله عنهم: أنه يعمل ويحكـم فى الناس بكتاب الله وسنة رسوله، وسيـرة الخلفاء الراشدين[4]، وفى النسخة الأخرى: الخلفاء الصالحين[5]، ففى هذا الشرط ضبط لدولة معاوية مرجعيتها ومنهجها فى الحياة.

---

(١) الشيعة وأهل البيت، ص (٣٧٩) نقلاً عن الاحتجاج للطبرسى، ص (١٤٨).

(٢) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على، ص (٣٥٨) للصلاَّبىّ.

(٣) الصواعق المراسلة (٢/ ٣٩٩). (٤) الشيعة وأهل البيت، ص (٥٤).

(٥) منتهى الآمال (٢/ ٢١٢) نقلاً عن الشيعة وأهل البيت، ص (٥٤).

٢- الأموال: ذكر البخاري في صحيحه أن الحسن قال لوفد معاوية عبد الرحمن ابن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال.. فمن لي بهذا؟ قالا: نحن لك[1] به.

فالحسن يتحدث عن أموال سبق أن أصابها هو وغيره من بني عبد المطلب يريد الحسن أن لا يطالبهم بها معاوية، ولا ذكر لأموال يطلب من معاوية أن يدفعها إليه من قادم[2]، وأما الروايات التي تشير بأن يجري معاوية للحسن كل عام مليون درهم، وأن يحمل إلى أخيه الحسين مليوني درهم في كل عام، ويفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس، وكأن الحسن باع الخلافة لمعاوية، فهذه الروايات، وما قيل حولها من تحليل وتفسير لا تقبل ولا يعتمد عليها، لأنها تصور إحساس الحسن بمصالح الأمة ضعيفًا أمام مصالحه الخاصة[3]. أما حقه من العطاء فليس الحسن فيه بواحد من دون المسلمين، ولا يمنع أن يكون حظه منه أكثر من غيره، ولكنه لا يصل إلى عشرة معشار ما ذكرته الروايات[4].

٣- الدماء: ويتضمن اتفاق الصلح بين الجانبين أن الناس كلهم آمنون لا يؤخذ منهم أحد منهم بهفوة أو أحنة، ومما جاء في رواية البخاري أن الحسن قال لوفد معاوية: وإن هذه الأمة عاثت في دمائها، فكفل الوفد للحسن العفو للجميع فيما أصابوا من الدماء[5]، وقد تمّ الاتفاق على عدم مطالبة أحد بشيء كان في أيام علي. وهي قاعدة بالغة الأهمية تحاول دون الالتفات إلى الماضي، وتركز على فتح صفحة جديدة تركز على الحاضر والمستقبل[6]، وقد تمّ التوافق المبني على الالتزام والشرعية حيث تمّ الصلح على أساس العفو المطلق عن كل ما كان بين الفريقين، قبل إبرام الصلح، وبالفعل لم يعاقب معاوية بذنب أحدًا بذنب سابق، وتأسس بذلك صلح الحسن على الإحسان والعفو، وتأليف القلوب.

٤- ولاية العهد أم رد الأمر شورى بين المسلمين: قيل: ومما اتفق الجانبان عليه من الشروط أن يكون الأمر من بعد معاوية للحسن، وإن معاوية وعد إن حدث به

---

(١) البخاري، ك الصلح رقم (٤-٢٧).

(٢) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٦٤).

(٣) المصدر نفسه، ص (٦٣).

(٤) المصدر نفسه، ص (٦٣).

(٥) البخاري، ك الصلح (٢/٩٦٣).

(٦) الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام، ص (٣٤١).

حدث والحسن[1] حى ليُسـميَّنه وليجعلن الأمـر إليه[2]، ولكن ابن أكثم روى فى هذا الخصوص عن الحسن إنه قال: أمـا ولاية الأمر من بعده، فما أنا بالراغب فى ذلك، ولو أردت هذا الأمر لـم أسلمه[3]، وجاء فى نص الصـلح الذى ذكره ابن الحجر الهيثمى: . . بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين[4]، وعند التدقيق فى روايات طلب الحسن الخلافـة بعد معاوية، نجد أنها تتنافى مع أنـفة وقوة وكرم الحسن، فكيف يتنازل عن الخلافـة حقنًا لدماء المسلمين، وابتغـاء مرضاة الله، ثم يوافق على أن يكون تابعًـا يتطلب أسـباب الدنيـا، وتشـرئب عنقه للخـلافة مـرة أخرى، والدليل على أن هذا غير صحيح ما ذكر جـبير بن نفير قال: قلت للحسن بن على أن الناس يزعمون أنك تريد الخـلافة، فقال: كانت جمـاجم العرب بيدى يسالمون من سالمت، ويحاربـون من حاربت، فتركتها ابتـغاء مرضاة الله[5]. ومن الملاحظ أن أحدًا من أبناء الصحابة أو الصحابة لم يذكروا خلال بيعة يزيد شيئًا من ذلك، فلو كـان الأمر كمـا تذكر الروايات عن ولاية عـهد الحـسن بعد مـعاوية، لاتخذها الحـسين بن على رضى الله عنـه حجة، ولكن لم نـسـمع شيـئًا من ذلك على الإطلاق، مما يؤكـد على أن مسألة خـلافة الحـسن لمعاوية لا أسـاس لها من الصحة، ولو كان الحسن رضى الله عنه أسند إليه منصب ولاية العهد فى الشروط لكان قريبًا فى عهد مـعاوية من إدارة الدولة، أو تولى أحد الأقاليم الكبرى، لا أن يذهب إلى المدينة وينعزل عن إدارة شـئون الحكم، كما أن روح ذلك العصـر يشير إلى أن مبدأ اختيار الأمة للحاكم عن طريق الشورى هو الأصل.

رابعًا: نتائج الصلح:

أهم نتائج الصلح هى:

١- توحد الأمة تحت قيادة واحدة.

٢- عودة الفتوحات إلى ما كانت عليه.

٣- تفرغ الدولة للخوارج.

٤- انتقال العاصمة الإسلامية إلى بلاد الشام.

---

(١) فتح البارى (١٣/ ٧٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٦٤).

(٣) الفتوح (٣ ، ٤/ ٤٩٣).

(٤) الصواعق المرسلة (٢/ ٢٩٩).

(٥) البداية والنهاية (١١/ ٢٠٦).

الفصل الثانى

بيعة معاوية وأهم صفاته ونظام حكمه

المبحث الأول

بيعة معاوية وأهم صفاته وثناء العلماء عليه

أولاً: بيعة معاوية رضى الله عنه:

وبتنازل الحسن بن على رضى الله عنه اكتملت عوامل تولى معاوية الخلافة، وتهيأت له جميع أسبابها، فبويع أميرًا للمؤمنين عام واحد وأربعين للهجرة، وسمى هذا العام بعام الجماعة[1]، وسُجل فى ذاكرة الأمة عام الجماعة وأصبح هذا الحدث من مفاخرها التى تزهو به على مر العصور، وتوالى الدهور، فقد التقت الأمة على زعامة معاوية، ورضيت به أميرًا عليها، وابتهج خيار المسلمين بهذه الوحدة الجامعة، بعد الفرقة المشتتة، وكان الفضل فى ذلك لله ثم للسيد الكبير مهندس المشروع الإصلاحى العظيم الحسن بن على بن أبى طالب، ويعد عام الجماعة من علامات نبوة المصطفى ﷺ، وفضيلة باهرة من فضائل الحسن، ولا يلتفت إلى ما قال العقاد من فهم غير صحيح عن عام الجماعة فى هجومه الخاطىء على المؤرخين الذين سموا سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة، فقد قال: فليس أضل ضلالاً، ولا أجهل جهلاً من المؤرخين الذين سموا سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة، لأنها السنة التى استأثر فيها معاوية بالخلافة فلم يشاركه أحد فيها، لأن صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت فى تلك السنة، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها[2]. والعقاد -رحمه الله- لم يأت بجديد فى حكمه الخاطىء بل سبقه إليه كثير من مؤرخى الشيعة، ويكفى معاوية فخرًا أن كل الصحابة الأحياء فى عهده بايعوه، فقد أجمعت الأمة على معاوية وبايعه علماء الصحابة والتابعين وعدوا خلافته شرعية

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣٧)، تاريخ خليفة، ص (٢٠٣).

(٢) معاوية بن أبى سفيان للعقاد، ص (٢٥).

ورضوا إمامته، ورأوا أنه خير من يلي أمر المسلمين ويقوم به خير قيام في تلك المرحلة، فرُوي عن الأوزاعي أنه قال: أدركت خلافة معاوية عدة من أصحاب رسول الله ﷺ منهم سعد، وأسامة، وجابر، وابن عمر، وزيد بن ثابت، ومسلمة بن مخلد، وأبوسعيد الخدري، ورافع بن خديج، وأبو أمامة، وأنس بن مالك، ورجال أكثر مما سميت بأضعاف مضاعفة، كانوا مصابيح الهدى، وأوعية العلم؛ حضروا من الكتاب تنزيله، وأخذوا عن رسول الله ﷺ تأويله، ومن التابعين لهم بإحسان إن شاء الله، منهم: المسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن محيريز في أشباه له ، لم ينزعوا يده عن مجامعة في أمة محمد ﷺ[1]. وقال ابن حزم: فبويع الحسن ثم سلّم الأمر إلى معاوية، وفي بقايا الصحابة من هو أفضل منهما بلا خلاف ممن أنفق قبل الفتح وقاتل، وكلهم؛ أولهم عن آخرهم بايع معاوية ، ورأى إمامته[2]. فالصحابة لم يبايعوا معاوية رضي الله عنه إلا وقد رأوا فيه شروط الإمامة متوافرة، ومنها العدالة ، فمن يطعن في عدالة معاوية وإمامته فقد طعن في عدالة هؤلاء الصحابة جميعهم وخونّهم وتنقصهم. فمن رضيه هؤلاء لدينهم ودنياهم ألا نقبله ونرضى به نحن؟ ومن قال: لعلهم بايعوا خوفًا فقد اتهمهم بالجبن وعدم الصدع بالحق، وهم القوم المعلوم من سيرتهم الشجاعة والشهامة وعدم الخوف في الله لومة لائم[3]. وفي مبايعة سبط رسول الله ﷺ الحسن بن علي لمعاوية درس بليغ وفهم عميق لآيات النهي عن الاختلاف، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣]. فالصراط المستقيم هو: القرآن، والإسلام، والفطرة التي فطر الناس عليها، والسبل هي: الأهواء، والفرق، والبدع، والمحدثات، قال مجاهد: ولا تتبعوا السبل: يعني البدع، والشبهات والضلالات[4]، ونهى الله سبحانه وتعالى هذه الأمة عما وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف والتفرق من بعد ما

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٤، ٤٣٥).

(٢) الفصل في الملل والنحل (٥/ ٦) .

(٣) من سب الصحابة ومعاوية فأمه هاوية، ص (١٢٠).

(٤) تفسير مجاهد، ص (٢٢٧)، دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ص (٤٩).

جاءتهم البينات، وأنزل الله إليهم الكتب، فقال سبحانه: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ [آل عمران: ١٠٥]. وقد أمر الله تعالى بالاعتصام بحبله، قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] لقد تحقق بفضل الله تعالى ثم بنجاح الحسن بن علي في صلحه مع معاوية مقصد عظيم من مقاصد الشريعة من وحدة المسلمين واجتماعهم، وهذا المقصد من أهم أسباب التمكين لدين الله تعالى، ونحن مأمورون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فلا بد من تضافر الجهود بين الدعاة، وقادة الحركات الإسلامية، وبين علماء المسلمين، وطلبة العلم لإصلاح ذات البين إصلاحًا حقيقيًا لا تلفيقيًا، لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر مما تصلح، وقد تحدث الشيخ السعدي عن الجهاد المتعلق بالمسلمين بقيام الالفة، واتفاق الكلمة، وبعد أن ذكر الآيات، والأحاديث الدالة على وجوب تعاون المسلمين ووحدتهم قال: فإن من أعظم الجهاد السعي في تأليف قلوب المسلمين، واجتماعهم على دينهم، ومصالحهم الدينية والدنيوية[1]. ولا ينظر للحديث الضعيف الذي رواه ابن عدي من طريق علي بن زيد، وهو ضعيف، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، ومن حديث مجالد[2]، وهو ضعيف أيضًا، عن أبي الوداك عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه»[3]. أسنده أيضًا من طريق الحكم بن ظهيرة[4]، وهو متروك. وهذا الحديث كذب بلا شك، ولو كان صحيحًا لبادر الصحابة إلى فعل ذلك، لأنهم كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم[5].

١ ـ انتهاء عهد الخلافة الراشدة:

انتهى عهد الخلافة الراشدة على منهاج النبوة بتنازل الحسن بن علي لمعاوية رضي الله عنه، فقد قال رسول الله ﷺ «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون. ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة. فتكون ما شاء أن

(١) وجوب التعاون بين المسلمين، ص (٥).
(٢) الكامل في الضعفاء (٦/ ٢٤١٦).
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٤) الكامل في الضعفاء (٢/ ٦٢٦).
(٤) الكامل (٢/ ٦٢٦/ ٦٢٧).
(٥) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٤).

تكون، يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت»[1]. وقد بيَّن رسول الله ﷺ أن خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتى الله الملك، أو ملكه من يشاء[2]، وقوله ﷺ: «الخلافة فى أمتى ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك»[3]. وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية فى ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ، فإنه توفى فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل النبوة صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليمًا[4]، وبذلك تكون مرحلة خلافة النبوة قد انتهت بتنازل الحسن رضى الله عنه عن الخلافة لمعاوية فى شهر ربيع الأول من سنة ٤١هـ[5]. فالحديث النبوى الكريم أشار إلى مراحل تاريخية وهى:

أ ـ عهد النبوة.

ب ـ عهد الخلافة الراشدة.

جـ ـ عهد الملك العضوض[6].

د ـ عهد الملك الجبرى.

هـ ـ ثم تكون خلافة على منهاج النبوة.

وقد بين رسول الله ﷺ بأنه ستكون خلافة نبوة ورحمة، ثم يكون ملك ورحمة[7]. ويجوز تسمية من بعد الخلفاء الراشدين خلفاء وإن كانوا ملوكًا، ولم يكونوا خلفاء الأنبياء، بدليل ما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل يسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبى خلفه نبى، وإنه لا نبى بعدى، وستكون خلفاء فتكثر، قالوا:

---

(١) مسند أحمد (٤/ ٣٧١ ـ ٣٧٢)، سلسلة الأحاديث الصحيحة .

(٢) سنن أبى داود شرح عون المعبود (١٢/ ٢٥٩)، صحيح سنن الألبانى (٣/ ٨٧٩) .

(٣) سنن الترمذى شرح تحفة الأحوذى (٦/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧) حديث حسن .

(٤) البداية والنهاية (٨/ ١٦) .

(٥) مرويات خلافة معاوية، ص (١٦٥).

(٦) العضوض : الشديد فيه عسف وعنف وظلم .

(٧) سنن الدارمى (٢/ ١١٤)، الأشربة ، الفتاوى (٣٥/ ١٤) .

فما تأمرنا؟ قال: وفوا بيعة الأول، فالأول، ثم أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»[1]. فقوله: «فتكثر» دليل على من سوى الراشدين فإنهم لم يكونوا كثيراً، وأيضًا قوله: «وفوا بيعة الأول فالأول» دل على أنهم يختلفون، والراشدون لم يختلفوا، وقوله: «فأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم» دليل على مذهب أهل السنة، في إعطاء الأمراء حقهم من المال والمغنم[2]، فمعاوية رضى الله عنه أفضل ملوك هذه الأمة، والذين كانوا قبله خلفاء نبوة، وأما هو فكانت خلافته ملكًا، وكان ملكه ملكًا ورحمة، وكان فى ملكه من الرحمة والحلم ونفع المسلمين، ما يعلم أنه كان خيراً من ملك غيره[3]، ومعاوية رضى الله عنه كان عالمًا ورعًا عدلاً دون الخلفاء الراشدين فى العلم والورع والعدل، كما ترى من التفاوت بين الأولياء، بل الملائكة والأنبياء، فإمارته -وإن كانت صحيحة بإجماع الصحابة وتسليم الحسن ـ رضى الله عنه ـ إلا أنها ليست على منهاج خلافة من قبله، فإنه توسع فى المباحات، وتحرز عنها الخلفاء الأربعة، وأما رجحان الخلفاء الأربعة فى العبادات والمعاملات فظاهر مما لا سترة فيه[4]، وقد حدد ابن خلدون مدى التغير الذى حدث، فقرر أن الخلافة وإن كانت تحولت إلى ملك، فإن معانى الخلافة بقيت بعضها، وإنما كان التغير فى الوازع، فبعد أن كان دينًا انقلب عصبية وسيفًا؛ يقصد بذلك أنه بعد أن كان الناس يتصرفون بوازع الدين، والخلافة شورى، صار الحكم مستنداً إلى العصبية والقوة، ولكن معانى الخلافة أى مقاصدها وأهدافها بقيت أى أن غايات هذا الملك كانت لاتزال تحقيق مقاصد الدين والحكم وفق الشريعة الإسلامية بالعدل وتنفيذ الواجبات التى يأمر بها الإسلام، أى أن الحكم أو الملك استمر إسلاميًا وشرعيًا[5].

ولخص الأدوار التى مرت بها الخلافة فقال: فقد بيَّن أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولاً، ثم التبست معانيها واختلطت بالملك، ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبية الخلافة، والله مقدر الليل والنهار[6]. فالدور الأول الذى يشير إليه

---

(1) البخارى رقم (٣٤٥٥).
(2) الفتاوى (١٥/٣٥).
(3) الفتاوى (٤/ ٢٩٢).
(4) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص (٧٨).
(5) النظريات السياسية للريس، ص (١٩٤) نقلا عن المقدمة لابن خلدون.
(6) المصدر نفسه، ص (١٩٥).

هو عصر الخلفاء الراشدين وهو عصر الخلافة الخالصة أو الكاملة، والدور الثانى هو عصر الخلفاء الأمويين والعباسيين -، ولا يمنع كذلك العثمانيين- وهذا عصر الخلافة المختلطة بالملك أو الملك المختلط بالخلافة: أى الذى يحقق فى الوقت مقاصد الخلافة، أما الدور الثالث فهو عصر الملك المحض الذى صار بقصد لذات الملك والأغراض الدنيوية، وانفصل عن حقيقة الخلافة أو معانيها الدينية، فهذا وصف أو تفسير ابن خلدون المؤرخ الفقيه للتطور الذى حدث والأدوار التى مرت بها الخلافة[1].

إن الخلافة الحقيقية أو الكاملة أو خلافة النبوة استمرت ثلاثين عامًا، وهو عصر الخلفاء الراشدين، ثم تحولت إلى ملك، ولكن لكى نعبر عن الحقيقة يجب أن يراعى هذا التحديد، وهو أن الخلافة لم تنته أو تذهب كلية، وإنما بقيت معانيها أو مقاصدها، وأن التغيير حصل فى الأساس التى قامت عليه، أما حقيقتها فقد بقيت، فالتغير إذن لم يكن كليا ولكن جزئيًا، أى أن الخلافة فى العصر الأول كانت هى الخلافة الكاملة المثالية، ثم نقصت عن المثال من وجه أو بعض الوجوه، لكن معظم عناصرها بقيت، فهى خلافة أقل فى الرتبة أو خلافة مختلطة بالملك[2]، والرأى العام فى الإسلام يتمسك بالمثال، أو خلافة النبوة، أو الخلافة الكاملة، وهى تلك التى تقوم على الشورى والاختيار التام من الأمة، وأنه إذا كانت الظروف الواقعية والعوامل الاجتماعية قد حتمت أو أدت إلى هذا التطور، فإن تحمل ذلك أو قبوله لا يكون إلا مؤقتًا أو من باب الضرورة، ولكن لايلزم أن يكون المثل الكامل حاضرًا دائمًا فى فكر الرأى العام، وبمجرد أن تزول تلك العوامل والظروف تجب العودة إلى تحقيق المثل الكامل، ولذا فإن الكتابات الإسلامية الأصيلة ظلت ملتزمة ومتشبثة بالمثال الكامل ولا تستخلص مبادئها إلا منه، وتفرق بين الخلافة وهى الخلافة الحقيقية الشرعية، والخلافة الواقعية التى بعدت قليلاً أو كثيرًا عن الحقيقة[3]، قد ذكر ابن تيمية أن مصير الأمر - أى الخلافة - إلى الملوك ونوابهم من الولاة والقضاة الأمراء ليس لنقص فيهم فقط، بل لنقص فى الراعى والرعية جميعًا، فإنه كما تكونوا يولّ عليكم، وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْض

(١) النظريات السياسية، ص(١٩٥).
(٢) المصدر نفسه، ص (١٩٦).
(٣) المصدر نفسه، ص (١٩٧).

الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩]. لقد ذهبت دولة الخلفاء الراشدين، وصار ملكًا، وظهر النقص فى الأمراء، وكذلك فى أهل العلم والدين، وجمهور الصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة، حتى إنه لم يبق من أهل بدر إلا نفر قليل، وجمهور التابعين بإحسان انقرضوا فى أواخر عصر أصاغر الصحابة فى إمارة ابن الزبير وعبد الملك، وجمهور تابعى التابعين انقرضوا فى أواخر الدولة الأموية، وأوائل الدولة العباسية[١].

٢- هل يعتبر معاوية رضى الله عنه أحد الخلفاء الاثنى عشر؟

عن جابر بن سمرة رضى الله عنه: دخلت مع أبى على النبى ﷺ، فسمعته يقول: «إن هذا الأمر لا ينقضى حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة، قال: ثم تكلم بكلام خفى علىَّ، قال: فقلت لأبى: ما قال؟، قال: كلهم من قريش[٢]، وفى رواية أخرى عن جابر: «لا يزال الإسلام عزيزًا إلى اثنى عشرة خليفة.. كلهم من قريش»[٣] وفى رواية أخرى عنه: «لا يزال هذا الدين عزيزًا منيعًا إلى اثنى عشر خليفة.. كلهم من قريش»[٤]، زاد أبو داود فى سننه، بإسناده عن جابر رضى الله عنه قال: فلما رجع إلى منزله أتته قريش فقال: ثم يكون الهرج[٥]. وقد شرح ابن كثير هذا الحديث فقال: ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثنى عشر خليفة صالحًا يقيم الحق ويعدل فيهم، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم، بل قد وجد منهم أربعة على نسق وهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، ومنهم عمر بن عبدالعزيز بلا شك عند الأئمة، وبعض بنى العباس، ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة، والظاهر أن منهم المهدى المُسرٍّ به فى الأحاديث الواردة بذكره.. وليس هذا بالمنتظر الذى تتوهم الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب سامراء[٦]، فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية، بل هو من هوس العقول السخيفة وتوهم الخيالات الضعيفة، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء

---

(١) الفتاوى (١٠/٢٠٧) . (٢) صحيح مسلم على شرح النووى (١٢/٢٠٢) .

(٣) المصدر نفسه (١٢/٢٠٣) . (٤) المصدر نفسه (١٢/٢٠٣) .

(٥) صحيح سنن الألبانى (٣/٨٠٧)، هرج الناس: وقعوا فى فتنة واختلاط وقتل .

(٦) سامراء : مدينة بين بغداد وتكريت على شرقى دجلة.

الاثنى عشر الأئـمة الاثنى عشر الذين يعـتقد فيهم الاثنـا عشرية[1]. وبالتأمل فى النص بكل حـيدة وموضـوعية نجـد أن هؤلاء الاثنى عشـر وصفوا بأنـهم يتولون الخلافة، وأن الإسـلام فى عهدهم يكون فى عزة ومنعة، وأن الناس تجـتمع عليهم ولا يزال أمر الناس ماضيًا وصالحًا فى عهدهم، وكل هذه الأوصاف لا تنطبق على من تدعى الاثنا عشرية فيهم الإمامة، فلم يتول الخلافة منهم إلا أمير المؤمنين على والحسن[2]. . . ثم أنه ليس فى الحديث حصـر لأئمة بهذا العدد، بل نبوءة منه، بأن الإسلام لا يزال عزيـزًا فى عصور هؤلاء، وكان عصـر الخلفاء الراشدين وبنى أمية عصر عزة ومنعة[3]، ولهذا قال ابن تيمية: إن الإسـلام وشرائعه فى بنى أمية أظهر وأوسع مما كان بعدهم[4]، وعدّ معاوية من الأئمة المقصودين بالحديث[5].

ثانيًا: أهم صفات معاوية رضى الله عنه:

اشتهر معاوية رضى الله عنه بصفات كثيرة من أهمها:

١ - العلم والفقه:

استفاد مـعاوية رضى الله عنه من ملازمته لرسول الله ﷺ عـلمًا وتربية، وقد روى عن رسول الله ﷺ أحاديث كثـيرة قد ذكرت بعضهـا، وقد روى له البخارى ومسلم مع شرطهمـا ألا يرويا إلا عن ثقة ضابط صدوق[6]، وشهد له ابن عباس بالفقة، فعن ابن أبى مليكة قال: قيل لابن عباس رضى الله عنه: هل لك فى أمير المؤمنين معاوية، فإنّه ما أوتر إلا بواحدة؟ قال: أصاب إنه فقيه. رواه البخارى[7]. قال الشـرّاح: أى مجتـهد، وفى رواية أُخرى للبخـارى عن أبى مليكة قال: أوتر معاوية - رضى الله عنه - بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس ـ رضى الله عنه ـ فأتى ابن عـباس ـ رضى الله عنه ـ، قال: دَعْهُ فإنـه صحب رسول الله ﷺ وكان ابن عباس ـ رضـى الله عنه ـ من فضلاء الصحابة، ويُلقّب: البحـر، لسعة علمه وحـبر الأمة، وترجـمان القرآن، وقـد دعا له الرسول ﷺ بـالعلم والحكمة

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤).

(٢) منهاج السنة (٤/ ٢١٠)، المنتقى، ص (٥٣٣).

(٣) أصول الشيعة (٢/ ٨١٦) .

(٤) منهاج السنة (٤/ ٢٠٦).

(٥) المصدر نفسه(٤/ ٢٠٦) .

(٦) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص(٤١).

(٧) البخارى رقم (٣٧٦٤) رقم (٣٧٦٥).

والتأويل، فاستجيب له، وكان من خواص أصحاب على رضى الله عنه وشديد الإنكار على أعدائه، وأرسله على رضى الله عنه ليحاج الخوارج فحاجهم حتى لم يبق لهم حجة، فإذا شهد مثله لمعاوية بأنه مجتهد وكف مولاه عن الإنكار مستدلاً بأنه من الصحابة[1]، كما أنه كان كاتب رسول الله ﷺ، وذكره مفتى الحرمين أحمد بن عبد الله بن محمد الطبرى فى خلاصة السير وقال: إن كتَّابه ﷺ ثلاثة عشر: الخلفاء الأربعة، وعامر بن فهيرة، وعبد الله بن أرقم، وأبى بن كعب، وثابت بن قيس بن شماس، وخالد بن سعيد بن العاص، وحنظلة بن الربيع الأسلمى، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبى سفيان، وشرحبيل بن حسنة. وكان معاوية وزيد ألزمهم لذلك وأخصهم به[2]، كما أن الفقهاء يعتمدون على اجتهاده ويذكرون مذهبه كسائر الصحابة، كقولهم: ذهب معاذ بن جبل ومعاوية وسعيد بن المسيب إلى أن المسلم يرث الكافر، وقولهم: روى[3] استلام الركنين اليمانيين عن الحسن أو الحسين وصح عن معاوية. وقال أبو الدراء الصحابى لأهل الشام: ما رأيت أحد أشبه صلاة بصلاة رسول الله ﷺ، من إمامكم هذا ـ يعنى معاوية ـ[4] وكان رضى الله عنه حريصًا على تعليم الناس العلم، فعن أبى أمامة سهل بن حنيف قال: سمعت معاوية بن أبى سفيان وهو جالس على المنبر إذا أذن المؤذن قال: الله أكبر الله أكبر، قال معاوية: الله أكبر الله أكبر. قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال معاوية: وأنا فقال: أشهد أن محمداً رسول الله، فقال معاوية: وأنا. فلما قضى التأذين قال: يا أيها الناس، إنى سمعت رسول الله ﷺ على هذا المجلس ـ حين أذن المؤذن ـ يقول ما سمعتم منى من مقالتى[5].

وكان رضى الله عنه يحث الناس على الفقه فى الدين ويروى لهم الأحاديث الدالة على أهمية التفقه فى الدين، فعن الزهرى قال: أخبرنى حميد قال: سمعت معاوية بن أبى سفيان يخطب قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين، وإنما أنا قاسم، ويعطى الله، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيمًا حتى تقوم الساعة. أو حتى يأتى أمر الله»[6].

---

(١) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص (٤١).

(٢) المصدر نفسه، ص (٤١).

(٣) المصدر نفسه، ص (٥٧).

(٤) منهاج السنة (٣/ ١٨٥).

(٥) فتح البارى (٢/ ٤٦٢).

(٦) فتح البارى (١٣/ ٣٠٦).

وكان رضى الله عنه يكاتب أصحاب الرسول ﷺ ليتعلم منهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، فعن وراد مولى المغيرة بن شعبة قال: كتب معاوية إلى المغيرة: اكتب إليَّ ما سمعت النبى ﷺ يقول خلف الصلاة، فأملى عليَّ المغيرة، قال: سمعت النبى ﷺ يقول خلف الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد». وقال ابن جريج: أخبرنى عدة أن ورادًا أخبره بهذا. ثم وفدت بعد إلى معاوية فسمعته يأمر الناس بذلك القول[1]، وكان رضى الله عنه حريصًا على اتباع السنة النبوية، فعن سعيد بن المسيب، وعن حمد بن عبد الرحمن بن عوف: أن معاوية لما قدم المدينة فى آخر مقدمة قدمها، قال على منبر رسول الله ﷺ: أين علماؤكم يا أهل المدينة؟ سمعت رسول الله ﷺ فى هذا اليوم ـ يوم عاشوراء ـ يقول: «من شاء منكم أن يصومه فليصمه»، وفى رواية: وإنى صائم، فصام الناس[2]، وقال: وسمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذا، وأخرج قصة من شعر من كمه، فقال: إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم[3]، يعنى وصل المرأة شعرها بشعر آخر، وقد صح فى عدد من الأحاديث لعن الواصلة والمستوصلة. وفى رواية أخرى أنه قال لهم: انكم أحدثتم أى حدث سوء، نهى رسول الله ﷺ عن (الزور)[4]. سماه الرسول زورًا لما فيه من التزوير والتغرير، فهنا نراه حريصًا على إحياء سنة كصوم عاشوراء الذى رأى أن الناس أهملوه، كما نراه حريصًا على إماتة بدعة ظهرت فى الناس، وهى تقليد اليهوديات بوصل الشعر[5].

وروى عبد الرحمن بن هرمز الأعرج: أن العباس بن عبد الله بن عباس أنكح عبد الرحمن بن الحكم ابنته، وأنكحه عبد الرحمن ابنته، وقد جعلا ـ أى العقدين ـ صداقًا (أى كل منهما صداق الأخرى)، فكتب معاوية بن أبى سفيان ـ وهو خليفة ـ إلى مروان، يأمره بالتفريق بينهما، وقال فى كتابه: هذا الشغار الذى نهى عنه رسول الله ﷺ[6]، فهو يراعى إقامة السنة فى حياة الناس فى الأمور كلها؛ أمور الفرد، وأمور الأسرة، وأمور الجماعة[7]، وكان رضى الله عنه لا يروى

(١) فتح البارى (١١/ ٥٢١).
(٢) المصدر نفسه (٤/ ٢٨٧).
(٣) المصدر نفسه (٦/ ٥٩١).
(٤) المصدر نفسه (٦/ ٥٩٥).
(٥) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوى، ص (٧١).
(٦) مسند أحمد رقم (١٦٨٥٦) إسناده حسن.
(٧) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوى، ص (٧١).

الحديث عن رسول الله إلا بمناسبة اقتضته، فقد ورد أنه دخل على عبد الله بن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر له، ولم يقم ابن الزبير، فقال معاوية: مَهْ. قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يَمثُل له عباد الله قيامًا، فليتبوأ مقعده من النار»[1]. وعن مجاهد وعطاء عن ابن عباس: أن معاوية أخبره أن رسول الله قصر من شعره - أي في العمرة - بمِشْقَص، فقلنا لابن عباس: ما بلغنا هذا إلا عن معاوية. فقال: ما كان معاوية على رسول الله متهمًا[2].

وكان رضى الله عنه يهتم بمذاكرة العلم ويحرص عليه، فعن عبد الله بن الحارث قال: دخلت مع ابن عباس على معاوية فأجلسه على السرير، وفى تلك القصة سأله معاوية عن مسألة فقهية، وكان رضى الله عنه يعلم الناس ويحثهم على سؤاله، والاستفادة من علمه، فقد خطب يوم جمعة وقال: أيها الناس اعقلوا قولى، فلن تجدوا أعلم بأمور الدنيا والآخرة منى، أقيموا وجوهكم وصفوفكم فى الصلاة، فلتقيمن وجوهكم وصفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم، خذوا على أيدى سفهائكم أو ليسلطنهم الله عليكم، فليسومنكم سوء العذاب، تصدقوا؛ لا يقولنَّ الرجل: إنى مقلٌ، فإن صدقة المقلِّ أفضل من صدقة الغنى، إياكم وقذف المحصنات، وأن يقول الرجل: سمعت، وبلغنى أنه لو قذف أحدكم امرأة على عهد نوح لسُئل عنها يوم القيامة[3].

وكان رضى الله عنه حريصًا على متابعة رسول الله ﷺ، فعندما دخل مكة سأل ابن عمر: أين صلى رسول الله؟ فقال: اجعل بينك وبين الجدار ذراعين أو ثلاثة[4]. وله اجتهاد فى تعيين ليلة القدر، فقد روى ابن أبى شيبة بإسناد صحيح عن معاوية قال: ليلة القدر ليلة ثلاث وعشرين[5]، وكان يعترف بالحجة والبرهان لغيره، فعن ابن عباس أنه طاف مع معاوية وكان معاوية يستلم الأركان بالبيت، فقال له ابن عباس رضى الله عنهما: إنه لا يستلم هذان الركنان. فقال: ليس شىء من البيت مهجورًا[6]، وجاء فى رواية: فقال له ابن عباس: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] فقال معاوية: صدقت[7]، ومن الأحكام التى قضاها

(١) البخارى رقم (٣٤٨٨).
(٢) مسند أحمد رقم (١٦٨١٣) إسناده صحيح.
(٣) البداية والنهاية (١١/٤٣٧).
(٤) الفتح (٣/٥٤٤).
(٥) الفتح (٤/٣١١).
(٦) الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح البارى، ص (٥٨٥).
(٧) المصدر نفسه، ص (٥٨٦).

معاوية، رضى الله عنه ما أخرجه ابن أبى شيبة من طريق عبد الله بن معقل قال: ما رأيت قضـاء أحسن من قضاء قضى به معـاوية، نرث أهل الكتاب ولا يرثوننا، كمـا يحل النكاح فيـهم ولا يحل لهم[١]. ومن المسائل الفـقهـية التى أثرت عن معاوية رضى الله عنه:

أ ـ أثر عنه رضى الله عنه أنه أوتر بركعة[٢].

ب ـ أثر عنه رضى الله عنه الاستسقاء بمن ظهر صلاحه[٣].

جـ ـ أنه يجزىء إخراج نصف صاع من البر فى زكاة الفطر[٤].

د ـ استحباب تطييب البدن لمن أراد الإحرام[٥].

هـ ـ جواز بيع وشراء دور مكة[٦].

و ـ التفريق بين الزوجين بسبب العُنَّة[٧].

ز ـ وقوع طلاق السكران[٨].

ح ـ عدم قتل المسلم بالكافر قصاصًا[٩].

ط- حبس القاتل حتى يبلغ ابن القتيل[١٠].

وأما علومه فـى الفقه السياسى والسـياسة الشرعـية، ومقاصـد الشريعة، وفقه الجهاد، فالكتاب سوف يحدثنا عن الكثير من فقهه فى إدارة الدولة وتحقيق أهدافها.

٢- الحلم والعفو:

اشتهر أمير المؤمنين معـاوية بصفة الحلم، وكان يضرب به المثل فى حلمه رضى الله عنه، وكظم غيظه وعفوه عن الناس، وقد ذكر ابن كثير ما كان يتصف به أمير

---

(١) مصنف ابن أبى شيبة (١١/ ٣٧٤)، سنن سعيد (١/ ٤٥).

(٢) فتح البارى (٧/ ١٣٠).

(٣) المغنى (٣/ ٣٤٦).

(٤) زاد المعاد (٢/ ١٩).

(٥) المغنى (٥/ ٧٧).

(٦) المصدر السابق (٦/ ٣٦٦).

(٧) العُنَّة: هى عجز الرجل عن إتيان زوجته، القاموس المحيط، ص (١٥٧٠)، زاد المعاد (٥/ ١٨١).

(٨) المغنى (٥/ ٢١١).

(٩) المصدر السابق (١١/ ٤٦٦).

(١٠) المصدر السابق (١١/ ٥٧٧)، مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص ٢٨، ٢٩.

المؤمنين معاوية من الحلم حيث قال: وقال بعضهم: أسمع رجل معاوية كلامًا سيئًا شديدًا، فقيل له: لو سطوت عليه؟! فقال: إنى لأستحى من الله أن يضيق حلمى عن ذنب أحد من رعيتى، وفى رواية: قال له رجل: يا أمير المؤمنين ما أحلمك!! فقال: إنى لا ستحى أن يكون جرم أحد أعظم من حلمى. وقال الأصمعي عن الثورى قال: قال معاوية: إنى لأستحى أن يكون ذنب أعظم من عفوى، أو جهل أكبر من حلمى، أو تكون عورة لا أواريها بسترى. وقال معاوية: يا بنى أمية فارقوا قريشًا بالحلم، فوالله لقد كنت ألقى الرجل فى الجاهلية فيوسعنى شتمًا وأوسعه حلمًا، وأرجع وهو لى صديق، إن استنجدته أنجدنى، وأثور به فيثور معى، وما وضع الحلم عن شريف شرفه، ولا زاده إلا كرمًا، وقال: لا يبلغ الرجل مبلغ الرأى حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم[1]. وسئل معاوية: من أسود الناس؟ فقال: أسخاهم نفسًا حين يسأل، وأحسنهم فى المجالس خلقًا، وأحلمهم حين يستجهل[2]، وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: كان معاوية يتمثل بهذه الأبيات كثيرًا:

فما قتل السفاهة مثل حلم ... يعود به على الجهل الحليم
فلا تسفه وإن مُلِّئتَ غيظاً ... على أحد فإن الفحش لومُ
ولا تقطع أخًا لك عند ذنب ... فإن الذنب يغفره الكريم[3]

وكتب معاوية إلى زياد بن أبيه: إنه لا ينبغى أن يُساسَ الناس سياسة واحدة باللين فيمرحوا، ولا بالشدة فيُحْمَلَ الناس على المهالك، ولكن كن أنت للشدة والفظاظة والغلظة، وأنا للين والألفة والرحمة، حتى إذا خاف خائف وجد بابًا يدخل منه[4].

فهذه الأقوال المروية عن أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه تبين لنا شيئًا مما اشتهر عنه من الاتصاف بخلق الحلم، وقد كان هذا الخلق همزة وصل بينه وبين من يعاملونه بشىء من الجفاء من أفراد رعيته، أو يصارحونه بقوة - بما يرونه حقًا وهو يخالفهم فى ذلك -، وكان لتخلقه بخلق الحلم الذى لم يخالطه ضعف أثر فى

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٤١) .

(٢)، (٣) المصدر نفسه (١١/ ٤٤٢) . (٤) المصدر نفسه (١١/ ٤٤٣).

نجاحه فى تثبيت أركان دولته، وذلك بمقدرته الفائقة على امتصاص غضب المخالفين، وتحويلهم إلى الرضا والقناعة بسياسته، وهكذا تأتى مكارم الأخلاق التى من أهمها الحلم والعفو والصبر والكرم؛ لتكون من أهم عناصر السيادة، وقد أبان فى هذه الأقوال بأن الحلم يخالطه شىء من الذل كما أن النصر يخالطه شىء من العز، ولكن أبدى سروره بذلك الذل لما يترتب عليه من النتائج الحميدة التى منها اكتساب الأصدقاء والأنصار(١) وفى كتابه إلى زياد أمير العراق بيان لسياسته الجيدة التى تخيف المتهورين الميالين إلى إحداث الفوضى والإخلال بالأمن، ولكنها فى الوقت نفسه تبعث الأمل لدى من يراجعون أنفسهم، ويريدون سلوك طريق الاستقامة والسلامة(٢).

ولقد أثنى على أمير المؤمنين معاوية حكماء عصره وذكروا اتصافه بمكارم الأخلاق وخاصة الحلم، وفى ذلك يقول الحافظ ابن كثير: وقال عبد الملك بن مروان - يوما وذكر معاوية-: ما رأيت مثله فى حلمه واحتماله وكرمه(٣)، وقال قبيصة بن جابر: مارأيت أحدًا أعظم حلمًا، ولا أكثر سؤددًا، ولا أبعد أناة، ولا ألين مخرجًا، ولا أرحب بالمعروف من معاوية(٤)- وقال عبدالله بن الزبير رضى الله عنهما: لله در ابن هند، إن كنا لنُفْرِقُه(٥) -وما الليث على براثنه بأجرأ منه -فيتفارق لنا، وإن كنا لنخدعه- وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه- فيتخادع لنا، والله لوددت أنا متِّعنا به مادام فى هذا الجبل حجر- وأشار إلى أبى قبيس-(٦). وفى قول ابن الزبير هذا وصف دقيق لمعاملة معاوية لقادة المسلمين وسادتهم، فهو جرىء شجاع ولكن يظهر عمدًا عكس ذلك ليصل من ذلك إلى عدم إثارة المخالفين، لأن إظهار الشجاعة يثير عنصر التحدى لديهم، وهو أدهى أهل الأرض فى زمانه، ولكنه يظهر الانخداع أمام محدثيه ليصل إلى تجفيف منابع نقمتهم عليه، وهو فى ذلك كله يخدم هدفًا ساميًا وهو تحقيق حياة الرخاء والأمن للأمة الإسلامية، ولقد تمنى ابن الزبير أن يطول عمر معاوية لأنه يخشى من تغير الأحوال من بعده(٧)، ويصف حبر الأمة عبدالله بن عباس رضى الله عنهما سياسة معاوية

---

(١) التاريخ الإسلامى (٢٦/١٧) .
(٢) المصدر نفسه (٢٦/١٧) .
(٣) البداية والنهاية (٤٣٩/١١) .
(٤) المصدر نفسه (٤٣٩/١١) .
(٥) نفرقه : نخوّفه .
(٦) البداية والنهاية (٤٤٢/١١) .
(٧) التاريخ الإسلامى (٢٧/١٧).

بكلام موجز، لكنه يعنى خلاصة تفكير عميق حيث يقول: قد علمت بِمَ غلب معاوية الناس، كانوا إذا طاروا وقع، وإذا وقع طاروا[1]. وهذا يعنى أنه إذا رأى السيول الجارفة قد أقبلت لم يقاومها، وإنما يفسح لها حتى تمر، ثم يحتوى الميدان وقد زال إقبال الناس الشديد فيتمكن مما يريد، وقد عبر معاوية عن هذه السياسة بقوله المشهور: لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا جذبوها أرخيتها، وإذا أرخوها جذبتها. ومن مواقفه فى الحلم أنه جرى بين رجل يقال له أبو جهم وبين معاوية كلام، فتكلم أبو جهم بكلام فيه غَمْزٌ لمعاوية، فأطرق معاوية ثم رفع رأسه فقال: يا أبا الجهم إياك والسلطان، فإنه يغضب غضب الصبيان، ويأخذ أخذ الأسد، وإن قليله يغلب كثير الناس، ثم أمر معاوية لأبى الجهم بمال، فقال أبو الجهم فى ذلك يمدح معاوية:

نميل على جوانبه كأنا ... نميل إذا نميل على أبينا
نُقلِّبه لنخبر حالتيه ... فنخبر منهما كرمًا ولينا[2]

وهكذا كان لحلم معاوية رضى الله عنه وحسن خلقه ومبادلته الإساءة بالإحسان الأثر الكبير فى نفس أبى الجهم، فقال هذين البيتين فى الثناء على معاوية، ولقد كان سلوك أمير المؤمنين معاوية تطبيقًا لقوله الله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

ونظرًا لحلم معاوية الكبير وما يتصف به من الشجاعة والعزة فإن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أثنى عليه بقوله: دعوا فتى قريش وابن سيدها، إنه لمن يضحك فى الغضب، ولا يُنال منه إلا على الرضا، ومن لا يؤخذ ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه[3]. فهذا قول دقيق من عمر فى وصف معاوية، فقد وصفه بالدرجة العالية من الحلم، والعزة التى تجعله منيعًا لا ينال ما عنده على قهر منه، وهذه الصفة من صفاته التى جعلت أمير المؤمنين عمر يبقيه أميرًا على الشام لخطورة ذلك الثغر[4].

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٤٣).
(٢) التاريخ الإسلامى (١٧/ ٢٨)، البداية والنهاية (١١/ ٤٤٠).
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٤١٥).
(٤) التاريخ الإسلامى (١١/ ٣٠).

وقال معاوية رضى الله عنه: العقل والحلم أفضل ما أُعطى العبد، فإذا ذُكِّر ذكر وإذا أُعطى شكر، وإذا ابتلى صبر، وإذا غضب كظم، وإذا قدر غفر، وإذا أساء استغفر، وإذا وعد أنجز[1]، ففى هذا الخبر جمع أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه دررًا من الحكم، وهى الشكر عند الرخاء، والصبر عند الابتلاء، والتحكم فى السلوك عند الغضب، والعفو عند المقدرة، والوفاء بالوعد، والاستغفار عند الإساءة، فهذا الخبر على قصره قد جمع ستة موضوعات، كل موضوع يحتاج إلى أن يكتب عنه فى صفحات، وهذا من جوامع الكلم، وهو يعتبر من أعلى أنواع البلاغة، وذلك فى جمع المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة، وقد اشتهر فى هذا البيان عدد من الصحابة رضى الله عنهم تتلمذوا فى ذلك على رسول الله ﷺ الذى أوتى جوامع الكلم[2].

٣- الدهاء والحيلة:

ومن الصفات التى تميز بها معاوية رضى الله عنه صفة الدهاء والحيلة ومما يروى من دهائه وحسن إدارته وتدبيره، أن المسلمين غزوا فى أيامه فأسر جماعة منهم، فوقفوا بين يدى ملك الروم بقسطنطينية، فتكلم بعض أسارى المسلمين، فدنا منه بعض البطارقة[3]، ممن كان واقفًا بين يدى الملك فلطم حرّ وجهه[4]، وكان رجلاً من قريش فصاح: وإسلاماه، أين أنت عنا يا معاوية، إذ أهملتنا، وأضعت ثغورنا وحكّمت العدو فى دمائنا وأعراضنا؟ فنمى ذلك الخبر إلى معاوية، فآلمه وامتنع من لذيذ الطعام والشراب، فخلا بنفسه، وامتنع عن الناس، ولم يظهر ذلك لأحد من المخلوقين، ثم أعمل الحيلة فى إقامة الفداء بين المسلمين والروم، إلى أن فدى ذلك الرجل، ومن أسر معه من المسلمين، فلما صار الرجل إلى دار الإسلام، دعاه معاوية فبره وأحسن إليه ثم قال له: لم نهملك، ولم نضيعك، ولا أبحنا دمك وعرضك. ومعاوية أثناء ذلك يدبر الرأى ويعمل الحيلة، ثم بعث إلى رجل من ساحل دمشق من مدينة صور، وكان عارفًا كثير الغزوات فى البحر صُمك[5] من الرجال -مرطان بالرومية- فأحضره وخلا به، وأخبره بما قد عزم عليه وسأله إعمال

---

(١) أنساب الأشراف (٥/٣٣٦) . (٢) التاريخ الإسلامى (١٩/ ٢٠، ٣٥٥).

(٣) البطارقة: جمع بطريق وهو رئيس الأساقفة والأسقف رجل الكنيسة .

(٤) لطم حرّ وجه : ما ظهر منه . (٥) الصمك والصموك : القوى الشديد ,والغليظ الجافى.

الحيلة فيه، والتأنى له، فتوافقا على أن يدفع للرجل مالا عظيمًا، ليبتاع به أنواعًا من الطرف والملح والجهاز من الطيب والجوهر وغير ذلك، وأنشأ له مركبًا لا يلحق فى جريه سرعة، ولا يدرك فى سيره، إنشاءً عجيبًا، فسار الرجل حتى أتى مدينة قبرص فاتصل برئيسها، وأخبره أن معه حاجة للملك، وأنه يريد التجارة إلى القسطنطينية، قاصدًا إلى الملك وخواصه بذلك، فروسل[1] الملك بشأنه، فأذن له، فدخل خليج القسطنطينية، فلما وصلها أهدى للملك وجميع بطارقته، وبايعهم وشاراهم، وقصدهم، إلا ذلك البطريق الذى لطم القرشى، وتأنى الصورى من الأمور على حسب ما رسمها له معاوية، وأقبل الرجل من القسطنطينية إلى الشام، وقد أمره أكثر البطارقة أن يبتاع حوائج ذكروها، وأنواعًا من الأمتعة وصفوها، فلما صار إلى الشام سار إلى معاوية سرًا، وذكر له من الأمر ما جرى، فابتيع له ما طلب منه وما علم أن رغبتهم فيه، وتقدم إليه معاوية فقال: إن ذلك البطريق إذا عدت فى كرتك هذه سيعذلك عن تخلفك عن بره، واستعانتك به، فاعتذر إليه ولاطفه بالقول والهدايا، واجعله القيم بأمرك، والتفقد لأحوالك تزداد عندهم، فإذا أتقنت جميع ما أمرتك به، وعلمت ما غرض البطريق وإيش الذى يأمرك بابتياعه فعد به إلينا لتكون الحيلة على حسبه، فلما رجع الصورى إلى القسطنطينية ومعه جميع ما طلب منه، والزيادة مما لم يطلب، زادت منزلته، وارتفعت أحواله عند الملك والبطارقة وسائر الحاشية، فلما كان فى بعض الأيام وهو يريد الدخول إلى الملك، قبض عليه ذلك البطريق فى دار الملك، وقال له: ما ذنبى إليك؟ وبم استحق غيرى أن تقصده، وتقضى حوائجه وتعرض عنى؟، قال الصورى: أكثرُ من ذكرت ابتدأنى وأنا رجل غريب، وأرحل إلى هذا البلد كالمتنكر من أسارى المسلمين، وجواسيسهم لئلا يُنِمُّوا خبرى ويوشوا بأمرى إلى المسلمين، فيكون فى ذلك بوارى، والآن فإذا قد علمت ميلك إلىَّ فلست أحب أن يعتنى بأمرى سواك، ولا يقوم بحالى عند الملك وغيره غيرك، فمرنى بحوائجك وجميع ما يعرض من أمورك بأرض الإسلام، وأهدى إلى ذلك البطريق هدية حسنةً من الزجاج المخروط والطيب والجوهر والطرف والثياب، ولم يزل هذا فعله، يتردد من الروم إلى معاوية، ومن

---

(١) الشهب اللامعة، ص (٤٨٧).

معـاوية إلى الروم، ويسـأله الملك والبطريق وغيـره من البطارقة الحـوائج الجليلة، والحيلة لا تتوجه إلى معاوية، حتى مضى على ذلك سنين، فلما كـان فى بعضها قال البطريق للصورى، وقد أراد الخروج إلى دار الإسلام: قد اشتهيت أن تعمدنى بقاء حاجة، وتمن بها على، وهى أن تبتاع لى بساط سـوسنجرد بمخاده ووسائده، ويكون فيه من أنواع الألوان الحمـرة والزرقة وغيرها، ويكون من صفة كذا وكذا، ولو بما بلغ ثمنه كل مبلغ، فأنعم له بذلك، وكان من شأن الصورى أن يكون مركبه إذا ورد القسطنطينية بالقرب من موضع ذلك البطريق، وكان للبطريق ضيعة سرية، وفيها قصـر مشيد، ومتنزه حسن على أميال من القـسطنطينية، راكبه على الخليج، وكان البطريق أكثر أوقـاته فى ذلك المتنزه، وكانت الضيعة فيـما بين قسم الخليج من يلى بحر الروم والقسطـنطينية، فانصرف الصورى إلى مـعاوية سرًا، فأخبـره بالحال فأحضر معاوية بسـاطًا بوسائد ومخاد ومجلس حسن[1]، فانصرف به مع جميع ما طلب منه من أرض الإسلام، وقد تقدم إليه مـعاوية بالحيلة، وكيفية إيـقاعها، وكان الصورى فيما وصفنا من هذه المدة قد صار كأحدهم فى المؤانسة والعشرة، وفى الروم طمع وشـره فلما دخل من البـحر إلى خـليج القسطنطينيـة، وقد طابت له الريح، وقرب من ضـيعـة البطريق، أخذ الصـورى أخبـار البطريق من أصحـاب القوارب والمراكب، فأخـبر أن البطريق فى ضيعـته، وذلك أن الخليج طوله نحو من ثلاثمائة وخمسين ميلاً، والضياع والعمائـر على حافتيه، والمراكب والقوارب تختلف بأنواع المتاع والأقوات إلى القسطنطينية من هذه العمـائر لا تحصى كثرة، فلما علم الصورى أن البطريق فى ضيعته فرش البساط ونضد ذلك الصدر والمجلس بالوسائد والمخاد فى صحن المركب ومجلسه، والرجال تحت المجلس بأيديهم المقاذيف مشكلـة قائمة غير قاذفين بها، ولا يعلم بهم أنهم فى بطن المركب إلا من ظهر منهم فى عمله، والريح فى القلع، والمركب مار فى الخليج كأنه سهم خرج عن كـبد قوس لا يستطيع القائم على الشط أن يملأ بصره منه لسرعة سيـره واستقامته فى جريه، فأشرفه على قصر البطريق، وهو جـالس فى مسـتشـرفه مع حـرمه، وقد أخـذت منه الخـمر، وعلاه الطرب، وذهب به الفرح والسـرور كل مذهب، فلما رأى البطريق مـركب الصورى

---

(١) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة، ص (٤٨٩).

زعق طربًا، وصاح فرحًا وسرورًا وابتهاجًا بقدومه، فدنا من أسفل القصر فحط القلع، وأشرف البطريق على المركب فنظر إلى ما فيه من حسن ذلك البساط، ونظم تلك الفرش، كأنه رياض يزهر، فلم يستطيع اللبث فى موضعه، حتى نزل قبل أن يخرج الصورى من مركبه إليه، فطلع إلى المركب فلما استقر قدمه على المركب ودنا من المجلس، وضرب الصورى بعقبه على من تحت البساط، وكانت علامة بينه وبين الرجال الذين فى بطن المركب، فما استقر دقه فى المركب بقدمه، حتى اختطف المركب بالمقاذيف، وإذا هو وسط الخليج يطلب البحر لا يلوى على شىء، وارتفع الصوت ولم يدر ما الخبر لمعالجة الأمر، فلم يكن الليل حتى خرج عن الخليج وتوسط البحر، وقد أوثق البطريق كتافًا، وطابت له الريح، وأسعده الجد، وحمله المقدار فى ذلك اللج، فتعلق فى اليوم السابع بساحل الشام، ورأى البر وحمل الرجل، فكان فى اليوم الثالث عشر مأسورًا بين يدى معاوية فسُر بذلك معاوية[1]، وقال: علىّ بالرجل القرشى، فأتى به، وقد حضره خواص الناس، فأخذوا مجالسهم، وغص المجلس بأهله، فقال معاوية للقرشى: قم فاقتص من هذا البطريق الذى لطم وجهك على بساط معظم الروم، فإنا لم نضيعك ولا أبحنا دمك ولا عرضك، فقام القرشى فدنا من البطريق، فقال معاوية: انظر لا تتعد ما جرى عليك، واقتص منه على حسب ما صنع بك ولا تعتد، وارع ما أوجب الله عليك من المماثلة، فلطمه القرشى لطمات ووكزه فى حلقه، ثم أكب القرشى على يدى معاوية وأطرافه يقبلها، وقال: ما ضاع من سوَّدك، ولا خاب فيك من رأسك، أنت ملك لا يستضام[2]، تمنع حماك، وتصون رعيتك، وأرق فى وصفه ودعائه، وأحسن معاوية إلى البطريق، وخلع عليه وبرّه، وحمل معه البساط، وأضاف إلى ذلك أشياء كثيرة، وهدايا إلى الملك، وقال له: ارجع إلى ملكك، وقل له: تركت ملك المسلمين[3] يقيم الحدود على بساطك، ويقتص لرعيته فى دار مملكتك وسلطانك وعزك، وقال للصورى: سر معه حتى تأتى الخليج فتطرحه فيه ومن أسر معه، ممن كان بادر فصعد إلى المركب من غلمان البطريق، وخاصته،

---

(١) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة، ص (٤٩٠).

(٢) الضيم الإذلال والقهر، أى ملك لا يقهر ولا يذل.   (٣) أصل الكلمة فى الأثل العرب.

فحملوا إلى صور مكرمين، وحمل الجميع فى المركب، وطابت لهم الريح، فكانوا فى اليوم الحادى عشر متعلقين بأرض الروم فقربوا من الخليج، فإذا قد أحكم فمه بالسلاسل والمنعة من الموكولين به، فطرح البطريق، وحمل من وقته إلى الملك ومعه الهدايا والأمتعة، وتباشرت الروم بقدومه، وتلقوه مهنئين له بخلاصه من الأسر، فكافأ الملك معاوية على ما كان من فعله فى أمر البطريق والهدايا، فلم يكن يستضام أسير من المسلمين فى أيامه، وقال الملك: هذا أدهى العرب وأمكر الملوك، ولهذا قدمته العرب عليها، فأساس أمورها، ولو هَمَّ بأخذى لتمت له الحيلة عليَّ[1]. وهذه القصة دليل على دهاء معاوية رضى الله عنه وحسن سياسته واهتمامه بأمور رعيته والمحافظة على حقوق كل فرد فيها وصيانة كرامته[2].

٤- عقليته الفذة وقدرته على الاستيعاب:

امتاز معاوية رضى الله عنه بالعقلية الفذة، فإنه كان يتمتع بالقدرة الفائقة على الاستيعاب، فكان يستفيد من كل ما يمر به من الأحداث، ويعرف كيف يتوقاها، وكيف يخرج منها إذا تورط فيها، وكانت خبراته الواسعة وممارسته لأعباء الحكم على مدى أربعين سنة، منذ ولاه عمر رضى الله عنه الشام، فكانت ولايته على الشام عشرين سنة أميرًا، وعشرين سنة خليفة[3]، هذه الفترة الطويلة التى تقلب فيها بين المناصب العسكرية والولاية المدنية أكسبته خبرة فى سياسة البلاد، والاستفادة من كل الظروف والأوضاع التى تمر بها، حتى استطاع أن يسير بالدولة عشرين سنة دون أن ينازعه منازع[4]، يقول الشيخ الخضرى: أما معاوية نفسه، فلم يكن أحد أوفر منه يدًا فى السياسة، صانع رؤوس العرب، وكانت غايته فى الحلم لا تدرك، وعصابته فيه لا تنزع، ومرقاته فيه تزل عنها الأقدام[5]، ومن المعلوم أن السياسة الناجحة تتوقف على القدرة على ضبط النفس عند الغضب، واحتواء الشدائد حتى تنجلى، ولمعاوية فى ذلك نصيب وافر -رضى الله عنه- وكانت تلك سياسته مع العامة والخاصة، وهذه طريقته مع الملوك والسوقة، وهذه أمثلة من سياسته فى معاملة الناس:

---

(١) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة، ص (٤٩١).

(٢) المصدر نفسه، ص (٤٩١)، تعليق محقق الكتاب السيد سليمان معتوق الرفاعى رحمه الله .

(٣) الطبقات الكبرى (٧/٤٠٦).

(٤) الأمويون بين الشرق والغرب (١/٨٢) .

(٥) الدولة الأموية للخضرى، ص (٣٧٧).

أ- المسور بن مخرمة -رضى الله عنه- واعتراضه على معاوية:

عن عروة بن الزبير: أن المسور بن مخرمة أخبره أنه قدم وافدًا على معاوية بن أبى سفيان فقضى حاجته، ثم دعاه فأخلاه فقال: يامسور ما فعل طعنك على الأئمة؟ فقال المسور: دعنا من هذا وأحسن فيما قدمنا له. قال: معاوية لا والله لتكلمنَّ بذات نفسك، والذى تعيب علىّ. قال المسور: فلم أترك شيًا أعيبه عليه إلا بينته له. قال معاوية: لا برىء من الذنب، فهل تعد يا مسور ما ألى من الإصلاح فى أمر العامة، فإن الحسنة بعشر أمثالها؟ أم تعد الذنوب وتترك الحسنات. قال المسور: لا والله ما نذكر إلا ما ترى من هذه الذنوب. قال معاوية: فإنا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه، فهل لك يامسور ذنوب فى خاصتك تخشى أن تهلكك إن لم يغفرها الله؟ قال مسور: نعم! قال معاوية: فما يجعلك أحق أن ترجو المغفرة منى؟ فو الله لما ألى من الإصلاح أكثر مما تَلى ولكن والله لا أُخير بين أمرين، وبين الله وغيره إلا اخترت الله تعالى على ما سواه، وأنا على دين يقبل الله فيه العمل، ويجزى فيه بالحسنات، ويجزى فيه بالذنوب إلا أن يعفو عمن يشاء، فأنا أحتسب كل حسنة عملتها بأضعافها، وأوارى أمورًا عظامًا لا أحصيها ولا تحصيها من عمل لله فى إقامة صلوات المسلمين، والجهاد فى سبيل الله عز وجل، والحكم بما أنزل الله تعالى، والأمور التى ليست تحصيها وإن عددتها لك. قال المسور: فعرفت أن معاوية قد خصمنى حين ذكر لى ما ذكر. قال عروة: فلم يُسمع المسور بعد ذلك يذكر معاوية إلا استغفر له[1]. وفى هذا الخبر مثل جيد فى فن الإقناع ومحاولة امتصاص غضب المخالفين وتحويل قناعاتهم، فقد استطاع أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه أن يقنع المسور بن مخرمة رضى الله عنه بتقبل سياسته التى يسير عليها، وعاد مادحًا داعيًا له بعدما كان منتقدًا مهاجمًا له، وفى هذا الخبر لفتة تربوية من معاوية حيث أبان أنه من العدل فى الحكم على المسلم أن ينظر الحاكم عليه إلى حسناته وصوابه وأن ينظر إلى سيئاته وخطئه، ثم يوازن بين الجانبين، فلعل هذا المسلم الذى برزت أخطاؤه فى ذهن من تصدى لنقده تكون له حسنات كثيرة جليلة قد لا تعد أخطاؤه إلى جانبها شيئًا مذكورًا[2].

---

(١) تاريخ بغداد (١/٢٠٨، ٢٠٩)، سير أعلام النبلاء (٣/١٥١) .

(٢) التاريخ الإسلامى (١٧، ١٨، ٥٣٩) .

ب ـ ثابت بن قيس بن الخطيم الأنصارى رضى الله عنه:

كان ثابت بن قـيس بن الخطيم، شديد النفس، وكان له بلاء مع على بن أبى طالب، واستعمله على المدائن، فلم يزل عليها حتى قدم المغـيرة بن شعبة الكوفة، وكان معاوية يتقى مكانه. انصرف ثابت بن قيس إلى منزله فوجد الأنصار مجتمعة فى مسجد بنى ظفـر يريدون أن يكتبوا إلى معاوية فى حقوقـهم أول ما استخلف، فقال: ما هذا؟ فقالوا: نريد أن نـكتب إلى معاوية. فقال: مـا تصنعون أن يكتب إليه جماعـة؟! يكتب إليه رجل منا، فإن كانت كائنة برجل منكم فـهو خير من أن تقع بكم جمـيعًا وتقع أسـماؤكم عنده، فقـالوا: فمن ذلك الذى يبذل نفـسه لنا؟ قال: أنا. قالوا: فشأنك، فكتب إليه وبدأ بنفسه فذكر أشياء منها: نصرة النبى ﷺ وغير ذلك. وقال: حبست حـقوقنا واعتديت علينا وظلمتنا، ومالنا إليك ذنب إلا نصرتنا للنبى ﷺ، فلما قدم كتابه إلى معاوية دفـعه إلى يزيد فقرأه ثم قال له: ما الرأى؟ فقال: تبعث فتصلبه على بابه، فدعا كبراء أهل الشام فاستشارهم، فقالوا: تبعث إلـيه حتى تقـدم به ههنا وتقفـه لشيـعتك ولأشراف النـاس حتى يروه، ثم تصلبه. فقال: هل عندكم غير هذا؟ قالوا: لا، فكتب إليه: قد فهمت كتابك، ولما ذكرت النبى ﷺ، وقـد علمت أنها كانت ضجـرة لشغلى وما كنت فيـه من الفتنة التى شهرت فيها نفسك، فأنظرنى ثلاثًا، فقدم كتابه على ثـابت فقرأه على قومه، وصبَّحـهم العطاء فى اليوم الرابع[1]. فهذا الخـبر فيه مـوقف كبير لأمـير المؤمنين معاوية رضى الله عنه فى الحكمة والسياسة، فهو بعد أن استشار ابنه يزيد وبعض وجهـاء الشام لم يعـجبـه رأيهم، ولـم يوافقـهم على أخذ الناس بالشـدة والعنف والجبروت، بل سارع إلى إرسال عطاء الأنصار رضى الله عنهم، ولم يؤاخذ ثابت ابن قيس رضى الله عنه على شـدة اللهجة فى كتـابه إليه، وبهذا التصرف الحكيم والسياسـة الرشيدة لم يخسر شيـئًا بل كسب رضا الأنصار عنه ورضـا غيرهم ممن يطلع على خبره معهم، ولو أنه أخذ بمشورة السذج المتجبرين فبطش بصاحب ذلك الكتاب لثار عليه الأنصار، ولناصرهم طوائف من المسلمين لشهرتهم ومكانتهم فى الإسلام[2].

---

(١) تاريخ بغداد (١/١٧٦) .

(٢) التاريخ الإسلامى (١٧/٥٣٧) .

جـ - الأحنف بن قيس - رحمه الله -:

ذكر ابن خلكان في ترجمته: ثم إن عبيد الله - يعني ابن زياد أمير العراق - جمع أعيان العراق -وفيهم الأحنف- وتوجه بهم إلى الشام للسلام على معاوية، فلما وصلوا دخل عبيد الله على معاوية وأعلمه بوصول رؤساء العراق، فقال: أدخلهم عليَّ أولاً فأوَّل على قدر مراتبهم عندك، فخرج إليهم وأدخلهم على الترتيب كما قال معاوية، وآخر من دخل الأحنف، فلما رآه معاوية - وكان يعرف منزلته ويبالغ في إكرامه لتقدمه وسيادته - قال: إليَّ يا أبا بحر، فتقدم إليه فأجلسه معه على مرتبته، وأقبل عليه يسأله عن حاله ويحادثه، وأعرض عن بقية الجماعة. قال: ثم إن أهل العراق أخذوا في الشكر في عبيد الله والثناء عليه، والأحنف ساكت، فقال له معاوية: لم لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال: إن تكلمت خالفتهم، فقال له معاوية: اشهدوا على أنني قد عزلت عبيد الله عنكم، قوموا وانظروا في أمير أوليه عليكم وترجعون إليَّ بعد ثلاثة أيام. قال: فلما خرجوا من عنده كان فيهم جماعة يطلبون الإمارة لأنفسهم، وفيهم من عيَّن غيره، وسعوا في السِّر مع خواص معاوية أن يفعل لهم ذلك، ثم اجتمعوا بعد انقضاء الثلاثة كما قال معاوية، والأحنف معهم، ودخلوا عليه فأجلسهم على ترتيبهم في المجلس الأول، وأخذ الأحنف إليه كما فعل أولاً وحادثه ساعة، ثم قال: ما فعلتم فيما انفصلتم عليه؟ فجعل كل واحد يذكر شخصًا وطال حديثهم في ذلك وأفضى إلى منازعة وجدال، والأحنف ساكت، ولم يكن في الأيام الثلاثة تحدث مع أحد في شيء، فقال له معاوية: لم لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال الأحنف: إن ولَّيت أحدًا من أهل بيتك لم تجد من يعدل عبيد الله ولا يسد مسدَّه، وإن وليت من غيرهم فذلك إلى رأيك، ولم يكن في الحاضرين الذين بالغوا في المجلس الأول في الثناء على عبيد الله من ذكره في هذا المجلس ولا سأل عوده إليهم. قال: فلما سمع معاوية مقالة الأحنف قال للجماعة: اشهدوا على أني قد أعدت عبيد الله إلى ولايته، فكل منهم ندم على عدم تعيينه، وعلم معاوية أن شكرهم لعبيد الله لم يكن لرغبتهم فيه، بل كما جرت العادة في حق المتولي. قال: فلما فصل الجماعة من مجلس معاوية خلا بعبيد الله وقال له: كيف ضيعت مثل هذا الرجل -يعني الأحنف-؟ فإنه عزلك وأعادك إلى الولاية وهو ساكت، وهؤلاء الذين قدمتهم عليه واعتمدت عليهم لم ينفعوك ولا

عرجوا عليك لما فوضت الأمر إليهم، فمثل الأحنف من يتخذه الإنسان عونًا وذخرًا، قال: فلما عادوا إلى العراق أقبل عليه عبيد الله وجعله بطانته وصاحب سره[1]. وفى هذا الخبر موقف لمعاوية رضى الله عنه حينما علم قدر الأحنف بن قيس -رحمه الله- وأدرك رفعة منزلته، فرفعه وأدناه منه، وأظهر له كثيرًا من الاهتمام والاحترام وهذا كما أنه يعتبر من تقدير أهل الفضل فهو يعتبر من السياسة الجيدة فى احتواء أهل القوة والتأثير على الناس، واستيعابهم[2]. ومن القصص التى حدثت بين معاوية والأحنف والتى تدل على سعة صدر معاوية ومعرفته بعواقب الأمور، فعندما استقر الأمر لمعاوية دخل عليه يومًا، فقال له معاوية: والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة فى قلبى إلى يوم القيامة؟ فقال له الأحنف: والله يا معاوية إن القلوب التى أبغضناك بها لفى صدورنا، وإن السيوف التى قاتلناك بها لفى أغمادها، وإن تدن من الحرب فترًا ندن منه شبرًا، وإن تمشى اليها نهرول إليها، ثم قام وخرج، وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه فقالت: يا أمير المؤمنين من هذا الذى يتهدد ويتوعد؟ قال: هذا الذى إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من تميم، لا يدرون فيم غضب[3].

د- أبو قتادة الأنصارى رضى الله عنه:

ذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب وجاء بالسند فقال: من جامع معمر رواية عبد الرزاق[4]، قال: حدثنا معمر، عن عبد الله بن محمد بن عقيل: أن معاوية لما قدم المدينة لقيه أبو قتادة الأنصارى ، فقال له معاوية: يا أبا قتادة، لم يكن معنا دواب، قال معاوية: فأين النَّواضح؟ قال أبو قتادة: عقرناها فى طلبك، وطلب أبيك يوم بدر، قال: نعم يا أبا قتادة، قال أبو قتادة: إن رسول الله ﷺ قال لنا: إنَّا سنرى بعده أثرة، قال معاوية: فما أمركم به عند ذلك؟ قال: أمرنا بالصبر، قال: فاصبروا حتَّى تلقوه[5].

---

(1) وفيات الأعيان (٢/ ٥٠٣، ٥٠٤). .
(2) التاريخ الإسلامى (١٧/ ٢٤) .
(3) وفيات الاعيان (٢/١٨٦) .
(4) مصنف عبد الرزاق رقم (٩-١٩٩) وهو مرسل، فإن عبد الله بن محمد بن عقيل لم يدرك معاوية، وأبا قتادة، ,وابن عقيل ليس بذاك. وإما إخبار النبى ﷺ للأنصار بأنهم سيرون بعده أثرةً وأمره لهم بالصبر حق يأتوه فثابت من حديث أسيد بن حضير عند البخارى رقم (٣٧٩٢)، ومسلم رقم (١٨٤٥)، الاستيعاب، ص (٦٧٠).
(5) الاستيعاب، ص (٦٧٠) رقم الترجمة (٢٣٤٦).

٥- تواضعه وورعه:

ومن صفات معاوية رضى الله عنه التى اشتهر بها صفة التواضع، فقد كان فى خطبه العامة يعترف بأن فى الناس من هو خير منه وأفضل، وكان ذلك بعد أن تولى أمر المسلمين، واجتمع عليه الناس، فأصبح الأمير الذى لا ينازع، خطب مرة فقال: أيها الناس ما أنا بخيركم، وإن منكم لمن هو خير منى، عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وغيرهما من الأفاضل، ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية، وأنكاكم فى عدوكم، وأدرككم حلبًا[1]، وروى الإمام أحمد بسنده إلى على بن أبى حملة عن أبيه قال: رأيت معاوية على المنبر بدمشق يخطب الناس وعليه قميص مرقوع[2]، وعن يونس بن ميسر الحميرى قال: رأيت معاوية فى سوق دمشق، وهو مردف وراءه وصيفًا، وعليه قميص الجيب، يسير فى أسواق دمشق[3]، وبلغ من ورعه أنه لما رأى إحدى جواريه، ونظر إليها بشهوة، ولكنه شعر بعجزه عن وطئها، قال لمن أحضرها إليه: اذهب بها إلى يزيد بن معاوية، ثم قال: لا، ادْعُ لى ربيعة بن عمرو الجرشى ـ وكان ربيعة فقيهًا ـ فلما دخل عليه قال: إن هذه أتيت بها مجردة، وقد رأيت منها ذلك وذلك، وإنى أردت أن أبعث بها إلى يزيد. فقال ربيعة: لا تفعل يا أمير المؤمنين: فإنها لا تصلح له، فقال معاوية: نعم ما رأيت، ثم وهب معاوية الجارية لعبد الله بن مسعدة الفزارى، مولى فاطمة بنت رسول الله ﷺ وكان أسود، فقال له: بيض بها ولدك[4]. ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله: وهذا من فقه معاوية وتحريه، حيث كان نظر إليها بشهوة، ولكن استعفف نفسه عنها، فتحرج أن يهبها لولده يزيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٢٢]، وقد وافقه على ذلك ربيعة بن عمرو الجرشى الدمشقى[5].

٦- بكاؤه من خشية الله:

روى فى مجلس معاوية رضى الله عنه حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ، فى أن أول من تسعر بهم النار يوم القيامة -من أمة محمد- القارى المرائى، والمنفق

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٦). (٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٢)، الزهد، ص(١٧٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٢)، من سب الصحابة ومعاوية فأمه هاوية، ص (١٢٩).

(٤) البداية والنهاية (١١/ ٣٩٦). (٥) المصدر نفسه (١١/ ٣٩٦).

المرائى، والمجاهد المرائى، وبيَّن رسول الله ﷺ ذلك حيث قال: إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضى بينهم، وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ورجل يقتل فى سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارىء: ألم أعلمك ما أنزلت على رسلى؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت. ويقول الله: بل أردت أن يقال إن فلانًا قارىء، فقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان جواد، فقد قيل ذلك، ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله، فيقول الله له:فبماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت. فيقول الله تعالى له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جرىء فقد قيل ذلك ، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتى فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة . فعند ما سمع معاوية هذا الحديث قال: قد فُعل بهؤلاء هذا، فكيف بمن بقى من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديدًا حتى ظن من حوله أنه هالك، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (1) [هود: ١٥، ١٦].

هذه أهم صفات معاوية التى خرجت لى عند البحث فى سيرته.

ثالثًا: ثناء العلماء على معاوية ودخول دولة بنى أمية فى خير القرون:

١- عمر بن الخطاب رضى الله عنه: قال عمر بن الخطاب: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية(2)، وقال أبو محمد الأموى: خرج عمر بن الخطاب إلى الشام فرأى معاوية فى موكب يتلقاه، وراح إليه فى موكب، فقال له

(١) رواه الترمذى والحاكم عن أبى هريرة، وصححه الألبانى (١٧١٣).

(٢) المعجم الكبير (٥/ ٣٣٠) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٨٣).

عمر: يا معاوية، تروح فى موكب وتغدو فى مثله، وبلغنى أنك تصبح فى منزلك وذوو الحاجات ببابك قال: يا أمير المؤمنين إن العدو قريب منا، ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزًا، فقال له عمر: إن هذا لكيد رجل لبيب، أو خدعة رجل أريب؛ فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، مرنى بما شئت أصر إليه؛ قال: ويحك، ما ناظرتك فى أمر أعيب عليك فيه إلا تركتنى ما أدرى آمرك أم أنهاك[1].

٢- على بن أبى طالب رضى الله عنه: قال أمير المؤمنين على رضى الله عنه: لا تكرهوا إمارة معاوية، فوالله لئن فقدتموه لترون رؤوسًا تندر عن كواهلها، كأنها الحنظل[2]. فهذا توجيه من أمير المؤمنين على لأصحابه لعدم كراهيتهم إمارة معاوية.

٣- عبدالله بن عمر رضى الله عنه قال: ما رأيت أحدًا أسود من معاوية، قال: قلت: ولا عمر؟ قال: كان عمر خيرًا منه وكان معاوية أسود[3] منه: وفى رواية: مارأيت أحدًا بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية. قيل: ولا أبا بكر؟ قال: كان أبو بكر وعمر وعثمان خيرًا منه، وهو أسود منهم[4].

٤- عبد الله بن عباس رضى الله عنه: قال رضى الله عنه: ما رأيت رجلاً كان أخلق بالملك من معاوية[5]، وفى صحيح البخارى أنه قيل لابن عباس: هل لك فى أمير المؤمنين معاوية، فإنه ما أوتر إلا بواحدة؟ قال: إنه فقيه[6]، وذكر ابن عباس معاوية فقال: لله درُّ ابنِ هند ما أكرم حسبه وأكرم مقدرته، والله ما شتمنا على منبر قط، ولا بالأرض ضنًّا منه بأحسابنا وحسبه[7]. وحين عزى معاوية عبدالله بن عباس فى الحسن بن على بقوله: لا يخزيك الله ولا يسوؤك فى الحسن، فقال له ابن عباس: أما ما أبقى الله لى أمير المؤمنين، فلن يسوءنى الله ولن يخزينى[8].

---

(١) أنساب الأشراف (٤/١٤٧)، الاستيعاب رقم الترجمة (٢٣٤٦)، مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٨٤).

(٢) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٠).

(٣) المصدر السابق (١١/٤٣٨).

(٤) المصدر السابق (١١/٤٣٨).

(٥) المصدر السابق (١١/٤٣٩).

(٦) البخارى، رقم (٣٧٦٥).

(٧) تاريخ دمشق (٦٢/ ١٢٨، ١٢٩).

(٨) مختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٦٧، ٦٨).

٥- سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه: قال رضى الله عنه: ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بحقٍّ من صاحب هذا الباب، يعنى: معاوية[١].

٦- أبو هريرة رضى الله عنه: كان يمشى فى سوق المدينة وهو يقول: ويحكم تمسكوا بصدغى معاوية، اللهم لا تدركنى إمارة الصبيان[٢].

٧- أبو الدرداء رضى الله عنه: ما رأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله من أميركم هذا- يعنى معاوية[٣]-. قال ابن تيمية بعد أن أورد أثر ابن عباس السابق، وأثر أبى الدرداء هذا: فهذه شهادة الصحابة بفقهه ودينه والشاهد بالفقه ابن عباس ويحسن الصلاة أبو الدرداء، وهما هما، والآثار الموافقة لهذا كثيرة[٤].

٨- سعيد بن المسيب رحمه الله: قال ابن وهب عن مالك عن الزهرى قال: سألت سعيد بن المسيِّب عن أصحاب رسول الله ﷺ فقال لى: اسمع يا زهرى، من مات محبًا لأبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وشهد للعشرة بالجنة، وترحم على معاوية كان حقيقًا على الله أن لا يناقشه الحساب[٥].

٩- عبدالله بن المبارك -رحمه الله- قال: معاوية عندنا محنة، فمن رأيناه ينظر إليه شزرًا، اتهمناه على القوم، يعنى الصحابة[٦]. وسئل ابن المبارك عن معاوية فقال: ما أقول فى رجل قال رسول الله ﷺ: سمع الله لمن حمده. فقال خلفه: ربَّنا ولك الحمد؟ فقيل: أيُّهما أفضل هو أم عمر بن عبد العزيز؟ فقال: لتراب فى منخرى معاوية مع رسول الله ﷺ خير وأفضل من عمر بن عبدالعزيز[٧].

١٠- عمر بن عبد العزيز رحمه الله: قال ابن المبارك عن محمد بن مسلم عن إبراهيم بن ميسرة قال: ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب إنسانًا قط إلا إنسانًا شتم معاوية، فإنه ضرب أسواطا[٨].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٠).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٥/٧٩)، أثر العلماء، ص (٨٤).

(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٩/٣٥٧)، رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير قيس بن الحرث المدحجى.

(٤) منهاج السنة (٦/ ٢٣٥).

(٥) البداية والنهاية (١١/٤٤٩).

(٦)، (٧) المصدر نفسه (١١/٤٤٩).

(٨) المصدر نفسه (١١/٤٥١).

١١- وقال محمد بن عبدالله بن عمار الموصلي وغيره: سُئل المعافى بن عمران: أيهما أفضل معاوية أم عمر بن عبد العزيز؟ فغضب وقال للسائل: أتجعل رجلاً من الصحابة مثل رجل من التابعين، معاويةصاحبه، وصهره، وكاتبه، وأمينه على وحي الله[1].

١٢- أحمد بن حنبل -رحمه الله-: سئل الإمام أحمد: ما تقول رحمك الله فيمن قال: لا أقول إن معاوية كاتب الوحي، ولا أقول إنه خال المؤمنين فإنه أخذها بالسيف غصبًا؟ قال أبو عبد الله: هذا قول سوءٍ رديء، يُجانبون هؤلاء القوم، ولا يجالسون، ونبين أمرهم للناس[2].

١٣- الربيع بن نافع الحلبي - رحمه الله-: قال: معاوية ستر لأصحاب محمد ﷺ، فإذا كشف الرجل الستر، اجترأ على ما وراء[3].

١٤- قال ابن أبي العز الحنفي: وأول ملوك المسلمين معاوية، وهو خير ملوك المسلمين[4].

١٥- القاضي بن العربي المالكي: -رحمه الله-: تحدث ابن العربيٍ عن الخصال التي اجتمعت في معاوية رضي الله عنه، فذكر منها: ... قيامه بحماية البيضة، وسدِّ الثغور، وإصلاح الجند، والظهور على العدوِّ، وسياسة الخلق[5]، وقال في موضع آخر من كتابه العواصم من القواصم: فعمر ولاه، وجمع له الشَّامات كلّها، وأقرَّه عثمان، بل إنَّما ولاه أبو بكر الصَّديق، لأنَّه ولي أخاه يزيد، واستخلفه يزيد، فأقرّه عمر، فتعلَّق عثمان بعمر وأقرَّه، فانظر إلى هذه السِّلسلة ما أوثق عُراها[6]. وثبت أن رسول الله ﷺ استكتبه، ثمَّ صالحه، وأقرَّ له بالخلافة الحسن بن عليٍّ سبط رسول الله ﷺ[7].

١٦- يقول ابن تيمية - رحمه الله -: واتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة، فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة، وهو أول الملوك، كان ملكه ملكًا

---

(١) البداية والنهاية(١١/ ٥٠٤).
(٢) الخلاَّل، السنة (٢/ ٤٣٤) إسناده صحيح.
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٥٠٤).
(٤) شرح العقيدة الطحاوية، ص (٧٢٢).
(٥) العواصم من القواصم، ص(٢١٠، ٢١١).
(٦) المصدر نفسه، ص (٨٢).
(٧) عثمان بن عفان للصَّلاَّبي، ص(٣٠٠)، المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٦).

ورحمة[1]، وقال: فلم يكن من ملوك المسلمين خيرًا منهم فى زمان معاوية[2]، إذا نسبت أيامه إلى أيام من بعده، أما إذا نسبت إلى أيام أبى بكر وعمر ظهر التفاضل، وذكر ابن تيمية قول الأعمش عندما ذكر عنده عمر بن العزيز فقال: فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: فى حلمه، قال: لا والله فى عدله.

١٧- وقال الذهبى - رحمه الله -: أمير المؤمنين، ملك الإسلام[3] .وقال: ومعاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم، وما هو ببرىء من الهَنَات، والله يعفو عنه[4]، وحسبك بمن يؤمره عمر ثم عثمان على إقليم - هو ثغر- فيضبطه ويقوم به أتم قيام، ويرضى الناس بسخائه وحلمه . . . فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله وفرط حلمه وسعة نفسه وقوة دهائه ورأيه[5].

١٨- وقال ابن كثير -رحمه الله -: وأجمعت الرعايا على بيعته فى سنة إحدى وأربعين . . فلم يزل مستقلاً بالأمر حتى هذه السنة التى كانت فيها وفاته، والجهاد فى بلاد العدو قائم، وكلمة الله عالية، والغنائم تَرِد إليه من أطراف الأرض، والمسلمون معه فى راحة وعدل، وصفح وعفو[6]، وقال: كان حليمًا، وقورًا، رئيسًا، سيدًا فى الناس، كريمًا، عادلا، شهمًا[7]. وقال عنه أيضًا: كان جيد السيرة، حسن التجاوز، جميل العفو، كثير الستر، رحمه الله تعالى[8].

١٩- قال ابن خلدون -رحمه الله-: وقد كان ينبغى أن تلحق دولة معاوية وأخباره بدول الخلفاء وأخبارهم، فهو تاليهم فى الفضل والعدالة والصحبة. . والحق إن معاوية فى عداد الخلفاء وإنَّما أخَّره المؤرخون فى التأليف عنهم لأمرين:

الأول: إن الخلافة لعهده كانت مغالبة لأجل ما قدّمناه من العصبية التى حدثت لعصره، وأما قبل ذلك فكانت اختيارًا واجتماعًا، فيميزوا بين الحالتين. فكان معاوية أوّل خلفاء المغالبة والعصبية الذين يعبرّ عنهم أهل الأهواء بالملوك، ويشبِّهون بعضهم ببعض، وحاشا لله أن يشبَّه معاوية بأحد ممَّن بعده. فهو من الخلفاء الراشدين، ومن

(١) الفتاوى (٤/ ٤٧٨).

(٢) منهاج السنة (٦/ ٢٣٢) (٣/ ١٨٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٠).

(٤) المصدر نفسه (٣/ ١٥٩).

(٥) المصدر نفسه (٣/ ١٣٢، ١٣٣).

(٦) البداية والنهاية (١١/ ٤٠٠).

(٧) المصدر نفسه (١١/ ٣٩٧).

(٨) المصدر نفسه (١١/ ٤١٩).

تلوه فى الدين والفضل من الخلفاء المروانيَّة ممن تلاه فى المرتبة كذلك، وكذلك من بعدهم من خلفاء بنى العباس، ولا يقال: إن الملك أدون رتبة من الخلافة، فكيف يكون خليفة ملكًا، واعلم أن الملك الذى يخالف بل ينافى الخلافة هى الجبروتية المعبَّر عنها بالكسروية التى أنكرها عمر على معاوية حين رأى ظواهرها، وأما الملك الذى هو الغلبة والقهر بالعصبية والشوكة، فلا ينافى الخلافة ولا النبوَّة، فقد كان سليمان بن داود وأبوه صلوات الله عليهما نبيَّين وملَكيْن، كانا على غاية الاستقامة فى دنياهما وعلى طاعة ربِّهما عز وجل. ومعاوية لم يطالب الحكم ولا أبَّهته للاستكثار فى الدنيا، وإنما ساقه أمر العصبية بطابعها لمَّا استولى المسلمون على الدولة كلّها، وكان هو خليفتهم فدعاهم بما يدعو الملوك إليه قومهم، عندما تستفحل العصبية وتدعو لطبيعة الملك، وكذلك شأن الخلفاء أهل الدين من بعده، إذا دعتهم ضرورة الملك إلى استفحال أحكامه ودواعيه، والقانون فى ذلك عرض أفعالهم على الصحيح من الأخبار، لا بالواهى، فمن جرت أفعاله عليها فهو خليفة النبى ﷺ فى المسلمين، ومن خرجت أفعاله غير ذلك فهو من ملوك الدنيا، وإن سمى خليفة بالمجاز.

الأمر الثانى: فى ذكر معاوية مع خلفاء بنى أمية دون الخلفاء الأربعة إنهم كانوا أهل نسب واحد، وعظيمهم معاوية فجعل مع أهل نسبه، والخلفاء الأولون مختلفون الأنساب، فجعلوا فى نمط واحد، وألحق بهم عثمان، وإن كان من أهل هذا النسب للحوقه بهم قريبًا فى الفضل(١).

وكلام ابن خلدون ليس على إطلاقه وفيه نوع من المبالغة، فهذه بعض أقوال علماء الأمة من الصحابة والتابعين ومن تلاهم على الثناء على معاوية رضى الله عنه أنه من ملوك المسلمين ومن خيارهم الذين غلب عدلهم وظلمهم، وما هو ببرىء من الهنات، والله يعفو عنه، وهو على دين كما قال عن نفسه: يقبل الله فيه العمل ويجزى فيه بالحسنات، ويجزى فيه بالذنوب إلا أن يعفو عمن يشاء. ولقد تعّرض معاوية رضى الله عنه ودولته ودولة بنى أمية عمومًا لسهام بعض الكتاب، وزعم بعضهم أنها دولة مدنية، وقال بعضهم: أنها كانت دولة عربية ولم تكن دولة إسلامية؛ بل قال بعضهم: إنها دولة علمانية لاصلة لها بالدين، ولا

(١) تاريخ ابن خلدون، ص (٥٢٨، ٥٢٩).

بالأخلاق، وهذه فرية تكذبها حقـائق الدين وشواهد التاريخ، أما حقائق الدين، فقـد بدأت دولة بنى أمية سنة ٤٠هـ من الهـجرة، واستـمرت إلى سنة ١٣٢هـ. فقـد شملت القـرون الثلاثة التى هى خـير قرون الأمـة: قرن الصـحابة، وقرن التابعين، وقرن أتبـاع التابعـين[١] وهى التى جـاءت بها الأحـاديث الصحـاح المستفيضة عن رسـول الله ﷺ؛ مثل حديث ابن مسعود: «خير القرون قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[٢]، ومثله حـديث عمران بن حـصين: «خيـركم قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» قال عمران لا أدرى أذكر النبى بعد قرنين أو ثلاثة.[٣] وكذلك حديث أبى سـعيد الخدرى مرفوعًا: قـال: يأتى زمان يغزو فئـام من الناس فيـقال: فـيكم من صحب أصـحاب النبـى ﷺ؟ فيقـال: نعم، فيفتح. ثم يأتى زمان، فيقال: فيكم من صحب من صحب أصحاب النبى ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح[٤].

ومعنى قول: «قرنى» أى أهل عصرى. وهم الصحابة ثم قرن التابعين، ثم قرن الأتباع، وبعض الشرّاح حـددوا القرن بزمن، فقـال بعضهم: القـرن أربعون سنة، وبعضـهم قال: ثمـانون سنة. وبعضـهم جعله مـائة سنة، وهو الذى اشتـهر فى الاستعمال الآن، وأمسى حقيقة عرفيـة. وتكون القرون المفضلة والموصوفة بالخيرية على هذا ثلاثمـائة سنة. وهذا غيـر منسجم مع منطق الواقع التـاريخى، فالراجح تفسيره بِما ذكرنا، من عصر الصحابة، وعصر التابعين، وعصر الأتباع[٥]. ومن الأحاديث الصحيحة التى يستدل بها على منزلة الدولة الأموية من الإسلام. ماروّاه البخارى فى صحـيحه عن خالد بن مهران: أن عمـير بْن الأسود العنْسى حدثه أنه أتى عبـادة بن الصامت، وهو نازل فى ساحـة حمص، وهو فى بناء له، ومعه أم حَرام (زوجه) قال عمر: حدثتنا أم حرام أنها سمعت النبى ﷺ يقول: «أول جيش من أمتى يغزون البحـر قد أوجبوا». (أى فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة)، قالت أم حرام: قلت: يا رسول الله، أنا فيهم؟ قال: أنت فيهم. ثم قال النبى ﷺ: «أول

---

(١) تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوى ص (٦٢).

(٢) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم (١٦٤٥).

(٣) المصدر نفسه رقم (١٦٤٦).

(٤) المصدر نفسه رقم (١٦٤٧).

(٥) تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوى، ص (٦٣).

جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: لا»[1]، ومدينة قيصر هى القسطنطينية، عاصمة الدولة البيزنطية[2]. قال الشراح: فى هذا الحديث منقبة لمعاوية؛ لأنه أول من غزا البحر، وذلك فى خلافة عثمان، مازال معاوية يغريه بالغزو فى البحر، حتى استجاب له، وبدأ الأسطول الإسلامى منذ عهد عثمان، ثم اتسع وازداد فى عهد معاوية[3]، وفى هذه الغزوة مات أبو أيوب الأنصارى وكان فى هذا الجيش رضى الله عنه، فأوصى أن يدفن عند باب القسطنطينية، والذى يهمنا هو أن هذا الجيش المغفور له بالجملة، كان فى عهد بنى أمية. إذ كانت هذه الغزوة سنة اثنين وخمسين من الهجرة النبوية، أى فى عهد معاوية، ومن نظر فى سيرة معاوية بعد أن آلت إليه الخلافة، وبعد تنازل الحسن السبط رضى الله عنه له، وتأمل هذه السيرة بإنصاف وجد الرجل حريصًا على إقامة الإسلام فى شعائره وشرائعه، وعلى اتباع السنة النبوية فى مجالات الحياة المختلفة.

****

(١) البخارى رقم (٢٩٢٤).

(٢) تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوى، ص (٦٣).

(٣) المصدر نفسه، ص (٦٣).

المبحث الثانى

العلاقة بين الأمة ومعاوية كرئيس الدولة الإسلامية

للخليفة كما للأمة حقوق، كما أن على كل منها واجبات مطالبًا بها محاسبًا عليها، وإليك شىء من الإيضاح:

أولا: واجبات الخليفة:

بيَّن الفقهاء الواجبات الملقاة على عاتق رئيس الدولة، وحددوها التحديد الذى يوضح مدى ما هو موكول إليه من المهام، ومهما اختلفت أساليب العلماء فى التعبير عن هذه الواجبات وتعدادها، فإنه يمكن القول إن هذه الواجبات فى حقيقتها لا تتعدى المحافظة التامة على المصالح الدينية والدنيوية، وإليك هذه الواجبات:

١- العمل بشتى الوسائل على أن يكون الدين مصونًا عن كل ما يسىء إليه، سواء فى هذا ما يتعلق بالعقيدة الإسلاميه، أو ما يتعلق بغيرها، وهذا الواجب ما عبر عنه الماوردى قائلاً: هو حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة، وبيَّن له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروسًا من خلل، والأمة ممنوعة من زلل[1].

٢- نصب القضاة ليحكموا بين الناس بشريعة الله، حتى لا يكون هناك معتدٍ لا يخاف جزاء، ولا مظلوم لا يستطيع وصولاً إلى حق كفله الشارع له[2]، وسوف نتعرف على مؤسسة القضاء فى عهد الدولة الأموية فى هذا الكتاب.

٣- توفير الأمن لكل آحاد الأمة، حتى يستطيع كل فرد أن ينصرف إلى سبيل عيشه آمنًا على نفسه وأهله وماله.

٤- إقامة الحدود التى بينها الله سبحانه على مقترفى كل جريمة تستأهل حدًا، لا يفرق فى ذلك بين شريف وحقير، حتى تصان محارم الله من الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده عن إتلاف واستهلاك كما هو تعبير الماوردى[3].

(١) الأحكام السلطانية، ص (١٥). (٢) رئاسة الدولة فى الفقه الإسلامى، ص (٣٥٦).

(٣) الأحكام السلطانية، ص (١٦)، رئاسة الدولة فى الفقه الإسلامى، ص (٣٥٧).

٥- إحاطة ثغور البلاد بسياج منيع من القوة، حتى لا يجد أعداء الإسلام ثغرة يتسللون منها إلى ضرب الأمة على حين غفلة، فيجب على رئيس الدولة أن يعمل على استكمال كل الوسائل التى تكلف الأمة الحماية التامة من شرور الأعداء.

٦- جهاد أعداء الإسلام الذين عاندوا دعوتهم إليه، حتى يدخلوا فى الإسلام أو يدخلوا فى الذمة.

٧- جباية الأموال المستحقة، سواء أكانت هذه الأموال صدقات أم فيئًا، وإخضاع ذلك إلى القواعد التى أوجبها الشارع نصًا واجتهادًا من غير زيادة أو نقصان فى الجباية، إذ أن الزيادة تقضى إلى خسران من تجب عليهم الزكوات، والنقصان مفضٍ إلى تضييق مجال الصرف على الفقراء والمساكين والعاملين ونحوهم.

٨- تقدير الحقوق والرواتب المستحقة فى بيت مال المسلمين، كالإعانات الاجتماعية للأسر المحتاجة، ورواتب الجند والموظفين، والعمل على إرساء قواعد تكون ضابطة لكل ما يتصل بهذا الواجب.

٩- اختيار الأكفاء الذين يثق فى مقدرتهم ودينهم وصلاحهم للمناصب القيادية التى توكل إليهم، حتى يسير دولاب الأعمال بيد الأمناء الذين يخافون الله، ولا يثبون على حقوق الناس.

١٠- الإشراف بنفسه على ما هو متصل بما يجب عليه نحو الأمة، ولا يترك الأمور تسير بدون إشراف مباشر منه، إذ إن كل تقصير من أى من عماله الذين وكل إليهم بعض الأمور، منسوب إليه، متحمل خطئه، محاسب عليه أمام الله إن قصر فى المتابعة، فإن الإمام راعٍ وهو مسؤل عن رعيته كما بين ذلك رسول الله ﷺ

١١- الشورى، لأنها من سمات الحكم الإسلامى[١].

وسوف نرى بإذن الله تعالى كيف تعامل معاوية رضى الله عنه، والخلفاء الأمويون من بعده مع هذه الواجبات، ولا نريد أن نستعجل الأحداث، وسنقف مع كل واجب من هذه الواجبات فى موقفه، ونرى قرب الخلفاء الأمويين وبعدهم من تطبيق هذه الواجبات.

---

(١) رياسة الدولة فى الفقه الإسلامى، ص (٣٥٨).

ثانيًا: حقوق الخليفة:

إن الخليفة له حقوقًا على الأمة من شأنها أن تعينه على القيام بما هو موكول إليه من المهام، وقد بين علماء الإسلام هذه الحقوق وأهمها:

١ - **طاعته والانقياد له في كل ما أمر به ونهى عنه:** ما دامت هذه الأوامر والنواهى فى المعروف، ولم تتعارض مع الأحكام التى بينتها شريعة الإسلام، فما دام الخليفة أو رئيس الدولة قد التزم فى أوامره ونواهيه جانب الشرع، فلم يحد فى ذلك عن الحدود التى رسمتها، له الشريعة، فله حق ولاء المواطنين جميعًا، سواء فى ذلك أهل الحل والعقد الذين بايعوه رئيسًا للأمة، وسائر المواطنين الذين يلزمهم الانقياد له بمجرد تمام هذه البيعة.

٢ - **القيام بنصرته إذا احتاج الأمر إلى ذلك:** فما دام يسير فى حكمه على طريق الحق فقد وجب على سائر الأمة نصرته على البغاة، وكل من رفع عليه السلاح، لأن نصرة الإمام الحق فى الواقع ما هى إلا نصرة للمسلمين وتأييد له فى العمل على أن يكون الدين قائمًا، وكف للمعتدين عن كل ما يمكن أن يصدر عنهم من جرائم.

٣ - **جعل راتب له مع مخصصات له:** تكفيه ومن يعوله، فإن رئيس الدولة سيشغل نفسه بواجبات الرياسة التى ستستحوذ على وقته، مما لا يترك له فرصة السعى فى اكتساب رزقه، فيجب أن يُجعل له راتب يغنيه، ويليق بهذا المنصب بحيث لا يكون فيه تقتير ولا إسراف، لأن رواتب الولاة والقضاة من أموال المسلمين التى يحتاط فى وجوه صرفها.

٤ - **إخباره بأحوال من ولاهم المناصب العامة** -كالولاة والقضاة- إذا انحرفوا عن الطريق الذين كلفوا بسلوكه، وذلك لأن الإمام مكلف شرعًا بمتابعة أعمال هؤلاء لإصلاح ما اعوج من أفعالهم، وتنبيههم إلى ما غفلوا عنه من وجوه المصلحة، وهو محاسب أمام الله على ما ارتكبه هؤلاء من أخطاء فى حق الله، والأمة، إذا هو قصر فى منع ذلك، ولا طاقة له على متابعة أعمالهم، ومراقبة سيرهم إلا إذا عاونته الأمة فى ذلك.

٥- تقديم جميع المساعدات إليه إن احتاج إلى ذلك فى أداء ما تحمله من أعباء مصالح الأمة لقوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ [المائدة: ٢] وولاة الأمور أحق من أعين على ذلك[١]. والأمة فى عمومها لم تبخل على أمير المؤمنين معاوية بحقوقه وعلى الخلفاء الذين جاءوا من بعده، ولم يخل الأمر من ثورات ضد الخلفاء سنبينها فى موضعها بإذن الله تعالى.

ثالثًا: عاصمة الدولة الأموية وأحاديث الرسول فى فضائل الشام:

كانت الشام إحدى الولايات الهامة فى الامبراطورية الرومانية الشرقية «البيزنطية»، بل كانت لقربها من بيت المقدس، وتاريخها القديم، أحد المراكز الحضارية فى هذه الامبراطورية، وكان العرب قبل الإسلام ينظرون إليها نظرة كبيرة، لما تحتويه من حضارة، فضلاً عما بها من خيرات وخضرة وأسواق، وتعتبر مدينة دمشق المدينة الأولى فى بلاد الشام، فهى قاعدتها ومدينتها العظمى، ولعبت دورًا كبيرًا فى تاريخ المنطقة، لذلك اتخذها الحاكم الرومانى قاعدة حكمه، ولما دخل الإسلام الشام، ودمشق خاصة، حافظ عليها، واحتفظ الولاة لها بميزاتها، وظل معاوية الوالى يعتنى بها طوال فترة ولايته عليها، وأقام علاقات وطيدة مع سكانها[٢]، وعرف أهمية القبائل اليمنية فى دمشق والشام، فتزوج من إحداها وهى بنى كلب وأنجب من زوجته الكلبية ابنه يزيد، فضمن ولاءهم له ولأبنائه من بعده، لأن الخؤولة من أبرز ما تتحزب له القبائل العربية، هذا فضلا عن أن التصاهر عند العرب بمثابة التحالف السياسى[٣]، وقد كان معاوية ذكيا فى اعتماده على القبائل اليمنية بدمشق والشام[٤]، ولما قامت الدولة الأموية، رأى معاوية أن الدولة الإسلامية توسعت وامتدت شرقًا وغربًا فلم يجد أفضل من دمشق عاصمة للخلافة الأموية، وذلك لأنها تقع بين جزءى العالم الإسلامى؛ الجزء الشرقى الذى يشمل العراق وفارس، والجزء الغربى الذى يشمل مصر والمغرب، فضلاً عن أن القبائل التى ارتبطت به أيدته ودعمت موقفه، وصارت يده الطولى فى تدعيم حكمه، أى

---

(١) رياسة الدولة فى الفقه الإسلامى، ص (٣٧٠ - ٣٧٤).

(٢) رجال الإدارة فى الدولة الإسلامية العربية، ص (١٣٥، ١٣٦).

(٣) الدولة الإسلامية فى العصر العباسى، ص (٤٢). (٤) المصدر نفسه، ص (٤٢).

أنها كانت القوة العسكرية والسياسية التى استند عليها الحكم والدولة الأموية، كما قدم له سكان البلد ما يمكن أن يقدموه من خبرة وعمل إدارى[1]، فقد وجد معاوية فى دمشق تقاليد عريقة فى الحكم والادارة، كما وجد جهازًا إداريًا متمرسًا ساعده على تأسيس مهمته فى فترة التأسيس هذه، التى لا تحتاج الإرادة الطيبة، فحسب، بل تحتاج الخبرة والمران اللذين وفرهما له جهاز الموظفين الذين كانوا يعملون فى ظل الإدارة البيزنطية فى الميدانين الإدارى والمالى، كما أنه لابد لنا أن نلاحظ أن حظ الشام من الحضارة كان أوفر من حظ الأمصار الأخرى، فالقبائل العربية التى هاجرت إليها، واستقرت فيها قبل الفتح كانت قد اعتادت فكرة الحكم المركزى وفكرة الدولة عمومًا، على عكس عرب العراق مثلاً الذين لم يتقبلوا هذه الفكرة بسهولة، وينطبق هذا على من سكن العراق منهم قبل الفتح وبعده، فالذين سكنوا العراق قبل الفتح كانوا فى خصومة وصراع دائمين مع الحكم الفارسى[2]، وسكان بلاد الشام كانوا قد اعتادوا الخضوع والتعايش مع البيزنطيين، كما أن العرب الذين هاجروا إلى الشام بعد الفتح لم يعيشوا فى معسكرات مستقلة، كما كانت الحال فى العراق (البصرة والكوفة)، بل عاشوا جنبًا إلى جنب مع السكان المحليين والقبائل التى كانت تقطن الشام قبلاً، وقد ساعد هذا الاختلاط على كسر حدة التمرد القبلى[3].

وقد ساعد على تحقيق انتصارات معاوية فى الخارج الجيش الشامى الذى جمعه ونظمه ودربه منذ أن كان واليًا، والذى أغدق عليه العطاء، ولم يبخل عليه بكل ما يوفر له سبل الرضا والإخلاص بعد أن غدا خليفة، وتعددت لقاءاته فى البر والبحر مع الامبراطورية البيزنطية، وقد ساعدت هذه اللقاءات المستمرة على إعطاء جيش الشام فرصًا كثيرة للتدريب العملى، وقدمت له الخبرة اللازمة[4].

كما كان لأحاديث رسول الله ﷺ أثرها فى هجرة الناس للشام، واعتزاز أهلها بالإسلام، وحرصهم على زعامة العالم الإسلامى، فالنبى ﷺ ميز أهل الشام بالقيام بأمر الله دائمًا إلى آخر الدهر، وبأن الطائفة المنصورة فيهم إلى آخر الدهر،

---

(١) رجال الإدارة فى الدولة الإسلامية العربية، ص (١٣٦).

(٢) تاريخ خلافة بنى أمية، نبيه عاقل، ص (٦٢).

(٣) المصدر نفسه، ص (٦٢)، الجذور التاريخية للأسرة الأموية، د. إحسان صدقى العمد، ص (٩٤).

(٤) رجال الادارة فى الدولة الإسلامية العربية، ص (١٣٦).

فهو إخبار عن أمر دائم مستمر فيهم مع الكثرة والقوة[1]، وقد كان معاوية يحتج لأهل الشام بحديث رسول الله ﷺ حيث قال: **«لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم، حتى تقوم الساعة»**[2]، فقام مالك بن يخامر يذكر أنه سمع معاذًا يقول: وهم[3] بالشام، فقال معاوية: وهذا مالك بن يخامر يذكر أنه سمع معاذا يقول: وهم بالشام. ومارواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: **«لايزال أهل الغرب ظاهرين»**[4]، قال الإمام أحمد: وأهل الغرب هم أهل الشام[5]. وذلك أن النبى ﷺ كان مقيمًا بالمدينة فما يغرب عنها فهو غربه، وما يشرق عنها فهو شرقه[6]. . . وقد أخبر أن الطائفة المنصورة القائمة على الحق من أمته بالمغرب وهو الشام وما يغرب عنها . . وكان أهل المدينة يسمون أهل الشام: أهل المغرب، ويقولون عن الأوزاعى: إنه إمام أهل المغرب[7]. فإذا دلت النصوص على أن الطائفة القائمة بالحق من أمته التى لا يضرها خلاف المخالف، ولا خذلان الخاذل هى بالشام، فهذا لا يعارض قوله ﷺ **«تقتل عمارًا الفئة الباغية»**[8]، وقوله فى الخوارج ﷺ **«تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»**[9]. ولا ريب أن هذه النصوص لابد من الجمع بينها، فيقال: أما قول ﷺ **«لا يزال أهل الغرب ظاهرين»**[10]، ونحو ذلك مما يدل على ظهور أهل الشام وانتصارهم، فهذا وقع وهذا هو الأمر فإنهم ما زالوا ظاهرين منتصرين[11]، وأما قوله عليه السلام: **«لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله»**[12]، والذى هو ظاهر، فلا يقتضى ألا يكون فيهم من فيه بغى، ومن غيره أولى بالحق منهم، بل فيهم هذا وهذا[13]. وأما قوله: **«تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»** فهذا دليل على أن عليًا ومن معه كان أولى بالحق إذ ذاك من الطائفة الأخرى، وإذا كان الشخص أو الطائفة مرجوحًا فى بعض الأحوال لم يمنع أن يكون قائمًا بأمر الله، وأن يكون ظاهرًا بالقيام بأمر الله من طاعة الله ورسوله، وقد يكون الفعل طاعة وغيره أطوع منه،

---

(١) الفتاوى (٤/ ٢٧٥).
(٢) البخارى رقم ٧٣١١، مسلم رقم (١٩٢٠، ١٩٢١).
(٣) الفتاوى (٤/ ٢٧٣)، مالك بن يخامر ذكره ابن حيان فى الثقات، تهذيب التهذيب (١/ ٢٥، ٢٣).
(٤) مسلم فى الإمارة.
(٥) الفتاوى (٤/ ٢٧٣).
(٦) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٣).
(٧) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٣).
(٨) البخارى رقم ٤٤٧.
(٩) مسلم فى الزكاة.
(١٠) مسلم فى الإمارة.
(١١) الفتاوى (٤/ ٢٧٤).
(١٢) البخارى رقم (٧٣١١).
(١٣) الفتاوى (٤/ ٢٧٤).

وأما كون بعضهم باغيًا فى بعض الأوقات، مع كون بغيه خطأ مغفورًا له، أو ذنبًا مغفورًا، فهذا -أيضًا- لا يمنع ما شهدت به النصوص؛ وذلك أن النبىﷺ أخبر عن جملة أهل الشام، ولا ريب أن جملتهم كانوا أرجح فى عموم الأحوال[1]، وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يفضلهم فى مدة خلافته على أهل العراق، حتى قدم الشام غير مرة، وامتنع من الذهاب إلى العراق، واستشار فأُشير عليه أنه لا يذهب إليها، وكذلك حين وفاته لما طُعن أدخل عليه أهل المدينة أولاً وهم كانوا إذ ذاك أفضل الأمة، ثم أدخل عليه أهل الشام، ثم أدخل عليه أهل العراق، وكانوا آخر من دخل عليه[2]. وكذلك الصديق كانت عنايته بفتح الشام أكثر من عنايته بفتح العراق حتى قال: لَكَفرُ الشام أحب إلىَّ من فتح مدينة العراق[3]، والنصوص التى فى كتاب الله وسنة رسوله وأصحابه فى فضل الشام، وأهل الغرب على نجد والعراق وسائر أهل المشرق، أكثر من أن تذكر هنا، بل عن النبىﷺ من النصوص الصحيحة فى ذم المشرق وإخباره بأن الفتنة ورأس الكفر منه ما ليس هذا موضعه، وإنما كان فضل المشرق عليهم بوجود أمير المؤمنين على، وذلك كان أمرًا عارضًا ولهذا لما مات على رضى الله عنه ظهر منهم من الفتن، والنفاق، والردة، والبدع، مايعلم به أن أولئك كانوا أرجح[4].

وكذلك - أيضًا - لاريب أن فى أعيانهم من العلماء والصالحين من هو أفضل من كثير من أهل الشام، كما كان على وابن مسعود، وعمار، وحذيفة ونحوهم، أفضل من أكثر من بالشام من الصحابة، لكن مقابلة الجملة وترجيحها لا يمنع اختصاص الطائفة الأخرى بأمر راجح، وهذا يبين رجحان الطائفة الشامية من بعض الوجوه، مع أن عليًا رضى الله عنه كان أولى بالحق ممن فارقه، ومع أن عمارًا قتلته الفئه الباغية - كما جاءت به النصوص -. فعلينا أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله، ونقر بالحق كله، ولا يكون لنا هوى، ولانتكلم بغير علم، بل نسلك سبل العلم والعدل، وذلك هو اتباع الكتاب والسنة، فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض، فهذا منشأ الفرقة والاختلاف[5].

---

(١) الفتاوى (٤/ ٢٧٤) .

(٢)، (٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٥) .

رابعًا: أهل الحل والعقد فى عهد معاوية رضى الله عنه:

كان المجتمع الإسلامى فى عصر الراشدين يتطور تطورًا سريعًا وخطيرًا بشكل يهدد المحافظة على السمات الأساسية لحكمهم، والتى تظهر فى ذلك الحب والانسجام والحرص المتبادل بين الخليفة والرعية، وخوف الله فى معاملة بعضهم للبعض، وقد تمثل ذلك التطور فى تقلص دور أهل الحل والعقد المقيمين فى المدينة بوفاة معظمهم أو بتفرقهم فى الأمصار، وباكتساب تلك الأمصار مكانة ضخمة تفوق مكانة الحجاز مقر الخلافة نتيجة نمو دور القبائل العربية التى أسلمت متأخرًا، ولكنها حملت على أكتافها عبء الفتوحات الإسلامية الكبرى، التى أدت إلى إثراء المجتمع الإسلامى بصورة لم يعرفها من قبل، تغيرت معها بعض النفوس والأخلاق[1]، وبدأت تدريجيًا تتغير بعض المفاهيم، كمفهوم أهل الحل والعقد، فلم يعودوا هم أهل بدر، أو جماعة السابقين إلى الإسلام فى المدينة، التى تقلصت أعدادها بمضى الزمن، وبرز إلى ساحة التأثير والفاعلية زعماء الأمصار، وزعماء الشام من بينهم، فحين نحتكم إلى أحداث التاريخ نجدها تؤكد قدرة أهل الأمصار آنذاك على الحسم السياسى، وعجز أهل المدينة عن ذلك، ثم تؤكد بعد ذلك تميز أهل الشام بقدر هائل من الطاعة والتوحد الاجتماعى، والتعود على الخضوع لنظم الدولة، وأساليب الإدارة، وأنماط الحضارة، وقد مكنتها هذه المؤهلات من فرض اختيارها على العراق وسائر الأمصار الإسلامية حتى بايعت معاوية، ثم استطاعت الاحتفاظ بهذه القدرات أكثر من تسعين عامًا هى عمر الدولة الأموية. . مما يؤكد أن قادتها أصبحوا هم بحكم الواقع السياسى جل أهل الحل والعقد فى المجتمع الإسلامى، والقادرين على اختيار الخليفة، وإقناع بقية الأمصار بذلك الاختيار ـ إن سلمًا أو عنفًا ـ فى ذلك المجتمع الذى أصبحت تحكمه عصبيات مختلفة الرغبات والأهواء والمطامع[2].

١ ـ رأى الفقهاء فى معنى أهل الحل والعقد:

وحين نحتكم إلى أقوال علمائنا فى معنى أهل الحل والعقد نجدهم يختلفون إلى عدة أقوال[3]، ويذكرون مصطلحات متعددة منها:

---

(١) الدولة والمجتمع فى العصر الأموى، ص (١٢٧).   (٢)، (٣) المصدر نفسه، ص (١٢٨).

أ ـ أولو الأمر: وهو مصطلح شرعي جاء بنص القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩] وقد اختلف في المراد بهم على أقوال من أشهرها:

- أنهم الأمراء، ورجحه الإمام الطبري[١]، وقال النووي: هو قول جمهور السلف والخلف[٢].
- أنهم العلماء، وبه قال بعض السلف منهم: جابر بن عبد الله والحسن البصري، والنخعي وغيرهم.
- أنهم أصحاب محمد ﷺ.
- أنهم أبو بكر وعمر .
- أنهم عامة في كل أولي الأمر والعلماء، ومال إليه الإمام ابن كثير[٣]، وابن القيم[٤]، والشوكاني[٥] وغيرهم.
- أنهم العلماء والأمراء والزعماء، وكل من كان متبوعًا وهو رأي ابن تيمية[٦]، ومحمد عبده[٧]، وقال: إنهم هم أهل الحل والعقد[٨]، ولعل القولين الخامس والسادس هما الأقرب إلى الصواب، وليس بينهما فرق كبير[٩].

ب ـ العلماء: والمراد بهم علماء الشريعة: وهو لفظ قرآني، قال سبحانه ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨]. وربما جاء بلفظ ﴿**وَأُوْلُوا الْعِلْمِ**﴾ كما في قوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ**﴾ [آل عمران: ١٨]. وفي السنة النبوية جاء هذا المصطلح في أحاديث لا تكاد تحصر ومن ذلك الحديث المشهور: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس ولكن بموت العلماء**»[١٠].

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٥٠٢) تحقيق محمود شاكر.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/ ٢٢٣).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٠).

(٤) الرسالة التبوكية، ص (٤١).

(٥) فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٨١).

(٦) الحسبة، ص (١٨٥).

(٧) تفسير المنار (٥/ ١٨١).

(٨)، (٩) أهل العقد والحل، عبد الله الطريقي، ص(١٢).

(١٠) مسلم رقم (١٣).

جـ ـ أهل الاختيار: وهم الذين يوكل إليهم اختيار الإمام ومبايعته، وهم أهل الحل والعقد[1]، وهو مصطلح اجتهادى اصطلح عليه بعض أهل العلم[2].

د ـ أهل الاجتهاد: وهم العلماء الذين بلغوا درجة الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية، ويكونون مؤهلين للأعمال المهمة، كالإمامة الكبرى، والقضاء، والفتوى ونحو ذلك، وممن أطلق هذا المصطلح: البغدادى[3]، والقرطبى[4].

هـ ـ أهل الشورى: وهم الذين يستشارون فى أمر المسلمين وفق الآية الكريمة، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]

و ـ أهل الشوكة: وهم أصحاب القدرة والسلطان، لتوافر القدرة والبأس لديهم، وممن استعمل هذا المصطلح ابن تيمية[5].

ز ـ أهل الرأى والتدبير: وهم من يتسمون بالعقل والفكر الناضج مع القدرة على تصريف الأمور وتسييرها، وممن استعمل هذا المصطلح ابن عابدين[6].

فأهل الحل والعقد هم الذين لهم القدرة على عقد نظام جماعة المسلمين فى شئونهم العامة، والسياسية، والإدارية، والتشريعية، والقضائية، ونحوها، ثم حل هذا النظام لأسباب معينة ليعاد ترتيب هذا النظام وعقده من جديد[7].

والذى تحقق فى عهد معاوية -رضى الله عنه- أن أهل الحل والعقد فى دولته كانوا هم الولاة، وزعماء القبائل، وقادة الجيوش ونحوهم، وتركزت الشوكة والقوة الفعلية فى أهل الشام، حيث كانوا قادرين على الاختيار وتحقيق إرادتهم، وإمضاء رغبتهم على مخالفيهم، وهذا ما تحقق فى ذلك الظرف التاريخى فى أهل الشام، وإذا أردنا أن نكون أكثر إنصافًا، قلنا إنه كان يجب أن تتسع دائرة أهل الحل والعقد هذه لتشمل بجانب زعماء الشام بقية زعماء الأمصار الإسلامية فى العراق والحجاز، ومصر وغيرهم، وأن تضم بجوار أصحاب العصبيات القوية، أصحاب الرأى من

---

(١) الموسوعة الفقهية، إصدار وزارة الأوقاف بالكويت (٧/ ١١٥).

(٢) أهل الحل والعقد، عبد الله الطريقى، ص (١٣)، وهذا الكتاب فريد فى بابه.

(٣) المصدر نفسه، ص (١٣) أصول الدين (٢٧٩).

(٤) تفسير القرطبى (١/ ٢٦٥).

(٥) منهاج السنة (١/ ٥٥٠).

(٦) حاشية ابن عابدين (٤/ ٢٦٣).

(٧) أهل الحل والعقد، ص (١٥).

علماء الأمة وأهل الديانة فيهم، وأن يوكل إلى هذه الطائفة منهم اختيار الخليفة أو عزله، علاوة على الفصل فى المسائل المهمة فى حياة الأمة.. ولو حدث ذلك فى مسيرة الدولة الأموية لتجنبت الأمة كثيرًا من الاختلاف وإراقة الدماء.. ولكن الذى حدث فعلاً هو انفراد أهل الشام باختيار الخلفاء فى العصر الأموى من الأسرة الأموية ذاتها، وكانت بداية ذلك هى البيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد من أبيه، وبعد خطوب شتى أصبح تسلسل الخلفاء من البيت الأموى أمرًا واقعًا، رضيت بذلك بقية الأمصار أم عارضت[1]. وسيأتى الحديث عن ولاية العهد فى حينه بإذن الله تعالى.

خامسًا: الشورى فى عهد معاوية رضى الله عنه:

عندما آلت الخلافة إلى بنى أمية، لم يكن معاوية بن أبى سفيان ممن يجهل فوائد الشورى ويهمل الأخذ بها ، وما كان يصدر فى المهمات إلا عن مشورة، فقد كان يشاور ذوى الرأى من الولاة ووجوه الناس وأشراف القوم وأهل العلم، وكان ذلك سنة من جاء بعده من الخلفاء من بنى أمية، وكان من كبار مستشارى معاوية رضى الله عنه: عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وكان يستشير الوفود التى كانت تأتيه[2]، وكان الناس يتكلمون بحرية فيعرضون آراءهم، ويهتم الخليفة بها كل الاهتمام، ويناقشهم فيها، ويحقق ما يمكن تحقيقه منها.

وكان والحكم يعتمد على مستشارين أكفاء وكتّاب قادرين، أطلقت يدهم فى العمل، ومنحهم الخليفة ثقته، وشدّهم بسلطانه، والحكم لم يكن متمركزًا فى شخص الخليفة، فمملكته واسعة، ولا يستطيع أن يضطلع بكل أمر، وهو يرسل ولاته على الأقطار ويطلق لهم اليد فى شئونها، وهو لا يولى إلا من يثق به، ولا يعطى السلطان إلا لمن لا يخشاه[3]، وولاته يستشيرهم فى حدود معينة.

وأما أمر الخلافة فحصر فى بنى أمية، وأصبح أمرها خاصًا بالبيت الأموى، يفتى فيها بالمجامع الأموية خاصة من دون الناس، وكان الخلفاء من بنى أمية يرجعون فى شورى استخلاف السلطان ورد الطامعين به إلى الجماعة الأموية

---

(١) الدولة والمجتمع فى العصر الأموى، ص (١٢٨).

(٢) فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص (٥٥).

(٣) الدولة الأموية، يوسف العش، ص (١٣٩).

غالبًا[1]. ومن هنا يمكن القول بوجود نوعين من الشورى فى عهد بنى أمية أولهما: شورى تتعلق بالأمور والمصالح العامة، وكان الخلفاء من بنى أمية يرجعون فيها إلى ذوى الرأى من أشراف القوم والولاة وغيرهم، وثانيهما: شورى تتعلق بالسلطان خاصة، وكان الخلفاء من بنى أمية يفزعون فيها إلى آل بيتهم ويقضون فيها بينهم[2].

وقيادة معاوية للدولة لم تكن فردية خالصة، فاللامركزية فى الحكم والإدارة فى الأغلب، ومشاركة الرجال من أهل الرأى والخبرة فى حمل المسئولية والقيام بأعباء الدولة فى السلم والحرب، وفى المراكز والولايات، ووجود الإسلام فى حياة الفرد والمجتمع والدولة سلوكًا ونظام حكم منذ عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، تقلل من مظهر القيادة الفردية ومساوئها، وتعزز مظهر الشورى وغلبة الاتجاه العام الثابت فى السياسة والقيادة والإدارة وتصريف الأمور ورعاية المصالح[3]، كما أن تحول الخلافة الراشدة إلى ملك وراثى لم يكن يعنى تحولاً كاملاً عن شورى الراشدين، أو ارتدادًا عن أوامر الإسلام ومنهجه فى الحكم، وقد كان لذلك ما يبرره من تطور اجتماعى وسياسى ولقد بقيت فى عهد معاوية والعصر الأموى ـ كما يقرر ابن خلدون ـ معانى الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه، والجرى على مذاهب الحق، ولم يظهر التغير إلا فى الوازع الذى كان دينًا ثم انقلب عصبية وسيفًا، وهكذا كان الأمر فى عهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بنى العباس إلى الرشيد وبعض ولده، ثم ذهبت معانى الخلافة ولم يبق إلا اسمها[4]. وما ذهب إليه ابن خلدون ليس على إطلاقه؛ ففى عهد الدولة العثمانية فى زمن محمد الفاتح انتعشت بعض معانى ومقاصد الخلافة، من الفتوحات، والدعوة، وإعزاز الإسلام، والعدل، ولم يذم الشرع العصبية أو الملك، لما كان القصد منها إقامة الدين، وإظهار الحق، وقد سأل سليمان عليه السلام ربه فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل فى النبوة والملك[5]، وعلى ذلك فإن الملك الذى يخالف بل ينافى الخلافة هو الجبروتية[6]، التى يقصد بها قهر الناس بغير حق،

---

(١) فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص (٥٦). (٢) المصدر نفسه، ص (٥٧).

(٣) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (١٠٢).

(٤) مقدمة ابن خلدون، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٢٧٥).

(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (٢٧٥).

ولم يكن ذلك شأن معاوية فى خلافته، وقد استرعى انتباه بعض فقهائنا ومؤرخينا ذلك القرب الشديد بين مقاصد خلافة معاوية ومقاصد خلافة الراشدين، لذلك فقد رأى ابن تيمية: . . فهذا يقتضى أن شوب الخلافة بالملك جائز فى شريعتنا، وأن ذلك لا ينافى العدل، وإن كانت الخلافة المحضة أفضل[1]، ولن نبتعد عن الحقيقة إذا قلنا إن معاوية وبعض خلفاء بنى أمية كان يودون لو ساروا سيرة الراشدين كاملة، ولكنهم كانوا غير قادرين على ذلك فى تفاعلهم مع أحوال رعيتهم وظروف عصرهم، وإن ذلك الأفق العالى والمثل الرفيع الذى قدمه الخلفاء الراشدون للسياسة الإسلامية والإنسانية كان يعمل تأثيره الجذاب عند بعض الخلفاء والرعية على السواء، ولكنه كان أيضًا يستعلى على قدراتهم، فيجهدون أنفسهم لتحقيقه، ثم يعودون إلى جذبة الواقع مقرين بصعوبة المحاولة والتجربة[2]، ولقد سأل معاوية يومًا ولده وولى عهده يزيد: كيف سيعمل بعد استخلافه؟ فقال: أعمل فيهم عمل عمر بن الخطاب، فتبسم معاوية وقال: والله لقد جهدت أن أعمل فيها عمل عثمان فلم أقدر، أتعمل أنت فيهم بعمل عمر بن الخطاب؟[3]، ولا يعنى ذلك أن العودة إلى صفاء الحياة فى عصر الخلفاء الراشدين أمر مستحيل، ولكن لا يأتى به الحاكم وحده وإن صلحت نيته، وعظمت عزيمته، بل لا بد من تحقيق ذلك القدر من التوافق والانسجام بين الراعى والرعية حيث؛ يتعاون الجميع على تحقيق ذلك المجتمع الطيب، وطريق ذلك طويل وشاق، ويحتاج إلى أجيال من الدعاة والحكام الذين يبذلون جهدهم لتربية الرعية على كمال الإيمان، ويعطون القدوة فى ذلك والمثل، ويستفرغون فى ذلك وذاك وقتهم وجهدهم[4]، وقد كان ابن تيمية يعبر عن هذه الحقيقة حين يرى أنه إن ساء الحكم فى مجتمع ما كان ذلك إلا لنقص فى الراعى والرعية[5] معًا. إن الشورى فى عهد معاوية والدولة الأموية تقلصت عمّا كانت عليه فى عهد الخلافة الراشدة وبقيت فى عهد معاوية بعض جوانبها، ولم تتقدم كليًا كما يطرح البعض.

---

(١) الفتاوى (٣٥/ ١٨) . (٢) الدولة الأموية المفترى عليه، ص (٢٧٦).

(٣) البداية والنهاية نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٢٧٦).

(٤) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٢٧٧).

(٥) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٠)، الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٢٧٧).

سادسًا: حرية التعبير فى عهد معاوية رضى الله عنه:

كان معاوية رضى الله عنه يفرق بين المعارضة السلمية والمسلحة، فهو يطلق حرية الكلام والتعبير عن الرأى ما دام ذلك فى حدود التعبير عن الرأى، أما إذا انقلب الأمر إلى حمل السلاح وسلِّ السيوف، فإنه لا يجد مفرًا من مواجهة هذه الثورات كما فعل مع الخوارج، وسيأتى بيان ذلك بإذن الله تعالى، فقد روى عن معاوية أنه قال: إنى لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا[١]. وقال عامله على العراق زياد بن أبيه فى خطبته لأهل البصرة: إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السلّ من بغضى لم أكشف له قناعًا، ولم أهتك له سترًا، حتى يبدى لى صفحته، فإذا فعل لم أناظره[٢]، ويقول عن أحد معارضيه: لو علمت أن مخ ساقه قد سال من بغضى ما هجته حتى يخرج علىّ[٣]. وإليك الكثير من المواقف التى تدل على حرية التعبير، وحق المعارضة السلمية، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لمعاوية، وكيف كان يستقبل تلك الانتقادات.

١ ـ **أبو مسلم الخولانى:** فقد كان رحمه الله من العلماء الربانيين، وكان ممن لا يجامل ولا يداهن، فقد قام أمام معاوية فوعظه وقال: إياك أن تميل على قبيلة من العرب فيذهب حيفك بعدلك[٤]. وكان يذكر معاوية بمسئولياته تجاه رعيته ويحثه على أداء حقوقه، فقد دخل ذات يوم على معاوية فقال: السلام عليك أيها الأجير. فقال الناس: الأمير. فقال معاوية: دعوا أبا مسلم فهو أعلم بما يقول. قال أبو مسلم: إنما مثلك مثل رجل استأجر أجيرًا فولاه ماشيته، وجعل له الأجر على أن يحسن الرعية، ويوفر جزازها وألبانها، فإن أحسن رعيتها ووفر جزازها حتى تلحق الصغيرة، وتسمن العجفاء، أعطاه أجره وزاده من قبله زيادة، وإن هو لم يحسن رعيتها وأضاعها حتى تهلك العجفاء وتعجف السمينة، ولم يوفر جزازها وألبانها

---

(١) ذكر الدكتور خالد الغيث فى كتابه القيم مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٨١، ٢٨٢): أن فى إسناد هذه الرواية اجتمعت فيه علتان، الأولى: أن عبد الله بن صالح الجهنى لم يدرك عبد الملك بن عمير، وذلك أن مولد عبد الله بن صالح كان بعد وفاة عبد الملك بن عمير بسنة، والعلة الثانية: تشيع هشام بن سعد، وكراهية الشيعة لبنى أمية أمر معلوم، لذا لا يؤخذ منه فى هذا المقام، لأنه يروى ما يوافق هواه.

(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٣٠٣). (٣) المصدر نفسه، ص (٣٠٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٣)، أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٢٧٤).

غضب عليه صاحب الأجر. فقال معاوية: ماشاء الله[1]. فانظر كيف حث أبو مسلم الخولانى معاوية رضى الله عنه على الاهتمام بأمر الرعية وحذره من التهاون أو التفريط فى إصلاح شئونهم، وذلك عن طريق ضرب المثل تقريبًا للصورة وتشبيهًا للحال[2]، وهناك موقف عملى آخر لأبى مسلم الخولانى مع معاوية أيضًا، وذلك عندما صعد معاوية المنبر ـ وكان قد حبس العطاء ـ فقام أبو مسلم وقال له: لم حبست العطاء يا معاوية؟ إنه ليس من كدك ولا من كد أبيك، ولا كد أمك حتى تحبس العطاء، فغضب معاوية غضبًا شديدًا، ونزل عن المنبر، وقال للناس: مكانكم، وغاب عن أعينهم ساعة ثم عاد إليهم فقال: إن أبا مسلم كلمنى بكلام أغضبنى، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليغتسل»[3] وإنى دخلت فاغتسلت، وصدق أبو مسلم: إنه ليس من كدى ولا كد أبى، فهلموا إلى أعطياتكم[4].

٢ ـ **الفرزدق يهجو معاوية**: هجا الفرزدق معاوية وافتخر عليه بنسبه وآبائه، وذلك لغرض شخصى، حيث أعطى معاوية عم الفرزدق الحتات بن يزيد المجاشعى -وكان ضمن وفد أتى معاوية- جائزة أقل من الآخرين، ولما مات الحتات بن يزيد المجاشعى فى الطريق أخذ معاوية تلك الجائزة وردها إلى بيت المال، فقال الفرزدق يخاطب معاوية:

فلو كان هذا الأمر فى جاهلية	علمت من المرء قليل جلائبه
ولو كان هذا الأمر فى غير ملككم	لأبديته أو غص بالماء شاربه
وكم من أب لى يا معاوى لم يكن	أبوك الذى من عبد شمس يقاربه

فما زاد معاوية على أن بعث إلى أهل الحتات بجائزته[5].

وقد ظفر معاوية بتقدير زعماء المسلمين من أبناء الصحابة رغم نقد بعضهم المرير له، وكان كثيرًا ما يقول: إنى لأرفع نفسى أن يكون ذنبٌ أعظم من عفوى،

---

(١) فضيلة العادلين من الولاة للأصفهانى، ص (٣٠٦).

(٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٣٠٦). (٣) سنن أبى داود (٤/٢٤٩).

(٤) مقامات العلماء بين يدى الخلفاء والأمراء، ص (٣٠٧)، أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٣٠٧).

(٥) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٣٠٤)، تاريخ الطبرى (٦/١٥٩).

وجهلٌ أكثر من حلمى، أو عورة لا أواريها بسترى، أو إساءة أكثر من إحسانى[1]

وكان أحيانًا يتمثل بهذه الأبيات:

تعفو الملوك عن الجليل من الأمور بفضلها

ولقد تعاقب فى اليسير وليس ذاك لجهلها

إلا ليعرف فضلها ويخاف شدة نكلها[2]

٣ ـ أم سنان بنت خيثمة فى مجلس معاوية: كانت أم سنان بنت خيثمة المذحجية من أنصار أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وفى عهد معاوية قدمت على دمشق واستأذنت عليه فأذن لها، فانتسبت له فعرفها، وأمرها بالجلوس، فلما جلست قال لها: مرحبًا يا ابنة خيثمة، ما أقدمك أرضنا وقد عهدتك تبغضين قومى، وتحضّين علىَّ عدوى؟ قالت: يا أمير المؤمنين، إنّ لبنى عبد مناف أخلاقًا طاهرة، وأعلامًا ظاهرة، وأحلامًا وافرة، لا يجهلون بعد علم، ولا يسفهون بعد حلم، ولا يتعقبون بعد عفو، وإنَّ أولى النَّاس باتباع سنن آبائه لأنتَ. قال معاوية ـ رضى الله عنه ـ: صدقتِ يا أم سنان، نحن كذلك؛ ثم سادت فترة صَمْت، قطعها بسؤال لأم سنان يذكرها فيها بشعرها وتحريضها عليه، فقال لها: كيف قولِك:

عَزبَ الرقاد فمقلتى ما ترقد	والليل يُصدر بالهموم ويورد
يا آل مذحج لا مُقام فشمّروا	إن العدوَ لا أحمد يقصد
هذا علىٌّ كالهلال تحفُّهُ	وسْطَ السماء من الكواكب أسعد
ما زال مُذْ شهد الحروب مظفرًا	والنّصرُ فوق لوائه ما يُفقد

وكانت أمّ سنان ـ رحمها الله ـ تصغى لما ينشده معاوية من شعرها، ولما انتهى قالت له: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين، وإنَّا لنطمع أن تكون لنا خلفًا بعده، فمثلك جدير بذلك، وقبل أن يتكلم معاوية بكلمة، قال رجل من جلسائه: كيف يا أمير المؤمنين، وأنا أحفظ من شعرها خلاف ما تقول لك الآن، فهى القائلة:

إما هلكت أبا الحُسين فلم تزل	بالحق تُعرف هاديًا مهديا
فاذهب عليك صلاة ربك ما دعت	فوق الغُصون حمامة قمريا

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٣٠٤) تاريخ الطبرى.　(٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٥٣).

فــاليوم لا خــلـف يؤمّل بـعـده   هيـهـات نمدح بـعـده إنْسِـيـا[1]

عندئذ قالت أمُّ سنان وعـلائم الحزم والصِّدقِ ترتسم على وجهـها وهى تعّرضُ بجلسائه: يا أمير المؤمنين، لسان نطق، وقـول صدق، ولئن تحقّق فيك، ما ظننّا، فحظُّك الأوفر، والله ما ورّثـك الشَّناءة ـ البغض ـ فى قلوب المسلمين إلا هؤلاء ـ وأشارت إلى بعض جلسائه- فـادحض مقالتهم، وابعد منزلتـهم، فإنك إن فعلت ذلك ازددت من الله عز وجل قربًا ومن المسلمين حبًّـا. وتعجب معاوية مما تقول، فقطع عليها مقالتها قـائلاً: وإنّك لتقولين ذلك يا أم سنان؟ قالت: سبحان الله يا أمير المؤمنين، والله مـا مثلك مدح بباطل، ولا اعتـذر إليه بكذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا، كان والله علىٌّ ـ رضى الله عنه ـ أحب إلينا منك إذ كان حـيًّا، وأنت أحبّ إلينا من غيره إذ أنـت باق. فسألها مـعاوية: وممن أنا أحب إليكم ما دمت باقيًا؟ فقـالت: يا أمير المؤمنين، أنت أحبّ إلينا من مروان بن الحكم وسعـيد بن العاص. قـال: وبم استحقـقت بذلك عليهمـا؟. قالت: بحسن حلمك، وكرم عفوك[2]. وبعد انتهاء الحوار سـألها: ما حاجتك الآن يا أم سنان؟ فسألته حاجتها فى حفيدها بالمدينة أن يفك أسره، فلبى معاوية طلبها، وأكرمها ووصلهـا، وردّها إلى المدينة، وقد قضيت حاجتهـا، وكان لسانها يلهج بالدعاء لمعاوية[3]. هذه أمُّ سنان المذحجيّـة، إحدى نساء عصـر التابعين، وممن فُطرت نفسـها على الصَّفاء والصَّـراحة، وأوتيت شطرًا من البلاغة والحكـمة ما جعلهـا فى سجل ناصع يحـكى خلودها وخلود أمثـالها[4]. ولم تكن أم سنان المذحجية وحدها التى كانت تعبر عن رأيها، وتتكلَّم بوضوح عن معتقداتها، بل كانت مثيلاتها كـثيرات مثل: الزرقاء بنت عدى[5]، وأم الخير بنت الحريش[6]. لقد كان معاوية رضى الله عنه، يجرّىء الناس على الصدع بمعتقداتهم وآرائهم، ويشجعهم على حرية الرأى والتعبير وحق النقد والمعارضة السلمية.

---

(١) العقد الفريد (١٠٨/٢)، نساء من عصر التابعين، ص (٢٧٥ - ٢٧٨).

(٢) العقد الفريد (١٠٨/٢)، تاريخ دمشق نقلاً عن نساء من عصر التابعين، أحمد جمعة، ص (٢٧٨)، شاعرات العرب، ص (١٧٦، ١٧٧).

(٣) نساء من عصر التابعين، ص (٢٨٠)، شاعرات العرب، ص (١٧٦، ١٧٧).

(٤) نساء من عصر التابعين، ص (٢٨٠).   (٥) المصدر نفسه، ص (٢٩٦).

(٦) المصدر نفسه، ص (١٤٨).

الفصل الثالث

السياسة الداخلية لمعاوية رضى الله عنه

انعقد إجماع الأمة الإسلامية على خلافة معاوية سنة ٤١هـ، فأخذ يعمل بكل ما أوتى من ذكاء وفطنة ودهاء على توطيد دعائم الأمن والاستقرار فى ربوع العالم الإسلامى، فانتهج سياسة داخلية، تقوم على عدة أمور:

المبحث الأول

الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة وأبنائهم وبخاصة بنو هاشم

فقد خطب مرة فى أهل الحجاز بعد توليه الخلافة فاعتذر عن عدم سلوكه طريقة الخلفاء الراشدين قبله، فقال: وأين مثل هؤلاء؟ ومن يقدر على أعمالهم؟ هيهات أن يدرك فضلهم أحد من بعدهم؟ رحمة الله ورضوان الله عليهم، غير أنى سلكت بها طريقًا لى فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكم فيه مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة، فإن لم تجدونى خيركم فأنا خير لكم، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دبر أذنى، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله فارضوا منى بعضه.. وإياكم والفتنة فلا تهموا بها فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة، وتورث الاستئصال، أستغفر الله لى ولكم[1]، وبمثل هذه السيرة سار خليفة المسلمين وانقاد له أبناء المهاجرين والأنصار، وكل من يعتقد أنه أولى منه بالخلافة. كان رضى الله عنه، يهتم بغزو القلوب والإحسان إليها، مع الوعى والحذر الشديدين أن لا تنتقض الأمة عليه، لقد كان يبذل المال بلا حساب لكبار الشخصيات القيادية فى المجتمع، ويعتبر أن عليها مسئوليات ضخمة تجاه رعاياها من أبناء الأمة، فلا بد أن تكون مليئة لتسد الخلّة، وتلبى الحاجة، وتحلّ المعضلة، ولعل أشراف بنى هاشم كانوا فى هذا الصدد أكثر قيادات الأمة إغداقًا عليهم بالمال، فهم لايزالون

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٢).

في عُرف الناس القيادات الشعبية التي تمثل جماهير الأمة، وتلجأ الأمة إليهم أكثر مما تلجأ إلى الولاة والأمراء، وهذه القيادات لم تشارك في الحكم ولم تكن لها رغبة في ذلك[1].

أولاً: العلاقة بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما بعد الصلح:

كان الحسن بن علي يقدم على معاوية في خلافته، فقدم عليه ذات مرة فقال له معاوية: لأجيزنك بجائزة ما أجزت بها أحدًا قبلك، ولا أجيز بها أحدًا بعدك، فأعطاه أربع مائة ألف فقبله[2]، وجاء في رواية: ... أن الحسن بن علي كان يفد كل سنة إلى معاوية فيصله بمائة ألف درهم، فقعد سنة عنه ولم يبعث إليه معاوية بشيء فدعا بدواة ليكتب إليه، فأغفى قبل أن يكتب، فرأى النبي ﷺ في منامه كأنه يقول: يا حسن أتكتب لمخلوق تسأله حاجتك وتدع أن تسأل ربك؟ قال: فما أصنع يا رسول الله وقد كثر ديني؟ قال: قل: اللهم إني أسألك من كل أمر ضعفت عنه قوتي، وحيلتي، ولم تنته إليه رغبتي، ولم يخطر ببالي، ولم يبلغه أملي، ولم يجر على لساني من اليقين الذي أعطيته أحدًا من المخلوقين الأولين، والمهاجرين الآخرين إلا أخصصتني يا أرحم الراحمين. قال الحسن: فانتبهت وقد حفظت الدعاء، فكنت أدعو به، فلم يلبث معاوية أن ذكرني فقيل له: لم يقدم السنة، فأمر له بمائتي ألف درهم[3]. وجاء في رواية: بأن الدعاء الذي علمه رسول الله للحسن في المنام هو: اللهم اقذف في قلبي رجاك، واقطع رجائي عمّن سواك، لا أرجو أحدًا غيرك، اللهم وما ضعفت عنه قوتي؛ وقصر عنه عملي؛ ولم تنته إليه رغبتي، ولم تبلغه مسألتي، ولم يجر على لساني مما أعطيت أحدًا من الأولين والآخرين من اليقين فخصني به يا رب العالمين. قال: فوالله ما ألححت به أسبوعًا حتى بعث إليّ معاوية بألف ألف وخمس مائة ألف، فقلت: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، ولا يخيّب من دعاه، فرأيت النبي ﷺ في المنام فقال: يا حسن كيف أنت؟ فقلت: بخير يا رسول الله، وحدثته حديثي فقال: يا بُني هكذا من رجا الخالق ولم يرجُ المخلوق[4]. وروى الزهري: ... لما قتل علي بن أبي طالب رضي

(1) معاوية بن أبي سفيان للغضبان، ص (314).
(2) سير أعلام النبلاء (3/269).
(3) تاريخ دمشق (14/8).
(4) المصدر نفسه (14/8).

الله عنه وجاء الحسن بن على رضى الله عنهما إلى معاوية، فقال له معاوية: لو لم يكن لك فضل على يزيد إلا أن أمك امرأة من قريش وأمه امرأة من كلب لكان لك عليه فضل، فكيف وأمك فاطمة بنت رسول الله ﷺ[1].

ثانيًا: صلات معاوية للحسن وابن الزبير رضى الله عنهم:

عن جعفر بن محمد عن أبيه أن الحسن والحسين رضى الله عنهما كانا يقبلان جوائز معاوية رضى الله عنه[2]، وكان يرسل للحسن والحسين، فقد أمر معاوية مرّة للحسن بن على بمائة ألف فذهب بها إليه فقال لمن حوله: من أخذ شيئًا فهو له، وأمر للحسين بن على بمائة ألف فذهب بها إليه وعنده عشرة، فقسمها عليهم عشرة آلاف، عشرة آلاف. وأمر لعبد الله بمائة ألف[3]، وكان معاوية رضى الله عنه إذا لقى الحسن بن على رضى الله عنهما قال: مرحبًا بابن رسول الله وأهلاً، ويأمر له بثلاثمائة ألف، ويلقى ابن الزبير رضى الله عنه فيقول: مرحبًا بابن عمة رسول الله وابن حواريه، ويأمر له بمائة ألف[4]، وقد أشاد ابن الزبير بذكر معاوية بعد وفاته، فقد حدث هشام بن عروة بن الزبير قال: صلى يومًا عبد الله بن الزبير، فوجم بعد الصلاة ساعة، فقال الناس: لقد حدث نفسه ثم التفت إلينا فقال: لا يبعدن ابن هند إن كانت فيه لمخارج لا تجدها فى أحد بعده أبدًا، والله إن كنا لنفرقه - أى نخوّفه - وما الليث الحرب على براثنه بأجرأ منه فيتفارق لنا، وإن كنا لنخدعه، وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا، والله لوددت أنا متعنا به ما دام فى هذا حجر - وأشار إلى أبى قبيس-[5]. وقول ابن الزبير هذا قاله عندما حصر فى عهد عبد الملك بن مروان[6].

ثالثًا: عبد الله بن عباس رضى الله عنهما مع معاوية:

كان معاوية يحترمه ويقدره، وكان يفد على معاوية فأكرمه وقرّبه واحترمه وعظّمه، وكان يلقى عليه المسائل المعضلة فيجيب عنها سريعًا، فكان معاوية يقول: ما رأيت أحدًا أحضر جوابًا منه. ولما جاء الكتاب بموت الحسن بن على اتفق كون

---

(١) الشريعة للآجرى (٥/ ٢٤٧٠)، إسناده حسن. (٢) الشريعة (٥/ ٢٤٧٠)، إسناده حسن.
(٣) تاريخ دمشق (٦٢/ ١٣٣). (٤) المصدر نفسه (٦٢/ ١٣٣).
(٥) عيون الأخبار (١/ ١١ ، ١٢). (٦) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص(١١٥).

ابن عباس عند معاوية فعزّاه فيـه بأحسن تعزية، وردّ عليه ابن عباس رداً حسنًا[١]، وبعث معاوية ابنه يـزيد فجلس بين يدى ابن عباس وعزّاه بعـبارة فصيحـة وجيزة شكره عليها ابن عباس[٢]، أما تعزية معاوية رضى الله عنه وإجازته لابن عباس، فكما رواها قتادة: ثم قال لابن عـباس: لا يسوؤك الله ولا يحزنك فى الحسن بن على، فـقال ابن عبـاس لمعاوية: لا يحـزننى الله ولا يسوؤنـى ما أبقى الله أمـير المؤمنين. قال: فأعطاه ألف ألف درهم، وعـروضًا وأشياء وقال: خذها فاقـسمها فى أهلك[٣]. وكان ابن عباس رضى الله عنه من سادات المجتمع الإسلامى وقائدًا من قاداتها الكبار، وكان معاوية رضى الله عنه يعرف مكانته الاجتماعية والعلمية، فابن عباس كان بمثابة المستشار للشئون العلمية للخليفة، وقد كان معاوية رضى الله عنه يعترف بفضل بنى هاشم على بنى أميـة، فقد قيل له: أيكم كان أشرف، أنتم أو بنو هاشم؟ قال: كنا أكثر أشرافًا، وكانوا أشرف واحدًا، لم يكن فى عبد مناف مثل هاشم، فلما هلك كنا أكثر عددًا، وكانوا أكثر أشرافًا وكان فيهم عبد المطلب، ولم يكن فـينا مثلهم، فـصرنا أكـثر عـددًا وأكثـر أشرافًا ولم يـكن فيهـم واحد كواحدنا، فلم يكـن إلا كقرار العين حتى جـاء شىء لم يسمع الأوَّلون بمثله، ولا يسمع الآخرون بمثله، محمد ﷺ[٤]. وكان معاوية رضى الله عنه يحذر بنى أمية من الإساءة إلى آل عـلى بن أبى طالب قائلاً: إن الحـرب أولها نجوى، وأوسـطها شكوى، وآخـرها بلوى. وكان يـطلب من خلصاء علـى رضى الله عنه، وصفـه وسرد روائع خصاله وأعماله[٥].

رابعًا: هل عمّم معاوية سب أمير المؤمنين عليٍّ على منابر الدولة الأموية؟

تذكر كتب التاريخ أن الولاة من بنى أمية قبل عمر بن عبد العزيز كانوا يشتمون على، وهذا الأثر الذى ذكره ابن سـعد لا يصح، قال ابن سعد: أخـبرنا على بن محمد، عن لوط بن يحيى، قال: كان الولاة من بنى أمية قبل عمر بن عبد العزيز يشتـمون رجلاً رضى الله عنه، فلما ولى هو ـ عـمر بن عبد العـزيز ـ أمسك عن ذلك، فقال كثير عزة الخزاعى:

(١) البداية والنهاية (١١/٦٤٢).
(٢) المصدر نفسه (١١/٦٤٢).
(٣) المصدر نفسه (١١/٤٤٦).
(٤) المصدر نفسه (١١/٤٤٦)
(٥) الدور السياسى للصفوة، ص (١٧٢).

وليت فلم تشتم عليًا ولم تخف بريًا ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وإنما تبين آيات الهدى بالتكلم
فصدَّقت معروف الذى قلت بالذى فعلت فأضحى راضيًا كل مسلم[1]

فهذا الأثر واهٍ، فعلى بن محمد هو المدائنى فيه ضعف وشيخه لوط بن يحيى، واهٍ، قال عنه يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال الدارقطنى: إخبارى ضعيف ووصفه فى الميزان: إخبارى تالف لا يوثق به[2]، وعامة روايته عن الضعفاء والهلكى والمجاهيل[3]، وقد اتهم الشيعة معاوية رضى الله عنه بحمل الناس على سب على ولعنه فوق منابر المساجد، فهذه الدعوة لا أساس لها من الصحة، والذى يقصم الظهر أن الباحثين قد التقطوا هذه الفرية على هوانها دون إخضاعها للنقد والتحليل، حتى صارت عند المتأخرين من المُسلَّمات التى لا مجال لمناقشتها، ولم تثبت قط فى رواية صحيحة، ولا يعول على ما جاء فى كتب الدميرى، واليعقوبى وأبى الفرج الأصفهانى، علمًا بأن التاريخ الصحيح يؤكد خلاف ما ذكره هؤلاء[4]، من احترام وتقدير معاوية لأمير المؤمنين على وأهل بيته الأطهار، فحكاية لعن علىٍّ على منابر بنى أمية لا تتفق مع منطق الحوادث، ولا طبيعة المتخاصمين، فإذا رجعنا إلى الكتب التاريخية المعاصرة لبنى أمية، فإننا لا نجد فيها ذكرًا لشىء من ذلك أبدًا، وإنما نجده فى كتب المتأخرين الذين كتبوا تاريخهم فى عصر بنى العباس، بقصد أن يسيؤا إلى سمعة بنى أمية فى نظر الجمهور الإسلامى، وقد كتب ذلك المسعودى فى مروج الذهب وغيره من كتّاب الشيعة، وقد تسربت تلك الأكذوبة إلى كتب تاريخ أهل السنة ولا يوجد فيها رواية صحيحة صريحة، فهذه دعوة مفتقرة إلى صحة النقل، وسلامة السند من الجرح، والمتن من الاعتراض، ومعلوم وزن هذه الدعوة عند المحققين والباحثين، ومعاوية، رضى الله عنه بعيد عن مثل هذه التهم بما ثبت من فضله فى الدين، وكان محمود السيرة فى الأمة، أثنى عليه بعض الصحابة ومدحه خيار

(1) سير أعلام النبلاء (٥/١٤٧) . (2) الميزان (٣/٤١٩) .
(3) دفاعاً عن السلفية، ص (١٨٧).
(4) الحسن والحسين، محمد رضا، ص (١٨)، كلام المحقق د. أحمد أبو الشباب .

التابعين، وشهدوا له بالدين والعلم، والعدل والحلم، وسائر خصال الخير[1]. وقد ثبت هذا في حق معاوية ـ رضى الله عنه ـ، كما أنه من أبعد المحال على من كانت هذه سيرته، أن يحمل الناس على لعن على رضى الله عنه على المنابر، وهو من هو في الفضل، ومن علم سيرة معاوية ـ رضى الله عنه- في الملك، وما اشتهر به من الحلم والصفح، وحسن السياسة للرعية ظهر له أن ذلك من أكبر الكذب عليه، فقد بلغ معاوية ـ رضى الله عنه- في الحلم مضرب الأمثال، وقدوة الأجيال[2]، وقد فصلّنا في صفة الحلم في شخصية معاوية فيما مضى.

وأما ما استدل به الشيعة على تلك الفرية من صحيح مسلم فليس ما يدل على زعمهم، فعن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال: أمر معاوية بن أبى سفيان سعدًا فقال: ما منعك أن تسب أبا تراب؟ فقال: أما ذكرت ثلاثًا قالهن له رسول الله ﷺ، فلن أسبه، لأن تكون لى واحدة منهنّ أحب إلىّ من حمر النعم[3]، قال النووى: قول معاوية هذا ليس فيه تصريح بأنه أمر سعدًا بسبه، وإنما سأله عن السبب المانع له من السب. كأنه يقول: هل امتنعت تورعًا أو خوفًا، أو غير ذلك، فإن كان تورعًا وإجلالاً له عن السب، فأنت مصيب محسن، ولعل سعد رضى الله عنه وقد كان في طائفة يسبون، فلم يسب معهم، وعجز عن الإنكار أن أنكر عليهم، فسأله هذا السؤال، قالوا: ويحتمل تأويلاً آخر أن معناه: ما منعك أن تخطئه في رأيه واجتهاده وتظهر للناس حسن رأينا واجتهادنا وأنه أخطأ[4]، وقال أبو العباس القرطبى صاحب المفهم -معلقًا على وصف ضرار الصِّدائى لعلى رضى الله عنه وثنائه عليه بحضور معاوية، وبكاء معاوية من ذلك وتصديقه لضرار فيما قال-: وهذا الحديث يدل على معرفة معاوية بفضل على رضى الله عنه ومنزلته، وعظيم حقه ومكانته، وعند ذلك يبعد عن معاوية أن يصرح بلعنه وسبّه، لما كان معاوية موصوفًا به من العقل والدين، والحلم وكرم الأخلاق، وما يروى عنه من ذلك فأكثره كذب لا يصح، وأصح ما فيها قوله لسعد بن أبى وقاص: ما يمنعك أن تسب أبا تراب؟ وهذا ليس

(١) الانتصار للصحب والآل، ص (٣٦٧) للرحيلى.

(٢) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على بن أبى طالب، ص (٣٥٣).

(٣) مسلم، ك: فضائل الصحابة (٤/ ١٨٧١).

(٤) شرح صحيح مسلم (١٥/ ١٧٥).

بالتصريح بالسب، وإنما هو سؤال عن سبب امتناعه ليستخرج من عنده من ذلك، أو من نقيضه، كما قد ظهر من جوابه، ولما سمع ذلك معاوية، سكن وأذعن، وعرف الحق لمستحقه[1]، قال الدكتور الرحيلى فى كتابه الصحب والآل: والذى يظهر لى فى هذا - والله أعلم -: أن معاوية إنما قال ذلك على سبيل المداعبة لسعد، وأراد من ذلك استظهار بعض فضائل على ـ رضى الله عنه ـ فإن معاوية ـ رضى الله عنه ـ كان رجلاً فطنًا ذكيًا، يحب مطارحة الرجال واستخراج ما عندهم، فأراد أن يعرف ما عند سعد فى على ـ رضى الله عنه ـ فألقى سؤاله بهذا الأسلوب المثير. وهذا مثل قوله ـ رضى الله عنه ـ لابن عباس: أنت على ملة على؟ فقال له ابن عباس: ولا على ملة عثمان، أنا على ملة رسول الله ﷺ [2]. فظاهر أن قول معاوية هنا لابن عباس جاء على سبيل المداعبة، فكذلك قوله لسعد هو من هذا الباب، وأما ما ادّعى الشيعة من الأمر بالسب فحاشا معاوية رضى الله عنه أن يصدر منه مثل ذلك[3]، والمانع من هذا عدة أمور:

١ـ أن معاوية - رضى الله عنه - ما كان يسب عليًا ـ رضى الله عنه ـ كما تقدم حتى يأمر غيره بسبه، بل كان معظمًا له، معترفًا له بالفضل والسبق إلى الإسلام، كما دلت على ذلك أقواله الثابتة عنه، فقد قال ابن كثير: وقد ورد من غير وجه: أن أبا مسلم الخولانى وجماعة معه دخلوا على معاوية فقالوا له: هل تنازع عليًا أم أنت مثله؟ فقال: والله إنى لأعلم أنه خير منى وأفضل، وأحق بالأمر منى[4]، وعن جرير بن عبد الحميد عن المغيرة قال: لما جاء خبر قتل على إلى معاوية جعل يبكى، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: ويحك إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم[5]، فهل يسوغ فى عقل ودين أن يسب معاوية عليًا بل ويحمل الناس على سبه وهو يعتقد فيه هذا؟![6].

٢ ـ أنه لا يعرف بنقل صحيح عن معاوية ـ رضى الله عنه ـ تعرض لعلى رضى الله عنه ـ بسب أو شتم أثناء حربه له فى حياته، فهل من المعقول أن يسبه بعد

---

(١) المفهم للقرطبى (٦/ ٢٧٨).

(٢) الإبانة (١/ ٣٥٥)، شرح أصول اعتقاد اللالكائى (١/ ٩٤).

(٣) الانتصار للصحب والآل، ص (٣٧٥).

(٤) البداية والنهاية (٨/ ١٣٣).

(٥) المصدر نفسه (٨/ ١٣٣).

(٦) الانتصار للصحب والآل ص (٣٧٦).

انتهاء حربه مـعه ووفاته، فهذا من أبعد ما يكون عنـد أهل العقول، وأبعد منه أن يحمل الناس على سبه وشتمه.

٣ ـ أن معاوية رضى الله عنه كان رجلاً ذكيًـا مشهورًا بالعقل والدهاء، فلو أراد حمل الناس على سب على ـ حـاشاه ذلك ـ أفكان يطلب ذلك من مثل سـعد بن أبى وقاص رضى الله عنه، وهو من هـو فى الشجاعة والفـضل والورع، مع عدم دخوله فى الفتنة أصلاً، فهذا لا يفعله أقل الناس عقلاً وتدبيرًا، فكيف بمعاوية.

٤ ـ أن معاوية ـ رضى الله عنه ـ انفرد بالخلافة بعد تنازل الحسن بن على رضى الله عنهما له، واجتمعت عليه الكلمة، ودانت له الأمصار بالملك، فأى نفع له فى سب على؟ بل الحكمـة وحسن السـياسـة تقتـضى عدم ذلك، لما فـيه من تهـدئة النفوس، وتسكين الأمور، ومثل هذا لا يخفى على معاوية.

٥ ـ إنه كان بين معاوية ـ رضى الله عنه ـ بعد اسـتقلاله بالخلافة وأبناء على من الألفة والتقـارب، ما هو مشهور فى كتب السـير والتاريخ[١]، ومن ذلك أن الحسن والحسين وفدا على مـعاوية فأجازهما بمائتى ألف. وقال لهما: مـا أجاز بهما أحد قبلى فـقال له الحـسين رضى الله عنه: ولم تعط أحـدًا أفضل منا[٢]، ودخل مرة الحسن علـى معاوية فـقال له: مـرحبًا وأهلاً بابن بنـت رسول الله ﷺ، وأمر له بثلاثمائة ألف[٣]. وهذا مما يقطع الكذب مما يدَّعى فى حق معاوية من حمله الناس على سب على، إذ كيف يحصل هذا مع ما بينه وبين أولاده من هذه الألفة والمودة والاحتفاء والتكريم، وبهذا يظهر الحق فى هذه المسألة، وتتجلى الحقيقة[٤]، كما أن المجتمع فى عمـومه مقيد بأحكام الشرع حريص على تنفـيذها، ولذلك كانوا أبعد الناس عن الطعن واللعن والقـول الفاحش والـبذىء[٥]، وقد نهى رسـول الله ﷺ عن سب الأموات المشركـين، فكيف بمن يسب أولياء الله المصلحين، فـعن عائشة رضى الله عنها ـ مرفوعًا: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»[٦].

(١) الانتصار للصحب والآل، ص (٣٧٦). (٢) البداية والنهاية (٨/ ١٣٩).
(٣) البداية والنهاية (٨/ ١٤٠). (٤) الانتصار للصحب والآل، ص (٣٧٧).
(٥) صحيح ابن حبان رقم (٤٧)، صححه الألبانى فى الصحيحة رقم (٣٢٠).
(٦) البخارى رقم (٦٥١٦).

خامسًا : معاوية وسمّ الحسن بن على؟

ذكـرت بعض الروايات أن الحسن بن على تُـوفى متـأثرًا بالسم الذى وضع له، وقد اتجهت أصـابع الاتهام نحو زوجة الحـسن جعدة بنت الأشعث بن قـيس أمير كندة، فهذه أم موسـى سرية على تتهم جعدة بأنها دست السم للحـسن، فاشتكى منه شكاة، فكان يوضع تحته طست[1]، وترفع أخرى، نحوًا من أربعين يومًا[2]، وهذه رواية إسنادها لا يصح وهى ضـعيـفة[3]، وحاول البـعض من الإخبـاريين والرواة أن يوجد علاقة بين البيعة ليـزيد ووفاة الحسن، وزعموا أن يزيد بن معاوية أرسل إلى جعدة بنت قـيس أن سُمى حسنًا فإنى سأتزوجك، ففـعلت، فلما مات الحسن بعثت جعدة إلى يزيد تسـأله الوفاء، فقال: إنا والله لم نرضك له أفنرضاك لأنفسنا؟[4]، وفى سندها يزيد بن عياض بن جعـدية، كذبه مالك وغيره[5]، وقد وردت هذه الروايات فى كتب أهل السنة بدون تمحـيص، مع العلم أن أسانيد تلك الروايات أسانيدها ضعيفة[6].

١ ـ قال ابن العربى: فإن قيل: دس على الحسن من سـمَّه، قلنا: هذا محال من وجهين: أحدهما: أنه ما كان ليُـتقى من الحسن بأس وقد سلَّم الأمر، الثانى: أنه أمر مغيب لا يعلمه إلا الله، فكيف تحملونه بغير بيِّنة على أحد من خلقه فى زمن مـتبـاعد، ولم نثق فـيـه بنقل ناقل، بين أيدى قـوم ذوى أهواء، وفى حال فـتنة وعصبيـة، ينسب كل واحد إلى صاحبه ما لا ينبغى، فـلا يقبل منها إلا الصافى، ولا يسمع فيها إلا من العدل الصميم[7].

٢ ـ وقال ابن تيمية: وأما قوله: معاوية سمَّ الحسن، فهذا مما ذكره بعض الناس، ولم يثبت ذلك ببينة شرعية، أو إقرار معتبر، ولا نقل يجزم به، وهذا مما لا يمكن العلم به، فالقـول به قول بلا علم[8]. وقد جـاء عن ابن تيميـة فى رده عن اتهام معاوية بسـمّ الحسن وأنه أمر الأشعث بن قيس بـتنفيذ هذه الجريمة، وكـانت ابنته

---

(١) طست : إناء معلوم .

(٢) الطبقات، تحقيق السُلمى (١/٣٣٨)، إسناده ضعيف .

(٣) المصدر نفسه (١/٣٣٨) .

(٤) تهذيب الكمال (٦/٤٥٣) .

(٥) تقريب التهذيب، ص (٦٠٤) .

(٦) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٩٣) .

(٧) العواصم من القواصم، ص (٢٢٠، ٢٢١).

(٨) منهاج السنة النبوية (٤/٤٦٩) .

تحت الحسن، حيث قال: وإذا قيل إن معاوية أمر أباها كان هذا ظنًا محضًا، والنبى ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث». ثم إن الأشعث بن قيس مات سنة أربعين وقيل سنة إحدى وأربعين، ولهذا لم يذكر فى الصلح الذى كان بين معاوية والحسن بن على، فلو كان شاهدًا لكان يكون له ذكر فى ذلك، وإذا كان قد مات قبل الحسن بنحو عشر سنين فكيف يكون هو الذى أمر بنته[1]. وهذا يدل على قدرة ابن تيمية على النقد العلمى القوى للروايات التاريخية.

٣ - وقال الذهبى: قلت: هذا شئ لا يصح فمن الذى اطلع عليه[2].

٤ - وقال ابن كثير: روى بعضهم أن يزيد بن معاوية بعث إلى جعدة بنت الأشعث أن سُمِّى الحسن وأنا أتزوجك بعده، ففعلت، فلما مات الحسن بعثت إليه فقال: إنا والله لم نرضك للحسن، أفنرضاك لأنفسنا؟ وعندى أن هذا ليس بصحيح، وعدم صحته عن أبيه معاوية بطريق الأولى والأحرى[3].

٥ - وقال ابن خلدون: وما نقل من أن معاوية دس إليه السم مع زوجته جعدة بنت الأشعث، فهو من أحاديث الشيعة، حاشا لمعاوية من ذلك[4].

٦ - د. جميل المصرى: وقد علق على هذه القضية بقوله: . . . ثم حدث افتعال قضية سم الحسن من قبل معاوية أو يزيد. . ويبدو أن افتعال هذه القضية لم يكن شائعًا آنذاك، لأننا لا نلمس[5] لها أثرًا فى قضية قيام الحسن، أو حتى عتابًا من الحسين لمعاوية. وبالنسبة لسم الحسن رضى الله عنه، فنحن لا ننكر هذا، فإذا ثبت أنه مات مسمومًا فهذه شهادة له وكرامة فى حقه[6]، وأما اتهام معاوية وابنه فهذا لا يثبت من حيث السند، كما مر معنا، ومن حيث المتن، وهل جعدة بنت الأشعث بن قيس بحاجة إلى شرف أو مال - كما تذكر الروايات -حتى تسارع لتنفيذ هذه الرغبة من يزيد، وبالتالى تكون زوجة له، أليست جعدة ابنة أمير قبيلة

---

(١) المنتقى من منهاج الاعتدال، ص (٢٦٦).

(٢) تاريخ الإسلام ، عهد معاوية، ص (٤٠)، اتهامات لا تثبت سليمان بن صالح الخراشى، ص (١٧٤).

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٤٣) . (٤) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٥٢٧) .

(٥) أثر أهل الكتاب فى الفتن والحروب الأهلية، ص (٤٨٢)، مرويات خلافة معاوية، ص (٣٩٥).

(٦) منهاج السنة (٤/ ٤٢).

كندة كافة، وهو الأشعث بن قيس، ثم ألبس زوجها وهو الحسن بن على أفضل الناس شرفًا ورفعة بلا منازعة، إن أمه فاطمة رضى الله عنها، وجده رسول الله ﷺ وكفى به فخرًا، وأبوه على بن أبى طالب أحد العشرة المبشرين بالجنة ورابع الخلفاء الراشدين، إذًا ما هو الشىء الذى تسعى إليه جعدة وتحصل عليه حتى تنفذ هذا العمل الخطير؟[1]. إن هناك الكثير الذين هم أعداء للوحدة الإسلامية، وزادهم غيظًا وحنقًا ما قام به الحسن بن على، كان اقتناعهم قويًا بأن وجوده حيًا صمام أمان للأمة الإسلامية، فهو إمام ألفتها وزعيم وحدتها بدون منافس، وبالتالى حتى تضطرب الأحداث وتعود الفتن إلى ما كانت عليه فلا بد من تصفيته وإزالته، فالمتهم الأول فى نظرى هم السبئية أتباع عبد الله بن سبأ، الذين وجه لهم الحسن صفعة قوية عندما تنازل لمعاوية ووضع حدًا للصراع، ثم الخوارج الذين قتلوا أمير المؤمنين على بن أبى طالب وهم الذين طعنوه فى فخذه، فربما أرادوا الانتقام من قتلاهم فى النهروان وغيرها[2].

سادسًا : موقف معاوية من قتلة عثمان رضى الله عنهما :

كان من ضمن شروط الحسن فى صلحه مع معاوية ألا يطلب أحدًا من أهل المدينة والحجاز والعراق بشىء[3]، والذى يلاحظه المؤرخ أنه من ذلك الوقت تُرك الطلب بدم عثمان[4]، وقد تمّ الاتفاق على عدم مطالبة أحد بشىء كان فى أيام على، وهى قاعدة بالغة الأهمية تحول دون الالتفات إلى الماضى، وتركز على فتح صفحة جديدة تركز على الحاضر والمستقبل[5]، وقد تمّ التوافق المبنى على الالتزام والشرعية حيث تمّ الصلح على أساس العفو المطلق عن كل ما كان بين الفريقين، قبل إبرام الصلح، وبالفعل لم يعاقب معاوية أحدًا بذنب سابق، وتأسس بذلك صلح الحسن على الإحسان والعفو، وقد تمّ بسط الأمن وحفظ الدماء فى عهد معاوية إلى حد كبير[6]. وجاء فى عيون الأخبار لابن قتيبة: إن معاوية بن أبى

(١) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد بن معاوية، ص (١٢٣).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٢٤).

(٣) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (١٢٧).

(٤) الخلفاء الراشدون للنجار، ص (٤٨٢).

(٥) الدور السياسى للصفوة فى صدر الإسلام، ص (٣٤١).

(٦) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على، ص (٣٤٩).

سفيان لما قدم بعـد عام الجماعة المدينة دخل دار عثمان بن عفـان، فصاحت عائشة بنت عثـمان بن عفـان وبكت ونادت أباها، فقال مـعاوية: يا ابنة أخى، إن الناس أعطونا طاعة، وأعطيناهم أمانًا، وأظهرنا لهم حلمًـا تحته غضب، وأظهروا لنا ذلاً تحته حـقد، ومع كل إنسان سيـفه ويرى موضع أصحابه، فـإن نكثناهم نكثوا بنا، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا، لأن تكونى ابنة عم أميـر المؤمنين خير من أن تكونى امرأة من عرض الناس[1]. والذى يعتد به من كـلام ابن قتيبة ما جـاء عن العهود والمواثيق التى أبرمت بـين معـاوية والحـسن وقضت بالـصلح بين الناس، ووضع الحـرب وحقن الدمـاء، وعدم تهـييج الـنفوس، وإضـافة إلى ذلك فـإن السنوات الخمس التى احتضـنت المعارك فى الجمل وصفين والنهروان ومـصر وغيرها ذهبت بأولئك الذين ترددت أسماؤهم بتهمة قتل عثمان، ومع ذلك فإن مسألة قتل عثمان ظلت حاضرة فى ذهن الخلفاء من بنى أميـة ونوابهم فى الأغلب، وأما انتصار بنى أمية لعثمان فكان حقيقة لا شبهة فيها[2].

سابعًا : مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه:

تحدثت معظم المصادر فى مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه، ومن هذه المصادر: ابن سعد[3]، وخليفة بن خياط[4] باختصـار شديد، والبلاذرى[5]، واليعقوبى[6]، والمسعودى[7]، وأبو الفرج الأصفهانى[8] مطولاً، وابن الجوزى[9]، وابن الأثير[10] مطولاً، والذهبى[11]، وابن كثير[12]، وقد اعتـمد الطبرى فى خبر حـجر بن عدى وأصحابه على أبى مخنف المؤرخ الشيعى المشهـور، والذى ليس بثقة ولا يعتمد عليه عند علماء المسلمين من أهل السنة، فقد نقل الطبرى عنه ست عشرة رواية، وعمومًا فإن خبر مقـتل حجر بن عدى ورد فى مصادر متعددة، ولم تنفـرد الروايات الشيعية

---

(١) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٦٩)، السلطان لابن قتيبة، ص (٥٨).

(٢) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٧٠) .

(٣) الطبقات (٦/ ٢١٧) تحقيق إحسان عباس .

(٤) التاريخ، ص (٢١٣) .

(٥) أنساب الأشراف (٤/ ٢٤٢) .

(٦) تاريخ اليعقوبى (٢/ ٢٣٠) .

(٧) مروج الذهب (٣/ ١٢) .

(٨) الأغانى (١٧/ ١٣٣) .

(٩) المنتظم (٥/ ٢٤١) .

(١٠) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٨٨) .

(١١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٦٢) .

(١٢) البداية والنهاية (١١/ ٢٢٧).

بسوق خبره، ولكن رواية أبى مخنف الساقط الاعتبار عند علماء أهل الجرح والتعديل أشارت إلى أن معاوية أوصى المغيرة بن شعبة بشتم على وذمه، لذلك كان المغيرة لا يترك ذمّ على فى خطبته طوال فترة ولايته على الكوفة، ونص خطبته التى أغضبت حجر بن عدى كما أوردها أبو مخنف: اللهم ارحم عثمان بن عفان وتجاوز عنه، وأجزه بأحسن عمله، فإنه عمل بكتابك، واتبع سنة نبيك ﷺ وجمع كلمتنا وحقن دماءنا، وقُتل مظلومًا، اللهم فارحم أنصاره وأولياءه ومحبيه والطالبين بدمه، ويدعو على قتلته[1]، وكما نلاحظ من نص الخطبة أنه لم يرد فيها ذمٍّ على، ومع ذلك فإن الرواية تشير أنّ هذه الخطبة تضمنت ذلك إلا إذا تأولت لعنه لقتلة عثمان بأنه ذم لعلى[2]، وبراءة على من دم عثمان يعرفها القاصى والدانى وقد أثبتها فى كتبى عن عثمان وعلى والحسن رضى الله عنهم جميعًا. ومهما يكن من أمر فإن الباحث فى مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه، يلاحظ أن موقف حجر من أمير المؤمنين معاوية قد مرّ بمرحلتين:

- المرحلة الأولى: مرحلة المعارضة القولية (٤١ ـ ٥٠هـ) :

كان حجر بن عدى الكندى، أبو عبد الرحمن الشهيد، له صحبة ووفادة، وفد مع أخيه هانئ بن الأدبر، ولا رواية له عن النبى ﷺ، وسمع من على وعمار[3]، وكان شريفًا، أميرًا مطاعًا، أمّارًا بالمعروف، مقدامًا على الإنكار، من شيعة على رضى الله عنهما، شهد صفين أميرًا، وكان ذا صلاح وتعبد[4]، وكان رضى الله عنه من المعارضين للصلح الذى قام بين الحسن ومعاوية رضى الله عنهما، غير أن هذه المعارضة لم يترتب عليها فى هذه المرحلة أى فعل، بل اقتصرت على الأقوال فقط[5]، وفى ذلك يقول البلاذرى: . . . لم يزل حجر بن عدى منكرًا على الحسن ابن على بن أبى طالب صلحه لمعاوية، فكان يعذله على ذلك ويقول: تركت القتال ومعك أربعون ألفًا ذوو نيات، وبصائر فى قتال عدوك، ثم كان بعد ذلك يذكر معاوية فيعيبه، ويُظلّمه[6]، فكان هذا هجيراه، وعادته[7].

(١) تاريخ الطبرى (٦/١٦٨، ١٦٩) .
(٢) أثر التشيع على الروايات، ص (٣٦٨ - ٣٧٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٦٢) .
(٤) المصدر نفسه (٣/٤٦٣) .
(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٤٢٢) .
(٦) أى : ينسبه للظلم .
(٧) هجيراه : دأبه وشأنه، القاموس المحيط، ص (٦٣٧) .

- المرحلة الثانية : مرحلة المعارضة الفعلية:

هذه المرحلة بدأت في سنة ٥١هـ حيث حصل في هذه السنة تدهور مفاجئ في علاقة حجر بن عدى مع زياد بن أبيه والى العراق، وقد ذكرت المصادر سببين في سبب تدهور هذه العلاقة:

أ - ما ذكر من إقدام المغيرة بن شعبة على الثناء على عثمان والترحم عليه، وذم على بن أبى طالب، وإقدام حجر بن عدى على مدح على بن أبى طالب، وذم عثمان بن عفان، وسكوت المغيرة عن حجر بن عدى، فلما مات المغيرة بن شعبة وتولى زياد بن أبيه، قال زياد في عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب مثلما كان يقول المغيرة، فقام حجر بن عدى وقال فيهما مثلما كان يقول للمغيرة، فكان ذلك سبب ابتداء المواجهة بين حجر وزياد[1].

ب - ما ذُكر من إطالة زياد الخطبة، وتأخير الصلاة، وقيام حجر بإنكار ذلك على زياد، فكان هذا سبب ابتداء المواجهة بينهما[2]، وهذان السببان يكدرهما ما يلى:

- أن سياسة المغيرة رضى الله عنه مع أهل الكوفة اتسمت بالعفو والصفح، وليس بإثارة الأحقاد والإحن، والحجة في ذلك ما أخرجه البخارى من طريق زياد ابن علاقة قال: سمعت جرير بن عبد الله يقول يوم مات المغيرة بن شعبة قام فحمد الله وأثنى عليه وقال: عليكم باتقاء الله وحده لا شريك له، والوقار والسكينة حتى يأتيكم أمير، فإنما يأتيكم الآن، ثم قال: استغفروا لأميركم، فإنه كان يحب العفو[3]. ثم قال: أما بعد فإنى أتيت النبى ﷺ قلت: أبايعك على الإسلام، فشرط علىّ النصح لكل مسلم. فبايعته على هذا، ورب هذا المسجد إنى لناصح لكم[4]، ثم استغفر ونزل[5].

(١) تاريخ الطبرى (١٦٩/٦) . (٢) المصدر نفسه (١٦٩/٥) .

(٣) مرويات خلافة معاوية، ص (٤٢٤) .

(٤) إشارة إلى أنه وفى بما بايع عليه رسول الله ﷺ، وكان صادقًا فى نصحه .

(٥) البخارى، صحيح البخارى مع الفتح (١٦٨/١) .

ـ أن ضم الكوفة إلى زياد كان فى سنة ٤٩هـ، وهو ما صرح به فيل مولى زياد حيث قال: ملك زياد العراق خمس سنين، ثم مات سنة ثلاث وخمسين، وهذه الرواية التى تحدد تاريخ ضم الكوفة إلى زياد بن أبيه تعد أصح ما فى الباب وحيث إن ولاية زياد على الكوفة كانت سنة ٤٩هـ، ولم يحدث الصدام بين حجر وأنصاره وزياد والى الكوفة لأن الحسن بن على رضى الله عنه مازال حيًا، ووجوده كان كفيلاً بردع تحركات المعارضين للصلح من أنصاره لأنه رضى الله عنه اشترط عليهم أن يحاربوا من حارب، ويسالموا من سالم، ولكن بعد وفاة الحسن رضى الله عنه عام ٥١هـ[1].

تغير موقف بعض قيادات أهل العراق ومنهم حجر بن عدى من المعارضة القولية إلى الفعلية، فقد روى البلاذرى بإسناده إلى الشعبى، وغيره، قالوا: لما قدم زياد الكوفة ـ عام ٤٩هـ ـ بعث إلى حجر فقال: يا هذا، كنا على ما علمت، وقد جاء أمر غير ذلك، أمسك عليك لسانك، وليسعك منزلك، وهذا سريرى فهو مجلسك، فإياك أن تستنزلك السفلة أو تستفزك، إنى لو استخففت بحقك هان علىَّ أمرك، ولم أكلمك من كلامى هذا بحرف، فلما صار إلى منزله اجتمعت إليه الشيعة فقالوا: أنت شيخنا وأحق الناس بإنكار هذا الأمر[2]، فلما شخص زياد إلى البصرة استخلف عمرو بن حريث على الصلاة والحرب، ومهران مولاه على الخراج، وأمر العمال بمكاتبة عمرو. فكتب عمرو إلى زياد: إن كانت لك بالكوفة حاجة فالعَجَل، فإنى كتبت إليك وليس فى يدى منها مع حجر إلا القصر، فأخذ السير حتى قدم الكوفة، فبعث إلى عدى بن حاتم الطائى، وجرير بن عبد الله البجلى... فقال: ائتوا هذا الشيخ المفتون، فإنى خائف أن يحملنا من أمره على ما ليس من شأننا فأتوه.. وكلمه القوم، فلم يكلم منهم أحدًا، فأتوا زيادًا فقال: مهيم؟[3] فقال عدى: أيها الأمير، استذمه[4]، فإن له سنًا، فقال: لست لأبى سفيان إذًا، ثم أرسل إليه الشُرَط فقوتلوا[5]، وجاء فى رواية أخرى: لما

(١) مرويات خلافة معاوية، ص (٤٢٥).

(٢) المصدرنفسه، ص (٤٢٨)، أنساب الأشراف (٤/ ٢٤٦).

(٣) مهيم: كلمة استفهام، أى ما وراءك؟

(٤) استذمه: لا تخفر ذمته.

(٥) أنساب الأشراف (٤/ ٢٤٦، ٢٤٧).

قدم زياد الكوفة أميرًا[1] أكرم حجر بن الأدبر[2]، وأدناه، وشفَّعَه، فلما أراد الانحدار إلى البصرة[3] دعاه فقال له: يا حجر إنك قد رأيت ما صنعت بك، وإنى أريد البصرة، فأحب أن تشخص معى، فإنى أكره أن تتخلف بعدى، فعسى أن أبلَّغ عنك شيئًا فيقع فى نفسى، وإذا كنت معى لم يقع فى نفسى منك شىء، فقد علمت رأيك فى على بن أبى طالب، وقد كان رأيى فيه قبلك على مثل ذلك، فلما رأيت الله صرف الأمر إلى معاوية، لم اتهم قضاء الله ورضيت به، وقد رأيت إلى ما صار أمر على وأصحابه، وإنى أحذرك أن تركب أعجاز أمور هلك من ركب صدورها[4]. والمقصود من كلام زياد أنه كان من خواص على رضى الله عنه، ولما رأى تنازل الحسن لمعاوية وإجماع الأمة عليه دخل فى الجماعة وحرص على وحدة الصف وحذر من الفتن، فقال له حجر: إنى مريض ولا أستطيع الشخوص. قال: صدقت، والله إنك لمريض الدين والقلب، مريض العقل، وايم الله لئن بلغنى عنك شىء أكرهه لأحرصً على قتلك، فانظر أو دع، فخرج زياد فلحق بالبصرة، واجتمع إلى حجر قُرّاء أهل الكوفة، فجعل لا ينفذ لعامل زياد معهم أمر، ولا يريد شيئًا إلا منعوه إياه، فكتب إلى زياد: إنى والله ما أنا فى شىء مع حجر وأصحابه، وأنت أعلم، فركب زياد بغاله حتى اقتحم الكوفة، فلما قدمها تغيب حجر، فجعل يطلبه فلا يقدر عليه[5]. أما تفاصيل المواجهة بين شرطة زياد وحجر بن عدى وأنصاره، فقد انفرد أبو مخنف من بين المصادر التى وقفت عليها بإيراد تفاصيلها[6]، كذلك انفرد أبو مخنف بإيراد تفاصيل مهمة عن شهادة أهل الكوفة على حجر وأصحابه[7].

١ ـ قضاء معاوية رضى الله عنه فى حجر رضى الله عنه وأصحابه:

نظرًا لخطورة قضية حجر بن عدى وحساسيتها، فقد وافق زياد بن أبيه على شرط حجر بن عدى عند استسلامه، وهذا الشرط هو إحالة قضية حجر ومن معه

(١) وذلك سنة ٤٩هـ . (٢) الأدبر : لقب عدى والد حجر .

(٣) وذلك سنة ٥١هـ .

(٤) هذا تحذير من زياد لحجر يدل على رغبته على حسم مادة الفتنة، ولذلك حرص على أخذ أصحابه معه إلى البصرة.

(٥) أنساب الأشراف (٤/ ٢٧٠ ، ٢٧١) . (٦) تاريخ الطبرى (٦/ ١٧٧- ١٨٣) .

(٧) المصدر نفسه (٦/ ١٨٤- ١٨٦) .

إلى معاوية ليحكم فيها[1]، وقبل الحديث عن حكم معاوية فى حجر وأصحابه، ينبغى التذكير بالتهم الموجهة إليهم، وهذه التهم كما وردت عن أبى مخنف هى: . . . إن حجرًا جمع إليه الجموع، وأظهر شتم الخليفة، ودعا إلى حرب أمير المؤمنين، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا فى آل أبى طالب، ووثب بالمصر، وأخرج عامل أمير المؤمنين، وأظهر عذر أبى تراب[2]، والترحم عليه، والبراءة من عدوه وأهل حربه، وأن هؤلاء النفر الذين معه هم رءوس أصحابه، وعلى مثل رأيه وأمره[3]، أما قضاء معاوية رضى الله عنه فى حجر رضى الله عنه، وأصحابه فإنه لم يقتلهم على الفور، ولم يطلب منهم البراءة من على رضى الله عنه كما تزعم بعض الروايات[4]، بل استخار الله سبحانه وتعالى فيهم، واستشار أهل مشورته، ثم كان حكمه فيهم أن قتل بعضهم، واستحيى بعضهم، والحجة فى ذلك ما يرويه صالح بن أحمد بن حنبل[5] بإسناد حسن قال: حدثنى أبى[6]، قال: حدثنا أبو المغيرة[7]، قال: حدثنا ابن عياش[8]، قال: حدثنى شرحبيل بن مسلم[9]، قال: لما بُعث بحجر بن عدى بن الأدبر وأصحابه من العراق إلى معاوية ابن أبى سفيان، استشار الناس فى قتلهم، فمنهم المشير، ومنهم الساكت، فدخل معاوية منزله، فلما صلى الظهر قام فى الناس خطيبًا، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم جلس على منبره، فقام المنادى، فنادى: أين عمرو بن الأسود العنسى[10]، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا إنا بحصن من الله حصين لم نؤمر بتركه، وقولك يا أمير المؤمنين فى أهل العراق ألا وأنت الراعى ونحن الرعية، ألا وأنت أعلمنا بدائهم وأقدرنا على دوائهم، وإنما علينا أن نقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ

(1) تاريخ الطبرى (٦/ ١٨٧ ، ١٨٨) .

(2) المقصود به على بن أبى طالب رضى الله عنه، وهى كنيته.

(3) تاريخ الطبرى (٦/ ١٨٨) .

(4) مرويات خلافة معاوية، ص (٤٣٠).

(5) قال عنه الذهبى: صدوق ثقة، السير (١٢/ ٥٢٩).

(6) أحمد بن محمد بن حنبل ، ثقة، حافظ، فقيه، حجة .

(7) عبد القدوس بن الحجاج الخولانى.

(8) إسماعيل بن عياش العنسى ، الحمصى ، صدوق .

(9) شرحبيل بن مسلم الخولانى ، الشامى ، من شيوخ الشام .

(10) مخضرم ، ثقة عابد ، من كبار التابعين، مات فى خلافة معاوية .

رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فقال معاوية: أما عمرو بن الأسود فقد تبرأ إلينا من دمائهم، ورمى بها ما بين عينى معاوية. ثم قام المنادى فنادى: أين أبو مسلم الخولانى، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فلا والله ما أبغضناك منذ أحببناك، ولا عصيناك منذ أطعناك، ولا فارقناك منذ جامعناك، ولا نكثنا بيعتنا منذ بايعناك، على عواتقنا إن أمرتنا أطعناك، وإن دعوتنا أجبناك، وإن سبقناك نظرناك، ثم جلس. ثم قام المنادى فقال: أين عبد الله بن مِخْمَر الشرعبى؟[1]، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: وقولك يا أمير المؤمنين فى هذه العصابة من أهل العراق، إن تعاقبهم فقد أصبت، وإن تعفُ فقد أحسنت، فقام المنادى فنادى: أين عبد الله بن أسد القسرى؟ فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين، رعيتك، وأهل طاعتك، إن تعاقبهم فقد جنوا أنفسهم العقوبة، وإن تعف فإن العفو أقرب للتقوى يا أمير المؤمنين، ولا تطع فينا من كان غشومًا ظلومًا، بالليل نؤومًا، عن عمل الآخرة سؤومًا[2]. يا أمير المؤمنين، إن الدنيا قد انقشعت أوتادها، ومالت بها عمادها، وأحبها أصحابها، واقترب منها ميعادها، ثم جلس، فقلت[3] لشرحبيل: فكيف صنع؟ قال: قتل بعضًا واستحيى بعضًا، كان فيمن قتل حجر بن عدى بن الأدبر[4]، وكان حجر رضى الله عنه قبل قتله قال: يا قوم دعونى أصلى ركعتين، فتركوه فتوضأ، وصلَّى ركعتين، فطوَّل، فقيل له: طوَّلت، أجزعت؟ فقال: ما صليت صلاة أخفّ منها، ولئن جزعت، لقد رأيت سيفًا مشهورًا، وكفنًا منشورًا، وقبرًا محفورًا، وكانت عشائرهم قد جاؤوهم بالأكفان، وحفروا لهم القبور.

ويقال: بل معاوية الذى فعل ذلك. وقال حجر: اللهم إنا نستعديك على أمتنا، فإن أهل العراق شهدوا علينا وإن أهل الشام قتلونا. فقيل له: مُدَّ عنقك. فقال: إنَّ ذاك لدم ما كنت لأُعين عليه[5]، وجاء فى رواية: لما أتى معاوية بحجر،

---

(١) شامى مخضرم، يروى عن أبى الدرداء رضى الله عنه.

(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (٤٣٤)، نقلاً عن تاريخ دمشق (٤/ ٢٧١).

(٣) القائل هو إسماعيل بن عياش.

(٤) أحمد بن حنبل: المسائل، رواية ابنه صالح (٢/ ٣٢٨ - ٣٣١)

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٦٥)

قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، قال: أو أمير المؤمنين أنا؟ اضربوا عنقه فصلًى ركعتين، وقال لأهله: لا تطلقوا عنى حديدًا، ولا تغسلوا عنى دمًا، فإنى ملاقٍ معاوية على الجادَّة[1]. وقد علق ابن العربى على مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه فقال: . . وأراد أن يقيم الخلق للفتنة، فجعله معاوية ممن سعى فى الأرض فسادًا[2]، وقد اعتمد معاوية رضى الله عنه فى قضائه على قوله ﷺ: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يَشُقَّ عصاكم[3]، أو يفرق جماعتكم فاقتلوه»[4]، وقوله ﷺ: «إنه ستكون هنات[5]، وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة، وهى جميع، فاضربوه بالسيف كائنًا من كان»[6]. ومما يجدر التذكير به فى هذا المقام أن معاوية رضى الله عنه لم يكن ليقضى بقتل حجر بن عدى رضى الله عنه لو أن حجرًا اقتصر فى معارضته إلى الأقوال فقط، ولم ينتقل إلى الأفعال، ولنا فى خبر المسور بن مخرمة وغيره مما مرّ معنا دلالة على ذلك[7].

٢ ـ موقف عائشة رضى الله عنها من مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه:

بالغت الروايات فى ذكر موقف عائشة رضى الله عنها من مقتل حجر بن عدى، حيث ذهبت بعض الروايات إلى الزعم بتهديد عائشة لمعاوية بالقتل حين زارها ٥١هـ، وكذلك التهديد بمحاربة معاوية[8]. وهذه الروايات لم يصح منها شىء فى حق أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وأما حقيقة موقفها فعن ابن أبى مليكة: إن معاوية جاء يستأذن على عائشة، فأبت أن تأذن له، فخرج غلام لها يقال له: ذكوان[9]، قال: ويحك، أدخلنى علىَّ عائشة فإنها قد غضبت علىَّ، فلم يزل بها غلامها حتى أذنت له، وكان أطوع منى عندها، فلما دخل عليها. قال: أمتاه فيما وجدت علىَّ يرحمك الله؟ قالت: . . . وجدت عليك فى شأن حجر وأصحابه

(١) سير أعلام النبلاء (٣/٤٦٦). (٢) العواصم من القواصم، ص (٢٢٠).

(٣) يشق عصاكم: يفرق جماعتكم.

(٤) صحيح صحيح مسلم بشرح النووى (١٢/٢٤٢).

(٥) هنات: جمع هَنَة، والمراد بها هنا الفتن والأمور الحادثة شرح صحيح مسلم (١٢/٢٤١).

(٦) صحيح مسلم، بشرح النووى (١٢/٢٤١).

(٧) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٤٣٥).

(٨) المصدر نفسه، ص (٤٣٨) مثل ما ورد فى تاريخ الطبرى.

(٩) أبو عمرو مولى عائشة ثقة، توفى فى المدينة سنة ٦٣هـ.

أنك قتلتهم، فقال لها: . . . وأما حجر وأصحابه فإنى تخوفت أمراً، وخشيت فتنة تكون، تهراق فيها الدماء، وتستحل فيها المحارم، وأنت تخافينى، دعينى، والله يفعل ما يشاء، قالت: تركتك والله، تركتك والله، تركتك والله[1]، وجاء فى رواية أخرى: لما قدم معاوية دخل على عائشة، فقالت: أقتلت حجراً؟ قال: يا أم المؤمنين، إنى وجدت قتل رجلٍ فى صلاح الناس، خير من استحيائه فى فسادهم[2].

٣ ـ ندم معاوية على قتل حجر بن عدى:

جاء فى رواية: . . أن عائشة أرسلت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية فى حجر وأصحابه، فقدم عليه وقد قتلهم، فقال له عبد الرحمن: أين غاب عنك حلم أبى سفيان؟ قال: غاب حين غاب عنى مثلك من حلماء قومى[3]، قال الذهبى: يعنى أنه ندم[4]. ومع أن قتل حجر رضى الله عنه وإن ذكر له من الأعذار والمبررات ما ذكر، ففى الحقيقة كانت غلطة من معاوية، وكان ينبغى أن يتسع حلمه لصحابى من صحابة رسول الله ﷺ وقد ندم معاوية ندمًا كبيراً على قتل حجر، وظل يذكر هذه الحادثة طوال حياته[5]، وقد روى أنه قال عند موته: يوم لى من ابن الأدبر طويل- ثلاث مرات ـ يعنى حجراً[6].

٤ ـ موقف لمالك بن هبيرة السكونى رضى الله عنه:

لم يقبل معاوية رضى الله عنه شفاعة مالك بن هبيرة السكونى فى حجر بن عدى، فجمع مالك قومه وسار ليخلصه وأصحابه، فلقى القتلة وسألهم، فقالوا: مات القوم. وسار إلى عَدِىّ فتيقن قتلهم فأرسل فى أثر القتلة فلم يدركهم، وأخبروا معاوية فقال: تلك حرارة يجدها فى نفسه، وكأنى بها قد طفئت. ثم أرسل إليه بمائة ألف وقال: خفت أن يعيد القوم حربًا فيكون على المسلمين أعظم من قتل حجر فطابت نفسه[7]، ومالك بن هبيرة السكونى صحابى جليل وكان معاوية رضى الله عنه ولاّه حمص وكان يقول فيه: ما أصبح عندى من العرب أوثق فى نفسى نصحًا بجماعة المسلمين وعامتهم

(١) تاريخ دمشق (٤/ ٢٧٣، ٢٧٤) نقلاً عن مرويات معاوية، ص (٤٤٠) .
(٢) تاريخ دمشق (٤/ ٢٧٣) نقلاً عن مرويات معاوية، ص (٤٤٠) .
(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ١٩٥) . (٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٦٥) .
(٥) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١١٦) . (٦) تاريخ الطبرى (٦/ ١٩٦) .
(٧) تاريخ ابن خلدون (٣/ ١٧).

من مالك بن هبيرة[1]. وقد كان يسع معاوية غير القتل من العقوبات، كالسجن، أو تفريق حجر وجماعته، أو يمن بهم على عشائرهم[2].

٥ ـ ما قيل في حجر بن عدى من رثاء:

قالت هند ابنة زيد بن مخرمة الأنصارية في رثاء حجر:

ترفع أيها القمر المنير تَبَصَّرْ هل ترى حجرًا يسير

يسير إلى معاوية بن حرب ليقتله كم زعم الأمير

تجبرت الجبابر بعد حجر وطاب لها الخورنق والسدير

وأصبحت البلاد بها محولا كأن لم يحيها مزن مطير

ألا يا حجر بن عدى تلقاك السلامة والسرور

أخاف عليك ما أدرى عديا وشيخًا في دمشق له زئير

إلى أن قالت:

ألا ياليت حجرًا مات موتًا ولم ينحر كما نحر البعير

فإن تهلك فكل زعيم قوم من الدنيا إلى هُلكٍ يصير[3]

وفيما عدا قضية حجر وأصحابه، فقد حافظ معاوية على سياسته السلمية القائمة على الحلم وسعة الصدر مع رعيته، والتي لخصها هو نفسه في جمل يسيرة حين قال: لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أصنع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، كانوا إذا شدوها أرخيتها، وإذا أرخوها شددتها[4]. وهي سياسة حكيمة تفسح المجال أمام القول إذا ما ظل في حدود لا يتعداها، فحيث يكفي المال عن اللسان يعتمده، ولا يضع السوط حيث يكفي اللسان، ولا يضع السيف حيث يكفي السوط[5]، وقد قيل: بأن سليم مولى زياد فخر بزياد عند معاوية فقال معاوية: اسكت ما أدرك صاحبك شيئًا قط بسيفه إلا وقد أدركت أكثر منه بلساني[6].

---

(١) أثر الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص(٦٧١)، الطبقات الكبرى (٧/ ٤٢٠).

(٢) القرّاء ودورهم في الحياة العامة، ص (١٩٥). (٣) تاريخ الطبري (٦/ ١٩٦).

(٤) السلطان لابن قتيبة، ص (٥١).

(٥) السلطة والمعارضة في الإسلام، زهير هوّاري، ص (٢٦٢). (٦) السلطان لابن قتيبة، ص (٥٣).

المبحث الثانى

مباشرة معاوية للأمور بنفسه وحرصه على توطيد الأمن فى خلافته

أولاً: مباشرة معاوية للأمور بنفسه:

ومن القواعد التى قامت عليها سياسة معاوية الداخلية مباشرة الأمور بنفسه، وكان رضى الله عنه يحرص على معرفة كل صغيرة وكبيرة فى دولته، فرغم أنه استعان بأمهر رجال عصره، فإنه لم يكن يكتفى بذلك بل كرّس كل وقته وجهده للدولة ورعاية مصالح المسلمين[1]

١ ـ مجلس معاوية فى يومه:

كان معاوية رضى الله عنه، يظهر فى اليوم والليلة خمس مرات، فكان إذا صلى الصبح جلس للقصاص حتى يفرغ من قصصه، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه، فيقرأ جزأه، ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى، ثم يصلى أربع ركعات، ويخرج إلى مجلسه، فينادى بخاصته، فيحدثهم ويحدثونه، ويدخل عليه وزراءه، فيكلمونه فيما يريدون من يومهم، ثم يؤتى بالغداء الأصغر، وهو فضل عشاء الليل، . .ثم يتحدث طويلاً، ثم يدخل منزله، وإذا أراد ثم يخرج فيقول: يا غلام أخرج الكرسى، ويسند ظهره إلى المقصورة، ويقوم الحراس، فيقدم إليه الضعيف والإعرابى والصبى والمرأة فيقول: ظُلمت، فيقول: أعزّوه، ويقول: عُدى علىّ فيقول: ابعثوا معه، ويقول: صُنع بى، فيقول: انظروا له، حتى لم يبق أحد دخل فجلس على السرير، ثم يقول: ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلنى أحد عن رد السلام، فيقال: كيف أصبح أمير المؤمنين، أطال الله عمره؟ فيقول: بنعمة من الله، فإذا استووا جلوسًا قال: يا هؤلاء إنما سُميتم أشرافًا، لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس، ارفعوا حاجة من لا يصل إلينا، فيقوم الرجل فيقول: استشهد فلان، فيقول: افرضوا لولده، ويقول: غاب فلان عن أهله، فيقول:

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١١٧).

تعاهدوهم وأعطوهم، واقضوا حوائجهم واخدموهم. ويؤتى بالغداء ويحضر الكاتب، فيقوم عند رأسه ويقدم الرجل فيقال له: اجلس على المائدة فيجلس فيمد يده، فيأكل لقمتين أو ثلاثًا، والكاتب يقرأ كتابه، فيأمر فيه بأمره، فيقال: يا عبد الله أعقب، فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتى على أصحاب الحوائج كلهم، وربما قدم عليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء، ثم يرفع الغداء، وينصرف الناس، ويدخل منزله، فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالظهر، فيخرج فيصلى[1] ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة، فإن كان الوقت شتاء أتاهم بزاد الحاج، من الأخبصة اليابسة والخشكبالج[2]، والأقراص المعجونة بالسكر واللبن من دقيق السميد، والكعك المسمن، والفواكه اليابسة، وإن كان الصيف أتاهم بالفواكه الرطبة ويدخل عليه وزراءه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه بقية يومهم، ويجلس إلى العصر، ثم يخرج فيصلى العصر ثم يدخل منزله، فلا يطمع فيه طامع حتى إذا كان فى آخر وقت العصر، خرج فجلس على سريره، ويؤذن للناس على منازلهم، فيؤتى بالعشاء فيفرغ منها مقدار ما ينادى بالمغرب فيصليها، ثم يصلى أربع ركعات، يقرأ فى كل ركعة خمسين آية، يجهر تارة ويخافت أخرى. ثم يدخل منزله فلا يطمع فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة، فيخرج فيصلى ثم يؤذن للخاصة، وخاصة الخاصة، والوزراء والحاشية، فيؤامره الوزراء فيما أرادوا صدرًا من ليلتهم، ويسمر ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها وسياساتها، وسير الأمم وحروبها، ومكائدها وسياساتها لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة، ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه؛ من الحلواء وغيرها من المآكل اللطيفة، ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيحضر الدفاتر، فيها سير الملوك وأخبارها، والحروب والمكائد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكّلوا بحفظها وقراءتها، فيمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار، فيخرج ثم يصلى الصبح، ثم يعود فيفعل ما وصفنا كل يوم وليلة، وقد تبعه فى ذلك، عبد الملك بن مروان وغيره، فلم يدركوا حلمه، ولا إتقانه السياسة، ولا التأنى للأمور ،ولا مداراة الناس على منازلهم، ورفقه بهم على طبقاتهم[3].

---

(1) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة، ص (٣٠٩). (2) الخشكبالج: نوع من الحلوى.

(3) الشهب اللامعة، ص (٣١٠، ٣١١)، مروج الذهب (٣/ ٢٢٠، ٢٢٢).

٢ ـ الدواوين المركزية التابعة لمعاوية:

أ ـ ديوان الرسائل: هو الهيئة المشرفة على تحرير رسائل الخليفة وأوامره وعهوده، ووصاياه، ومواثيقه إلى موظفيه فى الأقاليم الإسلامية وإلى البلدان الخارجية التى لها علاقة بالدولة الإسلامية[١]. ومن أشهر من أشرف على ديوان الرسائل وقام بمهمة الكتابة فى هذا الديوان فى عهد معاوية عبد الله بن أوس الغسانى، وزمل بن عمرو العذرى، واستمر هذان الكاتبان فى خلافة يزيد الأول[٢]، وكانت وسيلة الرسائل فى الاتصال بالولاة، وقادة الجند، والقضاة، وزعماء القبائل تابعة لمعاوية وتحت إشرافه المباشر.

ب ـ ديوان الخاتم: أنشأ معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ديوان الخاتم لتحقيق السرية والأمان لمراسلات الدولة، فلا تطلع عليها عين جاسوس، ولا تصل إليها يد خائن[٣]، وكان من أغراض هذا الديوان تحاشى التزوير، ومنع حدوث التلاعب، فى الكتب التى يصدرها الخليفة، ثم أصبح الديوان بمثابة سجل للكتب الصادرة، وصارت الدولة تعتمد عليه فى تدقيق الأوامر، والمراسلات التى تتعلق بالصرف والحسابات، بين مقر الخلافة والأقاليم الإسلامية الأخرى[٤]، كما أنه كان يقوم بالإشراف على تدقيق الدواوين الأخرى، وبيان الأخطاء التى تقع فيها، وهذا الديوان يختلف عن ختم الرسول ﷺ وختم الخلفاء الراشدين، فختم الرسول ﷺ يعنى التوقيع بالختم، بينما نراه فى عهد معاوية، وعصر الدولة الأموية بمثابة جهاز للفحص والتدقيق فى الأعمال الصادرة عن الدواوين الأخرى، وقد تقلد الخاتم الكبير لمعاوية، عبد الله بن محصن الحميرى، وكان سبب ذلك أن معاوية أمر لعمرو بن الزبير فى معونته وقضاء دينه بمائة ألف درهم، وكتب بذلك إلى زياد ابن أبيه، وهو على العراق، ففض عمرو الكتاب وصير المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية، فأمر عمرًا بردها وحبسه، فأداها عنه أخوه عبد الله بن الزبير، فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وخزم الكتب[٥]، ولم تكن

(١) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى، ص (١٢٤).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٥٦).

(٣) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤٣٣).

(٤) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى، ص (١٧٠).

(٥) تطوى ويلصق طرفها بالشمع والطين الأحمر، ثم يوضع خاتم الخلافة.

تخزم[1]، وفى الحقيقة فإن تأسيس ديوان الخاتم أملته ظروف اتساع الدولة الإسلامية فى عهد معاوية رضى الله عنه، وحاجة الخليفة إلى نظام اتصال آمن وسرى لمتابعة عماله وقواده ورجال دولته[2].

جـ ـ ديوان البريد: يذكر المؤرخون أن معاوية بن أبى سفيان أول من أدخل نظام البريد فى الدولة الإسلامية، وأصدر أوامره بوضع الخيول فى عدة أماكن، وقام بتنظيمه[3]، وتشير بعض المصادر إلى أنه اقتبس من الروم[4]، وكانت أعماله فى العصر الأموى واسعة ومتشعبة، نظرًا لسعة رقعة الدولة الإسلامية، وقد قام الخلفاء الأمويون بتحسين طرق المواصلات التى يسير عليها صاحب البريد، وكانت تلك الطرق واضحة ومعلومة، والدليل على تحسين هذه الطرق هو سرعة وصول الأخبار إلى مقر الخلافة بالشام[5]، ولم تكن خدمات البريد مقصورة على ما يتعلق بالدولة، بل كان فى بعض الأوقات يحمل رسائل الناس من بلد إلى آخر[6]، وكانت الدولة فى عهد معاوية لا تستغنى عن البريد فى حالات السلم، والحرب، وكان موظف البريد من أهم أعوان الخليفة، وقد ذكرت بعض المصادر أسماء بعض من اشتغل مع معاوية فى ديوان البريد وهما: نصر ين ذبيان، والكميت، كانا على البريد فى أيام معاوية واستخدمهما فى نقل الأخبار بين الشام والحجاز[7]، وكانت أهم وسائل النقل: البغال[8]، والخيل[9]: ويعتبر معاوية مؤسس نظام البريد فى الإسلام، حيث كانت الرسائل ترسل قبل ذلك من قبل الخليفة إلى الجهة التى يراد إرسالها إليها، عن طريق رسول يحملها وينطلق بها وحده، حتى يوصلها إلى الجهة المقصودة، فكانت بذلك الرسائل تستغرق مدة طويلة حتى تصل إلى محلها. أما نظام البريد الذى استخدمه معاوية اقتباسًا من البيزنطيين فقد كان يقتضى أن تقسم الطرق إلى مسافات، يوضع فى نهاية كل

---

(١) الإدارة فى العصر الأموى، ص (٢٨٧)، مرويات خلافة معاوية، ص (٧٥).
(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (٧٦).
(٣) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى، ص(١٧٤).
(٤) المصدر نفسه، ص (١٧٤).
(٥) المصدر نفسه، ص (١٧٥).
(٦) المصدر نفسه، ص (١٧٥).
(٧) المصدر نفسه، ص (١٧٦).
(٨) المصدر نفسه، ص (١٧٦).
(٩) العيون والحدائق (٣/ ٨٢)، إدارة بلاد الشام، ص (١٧٦).

مسافة دواب (خيل) مهيأة لحمل رسائل الخليفة إلى الجهات المختلفة، تسلم الكتب والرسائل إلى صاحب البريد، وينطلق بها مسرعًا حتى إذا بلغ نهاية المسافة سلمها لمن بعده، وتظل الرسالة تنطلق من مسافة إلى مسافة حتى تصل إلى الجهات المرسلة إليها فى أقصر مدة، وأما مقدار المسافة الواحدة، فكان أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، وبذلك يكون طول المسافة اثنى عشر ميلاً، أى عشرين كيلو مترًا تقريبًا، وهذه المسافة تسمى بريدًا، وبهذه الطريقة تصل الرسالة بأكبر سرعة، دون إجهاد لصاحب البريد، حيث إن المسافة يمكن قطعها بسهولة، وتناوب أصحاب البريد إذا كان سيقطع المسافة وحده، وهكذا يوفر هذا النظام الراحة لأصحاب البريد، واختصار الوقت[1]، يقول أبو هلال العسكرى: أول من وضع البريد فى توصيلها ليوفر الزمن الذى يستريحه صاحب البريد فى الإسلام: معاوية ابن أبى سفيان، وأحكم أمره عبد الملك[2].

د ـ نظام الكتبة: كان هناك كاتب لديوان الرسائل، وآخر لديوان الخراج، وثالث لديوان الجند، ورابع لديوان الشرطة، وخامس لديوان القضاء، وكان فى عهد الأمويين أكبر دواوين الدولة، ويقوم الموظفون فيه بنسخ أوامر الخليفة، وإيداعها ديوان الخاتم، بعد أن تخزم وتختم بالشمع، ثم تختم بخاتم صاحب الديوان[3]، وظل ديوان الخاتم من أكبر دواوين الدولة، منذ أنشأه معاوية، وحتى أواسط العهد العباسى[4]، وكانت هذه الدواوين تقوم بأعمال وزارة المالية (ديوان الخراج) ووزارة الدفاع (ديوان الجند) ووزارة الداخلية (ديوان الشرطة) ووزارة العدل (ديوان القضاء). كما كان ديوان الرسائل يقوم بأعمال السكرتيرية، وديوان الخاتم يقوم بأعمال السجلات والأرشيف، وكان لكل ديوان موظفوه من الكتبة المتخصصين، وكان ديوان الخراج يكتب فى العراق باللغة الفارسية، وفى الشام ومصر باللغة الرومية، وظل كذلك حتى عرّبه عبد الملك بن مروان[5].

ثانيًا : حرصه على توطيد الأمن فى خلافته:

ومن القواعد التى بنى عليها معاوية سياسته الداخلية توطيد الأمن فى ربوع العالم الإسلامى، وقد اتخذ معاوية عدة وسائل لتحقيق هذا الهدف:

---

(١) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ١٠٠) .
(٢) الأوائل، ص (٢٣٧).
(٣) تاريخ الإسلام (١/ ٤٥٨) .
(٤) المصدر نفسه (١/ ٤٥٩) .
(٥) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ١٠٢) .

١- الحاجب: كان معاوية بن أبى سفيان أول من اتخذ الحاجب فى الإسلام، لكى يتجنب محاولات الاعتداء عليه[١]، وكان بعض المظاهر الملكية له ما يبرره فى هذه الحقبة التاريخية، فقد عبر ابن خلدون على احتجاب الخلفاء عن الناس، على النحو التالى: كان أول شىء بدأ به فى الدولة شأن الباب وستره دون الجمهور، لما كان يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم، كما وقع بعمر وعلى ومعاوية وعمر بن العاص وغيرهم، مع ما فى فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات، فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب[٢]، ومما يعزز آراء ابن خلدون عن وجود العامل الأمنى وراء اتخاذ معاوية بعد محاولة اغتياله التى دبرها الخوارج: أمر عند ذلك بالمقصورات، وحرس الليل، وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد[٣]، وقد كان معاوية وبنو أمية يعيشون فى الشام قريبًا من أعدائهم الموتورين من الروم، فضلاً عن أعدائهم الموتورين من الشيعة والخوارج المتفرقين فى البلاد، وكانوا يرون أنه لابد لهم لاستقرار الدولة الإسلامية التى قتل ثلاثة من خلفائها من اتخاذ نمط من أنماط الحراسة والاحتراز[٤]، وقد ذكر المؤرخون أسماء من مواليه شغلوا له وظيفة الحاجب، وهم سعد، وأبو أيوب، وصفوان[٥]، وكان يشترط فى الحاجب أن يعرف منازل الناس وأنسابهم وطبقاتهم، لكى يتمكن أن يعرف من يأذن لهم، ومن لا يأذن لهم، فقد رويت أخبار كثيرة تؤكد ذلك، فمعاوية بن أبى سفيان قال لحصين بن المنذر، وكان يدخل عليه فى آخريات الناس:

يا أبا ساسان، كأنه لا يحسن أذنك؟ فأنشأ يقول:

وكل خفيف الساق يسعى مشمرًا ... إذا فتح البواب بابك أصبعًا

ونحن الجلوس الماكثون رزانة ... وحلما إلى أن يفتح الباب أجمعا[٦]

---

(١) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى، ص (١٠٢).

(٢) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٤٩ - ١٥٠) .

(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٦٥) .

(٤) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٢٧١).

(٥) إدارة بلاد الشام فى العهدين، ص (١٠٣)، البداية والنهاية (١١/ ٤٦٥) .

(٦) البيان والتبيين (٢/ ٩٠)، إدارة بلادة الشام، ص (١٠٧).

وعندما دخل شريك الحارثى على معاوية قال له: من أنت؟ فقال: يا أمير المؤمنين، مارأيت لك هفوة قبل هذه، مثلك ينكر مثلى من رعيته، فقال له معاوية: إن معرفتك متفرقة، أعرف وجهك إذا حضرت الوجوه، وأعرف اسمك فى الأسماء إذا ذكرت، ولا أعلم أن ذلك الاسم هو هذا الوجه، ما ذكر لى اسمك تجتمع معرفتك[1]، فالحاجب يخبر الخليفة، والخليفة هو الذى يأذن أو لا يأذن. وذات يوم وقف الأحنف بن قيس، ومحمد بن الأشعث بباب معاوية الأول، فأذن للأحنف، ثم أُذن لابن الأشعث، فأسرع فى مشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله، فلما رآه معاوية غمه ذلك، وأحنقه فالتفت إليه فقال: والله إنى ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله، وإنا كما نلى أموركم كذلك نلى آدابكم، ولا يزيد متزيد فى خطوة إلا لنقص يجده فى نفسه[2].

٢ ـ الحرس: كان معاوية بن أبى سفيان أول من اتخذ الحرس فى الدولة الإسلامية، خوفًا من الخوارج الذين كانوا يريدون قتله، فقد أمر بالمقصورات فى الجوامع وكان لا يدخلها إلا ثقاة حراسه[3]، وكما يبدو أن معاوية لم يكتف باتخاذ الحرس، بل اتخذ المقاصير زيادة فى التشدد، وذلك لحماية نفسه من أى اعتداء قد يقع عليه[4] وقد ذكرت كتب التاريخ أسماء رؤساء الحرس فى عهد معاوية وهم: المختار أبو المخارق[5]، ويزيد بن الحارث العبسى[6].

٣ ـ الشرطة: وظيفتها المحافظة على الأمن والنظام، والقبض على اللصوص والجناة والمفسدين، والدفاع عن الخليفة، وهى غير مسئولة عن صد أى هجوم خارجى عن الدولة[7]، وقد قام معاوية بتنظيمها وتطويرها فى الشام، وقد ذكر المؤرخون أربعة أسماء من الذين عينهم على رئاسة الشرطة وهم: قيس بن حمزة الهمذانى، زمل بن عمرو العذرى، الضحاك بن قيس الفهرى، ويزيد بن الحر العنسى[8]. والشرطة لا يقتصر وجودها على عاصمة الخلافة فقط بل فى الولايات الإسلامية الأخرى، وهم يتبعون الولاة فهم الذين يختارونهم ويعينونهم، وكان

---

(١) عيون الأخبار (١/ ٩٠).

(٢) العقد الفريد (١/ ٦٨)، إدارة بلاد الشام، ص (١٠٨).

(٣)، (٤) إدارة بلاد الشام فى العهدين، ص (١١١). (٥) البداية والنهاية (١١/ ٤٦٥).

(٦) إدارة بلاد الشام فى العهدين، ص (١١٧)، العقد الفريد (٤/ ٣٦٢).

(٧) المصدر نفسه، ص (١١٥). (٨) المصدر نفسه، ص (١١٧).

وجودها مهمًا للدولة والمجتمع، فالدولة تعتمد عليها فى قمع المتمردين، وفى القضاء على الثورات، والاضطرابات، وربما كانت تحل محل الجند فى حالة غيابهم واشتراكهم فى الغزوات، وهى للمجتمع، لأنها تعمل على تحقيق الأمن والاستقرار، فهى الجهة الوحيدة المسئولة عن حماية أرواح الناس، وحفظ حقوقهم وأموالهم من اعتداء بعضهم على بعض. وقد كلف الخلفاء الأمويون رؤساء الشرطة بأعمال شتى خارج بلاد الشام وداخلها: فالضحاك بن قيس كلفه معاوية بإبلاغ وصيته لابنه يزيد، وأخذ البيعة له(١).

٤ ـ حسن اختيار الرجال والأعوان: فقد وفق معاوية -رضى الله عنه- فى اختيار أعوانه من الرجال الموثوق بولايتهم وخبرتهم الإدارية، مع حكمتهم ودهائهم. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: عمرو بن العاص السهمى، والمغيرة بن شعبة الثقفى، وزياد بن أبيه الثقفى، ويزيد بن الحر العبسى، والضحاك بن قيس الفهرى، وعبد الله بن عامر بن كريز، وغيرهم من القادة المقاتلين أمثال المهلب بن أبى صفرة، وعقبة بن نافع الفهرى، ومالك بن هبيرة، وجنادة بن أمية الأزدى وآخرين، وكان عمرو بن العاص يقول: أنا للبديهة، ومعاوية للأناة، والمغيرة للمعضلات، وزياد لصغار الأمور وكبارها(٢). وقد ساهم هؤلاء فى إدارة الدولة وفتوحاتها والتصدى لأعدائها، فكان لهم دور كبير ومتميز فى ترسيخ وتوطين وتثبيت الأمن ودعائم الخلافة الأموية(٣).

٥ ـ استخدام المال فى تأكيد ولاء الأعوان وتأليف القلوب: فقد اعتبر معاوية من أجواد العرب؛ لأنه استمال القلوب بالبذل والعطاء، وجاد بالمال مع المداراة، وكان إذا بلغه عن رجل ما يكره أسكته بالمال(٤).

٦ ـ اتباع سياسة الشدة واللين فى الوقت نفسه حسب الظروف والأحوال: وظهرت هذه السياسة بشكل واضح بعد توطيد دعائم الخلافة الأموية، وكتب معاوية إلى زياد بن أبيه فى ذلك وقال: إنه لا يصلح أن أسوس وتسوس الناس بسياسة

---

(١) إدارة بلاد الشام، ص (١٢٣)، الأخبار الطوال، ص (٢٠٥ ، ٢٠٦).
(٢) أنساب الأشراف (٤/ ١٣١).
(٣) الجذور التاريخية للأسرة الأموية، ص (١٠٠).
(٤) المصدر نفسه، ص (١٠٠).

واحدة، إنا إن نشتد جميعًا نهلك الناس ونحرجهم، وإن نلن جميعًا نبطرهم، ولكن تلين وأشتد، وتشتد وألين[1]، ويؤكد هذه السياسة ما نسب إلى معاوية رضى الله عنه من أقوال مثل: لا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى، ولا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى، فإذا لم أجد من السيف بدًا ركبته، أى استعملته[2]، وقوله المشهور: لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت، إن جبذوها أرسلتها، وإن خلوها جبذتها[3].

٧ ـ اتباع سياسة المنفعة المتبادلة بين بنى أمية ورعيتهم: لم يستطع معاوية رضى الله عنه اتباع سياسة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم الراشدة، ولا شك فى أن كثرة الأموال بعد اتساع الدولة الإسلامية جعلت كثيرًا من المسلمين يتطلعون إلى التمتع بالخيرات، التى أخذت تتدفق عليهم. وقد أعرب معاوية عن ذلك بشكل واضح وقال للمسلمين: . . غير أنى سلكت طريقًا لى فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكلٍ فيه مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة ما استقامت السيرة، وحسنت الطاعة، فإن لم تجدونى خيركم فأنا خير لكم[4].

٨ ـ اتخاذ سياسة إعلامية للإشادة به وبخلافته. وجعل الناس يميلون إليهم: كان معاوية بن أبى سفيان يقول: أحب الناس إلىَّ أشدهم تحبيبًا لى إلى الناس[5]، وأتبعه بعد ذلك الخلفاء الأمويون باستمالة عشرات الشعراء وأغدقوا عليهم الأموال، فأشادوا بهم وبحقهم فى الخلافة وصلاحهم لها، ووجوب طاعتهم ونصرتهم، نظرًا لأن الشعر كان أهم وسيلة إعلامية فى ذلك العصر[6]، ومن الأشعار التى قيلت فى هذا الاتجاه ما قاله الأخطل:

تَمَّت جدودهم والله فضلهم ... وجدُّ قوم سواهم خامل نكد
وأنتم أهل بيت لا يُوازنُهم ... بيت إذا عُدّتِ الأحساب والعدد[7]

وقد اهتم معاوية بفن الدعاية والإعلام، وأوكله إلى عدد من الرجال يهمهم أمره ويؤيدونه، فكان يكثر أعطيات الشعراء، وكذلك شيوخ القبائل، لكسبهم فى

(١) أنساب الأشراف (٤/ ٨٤) .
(٢) الجذور التاريخية للأسرة الأموية، ص (١٠١).
(٣) أنساب الأشراف (٤/ ٢١).
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٤٨) .
(٥) الجذور التاريخية للأسرة الأموية، ص (١٠٢).
(٦) المصدر نفسه، ص (١٠٢)، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٥٥).
(٧) التطور والتجديد فى الشعر الأموى ، شوقى ضيف، ص (١٣٤).

صـفه، ويعطى مـجالاً واسـعًا لـولاته لكى يحقـقوا بعـض المكاسب السيـاسيـة والإعلامية والأمـنية، فقد كتب زياد والى البصـرة فى عهد معاوية خمـسمائة من مشايخها، وأعيانها فى صحبته، ورزقهم ما بين الثلاثمائة إلى الخمسمائة[1]، فقال فيه حارثة بن بدر الغُدانىّ:

ألا مـن مـبـلغ عـنى زيـادًا ... فنعم أخـو الخليـفـة والأمـيـر

فـأنـت إمـام مـعـدلة وقـصـد ... وحـزم حـين تحـضـرك الأمـور

أخـوك خليـفـة الله بن حـرب ... وأنـت وزيـره نـعـم الـوزيـر[2]

وكان مـعاوية رضى الله عنه يحـرص على امتـصاص غـضب الشعراء بـحلمه وعفوه، فعندها هجا يزيد بن مفرِّغ الحميرى بنى زياد، عندما كان مع عباد بن زياد بسجستان، فاشتغل عنه بحرب التـرك، فاستبطأه، فأصاب الجند مع عباد ضيق فى أعلاف دوابهم، فقال ابن مفرغ:

ألا ليت اللحى عـادت حـشـيشًـا ... فنعلـفـهـا خـيـول المسلمـين

وكان عبّاد بن زياد عظيم اللحية، فأنهِىَ شـعره إلى عبّاد وقيل: ما أراد غيرك، فطلبه عباد، فهرب منه، وهجاه بقصائد كثيرة، فكان مما هجاه به قوله:

إذا أودى مـعـاويـة بن حـرب ... فـبشِّر شـعْبَ قـعـبك بانصـداع

فـأشـهـد أن أمك لم تبـاشـر ... أبا سـفـيـان واضعـة الـقناع

ولكـن أمـرًا فـيـه لبس ... على وجـل شـديد وارتيـاعِ

وقوله:

ألا أبلغ مـعـاويـة بـن حـرب ... مـغـلغلة مـن الـرجل اليـمـانى

أتغـضـب أن يقـال أبوك عَفٌّ ... وترضـى أن يقـال أبـوك زان

فـأشـهـد أن رحـمك من زياد ... كـرحم الفـيل من ولد الأتان[3]

ولما هجا ابن المفـرِّغ عبَّادًا فارقه مـقبلاً إلى البصـرة، وعبيد الله يومـئذ وافد على معاوية، فكتب عباد إلى عـبيد الله ببعض ما هجاه به، فلما قرأ عـبيد الله الشعر

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/١٣٩) .

(٢) المصدر نفسه (٦/١٣٩) .

(٣) المصدر نفسه (٦/٢٣٦).

دخل على معاوية، فأنشده إياه، واستأذنه فى قتل ابن مفرغ، فأبى عليه أن يقتله، وقال: أدِّبه ولا تبلغ به القتل[1] . . . ووقع ابن مفرِّغ بين يدى عبيد الله. . فأمر به فسقى دواء، ثم حمل على حمار عليه إكاف فجعل يطاف به وهو يسلح فى ثيابه[2].

وقال ابن مفرِّغ لعبيد الله:

يغسل الماء ما صنعت وقولى ... راسخ منك فى العظام البوالى

ثم حمله عبيد الله إلى عباد بسجستان، فكلمت اليمانية فيه بالشام معاوية، فأرسل رسولاً إلى عباد، فحمل ابن مفرغ من عنده حتى قدم على معاوية، فقال فى طريقه:

عَدَس ما لعبّاد عليك إمارة ... نجوتِ وهذا تحملين طليق

لعمرى لقد نجاك من هوّة الرّدى ... إمام وحبل للأنام وَثِيق

سأشكر ما أوتيت من حسن نعمة ... ومثلى بشكر المنعمين حقيق

فلما دخل على معاوية بكى، وقال: ركب منى ما لم يركب من مسلم على غير حدث ولا جريرة. . . وبعد حوار مع معاوية قال له معاوية: اذهب فقد عفونا لك عن جرمك، أما لو إيانا تعامل لم يكن مما كان شيء، فانطلق وفى أى أرض شئت فانزل. فنزل الموصل، ثم إنه ارتاح إلى البصرة، فقدمها، ودخل على عبيد الله فأمنه[3]. فقد كان معاوية رضى الله عنه يحرص على كسب الشعراء لصفه، والتحبب إليهم وإكرامهم وعدم محاولة الإساءة إليهم، فقد كانوا أقرب الشبه بالفضائيات فى الوقت الحاضر.

٩ ـ جهاز المخابرات: كانت الأجهزة الأمنية الداخلية والخارجية فى عهد معاوية قوية جدًا، وكانت قدرتها على جمع المعلومات فائقة، وكان معاوية رضى الله عنه يشرف على جهاز المخابرات بنفسه، وكان له جهاز سرى مربوط به لمراقبة الولاة والرعية، فلم يكن فى قطر من الأقطار، ولا ناحية من النواحى عامل أو أمير

---

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٣٦).

(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢٣٨).

جيش إلا وعليه عين لا يفارقه، بل وصلت عيونه حتى فى البلاط البيزنطى، وإليك ما يدل على ذلك:

أ - اطلاعه على المراسلات التى بين الحسين وأهل العراق: لما توفى الحسن بن على اجتمعت الشيعة فى دار سليمان بن صرد، وكتبوا إلى الحسين كتابًا بالتعزية فى وفاة الحسن، وقالوا فى كتابهم: إن الله قد جعل فيك أعظم الخلق ممن مضى، ونحن شيعتك المصابة بمصيبتك، المحزونة بحزنك، المسرورة بسرورك، المنتظرة لأمرك، فرد الحسين على كتابهم: إنى لأرجو أن يكون رأى أخى فى الموادعة، ورأيى فى جهاد الظلمة رشدًا أو سدادًا، فالصقوا بالأرض وأخفوا الشخص، واكتموا الهوى، واحترسوا فى الأضناء ما دام ابن هند حيًا، فإن يحدث به حدث وأنا حى يأتكم رأيى إن شاء الله[1]. ولقد أشارت تلك الرسائل المتبادلة بين الحسين وأهل الكوفة مخاوف بنى أمية فى المدينة، فكتبوا إلى معاوية يستشيرونه بشأن الحسين: فكتب إليهم بأن لا يتعرضوا له مطلقًا[2]، وكان معاوية على معرفة بتلك الرسائل والعلاقات الوثيقة التى تربط بين الحسين وبين الكوفيين، ولهذا فقد طلب معاوية من الحسين أن يتقى الله عز وجل، وأن لا يشق عصا المسلمين ويذكره بالله فى أمر المسلمين[3]، ولقد كان موقف الحسين واضحًا وإعلانه صراحة بقوله: إنا قد بايعنا وعاهدنا، ولا سبيل إلى نقض بيعتنا[4]، وظل الحسين رضى الله عنه ملتزمًا ببيعته وطاعته طوال عهد معاوية[5]، رضى الله عنه.

ب - قصة معاوية مع المسور بن مخرمة: فقد صارح معاوية المسور وقال له: يا مسور ما فعل طعنك على الأئمة[6]، ففيه معرفة معاوية ما يقول كبار الشخصيات فى المجتمع الإسلامى فيه.

جـ - قصة الأسير المسلم عند البيزنطيين، الذى لطم وجهه بين يدى ملك الروم وقوله الأسير: وا إسلاماه أين أنت يا معاوية؟ فوصل ذلك الخبر إلى معاوية[7].

هذه بعض الشواهد التى تدل على قوة جهاز المخابرات التابع للدولة الأموية.

(١)، (٢) أنساب الأشراف (٣/ ١٥٢)، مواقف المعارضة، ص (١٧٩).
(٣) أنساب الأشراف (٣/ ١٥٢)، مواقف المعارضة، ص (١٨٠). (٤) الأخبار الطوال، ص (٢٢٠).
(٥) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٤٦٩).
(٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥١) إسنادها صحيح.
(٧) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة، ص (٤٨٩).

د ـ وضع بعض أتباع علي رضى الله عنه بالكوفة تحت المراقبة: لم يدخل زياد فى طاعة معاوية بسهولة، وامتنع فى بداية أمره عن طاعته، وتحصن ببلاد فارس واستطاع معاوية بعد أخذ ورد إقناع زياد فى دخوله طاعته، وسيأتى تفصيل ذلك بإذن الله، وسأل زياد معاوية أن يسمح له فى نزول الكوفة، فأذن له، فشخص إلى الكوفة، فكان المغيرة يكرمه ويعظمه، فكتب معاوية إلى المغيرة: مُرْ زيادًا وسليمان بن صرد، وحجر بن عدى، وشَبَث بن ربعى، وابن الكواء، وعمر بن الحمق بالصلاة فى الجماعة، فكانوا يحضرون معه فى الصلاة[1]، فقد كان هذا إجراء احتياطيًا من معاوية حتى يكون هؤلاء القوم تحت ناظرى والى الكوفة باستمرار، وذلك أن صلح الحسن ومعاوية يوجد له معارضون، ولا يستبعد التفافهم حول بعض رجالات على ـ رضى الله عنه ـ حسمًا منه لمادة الفتنة[2].

١٠ ـ الاهتمام ببناء الجيش الإسلامى: كان لمعاوية بعد نظر سياسى تمثل فى بناء جيش قوى منذ أن كان واليًا على الشام، وتمحور دور هذا الجيش فى استتباب الأمن داخل الولاية، ومن ثم القيام بعمليات توسع خارجية قبل وبعد نيله الخلافة،[3] تمثلت فى حركة الفتوحات فى عصره، وهذا سيأتى تفصيلها فى محله بإذن الله تعالى.

١١ ـ سياسة الموازنات: على الرغم من نفوذ الكلبيين فى الدولة الأموية، فإن المعادلة لم تكن قائمة على التحالف الأموى ـ الكلبى، ولكنها اتخذت فى عهد معاوية رضى الله عنه منحًى توازنيًا ما بين كلب وفهر بصورة خاصة، وقحطان وقيس بصورة عامة، فإذا كان الكلبيون قد حملوا عبء الدفاع المسلح عن الدولة، مؤثرين الإقامة فى جنوب الشام (جند الأردن)، فإن الفهريين كان لهم الدور السياسى والإدارى البارز فضلاً عن الدور العسكرى، حيث شارك زعيمهم الضحاك بن قيس فى صفين، وكان بالإضافة إلى ذلك فى طليعة الذين اعتمد عليهم معاوية فى حضِّ الناس على البيعة ليزيد[4]، وقد ارتفع الضحاك فى السياسة الأموية، وفى أعقاب الدور الأمنى الذى شغله فى عهد معاوية كقائد

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٥٨).

(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (١٧٥).

(٣) الدولة الأموية، د. فرست مرعى الدهوكى، ص (٦٤).

(٤) الطبقات (٦/ ٢٢).

على شرطته[١]، والدور السياسى فى عهد يزيد، كعامل له على دمشق، مما هيأه من خلال هذا الموقع الهام، لدور أكثر خطورة بعد وفاة معاوية الثانى الذى أوصى بأن يصلى الضحاك بالناس بدمشق[٢]، وهكذا نجح مؤسس الدولة الأموية فى الإمساك بزمام الأمور من خلال الموازنة بين القبائل الشامية الكبرى، ولم يدع لأى منها مجالاً بأن تتجاوز حدودها المرسومة لها فى الدولة، بما فى ذلك القبيلة الكلبية الأثيرة. وقد اتسعت دائرة هذه السياسة، لتصبح ظاهرة من ظواهر عهد معاوية رضى الله عنه، حيث نجح معاوية فى تحقيق التوازن المنشود داخل قريش (المهاجرة، وغير المهاجرة)، فضلاً عن التوازن داخل الأسرة الأموية (بنو حرب، وبنو العاص)، واحتواء الثقفيين بعد منحهم إدارة العراق الذى ارتبط تاريخه أو كاد بهذه الأسرة، إلى آخر هذه التوازنات المتقنة التى ضبطها معاوية رضى الله عنه[٣].

١٢- سياسته مع الأسرة الأموية: لم يأت معاوية رضى الله عنه للخلافة بدعم مادى أو معنوى من الأسرة الأموية، وإنما أتاه الدعم من جبهة شامية قبلية متماسكة وقفت وراءه، لذلك لم يكن لهذه الأسرة دور بارز فى إدارة الدولة فى عهده من الناحية الإدارية أو من الناحية العسكرية، نلاحظ ذلك من خلال استعراض أسماء ولاة وقادة معاوية الذين استعان بهم[٤]، إلا أن معاوية لم يجاف أسرته جفاءً تامًا، بل استعان بأفراد منها واضعًا نصب عينيه هدفين:

أ- الاستعانة بالأكفاء منهم.

ب- الحيلولة دون ازدياد سلطانهم ونفوذهم بشكل يهدد مخططاته السياسية[٥]، وقد استطاع معاوية تحقيق وحدة الصف الأموى بما كان يملك من صفات ومؤهلات قيادية فذة[٦].

هذه هى أهم الوسائل التى اتخذها معاوية لتوطيد الأمن فى دولته رضى الله عنه.

---

(١) مؤتمر الجابية، إبراهيم بيضون، جمهرة النسب، ابن الكلبى (١/ ٤٧١).

(٢) الطبقات (٦/ ٣٩)، مؤتمر الجابية، ص (٣٥).

(٣) مؤتمر الجابية، ص (٣٦).

(٤) سيأتى الحديث عن اسمائهم بإذن الله عند التحدث عن الولاة.

(٥) الدولة الأموية، فرست مرعى، ص (١٧٩).

(٦) المصدر نفسه، ص (١٨٠).

المبحث الثالث

حياة معاوية فى المجتمع واهتماماته العلمية

أولاً: حياة معاوية فى المجتمع:

١ ـ بين معاوية وعمرو بن العاص رضى الله عنهما: قال عمرو بن العاص لمعاوية: يا أمير المؤمنين ألستُ أنصح الناس لك؟ قال: بذلك نلتَ ما نلت[١].

٢ ـ مشاجرة فى مجلس معاوية: عن جويرية بن أسماء، أن بسر بن أبى أرطأة نال من على عند معاوية وزيد بن عمر بن الخطاب جالس، فعلاه بعصًا فشجه، فقال معاوية لزيد: عمدت إلى شيخ من قريش سيد أهل الشام فضربته، وأقبل على بسر فقال: تشتم عليًا وهو جده، وابن الفاروق على رؤوس الناس، أو كنت ترى أنه يصبر على ذلك، ثم أرضاهما جميعًا[٢].

٣ ـ أنا أحق بهذا منك: قال معاوية: ما من شىء أحب إلىَّ من عين خرارة فى أرض خوّارة! فقال عمرو بن العاص: ما من شىء أحب إلى من أن أبيت عروسًا بعقيلة من عقائل العرب، فقال وردان مولى عمرو بن العاص: ما من شىء أحب إلىّ من الإفضال على الإخوان، فقال معاوية: أنا أحق بهذا منك، قال: ما تحب فافعل[٣].

٤ ـ نعى إلىَّ نفسى: كان عامل معاوية على المدينة إذا أراد أن يبرد بريدًا إلى معاوية أمر مناديه فنادى: من له حاجة يكتب إلى أمير المؤمنين، فكتب زِرّ بن حبيش ـ أو أيمن بن خُرَيم ـ كتابًا لطيفًا ورمى به إلى الكتب وفيه:

إذا الرجال ولدت أولادها ... واضطربت من كبر أعْضادُها

وجعلت أسقامها تعتادها ... فهى زروع قد دنا حصادها

فلما وردت الكتب عليه فقرأ هذا الكتاب، قال: نعى إلىَّ نفسى[٤].

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٥٣). (٢) المصدر نفسه (٦/ ٢٥٣).

(٣)، (٤) المصدر نفسه (٦/ ٢٥٤).

٥ ـ نصيحة معاوية لشاعر من بنى أمية: قال معاوية رضى الله عنه، لعبد الرحمن بن الحكم بن أبى العاص: يا ابن أخى، إنك قد لهجت بالشعر، فإياك والتشبيب بالنساء؛ فتعُرّ الشريفة[1]، والهجاء فتعر كريمًا، وتستثير لئيمًا، والمدح فإنه طعمة الوقاح، ولكن افخر بمفاخر قومك، وقل من الأمثال ما تزين به نفسك، وتؤدب به غيرك[2].

٦ ـ لا تقل دارى فى البصرة، ولكن قل: البصرة فى دارى: ذكر أن رجلاً سأل معاوية أن يساعده فى بناء دار باثنى عشر ألف جذع من الخشب. فقال له معاوية: أين دارك؟ قال: بالبصرة. قال: وكم اتساعها؟ قال: فرسخان فى فرسخين، قال: لا تقل دارى بالبصرة، ولكن قل: البصرة فى دارى[3].

٧ ـ علمت أن أكله سيُورثه داءً: ذكر أن رجلاً دخل بابن معه، فجلسا على سماط معاوية، فجعل ولده يأكل أكلاً ذريعًا، فجعل معاوية يلاحظه، وجعل أبوه يريد أن ينهاه عن ذلك فلا يفطن، فلما خرجا لامه أبوه وقطعه عن الدُّخول، فقال له معاوية: أين ابنك التِّلقامة؟[4] قال: اشتكى. قال: قد عملت أن أكله سيورثه داء[5].

٨ ـ وإنك لتلحظ الشعرة فى لقمتى: روى أن معاوية قال للأعرابى: ارفع الشعرة من لقمتك، فقال: وإنك لتلحظ الشعرة فى لقمتى، والله لا أكلت معك طعامًا[6].

٩ ـ إنك لا تخاطب العباءة، إنما يخاطبك من فيها: نظر معاوية إلى رجل وقف بين يديه يخاطبه وعليه عباءة، فجعل يزدريه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنك لا تخاطب العباءة، إنما يخاطبك من فيها[7].

١٠ ـ يا بنية، إنه زوجك الذى أحله الله لك: تزوج عبد الله بن عامر هند بنت معاوية، فلمّا أدخلت عليه بالخضراء، أرادها عن نفسه فتمنَّعت عليه وأبت أشد الإباء، فضربها فصرخت، فلمّا سمع الجوارى صوتها صرخن وعلت أصواتهنّ،

---

(١) عرّه: أساء إليه وساءه.

(٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٥٤).

(٣) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٣).

(٤) التلقام، والتلقامة: كبير اللُّقم.

(٥) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٣).

(٦) المنتخب والمختار، ص (٥٥٩).

(٧) المصدر نفسه (١١/ ٤٥٣).

فسمع معـاوية فنهض إليهنّ، فاستعلمـهن ما الخبر، فقلن: سمعنـا صوت سيدتنا فصِحنا. فدخل فـإذا هى تبكى من ضربه، فقـال لابن عامـر: ويحك مثل هذه تضرب فى مثل هذه الليلة؟ ثم قال له: اخرج من ههنا، فـخرج وخلا بها معاوية فقال لها: يا بُنَيَّةُ، إنه زوجك الذى أحله الله لك، أو ما سمعتِ قول الشاعر:

من الخَضِرات[1] البيض أمَّا حرامها فـصـعب وأمَّا حِلُّهـا فـذلول

ثم خرج مـعاوية من عندها، وقـال لزوجهـا: ادخل فقد مـهدت لك خُلُقَـها ووطَّأته، فدخل ابن عامر، فـوجدها قد طابت أخلاقها، فقضى حـاجته منها.[2] رحمهم الله تعالى.

١١ ـ هل يصح قول مـعاوية: إن الكريم طروب: عن محمد بـن عامر، قال: لام معاوية عـبد الله بن جعفـر على الغناء، فدخل يومًا على معـاوية ومعه بُديح[3]، ومعاوية واضع رجلاً على رجل، فقـال عبد الله لبديح: إيها[4] يا بديح، فتغنى، فحرك معاوية رجله، فقال عبـد الله: مه يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: إن الكريم طروب[5]. هذا الخبر أورده البلاذرى[6] بنحوه، وأورده ابن عبد ربه[7]، مع بعض الزيادات المنكرة[8]، وهذه الرواية الضعيفة يردها ما أخرجه الطبرانى بإسناد حسن، من طريق كيسان مولى معاوية قـال: خطب معاوية الناس فقال: يا أيها الناس، إن رسول الله ﷺ نهى عن تسع، وأنا أنهـاكم عنهن: النوح، والشِّـعر، والتـبرج، والتصاوير، وجلود السبـاع، والغناء، والذهب، والخزِّ، والحرير[9]. وكان -رضى الله عنه ـ ينهى عن الاسـتـماع إلى الغناء وينكـر ذلك على من يعرف به، وكـان عامله على المدينة ابن الحكم شديدًا على أهل الدعارة والفسوق، فكانوا يهربون من المدينة أثناء ولايته[10].

---

(١) الخضرات: جمع خَضِرة من الخضر، وهو شدة الحياء.

(٢) البداية والنهاية (١١/ ٤٦٤).

(٣) بديح المليح، من موالى عبد الله بن جعفر.

(٤) إيه: كلمة استزادة واستلطاف، الفيروز أبادى، القاموس (٤ ـ ١٦).

(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٨٢).

(٦) أنساب الأشراف (٤/ ٢٧)، مرويات خلافة معاوية، ص (٨٣).

(٧) العقد الفريد (٦/ ٢١، ٢٢)، مرويات خلافة معاوية، ص (٨٣).

(٨) مرويات خلافة معاوية، ص (٨٣).

(٩) المعجم الكبير (١٩/ ٣٧٣)، إسناده حسن.

(١٠) الدولة والمجتمع فى العصر الأموى، ص (٩٤).

١٢ ـ قضاء ديون السيدة عائشة رضى الله عنها: كان معاوية -رضى الله عنه- يهتم بالسيدة عائشة ويقضى عنها ديونها، فعن سعيد بن عبد العزيز، قال: قضى معاوية عن عائشة ثمانية عشرة ألف دينار[١]. وقال عروة: بعث معاوية مرةً إلى عائشة بمائة ألف، فوالله ما أمْست حتى فرَّقتها[٢].

١٣ ـ الاهتمام بحوائج الناس: كان معاوية -رضى الله عنه- يشفق على نفسه أن يكون احتجابه أحيانًا عن المسلمين ذنبًا يحاسب عليه، فلما سمع حديث النبى ﷺ: **«من ولاه الله شيئًا من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره»**، جعل معاوية على حوائج الناس رجلاً يبلغه بها، كى لا يغيب عنه شىء منها[٣]، وكان عامله على المدينة إذا أراد أن يبرد بريدًا إلى معاوية أمر مناديه فنادى: من له حاجة، يكتب إلى أمير المؤمنين[٤].

١٤ ـ تأثر معاوية رضى الله عنه بموت الصالحين: حين توفى ابن لعتبة بن أبى سفيان، وجاء ناس إلى معاوية يعزونه فيه قال: إن موت غلام من آل أبى سفيان قبضه الله، ليس بمصيبة، إنما المصيبة كل المصيبة لموت أبى مسلم الخولانى وكريب ابن سيف الأنصارى[٥].

١٥ ـ اهتمام معاوية بالمساجد والعيون: اهتم معاوية بن أبى سفيان بالمسجد الحرام وأمر بتوسعته، وأجرى له القناديل والزيت من بيت المال، وأضاء المصابيح فيه لأهل الطواف، واهتم بالمسجد الأقصى، وقام مسلمة بن مخلد أمير مصر من قبل معاوية بالزيادة فى المسجد الجامع بالفُسطاط عام ٥٣هـ، وطلا جدرانه بالجص وزخرف بنيانه، وبنى له أربع منارات شامخة، وفرشه بالحصير. وأخذ أهل مصر ببيان المنارات للمساجد، وأمر المؤذنين أن يكون أذانهم فى الليل فى وقت واحد[٦]، ووسع المغيرة بن شعبة المسجد الجامع بالكوفة، ثم قام زياد بن أبيه فبناه وزاد فيه، وأحكمه وفرشه بالحصى، وكان يقول: أنفقت على كل أسطوانة من أساطين مسجد الكوفة ثمانى

---

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٤).

(٣) الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (٢٧٣)، نقلاً عن البداية والنهاية.

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٥٤).

(٥) تاريخ دمشق (١/ ٢٢٧) نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٥٣).

(٦) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٤٧).

عشرة مئة درهم، واتخذ فيه مقصورة جدّدها خالد بن عبد الله القسرى أثناء ولايته على العراق، ثم قام عبيد الله بن زياد وزاد فى المسجد الجامع وفرشه بالحصى[1]، وزاد زياد بن أبيه فى المسجد بالبصرة زيادة كبيرة، وبناه بالآجر والجص، واستعمل الأساطين فى البناء، وسقفه بالساج وبنى منارته بالحجارة، وبنى فى البصرة المساجد الكثيرة، ثم قام عبيد الله بن زياد فزاد فى المسجد الجامع[2]، واهتم معاوية بالمرافق العامة فى الدولة الإسلامية، وحرص على توفير مياه الشرب فى المدينة، وأجرى فى الحرم المكى عيونًا[3]، وأنشأ آبار المياه على الطرقات، فربط بين أجزاء مملكته ربطًا محكمًا[4].

١٦ ـ سباق الخيل فى عهد معاوية رضى الله عنه: ويعد معاوية رضى الله عنه من أوائل الخلفاء الذين أرسوا تقاليد سباقات الخيل فى تاريخنا الإسلامى، حيث كان يقيم سباق الخيل فى دمشق، حيث يشترك فيه فرسان من جميع أطراف الدولة، وكان هؤلاء يدخلون الحلبة وهم يقولون الشعر فى الفخر بأنفسهم وخيلهم، وعند انتهاء السباق كان الخليفة يقدم جوائز ثمينة للفائزين[5].

١٧ ـ إطعام الحجاج والصائمين: جعل أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه دار المراجل بمكة، والتى كان يطبخ فيها طعام الحجاج، وطعام الصائمين من الفقراء فى شهر رمضان المبارك[6]، وقفًا فى سبيل الله.

١٨ ـ الله أقدر عليك منك عليه: رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلامًا له، فقال له: اعلم أن الله أقدر عليك منك عليه، سوأة لك!! أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع منك؟ والله لقد منعتنى القدرة من الانتقام من ذوى الإحن، وإن أحسن من عفا لمن قدر[7]. فهذا توجيه سديد من أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه لابنه

---

(١) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٤٧)، فتوح البلدان، ص (٣٩٩ ـ ٣٤٠).

(٢) فتوح البلدان، ص (٤٢٦، ٤٢٧)، دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٤٨).

(٣) أخبار مكة (٢/ ٢٢٧) الأزرقى، دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٤١).

(٤) الخلافة الأموية، عبد المنعم الهاشمى، ص (٢٥).

(٥) التربية والثقافة العربية الإسلامية فى الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، الاستناد إلى مخطوط تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ص (٩٤)، الرفق بالحيوان د. سلامة الهرفى ص (٤٩).

(٦) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى ص (٢٦).

(٧) البداية والنهاية، (نقلاً عن التاريخ الإسلامى (١٧/ ٢٣).

يزيد نحو التخلق بهذا الخلق الكريم. العفو عند المقدرة، هذا الخلق الذى يعتبر من أهم عناصر السيادة وسياسة الأمـة، ولقد ذكَّره بقدرة الله -جل وعلا- عليه ليحطَّ من تعاظمه بنفسه وليخشى الله سبحانه فيمن هم تحت يده[1].

ثانيًا: اهتماماته العلمية:

كان معاوية رضى الله عنه يشجع الولاة والعلمـاء وأبناء الأمة على إيجاد نهضة ثقافية حـضارية، وشهد عصره نهضـة فى التفسير وعلوم القرآن والفقـه والعقيدة، وتألق فـيـه نجم عـديد من العلمـاء الذين ظل المسلمـون بعـد ذلك يأخـذون من علومهم، ويسـتشهـدون بأقوالهم واجتـهاداتهم، كابن عـباس وأبى هريرة، وابن عمـر، وغيرهم وكانت الـعلوم الرئيسيـة هى القرآن الكريم والسنة النبوية والفـقه واللغة العربية، واهتم معاوية رضى الله عنه بغيرها من العلوم أيضًا، منها:

١ ـ اهتمام معاوية بالتاريخ:

كان مـعاوية رضى الله عنه الراعى الذى عـمل على أول تدوين باللغة العـربية للتـاريخ بمعناه العام، لا على أنه المغـازى النبوية وقـصص الأنبيـاء، ولا على أنه الأنسـاب، وأيام العـرب، ولكن علـى أنه تاريخ الأمم السـالفـة، وسـيـر الملوك والحروب، وأنواع السـياسات مما هو جـدير بالقراءة على الملوك[2]، فقـد كان ينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعـد، فيحضر الدفاتر فيها سـير الملوك وأخبارها والحروب والمكائد، فيقرأ ذلك غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظـها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جملة من الأخبار والآثار وأنواع السياسات[3]، وقد استدعى معاوية عبيدة ابن شرية- وهو أحد علماء التاريخ البارزين فى بلاد اليمن -إلى دمشق وسأله عن أخبار القدمـاء وملوك العرب والعجم، وأمر معاوية كتّـابه أن يدونوا ما يتحدث به عبـيد الله بن شرية؛ كـتاب الأمثال وكـتاب الملوك وأخبـار الماضين[4]، ولم يكن عبيدة هذا هو العـالم الوحيد الذى استقدمه مـعاوية إلى دمشق فكتب عنه روايات

---

(١) التاريخ الإسلامى (١٧/ ٢٤) .

(٢) الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (٤٥٤)، التاريخ العربى (١/ ٩٥).

(٣) مروج الذهب (٢/ ٤١)، الدولة الأموية، ص (٤٥٥).

(٤) مروج الذهب (٢/ ٨٥)، الدولة الأموية، ص (٤٥٥)، التعليم فى العصر الأموى، انتصار السبتى، ص (١١٧).

وصيرها كتبًا، بل أن كثيرًا من الإخباريين أهل الدراية بأخبار الماضين، وسير الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين وفدوا على معاوية أيضًا[1]، والدرس البالغ الأهمية يظهر فى أهمية التاريخ للساسة والحكام والملوك والزعماء، فالسياسى المستوعب لحركة التاريخ وسننه ينجح فى ميدان عمله أكثر من غيره، فهناك علاقة متينة بين التاريخ والسياسة.

٢ ـ اهتمام معاوية بالشعر واللغة:

كان معاوية رضى الله عنه يدرك أهمية الشعر، تواقًا له، ولم يغب عن حسه أهميته فى الدعاية السياسية للدولة، وكان يهتم بتربية أبنائه وأبناء أخيه على تعلم ومعرفة وتذوق الشعر، فقد كتب إلى زياد: أن أوفد إلىَّ ابنك، فلما قدم عليه لم يسأله معاوية عن شىء إلا نفذ منه، حتى سأله عن الشعر فلم يعرف منه شيئًا، فقال له: ما منعك من تعلم الشعر، فقال: يا أمير المؤمنين إنى كرهت أن أجمع فى صدرى مع كلام الرحمن كلام الشيطان، فقال معاوية: اغرب؟ فوالله ما منعنى فى الفرار يوم صفين إلا ابن الاطنابة حيث قال:

أبت لى عفتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح

وإعطائى على الإعدام مالى ... وإقدامى على البطل المشيح

وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى[2]

ثم كتب إلى أبيه أن روِّه الشعر، فروَّاه حتى كان لا يسقط عنه شىء منه[3]، وكان معاوية رضى الله عنه يتمثل بهذه الأبيات كثيرًا:

فما قتل السفاهة مثل حلم ... يعود به على الجهل الحليم

فلا تسفه وإن مُلِّئت غيظًا ... على أحد فإن الفحش لوم

ولا تقطع أخًا لك عند ذنب ... فإن الذنب يغفره الكريم[4]

---

(١) التاريخ العربى والمؤرخون (١/ ٩٥)، الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (٤٥٥).

(٢) البداية والنهاية (١١/ ٤٢٦) . (٣) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤٥٧).

(٤) البداية والنهاية (١١/ ٤٤٢) .

ومن اهتمام معاوية بالشعر حفظه له، فقد دخل ذات يوم على معاوية فى مجلسه ابن أبى محجن الثقفى، فقال له معاوية: أبوك الذى يقول:

إذا مت فادفنى إلى جنب كَرْمة تُرَوِّى عظامى بعد موتى عُرُوقُها
ولا تدفننِّى بالفلاة فإنَّنى أخاف إذا ما مت أن لا أَذُوقها

. فقال ابن أبى محجن: لو شئت ذكرتُ أحسن من هذا من شعره، قال: وما ذاك؟ قال: قوله:

لا تسأل الناسَ: مالى وكثرته وسائل القوم ما حزمى وما خلقى
القوم أعلم أنى من سراتهم إذا تَطِيش يد الرِّعديدة الفَرِق
قد أركب الهوْل مسدولاً عساكره وأكتُم السرَّ فيه ضربةُ العُنُقِ

وهو القائل:

إن يكن ولىّ الأمير فقد طاب منه النَّجْلُ والأثرُ
فيكم مستيقظ فَهِمٌ قُلْقُلانٌ حَيَّةٌ ذكرُ
أحمد الله إليك فما وصلة إلا ستنبترُ[1]

وكان الشاعر مسكين الدارمى من المقربين من معاوية وابنه، فقد سأل معاوية عنه عطارد بن حاجب، وقال له: ما فعل الدارمى الصبيح الوجه، الفصيح اللسان ـ يعنى مسكينًا؟- فقال: صالح يا أمير المؤمنين، قال: أعلمه أنى قد فرضت له، فله شرف بالعطاء وهو فى بلاده، فإن شاء أن يقيم بها أو عندنا فليفعل، فإنّ عطاءه سيأتيه، وبشرّه بأنى قد فرضت لأربعة آلاف من قومه من خِنْدِف[2]، وهذا الشاعر هو القائل فى معاوية رضى الله عنه:

إليك أمير المؤمنين رحلتها تُثير القطا ليلاً وهن هُجُود
على الطائر الميمون والجدّ صاعد لكل أناس طائر وجدود
إذا المنبر الغربى خلّى مكانه فإن أمير المؤمنين يزيد[3]

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٤٢٤) .

(٢) تاريخ دمشق (٢٠/ ٣٩، ٤٠) .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٥٤٤) .

ويقال إن معاوية أمر مسكين الدارمى أن ينظم قصيدة فى البيعة ليزيد، وبعد أن أنشد قصيدته -وكان بنو أمية وأشراف الناس حاضرين- لم يتكلم أحد من بنى أمية فى ذلك إلا بالإقرار والموافقة.. ثم وصله يزيد ووصله معاوية فأجزلا صلته[1]، ويعتبر مسكين الدارمى من شعراء عهد معاوية، وممن ترك أبياتًا جميلة منها قوله:

وإذا الفاحش لاقى فاحشًا ... فهناكم وافق الشن الطبق

إنما الفُحْش ومن يعتاده ... كغراب السَّوءِ ما شاء نعق

أو حمار السوءِ إن أشبعته ... رمح الناس وإن جاع نهق

أو غلامِ السوءِ إن جوعته ... سرق الجار وإن يُشبع فسق

أو كَغَيْرى رَفَعَتْ من ذَيْلِها ... ثم أرخَته ضِرارًا فامَّزَق

أيها السائلُ عمنً قد مضى ... هل جديد مثل ملبوس خَلَق[2]

وهو القائل:

نارى ونارُ الجار واحدة ... وإليه قبلى تُنَزَل القِدْرُ

ما ضرً جارًا لى أجاورُهُ ... ألاً يكون لبابه سترُ

أعمى إذا ما جارتى برزت ... حتى يغيب جارتى الخدر[3]

وكان معاوية -رضى الله عنه- يستنكر اللحن فحين أرسل زياد بن أبيه والى العراق ابنه عبيد الله إلى معاوية بن أبى سفيان لحن فى كلامه، فكتب إليه معاوية: إن ابنك كما وصفت ولكن قوِّم من لسانه[4]، ولما ارتفع إلى زياد رجل وأخوه فى ميراث، فقال: أنّ أبونا لما مات وثب أخينا على مال أبانا فأكله، فأفأ زياد فقال: الذى أضعت من لسانك أضرُّ عليك مما أضعت من مالك[5]، وقد برز فى البصرة فى عهد معاوية كثير من النحويين فكان أبو الأسود الدؤلى أول من وضع أساس

---

(١) الأغانى للأصفهانى نقلاً عن الحياة العلمية فى العراق، ص (١١٠).

(٢) الشعر والشعراء (١/ ٥٤٤) . (٣) المصدر نفسه (١/ ٥٤٥) .

(٤) البيان والتبيين (٢/ ٢١٠)، الحياة العلمية فى العراق، ص (١١٠).

(٥) البيان والتبيين (٢/ ٢٢٢).

النحو فى البصرة، وكان أول من استَنَّ العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها، فكان سراة الناس يلحنون وكذلك وجوه الناس، فوضع باب الفاعل، والمفعول به، والمضاف، وحرف الجر والرفع والنصب والجزم[1]، وألف كتابًا فى النحو[2]، وكان شاعرًا، ومن أشهر أبياته قوله:

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم؟
تصف الدواء لذى السقام	وذى الظنا كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا	أبدًا وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانْهَها عن غيِّها	فإذا انتهت عنه، فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويهتدى	بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتىَ مثله	عارٌ عليك إذا فعلت عظيم[3]

وله فى الزهد المبرأ من الكسل كقوله:

وإذا طلبت من الحوائج حاجة	فادع الإله وأحسن الأعمال
فليعطينك ما أراد بقدرة	فهو اللطيف لما أراد فعالا
ودع العباد وشأنهم وأمورهم	بيد الإله يقلّب الأحوال[4]

٣ ـ اهتمام معاوية بالعلوم التجريبية:

ورثت الدولة الأموية علوم الأعاجم من الفرس والروم بعد انهيار دولتهم، وكان لابد ـ للإفادة من ذلك التراث ـ من ترجمته ونقله إلى العربية، بعد أن غدا تراثًا تقليديًا تداولته أيدى الشارحين والمحترفين ممن أجادوا اليونانية أو السريانية[5]، وقد كان بعض هذه الترجمات حافزًا على الاهتمام بالعلوم التجريبية، وربما كان العكس صحيحًا أحيانًا. . ومعلوم أن كل ذلك يحتاج إلى جهد كبير تعجز عنه

(١) طبقات النحويين، الزبيدى، ص (٢١)، الحياة العلمية فى العراق، ص (١٠٤).

(٢) الشعر والشعراء (٢/ ٧٢٩).

(٣) الأدب الإسلامى وتاريخه، عابد الهاشمى (٢/ ١٧).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ١٧)، ديوان أبى الأسود الدؤلى.

(٥) تاريخ سوريا، فيليب حتى، (١/ ١٣٢)، الدولة الأموية، شاهين، ص (٤٥٩).

إمكانات الأفـراد العاديين، ولذا فـقد وقف الأمـويون يشجـعون على ذلك حـتى تحقـقت أعمـال جيـدة -على نحو مـا سنرى بإذن الله- كانت بـداياتها فى عـهد معاوية، فـقد كان سباقًا إلى رعايـة العلوم وأهلها؛ فأنشأ بيتًا للحكـمة، أى مركز للبحث ومكتبة، واستمر المروانيـون يعنون بهذا البيت حتى فى أسفارهم وحروبهم يسألون عنه ويهتمون به[1].

ويشير بعض المؤرخين إلى دور ابن أثال النصـرانى طبيب معاوية فى نقل بعض معارف الطب إلى العـربية، على أن بداية الجهود الحـقيقية فى التـرجمة بدأت مع خالد بن يزيد أول من عنى بنقل الطب والكيمياء إلى العربية[2]، فقد أمر بإحضار جماعة من اليـونانيين ممن درسوا بمدرسة الأسكندرية فى مصر وتفصـحوا بالعربية كذلك، فطلب منهم نقل كثير من الكتـب من اللسان اليونانى والقبطى إلى اللسان العربى، وكـان هذا أول نقل فى الإسلام[3]، كمـا طلب منهم أن يترجمـوا كتب جـالينوس فى الطب، فـوضع بذلك أساس العلوم الـطبيـة، وهو أول من أعطى الترجمـة والفلاسفة، وقَّـرب أهل الحكمة ورؤساء كل صنعة، وترجـمت له كتب النجوم والطب والكيـمياء، والحروب والآلات والصناعات، وهـو أول من جمعت له الكتب وجـعلها فى خـزانة الإسلام، فـفى دمشق أنشـئت أول دار للكتب فى العالم الإسلامى[4]. وقد ظهرت دلائل كـثيرة تدل على تزايد عدد المشـتغلين فى الطب فى عهد معاوية بحيث أصبحت النسبـة طبيبًا لكل خمسمائة وأربعة وثلاثين فردًا، وهذه النسـبة تمّ أخذها مما أورده ابن كثـير من أن زياد بن أبيه والى البـصرة حينما طعن فى يده جمع مائة وخمسين طبيبًا ليداووه[5]، وكان عدد سكان البصرة ثمانين ألفًا تقريبًا[6].

---

(١) الدولة الأموية، يوسف العشى، ص (٣٤٨).

(٢) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ابن أبى أصيبعة، ص (١٧١٧).

(٣) الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (٤٦٠).

(٤) خطط الشام (٤/ ٢٣، ٢٤)، الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص(٤٦٠).

(٥) البداية والنهاية (١١/ ٢٦١) .

(٦) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٥٥).

المبحث الرابع

الخوارج فى عهد معاوية

عرف الخوارج بهذا الاسم بعد التحكيم فى معركة صفين، وكانوا قبلها من أشد أنصار على بن أبى طالب رضى الله عنه وحضروا معه موقعة الجمل وصفين، ولكنهم انشقوا عليه بعدها، ورفضوا التحكيم، وحاول على إقناعهم وردهم إلى الجماعة ولكنهم تشبثوا بموقفهم، وبالغوا فى شقاقهم وتطرفوا، حتى عاثوا فى الأرض فسادًا، مما جعل عليًا يقاتلهم ويقضى على معظمهم فى معركة النهروان، وهم لا يرضون عن تسميتهم خوارج، لأن هذه التسمية أطلقها عليهم خصومهم لخروجهم على الإمام، وعلى جماعة المسلمين، أما هم فيسمون أنفسهم الشراة، لأنهم باعوا أنفسهم لله تعالى، على أن لهم الجنة يشيرون بذلك إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴾ [التوبة: ١١١]. ويسمون المحكمة، لأنهم قالوا: لا حكم إلا لله، وكان يطلق عليهم أيضًا الحرورية، نسبة إلى قرية حروراء التى انحازوا إليها بظاهر الكوفة لأول خروجهم على على[1]، ولما كان سبب خروجهم هو قبول على التحكيم بينه وبين معاوية رضى الله عنهما، فقد صاغوا لأنفسهم نظرية فى الخلافة تقوم على مبدأين عامين يجمعان بين فرقهم المتباينة[2]، المبدأ الأول: أن الخلافة ليست وقفًا على قريش كما يذهب أهل السنة[3]، بل تجوز لكل مسلم يكون أهلاً لها -حتى ولو كان عبدًا حبشيًا- ويجب أن يكون الخليفة باختيار حر من المسلمين، وأنه إذا تم اختياره لا يصح له أن يتنازل عنها، أو يقبل التحكيم، وفى ضوء هذا المبدأ اعترفوا بخلافة أبى بكر وعمر، أما عثمان فقد اعترفوا بخلافته فى شطرها الأول، ثم تبرؤوا منه وكفروه فى بقية عهده، وأما على فقد اعترفوا بخلافته من بدايتها إلى أن قبل التحكيم، وبعد قبوله التحكيم لم يعترفوا بخلافته بل كفروه[4]، وكذلك لم

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٤٥٤).

(٢) النظريات السياسية الإسلامية، محمد ضياء، ص (٥٧).

(٣) الدولة الأموية فى المشرق، محمد النجار، ص (٨٧). (٤) مقالات الإسلاميين (١/١٥٦- ١٨٩).

يعترفوا بخلافة معاوية وبنى أمية[1]، وكفروهم، كما كفروا عائشة وطلحة والزبير وعمرو بن العاص وأبا موسى الأشعرى. وعلى الجملة كفروا كل من لم ير رأيهم ويذهب مذهبهم من المسلمين، واعتبروا دارهم دار كفر، وأباحوا أموالهم ودماءهم، حتى قتل أطفالهم[2]. المبدأ الثانى الذى قامت عليه نظرية الخوارج: هو وجوب الخروج على الإمام الجائر[3]، وهنا وجه الخطورة فى حركتهم كلها، فلو اقتصروا على الخلاف النظرى فى الرأى، أو الجدال بالحجة والبرهان، لكان الأمر أهون، ولكنهم شهروا السلاح فى وجه مخالفيهم، بدءًا من على بن أبى طالب رضى الله عنه، وحاولوا فرض آرائهم ومذهبهم بالقوة، كما تطرفوا إلى أبعد حد فى الرأى والمذهب، فقد تطرفوا فى اللجوء إلى القوة والعنف، وكبدوا الأمة وأنفسهم خسائر فادحة، وعكروا صفو الدولة الأموية، وكانوا من أشد مناوئيها[4]، وقد تحدثت عن الخوارج بنوع من التفصيل فى كتابى «أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب شخصيته وعصره»[5]، وذكرنا قبل قليل أن خطورة حركة الخوارج تكمن فى لجوئهم إلى الثورة والعنف، ولشدة إيمانهم بمبادئهم فقد ضحوا فى سبيلها بأرواحهم، وأبدوا كثيرًا من ضروب الشجاعة والإقدام فى حروبهم مع الدولة الأموية، وكانوا أشبه بالفرق الانتحارية، فكثيرًا ما كانت أعداد قليلة منهم تهزم جيوشًا جرارة للدولة، ولو أن هذه الشجاعة والإقدام والتضحية اتجهت اتجاهًا سليمًا، ووحد الخوارج جهودهم مع جهود الدولة فى محاربة أعداء الإسلام لربما تغير وجه التاريخ الإنسانى كله بشكل جذرى، والحقيقة أنهم لم يكونوا طلاب دنيا، ولم يجروا وراء المادة، وإنما أخلصوا للفكرة التى آمنوا بها وملكت عليهم جوانب حياتهم[6]، وأفنوا أنفسهم، وكلفوا الأمة الكثير من الجهد والوقت والمال والأرواح، وإذا كان الخوارج قد خرجوا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب وكفروه وحاربوه، فسيكون موقفهم من الدولة الأموية أعنف، وبغضهم لها أشد، فقد شهروا السلاح فى وجهها من أول لحظة، فثاروا على معاوية رضى الله عنه قبل أن يغادر الكوفة عام ٤١هـ[7].

---

(١) الدولة الأموية فى المشرق، ص (٨٧). (٢) مقالات الإسلاميين (١/١٥٩ - ١٨٩).
(٣) النظريات السياسية الإسلامية، ص (٥٧). (٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٤٥٥).
(٥) أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على، ص (٦٣٣).
(٦) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٤٥٨).
(٧) المصدر نفسه، ص (٤٥٨)، تاريخ خليفة ص (٢٠٣، ٢٠٤).

أولاً: حركات الخوارج فى الكوفة:

١ ـ حركة فروة بن نوفل الأشجعى: قال الطبرى فى حوادث عام ٤١هـ: وفيها خرجت الخوارج -التى اعتزلت أيام على عليه السلام بشهرزور-[1] على معاوية[2]، وقال: حدثت عن زياد، عن عوانه، قال: قدم معاوية قبل أن يبرح الحسن من الكوفة حتى نزل النخيلة، فقالت الحرورية[3]، الخمسمائة الذين كانوا اعتزلوا بشهرزور مع فروة بن نوفل الأشجعى-: قد جاء الآن ما لا شك فيه، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه، فأقبلوا وعليهم فروة بن نوفل حتى دخلوا الكوفة، فأرسل إليهم معاوية خيلاً من خيل أهل الشام، فكشفوا أهل الشام، فقال معاوية لأهل الكوفة: لا أمان لكم والله عندى حتى تكفوا بوائقكم، فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم، فقالت لهم الخوارج: ويلكم ما تبغون منا، أليس معاوية عدونا وعدوكم، دعونا حتى نقاتله، وإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم، وإن أصابنا كنتم كفيتمونا، قالوا: لا والله حتى نقاتلكم، فقالوا: رحم الله إخواننا من أهل النهر[4]، هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة، وأخذت أشجع صاحبهم فروة بن نوفل ـ وكان سيد القوم ـ واستعملوا عليهم عبد الله بن أبى الحر[5] ـ رجلاً من طىء ـ فقاتلوهم فقتلوا[6]. وفروة بن نوفل الأشجعى هو القائل قبيل معركة النهروان: والله ما أدرى على أى شىء نقاتل عليًا، لا أرى إلا أن انصرف حتى تنفذ لى بصيرتى فى قتاله أو اتباعه، وانصرف فى خمسمائة فارس[7]. وذكر ابن حجر رواية هامة تبين موقف معاوية رضى الله عنه من الخوارج بعد توليه الخلافة، وفيما يلى نص رواية ابن حجر: . . . فرجع الناس فبايعوا معاوية، ولم يكن

---

(١) شهرزور: كورة واسعة تقع بين إربل وهمذان، أهلها أكراد، وهى فى العراق اليوم: معجم أماكن الفتوح، ص (٧٤١).

(٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٨١) .

(٣) الحرورية: هم الخوارج، وحروراء قرية بظاهر الكوفة، نزل فيها الخوارج الذين خالفوا عليًا رضى الله عنه، فنسبوا إليها، معجم البلدان (٢/ ٢٤٥) .

(٤) تاريخ الطبرى: (٦/ ٨١) .

(٥) كان ممن اعتزل قتل على يوم النهروان، أنساب الأشراف (٤/ ١٦٤) .

(٦) أنساب الأشراف (٤/ ١٦٤) . (٧) مرويات خلافة معاوية، ص (١٨٢) نقلاً عن تاريخ الطبرى.

لمعاوية هَمٌّ إلا الذين بالنهروان[1]، فجعلوا يتساقطون عليه فيبايعونه، حتى بقى منهم ثلاثمائة أو نيف[2]، وهم أصحاب النخيلة[3].

٢- حركة المستورد بن عُلَّفة التيمي [4]: تحدث الطبرى فى تاريخه عن حركة المستورد بن عُلَّفة التيمى بإسهاب وتفصيل بعكس أكثر المصادر التى تناولت هذا الحدث، حيث تحدث خليفة[5] بن خياط عن هذه الحركة باختصار شديد، وقد أطال الطبرى الحديث عن حركة المستورد بن عُلَّفة التيمى، ولعل ذلك إشارة منه لأهميتها، وأهمية هذه الحركة تعود إلى كون أصحابها يمثلون الامتداد الطبيعى لفكر خوارج النهروان الذين قاتلهم على رضى الله عنه، إذ أن معظم المتسببين إلى هذه الحركة كانوا فى خندق واحد فى معركة النهروان، وهذا الأمر هو الذى دفع المغيرة ابن شعبة والى الكوفة إلى اللجوء إلى أنصار على رضى الله عنه، وخاصة الذين شاركوا فى معركة النهروان من أمثال معقل بن قيس الرياحى الذى كان أحد قادة على يوم النهروان[6]، وتكليفه قيادة الحملة المتوجهة لقتال الخوارج، لأن أنصار على رضى الله عنه هم أخبر الناس بالخوارج وأشدهم عليهم، وما جاء من مرويات فى تاريخ الطبرى قدمت لنا تفاصيل هامة عن الحدث، منها:

أ- موقف الخوارج من استشهاد على رضى الله عنه، ويستفاد هذا من قول الخوارج: .. لا يقطع الله يمينًا علت قذاله[7] بالسيف؛ قال: فأخذ القوم يحمدون الله على قتله[8].

ب- أسباب خروجهم على جماعة المسلمين: ويستفاد هذا من قول الخوارج: فلنأت إخواننا فلندعهم إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإلى جهاد الأحزاب، فإنه لا عذر لنا فى القعود، وولاتنا ظلمة، وسُنَّة الهدى متروكة، وثأرنا الذين قتلوا إخواننا فى المجالس آمنون، فإن يظفرنا الله بهم نعمد بعد إلى التى هى أهدى وأرضى وأقوم، ويشفى الله بذلك صدور قوم مؤمنين، وإن نقتل فإن فى مفارقة الظالمين راحة لنا، ولنا بأسلافنا أسوة[9].

---

(١) أى الخوارج . (٢) النيف: من واحد إلى ثلاثة، القاموس المحيط، ص (١١١).
(٣) سموا بذلك لأنهم قتلوا فى النخيلة، معجم البلدان (٢/ ١٨٥).
(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٨٧ - ٩٢). (٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (١٨٩).
(٦) المصدر نفسه، ص (١٩٠). (٧) القذال: مؤخرة الرأس، القاموس المحيط، ص (٧٧٤).
(٨) تاريخ الطبرى (٦/ ٨٨). (٩) المصدر نفسه (٦/ ٨٩).

جـ - سياسة المغيرة بن شعبة رضى الله عنه مع الخوارج: ويستفاد هذا مما يلى: وأحسن فى الناس السيرة، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم، وكان يؤتى ويقال له: إن فلانًا يرى رأى الشيعة، وإن فلانًا يرى رأى الخوارج، وكان يقول: قضى الله ألا تزالون مختلفين، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون[1]. وقال المغيرة لقبيصة بن الدمون: الصق لى بشيعة على، فأخرجهم مع معقل بن قيس، فإنه كان من رؤوس أصحابه، فإذا بعثت بشيعته الذين كانوا يعرفون فاجتمعوا جميعًا، استأنس بعضهم ببعض وتناصحوا، وهم أشد استحلالاً لدماء هذه المارقة، وأجرأ عليهم من غيرهم، وقد قاتلوا قبل هذه المرة[2]. قال المغيرة: يا معقل بن قيس، إنى قد بعثت معك فرسان أهل مصر، أمرت بهم فانتخبوا انتخابًا، فسر إلى هذه العصابة المارقة الذين فارقوا جماعتنا، وشهدوا عليها بالكفر، فادعهم إلى التوبة، وإلى الدخول فى الجماعة، فإن فعلوا فاقبل منهم، واكفف عنهم، وإن هم لم يفعلوا فناجزهم، واستعن بالله عليهم[3].

د - حركة حيان بن ظبيان السلمى: ظهرت هذه الحركة عام ٥٨هـ، وكانت فى ولاية عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفى، وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبى سفيان، ففى أثناء ولايته خرجت الطائفة الذين كان المغيرة بن شعبة حبسهم فى السجن من الخوارج الذين كانوا بايعوا المستورد بن علفة، فظفر بهم فاستودعهم السجن[4]، فلما مات خرجوا من السجن، وقاموا بحركة مضادة للخلافة، وكان رئيسهم حيان بن ظبيان السُّلَمى، فبعث إليهم والى الكوفة جيشًا فقتلوا الخوارج جميعًا[5].

ثانيًا: حركات الخوارج فى البصرة:

١ - حركة يزيد الباهلى وسهم الهجيمى: فى عام ٤١هـ خرج فى ولاية عبد الله ابن عامر لمعاوية، يزيد بن مالك الباهلى، وخرج معه سهم بن غالب الهجيمى، فأصبحوا عند الجسر، فوجدوا عبادة بن قرص الليثى - أحد بنى بجر - وكانت له

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/٨٩) .

(٢) مرويات خلافات معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (١٩٢)، (تاريخ الطبرى (٦/١٠٥).

(٣) تاريخ الطبرى (٦/١٠٦) . (٤) المصدر نفسه (٦/٣٢٦) .

(٥) البداية والنهاية (١١/٣١٣) .

صحبة ـ يصلى عند الجسر، فأنكروه فقتلوه، ثم سألوا ابن عامر الأمن فأمنهم، وكتب إلى معاوية: قد جعلت لهم ذمتك، فكتب إليه معاوية: تلك ذمة لو أخفرتها لا سُئلت عنها، فلم يزالوا آمنين حتى عزل ابن عامر[1]. وفى عام ٤٦هـ خرج سهم الهجيمى والخطيم وهو يزيد بن مالك الباهلى لما تولى زياد، فأما سهم فخرج إلى الأهواز فأحدث وحكَّم ثم رجع فاختفى وطلب الأمان، فلم يؤمنه زياد حتى أخذه وقتله وصلبه على بابه، وأما الخطيم فإن زيادًا سيره إلى البحرين، ثم أذن له فتقدم، فقال له: الزم مصرك، وقال لمسلم بن عمرو الباهلى[2]: اضمنه، فأبى وقال: إن بات خارج بيته أعلمتك، ثم أتاه مسلم فقال: لم يبت الخطيم الليلة فى بيته فأمر به فقتل، وألقى فى باهلة[3].

٢ ـ حركة قريب الأزدى وزحاف الطائى:فى عام ٥٠هـ خرج قريب الأزدى وزحّاف الطائى بالبصرة وهما ابنا خالة، وزياد بالكوفة وسمرة[4] على البصرة، فأتيا بنى ضبيعة، فى سبعين رجلاً، وقتلوا منهم شيخًا، وخرج على قريب وزحّاف شباب من بنى على وبنى راسب فرموهم بالنَّبل، وقتل عبد الله بن أوس الطاحىّ قريبًا وجاء برأسه، واشتد زياد على المنبر فقال: يا أهل البصرة والله لتكفُنّنى هؤلاء أو لأبدأنّ بكم، والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهمًا، فثار الناس بهم فقتلوهم[5].

٣ ـ خبر عروة بن أُدية الخارجى:فى سنة ٥٨هـ اشتد عبيد الله بن زياد على الخوارج، فقتل منهم صبرًا جماعة كثيرة، وفى الحرب جماعة أخرى، وممن قتل منهم صبرًا عروة بن أديَّة أبى بلال مرداس بن أدية[6]، وكان سبب قتله أن ابن زياد قد خرج فى رهان له، فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع إليه الناس وفيهم عروة، فأقبل على ابن زياد يعظه، وكان مما قال له: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠].

---

(١) الكامل (٢/ ٤٥٤) . (٢) عمرو الباهلى والد قتيبة الفاتح الكبير .

(٣) الكامل (٢/ ٤٧٧) .

(٤) سمرة بن جندب الفزارى صحابى، مات بالبصرة سنة ٥٨هـ، الاستيعاب (٢/ ٦٥٣) .

(٥) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٨٢) (٦) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٣٠) .

فلمّا قال ذلك ظن ابن زياد أنه لم يقل ذلك إلا ومعه جماعة، فقام وركب وترك رهانه. فقيل لعروة: ليقتلنّك، فاختفى، فطلبه ابن زياد فهرب وأتى الكوفة فأُخذ وقدم به على ابن زياد فقطع يديه ورجليه[1].. ثم دعا به فقال: كيف ترى؟ قال: أرى أنك أفسدت دنياى وأفسدت آخرتك، فقتله وأرسل إلى ابنته فقتلها[2] بسبب اعتناقها مذهب والدها[3]. وذكر المبرد فى كتابه الكامل فى اللغة سببين هامين كان لهما أثر كبير فى مقتل عروة بن أدية، الأول: تكفير هذا الخارجى لعثمان وعلى رضى الله عنهما، والثانى: إقدامه على مساعدة أخيه مرداس بن أدية على الخروج[4].

٤ ـ حركة مرداس بن أدية: وفى عام ٥٨هـ خرج مرداس بن أُديَّة بالأهواز، وكان ابن زياد قبل ذلك حبسه فيمن حبس من الخوارج، فكان السجان يرى عبادته، واجتهاده، وكان يأذن له فى الليل، فينصرف، فإذا طلع الفجر أتاه حتى يدخل السجن، وكان صديق لمرداس يسامر ابن زياد، فذكر ابن زياد الخوارج فعزم على قتلهم، إذا أصبح، فانطلق صديق مرداس إلى منزل مرداس فأخبرهم، وقال: أرسلوا إلى أبى بلال فى السجن فليعهد فإنه مقتول، فسمع ذلك مرداس، وبلغ الخبر صاحب السجن، فبات بليلة سوء إشفاقًا من أن يعلم الخبر مرداس فلا يرجع، فلما كان الوقت الذى كان يرجع فيه إذا به قد طلع، فقال له السجان: هل بلغك ما عزم عليه الأمير؟ قال: نعم، قال: ثم غدوت! قال: نعم، لم يكن جزاؤك مع إحسانك أن تعاقب بسببى، وأصبح عبيد الله فجعل يقتل الخوارج، ثم دعا مرداس، فلما حضر وثب السجان ـ وكان ظئرًا[5] لعبيد الله- فأخذ بقدمه، ثم قال: هب هذا، وقص عليه قصته، فوهبه له وأطلقه[6]. وقد أشار البلاذرى إلى أن عزم عبيد الله بن زياد على قتل من فى السجن من الخوارج كان بسبب إقدام بعضهم على قتل أحد الحرّاس[7]. ثم أن مرداس خاف ابن زياد فخرج فى أربعين

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥١٧).

(٢) أنساب الأشراف (٤/ ٣٨٧، ٣٨٨)، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٣٠).

(٣) مرويات خلافة معاوية، ص (٢٠٤).

(٤) الكامل فى اللغة (٣/ ١٠٩٨)، نقلاً عن مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٠٥).

(٥) أى زوج مرضعته، لسان العرب (٤/ ٥١٥). (٦) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٣١).

(٧) أنساب الأشراف (٤/ ١٨١).

رجلاً إلى الأهواز، فكان إذا اجتاز به مال لبيت المال أخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه ثم يرد الباقى، فلما سمع ابن زياد خبرهم بعث إليهم جيشًا عليهم أسلم ابن زرعة الكلابى سنة ستين، وقيل: أبو حصين التميمى، وكان الجيش ألفى رجل، فلمّا وصلوا إلى أبى بلال ناشدهم الله أن يقاتلوه فلم يفعلوا، ودعاهم أسلم إلى معاودة الجماعة، فقالوا: أتردُّوننا إلى ابن زياد الفاسق؟ فرمى أصحاب أسلم رجلاًمن أصحاب أبى بلال فقتلوه، فقال أبو بلال: قد بدأوكم بالقتال. فشدّ الخوارج على أسلم وأصحابه شدّة رجل واحد فهزموهم فقدموا البصرة، فلام ابن زياد أسلم وقال: هزمك أربعون وأنت فى ألفين، لا خيرَ فيك. فقال: لأن تلومنى وأنا حى خير من أن تثنى علىّ وأنا ميت، فكان الصبيان إذا رأوا أسلم صاحوا به: أما أبو بلال وراءك! فشكا ذلك إلى ابن زياد، فنهاهم فانتهوا[1]. فهذه أهم حركات الخوارج فى عهد معاوية.

ثالثًا: أهم الدروس والعبر والفوائد:

أهم الدروس والعبر والفوائد فى محاربة معاوية للخوارج:

١ - إن الناظر فى سلوك الخوارج زمن معاوية يجد أن خروجهم فى ذلك العهد كان يستهدف إزعاج نظام حكم بنى أمية وإضعافه، دون أن يكون لهم أمل فى القضاء عليه[2].

٢ - كانت بعض هذه الحركات مقتصرة على المجموعات المنسحبة من النّهروان والتى ظلت مشتتة فى الأرياف، وعدم وجود ما يشير إلى مشاركة الخوارج المقيمين فى الكوفة فيها، وهو ما يؤكد عدم حصول تحوّل فى موقف هؤلاء رغم التغيير الذى طرأ على السلطة[3].

٣ - ومن الملاحظات ما يخصّ الكوفيين الذين أبدى العديد منهم حماسًا فى محاربة الخوارج، وإذا كنا نعتقد أن تهديدات معاوية وعداء بعض الكوفيين للخوارج بسبب موقفهم من على قد لعبت دورًا فى دفع هؤلاء إلى المشاركة فى قمع الثائرين، فإننا لا نستبعد أن تكون الرغبة الملحّة فى إنهاء الحروب والانقسامات

(١) الكامل فى التاريخ (٢/٥١٨).

(٢) الخوارج فى العصر الأموى، نايف معروف، ص(١٣٠).

(٣) حركة الخوارج، لطيفة البكّاى، ص(٦٠).

والعودة إلى الوحدة قد ساهمت بدورها فى دفع الكوفيين إلى مساعدة معاوية فى القضاء على هؤلاء المعارضين، رغم يقينهم أنهم سيفقدون مع الحكم الجديد امتيازاتهم، وسيفقد مصرهم المكانة التى كان يتمتع بها فى خلافة على[1].

٤ ـ كان معاوية رضى الله عنه على وعى تام بحقيقة المعارضة الخارجيّة وموقفها من السلطة، ومن شخصه بالذّات، ولذلك لم يعمل على جلب الخوارج إلى صفّه، وقرّر منذ اللحظة الأولى التصدى لهم بالقوة[2].

٥ ـ لم يتردد المغيرة بن شعبة فى محاربة الخارجين على السلطة بالشرطة والجيش، ولم يقتصر استعمال القوة على الثائرين، بل شمل حتى الذين بلغه أنهم ينوون الخروج مثل معين بن عبد الرحمن المحاربى، وحيان بن ظبيان السّلمى وغيرهما، وهو ما يدل على أن المغيرة كان يقوم بمراقبة تحركات الخوارج داخل المصر، ويتجسس عليهم وينزل عقوباته بهم تبعًا لما يصله عنهم من أخبار[3].

٦ ـ أهم وأخطر ما قام به المغيرة رضى الله عنه هو استعماله أنصار على رضى الله عنه ضد الخوارج، مستفيدًا من العداوة التى كانت بينهم، وهو عمل استفادت منه الدولة الأموية على المدى القريب والبعيد، فعلى المدى القريب، حاصر المغيرة بأعماله الفكر الخارجى فى الكوفة، وأسكت المعارضين الموجودين فيها دون أن يكلف الدولة خسارة تُذكر، . . فضلاً عن أنه شغل الكوفيين عن معارضة الدولة الأموية وأعطاها بذلك الفرصة لتدعيم نفوذها[4]. أما على المدى البعيد فقد عمّق المغيرة الهوّة بين الخوارج والشيعة، وأبعد إمكانية التقارب بين هاتين الحركتين لفترة طويلة، مجنبًا بذلك الدولة الأموية خطر مواجهة معارضة موحدة وقوية، غير أن ما قام به المغيرة تجاه المعارضة فى الكوفة لم يكن سوى تطبيق لأوامر الخليفة نفسه مع بعض الاجتهادات التى رأى أنّها تخدم الدولة أكثر[5]. . . وأما أنصار أمير المؤمنين على رضى الله عنه وخاصة الزعماء منهم، فقد عملت الدولة الأموية على تقريبهم وكسبهم، ولذلك سلك المغيرة سياسة اللين معهم وهو ما ضمن الهدوء فى الكوفة طيلة ولايته عليها[6].

(١) حركة الخوارج، لطيفة البكاى، ص (٦٠).
(٢) المصدر نفسه، ص (٦٦).
(٣) المصدر نفسه، ص (٦٥).
(٤) المصدر نفسه، ص (٦٥).
(٥) المصدر نفسه، ص (٦٦).
(٦) المصدر نفسه، ص (٦٦).

٧ ـ مع تولى زياد البصرة تصاعدت عمليات القمع ضد الخوارج، فبالإضافة إلى القتل كان زياد يمثل بالمقتولين فيصلبهم فى الأماكن العامة، أو فى دُورهم، وقد شمل التمثيل الخارجين من الرجال والنساء، ورغم أن التمثيل يعد من الأعمال البشعة التى نهى رسول الله ﷺ عن القيام بها حتى مع الكفّار، فإن زياداً استعمله مع المسلمين رجالاً ونساءً ليروِّع بقية السكان ويلزمهم الهدوء، ولم تكن العقوبات المسلطة على الخوارج مقتصرة على القتل والتمثيل والتسيير والإقامة الجبرية، بل شملت كذلك العطاء، وقد تجاوز زياد فى هذا المجال من سبقه من الحكّام، إذ قام بشطب أسماء الخوارج من سجلات الديوان[١].

٨ ـ أقحم زياد بأعماله العنف فى سياسة الدولة وجعله إحدى ركائزها، واعتبر أن مصلحتها تقتضى استعماله ضدّ كل الذين يرفضون الخضوع لسلطتها[٢].

٩ ـ أدّت سياسة زياد ـ العنيفة ـ إلى إخماد تحرّكات الخوارج، وفرضت هيبة الدولة على الجميع، وحولّت القبائل إلى طرف له دور فى سياستها، ومنحتها مهمة توفير الأمن داخل المصر، بعد أن كانت مهامها تقتصر على دفع الديّة والتأطير العسكرى، إلا أنّها أضعفت التضامن القبلى، وأفقدت القبيلة القدرة على حماية أبنائها الخارجين على السُّلطة وأجبرتها على القبض عليهم ومعاقبتهم أحيانًا، ولئن نجح زياد فى إخماد تحرّكات المعارضين وزرع الرّعب فى نفوس بقية سكان العراق، وتحويلهم من مقاتلة يتمتعون بقدر كبير من الحرية إلى رعية خاضعة كليًا لأجهزة الدّولة، فقد فشل فى خنق إرادة الخروج لدى قسم كبير من الخوارج، وهو ما يفسر عودة الانتفاضات فى ولاية ابنه عبيد الله[٣].

١٠ ـ تجاوز عبيد الله بن زياد والده في قمع الخوارج، بفرضه العقوبات على الجميع، المعلن والمسر على حدّ السواء، وإذا كان القتل هو عقوبته المفضلة، فقد كان يعمد أحيانًا إلى سجن البعض منهم، كما كان يسمح أحيانًا أخرى وتحت تأثير رجال القبائل بإطلاق سراح البعض الآخر، مع فرض الإقامة الجبرية عليهم، وتكليف من يقوم بعملية المراقبة التى كانت غالبًا ما تنتهى بقتلهم لمخالفتهم الأوامر.. ولم يكن

---

(١) صدر الإسلام والدولة الأموية، محمد عبد الحى شعبان، ص (٩٩)، الخوارج، لطيفة البكّاى، ص (٧٠).
(٢)، (٣) حركة الخوارج، لطيفة البكّاى، ص (٧١).

ابن زياد ينتظر خروج الحروريَّة عليه بل كان يبحث عنهـم مستعملاً كل الوسائل بما فى ذلك تشـجيع السكان بالمال لتـتبع تحـركات أبناء قبـائلهم، ونقلهـا إليه أو إلى أعوانه، وقد أدّت هذه الطريقة إلى إلقـاء القبض على العديد ممن يحمل هذا الفكر أو يتعاطف مـعه أو يُشتبه فيـه ذلك، ولكنها فسحت فى الوقت نفســه المجال أمام الوشاية، وتـلفيق التّهم بـالباطل(٤)، فأجـجت بذلك الحزازات القـبلية القـديمة، وخلقت خلافات جديدة بين القبائل(٥).

١١ ـ كانت السمات العامة لحركات الخوارج فى خلافة معاوية رضى الله عنه كالتالى:

أ ـ اتسمت بالعشوائية والارتجال وقلة التنظيم.

ب ـ كانت أشبه ما تكون بعمليات انتحار جماعى، لأنهم يخرجون بفئات قليلة لا تلبث أن تستأصل.

جـ ـ افتقـارهم إلى قيادة واعية ومحـنكة تستطيع استثمـار شجاعتهم وفروسـيتهم لتحقيق أهدافهم.

د ـ تكرارهم لأخطاء بعضهم، وعدم استفادة كل حركة من تجربة سابقتها.

هـ ـ استبعادهم لأسلوب الحوار والمناظرة فى عودتهم، ومحاولة فرض فكرهم على المجتمع المسلم بالقوة.

و ـ اختلاط الدوافع الـدينية التى دعتهم للخـروج ـ بزعمهم ـ مع دوافع العصـبية الجاهلية فى حركاتهم، والمتمثلة بخروج بعضهم ثأراً لمن قتل من أصحابهم.

ز ـ شعورهم بالغربة داخل المجتمع المسلـم، ونفورهم منه، واقتناعهم أن قتال أهل القبلة أولى من جهاد الكفار.

ح ـ عدم بحـثهم عن أرض جـديدة لنشر دعوتهم، واقـتصارهـم على بعض مدن العراق، وخاصة الكوفة والبصرة.

ط ـ سلوكـهم طريقة منـكرة فى الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر، وهى طريقـة الاستعراض، ومرد ذلك إلى الجهل بالدين وقلة العلم، لأن كثرة العبادة ليست

---

(١) حركة الخوارج، ص (٧٤). (٢) المصدر نفسه، ص (٧٤).

دليلاً على فقه الرجل، وإلا لكان الخوارج أفقه أهل زمانهم[1]، ولكنهم كما قال رسول الله ﷺ «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[2].

ى-وافتقارهم لطول النفس والصبر فى مشروعهم التغييرى.

١٢ ـ شفاعة أبى بكرة الثقفى لبعض الخوارج عند معاوية ونصيحته له: فى عام ٤١هـ وثب حمران بن أبان على البصرة، فأخذها وتغلب عليها، فبعث معاوية إليه جيشًا ليقتلوه ومن معه، فجاء أبو بكرة الثقفى إلى معاوية، فسأله فى الصفح عنهم والعفو، فعفا عنهم وأطلقهم، وولّى على البصرة بسر بن أبى أرطأة[3].. وقد قال معاوية لأبى بكرة: هل من عهد تعهده إلينا؟ قال: نعم، أعهد إليك يا أمير المؤمنين أن تنظر لنفسك ورعيّتك وتعمل صالحًا، فإنك قد تقلّدت عظيمًا، خلافة الله فى خلقه، فاتق الله، فإن لك غاية لا تعدوها، ومن ورائك طالب حثيث، وأوشكت أن تبلغ المدى، فيلحق الطالب، فتصير إلى من يسألك عمّا كنت فيه، وهو أعلم به منك، وإنما هى محاسبة وتوقيف، فلا تُؤثرن على رضا الله شيئًا[4].

١٣ ـ استخدام العواطف فى حرب الخوارج: خرج حوثرة بن وداع بن مسعود الأسدى على الدولة الأموية، فدعا معاوية أبا حوثرة فقال له: اخرج إلى ابنك فلعله يرق إذا رآك، فخرج إليه وكلمه وناشده وقال: ألا أجيئك بابنك، فلعلّك إذا رأيته كرهت فراقه؟ فقال: أنا إلى طعنة بيد كافر برمح أتقلّب فيه ساعة أشوق منى إلى ابنى. فرجع أبوه فأخبر معاوية بقوله، فسير معاوية إليهم عبد الله بن عوف الأحمر فى ألفين، وخرج أبو حوثرة فيمن خرج فدعا ابنه إلى البراز، فقال: يا أبة لك فى غيرى سعة. وقاتلهم ابن عوف وصبروا، وبارز حوثرة عبد الله بن عوف فطعنه ابن عوف فقتله وقتل أصحابه إلا خمسين رجلاً دخلوا الكوفة، وذلك فى جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعين، ورأى ابن عوف بوجه حوثرة أثر السجود، وكان صاحب عبادة، فندم على قتله، وقال:

---

(١) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢١٠).
(٢) البخارى مع الفتح (١٢/٢٠٣).
(٣) البداية والنهاية (١١/١٤٩).
(٤) المصدر نفسه (١١/ ١٥٠).

قتلت أخا بنى أسدٍ سفاهًا | لعمرُ أبى فما لُقّيتُ رُشدى
قتلت مصليًا محياءَ لَيْلٍ | طويل الحزن ذا برٍ وقصد
قتلت أخا تُقًى لأنال دنيا | وذاك لشِقوتى وعِثارِ جَدّى
فهب لى توبة يا رب واغفر | لما قارفت من خطاءٍ وعمد[1]

رابعًا: من قصائد الخوارج فى عهد معاوية رضى الله عنه:

١ ـ ما قاله معاذ بن جوين بن الحصين فى سجن المغيرة بن شعبة:

ألا أيها الشارون قد حان لا مرىءٍ | شرى نفسه لله أن يترحَّلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة | وكل امرىءٍ منكم يُصادُ ليُقتَلا
فشُدُّوا على القوم العُداةِ فإنما | أقامتكم للذبح رأيًا مضَلَّلا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التى | إذا ذكرت كانت أبرَّ وأعدلا
فيا ليتنى فيكم على ظهر سابح | شديد القُصَيْرَى دارعًا غيرَ أعزلا
ويا ليتنى فيكم أعادى عدوَكم | فيسقينى كأس المنية أوّلا
يعزّ علىّ أن تخافوا وتُطردوا | ولما أُجرِّدْ فى المُحِلّين مُنصُلا
ولما يفرقْ جمعهم كلُّ ماجد | إذا قلت قد ولّى وأدبر أقبَلا
مُشيحًا بنصل السيف فى حمس الوغى | يرى الصبر فى بعض المواطن أمثلا
وعَز علىّ أن تصابوا وتُنقصوا | وأصبح ذا بثٍّ أسيرًا مكبلاً
ولو أننى فيكم وقصدوا لكم | أثرت إذا بين الفريقين قَسْطَلا
فيا رُبّ جمعٍ قد فَللتُ وغارة | شهدت وقرْنٍ قد تركت مُجدَّلا[2]

٢ـ ماقال رجل من بنى تيم الله بن ثعلبة عندما انتصر مرداس أبو بلال بن أدية من بنى ربيعة وكان فى أربعين رجلاً على جيش لعبيد الله بن زياد، حيث قال:

أألفا مؤمن منكم زعمتم | ويقتلهم بآسَكَ[3] أربعونا

---

(١) الكامل فى التاريخ (٣/ ٤٥٠) . (٢) المصدر نفسه (٢/ ٤٥٠)

(٣) آسك: بلد فى نواحى الأهواز: معجم البلدان (١/ ٥٣)

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكنّ الخوارج مؤمنونا

هى الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصرونا[1]

وفى رواية أخرى نسبت قصيدة إلى عيسى بن فاتك قال فيها:

فلما أصبحوا صلوا وقاموا إلى الجُرْد العِتاق مسوَّمينا[2]

فلما استجمعوا حملوا عليهم فظل ذوو الجعائل يقتلونا[3]

بقية يومهم حتى أتاهم سوادُ الليل فيه يراوغونا

يقول بصيرهم لما أتاهم بأن القوم ولوا هاربينا

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بآسك أربعونا[4]

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) الجرد العتاق: الخيل الجياد الكريمة، مسومين: معلمين.

(٣) ذوو الجعائل: جنود بنى أمية المأجورون.

(٤) أدب السياسة فى العصر الأموى، ص (٢٢٠) نقلا عن تهذيب الكامل (١/ ١٠٥).

المبحث الخامس

النظام المالي في عهد معاوية رضي الله عنه

أولاً: مصادر دخل الدولة :

١ـ الزكاة: وهي أهم مكونات النظام المالي الإسلامي، وذلك لكونها ثابتة بالكتاب والسنة، إذ يقول عنها سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، كما أجمع المسلمون على وجوبها باعتبارها أحد أركان الإسلام الخمسة، ومن ذلك اتفاق صحابة رسول الله ﷺ على قتال مانعيها في عهد أبي بكر الصديق[١]، وقد أسند إلى السلطان مهمة تحصيلها وإنفاقها، فقد كان رسول الله يجمعها ويقوم على تفريقها، وكذلك فعل أبو بكر وعمر، أما في عهد عثمان لما كثرت الأموال فقد رأى أن يفوض الممولين فيما يتعلق بالأموال الباطنة كالوكلاء عن الإمام[٢]، أما الأموال الظاهرة كالزروع والمواشي ونحوها، فقد استمرت الدولة في جبايتها وإنفاقها، وقد ورد عن أبي بكر وعثمان بن عفان أنهما كانا يأخذان زكاة المال من عطاء الرجل[٣]. ثم اختلف بعد مقتل عثمان هل تدفع الزكاة إلى الولاة أم لا[٤]، وهذا الخلاف بشأن الأموال الباطنة، أما الأموال الظاهرة فظلت تحصلها الدولة، وهذا يدل على سبب نقص حصيلة الزكاة بشكل عام في العصر الأموي، لامتناع جماعة من الناس عن دفعها للولاة، وتفريقها بمعرفتهم، عدا عهد عمر بن عبد العزيز الذي ما إن سمع الناس بولايته حتى سارعوا إلى دفعها للدولة[٥]. كما أعاد كذلك أخذ الزكاة من العطاء[٦]، أي بالخصم عند المنبع، وهكذا يعكس تعاظم دور الزكاة كأحد مكونات الإيرادات العامة إبان عهد عمر بن عبد العزيز، ولا يعني

---

(١) المغني والشرح الكبير (٢/ ٤٣٤)، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٦٤).

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني، ك الزكاة (٢/ ٨٢) .

(٣) الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام، ص (٣٧٢، ٣٧٣). (٤) المصدر نفسه، ص (٥٠٤ - ٥١١).

(٥) عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص (١٠٤)، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٦٥)، عصام الجفري.

(٦) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، ص (٤٢٦).

هذا إغفال دورها الهام طيلة العصر الأموى، فبالرغم من عدم توافر أرقام عنها إلا أن الدلائل تشير إلى كبر أهميتها، وذلك لأنها كانت تحصل من قطاعين رئيسيين من قطاعات الاقتصاد الأموى، هما الزراعة وقطاع التجارة خاصة فى ظل نظام العشور[1]، ومنها أيضًا وجود ديوان خاص يسمى ديوان الصدقات[2]، وهو الديوان الذى يتولى النظر فى أمور الزكاة والصدقات التى تجبى من القادرين والمتمكنين ماليًا ليتم توزيعها على مستحقيها فى الوجوه الشرعية التى ذكرها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة[3]، وأشار إليه الجهشيارى أول مرة فى خلافة هشام بن عبد الملك، ويذكر أن إسحاق بن قبيصة بن ذؤيب كان يتقلد ديوان الصدقة للخليفة هشام بن عبد الملك.

وقد يعود عدم وجود أرقام عن حصيلة الزكاة لعدم تسجيل مقادير تلك الصدقات، إذ كانت تدفع جميعها أو معظمها فى الحال إلى مستحقيها[4]، وبصفة عامة يمكن القول إن نظام الزكاة كان مطبقًا فى العهد الأموى وفقًا للأسس الشرعية الخاصة به، وأن قمة التطور بالنسبة لحصيلة الزكاة كان فى عهد عمر بن عبد العزيز حيث وثق الشعب فى الدولة نتيجة حرصها على تطبيق الإسلام كواقع عملى، فسارع إلى دفع الزكاة إليها، وكذلك أخذ الزكاة من العطاء فيه تخفيف لتكاليف جباية الزكاة فزيادة الموارد مع قلة التكاليف أحدثت نموًا ملحوظًا فى حصيلة الزكاة[5].

٢ ـ الجزية: ما يؤخذ من أهل الذمة، وهى ضريبة على الذمى المستوفى لشروطها مقابل الدفاع عنه، وكانت تمثل أحد الموارد الثابتة للدولة الأموية، عملاً بقوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]. وهى ثابتة فى السنة لما قاله المغيرة بن شعبة لترجمان عامل كسرى: . . فأمرنا نبينا رسول ربنا ﷺ أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده، أو

(١) الخراج، ص (٢٧١، ٢٧٢).
(٢) النظم الإسلامية، أنور الرفاعى، ص (٨٢، ٨٣).
(٣) الدواوين فى العصر الأموى، نجم السعودى، ص (٦١).
(٤) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٦٦).
(٥) المصدر نفسه، ص (٦٦).

تؤتوا الجزية[1]. وهى ثابتة أيضًا بالإجماع[2]. ولم يضف الأمويون شيئًا يذكر بالنسبة لتنظيم الجزية، ويمكن القول بأن جبايتها خضعت لما استقر عليه تنظيمها فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فمن حيث ضوابطها تمثلت فى: تحديد الشريحة التى تؤخذ منها الجزية متمثلة فى الذكور العقلاء البالغين[3]، ثم تحديد الفئات المعفاة منها: وهم: الصبيان والنساء، المرضى المزمنون، العبيد، المجانين، العميان، الشيوخ، الرهبان الذين لا مورد لهم[4]، وكذلك مراعاة مستوى دخل الممول يسارًا وإعسارًا، حيث كانت تفرض على الفرد الغنى (٤٨) درهمًا سنويًا، وعلى المتوسط (٢٤) درهمًا سنويًا، وعلى ما دون ذلك (١٢) درهمًا سنويًا بشرط أن يكون ذا حرفة[5]، وأما عن تصنيفها فيمكن تقسيم الجزية وفق المعيارين التاليين:

أ ـ معيار المسئولية: وطبقًا له تنقسم الجزية إلى فردية وجماعية، فالجزية الفردية هى التى تفرض على كل ذمى مستوف لشروطها فى صورة مبلغ محدد يسقط عنه حالة إسلامه، أما الجماعية أو المشتركة فكانت تتم بوضع مبلغ إجمالى معين على أهل القرية أو المدينة، ثم يتولون هم توزيعه بين أفرادهم، ومثالها من عهد النبى ﷺ صلحه ﷺ لأهل أذرح على مائة دينار فى كل رجب[6]، وكان غالب الجزية فى العصر الأموى من هذا النوع[7].

ب ـ معيار النقدية والعينية: وطبقًا له انقسمت الجزية إلى ثلاثة أقسام: جزية نقدية، جزية عينية، جزية مشتركة، وكانت جميع أصناف الجزية معمولاً بها فى العصر الأموى، ولم يوجد ما يشير إلى الخروج عن ذلك، وخاصة أن الشريعة الإسلامية تقتضى بالالتزام بعقود الصلح، والوفاء بها، لكن هذا لم يمنع من خروج بعض الولاة أحيانًا عن الضوابط الشرعية[8]، وبالنسبة لحجم غلة الجزية ونسبتها إلى إجمالى الإيراد الكلى للدولة فهذا مما يصعب تحديده، لكن هناك

---

(١) فتح البارى (٦/٣١٧).

(٢) المغنى، ك الجزية (١٠/٥٦٧).

(٣) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٦٦).

(٤) الأحكام السلطانية، ص (١٤٤).

(٥) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٦٧).

(٦) فتوح البلدان للبلاذرى، ص (٧١).

(٧) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٦٧).

(٨) المصدر نفسه، ص(٦٨) ومن أراد التوسع فلينظر: تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى، ص(٢٩٤).

مؤثرات تدل على عظم حجم إيراد الجزية وهو ما يتضح من الدور الكبير الذى قامت به الدولة الأموية فى نشر الإسلام فى بلدان كثيرة تم فتحها وفرض الجزية على من لم يسلم من أهلها[1].

٣ - الخراج : كبقية المصادر المالية للدولة التى كان لعمر بن الخطاب الريادة فى تنظيمها، فقد استفادت الدولة الأموية من تنظيم عمر له، إذ سارت فى أغلب أقاليمها عليه، إلا ما طرأ من تعديلات سوف يتم التعرض لها[2]، وللخراج معنى خاص: وهو إيراد الأراضى التى افتتحها المسلمون عنوة وأوقفها الإمام لمصالح المسلمين على الدوام، كما فعل عمر بأرض السواد من العراق والشام[3]، والخراج كما قال ابن رجب الحنبلى: لا يقاس بإجارة ولا ثمن، بل هو أصل ثابت بنفسه لا يقاس بغيره[4]، وكان للخراج أهمية كبرى بالنسبة للدولة الأموية، وكانت غلة الخراج فى منطقة السواد على سبيل المثال فى عهد ابنه عبيد الله سنة ٥٤هـ - ٦٦هـ بلغت ١٣٥ مليون درهم[5]، وأما منطقة الجزيرة والشام: فقد استمر الخراج فى هذه المنطقة وفقًا لما وضعه معاوية بن أبى سفيان، الذى فرض ضرائب على أهل المدن ذات شقين، شق منه جزية والآخر خراج وهو كما يلى:

أ - على أهل قنسرين حوالى مليون وخمسمائة ألف درهم.

ب - على الأردن ستمائة ألف درهم.

جـ - على فلسطين حوالى ستمائة ألف درهم[6].

وقد حدثت بعض الانحرافات فى تحصيل الخراج فى عدة صور أهمها:

- فرض الخراج على أرض مستثناة منه بنص عقود الصلح[7]، فقد حدث ذلك فى عهد يزيد بن معاوية(٦٠ - ٦٤) حيث فرض الخراج على أرض السامرة[8]، بالأردن وفلسطين.

---

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٧١).　　(٢) المصدر نفسه، ص (٧٣).

(٣) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٤، ٢٥) اقتصاديات الحرب، ص (٢١٥).

(٤) الاستخراج لأحكام الخراج، ص (٤٠)، اقتصاديات الحرب، ص (٢١٥).

(٥) الأحكام السلطانية، ص (١٧٥)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٧٤).

(٦) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٧٦).　　(٧) فتوح البلدان، ص (١٦٢، ١٦٣).

(٨) السامرة: قوم من اليهود وهم صنفان: الدستان والكوشان، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٧٨).

- استخدام العنف فى تحصيل الخراج، فى بعض الأقاليم - باستثناء عهد عمر بن عبد العزيز ، حيث استخدمت الشدة فى تحصيل الإيرادات بأنواعها[1].

- تحميل نفقات جباية الخـراج على الممول، ومن تلك النفقات قيمة الورق الذى يكتب عليه مقادير الخراج، قيمة إيجار المستودعات التى يتم تخزين حصيلة الخراج العينية فيها، أجرة الجابى الذى يقوم بالجـباية وبقية نفقات تحصيل الخراج[2]، وقد حدث ذلك خاصة فى إقليم العراق وكان قبل عهد عمر بن عبد العزيز، فلما ولى الخلافة أبطلها ثم عادت بعد موته[3]، وكان للخراج فى عهد الدولة الأموية ديوان خاص به، يسمى ديوان الخراج: وهو الذى يتولى النظر فى جـباية ضريبة الخراج، ويقوم بجمـعها وتسجيلها، ووضع تقـديرات لها، لأنها أعظم واردات الدولة[4]، وكان الأمويون قد فصلوا بين الولاية والجباية وعـينوا مسئولين عنها لكى يحصروا المسئـولية، وقد ذكـرت المصادر قائمة بأسـماء الذين أسندت إليهـم مهمة الجـباية والإشراف على أعمـال الديوان، فمعاوية رضى الله عنه عـين على خراج دمشق: سرجون ابن منصور[5]، وعلى خراج فلسطين: سليمان المشجعى[6]، وعلى خراج حمص ابن أثال النصرانى[7]، وفى خلافـة يزيد بن معاوية استـمر على الديوان: سرجون بن منصور، كما بقى عليه طوال حكم معاوية الثانى، ومروان بن الحكم، وعبد الملك، حـتى عزله[8]. وقد أولى معـاوية رضى الله عنه ولاته فى الأقاليم؛ الأرض ومن عليهـا عناية متزايدة، فاستـصلح البطائح وهى أرض واسعة مـغمورة بالمياه، بقطع القصب وعلب الماء بالمسنيـات مما أدّى إلى عمارة البلاد وزيادة الوارد العام بمقدار خمـسة آلاف ألف درهم، وراعى معاوية حالة السكان وسعى لتطمينهم والتخفيف عن كاهلهم بمجموعة من الإجراءات يتعلق بعضها بضريبة الخراج ذاتها، وبعضهـا الآخر يتعلق بالقائمـين على الضريبة[9]. ومن ناحية أخـرى، فقد عمل

(١) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٨٦، ١٨٧)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٧٨).

(٣) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموى، ص (٤٥٦).

(٤) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى، ص (١٧٧).

(٥) الجهشيارى، ص (٢٤).

(٦) الجهشيارى، ص (٢٦)، إدارة بلاد الشام، ص (١٧٨).

(٧) تاريخ اليعقوبى (٢/ ٢٢٣).

(٨) إدارة بلاد الشام فى العهد الراشدى والأموى، ص (١٧٨).

(٩) الخراج د. غيداء خزنة كاتبى، ص (٢٣٩).

معاوية على إنصاف دافعي الضريبة باختيار عماله ومتابعته لهم، وإن كانوا من المقربين، فقد عزل ابن أم الحكم وهو عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي ـ وهو ابن أخته ـ لأنه اشتد في أمر الخراج ولم يقبل من عامل خراجه جباية الخراج قبل موعده الموجود[1]. وفي الفترة الأموية تكثر الإشارة إلى استعمال الأعاجم في الخراج، وصلاحهم لذلك لأسباب عبر عنها زياد بن أبيه بوضوح منها: معرفتهم بأمور الخراج ودورهم في إعمار الأرض[2]، حيث يقول: وينبغي أن يكون كُتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بأمور الخراج[3]، ودعا زياد إلى مراعاة الدهاقين والإحسان إليهم: أحسنوا إلى الدهاقين[4]، فإنكم لن تزالوا سمانًا ما سمنوا[5].

٤ ـ العشور: هي الأموال التي يتم تحصيلها على التجارة التي تمر عبر حدود الدولة الإسلامية سواء داخلة أو خارجة من أرض الدولة، وهي أشبه ما تكون بالرسوم الجمركية في العصر الحاضر، ويقوم بتحصيلها موظف يقال له العاشر أي الذي يأخذ العشور[6]، وأول من وضعها في الإسلام هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد فرضها على الحربي بنسبة العشر، وعلى الذمي نصف العشر، وعلى المسلم ربع العشر[7]، وقد استمر هذا النظام في العهد الأموي وفق القواعد التالية:

أ ـ إعفاء الحد الأدنى لرأس المال، والذي قدر بالنسبة للمسلم بمائتي درهم[8]، أما بالنسبة للحربي والذمي فقد اختلف فيه[9].

ب ـ لا تحصل العشور إلا مرة واحدة في السنة .

جـ ـ يشترط لتحصيل العشر من النعم التي للمسلم أن تكون سائمة.

---

(١) الخراج د. غيداء، ص (٢٣٩). (٢) المصدر نفسه، ص (٢٦٢).

(٣) المصدر نفسه، ص (٢٦٢).

(٤) الدهاقين: جمع دهقان والدهقان: شيخ القرية العالم بالزراعة، وما يصلح للأرض من شجر .

(٥) الضرائب في السواد في العصر الأموي للدوري، ص (٤٨)، الخراج، ص (٢٦٣).

(٦) الخراج لأبي يوسف، ص(٢٧١)، اقتصاديات الحرب، ص (٢٢٣).

(٧) الأموال لأبي عبيد، ص (٤٧٥، ٤٧٦). (٨) الخراج لأبي يوسف، ص (٢٧٦).

(٩) الأموال لأبي عبيد، ص (٤٧٧).

د ـ لا تؤخذ العشور من عبد ولا مكاتب ولا مضارب ولا بضاعة، وإنما من رب المال نفسه[1].

هـ ـ أن يكتب للتاجر سند بالمبلغ الذى دفعه، وبمقتضاه لا تأخذ منه العشور إلا فى السنة التالية[2].

و ـ أن لا يتم تفتيش التاجر ولا تعنيفه[3].

ز ـ أن من ادعى دينًا يستغرق ما معه من التجارة، صدق إن كان مسلمًا، وإن ارتاب فى أمره استحلفه (على خلاف ذلك)[4]، وأما الذمى فأقرب الأقوال فيه أن يشهد له شاهدان من المسلمين حتى يعفى[5].

ح ـ أن العشور التى تأخذ من المسلمين هى الزكاة فلا يجمع على المال زكاة وعشور[6].

ط ـ أن غير المسلم إذا مر بما يوصف بالمالية عندهم وليس بمال عند المسلمين كالخمر والخنزير ونحوهما، يقومه أناس من غير المسلمين، ويضاف إلى قيمة ما معه من تجارة ويؤخذ منه العشور[7]. وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن العشور كانت تشكل جزءًا مهمًا فى إيرادات الدولة، من ذلك ما لمسه ابن الزبير من نقص فى مواد الدولة حينما منع تحصيل العشور لمدة عام واحد مما حمله على التراجع على ذلك القرار[8].

٥ ـ الصوافى: هو ما اصطفاه الإمام لبيت المال من أرض الفيء كما فعل رسول الله ﷺ أو من البلاد المفتوحة عنوة بحق الخمس، أو باستطابة نفوس الغانمين، كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه[9].. ثم أقطعت أجزاء منها إلى بعض

---

(١) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٧٤).

(٢) الأموال لأبى عبيد، ص (٤٧٥)، التطور الاقتصادى، ص (٨٠).

(٣) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٧٥)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٨٠).

(٤) الأموال لأبى عبيد، ص (٤٨٠، ٤٨١).

(٥) المرجع السابق، ص (٤٧٩)، التطور الاقتصادى، ص (٨٠).

(٦) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٧٣).

(٧) المصدر نفسه، ص (٢٧٣).

(٨) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٨٠).

(٩) الأحكام السلطانية، ص (١٩٢).

من كان يتـولى استـثمارها، على أن يؤدى لبـيت المال ما عليـها، وأول من أقطع عثمان بن عفان رضى الله عنه[1]، وذلك بدافع زيادة غلتها، وقد اشترط على من يقطعه إياها حق الفيء[2]، فبلغت غلتـها آنذاك خمسـين مليون درهم[3]، وانتبه معاوية بن أبى سفيان للصوافى فى وقت مـبكر، وكتب إلى الخليفة عثمان سأله أن يقطعه إياها، ليقوى بـها على ما وصف فى كتابه؛ يقول ابن عسـاكر: حتى كتب معـاوية فى إمرته على الشام إلى عثـمان أن الذى أجراه عليـه من الرزق فى عمله ليس يقوم بمؤن من يقـدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم، ومن يقـدم عليه من رسل الروم ووفـودها. ووصف فى كتـابه هذه المزارع الصـافيـة وسمـاها له، وسأله أن يقطعـه إياها ليقوى بهـا على ما وصف له، وأنها ليـست من قرى أهل الذمة ولا الخـراج، فكتب إليه عـثمان بذلك كـتابًا[4]، يضاف إلى تلك المزارع، مزارع وأراضـى بنى فوقـا الذين لا وراث لهم، فأخـذ معـاوية ما يليـهم[5]. ولما أفضى الأمر إليه، جعل هذه الأراضى حبسًا[6] على فقراء أهل بيته والمسلمين[7].

وأشار المؤرخ الشـيعى اليعـقوبى إلى أن مـعاوية جعل هذه الأراضى، وضـياع الملوك فى الشام والجزيرة واليمن والعراق خالصـة لنفسه عندما أفضى الأمر إليه[8] فأقطع منها فقراء أهل بيته وخاصته، واعتبر بذلك: أول من كانت له الصوافى فى جميع أرجـاء الدنيا[9]، وهذه الإشارة من اليـعقوبى تلـفت الانتباه إلى الالتـباس الواضح فى لغـتهـا، فقد ذكـرت صوافى فى الجـزيرة واليمن عـلمًا بأن عـمر بن الخطاب كان قـد أصفى مجـموعات خـاصة فى أراضى السـواد وأراضى الشام لم يدخل فيها صـوافى الجزيرة واليمن[10]. كما أشار اليعـقوبى إلى أن معاوية جعل هذه الأراضى خالصة لنفسـه، فأقطع منها فقراء أهل بيته وخـاصته. وبمقارنة هذا

---

(١) فتوح البلدان، ص (٢٧٣).

(٢) الأحكام السلطانية، ص (١٩٣).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٩٣).

(٤) تهذيب تاريخ دمشق (١/ ١٨٤)، الخراج د. غيداء، ص (٣٠٧).

(٥) الخراج، د. غيداء، ص (٣٠٧).

(٦) الحبس: الوقف.

(٧) تهذيب تاريخ دمشق (١/ ٨٤)، الخراج، غيداء، ص (٣٠٧).

(٨) تاريخ اليعقوبى (٢/ ٢٣٢ - ٢٣٤).

(٩) المصدر نفسه (٢/ ٢٣٤).

(١٠) المعرفة والتاريخ (١/ ٤٣٤)، الخراج، غيداء، ص (٣٠٧).

النص، بنص ابن عساكر عن الموضوع نفسه، يظهر مدى المبالغة فى تلك الرواية، يقول ابن عساكر عن تلك الأراضى: فلم تزل بيد معاوية حتى قتل عثمان وأفضى إلى معاوية الأمر، فأقرّها على حالها، ثم جعل من بعده حبسًا على فقراء أهل بيته والمسلمين، أى أن معاوية لم يتصرف فيها ابتداء بل تركها على حالها.[1] ولكن يبدو أن هناك ضرورات سياسية نشأت فى الشام دفعت الدولة إلى اتخاذ ضرب جديد من التنظيم والسعى لخدمة مصالح الدولة، ومن هذه الضرورات محاولة إقامة توازن قبلى فى بلاد الشام بين اليمانية وبين القيسية، ولذلك أقطع معاوية إقطاعات واسعة فى هذا المجال[2]، ولقد أسئ فهم هذا الإجراء، وفسر بعض المؤرخين كاليعقوبى، موضوع مصالح الدولة بأنه يعنى مصالح الأسرة الأموية وبالتحديد معاوية[3]، ولا شك أن معاوية استخدم هذه الأموال في تثبيت دعائم الدولة، وحفظ وحدة الأمة، فكان يتصرف وفق ما يراه مناسبًا للصالح العام[4]، ولا يمنع ذلك الإحسان إلى أسرته والمقربين إليه بالمعروف،وقد أمر معاوية بإعادة مسح للصوافى فى أمصار الدولة الأموية، وأضاف أراضى واسعة بعد العثور على سجل الضياع الساسانية[5] التى أصبحت تحت تصرف معاوية المباشر فكان يسد منها بعض حالات العجز فى النفقات العامة، فقد بلغ غلة صوافيه بالعراق وما يتبعه مائة مليون درهم[6]، وكذلك فعل بصوافى أرض الشام والجزيرة واليمن حتى فدك اصطفاها لنفسه ثم أقطعها لمروان بن الحكم[7]، وظلت كذلك طيلة العهد الأموى، باستثناء عصر عمر بن عبد العزيز الذى أعادها للملكية العامة وشجع القطاع الخاص على استثمارها[8]، كما رد فدك لبيت المال ووضع ما يأتى منها فى أبناء السبيل، كما فعل رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده[9]، كما أمر باستثمار أراضى الصوافى حين كتب إلى واليه على العراق: انظر ما قبلكم من

---

(1) الخراج، غيداء، ص (٣٠٨).
(2) المصدر نفسه، ص (٣٠٨).
(3) المصدر نفسه، ص (٣٠٩)، دراسات فى حضارات الإسلام، ص (٤٦).
(4) الخراج، ص (٣١١) غيداء خزنة كاتبى .
(5) المصدر نفسه، ص(٣١١).
(6) الإدارة فى العصر الأموى، نجدة خماش، ص (١٩٧).
(7) فتوح البلدان، ص (٤٦).
(8) المصدر نفسه، ص (٤٦)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٨٢).
(9) فتوح البلدان، ص (٢٤ - ٤٨).

أرض الصافية، فأعطوه حتى تبلغ العشر فإن لم يزرعها أحد فامنحها فإن لم تزرع فأنفق عليها من بيت مال المسلمين، ولا تبتزن قبلك أرضًا[1]، ونلاحظ من هذا النص اهتمام عمر بن عبد العزيز بأمر الصوافى مما يدل على أهميته فى موارد الدولة. لكن أمر الصوافى عاد إلى ما كان عليه الأمر بعد عهد عمر بن عبد العزيز[2].

٦ ـ خمس الغنائم : تعرّف الغنيمة: ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة[3]، وقد نص عليها القرآن الكريم، وفى العصر الأموى ازدادت حركة الفتوحات وبالتالى زادت الغنائم كأحد موارد بيت المال، وقد اتبع الأمويون نفس النهج العمرى بالنسبة للغنائم والأراضى المفتوحة، فكان تخميس الغنائم وتقسيمها بين الفاتحين وترك الأرض فيئًا لمجموع المسلمين مع ضرب الخراج عليها[4]، هذه أهم المصادر المالية للدولة مع وجود مصادر أخرى كنظام خمس الركاز، ومال من لا وارث له، إذ ظل فى العصر الأموى على ما كان عليه عهد رسول الله والخلفاء الراشدين، إضافة إلى أن نسبة هذين العنصرين بسيطة جدًا بالنسبة لغيرهما من المصادر[5].

ثانيًا: النفقات العامة:

١ ـ النفقات العسكرية:

حملت الدولة الأموية على عاتقها مهمة مواصلة نشر الإسلام فى أرجاء المعمورة، ولذلك اتسعت الدولة الإسلامية فى العصر الأموى اتساعًا كبيرًا، وقد تم لها ذلك على الرغم مما كانت تعانيه من فتن وقلاقل داخلية تتطلب أموالاً طائلة لإخمادها، وتتضح معالم النفقات العسكرية فى العصر الأموى من خلال نفقات الجند والصناعات الحربية[6].

أ ـ رواتب الجند: ويشرف عليها ديوان الجند، وتجمع المصادر على أن أول من وضعه ورتبه هو الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٠هـ[7]، وقد بقى هذا الديوان على

---

(١) واسط فى العصر الأموى، ص (٤٠٦).
(٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٨٢).
(٣) الخراج، يحيى القرشى، ص (٥٨).
(٤) الإدارة فى العصر الأموى، ص (٢١).
(٥) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٨٦).
(٦) المصدر نفسه، ص (٩٧).
(٧) طبقات ابن سعد (١/ ٢١٣)، تاريخ اليعقوبى (٢/ ١٤٣).

الأساس نفسه حيث تحفظ سجلات بأسماء المقاتلين وأوصافهم، وأنسابهم ومقدار أعطياتهم[1]، وقد عمل معاوية بن أبى سفيان على تحسين حالة الجند المعاشية فزاد فى أعطياتهم، بسبب الظروف المستجدة وتحسن الأحوال الاقتصادية فى الدولة، وكان أمير المؤمنين معاوية يتفقد أحوال القبائل، كجزء من سياسته فى حفظ التوازن بين قبائل اليمن والقبائل القيسية، وكان قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول: هل ولد الليلة فيكم مولود؟ وهل نزل بكم نازل؟ فيقال: ولد لفلان غلام ولفلان جارية، فيقال: سموهم فيكتب، ويقال: نزل بنا رجل من أهل اليمن بعياله فيسمونه وعياله، فإذا فرغ من القبائل كلها أتى الديوان[2]، وكان للجند ديوان مركزى فى دمشق فى حين وجدت دواوين فرعية فى مراكز الولايات: كالكوفة والبصرة والفسطاط[3]، وكان سلم رواتب الجند فى عهد معاوية كالآتى:

على درجات: شرف العطاء والمرتب ٢٠٠٠ درهم، عطاء العرب فئة(أ) ٣٠٠ درهم، فئة (ب) ١٠٠٠ درهم، فئة (جـ) ١٥٠٠ درهم، وأدخل الموالى فى العطاء[4]، وكانت نفقات رواتب الجند فى عهد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه كالآتى:

- فى منطقة مصر : كان عدد المسجلين فى الديوان ٤٠٠٠٠ جندى منهم أربعة آلاف مسجلين بشرف العطاء[5]، وبالتالى يكون مجمل عطائهم ٨٠٠٠٠٠٠ درهم، أما بقية المسجلين فى الديوان فكان عددهم ٣٦٠٠٠ جندى وعلى فرض أن عطاء الجندى سنويًا هو ٣٠٠ درهم يصبح إجمالى عطائهم ١٠٨٠٠٠٠٠ درهم[6].

- فى منطقة الشام: كان عدد الجند المسجلين فى ديوان الشام ستين ألف جندى، كان الدخل السنوى لكل جندى ألف درهم، أما إجمالى نفقات جند الشام فبلغ ستين مليون درهم[7].

---

(١) التراتيب الإدارية للكتانى (١/ ٢٢٥) الدواوين فى العصر الأموى، ص (٣٧).

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى (١/ ٦٥)، الدواوين فى العصر الأموى، ص (٣٧).

(٣) الجيش والأسطول الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٥٣٥).

(٤) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٩٨).

(٥) ديوان الجند للسلومى، ص (١٤٩)، التطور الاقتصادى، ص (٩٩).

(٦) الخطط للمقريزى (١/ ١٢٨) . (٧) الخراج والنظم المالية للريس، ص (٩٤).

- فى العراق نأخذ مثالاً ديوان البصرة: حيث بلغ عدد المسجلين به ثمانين ألف مقاتل[1]، ويلغت مرتباتهم فى عهد زياد ٣٦٠٠٠٠٠٠ درهم، فإذا أخرجنا منهم نسبة ١٠٪ مسجلين فى شرف العطاء، (قياسًا على ديوان مصر) يكون المتبقى ٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم، وعليه يكون متوسط الدخل للجندى فى ديوان البصرة حوالى ٢٧٨ درهمًا ويمكن قياس بقية منطقة العراق على هذا[2].

وقامت الدولة الأموية بتطوير ديوان الجند، وهو الجهة المسئولة عن نفقات ورواتب الجند وكان من أبرز صور هذا التطوير ما يلى:

* قام مندوب معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه المكلف بتوزيع عطاء المدينة بدفع عطاء كل رجل فى يده مباشرة، وكان النظام السابق هو أن يدفع العطاء إلى العرفاء. لكن هؤلاء العرفاء لم يكونوا يغيبون غائبًا ولا يميتون ميتًا[3].

* وفى عهد معاوية قام واليه على العراق زياد بن أبيه، بتخفيض النفقات الإدارية لديوان الجند، حيث اختصر عدد العرفاء المسئولين عن توزيع العطاء ليصبح لكل قبيلة عريف واحد[4].

ب- نفقات الصناعات الحربية: على الرغم من عدم وجود أرقام محددة فى نفقات الدولة على الصناعات الحربية، إلا أن هناك ما يدل على اتجاه هذه النفقة نحو التزايد، فقد كان اهتمام الدولة الأموية منصبًا على تطوير سلاح البحرية، وقد بلغ عدد قطع الأسطول البحرى الإسلامى فى بداية تكوينه مائتى مركب[5]، ثم تطور على يد الدولة الأموية ليبلغ فى عهد سليمان بن عبد الملك ألف وثمانمائة سفينة كبيرة[6].

٢- النفقات الإدارية :

تقسم هذه النفقات إلى قسمين: رواتب الموظفين ونفقات المستلزمات الإدارية، وكانت هذه الأخيرة ضئيلة للغاية، ومتمثلة فى الشموع وأوراق الكتابة، وغيرهما

---

(١) الحياة الاقتصادية فى صدر الإسلام، بطاينة نقلاً عن التطور الاقتصادى، ص (٩٩).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٠٠).

(٣) ديوان الجند للسلومى، ص (١٦٩)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٠٢).

(٤) الإدارة فى العصر الأموى، ص (٣٢٠).

(٥) تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، ص (١١٥، ١١٦).

(٦) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٠٦).

من الأدوات البسيطة التى لا تشكل شيئًا يذكـر بالنسبة لما هو عليه الأمر اليوم ومع ذلك فقد تميز عهد عمر بن عبد العزيز بالحساسية للمال العام، فكانت هذه النفقات فى عهـده أقل من غيره من العـهود[1]، وسنركز الحـديث عن رواتب الموظفين، ويبدو أن رواتب الموظفين كـانت متروكة إلى والى الإقليم، يحدد لنفسـه ولعماله رواتبهم حسب مـا يرى، وقد ساعدت هذه اللامـركزية على ظهور مرتبات كـبيرة نسبيًا، إذا ما قـورنت بالمرتبات فى عهد عمر بن الخطاب وبمتوسط مسـتوى المعيشة المتواضع نسبيًا فى الدولة الأموية؛ حيث بلغ مرتب والى العراق زياد بن أبيه خمسة وعـشرين ألف درهـم شهـريًا[2]، وظهـرت أيضًا إلى جـانب المرتبـات الكبيـرة مخصصات إضافية، فهذا زياد بن أبيه يجعل لأحد الولاة التابعين لإدارته مائة ألف درهم سنويًا عدا مرتبه[3].

وهذه بعض النماذج مـن رواتب الموظفين خلال فـترات من العصـر الأموى، يمكن اعتبارها مؤشرًا على مـستوى رواتب ومكافآت موظفى الدولة، وذلك لعدم العثور على معلومات تفصيلية عنها.

أ- كان الحد الأقصى لرواتب الكتاب طوال العـصر الأموى وطرفًا من العباسى حـتى عهـد المأمـون هو ٣٦٠٠ درهم سنويًا، وكـان حدها الأدنى ٧٢٠ درهمًـا سنويًا[4].

ب- يرجح أن أكبر مـرتب لصاحب الشرطة فى العصـر الأموى بلغ مائة ألف درهم سنويًا[5].

جـ- مرتبات القضاة كانت عبـارة عن رزق يجرى عليهم من بيت المال ليتفرغوا للقضاء[6]، وكان حده الأدنى ألفًا ومائتى درهـم سنويًا[7]، وأما الحد الأقصى فقد بلغ ثلاثة آلاف درهم سنويًا[8].

---

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٠٦).
(٢) الإدارة فى العصر الأموى، ص (٣١٠).
(٣) المصدر نفسـه، ص (٣١٠).
(٤) المصدر نفسه، ص (٣١٠).
(٥) المصدر نفسـه، ص (٣١٨).
(٦) المصدر نفسـه، ص (٣٣١).
(٧) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص(١٠٧).
(٨) فتوح مصر وأخبارها، ص (٢٣٦).

٣ ـ مصارف الزكاة:

حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

٤ ـ مصارف الفىء:

قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾ [الحشر: ٧].

٥ ـ معظم مصارف العشور:

التى تأخذ من المسلمين هى نفقات تحويلية لأنها تعتبر فى حقهم زكاة فتصرف فى مصارف الزكاة.

٦ ـ نفقات الضمان الاجتماعى:

تطورت نفقات الضمان الاجتماعى فى الدولة الأموية فكانت فى صورة عينية، وكمثال على ذلك ما ورد من أن الفقراء فى إقليمى الحجاز والعراق خلال الفترة (٤٥هـ ـ ٥٣هـ) كانوا يحملون بطاقات محددًا لهم فيها الكمية المخصصة لكل فرد منهم من المعونة العينية[١]، ثم أصبحت فى عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ ـ ١٠١هـ) مزيجًا من النفقات النقدية والعينية، وكمثال على المعونات النقدية قضاء دين من أدان فى غير سفه، ولا سرف، وتزويج الرجل الذى ليس له مال وله رغبة فى الزواج[٢]، ومثال النفقات العينية، أنه أمر لكل أعمى بقائد، ولكل خمسة من اليتامى بخادم[٣]، وشملت فى عهده نفقات الضمان الاجتماعى إلى غير المسلمين[٤]، ثم تطور الأمر حتى مثلت نفقات الضمان الاجتماعى بندًا محددًا من بنود النفقات العامة للدولة، ومثال ذلك: يوجد ضمن بنود النفقات العامة السنوية

(١) الإدارة فى العصر الأموى، ص (٣٣٥).
(٢) الأموال لأبى عبيد، ص (٢٣٤، ٢٣٥).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١٨٣).
(٤) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموى، ص (٤٣٣).

فى إقليم العـراق خـلال الفـترة (١٢٠ ـ ١٢٦هـ) مبلغ عـشـرة آلاف درهم[١]، مخصصًا لبيوت رعاية الأحداث[٢]، والعواتق[٣].

ثالثًا : اهتمام الدولة بالزراعة :

مع بداية الدولة الأموية ظهرت الملكيات الزراعية الكبـيرة، وذلك نتيجة لدخول الولاة والخلفـاء فى هذا الميدان، ولذلك اهتـموا بإحيـاء الأرض الموات من أراضى الصوافى وغـيرها، من الأراضى المفـتوحـة الخصبة، وبالذات إقليم العـراق وما شابهـه، وقد ساعـدهم فى ذلك حجم السـيولة التى يملكونهـا، فقد أحـيا والى معـاوية رضى الله عنه على خراج العراق أرضـين من البطائح لمعاوية، حـيث قام بقطع الماء عنها وتجفيفها وزراعتها، وقد بلغت غلتها خمسة ملايين درهم[٤]، وهذا مما يدل على عظم مـساحتـها، ولم يكن معـاوية رضى الله عنه يجعل ريعـها كله داخلاً فى نـفقاته الخـاصة، وإنما كـان يتدارك منهـا شىء من النقص فى النفـقات العامة[٥]، ولم يدخل تلك الأرضين فى ملكه يتوارثها من بعده، بدلالة أن الأرض التى أحيـاها الحجاج فيـما بعد لعبـد الملك هى نفس الأرض التى أحياها مـعاوية رضى الله عنه، إلا أنها عادت مواتًا لغلبة الماء عليها[٦]. ومن الناحية الشرعية فإن إحياء الأرض بصفة عامة مباح، بل هو سبب من أسباب الملك لها، وذلك استنادًا إلى الأحاديث الواردة فى ذلك، وهى إباحة عامة يسـتوى فيها الحاكم، والمحكوم، إلا أنه فى حق الحاكم ينبغى أن تكون هناك قيود إضافية لعل من أبرزها:

- عدم استـغلال الحاكم لسلطته ومكانـته، وإنما يدخل فى عملية الإحـياء كأى فرد من أفراد الشعب.
- عدم استخدام أموال المسلمين فى عمليـة الإحياء، بل يقوم بإحيائها من ماله الخاص.

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى، ص (١٧٥، ١٧٦).

(٢) حداثة السن: كناية عن الشباب وأول العمر. لسان العرب مادة حدث (٢/٧٩٦).

(٣) العواتق: جمع عاتق وقيـل: هى البكر التى لم تبن عن أهلها وقيل: هى التى بين التى أدركت وبين التى عنست.

(٤) فتوح البلدان، ص (٢٩١)، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ص (١٨٧).

(٥) الحياة الاقتصادية والاجتماعية، عطابنة، ص (١٣٥).

(٦) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية للريس، ص (٢١٤).

- ألا يترتب على تملكه للأرض بطريق الإحياء ضرر على المسلمين، الأفراد أو جماعة المسلمين، وكذا من له ذمة[1]، وقد ساهم الإقطاع - أى الإقطاع بقصد الإحياء والإعمار - فى تكوين الملكيات الزراعية الكبيرة، فقد أقطع معاوية رضى الله عنه بعض إخوته الجزيرة التى بين النهرين، فأرسل زياد بن أبيه الماء، فلما نظر إلى المقطوعة له ظن أنها بطيحة، فاشتراها منه زياد بمائتى درهم، وقد أقطع زياد بعد ذلك من تلك الأرض غيره، مما يدل على عظم حجمها، حتى أنه أيضاً حفر لها أنهاراً وليس نهراً واحداً[2]، وأقطع زياد بن أبيه مرّة مائة جريب[3] على نهر الأبلة فحفر لها نهراً فسمى باسمه، كما أقطع أيضاً كل بنت من بناته - أى بنات زياد - ستين جريباً[4]. واستمرت الملكيات الزراعية بالتوسع مع مجيء الخلفاء الأمويين بعد معاوية رضى الله عنه، ولم ينحصر الإقطاع للأراضى على الأسرة الأموية وبعض وجهاء قريش، وإن كان هو الغالب[5]، إذ كانت هناك إقطاعات لعامة الشعب، ومثال ذلك أن زياداً كان يقطع الرجل القطيعة ويتركه ستين فإن لم يعمرها أخذها منه[6]، وقد كانت تقدر مساحات تلك الاقطاعات بين (٦٠ - ١٠٠) جريب[7]، وقد كانت إقطاعات الدولة الأموية من الصوافى أو من الأراضى الموات.

ولكن بصفة عامة يؤخذ على الإقطاع فى العصر الأموى عنصر المحاباة، إذ أن أصحاب الملكيات الكبيرة كانوا إما من الأسرة الأموية أو من أشراف قريش، وبحث الدولة عن أصحاب السيولة النقدية القادرين على استثمار تلك الأراضى، وترتب على ذلك السلوك تركز الثروة الكبيرة فى أيدى قلة من أفراد المجتمع[8]، كانت الزراعة فى العصر الأموى تعتمد بصفة رئيسية على مياه الأنهار، ولذا نجد أن مراكز الإنتاج الزراعى الرئيسية كانت هى العراق ومصر والشام، وبالذات حول

---

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى. (٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٧٨).

(٣) المقصود به هنا: وحدة المساحة. (٤) معجم البلدان (١/ ٤٣٥)، التطور الاقتصادى، ص(١٨٠).

(٥) أرض الصوافى للمصرى، ص (١٢٢).

(٦) تطوير نظام ملكية الأراضى، محمد على، ص (١٩٠، ١٩١).

(٧) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٨٨).

(٨) تطوير نظام ملكية الأراضى، محمد على، ص (١٩٠، ١٩١).

الأنهار[1]، وكان للقطاع الخاص دوره فى تطوير الزراعة فى العهد الأموى، وقد قام القطاع الخاص باستصلاح أراض زراعية جديدة بمساحات واسعة، ومثال ذلك أراضى البطائح التى كانت منذ عهد الفرس وحتى عهد الدولة الأموية أراضى مغمورة بالمياه، فبدأت من بداية الدولة الأموية حركة استصلاحها بحجز المياه عنها وتجفيفها، وقد خرجت منها أراض واسعة وخصبة وفيرة الإنتاج[2]، وقد توسعت الملكيات الزراعية الخاصة، وترتب عليها زيادة فى الإنتاج الزراعى، مما أدى إلى وجود أراض بعيدة عن مصدر الرى وهو النهر الأساسى، فحدث تطور فى تقنية الرى حيث ظهرت حركة حفر الأنهار والقنوات الفرعية وفق طرق هندسية تسمح لتلك الأراضى بالاستفادة من ماء النهر دون أن يؤدى ذلك إلى إغراقها، وقد توسع القطاع الخاص فى حفر هذه الأنهار والقنوات، فحدثت تنمية زراعية نتيجة استفادة الأراضى التى كانت تمر بجوارها تلك الأنهار والقنوات الفرعية[3]، وقد تمّ نقل التقنية الزراعية من البلاد المفتوحة حديثًا إلى مراكز الإنتاج الزراعى الرئيسية فى الدولة الأموية[4] إلا أن القطاع الزراعى تعرض للتدهور فى المنطقة الشرقية من الدولة الأموية بسبب عوامل متعددة منها:

١ - الاضطراب السياسى، وفقدان الأمن بالمنطقة، فانعكس ذلك على مستوى الإنتاجية الزراعية، ويبدأ هذا الاضطراب مع مجئ يزيد بن معاوية، ومعاوية الثانى، ومروان بن الحكم.. إلخ.

٢ - تركز الثروة فى يد قلة من سكان المنطقة، حيث كانت معظم التركيبة السكانية من الموالى[5]، مما ترتب عليه ضعف حركة النقود داخل المنطقة، فضعفت حركة تبادل السلع، أى حدوث كساد اقتصادى بالمنطقة.

٣ - إعادة ضريبة النيروز والمهرجان التى روى أنها بدأت مع عهد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه[6]، وكان السبب فى إعادتها أن الناس اعتادوا دفعها على الرغم من منع الإسلام لها[7]، فأراد معاوية رضى الله عنه سحب مبالغها من غير

---

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٨٨).
(٢) المصدر نفسه، ص (١٩٠).
(٣) الإدارة فى العصر الأموى، ص (١٥١).
(٤) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٩١).
(٥) المصدر نفسه، ص (١٩٦).
(٦) تاريخ اليعقوبى (٢/٢١٨).
(٧) مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى، ص (٣١).

المسلمين من الدهاقنة المسئولين عن الجباية، حتى لا يكونوا مراكز ثروة يتقوون بها ضد الدولة الإسلامية، وكان ينفقها رضى الله عنه فى مصالح الأمة الإسلامية، لكن الدهاقنة والأمراء المحليين أخذوا فيما بعد فى ابتكار ضرائب إضافية عديدة[1]، أرهقت كاهل المزارعين، بالإضافة إلى ما صاحب تلك الضرائب من عنف فى الجباية[2].

٤- إخضاع المشاريع الزراعية للضغوط السياسية، فقد أدت محاربة الدولة لخصومها السياسيين إلى تخريب أو تحجيم مشاريعهم الزراعية، فانعكس ذلك بنتائج سلبية على اقتصاد الدولة ككل، ومن صور ذلك ما حدث فى عهد الحجاج من أن بثوقًا انبثقت على الأرض المحياة من أرض البطائح فلم يعمل الحجاج ـ بوصفه والى المنطقة ـ على سد تلك البثوق مضارة لأهلها (لاتهامهم بمساعدة ابن الأشعث فى الخروج عليه). فغرقت أراضيهم الزراعية وتحولت إلى موات[3].

٥ ـ معاناة الدولة الأموية فى بداية نشأتها من مجموعة من المهاجرين الذين قدموا إلى إقليم العراق، وكانوا يعانون من البطالة، حيث لم يكونوا مسجلين بالعطاء، وليس لديهم أراض يقومون بزراعتها، فبدلاً من أن يقوموا بالعمل فى مجال من المجالات الأخرى قامت فئة منهم بإحداث بثوق فى نظام الرى، فأدى ذلك إلى تخريب المزارع وإغراقها، فلما ولى زياد العراق قام بالقضاء على مثل تلك الأعمال[4].

٦ ـ حدوث مواجهة عسكرية بين المزارعين المهاجرين من الأرياف إلى المدن من الموالى والدولة الأموية، وذلك حينما حاول والى العراق ـ الحجاج بن يوسف ـ إعادتهم إلى أراضيهم بالقوة وإعادة فرض الجزية عليهم، وقد وافق ذلك خروج ابن الأشعث على الدولة الأموية، فانضموا تحت لوائه[5]. ونتيجة لتلك العوامل وغيرها، فقد بدت علامات تدهور القطاع الزراعى العام فى المنطقة الشرقية من

---

(١) الخراج لأبى يوسف، ص (١٨٦، ١٨٧). (٢) الأحكام السلطانية للماوردى، ص (١٧٥).

(٣) إدارة العراق فى صدر الإسلام، رمزية خيرو، ص (٨٦).

(٤) المصدر نفسه، ص (٨٦).

(٥) الخراج والنظم للريس، ص (٢١٩)، الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية فى الدولة الأموية، ص(٧١).

الدولة الأموية[1]. ومع ذلك فقد كانت هناك مجموعة من الإجراءات والمشاريع التى خففت من حدة التدهور الزراعى بالمنطقة خلال هذه الفترة، وكان من أبرزها ما يلى:

أ- إنشاء زياد بن أبيه جسراً يمنع طغيان الماء على الكوفة[2] مما وفر الفرصة لاستغلال أراضى كانت تعطل فترة من السنة نتيجة فيضان الماء عليها، وينتظر حتى تنتهى فترة الفيضان، وتجف الأرض حتى يمكن إعادة زراعتها مرة أخرى، كما أعطى هذا المشروع فرصة إدخال زراعة النباتات المعمرة إلى تلك الأراضى بدلاً من افتقار الزراعة فيها إلى المحاصيل الموسمية، وبلغ من أهمية هذا الجسر أن الولاة ظلوا يتعاهدونه طيلة فترة العصر الأموى[3].

ب ـ عملية نقل الأيدى العاملة الزراعية من منطقة إلى منطقة أخرى، بهدف إحداث تنمية زراعية فى الجهة المنقول إليها، ومن أمثلة ذلك ما يلى:

- نقل زياد خمسين ألف أسرة من البصرة والكوفة من ذوى الخبرة الزراعية المشهورة إلى خراسان لتعميرها[4].

هذا وقد كانت الدولة الأموية تتولى مسئولية إقامة منشآت الرى الكبرى والعمل على صيانتها وتطهيرها، كحفر الآبار ومجارى الأنهار، وسد البثوق (التصدع)، وفتح البريدات (مفاتيح الماء)، وإقامة المسنيات (السدود)، أما أصحاب الأراضى فكانوا يشاركون أحياناً فى تطهير الأقنية الكبيرة، وكذلك الأمر فإنه كان يقع على عاتقهم، بطبيعة الحال، مسئولية إقامة الأقنية ووسائل الرى داخل ممتلكاتهم الخاصة[5]. وقد حاول الحكام الأمويون استغلال ما أمكنهم من الأراضى، فعملوا على توسيع نطاق الأراضى الزراعية، وبخاصة تجاه بداية الشام، عن طريق استصلاحها وتأمين المياه، ووسائل الرى لها[6]، حتى إن قصور الأمويين فى

---

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٩٨).

(٢) الإدارة فى العصر الأموى، ص (٢٤٧). (٣) المصدر نفسه، ص (٢٤٧).

(٤) مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى للدورى، ص (٢٧).

(٥) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى، عاطف رجال، ص (١٣٥).

(٦) التنظيم الاقتصادى فى صدر الإسلام، ص (٨٢).

الصحراء كانت مراكز مهمة للاستثمار الزراعى حيث أقيمت حولها منشآت الرى، من قنوات وصهاريج، ومجارى وتوسعوا بذلك فى استصلاح الأراضى بواسطة توفير الرى لها[1]، وكان الخليفة معاوية بن أبى سفيان يبدى اهتمامًا كبيرًا بتنمية الزراعة ورفع مستوى إنتاجها، فكان يولى عنايته لتطوير وسائل الرى، وإخصاب الأراضى عن طريق الاستعانة بأصحاب الخبرة والاختصاص من السكان المحليين[2]، كما أن يزيد بن معاوية كان يلقب بالمهندس نظرًا لخبرته الهامة فى الشئون الزراعية، وإبداء اهتمامه بإصلاح أنظمة الرى والعناية بها، فقد أمر بحفر قناة سميت باسمه بنهر يزيد، وكانت هذه القناة فى الأساس رافدًا صغيرًا بالكاد يروى ضيعتين بالغوطة، فقام يزيد بتوسيعها وتعميقها حتى أصبحت بعرض ستة أشبار، وبعمق ستة أشبار كذلك، الأمر الذى أدى إلى زيادة تدفق المياه وغزارتها، بحيث أصبحت تكفى لرى أراض واسعة فى الغوطة[3]، وبذلك أتيح المجال أمام المزارعين للقيام باستصلاح بعض أراضيهم المتروكة والعمل على استغلالها[4]، وكانت غالبية الأراضى فى بلاد الشام تعتمد فى ريها على مياه الأمطار التى تتساقط عليها خلال الفترة الممتدة بين تشرين الأول ونيسان، إلا أن أراضى واسعة[5] كانت تروى سيحًا، أى من المياه الجارية على سطح الأرض حيث تأتى من مياه بعض الأنهار ومن مياه العيون فى الجداول والقنوات، وكذلك فإن قسمًا آخر من الأراضى كانت تروى بواسطة الآلات التى ترفع المياه من منخفضات بعض الأنهار إلى سواقى أعلى لرى الأراضى التى يعلو مستواها عن مجارى الأنهار، أو التى ترفع المياه من الآبار والخزانات[6]، وتعتبر مياه العيون مهمة فى رى المزروعات، حيث كانت تروى قسمًا كبيرًا من الأراضى فى أنحاء الشام[7]، وكانت الغلات والمزروعات

(١) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٣٦).
(٢) النزعات المادية، حسين مروة (١/ ٤٧٦)، تاريخ بلاد الشام الاقتصادى، ص (١٣٦).
(٣) تهذيب تاريخ دمشق (١/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦) .
(٤) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٤١).
(٥) مفاتيح العلوم للخوارزمى، ص (٤٦)، تاريخ بلاد الشام الاقتصادى، ص (١٤١).
(٦) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٤١).
(٧) المصدر نفسه، ص (١٤٣).

المتوافرة: القمح والشعير والرز والزيتون، والنخيل والعنب والتين والفواكه والقطن، وقصب السكر، والبقول، والسمسم، والرياحين، وغير ذلك[1].

رابعًا : اهتمام الدولة بالتجارة الداخلية والخارجية:

يتوسط موقع الدولة الأموية بين دول الشرق الأقصى من ناحية مثل الصين والهند ونحوهما وبين الدولة البيزنطية من ناحية أخرى، ومعنى ذلك ـ بالضرورة وطبقًا لمعايير ذلك العصر ـ أن أهم علاقاتها التجارية ارتبطت بهاتين الدولتين[2]، وبعد تولى معاوية الخلافة استقرت الأمور وبدأت حركة التجارة الداخلية تزدهر كما كانت عليه قبل ذلك، واهتم معاوية بمصالح التجار وعمل على توسيع نطاق التجارة، وتميز أهل الشام فى حرفة التجارة، وفتحوا علاقات تجارية مع غربى أوربا واستفادوا من الأسطول الإسلامى، ومن بين العوامل التى ساعدت على نشاط حركة التجارة الثراء العريض الذى نعمت به طبقة الحكام وحاشيتهم، حيث نما فى نفوسهم حب البذخ والرفاهية، وبالتالى توافر عندهم الميل والحاجة إلى اقتناء المنتوجات الكمالية، فأقبلوا على شراء السلع التجارية الباهظة الثمن، مما زاد فى فعالية التجار وازدهار التجارة[3]، وكان الأمويون يقومون بدور كبير فى عالم التجارة وخصوصًا أن الخليفة معاوية -رضى الله عنه- والده كان من كبار تجار قريش، كما أن معاوية نفسه لما كان واليًا فى عهد عثمان بن عفان على بلاد الشام كان يرسل بقوافله التجارية من الشام إلى حاضرة الجزيرة العربية[4].

وكان التجار يحتلون مكانة اجتماعية عالية فى العصر الأموى، وكانوا يقومون بتأسيس الشركات فى سبيل زيادة فعالية التجارة، حيث كانوا يساهمون فى الشركة بتقديم المال وممارسة العمل كذلك، أو بواحد منهما، فإذا أقدم صاحب المال على تقديم ماله لآخر ليتاجر به لقاء حصة من الربح يتفق عليها، فيسمى ذلك الاتفاق بالمضاربة[5]. وقد ازدهرت شركات المضاربة وأصبحت وسيلة مهمة فى مجال العمل التجارى[6]، وكانت تجارة الأسواق المحلية مليئة بالحركة والنشاط، وقد

---

(١) تاريخ بلاد الشام فى العصر الأموى، ص (١٤٧ - ١٥٦).

(٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٥ - ٢٠).

(٣) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٦٨).

(٤) المصدر نفسه، ص (١٧٢).

(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (١٧٤).

أصبحت عاصمة الدولة دمشق مركزًا تجاريًا مهمًا يعود إلى الظروف السياسية الجديدة التى نشأت، فغيرت من سبل واتجاهات حركة التجارة عما كانت عليه سابقًا فى العصر البيزنطى، حيث أصبحت دمشق عاصمة للخلافة الأموية، ومحطًا للتجارة الشرقية[1]، وبالتالى مركزًا لتوزيع البضائع إلى الجهات المختلفة، بعد أن كانت القوافل المحملة بالبضائع الشرقية تتجه مباشرة إلى إنطاكية على ساحل الشام الشمالى، وهكذا كان لأهمية تجارة دمشق التى تتكدّس فى أسواقها البضائع المتنوعة المنتجة محليًا والمستوردة أن قال ياقوت بأنه يستحيل أن يطلب شىء فى أسواق دمشق غير موجود، حتى إن السلع الغالية الثمن التى تستورد من جميع أنحاء العالم المتمدن موجودة فيها[2]. ثم إن دمشق كانت بحكم موقعها الجغرافى المتاخم للبادية المركز التجارى الهام الذى يقصده البدو والمقيمون فى الصحراء[3]، وقد اشتهرت مدن الشام كحلب والرصافة، وحمص، والرملة والقدس وإنطاكية بأهميتها التجارية، ونشاط أسواقها[4]، وكانت عاصمة الشام، محط رحال القوافل التجارية الآتية من الشرق، ولا شك أن الكوفة والبصرة والموصل، ومدن الحجاز، ونجد وغيرها قد ازدهرت حركة التجارة فيها أيضًا إلا أن مدن الشام كانت تزدهر فيها التجارة أكثر من غيرها، حيث إنها تعتبر مراكز تجارية كبرى وأسواقًا هامة، كما أن الأسواق الموسمية التى كانت تقام فى بعض المدن، تعرض فيها البضائع المتنوعة بكثرة، كانت توفر مجالاً أوسع لتأمين كل متطلبات واحتياجات سكان المدن والقرى كذلك، بالإضافة إلى أن هذه الأسواق كانت مناسبة هامة للتجار الذين يأتون إليها من أماكن مختلفة تستفيد من كل ذلك. وقد كان من هذه الأسواق التى كانت قائمة فى العصر البيزنطى واستمر قيامها فى العصر الأموى سوق بصرى الذى كانت تطول مدة إقامته، حيث كان يستمر من ثلاثين إلى أربعين يومًا، وكذلك فقد كان هناك سوق أذرعات الذى استمر قيامه حتى ما بعد العصر الأموى[5].

---

(١) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى، ص (١٨٣).

(٢) معجم البلدان (٢/ ٤٦٥).

(٣)، (٤) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى، ص (١٨٣).

(٥) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٨٧).

وأما بالنسبة للتجارة الخارجية فى عهد معاوية رضى الله عنه وابنه، فقد ازدهرت التجارة مع الدولة البيزنطية، وازدادت نمواً وقوة، وقد ساهمت عدة عوامل فى هذا الازدهار منها :

١- كثرة الاضطرابات والحروب فى المنطقة الشرقية من الدولة الأموية، مما خفض من حجم المبادلات التجارية بينها وبين دول المشرق ولو بشكل جزئى، وبالتالى زيادة حجم المبادلات التجارية مع دولة بيزنطة بالغرب.

٢- الاستقرار الأمنى فى الدولة الأموية، دفع بكثير من رؤوس الأموال للهجرة من مناطق التوتر فى الشرق إلى إقليم الشام، بحثًا عن فرص استثمار تجارية آمنة.

٣- الاعتماد الكلى لكل من الدولتين على الأخرى فى مجال هام وحيوى بالنسبة لها، فكما كانت الدولة البيزنطية تعتمد كليًا على أوراق البردى، كانت الدولة الأموية تعتمد كليًا فى حجم النقد الذهبى داخلها على ما يردها من الدولة البيزنطية.

ومن العلامات التى تدل على ازدهار التجارة بين الطرفين فى عهد معاوية ومن بعده ما يلى:

أ- كمية الدنانير الذهبية البيزنطية التى كانت موجودة فى داخل الدولة الأموية وتتم بها عمليات التداول الداخلية .

ب- استمرار مصانع إنتاج البردى فى مصر فى إنتاجه على النهج البيزنطى للتصدير حتى عهد عبد الملك بن مروان[١].

خامسًا : الحرف والصناعات :

تأثرت الحرف والصناعات فى العصر الأموى بالبيئة الاقتصادية المحيطة بها، كما تأثرت الصناعات والحرف بطبيعة الاقتصاد الأموى، حيث كان النشاط الزراعى هو النشاط الرئيسى فيه، فظهرت وتطورت صناعات تعتمد فى موادها الخام على القطاع الزراعى، مثل صناعة النسيج وصناعة المعاصر والمطاحن، كما واكبت الصناعة حركة التطور العمرانى بالدولة الأموية، فظهرت وتطورت صناعة مستلزمات البناء، إضافة

---

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٠٩).

إلى تأثر الصناعة بالجو العسكرى السائد فى معظم فترات العصر الأموى، حيث تطورت صناعة السفن التجارية[1]، وقد اهتمت الدولة الأموية ببناء أسطول حربى، ليقف فى وجه الأسطول الحربى البحرى البيزنطى، والذى كان يهدد سلامة الشواطئ الغربية للدولة الإسلامية، فتطورت صناعة السفن الحربية فى العصر الأموى بشكل كبير ومتلاحق، فقد كان الإنتاج فى بداية العصر الأموى مقتصرًا على السفن، التى كانت تنفرد مصر بصنعها حتى عام ٤٩هـ، حيث أمر معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه، بإنشاء دار لصناعة السفن بالشام بمدينة عكا، وقد استقدم من مصر الخبراء للاستفادة منهم فى دار الصناعة الجديدة، والتى تميزت بسهولة حصولها على الأخشاب من جبال لبنان[2]. ثم تطورت هذه الصناعة، فأنشئت فى مصر منطقة صناعية جديدة، خاصة بصناعة السفن الحربية، وذلك عام (٥٤هـ)[3]. واستمرت الدولة الأموية فى تطوير صناعة السفن فيما بعد عهد معاوية رضى الله عنه وقد أصبحت مناطق دور صناعة السفن الحربية مناطق جذب سكانى، كما أصبحت مناطق جذب وتوطن صناعى، فأصبحت أماكن استثمار خصبة، حيث أنشئت فيها الفنادق، والمطاحن، ونحوها من الأنشطة الأخرى، وساعد على نمو وتطور هذه الصناعة، ما اتسمت به منذ بداية نشأتها، من دقة التنظيم.

ومن صور هذه الدقة ابتكار وظيفة المشرف العام على دار الصناعة ويسمى متولى الصناعة، ومن أبرز مهامه جمع الطاقات البشرية الفنية العاملة فى هذا المجال من نجارين وحدادين وعمال ونحوهم، سواء من الأقاليم المجاورة للصناعة، أو من مختلف أقاليم الدولة، ومن مهامه أيضًا توفير الأدوات الخام، مثل الأخشاب والمسامير وغيره من مستلزمات دار الصناعة، وعليه يمكن القول إن التنظيم كعنصر من عناصر الإنتاج فى العصر الحديث ترجع جذوره إلى القطاع العام الصناعى فى العصر الأموى، أو (متولى الصناعة). ومن صور دقة تنظيم هذه الصناعة، الاهتمام بتحديد أجور العمال، وتوفير الكميات الغذائية اللازمة

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٣٥).

(٢) خطط الشام (٣٧/٥)، النظم الإسلامية، إبراهيم العدوى، ص (٣٥٥)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٣٩).

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى، ص (١٦٦).

لهم، كما حرصت الدولة على توفير سبل الراحة للعاملين فى هذه الصناعة، وكان من بين ذلك رفعها كل ظلم يقع على العامل، وتوفير وحدات سكنية للعمال، والمشرفين على هذه الصناعة بداخل دور الصناعة، وكذا وحدات لتموين السفن الحربية بالسرعة والدقة المطلوبة[١]، ونتج عن ذلك كله تطور هائل فى حجم الأسطول البحرى إبان العهد الأموى[٢].

لقد كانت الدولة البيزنطية متفوقة على الدولة الإسلامية الأموية فى ميادين البحر، فاتخذ معاوية الوسائل المناسبة لإضعافها ثم القضاء عليها فيما بعد. وفى هذا الأمر درس عظيم لقادة الأمة فى معرفة عوامل قوة العدو، وجوانب تفوقه ثم السعى للوصول لنقطة تساوٍ ثم تفوق على الخصوم، سواء فى الميادين العسكرية، أو السياسية، أو الاقتصادية، أو الإعلامية، ومما نلاحظه الآن القوى العسكرية الهائلة التى تميز بها عدونا سواء على مستوى السلاح الجوى أو النووى والذرى، فواجب على الأمة أن تسعى لإيجاد حلول حتى تستطيع أن تقاوم أعداءها وعلى علماء الأمة ومفكريها ألا يخضعوا للضغوط النفسية والسياسية والإعلامية التى يمارسها الأعداء علينا، وعليهم أن يبينوا أحكام الله فى امتلاك ما يسمى بأسلحة الدمار الشامل. إن استمرار الأعداء فى امتلاك الأسلحة الرادعة والتى لها قدرة بإذن الله على حسم المعارك العسكرية، جعلهم يتجبرون ويتغطرسون ويعملون على إفساد عقائدنا وثقافتنا وديننا، ويستولون على خيراتنا وثرواتنا مما يوجب علينا أن نعد لأعدائنا ما استطعنا من قوة، فلذلك وجب علينا أن نسعى لامتلاك الأسلحة الرادعة لكى نحمى بها أمتنا وديننا ونقيم العدل وندفع الظلم عن البشرية.

ومن الصناعات التى اشتهرت فى العهد الأموى، صناعة السفن التجارية، ولم تكن السفن الحربية تختلف كثيراً عن السفن التجارية، ومع ذلك كانت مناطق تصنيعها مختلفة، فقد اختصت منطقة البحرين أكثر من غيرها بإنتاج السفن التجارية، فى حين كانت مصر، وعكا، وتونس مواطن تصنيع السفن الحربية، وساعد البحرين على ذلك وقوعها على الخليج العربى، والذى كان يعد من أهم

---

(١) النظم الإسلامية للعدوى، ص (٣٥٤، ٣٥٥).

(٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٤١).

طرق المواصلات التجارية البحرية بين الشرق والغرب، وكذا ما اكتسبه أهلها من خبرة ملاحية نتيجة احتكاكهم بشعوب لديها خبرات ملاحية كشعوب الهند، والصين[1]. ولم تقتصر صناعة السفن على البحرين، بل امتدت إلى مدينة واسط بالعراق وقد تطورت هذه الصناعة فى عهد ولاية الحجاج بصفة خاصة[2]، فقد أدخل تحسينات على صناعة السفن التجارية لتستطيع السير فى عرض البحر، فأمر بتكبير حجمها، واستخدام المسامير لتقويتها، والاهتمام بهيكلها العظمى[3]، وكانت السفن التى تصنع فى واسط تسمى الواسطية، وكانت تنتج مدينة واسط القوارب الصغيرة، والتى كانت تستخدم للنزهة والسفر ونقل السلع التجارية بين واسط والبصرة لضحالة الطريق النهرى بينهما وعدم قدرة السفن على السير فيه[4]، ولم تكن مراكز إنتاج السفن الشرقية بالدولة الأموية متخصصة فى إنتاج السفن التجارية فقط، وإن كان هو الغالب عليها، بل كان لديها القدرة المزدوجة، فقد قام الحجاج أيضًا ببناء قوة عسكرية بحرية بالخليج العربى وبحر الهند[5].

سادسًا : شبهات حول مصارف الأموال فى عهد معاوية :

أثار بعض المؤرخين شبهات حول مصارف الأموال فى عهد معاوية رضى الله عنه، وذكروا عدة مصارف وسموها بأنها جائرة وغير شرعية منها:

١- التفريط فى خراج بعض الأقاليم والتفرقة فى العطاء:

أ- إعطاء مصر طعمة لعمرو بن العاص: تتعدد الروايات التى تنص على أن معاوية أعطى مصر طعمة لعمرو بن العاص لقاء تأييد الأخير له فى حربه ضد على ابن أبى طالب رضى الله عنه، وجل هذه الأخبار تحوى روحًا عدائية لعمرو ومعاوية وتصور اتفاقهما على حرب على، كما لو كانت مؤامرة دَنيئة أو صفقة مريبة، خان فيها الرجلان ربهما، ودينهما، وتاريخهما مقابل عرض زائل أو نصر

(١) البحرين فى صدر الإسلام، عبد الرحمن نجم، ص (٨٤).

(٢) العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى، ص (١٠١).

(٣) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٤٢).

(٤) الحجاج بن يوسف الثقفى، ص (٥٩) هزاع الشمرى .

(٥) واسط فى العصر الأموى، ص (٢٤٣).

سريع، وكأنه من المستحيل أن يبذل ابن العاص نصرة لقضية اجتمع حولها آلاف الرجال في الشام وغيرها ـ وهي الطلب بدم عثمان ـ إلا إذا نال ولاية مصر وخراجها لنفسه، وبعض هذه الروايات تحوي سبابًا لهذين الصحابيين، كأن تزعم أن عمرو فضل ولاية مصر على حسنى الآخرة وصرح بذلك فقال: إنما أردنا هذه الدنيا[1]، أو أنه قال لمعاوية: لا أعطيك من ديني حتى آخذ من دنياك[2]، أو قوله: إنما أبايعك بها ديني (أي بمصر)[3]، أو قوله لمعاوية: ولولا مصر وولايتها لركبت المنجاة منها، فإني أعلم أن علي بن أبي طالب على الحق وأنت على ضده[4]، إلى غير ذلك من الروايات[5]، وهكذا روايات باطلة وموضوعة عند المسعودي وكتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة وغيرها تمسخ عمرو بن العاص إلى رجل مصالح، وصاحب مطامع وراغب دنيا، وقد تأثر بالروايات الضعيفة والموضوعة والسقيمة مجموعة من الكتّاب والمؤرِّخين، فأهووا بعمرو إلى الحضيض، كالذي كتبه محمود شيت خطاب[6]، وعبد الخالق سيِّد أبو رابية[7]، وعباس محمود العقَّاد الذي يتعالى عن النَّظر في الإسناد، ويستخفُّ بقارئه، ويظهر له صورة معاوية وعمرو رضي الله عنهما بأنَّهما انتهازيَّان، صاحبا مصالح، ولو أجمع النَّاقدون التاريخيون على بطلان الرِّوايات التي استند إليها في تحليله، فهذا لا يعني للعقَّاد شيئًا، فقد قال بعد أن ذكر روايات ضعيفة، واهية، لا تقوم بها حجة: . . . وليقل الناقدون التاريخيون ما بدا لهم أن يقولوا في صدق هذا الحوار، وصحَّة هذه الكلمات، وما ثبت نقله، ولم يثبت منه سنده، ولا نصُّه، فالذي لا ريب فيه، ولو أجمعت التواريخ قاطبة على نقضه: أن الاتفاق بين الرجلين، كان اتفاق مساومة، ومعاونة على الملك، والولاية، وأن المساومة بينهما كانت على النصيب الذي آل إلى كلٍّ منهما، ولولاه لما كان بينهما اتفاق[8].

---

(١) الدولة الأموية المفترى عليها نقلاً عن الكامل في التاريخ .

(٢) الإمامة والسياسة (١/٩٨) . (٣) العقد الفريد (٤/٣٤٥) .

(٤) مروج الذهب (٣/٢٩) .

(٥) وقعة صفين، ص (٢٣٧) سلسلة هذه الروايات كلهم من الشيعة الروافض .

(٦) سفراء النبي ﷺ، ص (٥٠٨).

(٧) عمرو بن العاص، لعبد الخالق سيد أبو رابية، ص (٣١٦).

(٨) عمرو بن العاص للعقاد، ص (٢٣١، ٢٣٢).

وهناك عدة دلائل ترد على الروايات الضعيفة والموضوعة والسقيمة التى لاقت رواجًا واستقرارًا فى تشويه عمرو بن العاص ومعاوية بالظلم والبهتان، منها ما عرف من صحة إسلام وتقوى معاوية وعمرو، وتاريخهما المضىء فى خدمة دين الله منذ أسلما[1]، ففى معاوية يكفى دعاء رسول الله ﷺ عندما قال: «اللهم اجعله هاديًا مهديًا، واهد به» [2]، وقوله ﷺ : «اللهمّ علّم معاوية الكتاب والحساب، وقه العذاب» [3]، وأما عمرو بن العاص رضى الله عنه فقد شهد له رسول الله ﷺ بالإيمان حيث قال: «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص» [4] وفى حديث آخر قال: «ابنا العاص مؤمنان عمرو وهشام» [5]، وقول رسول الله ﷺ : «وصدق عمرو، إن لعمرو عند الله لخيرًا كثيرًا» [6].

- كانت بيعة عمرو لمعاوية فى عهد على علىٍّ الطلب بدم عثمان، فقد كان تأثر عمرو بمقتل عثمان عظيمًا، فعندما سمع خبر مقتل عثمان... ارتحل راجلاً يبكى، ويقول: يا عثماناه: أنعى الحياء والدين... حتَّى قدم دمشق[7]، فقد كان من أقرب أصحابه، وخلانه، ومستشاريه، وكان يدخل فى الشُورى ـ فى عهد عثمان ـ من غير ولاية، ومضى إلى معاوية -رضى الله عنهما- ليتعاونا معًا على الاقتصاص من قتلة عثمان والثأر للخليفة الشهيد[8]، لقد كان مقتل عثمان كافيًا لأن يحرِّك كلٍّ غضبه على أولئك المجرمين السَّفَّاكين، وكان لابدَّ من اختيار مكان غير المدينة للثأر من هؤلاء الذين تجرَّؤوا على حرم رسول الله، وقتلوا خليفته على أعين النَّاس، وأىُّ غرابة أن يغضب عمرو لعثمان؟ وإن كان هناك من يشك فى هذا الموضوع، فمداره على الرِّوايات المكذوبة التى تصوِّر عمرًا؛ كلُّ همه السُّلطة والحكم[9].

---

(١) الدولة الأموية حمدى شاهين، ص (٤١٦).
(٢) صحيح سنن الترمذى للألبانى (٣/٢٣٦).
(٣) موارد الظمآن (٧/٢٤٩) إسناده حسن.
(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٢٣٨) رقم (١٥٥).
(٥) الطبقات (٤/١٩١)، السلسلة الصحيحة (١/ ٢٤٠) رقم (١٥٦).
(٦) المستدرك (٣/٤٥٥) صححه الحاكم وقال الذهبى: صحيح إسناده حسن .
(٧) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عمرو بن العاص، للغضبان، ص (٤٨١).
(٨) عمرو بن العاص، للغضبان، ص (٤٨٩، ٤٩٠) .
(٩) المصدر السابق، ص (٤٩٢).

- ومن الدلائل على بطلان فرية إعطاء مصر طعمة لعمرو بن العاص، ما ذكره أبو مخنف أحد رواة الفرية السابقة، أن دفع معاوية جيشه إلى فتح مصر وأخذها من يد أنصار على بن أبى طالب سنة ٣٨هـ - وكان عمرو قائده فى هذه الحملة - أنه كان يرجو أن يكون إذا ظهر عليها ظهر على حرب على لعظم خراجها[١] .. فكيف يهب معاوية ذلك الخراج كله لعمرو وهو فى مسيس الحاجة إليه؟.

- ومن الدلائل أيضًا: أن معاوية كتب بعد استخلافه إلى عامله على خراج مصر - وردان - أن زد على كل امرئ من القبط قيراطًا، فرد عليه: كيف وفى عهدهم أن لا يزاد عليهم؟.[٢] ولم يل وردان خراج مصر لمعاوية إلا فى ولاية عمرو بن العاص لأن من ولوا مصر بعد موت عمرو - وهم عتبة بن أبى سفيان وعقبة بن عامر ومسلمة بن خالد - كانوا يتولون صلاتها وخراجها، وهذه الرواية صريحة قاطعة فى الدلالة على اهتمام معاوية بزيادة حصيلة الخراج فى مصر، وفى ولاية عمرو بن العاص عليها، وهذا الاهتمام لا معنى له إلا إذا كان فائض الخراج فى مصر يحمل إلى معاوية فى دمشق ليواجه به وجوه الإنفاق المتنوعة[٣]. كما أن معاوية لم يكن يستحل أن يتنازل عن خراج مصر - وهى من أغنى أقاليم الدولة الإسلامية آنذاك - لفرد واحد وهو يعلم أنه حق الأمة كلها، وأنه لا يملك التنازل عنه، وقد روى ابن تيمية عن عطية بن قيس قال: سمعت معاوية بن أبى سفيان يخطبنا يقول: إن فى بيت مالكم فضلاً بعد أعطياتكم وإنى قاسمه بينكم، فإن كان يأتينا فضل عامًا قابلاً قسمناه عليكم، وإلا فلا عتبة علىَّ، فإنه ليس بمالى وإنما هو مال الله الذى أفاءه عليكم[٤]، وإذا أضفنا إلى ذلك ما نعرفه من تنافس الأمصار الإسلامية مع بعضها، ووجود معارضة للأمويين فى مصر كانت حديثة العهد منذ تبعية مصر لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه حتى دخلها عمرو بن العاص سنة ٣٨هـ، لازددنا يقينًا أن أهلها لم يكونوا يقبلون ما يزعمه الرواة حول إعطائها طعمة لابن العاص.

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٩) .   (٢) فتوح البلدان، ص (٢١٩).

(٣) الأمويون والفىء، ص (٦٧، ٦٨)، فهمى عبد الجليل .

(٤) منهاج السنة النبوية (٣/ ١٨٥) .

وعلى ذات السبيل نذكر أن من رجال مصر من بذل فى سبيل نصرة معاوية مثلما بذل عمرو بن العـاص، إن لم يفقه، كمعـاوية بن حديج وأصحابه من العثـمانية، وهؤلاء لا يقبلون بحال أن يمـتاز عمرو عليهم كل هذا الامـتياز، وقد مر بنا فـيما مضى أن مـعاوية بن حـديج هذا قد أرجع ابن أخت معـاوية ـ عبـد الرحمن بن أم الحكم ـ الذى ولاه معـاوية مصر، من قـبل أن يدخلها، ورفض أن يتـولى إمارتهم ورده إلى الشام على نحو غير كريم، فما استطاع معاوية أن يغضب بن حديج[1].

ب- التنازل عن خراج (دارابجرد) للحسن بن على: زعم بعض المؤرخين أن معاوية تنازل للحـسن بن على رضى الله عنهمـا عن خراج (دارابجرد) وأن يعـطيه مما فى بيت مال الـكوفة مبلغ خـمسـة آلاف ألف درهم مقـابل تنازل الحسن عن الخـلافة لمعاوية، وأن الحسن قد أخذ ما فى بيت مـال الكوفة ولكنه لم يستطع الحصول على خـراج (دارابجرد)، إذ إن أهل البـصـرة قد منعـوه منه، ويزعـمون أن ذلك كـان بتـحريض مـعاوية أو بمبـادرة من البصـريين، على أن هذه الرواية تغض من شـأن الحـسن ومعـاوية معًـا وتجـعلهمـا فى مـوقف التواطؤ علـى أكل أموال المسلمـين بالباطل[2]، وهذا باطل ولا يصح. والصحـيح مثبت فى البخـارى بأن الحسن قال لوفد معـاوية؛ عبد الرحمن بن سمـرة، وعبد الله بن عامر بن كـريز: إنا بنو عبد المطلب قد أصـبنا من هذا المال.. فمن لى بهـذا؟ قالا: نحن لك به[3]، فالحسن يتحدث عن أموال سبق أن أصابهـا هو وغيره من بنى عبد المطلب، يريد الحسن أن لا يطالبهم بها معاوية، ولا ذكر لأموال يطلب من مـعاوية أن يدفعها إليه قادم[4]، وذكـر ابن أعـثم أن الحـسن قـال: أمـا المال فليـس لمعـاوية أن يشـتـرط لى فىء المسلمين[5]. والمعلوم أن جبـاية الخراج من مـهام الدولة، ولا علاقـة مبـاشرة بين الحسن وأهل البصرة فى هذا الجانب، ولكن الرواية أشارت إلى أن خراج دار ابجرد لم يكن فى الأموال التى صُـيرت إلى الحسن[6]، ورُوى أن الحسن قال لمعاوية: إن علىَّ عِدَات ودُيونًا، فـأطلق له من بيت المال نحو أربعمائـة ألف أو أكثر[7]، وذكر

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤١٧).
(٢) المصدر نفسه، ص (٤١٧)، تاريخ الطبرى (٦/ ١٦٥).
(٣) البخارى، ك: الصلح رقم (٢٧٠٤).
(٤) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٦٤).
(٥) الفتوح (٣/ ٢٩٣).
(٦) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٦٤).
(٧) تاريخ الإسلام، عهد معاوية، ص (٧).

ابن عساكر: يُسلِّم له بيت المال فيقضى منه ديونه ومواعيده التى عليه، ويتحمل منه هو ومن معه عيال أهل أبيه وولده وأهل بيته[1]، وذهب بعض المؤرخين إلى أن إبقاءه ما فى بيت المال معه (خمسة ملايين درهم)، استبقاه لأولئك المحاربين الذين كانوا معه، يوزِّعه بينهم، ويبقى لمعيشته له ولأهل بيته ولأصحابه[2]. ولا شك أن توزيع الأموال على بعض الجنود يساعد فى تخفيف شدة التوتر .

إن الذى جاء فى رواية البخارى هو الذى أميل إليه، فالأمر لا يكون تجاوز طلب العفو عن الأموال التى أصابها الحسن وآله فى الأيام الخالية. وأما الروايات التى تشير بأن يجرى معاوية للحسن كل عام مليون درهم وأن يحمل إلى أخيه الحسين مليونى درهم فى كل عام، ويفضل بنى هاشم فى العطاء والصلات على بنى عبد شمس[3]، وكأن الحسن باع الخلافة لمعاوية، فهذه الروايات وما قيل حولها من تحليل وتفسير لا تقبل ولا يعتمد عليها، لأنها تصور أن إحساس الحسن بمصالح الأمة يبدو ضعيفًا أمام مصالحه الخاصة[4]. وأما حقه فى العطاء فليس الحسن فيه بواحد من دون المسلمين، ولا يمنع أن يكون حظه منه أكثر من غيره، ولكنه لا يصل إلى عشر معشار ما ذكرته الروايات[5].

جـ ـ التفرقة فى العطاء: أول من سن ديوان العطاء فى الإسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أما قبل ذلك فى عهد رسول الله ﷺ، فكانت غنائم الحرب توزع على المسلمين فور انتهاء المعارك[6]، وقد أعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين، وكان شيئًا كثيرًا[7]، فتقرر بذلك أن تفضيل بعض الناس فى توزيع الغنائم أمر مباح، وقد يكون مستحبًا إذا اقتضت مصلحة المسلمين ذلك[8]، وإن كان ذلك يزيد فى غنائمهم عن بقية المسلمين، ثم كثرت بعد ذلك الغنائم المجلوبة إلى حاضرة المسلمين نتيجة اتساع نطاق الغزو زمن عمر بن الخطاب فاستشار أصحابه وانتهى أمره إلى تدوين ديوان العطاء ليكفل توزيعه على نحو معروف، وفضل أصحاب السابقة والقرابة من النبى ﷺ على من عداهم[9].. ولما جاء

(١) تاريخ دمشق (١٤/ ٩٠).
(٢) التاريخ الإسلامى، شوقى أبو خليل، ص (٢٦٨).
(٣) الأخبار الطوال، ص (٢١٨).
(٤) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٦٣).
(٥) المصدر نفسه، ص (٦٣).
(٦) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤١٨).
(٧) الاستخراج لأحكام الخراج، ص (٢٦) ابن رجب الحنبلى.
(٨) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤١٨). (٩) المصدر نفسه، ص (٤١٨).

الأمويون فضلوا أهل الشام على من عداهم، فقد كانوا أنصارهم المخلصين، وهم عماد الجيوش المجاهدة سواء فى الشمال فى جهاد الروم أو فى الغرب فى فتوح إفريقية والأندلس، وهم المحافظون على سلامة الدولة وقمع مخالفيها، وكم استنجد بهم ولاة الأمصار حين خرج عليهم خارجون وعجز جند المصر فى الدفاع عن أنفسهم ونظامهم، كما حدث فى قتال ابن الأشعث[1]، ومواجهة ثورة يزيد ابن المهلب زمن يزيد بن عبد الملك[2]، وكما حدث فى انتقاض البربر الخوارج بإفريقية فى عهد هشام[3].

٢- التوسع فى إنفاق الأموال لتأليف القلوب واكتساب الأنصار:

أنفق معاوية رضى الله عنه أموالاً كبيرة ليتألف بها قلوب الزعماء والأشراف ويوطد أركان الدولة الإسلامية التى قامت بعد فترات من الصراع والتطاحن، فقد رأى معاوية رضى الله عنه أن إراقة بعض المال خير من إراقة كثير من دماء المسلمين. . فأعطى هؤلاء الرجال المال يستميل به قلوبهم، وقلوب أتباعهم وأنصارهم، ويعلى به مكانتهم ويسد خلة مَنْ وراءهم، ولعله قد فهم من إعطاء الرسول ﷺ المؤلفة قلوبهم بعد فتح مكة ليستميلهم نحو الدين ويسيل سخائم نفوسهم، أنه يجوز أن يعطى أمثال هؤلاء الرجال ليتألف قلوبهم ويضمن ولاءهم، والولاء للدين والدولة يختلطان فى فهم معاوية وبنى أمية حيث قامت دولتهم -فيما اعتقدوا- لنصرة الدين وجمع شمل أهله[4]، وأخيرًا فإن كان معاوية مخطئًا فى ذلك فما القول فى هؤلاء السادة الذين قبلوا عطاياه وجوائزه وفيهم من اشتهر بالتقوى والورع والخوف من الله تعالى؟ إن من الحق أن نقول: إن المجتمع الإسلامى فى ذلك العهد كان يشهد تغيرًا كبيرًا عن زمن النبى ﷺ وخلفائه الراشدين حتى صارت بعض فعالياته السياسية ترى أن من حقها التميز فى العطاء[5].

---

(١) تاريخ الطبرى نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤٢٠).

(٢) المصدر السابق، ص (٤٢٠). (٣) المصدر نفسه، ص (٤٢٠).

(٤) الأمويون والفيء، ص (٧٢، ٧٣) فضلاً عن الدولة الأموية شاهين، ص (٤٢٢).

(٥) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤٢٢).

٣ - مظاهر الترف عند الأمويين:

هذا ويحتل الحديث عن ترف الأمويين وبذخهم مكانة واسعة عند مؤرخينا، والحق أنه كان عندهم لون من ألوان البذخ فى سكناهم وفى لباسهم وفى عطائهم ونفقاتهم، وقد لفت معاوية نظر عمر بن الخطاب رضى الله عنهم إليه وهو بعد أحد ولاة الشام، يغدو فى موكب ويروح فى آخر، ولكن من الحق أيضًا ألا ننظر إلى حياة الأمويين بمعزل عن حياة المجتمع العربى والإسلامى آنذاك، فهى جزء منه، تتأثر به، كما تؤثر فيه، وفى ذلك العصر كان التطور الاجتماعى يتلاحق، ومظاهر الغنى وانثيال الأموال والرغبة فى التمتع الحلال به تصبح أمرًا ظاهرًا يدفع الذوق العام والقيم الاجتماعية الحاكمة آنذاك إلى مزيد من التفتح والاتساع. . وأن هذه السمة الظاهرة لا تنفيها ورود أخبار مؤكدة فى زهد معاوية ورقة ثيابه[١]، أو زهد عامله زياد ولباسه المرقوع[٢]، فلا تناقض بين هذه الروايات وما عرف من التلبس بمظاهر الملك، بل هى دليل على نفوس عالية لا ترى الزهادة نقصًا ولا ترى التنعم حرامًا[٣]، وهكذا إذا نظرنا نظرة شاملة فى وجوه الإنفاق المالى فى ذلك العصر لا نجد مظاهر الترف والبذخ قصرًا على بنى أمية؛ خلفائهم وولاتهم، فبعض بنى هاشم وبنى الزبير وغيرهم من معارضى الأمويين لم يكونوا أقل سماحة بالمال من بنى أمية ولا أكثر حرصًا عليه[٤]، وإذا كان بنو أمية قد ابتنوا القصور فقد بنى رجال من أشراف العرب قصوراً كان لها ذكر وبهاء وكان العرب يعدون ذلك كرمًا، ويتفاخرون به، ويتوقعون مثله من كل شريف من أشرافهم وإن لم يكن حاكمًا[٥].

والترف فى المجتمعات الإسلامية ظاهرة سلبية لها ما بعدها، إن بحبحة الأمويين فى الإنفاقات المالية أدت إلى ظهور الترف ثم تعمق وتجذر فى الأمة حتى أصبح ترفًا مدمرًا، ظهرت معالمه وآثاره فى سقوط بلاد الشام فى يد الصليبيين ثم سقوط بغداد فى يد المغول، وزوال الدولة العباسية، لذلك يكره الإسلام الترف ويحذر منه أشد التحذير: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. إنه كالحمض الأكال الذى ينخر فى جسم المادة فيذهب

(١) العواصم من القواصم، ص (٢١٧) تعليق محب الدين الخطيب .

(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤٢٤).

(٣) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤٢٤).

(٤) المصدر نفسه، ص (٤٢٤).

(٥) المصدر نفسه، ص (٤٢٥).

بصلابتها، فتصبح هشة سهلة القصف، أو تصبح لينة لا قوام لها فى الصدام، وقد كانت وفرة المال فى أيدى الناس هى الباب المؤدى إلى الترف بطبيعة الحال، ولكن هذا يفسر ولا يبرر، فإنه لا يوجد تبرير لمعصية الله، وقد جاء المال بوفرة نسبية على أيام عمر رضى الله عنه ولكنه تصرف بشأنه بمنع الفساد، فمنع الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من الخروج من المدينة للضياع والتجارة حتى لا تتكون منهم طبقة تملك المال فى أيديها وتملك السلطان (الأدبى) على الناس، فيحدث التميز وتفسد الأحوال، فضلاً عن احتمال إصابتهم هم أنفسهم بالترف وهم هيئة المشورة إلى جانب الخليفة، فتفسد مشورتهم حين تترهل نفوسهم، وإلى جانب ذلك ـ وقبل ذلك ـ أخذ عمر رضى الله عنه نفسه وأهل بيته بالشدة الحازمة، حتى لا يكونوا قدوة سيئة أمام الناس، فيفسد الناس، أما حين يترك المال بدون تصرف معين من ولى الأمر، يسمح بالنفع ويمنع الضرر، فإنه لا بد أن يؤدى إلى نتائجه المحتومة حسب السنة الإلهية، لا لأن المال فى ذاته هكذا يفعل، ولكن لأن الجهد البشرى المطلوب لإصلاح الآفة لم يبذل، فتنفرد الآفة وحدها بالسلطان، وآفة المال الترف، وعلاجها فى يد ولى الأمر . . . بنشر روح الجد فى المجتمع وبإعطاء القدوة من نفسه لبقية الناس. أما حين يترك فى أيدى الناس ـ بلا ضابط ـ مع وجود فئة تعمل جاهدة فى إفساد أخلاق المجتمع وروحه كما فعل الفرس، فالنتيجة هى ما قررته السنة الربانية التى جاء بيانها فى كتاب الله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. والترف مُعْدٍ ككل آفة. . فحين لا يعالج، ولا يوقف فإنه ينتشر ولا بد. . وحين يكون مبتدؤه فى قصور الخلافة فأمره أسوأ، لأن الحكام دائمًا قدوة، وقد كان الأمويون ـ برغم وجود الترف بينهم ـ أقل فسادًا بالمال من العباسيين، لأنهم كانوا أكثر انشغالاً بتثبيت دولتهم من ناحية، وبالجهاد فى سبيل الله من ناحية أخرى، فأما العباسيون فبعد أن استتب لهم الملك أخذ الترف يسرى بينهم سريعًا، خاصة بفعل الحاشية الفارسية المفسدة المتعمدة للفساد. ومن قصور الخلافة انتقل الترف بالعدوى إلى قصور الأمراء والوزراء، ثم قصور التجار الذين وصل دخلهم فى التجارة العالمية إلى ملايين الدنانير، وشيئًا فشيئًا غلب الفساد على عاصمة الخلافة بغداد ثم العواصم الإسلامية الأخرى[1].

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟ محمد قطب، ص (١٢٦، ١٢٧).

المبحث السادس

القضاء فى عهد معاوية رضى الله عنه والدولة الأموية

يعتبر القضاء فى العهد الأموى من الدرجة الثالثة بعد القضاء فى العهد النبوى والقضاء فى العهد الراشدى، لأن العصر الأموى كان زاهيًا وفيه كثير من آثار العهد الراشدى، وكانت كثير من الأعمال امتدادًا للعهد الراشدى، وخاصة فى جانب الفتوحات الإسلامية، وانتشار الدعوة فى المشارق والمغارب، ودخول الناس فى دين الله أفواجًا، وازدهار الحضارة الإسلامية[١].

أولاً: صلة العهد الأموى بالعهد الراشدى :

كان العهد الأموى وخصوصًا عهد معاوية امتدادًا للعهد الراشدى فى عدة جوانب، فبقى كثير من الصحابة إلى العهد الأموى، وشاركهم فى العلم والفقه والقضاء وغيرها كبار التابعين، ثم صغار التابعين، كما بقى بعض قضاة العهد الراشدى يمارسون القضاء فى العهد الأموى، وبعضهم طال قضاؤهم كشريح بن الحارث رحمه الله، وبقيت فى العهد الأموى آثار التربية الدينية وسمو العقيدة، وآثار الإيمان، والالتزام بأهداب الدين، والتقيد بالأحكام الشرعية، وظهر فى العهد الأموى عدد كبير من المجتهدين الذين كانوا همزة الوصل بين الصحابة والمذاهب الفقهية، وكان العلماء والمجتهدون فى العهد الأموى أساتذة لأئمة المذاهب التى ظهرت فى العهد العباسى، وكان لهذه الصورة الفقهية الزاهية أثرها الكبير والمحمود على حسن سير القضاء والعدالة فى العهد الأموى، وظهر التوسع بالاجتهاد، كما بدأت حركة تدوين العلوم الإسلامية، والانفتاح على الحضارات الأخرى، وترجمة الثقافات والعلوم من الأمم المجاورة[٢].

ثانيًا : تخلى الخلفاء عن ممارسة القضاء، وفصل السلطات:

كان الخلفاء الراشدون يتولون القضاء بأنفسهم، ويفصلون فى القضايا والدعاوى والمنازعات، وصدرت عنهم أقضية كثيرة، وكان الولاة فى الأمصار يتمتعون بنفس

---

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٦٥).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٦٥).

السلطات والصلاحيات الممنوحة للخليفة لأنهم نواب عنه، إلا إذا قيدت سلطتهم ومنعوا من القضاء، وعين معهم القضاة للفصل بين الناس، ومن هؤلاء الولاة معاوية بن أبى سفيان الذى بقى واليًا على الشام عشرين سنة، وكان يتولى القضاء والحكم بنفسه[1]، ولما تولى معاوية الخلافة تخلى عن ممارسة القضاء، وعين القضاة فى حاضرة الدولة الإسلامية بدمشق وفوّض إليهم السلطة القضائية، وخولهم الصلاحيات الكاملة فى الدعاوى، وسار ولاته فى الأمصار على هذا النهج، وابتعد الولاة عن أعمال القضاء، وسار خلفاء بنى أمية على هذه الخطة طوال العهد الأموى، سواء فى عاصمة الدولة الأموية، وفى سائر الأمصار والمدن والولايات، وانقطعت صلة خلفاء بنى أمية عن القضاء الإسلامى إلا فى ثلاثة أمور:

١ـ تعيين القضاة مباشرة بالعاصمة دمشق.

٢ ـ الإشراف على أعمال القضاة وأحكامهم، ومتابعة شئونهم الخاصة فى التعيين والعزل، والرزق، وحسن السيرة، ومراقبة الأحكام القضائية التى تصدر عنهم، للتأكد من مطابقتها للحق والعدل، والشرع والدين، والالتزام بالسلوك القضائى القويم.

٣ ـ ممارسة قضاء المظالم، وقضاء الحسبة، وقد أولى خلفاء بنى أمية أهمية خاصة ورعاية كاملة لقضاء المظالم حتى وقف على قدميه، وأصبح له جهاز كامل مستقل. ومن ذلك نرى أن القضاء فى العهد الأموى كان مستقلاً عن أى سلطة أخرى حتى سلطة الخليفة، أو الوالى الذى كانت سلطته تنتهى عند تولية القاضى أو عزله، دون أن يكون لهم تدخل فى أعمال القاضى واجتهاده وحكمه، وما على الخلفاء والولاة إلا تنفيذ الأحكام التى يصدرها القضاة[2]. قال النُباهى: ولما أفضى الأمر إلى معاوية بن صخر جرى بجهده على سنن من تقدّمه من ملاحظة القضاة، وبقى الرسم على حذو ترتُّبه زمانًا[3]. فقد كان معاوية رضى الله عنه أول خليفة امتنع من القضاء تمامًا، ودفعه إلى غيره، فكان له قضاة فى قاعدة ملكه، فضلاً عن قضاته فى الأمصار[4].

---

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٦٦).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٦٧).

(٣) تاريخ قضاة الأندلس، ص (٢٤).

(٤) عبقرية الإسلام فى أصول الحكم، ص (٣٤٢).

ثالثًا: رزق القضاة :

من المعلوم أن عمر بن الخطاب هو الذى فصل القضاء عن الولاية، وهو أول من رتب أرزاق القضاة، وأمًّا أمير المؤمنين على وهو المعروف بالزهد والقناعة فقد قال لعامله على مصر فى شأن القضاة: . . . وافسح له فى البذل ما يزيل علته، وتقل معه حاجته إلى الناس[1]، واستمر الحال على ذلك فى العهد الأموى، فكانت تجرى على القضاة أرزاقهم من بيت المال[2]، مع التوسيع عليهم، واختلاف المقدار بحسب البلدان والظروف[3]، وروى الشعبى عن شريح أنه كان يأخذ على القضاء خمسمائة درهم كل شهر ويقول: أستوفى لهم، وأوفيهم، ويقول أيضًا: أجلس لهم على القضاء وأحبس نفسى ولا أرزق. ولما قدم عبد الملك بن مروان النخيلة سنة ٧٢هـ، وسأل عن شريح، فعلم أنه امتنع عن القضاء -فى عهده ـ ابن الزبير، فاستدعاه وقال له: وفقك الله، عُدْ إلى قضائك، فقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، وثلاثمائة جريب، فأخذهما وقضى إلى سنة ثمان وسبعين[4]، وكان بعض القضاة لا يأخذون على القضاء أجرًا ويحتسبون أجرهم عند الله تعالى فى إقامة شرعه، منهم مسروق بن الأجدع القاضى والمفتى ت ٦٣هـ، وكان أعلم بالفتيا من شريح، وشريح أبصر منه فى القضاء، وقالت امرأة مسروق: كان مسروق لا يأخذ على القضاء رزقًا، وقال القاسم: كان مسروق يقول: لأن أقضى يومًا فأقول فيه الحق أحب إلى من أن أرابط سنة فى سبيل الله[5].

رابعًا : تسجيل الأحكام والإشهاد عليها :

ظهر فى العهد الأموى لأول مرة تسجيل الأحكام القضائية التى يصدرها القاضى فى سجله، وديوان المحكمة ليرجع إليه القاضى عند الحاجة، وأول من سجل الأحكام سُلَيم بن عتر التجيبى قاضى مصر فى عهد معاوية، لما تخاصم إليه أشخاص فى توزيع ميراث، فحكم بينهم، فغابوا مدة، واختلفوا وتناكروا

---

(١) القضاء ونظامه فى الكتاب والسنة، ص (٢٦٧).

(٢) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٦٧).

(٣) المصدر نفسه (١٧٦، ١٧٧).

(٤) أخبار القضاة (٢/ ٢٢٧، ٣٩٧).

(٥) طبقات ابن سعد (٦/ ٨٢)، تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٧٨).

وتجاحدوا الحكم، وعادوا يطلبون فصل الخلاف ثانية، فتذكر القاضى قصتهم، وكاشفهم بها، فاعترفوا، فأعادوا الحكم بينهم، وطلب من كاتبه أن يُسجل الأحكام القضائية وكتب لهم كتابًا بقضائه، وأشهد عليه[1]. وقال الكندى: فكان سليم أول القضاة بمصر سجّل سجلاً بقضائه[2]، وكان سُليم ـ فيما وصل إلينا ـ أول من أشهد على الأحكام القضائية لتوثيقها، ومنع جحودها أو إنكارها، ثم توسع الأمر فى العهد العباسى[3].

خامسًا : أعوان القضاة :

يحتاج القضاة عادة إلى أعوان يساعدونهم فى حسن التقاضى وسير القضاء، منهم كاتب القاضى أو كاتب المحكمة، أو كاتب الضبط، وأول ما ظهر فى العهد الراشدى[4]، ثم شاع استعماله فيما بعد، وظهر أعوان جدد فى العهد الأموى بحسب الحاجة، وتطور الحياة، واتساع أعمال القاضى، وكثرة الدعاوى، ونذكر أهمهم:

١ ـ المنادى: وهو الذى يجلس عند القاضى، لبيان مكانة القاضى، ومعرفته، والمناداة على الخصوم، وكان يطلق عليه (الذى على رأس القاضى) أو (صاحب المجلس) وأول ما ظهر ذلك فى عهد شريح، قال وكيع: عن عمرو بن قيس الماضى، قال: رأيت رجلاً كان يقوم على رأس شريح، وكان إذا تقدم إليه خصمان، فيقول: أيكما المدعى فليتكلم، وروى وكيع أيضًا: كان شريح إذا جلس للقضاء لم يقم حتى يُنادى: هل من خصم أو مستثبت؟ أو مستفت؟[5]

٢ ـ الحاجب: وهو الذى يقف على باب القاضى، ليحجب عنه الناس أثناء النظر فى الدعاوى، ويرتب دخول المتداعين عليه عند تزاحمهم وتعددهم، وقد يكون الحاجب هو المنادى الذى يقف على رأس القاضى، ويقوم بالعملين معًا، وقد يكون هو نفسه الجلواز (التابع للشرطى، أو أحد الشرطة القضائية)، وقد يكلفه القاضى القيام ببعض الأعمال فى المحكمة، أو أداء بعض المهمات

---

(١)،(٢) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٨٠). (٣) المصدر نفسه، ص (١٨٠).

(٤) نظام الحكم فى الشريعة، ص (٢٥٩)، تاريخ القضاء، ص (١٨٠).

(٥) تاريخ القضاء، عرنوس، ص (١٢٨)، تاريخ القضاء، ص (١٨١).

خارجها[1]، وذكر وكيع أن إبراهيم النخعى كان جلوازًا للقاضى شريح[2]، وكان على رأس شريح شرطى بيده سوط[3].

٣ ـ **الترجمان أو المترجم:** اتخذ القضاة الترجمان لكثرة الشعوب غير العربية التى دخلت فى الإسلام، وتعارفت هذه الشعوب واختلطت مع بعضها، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات:١٣] فإذا حصل نزاع أو اختلاف، أو دعوى، استعان القاضى بالترجمان الثقة المقبول لينقل أقوال الخصوم له[4].

سادسًا: المراقبة والمتابعة:

إن تخلى الخلفاء والولاة عن ممارسة القضاء، والاقتصار على التعيين والعزل لم يمنع الخلفاء من مراقبة أعمال القضاة ومراجعة أحكامهم، ومتابعة الدعاوى والأقضية التى تصدر عنهم، لأن الخليفة هو المسئول عن القضاء، وجميع ما يخص الأمة والأفراد فى سياسة الدين والدنيا، وتفويض القضاء للقضاة لا ينجى الخليفة من المسئولية فى الدنيا والآخرة، لذلك كان الخلفاء يراقبون أعمال القضاة، ويتابعون ما يصدر عنهم، فإن وجدوا فيه خللاً، أو انحرافًا، أو تقصيرًا، تصدوا للتقويم والتصحيح[5]، وهذا ما نقلناه سابقًا عن النباهى قال: (ولما أفضى الأمر إلى معاوية بن صخر جرى بجهده على سنن من تقدَّمه من ملاحظة القضاة، وبقى الرسم حذو ترتبه زمانًا)[6].

سابعًا: مصادر الأحكام القضائية فى العهد الأموى:

اعتمد القضاة على المصادر نفسها التى جرى عليها القضاة فى العهد الراشدى، وذلك بالالتزام بالكتاب والسنة، والإجماع، والسوابق القضائية والاجتهاد مع الاستشارة، وكان الالتزام بالقرآن والسنة هو الأساس، وهو ما تلتزم به الخلافة، وتتم عليه البيعة، وتطور الأمر فى السوابق القضائية على الإشادة بقول الصحابة رضوان الله عليهم والتقيد غالبًا بما صدر عنهم، لأنهم أقرب عهدًا وصلة بمدرسة

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٨١). (٢) المصدر نفسه، ص (١٨١)، أخبار القضاة (٢/ ٢١٥).
(٣) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٨١). (٤) المصدر نفسه، ص (٤٢٣).
(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (١٨٦).

النبوة، ونزول الوحى، وخصوصًا أقضيــة الخلفاء الراشدين، كما بدأ يظهر فى هذا العهد أثر العرف والعادة على أقضية الحكام، نظرًا لاختلاف الأعراف والعادات فى أصـقاع الخـلافة الأمـوية المتـراميـة الأطراف، فكان القـضاة ينظرون فى الأقـوال والدعاوى والأيمـان والتهم بحسب الأعراف التى تظلهم وتحـدد المراد من الألفاظ والمصطلحات[1]، وكان الفقـهاء والقضاة والخلفاء يحرصـون على التثبت من نقل النصوص، وصحـة الأحاديث للاعتمـاد عليها، وحذر مـعاوية رضى الله عنه من الاعتمـاد على الأحاديث المكذوبة، فخطب فى وفد من قريش، فـحمد الله وأثنى عليـه بما هو أهله ثم قـال: أما بعـد، فإنـه قد بلغنى أن رجـالاً فـيكم يتحـدثون بأحـاديث لـيـست فى كـتـاب الـله، ولا تُؤْثر عن رسـول الله ﷺ، فــأولئكم جهالكم[2]، وكان القضاة يعينون من الخلفاء والولاة، وتطلق يد القضاة لا يتقيدون برأى اجتهادى معين من أحكامهم، إلا ما ورد فى النصوص والإجماع، وإلى حد ما إلى السوابق القـضائية وقول الصحـابة، ولم تكن المذاهب الفقهيـة قد ظهرت، ولم تدون الأحكام، فكان الأمر راجـعًا إلى القضاة أنفسـهم، وبما يصلون إليه مع استشارة الفقهاء والعلماء والمجتهدين فى كل مصر على حدة[3].

ثامنًا: اختصاص القضاة، وتخصيص القضاء:

كان لاتساع الدولة الإسلامية فى العهد الأموى، وكثرة الناس، وانشغال الخلفاء بالفـتوحـات، وإدارة الدولة، وإخمـاد الفتن الداخليـة أن انصرفـوا عن القضـاء، وفوضوا جميع اختصـاصاته إلى القضاة، وتنازلوا عن النظر فى الجنايات والحدود، وكلفوا القضاة النظر فيها، وكان معاوية بن أبى سفيان أول من تنازل عن النظر فى الجراح والقتل والقصـاص إلى القضاة، فكتب إلى القاضى سُلَيم بن عِتـر (قاضيه على مصـر) يأمره بالنظر فى الجراح، وأن يرفع ذلك إلى صـاحب الديوان، وكان سُليم أول قاض نظر فى الجـراح، وحكم بها، فكان الرجل إذا أصيب فـجرح أتى إلى القاضى، وأحضر بينته على الذى جرحه، فيكتب القاضى بذلك الجُرح قضاءه على عاقلة الجـارح ويرفعـها إلى صاحب الديوان، فـإذا حضر الـعطاء اقتص من

(1) المدخل الفقهى (1/ 150).

(2) أعلام الموقعين(1/ 63).

(3) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (190).

أعطيات عشيرة الجارح ما وجب للمجروح، وينجّم (يقسّط) ذلك فى ثلاث سنين، فكان الأمر على ذلك[1]، وكان القاضى فى العهد الأموى عام النظر فى الحقوق والأموال، وأحكام الأسرة، والمواريث والقصاص والحدود، ويظهر ذلك جليًا فى من سيرة القضاة وأقضيتهم التى ذكرها وكيع فى كتابه (أخبار القضاة) والكندى فى كتابه (الولاة والقضاة)[2] . وفى العهد الأموى ضُم إلى القاضى أعمال أخرى بعضها شبه قضائية، وبعضها إدارية، فمن أهم هذه الأعمال فى ذلك العصر، النظر فى أموال الأيتام، الإشراف على الأوقاف، الإفتاء[3].

تاسعًا: القضاة والأعمال المختلفة:

نظرًا لما يتمتع به القضاة من الثقة، وما يتصفون به من العدل والنزاهة، والورع والتقوى، فقد أسند لهم الخلفاء فى العهد الأموى عدة أعمال هى:

١ـ الشرطة: تولى القضاة رئاسة الشرطة بالإضافة إلى أعمالهم القضائية، فجمعوا بين ولاية القضاء وولاية الشرطة، وذلك فى عدة مدن إسلامية، فقد روى وكيع أن معاوية عزل سعيد بن العاص عن المدينة سنة ثلاث وخمسين، ويقال سنة أربع وخمسين فى شهر ربيع، وأعاده مروان بن الحكم، فعزل مروان أبا سلمة، واستقضى أخاه مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وضم إليه الشُرَط مع القضاء وأخذ الناس بالشدة[4]، وقال الكندى عن مسلمة بن الحكم، فعزل مروان أبا سلمة، واستقضى أخاه مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وضم إليه الشُرَط مع القضاء، وكان شديدًا صلبًا فى ولايته، ولما ولى الشُرَط أخذ الناس بالشدة[5]، قال الكندى عن مسلمة بن مخلَّدَ أنه: قدم مسلمة الفُسطاط، فعزل السائب بن هشام ابن كنانة العامرى عن شُرَطه، وولّى عليها عابس بن سعيد، وعزل سُليمان بن عنز عن القضاء وجعله إلى عابس، فجمع له القضاء والشّرط، وهو أول من جمع له سنة ستين[6]، ولما تولى مسلمة سنة ٦٢هـ، بعد أن مكث واليًا على مصر أكثر من

---

(١) نظام الحكم فى الشريعة، ص (٢٥٦)، تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٩٢).

(٢) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٩٣).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٩٣، ١٩٤، ١٩٥).

(٤)، (٥) أخبار القضاة (١/١١٨) .

(٦) تاريخ القضاء، عرنوس، ص (٢٦)، الولاء والقضاء، ص (٣١١ـ ٣١٣).

١٥ سنة وليها سعيد بن يزيد الأزدى فى رمضـان سنة ٦٢هـ،فأقر عابس بن سعيد على القضاء والشُـرط جميعًا، ولما جاء عبـد الرحمن بن عتبة بن جَـحْدم الفهرى أميرًا على مصر أقر عابسًا على الشُرط والقضاء، وذكر الكندى أن مسلمة بن مخلد والى مصر عـين عابس بن سعيـد على شُرطته، ثم جمع له الشُـرط والقضاء[١]، وذلك فى أول سنة إحدى وستين[٢].

٢ ـ الإمارة: استعمل بعـض القضاة ولاة فى بعض الأحيان، كمـا كان الخليفة أحيانًا ينيب القـاضى مكانه فى الإمارة إذا خرج عن دمشق، وكان كـثير من الولاة يستـخلفون القاضى علـى إدارة الأمور، وتصريف شـئون المصر أثناء غـيابهم، أو خروجـهم لمهمة، قال أبو زرعـة: لما خرج معاويـة إلى صفين استـخلف القاضى فضالة بن عُبيد على دمشق[٣].

عاشرًا : أسماء القضاة فى عهد معاوية :

١ ـ أشهر قضاة دمشق:

أ ـ فضـالة بن عُبـيد: الذى ولاه معـاوية القضاء فى الشام بتـرشيح أبى الدرداء رضى الله عنه، وبقى فضالة على القضاء حتى مات فى خلافة معاوية سنة ٥٣هـ، وحضر معـاوية جنازته وحمل بجانب السرير، وكان معاوية يسـتخلفه على دمشق عندما يخـرج منها[٤]، وقضى فـضالة بدرء الحـد عندما أتاه رجل بسـارق يحمل سرقته، فقال له فضالة: لعلك وجـدتها، لعلك التقطتها، فقال له الرجل: إنّا لله وإنا إليه راجـعون، إنه ليلقـنه، قال: إى والله، أصلحك الله، وجـدتها، فـخلا سبيله، وأجاز الفقهاء تلقين المتهم فى الحدود، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ماعز[٥].

ب ـ النعمان بن بشـير بن سعد، أبو إدريس الأنصارى الخزرجى: الصحابى الذى ولى القضاء بالشام بعد فضالة، وتوفى سنة ٦٤هـ قتلاً بقرب حمص[٦].

---

(١)، (٢) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٩٦). (٣) قضاة دمشق لابن طولون، ص (٤١٣).
(٤) أخبار القضاة (٣/١٩٩ - ٢٠١)، تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٩٨).
(٥) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٩٩). (٦) المصدر نفسه، ص (١٩٩).

٢ ـ قضاة المدينة :

أ ـ أبو هريرة الصحابى المشهور رضى الله عنه: قضى بالمدينة، لما رواه وكيع عن نعيم قال: شهدت أبا هريرة يقضى وأمر بالتسوية بين الخصوم، ورفض حبس مدين معسر، وحكم على قاذف بثمانين جلدة، وكان أبو هريرة يسكن المدينة حتى توفى فيها سنة ٥٩هـ[١]، ولعله استقضى قبل عبد الله بن الحارث.

ب ـ عبد الله بن الحارث بن نوفل ، أبو عبد الله بن نوفل بن الحارث: وهو أول قاض فى المدينة لواليها مروان بن الحكم فى خلافة معاوية، وكان أول ما قضى حقًا على آل مروان، فزاده ذلك عند مروان بن الحكم خيرًا، وكان يقضى باليمين مع الشاهد، وتوفى سنة ٨٤هـ، وكان من صلحاء المسلمين وفقهائهم[٢].

جـ ـ أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف (ت: ٩٤هـ): وهو من كبار التابعين، وكان يزعم عن نفسه أنه أفقه الناس، واستعمله سعيد بن العاص والى معاوية على قضاء المدينة، وكان يستحلف صاحب الحق مع الشاهد الواحد[٣].

د ـ مصعب بن عبد الرحمن بن عوف (ت: ٦٤هـ): استقضاه مروان بن الحكم سنة ٥٣هـ أو ٥٤هـ وضمَّ إليه الشُرط مع القضاء، وكان شديدًا صلبًا فى ولايته، ولما ولى الشُرط أخذ الناس بالشدة فى جرائم القتل التى انتشرت فى المدينة[٤]، ولما مات معاوية واستخلف يزيد استعمل على المدينة عثمان بن محمد بن أبى سفيان، فاستقضى طلحة بن عبد الله بن عوف، وهو أحد الأجواد، ويقال له طلحة الجواد[٥].

٣ ـ قضاة البصرة: تولى القضاء فى البصرة كثيرون، نذكر منهم: عُميرة بن يثربى الضَّبى الذى استقضاه عبد الله بن عامر بن كُريز عامل معاوية على البصرة، وكان عميرة يحكم بضمان العارية، وبقى فى القضاء حتى سنة ٤٥هـ، فعزله زياد

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠٠)، أخبار القضاة (١/ ١١٠- ١١٤).

(٢) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠١).

(٣) أخبار القضاء (١/ ١١٦)، تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠١).

(٤) أخبار القضاء (١/ ١١٨)، تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠١).

(٥) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠١).

الذى ولى إمارة البصرة، وولى القـضاء عمران بن حصين فاستـعفاه بطلبه، وولى عبد الله بن فضالة ثم أخاه عاصم بن فضالة، ثم زرارة بن أوفى[1].

٤ ـ **قضاة الكوفة:** كانت الكوفة مـن أنشط المدن العلمية وكانت مـركز النشاط والحركة والعلم منذ أسست فى عهـد عمر رضى الله عنه واتخذها على رضى الله عنه عاصمة، وكان من أشهر قضاة الكوفة شريح القاضى، فقد كان من عهد عمر واستمر فى القضاء طوال العهد الراشدى، ومدة طويلة فى العهد الأموى تزيد على خمس وثلاثين سنة، وتوقف (فى عهد بن الزبير) ثم عاد إلى القضاء حتى استعفى من الحجاج فـأعفاه سنة ٧٨هـ[2]. ومن قضاة الكوفة فى عـهد معاوية رضى الله عنه، مسروق بن الأجـدع الهمدانى، ولى لمعاوية فى إمرة زياد القـضاء، وكان من الفضلاء[3].

٥ ـ **قضاة مصر:** ومن أشهر قضاة مصر فى عهد معاوية سُلَيم بن عتر التجيبى وهو أول من ولى القضاء بمصر فى أيام معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه سنة أربعين هجرية[4]، وعابس بن سعـيد المرادى الذى عينه مسلمـة بن مخلد على الشرطة، ثم عزل سُليم بن عتر عن القضاء، وجعله إلى عابس فجمع له القضاء والشُّرط[5]. هؤلاء هم أشهر القضاة فى عهد معاوية رضى الله عنه.

الحادى عشر : ميزات القضاء فى عهد معاوية والأموى عمومًا :

من أهم ميزات وخصائص القضاء فى العهد الأموى الآتى:

١ ـ بقى القـضاء فى العـهـد الأموى، كـما كـان فى العـهد النبـوى والعهـد الراشدى، فى مـعالمه الأسـاسية، وتنظـيمه الجـوهرى، ووسائله وأهدافـه، وكان استمرارًا لما سبق فى إقامة الحق والعـدل، والنزاهة والموضوعية، مع مراعاة التطور والتوسع فى الخلافة الأموية.

---

(١) أخبار القضاة (٢/ ٣)، تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠٤).
(٢) أخبار القضاة (٢/ ١٨٤)، تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠٧).
(٣) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠٧). (٤)، (٥) المصدر نفسه، ص (٢٠٩).

٢ ـ استعمل القضـاة فى العهد الأموى وسائل الإثبات الشرعية نفـسها المعمول بها فى العهـد الراشدى، مع التوسع فى الفراسـة، واستعمال الحـيل على المتهم، لكشف الحق، والوصول إلى الصواب والعدل[١].

٣ ـ ظهرت فى العهـد الأموى مصادر جديدة للأحكام القضـائية وهى العرف، وقول الصـحابى، وإجماع أهل المدينة إحـيانًا، بالإضافة إلى المصـادر الأصلية فى العهد النبوى وهى الـقرآن الكريم والسنة الشريفة، والمصادر الاجتـهادية فى العهد الراشدى وهى: الإجماع، والقياس، والسوابق القضائية، والرأى[٢].

٤ ـ كان الخلفاء يعينون القضاة فى الشام، وقد يرشحون بعض القضاة للأقاليم، وكان الولاة فى الأمصار يعينون القضاة، ويعزلونهم.

٥ ـ حرص الخلفاء والولاة على اختيار أحسن الناس لولاية القضاء، من العلماء والفقهـاء والشرفاء وخيـرة القوم، الذين تتوافر فيـهم صفات القاضى الشـرعية ، ويخشون الله تعالى، ويلتزمون بالحق والشرع، ويقيمون العدل بين الناس.

٦ ـ طرأت تغييرات بارزة على القضاء فى العـهد الأموى، وأضيفت لأول مرة، وهى:

أ ـ تسجيل الأحكام خوفًا من النسيان، ومنعًا للتجاحد،ووضعها فى ديوان خاص.

ب ـ الإشراف على الأوقاف من أجل حسن تطبيقها .

جـ ـ النظر فى أموال اليتامى ومراقبة الأوصياء .

د ـ ترتيب الدعاوى، واستعمال الرقعة لإدخال الخصوم والمناداة على الناس بالترتيب.

هـ ـ وجود المساعدين للقضاة، وهم الأعوان، والحاجب والشرطى فى مجلس القضاة.

و ـ الاستعانة بالشرطة لتنفيذ الأحكام القضائية، وإجراءات الخصومة.

٧ ـ كان القضاة مجتهدين فى إصدار الأحكام القضائية، ولهم الحرية المطلقة فى استنباط الأحكام من القرآن والسنة ومقاصد الشـريعة، وبقية المصادر، ولم يتقيدوا

---

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢١٣). (٢) المصدر نفسه، ص (٢١٤).

برأى الخلفاء، ولم يلتزموا بمذهب فقهى، ولكن هذا لم يمنعهم من مشاورة العلماء والفقهاء، ومشاركتهم فى المجالس القضائية[1].

٨ ـ لم يتأثر القضاة بسياسة الحكام والخلفاء، وكان القضاة مستقلين فى عملهم، ولم تؤثر عليهم الميول السياسية، والحركات الثورية، والخلافات الفكرية، والفتن الداخلية[2]. هذا هى أهم ميزات القضاء فى العهد الأموى.

الثانى عشر: خطاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى معاوية فى القضاء:

كتب عمر إلى معاوية رضى الله عنهما: أما بعد، فإننى كتبت فى القضاء كتابًا لم آلك ونفسى فيه خيراً، . . ثم إن عمر قال:

١ ـ الزم خمس خصال يسلم لك دينك، وتأخذ فيه بأفضل حظك، إذا تقدم إليك الخصمان، فعليك بالبينة العادلة، واليمين القاطعة فهو الطريق للقاضى الذى لا يعلم الغيب. فمن تمسك به سلم له دينه، ونال أفضل الحظ والثواب فى الآخرة[3]. فمعنى اليمين القاطعة: القاطعة للخصومة والمنازعة[4].

٢ ـ وأدنِ الضعيف حتى يشتد قلبه، وينبسط لسانه[5]، ولم يرد بهذا الأمر تقديم الضعيف على القوى، وإنما أراد الأمر بالمساواة، لأن القوى يدنو بنفسه لقوته، والضعيف لا يتجاسر على ذلك، والقوى يتكلم بحجته، وربما يعجز الضعيف عن ذلك. فعلى القاضى أن يدنى الضعيف ليساويه بخصمه حتى يقوى قلبه، وينبسط لسانه، فيتكلم بحجته[6].

٣ ـ وتعاهد الغريب، فإنك إن لم تعاهده ترك حقه، ورجع إلى أهله، فربما ضيع حقه من لم يرفع به رأسه[7]. قيل: هذا أمر بتقديم الغرباء عند الازدحام فى

---

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢١٣ - ٢١٥).
(٢) المصدر نفسه، ص (٢١٥).
(٣) المبسوط للسرخسى (٦٦/١٦)، تهذيب ابن عساكر (٣٠٦/٦) .
(٤) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٤٦٥/٢) .
(٥) المبسوط للسرخسى (٦٦/١٦) .
(٦) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٤٦٥/٢) .
(٧) المصدر نفسه (٤٦٥/٢) .

مجلس القضاء، فـإن الغريب قلبه مع أهله، فينبغى للقاضى أن يقـدمه فى سماع الخصومة، ليرجع إلى أهله، وكان رسول الله ﷺ يتعاهد الغرباء. وقيل مراده: إن الغريب منكسر القلب، فإذا لم يـخصه القاضى بالتعاهد عجز عن إظهـار حجته، فيترك حقه، ويرجع إلى أهله، والقاضى هو السـبب، لتضييع حقه، حين لم يرفع به رأسه.

٤ ـ وعليك بالصلح بين الناس، ما لم يستـبن لك فصل القضاء[١]. وفيه دليل أن القاضى مندوب إليه أن يدعـو الخصم إلى الصلح، خصوصًا فى موضـع اشتباه الأمر[٢].

(١)، (٢) نظام الحكم فى الشريعة (٢/ ٤٦٥) .

المبحث السابع

الشرطة فى عهد معاوية

شهد عهد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه تطوراً كبيراً فى نظام الشرطة من جهة نموها وترسخها كمؤسسة رسمية على مستوى الدولة، وبصورة لم تُعرف من قبل، لقد أصبحت مؤسسة الشرطة مسئولة مسئولية كاملة ومباشرة عن توفير الأمن وإقرار النظام فى جميع الأمصار الإسلامية، لقد أصبحت أهم قوة أمن يعتمد عليها معاوية وولاته لتحقيق الأمن الشخصى من جهة، وحفظ الأمن والنظام فى الداخل من جهة أخرى، يضاف إلى هذا كله، أن أصبحت الشرطة المدافع الأول عن نظام الأمن الأموى، وحمايته من اعتداءات الفرق الأخرى المعارضة له كالخوارج والشيعة وغيرهما، التى كانت تعمل على إسقاطه بشتى السبل، وقد استعمل معاوية رضى الله عنه الشرطة كحرس خاص لحمايته شخصيًا، ودونما شك أن المحاولة الفاشلة التى قام بها الخوارج لاغتيال معاوية، كان لها دور كبير فى دفع معاوية لاتخاذ قراره بالاعتماد على الشرطة كحرس خاص لضمان عدم تكرار المحاولة، وخصوصًا أن عليًا وعمرو بن العاص قد تعرضا للمحاولة نفسها، قُتل على أثرها أمير المؤمنين علىّ، وكان ذلك عام ٤٠هـ، ومنذ ذلك ومعاوية لا يخرج بدون حماية خاصة، وحتى أوقات الصلوات، كان يأمر حراسه بالوقوف عند رأسه حماية له من الاعتداءات المحتملة من مناوئيه(١).

أولاً: الشرطة فى العراق:

يعتبر المغيرة أول والٍ يعينه معاوية فى الكوفة، وقد استعان برجال الشرطة لغرض بسط الأمن، وعيّن صاحب شرطة عُرف بشراسته وقسوته، وكان يُدعى قبيصة بن دمّون(٢)، ومن الحوادث التى تبين مدى فعالية الشرطة فى حفظ الأمن والنظام ما أورده الطبرى حول صراع المغيرة مع الخوارج، وذلك حين أخبره

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٦٥)، الشرطة فى العصر الأموى، ص (٣٦).

(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الشرطة فى العصر الأموى، ص (٣٧).

صاحب الشرطة باجتماعهم فى الكوفة لإثارة القلاقل والاضطرابات، فأصدر المغيرة أوامره إلى صاحب الشرطة بمحاصرة مكان الاجتماع، وبعد أن ألقى القبض عليهم أودعهم السجن. وفى البصـرة، عين معاوية عبد الله بن عامر واليًا عليها ثم عزله فى عام ٤٥هـ، وعين زياد بن أبيه واليًا على البصرة. وقد تبين لزياد عند وصوله البصرة مدى التدهور الحاصل فى الأمن، فذكره وشدّد عليه فى خطبه التى افتتح بها ولايته، جريًا على العادة فى ذلك الوقت فألقى خطبة طويلة سيأتى الحديث عنها بإذن الله، بيّن فيها أسلوبه الذى سوف يتبعه فى معالجة التدهور الأمنى.

ومن قراءة تلك الخطبة تبين أن زياد كان مصممًا على إقامة الأمن والنظام بغض النظر عن الوسيلة التى تحقق ذلك الهدف[١]، ولو كانت بالعسف وخصوصًا حين يقول: وإنى أقسم بالله لآخذنّ الولى بالولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لى قناتكم[٢]، ويروى البلاذرى كيف استتب الأمن فى البصرة فى عهد زياد، وذلك فى حادثة مفادها أن زيادًا سمع جلبة وأصواتًا بين العامة، فسأل عن السبب فقيل له: إنّ بعض الناس قد استأجر من يحمى له بيته، وذلك نظرًا لعدم وجود الشرطة، وانتشار السرّاق[٣]، وفى اليوم التالى أمر زياد صاحب الشرطة بأن يقوم الشرطة بحراسة الطرقات بعد صلاة العشاء[٤]، ويضيف البلاذرى أنّ الشرطة قد قتلت ما يقارب الخمسمائة نفر من لص ومنتهب للبيوت[٥].

ويعتبر زياد أول من منع التجول وذلك بمنع العامة من الخروج من منزلهم ليلاً[٦]، وكان يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ولا يرى إنسانًا إلا قتله. فأخذ ليلة أعرابيًا، فأتى به زيادًا فقال: هل سمعت النداء؟ ـ يقصد نداء منع التجول ليلاً ـ قال: لا والله، قدمت بحلوبة[٧] لى وغشينى الليل فاضطررتها إلى موضع، فأقمت لأصبح، ولا علم لى بما كان من الأمير، قال: أظنك والله صادقًا، ولكن فى قتلك صلاح هذه الأمة، ثم أمر به فضربت عنقه[٨]. ومثل هذا الفعل الظالم

(١) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٣٨).
(٢) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٥).
(٣) أنساب الأشراف (٤/ ١٧١).
(٤) المصدر نفسه (٤/ ١٧١).
(٥) المصدر نفسه (٤/ ١٧١).
(٦) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٣٩).
(٧) الحلوب: ذات الحليب.
(٨) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٨).

لا تقرّه الشريعة مهما كانت التبريرات[1]. وعلى ما يبدو أن قتل البدو لم يكن لمجرد الرغبة فى القتل ذاته، بل تمّ لإقناع أهل البصرة بجدية الوالى فى تنفيذ أوامره، وأن لا أحد منجى من العقوبة إذا خرق القانون، حتى لو كان بريئًا لا ذنب له، كما سبق وهدّد فى خطبته البتراء، لقد كان الهدف النهائى عند زياد إقرار هيبة الدولة والحصول على طاعة العامة، ولو عن طريق الإرهاب، وبذلك تستقيم الأمور فى البصرة حيث ترى العامة أن الأمر لا هزل فيه ولا هوان فى تطبيق العقاب[2]، ولم يكن خافيًا على زياد بن أبيه ضرورة إعادة تنظيم جهاز الشرطة حتى يتمكن من تحقيق سيطرة فعالة على الأوضاع الأمنية، لذلك عمل زياد على اتخاذ بعض الإجراءات التى تسمح له بفرض هيمنته، منها زيادة عدد الأفراد العاملين فى الشرطة فصعّد عددهم[3] حتى وصل أربعة آلاف فرد، وعين اثنين فى منصب صاحب الشرطة بدلاً من واحد[4].

إن ارتفاع عدد رجال الشرطة إلى أربعة آلاف يدل على أمرين: أولهما: شدة الاضطراب الداخلى. الثانى: أن الشرطة كانت ترفد الجيش فى كثير من الأحيان[5]. ويبلغ من دقته فى عهده أنه قال: لو ضاع حبل بينى وبين خراسان علمت من أخذه[6]، وترتب على ذلك ما قاله الطبرى: وكان زياد أول من شد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة، وتقدم فى العقوبة، وجرد السيف، وأخذ بالظنّة، وعاقب على الشبهة، وخافه الناس فى سلطانه خوفًا شديداً، حتى أمن الناس بعضهم بعضًا، حتى كان الشىء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها، وساس الناس سياسة لم ير مثلها، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحداً قبله، وأدرّ العطاء، وبنى مدينة الرزق[7]، وعندها ضمّ معاوية الكوفة إلى ولاية زياد، استطاع أن يفرض النظام الأمنى حيث حقق للأمويين رغبتهم فى استقرار النظام والأمن فى كل من البصرة والكوفة، وحيث أصبحت الشرطة أهم قوة داخلية وأكثرها فاعلية[8].

---

(١) ولاية الشرطة فى الإسلام، ص (١٢٣) نمر بن محمد الحميدانى.

(٢) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٤٠).

(٣) المصدرنفسه، ص (٤٠).

(٤) تاريخ الطبرى (١٣٨/٦).

(٥) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ والإسلام (٦٣٦/٢).

(٦) المصدر نفسه (١٣٩/٦).

(٧) المصدر نفسه (١٣٨/٦).

(٨) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٤١).

ثانيًا: الشرطة فى الأقاليم الأخرى:

عند مقارنة مصر مثلاً بغيرها من الأمصار الإسلامية كالبصرة مثلاً، نجد أن الشرطة لم تلعب الدور نفسه وذلك لبعد مصر عن الاضطرابات التى كان يحدثها عادة الخوارج وكذلك تذكر المصادر فى العادة حرص الولاة عند اختيار صاحب الشرطة، وقد عين مروان بن الحكم والى المدينة مصعب بن عبد الرحمن بن عوف فى منصبى صاحب الشرطة والقضاء فى آن واحد -كما مرّ معنا- وكان ذلك فى عهد معاوية[1]. ويروى ابن سعد أن مصعبًا كان شديدًا على المذنبين والخارجين على القانون[2]، وقد طلب مصعب من الوالى مروان بن الحكم أن يزوده بعدد كبير من أفراد الشرطة، إذا كان يريد الحفاظ على الأمن فى المدينة، حيث لم يكن عدد الشرطة المتوافر كافيًا لهذه المهمة[3]، وأجابه مروان إلى طلبه وأرسل إليه مائتى شرطى، وظل مصعب فى منصب صاحب الشرطة حتى وفاة معاوية[4].

ثالثًا: واجبات الشرطة:

كان للشرطة فى الدولة الأموية مكانة مميزة بسبب الواجبات المهمة التى كانت تقوم بها هذه المؤسسة تجاه السلطة والمجتمع، ومن هذه الواجبات:

١ ـ حماية الخليفة وولاة الأمصار ضد مناوئيهم فى الداخل: أول من استخدم الشرطة لحمايته الشخصية من الاغتيال، الخليفة معاوية مؤسس الدولة الأموية، الذى خاض صراعًا سياسيًا ـ عسكريًا عنيفًا مع معارضيه من الخوارج وغيرهم، وكان الشرطة يحرسون معاوية بشكل دائم فى حله وترحاله، بل حتى وقت الصلاة كان هناك حارس يقف عند رأسه وهو يصلى فى المحراب، وعلى ما يبدو أن الخليفة كان يسير بين يديه صاحب الشرطة متقلدًا كامل سلاحه، وكذلك تقوم الشرطة بتوفير الحماية للولاة فى الأمصار المختلفة، بالطريقة السابقة نفسها، وكما ذُكر سابقًا أن زياد بن أبيه كان يستخدم الشرطة لأمنه الشخصى، وكان صاحب الشرطة هو المسئول الأول عن سلامة الوالى[5]. إن ظهور صاحب الشرطة فى

(١) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٤٣)، الطبقات (٥/ ١٥٨). (٢) الطبقات لابن سعد (٥/ ١٥٨).

(٣) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٤٣)، الأغانى (٥/ ٧٤).

(٤) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٤٣).

(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٨)، الدولة الأموية فى العصر الأموى، ص (٧٩).

مقدمة موكب الخليفة أو الوالى فى الأماكن العامة ليس دليلاً فقط على الحماية، بل لإشعار العامة أيضًا بالهيمنة والسلطة، إلى جانب ذلك كانت الشرطة أداة بيد الخليفة والولاة لفرض سلطة الدولة على الذين يحاولون التمرد عليها أو معارضتها[1]، وكانت تعين الخليفة على جمع المعلومات، فقد كان معاوية رضى الله عنه قد بلغ من اهتمامه فى الحصول على أخبار عماله ورعيته أن بثّ عيونه فى كل قطر وكل ناحية، فكانت تصله الأخبار أولاً بأول فانتظم له أمره، وطالت فى الملك مدته[2]، وحذا زياد بن أبيه حذو معاوية، ومما يحكى عنه: أن رجلاً كلمه فى حاجة له فتعرف عليه وهو يظنّ أنه لا يعرفه فقال: أصلح الله الأمير أنا فلان ابن فلان. فتبسم زياد وقال: أتتعرّف إلىّ وأنا أعرف منك بنفسك، والله إنى لأعرفك وأعرف أباك وأمك وجدك وجدتك، وأعرف هذا البُرد[3] الذى عليك وهو لفلان.. فبُهت الرجل وأرعد حتى كاد يغشى عليه[4].

٢ ـ **معاقبة المذنبين والخارجين عن القانون:** الشرطة بحكم كونها القوة الرئيسية المسئولة عن حفظ الأمن، والنظام داخل المدن، إضافة إلى واجبها فرض القانون، ولكن الأحوال الاجتماعية فى المدن الكبرى كانت تدفع الشرطة إلى اتخاذ إجراءات مشددة تجاه العامة. وقد بين زياد بن أبيه فى خطبته البتراء خطورة التجاوزات التى حدثت من الناس فقال:... من بيّت منكم فأنا ضامن لما ذهب له، إياى ودلج الليل، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه،... وقد أحدثتم أحداثًا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرّق قومًا، غرقناه، ومن حرّق على قوم حرقناه، ومن نقب بيتًا نقبت عن قلبه، ومن نبش قبرًا دفنته فيه حيًا[5]... من هذه الخطبة يتبين مدى التدهور الحاصل فى البصرة، من خلال طبيعة الجرائم التى كان يرتكبها بعض المنحرفين من أهلها قبل قدوم زياد، وحين انتهى من خطبته أمر صاحب الشرطة بحراسة الطرقات وقتل كل من يوجد خارج منزله ليلاً[6]. ويروى البلاذرى أن زيادًا لم يتردد فى تنفيذ ما توعّد به[7] حرفيًا.

---

(١) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٧٩).
(٢) المحاسن والمساوئ، ص (١٤٣، ١٤٤) للبيهقى.
(٣) البرد: كساء مخطط يلتحف به.
(٤) المحاسن والمساوئ، ص (١٤٤).
(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٦).
(٦) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٨٣)، أنساب الأشراف (٤/ ١٧٢).
(٧) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٨٣).

٣- تنفيذ العقوبات الشرعية: من الواجبات التى كانت الشرطة تقوم بها، تنفيذ الحدود الشرعية، التى يأمر بها القضاة، ضد كل من يظهر منه فساد فى المجتمع الإسلامى، والحدود الشرعية -كما هو معروف- مذكورة فى القرآن الكريم، والسنة النبوية بينت ذلك. وكان الصحابة والتابعون رضى الله عنهم لديهم غيرة وحرص على أوامر الدين وتنفيذها، ومن ذلك ما رواه الإمام مالك أنّ عبدًا سرق وديًا[١] فوجدوه، فاستعدى على العبد مروان بن الحكم[٢]، فسجن مروان العبد، وأراد قطع يده، فانطلق سيد العبد إلى رافع بن خديج رضى الله عنه، فسأله عن ذلك، فأخبره أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا قطع فى ثمر ولا كثر**»[٣]، فقال الرجل: فإنّ مروان بن الحكم أخذ غلامًا لى وهو يريد قطع يده، وأنا أحبّ أن تمشى معى إليه فتخبره بالذى سمعت من رسول الله ﷺ، فمشى معه رافع إلى مروان بن الحكم، فقال: أخذت غلامًا لهذا، فقال: نعم، فقال: ما أنت صانع به؟ قال: أردت قطع يده، فقال له رافع: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا قطع فى ثمر ولا كثر**» فأمر مروان بالعبد فأرسل[٤].

ويستفاد من هذه اللمحة كذلك احترام الولاة والعمال للصحابة الكرام، وعدم التعرّض لتصرّفاتهم ما دامت منبثقة من الحرص على تنفيذ أمر الله ورسوله حتى وإن كانت داخلة ضمن مهام الوالى[٥]، ومن مظاهر الغيرة على أوامر الدين وتغليب أمر الله على ما سواه، امتناع والى شرطة المدينة مصعب بن عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنهما من هدم دور بنى هاشم، ومن كان فى حيّزهم، ودور بنى أسد بن العزّى، والشدّة عليهم، وذلك لموالاتهم الحسين بن على وابن الزبير، وامتناعهم عن بيعة يزيد، إذ قال مصعب لأمير المدينة عمرو بن سعيد[٦]: أيها الأمير إنّه لا ذنب لهؤلاء ولست أفعل، فقال له الأمير: انتفخ سحرك يا ابن أم حريث، إلىّ سيفنا، فرمى إليه بالسيف وخرج عنه[٧]. وهذا الفعل يدل على قوة

---

(١) الودى: الواحدة وديّة، وهى صغار النخل، الفائق فى غريب الحديث (٤/ ٥١) .

(٢) ولاية الشرطة فى الإسلام ص (١٢٠).

(٣) الكثر: بفتح الكاف والمثلثة هو جمّار النخل أى وعاء الطلع.

(٤) غريب الحديث (٣/ ٢٤٧).

(٥) ولاية الشرطة فى الإسلام، ص (١٢١).

(٦)، (٧) نسب قريش ص (٢٦٨)، ولاية الشرطة فى الإسلام، ص (١٢٢).

إيمان مصعب، وأنّه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق[1]، ومن واجبات الشرطة، مساعدة الجيش ضد أعداء الدولة[2]، وتنفيذ أحكام الإعدام، والتعذيب للمناوئين السياسيين وكل مـا يتصل بالسجناء عند صاحب السجن[3]، وإن كانت الواجبات الأخيرة تتضح ملامحها فى عهد الخلفاء الذين بعد معاوية أكثر.

رابعًا: قوات ومؤسسات أخرى وعلاقتها بالشرطة :

تعتبر الشـرطة العمود الفقرى للجهاز الأمنى فى الدولة الأمـوية، وكانت المهمة الرئيسية لهم حفظ الأمن الداخلى بالدرجة الأولى، ومع ذلك عرف العصر الأموى مؤسسات أخرى لعبت دورًا مشابهًا ومكملاً للشرطة وهذه المؤسسات هى:

١ ـ الحرس: استخـدمت كلمة حرس فى بدايات العصـر الأموى لوصف كل من يقوم بمهـمة الحراسة بغض النظر عن المـكان أو الشخص الذى يحرسه، وفى العـصر الأموى كان الحرس يمثلون تلك الفئة التى تـقوم بمهمة حماية الخلفاء والولاة، وعلى ما يظهـر أن معاوية كان أول خلفـاء بنى أمية يتـخذ الحرس لحمـايته الشخصـية من احتمال الاعتـداء عليه من قبل الخوارج وغيرهم، وفى خلافة مـعاوية استخدم الولاة الحرس، كقوة أمنية داخلية إلى جانب الشرطة، وقد استخدم زياد بن أبيه، خمسمائة رجل فى قـوات الحرس الخاصـة به، وعين عليـهم رجلاً من بنـى سعد أطلق عـليه صاحـب الحرس[4]، ومنذ ذلك الحـين وخلفاء بنى أمـية يعـينون من يثقـون به[5]، وخلاصة القول: أن مـفهوم الشرطة يتسع إلى الدرجة التى يضم فيـها نشاط الحرس تحت سلطته، فى حين أن الحرس لا يدخلون ضمن الشرطة[6]، ويورد الجاحظ شطر بيت من الشعر: كأنه شرطى بات فى حرس، للدلالة على التفرقة بين المؤسستين[7].

٢ ـ الحرس مـن غير الـعرب: عرف العـرب، قبل قيـام الدولة الأموية، بعض الألفـاظ الأجنبـية التى تطـلق على الحرس الذيـن كانوا يحـرسـون بيت المال فى

---

(١) الشرطة فى العصر الأموى، ص (١٢٢). (٢) المصدر نفسه، ص (٩٧).
(٣) المصدر نفسه، ص (٩٧ - ١٠٩).
(٤) تاريخ الطبرى نقلاً عن الشرطة فى العصر الأموى، ص (١٢٨).
(٥) الشرطة فى العصر الأموى، ص (١٢٨). (٦) المصدر نفسه، ص (١٣٠).
(٧) الحيوان (١٥٨/٣)، الشرطة فى العصر الأموى، ص (١٣٠).

البصرة[1]. وهذه الألفاظ هى الأساورة والسيـابجة والزطّ، ويشرح البلاذرى هذه الألفاظ فـيقول إنّ الأساورة من الـفرس، أما السيـابجة والزطّ فينحـدرون على ما يظهر من الهند[2]، ويتضح من تاريخ الخلافة الأموية أن الولاة كانوا يستخدمونهم لضرب الثـورات التى تقوم بها المعـارضة، بين حين وآخـر، وكان يُطلق على هذه العناصر لفظ البخارية تبعًا لرواية البـلاذرى، أيضًا، أن والى خراسان عبيد الله بن زياد، أسر فى إحدى المعارك عددًا كبيرًا من أهل بخارى وجعل من البصرة مستقرًا لهم، وأجرى لهم من الأعطيات مـا كان يدفعه نفسه للقبـائل العربية، وذلك حين أصبح واليًا على العراق[3]، وقد استخدم عبـيد الله هذه القوة الجديدة لمساندة قوة الشرطة للقضاء على ثورة الخوارج فى العراق[4]، وأما ابن سعد فيذكر أن البخارية قد استـعملوا أول الأمر كقوة أمنيـة، على يد والد عبيد الله حـين كان واليًا على العراق، ويضيف ابن سعد أن زيادًا استخدم البخارية لمساعدة الشرطة فى محاولتهم للقبض على حجر بن عدى[5] رضى الله عنه. ويشيد البلاذرى بمهارة البخارية فى الرمى بالقوس[6]، ويظهر من مراجـعة المصادر التاريخـية أن استعمـال هذه الفرقة كقـوة بشرية لم يكن مـقتصـرًا على الولاة، بل وجد أنهم كـانوا يقومون بخـدمة الأشراف، ففى مـدينة البصرة مثـلاً، كان أبناء عبد الله بن عـامر والى العراق فى السابق، يستخدمون البخارية كحرس خاص لحمايتهم الشخصية[7].

٣ ـ العـرفاء: ونظرًا لما يتـمتع به العـرفاء من مكانة لدى الولاة فـإن بعضـهم يستطيع من الأمور ما لا يقـدر عليه غيره، نظرًا لكون العريف مسئـولاً عن مراقبة العـامة وتبـليغ السلطات عن الحـركات المشبـوهة أو عن الأفـراد الذين يُشك فى ولائهم للسلطة. ولذلك لم يكن لهذا المنصب شعـبية، إلاّ أن ذلك لم يمنع كبار القـوم من توليه، إذ يورد ابن سـعد فى طبـقاته أسـماء كـثيـرة تولت مهـام هذا المنصب[8].

---

(١) الشرطة فى العصر الأموى، ص (١٣٠). (٢)، (٣) المصدر نفسه، ص (١٣٠).

(٤) طبقات ابن سعد (٢١٩/٦)، الشرطة فى العصر الأموى، ص (١٣١).

(٥) طبقات ابن سعد نقلاً عن الشرطة فى العصر الأموى، ص (١٣١).

(٦) الأنساب للبلاذرى نقلاً عن الشرطة فى العصر الأموى، ص (١٣١).

(٧)، (٨) المصدر نفسه، ص (١٣١).

٤ ـ **صاحب الاستخراج أو العذاب**: شهد العهد الأموى قيام جهة خاصة مهمتها استخراج الأموال من الذين يختلسونها بحكم مناصبهم الرسمية، وكان يطلق على الشخص المكلف بمهمة تعذيب المختلسين لكى يقروا بمكان وجودها، لقب «صاحب الاستخراج»، ويروى ابن قتيبة أن هذه المهنة ظهرت فى عهد زياد بن أبيه، الذى كان دائم التحذير لمن يعينهم لمساعدته فى الإدارة، وكان لا يتردد فى إعفائهم من مناصبهم إذا ظهرت منهم خيانة، ويكون العزل بعد إيقاع العقوبة بهم[١]، ويورد كثير من المؤرخين حوادث تتصل بالولاة الذين استخدموا صاحب الاستخراج لاسترداد الأموال المختلسة من المختلسين، أو ممن ظهرت عليهم إمارات الخيانة أو ما شابه ذلك من أمور. من ذلك أن والى العراق عبيد الله بن زياد عزل من مساعديه رجلاً يدعى عبد الرحمن واستخلص منه مائتى ألف درهم[٢]، كما استخلص مبلغ مائة ألف درهم اختلسها أحد العاملين فى إدارته[٣].

٥ ـ **جهاز الحسبة**: والمقصود هنا بالحسبة: المعنى الضيق، أى عملية الإشراف على تنظيم الأسواق والعمليات التجارية فيها، وقد كان من مهام المحتسب فى الدولة الأموية جباية ضرائب المبيعات وتحصيل أجرة الدكاكين التابعة للدولة[٤]، إضافة إلى مسئوليات السوق والتى من أبرزها[٥]:

أ- التأكد من دقة الأوزان، والمكاييل، والمقاييس المستعملة فى عمليات السوق، منعًا لحدوث غبن فى التعامل.

ب- التفقد المفاجئ لعيار الحبات، والمثاقيل لضمان عدم الإخلال بها.

جـ- منع الارتفاع الفاحش لأسعار السلع الأساسية .

د- منع حالات الاحتكار إن وجدت، وإجبار المحتكر على بيع ما احتكره.

ووفق هذا المفهوم نجد أن الحياة الاقتصادية فى بداية الدولة الأموية كانت بسيطة، وعليه فقد سار ولاة الأقاليم على نهج الخلافة الراشدة، فكان الولاة ـ كل فى إقليمه ـ يباشر الحسبة بنفسه[٦]. لكن هذا لم يمنع من ظهور وظيفة العامل على السوق فى مدينة البصرة فى عهد ولاية زياد بن أبيه (٤٥ ـ ٥٣هـ)[٧]. ويمكن

(١) عيون الأخبار (١/٥٥)، الشرطة فى العصر الاموى، ص (١٣٤).

(٢) الشرطة فى العصر الأموى، ص (١٣٤).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٣٤) نقلاً عن الأنساب للبلاذرى .

(٤) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٢٣). (٥) الإدارة فى العصر الأموى، ص (٢٢٣).

(٦) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٢٣). (٧) المصدر نفسه، ص (٢٢٤).

القول ـ من خلال التتبع ـ بأن نظام الحسبة كان موجوداً منذ بداية العصر الأموى، وإن لم يكن يحمل لفظ الحسبة، إنما دور المحتسب فى تنظيم السوق كان متواجداً طوال العصر الأموى، وقد نما النظام وتطور بما يوافق تطور قطاع التجارة، والأسواق، فيلاحظ أنه فى بداية الأمر كان الوالى يتولى بنفسه أعمال الحسبة ثم تطور الأمر لأن يكون هناك شخص معين وظيفته الإشراف على السوق، ثم تطور الأمر ليكون لهذا المعين أعوان يعينونه فى عمله[١].

٦- نظام المراقبة: ظهر هذا النظام فى دمشق فى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما، فى عدة صور:

أ- إلزام بعض مناوئيه السياسيين بأداء الصلاة فى الجماعة فى مساجد معينة[٢]. ويشبه هذا الإجراء ما هو معمول به فى بعض الدول المعاصرة من إلزام المشبوهين بالتردد على مراكز الشرطة فى أوقات محددة[٣].

ب ـ إسكان بعض مناوئيه فى مساكن خاصة أعدّها لهم فى دمشق وغيرها لتسهل عليه مراقبتهم.

جـ ـ إحكام المراقبة الشخصية على الأجانب الذين يدخلون دار الإسلام[٤].

٧ ـ مؤسسة الدرك: والدرك فى الاصطلاح: مؤسسة تضم قوى الدولة العاملة فى سبيل الأمن خارج حدود المدن الكبيرة[٥]، وفى الطبرى نص يفيد اهتمام زياد عام ٤٥هـ، أى أيام معاوية بالسُّبُل ـ أى الطرق ـ جاء فيه: قيل لزياد: إن السبل مخوفة. فقال: لا أعانى شيئًا سوى المصر، حتى أغلب على المصر وأصلحه، فإن غلبنى المصر، فغيره أشد غلبة، فلما ضبط المصر تكفل ما سوى ذلك، فأحكمه[٦]. وكان يقول: لو ضاع حبل بينى وبين خراسان علمت من أخذه[٧]. وهذا لا يكون إلا إذا كان رجاله متمكنين من الطرق والسبل[٨]. وقد طرح زياد نظرية أمنية مفادها التمكن أولاً من داخل الأمصار، ثم التوسع لما حولها من طرق وسبل. هذه بعض الملامح والمعالم الكبيرة عن نظام الشرطة فى عهد معاوية رضى الله عنه.

***

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٢٤).

(٢) ولاية الشرطة فى الإسلام، ص (١٢٥). (٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (١٢٥).

(٥) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٢/ ٦٤٣).

(٦)، (٧) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٩). (٨) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ (٢/ ٦٤٤).

المبحث الثامن

الولاة والإدارة فى عهد معاوية رضى الله عنه

حاول معاوية رضى الله عنه طيلة فترة خلافته أن يجعل أسلوب حكمه فى وضع بين المركزية واللامركزية. فقد اتخذ من دمشق عاصمة للدولة، وغدت المركز الرئيسى الذى تصدر منه الأوامر السياسية والاقتصادية والإدارية للدولة، أما ترتيب أمور الولايات داخليًا فقد تركه معاوية رضى الله عنه للولاة ليقوموا به كل حسب خبرته وجدارته على أن يكونوا جميعًا مسئولين أمام معاوية رضى الله عنه مسئولية مباشرة، ومحاسبين على كل عمل يقومون به، ولعل من ضمن الأسباب التى حدت بمعاوية لأن يتخذ من دمشق عاصمة للدولة الأموية هو معرفته الجيدة بأهل الشام وثقته التامة فيهم وفى ولائهم له، فقد أمضى معاوية رضى الله عنه هناك قرابة عشرين عامًا أميرًا على بلاد الشام، كان خلالها يتمتع خلالها بشعبية كبيرة بينهم، ولعلّ معاوية رضى الله عنه كان يشعر أن استمرار دولة الأمويين يعتمد فى درجة كبيرة على مدى المساعدة التى يقدمها إليه أهل الشام خاصة. كان معاوية رضى الله عنه يعى هذه المسائل جيدًا ويعيرها جلّ انتباهه، لذلك حاول جهده منذ البداية أن يعمل على حفظ التوازن بين رجالات القبائل العربية المختلفة فى بلاد الشام وعلى درجة الخصوص القبائل اليمانية والقبائل القيسية[1]، وقد عمل معاوية رضى الله عنه كل ما فى استطاعته لإيجاد التوازن بين مصالح الطرفين فى بلاد الشام، فقد كان فى خدمة معاوية رضى الله عنه رجالات من القيسية أمثال الضحاك بين قيس الفهرى وحبيب بن مسلمة الفهرى، مثلما كان هناك رجالات من اليمانية أمثال مالك بن هبيرة السكونى، وشرحبيل بن سمط الكندى، وحسان بن بحدل الكلبى وغيرهم، كما أن معاوية رضى الله عنه حصل على مساعدات من كلا الطرفين إبان فترتى ولايته وخلافته، وكانوا يحاربون إلى جانبه فى جيش واحد وتحت إمرة واحدة[2]، وكانت سياسة معاوية تقوم على الاستعانة بأفراد من أقاربه أبناء البيت الأموى مثل: عنبسة بن أبى سفيان، وعتبة

(١) خلافة معاوية بن أبى سفيان، العقيلى، ص (٧٠). (٢) المصدر نفسه، ص (٧٣).

ابن أبى سفيان، والوليد بن عتبة بن أبى سفيان وسعيد بن العاص بن أمية، ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك[١]، وعمرو بن سعيد بن العاص[٢]، وغيرهم. كما حرص معاوية رضى الله عنه على اختيار أعوانه وولاته من ذوى التجارب الواسعة من المسلمين، كعبد الله بن عامر بن كريز، والمغيرة بن شعبة، والنعمان ابن بشير الأنصارى، ومسلمة بن مخلد الأنصارى[٣]، وغيرهم. ولم تكن المحاباة هى الأساس الأهم والأوحد فى انتقاء معاوية لهؤلاء الرجال دون غيرهم وإنما كان كثير منهم ممن خدم أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ورأى أن يستفيد بجهودهم ومواهبهم ولاسيما أولئك الذين أظهرتهم أحداث الفتوحات الإسلامية بالشام[٤].

ونلاحظ أن معاوية استعان بأهل الصحبة والكفاية والولاء ولاة على الأمصار، ومع أن معاوية رضى الله عنه اختار بعض أعوانه من أهل بيته، يوليّهم الولايات إلا أنه كان يعاملهم بحذر شديد إلى أن يطمئن لهم، ويقتنع بمقدرتهم الإدارية فقد كان يختارهم أول الأمر لولاية مدن صغيرة كالطائف[٥] مثلاً، فإذا ما أظهر أحدهم مقدرة إدارية، فإن معاوية -رضى الله عنه- يضم إليه مكة لتكون تحت إشرافه ثم يتبعها بالمدينة وعند ذلك يقال: هو قد حذق[٦]. وغنى عن البيان أن الطائف كانت مدينة مهمة فى ذلك الوقت حيث تتمركز فيها قبيلة ثقيف[٧] القوية، وأن من يستطيع من الولاة أن يسيطر على الطائف - سياسيًا واقتصاديًا - فإن بقية المدن تسهل السيطرة عليها بعد ذلك. وتشير نجدة خمّاش إلى أن معاوية رضى الله عنه جعل من مدن الحجاز مدرسة يدرب فيها أبناء البيت الأموى على إدارة تلك الولاية والسماح لهم بالتدرّج فى تلك الإدارة وفق خطوات مقررة[٨]. وقد اتبع معاوية رضى الله عنه أسلوبًا مميزًا فى معاملته لبنى أهله ممن يستعين بهم. فقد كان يحاول أن يجعلهم متفرقين عن بعضهم البعض، وذلك كى يتجنب أى تحالف ضده[٩].

---

(١) البلاذرى أنساب الأشراف نقلاً عن خلافة معاوية للعقيلى، ص (٧٣).

(٢) خلافة معاوية، ص (٧٣) نقلاً عن أنساب الأشراف (٤/ ١٦٠).

(٣) خلافة معاوية، العقيلى، ص (٧٤).

(٤) الأمويون والبيزنطيون، إبراهيم العدوى، ص (٧٤).

(٥) خلافة معاوية للعقيلى، ص (٧٤).

(٦) تاريخ الطبرى، خلافة معاوية للعقيلى، ص (٧٥).

(٧) خلافة معاوية للعقيلى، ص (٧٥).

(٨) الإدارة فى العصر الأموى، ص (١٠٨، ١٠٩).

(٩) أنساب الأشراف (٤/ ٦٥، ٦٧)، خلافة معاوية، ص (٧٥).

وفى خلافة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه تمتع رعايا الدولة من غير المسلمين بمنتهى التسامح والرفق، وحصلوا على امتيازاتهم بسهولة ويسر. فقد كانوا يعملون فى مختلف الوظائف الحكومية، ذلك أن معاوية رضى الله عنه أبقى على النظم البيزنطية والقبطية التى كان معمولاً بها فى الشام ومصر والمغرب. كما أبقى على النظم الفارسية في العراق وخراسان. وكان ترك معاوية رضى الله عنه هذه النظم على حالتها بسبب نقص من كانوا يعرفون لغات ونظم إدارة البلاد المفتوحة من المسلمين فى أوائل العهد الأموى، وعلاوة على ذلك فقد كان طبيب معاوية رضى الله عنه الخاص، ويدعى ابن أُثال[1] غير مسلم، وكذلك سريج (سرجون) بن منصور الرومى مستشاره المالى[2]، وابن مينا[3]، وابن النضير[4] مولاه من عماله على الصوافى، كانوا أيضًا من سلالة غير المسلمين، وأسلم بعضهم فيما بعد. وفضلاً عن ذلك ترك معاوية لرعايا الدولة من غير المسلمين أيضًا حرية تامة فى ممارسة طقوسهم الدينية، فاستجاب لطلب نصارى دمشق بعدم زيادة كنيسة يوحنا فى مسجد دمشق[5]. كما رممّ لهم كنيسة الرَّها (أُديسًا) والتى كانت قد تهدمت من جراء الزلازل[6]. كما بنيت أول كنيسة بالفسطاط فى حارة الروم فى ولاية مسلمة بن مخلد الأنصارى على مصر ما بين عامى٤٧هـ - ٦٨هـ[7]. كما استعان معاوية رضى الله عنه بمهندسين وفنّيين من غير المسلمين فى بناء قصر الخضراء بدمشق الذى اتخذه معاوية مقرًا لإقامته فى فترة إمارته على بلاد الشام ثم فى فترة خلافته بعد ذلك. ويروى البلاذرى أنهم بنوه لمعاوية رضى الله عنه من الحجارة بعد أن كان قبل مبنيًا باللَّبِن والطين[8].

وكما كانت سياسة التسامح مع الرعايا غير المسلمين هى الطابع المميز لفترة خلافة معاوية رضى الله عنه كذلك نرى سياسة التعاطف والاهتمام المتزايد وحسن المعاملة تجاه الموالى من المميزات الأخرى فى عصر معاوية. فنجد معاوية رضى الله

(١) تاريخ اليعقوبى (٢/ ٢٢٣).
(٢) تاريخ خليفة، ص (٢٢٨).
(٣) تاريخ اليعقوبى (٢/ ٢٩٧) المحن، ص (١٧١) لأبى العرب.
(٤) أنساب الأشراف (٤/ ١٢٣).
(٥) خلافة معاوية للعقيلى، ص (٨٠).
(٦) الأمويون والبيزنطيون، ص (٢٩١).
(٧) فتوح مصر، ص (١٣٢)، غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى للقرضاوى، ص (٢٠، ٢١).
(٨) أنساب الأشراف (٤ / ١٤٧).

عنه استعان بكثير من الموالى فى إدارة بعض شئون الدولة؛ فعين مولاه عبد الله بن درّاج على خراج الكوفة ومعونتها فى ولاية المغيرة بن شعبة[١]. وكان وردان مولاه على خراج مصـر فى ولاية عتبة بن أبى سـفيان[٢]، وكان على حرسه رجل من الموالى يقال له المختار، وقيل رجل يقال له مـالك ويكنى أبا المخارق مولى لحمير، وكان على حجابه سعد مولاه[٣]. وكان يلى أمواله بالحجاز أيضًا، وهو الذى قال فيه مـعاوية: أغبط الناس عيشًا مـولاى سعد، كان يتربع جـدَّة، ويتقيَّظ الطائف، ويشتو بمكة[٤]. واتخذ زياد بن أبى سفيان من مهران مولاه، حاجبًا له وكاتبه على الخراج فى العراق[٥]. وكان أبو المهـاجر دينار مـولى لمسلمة بن مـخلد الأنصارى فتولى له إدارة شئون المغرب[٦] فى سنة ٥٥هـ.

وبالرغم من هذه الأمثلة نجد أن عباس محمود العقاد يشير إلى أن معاوية كان لا يلتفت إلى الموالى، وردّد مـا سبقه إليه المسـتشرقون فى طعنهم فى تسـامح معاوية رضى الله عنه مع الموالى، رغم ما تزخر به المؤلفات العـربية القديمة من أمثلة على هذا التسامح[٧]. ومن ناحية أخـرى، فقد ترك معاوية رضـى الله عنه الإصلاحات الضرورية لعماله على الأقاليم ليقـوم كل واحد منهم بواجبه تجاه الإقليم الذى يرى شئونه[٨]، وقد أصبح الـتقسيم الإدارى للدولة فى عـهده كالآتى: دمشق عـاصمة للدولة، وقسم البلاد إلى ولايات يحكم كل ولاية منها والٍ مـن قبل الخليفة، وكان لكلٍّ سلطة غـير محـدودة فى الولاية التى يحكمـها، وفى بعض الأحيـان أطلقت الدولة للوالى سلطة التصرف كما يشاء، حـتى كان بعضهم يقتل وينفى، ويسجن، ويشرد. . . وقد لاحظنا أن هذا الحكم المطلق لم يتكرر، بل كان دائمًا محصورًا فى ولاية العراق، وذلك لما كان يحدث فيها من اضطرابات وفتن أكثر من غيرها، وكان الخليفـة يختار لهذه الولاية ولاة مـشهورين بالحزم والشـدة، فكان زياد بن أبيه من أشهر ولاة مـعاوية، أما بقية الولايـات فكانت تحكم بطابع الدولة المألوف، فالوالى

---

(١) خلافة معاوية للعقيلى، ص (٨١).

(٢) الإدارة فى العصر الأموى، خماش، ص (٣٤٧).

(٣) أنساب الأشراف (٤/ ٥٤، ٦٣) خلافة معاوية، ص (٨٢).

(٤) معجم البلدان (٤/ ١٢) خلافة معاوية، ص (٨٢). (٥) تاريخ خليفة، ص (٢١٢).

(٦) خلافة معاوية للعقيلى، ص (٨٢). (٧)، (٨) خلافة معاوية، ص (٨٢).

مقيد بأوامر الخليفة، لا يقضى إلا بعد رأيه، ولا يفصل إلا بعد مشاورته، وكان الوالى يرجع إلى الخليفة فى كل ما يتصل بالمصالح العامة، فإذا كان الأمر خاصًا بولايته له أن يتصرف فيه بحسب ما يحقق المصلحة العامة، وإلا فهو مسئول أمام الخليفة عن كل تصرفاته، وكانت ولايات الدولة الكبرى فى عهد معاوية[1]، دمشق العاصمة، والبصرة، والكوفة، والمدينة ومكة، ومصر وغيرها، أما ولاة الأمصار فى عهد معاوية فسوف نتحدث عنهم فى حديثنا عن كل إقليم بإذن الله تعالى.

أولاً: البصرة:

ومن أشهر ولاتها فى عهد معاوية:

١- بسر بن أرطأة رضى الله عنه: تولى الولاية عام ٤١هـ وجاءت روايات لم تصل إلى درجة الصحة تشير إلى تعرض بسر لابنى زياد بن أبيه[2]، ثم عزل وعين بدله عبد الله بن عامر.

٢- عبد الله بن عامر رضى الله عنه (٤١ - ٤٤هـ): ففى هذه السنة أى ٤١هـ ولى معاوية عبد الله بن عامر البصرة، وحرب سجستان[3]، وخراسان[4]. ولم يكن تعيين عبد الله بن عامر على البصرة لأسباب شخصية، لأنه لم ترد رواية صحيحة تؤكد ذلك، ولكن اختيار معاوية رضى الله عنه له كان نتيجة خبرته السابقة فى ولاية البصرة وحرب سجستان وخراسان أيام عثمان، فما كان من معاوية إلا أن أسند الأمن إلى أهله، ووضع الرجل المناسب فى المكان المناسب[5]، وبعد أن أمضى ابن عامر ثلاث سنوات تمكن فيها من تثبيت الفتح فى سجستان وخراسان واستفاد المسلمون من خبرته العسكرية، ثم دعت الحاجة إلى تغييره، فعزله معاوية وولى الحارث بن عبد الله الأزدى البصرة فى أول سنة خمس وأربعين، فأقام بالبصرة أربعة أشهر، ثم عزله وولاها زيادًا[6].

---

(١) الدولة الأموية (١/ ٩٧) محمد سيد الوكيل.

(٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٨٢).

(٣) سجستان: تقع حاليًا جنوب غرب أفغانستان.

(٤) تشمل حاليًا: شمال شرق إيران، وشمال غرب أفغانستان

(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٣٤).

(٦) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٣).

٣ - زياد بن أبيه (٤٥هـ - ٥٣هـ):

أ - نسبه: يعتبر نسب زياد المكنى بأبى المغيرة، من أكثر القضايا غموضًا فى حياته، فقد كانت أمه أمة اسمها سمية[١]، ولم يتفق المؤرخون من هو أبوه، وبالتالى هم مختلفون فى ذكر نسبه فقد ذُكر اسمه فى المصادر، تارة زياد بن سمية[٢]، وتارة زياد ابن عبيد[٣]، ومرة زياد الأمير[٤]، وأخرى زياد بن أبى سفيان[٥]، وفى أغلب الأحيان عرف بابن أبيه[٦]، وذلك لما وقع فى أبيه من الشك[٧].

ب - صلح زياد مع معاوية: كان زياد بن أبيه واليًا على خراسان لأمير المؤمنين على رضى الله عنه وكان مخلصًا له غاية الإخلاص، وحاول معاوية أن يكسب زياد ويضمه إلى صفه فى عهد على رضى الله عنه إلا أنه فشل فى ذلك. وبعد مقتل أمير المؤمنين على رضى الله عنه وجد معاوية فرصة طيبة لإعادة النظر فى مساعيه الهادفة إلى استمالة زياد بأقل التكاليف، واستخدم معاوية لغة التهديد والترغيب مع زياد عند تحصنه بقلعة عرفت باسمه فخافه معاوية وهو من أكثر الناس معرفة بصلابته، ولا شك أن اعتصام زياد بفارس مع علمه بأنه الوحيد الذى لم ينزل على حكم معاوية، ويدخل فيما دخل فيه الناس، إنما يدل على ثقته بنفسه أولاً، وبإمكانيات إقليم فارس الاقتصادية والبشرية ثانيًا، إلا أن هذه الأمور وحدها ليس كافية لمواجهة معاوية إذا ما لجأ إلى استخدام القوة، الأمر الذى دفع زيادًا فى المرحلة التالية فى علاقته بمعاوية إلى تبديل موقفه الرافض بموقف أكثر إيجابية، وبعد صلح الحسن حاول معاوية الاتصال بزياد وسمح للمغيرة بن شعبة أن يتدخل لحل هذا المشكل، واستطاع المغيرة بن شعبة أن ينجح فى إقناع زياد ببيعة معاوية والدخول فى طاعته. وكان هذا النجاح من المغيرة من أعظم ما قدمه لمعاوية من خدمات، فقد كان من الصعب على معاوية أن يصل إلى زياد أو يوفق فى إخضاعه

---

(١) زياد بن أبيه ودوره فى الحياة العامة للرواضية، ص (٣١). (٢) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣١).

(٣) العواصم من القواصم، ص (٣١).

(٤) الطبقات (٧/ ٩٩)، زياد بن أبيه ودوره فى الحياة العامة، ص (٣١).

(٥) طبقات خليفة بن خياط، ص (١٩١).

(٦) زياد بن أبيه ودوره فى الحياة العامة، ص (٣٢).

(٧) المصدر نفسه، ص (٣٢)، الوافى بالوفيات (١٥/ ٣٢).

إلا بعد قتال عنيف، لا يدرى أحد من سيكون الرابح فى مثل ذلك الموقف الخطير[1]، وقد تمّ لمعاوية احتواء حركة اعتصام زياد بفارس، ولم يستعجل فى الأمر، وابتعد عن استخدام القوة، وأعطى للزمن فرصته، واستعان بداهية من دهاة العرب فى إقناع زياد وهذا من حكمته[2] رضى الله عنه.

جـ- حول استلحاق معاوية زياد بن أبيه: قال الطبرى فى عام ٤٤هـ: فى هذه السنة استلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبى سفيان فيما قيل[3]، وقال الطبرى: .. زعموا أن رجلاً من عبد القيس كان مع زياد لما وفد على معاوية فقال لزياد: إن لابن عامر عندى يدًا، فإن أذنت لى أتيته، قال: على أن تحدثنى ما يجرى بينك وبينه، قال: نعم، فإذن له فأتاه، فقال له ابن عامر: هيه هيه أو ابن سمية يقبح آثارى، ويعرض بعمالى، لقد هممت أن آتى بقسامة[4] من قريش يحلفون أن أبا سفيان لم ير سمية، قال: فلما رجع سأله زياد، فأبى أن يخبره، فلم يدعه حتى أخبره فأخبر زياد معاوية، فقال معاوية لحاجبه: إذا جاء ابن عامر فاضرب وجه دابته عن أقصى الأبواب، ففعل ذلك به، فأتى ابن عامر يزيدًا، فشكا إليه ذلك، فقال له: هل ذكرت زيادًا؟ قال: نعم، فركب معه يزيد حتى أدخله، فلما نظر إليه معاوية قام فدخل، فقال يزيد لابن عامر: اجلس فكم عسى أن تقعد فى البيت عن مجلسه، فلما أطال خرج معاوية، وفى يده قضيب يضرب به الأبواب، ويتمثل:

لنا سياق[5] ولكم سياق قد علمت ذلكم الرفاق[6]

ثم قعد فقال: يا ابن عامر، أنت القائل فى زياد ما قلت، أما والله لقد علمت العرب أنى كنت أعزها فى الجاهلية، وإن الإسلام لم يزدنى إلا عزًا، وإنى لم أتكثر بزياد من قلة، ولم أتعزز به من ذلة، ولكن عرفت حقًا له فوضعته موضعه[7]، وقد اتهم معاوية رضى الله عنه عندما استلحق زياد بن أبيه إلى أبيه بأنه خالف أحكام الإسلام لأن الرسول ﷺ قال: «لا دعوة فى الإسلام، ذهب أمر الجاهلية، الولد

---

(١) زياد بن أبيه ودوره فى الحياة العامة، ص (٧٥ - ٨١).

(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (١٧٣)، تاريخ الطبرى (٦/ ٩٤، ٩٥). (٣) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣١).

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣١) القسامة: هم القوم الذين يحلفون.

(٥) السياق: المهر، القاموس المحيط (١١٥٦). (٦) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٢).

(٧) المصدر نفسه (٦/ ١٣٢).

للفراش[1]، وللعاهر الحجر»[2]. وقد ردّ على هذا الاتهام الدكتور خالد الغيث في رسالته مرويات خلافة معاوية بقوله: .. أما اتهام معاوية رضي الله عنه باستلحاق نسب زياد، فإني لم أقف على رواية صحيحة صريحة العبارة تؤكد ذلك، هذا فضلاً عن أن صحبة معاوية رضي الله عنه، وعدالته ودينه وفقهه تمنعه من أن يرد قضاء رسول الله ﷺ لاسيما أن معاوية أحد رواة حديث: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»[3]. ووجه التهمة إلى زياد بن أبيه بأنه هو الذي ألحق نسبه بنسب أبي سفيان واستدل برواية أخرجها مسلم في صحيحه من طريق أبي عثمان[4] قال: لما ادعى زياد لقيت أبا بكرة فقلت له: ما هذا الذي صنعتم؟ إني سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: سمع أذناي من رسول الله ﷺ وهو يقول: «من ادعى أبًا في الإسلام غير أبيه، يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام». فقال أبو بكرة: وأنا سمعته من رسول الله ﷺ[5].

قال النووي رحمه الله معلقًا على هذا الخبر: .. فمعنى هذا الكلام الإنكار على أبي بكرة، وذلك أن زيادًا هذا المذكور هو المعروف بزياد بن أبي سفيان، ويقال فيه: زياد بن أبيه، ويقال: زياد بن أمه، وهو أخو أبي بكرة لأمه... فلهذا قال أبو عثمان لأبي بكرة: ما هذا الذي صنعتم؟ وكان أبو بكرة رضي الله عنه ممن أنكر ذلك وهجر بسببه زيادًا وحلف أن لا يكلمه أبدًا، ولعل أبا عثمان لم يبلغه إنكار أبي بكرة حيث قال هذا الكلام، أو يكون مراده بقوله: ما هذا الذي صنعتم؟ أي هذا الذي جرى من أخيك ما أقبحه وأعظم عقوبته فإن النبي ﷺ حرم على فاعله الجنة[6]. وبذلك يكون زياد هو المدّعى. وفي حقيقة الأمر فإن مسألة استلحاق معاوية زياد هي مسألة اجتهادية ويذهب الكثير من المؤرخين بأن هناك دلائل عديدة تثبت أن أبا سفيان قد باشر سمية - جارية الحارث بن كلدة الثقفي -

---

(١) الفراش: لفظة يعبر بها عن المرأة غالباً وقد يعبر بها عن حالة الافتراش، والمراد لحوق حالة نسب الولد بمن له الاختصاص بالوطء كالزوج، والسيد فتح الباري (١٢/ ٣٦) .

(٢) صحيح سنن أبي داود (٢/ ٤٣٠) للعاهر الحجر: أي للزاني الخيبة وحرمان الولد الذي يدعيه، وقد جرت عادة العرب أن تقول لمن خاب: له الحجر وبفيه الحجر والتراب. فتح الباري (١٢/ ٣٧) .

(٣) فتح الباري (١٢/ ٣٩) .

(٤) أبو عثمان النهدي، معروف بكنيته، مخضرم من كبار الطبقة الثانية ٩٥ هـ ت .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ٥١، ٥٢). (٦) شرح صحيح مسلم (٢/ ٥٢، ٥٣) .

وكانت من البغايا ذوات الرايات -فى الجـاهلية- فعلقت منه بزياد، وذكروا بأن أبا سفيان اعترف بنفســه بذلك أمام على بن طالب رضى الله عنه وآخرين بعدما شب ونبغ فى عهد عمر بن الخطاب[1]، وقال ابن تيمية بأن أبا سفيان كان يقول زياد من نطفته[2]، فلما كـانت خلافة معـاوية شهد لزياد بذلك النـسب أبو مريم السلولى وهو صحـابى كان يعمل فى الجـاهلية خماراً بالطـائف، وهو الذى جمع بين أبى سفيان وسمية، وكان ذلك أمراً مألوفًا آنذاك[3]. ويبدو أن هذا النسب قد شاع أمره حتى لقد شهـد بذلك أحد رجال البصرة لزياد قبل استـلحاق معاوية إياه[4]، فهى دعوة قديمة إذن ولم تكن -كـما يزعم الرواة- نتيجة مشورة المغيـرة بن شعبة على معاوية كجزء من صـفقة متبادلة بين معاوية وزياد أو غيـر ذلك من التفاصيل التى اخترعها الرواة[5].

وبعد عـقود من السنيـن نجد الإمام مـالك بن أنس - إمام أهل المدينـة - يذكر زياداً فى كتـابه الموطأ بأنه زياد بن أبى سـفيان، ولم يقل زياد بن أبـيه، وذلك فى عصر بنـى العباس[6]، والدولة لهم والحكم بأيديهم فما غـيروا عليه، ولا أنكروا ذلك منه، لفضل علومهم ومعرفتهم بأن مسألة زياد قد اختلف الناس فيها، فمنهم من جوّزها، ومنهم من منعهـا، فلم يكن لاعتراضهم عليهـا سبيل[7]. وفى نسبة الإمام مالك لزياد إلى أبى سـفيان فقه بديع لم يفطن له أحـد، وهو أنها لما كانت مســألة خلاف ونقد الحـكم فيهـا بأحد الوجهـين لم يكن لها رجـوع، فإن حكم القـاضى فى مسـائل الخلاف بأحـد القولين يمـضيـها ويرفع الخـلاف فيهـا والله أعلم[8]. وأما تعـارض هذا الاستلحـاق مع نص الحديث الشـريف، فمن اعـتذر لمعاوية قال: إنما استلحق معاوية زياداً لأن أنكحة الجاهلية كانت أنواعًا، وكان منها أن الجماعـة يجامعون الـبغى، فإذا حملت وولدت ألحـقت الولد لمن شاءت منهم فيلحقـه، فلمّا جاء الإسلام حرّم هذا النكاح، إلا أنّـه أقر كل ولد كان يُنسب إلى

---

(1) مروج الذهب (٣/ ١٤، ١٥)، الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٩٥).

(2) الفتاوى (١٤٨/٢٠).

(3) الكامل فى التاريخ (٢ / ٤٧٠).

(4) تاريخ الطبرى (١٣١/٦، ١٣٢).

(5) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٩٦).

(6) المصدر نفسه، ص (١٩٦).

(7) العواصم من القواصم، ص (٢٥٤).

(8) فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص (١٤١) نقلاً عن العواصم، ص (٢٤٢).

أب من أى نكاح كان من أنكحتهم على نسبه، ولم يفرّق بين شىء منها، فتوهم معاوية أنّ ذلك جائز له ولم يفرّق بين استلحاق فى الجاهلية، والإسلام[1]. وأجاز الإمام مالك أن يستلحق الأخ أخًا له ويقول: هو ابن أبى، ما دام ليس له منازع فى ذلك النسب. فالحارث بن كلدة (الذى كانت سمية جارية له) لم ينازع زيادًا، ولا كان إليه منسوبًا، وإنما كان ابن أمة بغى ولد على فراشه - أى فى داره - فكل من ادعاه فهو له، إلا أن يعارضه من هو أولى به منه، فلم يكن على معاوية فى ذلك مغمز، بل فعل الحق على مذهب مالك، فإن قيل: فلم أنكر عليه الصحابة؟ قلنا: لأنها مسألة اجتهاد[2]. والحوادث تثبت أن معاوية كان مقتنعًا بحق زياد فى ذلك، ولابد أنه كان قد سمع من أبيه، ولهذا فإن معاوية كان مؤمنًا بأن عمله لم يكن إلا عملاً موضوعيًا وواجبًا ضروريًا من باب وضع الشىء فى محله، ولا ريب أن هذا كان معروفًا عند الناس غير أن معاوية أراد أن يثبته[3].

د- خطبة زياد المعروفة بالبتراء بالبصرة: لما تولى زياد ولاية البصرة، عام ٤٥هـ، خطب خطبة بتراء[4]، لم يحمد الله فيها وقيل: بل حمد الله فقال: الحمد لله على أفضاله وإحسانه، ونسأله المزيد من نعمه، اللهم كما رزقتنا نعمًا، فألهمنا شكرًا على نعمتك علينا. أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والفَجر[5] الموقد لأهله النار، الباقى عليهم سعيرها، ما يأتى سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا ينحاش منها الكبير، كأن لم تسمعوا بآى الله، ولم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، فى الزمن السرمد[6] الذى لا يزول. أتكونون كمن طرفت[7] عينه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكروا أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا به، من ترككم هذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوبة، فى النهار المبصر، والعدد غير قليل، ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج[8] الليل وغارة

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٧١).
(٢) العواصم من القواصم، ص(٢٥٣).
(٢) إدارة العراق فى صدر الإسلام، رمزية عبد الوهاب، ص (٦١).
(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٤).
(٥) الفَجر: الانبعاث فى المعاصى والزنى، القاموس المحيط، ص (٥٨٤).
(٦) السرمد: الدائم، القاموس المحيط، ص (٣٦٧).
(٧) الطَّرفة: نقطة حمراء من الدم تحدث فى العين من ضربة وغيرها.
(٨) الدَّلج: السير من أول الليل، القاموس المحيط، ص (٣٤٢).

النهـار، قرَّبـتم القرابة، وباعـدتم الدين، تعتـذرون بغيـر العـذر، وتغطون على المختلس[1]، كل امرىء منكم يذب عن سـفيهه، صنيع من لا يخـاف عقابًا، ولا يرجو معـادًا، ما أنتم بالحلماء، ولقد اتبـعتم السفهـاء، ولم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم، حتى انتهكوا حـرم الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كنوسًا فى مكانس الريب[2]، حُرِّم علىّ الطعام والشـراب حتى أسويها بالأرض هدمًـا وإحراقًا، إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله، لين فى غـير ضعف، وشدة فى غير جبرية وعنف، وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالولى[3]، والمقيم بالظاعن[4]، والمقبل بالمدبر، والصـحيح منكم بالسقـيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فـيقول: انج سعد فقد هلك سعيد[5]، أو تستقيم لى قناتكم، إن كذبة المنبر تبقى مشهورة، فإذا تعلقتم علىّ بكذبة فقـد حلت لكم معصيتى[6]، من بيَّت[7] منكم فأنا ضامن لما ذهب له، إياى ودلج الليل، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه، وقد أجلتكم فى ذلك بقدر ما يأتى الخبر الكـوفة ويرجع إلىَّ، وإياى ودعوى الجاهلية[8]، فإنى لا أجد أحدًا دعا بها إلا قطعت لسانه، وقـد أحدثتم أحداثًا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرَّق قومًا غرقته، ومن حرَّق على قوم حرقناه، ومن نقب بيتًـا نقبت عن قلبه، ومن نبش قبـرًا دفنته[9] حيًا، فكـفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف يدى وأذاى، لا يـظهر من أحد منكم خـلاف ما عليـه عامتـكم إلا ضربت عنقه. وقد كانت بينى وبين أقوام إحن[10]، فجعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى، فمن كان منكم محسنًا فليزدد إحسـانًا، ومن كان مسيئًا فليتزع عن إساءته، إنى لو علمت أن أحـدكم قد قـتله السل من بغضـى لم أكشف له قناعًـا، ولم أهتك له

---

(١) الخلس: الأخذ فى نُهزة ومخاتلة، لسان العرب (٦/ ٦٥).
(٢) كنوساً فى مكانس الريب: استتروا فى موضع الريبة، لسان العرب (٦/ ١٩٨).
(٣) بمعنى واحد وهو: الصاحب والقريب والجار والحليف والشريك.
(٤) الظاعن: المسافر، لسان العرب (١٣/ ٢٧٠، ٢٧١).
(٥) المثل يُضرب فى الاستخبار عن الأمرين الخير والشر، أيهما وقع.
(٦) مرويات خلافة معاوية، ص (٢٤٠).
(٧) بيَّت: أوقع به ليلاً، لسان العرب (٢/ ١٦).
(٨) دعوى الجاهلية: المفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر.
(٩) عند الجاحظ: دفناه فيه حياً، البيان والتبيين (٢/ ٣٣٠).
(١٠) الإحن: الأحقاد.

ستراً، حتى يبدى لى صفحته، فـإذا فعل لم أناظره، فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم، فرب مبئس بقدومنا سيسـر، ومسرور بقدومنا سيبتئس[١]. أيها الناس، إنا أصبـحنا لكم ساسـة، وعنكم ذادة[٢]، نسوسكـم بسلطان الله الذى أعطانا، ونذود عنكم بفيء[٣] الله الذى خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما وُلينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا[٤] بمناصحتكم، واعلموا أنى مهما قصرت ولو أتانى طارقًا بليل، ولا حـابسًا رزقًا ولا عطاءً عن إبانه[٥]، ولا مُجمراً[٦] لكم بعثًا، فادعـوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساسـتكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذى إليه تأوون، ومـتى تصلحوا يصلحـوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضـهم، فيشـتد لذلك غيظكم، ويطول له حـزنكم، ولا تدركوا حاجـتكم، مع أنه لو استجـيب لكم كان شرًا لكم، أسأل الله أن يعين كلاً على كل، وإذا رأيتمـونى أنفذ فيكم الأمر فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعـاى. فقام عبد الله بن الأهتم فقـال: أشهد أيها الأميـر أنك قد أوتيت الحكمة وفـصل الخطاب، فقـال: كذبت، ذاك نبى الله داود عليه السلام[٧]. قال الأحنف: قد قلت فـأحسنت أيها الأميـر، والثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء، وإنا لن نُثنى حتى نُبتلى، فقال زياد: صدقت[٨].

وهذه الخطبة تعتبـر من الخطب المشهورة فى التـاريخ وعلى الرغم من كثـرتها وكثرة المصـادر التى أوردتها إلا أنها لم تأت بإسناد صحيح يجـعل القارىء يطمئن إلى صحة ما ورد فيها، لاسيما أنهـا تحتوى على مآخذ عديدة، وتناقضات واضحة تقلل من صـحة نسـبة جـميع ما جـاء فيـها إلى زياد، وقـد نبه إلى هذه المـآخذ والتناقضات الدكتور خالد الغيث[٩] حفظه الله، منها:

- تحدثت الخطبة عن انتشـار الفجور فى البصرة وكثرة بيوت الدعـارة فيها، ويستفاد ذلك من قول زياد: . . من تركتكم هذه المواخير المنصـوبة، قوله: حُرِّم علىّ الطعام والشراب حـتى أسويها بالأرض هدمًا وإحـراقًا[١٠]. وهذا الكلام المنكر عن حال

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٦) . (٢) ذادة: حماة ومدافعون .

(٣) الفيء: الغنيمة . (٤) فيئنا: عطفنا وبرنا، لسان العرب (١/ ١٢٦).

(٥) إبَّانه: حينه، القاموس المحيط ١٥١٥ .

(٦) تجمير الجيش: هو حبس الأمير للجيش فى الثغر وعدم السماح بالعودة.

(٧)، (٨) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٧) . (٩) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٤٤).

(١٠) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٥)

البصرة عند قدوم زياد، يرده حقيقة ما كانت عليه البصرة منذ تأسيسها فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، حيث بنيت لتكون قاعدة تنطلق منها الجيوش الإسلامية لمواصلة الفتح ونشر الإسلام فى ربوع البلاد المفتوحة، ومن أجل هذه الغاية استوطن البصرة أكثر من خمسين ومائة صحابى، حملوا على عواتقهم مهمة الدعوة إلى الله وتعليم الناس أمور دينهم، فأنَّى لهذه المنكرات أن تنبت وتنتشر فى مجتمع عماده الصحابة والتابعون دون أن ينكروه، كذلك فإن وجود الخوارج فى البصرة وما عرف عنهم من الاستعجال والاندفاع فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دليل آخر على انتفاء وجود هذه المنكرات فى مجتمع البصرة وبالحجم الذى ورد فى خطبة زياد[١].

- ومن التناقضات الواردة فى الخطبة: قول زياد: وإياى ودعوى الجاهلية، فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه[٢]. مع أنه ذكر فى موضع آخر من الخطبة نقيض ذلك وهو قوله: وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم[٣]. وورد فى الخطبة قول زياد: إياى ودلج الليل، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه[٤]. لكنه عاد فى موضع آخر من الخطبة لينقض ما ذكره آنفًا فقال: لست محتجبًا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقًا بليل[٥]. وهذه التناقضات الواردة فى الخطبة يستغرب صدورها من زياد مع ما عرف عنه من البلاغة والفصاحة، وهذا يقودنا إلى قضية أخرى وهى احتمال كون النص الذى بين أيدينا عن خطبة زياد عند مجيئه إلى البصرة عبارة عن أكثر من خطبة تم دمجها فى سياق واحد. ويؤيد ذلك ثناء عبد الله بن الأهتم والأحنف بن قيس على زياد بعد انتهاء الخطبة مع أن الخطبة تستوجب النقد وليس الثناء، لما فيها من تقديم حكم الجاهلية على حكم الله[٦]. وعن الشعبى قال: ما سمعت متكلمًا قد تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفًا أن يسىء إلا زياداً، فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلامًا[٧]. وهذا الثناء من الشعبى على زياد يقوى الشك حول خطبة زياد البتراء التى سبق الحديث عنها فى الرواية السابقة[٨].

---

(١) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٤٤).
(٢)، (٣)، (٤) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٥) .
(٥) المصدر نفسه (٦/ ١٣٦) .
(٦) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٤٦).
(٧) المنتظم لابن الجوزى (٥/ ٢١٢) .
(٨) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٤٧).

هـ - استعانة زياد بصحابة رسول الله: استعان زياد بعدة من أصحاب النبى ﷺ، منهم عمران بن الحصين الخزاعى[1]، ولاه قضاء البصرة، والحكم بن عمرو الغفارى[2]، ولاه خراسان، وسمرة بن جندب، وأنس بن مالك، وعبد الرحمن بن سمرة، فاستعفاه عمران فأعفاه، واستقضى عبد الله بن فضالة الليثى[3]، ثم أخاه عاصم بن فضالة[4]، ثم زرارة بن أوفى الحرشى[5]، وكانت أخته لبابة عند زياد[6].

و- من سياسة زياد فى العراق: يعتبر زياد بن أبى سفيان عامل معاوية على البصرة والكوفة بعد عبد الله بن عامر والمغيرة بن شعبة، هو الذى قام بمعظم الإصلاحات الضرورية فى ذلك الجناح الشرقى من الدولة الأموية وكان هذا الرجل يتمتع بقدرة إدارية فائقة[7]. وقد استن زياد عدة قوانين وتنظيمات وقام بكثير من الإصلاحات فى البصرة أولاً (٤٥ - ٥٠هـ) ثم فى الكوفة بعد أن جُمعت المدينتان تحت إمرته فى ولاية واحدة وذلك منذ سنة ٥٠هـ وحتى سنة ٥٣هـ. فبنى دار الرزق فى البصرة[8]، وهى شبيهة بمخزن المؤن فى أيامنا هذه، فكان الأهالى يتمونون منها، وعين أشخاصًا يشرفون عليها منهم: عبد الله بن الحارث بن نوفل، ورواد بن أبى بكرة. كما عين الجَعْد بن قيس النَّمرى مشرفًا على السوق ومراقبًا على أسعار المواد الغذائية فيه[9]. وكان يعطى قروضًا للتجار إذا ما ارتفعت الأسعار كى يحثهم على المحافظة على سعر السلعة أو بزيادة بسيطة. وإذا ما تحقق ذلك وتوفرت الحاجات: ارتجع ماله[10].

وترك زياد الناس فى البصرة أخماسًا، أما الكوفة فقد قسمهم إلى أرباع[11]، بدل الأسباع. واختار عريفًا لكل قسم يقوم بمهمة توزيع الأعطيات على أفراد عشيرته، كما أنه كان مسئولاً أمام زياد عما يحدث فى ناحيته، فيقوم بإرسال

---

(١) مات بالبصرة عام سنة ٥٢هـ بالبصرة، أخرج له الستة، التقريب ٤٢٩ .

(٢) مات بمرو عام ٥٠هـ، أخرج له البخارى والأربعة ابن حجر، التقريب ١٧٥ .

(٣) ابن حجر، التقريب ٣١٧ .

(٤) الإصابة (٣/ ٥٧٤) .

(٥) توفى وهو يصلى سنة ٩٣هـ ،التقريب لابن حجر ٢١٥ .

(٦) أنساب الأشراف (٤/ ٣٧٠).

(٧) خلافة معاوية بن أبى سفيان للعقيلى، ص (٨٦).

(٨) أنساب الأشراف (٤/ ٣١٤)، خلافة معاوية، ص (٨٧).

(٩) خلافة معاوية، ص (٨٧) نقلاً عن أنساب الأشراف (٤/ ٢١٢، ٢١٧).

(١٠) أنساب الأشراف (٤/ ٢٣٧).

(١١) تقسيم يتعلق بالقبائل.

التقارير بما حصل فيهـا أولاً بأول إلى زياد، واستطاع أن يضبط الأمور فى المدينتين برجـال من أهلها، وأصـدر زياد أوامره بألاً يدخل أو يخـرج أحد من الكـوفة أو البصـرة بعد صلاة العشـاء، وأوقع القصاص بالسارق وقـاطع الطريق، فعمَّ الأمن والطمأنينة بحيث إن المرأة كـانت تنام وباب بيتها مفتـوح، وإن الشىء ليسقط على الأرض فيظل ملقى دون أن يحـركه أحد[1]. ونظم العطاء من الديوان فحذف منه أسماء الذين توفوا ومن كان غائبًـا عن قطره ومن كان عابثًا بالأمن، فكان إذا جاء شعبان أخرج أعطية المقاتلة فمـلأوا بيوتهم من كل حُلْو وحامض واستقبلوا رمضان بذلك، وإذا كان ذو الحجـة أخرج أعطية الذرية[2]. ويشير البلاذرى إلى أنه: كان لكل عـيِّل جريـان ومائة درهم، ومـعونـة الفطر خمـسون، ومـعونة الأضـحى خمسون[3]، واختار زياد حوالى خمسمـائة رجل من أهل البصرة ليعملوا كحرس خاص له، وكذلك حماية الأماكن الهـامة وأعطى لكل واحد منهم ما بين ثلاثمائة إلى خمسمائة درهم، وأسند قيادتهم إلى شيبان بن عبد الله السعدى[4]، وبنى زياد مسـاجد عـديدة، منها: مـسجـد بنى عدى، ومـسجـد بنى مجـاشع، ومـسـجد الأساورة. وكان لا يدع أحدًا يبنى بقرب مسجد الجماعة مسجدًا، فكان مسجد بنى عدى أقربها منه[5]. ويذكر ابن الفقيه: إن زيادًا بنى سبـعة مساجد فلم يُنسب إليه شىء منها، وأن كل مـسـجد بالبصرة كانـت رحبته مستـديرة فإنه من بناء زياد[6]. وزاد زياد فى مسجد البـصرة زيادة كثيرة، وبناه بالآجر والجص، وسـقفه بالساج، وبنى منارته بالحجارة[7].

وكان يهتم بنظافة المدينة ويعتبر الأفراد مسئولين على نظافة بيوتهم ويعاقب من يهمل ذلك، فقد كان يأخذ صاحب كل دار بعد المطر إذا أضحت برفع ما بين يدى فنائه من الطين، فمن لم يفعل أمـر ذلك الطين فألقى فى مجلسه، وكان يأخذ الناس بتنظيف طرقهم من القذر والكناسات، ثم أنه اشترى عبيدًا ووكلهم فكانوا يلمونه[8]. فهـذه الرواية تشير إلى وجود مـوظفين مهمـتهم

(1) تاريخ الطبرى نقلاً عن خلافة معاوية للعقيلى، ص (88).

(2) أنساب الأشراف (4/219). (3) خلافة معاوية، ص (88) نقلاً عن أنساب الأشراف (4/ 221).

(4) خلافة معاوية، ص (89)، أنساب الأشراف (4/ 221).

(5) مختصر كتاب البلدان، ص (191). (6) الإدارة فى العصر الأموى، ص (160).

(7) فتوح البلدان، ص (346، 347)، خلافة معاوية، ص (89).

(8) أنساب الأشراف (4/ 206)، الإدارة فى العصر الأموى، ص (214).

مراقبة النظافة من ناحية، كما تشير إلى أن زيادًا تنبه إلى أن نظافة الطرق أمر يجب أن يتولاه أشخاص معينون فاشترى عبيدًا وكل إليهم تنظيف الطرق من القذر والكناسات[1]. واهتم زياد بتقدم الزراعة وتنظيم طرق الرى: فبنى السدود[2]، وحفر القنوات[3]، كما أنه كان يمنح المزارع قطعة من الأرض الزراعية، مساحتها ٦٠ جريبًا ثم يدعه عامين فإن عمّرها أصبحت له، وإلا استردها منه، وأعطاها آخرين ينتظرونها[4]. ولكى يسهل الاتصال بين ضفتى نهر الفرات، فقد أصلح زياد قنطرة الكوفة وأعاد بناءها باللبن والطوب المقوّى، بعد أن كانت من أخشاب القوارب المتهالكة، وأصبحت تعرف بعد ذلك بجسر الكوفة[5].

وأما عن كيفية تصرف زياد فى موارد بيت مال الولاية فيشير البلاذرى إلى أن زيادًا كان يجبى من كُوَر البصرة ستين ألف ألف، فيعطى المقاتلة من ذلك ستة وثلاثين ألف ألف، ويعطى الذرية ستة عشرة ألف ألف درهم، وينفق من نفقات السلطان ألفى ألف، ويجعل فى بيت المال للبوائق والنوائب ألفى ألف درهم، ويحمل إلى معاوية أربع آلاف (ألف) درهم، وكان يجبى من الكوفة أربعين ألف ألف، ويحمل إلى معاوية ثُلثى الأربعة الآلاف ألف لأن جباية الكوفة ثلثا جباية البصرة. كما أن عبيد الله بن زياد، والذى خلف أباه على ولاية العراق حمل إلى معاوية ستة آلاف ألف درهم فقال معاوية: اللهم ارض عن ابن أخى[6].

٤ - **ولاية سمرة بن جندب رضى الله عنه:** عن جعفر بن سليمان الضبعى، قال: أقر معاوية سمرة بعد زياد ستة أشهر، ثم عزله، فكذبوا على سمرة وزعموا أنه قال: لعن الله معاوية، والله لو أطعت الله كما أطعت معاوية ما عذبنى أبدًا[7]. هذا الخبر المنسوب إلى سمرة بأنه شتم معاوية خبر مكذوب على هذه الصحابى الكريم، وفى ذلك يقول ابن كثير: وهذا لا يصح عنه[8]، كما أن معرفة ميول

---

(١) الإدارة فى العصر الأموى، ص (٢١٤).
(٢) خلافة معاوية للعقيلى، ص (٨٩).
(٢) فتوح البلدان، ص (٣٥٦، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٩).
(٤) خلافة معاوية، ص (٩٠).
(٥) فتوح البلدان، ص (٢٨٥، ٢٨٦).
(٦) أنساب الأشراف (٤/٢١٨ ـ ٢١٩).
(٧) مرويات معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٦١).
(٨) البداية والنهاية نقلاً عن مرويات معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٦٢).

مصدر الخبر جعفر بن سليـمان الضبعى، والذى قال عنه ابن حجر: صدوق زاهد لكنه يتشيع[1]، تبين أثر التشيع فى تشويه التاريخ الإسلامى[2].

٥- ولاية عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفى:

قال الطبرى: وفى هذه السنة - ٥٤هـ- كان عزل معـاوية بن أبى سفيان لسمرة بن جندب عن البصرة، واستعمل عبد الله بن غيلان[3].

٦- ولاية عبيد الله بن زياد خراسان ثم البصرة:

قال الطبرى: وفى هـذه السنة ولى معاوية عبد الـله بن زياد خراسان[4]، وفى عام ٥٥هـ عزل معـاوية ابن عمـرو بن غيـلان عن البصـرة وولاها عبـد الله بن زياد[5]، وأوصى معاوية عبد الله بن زياد بهذه الوصـية: إنى قد عهدت إليك مثل عهدى إلـى عمالى، ثم أوصيك وصـية القرابة لخاصـتك عندى، لا تبيعن كـثيرًا بقليل، وخـذ لنفسك من نفسك، واكـتف فيـما بينك وبين عدوك بـالوفاء تخفّ عليك المـؤونة وعلينا منك، وافـتح بابك للنـاس تكن فى العلم منـهم أنت وهم سواء، وإذا عزمت على أمر فأخـرجه إلى الناس، ولا يكن لأحد فيه مطمع، ولا يرجعن عـليك وأنت تستطيع، وإذا لقـيت عدوك فـغلبوك على ظهـر الأرض فلا يغلبونك على بطنها، وإن احـتاج أصحابك إلى أن تواسيهم بنفـسك فآسيهم[6]. وفى رواية قال له: اتق الله ولا تؤثرن على تقوى الله شيئًا، فإن فى تقواه عوضًا، وقِ عرضك من أن تدنسه، وإذا أعطيت عـهدًا فوف به، ولا تبيعنّ كـثيرًا بقليل، ولا تخرجن منك أمرًا حتى تُبرمه، فـإذا خرج فلا يردن عليك، وإذا لقيت عدوك فكن أكثر من معك، وقاسمهم على كـتاب الله، ولا تطمعن أحدًا فى غير حقه، ولا تؤيسن أحدًا من حق له. ثم ودعه[7].

ثانيًا: الكوفة:

١- ولاية المغيرة بن شـعبة رضى الله عنه(٤١هـ): الأمير أبو عـيسى، ويقال: أبو عبد الله، وقيل: أبو محمد، من كبار الصحابة أولى الشجاعة والمكيدة. شهد بيعة

(١) تقريب التهذيب، ص (١٤٠).
(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (٢٦٢).
(٣)، (٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٢١٢).
(٥) المصدر نفسه (٦/ ٢١٧).
(٦) المصدر نفسه (٦/ ٢١٣).
(٧) المصدر نفسه (٦/ ٢١٤).

الرضوان، كان رجلاً طوالاً مهيبًا، ذهبت عينه يوم اليرموك وقيل يوم القادسية[1]. وكان يقول: أنا آخر الناس عهدًا برسول الله ﷺ، لما دفن رسول الله ﷺ في القبر، فألقيت خاتمي، فقلت: يا أبا الحسن، خاتمي، قال: انزل فخذه، قال: فمسحت يدي على الكفن ثم خرجت[2].

وله مواقف في الدهاء والمكر والكيد منها، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر استعمل المغيرة بن شعبة على البحرين، فكرهوه، فعزله عمر، فخافوا أن يردّه، فقال دهقانهم[3]: إن فعلتم ما آمركم لم يردّه علينا. قالوا: مُرْنا. قال: تجمعون مائة ألف حتى أذهب بها إلى عمر، وأقول: إن المغيرة اختان هذا، فدفعه إليَّ. قال: فجمعوا له مائة ألف، وأتى عمر، فقال ذلك، فدعا المغيرة، فسأله، قال: كذب، أصلحك الله، إنما كانت مائتي ألف، قال: ما حملك على هذا؟ قال: العيال والحاجة. فقال عمر للعِلْج: ما تقول؟ قال: لا والله لأصَدُقَنَّك ما دفع إليَّ قليلاً ولا كثيرًا، فقال عمر للمغيرة: ما أردت إلى هذا؟ قال: الخبيث كذب عليَّ، فأحببت أن أخزيه[4].

وعن الشعبي: سمعت قبيصة بن جابر يقول: صحبت المغيرة بن شعبة، فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب، لا يخرج من باب إلا بمكر، لخرج من أبوابها كلها[5]، وقال الشعبي: والدهاة أربعة: معاوية وعمرو بن العاص، والمغيرة، وزياد[6]. وكان المغيرة بن شعبة من أنصار التعدد فكان يقول: صاحب المرأة الواحدة يحيض معها ويمرض معها، وصاحب المرأتين بين نارين تشتعلان[7]. فهو يدعو للزواج من ثلاث أو أربع.

وقد استعمل معاوية المغيرة على الكوفة عام ٤١هـ[8]، وقام بجهود عظيمة في قتال الخوارج، ووجد وقتًا كافيًا قام فيه بتوسيع مسجد الكوفة فجعله يتسع لأربعين ألفًا من المصلين[9]. وبقي في الولاية إلى عام ٤٩هـ وقيل ٥٠هـ، وهو الراجح وعندما مات ضم معاوية الكوفة إلى زياد، فكان أول من جمع له الكوفة والبصرة[10].

(1) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١).
(2) المصدر نفسه (٣/ ٢٦).
(3) الدّهقان: القوى على التصرف، رئيس الإقليم.
(4) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٦).
(5) المصدر نفسه (٣/ ٣٠).
(6) البداية والنهاية (١١/ ٢٢).
(7) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣١).
(8) تاريخ الطبرى (٦/ ٨٢).
(9) خلافة معاوية للعقيلي، ص (٨٥).
(10) تاريخ الطبرى (٦/ ١٥٠).

٢- ولاية زياد بن أبيه على الكوفة: كان زياد على البصرة وأعمالها إلى سنة خمسين، فمات المغيرة بن شعبة بالكوفة وهو أميرها، فكتب معاوية إلى زياد بعهده على الكوفة والبصرة، فكان أول من جمع له الكوفة والبصرة، فاستخلف على البصرة سمرة بن جندب، وشخص إلى الكوفة، فكان زياد يقيم ستة أشهر بالكوفة وستة أشهر بالبصرة[١]. وقد تحدثنا عن سياسة زياد فيما سبق بالعراق وقد وصفه الذهبي فقال فيه: . . كان من نُبلاء الرجال، رأيًا، وعقلاً، وحزمًا، ودهاءً، وفطنة، وكان يضرب به المثل في النُّبل والسؤدد، وكان كاتبًا بليغًا كتب للمغيرة، ولابن عباس وناب عنه بالبصرة[٢]. وقال الشعبي: ما رأيت أحدًا أخطب من زياد[٣]. وقال فيه ابن حزم: لقد امتنع زياد وهو فِقَعةُ القاع[٤]، لا نسب له ولا سابقة، فما أطاقه معاوية إلا بالمداراة، ثم استرضاه وولاّه[٥]. وقال أبو الشعثاء: كان زياد أفتك من الحجَّاج لمن يخاف هواه[٦]، وعندما استقر أمره بالعراق وتمكن منها، كتب زياد إلى معاوية: قد ضبطت لك العراق بشمالي ويميني فارغة، فاشغلها بالحجاز. . . فلما بلغ ذلك أهل الحجاز أتى نفر منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، فذكروا ذلك له، فقال: ادعوا الله عليه فيكفيكموه، فاستقبل القبلة، واستقبلوها فدعوا ودعا، فخرجت طاعونة[٧] على أصبعيه، فأرسل إلى شريح[٨] -وكان قاضيه- فقال: حدث بي ما ترى، وقد أمرت بقطعها، فأشر عليَّ، فقال له شريح: إني أخشى أن يكون الجراح على يدك، والألم على قلبك، وأن يكون الأجل قد دنا، فتلقى الله عز وجل أجذم[٩] وقد قطعت يدك كراهية للقائه، أو أن يكون في الأجل تأخير، وقد قطعت يدك فتعيش أجذم وتعير ولدك، فتركها، وخرج شريح فسألوه، فأخبرهم بما أشار به، فلاموه وقالوا: هل أشرت عليه بقطعها، فقال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن»[١٠]. وقد مات زياد سنة ثلاث وخمسين[١١].

(١)، (٢) تاريخ الطبري (٦ / ١٥٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣ / ٤٩٥).
(٤)، (٥)، (٦) المصدر نفسه (٣/٤٩٦).
(٧) الطاعون: الوباء.
(٨) شريح الكندي: مختلف في صحبته، ولي القضاء في عهد عمر حتى عصر عبد الملك، توفي سنة ٧٨هـ.
(٩) الأجذم: المقطوع اليد، أو الذاهب الأنامل.
(١٠) صحيح الأدب المفرد للألباني ١١٣.
(١١) تاريخ الطبري (٦/٢٠٦)

٣- ولاية عبد الله بن خالد بن أسيد: عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبى العيص، ولى فارس لزياد، ثم[1] استخلفه زياد على الكوفة عند مماته، وهو الذى صلى على زياد.

٤- ولاية الضحاك بن قيس الفهرى: وفى سنة ٥٥هـ عزل معاوية عبد الله بن خالد بن أسيد عن الكوفة، وولاها الضحاك بن قيس الفهرى[2].

٥ - ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الثقفى(٥٨هـ): وفى سنة ٥٨هـ ولى معاوية الكوفة عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفى، وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبى سفيان، وعزل عنها الضحاك بن قيس[3].

هذا وقد قام معاوية رضى الله عنه بعزل عبد الرحمن بن أم الحكم عن الكوفة بسبب إقدامه على قتل أحد أهل الذمة، ودليل ذلك ما أخرجه أحمد بن حنبل، بإسناد صحيح، قال: حدثنى هارون بن معروف قال: حدثنا سفيان، عن مطرف، قال: أخبرنى ابن سعيد قال: .. ثم إن ابن الحكم عزل حين قتل ابن صلوبا[4].

٦ - ولاية النعمان بن بشير رضى الله عنه (٥٩ - ٦٠هـ): وفى سنة ٥٩هـ عزل عبد الرحمن بن أم الحكم عن الكوفة، واستعمل عليها النعمان بن بشير الأنصارى[5]. فهؤلاء هم ولاة الكوفة فى عهد معاوية رضى الله عنه.

ثالثًا: المدينة النبوية:

تعتبر المدينة من أهم الولايات للنفوذ الروحى والدينى على الدولة الأموية بسبب وجود الصحابة وأبنائهم من المهاجرين والأنصار، ولا تكاد تنعقد البيعة إن لم يبايع أهل المدينة، إذ فيها عدد من أهل الحل والعقد، ومن يطيعهم الناس ويسيرون برأيهم[6]، وقد دخلت المدينة فى سلطان معاوية رضى الله عنه بعد عام الجماعة سنة ٤١هـ، وقد حرص معاوية على زيارتها منذ بيعته فقدم المدينة وتلقته رجال من

(١) نسب قريش للزبيرى، ص (١٨٧). (٢) تاريخ الطبرى (٦/٢١٨).

(٣) المصدر نفسه (٦/٢٢٦).

(٤) التاريخ الكبير للبخارى (٦/٥٣٣)، العلل ومعرفة الرجال (٢/٢٤، ٢٥)، مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٢٧).

(٥) تاريخ الطبرى (٦/٢٢٣). (٦) التاريخ الإسلامى، العهد الأموى، محمود شاكر ص (٩٠).

وجوه قريش فقالوا: الحمد لله الذى أعزّ نصرك وأعلى أمرك، فما رَدَّ عليهم جوابًا حتى دخل المدينة، فقصد المسجد، وعلا المنبر، فحمد الله وأثنى عليه فقال: . . . ولقد رمت نفسى على عمل ابن أبى قحافة فلم أجدها تقوم بذلك ولا تقدر عليه، وأردتها على عمل ابن الخطاب، فكانت أشد نفورًا وأعظم هربًا من ذلك، وحاولتها على مثل سنيّان عثمان، فأبت على، وأين مثل هؤلاء ومن يقدر على أعمالهم، هيهات أن يدرك فضلهم أحد ممن بعدهم. . غير أنى سلكت بها طريقًا لى منفعة ولكم فيه مثل ذلك، ولكم فيه مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة، فإن لم تجدونى خيركم، فأنا خير لكم، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه قد جعلته دُبر أذنى، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله، فارضوا منى ببعضه، وإياكم والفتنة، فلا تهموا بها، فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة[1].

ونلاحظ فى هذه الخطبة حرص معاوية رضى الله عنه على أن يكسب ودهم ويحافظ على عهده لهم، ما حافظوا على بيعتهم له[2]. وقد هدأت المدينة بعد بيعة معاوية وأخلدت إلى السكينة، وانصرف أهلها إلى أعمالهم، وانقطع أهل العلم إلى رواية ما حفظوه من حديث رسول الله ﷺ، وأغدق معاوية الأموال على سراة الناس لاستمالتهم وكان كرم هؤلاء يسع الكثير من أجل المدينة[3]. وكان معاوية عند عهده لأهل المدينة وفيًا بالسياسة التى رسمها فى خطبته عند زيارة المدينة، وكان يقدم من الترغيب أكثر مما يعلن من الترهيب، وكان إكرامه لرجالات المدينة إكرامًا يفوق كل وصف، وما قصده أحد فى طلب إلا أعطاه. لقد كان يخص وجهاء القوم، ولكن هؤلاء كانوا موزعين لعطايا معاوية، كلما كثرت عطايا معاوية كثر إنفاقهم على أهل المدينة[4]، فقد روى أن معاوية قضى عن عائشة أم المؤمنين ثمانية عشر ألف دينار، وما كان عليها من الدَّين الذى كانت تعطيه الناس[5]، وبعث معاوية إلى أم المؤمنين عائشة بمائة ألف، ففرقتها من يومها، فلم يبق منها درهم، فقالت لها خادمتها: لو اشتريت لنا من ذلك بدرهم لحمًا؟ فقالت: ألا ذكّرتنى[6].

---

(1) البداية والنهاية (11/432).
(2) المدينة فى العصر الأموى محمد شرّاب، ص (70).
(3) المصدر نفسه، ص (71).
(4) المصدر نفسه، ص (73).
(5) سير أعلام النبلاء (3/154).
(6) تذكرة الحفاظ ترجمة 13، سير أعلام النبلاء (3/154).

وأما ولاة المدينة فهم:

١- مروان بن الحكم (٤٢ - ٤٩هـ): فى عام ٤٢هـ ولى معاوية مروان بن الحكم المدينة، فاستقضى مروان عبد الله بن الحارث بن نوفل[١].

٢- ولاية سعيد بن العاص رضى الله عنه (٤٩ - ٥٤هـ): فى سنة ٤٩هـ عزل معاوية مروان بن الحكم عن المدينة فى شهر ربيع الأول، وأمّر فيها سعيد بن العاص على المدينة فى شهر ربيع الآخر وقيل فى شهر ربيع الأول[٢].

٣- ولاية مروان بن الحكم الثانية: (٥٤ - ٥٧هـ): فى عام ٥٤هـ عزل معاوية سعيد بن العاص عن المدينة، واستعمل عليها مروان بن الحكم[٣].

٤- ولاية الوليد بن عتبة بن أبى سفيان: استعمل معاوية على المدينة حين صرف عنها مروان، الوليد بن عتيبة بن أبى سفيان[٤]، وكان ذلك عام ٥٧هـ[٥].

* وفاة أبى هريرة رضى الله عنه بالمدينة ٥٨هـ وقيل: ٥٩هـ:

توفى أبو هريرة رضى الله عنه فى عهد معاوية وقد تعرّض للهجوم الشرس من قبل أعداء السنة النبوية بسبب خدمته لها، فرأيت من المناسب أن أترجم لأبى هريرة وأتعرض للشبهات المثارة حوله وبيان بطلانها وزيفها.

أ- التعريف به: هو عبد الرحمن بن صخر الدوسى اليمانى، كان اسمه فى الجاهلية عبد شمس، فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن واشتهر أبو هريرة بكنيته، حتى غلبت على اسمه فكاد ينسى، وسئل أبو هريرة: لم كنيت بذلك؟ قال: كنيت أبا هريرة لأنى وجدت هرة فحملتها فى كمى، فقيل لى: أبو هريرة. وكان يرعى غنم أهله فى صغره، ويداعب هرته وكان يقول: لا تكنونى أبا هريرة، فإن النبى ﷺ كنانى أبا هر، والذكر خير من الأنثى[٦].

ب- إسلامه: هاجر أبو هريرة من اليمن إلى المدينة ليالى فتح خيبر، وكان ذلك سنة سبع من الهجرة، وكان قد أسلم على يد الطفيل بن عمرو فى اليمن، ووصل المدينة وصلى الصبح خلف سباع بن عرفطة الذى كان قد استخلفه رسول الله ﷺ

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٨٧).
(٢) المصدر نفسه (٦/ ١٤٨).
(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢١٠).
(٤)، (٥) المصدر نفسه (٦/ ٢٢٥).
(٦) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢٤).

على المدينة أثناء غزوة خيبر[1]. وقد لازم أبو هريرة النبي ﷺ إلى آخر حياته، وقصر نفسه على خدمته، وتلقى العلم الشريف منه، فكان يدور معه ويدخل بيته، ويصاحبه في حجه وغزوه، ويرافقه في حله وترحاله، في ليله ونهاره، حتى حمل عنه العلم الغزير الطيب، فكانت صحبته أربع سنوات، وقد اتخذ الصُّفّة مقامًا له، وخدم الرسول ﷺ على ملء بطنه، وجعله رسول الله ﷺ عريف أهل الصفة، فقد كان أعرف الناس بهم وبمراتبهم[2].

جـ- دعوته لأمه للإسلام: قال أبو هريرة رضي الله عنه: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يومًا فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت إلى رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قلت: يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليَّ، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: اللَّهم اهد أم أبي هريرة. فخرجت مستبشرًا بدعوة رسول الله ﷺ، فلما جئت إلى الباب فإذا هو مجاف، فسمعت أمي خشف قدمي فقالت: مكانك يا أبا هريرة وسمعت خضخضة الماء، قال: فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب، ثم قالت: أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله أبشر، قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرًا. قلت: يا رسول الله ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا، فقال رسول الله ﷺ: اللَّهم حبب عُبيدك هذا - يعني أبا هريرة - وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين. فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني[3].

د- عبادة أبي هريرة رضي الله عنه وأسرته: كان أبو هريرة رضي الله عنه ورعًا، ملتزمًا سنة الرسول ﷺ، يحذر الناس في الانغماس في ملذات الدنيا، وشهواتها،

(1) سير أعلام النبلاء (٢/٤٢٥).

(2) حلية الأولياء (١/٣٧٦)، السنة قبل التدوين، محمد عجاج الخطيب، ص (٤١٢).

(3) مسلم رقم ٢٤٩١، بر الوالدين، أم حفص الشويحي، ص (٣٥).

ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لا يفرق في ذلك بين غني ولا فقير، أو بين أمير وحقير، وأخباره في هذا الصدد كثيرة، وكان يخشى الله كثيراً في السر والعلن، ويذكر الناس به، ويحثهم على طاعته[1]، وكان عابداً، يصوم النهار ويقوم الليل، ويتناوب قيامه هو وزوجته، وابنته[2]، وكان يهتم بعمران بيته بعبادة الله تعالى، فعن أبي عثمان النهدي قال: تضيّفت ابا هريرة سبعًا، فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثًا: يصلي هذا، ثم يوقظ هذا، ويصلي هذا ثم يوقظ هذا.[3] فبيت أبي هريرة إشراقة مضيئة تبين لنا بيوت المسلمين في ذلك العهد، فهو بيت عامر بالصلاة طوال الليل، فأين تجد الشياطين لها مكانًا في هذا البيت؟ إنها تربية عالية على التقوى والعمل الصالح من الحافظ الكبير والعالم الرباني أبي هريرة رضي الله عنه، واستجابة كريمة من امرأة طاهرة زكية، وخادم صالح مطيع. إن أبناء الدنيا حينما يكلفون خدمهم بعمل كبير، فإنما يكلفونهم بأعمال الدنيا، ويرون أنه لا مصلحة لهم بتكليفهم بعمل الآخرة، أما أبناء الآخرة فإنه من كمال سرورهم أن يروا خدمهم يجتهدون في أعمال الآخرة، لأنهم يكسبون بذلك أجراً على حسن توجيههم[4].

هـ- فقره وعفافه: كان أبو هريرة أحد أعلام الفقراء والمساكين، صبر على الفقر الشديد حتى أنه كان يلصق بطنه بالحصى من الجوع، يطوي نهاره وليله من غير أن يجد ما يقيم صلبه[5]، قال سعيد بن المسيب - رحمه الله -: رأيت أبا هريرة يطوف بالسوق، ثم يأتي أهله فيقول: هل عندكم من شيء؟ فإن قالوا: لا قال: فإني صائم[6]، وكان قنوعًا راضيًا بنعم الله، فإذا أصبح لديه خمس عشرة تمرة أفطر على خمس، وتسحر على خمس، وأبقى خمس لفطره[7]، وكان كثير الشكر لله، كثير الحمد والتسبيح والتكبيرعلى ما أتاه الله من فضل وخير[8].

---

(1) سير أعلام النبلاء (٢/٤٣٨) .

(2) البداية والنهاية (١١/٣٧٨) .

(3) سير أعلام النبلاء (٢/٦٠٩) .

(4) التاريخ الإسلامي للحميدي (١٩/٢١٥).

(5) السنة قبل التدوين، ص (٤١٣).

(6) حلية الأولياء (٣/ ٣٣٨١).

(7) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٥) .

(8) تاريخ الإسلام (٢/ ٣٣٥)، سير أعلام النبلاء (٢/٤٣٩، ٤٤٠) .

و- حلمه وعفوه: كانت عند أبى هريرة زنجية قد غمتهم بعملها، فرفع يومًا السوط ثم قال: لولا القصاص يوم القيامة لأغشينك به، ولكن سأبيعك ممن يوفينى ثمنك أحوج ما أكون إليه، اذهبى فأنت حرة لله عز وجل[1]، وهكذا يوازن أبو هريرة رضى الله عنه بين قدرته على تلك الخادمة وقدرة الله تعالى عليه، فيفضل اتقاء سخط الله سبحانه وتعالى وعذابه على تنفيذ مقتضى سخطه هو، فيتورع عن عقوبة تلك الخادمة ويحسن إليها بدلاً من إساءتها، بإعتاقها لوجه الله عز وجل، وبهذا يكون قد جمع بين عدد من الأعمال الصالحة: خشية الله تعالى، والعفو عن المسىء، والإحسان إليه، وهذا يبين لنا عمق تصور الصحابة رضى الله عنهم للحياة الآخرة واستحضارهم رقابة الله تعالى وسعيهم الحثيث لبلوغ رضاه[2].

ز- ولايته على البحرين فى عهد عمر رضى الله عنه: كان رسول الله ﷺ قد أرسل أبا هريرة مع العلاء الحضرمى إلى البحرين، لينشر الإسلام، ويفقه المسلمين، ويعلمهم أمور دينهم، فحدث عن رسول الله ﷺ وأفتى الناس، وفى عهد عمر رضى الله عنه استعمله على البحرين فقدم بعشرة آلاف، فقال له عمر: استأثرت بهذه الأموال يا عدو الله وعدو كتابه؟ فقال أبو هريرة: لست بعدو الله وعدو كتابه، ولكنى عدو من عاداهما، قال: فمن أين هى لك؟ قال: خيل نتجت، وغلة رقيق لى، وأعطية تتابعت علىّ. فنظروا فوجدوا كما قال[3]، وقد قاسمه عمر رضى الله عنه مع جملة من قاسمهم من العمال، وكان أبو هريرة يقول: اللَّهم اغفر لأمير المؤمنين[4]، وبعد ذلك دعاه عمر ليوليه، فأبى، فقال: تكره العمل وقد طلب العمل من كان خير منك، يوسف عليه السلام، فقال: يوسف نبى ابن نبى، وأنا أبو هريرة ابن أميمة وأخشى عملكم ثلاثًا واثنتين، فقال: فهل قلت خمسًا، قال: لا. أخاف أن أقول بغير علم وأقضى بغير حلم، وأن يضرب ظهرى، وينزع مالى، ويشتم عرضى[5].

ح- اعتزاله الفتن: كان أبو هريرة يوم حصار عثمان رضى الله عنه عنده فى الدار مع بعض الصحابة وأبنائهم، الذين جاءوا ليدفعوا الغوغاء عنه، وقد حفظ ولد

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٥) .
(٢) التاريخ الإسلامى للحميدى (١٧/ ٢٣) .
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٧) .
(٤) طبقات ابن سعد (٤/ ٦٠)، السنة قبل التدوين، ص (٤١٦).
(٥) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٤١)، السنة قبل التدوين، ص (٤١٦).

عثمان له يده واحترموه حتى أنه لما مات أبو هريرة كانوا يحملون سريره حتى بلغوا البقيع[1]، وقد اعتزل أبـو هريرة رضى الله عنه الفتن بعد استشهاد عـثمان رضى الله عنه[2].

ط- مرحه ومـزاحه: كان أبو هريرة رضى الله عنه حـسن المعشر، طيب النفس، صافى السريرة، كان يحب الفكاهـة والمزاح، ومع هذا كان يعطى كل شىء حقه، فقد نظر إلى الدنيا بعين الراحل عنها، فلم تدفعه الإمارة إلى الكبرياء، بل أظهرت تواضعه، وحسن خلقه، فربما استخلفـه مروان على المدينة، فيركب حماراً قد شدَّ عليه بَرْذعة وفى رأسه خلبة من ليف، يسير فيلقى الرجل، فيقول: الطريق قد جاء الأمير[3]. ويمر أبو هريرة فى السـوق، يحمل الحطب على ظهره - وهو يومـئذ أميـر لمروان - فيقـول لثعلبة بن أبى مـالك القرظى: أوسع الطريق للأمـير يا ابن مالك، فيقول: يرحمك الله يكفى هـذا!! فيقول أبو هريرة: أوسع الطريق للأمير والحزمـة عليه[4]. وكان يحب إدخـال السرور إلى نفـوس الأطفال، فـقد يراهم يلعبـون بالليل لعبـة الأعراب، فلا يشـعرون به حـتى يلقى نفسه بيـنهم ويضرب برجليه كأنه مجنون فيـفزع الصبيان منه ويفرون[5]، هاهنا وهاهنا يتضاحكون[6]. قال أبو رافـع: وربما دعانى أبو هريرة إلى عـشائه فى الليل، فـيقـول: دع العُراق للأمير - يعنى قطع اللحم - فانظر فإذا ثريد بزيت[7].

ى- حياته العـلمية: صحب أبو هريرة رسول الله ﷺ أربع سنوات، وسمع منه كثيراً، وشاهد دقائق السنة، ووعى تطبيق الشريعة، وكان همه طلب العلم، وأمله التفقه فى الدين[8]، وكان حفظ أبى هريرة الخارق من معجزات النبوة[9]، فعن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: **ألا تسألنى من الغنائم التى يسألنى أصحابك؟** قلت: أسألـك أن تعلمنى مما علمك الله، فنزع نمرة كـانت على ظهرى، فـبسطهـا بينى

---

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٢٣). (٢) السنة قبل التدوين، ص (٤١٧).
(٣) طبقات ابن سعد نقلاً عن السنة قبل التدوين، ص (٤١٨).
(٤)، (٥) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٦). (٦) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٨) فى الحاشية.
(٧) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٨). (٨) السنة قبل التدوين، ص (٤٢٠).
(٩) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٩٤).

وبينه، حتى كأنى أنظر إلى النمل يدب عليها، فحدَّثنى حتى إذا استوعبت حديثه، قال: اجمعها فصرُها إليك. فأصبحت لا أسقط حرفًا مما حدّثنى[1].

وكان يقول رضى الله عنه: إنّكم تقولون: إنَّ أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ وتقولون: ما للمهاجرين والأنصار لا يُحدِّثون مثله، وإن إخوانى من المهاجرين يشغلهم الصَّفق فى الأسواق، وكانِ إخوانى من الأنصار يشغلهم عمل أموالهم، وكنت امرأ مسكينًا من مساكين الصفة، ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطنى فأحضر حين يغيبون، وأعى حين ينسون، وقد قال رسول الله ﷺ فى حديث يحدثه يومًا: إنَّه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضى جميع مقالتى، ثم يجمع إليه ثوبه، إلا وعى ما أقول. فبسطت نمرة علىَّ، حتى إذا قضى مقالته، جمعتها إلى صدرى. فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ من تلك شيئًا[2]، وفى رواية: إنه حدثنا يومًا فقال: من يبسط ثوبه حتى أقضى مقالتى، ثم قبضه إليه، لم ينس شيئًا سمع منى أبدًا. ففعلت فوالذى بعثه بالحق، ما نسيت شيئًا سمعته منه[3]. وعن أبى هريرة، قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: لقد ظننت يا أبا هريرة لا يسألنى عن هذا الحديث أحدٌ أوّل منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، إن أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من نفسه[4].

وكان أبو هريرة حافظًا متقنًا، ضابطًا لما يروى، دقيقًا فى أخباره، فقد اجتمعت فيه صفتان عظيمتان تكمل إحداهما الأخرى، الأولى: سعة علمه وكثرة مروياته، والثانية: قوة ذاكرته وحسن ضبطه. وهذا غاية ما يتمناه أولو العلم[5]. ويذكر لنا أبو الزعيزعة كاتب مروان ما يثبت إتقانه وحفظه فيقول: دعا مروان أبا هريرة فجعل يسأله، وأجلسنى خلف السرير، وجعلت أكتب عنه، حتى إذا كان رأس الحول، دعا به، فأقعده من وراء الحجاب، فجعل يسأله عن ذلك الكتاب، فما زاد ولا نقص ولا قدم ولا أخر[6]. ولم يكن أبو هريرة راوية للحديث فقط، بل كان من رؤوس العلم فى زمانه، فى القرآن والسنة والاجتهاد، فإن صحبته وملازمته لرسول الله ﷺ أتاحت له أن يتفقه فى الدين، ويشاهد السنة العملية، عظيمها

(1) سير أعلام النبلاء (2/594) رجاله ثقات.
(2) مسلم رقم 2492.
(3) سير أعلام النبلاء (2/595)، مسلم رقم 2294.
(4) سير أعلام النبلاء (2/596) إسناده صحيح
(5) السنة قبل التدوين، ص (427).
(6) سير أعلام النبلاء (2/598).

ودقيقها، فتكونت عنده حصيلة كثيرة من الحديث الشريف. كل ذلك هيأ أبا هريرة لأن يفتى المسلمين فى دينهم نيفًا وعشرين سنة والصحابة كثيرون آنذاك[1].

ك- أصح الطرق عن أبى هريرة فى الحديث عن رسول الله: حُكى عن ابن المدينى أن من أصح الأسانيد إطلاقًا حماد بن يزيد عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة[2]، وأصح ما روى من الحديث عن أبى هريرة ما جاء عن:

- الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة.
- أبو الزناد عن الأعرج - عبد الرحمن بن هرمز - عن أبى هريرة.
- مالك عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة.
- سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة.
- معمر عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة.
- معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة[3].

* الرد على الشُبه التى أثيرت حول أبى هريرة رضى الله عنه:

كتب بعض أهل الأهواء قديمًا فى الطعن فى أبى هريرة، وتابعهم فى هذا العصر بعض المستشرقين أمثال (جولد تسهير) و(شبرنجر) فى الطعن فى أبى هريرة رضى الله عنه بالظلم والبهتان، وكتب عبد الحسين شرف الدين العاملى الشيعى كتابًا تحت عنوان (أبو هريرة) وافترى فيه على أبى هريرة افتراءات يندى لها جبين العلم وتخز ضمير العلماء، وتجرح الحق، ولا تلتقى معه، حتى انتهى إلى تكفير أبى هريرة[4]، وقد استقى من هذا الكتاب أبو رية صاحب كتاب أضواء على السنة المحمدية. فكان أشد على أبى هريرة من أستاذه وأكثر ضلالاً وزيغًا، وأهم هذه الشبهات التى ألصقت بأبى هريرة رضى الله عنه:

أ - عمر وأبو هريرة رضى الله عنهما: اتهم عبد الحسين شرف الدين وأبو رية[5] أبا هريرة بأنه سرق عشرة آلاف دينار حينما ولى البحرين لعمر، فعزله وضربه

---

(1) السنة قبل التدوين، ص (٤٢٨).
(2) السنة قبل التدوين، ص (٤٣٤).
(3) المصدر نفسه، ص (٤٣٥).
(4) المصدر نفسه، ص (٤٣٧).
(5) أبو هريرة لعبد الحسين، ص (١٤، ١٥)، أضواء السنة المحمدية، ص (١٩٢).

بالدرة حتى أدماه، لقد ذكرت جميع الروايات المعتمدة أن عمر رضى الله عنه قاسمه ماله، كما قاسم غيره من الولاة[1]، وليس فيها أنه ضربه حتى أدماه، وكان أبو هريرة يقول: اللَّهم اغفر لأمير المؤمنين فلم يحقد على عمر رضى الله عنه مع أنه يعلم أن ما قاسمه إياه إنما هو عطاياه وأسهمه وغلة رقيقه، ولو أن عمر شك فى أمانة أبى هريرة بعض الشك لحاكمه وعاقبه العقوبة الشرعية، ولكنه عرف فيه الأمانة والإخلاص فعاد إليه بعد حين يطلبه للولاية فأبى أبو هريرة قبولها كما أسلفنا. هذا وجه الحق الذى أخفاه عبد الحسين وأبو رية، فعبد الحسين نقل رواية واحدة عن العقد الفريد لابن عبد ربه[2]، حيث وجد فيها ما يوافق هواه واكتفى أبو رية بالنقل عن عبد الحسين من غير أن يشير إلى المصدر ومن غير بحث أو مقارنة وتمحيص[3]. وهذا يدل على حرصهم على التزوير والإخلال بالأمانة العلمية.

ب - هل تشيع أبو هريرة للأمويين؟ ووضع أحاديث فى ذم على وأبنائه؟ وقد اتهمه عبد الحسين بأنه دعاية الأمويين فى سياستهم، فتارة يفتثت الأحاديث فى فضائلهم.. وتارة يلفق أحاديث فى فضائل الخليفتين نزولاً على رغائب معاوية وفئته الباغية[4]. وجمع أبو رية فى هذا الموضوع كل شتائم كتب الشيعة فى أبى هريرة ونبش الأكاذيب والافتراءات على صحابة رسول الله واعتمد الكتب التى لم يعرف مؤلفوها بالصدق ولا بالتمحيص فى الرواية أو التى عرف مؤلفوها بالبغض القاتل لأبى هريرة، والعقيدة التى ندين بها أن أبا هريرة رضى الله عنه كان محبًا لآل بيت رسول الله ﷺ، روى فى فضائل الحسن والحسين أكثر من حديث[5]، ولم يناصب أهل البيت العداء قط ومشهور عنه أنه تمسك بسنة رسول الله ﷺ، فكان يحب من أحبه رسول الله ﷺ، ومن العجيب أن يدعى إنسان نهل عن العلم بعضه أن أبا هريرة يكره عليًا وأهله رضى الله عنهم[6]، وقد كتب الأستاذ عبد المنعم صالح العزى كتابه القيم فى الدفاع عن أبى هريرة، وبين حبه لعلى

---

(١) تاريخ الإسلام (٢/٣٣٨)، حلية الأولياء (١/ ٣٨٠) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٧).

(٢) السنة قبل التدوين، ص (٤٣٨).

(٣) المصدر نفسه، ص (٤٣٩).

(٤) أبو هريرة لعبد الحسين، ص (٣٥).

(٥) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى، ص (٣٥٣، ٣٥٤).

(٦) البرهان فى تبرئة أبى هريرة من البهتان، ص (١٢٧).

وفاطمة رضى الله عنهما وبين بأنه يروى منقبة على يوم خيبر، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله قال يوم خيبر: **لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه** - ثم روى إعطاءه إياها[1]، أفهذه رواية كاره لأمير المؤمنين على رضى الله عنه[2]. وفى مناقب فاطمة رضى الله عنها يروى أبو هريرة قول النبى ﷺ: **إن فاطمة سيدة نساء أمتى**[3]، وروى أبو هريرة أحاديث فى حب الحسن بن على، وله معه وقائع وأخبار تدل على حب عظيم كان يكنه للحسن[4]. ويروى لنا أبو هريرة صورة لحبه للحسن رضى الله عنه مع النبى ﷺ فيقول: لا أزال أحب هذا الرجل بعد ما رأيت رسول الله ﷺ، وهو يدخل أصابعه فى لحية النبى ﷺ، والنبى يدخل لسانه فى فمه، ثم قال: **اللهم إنى أحبه فأحبه**[5]. فلا غرابة بعد هذا الحب أن رأينا أبا هريرة يبكى يوم يموت الحسن ويدعو الناس إلى البكاء[6]، يقول: من حضر ذاك اليوم: رأيت أبا هريرة قائماً على المسجد يوم مات الحسن يبكى وينادى بأعلى صوته: يا أيها الناس، مات اليوم حب رسول الله ﷺ فابكوا[7]، ولم يكن حب الحسين بن على أقل ظهوراً عند أبى هريرة من حب الحسن، إذ ينقل لنا حادثة أخرى للنبى ﷺ فيقول: ما رأيت الحسين بن على إلا فاضت عينى دموعًا، وذاك أن رسول الله ﷺ خرج يومًا فوجدنى فى المسجد، فأخذ بيدى واتكأ على، فانطلقت معه حتى جاء سوق بنى قينقاع، قال: وما كلمنى فطاف ونظر، ثم رجع ورجعت معه فجلس فى المسجد واحتبى، وقال لى: ادع لى لكاع، فأتى حسينٌ يشتد حتى وقع فى حجره ثم أدخل يده فى لحية رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يفتح فم الحسين فيدخل فاه فيه ويقول: **اللهم إنى أحبه فأحبه**[8]. والقصة هذه رواها البخارى وفيها أنه الحسن لا الحسين، لكن الحاكم أشار إلى أن كلا الروايتين محفوظة واردة، وذلك محتمل، لأن فيها ذكر الرجوع إلى المسجد[9]، ولقد أثبت عبد المنعم العزى فى كتابه أقباس

---

(١) مسلم . (٢) الأدلة الباهرة على نفى البغضاء بين الصحابة والعترة الطاهرة صـ١٣٣ .

(٣) التاريخ الكبير للبخارى (١/ ٢٣٢) بسند موصول.

(٤) الأدلة الباهرة، ص (١٣٤). (٥) المستدرك (٣/ ١٦٩) بسند صحيح .

(٦) الأدلة الباهرة، ص (١٣٥). (٧) التهذيب (٢/ ٣٠١) .

(٨) المستدرك (٣/ ١٧٨).

(٩) الأدلة الباهرة على نفى البغضاء بين الصحابة والعترة الطاهرة، ص (١٣٥).

من مناقب أبى هريرة بالدلائل القطعية الكافية اعتداد أبناء على رضى الله عنهم بحديث أبى هريرة، وروايتهم عنه، ورواية كبار فرسان على وأمراء جنده، الذين قاتلوا معه فى معارك الجمل وصفين والنهروان عن أبى هريرة، ورواية جمهرة من التابعين عنه ممن لاقوا عليًا رضى الله عنه ورووا عنه، ورواية عدد كبير آخر من جماهير الشيعة والكوفيين ومحبى ذرية على من طبقة أتباع التابعين والطبقة التى تليهم لحديث أبى هريرة، واستعماله له، واستدلالهم به، وتدوينه فى كتبهم[1].

إن الحقيقة العلمية التاريخية تقول: لا يوجد أى دليل يعتمد عليه فى تشيع أبى هريرة للأمويين، أو محاربته وعداوته لعلى وأبنائه، وإنما ظلم وافتراء واختلاق على الحقيقة، وإنما ما نسب إليه من أحاديث فى مدح الأمويين، إنما هى ضعيفة وموضوعة عليه وأهل الخبرة فى هذا الشأن بينوا الكذابين والواضعين لها[2].

وأما دعوى كون الدولة الأموية وضعت أحاديث لتعمم بها رأيًا من آرائها، فهذه دعوى لا وجود لها إلا فى خيال الكذّابين، فما روى لنا التاريخ أن الحكومة الأموية وضعت أحاديث، ونحن نسأل من زعم ذلك أين هى تلك الأحاديث التى وضعتها الحكومة؟ إن علماءنا اعتادوا ألا ينقلوا حديثًا إلا بسنده، وها هى أسانيد الأحاديث الصحيحة محفوظة فى كتب السنة، ولا نجد حديثًا واحدًا من آلافها الكثيرة فى سنده عبد الملك أو يزيد أو الوليد أو أحد عمالهم كالحجاج وخالد القسرى وأمثالهم، فأين ضاع ذلك فى زوايا التاريخ لو كان له وجود؟ وإذا كانت الحكومة الأموية لم تضع بل دعت إلى الوضع، فما الدليل على ذلك؟[3]، وأما ما زعمه عبد الحسين وأبو رية بأن أبا هريرة كذب على رسول الله إرضاء للأمويين ونكاية بالعلويين[4]، فأبو هريرة من كل هذا براء، ولكنهما أوردا أخبارًا ضعيفة وموضوعة لا أصل لها[5]، وكل ما كان فى هذا الشأن وما جاءنا من هذه الأخبار الباطلة إنما كان عن طريق أهل الأهواء الداعين إلى أهوائهم، المتعصبين لمذاهبهم،

---

(١) اقباس من مناقب أبى هريرة، عبد المنعم العزى، ص (١٢٧ - ١٤٩).

(٢) البرهان فى تبرئة أبى هريرة من البهتان، ص (١٢٨).

(٣) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى، ص (٢٠٣).

(٤) أبو هريرة عبد الحسين، ص (٣٥)، أضواء على السنة، ص (١٩٠).

(٥) السنة قبل التدوين، ص (٤٤١).

فتجرؤوا على الحق، ولم يعرفوا للصحبة حرمتها، فتكلموا فى خيار الصحابة واتهموا بعضهم بالضلال والفسق، وقذفوا بعضهم بالكفر وافتروا على أبى بكر وعمر وعثمان وغيرهم[١]. ولقد كشف أهل الحديث عن هؤلاء الكذبة، وكشف الله بهم أمر هذه الفرق وأماط اللثام عن وجوه المتسترين وراءها فكان أصحاب الحديث هم جنود الله عز وجل، بينوا حقيقة هؤلاء، وأظهروا نواياهم وميولهم، فما من حديث أو خبر يطعن فى صحابى أو يشكك فى عقيدة، أو يخالف مبادئ الدين الحنيف إلا بيّن جهابذة هذا الفن يد صانعه، وكشفوا عن علته، فادعاء هؤلاء مردود حتى يثبت زعمهم بحجة صحيحة مقبولة، وكيف نتصور معاوية يحرض الصحابة على وضع الحديث كذبًا وبهتانًا وزورًا، ليطعنوا فى أمير المؤمنين على رضى الله عنه[٢]، وقد شهد علماء الأمة من الصحابة والتابعين على عدالة معاوية، وقد بين مواقفه من أمير المؤمنين على رضى الله عنه ولم يذكر فى مصدر موثوق به ما يدل على أن عليًا رضى الله عنه كذّب أبا هريرة أو نهاه عن الحديث، ولكن بعض أعداء أبى هريرة يستشهدون برواية مكذوبة عن أبى جعفر الإسكافى، وهى أن عليًا لما بلغه أبو هريرة قال: ألا إن أكذب الناس - أو قال أكذب الأحياء على رسول الله - أبو هريرة الدوسى[٣]. فهذه رواية مردودة لا نقبلها عن الإسكافى، لأنه شيعى محترف، ومعتزلى ناصب أهل الحديث العداء[٤]، وقد رد ابن قتيبة على جميع ما ألصقوه بالإمام على طعنًا فى أبى هريرة[٥].

جـ- كثرة حديثه: أخذ النظام المعتزلى على أبى هريرة كثرة حديثه وتابعه بعض المعتزلة قديمًا ومنهم بشر المريسى، وأبو القاسم البلخى، وقد ردّ ابن قتيبة على النظّام فى كتابه (تأويل مختلف الحديث)، ولقيت هذه الشبهة صدى فى نفوس بعض المتأخرين كعبد الحسين شرف الدين الشيعى الذى سود صفحات كثيرة من كتابه (أبو هريرة)[٦]، يشكك فى مروياته ويستكثرها، ويوهم القارىء أن ما رواه أبو هريرة أكثر مما رواه الصحابة الذين اشتغلوا بأمور الدولة وسياستها، ويثير هذه

---

(١) العواصم من القواصم، ص (١٨٢، ١٨٣)، السنة قبل التدوين، ص (٤٤٣).

(٢) السنة قبل التدوين، ص (٤٤٤).

(٣) شرح نهج البلاغة (١/٤٦٨).

(٤) السنة قبل التدوين، ص (٤٤٣).

(٥) تأويل مختلف الحديث، ص (٢٧، ٥١) وما بعدها، السنة قبل التدوين، ص (٤٦٠).

(٦) أبو هريرة، ص (٤٥) وما بعدها، السنة قبل التدوين، ص (٤٤٦).

الشبهـة نفسها أبو رية فى كتابه أضـواء على السنة المحمدية[1]، ويستشهد هؤلاء جميعًا بأخبـار ضعيفـة أو موضوعة أحيانًا، وبتأويلات وموازنات باطلة أحيانًا أخرى، وتلتقى أهواء هؤلاء بأهواء بعض المستشرقين أمثال «جـولد تسيهر» الذى استكثر أيضًا مرويات أبى هريرة[2]، وخلاصة أقوالهم، أن أبا هريرة تأخر إسلامه، وروى عن رسول الله ﷺ (٥٣٧٤) حديثًا، وهى أكثر كثيرًا مما رواه الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة الذين سبقوه إلى الإسلام[3]، ومن الخطأ الفاحش أن يقارن الخلفاء الراشدون وأبو هريرة فى مجال الحفظ وكثرة الرواية لأسباب عديدة منها:

- صحيح أن الخلفاء الراشدين الأربعة رضى الله عنهم سبقوا أبا هريرة فى صحبتهم وإسلامهم، ولم يرو عنهم مثل ما روى عنه، إلا أن هؤلاء اهتموا بأمور الدولة، وسياسة الحكم، وأنفذوا العلماء والقراء والقضاة إلى البلدان، فأدوا الأمانة التى حملوها، كما أدى هؤلاء الأمانة فى توجيه شئون الأمة، فكما لا نلوم خالد ابن الوليد على قلة حديثه عن الرسول ﷺ لانشغاله بالفتوحات، لا نلوم أبا هريرة على كثرة حديثه لانشغاله بالعلم[4].

- انصراف أبى هريرة إلى العلم والتعليم، واحتياج الناس إليه لامتداد عمره، يجعل الموازنة بينه وبين غيره من الصحابة السابقين أو الخلفاء الراشدين غير صحيحة، بل هى خطأ كبير[5]، وكون أبى هريرة رضى الله عنه أكثر رواية من السيدة عائشة رضى الله عنها لأنها كانت تفتى الناس فى دارها، وأما أبو هريرة، فقد اتخذ حلقة له فى المسجد النبوى، كما كان أكثر احتكاكًا بالناس من السيدة أم المؤمنين عائشة بصفته رجلاً، كثير الغدو والرواح، وأضيف إلى هذا أن السيدة عائشة كان جل همها موجهًا نحو نساء المؤمنين، وكان يتعذر دخول كل إنسان عليها[6]. إن نظرة مجردة عن الهوى تدرك أن ما روى عن أبى هريرة من الأحاديث لا يثير العجب والدهشة، ولا يحتاج إلى هذا الشغب الذى اصطنعه

---

(١) أضواء على السنة المحمدية، ص (١٦٠) وما بعدها.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ـ مادة حديث نقلاً عن السنة قبل التدوين، ص (٤٤٧).

(٣) السنة قبل التدوين، ص (٤٤٧).

(٤) المصدر نفسه، ص (٤٥٠).

(٥) المصدر نفسه، ص (٤٥١).

(٦) المصدر نفسه، ص (٤٥١).

أهل الأهواء وأعداء السنن، وإن ما رواه عن رسول الله ﷺ، سـواء أسمعه منه أم من الصحابة لا يشك فيه لقصر صحبته، بل إن صحبته تحتمل أكثر من هذا، لأنها كانت فى أعظم سنوات دولة الإسـلام دعوة ونشاطًا، وتعليمًـا وتوجيهًا فـى عهد رسول الله ﷺ[1].

- كثرة مـلازمته للنبى ﷺ: فقد صـحب النبى ﷺ أربع سنين، فعن أبى هريرة قال: إن الناس يقـولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتـان فى كتاب الله، مـا حدثت حديث ثم يتلو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقـرة: ١٥٩، ١٦٠]. إن إخواننا من المهاجرين كان يـشغلهم الصفق بالأسواق وإن إخواننا الأنصار كـان يشغلهم العمل فى أمـوالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسـول الله ﷺ بشبع بطـنه ويحضـر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون[2].

- دعـاء النبى ﷺ له فى الحـفظ: فـعن أبى هريرة رضى الله عنه قـال: قلت يا رسول الله إنى أسمع منك حديثًا كـثيرًا أنساه، قال: ابسط رداءك. فبـسطه، قال: فغرف بيديه ثم قال: ضمه. فضممته فما نسيت شيئًا بعده[3].

- كثرة تلامذته والناقلين عنه: فكان عدد تلامذته قريبًا من ثمانمائة[4].

- تأخر وفـاته: فقد قـيل: ٥٨هـ وقيل: ٥٩هـ. ثم إن هذه الأحاديث المنقولة عنه تنقسم إلى ما يلى:

* ما كان ضعيف السند لا يصح عن أبى هريرة.
* ما كان مكررًا.
* ما كان له أكثر من إسناد.
* ما رواه عن أكابر الصحابة كالعشرة وأمهات المؤمنين وغيرهم

---

(١) السنة قبل التدوين، ص (٤٥٢).	(٢) البخارى رقم ١١٨، مسلم رقم ١٥٩.

(٣) البخارى رقم ١١٩، مسلم رقم ١٦٠.

(٤) حقبة من التاريخ، ص (٢٢٣)، سير أعلام النبلاء (٢ / ٥٧٩).

* ما كان موقوفًا عليه من كلامه[1]. وقد اتفق البخارى ومسلم على إخراج ثلاثمائة وستة وعشرين حديثًا، وانفرد البخارى بثلاثة وتسعين، وانفرد مسلم بثمانية وتسعين، ثم إن جُلَّ الأحاديث التى رواها أبو هريرة لم ينفرد بها عن رسول الله ﷺ بل شاركه فى روايتها غيره من الصحابة[2]، وأما اعتراض الشيعة على مروياته، فإن جابر بن يزيد الجعفى روى عن محمد الباقر رضى الله عنه سبعين ألف حديث، وعن باقى الأئمة مائة وأربعين ألف حديث[3]، وروى أبان ابن تغلب عن جعفر الصادق رضى الله عنه ثلاثين ألف حديث[4]، وروى محمد ابن مسلم عن الباقر ثلاثين ألف حديث، وعن الصادق ستة عشرة ألف حديث[5]. وهذا يبين تناقضهم.

وقد شهد لأبى هريرة الصحابة والتابعون وجهابذة العلم بقوة الحفظ وحضور الذاكرة[6]. فقد قال ابن عمر: يا أبا هريرة كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ وأعلمنا بحديثه[7]، وقال الشافعى: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث فى دهره[8]. وقال الذهبى: .. سيد الحفاظ الأثبات[9]، وقال أيضًا: وأبو هريرة إليه المنتهى فى حفظ ما سمعه من رسول الله ﷺ وأدائه بحروفه[10].

وقد دافع الكثير من العلماء عن أبى هريرة وردوا الشبهات التى ألصقت به ومن الكتب المعاصرة التى نسفت الأباطيل التى اتهم بها أبا هريرة، العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب[11]، وموقف المدرسة العقلية من السنة النبوية[12].

ل- بكاء أبى هريرة فى مرض موته ووصية معاوية بورثته: لما حضر أبو هريرة الموت بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ما أبكى دنياكم هذه، ولكن أبكى على بعد

---

(1) حقبة من التاريخ، ص (223).
(2) المصدر نفسه، ص (223).
(3) خاتمة وسائل الشيعة، ص (151).
(4) رجال الكشى، ص (9).
(5) مشيخة الصدوق، ص (6).
(6) موقف المدرسة العقلية من السيرة النبوية، الأمين الصادق (2/ 74).
(7) سير أعلام النبلاء (2/ 603 - 604) رجاله ثقات إسناده صحيح.
(8) المصدر نفسه (2/ 599).
(9) المصدر نفسه (2/ 578).
(10) المصدر نفسه (2/ 619).
(11) العصرانيون، محمد حامد الناصر، ص (115).
(12) موقف المدرسة العقلية (2/ 74).

سفرى وقلّة زادى، وإنى أصبحت فى صعود مهبط على جنة ونار، لا أدرى إلى أيّهما يُؤخذ بى[١]. وجاء فى رواية: وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبى سفيان والى المدينة وفى القوم ابن عمر وأبو سعيد الخدرى وخلق، وكانت وفاته فى داره بالعقيق، فحمل إلى المدينة، فصُلِّىَ عليه ثم دفن بالبقيع - رحمه الله ورضى الله عنه - وكتب الوليد بن عتبة إلى معاوية بوفاة أبى هريرة، وكتب إليه معاوية أن انظر ورثته فأحسن إليهم، واصرف إليهم عشرة آلاف درهم، وأحسن جوارهم، وأعمل إليهم معروفًا، فإنه كان ممن نصر عثمان، وكان معه فى الدار[٢].

* هل أراد معاوية أن ينقل منبر رسول الله من المدينة إلى الشام؟

ذكر الطبرى فى تاريخه فى أحاديث عام ٥٠هـ بأن معاوية أمر بمنبر رسول الله ﷺ، أن يحمل إلى الشام فحُرِّك فكسفت الشمس حتى رُئيت النجوم بادية يومئذ، فأعظم الناس ذلك، فقال: لم أرد حمله، إنما خفت أن يكون قد أرِض[٣]، فنظرت إليه، ثم كساه يومئذ[٤]، وجاء فى رواية أخرى: قال معاوية: أنى رأيت أن منبر رسول الله وعصاه[٥]، لا يتركان بالمدينة، وهم قتلة أمير المؤمنين عثمان وأعداؤه، فلما قدم طلب العصا وهى عند سعد القرظى، فجاء أبو هريرة وجابر بن عبد الله، فقالا: يا أمير المؤمنين، نذكرك الله عز وجل ألا تفعل هذا، فإن هذا لا يصح، تُخرج منبر رسول الله ﷺ من موضع وضعه، وتخرج عصاه من المدينة. فترك ذلك معاوية، ولكن زاد فى المنبر ستَّ درجات، واعتذر إلى الناس[٦]. وقد تحدثت الروايات السابقة عن القضايا التالية:

١ - عزم معاوية رضى الله عنه على نقل منبر رسول الله، وعصاه إلى الشام: فقد ذكره الزبير بن بكار[٧]، واليعقوبى وابن الجوزى[٨]، دون أن يشيروا إلى خبر

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٤) . (٢) المصدر نفسه (١١/ ٣٨٩) .

(٣) أى: أصابته الأرضة وهى دويبة تأكل الخشب القاموس المحيط، ص (٨٢٠).

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ١٥٥) . (٥) كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخطب توكأ على عصا .

(٦) البداية والنهاية (١١/ ٢١٤)، تاريخ الطبرى (٦/ ١٥٥).

(٧) فتح البارى (٢/ ٤٦٣) مرويات خلافة معاوية، ص (٣٨٨).

(٨) المنتظم (٥/ ٢٢٧) .

العصا، أما ابن الأثير[1]، وابن كثير[2]، فقد أورد خبر المنبـر والعصا، هذا وقال الدكتـور خالد الغيث: ولم أقف عـلى رواية صحيـحة تؤكد مـزاعم الواقدى هذا فضلاً عن أن دين معاوية، وعدالته، وصحبته لرسول الله ﷺ تمنعه من حمل منبر رسول الـله ﷺ من المدينة إلى الشام وهو يعلم قـوله ﷺ: «ما بين بيتى ومنبـرى روضة من رياض الجنة»[3]. هذا وقد أورد عبد الرزاق[4] خبر قـدوم معاوية رضى الله عنه المدينة وزيادته درجات المـنبر دون الإشارة إلى إرادة معـاوية نقل المنبر إلى الشام، أو أخذ العصا، وزيادة معاوية رضى الله عنه للمنبر وكسوته تعد من مناقب معاوية التى حاول بعض الأخباريين طمسها وتشويهها[5].

٢- خبـر ربط كسوف الشـمس بتحـريك المنبر: فقد ذكره عـبد الرزاق والزبير بن بكار[6]، وابن الجوزى[7]، وابن الأثير[8]، وابن كثير[9]، بينما ذهب اليعقوبى[10] الشيـعى إلى حدوث زلزلة عند تحريك المنبـر، وهذا الخبر لم يرد بإسناد صـحيح، هذا فضـلاً عن أن كسـوف الشمس علـى افتراض حـدوثه، فإنه لم يـكن نتيـجة لتحريك المـنبر ليس إلا، وقد حصل مـا يشبه ذلك فى عهد الـرسول ﷺ، حيث أخرج البـخارى من طريق المغيـرة بن شعبـة رضى الله عنه قال: كسـفت الشمس على عهد رسـول الله ﷺ يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كـسفت الشمس لموت إبراهيم، فقـال رسول الله ﷺ: «إن الشـمس والقمـر لا ينكسـفان لموت أحـد، ولا لحياته، فـإذا رأيتم فـصلوا، وادعـوا الله»، وعن أبى بكرة رضى الله عنه قـال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشـمس والقمـر آيتـان من آيات الله، لا ينكسـفان لموت أحـد، ولكن الله تعالى يخوف بهما عباده»[11].

٣- اتهام معـاوية رضى الله عنه ببغض أهل المدينة (الأنصار): لكونهم قتلة عثمان ابن عـفان رضى الله عنه. هذا الخـبر أورده ابن الأثيـر[12]، وهو خـبر ضعـيف

---

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٨٢).
(٢) البداية والنهاية (١١/ ٢١٤)
(٣) البخارى، صحيح البخارى مع الفتح (٤/ ١١٩).
(٤) المصنف (٣/ ١٨٣)
(٥) مرويات خلافات معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٨٩).
(٦) فتح البارى (٢/ ٤٦٤).
(٧) المنتظم (٥/ ٢٢٨).
(٨) الكامل (٢/ ٤٨٢).
(٩) البداية والنهاية (١١/ ٢١٤).
(١٠)، (١١) البخارى: صحيح البخارى مع الفتح(٢/ ٦١٢).
(١٢) الكامل (٢/ ٤٨٢)

الإسناد[1]. وقد بينت موقف الصحابة من فتنة مقتل عثمان، وكيف أن كعب بن مالك الانصارى حث الأنصار على نصرة عثمان رضى الله عنه، وقال لهم: يا معشر الأنصار، كونوا أنصار الله مرتين، فجاءت الأنصار عثمان، ووقفوا ببابه ودخل زيد بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه، وقال له: هؤلاء الأنصار بالباب، إن شئت كنّا أنصار الله مرتين[2]. فرفض القتال، وقال: لا حاجة لى فى ذلك، كفُّوا[3]. وأما زعمهم أن معاوية يبغض الأنصار رضى الله عنهم لكونهم قتلة عثمان رضى الله عنه، فمردود بما ورد من حقيقة موقف الأنصار من عثمان رضى الله عنه، كما أن تقريب معاوية للأنصار وتوليته إياهم فى مناصب هامة وحساسة يرد هذه الفرية، ومن الشواهد على ذلك:

١- توليته فضالة بن عبيد الأنصارى رضى الله عنه قضاء دمشق[4]، وتوليته إياه منصب أمير البحرية الإسلامية فى مصر[5].

٢- تعيينه النعمان بن بشير الأنصارى رضى الله عنه أميرًا على الكوفة[6].

٣- تعيينه مسلمة بن مخلد الأنصارى رضى الله عنه أميرًا على مصر والمغرب معًا[7].

٤- تعيينه رويفع بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه أميرًا على طرابلس[8].

رابعًا: مكة:

- ولاية خالد بن العاص بن هشام رضى الله عنه: ولى معاوية -فى سنة ٤٢هـ- مكة خالد بن العاص بن هشام[9]، وبعد أن سمى الطبرى من ولى مكة فى سنة ٤٢هـ وسنة ٤٣هـ نجده بعد ذلك يسكت عن تسمية عمال مكة[10]، ويكتفى

(١) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٩٠).
(٢) فتنة مقتل عثمان للغبان الملحق ص (٢٠٠) إسناده حسن لغيره.
(٣) مرويات خلافة معاوية ص (٣٩١) فتنة مقتل عثمان (١/ ١٦٢).
(٤) الاستيعاب (٣/ ١٢٦٢)، الإصابة (٥/ ٣٧١).
(٥) رياض النفوس للمالكى (١/ ٨٠).
(٦) مرويات خلافة معاوية ص (٣٩١) نقلا عن تاريخ الطبرى.
(٧) المصدر نفسه، ص (٣٩٢).
(٨) الاستيعاب (٢/ ٥٠٤).
(٩) تاريخ الطبرى (٦/ ٨٧).
(١٠) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٧٨).

بعبارة: وكانت الولاة والعمال على الأمصار فى هذه السنة من تقدم ذكره قبل[1]، أو عبارة نحوها وقد تابعه كل من ابن الجوزى[2]، وابن الأثير[3].

خامسًا: ولاة الطائف:

لم يذكر الطبرى أسمـاء ولاة الطائف، لكن وردت عنده رواية تفيد تولى بعض بنى حرب الطائـف، وفيمـا يلى نص هذه الرواية: وكان مـعاوية إذا أراد أن يولى رجلاً من بنى حرب ولاه الطائف، فإن رأى منه خيراً ومـا يعجبه ولاه مكة معها، فإن أحسن الولاية، وقام بما ولى قيامًا حـسنًا جمع له معهما المدينة، فكان إذا ولى الطائف رجلاً قيل: هو أبى جاد[4]، فإذا ولاه مكة قيل: هو فى القرآن، فإذا ولاه المدينة قيل: هو قد حذق[5]. أما بالنسـبة لمن ولى الطائف من بنى حرب فإن رواية الطبرى تسكت عن تسميتهم، لكن ورد عند البـلاذرى ما يفيد تولية عنبسة بن أبى سفيان بن حرب وعتبة بن أبى سفيان بن حرب على الطائف[6].

سادسًا: مصر:

١ - ولاية عـمرو بن العـاص رضى الله عنه: ولى معـاوية عمرو بـن العاص على مصر عام ٤١هـ[7]. وهذا من باب وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب، فعمرو فاتح مصر وواليـها على عهد عمر وعثمـان رضوان الله عليهم، وهو أقرب الناس لتولى هذه الولاية الهامة[8]. وقد تكاثرت الروايات الموضوعة والضعيفة فى العلاقة بين عمـرو ومعاوية رضى الله عنهـما، واشتـمل على مغامـز خفيـة ومعلنة على الرجلين، وتشيـر بعضها إلى أن معـاوية قد أعطى ولاية مصر لعـمرو بن العاص مكافأة له نظير وقوفه إلى جـانبه أثناء الفتنة التى أعقبت استشهاد عـثمان بن عفان رضى الله عنه، وهذا الأمر قـد بينته فى كتـابى عن على بن أبى طالب رضى الله

---

(١) مرويات خلافة معاوية، ص (٢٧٨) نقلا عن تاريخ الطبرى
(٢) المنتظم (٥/ ١٩٣ـ ٢٠٦).
(٣) الكامل فى التاريخ نقلاً عن مرويات خلافة معاوية، ص (٢٧٨).
(٤) هو أبى جاد: فى أول الأمر.
(٥) تاريخ الطبرى، مرويات خلافات معاوية، ص (٢٧٩).
(٦) أنساب الأشراف (٤/ ٣٩)، مرويات خلافة معاوية، ص (٢٧٩).
(٧) مرويات خلافة معاوية (٢٨١، ٢٨٢).
(٨) المصدر نفسه، ص (٢٨٢).

عنه بأن وقوف عمرو بن العاص مع معاوية فى المطالبة بالتعجيل بتطبيق القصاص على قتلة عثمان لم يكن تضامنًا من عمرو مع شخص معاوية بل كان نابعًا من اجتهاد عمرو الشخصى فى هذه المسألة، حيث رأى رضى الله عنه الأخذ بالقَوَد من قتلة عثمان على الفور، فكان هذا الاجتهاد من عمرو بن العاص متطابقًا مع اجتهاد معاوية فى القضية نفسها[١]. وقد كانت ولاية عمرو بن العاص على مصر ذات صلاحيات واسعة بسبب ما كان يتمتع به من مقدرة إدارية فائقة، وقابليات سياسية وعسكرية متميزة، فقد واصل فتوحات الشمال الإفريقى ونظم أمر العطاء والإعمار والبناء والزراعة والرى بمصر وقد بقى عمرو فى ولاية مصر[٢] حتى وفاته عام٤٣هـ.

- وصيته عند موته: يروى ابن شماسة المهرى وصية عمرو بن العاص لحظة احتضاره فيقول: حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياقة الموت[٣]، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أما بَشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، إنى كنت على أطباق ثلاث[٤]. لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضًا لرسول الله ﷺ منى، ولا أحب إلىَّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، لو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام فى قلبى أتيت النبى ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدى، قال: مالك يا عمرو؟ قال: قلت: أردت أن اشترط، قال: تشترط بماذا؟ قلت: أن يغفر لى، قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟[٥]، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟ وما كان أحد أحب إلىَّ من رسول الله ﷺ ولا أجل فى عينى منه، وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالاً له،ولو سئلت أن أصفه ما

---

(١) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٨٢).

(٢) مصر فى العصر الأموى، عدنان أحمد الجنالى، ص (٤٩، ٥٠).

(٣) فى سياقة الموت: أى: حال حضوره .   (٤) أى: على ثلاث أحوال .

(٥) أى يسقطه ويمحو أثره، وصايا وعظات قيلت آخر الحياة للحموى، ص (٧٠).

أطقت، لأنى لم أكن أملأ عينى منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة[1].

وجاء فى رواية: ثم تلبست بعد ذلك بالسلطان وأشياء، فلا أدرى علىّ أم لى، فإذا مت فلا تبكينً علىّ باكية، ولا تُتبعنى مادحًا ولا نارًا، وشُدُّوا علىّ إزارى فإنى مخاصم، وشُنُّوا علىّ التراب شَنًّا، فإن جنبى الأيمن ليس بأحق بالتراب من جنبى الأيسر، ولا تجعلُنَّ فى قبرى خشبة ولا حجرًا، وإذا واريتمونى فاقعدوا عندى قدر نحر جذور وتقطيعها، أستأنس بكم[2]. وقد روى مسلم هذا الحديث فى صحيحه: كى أستأنس بكم لأنظر ماذا أراجع به رسل ربى عز وجل[3]، وفى رواية: أنه بعد هذا حوّل وجهه إلى الجدار وجعل يقول: اللهم أمرتنا فعصينا، ونهيتنا فما انتهينا، ولا يسعنا إلا عفوك. وفى رواية: أنه وضع يده على موضع الغُلِّ من عنقه، ورفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم لا قوى فأنتصر، ولا برىء فأعتذر، ولا مستكبر بل مستغفر، لا إله إلا أنت، فلم يزل يُردّدها حتى مات رضى الله عنه[4].

٢ - ولاية عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه: كانت وفاة عمرو ليلة الفطر سنة ثلاث وأربعين، واستخلف ابنه عبد الله على صلاتها وخراجها،[5] وبعد وصول خبر وفاة عمرو بن العاص إلى معاوية قام بتعيين أخيه عتبة على مصر وذلك فى شهر ذى القعدة من سنة ثلاث وأربعين[6]. أى أن ولاية عبد الله بن عمرو على مصر لم تزد على شهرين وهى الفترة التى استغرقها وصول خبر وفاة عمرو إلى معاوية، واتخاذه لقرار تعيين الوالى الجديد[7]. وقد وصف الذهبى عبد الله بن عمرو بقوله: الإمام الحبر العابد، صاحب رسول الله وابن صاحبه أبو محمد وقيل أبو عبد الرحمن... وليس أبوه أكبر منه إلا بإحدى عشرة سنة أو نحوها، وقد أسلم قبل أبيه فيما بلغنا، ويقال: كان اسمه العاص، فلما أسلم غيره النبى ﷺ بعبد الله[8]، وقد ورث عبد الله من أبيه قناطير مقنطرة من الذهب فكان من ملوك الصحابة[9].

(١) مسلم رقم (١٢١).
(٢) البداية والنهاية (١١/ ١٦١).
(٣) مسلم (١٢١).
(٤) البداية والنهاية (١١/ ١٦١).
(٥) ولاة مصر للكندى، ص (٥٧).
(٦) المصدر نفسه، ص (٥٧).
(٧) مرويات خلافة معاوية، ص (٢٨٦).
(٨) سير أعلام النبلاء (٣/ ٨٠).
(٩) المصدر نفسه، ص (٥٧).

٣ - ولاية عتبة بن أبي سفيان: ولد على عهد رسول الله ﷺ ولاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه الطائف وصدقاتها ثم ولاه معاوية مصر حين مات عمرو ابن العاص، وكان فصيحًا خطيبًا، يقال: إنه لم يكن فى بنى أمية أخطب منه. خطب أهل مصر يومًا وهو والٍ عليها فقال: يا أهل مصر خفّ على ألسنتكم مدح الحق ولا تأتونه، وذم الباطل وأنتم تفعلونه، كالحمار يحمل أسفارًا يثقُله حملها، ولا ينفعه علمها، وإنى لا أداوى داءكم إلاّ بالسيف، ولا أبلغ السيف ما كفانى السوط، ولا أبلغ السوط ما صلحتم بالدِّرة، وأبطئ عن الأولى إن لم تسرعوا إلى الآخرة، فالزموا ما ألزمكم الله لنا تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا. وهذا يوم ليس فيه عقاب، ولا بعده عتاب.[1] وجاء فى رواية: . . . لنا عليكم السمع ولكم علينا العدل، فناداه المصريون من جنبات المسجد سمعًا، سمعًا، فناداهم عدلاً عدلاً[2]. وقد قام عتبة ببناء دار الإمارة بعد أن خرج مرابطًا فى الاسكندرية[3]، وكان عتبة قد اتخذ لأولاده مؤدبًا، يعلمهم ويربيهم، فقد عهد لعبد الصمد بن عبد الأعلى ليكون مؤدبًا لولده[4]، ووجه مؤدب أولاده بتتبع أساليب التشويق وتحبيب دراسة كتاب الله إلى نفوسهم فقال له: علمهم كتاب الله، ولا تكرههم عليه فيملوه ولا تتركهم منه فيهجروه[5]، وجاء فى رواية: ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك بنى إصلاحك نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينيك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبح عندهم ما استقبحت، علمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، ثم روهم من الشعر أعفه، ومن الحديث أشرفه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه فإن ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم، وعلمهم سير الحكماء وأخلاق الأدباء وجنبهم محادثة النساء، وتهددهم بى، وأدبهم دونى، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء، ولا تتكل على عذرى، فإنى قد اتكلت على كفايتك، وزد فى تأديبهم أزدك فى برى إن شاء الله[6].

---

(١) الاستيعاب رقم (١٩٢٣).

(٢) النجوم الزاهرة (١/ ١٢٤)، مصر فى العصر الأموى (٨٢).

(٣) مصر فى العصر الأموى، ص (٨٢)، النجوم الزاهرة (١/ ٣٤).

(٤) مكانة المعلم فى التراث العربى للزبيدى، ص (١٠٦). (٥) البيان والتبيين للجاحظ (٢/ ٧٣).

(٦) عيون الأخبار (٢/ ٥) (٢/ ٦٦)، التبيان والتبيين (٢/ ٧٣، ٧٤).

يتضح من هذه الوصية حرص الولاة الأمويين على تعليم أبنائهم القرآن الكريم والحديث والشعر وغيرها إضافة إلى التأكيد على الجانب التربوى وتزويدهم بالآداب والأخلاق الحسنة، كما أنهم يمنحون المؤدبين صلاحيات واسعة، ويكرمونهم[1].

٤ - ولاية عقبة بن عامر الجهنى رضى الله عنه: (٤٥هـ - ٤٧هـ): أغفل الطبرى ذكر ولاية عقبة بن عامر الجهنى على مصر، وتابعه ابن الجوزى، وابن الأثير وابن كثير، مع أن ولايته على مصر قد أثبتتها المصادر التاريخية المختصة بالديار المصرية[2]، وهى مقدمة على غيرها فى هذا المقام[3]، كما أثبتها له ابن عبد البر[4]، وابن حجر[5]، وكان عالمًا مقرئًا، فصيحًا فقيهًا فرضيًا، شاعرًا كبير الشأن، وكان من أحسن الناس صوتًا بالقرآن، فقال له عمر بن الخطاب: اعرض علىّ فقرأ. فبكى عمر، وكانت له صحبة وبايع رسول الله على الهجرة وأقام معه، وكان من أهل الصفة وكان من الرماة المذكورين، مات سنة ٥٨هـ[6].

٥ - ولاية مسلمة بن مُخلد الأنصارى (٤٧هـ -٦٢هـ): هو مسلمة بن مُخلد الأنصارى الخزرجى، الأمير، نائب مصر لمعاوية يكنى أبا معن، وقيل أبو سعيد، وقيل أبو معاوية له صحبة ولا صحبة لأبيه[7]. قال مجاهد: صليت خلف مسلمة بن مُخلد، فقرأ سورة البقرة، فما ترك واوًا ولا ألفًا[8]. قال الليث: عزل عقبة بن عامر عن مصر فى سنة سبع وأربعين فوليها مسلمة حتى مات زمن يزيد[9]، وقد توفى سنة ٦٢هـ فى ذى القعدة بالأسكندرية[10]، وكانت له جهود فى الفتوحات بالشمال الأفريقى يأتى ذكرها بإذن الله تعالى، وكان المغرب كله تابعًا له[11].

هذه هى أهم الولايات والولاة فى عهد معاوية رضى الله عنه، ويمكن تلخيص صلاحيات الولاة بالولايات على الإجمال، كتعيين الموظفين، وتشكيل مجالس شورى، إنشاء الجيوش وتجهيزها بالنسبة للولايات القريبة من حركة الفتح الإسلامى، كمصر والبصرة، والحفاظ على الأمن الداخلى، والإشراف على الجهاز القضائى بالولاية، والنفقات المالية، ومراقبة الأوضاع بالولاية وغير ذلك من الصلاحيات.

(١) التعليم فى العصر الأموى، ص (٦٦) السبتى.

(٢) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٨٧).

(٣) المصدر نفسه، ص (٢٨٧)، وولاة مصر، والنجوم الزاهرة.

(٤) الاستيعاب رقم الترجمة (١٨٩٨).

(٥) الإصابة (٤/ ٥٢١).

(٦) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٦٨).

(٧) المصدر نفسه (٣/ ٤٢٤).

(٨)، (٩) المصدر نفسه (٣/ ٤٢٥).

(١٠) المصدر نفسه (٣/ ٤٢٦).

(١١) مصر فى العصر الأموى، ص(٨٣).

الفصل الرابع

الفتوحات في عهد معاوية رضى الله عنه

نريد أن نسجل حـركة الانسياح الإسلامى فى الأرض، التى تمـت فى عهد بنى أمية منذ عهد معاوية رضى الله عنه، لندحض كل وهم بأن الإسلام قد انتهى بعد عهـد الخلفاء الراشـدين، فحـركة الفتح الإسـلامى التى قامت فى عـهد الخـلافة الراشدة وبنى أمـية ليـست مجرد توسع فى الأرض، ولا يجـوز النظر إليهـا بهذا الاعتبار، إنما هى أكبر حركة (هداية) للناس فى التاريخ وأكبر حركة إخراج للناس من الظلمات إلى النور، وقـد يبدو هذا الكلام فى حس المثقـفين - لأول وهلة - مجـرد تشابه مع دعوى كل (دولة عـظمى) أنها نشرت الحـضارة فى الأرض، وأن حـركتـها التـوسعـية كـانت من أجل نشر تلـك الحضـارة، فلننظر إذن فى تاريخ (الإمبـراطوريات) فى القديم والحديـث: الإمبراطورية الفـرعونية، والإمـبراطورية الأشورية، الإمبـراطورية الفينيقية، والرومـانية، والفارسية، والهـندية، والصينية، والبريطانية، والفرنسية، والأمريكية، والروسية، . . . إلى آخر تلك الإمبراطوريات الجاهلية التى يعج بها تاريخ الأرض، كـيف قامت أولاً؟ وما نشرت فى الأرض؟، فأما قـيامها علـى التسلط بالقوة، وقهـر الآخرين وإذلالهم، وإخضاعـهم لـسيطرة الدولة الأم، وتحـويلهم خـدمًا لتلك الدولـة الأم، يمدونهم بالرجـال المقـاتلين، ويمدونهم بمخـتلف الخيرات، لتنـتعش هى وتشبع وتـتـخم على حـساب الجـائعين المقهورين الأذلاء، فهـذا أمر لا يحتمل المراء[1]، وأما الذى نشرته فى الأرض فلا شك أنها نشرت بعض الخير، إلى جانبـه كثـيراً من الفـساد، لأن حياتها هى ذاتها -وهى لا تهتدى بمنهج ربانى- لا تشتمل إلا على بعض الخير والكثير من الفساد، وكل إناء ينضح بما فـيه، وفاقـد الشىء لا يعطيه، وأمـا الحضـارة الغربيـة اليوم، ففظائع الاستعمار الذى صاحب تلـك الحضارة من احتلال أراضى الشعوب ونهب خيراتها وإذلال أهلها خير شاهد على فـسادها، كما أن آخر إفرازات هذه الحضارة الذى يـسمى النظام العالمى الجديد، إن هو إلا نوع جـديد من الطغيان تمارسه الدول القوية على الدول الضـعيفة، ومن أبرز مـآثره التخطيط للتحكم فى الدول المنـتجة

---

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١١٨، ١١٩).

للبترول لحساب الدول الغربية القوية المتحكمة، وذلك باستنزاف هذا البترول فى مدة أقصر، وطرحه فى الأسواق بسعر أقل، لكى تزداد الدول الطاغية غنى ويزداد الفقراء فقرًا وذلاً وضياعًا باسم (النظام العالمى الجديد). ومن مآثره كذلك إمداد إسرائيل بكل وسائل العدوان وحرمان الدول العربية من إمكانية صد العدوان. وأما أصحاب الرسالات السماوية السابقة من اليهود والنصارى فماذا نشروا فى الأرض؟ فأما اليهود فقد حولوا دينهم إلى عصبية خاصة ببنى إسرائيل، لا يحبون نشره فى الأرض لكى يبقى الإله خالصًا لهم لا يشاركهم فيه أحد من الناس، وأما النصارى فمنذ بولس وهم يسعون إلى نشر دينهم على نطاق واسع فأى شىء نشروه؟، لقد نشروا بادىء ذى بدء دينًا وثنيًا بدلاً من الدين الربانى الذى أنزله الله على عيسى ابن مريم. دينًا يعبد فيه عيسى وروح القدس جبريل عليه السلام مع الله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]. وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]. ونشروا دينًا يدعو إلى الرهبانية، وإهمال الحياة الدنيا واحتقار الجسد ودوافعه فنشأ عنه تعطيل دفعة الحياة وإهمال عمارة الأرض، ثم نشأ عنه رد فعل أسوأ وهو انكباب على لذائذ الجسد وماديات الحياة[1]، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧]، ونشأ مع ذلك الدين نظام كهنوتى يتمثل فى الكنيسة ورجالها على رأسهم البابا يمارس ألوانًا من الطغيان البشع فى جميع نواحى الحياة، ويعادى الفكر ويحجر على العقل، ويضطهد العلماء ويمنعهم من البحث العلمى التجريبى أو النظرى، فتأخرت الحياة فى كل جانب، ثم حدث رد فعلٍ أسوأ، تمثل فى الإلحاد وإقامة الحياة على مبعدة من الدين، بل فى عداء مع الدين، وهكذا تحولت رسالة السماء على يد الكنيسة إلى غير ما نزلت من أجله، ونشرت الفساد بدلاً من الإصلاح، سواء فى الفترة التى كانت تمارس سلطانها على

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١١٩).

الناس، أو فى الفترة انقلب فيها الناس على سلطانهم ورفضوا الخضوع للدين[1]، وفى مقابل ذلك كان الانسياح الإسلامى فى الأرض فريدًا فى التاريخ، شيئًا غير التوسع (الإمبراطورى) الذى مارسته الجاهليات القديمة والحديثة، وغير الطغيان المفسد الذى مارسته النصرانية المحرفة وهى تتوسع فى الأرض، فى تلك الحركة الفريدة فى التاريخ كان المسلمون ينشرون الهدى فى مكان الضلال، والنور فى مكان الظلام، والعبودية الصحيحة فى مكان العبوديات الزائفة للحكام والكهنة والأوثان، ويحررون المستعبدين فى الأرض، ويردون إليهم إنسانيتهم الضائعة، ويرفعونهم إلى المكان اللائق بالإنسان، وكانوا ينشرون قيمًا من العدل والأخوة والتسامح والتكافل لا عهد للبشرية بها من قبل، ولا رأتها من بعد فى غير الإسلام، وينشرون حضارة حقيقية شاملة شامخة، لا يستأثرون بها لأنفسهم، بل يفتحون أبوابها لكل مسلم فى الأرض، بل يستظل بظلها النصارى فى الأندلس وشرق أوربا، واليهود فى مختلف بلاد العالم الإسلامى، والوثنيون عباد البقر فى الهند، وكل من أراد أن يتعلم أو يمارس الحياة دون عدوان[2]. لم ينهب المسلمون خيرات البلاد المفتوحة، ولم يستذلوها ليتمتعوا بالسلطان، ولم يحافظوا عليها متأخرة متدنية ليبرروا استمرار سيادتهم عليها واستعلاءهم على أهلها.. إنما دعوهم أولاً إلى الخير - وهو الإسلام - فإن استجابوا فهم إخوة فى الدين.. وإن أبوا طلبوا منهم جزية تدل على عدم مقاومتهم للخير المنزل من السماء أن يصل إلى قلوب الناس صافيًا بلا غش، فإن أبوا هذا وذاك فعندئذ يقع القتال، لا لإكراه أحد على اعتناق الإسلام، إنما لإزالة مراكز القوى التى تمنع الحق أن يصل إلى الناس على حقيقته.. فإذا أزيلت مراكز الطغيان، وزال تأثيرها على النفوس، ترك الناس أحرارًا فى ظل الإسلام، يعتنقون ما يشاءون[3].

إن حركة الفتح الإسلامى: دوافعها وخصائصها، وآثارها الواقعة لهى فصل أساسى فى كتابة التاريخ الإسلامى، لابد أن يعالج باستفاضة لدحض مزاعم المستشرقين ومن يتتلمذ عليهم من بعض المؤرخين العرب وغيرهم.. وإن كنا نورده هنا من زاوية معينة: هى دلالتها على مدى عمق الوجود الإسلامى فى نفوس الأمة التى تتحرك به، ولن تتحرك به أمة هذه الحركة الواسعة السريعة الفعالة المؤثرة

(١)، (٢) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١٢٠).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٢١).

وهى نفسها خاوية منه أو غير ممتلئة به حتى أعماقها[1]. وأول ما يسقط من دعاوى المغرضين فى هذا الشأن ـ لفرط هشاشته ـ قول من قال إن الدوافع الاقتصادية هى التى دفعت حركة الفتح الإسلامى! إن الذى تحركه الدوافع الاقتصادية لا يخرج ليدعو الناس ـ أول ما يدعوهم ـ إلى الإسلام، فإن أسلموا ألقى سلاحه وعانقهم كما يعانق الأخ أخاه، وأخذ يعلمهم تعاليم الإسلام ليشاركوه فى الخير الربانى الذى هداه الله إليه، فأصحاب هؤلاء الفرية يفترون الكذب على التاريخ[2]، وتسقط الدعاوى الأخرى تباعًا وتبقى حقيقة مهمة هى أن هذه الحركة لا يمكن أن تأخذ صورتها التى أخذتها بالفعل، إلا أن تكون صادرة عن أمة ممتلئة بهذا الدين حتى أعماقها، حريصة عليه، مؤمنة به، راغبة فيه، راغبة فى نشره فى آفاق الأرض، فالقوة وحدها لا تفسر ما حدث فى هذه الحركة من العجائب، فكم استخدمت القوى الطاغية فى الأرض قوتها للتوسع فى الأرض، فلم تصنع ما صنعته الحركة الإسلامية. إن السيف، يمكن أن يفتح الأرض،ولكنه لا يفتح القلوب، والذى حدث فى حركة الفتح الإسلامى لم يكن مجرد التوسع فى الأرض، إنما كان فتح القلوب لتعتنق الإسلام، وكان - فى كثير من الأقطار - اتخاذ لغة الدين لغة رسمية، ونسيان الشعوب المفتوحة ما كانت تستعمله من قبل من اللغات، حتى الذين بقوا على دينهم بغير إكراه لو لم يكن الفاتحون مسلمين حقًا، بمعنى الإيمان بهذا، وممارسته فى عالم الواقع والتمكن منه عقيدة وسلكًا وحركة، ما حدثت هذه العجائب فى الفتح الإسلامى.

وأمر آخر يتعلق بهذه القوة ذاتها إنها فى غالب الأحيان لم تكن هى الأكبر عددًا وعدة وخبرة حربية. . . إنما كان العدد والعدة والخبرة فى الجانب الآخر، جانب الذين انهزموا أمام قوة المسلمين، فلو لم يكن هناك عنصر آخر غير مادى ـ فى جانب الفاتحين - ما تمكنوا من التغلب على أعدائهم الذين يفوقونهم فى فنون الحرب، كما يفوقونهم فى العدد والعدة سواء، ذلك العنصر هو العقيدة الحية التى تملأ القلوب، وهذه هى الدلالة التى نركز عليها هنا فى وجه الدعاوى التى تقول: إن انحرافات بنى أمية قضت على هذا الدين وهو بعد فى المهد. وتلك نقطة ينبغى أن نقف عندها طويلاً حتى نقومها فى نفوس الدارسين، ينبغى أن نلغى من حسهم ذلك الإيحاء الخبيث بأن الإسلام قد انتهى بعد الخلافة الراشدة ولم يعد له وجود،

(١)، (٢) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١٢١).

ويكون ذلك بعرض الواقع الإسلامى بأمانة كاملة ودقة كذلك .. وسيتبين لنا بالحساب، حساب مجموع الانحرافات ومجموع الاستقامات أن الحصيلة المتبقية ضخمة جداً رغم وجود الانحراف. ويكون هذا بالتالى فرصة سانحة لتقدير عظمة هذا الدين وضخامته، وأصالة جذوره فى التربة وتعمقها، بحيث تبقى هذه الحصيلة الضخمة، وتبقى تلك الحيوية، التى تسعى لنشر الدين فى الأرض بكل الإصرار والتدفق والحماسة التى قام بها المسلمون فى العهد الأموى بالذات[1].

وأما ما حدث من الهبوط عن مستوى الذروة فقد حدث ولا شك على درجات متفاوتة فى بعض أفراد المجتمع، أو قل إن شئت فى كثير منهم، وهذا لا يعتبر فى ذاته انحرافًا إنما هو الأمر المتوقع بعد غياب شخص الرسول ﷺ عن ذلك المجتمع، وبعد زوال أثر النشأة الجديدة من نفوس الناس، فنحن الآن لسنا فى العهد الذى شهد التحول العظيم من الجاهلية إلى الإسلام، إنما العصر الذى يليه، ولكن فلنذكر جيدًا تزكية رسول الله ﷺ لذلك الجيل من الناس: «خيركم قرنى ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[2]. فنحن إذن ما زلنا مع القرون المفضلة، وليس بعد شهادة رسول الله ﷺ شهادة بشر[3]، صحيح أننا الآن مع المستوى العادى للإسلام، ولكن ذلك المستوى رفيع فى ذاته، وإن لم يكن على مستوى الذروة التى وصل إليها الجيل الفريد، وأنه يحقق للناس من الخير حين يلتزمون به ما لا يحققه نظام آخر[4]، والحق أنه قد بقى فى مجتمع بنى أمية أفراد على المستوى الرائع، بل لم يخل جيل من أجيال المسلمين كلها ـ حتى فى عصور الانحطاط ـ من نماذج متفرقة على ذلك المستوى الرفيع، إنما الملاحظ أن كثافة تلك النماذج فى مجتمع الذروة كانت فذة بصورة غير عادية، ثم ظلت تخف تدريجيًا مع مرور الزمان[5].

إن استئناف حركة الجهاد فى عهد معاوية لم يكن بدعة على سياسته، فقد استمد كثيرًا من الشهرة العريضة والمكانة العريضة من كفايته كوالٍ على بلاد الشام وهى جبهة واسعة من جبهات الجهاد، ومن شهرته كمجاهد موفقٍ فى البر والبحر منذ عهد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم، وكان له فتوحاته الكبرى فى الساحل الشمالى للشام، كما أن له الفضل ـ بعد الله ـ فى تأسيس البحرية الإسلامية وهزيمة الروم فى البحر وانتزاع السيادة منهم لأول مرة فى تاريخ

---

(1) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١٢٢). (2) البخارى.
(3) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١٢٣). (4)، (5) المصدر نفسه، ص (١٢٣).

المسلمين[1]، فالجهاد فى سبيل الله أصل فى حياة المسلمين فى عهد الدولة الأموية، ولم تكن الغنائم هى الدافع الرئيسى للقيادة الإسلامية نحو الفتح والجهاد، وإن وجد لدى بعض الأفراد وهؤلاء لا يخلو منهم جيش حتى على عهد رسول الله ﷺ ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٥٢] وغيرها، ولكن هذا بالطبع لا يمثل وجهة نظر المسلمين فى فتوحاتهم، ولا يمثل القيادة الفكرية التى كان يتبناها الخليفة والقادة وينفذها الجند، كما أنه لا يمثل وجهة نظر الأمة ورأيها العام[2]، ومما يدل على ذلك مشاركة كبار الصحابة فى ذلك الوقت فيها وحثهم المسلمين على الجهاد فى سبيل الله. وحوادث الجهاد وجهود الأمويين على جبهات القتال توضح ذلك: فجبهة الروم مثلاً وهى التى كانت مثار الشجاعة ومرتع البطولة ما كانت تدر الربح الكثير بل كان بيت المال يئن منها، لأن حملاتها ما كانت تنتهى إلى تقدم[3]، خاصة إذا ذكرنا الحملات الثلاث الكبرى التى توجهت إلى القسطنطينية وتكلفت نفقات باهظة[4]. لقد أعطى المجاهدون المسلمون فى العهد الأموى صوراً رائعة للتضحية والبطولة والتجرد وإخلاص النية لله فى جهادهم، سواء كانوا من القادة أو الأمراء أو من عامة الجند، أو من جماعات العلماء والزاهدين والربانيين الذين فهموا عبادة الجهاد، ومارسوا ذلك على نحو مثير للإعجاب ودافع إلى التأسى، وقد توزعت صور الإخلاص والتضحية هذه على جميع جبهات القتال، وفى جميع مراحل الجهاد، مما يدل دلالة واضحة على عمق التوجه الإسلامى للفتوحات فى العهد الأموى، وينفى الغبش الذى يثيره المنحرفون عن بنى أمية على أنصع منجزاتهم وأحراها بالفخر والإعزاز، ومما لا شك فيه إسلامية الفتوح فى العهد الأموى[5]، وقد كانت الحصيلة النهائية والحصيلة التاريخية لحركة الفتوح لذلك العصر، امتداد عالم الإسلام إلى آفاق بعيدة وكسب ـ عبر امتداده هذا ـ الأرض والإنسان، كما أنه حمى وعزّز فى الوقت نفسه منجزات الموجة الأولى فى حركة الفتح التى قادها وخطط لها الخلفاء الراشدون، فالموجة الثانية لحركة الفتوح هى التى بدأت فى عهد معاوية نفسه واستمرت فيما بعد لكى تبلغ أقصى اتساعها فى عهد الوليد[6].

(١) الدولة الأموية حمدى شاهين، ص (٢٣٩).
(٢) الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين، ص (٧٨).
(٣) الدولة الأموية، يوسف العشى، ص (٣٤٦). (٤) المصدر نفسه، ص (٣٤٦).
(٥) الدولة الأموية المفترى عليها.
(٦) فى التأصيل الإسلامى للتاريخ، عماد الدين خليل، ص (٩٢، ٩٣).

المبحث الأول

حركة الجهاد ضد الدولة البيزنطية

كان معاوية رضى الله عنه يرى أن الخطر الأكبر من وجهة نظره الدولة البيزنطية، وإن كانت قد خسرت أهم أقاليمها فى الشرق ـ الشام ومصر ـ إلا أن جسم الدولة ما زال سليمًا لم يمس، فعاصمتها باقية، وممتلكاتها فى آسيا الصغرى وأوربا وشمال إفريقيا ما زالت شاسعة وإمكانياتها كبيرة، وقدرتها على المقاومة هائلة، وهى لم تكف بعد عن مناوأة المسلمين، وباختصار فهى العدو الرئيسى والخطر الأكبر الماثل أمام المسلمين، وكان معاوية رجل المرحلة وقادرًا على فهم وتقدير هذا الخطر، وعلى مواجهته، أيضًا، فقد كان موجودًا بالشام منذ مطلع الفتوحات فى عهد أبى بكر الصديق، وأصبح واليًا عليه ولمدة عشرين سنة تقريبًا، وهو يشكل مع مصر خط المواجهة الرئيسى مع الدولة البيزنطية، فطول إقامة معاوية رضى الله عنه بالشام، أكسبته خبرة واسعة بأحوال البيزنطيين وسياستهم وأهدافهم مما أعانه على أن يعرف كيف يتعامل معهم، لكل ذلك فليس غريبًا أن نرى معاوية يولى حدوده مع الدولة البيزنطية وعلاقاته معها جل اهتمامه، ويرسم لنفسه نحوها سياسة واضحة ثابتة سار عليها هو وخلفاؤه من الأمويين إلى نهاية دولتهم، وقد كان من أهدافه الرئيسية الاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية[1].

أولاً: معاوية والقسطنطينية:

بعد أن أستقر الأمر لمعاوية بن أبى سفيان سنة ٤١هـ خليفة للمسلمين بدأ فى تطوير الأسطول البحرى ليكون قادرًا على دك معاقل القسطنطينية عاصمة الروم ومبعث العدوان والخطر الدائم ضد المسلمين، فبعد أن قضى معاوية على حركات الردة أو الجراجمة الذين استخدمهم الروم وسيلة لرصد حركات الدولة الإسلامية، ونقاط ضعفها، وإبلاغ الروم عنها متخذين من مرتفعات طوروس وجبل اللكام مقرًا لهم[2]، بدأ الخليفة نشاطه البحرى بإرسال حملات بحرية استطلاعية منها

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤١).

(٢) العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى، ص (٥١).

حملة فضالة بن عبيد الأنصارى[1]، للوقوف على تحركات الروم وجلب المعلومات الدقيقة عنهم لمنعهم من استخدام جزر قبرص، وأرواد[2]، ورودس ذوات الخدمة التعبوية والعسكرية فى عملياتهم ضد الأسطول الإسلامى وقد باشر أعماله الاستطلاعية بإحدى الشواتى وهى شاتية بسر بن أبى أرطأة فى البحر عام ٤٣هـ[3]، وأعقبها بشاتية مالك بن عبد الله بأرض الروم سنة ٤٦هـ وصائفة عبد الله بن قيس الفزارى بحراً، وحملة عقبة بن عامر الجهنى بأهل مصر فى البحر سنة ٤٨هـ، وصائفة بن عبد الله بن كرز البجلى، وحملة بن عبد الله بن يزيد بن شجر الرهاوى، وشاتيته بأهل الشام فى سنة ٤٩هـ[4]، وكان نظام الشواتى والصوائف مستمراً. فقد وضع معاوية أمامه هدفًا واضحًا وهو محاولة الضغط على الدولة البيزنطية من خلال الضغط على عاصمتها القسطنطينية تمهيدًا للاستيلاء عليها، ولعل معاوية رضى الله عنه كان يرمى إلى إسقاط الدولة البيزنطية ذاتها بالاستيلاء على عاصمتها. فهو يعلم أن هذه العاصمة العتيدة هى مركز أعصاب الدولة ومستقر الأموال والرجال، وفيها العقول المفكرة، فإذا سقطت فى يده فإن هذا سيؤدى إلى شلل كامل فى الدولة كلها، وأمامه تجربة المسلمين مع الفرس، فبعد سقوط المدائن عاصمتهم فى أيديهم أصابهم الارتباك ولاحقهم الفشل، ولم تقم لهم قائمة وزالت دولتهم، فإذا استطاع إسقاط عاصمة البيزنطيين فسيكون ذلك نذيراً بإسقاط الدولة، ويستريح من خصم عنيد وعدو رئيسى، لذلك واصل ضغطه ومحاولاته لتحقيق هدفه، وليس من المبالغة القول إن الدولة البيزنطية ظلت على قيد الحياة مدة تقرب من ثمانية قرون، وهى مدينة ببقائها لعاصمتها القسطنطينية، فمناعة المدينة وصمودها أمام محاولات الأمويين المستمرة لفتحها، حال دون ذلك، وبالتالى حال دون سقوط الدولة والدليل على هذا أنه عندما استطاع السلطان العثمانى محمد الفاتح فتح القسطنطينية والاستيلاء عليها فى سنة ٨٥٧هـ - التاسع والعشرين من مايو سنة ١٤٥٣م كان إيذانًا بسقوط الدولة البيزنطية وزوالها من الوجود[5].

---

(١) العلاقات العربية البيزنطية، ص (٥١) نقلاً عن الأمويين والبيزنطيين.

(٢) أرواد: جزيرة قرب القسطنطينية، ياقوت الحموى، معجم البلدان (١/ ٢٠٧).

(٣) مواقف حاسمة، ص (٣١)، محمد عبد الله عنان.

(٤) النجوم الزاهرة (١/ ١٣٤)، العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى، ص (٥١).

(٥) *العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (٢٤٤).*

ثانيًا: التخطيط الاستراتيجي عند معاوية للاستيلاء على القسطنطينية:

حرص معاوية رضي الله عنه أن يكون زمام المبادرة دائمًا في يده، لأنها هي التي تمد جزر شرق البحر المتوسط بالقوات والعتاد، وتشجع أهلها على شن الغارات على ساحل مصر والشام، وقد سار في تحقيق هذا الهدف في عدة اتجاهات:

١ ـ الاهتمام بدور صناعة السفن في مصر والشام، واختيار أمهر الصناع للعمل فيها والإغداق عليهم بالأجور والهبات حتى يبذلوا قصارى جهدهم بالعمل[١]، فقد أدرك معاوية ـ رضي الله عنه ـ بحسه العسكري وفكره العبقري أن معارك المسلمين مع الروم، ستعتمد أساسًا على الأسطول البحري، وزاد هذا الإحساس عمقًا في قلب معاوية ونفسه تكتل الروم وإعدادهم أكثر من خمسمائة سفينة في معركة ذات الصواري لقهر الأسطول الإسلامي، ومع أن الروم باءوا بفشل ذريع في هذه المعركة، إلا أنهم لم يكفوا عن الإعداد ولم ينتهوا عن تجميع قواتهم لمواجهة قوة المسلمين في البحر، لقد كانوا يظنون أن قوة المسلمين البحرية يمكن القضاء عليها لأنها ما زالت في دور التكوين، ولكنهم فوجئوا بهزيمتهم المنكرة في ذات الصواري، فتوقعوا بعد ذلك أن تكون المعركة القادمة على أسوار العاصمة القسطنطينية فراحوا يستعدون لذلك[٢]، وقد أدى التعاون بين مصر والشام في صناعات السفن إلى الوصول إلى نتائج ممتازة، ففي الشام كانت تتوافر أخشاب الصنوبر القوي والبلوط والعرعر التي تصلح لبناء السفن. وفي مصر كانت توجد الأخشاب التي تصلح لعمل الصواري، وضلوع جوانب السفن، وخشب الجميز واللبخ والدوم التي تصلح لصناعة المجاديف[٣]، وكذلك استغل معاوية معدن الحديد الذي كان متوافرًا في مصر والشام واليمن لعمل المسامير والمراسي والخطاطيف والفئوس، كما كان يتوافر في مصر مادة القطران اللازمة لقلفطة السفن، ونبات الدقس الذي كانت تصنع منه الحبال، وباختصار فقد أدى التعاون المصري الشامي إلى ازدهار البحرية الإسلامية التي ازدادت أهميتها بعد أن أمر معاوية عامله على مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري ببناء دار لصناعة السفن

---

(١) العالم الإسلامي في الأموي، ص (٢٤٥).
(٢) الأمويون، محمد سيد الوكيل (١/ ١٥٤).
(٣) تاريخ الدولة العربية، ص (٣١٢).

فى جزيرة الروضة عام ٥٤هـ[١]. وذلك على أثر غارة شنها البيزنطيون على مصر[٢].

٢ـ **تقوية الثغور البحرية فى مصر والشام:** فقد آثر أن يحصن المدن الساحلية ويزودها بالقوات المجاهدة بما يجعلها قواعد تنقل منها الجنود بحرًا إلى أى مكان يشاء، ووضع لهذه المدن نظامًا عرف بالرباط، وهو ما يقصد به الأماكن التى تتجمع بها الجند والركبان استعدادًا للقيام بحملة على أرض العدو، واعتنى بهذا النظام حتى أصبح جزءًا مرتبطًا أشد الارتباط بالجهاد، إذ اجتذب الرباط إليه كل الأتقياء المتحمسين العاملين على إعزاز الإسلام ونصرته[٣]، وتدرج معاوية رضى الله عنه فى تدعيم هذا النظام على نحو ما اتبعه فى كل أعماله التى اتسمت بالدقة والابتعاد عن الارتجال والاندفاع، فأعد الرباط لتكون حصونًا يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لإغارات الأساطيل البيزنطية، ولتكون ملجأ يحتمى بها الأهالى فى المناطق الساحلية بأن يأخذوا حذرهم إذا ما لاح خطر السفن البيزنطية فى المياه الإقليمية، فكان الحصن فى الرباط يضم حجرات للجند ومساكن لهم، ومخازن للأسلحة والمؤن، وبرجًا للمراقبة، ثم لم يلبث أن اتسع وازدادت أهميته حتى أصبح قاعدة للهجوم وشن الغارات[٤]، وتعتبر سياسة منح الإقطاعات بالسواحل الخطوة الأخيرة فى سلم السياسة البحرية الدفاعية التى رسمها معاوية قبل أن يستطيع ركوب البحر فى عهد عثمان، إذ أتم بفضل هذه الامتيازات إعداد القواعد البحرية التى أخذ ينشىء فيها أساطيله، وكانت آية ازدهار المدن الساحلية نقل جماعات من أهالى بعلبك وحمص وأنطاكية عام ٤٢هـ إلى صور وعكا وغيرهما من المدن بسواحل الأردن، كذلك أصلح معاوية رضى الله عنه حصون هاتين المدينتين ولاسيما عكا التى خرج منها بأولى حملاته البحرية ضد قبرص، وبسط معاوية رضى الله عنه اهتمامه إلى سائر المدن الساحلية[٥].

٣ ـ **الاستيلاء على الجزر الواقعة شرقى البحر المتوسط:** وقد بدأ ذلك بالاستيلاء على جزيرة قبرص ـ كما سبق ذكره ـ ثم استولى على جزيرة أخرى هامة وهى

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٦).
(٢) كتاب الولاة والقضاة للكندى، ص (٣٨).
(٣) الأمويون والبيزنطيون، ص (٦٨).
(٤) المصدر نفسه، ص (٦٩).
(٥) المصدر نفسه، ص (٧٠).

رودس وأمر ببناء حصن بها، وبعث إليها جماعة من المسلمين يتولون الدفاع عنها، وجعلها رباطًا يدفعون منه عن الشام، وآثر معاوية أن يحيط المسلمين فى رودس بالجو الإسلامى الدينى، ويعلى راية الإسلام بين أهاليها، فأرسل إليها فقيهًا يدعى مجاهد بن جبر يقرئ الناس القرآن[1]. وأراد معاوية أن يتوج حملاته البحرية بغلق بحر إيجة وسد منافذه الرئيسية فى وجه السفن البيزنطية، ومنعها من الوصول إلى بلاد المسلمين، وعمل على تحقيق ذلك فى الاستيلاء على جزيرة (كريت) إذ تسيطر هذه الجزيرة تمامًا على بحر إيجة، الذى يشبه طرفه الجنوبى فوهة قربة تمتد جزيرة (كريت) عبرها، بامتدادها البالغ ١٦٠ ميلاً وتقسم الجزيرة هذه فتحة إلى مدخلين يتحكم فى كل منهما، وأرسل معاوية جنده الذى استولى على رودس لفتح هذه الجزيرة الهامة ومنع الأساطيل البيزنطية من التسلل عبر الفتحات البحرية المتاخمة لها لمهاجمة الشام على أن جنادة بن أمية الأزدى لم يستطع الاستيلاء على هذه الجزيرة لضخامتها، واكتفى بالإغارة عليها والبطش بالبيزنطيين وأساطيلهم بها، وهكذا وجه معاوية رضى الله عنه أنظار المسلمين شطر البحر الأبيض المتوسط، وأوقفهم على أهمية جزره، فاستولى على ما استطاعت أساطيله أن تفتحه منها، وطرق باب غيرها ومهد الطريق لمن يأتى بعده من الخلفاء الأمويين، وكفل معاوية للمسلمين قوة بحرية نافست البيزنطيين أنفسهم سيادتهم القديمة على البحر الأبيض المتوسط، ثم أخذ يعبئها لأهم عمل فى تاريخها، وهو ضرب عاصمة البيزنطيين أنفسهم والاستيلاء عليها، ولكن تريث معاوية فى تحقيق الهدف الأخير حتى يمكن لنفسه من التفوق البحرى على البيزنطيين[2].

٤ ـ كان من الضرورى لكى تؤتى هذه الاستعدادات البحرية ثمارها وتحقق أهدافها أن يصاحبها تحصين أطراف الشام الشمالية، التى تشكل مناطق الحدود بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية، ضد غارات البيزنطيين من ناحية ولتكون سندًا للقوات الزاحفة على القسطنطينية من ناحية ثانية، ذلك لأن المسلمين فى فتوحاتهم الأولى فى عهد الخلفاء الراشدين، وصلوا إلى أطراف الشام الشمالية، ثم وقفت أمامهم سلسلة جبال طوروس تحول دون وصولهم إلى آسيا الصغرى البيزنطية، وكان

(١) الأمويون والبيزنطيون، ص (٨٢).
(٢) المصدر نفسه، ص (٨١).

البيزنطيون عند انسحابهم وتقهقرهم أمام المسلمين قد قاموا بتخريب المناطق الواقعة شمال حلب وإنطاكيا لئلا يستفيد منها المسلمون، كما خربوا معظم الحصون فيما بين الأسكندرونة وطرسوس[1]، فرأى معاوية ضرورة الاهتمام بهذه المناطق وتعميرها وتحصينها، فاهتم أولاً بمدينة أنطاكيا التى كانت معرضة دائمًا للإغارات البيزنطية المفاجئة، واتبع فى تعميرها السياسة التى سار عليها إزاء المدن الساحلية للشام، وأغرى الناس على الإقامة بأنطاكيا، بأن منحهم إقطاعات من الأرض، وقوى الرباط المخصص للدفاع عنهم وأخذ معاوية يوالى تدريجيًا تعمير المدن الواقعة بين الأسكندرونة وطرسوس أثناء غاراته على أراضى البيزنطيين حتى أصبحت حدود الشام تتاخم مباشرة جبال طوروس الحد الفاصل بين الشام وآسيا الصغرى. ولإحكام سيطرته على المعاقل الهامة الواقعة فى مناطق التخوم الإسلامية البيزنطية، استولى على سميساط وملطية، كما جدد حصونًا أخرى مثل مرعش والحدث، ثم استولى على حصن زبطرة البيزنطى الهام وأعاد تحصينه[2]، ولكى تكون الحركة مستمرة وتكون مناطق الحدود ميدانًا عمليًا لتدريب جند المسلمين، وتعويدهم على الدروب والطرق والممرات الجبلية الوعرة دأب معاوية على الغزو المستمر، وأصبح هذا النشاط العسكرى يعرف بغزوات الصوائف والشواتى[3]، فلا تكاد تمر سنة وإلا ونجد ذكرًا عند الطبرى وغيره لغزو فى البر أو البحر كأن يقول: وفيها شتى فلان بأرض الروم أو كانت صائفة فلان إلى أرض الروم[4]، وكانت هذه الغزوات تنطلق إلى بلاد الأعداء وتخرب تحصيناتهم وتغنم وتعود، وكان تكرار هذه الغزوات يشكل ضغطًا على الدولة البيزنطية ويرهق أعصابها وينهك قواها[5]، وقد برز فى هذه الحملات المستمرة عدد من كبار القادة المسلمين الذين تلقوا تدريباتهم فى ميدانها وأتقنوا فن الحرب، مثل عبد الله بن كرز البجلى، ويزيد بن شجرة الرهاوى، ومالك بن هبيرة السكونى، وجنادة بن أمية الأزدى، وسفيان بن عوف، وفضالة بن عبيد[6]، ومالك بن عبد الله الخثعمى، الذين

---

(١) فتوح البلدان، ص (١٩٤) البلاذرى، العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٧).

(٢) الأمويون والبيزنطيون، ص (١١٠)، نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٧).

(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٨).

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢٥).

(٥) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٨).

(٦) تاريخ الطبرى، نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٨).

أطلقوا عليه مالك الصوائف لعلو كعبه فى الميدان الحربى فى آسيا الصغرى[1]، وهؤلاء القادة أبلوا بلاءً حسنًا فى الجهاد ضد البيزنطيين لإعلاء كلمة الله[2].

ثالثًا: الحصار الأول للقسطنطينية:

بعث معاوية رضى الله عنه سنتى ٤٧ ـ ٤٨هـ سرايا من قواته لتغير على الأراضى البيزنطية لتمهد الطريق فى سبيل الوصول إلى القسطنطينية. فتمكن مالك بن هبيرة السكونى من قضاء الشتاء فى الأراضى البيزنطية[3]، ولقد شهدت سنة ٤٩هـ/ ٦٦٩م أول حصار إسلامى لمدينة القسطنطينية ذلك أن نجاح قوات المسلمين فى توغلهم فى الأراضى البيزنطية بالإضافة إلى الصراعات الداخلية التى واجهها الإمبراطور قُسطانز الثانى نتيجة تمرد اثنين من قادته هما سيليوس وميزيريوس[4]، كل ذلك ساعد معاوية رضى الله عنه على أن يبعث قواته فى البر والبحر بقيادة كل من فضالة بن عبيد الليثى وسفيان بن عوف العامرى يساعدهما يزيد بن شجرة الرهاوى، تجاه القسطنطينية[5]، ووصل الأسطول الإسلامى إلى خلقيدونية ـ ضاحية من ضواحى القسطنطينية على البر الآسيوى ـ وحاصرها توطئة لاقتحامها فى محاولة لاختراق المدينة من تلك الناحية، ولكن انتشار مرض الجدرى وفتكه بكثير من جند المسلمين علاوة على حلول الشتاء القارص جعل ظروف الجيش المحاصر صعبة للغاية، فما كان من فضالة بن عبيد الليثى، قائد الجيش البرى إلا أن استنجد بمعاوية طالبًا منه أن يمده بقوات إضافية، فأرسل معاوية رضى الله عنه مددًا من الجيش يضم بين أفراده مجموعة من الصحابة، أمثال: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو أيوب خالد بن يزيد الأنصارى، رضى الله عنهم[6]، وكان القائد العام لهذه الفرقة هو يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، وعندما وصل يزيد بقواته إلى خلقيدونية انضم إلى الجيش المرابط هناك، وزحفوا جميعهم نحو القسطنطينية وعسكروا خلف أسوارها ضاربين عليها

---

(١) الامويون والبيزنطيون نقلاً عن العالم الإسلامى، ص (٢٤٨).

(٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٨).

(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ١٤٥) خلافة معاوية للعقيلى، ص (١٠٨).

(٤) يشير إبراهيم العدوى إلى أن الإمبراطور قتل وجىء بابنه قسطنطين الرابع.

(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ١٤٨). (٦) المصدر نفسه (٦/ ١٤٨).

الحصار حوالى ستة أشهر (من الربيع إلى الصيف) وكان يتخلل هذا الحصار اشتباكات بين قوات الفريقين، وأبلى يزيد فى هذا الحصار بلاءً حسنًا وأظهر من دروب الشجاعة والنخوة والإقدام ما حمل المؤرخين على أن يلقبوه بـ(فتى العرب)[١]. وكادت القوات الإسلامية أن تحرز انتصاراً لولا أنها واجهت صعوبات جمة منها: الشتاء الغزير المطر والبرد القارص مما أدى إلى نقص الطعام والأغذية، وتفشى الأمراض بينهم، كما كان لمناعة أسوار القسطنطينية أثرها فى تراجع المسلمين وإجبارهم مرة أخرى على العودة إلى بلاد الشام[٢]، كما كانت النار التى فتحها المتحصنون بها على جيش المسلمين من أهم الأسباب التى عوقت قدرتهم على فتحها، فقد أحرقت النار كثيراً من سقى المسلمين[٣]، ويعد غزو القسطنطينية من دلائل النبوة حيث أخبر به نبينا محمد ﷺ حيث قال: «أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم»[٤]، وقد اشترك فى غزو القسطنطينية عدد من كبراء الصحابة رضوان الله عليهم، طلبًا للمغفرة التى بشر بها رسول الله ﷺ[٥].

رابعًا: وفاة أبى أيوب الأنصارى فى حصار القسطنطينية:

هو خالد بن زيد بن كليب، أبو أيوب الأنصارى الخزرجى، شهد بدرًا والعقبة والمشاهد كلها، وشهد مع على رضى الله عنه قتال الخوارج، وفى داره كان نزول رسول الله ﷺ، حين قدم المدينة مهاجرًا من مكة فأقام عنده شهرًا حتى بنى المسجد ومساكنه حوله، ثم تحوَّل إليها[٦]، وقدوفد أبو أيوب على عبد الله بن عباس لما كان واليًا على البصرة فى عهد على، فبالغ فى إكرامه، وقال: لأجزينَّك على إنزالك النبى ﷺ عندك، فوصله بكل ما فى المنزل فبلغ ذلك أربعين ألفًا[٧]، وجاء فى رواية لما أراد الانصراف خرج له عن كل شىء بها، وزاده تحفًا وخدمًا كثيرًا، وأعطاه أربعين ألفًا، وأربعين عبدًا، إكرامًا له لما كان أنزل رسول الله ﷺ

---

(١) الأمويون والبيزنطيون، ص (١٦٤)، خلافة معاوية، ص (١٠٩).

(٢) الكامل فى التاريخ (٦/ ٤٨٠)، خلافة معاوية للعقيلى، ص (١١٠).

(٣) الأمويون، محمد سيد الوكيل (١/ ٥٩).

(٤) البخارى، صحيح البخارى مع فتح البرى (٦/ ١٢٠).

(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٢٠).

(٦) البداية والنهاية (١١/ ٢٥١).

(٧) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٠٤).

فى داره، وقد كان من أكبر الشرف له[1]. وهو القائل لزوجته أم أيوب حين قالت له: أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة؟ ـ أى فى حديث الافك ـ فقال لها: أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ فقالت: لا والله. فقال: والله لهى خير منك فأنزل الله[2] ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]. وقد آخى رسول الله ﷺ بين أبى أيوب ومصعب بن عمير[3] - رضى الله عنهما - صاحب الفتح السلمى الكبير بالمدينة المنورة.

وكانت وفاته ببلاد الروم قريبًا من سور قسطنطينية، وكان فى جيش يزيد بن معاوية وإليه أوصى وهو الذى صلى عليه[4].

وقد جاء فى رواية: أغزى أبو أيوب، فمرض، فقال: إذا متُّ فاحملونى، فإذا صافقتم العدوَّ، فارمونى تحت أقدامكم. أما إنى سأحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»[5]، ودفن أبو أيوب عند سور القسطنطينية، وقالت الروم لمن دفنه: يا معشر العرب قد كان لكم الليلة شأن. قالوا: مات رجل من أكابر أصحاب نبينا، والله لئن نُبش، لأُضرِبَ بناقوس فى بلاد العرب[6]. وبعد مجىء الدولة العثمانية وفتح القسطنطينية أصبحت مكانة أبى أيوب الأنصارى عظيمة فى الثقافة العثمانية، فقد درج السلاطين العثمانيون يوم يتربعون على الملك أن يقيموا حفلاً دينيًا فى مسجد أبى أيوب، حيث يتقلدون سيفًا للرمز إلى السلطة، التى أفضت إليهم. وكان لأبى أيوب رضى الله عنه عند الترك خواصهم وعوامهم رتبة ولى الله الذى تهوى إليه القلوب المؤمنة وينظرون إليه كونه مضيف رسول الله، فقد أكرمه وأعانه وقت العسرة كما أن له مكانة مرموقة بين المجاهدين واعتبروا ضيافته لرسول الله وجهاده فى سبيل الله أعظم مناقبه وأظهر مآثره[7].

وقد ترك أبو أيوب رضى الله عنه فى وصيته بأن يدفن فى أقصى نقطة من أرض العدو صورة رائعة تدل على تعلقه بالجهاد، فيكون بين صفوفهم حتى وهو فى نعشه على أعناقهم، وأراد أن يتوغل فى أرض العدو حيًا وميتًا، وكأنما لم يكفه

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٢٥٢). (٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٠٢)، البداية والنهاية (١١/ ٢٥٢).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٠٥). (٤) البداية والنهاية (١١/ ٢٥٢).
(٥) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤١٢) إسناده قوى. (٦) المصدر نفسه (٢/ ٤١٢).
(٧) الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى، حسين المصرى، ص (١٢).

ما حقق فى حياته فتمنى مزيدًا عليه بعد مماته، وهذا ما لا غاية بعده فى مفهوم المجاهد الحق بالمعنى الأصح الأدق[1]. ومن الغريب ما نراه فى حياتنا من حرص بعض المسلمين إذا مات خارج بلده أن يوصى أهله بإرجاعه ودفنه فى أرضه، والأرض أرض الله والبلاد بلاد الله. وقد مدحه شعراء الأتراك فى أشعارهم، وهذا شيخ الإسلام أسعد أفندى يشير إشارة لامحة إلى موقعه بقوله:

شهد المشاهد جاهدًا ومجاهدًا ... ومكابدًا بحروبه ما كابدا

حتى أتى بصلابة ومهابة ... فى آخر الغزوات هذا المشهدا

قد مات مبطونًا غريبًا غازيا ... فغدا شهيدًا قبل أن يستشهدا

كان أبو أيوب رضى الله عنه عندما خرج فى غزوة القسطنطينية قد تقدمت به السن وأصبح شيخًا كبيرًا وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً...﴾ [التوبة: ٤١] لا أجدنى إلا خفيفًا أو ثقيلاً[2]، وكان أبو أيوب رضى الله عنه يعلم الناس الفهم الصحيح لآيات الله ومفاهيم الإسلام، فعن أبى عمران التجيبى قال: غزونا من المدينة نريد القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد - يعنى الجماعة الذين غزوا من المدينة - والروم ملصقو ظهورهم بحائط القسطنطينية، فحمل رجل على العدو فقال الناس مه، مه لا إله إلا الله، يلقى بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله نبيه ﷺ وأظهر الإسلام قلنا: هلمَّ نقيم فى أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فالإلقاء بالأيدى إلى التهلكة أن نقيم فى أموالنا ونصلحها وندع الجهاد، قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد فى سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية[3]. فهذا الحديث يبين لنا خطورة الاشتغال بالأموال عن الجهاد فى سبيل الله تعالى، وإن الهلاك الحقيقى هو هلاك الآخرة بسبب التهاون فى واجبات الإسلام[4].

---

(١) الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى، ص (٦٨).

(٢) سكب العبرات للموت والقبر والسكرات (١/ ١٧٥).

(٣) سنن أبى أيوب رقم (٢٥١٢)، سنن الترمذى رقم (٢٩٧٢).

(٤) التاريخ الإسلامى (١٣/ ١٥).

خامسًا: الحصار الثانى للقسطنطينية :

استطاع معاوية رضى الله عنه أن يضيق الخناق على الدولة البيزنطية بالحملات المستمرة، والاستيلاء على جزر رودس وأرواد اللتين سبقت الإشارة إليهما، وقد كان لجزيرة أرواد -والتى تسميها المصادر الأوروبية كزيكوس- أهمية خاصة لقربها من القسطنطينية، حيث اتخذ منها الأسطول الإسلامى فى حصاره الثانى للمدينة أو حرب السنين السبع ٥٤ ـ ٦٠هـ قاعدة لعملياته الحربية، وذلك أن معاوية أعد أسطولاً ضخمًا، وأرسله ثانية لحصار القسطنطينية، وظل مرابطًا أمام أسوارها من سنة ٥٤هـ إلى سنة ٦٠هـ[١]، فكانت الأساطيل تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية على حين يكمل الأسطول الحصار، واستمر الحصار البرى والبحرى للقسطنطينية من شهر أبريل إلى سبتمبر، تتخلله مناوشات بين أساطيل المسلمين وجنود البيزنطيين من الصباح إلى المساء، على حين تتراشق القوات البرية الإسلامية مع الجند البيزنطى المرابط على أسوار القسطنطينية بالقذائف والسهام، استمر هذا الوضع طيلة سبع سنوات[٢]، حتى أرهقت البيزنطيين، وأذاقتهم ألوان الضنك والخوف، وأنزلت بهم خسائر فادحة، وبالرغم من كل ذلك لم تستطع اقتحام المدينة أو التغلب على حراسها المدافعين عن أسوارها[٣].

وكانت العوامل التى ساعدت القسطنطينية على الصمود عديدة منها:

١ ـ استعمال البيزنطيين فى هذه المعارك نارًا سموها النار البحرية أو النار الأغريقية، وهو عبارة عن مركب كيمائى مكون من النفط والكبريت، القار، وكان هذا المركب يشعل بالنار وتقذف به المراكب فيشعل فيها النار، والعجيب أنه كان يزداد اشتعالاً إذا لامس الماء. ومخترع هذا المركب الكيميائى الفتاك، الذى فتك بالعديد من سفن المسلمين وجنودهم هو مهندس سورى الأصل اسمه كالينكوس، كان فى أوائل الأمر فى خدمة المسلمين ثم هرب إلى القسطنطينية، ووضع خبرته فى خدمة البيزنطيين[٤]. وكان هذا السلاح الجديد من أهم العوامل التى ساعدت البيزنطيين على الصمود والاستمرار فى الدفاع عن العاصمة. وظل هذا السلاح

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢١٠ إلى ٢٤٠). (٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٣٥١، ٢٥٢).
(٣)، (٤) الأمويون والبيزنطيون ص (١٧٦)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى ص (٢٥٢).

سراً خفيًا، لا يعرفه إلا المتخـصصون فى صناعته، وكان الأباطرة يمدون حلفاءهم بهذا السلاح دون أن يطلعوهم على سره، ومرت أربعة قرون، وهو سلاح غامض لم يعرف كنهه سوى مخترعه، وفى القرن العاشر المسيحى، الرابع الهجرى، عرف الباحثـون سر هذه النار، وبينوا العناصر التى تكونت منهـا، والوسائل التى يمكن إخمادها بها، وتطور هذا السـلاح حتى كان منه ما يشبه المفـرقعات، وكانت تلقى على الأعداء بواسـطة المجانيق، أو أنابيب نحـاسية تقـذف من السفن، وكـان لها صوت مدو يصحبه دخان كثيف مسبوق بلهب خاطف، وشغل هذا الاختراع عقول العلماء المسلمـين، فراحوا يبـحثون ويفكرون، حـتى عرفوا سـره فى مطلع القرن الحادى عـشر المسيـحى، الخامس الهـجرى، وأدخلوا عليه تعـديلات جعلتـه أشد فتكًا، وأقوى أثراً من النار الإغـريقية. واستخدم المسلمون هـذا السلاح الفتاك فى حروبهم مع الصليـبيين بأرض الشام، وكان وقـعه شديداً على الصليـبيين، ونشر فيهم الرعب والفزع، ومن ذلك الحين عرفت هذه النار (بالنار الإسلامية[1])، يقول الدكتور إبراهيم العـدوى: إن الأعداء عجزوا عن معرفـة هذا السلاح الجديد الذى احتضنه المسلمـون، وظل استخدام النار الإسـلامية سائداً حتى القـرن الرابع عشر المسيـحى،الثامن الهجـرى حيث دخلت عليهـا تطويرات وتعديلات كثـيرة، أدت أخيـراً إلى صناعة البـارود. ومن ثم تعتـبر النار الإسلامـية أسـاس هذا الانقلاب الخطير فى أساليب الحرب التى عرفها العالم الحديث وبرهن المسلمون على أنهم لا يقفون مكتـوفى الأيدى أمام أى سلاح جديد يفاجئـهم به الأعداء، وأنهم قادرون على استغـلاله فيما بعـد لما فيه صالحهـم ونفعهم[2]. ونسأل الله تعالى أن يوفق المسلمين لايجاد حل للتفوق العسكرى الأمريكى والغربى عليهم.

٢ ـ **السلسلة الحديدية الضخمة،** الحاجزة ما بين القرن الذهبى ميناء القسطنطينية وبين الشاطئ الآسيوى، حيث كان يتم إقفالها فى حالات الحرب أو التهديد بالحصار[3].

٣ ـ **الموقع الجغـرافى الفريد** الذى وصفه المؤرخ بـينز بأنه (استقر على شـبه الجزيرة البـارز من أوروبا، والذى يكاد يلاقى الشـاطئ الآسـيوى، وفى وسط الطريق بين الحدود الشمالية والشرقية فى بقعة يحميها مدّ مرمرة العنيف من الهجمات البحرية.

---

(١) الأمويون (١/ ٦٥) محمد سيد الوكيل.

(٢) الأمويون والبيزنطيون، ص (١٧٨).

(٣) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص (١٦٧).

٤ ـ الأسوار الداخلية والخارجية الضخمة والمزوّدة بعدد كبير من أبراج المراقبة التى كان لها دور فى كشف التحركات المعادية وإبطال عنصر المفاجأة فيها .

٥ ـ ضعف التجربة الأموية فى حرب الحصار للمدن المتداخلة مع مياه البحر، مثل القسطنطينية، حيث تطلب ذلك أسلحة متطورة بأساليب جديدة فى القتال، لم تكن فى متناول القوات الأموية حتى ذلك الحين[١].

٦ ـ دبلوماسية الدولة البيزنطية والإسلامية: لقد تظاهرت عدة عوامل ساهمت فى منع سقوط القسطنطينية منها: مناعة المدينة الطبيعية وقوة تحصيناتها، والنار الإغريقية، وشدة الطقس وقسوته، والتيارات المائية الشديدة الانحدار الآتية من البحر الأسود لتحول دون استيلاء المسلمين على المدينة، رغم صبرهم وبسالتهم وتحملهم المشاق وفى النهاية دعت الظروف الداخلية فى كل من الدولتين إلى إنهاء الحصار، فدخلوا فى مفاوضات انتهت بعقد صلح بينهما،عاد بمقتضاه الجيش الإسلامى والأسطول إلى الشام. . ففيما يتعلق بالدولة الأموية أدرك معاوية أن مدة الحصار قد طالت دون أن يتحقق الهدف، ولما كانت سنّه قد كبرت، وأحس بدنو أجله، رأى من المصلحة أن يعود هذا الجيش الكبير المرابط حول المدينة تحسبًا لأى مشاكل قد تواجه ابنه وخليفته يزيد بعد موته، فيكون وجود هذا الجيش عنده ضروريًا لضبط الأمور داخليًا، كذلك كانت الدولة البيزنطية تواقة إلى إنهاء هذا الحصار عن عاصمتها، فقد أرهقها وأنهك قواها، ولذلك يقال: إنها أرسلت إلى دمشق رجلاً يدعى يوحنا من أشهر رجالها الدبلوماسيين، وأكثرهم ذكاء وفطنة، وحضر هذا الرجل جلسات كثيرة تضم خيرة أبناء البيت الأموى وأبدى فيها من الإجلال للدولة الإسلامية، ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه، ونجحت مفاوضاته فى عقد صلح بين الطرفين، وبعد إبرام المعاهدة أخذت القوات الإسلامية المرابطة براً وبحرًا أمام القسطنطينية طريق العودة إلى الشام، وتركت عاصمة البيزنطيين تئن من جراحها المثخنة[٢].

سادسًا: العلاقات السلمية بين الدولتين:

رغم أن الطابع العام الذى ميز العلاقات بين الدولة الإسلامية والبيزنطية فى عصر الخلافة الراشدة والعصر الأموى كان عسكريًا نتيجة لحركة الجهاد واستمرارها فى العهد

---

(١) امن دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص (١٦٨).

(٢) الأمويون والبيزنطيون، ص (١٧٥)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٥٣).

الأموى من حمـلات الصوائف والشواتى طوال السنة تقريبًا، وكـذلك الدور الجهادى الذى كانت تؤديه مـدن الثغور، إلا أن هذا لا يعنى أن الطابع السلـمى -المتمثل فيـما جرى من مـفاوضات ومـداولات- كان مفقـودًا فقد اتخـذت العلاقات السلمـية بين الدولتين الإسـلامية والبـيزنطية فى العـهد الأموى أشكالاً مـختلفة منهـا المراسلات، وتبادل الخبرات، والمناظرات فى المجالات الثقافية، وتبادل الأسرى والسفراء[1].

١ـ المراسلات: فقد تم مراسلة قيصر الروم من قبل معاوية فى فترة الفتنة وتوصل معـه إلى عقد صلح على أن يؤدى مـعاوية له مالاً وأن يـأخذ كل طرف رهنًا من الطرف الآخر[2]، وارتهن مـعاوية منهم رهناء فـوضـعهم ببـعلبك، ثم إن الروم غـدرت فلم يستـحل معـاوية والمسلمـون قتل من فى أيـديهم من رهنهم، وخلوا سبـيلهم وقالوا: وفاء بغـدر خير من غـدر بغدر[3]، والمهم أن مثل هذه الحوادث يجب أن تُقـدَّر بقدرها فـلا يجـوز للدولة الإسلامـيـة - فى الأصل- أن تتهـاون وتتكاسل عن الأخذ بأسباب القوة حتى تصل إلى مرحلة من الضعف تمكّن الأعداء منهـا أو يطمع فيهـا الطامعـون، بل الأصل فى دولة الإسلام أن تكون دولـة قوية يهابها الأعداء، فإذا مرت بها فترة ضعف أو احتاجت إلى دفع ضرر عليها بمال أو نحوه فـذلك يدخل من باب (الضرورات) وليس حكمًـا عامًا (ومـا أبيح للضرورة يُقدّر بقدرها) كمـا قرر الفقهاء[4]، فلا ينبغى عقد صلح دائم مع العدو بدفع المال إليه، بل يجب أن يكون الصلح والدفع لفترة ضـعف المسلمين أو حالة الضرورة، مع العمل الجاد على رفع حالة الضعف وبناء قوة الأمة وقدراتها المطلوبة بكل جدية وعزم، فإذا زالت يجب على المسلمين أن يمتنعوا من عـقد أى معاهدة فيها ذلة أو مفسدة لهم، والخـلاصة: إنه يجوز للدولة الإسلامية عقـد معاهدة اضطرارية تُقدّر بقدرها وتنتهى بانتهاء حالة الضرورة التى عُقدت من أجلها[5].

لم تقتصر المراسلات على الجـانب العسكرى فقط، ولكن رويت بعض المراسلات التى تتناول المناظرة فى الجوانب العلميـة والأمور العامة، فقد كـتب قيصر الروم إلى

---

(١) العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى، ص (١٢٢، ١٢٣). (٢) المصدر نفسه، ص (١٢٣).

(٣) فتوح البلدان، ص (١٦٣) للبلاذرى، العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، ص (٢٣٩).

(٤) الأشباه والنظائر ابن نجيم، ص (٨٦).

(٥) العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، ص (٢٤٠).

معــاوية: سلام عليك أمــا بعد: فأنــبئنى بأحب كلمــة إلى الله وثانية وثالثــة ورابعة وخامــسة، وعن أربعة أشــياء، فيهــن روح ولم يرتكضن فى رحم، وعن قبر يســير بصاحبه، ومكان فى الأرض لم تصبه الشمس إلا مرة واحدة وغير ذلك من الأسئلة، فكتب إليه معــاوية: أما أحب كلمة إلى الله، فلا إله إلا الله لا يقبل عــملاً إلا بها، وهى المنجــية، والثانيــة سبــحان الله صــلاة الخلق، والثالثة الحــمد لله كلمــة الشكر والرابعة الله أكبر، فواتح الصلوات والركوع والسجود، والخامسة لا حول ولا قوة إلا بالله. والأربعــة فــيهن روح ولم يرتكضن فى رحم فــآدم وحــواء وعصــا مــوسى والكبش، والموضع الذى لم تصله شمس إلا مرة واحدة، فــالبحر حين انفلق لموسى وبنى إسرائيل، والقبر الذى سار بصاحبه، فبطن الحوت الذى كان فيه يونس[١].

٢ـ تبــادل الخبــرات: وفى مــجال تبــادل الخبــرات حاول كل من العــرب والروم الاستفادة من خبرات الطرف الثانى فى مجالات الحياة كافة، معتمدين على الاقتباس تارة، والإبداع تارة أخرى، على أن مــا أخذه المسلمــون من الروم فى هذا المجال لم يكن مجرد اقتباس، بل طُور كثيرًا بــأن أضيف إليه أحيانًا وشذب فى أحيان أخرى، حتى أصــبح يتمــاشى مع روح الدين الإسلامى، ويتــمثل ذلك فى مــعالم النهــضة العمرانية المتمثلة فى اهتمام الأمــويين بالمساجد والتوسع فى إقامتها[٢]، وقد استخدم معاوية عددًا من الروم ممن كانوا فى الإدارة البيزنطية فى بلاد الشام قبل فتحها، كتّابًا فى الأمور الإدارية، حيث عين ســرجون بن منصور الرومى كاتبًا له، كمــا استخدم ابن أثال النصرانى طبيبًا له[٣]، وكان معــاوية رضى الله عنه متسامــحًا مع النصارى حتى شهد له بروكلمان بهذا التسامح: «واختلطوا بالمسيحية اختلاطًا بعيدًا»... وفى بلاط معاوية لعب ســرجون بن منصور النصرانى دور المستشــار المالى المتنفذ، وحفظ النصارى للخليفــة معاوية هذا التسامح وأخلصــوا له، وأعظموه إعظامًا، لاتزال تقع عليه فى الروايات النصرانية، وحتى فى كتب التاريخ الإسبانية[٤].

---

(١) عيون الأخبار (١/١٩٨، ١٩٩)، الحدود العربية البيزنطية (٢/٣٨٧) العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى، ص (١٢٦).

(٢) التاريخ الإسلامى آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، ص (١٣٢).

(٣) العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى، ص (١٣٢).

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية نقلاً عن العلاقات العربية ـ البيزنطية، ص (١٠٤).

٣ ـ تأثر الدولة البيزنطية بالتسامح الإسلامي: يذكر العدوى: إن انعكاس التسامح الديني مع النصارى ظهر تأثيره على الدولة البيزنطية، إذ من المعروف، أنها كانت تضطهد رعاياها من أصحاب المذاهب الأخرى وتعاملهم معاملة قاسية وتعتبرهم هراطقة، وبظهور دولة الإسلام ودخول كثير من المسيحيين فى التبعية لها، اتجهت الإمبراطورية البيزنطية إلى تجديد أساليبها وسياستها، وجعلت من نفسها صاحبة الحق فى رعاية المسيحيين فى بلاد الشام[1]، وكان معاوية رضى الله عنه يجلس إلى جماعات المسيحيين من المذاهب المختلفة ويستمع إلى جدلهم الدينى ومناقشاتهم المختلفة[2]، وبهذا ضربت الدولة الإسلامية الأموية مثلاً ساميًا، يدل على عظمة الرسالة الإسلامية ومدى التسامح الدينى تجاه رعاياها من غير المسلمين وابتعادها عن التعنت والتعصب الدينى الذى يتهمهم به قسم من المستشرقين[3].

٤ ـ آداب السفراء: لم يكن نظام الموفدين والسفراء مقتصراً على العهد الأموى بل له امتداداته من عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، فكان السفير يختار وفق مواصفات خاصة تتمثل فى قوة شخصيته ونباهته ورجاحة عقله، وكان السفير من كلتا الدولتين، يزود بخطاب يحمل تعريفًا بشخصية الرسول والغرض من رسالته وتخويله حق التحدث رسميًا باسم دولته[4]. ولم يكن الموفدون والسفراء مدار اهتمام الدولة الإسلامية الأموية فقط، بل اهتم الروم كذلك بسفرائهم أيضًا، فكانوا يختارونهم من رجال الدين الدهاة العارفين بأمور دينهم وأصحاب القدرة على النقاش والجدال، وفصيحى اللسان، وعارفين بالعربية إضافة إلى لغتهم الأصلية[5]، وكان الخلفاء والملوك يهتمون بالسفراء والمبعوثين، ويستقبلون فى قصور الخلفاء وتسمع آراؤهم فيها، فحين سأل معاوية رسول البيزنطيين، بعد أن فرغ من بناء قصره المعروف بالخضراء، أبدى عليه ملاحظاته قائلاً: أما أعلاه فللعصافير، وأما أسفله فللفار وعندما أدرك معاوية صحة انتقاد السفير وصواب رأيه جعل يعيد بناء قصره بالحجارة[6].

---

(١) العلاقات العربية ـ البيزنطية فى العصر الأموى، ص (١٤٢).
(٢) المصدر نفسه، ص (١٤٢) نقلا عن الأمويين والبيزنطيين.
(٣) المصدر نفسه، ص (١٤٢).
(٤) العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى، ص (١٤٧).
(٥) الأمويون والبيزنطيون، ص (٢١٥ - ٢٢٢).
(٦) المصدر نفسه، ص (٢٢٠).

وأما البيزنطيون فكانوا يستقبلون السفراء العرب فى كنيسة أيا صوفيا وقناطير المياه والأديرة حول القسطنطينية[١]، وعند رجوع السفير كانت تقدم له الهدايا والمجوهرات الثمينة إكرامًا له ولمن بعثه[٢]، ويبدو أن الهدف من وراء ذلك عند كلتا الدولتين، هو إظهار صيغ الاحترام المتبادل والنيات الحسنة فى إقامة الصلح وإنابة السلام وكذلك إظهار كل دولة للأخرى مدى قوتها ورخائها، كى تكون محط أنظار السفير ومهابته من أجل وصف ما يشاهده إلى من بعثه عند رجوعه إليه[٣]، ورغم ما أشير إليه من الصفات التى يجب توفرها فى السفير إلا أنه يبقى محط أنظار الخليفة أو الملك، وتراقب تصرفاته وحركاته خشية الوشاية والكيد وإشعال نار الحرب، وهذا ما حدث مع سفير معاوية إلى القسطنطينية الذى أرسل لعقد هدنة مع الروم وكان السفير مزودًا بتعليمات مشددة تقتضى ألا يخفف من شروط الهدنة مع البيزنطيين ولكن لم يستطع هذا السفير تنفيذ وصية معاوية وتهاون فى عقد الهدنة حتى جاءت فى صالح البيزنطيين[٤]، فلما عاد عزله من منصبه[٥].

سابعًا: الجراجمة فى عهد معاوية رضى الله عنه:

فى أثناء الحروب والغارات بين المسلمين والبيزنطيين، فى عهد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه، كان هناك طرف ثالث يشارك فى النزاع القائم بينهما، يطلقون على أنفسهم اسم (الجُرَاجِمة) نسبة إلى مدينة (الجُرَجُومة)[٦]، وأصولهم غير معروفة، ويشير البلاذرى إلى أنهم كانوا يدينون بالنصرانية وأنهم كانوا لذلك يتبعون (بطريق أنطاكية وواليها)[٧]. وعندما فتح المسلمون بلاد الشام أرسل أبو عبيدة عامر بن الجراح حبيب بن مسلمة الفهرى، فغزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها ولكنهم بادروا بطلب الأمان والصلح، فصالحوه على أن يكونوا أعوانًا للمسلمين وعيونًا ومسالح فى جبل اللكام، وأن لا يُؤخَذوا بالجزية، وأن يُنَفَّلوا أسلاب من يقتلون من عدوّ المسلمين إذا حضروا حربًا معهم فى مغازيهم[٨].
ولكن الجراجمة لم يلبثوا أن نقضوا اتفاقهم هذا، وصنعوا حاجزًا بين المسلمين

---

(١) المصدر نفسه، ص (٢٢٠).
(٢) العلاقات العربية ـ البيزنطية، ص (١٤٨).
(٣) المصدر نفسه، ص (١٤٨).
(٤)، (٥) المصدر نفسه، ص (١٤٩).
(٦) الجرجومة: مدينة على جبل اللكام بالثغر الشامى فيما ما بين بياس وبوقا قرب أنطاكية، معجم البلدان (١٢٣/٢).
(٧) فتوح البلدان للبلاذرى، ص (٥٨).
(٨) المصدر نفسه، ص (٥٨).

والبيزنطيين واستطاعوا عرقلة سير الفتوحات الإسلامية فى آسيا الصغرى، فكانوا متذبذبين مرّة مع المسلمين وأخرى مع الروم، وقد بقيت شوكة فى ظهر الجيوش الإسلامية ليس فى عهد معاوية لكن حتى عهد عبد الملك، ثم ما لبثت أن تفرقت فى بلاد الشام وآسيا الصغرى، فخفَّ خطرها[1]. وعلى أية حال، فلابد من القول بأن الإنشاءات والمجهودات التى قام بها معاوية رضى الله عنه فى سبيل الوصول إلى القسطنطينية وإن كانت لم تثمر خلال حياته إلا أنها لعبت دورًا أساسيًا فى حفز من جاؤوا بعده من الخلفاء لأن يكملوا المسيرة التى بدأها[2].

ثامنًا: أبو مسلم الخولانى من الغزاة فى أرض الروم:

وهذا مثال من عظماء الرجال فى ذلك العصر الذين ساهموا فى صياغة نموذج إسلامى فى السلوك والتعامل مع الحكام والمشاركة الإيجابية فى المجتمع وحركة الفتوحات.

قال عنه الذهبى: سيد التابعين وزاهد العصر واسمه عبد الله بن ثوب على الأصح[3]، قدم المدينة وقد قبض النبى ﷺ، واستخلف أبو بكر[4]، وكانت له مواقف محمودة ضد الأسود العنسى الذى تنبأ باليمن، وثبت أبو مسلم على الإسلام فبعث إليه الأسود، فأتاه بنار عظيمة، ثم إنَّه ألقى أبا مسلم فيها، فلم تضُرَّه، فقيل للأسود: إن لم تَنْفِ هذا عنك أفسد عليك من اتَّبعك. فأمره بالرحيل، فقدم المدينة فأناخ راحلته ودخل المسجد يُصلى، فبصُر به عمر رضى الله عنه، فقام إليه، فقال: ممن الرجل؟ قال: من اليمن. قال: ما فعل الذى حَرقه الكذاب بالنار؟ قال: ذاك عبد الله بن ثوب. قال: نشدتك بالله، أنت هو؟ قال: اللهمَّ نعم، فاعتنقه عمر وبكى، ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين الصِّدِّيق. فقال: الحمد لله الذى لم يُمتنى حتى أرانى فى أمة محمد من صُنع به كما صُنع بإبراهيم الخليل[5]. وهذا التابعى الكبير كان من أهل الشام فى عهد معاوية وقد تأثر به خلق كثير بها، وكان رحمه الله كثير العبادة، فعن أبى العاتكة: قال: علَّق أبو مسلم سوطًا فى المسجد[6]، فكان يقول: أنا أولى بالسَّوط من البهائم، فإذا فتر مَشَقَ[7] ساقيه سوطًا أو سوطين. وروى أنه كان يقول: لو رأيت الجنة عيانًا أو النَّار

---

(1) خلافة معاوية للعقيلى، ص (116).

(2) المصدر نفسه، ص (116).

(3) سير أعلام النبلاء (4/ 7، 8).

(4) المصدر نفسه (4/8).

(5)، (6) سير أعلام النبلاء (4/9)

(7) مَشَقَ: ضرب بسرعة .

عيانًا ما كان عندي مستزاد[1]، وعن شرحبيل: أن رجلين أتيا أبا مسلم، فلم يجداه في منزله، فأتيا المسجد، فوجداه يركع فانتظراه فأحصى أحدهما أنه ركع ثلاث مئة ركعة[2]، وكان أبو مسلم إذا استسقى سُقي[3]، وكان مستجاب الدعوة؛ فعن محمد ابن زياد، عن أبي مسلم، أن امرأة خَبَّبت[4] عليه امرأته، فدعا عليها، فعميت، فأتته فاعترضت وتابت، فقال: اللهمَّ إن كانت صادقة، فاردُد بصرها، فأبصرت[5]. وشارك رحمه الله بالجهاد في أرض الروم، فعن أبي مسلم الخولاني، أنَّه كان إذا غزا أرض الروم، فمروا بنهر فقال: أجيزوا بسم الله، ويمر بين أيديهم، فيمرون بالنهر الغَمر، فربما لم يبلغ الدَّواب إلا الرُّكب، فإذا جازوا قال: هل ذهب لكم شيء؟ فمن ذهب له شيء فأنا ضامن له، فألقى بعضهم مِخلاته عمدًا. فلما جازوا قال الرجل: مخلاتي وقعت، قال: اتبعني فاتَّبعه، فإذا بها معلَّقةً بعود في النهر، قال: خذها[6]. وكان الولاة يتيَّمنون بأبي مسلم، ويؤَمِّرونه على المقدِّمات[7].

وقد توفي رحمه الله بأرض الروم، وكان شتا مع بُسر بن أبي أرطأة فأدركه أجله، فعاده بُسر في مرضه فقال له أبو مسلم: يا بُسر، اعقد لي على من مات في هذه الغزاة فإني أرجو أن آتي بهم يوم القيامة على لوائهم[8]، وعندما سمع معاوية رضي الله عنه بموته قال: إنما المصيبة كل المصيبة بموت أبي مسلم الخولاني وكريب ابن سيف الأنصاري[9]، وكان رحمه الله من أهل الحكمة، فقد روى عن أبي مسلم الخولاني في مجال الرِّضا التام بقضاء الله وقدره، قوله: لأن يولد لي مولود يحسن الله عز وجل نباته حتى إذا استوى على شبابه وكان أعجب ما يكون إليّ قبضه مني أحب إليّ من أن يكون لي الدنيا وما فيها[10]. وهذا دليل على كمال توحيد أبي مسلم عبد الله بن ثوب الخولاني حيث جاوز مرحلة الصبر على أقدار الله المؤلمة إلى مرحلة الرضا بقضاء الله، فاعتبر المصيبة بفقد ولد قد أحسن الله نباته وكان على خير ما يتمناه المؤمن؛ شبابًا وصلاحًا أحبّ إليه من الدنيا وما فيها[11].

هذه بعض الملامح العريضة على الجبهة الشامية المتعلقة بالجهاد في عهد معاوية رضي الله عنه.

---

(1) سير أعلام النبلاء (4/9).
(2)، (3) المصدر نفسه (4/10).
(4) خبَّب فلان على فلان صديقه: إذا أفسده عليه.
(5) سير أعلام النبلاء (4/11).
(6) المصدر نفسه (4/11).
(7)، (8) المصدر نفسه (4/13).
(9) سير أعلام النبلاء (4/14).
(10) صفة الصفوة (4/213) حلية الأولياء (2/127).
(11) التاريخ الإسلامي (19/356).

المبحث الثاني

فتوحات الشمال الإفريقي في عهد معاوية رضي الله عنه

أولاً: حملة معاوية بن حديج رضي الله عنه:

معاوية بن حديج الكندي له صحبة ورواية قليلة عن النبي ﷺ، فقد روى حديث رسول الله ﷺ: «إن كان في شيء شفاء فشربة عسل أو شرطة محجم، أو كية نار، وما أحب أن أكتوي»[1]، وكان رضي الله عنه ملكًا مطاعًا من أشراف كندة[2]، وكان من خيرة الأمراء، فعن عبد الرحمن بن شماسة قال: دخلت على عائشة، فقالت: ممن أنت؟ قلت: من أهل مصر، قالت: كيف وجدتم ابن حُديج في غزاتكم هذه؟ قلت: خير أمير، ما يقف لرجل منا فرس ولا بعير إلا أبدل مكانه بعيرًا، ولا غلامًا إلا أبدل مكانه غلامًا. قالت: إنه لا يمنعني قتله أخي أن أحدثكم ما سمعت من رسول الله ﷺ: «اللهم من ولي من أمر أُمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به، ومن شقّ عليهم فاشقق عليه»[3]، وبعد أن استتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، كانت جبهة شمال أفريقيا، من أولى الجبهات التي وجه إليها اهتمامه، لأنها تتاخم حدود مصر الغربية من ناحية، ومن ناحية أخرى فهي تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية، العدو اللدود للمسلمين، والتي صمم أمير المؤمنين معاوية على تضييق الخناق عليها، وعدم إعطائها فرصة لالتقاط أنفاسها، ففي الوقت الذي واصل فيه ضغطه عليها من الشرق، وزحفه على جزرها في البحر المتوسط تمهيدًا للوصول إلى عاصمتها القسطنطينية - كما سبق ذكره - نراه قد قرر أن يطوقها من الجنوب، من شواطئ شمال إفريقية التي كانت تعتبرها من أملاكها، ففي أول سنة من حكمه ٤١هـ أرسل معاوية بن حديج على رأس حملة إلى إفريقية ثم أرسله ثانية سنة ٤٥هـ على رأس حملة من عشرة آلاف مقاتل، فمضى حتى دخل إفريقية وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، ويحيى بن الحكم بن العاص، وغيرهم من أشراف قريش،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٧) إسناده صحيح. (٢) المصدر نفسه (٣/ ٤٠).

(٣) مسلم رقم (١٨٢٨).

فبعث ملك الروم إلى إفريقية بطريقًا يقال له: نقفور فى ثلاثين ألف مقاتل، فنزل الساحل، فأخرج إليه معاوية بن حديج (عبد الله بن الزبير) فى خيل كثيفة، فسار حتى نزل على شرف عال ينظر منه إلى البحر بينه وبين مدينة سوسة[1]، اثنا عشر ميلاً، فلما بلغ ذلك نقفوراً أقلع من فى البحر منهزمًا من غير قتال، ورجع ابن الزبير إلى معاوية بن حديج وهو بجبل القرن، ثم وجه ابن حديج عبد الملك بن مروان فى ألف فارس إلى مدينة جلولاء[2] فحاصرها وقتل من أهلها عددًا كثيراً حتى فتحها عنوة، وأغزى معاوية بن حديج جيشًا فى البحر إلى صقلية فى مائتى مركب، فسبوا وغنموا وأقاموا شهراً، ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة[3]، وبعد هذه الفتوح عاد معاوية بن حديج إلى مصر دون أن يترك قائدًا أو عاملاً، ويفهم من هذا التصرف ومن سلوك معاوية بن حديج أثناء هذه الغزوة أن البربر أهل البلاد كانوا قد أصبحوا حلفاء للمسلمين على الروم، وأن المسلمين كانوا يكتفون إلى ذلك الحين بإبعاد الخطر الرومى من هذه الناحية[4]. وعندما استعاد معاوية بن حديج طرابلس الغرب ترك فيها رويفع بن ثابت الأنصارى واليًا عليها سنة ٤٦هـ فغزا منها إفريقية (تونس) ودخلها سنة ٤٧هـ، وفتح جزيرة جربة التى كان يسكنها البربر[5]، وقد تحدثت المراجع عن كثرة السبايا فى هذه الغزوة، وقام رويفع بن ثابت الأنصارى بتذكير المسلمين فى هذه بأحكام وطء السبايا، حيث قال: أما أنى لا أقول لكم إلا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم حنين: «لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره[6]، ولا يحل لامرئ يؤمن

---

(١) سوسة مدينة صغيرة بنواحى إفريقية، بينها وبين القيروان ستة وثلاثون ميلاً ويحيط بها البحر من ثلاث جهات من الشمال والجنوب والشرق، معجم البلدان (٣/ ٢٨٢) .

(٢) هنالك مدينتان تحملان هذا الاسم، إحداهما بفارس، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، وهى على طريق خراسان، وبها كانت الوقعة المشهورة بين المسلمين والفرس سنة ١٦هـ، وهذه التى بإفريقية بينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلاً. ياقوت الحموى، معجم البلدان (٢/ ١٥٦) .

(٣) البيان المغرب لابن عذارى (١/ ١٦، ١٧)، الشرف والتسامى بحركة الفتح الإسلامى، ص (٢٠٩)، حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول، شكرى فيصل، ص (١٦١).

(٤) تاريخ المغرب وحضارته، حسين مؤنس (١/ ٨٥) .

(٥) صفحات من تاريخ ليبيا والشمال الإفريقى للصّلابىّ، ص (٣٣٢).

(٦) زرع غيره: أى محل زرع لغيره، يعنى إتيان الحبالى.

بالله واليوم الآخر أن يقع [1] على امرأة من السبي حتى يستبرئها [2]، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنمًا [3] حتى يُقسم» [4]

وقد بقى فى ولاية طرابلس الغرب ثم ولاه مسلمة بن مخلد ولاية مصر وبرقة، وبقى عليها أميرًا ومات بها سنة ٥٦هـ وقبره معروف فى الجبل الأخضر ببرقة فى مدينة البيضاء، وهو آخر من توفى من الصحابة هناك، وروى عن النبى ﷺ ثمانية أحاديث، وكان فقيهًا من أصحاب الفتيا من الصحابة، وكان خطيبًا مفوهًا[5].

ثانيًا: عقبة بن نافع وفتح إفريقية:

هو عقبة بن نافع القرشى الفهرى، نائب إفريقية لمعاوية وليزيد، وهو الذى أنشأ القيروان واسكنها الناس[6]، وكان ذا شجاعة، وحزم، وديانة، لم يصحّ له صحبة، شهد فتح مصر، واختطّ بها[7]، فقد أسند معاوية بن أبى سفيان قيادة حركة الفتح فى إفريقية إلى هذا القائد الكبير الذى خلد التاريخ اسمه فى ميدان الفتوحات، وكان عقبة قد شارك فى غزو إفريقية منذ البداية مع عمرو بن العاص واكتسب فى هذا الميدان خبرات واسعة، وكان عمرو بن العاص قد خلفه على برقة عند عودته إلى الفسطاط، فظل فيها يدعو الناس إلى الإسلام، وقد جاء إسناد القيادة إلى عقبة بن نافع خطوة موفقة فى طريق فتح شمال إفريقية كله، ذلك أنه لطول إقامته فى برقة وزويلة وما حولهما، منذ فتحها أيام عمرو بن العاص، أدرك أنه لكى يستقر الأمر للمسلمين فى إفريقية ويكف أهلها عن الارتداد، فلا بد من بناء قاعدة ثابتة للمسلمين ينطلقون منها فى غزواتهم، ويعودون إليها ويأمنون فيها على أهلهم وأموالهم، فلما أسند إليه معاوية بن أبى سفيان قيادة الفتوحات فى إفريقية، أرسل إليه عشرة آلاف فارس وانضم إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه[8]، وسار فى جموعه حتى نزل بمغمداش من سرت[9]، فبلغه أن أهل

---

(١) يقع على امرأة: يجامعها . (٢) يستبرئها: بحيضة أو بشهر.

(٣) مغنماً: أى شيئاً من الغنيمة . (٤) يُقسم: أى من الغانمين ويخرج منه الخمس .

(٥) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٤٨٦)، صفحات من تاريخ ليبيا والشمال الإفريقى، ص (٣٣٣).

(٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٢) . (٧) المصدر نفسه (٣/ ٥٣٣).

(٨) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٨٣) .

(٩) سرت مدينة بين برقة وطرابلس، معجم البلدان (٣/ ٢٠٦) .

ودان[1] قد نقضوا عهدهم مع بسر بن أبى أرطأة الذى كان عقده معهم حين وجهه إليهم عمرو بن العاص، ومنعوا ما كانوا اتفقوا عليه من الجزية، فوجه إليهم عقبة قسمًا من الجيش عليهم عمر بن على القرشى وزهير بن قيس البلوى، وسار معهم بالقسم الآخر من الجيش واتجه إلى فزان[2]، فلما دنا منها دعاهم إلى الإسلام فأجابوا[3]، ثم واصل فتوحاته، فتح قصور كُوّار[4]، وخاور[5]، وغدامس[6]، وغيرها[7]، ومما يلاحظ أن عقبة تجنّب فى مسيره المناطق الساحلية، فقصد المناطق الداخلية يفتحها بلدًا بلدًا، ويبدو أنه فعل ذلك ليأخذ البربر إلى جانبه ويقيم جبهة داخلية تحيط بالبيزنطيين على الساحل وتمدّه بالطاقات البشرية للاستقرار والإطاحة بالوجود البيزنطى[8].

ثالثًا: بناء مدينة القيروان:

فى سنة ٥٠هـ بدأت إفريقية الإسلامية عهدًا جديدًا مع عقبة بن نافع، المتمرس بشئون إفريقية منذ حداثة سنّه، فقد لاحظ كثرة ارتداد البربر، ونقضهم العهود، وعلم أن السبيل الوحيد للمحافظة على إفريقية ونشر الإسلام بين أهلها هو إنشاء مدينة تكون محط رحال المسلمين، ومنها تنطلق جيوشهم فأسس مدينة القيروان وبنى جامعها[9]، وقد مهد عقبة قبل بناء المدينة لجنوده بقوله: إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزًا للإسلام إلى آخر الدهر، فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين، وقالوا: نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط، فقال عقبة: إنى أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون[10]، ولم يعجبه موضع القيروان الذى كان بناه معاوية بن

---

(١) ودان جنوب إفريقية بينها وبين زويلة عشرة أيام من جهة إفريقية، معجم البلدان (٥/ ٣٦٥، ٣٦٦) .

(٢) فزان: جنوب ليبيا، ولاية واسعة كانت عاصمتها زويلة. (٣) فتوح مصر، ص (١٣٢).

(٤) إقليم ببلاد السودان الغربى جنوب فزان، معجم البلدان (٤/ ٤٨٦).

(٥) خاور: مدينة جنوب فزان .

(٦) غدامس: مدينة جنوب ليبيا قرب الحدود الجزائرية .

(٧) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص(٢٩٦). (٨) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص(٢٨٠).

(٩) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٣٨) . (١٠) البيان المغرب (١/ ١٩) .

حديج قبله، فسار والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم[(1)]، وكان موضع غيضة لا يرام من السباع والأفاعى، فدعا عليها، فلم يبق فيها شيء ، وهربوا حتى أن الوحوش لتحمل أولادها[(2)]، وعن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: يا أهل الوادى، إنا حالون إن شاء الله، فظعنوا، ثلاث مرات، فما رأينا حجراً ولا شجراً إلا يخرج من تحته دابة حتى هبطنا بطن الوادى: ثم قال للناس: انزلوا بسم الله[(3)]، وكان عقبة بن نافع مجاب الدعوة[(4)]، وقد رأى قبيل من البربر كيف أن الدواب تحمل أولادها وتنتقل، فأسلموا ثم شرع الناس فى قطع الأشجار ،وأمر عقبة ببناء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم، وتم أمرها سنة ٥٥هـ وسكنها الناس، وكان فى أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا، فتغير وتنهب ودخل كثير من البربر الإسلام، واتسعت خطة المسلمين، وقوى جناب من هناك من الجنود بمدينة القيروان، وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها[(5)]، وتم تخطيط مدينة القيروان على النمط الإسلامى، فالمسجد الجامع ودار الإمارة توأمان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فهما دائمًا إلى جوار بعضهما، ويكونان دائمًا فى قلب المدينة التى يختطها المسلمون ويرتكزان فى وسطها[(6)]، وبينهما يبدأ الشارع الرئيسى للقيروان، الذى يسمى باسم السماط الأعظم، ثم ترك عقبة فراغًا حول المسجد ودار الإمارة فى هيئة دائرة واسعة، ثم قسمت الأرض خارج الدائرة إلى خطط القبائل، ليكون استمراراً للشارع الرئيسى فى الاتجاهين إلى نهاية المدينة، وانجفل البربر من نواحى إفريقية إلى القيروان، وسكنوا حولها، وكان الكثير منهم دخل فى الإسلام، وشرعوا فى تعلم اللغة العربية والقرآن الكريم وأمور دينهم، وهكذا نشاهد -فيما بين سنتى ٥٠ و٥٥هـ- حركة قوية بدأت فى تعريب الشمال الإفريقى[(7)].

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٧٠).
(٢) سير اعلام النبلاء (٣/٥٣٣) .
(٣) رياض النفوس (١/٩) معالم الإيمان (١/٩)، سير اعلام النبلاء (٣/٥٣٣) .
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/٥٣٣) وخروج الدواب بسبب دعاء عقبة وتأمين من معه رواية صحيحة الإسناد .
(٥) الكامل فى التاريخ (٢/٤٨٤) .
(٦) الأمويون، محمد سيد الوكيل (١/٧٢) .
(٧) تاريخ المغرب وحضارته (١/٨٩) .

١ ـ الخصائص المتوافرة فى موضع القيروان :

كانت الدوافع السياسية والعسكرية والإدارية والدعوية دوافع قوية فى قرار عقبة فى اتخاذ موقع القيروان، فقد تميز موقع القيروان بالآتى :

أ ـ بأنه لا يفصله عن مركز القيادة العسكرية فى الفسطاط أى بحر أو نهر، فهو يقع على الطريق البرى الذى يربط بين الفسطاط (بمصر) وبين المغرب، ويبدو أن عقبة رحمه الله أخذ بنظرية عمر بن الخطاب فى بناء الأمصار والمعسكرات بألا يفصلها فاصل من نهر أو بحر أو جسر عن المدينة أو مركز القيادة، وأن تكون على طرف البر أو أقرب إلى البر والصحراء.

ب ـ موافقة الموضع لذهنية العرب ومتطلباتهم الضرورية. وتتجلى هذه الخصوصية من خلال قراءة توصية عقبة بن نافع فى أن يكون الموضع قريبًا من السبخة، فإن أكثر دوابكم الإبل تكون إبلكم على بابها فى مراعيها[١].. وكذلك فى الكلمات التى عبر عنها أصحاب عقبة عندما استجمع رأيهم فى الموضع المنتخب، إذ قالوا: نحن أصحاب إبل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر[٢].

جـ ـ بأنه يتمتع ببعض الإنتاجات والموارد الذاتية، فالمنطقة التى كان فيها موضع القيروان عبارة عن غيضة، كما أورد الجغرافيون، وكان مواجهًا لجبال أوراس، معقل قبائل البربر، إذن فإنه كان فى بقعة زراعية تتضمن بعض المحاصيل التى تكفل للمجاهدين المسلمين موردًا غذائيًا مهمًا[٣].

د ـ صحيح أن المشكلة الرئيسية التى جابهتها القيروان بعد اتخاذها كانت متمثلة بالموارد المائية، كما هى الحال فى مدينة البصرة، مع وجود فارق بين المصرين، فإن مياه البصرة كانت مع الأنهار غير أنها مالحة. أما مياه القيروان الصالحة للشرب فكانت تعتمد على مصدرين،الأول منهما: الأمطار حيث كانت تخزن فى صهاريج يطلق عليها اسم (المواجل)، وثانيهما: مياه وادى السراويل فى قبلة المدينة، لكنه كان مالحًا. لذلك فإن بعض المؤرخين حدد مصدر مياه القيروان

---

(١) الروض المعطار، ص (٤٨٦)، دراسات فى تاريخ المدن العربية الإسلامية د. عبد الجبار ناجى، ص (٢٥٢).

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٧٨/١) . (٣) القيروان، للحبيب الجنحانى، ص (٥٩).

قائلاً: وشربهم من مـاء المطر. إذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسـيول دخل ماء المطر من الأودية إلـى برك عظام يقـال لهـا (المواجل).. ولـهم وادٍ يسـمى وادى السراويل فى قبلة المدينة يأتى فيه ماء مالح.. يستـعملونه فيما يحتاجونه[1]، ومع ذلك، فإن هذه المشكلة المعقدة يبدو أنها أخذت تتضاءل تدريجيًا إلى حد ما[2].

٢ ـ القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمتها العلمية:

لم تبدأ الحياة العلمـية المركزة إلا بعد تأسيس القيروان سنة ٥٠هـ، فـسرعان ما أصبحت القيروان مركز الحضارة الإسلامـية بالمغرب وعاصمته العلمية، منها انطلق الدعاة وإليها رحل طلاب العلم من الآفـاق، ومما رشح القيروان فى هذه المكانة ما يلى:

أ ـ إن إنشاء مدينة القيروان يعنى أن إفريقية أصبحت ولاية إسلامية جديدة وجزءًا لا يتجزأ من العالم الإسلامى الكبير، وبالتالى سيعيش المسلمون فيها حياتهم العادية، على رأسها التعليم وبث الثقافة الإسلامـية، فإن القيروان مدينة رسالة وعلى أهلها تلقى مسئولية نشر الإسلام فى المغرب، فكما كانت منطلق الجيوش الفاتحة، كانت كذلك منطلق الدعـاة إلى الأنحاء لنشر الإسلام، وقـد شعر الصحـابة بهذه المكانة للقيروان منذ تأسيسها[3].

ب ـ لقـد تم بناء الجامع وهـو المدرسة الأولى فى الإسـلام، ولا شك أن الصـحابة الذين كانوا فى جيش عـقبة قد جلسوا للتدريس فيـه على النمط الموجود فى مدن المشرق آنذاك، فقـد كان مع عقبة أثناء تأسيس القـيروان ثمانية عشر صـحابيًا[4]، وقد مكثـوا فيهـا خمس سنوات كاملة كـان عملهم فـيها، ولا شك، نشـر اللغة العربية، وتعليم القرآن والسنة فى جامع القيروان، وذلك أثناء بناء مدينة القيروان، حيث لم تكن هناك غزوات كبيرة تتطلب غـيابًا طويلاً عن القيروان، أما فى غزوة عقبة الثانية فقد كان مـعه خمسة وعشرون صحابيًا[5]، وسائر جيشه من التابعين، وقد انتشرت رواية الحديث النبوى الشريف فى هذه الفترة، مما دعا عقبة أن يوصى

---

(١) القيروان، للحبيب الجنحانى، ص (٥٩).
(٢) دراسات فى المدن العربية الإسلامية، ص (٢٥٢).
(٣) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٠).
(٤) البيان المغرب (١/ ٢٠).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٢٣).

أولاده ومن ورائهم جميع المسلمين بتحرى حديث الثقات وعدم كتابة ما يشغلهم عن القرآن[١].

جـ - لقد استقطبت القيروان أعداداً هائلة من البربر المسلمين الذين جاءوا لتعلم الدين الجديد، قال ابن خلدون عند حديثه عن عقبة: فدخل إفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبر جمعه ودخل أكثر البربر فى الإسلام ورسخ الدين[٢]، ولا شك أن الفاتحين قد خصصوا لهم من يقوم بهذه المهمة[٣]. ومن القيروان انتشر الإسلام فى سائر بلاد المغرب، فقد بنى عقبة بالمغربين الأقصى والأوسط عدة مساجد لنشر الإسلام بين البربر، كما ترك صاحبه شاكراً فى بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر الإسلام[٤]، ولما جاء أبو المهاجر دينار لولاية إفريقية تألف كُسيلة وقومه وأحسن إلى البربر، فدخلوا فى دين الله أفواجاً ودعّم حسان بن النعمان -فيما بعد- جهود عقبة فى نشر الإسلام بين البربر حيث خصّص ثلاثة عشر فقيهاً من التابعين لتعليم البربر العربية والفقه ومبادئ الإسلام[٥]، وواصل موسى بن نُصير هذه المهمة حيث: أمر العرب أن يعلّموا البربر القرآن، وأن يفقّهوهم فى الدِّين[٦]، وترك فى المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيهاً لتعليم أهله[٧].

د - كان كثير من أفراد الجيش قد صحبوا معهم زوجاتهم، ومنهم من اتخذ بإفريقية السرارى وأمهات الأولاد، قال أبو العرب[٨]: روى بعض المحدثين أن عبد الله بن عمر بن الخطاب لما غزا مع معاوية بن حديج كانت معه أم ولد له، فولدت له صبية من أم الولد وماتت، فدفنها فى مقبرة قريش بباب سلم، فاتخذتها قريش مقبرة يدفنون فيها لمكان تلك الصبية[٩]. ومن هنا كان لابد من الاهتمام بتعليم النشء المسلم مبادئ الإسلام واللغة العربية، ولذلك فقد نشأت الكتاتيب بالقيروان

---

(١) شجرة النور (٢/ ١٠٠) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥١).

(٢) تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٨٦) . (٣) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥١).

(٤) البيان المغرب (١/ ٢٧)، مدرسة الحديث فى القيرون (١/ ٥١) .

(٥) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٢). (٦) البيان المغرب (١/ ٤٢) .

(٧) المصدر نفسه (١/ ٤٢) .

(٨) الرياض (١/ ٩١)، مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٢) .

(٩) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٢) .

فى وقت مبكر جدًا، فقد روى عن غياث بن شبيب أنه قال: كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا ونحن فى الكُتّاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه[1]، وكان سفيان بن وهب قد دخل القيروان مرتين: أولاهما سنة ٦٠هـ أى بعد الانتهاء من تأسيس القيروان بخمس سنوات، والثانية سنة ٧٨هـ[2].

هـ- إن الموقع الجغرافى لمدينة القيروان كان له دور كبير فى إثراء الحياة العلمية وإنعاشها، فقد كانت فى موقع متوسط بين الشرق والغرب، يمرّ بها العلماء والطلبة من أهل المغرب والأندلس فى ذهابهم إلى المشرق، فيسمعون من علمائها[3]، وكثير منهم يصبح أهلاً للعطاء عند عودته فيسمع منه أهلها، كما كان يدخلها من يقصد المغرب أو الأندلس من أهل المشرق[4].

و - لقد كانت التجارة فى القيروان رابحة والسلع فيها نافقة، ولذلك أمّها كبار التجار من المشرق والمغرب وكثير منهم من المحدّثين والفقهاء، فكان ذلك عاملاً مهمًا فى ازدهار الحياة العلمية بالقيروان[5].

ز- وممّا أسهم فى ثراء الحياة العلمية كون القيروان آنذاك هى العاصمة السياسية، ذلك أنّه كلما جاء أمير جديد اصطحب معه مجموعة من العلماء والأدباء، كما أن كثيرًا من المحدثين والفقهاء يفدون إلى العاصمة الإفريقية ضمن الجيوش القادمة من المشرق والتى استمر مجيئها إلى بعض منتصف القرن الثانى، هذا بالإضافة إلى من كان يقصد الأمراء للمدح والتسلية من أهل الشعر والأدب[6].

ح- كما أن القيروان اكتسبت نوعًا من الاحترام والتعظيم باعتبارها البلد الذى أسسه صحابة رسول الله ﷺ، وظهر بها على أيديهم كثير من الكرامات، واستقر بها بعضهم مدة من الزمن، وهى آخر ما دخله الصحابة من بلاد المغرب[7]، كل هذه الأمور هيأت القيروان لدور الريادة العلمية فى إفريقية والمغرب حتى وصفها

(١) أسد الغابة نقلاً عن مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٢) .
(٢) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٣) .
(٣) المصدر نفسه (١/ ٥٣) .
(٤) المصدر نفسه (١/ ٥٣) .
(٥) المصدر نفسه (١/ ٥٣) .
(٦)، (٧) المصدر نفسه (١/ ٥٤) .

أبو إسحاق الجبنياني بقوله: القيروان رأس وما سواها جسد، وما قام برد الشبه والبدع إلا أهلها، ولا قاتل ولا قتل على إحياء السنة إلا أئمتها[١]، وقد لهج المؤلفون القدامى بفضل القيروان على سائر بلاد المغرب في المجال العلمي، من ذلك ما وصفها به ماقديشي بأنها: منبع الولاية والعلوم، فهي لأهل المغرب أصل كل خير، والبلاد كلها عيال عليها، فما من غصن من البلاد المغربية إلا منها علا، ولا فرع في جميع نواحيها إلا عليها ابتنى، كيف لا؟ ومنها خرجت علوم المذهب وإلى أئمتها كل علم ينسب، ولا ينكر هذا خاص ولا عام، ولا يزاحمها في هذا الفضل أحد على طول الأمد والأيام[٢]، وهكذا أصبحت القيروان دار العلم الإفريقية وبرز فيها كبار المحدثين والفقهاء والقراء، ورحل إليها أهل المغرب والأندلس لطلب العلم، وقد نافح أهلها عن مذاهب السلف فصارت دار السنة والجماعة بالمغرب[٣]، لقد قامت القيروان بدور كبير في فتح شمال إفريقية كله والأندلس ونشر الإسلام في المغرب وأصبحت من أهم مراكز الحضارة الإسلامية[٤].

رابعًا: عزل عقبة وتولي أبي المهاجر دينار سنة ٥٥هـ:

بينما كان عقبة يواصل فتوحاته، وينظم مدينته الجديدة، إذ بوالي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري يعزله ويولي مكانه مولاه أبا المهاجر بولاية إفريقية، وقد صرح هو نفسه بذلك حينما قالوا له: لو أقررت عقبة فإن له جزالة وفضلاً فقال: ... إن أبا المهاجر صبر علينا في غير ولاية، ولا كبير نيل، فنحن نحب أن نكافئه[٥]، ولما عزل عقبة ذهب إلى معاوية في دمشق معاتبًا، وقال له: فتحت البلاد، وبنيت المنازل، ومسجد الجماعة ودانت لي، ثم أرسلت عبد الأنصار، فأساء عزلي. فاعتذر إليه معاوية، وقال له: عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم، وتقديمه إياه، وقيامه بدمه وبذله مهجته[٦]، ووعد معاوية عقبة برده إلى ولايته، ولكن الأمر تراخى كما يقول ابن عذارى حتى توفي معاوية وأفضى الأمر إلى

---

(١) مناقب أبي إسحاق الجبنياني، ص (٦٠، ٦١). (٢) حسن البيان للشيخ محمد النيفر، ص (١٨٩).
(٣) مدرسة الحديث في القيروان (١/ ٥٥). (٤) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص(٢٧٠).
(٥) فتوح مصر، ص(١٣٤)، البيان المغرب (١/ ٢٢). (٦) فتوح مصر، ص (١٣٤).

يزيد، فرد عقبة واليًا على إفريقية[١]. وهناك نقطة فى هذا الموضوع، وهى الإساءة التى تعرض لها عقبة من أبى المهاجر أثناء عزله فقد ذكرت المصادر أن أبا المهاجر أساء إلى عقبة إساءة بالغة، فقد سجنه وأوقره حديدًا[٢]، ولا ندرى ما الذى حمل أبا المهاجر على هذا؟ قال الدكتور عبد الشافى محمد عبد اللطيف فى كتابه القيم: ولا ندرى ما الذى حمل أبا المهاجر على هذا؟ ويصعب علينا أن نقبل اتهام الدكتور حسين مؤنس لمسلمة بن مخلد، بأنه هو الذى أوعز إلى أبى المهاجر أن يسىء إلى عقبة[٣]. فهذا اتهام لا يستند إلى دليل، خصوصًا أن ابن عبد الحكم يقول عن مسلمة حين ولى أبا المهاجر: وأوصاه حين ولاه أن يعزل عقبة بأن يحسن العزل، فخالفه أبو المهاجر، فأساء عزله وسجنه وأوقره حديدًا، حتى أتاه كتاب من الخليفة بتخلية سبيله وإشخاصه إليه[٤]. ثم يذكر أن مسلمة ركب إلى عقبة حين مر بمصر وترضاه، وأقسم له بالله لقد خالفه ما صنع أبو المهاجر وقال له: ولقد أوصيته بك خاصة[٥]. ولكن لماذا خالف أبو المهاجر وصية مولاه مسلمة وأساء إلى عقبة، مع أنه هو شخصيًا كان يجل عقبة، ويعرف مقامه، وقد جزع عندما دعا عليه عقبة، وقال: هذا رجل لا يرد له دعاء، هذا هو السؤال الذى لا نملك عليه جوابًا شافيًا . . اللهم إلا الاستنتاج الذى أخذ به محمد على دبوز، وهو أن أبا المهاجر ربما يكون قد اضطر اضطرارًا إلى القبض على عقبة وسجنه، لأن عقبة خاشنه ولم يرضخ للعزل بسهولة لأنه كان يرى نفسه أحق بالولاية والقيادة من أبى المهاجر، ولعل أبا المهاجر قد خاف من خلاف يقع بين المسلمين لعدم رضوخ عقبة له فيستغله أعداؤهم الروم، فاضطر إلى سجنه حتى لا يحدث خلل بين المسلمين[٦]. إن كان هذا الاستنتاج صحيحًا وهو على كل حال معقول، فقد يخفف من شدة اللوم الذى يوجه إلى أبى المهاجر كل مسلم حريص على أن تسود روح الاحترام والإجلال بين القادة المسلمين مهما كانت خلافاتهم، وأن يحاول اللاحق منهم الاستفادة من جهود السابق وخبرته، بدلاً من الإساءة وتبادل

---

(١) البيان المغرب (١/ ٢٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٧١).
(٢) فتوح مصر، ص (١٣٣ ـ ١٣٤)، البيان المغرب (١/ ٢٢).
(٣) فتح العرب للمغرب، ص (١٥١).
(٤) فتوح مصر، ص (١٣٣، ١٣٤).
(٥) فتوح مصر، ص (١٣٤).
(٦) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٢، ٣٣).

الأحقـاد، وأن يكون السابق منهم حـريصًا كـذلك على أن يعطى خبـرته وتجاربه ونصائحه للاحق، حتى ينجح فى مهمتـه لأن هدفهم واحد وهو الجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمته ونشر دينه[1].

خامسًا : فتوحات أبى المهاجر دينار (٥٥ ـ ٦٢هـ) :

على الرغم من الخطأ الكبـير الذى ارتكبه أبو المهـاجر فى حق سلفـه، المجاهد الكبير عقبة بن نافع، إلا أن الإنصاف يقتضينا أن نقول إنه قام بدور عظيم فى فتح المغرب وتمهيـده لقبول الإسلام دينًا ونظام حيـاة، فقد كان أبو المهاجر يتـمتع بقدر كبير من الكيـاسة والسياسة وحسن التصرف، وقد رأى ـ بثـاقب نظره ـ أن سياسة الشدة التى كان يسيـر عليها عقبة بن نافع لا بد أن تتغـير، وعليه أن يصطنع بدلها سياسـة كسب القلوب، فالبربر قـوم أشداء يعتدون بكرامتـهم وحريتهم، فسياسة اللين معهم قد تكون أجدى من سياسة الشدة وقد نجح أبو المهاجر فى سياسته تلك نجاحًا كبيرًا، كما أن أبا المهاجر قد أدرك أن الذين يحركون البربر فى شمال أفريقيا ضد المسلمين ويؤلبونهم عليهم، هم الروم[2]، الذين أخذوا يتحبـبون إلى البربر، ولذلك انتهج سياسة تقوم على كشف حـقيقة الروم وعلى إقناع البربر أن المسلمين ما جاءوا إلى هذه البلاد ليستعمروهم ويسـتعبدوهم ويستغلوا بلادهم، كما يحاول الروم أن يفهموهم، وإنما جاءوا لهدايتهم ولخيرهم ودعوتهم إلى الإسلام الذى فيه سعـادتهم ومساعـدتهم على التحـرر من ربقة الروم، الذين يسـتغلون بلادهم منذ قرون، وكـان الروم رغم الهزائم التى حلت بهم فى وسط إقليم إفريقـية وجنوبه، مازالوا قوة فى الشمال، ومازالت عاصمـتهم قرطاجنة عذراء لم يقصدها أحد من الفاتحـين الأولين، ثم إنهم مازالوا قـوة فى ساحل المغرب من بـنزرت إلى طنجة، فكان على أبى المهـاجر أن يضرب الروم ضـربة قوية ليـضعضع نفـوذهم فى تلك النواحى، ويكسر الحلف الذى عـقدوه مع البربر، فسار إلى قـرطاجنة ونازلها[3]، فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية، فـشدد أبو المهاجر الحصار عليها فعلم الروم أنه لا قبل لهم بالجيش الإسلامى، وأن أبا المهاجر لا بد أن ينتصر عليهم، فيدخل

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٧٤).

(٢) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٣) . (٣) النجوم الزاهرة (١/ ١٥٢) .

العاصمة باقتداره وقوته، فطلبوا الصلح فصالحهم بإخلاء جزيرة شريك[1]، لتنزل فيها جنوده، وكان أبو المهاجر يهدف من احتلال جزيرة شريك، القريبة من قرطاجنة، أن يراقب الروم وتحركاتهم، وترك فيها حامية من الجيش جعل على رأسها قائده حنش الصنعانى ليصد الروم إذا حاولوا مهاجمة المسلمين أثناء غزوهم للبلاد[2]. رفع أبو المهاجر الحصار عن قرطاجنة بعد أن انتزع من الروم جزيرة شريك، ذلك الموقع الاستراتيجى الهام، وترك فيها حامية تؤمن ظهر المسلمين، وتراقب تحركات الروم، ثم اتجه بعد ذلك مسايراً الساحل ناحية الغرب، وقد خافه الروم والبربر جميعًا، فلم يتعرض له أحد، حتى وصل إلى مدينة ميلة[3]، على خمسين ميلاً من بجاية فى جنوبها الشرقى[4]، فوجدها مستعدة للقتال، وكان فيها طائفة من البربر والروم، تحصنوا بها، فنازلها أبو المهاجر واحتلها، وغنم ما فيها واستقر بها، وكانت ميلة تتوسط المغربين الأدنى والأوسط، فهى أحسن مكان يراقب منه أمور البربر والروم فى هذه البقاع، فجعلها مقره، وأقام بها نحواً من سنتين. وقد استثمر هذه المدة فى الاتصال بالبربر، وإفهامهم حقيقة الإسلام، ودعوتهم إليه، وقد نجح فى سياسته نجاحًا كبيراً فأقبل البربر على الإسلام، وآية ذلك أن المؤرخين لم يتحدثوا عن معارك وقعت له فى هذه النواحى من المغرب، قسنطينة الآن ونواحيها إلى بجاية[5]. لأن الروم كانوا يتقوون بالبربر، وهاهو أبو المهاجر قد نجح فى اجتذاب البربر وفصلهم عن الروم، فسكنت تلك النواحى، سكون البحر بعد العاصفة[6]، وترامت الأخبار إلى أبى المهاجر أن جمعًا من الروم والبربر يستعد لحربه، فقرر المسير إليهم، وكانت زعامة المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة[7]، وهى قسم كبير من أقسام البربر البرانس، وكان زعيم هذه القبيلة كسيلة بن لمزم، وكان كسيلة قوى الشخصية، زكى الفؤاد، غيوراً على وطنه، وكان

---

(١) سميت شريك نسبة إلى شريك العبسى وهى تقع شرق قرطاجنة. تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٤) .

(٢) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٤)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٧٦).

(٣) النجوم الزاهرة (١/ ١٥٢)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٧٧).

(٤) بجاية على ساحل البحر بين تونس والمغرب. معجم البلدان (١/ ٣٣٩) .

(٥) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٥) .

(٦) المصدر نفسه (٢/ ٣٥)، العالم الإسلامى فى العصرالأموى، ص (٢٧٧).

(٣) تاريخ ابن خلدون (٦/ ١٤٦)، تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٨) .

البربر يجلونه ويحبونه وكان نصرانيًا متمسكًا بدينه، وكان لا يعرف حقيقة الإسلام والمسلمين، فاستطاع الروم أن يوحوا إليه ما أرادوا فى الإسلام والمسلمين فرآهم عدوًا لدينه ووطنه، ورأى أن أبا المهاجر فى ميلة، فعلم أنه لا بد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى، فذهب يدعو البربر لمكافحة المسلمين والاستعداد لحربهم وإجلائهم عن بلادهم، فتحمس البربر بثورة أميرهم كسيلة فلبسوا لأمة الحرب، واستعدوا للقراع، فتجمع لكسيلة جيش كثيف من البربر والروم[1].

١ ـ معركة تلمسان[2]: بعد أن استكمل كسيلة عدته عسكر فى تلمسان، وانتظر اللقاء المرتقب مع أبى المهاجر ولم يطل انتظاره، فقد وصل أبو المهاجر، وعسكر بجيشه حول تلمسان، فالتقى الجيشان ودارت معركة قاسية، أبلى فيها كل من الفريقين بلاءً كبيرًا، وأدركوا خطورتها وأن لها ما بعدها، وكثر القتلى من الجيشين، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فهزموا جيش كسيلة فولى الأدبار.

٢ ـ إسلام كسيلة: أسر كسيلة فى معركة تلمسان وحمل إلى أبى المهاجر فأحسن إليه وقربه وعامله معاملة الملوك[3]، وطمع فى إسلامه، فحدثه عن الإسلام وعرفه حقيقته، وأنه دين التوحيد الخالص، والعدل والمساواة، والأخوة، وأنه لو أسلم فلن يخسر شيئًا، بل العكس سوف يكسب الكثير روحيًا وماديًا، وكان كسيلة ذكيًا طموحًا مخلصًا لقومه لا يريد لهم إلا الإصلاح، فآمن كسيلة، وأصبح من المسلمين، وأغرم بالعربية فصار يتعلمها، وأصبح من المقربين من أبى المهاجر وشمّر كسيلة لمناصرة الإسلام والمسلمين. ودعا قومه البربر للدين الحنيف، وكان البربر قد تفتحت قلوبهم للإسلام والمسلمين وعاد أبو المهاجر بعد أن اطمأن إلى أمور المغرب الأوسط وإلى إسلام البربر إلى مقره قريبًا من القيروان، وأقام بقرية تسمى دكرور يراقب الأمور، ويرصد تحركات الروم ودسائسهم ويعمل على إزالة نفوذهم من الشمال الإفريقى، لكن لسوء الحظ لم يطل به المقام، فقد توفى مولاه مسلمة بن مخلد الأنصارى والى مصر سنة ٦٢هـ، وكان مسلمة سندًا قويًا لأبى

---

(١) تاريخ المغرب الكبير (٣٨/٢) .

(٢) هما مدينتان إحداهما قديمة والأخرى جديدة اختطها المرابطون فهى كالفسطاط والقاهرة من أرض مصر. معجم البلدان (٤٤/٢) .

(٣) تاريخ المغرب الكبير (٣٨/٢) .

المهاجر فلما زال هذا السند أعاد يزيد بن معاوية (٦٠- ٦٤هـ) عقبة بن نافع إلى إفريقية ثانية وعزل أبا المهاجر[١]، وفى تولية أبى المهاجر على إفريقية دليل على ثقة مسلمة بن مخلد الأنصارى فيه وحسن معاملة الموالى فى الإسلام، وبيان أن الناس كلهم سواسية فى الإيمان سواء أكانوا عربًا مسلمين أو أجناسًا أخرى من غير العرب، ونستدل من هذا الاختيار على أن الموالى قد تمتعوا بمكانة مرموقة فى العصر الأموى بعكس ما تصوره بعض الأقوال، وقيل: إن أبا المهاجر من موالى النوبة فى مصر وقيل بأنه يرجع إلى أصول بربرية[٢].

سادسًا: حملة عقبة بن نافع الثانية (٦٢ ـ ٦٣هـ):

وصل عقبة بن نافع إلى إفريقية ورتب أمورها وعامل أبا المهاجر معاملة قاسية، فقد أوثقه فى وثاق شديد[٣]، ومع هذا فقد كان أبو المهاجر مخلصًا وفيًا شهمًا غيورًا، فلم يبخل بنصائحه لعقبة بالرغم ما حدث بينهما من الجفوة. ومن أبرز هذه النصائح إشارته على عقبة بإكرام زعيم البربر كسيلة، ومحاولة تأليفه ليبقى على الإسلام، ولكن عقبة أهان ذلك الزعيم، حيث أمره يومًا أن يسلخ شاة بين يديه، فدفعها كسيلةَ إلى غلمانه، فأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه وانتهره، فقام كسيلة مغضبًا وجعل كلما دس يده فى الشاة مسح بلحيته، وبلغ ذلك أبا المهاجر فبعث إليه ينهاه ويقول: كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب وأنت تعمد إلى رجل جبَّار فى قومه وبدار عزه حديث عهد بالشرك فتفسد قلبه؟ توثَّق من الرجل فإنى أخاف فتكه[٤]. فتهاون به عقبة، وسيأتى الحديث عن غدر كسيلة بالمسلمين، وكيف اغتنم فرصة انفراد عقبة فى بعض جيشه كما سيأتى بيانه، وكيف قال عقبة لأبى المهاجر: الحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين وأنا اغتنم الشهادة، فقال أبو المهاجر: وأنا اغتنم الشهادة مثلك، فكسر كل واحد منهما غمد سيفه وكسر المسلمون أغماد سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا[٥]. قد لاحظنا أن أبا المهاجر خاض معركة واحدة كبرى دوخ بها الروم والبربر، وخضع له البربر، ودخل بعض

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٧٩). (٢) خلافة معاوية للعقيلى، ص (١٣٠، ١٣١).

(٣) فتوح مصر، ص (١٣٤).

(٤) قادة فتح المغرب (١/ ١٣٧ ـ ١٤٢)، رياض النفوس (١/ ٢٦) .

(٥) رياض النفوس (١/ ٢٦ ـ ٢٧)، قادة فتح المغرب (١/ ١٣٧ ـ ١٤٢) .

زعمائهم فى الإسلام وأبرزهم كسيلة، ودخل كثير من قومه فى الإسلام ووفر أبو المهاجر بذلك جهودًا كبيرة كان لابد من بذلها فى فتح بلاد المغرب لو بقى أولئك البربر على كفرهم، ولاشك أن عقبة حينما أهان ذلك الزعيم البربرى لم يكن يعتقد بصحة إسلامه إذ أن عقبة كان فى غاية التواضع للمسلمين وكان اجتهاده يقضى بمحاولة إذلال ذلك الرجل حتى يتحطم طغيانه وتهون مكانته فى نفوس قومه فلا يستطيع بعد ذلك أن يستنفرهم لحرب ضد المسلمين، ولكنه أخطأ فى اجتهاده لأن قوم ذلك الرجل كانوا حديثى عهد بالإسلام، ومهما كان لظن عقبة فيه من احتمال فى عدم الصدق فى الولاء فإن كسبه وبقاءه فى جيش المسلمين وتحت سلطتهم أولى بكثير من معاداته وإتاحة الفرصة له لضرب المسلمين من مكامن الخطر، وهو الذى صحبهم وحاز على شىء من ثقتهم[1]، ومن موقف عقبة المذكور تظهر لنا نتيجة مهمة من نتائج العمل بسنن الإسلام التى من أهمها العمل بالشورى وأخذ رأى أهل الحل والعقد خاصة فى الأمور المهمة، وعلى أى حال فإن كلا القائدين كان مجتهدًا فى تصرفه ولا يظن بواحد منهما أنه كان يعمل لصالح نفسه أو لصالح عشيرته، وإنما كان رائدهما النظر فى مصلحة الإسلام والمسلمين، ولكن كان اجتهاد أبى المهاجر أقرب إلى الصواب فى هذه القضية[2].

١ ـ جهاده من القيروان إلى المحيط:

بعد اكتمال بناء القيروان عام خمسة وخمسين عُزل عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية، ثم أُعيد إليها عام اثنين وستين فقام برحلته الجهادية المشهورة التى قطع فيها ما يزيد على ألف ميل من القيروان فى تونس إلى ساحل المحيط الأطلسى فى المغرب، وقد استخلف على القيروان زهير بن قيس البلوى ودعا لها قائلاً: يا رب املأها علمًا وفقهًا واملأها بالمطيعين لك، واجعلها عزًا لدينك وذلاً على من كفر بك.. وامنعها من جبابرة الأرض[3]، وخرج عقبة بأصحابه الذين قدم بهم من الشام وعددهم عشرة آلاف إلى جانب عدد كبير انضم إليهم من القيروان، ودعا بأولاده قبل سفره وقال لهم: إنى قد بعت نفسى من الله عز وجل فلا أزال أجاهد

---

(١) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٥٤) . (٢) المصدر نفسه (١٣/ ٢٥٤) .

(٣) البيان المغرب (١/ ٢٣)، الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/ ١٢٦) .

من كفر بالـله ثم قال: يا بنى أوصيكم بثلاث خـصال فاحفظوها ولا تضـيعوها: إياكم أن تملأوا صدوركم بالشـعر وتتركـوا القرآن، فإن القـرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدى به اللبيب ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه، وأوصيكم أن لا تداينوا ولو لبستم العباء فإن الدّين ذُلٌّ بالنهار وهم بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعـراضكم وتبق لكم الحرمة فى الناس ما بقيتم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا فيمـن نجا. ثم قال: عليكم سلام الله وأراكم لا ترونني بعد يومكم هذا. ثم قـال: اللهم تقبّل نفـسى فى رضاك واجعل الجـهاد رحـمتى ودار كرامتى عندك[1]. وهكذا ما إن وطئت أقدام عـقبة أرض القيـروان حتى عزم على الخروج للجهاد غـير هياب ولا متردد، ومما يدل على مبلغ حبه للجـهاد وهيامه به قوله فى وصيته لأولاده: إنى قد بعت نفسى من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله. فهـو قد باع نفسه من الله عز وجل، واشتـاق إلى الثمن العظيم الغالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]. فجعل عمله الذى نذر حيـاته لأجله هو الجهاد، ونصب أمام عينيـه الهدف السامى، وهو إعلاء كلمة الله فى الأرض[2]، وفى وصيـته المذكورة لأولاده فوائد جليلة، فـقد أوصاهم بثلاث وصايا:

أ ـ الوصية الأولى: الاهتمام بانتـقاء العلم واختيار أطيبـه، وذلك بالاهتمام أولاً بالقرآن الكـريم، حيث إنه الكتاب الـذى يدل على الله عز وجل، ومـا أبلغه من وصف يهدى إلـى بلوغ الهدف السـامى الذى يسعى إليـه كل مؤمن، وهو ابتـغاء رضوان الله تعالى ونعيمـه، ولا شك أن سنة رسول الله ﷺ مما يدخل فى مقاصد القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا

(١) البيان المغرب (١/ ٢٣)، صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامى والشمال الإفريقى، ص (٢٤٨).

(٢) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٥٧) .

اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]. ثم انتقاء الطيب من كلام العرب الذى يرشد إليه العقل السليم ويحث على مكارم الأخلاق.

ب ـ الوصية الثانية: البعد عن الاستدانة ولو دفع إليها الفقر لأن الدين ذل بالنهار حيث يدفع المستدين إلى بعض مواقف الذل أمام الدائن ومن لهم علاقة به، وهمٌّ بالليل حيث يخلو المستدين إلى نفسه فيتذكر حقوق الناس عليه.

جـ ـ الوصية الثالثة: التحرى فى تلقى العلم، وذلك باختيار العلماء الربانيين أهل الورع والتقوى، والبعد عن العلماء المغرورين أهل الدنيا والجاه، فإنهم يزيدون المتعلم جهلاً حيث يبعدونه عن حقيقة العلم وثمرته وهى تقوى الله عز وجل[١]. ونجد عقبة فى نهاية وصيته لأولاده يسلمّ عليهم سلام المودع، مما يدل على استماتته فى سبيل الله تعالى، ثم يقول: اللهم تقبل نفسى فى رضاك، واجعل الجهاد رحمتى ودار كرامتى عندك[٢]. وبهذا الاهتمام الكبير نجح عقبة بن نافع رحمه الله فى فتوحاته حيث جعل الجهاد قضيته الكبرى فى هذه الحياة[٣]. سار عقبة فى جيش عظيم متجهًا إلى مدينة باغية[٤]، حيث واجه مقاومة عنيفة من البيزنطيين الذين انهزموا أمامه ودخلوا مدينتهم وتحصنوا بها، فحاصرهم مدة ثم سار إلى تلمسان وهى من أعظم مدائنهم فانضم إليها من حولها من الروم والبربر فخرجوا إليه فى جيش ضخم والتحم القتال، وثبت الفريقان حتى ظن المسلمون أن فى تلك المعركة فناءهم، ولكن الله منَّ عليهم بالصبر فكانوا فى ذلك أشدَّ وأصبر من أعدائهم، فهاجموا الروم هجومًا عنيفًا حتى ألجأوهم إلى حصونهم فقاتلوهم إلى أبوابها وأصابوا منهم غنائم كثيرة[٥]، ثم استمر غربًا قاصدًا بلاد الزاب، فسأل عن أعظم مدنها فقيل له (أَرَبَه) وهى دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة، فامتنع بها من كان هناك من الروم وأهل المدينة وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون مع أهل تلك المدينة فانهزم أهل تلك البلاد وقُتل كثير من فرسانهم. ورحل عقبة إلى(تاهرت) فاستغاث الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم، وقام عقبة بن نافع فى الناس خطيبًا فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس

(١) صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامى والشمال الإفريقى، ص (٢٥٩).

(٢) البيان المغرب (١/ ٢٣) . (٣) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٥٨).

(٤) مصر فى العصر الأموى، ص (١٢٣)، الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٨٩) .

(٥) البيان المغرب (١/ ٢٣ـ٢٧)، التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٦١).

إن أشرافكم وخياركم الذين رضى الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله بيعة الرضوان على من كذب بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة، وأنتم اليوم فى دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم فى مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلبا لرضاه وإعزازاً لدينه، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى وربكم عز وجل لا يُسلمكم، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين[١].

وهذه خطبة عظيمة تدل على أن عقبة بن نافع رضى الله عنه قد اعتمد فى حروبه على السلاح الأعظم الذى فيه سر انتصارات المسلمين الباهرة .. ألا وهو التوكل على الله تعالى، واستحضار عظمته وجلاله، ومعيته لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد، فهو لا يبالى بجيوش الأعداء مهما كثرت، وإنما الذى يهتم به أن يتأكد جيداً من أن هذا السلاح المعنوى الفعال قد توافر فى جيشه، وحينما يضمن ذلك فإنه يرحب باجتماع جيوش الأعداء ليكون ذلك أسرع فى هلاكهم وتمزيق جمعهم على يد أولياء الله الصالحين. وما أعظم شبه عقبة بخالد بن الوليد رضى الله عنه، الذى كان يُسَرُّ ويداخله شعور بالقوة والتعاظم ـ من غير غرور ولا استهانة ـ كلما تضخم جيش الأعداء وتعددت عناصره، وكأن عقبة قد تأسى به واتخذه قدوة فى القيادة والإقدام الذى لا يعرف التردد والسآمة، وهو فى إقدامه واندفاعه يدرك أن جنود الإسلام الصادقين هم بأس الله تعالى المسلط على أعدائه الكفار، والله تعالى لا يُردّ بأسه عن القوم المجرمين. إن شعوره الدائم بأن المجاهدين المسلمين هم سيف الله تعالى وبأسه الموجه ضد أعدائه يجعله عظيم الثقة بنصر الله تعالى وحسن الظن به[٢].

هذا وقد التقى المسلمون بأعدائهم فى مدينة (تاهرت) وقاتلوهم قتالاً شديداً، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة عدوهم، ولكنهم انتصروا أخيراً، وانهزم أعداؤهم من الروم والبربر، وقتل منهم عدد كبير، وغنم منهم المسلمون أموالهم

(١) البيان المغرب (١/٢٣ـ ٢٧)، قادة الفتح المغرب العربى (١/١٠٨ـ١٢٠) .
(٢) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٦٠) .

وسلاحهم[1]، ثم توجه إلى جهات المغرب الأقصى فوصل إلى طنجة، حيث قابل بطريقًا من الروم اسمه (جوليان) الذى أهدى له هدية حسنة، ونزل على حكمه[2]. ولما سأله عقبة عن بحر الأندلس قال عنه: لا إنه محفوظ لا يرام[3]، ثم سأله عن البربر والروم -بقوله: دلنى على رجال البربر والروم، فقال: قد تركت الروم خلفك وليس أمامك إلا البربر وفرسانهم فى عدد لا يعلمهم إلا الله تعالى وهم أنجاد البربر وفرسانهم، فقال عقبة: فأين موضعهم؟ قال: فى السوس الأدنى، وهم قوم ليس لهم دين[4]. . استفاد عقبة من هذه المعلومات واتجه إلى الجنوب الغربى، قاصدًا بلاد السوس الأدنى حيث التقى بجموع بربر أطلس الوسطى، فهزمهم وطاردهم نحو صحراء وادى درعا، حيث بنى مسجدًا فى مدينة درعا ثم غادر صحارى مراكش باتجاه الشمال الغربى إلى منطقة (تافللت) من أجل أن يدور حول جبال أطلس العليا كى يدخل بلاد صنهاجة الذين أطاعوه دون قتال، وكذلك فعلت قبائل هكسورة فى مدينة (أغمات)، بعدها اتجه عقبة نحو الغرب إلى مدينة تفيس[5]، حيث حاصر بها جموعًا من البيزنطيين والبربر، فلم ينفعهم تحصنهم، فدخل المدينة منتصرًا وبذلك أتم تحرير بلاد السوس الأقصى ودخل عاصمتها (ايجلى) التى بنى فيها مسجدًا، ثم دعا القبائل فيها هناك إلى الإسلام فأجابته قبائل جزولة، وبعد ذلك سار إلى مدينة (ماسة) ومنها إلى رأس (ايفران) على البحر المحيط[6]، وبوصول عقبة بن نافع إلى ساحل المحيط الأطلسى يكون قد أنجز تحرير معظم بلاد المغرب.

وتشير مصادرنا التاريخية إلى أن عقبة لما وصل إلى المحيط الأطلسى قال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهدًا فى سبيلك. ثم قال: اللهم أشهد أنى قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل من كفر بالله حتى لا يعبد أحد من دونك، ثم وقف ساعة ثم قال لأصحابه: ارفعوا أيديكم،

---

(1) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٩٠).　(2) المصدر نفسه (٢/ ٥٩٠).

(3)، (4) المصدر نفسه (٢/ ٥٩٠)، مصر فى العصر الاموى، ص (١٢٥).

(5) مصر فى العصر الاموى، ص (١٢٦)، البيان المغرب (١/ ٢٦-٢٧).

(6) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٩٠).

ففعلوا، فقال: اللهم لم أخـرج بطراً ولا أشراً وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذى طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تُعـبد ولا يُشرك بك شىء، اللهم إنا معاندون لدين الكفر، ومدافعون عن دين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام، ثم انصرف راجعًا[1]. وندرك من قوله المذكور مدى حبه للجهاد وشعوره بالمسئولية الكبرى التى حـملها على عاتقه نحـو تبليغ الإسلام وتقوية دولته، والقـضاء على دول الكفر التى حـجبت نور الإسلام عن شعوبـها، فهو يقف على البـحر المحيط ويعلم آنذاك أنه نهاية المـعمور من الأرض من ناحيـة المغرب، ثم نجده يُشـهد الله تعالى على أنـه قد بلغ المجهـود الذى تحت مقدرته، وهذه الـشهادة تشـعرنا بمدى ارتباط عقبة بالله تعالى، وأنه لم يكن يسير خطوة إلا وهو يستلهم التوفيق منه جل وعلا ويطلب رضوانه، وهذا الكلام يدل على وضوح الهدف من الجـهاد عند عقبة حيث بيّن أن الحـد الذى يقف عنده الجهـاد، أن يزول الشرك من الأرض، وأن لا يعبـد إلا الله وحده، ومـادام الشرك قائـمًا فإن الجـهاد لا بد أن يكون مـوجودًا، فـالجهـاد إذن هو جهـاد الدعـوة إلى الله تعالى، وذلك بإزالـة الطغيـان البشـرى وإخضاع دول العالم لحكـم الإسلام لكى يكون فهم الإسلام واعتناقه مـتيسراً لكل الناس[2]. ولم يقف عمل عقبة على الجهاد بل رافق ذلك بناء المساجد مثل مسجد درعة ومسجد ماسة بالسوس الأقصى[3]، كما كان يترك نفرًا من أصحابه يعلمون الناس القـرآن وشرائع الإسلام، ومن هؤلاء شـاكر الذى بنى رباطًا مـا بين بلدتى مراكش وموجادور ولا زال موقعه باقـيًا إلى اليوم وهو المعروف عند العامة بالمغرب الأقصى بسيدى شاكر[4]، ويظهر أن أغلبية بربر المـغرب الأقصى أسلموا على يده طوعًا مثل صنهـاجة وهسكورة وجزولة[5]، كما أخضع المصـامدة، وحملهم على طاعة الإسلام[6]، وكى يأمن القبائل الكثيرة من الانتقـاض عليه، كان عقبة يأخذ منها رهائن ويولى عليهـا رجلاً منها مثلما فـعل مع مصمودة، فقـد ترك عليها أبا

---

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٩٠)، البيان المغرب (١/ ٢٣ـ٢٧) ، قادة الفتح للمغرب العربى (١/ ١٠٨ـ١٢٠).
(٢) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٦٢) .
(٣) رياض النفوس (١/ ٢٦)، الإسلام والتعريب (١/ ١٣٣) .
(٤) البيان المغرب (١/ ٢٧) .
(٥) الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/ ١٣٣) .
(٦) تاريخ ابن خلدون (٦/ ١٠٨) .

مدرك زرعة بن أبى مدرك، أحد رؤسائها، الذى شارك فى فتح الأندلس فيما بعد[1]، ويلاحظ أن الوثنية كانت غالبة على بربر المغرب الأقصى مما يفسر كثرة السبايا والغنائم، وأصاب (عقبة) نساء لم ير الناس مثلهن فقيل إن الجارية كانت تساوى بالمشرق ألف مثقال وأكثر[2]، وكان السبى أحد عوامل انتشار الإسلام بين البربر بحكم اختلاطهم بالبيئة العربية الإسلامية، ثم إن الاحتكاك والاختلاط المستمرين بين المقاتلة العرب والبربر أوجد صلات وروابط تجلت فى الحلف والولاء فى هذا الوقت المبكر[3]. يذكر السلاوى أن عقبة حين وصل إلى جبل درن: نهضت زناته وكانت خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة[4]. وهذا يشعر بأن زناته ومغراوة كانتا قد أسلمتا منذ زمن وكانتا حليفتين للمسلمين فنهضتا للدفاع عن المسلمين[5].

٢ ـ استشهاد عقبة بن نافع وأبى المهاجر رحمهما الله تعالى:

يبدو أن عقبة المجاهد المخلص، كان يحس إحساس المؤمن الصادق، أنه سيلقى ربه شهيداً فى هذه الجولة، فعندما عزم على المسير من القيروان فى بداية الغزو دعا أولاده وقال لهم: إنى قد بعت نفسى من الله عز وجل . . . إلى أن قال: ولست أدرى أتروننى بعد يومى هذا أم لا، لأن أملى الموت فى سبيل الله، وأوصاهم بما أحب، ثم قال: عليكم سلام الله . . اللهم تقبل نفسى فى رضاك[6]. نعى عقبة نفسه إلى أولاده، فتقبل الله منه وحقق له أمله فى الشهادة، فقد أعد له الروم والبربر كميناً عند تهوذة[7]، وأوقعوا به وقضوا عليه هو ومن معه من جنوده، وترجع المصادر أمر الكارثة التى تعرض لها عقبة عند تهوذة إلى سبب رئيسى وهو سياسته نحو البربر بصفة عامة، وزعيمهم كسيلة بصفة خاصة، ذلك الزعيم صاحب النفوذ والمكانة فى قومه، والذى كان أبو المهاجر قد تألفه وأحسن إليه، فأسلم وتبعه كثير من قومه، لكن عقبة أساء إلى هذا الرجل إساءة بالغة، فأدرك أبو المهاجر عاقبة الخطأ الذى وقع فيه عقبة ولم يكتم نصيحته عنه ـ رغم أنه كان فى حكم المعتقل ـ ولكن عقبة لم يسمع منه، وكان أبو المهاجر من معاشرته للبربر

(١) فتوح مصر، ص (٢٠٧)، الإسلام والتعريب (١/ ١٣٤) . (٢) رياض النفوس (١/ ٢٤) .
(٣) الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/ ١٣٤) . (٤)، (٥) المصدر نفسه (١/ ١٣٥) .
(٦) البيان المغرب (١/ ٢٣، ٢٤) .
(٧) تهوذة: اسم لقبيلة بربرية بناحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم .

وزعيمهم، قد عرف مدى اعتزازهم بكرامتهم، وأدرك أنهم لن يقبلوا هذه الإهانة، وهذا الإذلال الذى لحق بزعيمهم من عقبة فخاف غدرهم، فأشار على عقبة بالتخلص من كسيلة وقال له: عاجله قبل أن يستفحل أمره[1]، ولكن عقبة لم يصغ إلى هذه النصيحة أيضًا، وليته احتاط للأمر، بل أقدم على عمل آخر فى غاية الخطورة، حيث جعل معظم جيشه يسير أمامه بعد أن رجع من رحلته الطويلة من المغرب الأقصى قاصدًا القيروان، ولما صار قريبًا من القيروان أرسل غالب جيشه على أفواج إلى القيروان وبقى هو على رأس الفوج الأخير، ومعه ما يقرب من ثلاثمائة من الفرسان من الصحابة والتابعين، وكان من عادة عقبة أنه يكون فى مقدمة الجيش عند الغزو ويكون فى الساقة عند قفول الجيش، فهو بذلك يعرض نفسه لخطر مواجهة العدو دائمًا. وإن هذه التضحية الكبيرة جعلته محبوبًا لدى أفراد جيشه بحيث لا يعصون له أمرًا ويتسابقون على التضحية اقتداء به، وهذه الصفة تعتبر من أهم عوامل نجاح القائد فى أى عمل يتوجه إليه، ولما علم الروم بانفراد عقبة بهذا العدد القليل من جيشه انتهزوا هذه الفرصة لمحاولة القضاء عليه، وهم يدركون أن وجوده القوى يعتبر أهم العوامل فى تماسك المسلمين وبقاء قوتهم، فتآمروا عليه مع كسيلة البربرى، فجمعوا لعقبة وأصحابه جمعًا لا قِبَلَ لهم[2] به، وإذا بكسيلة يحيط بجيش عقبة فى جمع عدته خمسون ألفًا[3]. وكان أبو المهاجر موثقًا فى الحديد مع عقبة، فلمّا رأى الجموع تمثل بقول أبى محجن الثقفى:

كفى حزنًا أن تمرغ الخيل بالقنا وأُترك مشدودًا علىّ وثاقيا

إذ قمتُ عنّانى الحديد وأغلقت مصارع من دونى تصمّ المناديا

فلما سمع عقبة ذلك أطلقه، فقال له: الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة، فلم يفعل وقال: وأنا أيضًا أريد الشهادة[4]، وهكذا كان أبو المهاجر نموذجًا من تلك النماذج الفريدة من الرجال، الذين هانت عليهم الحياة الدنيا واستولى على قلوبهم حب الآخرة وكسب رضوان الله تعالى، ومن هذا المنطلق أقدم عقبة ومعه عدد قليل على معركة غير متكافئة، وكان بإمكان بعضهم الفرار

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٩١) .
(٢) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٦٣) .
(٣) البيان المغرب (١/ ٢٥) .
(٤) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٩١) .

ولكنهم ثبتوا ثبات الأبطال حتى استشهدوا جميعًا فى بلاد (تهوذة) من أرض الزاب. ويذكر المؤرخون أن قبور هؤلاء الشهداء معروفة فى ذلك المكان وأن المسلمين يزورونها[1]. وهكذا تحقق أمل عقبة وأبى المهاجر ونالا الشهادة فى سبيل الله بعد ما قاما بالواجب الذى عليهما، واستقبلا الشهادة فى سبيل الله بنفس راضية مطمئنة إلى حسن ثواب ربها، وقد استطاع عقبة أن يشق بجهاده للإسلام طريقه فى هذا الجزء من العالم الذى سار فيه خلفاؤه من بعده، زهير بن قيس البلوى، وحسان بن النعمان الغسانى، وموسى بن نصير، فقد حقق أهدافه من التمهيد لنشر الإسلام والجهاد فى سبيل الله[2]، ولقد كان استشهاد عقبة بن نافع ومن معه فى عام ثلاثة وستين للهجرة وعمره آنذاك فى حدود أربع وستين سنة، وبهذا ندرك مبلغ القوة التى كان يتمتع بها أسلافنا حيث قام بتلك الرحلة الشاقة وخاض المعارك الهائلة وقد جاوز الستين من عمره. وهكذا استشهد هذا القائد العظيم بعد جهاد دام أكثر من أربعين عامًا قضاها فى فتوح شمال أفريقيا، ابتداء بمصر وانتهاء بالمغرب الأقصى[3].

٣ ـ أثر معركة تهوذة على المسلمين (٦٣هـ) :

كانت معركة تهوذة مصيبة على المسلمين، فقد استشهد القائد المجاهد عقبة بن نافع وصحبه، وكان لاستشهاده وقع أليم على المسلمين، وانتابتهم حالة من الهلع والفزع، فمع أن العدد الذى استشهد مع عقبة كان قليلاً ـ قيل حوالى ثلاثمائة جندى ـ وأن معظم الجيش كان قد سار متقدمًا ونجا من المعركة، وكان من الممكن أن يتماسك هذا الجيش ويقاوم، حتى يحتفظ بوجوده فى القيروان، إلا أن الحالة النفسية للجنود لم تسمح بذلك، وقد حاول زهير بن قيس البلوى خليفة عقبة على القيروان أن ينفخ فى الجنود روح المقاومة والتصدى لكسيلة عندما زحف على القيروان، وهتف قائلاً: يا معشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة، وقد منّ الله عليهم بالشهادة، فاسلكوا سبيلهم، أو يفتح الله عليكم دون ذلك[4]، ولكن صيحة زهير هذه لم تجد استجابة، بل لقيت معارضة وتثبيطًا، حيث تصدى له

(١) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٦٤)، البيان المغرب (١/ ٢٨) .
(٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٨٤، ٢٨٥).
(٣) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٦٥) .
(٤) البيان المغرب (١/ ٣١) .

حنش الصنعانى وقال له: لا والله ما نقبل قولك ولا لك علينا ولاية، ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم، ثم قال: يا معشر المسلمين من أراد منكم القفول إلى مشرقة فليتبعنى فاتبعه الناس، ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته، فنهض فى أثره، ولحق بقصره ببرقة، وأقام بها مرابطًا إلى دولة عبد الملك بن مروان[1]، وأما كسيلة فاجتمع إليه جميع أهل إفريقية، وقصد القيروان، وبها أصحاب الأثقال والذرارى من المسلمين، فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم، ودخل القيروان، واستولى على إفريقية وأقام بها غير مدافع إلى أن قوى أمر عبد الملك بن مروان[2]. ولئن أخرجت إفريقية من يد المسلمين فإنها لم تخرج عن الإسلام، فقد أسلمت قبائل من البربر وثبتت على إسلامها وكان تعيش بالقيروان، وكان كسيلة يحسب حسابها ويتفاداها لشدة بأسها فقد اعترف كسيلة بذلك حين اقترح على جيشه الخروج من القيروان واختيار موضع آخر لمواجهة جيش زهير الذى أمده به عبد الملك بن مروان، قال كسيلة: إنى أردت أن أرحل إلى ممس فأنزلها، فإن هذه المدينة (يعنى القيروان) فيها خلق عظيم من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم، ونحن نخاف إذا التحم القتال أن يثبوا علينا[3]. هذا وقد بقيت القيروان بيد كسيلة مدة تقارب خمس سنوات من عام ٦٤هـ - ٦٩هـ حتى خلصها زهير البلوى من قبضته بعد أن أمده عبد الملك بن مروان بجيش كبير عندما يأتى الحديث عن زهير بإذن الله فى عهد عبد الملك بن مروان.

وفى مقتل عقبة رحمه الله درس بليغ وهو أهمية الحذر من العدو فقد أرسل جنوده وبقى فى مجموعة قليلة من المقاتلين رغبة فى الشهادة وهذا مطلب سامى وكبير إلا أن استشهاده كان له آثار سيئة على الفتوحات فى شمال إفريقيا، وضاعت القيروان من أيدى المسلمين لمدة خمس سنوات، وتأخرت الدعوة الإسلامية، لذلك يجب على القادة أن يوازنوا بين مصالح الأمة الكبرى وحرصهم على الشهادة.

---

(١) البيان المغرب (١/ ٣١)، النجوم الزاهرة (١/ ١٥٩) .

(٢) النجوم الزاهرة (١/ ١٦٠)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٨٦).

(٣) رياض النفوس (١/ ٣٠)، الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/ ١٣٦) .

المبحث الثالث

فتوحات معاوية فى الجناح الشرقى للدولة الأموية

كان المسلمون حتى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه قد أتموا فتح البلاد التى تقع بين العراق ونهر جيحون، وتضم جرجان وطبرستان وخراسان وفارس وكرمان وسجستان، فلما قتل عثمان تعثرت حركة الفتح، وخرج أكثر أهل هذه البلاد عن الطاعة، حتى إذا جاء عهد معاوية رضى الله عنه أخذت دولته تبذل جهودًا بالغة لإعادة البلاد المفتوحة إلى الطاعة ومد حركة الفتح[١].

أولاً : فتوحات خراسان[٢] وسجستان وما وراء النهر :

لما استقامت الأمور لمعاوية بن أبى سفيان ولّى عبد الله بن عامر البصرة وحرب سجستان وخراسان[٣]، ولقد جاء تعيين عبد الله بن عامر فى هذا المنصب نظرًا لخبرته السابقة فى هذه المنطقة. وفى سنة ٤٢هـ - ٤٣هـ عين ابن عامر، عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس واليًا على سجستان فأتاها وعلى شرطته عبّاد بن الحصين الحبطى ومعه من الأشراف عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى، وعبد الله بن خازم السُّلمى، وقطرى بن الفجاءة، والمهلب بن أبى صفرة الأزدى ففتحوا فى هذه الحملة مدينة زرنج[٤] صلحًا ووافق مرزبانها على دفع ألفى ألف (مليونى) درهم، وألفى وصيف. ثم تقدموا نحو مدن خواش[٥]، وبست[٦]، وخُشَّك[٧]، وغيرها من البلدان وتمكنوا من فتحها ، كما تمكنوا من فتح مدينة كابل بعد أن ضربوا عليها حصارًا استمر لعدة أشهر[٨]. وما لبث أن جعل معاوية رضى الله عنه إقليم سجستان ولاية مستقلة وأمّر عليها عبد الرحمن بن سمرة كمكافأة له على تحقيقه مثل تلك الفتوحات[٩]. وظل عبد الرحمن واليًا عليها

---

(١) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٢١٩).

(٢) خراسان: أى مطلع الشمس.

(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٣).

(٤) زرنج: مدينة كبيرة هى قصبة سجستان معجم البلدان (٣/ ١٣٨).

(٥) خواش: مدينة بسجستان. معجم البلدان (٢/ ٣٩٨).

(٦) معجم البلدان (١/ ٤١٤).

(٧) خشك: بلدة من نواحى كابل. ومعجم البلدان (٢/ ٣٧٣).

(٨) فتوح البلدان، ص (٣٩٥).

(٩) المصدر نفسه، ص (٣٩٦).

حتى قدم زياد بن أبى سفيان البصرة معينًا عليها بدل عبد الله بن عامر، والذى عزله معاوية سنة ٤٥هـ كما مر معنا، وعادت ولاية خراسان وسجستان مرة أخرى تحت إشراف والى البصرة. وعند وصول زياد البصرة سنة ٤٥هـ قسم خراسان أربعة أقسام هى: مرو وعليها أُمَير أحمد اليشكرى والذى كان أول من أسكن العرب فى مرو[١]، ونيسابور وعليها خُلَيد بن عبد الله الحنفى، ومرو الرُّود والطالقان والفارياب وعليها قيس بن الهيثم السُّلمى، وهَراة وباذغيس وبوشنج وقاديس وعين عليها نافع بن خالد الطاحى الأزدى[٢]، وفى سنة ٤٧هـ عمل زياد على جعل السلطة المركزية فى خراسان فى مدينة مرو (القاعدة الأساسية فيها).

ثانيًا: تعيين الحكم بن عمرو الغفارى:

وكان عفيفًا وله صحبة[٣]، وفى سنة ٤٧هـ غزا الحكم (طخارستان)[٤]، فغنم غنائم كثيرة ثم سار إلى جبال الغور[٥] ،وغزا أهلها الذين ارتدوا عن الإسلام فأخذهم بالسيف عنوة وفتحها وأصاب منها مغانم كثيرة[٦]، وكان المهلب بن أبى صفرة مع الحكم بخراسان، فغزا معه بعض جبال الترك وغزا معه جبل (الأشل)[٧] من جبال الترك، إلا أن الترك أخذوا عليهم الشعاب والطرق، واحتار الحكم بالأمر، فولى المهلب الحرب، فلم يزل المهلب يحتال حتى أسر عظيمًا من عظماء الترك، فقال له: إما أن تخرجنا من هذا الضيق أو لأقتلنك، فقال له: أوقد النار حيال طريق من هذه الطرق، وسير الأثقال نحوه، فإنهم سيجتمعون فيه ويخلون ما سواه من الطرق، فبادرهم إلى طريق أخرى، فما يدركونكم حتى تخرجوا منه، وفعل ذلك المهلب، فسلم الناس بما معهم من الغنائم[٨]، وقطع الحكم نهر جيحون وعبر إلى ما وراء النهر[٩] فى ولايته ولم يفتح، وكان أول من شرب من

(١) فتوح البلدان، ص (٤٠٨).
(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن خلافة معاوية للعقيلى، ص (١٣٥).
(٣) فتوح البلدان، ص (٤٠٩).
(٤) طخارستان: ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد.
(٥) الغور: جبال وولاية بين هراة وغزة.
(٦) الكامل فى التاريخ (٤٧٨/٢).
(٧) الأشل: جبل فى ثغور خراسان.
(٨) الكامل فى التاريخ نقلاً عن قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١١٨).
(٩) ما وراء النهر: جيحون بخراسان، فما كان فى شرقه يقال له: ما وراء النهر، وما كان غربه فهو خراسان، وولاية خوارزم. معجم البلدان (٣٧٠/٧).

مائه من المسلمين هو أحد موالى الحكم، فقد اغترف بترسه بماء النهر، فشرب وناول الحكم فشرب وتوضأ وصلى ركعتين، وكان الحكم أول من فعل ذلك[1].

وقد قال عبد الله بن المبارك لرجل من أهل (الصغانيات): (من فتح بلادك؟) فقال الرجل: لا أدرى!! فقال ابن المبارك: فتحها الحكم بن عمرو الغفارى[2]. وقد مات الحكم سنة ٥٠هـ[3]، فخلفه الصحابى الجليل غالب بن فضالة الليثى والذى واصل سياسة سلفه فى إرسال حملات منظمة فى فتح طخارستان[4] ولكنه، رغم كل الجهود التى بذلها لم يحرز أى تقدم يذكر فى ولايات طخارستان. لذلك عزله زياد وولى مكانه الربيع بن زياد الحارثى (٥٠ ـ ٥٣هـ)[5]، وقد استطاع الربيع بن زياد إبان فترة ولايته على خراسان أن يغزو بلخ فصالحه أهلها، ثم غزا قوهستان ففتحها عنوة، ثم أن ابنه عبد الله، خلفه لبضعة أشهر من عام ٥٣هـ وخلفه خليد ابن عبد الله الحنفى فى إدارة الإقليم، وظل خليد فى منصبه هذا حتى وصل عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان عامل معاوية رضى الله عنه المعين على خراسان فى سنة ٥٤ ـ ٥٥هـ وكان عبيد الله ابن ٢٥ عامًا[6].

ثالثًا: عبيد الله بن زياد:

ما إن وصل عبيد الله إلى مرو حتى قاد حملة مكونة من ٢٤ ألف رجل وقطعوا نهر جيحون على الإبل، وفتحوا راميثين[7] ونسف[8] وبيكندة[9]، فأرسلت (خاتون) ملكة (بخارى) إلى الترك تستمدهم فجاءهم منهم عدد كبير، فلقيهم المسلمون وهزموهم، وعند القتال انتصروا عليهم[10]، فبعثت خاتون تطلب الصلح والأمان وصالحها عبيد الله على ألف ألف درهم فلم يفتح بخارى وفتح بيكندة[11]، وكان قتال عبيد الله الترك من زحوف «خراسان» التى تذكر، وقد ظهر

(١) الكامل فى التاريخ (٢/٤٧٨).

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى، ص (٤٠٠)، قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١١٨).

(٣) طبقات ابن سعد (٧/٢٩).

(٤) خلافة معاوية للعقيلى، ص (١٣٦).

(٥) فتوح البلدان، ص (٤٠٩)، خلافة معاوية للعقيلى، ص (١٣٦).

(٦) تاريخ الطبرى نقلاً عن خلافة معاوية، ص (١٣٨).

(٧) الكامل فى التاريخ (٢/٥٠٦).

(٨)، (٩) المصدر نفسه (٢/٥٠٦).

(١٠) تاريخ اليعقوبى (٢/٢١١)، قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٢٥).

(١١) فتوح البلدان، ص (٤٠١)، قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٢٥).

منه بأس شديد[1]، فقد ذكر شـاهد عيان، فقال: ما رأيت أشجع بأسًـا من عبيد الله بن زياد، لقينا زحف الترك بـ(خراسان)، فرأيتـه يقاتل فيحمل عليهم، فيطعن فيهم ويغيب عنا، ثم يرفع رايته تقطر دمًـا ، وبقى عبيد الله بخراسان[2] سنتين ، إذ ولاه معاوية البصرة سنة ٥٥هـ[3]، فقدم معـه البصرة بخلق من أهل بخارى[4] وهم ألفان كـلهم جيد الرمى بـالنشاب[5]، وتولى ابن زياد أرفع المناصب فى أيام معـاوية ويزيد ومروان وعبـد الملك، وكان موضـع ثقة بنى أميـة وكان يعتـمد فى حكمه على القـسوة لفرض سـيطرته على الناس، وكان لا يبـالى من أجل تدعيم سيطرته أن يرتكب كل أنواع الإجراءات الرادعـة قتلاً وتعذيبًا وحجـزًا للممتلكات والأموال[6]، فقد كان ذا شخصية طاغية يحب الإمارة ويحب السيطرة. ولقد أساء ابن زياد، فترك تصرفه الأهوج فى قـتل الحسين رضى الله عنه أثرًا بالغًا فى أيامه، ولا نزال نعانى من نتائج قـتله حتى اليوم[7]، وسيأتى بيـان تفصيل ذلك بإذن الله عند الحـديث عن مقـتل الحسـين رضى الله عنه. وفى سنة ٥٥ هـ قـدم أسلم بن زرعة الكلابى خراسان واليًا عليها من قبل معاوية بن أبى سفيان بدلاً من عبيد الله ابن زياد والذى ندبه مـعـاوية لولاية البـصرة وظـل أسلم فى ولايتـه مدة تقـارب السنة[8].

رابعًا : سعيد بن عثمان بن عفان(٥٦هـ):

تروى المصادر التـاريخية أن سعـيد بن عثمـان بن عفان قد اصطحب مـعه إلى خراسان حوالى أربعة آلاف رجل فيهم عدد من مشاهير رجالات القبائل العربية فى البصرة والكوفـة، كما كان من ضمنهم حـوالى خمسين عابثًـا وقاطعًا للطريق من أمثال مالك بن الرَّيب المازنى التميـمى، وهؤلاء تابوا ورجعوا إلى رشدهم وفضلوا الجهاد فى سبيل الله[9]، ومالك بن الريب هو القائل:

ألم ترنـى بعت الضـلالـة بالهـدى ... وأصبحت فى جيش ابن عفان غازيا[10]

(١) الكامل فى التاريخ نقلاً عن قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٢٥).
(٢) الكامل فى التاريخ (٢/٥٠٦) .
(٣) المصدر نفسه (٢/٥٠٧).
(٤) المصدر نفسه (٢/٥٠٦)، الفتوح، ص (٤٠١).
(٥) الفتوح، ص (٤٠١).
(٦) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٣٥).
(٧) المصدر نفسه، ص (١٣٧).
(٨) خلافة معاوية للعقيلى، ص (١٣٩).
(٩) المصدر نفسه، ص (١٤٠).
(١٠) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/٣٥٤).

وقدم سعيد خراسان فقطع النهر إلى (سمرقند) وبلغ خاتون ملكة بخارى عبوره النهر، فحملت إليه الصلح الذى صالحت عليه عبيد الله بن زياد وأقبل أهل الصُّغد وكِش ونسف إلى سعيد فى مائة ألف وعشرين ألفًا، فالتقوا ببخارى، وقد ندمت خاتون على أدائها الجزية، فنكثت العهد، ولكن قسمًا من الحشود المجتمعة لقتال سعيد انصرفوا قبل مباشرة القتال، فأثّر انصرافهم فى معنويات الآخرين واهتزّت معنوياتهم، فلما رأت خاتون ذلك، أعادت الصلح، فدخل سعيد مدينة بخارى فاتحًا[1]، وطلب سعيد من خاتون أن تبعث إليه بثمانين من أعيان بلادها ممن كانوا على رأس الخارجين عليها، وممن تخشى غدرهم بها وتهديدهم لعرشها، وتخلّصت بذلك من أشدِّ أعدائها خطرًا على عرشها وحاضرها، ومستقبلها، وحين تمَّ الصلح بين خاتون وسعيد، زارت خاتون سعيدًا بمقرِّه، فطلعت عليه فى زينتها الملكية، وكانت نادرة الجمال على ما يقال، فادّعى أهل بخارى أن القائد المسلم أعجب بجمالها أيّما إعجاب، وجرى ذكر إعجاب سعيد بها فى الأغانى الشعبية التى لا يزال أهل بخارى يردِّدونها ويتغنون بها حتى اليوم، ولكن هذا الإعجاب لا ذكر له فى المصادر العربية الإسلامية المعتمدة، ومن الواضح أنه أقرب إلى خيال الأدباء والفنانين منه إلى حقائق المؤرخين. وغزا سعيد سمرقند، فأعانته خاتون بأهل بخارى، فنزل على باب سمرقند، وحلف ألا يبرح أو يفتحها، وقاتل المسلمون أهل سمرقند ثلاثة أيام، وكان أشدّ قتالهم فى اليوم الثالث حيث فُقئت عين سعيد، ولزم أهل سمرقند أن يفتح سعيد ذلك القصر عنوة ويقتل من فيه، فطلبوا الصلح، فصالحهم على سبعمائة ألف درهم، وعلى أن يعطوه رهنًا من أبناء عظمائهم، وعلى أن يدخل المدينة ومن شاء ويخرج من الباب الآخر، فأعطوه خمسة وعشرين من أبناء ملوكهم، ويقال: إنهم أعطوه أربعين من أبناء ملوكهم، ويقال: ثمانين[2]. وكان معه من الأمراء المهلب بن أبى صُفرة الأزدى وغيره، واستشهد معه يومئذ قثم بن العباس بن عبد المطلب، وكان يُشبَّه بالنبى ﷺ[3]، وكان أخوه عبد الله بن عباس دفن بالطائف وأخوه معبد استشهد بإفريقية وعبيد

(1) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر صـ٨٢، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢٤).

(2) فتوح البلدان، ص (٤٠١ ـ ٤٠٢)، قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٤١).

(3) شذرات الذهب (١/ ٦١)، قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٤٢).

الله بالمدينة وكلهـم من أب واحد وأم واحـدة قال تعـالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

هذا وانصرف سعيـد بن عثمان إلى (ترْمِذ) ففتـحها صلحًا[١]، وقد كان سعيد شاعرًا ومن شعره فى معاوية قوله:

ذكـرت أمـيـر المؤمنين وفـضله	فـقلت جزاه اللـه خيـرًا بما وصل
وقـد سـبـقت منى إليـه بوادر	من القـول فيـه آفة العـقل والزلل
فـعـاد أمـيـر المـؤمنين بفـضـله	وقـد كان فـيه قـبـل عودته مـيل
وقال: خـراسان لك اليوم طعـمة	فـجُوزى أمـيـر المؤمنين بمـا فـعل
فلو كـان عـثـمـان الغـداة مكانه	لما نالنى من ملكه فوق ما بذل[٢]

وعزل معاويـة سعيد عام ٥٧هـ، فأخـذ سعيد مالاً من خراج خُـراسان، فوجّه معاوية من لقيه بـ(حلوان)[٣] وأخذ المال منه، ومضى سعيد بالرهن الذين أخذهم من أبناء عظماء (سمرقند) حتى ورد بهم المدينة النبوية، فدفع ثيابهم ومناطقهم إلى مواليه، وألبـسهم جباب الصوف، وألزمـهم السقى والعمل[٤]، وألقاهم فى أرض يعملون له فـيها بالمساحى، فـأغلقوا يومًا باب الحـائط ووثبوا عليه فقـتلوه ثم قتلوا أنفسهم[٥]، فقال خالد بن عقبة بن أبى معيط الأموى[٦]:

ألا إنّ خـيـر الناس نفـسًـا ووالدًا	سعـيد بن عثـمان قتـيل الأعاجم
فـإن تكن الأيام أردت صـروفـهـا	سعيـدًا فهل حىٌّ من الناس سالم؟

وقال أيضًا يرثيه:

يا عـين جودى بدمع مـنك تهتـانًا	وأبكى سعـيد بن عثمان بـن عفانا

لم يف سعـيد لأهل (سمرقند) بإعـادة الرهن لهم، بل جاء بالغلمان مـعه إلى المدينة النبويـة وجعل يستـعملهم فى النخيل والطيـن وهم أولاد الدهاقين وأرباب

(١) فتوح البلدان، ص (٤٠٢)، قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٤٢).

(٢) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٤٤).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٤٣، ١٤٤).

(٤) فتوح البلدان، ص (٤٠٢ ـ ٤٠٣).

(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (٤٠٣)، قادة الفتح الإسلامى، ص (١٤٢).

النِّعم، فلم يطيقوا ذلك العمل وسئموا عيشهم فوثبوا عليه فى حائط له، وبذلك غدر بهم[١]، فكان هذا الغدر وبالاً عليه، إذ قدم حياته ثمنًا لغدره[٢]، لقد كان سعيد شهمًا غيورًا يعتد بشخصيته، طموحًا، مُتْرَفًا، سخيًا، وكان من شخصيات قريش البارزة[٣].

خامسًا: فتح سلم بن زياد أخي عبيد الله بن زياد (٥٧هـ):

عزل معاوية بن أبى سفيان سعيد بن عثمان بن عفان سنة سبع وخمسين الهجرية، وأُضيفت إلى ولاية عبيد الله بن زياد فى رواية[٤]، وفى رواية أخرى، أن معاوية بن أبى سفيان ولّى خراسان عبد الرحمن بن زياد، وكان شريفًا، فلم يصنع شيئًا فى مجال الفتح، وكان ذلك فى سنة ٥٩هـ[٥]، ومات معاوية وعلى خراسان عبد الرحمن بن زياد ولما سار سلم إلى خراسان، كتب معه يزيد إلى أخيه عبيد الله بن زياد، فى العراق ينتخب له ستة آلاف فارس، وقيل: ألفى فارس، وكان سلم ينتخب الوجوه، فخرج معه عمران بن الفضيل البُرجُمِيّ، والمهلب بن أبى صفرة، وعبد الله بن خازم السُّلمى، وطلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعى وخلق كثير من رؤساء البصرة وأشرافهم، فأخذ سلم هؤلاء الفرسان معه من البصرة، وتجهز ثم سار إلى خراسان[٦]، وبدأ سلم بغزو خوارزم، فصالحوه على أربعمائة درهم وحملوها إليه. وقطع سلم النهر (جيحون) ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبى العاص الثقفى، وكانت أوّل امرأة عربية عُبر بها النهر، فأتى (سمرقند) فصالحه أهلها[٧]. ووجد (خاتون) ملكة بخارى قد نقضت العهد، واستنجدت بجيرانها من الصُّغْد، وأتراك الشمال، فجاء طرخون على جيش الصُّغْد، كما جاء ملك الترك فى عسكر كثيف، ولم تؤثر تلك الحشود الضخمة من القوات المعادية فى معنويات المسلمين، فحاصروا بخارى دون أن

---

(١) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٤٣).
(٢) المصدر نفسه، ص (١٤٣).
(٣) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥١٤).
(٤) النجوم الزاهرة (١/ ١٤٩)، قادة الفتح الإسلامى، ص (١٤٨).
(٥) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٤٨).
(٦) الكامل فى التاريخ نقلا عن قادة الفتح الإسلامى، ص (١٤٩).
(٧) قادة الفتح الإسلامى، ص (١٤٩)، فتوح البلدان، ص (١٤٩).

يهجموا عليها، ليقفوا أولاً على تفاصيل قوات أعدائهم ومواضعها، وهي متربصة بهم في مواضع ليست بعيدة عن بخارى. وأمر سلم المهلب بن أبي صفرة الأزدي أن يستطلع أحوال العدو فاقترح المهلب أن يكلف غيره بهذه المهمة، وحجته أنه معروف المكانة بين قومه والمسلمين وقد يفشي تغيبه عن معسكر المسلمين سرّ الواجب الذي أُلقي على عاتقه، وهذا الواجب ينبغي أن يبقى سراً مكتومًا حتى يتم إنجازه بسرية تامة وكتمان شديد وحذر بالغ، لأن إفشاءه يعرّض المسلمين لخطر جسيم، ولكنّ سلم بن زياد أصرّ على إيفاد المهلب دون غيره في هذا الواجب الحيوي الذي قد يعجز غيره عن النهوض به كما ينبغي، وأرسل معه ابن عمه ورجلاً من كل لواء من ألوية المسلمين، واشترط المهلب على سلم ألا يبوح لأحد من الناس كائنًا من كان بمهمته، ثم مضى إلى سبيله ليلاً مع جماعته الاستطلاعية، فكمن في موضع مستور، واستطلع قوات العدو دون أن يشعر العدو بموضعه المخفيّ المستور، ويبدو أن قوم المهلب والمسلمين افتقدوا المهلب في صلاة الفجر من تلك الليلة التي تسلل بها المهلب إلى موضع قريب من العدو، فما كان تغيب مثله أن يخفى على أحد وهو ليس مجهول المكان والمكانة، يملأ الأعين قدرًا وجلالاً، فألحّوا على سلم بالسؤال عن المهلب وألحفوا عليه، فلم يستطع أن يكتم أمره وأخبرهم أنه أرسله في مهمة استطلاعية ليلاً، وفشا الخبر بسرعة خاطفة في العسكر، فأسرع جمع من المسلمين بالركوب وتوجّهوا صوب موضع المهلب المستور، فكشفوا موضعه وموضع رجاله للعدو، وأبصرهم المهلب مقبلين نحوه يتسابقون بدون نظام ولا تنظيم، فلامهم أشد اللوم على ما أقدموا عليه، لأنهم كشفوا موضع جماعته الاستطلاعية للعدو دون مسوّغ، فعرّضهم لخطر محدق أكيد، وأصبح موقف المهلب ومن معه من المسلمين في خطر داهم فبذل المهلب قصارى جهده لمعالجة موقفه الخطير، وتدارك ما يمكن تداركه، وأحصى المهلب المسلمين الذين التحقوا به متطوّعين، فكانوا تسعمائة من الفرسان المجاهدين، فقال لهم: والله لتندمُنّ على ما فعلتم، وحدث ما توقعه المهلب، فما كاد ينظّم المسلمين صفوفًا، حتى هاجمهم الترك وأبادوا منهم أربعمائة فارس مجاهد، ولاذ الباقون منهم على قيد الحياة بالفرار، وأحيط بالمهلب ومن بقي معه من جماعته

الاستطلاعية ذات العدد المحدود، ولكنه ثبت ثباتًا راسخًا لا يتزعزع عن موضعه، فالموت بالنسبة لأمثاله أهون عليهم من الفرار، وصاح المهلب بصوته الجهوريّ القوى مستغيثًا بالمسلمين، فسُمع صوته من معسكر المسلمين القريب، الذى كان على نصف فرسخ من موضعه المواجه للعدو، وبادر فورًا إلى نجدته من قومه الأزد، فشاغلوا الترك ريثما أقبل المسلمون خفافًا لنجدته على عجل بقيادة سَلْم، ونشب القتال بين الجانبين، فقاتل المسلمون الترك حتى هزموهم هزيمة نكراء حيث هربوا من ساحة المعركة مخلِّفين أموالهم وأثقالهم، فغنمها المسلمون حتى أصاب كلّ فارس ألفين، وأربعمائة درهم فى رواية، وعشرة آلاف درهم فى رواية أخرى، وطارد المسلمون الترك المنهزمين، فلم ينجِ منهم إلا الشريد، وكان من بين القتلى (بندون) أو (بيدون) الصُّغدى ملك الصُّغد وأعادت خاتون الصُّلح من جديد مع سلْم ، فاستعاد فتح بخارى[1]، وبعث سَلْم وهو بالصّغد جيشًا من المسلمين إلى (خُجَنْدة) وفيهم الشاعر أعشى همدان، فهُزم المسلمون فقال الأعشى:

ليت خيلى يوم الخُجَنْدة لم يهزم وغودرت فى المكرِّ سَلِيبَا

تحضُرّ الطيرُ مصرعى وتروحت إلى الله فى الدماء خضيبا[2]

وكان عمّال خراسان قبل سَلْم يغزون، فإذا دخل الشّتاء رجعوا إلى (مزوا الشّاهجان)، فإذا انصرف المسلمون اجتمع ملوك خراسان بمدينة مما يلى خُوارزم، فيتعاقدون أن لا يغزو بعضهم بعضًا، ويتشاورون فى أمورهم. فلما قدم سَلْم غزا فشتا فى تلك السنة، فألحّ عليه المهلّب بن أبى صفرة وسأله التوجه إلى تلك المدينة، فوجّهه فى ستة آلاف، وقيل: أربعة آلاف، فحاصرهم، فطلبوا أن يصالحهم على أن يفدوا أنفسهم، فأجابهم إلى ذلك وصالحوه على نيِّف وعشرين ألف درهم، وكان فى صلحهم أن يأخذ منهم عروضًا، فكان يأخذ الرأس والدّابة بنصف ثمنه، فبلغت قيمة ما أخذ منهم خمسين ألف ألف درهم[3]، وعاد سلم إلى(مَرْو) بعد جهاد هذه السنة الذى استمرّ سنتى إحدى وستين الهجرية واثنتين

---

(١) تاريخ بخارى للنرشخى، ص (٦٥ ـ ٦٧) نقلاً عن قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٥٢).

(٢) فتوح البلدان، ص (٥٨١)، الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٨٤).

(٣) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٨٤).

وستين الهجرية، ويبدو أنه قطع النهر ثانية في سنة ثلاث وستين الهجرية[1]، لأنه علم بأنّ الصُّغد قد جمعت له، فقاتلهم وقتل ملكهم[2]، ولكنه عاد مسرعًا إلى (مرو) ليعالج مشاكل المنطقة الداخلية، فقد أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم[3]، فقد مات يزيد بن معاوية سنة أربع وستين، فبويع بعده معاوية بن يزيد بن معاوية فلم يمكث إلا ثلاثة اشهر حتى هلك، وقيل: بل ملك أربعين يومًا ثم مات[4]، وقيل غير ذلك، ولما بلغ سلم موت يزيد بن معاوية كتم ذلك، ولكنّ الخبر انتشر بين الناس في خُراسان انتشار النار في الهشيم، فمثل هذا الخبر يستحيل كتمانه مدة طويلة، ولما علم سلم بانتشار خبر موت يزيد بين الناس، أظهر موت يزيد وابنه معاوية، ودعا الناس إلى البيعة على الرضا حتى يستقيم أمر الناس على خليفة، فبايعوه ثمّ نكثوا بعد شهرين، وكان سلم محسنًا إليهم محبوبًا فيهم، ولكن قسمًا من القبائل العربية خلعوه عصبية وتعصبًا وفتنة، فلم يجد أهل خُراسان أميرًا قد أحبهم مثل سَلْم بن زياد[5]، ولكن قائلهم قال: بئس ما ظنّ سَلْم، إن ظنّ أنه يتأمر علينا في الجماعة والفتنة[6]، ووثب أهل خُراسان بعمالهم فأخرجوهم، وغلب كل قوم على ناحية، ووقعت الفتنة، ووقعت الحرب[7]، ونشب الاقتتال بين القبائل العربية ، وأصبحت خراسان مناطق؛ في كل منطقة قائد وأمير، وتساقطت القتلى بين المسلمين بالسيوف، وتوقف الفتح وتوجه سَلْم إلى عبد الله ابن الزبير في مكة المكرمة[8].

سادسًا : فتوحات السند في عهد معاوية :

تمكن المسلمون في عهد معاوية رضي الله عنه من بسط نفوذهم إلى ما وراء نهر السند، ففي سنة ٤٤هـ غزا المهلب بن أبي صفرة ثغر السند فأتى بنّة[9]، ولاهور،

---

(١) قادة الفتح الإسلامي، ص (١٥٢).
(٢) فتوح البلدان، ص (٥٨٢).
(٣) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص (١٥٢).
(٤) الكامل في التاريخ (٢/ ٥-٦).
(٥) المصدر نفسه (٢/ ٦٢٣).
(٦) فتوح البلدان، ص (٥٨٢).
(٧) قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ص (١٥٣).
(٨) فتوح البلدان، ص (٥٨٢)، قادة الفتح الإسلامي، ص (١٥٤).
(٩) بنّة: مدينة بكابل، ياقوت، معجم البلدان (٢/ ٥٠٠).

وهما بين المُلتان[1]، وكابل، وأما في مستهل سنة ٤٥هـ فقد أرسل والي البصرة عبد الله بن عامر (عبد الله بن سوّار العبدي) إلى ثغر السند على رأس حملة قوامها أربعة آلاف رجل، ولما وصل ابن سوّار إلى مدينة مكران، بقي هناك أربعة أشهر يعدّ نفسه وجنده للحملة المرتقبة. ثم تقدم وجماعته نحو بلاد القيقان[2]، وفتحها، وكانت هديته إلى معاوية رضي الله عنه خيلاً قيقانية[3] سلّمها بنفسه إليه في الشام، فأصل البرازين القيقانية من نسل تلك الخيول[4]. وعلى أية حال، فلم يدم المقام لابن سوّار طويلاً في ثغر السند فقد قتله جماعة من الترك هناك في سنة ٤٧هـ[5]، وفي سنة ٤٨هـ اختار زياد بن أبي سفيان سنان بن سلمة بن المُحَبِّق الهذلي ليكون واليًا على الأقاليم المفتوحة من ثغر السند وما أن وصل سنان إلى هناك حتى تمكن من فتح مدينة مكران (عنوة) ومصّرها وأقام بها وضبط البلاد[6]. ولكن سنان لم يمكث هناك سوى سنة أو سنتين ثم عزله زياد. وولى مكانه راشد ابن عمرو الأزدي، فأتى مكران ثم تقدم في بلاد القيقان، فظفر، ثم اتجه نحو الميد، فقتل هناك[7]، وبعد ذلك تولّى عباد بن زياد بن أبي سفيان أمر سجستان فقاد حملة توغل فيها في منطقة حوض نهر السند فنزل كِشْ، ثم سار إلى قُنْدُهار[8]، فقاتل أهلها فهزمهم، وفتحها بعد أن أصيب رجال من المسلمين[9]، وكان آخر الولاة الذين تولوا أمر الفتوحات في هذا الجزء هو المنذر بن الجارود العبدي أبو الأشعث والذي وصل ثغر السند معينًا عليه من قبل عبد الله بن زياد ابن أبي سفيان والي البصرة سنة ٦٢هـ، فقاد المنذر حملة ضد مدينة قُصدار[10]، وتمكن من فتحها[11].

---

(١) المُلتان: مدينة من نواحي الهند قرب غزنة، أهلها مسلمون.

(٢) القيقان: بلاد قرب طبرستان، معجم البلدان (٤/ ٤٢٣).

(٣) فتوح البلدان، ص (٤٣٢).

(٤)، (٥) تاريخ خليفة، ص (٢٠٧)، خلافة معاوية بن أبي سفيان للعقيلي، ص (١٤٢).

(٦) فتوح البلدان، ص (٤٣٢).

(٧) المصدر نفسه، ص (٤٣٢).

(٨) معجم البلدان (٤/ ٤٠٢) .

(٩) فتوح البلدان، ص (٤٣٣).

(١٠) معجم البلدان (٤/ ٣٥٣) .

(١١) فتوح البلدان، ص (٤٣٣)، خلافة معاوية للعقيلي، ص (١٤٣).

المبحث الرابع

أهم الدروس والعبر والفوائد في فتوحات معاوية رضى الله عنه

أولاً : أثر الآيات والأحاديث فى نفوس المجاهدين :

كان للآيات والأحاديث التى تتحدث عن فضل الجهاد أثرها فى نفوس المجاهدين، فقد بين المولى عز وجل أن حركات المجاهدين كلها يثاب عليها، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

وقد تعلموا أن الجهاد أفضل من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج فيه، قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة : ١٩ـ ٢٢].

واعتقدوا أن الجهاد فوز على كل حال، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة : ٥٢]، وأن الشهيد لا تنقطع حياته بل هو حى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

الْمُؤْمنينَ﴾[آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١]. وكانوا يشعرون بسمو هدفهم الذى يقاتلون من أجله، قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتلْ في سَبيل اللَّه الَّذينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بالآخرَة وَمَن يُقَاتلْ في سَبيل اللَّه فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلبْ فَسَوْفَ نُؤْتيه أَجْرًا عَظيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتلُونَ في سَبيل اللَّه وَالْمُسْتَضْعَفينَ منَ الرِّجَال وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَان الَّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرجْنَا منْ هَذه الْقَرْيَة الظَّالم أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا من لَّدُنكَ وَليًّا وَاجْعَل لَّنَا من لَّدُنكَ نَصيرًا (٧٥) الَّذينَ آمَنُوا يُقَاتلُونَ في سَبيل اللَّه وَالَّذينَ كَفَرُوا يُقَاتلُونَ في سَبيل الطَّاغُوت فَقَاتلُوا أَوْليَاءَ الشَّيْطَان إنَّ كَيْدَ الشَّيْطَان كَانَ ضَعيفًا﴾[النساء: ٧٤ ـ ٧٦].

وقد بيَّن الرسول ﷺ للمسلمين فضل الجهاد فألهبت أحاديثه مشاعرهم وعواطفهم وفجرت طاقاتهم، ومن هذه الأحاديث ما ورد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، أى الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: «مؤمن يجاهد بنفسه وماله»(١)، وقد بيَّن رسول الله ﷺ درجات المجاهدين فقال: «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة»(٢). وقد وضح ﷺ فضل الشهداء وكرامتهم فقال: «انتدب الله لمن خرج فى سبيله لا يُخرجه إلا إيمان بى وتصديق برسلى أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرِيّة ولوددت أنى أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم اقتل ثم أحيا ثم أقتل»(٣) وقال ﷺ: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شىء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»(٤). وغير ذلك من الأحاديث.

وقد تأثر المسلمون الأوائل ومن سار على نهجهم بهذه الآيات والأحاديث، فكان كبار الصحابة رضى الله عنهم يغزون وقد تقدم بهم العمر فيشفق عليهم الناس وينصحونهم بالقعود عن الغزو، لأنهم معذورون فيجيبونهم أن سورة التوبة تأبى عليهم القعود ويخافون على أنفسهم من النفاق إذا ما تخلفوا عن الغزو(٥).

---

(١) البخارى رقم (٢٧٨٦).
(٢) البخارى رقم (٢٧٩٠).
(٣) مسلم (٣/١٤٩٧).
(٤) البخارى رقم (٢٨١٧).
(٥) الجهاد فى سبيل الله للقادرى (١/١٤٥).

كما كان للعلماء والفقهاء والزهاد دور كبير في تربية الناس على هذه الآيات والأحاديث ومن هؤلاء العلماء كبار الصحابة كأبي أيوب الأنصاري، وابن عمر، وغيرهما ومن التابعين كأبي مسلم الخولاني، يرون أن الجهاد في سبيل الله ضرورة من ضرورات بقاء الأمة الإسلامية، فقاموا بهذه الفريضة في فتوحات بلاد الشام والشمال الأفريقي وخراسان وسجستان والسند، وترتب على قيامهم بهذه الفريضة ثمرات كثيرة منها: تأهيل الأمة الإسلامية لقيادة البشرية، القضاء على شوكة الكفار وإذلالهم وإنزال الرعب في قلوبهم، ظهور صدق الدعوة للناس الأمر الذي جعلهم يدخلون في دين الله أفواجًا، فيزداد المسلمون بذلك عزًا والكفار ذُلًا، وتوحدت صفوف المسلمين ضد أعدائهم وأسعدوا الناس بنور الإسلام وعدله ورحمته[1].

ثانيًا: من سنن الله في فتوحات معاوية:

يلاحظ الباحث في دراسته للفتوحات في عهد معاوية بعض سنن الله في المجتمعات والشعوب والدول، ومن هذه السنن:

١ ـ سنة الله في الاتحاد والاجتماع: كانت الفتنة التي أدت إلى استشهاد عثمان رضي الله عنه أكبر معوق أصاب حركة الفتوحات بعد الردة أيام أبي بكر رضي الله عنه، حيث أدى استشهاد عثمان إلى توقف الجهاد، واتجاه سيوف المسلمين إلى بعضهم في فتنة كادت تعصف بالأمة الإسلامية، لولا أن تداركتها رحمة الله ـ سبحانه -وتعالى- بصلح الحسن بن علي مع معاوية رضي الله عنهما، وقد امتلأت المصادر بالنصوص التي تبين أثر الفتنة في انحسار حركة الجهاد.[2] ومن هذه الآثار:

ـ عن الحسن بن علي رضي الله عنه أنه قال: قد رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزلها وأخلي بين معاوية وبين هذا الحديث، فقد طالت الفتنة، وسقطت فيها الدماء وقطعت فيها الأرحام وقطعت السبل، وعُطلت الفروج ـ يعني الثغور ـ[3].

ـ ما أخرجه أبو زرعة الدمشقي بإسناده قال: لما قتل عثمان، واختلف الناس، لم تكن للناس غازية، ولا صائفة حتى اجتمعت الأمة على معاوية[4].

(١) الجهاد في سبيل الله (٢/ ٤١١ ـ ٤٨٢).
(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (٣١٠).
(٣) الطبقات: تحقيق السُلمي (١/ ٣٣١).
(٤) مرويات خلافة معاوية، ص (٣١٠).

- قول أبى بكر المالكى: فوقعت الفتنة .. واستشهد عثمان رضى الله عنه، وولى بعده على رضى الله عنه، وبقيت إفريقية على حالها إلى ولاية معاوية رضى الله عنه[1]، ولكن بعد الصلح وما ترتب عليه من الاتحاد والاجتماع عادت حركة الفتوحات إلى ما كانت عليه، وأصبحت فى عهد معاوية على ثلاث جبهات كما مر معنا . إن الاتحاد والاجتماع على كتاب الله وسنة رسوله مقصد من مقاصد الشريعة، وهذا المقصد من أهم أسباب التمكين لدين الله واستمرار حركة الفتوحات، فالأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين، وتوحيد صفهم من أعظم الجهاد، لأن هذه الخطوة مهمة جدًا فى إعزاز المسلمين، وإقامة دولتهم، وتحكيم شرع ربهم[2]. فحركة الفتوحات بين الانطلاق والتوقف مرهون بتحقيق سنة الاتفاق والاتحاد والاجتماع ونبذ الفرقة والخلاف والشقاق، قال تعالى: ﴿ واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٢ - سنة الأخذ بالأسباب: قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقد قام معاوية رضى الله عنه بالعمل بهذه الآية وحث ولاته على العمل بها، ويظهر أخذ معاوية رضى الله عنه بسنة الأخذ بالأسباب، فى اهتمامه ببناء الأسطول البحرى وتطويره، وتقوية الجيش، والقضاء على الفتن الداخلية، ودعم الثغور، وأماكن الرباط والتخطيط الاستراتيجى للدولة فى سياستها الداخلية والخارجية، والتكتيك العسكرى، فى نظام المعسكرات، ونظام الرباط والثغور، والصوائف والشواتى، وبناء الحصون، ونظام التعبئة، وتوطين القبائل، لنشر الإسلام وتثبيت الفتوحات والتصدى لحركات التمرد، فبعدما زال خطر الهجوم العسكرى من الفرس قام بتوطين عشرات الألوف من الأسر العربية فى الجناح الشرقى من الدولة خاصة خراسان، وقد نجحت هذه السياسة وآتت ثمارها فى هذا الجناح[3].

---

(١) رياض النفوس (١/ ٢٧). (٢) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على، ص (٣٥٩).
(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١١٩).

٣ ـ سنة التدافع: قال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] وقد تحققت هذه السنة فى حركة الفتوحات عمومًا، وسنة التدافع من أهم سنن الله تعالى فى كونه وخلقه، وهى من أهم السنن المتعلقة بالتمكين للأمة الإسلامية، وقد استوعب المسلمون الأوائل هذه السنة وعملوا بها وعلموا: أن الحق يحتاج إلى عزائم تنهض به، وسواعد تمضى به، وقلوب تحنو عليه وأعصاب ترتبط به. إنه يحتاج إلى جهد بشرى، لأن هذه سنة الله فى الحياة الدنيا وهى ماضية[1].

٤ ـ سنة الابتلاء: قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقد وقع البلاء فى حصار القسطنطينية، وتعرض الكثير من المسلمين للقتل، وفى فتوحات الشمال الإفريقى، واستشهاد القادة كعقبة بن نافع وأبى المهاجر دينار، وغيرهما، فهذه سنة الله فى العقائد والدعوات فلا بد من الأذى فى الأموال والأنفس ولا بد من صبر، واعتزام[2].

٥ ـ سنة الله فى الظلم والظالمين: قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠ـ ١٠٢]. وسنة الله مطردة فى هلاك الأمم الظالمة، وقد مارست الدولة الفارسية الظلم على رعاياها، وتمردت على منهج الله فمضت فيها سنة الله وسلط الله عليها المسلمين فأزالوها من الوجود[3]، وكذلك نفوذ الدولة البيزنطية من الشام ومصر، وتزعزع وجودها فى الشمال الإفريقى، وما جاء عهد الوليد بن عبد الملك حتى زال نفوذها من الشمال الإفريقى كليًا.

---

(١) لقاء المؤمنين، عدنان النحوى (٢/ ١١٧).

(٢) تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين للصلابى، ص (٤٥٦).

(٣) السنن الإلهية فى الأمم والجماعات والأفراد، ص (١١٩ـ١٢١).

٦ ـ سنة الله فى المترفين: قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. وجاء فى تفسيرها: وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها، أى: متنعميها وجبّاريها وملوكها، ففسقوا فيها فحق عليها القول فأهلكها، وإنما خص الله المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع، لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد[1]، وقد مضت هذه السنة فى زعماء الفرس وأئمتهم فى بلاد فارس وزعماء الروم فى الشام ومصر والشمال الإفريقى.

٧ـ سنة الله فى الطغيان والطغاة: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] والآية وعيد للعصاة مطلقًا، وقيل: وعيد للعصاة ووعيد لغيرهم[2]. وفى تفسير القرطبى: أى يرصد كل إنسان حتى يجازيه به[3]، وواضح من أقوال المفسرين فى الآيات التى ذكرناها فى الفقرة السابقة أن سنة الله فى الطغاة إنزال العقاب بهم فى الدنيا، فهى سنة ماضية لا تتخلف، جرت على الطغاة السابقين وستجرى على الحاضرين والقادمين، فلن يفلت منهم أحد من عقاب الله[4]. وسنة الله فى الطغاة وما ينزله الله بهم من عقاب فى الدنيا، إنما يعتبر بها من يخشى الله جلّ جلاله ويخاف عقابه، ويعلم أن سنة الله قانون ثابت لا يحابى أحدًا، قال تعالى فى بيان المعتبرين بسنته فى الطغاة ـ بعد أن ذكر ما حلّ بفرعون من سوء عقاب ـ: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٥، ٢٦]، فهؤلاء الطغاة من زعماء الفرس، وزعماء الروم فى مصر والشام مضت فيهم سنة الله.

٨ ـ سنة التدرج: خضعت الفتوحات الإسلامية لسنة التدرج، ويعتبر الحصار الأول والثانى للقسطنطينية مرحلة مبكرة لفتح القسطنطينية على عهد السلطان العثمانى محمد الفاتح، فالأعمال التى قام بها المسلمون ضد الدولة البيزنطية قبل محمد الفاتح ساهمت فى عمل تراكمى توّج بفتح القسطنطينيه فى عهد العثمانيين.

---

(١) تفسير الألوسى (١٥/٤٢).

(٢) السنن الإلهية، ص (١٩٣).

(٣) تفسير القرطبى نقلا عن السنن الإلهية، ص (١٩٣).

(٤) السنن الإلهية، ص (١٩٤).

٩ـ سنة الله فى الذنوب والسيئات: قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

وقد أهلك الله تعالى أمة الفرس بسبب ذنوبهم التى اقترفوها، وأزال ملك الروم من مصر والشام وليبيا بسببها، وفى هذه الآية حقيقة ثابتة وسنة مطردة؛ أن الذنوب والمعاصى تهلك أصحابها، وأن الله تعالى هو الذى يهلك المذنبين بذنوبهم[1]، وقد سلط الله أمة الإسلام على الفرس والروم عندما حققت شروط التمكين وعملت بسننه وأخذت بأسبابه وحققت أهدافه

١٠ـ سنة تغيير النفوس: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وقد قام الصحابة الكرام رضوان الله عليهم والتابعون بإحسان فى فتوحات الشام ومصر والشمال الأفريقى وبلاد المشرق بالعمل بهذه السنة الربانية مع الشعوب التى أرادت أن تدخل فى دين الله. فشرعوا فى تربية الناس على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فغرسوا فى نفوسهم العقائد الصحيحة والأفكار السليمة والأخلاق الرفيعة.

ثالثًا: التخطيط الاستراتيجى للفتوحات عند معاوية رضى الله عنه:

خضعت الفتوحات فى عهد معاوية للتخطيط الدقيق والمحكم، فقد كانت سياسته فى الفتوحات كالآتى:

١ـ سياسته تجاه الروم:

فقد سلك الخطوات التالية:

أ ـ التركيز على عمليات الصوائف والشواتى، من أجل تحقيق عدة أهداف منها:

ـ استنزاف قوة الروم.

---

(١) السنن الإلهية، ص (٢١٠).

- انتزاع زمام المبادرة من الروم، وجعلهم فى حالة دفاع مستمر[1].

- إرغام الروم على توزيع قواتهم بحيث لا يستطيعون القيام بهجمات حاسمة وقوية ضد الدولة الإسلامية[2].

ب - مهاجمة الروم فى عقر دارهم ومحاصرة عاصمتهم، وما يترتب على ذلك من إضعاف معنوياتهم، وقذف الرعب فى قلوبهم.

جـ - تقليص النفوذ البحرى للروم عن طريق فتح الجزر الواقعة فى بحر الشام[3]، وما يترتب على ذلك من حرمان سفن الروم من قواعدها البحرية الهامة.

٢ - سياسته فى جبهة الشمال الإفريقى:

أ - أولى معاوية رضى الله عنه جبهة المغرب اهتمامًا خاصًا تمثل بارتباط هذه الجبهة به شخصيًا، حيث كان معاوية رضى الله عنه المرجع المباشر لقادة هذه الجبهة إلى سنة ٤٧هـ، وهى السنة التى ضُمت فيها جبهة المغرب إلى والى مصر[4].

ب - عمل معاوية رضى الله عنه على إقامة قاعدة جهادية متقدمة فى قلب بلاد المغرب، وقد قام عقبة بن نافع ببناء القيروان لكى تكون عزًا للإسلام والمسلمين.

٣ - سياسته فى جبهة سجستان وخراسان وما وراء النهر:

أ - استعانة معاوية رضى الله عنه بفاتح سجستان وخراسان أيام عثمان رضى الله عنه، وهو عبد الله بن عامر رضى الله عنه، وتكليفه بإعادة فتحها مرة أخرى.

ب - العمل على تثبيت الحكم الإسلامى، ونشر دعوة الإسلام فى هذه المنطقة عن طريق إسكان خمسين ألفًا من العرب بعيالهم فى خراسان[5].

رابعًا: الشورى فى إدارة حركة الفتوحات:

عند انتقال الخلافة إلى معاوية رضى الله عنه كان مجلس الشورى لديه يتألف من كبار أعيان عصره وولاته ومعاونيه الذين يتصفون بالبلاغة والسياسة وحسن

---

(١) فن الحرب الإسلامى، بسام العسلى (١/ ٢٣٣). (٢) المصدر السابق (١/ ٢٣٣).

(٣) المصدر السابق (١/ ٢١١). (٤) ولاة مصر، ص (٦١)، النجوم الزاهرة (١/ ١٧٥).

(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٦٤، ٣٦٥).

التدبير فى أمور الإدارة العسكرية، وكان من هؤلاء عمرو بن العاص رضى الله عنه الذى كان مشهوراً بالصفات السابقة، مما جعل الخليفة معاوية يعتمد عليه كالوزير المدبر لدولته والمشير، ومنهم أيضًا زياد بن أبيه. ولم تكن الوزارة فى عهد بنى أمية مقننة القواعد ولا مقررة القوانين، وكان ذوو الآراء من مستشارى الخليفة يقومون مقام الوزراء، وكان الواحد منهم يسمى كاتبًا أو مشيراً[(١)]، إضافة إلى ذلك كان الخليفة معاوية يعتمد فى إدارته العسكرية على مشورة قادة وأمراء القبائل وخصوصًا التى بالشام، فقد كان يقربهم ويدنى مجلسهم ويستشيرهم، وسار قادة معاوية بن أبى سفيان سيرته بمبدأ المشورة فى إدارتهم العسكرية للمعارك الحربية[(٢)].

خامسًا: مركزية القيادة والإمداد فى إدارة معاوية:

عندما انتقلت الخلافة إلى بنى أمية أصبحت دمشق مقر الخلافة ومركز القيادة العليا للإدارة العسكرية، فكان الخليفة بها هو الذى يقرر السياسة الحربية كما كان مسئولاً عن الحرب والسلم، فكان التنظيم الإدارى العام للجيش أمراً من الأمور المركزية التى يشرف الخليفة مباشرة عليها[(٣)]، وذلك بالرغم من وجود عمال الولايات والأقاليم الذين كان لهم مطلق السلطات والتى منها قيادة الجيوش بأنفسهم، أو تعيين القادة المناسبين من قبلهم، ووضع الخطط لهم وإمدادهم وتموينهم، ومن أمثلة هؤلاء زياد بن أبيه وابنه عبيد الله[(٤)]، فمن مركزية القيادة لإدارة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه فى تعيين القادة أنه كتب إلى واليه بالبصرة زياد بن أبيه يأمره أن يوجه إلى خراسان رجلاً يقوم بأمرها فولى زياد الحكم بن عمرو الغفارى رضى الله عنه، وكتب له عهده على خراسان وولاه حربها، وخراجها وسار إليها بمن يريد الجهاد فى سبيل الله، من المتطوعة من أهل البصرة، إضافة إلى الجند النظامى أصحاب الديوان، فوضع لهم الأرزاق، وأعطاهم وقواهم وسار لما أمر به[(٥)]. ومن مركزية القيادة العليا فى إدارة معاوية العسكرية تسيير الجيوش والإمدادات العسكرية لها، فنرى القائد علقمة بن يزيد

---

(١) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/ ٢٨٠).

(٢) الفتوح، لابن أعثم (١/ ٣٤٠)، الإدارة العسكرية (١/ ٢٨٠).

(٣) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/ ٣١٤).

(٤) المصدر نفسه (١/ ٣١٤).

(٥) الفتوح لابن أعثم (٢/ ٣١٨).

الغطيفى كتب إليـه قائلاً: إنك خلفتنى بالإسكندرية وليس معى إلا اثنا عشـر ألفًا ما يكاد بعضنا يرى بعض من القلة، فكتب إليـه الخليفة معاوية: إنى قد أمـددتك بعبد الله بن مطيع فى أربعة الآف من أهل المدينة، وأمرت معن بن يزيد السلمى أن يكون بالرملة فى أربعة آلاف ممسكين بأعنَّة خيولهم متى يبلغهم عنك فزع يعبروا إليك[1].

سادسًا: الألوية والرايات:

حين انتقلت الخـلافة إلى معاوية تعـددت الألوية والرايات فى إدارتهم العسكرية، كما تعـددت ألوانها كاللون الأخضر والأحمـر والأبيض، بالرغم من اتخاذهم اللون الأبيض شعارًا ورمزًا لخلافتهم[2]، فمنذ عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه لا نرى جيشًـا يخرج ويسير نحو العدو إلا ويعـقد للقائه لواء أو راية تكون لهم شعارًا ورمزًا يسيرون خلفها ويذودون عنها، فنرى الواحد يصرع تلو الآخر وكل همه بقاءها منصوبة[3]، وكان القادة من الشجاعة والإقـدام ما جعلهم يكونون أكفاء لحمل هذه الراية مثل عقبة بن نافع، والحكم بن عمرو الغـفارى وفضالة بن عبيد الله، وقد جعل والى العراق من قـبل الخليفة معاوية زياد بن أبيه خـروج القبائل على الرايات، ويبدو أن الغاية من ذلك معرفة مدى جدية كل منها فى القتال والتزامها بالأوامر[4].

سابعًا: اهتمامه بالعيون والبريد:

كان اهتمام معاوية رضى الله عنه بأمر المخابرات وجمع المعلومات على الأعداء قديمًا منذ كان أميرًا على بلاد الشام وتطور جهاز المخابرات لما تولى الخلافة، وزاد اهتمـامه به، فـفى عهـده أسر رجل من المسلـمين بالقـسطنطينية وأهين ببـلاطهم فاستـغاث وامعاويـاه: لقد أغفلت أمورنا وأضـعتنا. فوصل الخبـر إليه عن طريق جواسيـسه المتواجدين بـأرض الروم، فقام بفدائه وبأسـر من أهانه، وجعل المسلم يقتص منه بمثل مـا أهانه، وأن لا يزيد. وهذا دليل على مدى دقـة نظام المخابرات فى إدارته[5]. ولقد ذكرت القصة فيما مضى بالتفصيل، كما قام الخليفة رضى الله

---

(١) فتوح مصر، ص (١٩٢)، الخطط للمقريزى (١/ ٢٦٨).

(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/ ٣٦٨).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٣٦٨).

(٤) تنظيمات الجيش للجنابى، ص (٢٢٧)، الإدارة العسكرية (١/ ٣٦٩).

(٥) نهاية الأرب (٦/ ١٥٨)، الإدارة العسكرية (١/ ٤٠٥).

عنه بفرض رقابة دقيقة ومحكمة على أفراد الحاميات وأسرهم وعين موظفًا فى كل حامية ليتحرى عن الداخلين والخارجين حتى لا يتسلل عين للعدو إلى أرض المسلمين فيتعرفوا على مواقع معسكراتهم ونقاط الضعف بها إن وجدت(١). وفى إدارته أنشأ ديوان البريد واعتنى به عناية فائقة وذلك لتسرع إليه أخبار البلاد من جميع أطرافها بما فى ذلك أخبار الثغور، ولم يكن للبريد ديوان قبل ذلك(٢)، وأما علاقة صاحب البريد بالإدارة العسكرية فقد كان عبارة عن عين الخليفة الباصرة وأذنه السامعة، ينقل إليه أخبار عماله وقادته وسائر رجال دولته فكان له عيون يوافونه بكل جديد كما كان البريد واسطة بين الولاة والخلفاء والقادة لنقل الأوامر العسكرية. وكان أصحاب البريد رقباء ومفتشين من قبل الدولة يرفعون التقارير عن أحوال الجند فى مختلف حالات القتال وفى كل الظروف والأوقات، ويخبرونه بحال المال والعطاء وذلك أنه يوكل بمجلس عرض الأولياء وأعطياتهم من يراعيه ويطالع ما يجرى فيه ويكتب بما يقف عليه من الحال فى وقته، إضافة إلى ذلك كان من واجبات صاحب البريد مساعدة الإدارة العسكرية فى التموين والإمداد وحفظ الطرق وصيانتها من الأعداء وانسلال الجواسيس فى البر والبحر، وإليه كانت ترد كتب أصحاب الثغور وولاة الأطراف فيقوم بتوصيلها بوجه السرعة من اختصار للطرق واختيار المراكب لمعرفته بالطرق والمسالك إلى جميع النواحى. وكان الخليفة يجد عنده ما يحتاج إليه من المعرفة عند إنفاذ جيش وغيره وقت الحاجة إلى ما هنالك من مهام قام البريد بتأديتها فى الإدارة العسكرية(٣)، على الجملة كان يقال للبريد جناح المسلمين لما كان يطير به من الأخبار(٤).

ثامنًا: اهتمام معاوية بالحدود البرية للدولة:

حين انتقلت الخلافة إلى معاوية زاد الاهتمام والاعتناء بهذه التحصينات لحماية الحدود الإسلامية، وبخاصة إذا علمنا أن المؤسس الأول للدولة الأموية معاوية رضى الله عنه قد قام بتولى حملات الصوائف والشواتى بنفسه حين كان قائدًا

---

(١) الجندية للدقدوقى، ص (١٧٧). (٢) خطط الشام، محمد كرد (٥/١٩).

(٣) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/٤٠٦).

(٤) ثمار القلوب للثعالبى، ص (٢٤١)، الإدارة العسكرية (١/٤٠٧).

ووالياً للخليفتين عمر وعثمان رضى الله عنهما ،كما أسند إليه فى خلافتيهما إنشاء وترميم بعض الحصون الدفاعية على الحدود الإسلامية كما سبق وأشرنا مما جعله ملماً بهذه الثغور والتحصينات، فاستكمل ما بدأه حين استقرت بيده الخلافة، فقام ببناء وتحصين مرعش والحدث من ثغور الجزيرة وأسكنها الجند وكان يتعهدهما باستمرار[1]، واتخذ معاوية رضى الله عنه لتحصين المدن الساحلية سياسة التهجير أو النواقل؛ بنقل قوم من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكا وغيرها، ونقل من الزط وأساورة البصرة والكوفة وفرس وبعلبك وحمص إلى ثغر أنطاكية[2]، وولى القائد عبد العزيز بن حاتم الباهلى أرمينية وأذربيجان فبنى مدينة دبيل[3]، وعمل عدة تحصينات دفاعية كما بنى مدينة النشوى[4] ورم مدينة برذعة[5]، وجدد بناء البيلقان[6]، إلى ما هنالك من تحصينات دفاعية قام بإنشائها[7]، كما قلد الوالى زياد بن أبيه القائد الربيع بن زياد الحارثى[8] ثغر خراسان وأرسل معه من المصرين (الكوفة - البصرة) زهاء خمسين ألفاً من الجند بعيالاتهم، وأسكنهم ما دون النهر لحماية حدود الدولة الإسلامية هنالك[9] ويظهر لنا اهتمام زياد بأمر الثغور فى قوله لحاجبه: وليتك حجابتى وعزلتك عن أربع وذكر منها: ورسول صاحب ثغر فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة فأدخله علىَّ وإن كنت فى لحافى[10]، وسأل زياد جلساءه عن أنعم الناس عيشاً؟ فأجابوه قائلين: أنت أيها الأمير، فقال: فأين ما يرد على من الثغور والخراج[11]. وهذا يبين مدى ما كان يلقاه زياد من عناء الثغور فى إدارتها والإشراف على أمرها لحفظها وسدها. ومما أثر عن زياد أيضاً قوله: أربعة أعمال لا يليها إلا المسن الذى عض على

---

(1) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٣).

(2) كان ذلك فى عام ٤٢هـ، فتوح البلدان (١/ ١٣٩).

(3) مدينة بأرمينية تتاخم إيران، كانت ثغراً.

(4) النشوى: مدينة بأذربيجان، معجم البلدان (٥/ ٢٨٦).

(5) برذعة: فى أقصى أذربيجان، معجم البلدان (١/ ٣٧٩).

(6) بيلقان: فى أرمينية الكبرى قريبة من شروان، معجم البلدان (١/ ٥٣٣).

(7) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٤٧٤).

(8) المصدر نفسه (٢/ ٤٧٤) .

(9) كان ذلك سنة ٥١هـ، الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٤).

(10) الأوائل للعسكرى نقلاً عن الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٥).

(11) المحاسن والمساوىء، ص (٢٦٩).

ناجذه: الثغر والصائفة والشرط والقضاء[١]، وكان عمرو بن العاص رضى الله عنه فى إدارته لثغر مصر من قبل معاوية لا يحمل له من الخراج إلا الشىء اليسير وينفق جل الأموال على التحصينات وعطاء الجند المرابطين بالثغر[٢]، واهتم معاوية بأمر الصوائف والشواتى حيث كانت تخرج فى كل عام فى وقتها المحدد لها لأداء مهمتها المنوطة بها، وكان يختار لها كبار القواد والأمراء، وكانوا يتمنون إدارتها ويعدون ذلك شرفًا وفخرًا لهم، فمن ذلك قول الخليفة معاوية لابنه يزيد: يا بنى إن أمير المؤمنين قد بسط أملك فاذكر حاجتك فطلب منه مطالب كان أولها قوله: يجعل أمير المؤمنين غزو الصائفة العام إلىّ لأفتح أمرى بتجهيز الجيوش فى سبيل الله[٣]، ومن أبرز الولاة والقادة الذين تولوا إدارة حملات الصوائف والشواتى فى عهد معاوية لعدة مرات هم سفيان بن عوف الغامدى الأزدى، ومالك بن هبيرة السكونى[٤]، وكان أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه قبل أن يعين القادة على هذه الحملات يجرى لهم اختبارًا لمعرفة مدى حصافة القائد الإدارية، ومن الذين كان يعتمد عليهم من قادته سفيان بن عوف الغامدى لخبرته الإدارية وقد توفى وهو بالصائفة يدير أعمالها، وحين بلغ الخبر معاوية تأثر وكتب إلى أمصار وأجناد المسلمين ينعاه، وكان معاوية إذا رأى خللاً فى الصوائف قال: واسفياناه ولا سفيان لى[٥]، وكان معاوية رضى الله عنه لا يقصر فى اتخاذ الإجراءات والتدابير اللازمة لحماية حدود وأراضى الدولة الإسلامية والدفاع عنها[٦].

تاسعًا : اهتمام معاوية بالأسطول والحدود البحرية:

عندما قامت الدولة الأموية استكمل معاوية رضى الله عنه ما بدأه فى بناء القوة البحرية لحماية سواحل الدولة الإسلامية بإقامة المراكب للغزو إلى جانب ترتيب الحفظة فى السواحل مما استولى عليه المسلمون من قواعد ومنشآت بحرية، وعندما خرجت الروم فى عهده إلى السواحل الشامية أمر بجمع الصناع من النجارين

---

(١) تاريخ اليعقوبى، الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٥).
(٢) فتوح مصر، ص (١٠٢).
(٣) أنباء نجباء الأبناء، ص (١٠٦) لابن ظفر المالكى، الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٦).
(٤) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٧)، الإصابة (٣/ ٢٣٧).
(٥) تهذيب تاريخ دمشق (٦/ ١٨٥)، الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٧).
(٦) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٤٧٨).

فجُـمعوا، ورتبهم فى السـواحل الشامية وجـعل مقر دار صناعـة السفن فى جند الأردن بعكا. وكما هو معلوم أن بلاد الشام غنية بالأخـشاب التى تعتبر من أجزاء السفن الأساسـية يومئذ[1]، كما أنشـأ الخليفة معاوية أول دار صـناعة للأساطيل لإنتاج السـفن الحربية المختلفـة بمصر سنة ٥٤هـ فى عهـد واليها مسلمـة بن مخلد الأنصارى، وكـان مقرها بجـزيرة الروضة، لذا عرفت باسم صناعـة الروضة[2]، وكان قادة بحـرية الخليفة معاوية ذوى خـبرة وفن ببناء السفن الحربيـة، فقد كلف أحدهم بمهمة عسكرية نحو الروم وطلب منه قائلاً: أنشىء مركبًا يكون له مجاديف فى جـوفه واسـتـعمله للـسفـر إلى بلاد الروم[3]، أى بعـمل فتـحات جـانبيـة للمجاديف[4]، وبلغت السفن الحربية فى عهد معاوية رضى الله عنه نحواً من ألف وسبعمـائة سفينة شراعية مشـحونة بالرجال والسلاح وجميع العـتاد، والمستلزمات القتالية البحرية[5]، وبذلك نجد أن معاوية رضى الله عنه قد أدرك بصائب رأيه أن سواحل الشام ومصر لا ينجيها من غزوات الروم إلا إيجاد هذا الأسطول الإسلامى الذى يحافظ على الحدود البحرية ويغزو سواحل الروم الحين بعد الحين حتى يرتدع العدو ويحسب لـهم ألف حساب[6]، وأخذ الأسطول الإسلامى فى عـهد معاوية فى فتح الجـزر الواقعـة بالبحـر المتوسط الواحـدة تلو الأخرى والتى منهـا جزيرة رودس[7]، بقيادة القائد جنادة بن أمية الزهرانى الأزدى[8]، حيث فتحها ـ كما مر معنا ـ عنوة وكانت غيضة فى البحـر وهى من أخصب الجزائر بالمنطقة وأنزلها قومًا من المسلمين بأمر الإدارة العليا المركزية، واتخـذ بها حصنًا وناطوراً يحذرهم ما فى البحـر ممن يريدهم بكيد، وكان المسلمـون بها على حذرٍ من الروم، وكان الخليـفة معـاوية يعاقب بين الجند فيهـا ولم يجمرهم وأدر عليـهم الأرزاق والعطاء، وكان الجند المقيـمون بها أشد شىء على الروم يعـترضونهم فى البحر ويأخـذون سفنهم

(١) الإدارة العسكرية (٢/٤٧٨) .

(٢) حسن المحاضرة (٢/٣٧٨) للسيوطى، الإدارة العسكرية (٢/٥٤٣) .

(٣) نهاية الأرب (٦/١٨٦) .

(٤) الإدارة العسكرية (٢/٥٤٤).

(٥) خطط الشام (٥/٣٧) محمد كرد على.

(٦) الحدود الإسلامية لبيزنطة (١/٢٣٧) فتحى عثمان.

(٧) رودس: جزيرة ببلاد الروم مقابل الإسكندرية .

(٨) الاستيعاب (١/٢٤٣)، الأعلام للزركلى (٢/ ١٤٠).

وقد خافهم العدو[1]. واستمـر فى فتح الجزر وشحنها بالجنـد المرابطين وأصبحت قواعـد بحرية لحمـاية سواحل الدولة الإسلامـية[2]، وأخذت حمـلات الصوائف والشواتى البـحرية تجوب البـحر وتمخر فى عبـابه فى عهد مـعاوية رضى الله عنه وتسير جنـبًا إلى جنب مع شقيقـتها الحمـلات البرية حيث كانت تخـرج من مصر والشام لتحمى سواحل المنطقة البحرية وتولى قيـادتها كبار القادة المشهورين كالقائد يزيد بن شجرة الرهاوى، وموسى بن نصـير، وبسر بن أبى أرطأة العامرى، وجنادة ابن أمية الزهرانى، وعقـبة بن عامر وغيرهم من القادة، وسـار خلفاء بنى أمية من بعد الخليفة معاوية على سنته وأصبح الأسطول الإسلامى فى نمو مطرد وأكثروا من إنشاء سفنه وتفننوا فى إتقانه وجهزوه بالأدوات والمعـدات الملاحية والقتالية، ورتبوا عليه الجند والقواد وزودوه بالتموين اللازم والأرزاق، وظلت صوائفه وشواتيه تقلق الروم فى كل عام وتهدد سواحلهم وحدودهم البحرية[3].

عاشراً : الاهتمام بديوان الجند والعطاء:

اسـتمـر ديوان الجند فى أداء مهـامه المنـاطة به، وحدث به تطور بسـبب كثـرة الفتوحـات واتساع رقعة الدولة الإسـلامية فقد أصـبح ديوان الجند مؤسسة كـبيرة حظيت باهتـمام الخلفـاء وولاتهم ومر بعـدة مراحل تطويريـة خلال هذه الفـترة، فعندما تولى معاوية رضى الله عنه الخلافة تقاعس بعض الجند عن الحرب فى بداية إدارته العـسكرية إثر الفتن والصـراعات الداخليـة، فتـمكن بحسـن إدارته ودهائه بالإغلاق عليهم فـى العطاء حتى تمكن مرة أخرى من إلزامهـم مرة أخرى بالجندية وتأليف القلوب[4]، وقرب إليه زعـماء القبائل وقـد بلغ عدد الجند النظامى الذين يتسلمـون العطاء فى بداية العصر الأمـوى نحواً من ثمانين ألف جندى بالبـصرة، وستين ألفـا بالكوفة، وأربعين ألفًا بمصر، وبالشـام نحواً من ذلك، هذا سوى من فى باقى الأقاليم الأخـرى من جند كفارس ومـا وراء النهر وغيرهمـا من الأقاليم وأمصار الدولة الإسلامية[5]، كما كان بالكوفـة من أبناء العجم زهاء عشرين ألف

---

(١) النجوم الزاهرة (١/ ١٤٤)، الإدارة العسكرية (٢/ ٥٤٥).

(٢) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٥٤٥).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ٥٤٦).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٦٤٣).

(٥) فتوح البلدان، ص (١٠٢)، الإدارة العسكرية (٢/ ٦٤٤).

رجل فرض لهم وكانوا يسمون الحمراء[1]، وبالبصرة ألفا رجل من سبى بخارى كلهم جيد الرمى بالنشاب، فقد ألحقهم الخليفة معاوية بالخدمة العسكرية وفرض لهم العطاء، وقد ولى كتابة الجند فى إدارة الخليفة معاوية المركزية بدمشق عمرو بن سعيد بن العاص، هذا بالإضافة إلى دواوين الجند المحلية بالأقاليم الإسلامية المحلية الأخرى التى تتحمل مهام الإدارة العسكرية المحلية[2]، وظل دور أمر العرفاء والنقباء سائرًا ومستمرًا كما كان فى السابق، وذلك لاعتماد الإدارة عليهم فى الشئون العسكرية والمالية وبخاصة فى توزيع العطاء، على الجند، فقد كان الخليفة معاوية يدفع إلى العرفاء العطاء وكان لكل قبيلة عريف يأخذ أعطيتهم ويدفعها إليهم[3]، هذا مع ما يقومون به من التعرف على أحوال الجند وأخبارهم ورفع التقارير عنهم للإدارة العليا[4]، وقد طور زياد الهيكل التنظيمى العسكرى للعرفاء، فجعل الناس فى البصرة أخماسًا وجعل على كل خمسة رجلاً، كما جعل فى الكوفة أرباعًا على قيادة عشرة جنود فى القتال، بل أصبحوا مسئولين عن النواحى الأمنية ومثيرى الشغب والفتن والقلاقل داخل قبائلهم ومعسكراتهم، فكانوا حلقة الاتصال فى الإدارة العسكرية بين القبائل العربية فى الأمصار الإسلامية وبين السلطات الإدارية للدولة فيما يختص بتثبيت أسماء الجند فى الدواوين وتوزيع العطاء عليهم واستدعائهم عند الحاجة، وقد حل أولئك العرفاء فى القوة والنفوذ محل رؤساء القبائل والعشائر، وكان اختيارهم يتم من بين ذوى النفوذ ليستطيعوا أداء واجباتهم تجاه الإدارة العسكرية[5]. ومثال على ذلك ما قام به زياد حيث خطب فى أهل البصرة وهددهم بقطع العطاء إذا لم يكفوه الخوارج حيث قال: يا أهل البصرة والله لتكفننى هؤلاء أو لأبدأنّ بكم، والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهمًا، فثار الناس بهم فقتلوهم[6]. كما استخدمت الزيادة فى العطاء للقادة والجند المتجاوبين والمنفذين للأوامر تشجيعًا

---

(١) الأخبار الطوال، ص (٢٢٨) نقلاً عن الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٦٤٤).

(٢) التراتيب الإدارية (١/ ٢٢٩)، الإدارة العسكرية (٢/ ٦٤٤).

(٣) نسب قريش، ص (١٥٤)، الإدارة العسكرية (٢/ ٦٤٥).

(٤) خطط الشام (٥/ ٧).

(٥) تنظيمات الجيش، ص (٢٢٣)، الإدارة العسكرية (٢/ ٦٤٦).

(٦) تاريخ الطبرى، نقلا عن الإدارة العسكرية (٢/ ٦٤٦).

وحثًا لهم على المضى قدمًا فى مهامهم ومناصبهم العسكرية المسئولين عنها[1]، كما فعل معاوية مع أشراف أهل الشام.

الحادى عشر: الأثر العلمى والاقتصادى والاجتماعى للفتوحات فى عهد معاوية رضى الله عنه:

ومن الظواهر العلمية التى زادت ازدهاراً فى عهد معاوية طائفة القصاص، وقد كانوا ينتشرون بين الجند كالقراء يقصون عليهم أمجاد أسلافهم ويلقون عليهم الشعر الحماسى، فتجيش له همم العسكر فيسارعون للقتال، وقد كان الخطباء والوعاظ يقومون بنفس المهمة كما يقوم بها القراء والقصاص والشعراء لينشروا فى الجند روح الفداء ويرفعوا من روحهم المعنوية القتالية[2]، وسلك الخليفة معاوية فى وصاياه وتوجيهاته العلمية للأمراء والقادة والجند على منوال من سبقه من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم، فعندما عين عبيد الله بن زياد على ثغر خراسان كان من نماذج وصاياه قوله: اتق الله ولا تؤثرن على تقوى الله شيئًا[3].. وقد سبق الحديث عن وصيته لعبيد الله، ومن الآثار العلمية للحضارة الإسلامية فى عهد معاوية أنه حينما فتح جزيرة رودس كان ممن اشترك فى فتحها مجاهد بن جبر المقرىء، فكان مقيمًا بها يقرىء الناس القرآن ويفقههم فى الدين فى المسجد الذى بنى فيها أثناء الفتح، وهذا أنموذج ومثال من ألوف النماذج والأمثلة حيث إن هذا الأثر العلمى لا يقتصر على جزيرة رودس بل شمل كافة الأمصار والشعوب الإسلامية[4].

ومن الآثار الاقتصادية والاجتماعية للفتوحات أن والى مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى رضى الله عنه وغيره من الولاة فى عهد معاوية رضى الله عنه كانوا يبعثون إليه بأموال الخراج بعد أن يستقطعوا منها ما ينفق على الأراضى الزراعية بمصر لاستصلاحها من الخلجان والقناطر والجسور، وحملا القمح إلى الحجاز لتفريقه وتوزيعه على سكان الحرمين الشريفين، كمعونة لهم[5]، وكان بالجزيرة مكان الروضة قبل أن تبنى بها دار صناعة السفن فى عهد معاوية خمسمائة عامل

---

(١) المحاسن والمساوىء، ص (٤٦٤)، الإدارة العسكرية (٢/ ٤٦٧) .

(٢) الفن الحربى، ص (١١٧)، نقلاً عن الإدارة العسكرية (٢/ ٧١٨).

(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٢١٣) .

(٤) الإدارة العسكرية (٢/ ٧١٩) .

(٥) فتوح مصر، ص (١٠٢)، حسن المحاضرة (١/ ١٥١) .

مستعد لأى حريق يكون فى البلاد أو هدم للإعانة فى الكوارث وتقديم الخدمات الاجتماعية لأهل المنطقة(1). ومن التكافل الاجتماعى فى عهد معاوية مراعاته لأبناء الشهداء فى إدارته ورعاية شئونهم والفرض لهم(2)، فقد كان يقول لجلسائه: يا هؤلاء، إنما سميتم أشرافًا لأنكم شرفتم على من دونكم بهذا المجلس، ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا، فيقوم الرجل فيقول: استشهد فلان، فيقول: أفرضوا لولده(3)، وعندما أذن معاوية رضى الله عنه لعبد الله بن صفوان بن أمية بالدخول عليه والمثول بين يديه طلب من معاوية أن يفرض للمنقطعين من ديوان العطاء، كما ذكّره بأن لا يغفل عن قواعد قريش والبر إليهم، وأن يقدم لهم الخدمات الاقتصادية والاجتماعية التى تكفل لهم الحياة الرغدة(4). ومن الآثار الحضارية للفتوحات فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية استمرارية معاوية فى توطين الجند بالثغور وإقطاعهم القطائع والأراضى والمساكن بها وشقه للأنهار وجلبه للمياه. فقد أمر عسكره المقيم بجزيرة رودس بأن يزرعوا ويتخذوا بها أموالاً ومواشى يرعونها حولها(5).

الثانى عشر : كرامات للمجاهدين فى عهد معاوية رضى الله عنه:

حدثت كرامات للمجاهدين فى عهد معاوية رضى الله عنه منها ما كان لأبى مسلم الخولانى والتى مرّ ذكرها، وما حدث لعقبة رحمهما الله، حينما نادى الوحوش والدواب وطلب منها الرحيل، فرحلت بإذن الله تعالى حيث قال: فارحلوا عنّا فإنّا نازلون، ومن وجدناه بعد هذا قتلناه، فنظر الناس بعد ذلك إلى أمر مُعْجِب ، من أن السباع تخرج من الشَّعْراء(6) وهى تحمل أشبالها سمعًا وطاعة، والذئب جِروَه، والحية تحمل أولادها. ونادى فى الناس: كُفُّوا عنهم، حتى يرحلوا عنها، فخرج ما فيها من الوحش والسباع والهوامّ والناس ينظرون إليها، حتى أوجعهم حرّ الشمس، فلمّا لم يروا منها شيئًا، دخلوا، فأمرهم أن يقطعوا الشجر، فأقام أهل إفريقية ـ بالقيروان ـ بعد ذلك أربعين عامًا لا يرون بها

---

(1) حسن المحاضرة (2/378)، الإدارة العسكرية (2/773).

(2)، (3) مروج الذهب (3/39، 40)، الإدارة العسكرية (2/774).

(4) نسب قريش، ص (389)، الإدارة العسكرية (2/774).

(5) الفتوح لابن أعثم (1/354)، الإدارة العسكرية (2/775).

(6) أى من الشجر.

حيَّة، ولا عـقربًا، ولا سَبُعًا. فـاختط عقبـة أولاً دار الإمارة، ثم أتى إلى موضع المسجـد الأعظم فاخـتَّطه، ولم يُحدث فـيه بناء. وكـان يصلى فيـه وهو كذلك، فاختلف الناس عليـه فى القبلة وقالوا: إن جميع أهل المغرب يضعـون قِبلتهم على قبلة هذا المسـجد، فأجهـد نفسك فى تقويمـها، فأقامـوا أيامًا ينظرون إلى مطالع الشتـاء والصيف من النجوم ومشـارق الشمس، فلماً رأى أمرهم قـد اختلف بات مغـمومًا، فـدعا الله ـ عز وجل ـ أن يُفـرج عنه، فأتاه آت فى منامه فـقال له: إذا أصبحت فخذ اللواء فى يدك، واجعله على عُنُقك. فإنك تسمع بين يديك تكبيرًا لا يسمعـه أحد من المسلمين غيرك، فـانظر الموضع الذى ينقطع عنك فيه التكبيـر فهو قبلتك ومحـرابك، وقد رضى الله لك أمر هذا العسكر وهذا المسجد وهذه المدينة، وسوف يعـز الله بها دينه، ويذل بها من كـفر به، فاسـتيقظ من منامـه وهو جزع، فتـوضأ للصلاة، وأخذ يصـلى وهو فى المسجد ومعـه أشراف الناس، فلما انفـجر الصبح وصـلى ركعتى الصـبح بالمسلميـن إذا بالتكبيـر بين يديه، فقـال لمن حوله: أتسمعون مـا أسمع؟ فقالوا: لا، فعلم أنَّ الأمر من عند الله، فأخـذ اللواء فوضعه على عُنُقه، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى مـوضع المحراب فانقطع التكبير فركز لواءه وقال: هذا محرابكم فاقتدى به سائر مساجد المدينة، ثم أخذ الناس إليها المطايا من كل أُفق وعظم قدرها.. وكان عقبة خير والٍ وخير أمير، مستجاب الدعوة[1].

وفى هذه القصـة عبرة بليغـة فيما حدث من عـقبة حينمـا نادى تلك الوحوش والدواب فاستجابت له وغـادرت ذلك المكان، وهذه كرامة من الله تعالى يكرم بها أولياءه لما يـريد بهم نصر الإسلام ونـشره فى الأرض، حيث أسـمع تلك الدواب كلام عقبـة وأوقع فى قلوبها الخوف منه، وقدَّر لها أن تسمع وتطـيع كما لو كانت ذات عقل وإدراك وقد رأى ذلك قبيل كبير من البربر فاسلموا، كما ذكر ابن الأثير فى روايته[2].

هذا وقد حـمل بعض الباحثـين هذا الخبر على أنه من الأسـاطير التى نسجـها الرواة حول عـقبة، وعللوا هذا الخبـر بأن تلك الدواب فزعت لما سمعت ضـجيج

(١) البيان المُغـرب فى أخبار الأندلس والمغرب (١/ ١٩ ـ ٢١)، الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٨٤)، فـتوح مصر، ص (١٣٣) والقصة صحيحة الإسناد.

(٢) فتوح مصر، ص (١٣٣)، التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٤٩) .

الجيش الإسلامى فحملت أولادها وولّت هاربة، وهذا التأويل من عجائب بعض الباحثين حيث يُغفلون تفكيرهم الصحيح من أجل ردٍّ مالا يؤمن به العقل المجرد، كما أنهم يستغفلون المؤرخين الذين رووا هذه الحادثة وأمثالها على أنها من الأمور الخارقة للعادة، ويتهمونهم بالسذاجة لتحويلهم الوقائع المعتادة فى حياة الناس إلى ما يشبه الأساطير، فإن التفكير الصحيح يرى أن التأويل الذى اعتمدوه لا ينسجم مع العقل السليم، لأن الوحوش والدواب البرية إذا تعرضت للفزع تأوى إلى جحورها الآمنة لتستخفى بها ولا تلجأ إلى الهرب حتى لا تتعرض للأذى مما فزعت منه، ثم إنه لو حصل خلاف الغالب من المعتاد فهربت تلك الدواب من أمر عادى وهو فزعها من الجيش لم يكن هناك ما يدعو إلى عجب البربر وانبهارهم الذى حملهم على الدخول فى الإسلام من أجل ذلك، ولم يكن فى ذلك ما يحمل طائفة من المؤرخين على رواية هذه الحادثة الغريبة.

وقد جاء فى إحدى روايات ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد قال: فحدثنى زياد بن العجلان: إن أهل إفريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ولو التُمست حية أو عقرب بألف دينار ما وجدت[1]، وعبرة أخرى فى تلك الرؤيا التى رآها عقبة بن نافع فى أمر تحديد القبلة وما تلا ذلك من سماعه التكبير الذى لم يسمعه من حوله، وهذه كرامة أخرى لهذا الولى الصالح فرج الله تعالى بها عن المسلمين كربة كانوا يعانون منها من عدم مقدرتهم على تحديد القبلة بدقة، وهذا هو أحد المقاصد التى تظهر فيها الكرامات على أيدى أولياء الله الصالحين، وقد كان عقبة مستجاب الدعوة، فاستجاب الله تعالى دعاءه فى تفريج همه وهموم المسلمين فى هذا الأمر[2]. وأهل السنة والجماعة يثبتون الكرامات للصالحين، فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ[3]، فيفعلون ما أمر الله به وينتهون عما عنه زجر، ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروح منه، ويقذف الله فى قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التى يكرم الله بها أولياءه المتقين لحاجة فى الدين أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك، وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسول الله ﷺ ومما ينبغى أن يعرف أن الكرامات قد

(١) فتوح مصر، ص (١٣٣)، التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٤٩).

(٢) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٤٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٧٤).

تكون بسبب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج، أتاه منها ما يقوى إيمانه أو يسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية منه مستغنيًا عن ذلك، فلا يأتيـه مثل ذلك لعلو درجتـه وغناه عنها، لا لنقص ولايته، ولهـذا كانت هذه الأمور فى التابـعين أكثر منها فـى الصحابة[1]. ومن عقيدة أهل الـسُّنة والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء[2].

الثالث عشر: قسمة الحكم بن عمرو الغفارى للغنائم فى غزو جبل الأسل بخراسان:

عن عبد الرحـمن بن صبح، قال: كنت مع الحكم بن عمـرو بخراسان، فكتب زياد إلى عـمرو، إن أهل جـبل الأشل سـلاحهم اللبـود[3]، وآنيتـهم الذهب[4]، فغزاهـم حتى تواسطوا، فأخذوا بالشـعاب والطرق، فأحدقـوا به ، فعىَّ[5] بالأمر فولى المهلب الحرب، فلم يزل المهلب يحـتال حتى أخذ عظيمًا من عظـمائهم، فقال له: اختر بين أن أُقتلك، وبين أن تخرجنا من هذا المضيق، قال له: أوقد النار حيال الطريق لتسلكوه فإنهم يستجمـعون لكم، ويعرون ما سواه من الطرق، فبادرهم إلى غيـره، فإنهم لا يدركـونك حتى تخـرج منه، ففـعلوا ذلك، فنجـا وغنموا غنيـمة عظيمة[6]، وعن عبد الرحـمن بن صبح قال: كتب إليـه زياد: والله لئن بقيت لك لأقطعن منك طابقًا سحتًا[7]، وذلك أن زيادًا كتب إليه لما ورد بالخبر عليه بما غنم: إن أمير المؤمنين كتب إلىَّ أن أصطفى له صفراء وبيضاء[8]، والروائع[9]، فلا تحركن شيئًا حتى تخرج ذلك، فكتب إليه الحكم: أمـا بعد، فإن كتابك ورد، تذكر أن أمير المؤمنين كتب إلى أن أصطفى له كل صفراء وبيضاء والروائع، ولا تحركن شيئًا، فإن كتاب الله عز وجل قبل كتاب أمير المؤمنين، وإنه والله لو كانت السماوات والأرض رتقًا[10] على عبد اتقى الله عـز وجل جعل الله سبحانه وتعالى له مـخرجًا، وقال

---

(1) مجموع الفتاوى (11/ 283) . (2) الانحرافات العقدية والعلمية (1/508) .

(3) اللبود: هو الالتصاق بالأرض: أى يكمنون لعدوهم.

(4) وهذا دلالة على غناهم وثراهم. (5) عيَّ، وعيى: عجز، القاموس المحيط (1697).

(6) الكامل فى التاريخ (2/ 476) .

(7) لأقطعن منك طابقاً سحتاً: أى لأستأصلن ما خبث من كسبك .

(8) الصفراء والبيضاء: هما الذهب والفضة .

(9) الروائع: المقصود بها فى هذا المقام، ما أعجبك وسرك من الغنائم .

(10) الرتق: ضد الفتق، وهو الالتحام، لسان العرب (10/ 114).

للناس: اغدوا على غنائمكم، فغدا الناس، وقد عزل الخمس، فقسم بينهم تلك الغنائم، قال: فقال الحكم: اللهم إن كان لى عندك خير فاقبضنى، فمات بخراسان بمرو[1]. إن خبر قسمة الحكم بن عمرو الغفارى رضى الله عنه الغنائم بين أفراد جيشه ذكره ابن عبد البر[2]، وابن الجوزى[3]، وابن الأثير[4]، وابن كثير[5]، وتتفق هذه المصادر حول طلب معاوية رضى الله عنه اصطفاء الذهب والفضة وعدم قسمتها بين الجيش ـ لكنها لم تورد هذا الخبر بأسانيد صحيحة ـ وزاد ابن كثير أن معاوية رضى الله عنه طلب أن يرسل الذهب والفضة إلى بيت المال[6]، وهنا يجدر التذكير بأن مصارف الغنيمة فى الإسلام قد بينها الله سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]. وهذا يعنى أن أربعة أخماس الغنيمة يقسم بين الجيش، ويبقى خمس الغنيمة فيقسم كما ورد فى الآية السابقة، وهذا الحكم لا يخفى على معاوية رضى الله عنه، كما أن دين معاوية وعدالته تمنعه من رد حكم الله سبحانه وتعالى[7]، وبالرجوع إلى رواية الطبرى نلاحظ أن الحكم بن عمرو الغفارى رضى الله عنه لم يبادر إلى قسمة الغنائم بين الجيش على الفور ـ مع وضوح حكم الشرع فى ذلك ـ بل دارت بينه وبين زياد مراسلات فى شأن الغنائم، وهذا التأخير فى قسمة الغنائم يقودنا إلى عدة احتمالات يمكن من خلالها إزالة الغموض الوارد فى الرواية وهذه الاحتمالات هى:

١ ـ رغبة معاوية رضى الله عنه فى أن يكون خمس الغنيمة ـ الذى يتولى إمام المسلمين قسمته من الذهب والفضة.

٢ ـ رغبة معاوية رضى الله عنه فى حمل ما غنم المسلمون من ذهب وفضة -قبل تخميسه وقسمته ـ إلى الهند وبيعه هناك[8] بقيمة مرتفعة ثم يخمس ثمنه بعد ذلك، وفى ذلك خير للجميع[9].

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/١٦٧) .
(٢) الاستيعاب (١/٣٥٧) .
(٣) المنتظم (٥/ ٢٣٠) .
(٤) الكامل فى التاريخ (٢/٤٧٦) .
(٥)، (٦) البداية والنهاية (١١/٢١٧) .
(٧) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٥١، ٣٥٢) هذه الفقرة كلها من هذا الكتاب القيم .
(٨) ذكر الدكتور خالد الغيث - حفظه الله - مبحثًا مهمًا فى مسألة الغنائم والحكم بن عمرو الغفارى فنقلته منه، انظر: مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٥٢).
(٩) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٥٢).

٣ ـ وجود نقصٍ طارئ في بيت مال المسلمين، فأراد معاوية رضي الله عنه أن يقترض ما غنمه جيش الحكم رضي الله عنه إلى أجل معلوم، وتأخير قسمة الغنائم بين الجيش إلى وقت لاحق[١].

ومن الدروس المهمة إن ثبتت الرواية التزام الحكم بن عمرو الغفاري بمبدأ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وتمسكه بأداء الأمانةِ في قسمة الغنائم، ولم يغل منها شيئًا ووزعها على العسكر بعد أن عزل الخمس[٢].

هذه أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات في عهد معاوية.

الرابع عشر: استشهاد صلة بن أشيم وابنه بسجستان عام ٦٢هـ:

صلة بن أشيم هو الزاهد، العابد، القدوة، أبو الصهباء العدويُّ البصري، زوج العالمة معاذة العدوية، وكانت لصلة مواقف في المجتمع الإسلامي مؤثرة، ومن هذه المواقف: عن ثابت قال: جاء رجل إلى صلة بنعي أخيه، فقال له: ادن فكُل، فقد نُعي إليَّ أخي منذ حين، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وكان صلة له كرامات منها، عن حمّاد بن جعفر بن زياد أنّ أباه أخبره، قال: خرجنا في غزاة إلى كابل، وفي الجيش صلة، فنزلوا فقلت: لأرمُقَنَّ عمله، فصلَّى ثم اضطجع، فالتمس غفلة الناس، ثم وثب، فدخل غَيْضَةً، فدخلتُ فتوضأ وصلّى، ثم جاء أسد حتى دنا منه، فصعدتُ شجرة، أفتراه التفتَ إليه حتى سجد؟ فقلت: الآن يفترسه فلا شيء، فجلس ثم سلَّم، فقال: يا سبع اطلب الرِّزق بمكان آخر، فولى وإن له زئيرًا أقول: تصدّع منه الجبل فلمّا كان الصبح جلس، فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها، ثم قال: اللَّهم إني أسألك أن تُجيرني من النار، أو مثلي يَجترِئُ أن يسألك الجنَّة[٣]، وعن العلاء بن هلال، أن رجلاً قال لصلة: يا أبا الصهباء رأيت أني أعطيت شهادة، وأعطيت شهادتين فقال: تستشهد وأنا وابني، فلما كان يوم يزيد بن زياد، لقيتهم الترك بسجستان،

(١) مرويات خلافة معاوية، ص (٣٥٢).
(٢) المصدر نفسه، ص (٣٥٢).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٤٩٩).

فانهزموا. وقال صلة: يا بُنيَّ ارجع إلى أمك. قال: يا أبَة، تريد الخير لنفسك، وتأمرني بالرجوع! قال: فتقدَّمْ، فتقدَّم، فقاتل حتى أصيب، فرمى صلة عن جسده، وكان راميًا، حتى تفرَّقوا عنه، وأقبل حتى قام عليه، فدعا له، ثم قاتل حتى قُتل[1]، وعن حمّاد بن سلمة: أخبرنا ثابت أنّ صلة كان في الغزو، ومع ابنه، فقال: أي بني، تقدم فقاتل حتى احتسبك، فحمل، فقاتل، حتى قُتل، ثم تقدَّم صلة فقتل، فاجتمع النساء عند امرأته معاذة، فقالت: مرحبًا إن كنتنّ جئتنّ لتُهنِّئنني، وإن كنتنّ جئتُنّ لغير ذلك فارجعنّ.[2] وكانت الملحمة التي استشهد فيها سنة ٦٢هـ[3].

***

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٠٠) رجالة ثقات.

(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ١٣٧)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٩٨) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٠٠) .

المبحث الخامس

ولاية العهد ووفاة معاوية رضى الله عنه

أولاً : بداية التفكير فى بيعة يزيد:

يُحمِّل كثير من الباحثين، المغيرة بن شعبة، المسئولية عن بيعة يزيد بن معاوية، وذلك باعتباره العقل المدبر، وصاحب الفكرة الأولى، حين عرض على معاوية أن يتولى يزيد الخلافة من بعده، وتكفل بالدعوة ليزيد وتهيئة أهل الكوفة لتقبل خبر اختياره لولاية العهد وكل من اتهم المغيرة بن شعبة كانت حجته فى ذلك تلك الرواية التى أوردتها بعض المصادر القديمة ومفادها: أن المغيرة بن شعبة ـ رضى الله عنه ـ دخل على معاوية واستعفاه من ولاية الكوفة فأعفاه، وأراد معاوية أن يولى بدلاً منه سعيد بن العاص، فبلغ ذلك أحد الموالين للمغيرة، وتأثر المغيرة عند ذلك، وتمنى العودة للإمارة، فقام فدخل على يزيد وعرّض له بالبيعة، فأخبر يزيد والده بما قال له المغيرة، فاستدعى معاوية المغيرة بن شعبة، وأمره بالرجوع واليًا مرة أخرى على الكوفة وأن يعمل فى بيعة يزيد[1]، وأسانيد هذه الرواية ضعيفة، فسند هذه الرواية لا يشجع على قبولها أو الاستئناس بها بأى حال من الأحوال، كما أن المغيرة رضى الله عنه صحابى جليل تمّ التعريف به فى موضعه من هذا الكتاب، وقد توفى عام ٥٠هـ[2] قبل ظهور فكرة ولاية العهد عند معاوية، حيث بدأت هذه الفكرة فى الظهور فى عهد زياد بن أبيه على العراق، وقد صرّح الطبرى بأن معاوية إنما دعا إلى بيعة يزيد سنة ٥٦هـ[3]، فلماذا تأخر كل هذه السنين إذا كان المغيرة قد شرع فى التمهيد لهذه الفكرة قبل موته؟![4].

---

(١) الإشراف فى منازل الأشراف لابن أبى الدنيا، ص (١٢١) إسناده ضعيف، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢٠)، إسناده ضعيف جداً، تاريخ الذهبى حوادث (٦١ ـ ٨٠هـ)، ص (٢٧٢)، إسناده ضعيف جداً .

(٢) تاريخ الطبرى (٦/ ١٥٠) .

(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢١٩)، انظر: مواقف المعارضة فى خلافة يزيد بن معاوية، ص (٨٤ - ٨٧).

(٤) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد بن معاوية، ص (٨٧).

ثانيًا : الخطوات التى اتبعها معاوية لبيعة يزيد:

١ ـ المشاورات:

لم نعثر فى المصادر التاريخية على تحديد دقيق لتلك الفترة التى بدأ فيها معاوية رضى الله عنه يفكر تفكيرًا جديًا فى تولية ولده يزيد من بعده خليفة للمسلمين. ولكنه بالتأكيد لم يفكر إلا بعد سنة خمسين من الهجرة، وذلك بعد أن خلت الساحة من وجود الصحابة الكبار المبشرين بالجنة من أمثال سعد بن أبى وقاص، وسعيد بن يزيد بن عمرو، وبعد وفاة الحسن بن على رضى الله عنهم جميعًا، وبعد أن عُرف يزيد عند قيادته لجيش المسلمين الذى حاصر القسطنطينية، وبعدها أصبح معاوية يهيئ الأمور لترشيح يزيد للخلافة، وكان من الطبيعى أن يستشير زياد بن أبيه بعدما أصبح أخًا له، وصار يقال له: زياد بن أبى سفيان، وولاه العراق، ولنسمع إلى رواية الطبرى لهذه الاستشارة، وماذا صنع زياد[1]، قال الطبرى: لما أراد معاوية أن يبايع ليزيد، كتب إلى زياد يستشيره، فبعث زياد إلى عبيد بن كعب النميرى، فقال: إن لكل مستشير ثقة، ولكل سر مستودع، وإن الناس قد أبدعت[2] بهم خصلتان: إذاعة السر، وإخراج النصيحة إلى غير أهلها، وليس موضع السر إلا أحد رجلين: رجل آخرة يرجو ثوابًا، ورجل دنيا له شرف فى نفسه، وعقل يصون حسبه، وقد عجمتهما[3] منك، فأحمدت الذى قبلك. وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الكتب؛[4] إن أمير المؤمنين كتب إلىّ يزعم أنه قد عزم على بيعة يزيد، وهو يتخوّف نفرة الناس، ويرجو مطابقتهم، ويستشيرنى. وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رَسْلة[5] وتهاون، مع ما قد أولع به من الصيد، فالْقَ أمير المؤمنين مؤديًا عنى، فأخبره عن فعلات يزيد. فقال له: رويدك بالأمر؛ فأقمن أن يتم لك ما تريد، ولا تعجل فإن دركًا فى تأخير خير من تعجيل عاقبته الفَوْت. فقال عبيد له: أفلا غير هذا؟ قال: ما هو؟ قال: لا تفسد على معاوية رأيه، ولا تمقِّت إليه ابنه، وألقى أنا يزيد سرًا من معاوية فأخبره عنك أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك فى بيعته، وأنك تخوَّفُ

---

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (١/١٨٩) .
(٢) أى: أضرت .
(٣) أى: خبرتهما .
(٤) أى خائف من ذيوعه إذا هو كتبه .
(٥) الرسلة: الكسل .

خلاف الناس لهنات ينقمـونها عليه، وأنك ترى له ترك ما يُنقَمُ عليه، فـيستحكم لأمير المؤمنين الحـجة على الناس، ويسهل لك ما تريد، فـتكون قد نصحت يزيد وأرضيت أمير المؤمنـين، فسلمت مما تخاف من علاقة أمر الأمـة. فقال زياد: لقد رميت الأمر بحجره، اشخص على بركـة الله، فإن أصبت فما لا ينكر، وإن يكن خطأ فغير مستغَشّ، وأبعد بك إن شاء الله من الخطأ قال: أتقول بما ترى، ويقضى الله بغيب ما يعلم. فقدم على يزيد فـذاكره ذلك. وكتب زياد إلى معاوية يأمره[1] بالتؤدة، وألا يعجل، فقبل ذلك معاوية وكفّ يزيد عن كثير مما كان يصنع[2].

إن تحليل هذا النص يكشف لنا عن الحقائق التالية:

أ ـ إن بداية الفكرة كـانت من مـعاوية، وأنه كـان يدرك أنه كـان يقدم على أمـر خطير، بـل على حدث لم يسـبق إليه، ولهذا اصـطفى زياداً للاستـشارة، وزياد هو الذى قال عنه الأصمعى: الدهاة أربعة: معـاوية للروية، وعمرو بن العاص للبديهة، والمغيرة بن شعبـة للمعضلة، وزياد لكل صغيرة وكبيـرة. وقد أشار عليه زياد بالتؤدة فقبل. ولهذا لم يُقدم معاوية على الأمر الخطير إلا بعد وفاة زياد[3]. قال الطبرى: لما مات زياد، دعا معاوية بكتاب فقرأه على الناس باستخلاف يزيد: إن حدث به حدث الموت، فيزيد ولى عهد، فاستوثق[4] له الناس على البيعة ليزيد غير خمسة نفرٍ[5].

ب ـ إن معاوية لم يكن يريد حين الاستشارة الاكتفاء بالعهد، وإنما أراد أن يبايع الناس يزيد وهو حى، وهو حـدث جديد أيضـا لم يعهد من قـبل، لأن الناس لم يبايعوا عمر إلا بعد وفاة أبى بكر رضى الله عنه.

جـ ـ إن زياداً قد أحس خطورة الأمر، فلم يشـأ -بادئ الأمر- أن يكتب لمعاوية بنصيحـته، بل أراد أن يحمّلها لرسول خـاص وهو (عبيد الله بن كـعب النميرى) ليؤديها عنه إلى معاوية شفهيًا، وفى ذلك من الحيطة الشىء الكثير، لئلا يشيع خبر الكتاب، فيحدث ما لا يحمد. ولهذا قـال لعبيد: ولهذا دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف.

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢١). يأمره هنا: يشير إليه.
(٢) المصدر نفسه (٦/ ٢٢١).
(٣) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (١/ ١٩١).
(٤) استوثق له الناس: اجتمعوا على رأيه.
(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢١).

د- إن معاوية كان يتخوف نفرة الناس، فليس العهد لولد الخليفة والخليفة حي بالأمر اليسير.

هـ- إن زياداً كان يخشى على الأمة من يزيد، ولذلك يقول: وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد. ولهذا أيضا نرى فى جواب عبيد له أن سيلقى يزيد وينقل إليه أن زياداً يرى ترك ما ينقم عليه، وبذلك يسلم ما تخاف من علاقة أمر الأمة.

و- إن زياداً كتب أخيراً إلى معاوية، ولكن لينصحه بالتؤدة وألا يعجل فقبل ذلك معاوية[1].

ز- وممن شاورهم معاوية رضى الله عنه الأحنف بن قيس، فقد روى أن معاوية لما نصَّب ولده يزيد لولاية العهد، أقعده فى قبة حمراء، فجعل الناس يسلمون على معاوية ثم يميلون إلى يزيد، حتى جاء رجل ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية، فقال: يا أمير المؤمنين، اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف بن قيس جالس. فقال له معاوية: ما بالك لا تقول يا أبا بحر؟ قال: أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت، فقال له معاوية: جزاك الله عن الطاعة خيراً، وأمر له بألوف، فلما خرج لقيه ذلك الرجل بالباب، فقال: يا أبا بحر، إنى لأعلم أن شر من خلق الله سبحانه وتعالى هذا وابنه، ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال، فليس نطمع فى استخراجها إلا بما سمعت، فقال له الأحنف: أمسك عليك، فإن ذا الوجهين خليق ألا يكون عند الله وجيهاً[2].

٢ ـ الحملات الإعلامية:

ومن التمهيدات الإعلامية الناجحة التى قدمها معاوية رضى الله عنه لابنه توليته أميراً على الجيش الذى وجهه إلى غزو القسطنطينية، وبعد أن رجع من الغزو ولاه إمارة الحج، ولكنه كان يتخوف نفرة الناس، ويتهيب من بعض المعارضين[3]، ولذلك

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (١/ ١٩٢) .

(٢) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة، ص (٤٥٨).

(٣) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (١٠٤).

كان يواصل إعداد العدة للأمر، ويستشير ولاته ورجال دولته، ويستعين بهم فى تذليل العقبات وتهيئة الأجواء لأخذ البيعة ليزيد، ومما يذكر فى هذا الجانب، أن الشاعر ربيعة بن عامر الدارمى المعروف بـ(مسكين الدّارمى)، وكان ممن يؤثره يزيد ويصله، أنشد فى مجلس معاوية، وكان المجلس حافلاً ويحضره وجوه بنى أمية فقال:

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد؟

بنى خلفاء الله مهلاً فإنما ... يبوئها الرحمن حيث يريد

إذا المنبر الغربى خلاّه ربُّه ... فإن أمير المؤمنين يزيد

قال معاوية: ننظر فيما قلت يا مسكين، ونستخير الله. ولم يتكلم أحد من بنى أمية إلا بالإقرار والموافقة[١].

٣ ـ قبول أهل الشام لبيعة يزيد:

أدرك معاوية رضى الله عنه حرص أهل الشام على بقاء الخلافة فيهم، فقد حسم أهل الشام أمرهم، وأصبح خيارهم فى ولاية العهد ليزيد، ووجدوا فيه ضالتهم لاستمرار صدارتهم فى الدولة الإسلامية، ولم يكن أهل الشام يستغربون فكرة توريث الخلافة، كما كان يستغربها أهل الحجاز، فقد عهدوها من قبل إبان حكم البيزنطيين لهم، بل إن بعض أهل العراق أيضا كانوا فيما يبدو مهيئين لتقبل فكرة توريث الخلافة ولكن من منظور خاص، حيث يرون أحقية أهل البيت بها واستمرارها فيهم وقد تأثروا فى ذلك بنظام الحكم الساسانى للفرس قبل الفتح الإسلامى لهذه البلاد[٢]، إن أهل الشام استجابوا لرغبة معاوية فى تولية يزيد وليًا لعهده من بعده، وكان ذلك بعد رجوع يزيد من غزوة القسطنطينية، وقد أدى طرح هذه الفكرة إلى قبول وإجماع من أهل الشام بالموافقة على بيعة يزيد، ولم يكن هناك أى معارض[٣]، وقد أسهم أهل الشام فيما بعد فى أخذ البيعة ليزيد من الأمصار الأخرى مثل الحجاز[٤].

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٤٥٥)، دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (١٠٤).

(٢) مسند أحمد (٢/ ٣٢٥) الموسوعة الحديثية، حسن لغيره .

(٣) تاريخ خليفة، ص (٢١١)، مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (٨٩).

(٤) تاريخ فلسطين، هانى أبو الرب، ص (٣١٩، ٣٢٠)، البيان والتبيين (١/ ٣٩٢) .

٤ ـ بيعة الوفود:

عقد معاوية رضى الله عنه اجتماعًا موسعًا فى دمشق بعد ما جاءت الوفود من الأقاليم، وكانت هذه الوفود تضم مختلف رجالات القبائل العربية، فمثلاً من بلاد الشام: الضحاك بن قيس الفهرى، وثور بن معن السلمى[(١)]، وعبد الله بن عضاة الأشعرى، وعبد الله بن مسعدة الفزارى، وعبد الرحمن بن عثمان الثقفى، وحسان بن مالك بن بحدل الكلبى[(٢)] وغيرهم، كما حضر عن أهل المدينة عمرو ابن حزم الأنصارى ـ وذلك فى وقت متأخر ـ وحضر عن أهل البصرة الأحنف بن قيس التميمى، ثم تكلم كل زعيم من هؤلاء الزعماء ورحبوا بالفكرة وأثنوا عليها، وأكدوا أن هذه هى الطريقة الأصوب لحقن الدماء وحفاظ الألفة والجماعة[(٣)]، فحصلت المبايعة ليزيد بولاية العهد على أن الشيء المؤكد أن عمرو بن حزم الأنصارى لم يحضر هذا الاجتماع وذلك لأحد أمرين:

الأمر الأول: هو أن أهل المدينة لم يوافقوا -فى الأصل- على البيعة وعارضوها بشدة، فلم يرسلوا فى موعد الوفود أحدًا.

الأمر الثانى: هو أن معاوية قد رفض الالتقاء بعمرو بن حزم، وما ذلك إلا لأنه بلغه معارضة أهل المدينة، وعرف أن عمرو بن حزم مندوب عن أولئك المعارضين، فخشى إن حضر الاجتماع أن يشتت الآراء، ويحدث بلبلة من خلال معارضته، ولهذا استجاب له أخيرًا؛ فالتقى به على انفراد وحصل بالفعل ما كان يظن معاوية، ولكن معاوية تقبل الانتقاد وأجزل له العطاء.[(٤)] وكان ذلك بعدما عزل رأى ابن حزم عن الوفود.

٥ ـ طلب البيعة من أهل المدينة:

مثلما أرسل معاوية رضى الله عنه إلى الأقاليم يطلب منهم البيعة ليزيد، أرسل إلى المدينة يطلب من أميرها أخذ البيعة ليزيد،[(٥)] فقام مروان بن الحكم أمير المدينة خطيبًا فحض الناس على الطاعة وحذرهم الفتنة، ودعاهم إلى بيعة يزيد، وقال

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٣/٣٨٦) . (٢) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (٨٩).

(٣) المصدر نفسه، ص (٩٠). (٤) مجمع الزوائد (٧/٢٤٨، ٢٤٩)، صحيح الإسناد.

(٥) العقد الفريد (٤/ ٣٧٠ - ٣٧٢)، مواقف المعارضة، ص (٩٨).

مـروان: إن أمـير المؤمـنين رأى أن يسـتخلف ولـده يزيد، سنة أبى بكر الراشـدة المهدية، واستدل على ذلك بولاية العهد من أبى بكر لعمر، فرد عليه عبد الرحمن ابن أبى بكر رضى الله عنهـما[1]، ونفى أن تكون هناك مـشابهـة بين هذه البيـعة وبيعة أبى بكر وقال: فقد ترك أبو بكـر، الأهل والعشيرة وعمد إلى رجل من بنى عدى بن كعب؛ إذ رأى أنه لذلك أهل فـبايعه. ثم قال: هذه البيـعة شبيهة ببـيعة هرقل وكسرى. ثم حـدث بينه وبين مروان نزاع[2]، وجاء فى رواية عبد الرحمن ابن أبى بكر الصديق رضى اللـه عنه: يا معشر بنى أمـية اختـاروا منها بين ثلاثة: بين سنة رسول الله، أو سنة أبى بكر، أو سنة عـمر.. ألا وإنما أردتم أن تجعلوها قيصرية كلما مات قيصر كان قيصر[3]، فقال مروان: خذوه، فدخل بيت عائشة، فلم يقـدروا عليه[4]، فقـال: إن هذا الذى أنزل الله فـيه ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي﴾ [الأحقاف: ١٧] فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا من القرآن إلا أن الله أنزل عذرى[5].

وقد سبق طلبَ مـروان بن الحكم من أهل المدينة البيعة ليزيد تمهيـداً من معاوية رضى الله عنه، حيث أرسل رسـالة لم يذكر فيهـا يزيد، وإنما جاء فيهـا: إنى قد كبرت سنى، وخـشيت الاختلاف على الأمة بعدى، وقـد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بالأمر بعـدى، وكرهت أن اقطع أمراً دون مشورة من عندك فـاعرض عليهم ذلك، وأعلمنى بالـذى يردون عليك فـقام مـروان فى الناس فـأخـبـرهم بما أراد معاوية، فقال الناس: أصاب معاوية، ووفق وقـد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألو[6]، ولكن عندما ذكر فى المرة التالية اسم يزيـد امتنع أهل المدينة فى بداية الأمر، وعبَّر عبد الرحمن بن أبى بكر عمّا فى نفوسهم[7].

ومما سبق نلاحظ أن مروان بـن الحكم لم يوفق فى المهمة التى كلفه بهـا معاوية رضى الله عنه، وعند ذلك قرر معـاوية المجىء بنفسه إلى الحجاز ومعـرفة موقف الصحابة من هذه القضـية المهمة، فجاء رضى الله عنه معتـمراً فى شهر رجب من

---

(١) مواقف المعارضة، ص (٩٩)، مجمع الفوائد (٥/ ٢٤١) إسناده حسن.

(٢) مجمع الفوائد (٥/ ٢٤١) إسناده حسن.

(٣) البخارى رقم (٤٨٢٧).

(٤) المصدر نفسه رقم (٤٨٢٧)، وفى البخارى رواية أخرى.

(٥) المصدر نفسه رقم (٤٨٢٧).

(٦) المدينة فى العصر الأموى، ص (٨٨)، نقلاً عن الكامل فى التاريخ.

(٧) مواقف المعارضة، ص (٩٩).

سنة ٥٦هـ[١]، فلما علم عبد الرحمن بن أبي بكر وابن عمر وابن الزبير بقدوم معاوية خرجوا من المدينة، واتجهوا إلى مكة[٢]، فلما قدم معاوية المدينة خطب الناس وحثهم على البيعة وبيّن أن يزيد هو أحق الناس بالخلافة[٣]، ثم قال: قد بايعنا يزيد فبايعوه[٤]، ويبدو أن معاوية قد ذكر أنه يخشى على ابن عمر وغيره من القتل إن مانعوا، ويقصد بخوفه عليهم من أهل الشام، الذين لا يمكن أن يتصوروا أن أحدًا يخالف أمير المؤمنين في أمر اتفق عليه كثير من الناس، فقد ذكر أن معاوية قال: والله ليبايعنّ ابن عمر أو لأقتلنّه، فلما بلغ الخبر عبد الله بن صفوان[٥]، غضب وعزم على مقاتلة معاوية إن ثبت هذا. فلما سأل معاوية أنكر ذلك وقال: أنا اقتل ابن عمر؟! إني والله لا أقتله[٦].

أ- عبد الله بن عمر رضي الله عنه في مجلس معاوية رضي الله عنه: فلما قدم معاوية مكة، وقضى نسكه، بعث إلى ابن عمر، فقدم عليه فتشهد معاوية وقال: أما بعد يا ابن عمر، فإنك قد كنت تحدثني أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء وليس عليك أمير، وإني أحذرك أن تشق عصا المسلمين، وأن تسعى على فساد ذات بينهم، فرد ابن عمر على معاوية، وبيّن له كيف كانت طريقة بيعة الخلفاء الراشدين، وذكر له كيف أن لهم أبناء خير من يزيد، فلم يروا في أبنائهم ما يرى معاوية في يزيد، ثم بين له أيضًا أنه لا يريد أن يشق عصا المسلمين وأنه موافق على ما تجتمع عليه أمة محمد ﷺ، فأثلج هذا القول صدر معاوية رضي الله عنه وقال: يرحمك الله[٧]. فقد اشترط ابن عمر حدوث الإجماع على بيعة يزيد حتى يعطيه البيعة[٨]، وكان معاوية رضي الله عنه قد أرسل بمائة ألف درهم لابن عمر، فلما دعاه معاوية لبيعة يزيد قال: أترون هذا أراد، إن ديني إذًا عندي لرخيص[٩]،

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٣٠٥). (٢) التاريخ الصغير للبخاري (١/ ١٠٣) إسناده حسن.

(٣) تاريخ خليفة، ص (٢١٣، ٢١٤) إسناده حسن.

(٤) الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير (١/ ٢٦٢)، حسن مشهور.

(٥) التقريب، ص (٣٠٨)، قتل عام ٧٣هـ بالكعبة مع ابن الزبير.

(٦) الطبقات (٤/ ٨٣) بسند صحيح، تاريخ خليفة، ص (٢١٤ - ٢١٥) بسند صحيح، مواقف المعارضة، ص (١٠١، ١٠٢).

(٧) تاريخ خليفة، ص (٢١٤، ٢١٥) بسند صحيح (٨) الفقهاء والخلفاء، د. سلطان خالد، ص (٥٨).

(٩) الطبقات (٤/ ١٨٢) بسند صحيح .

وكان ابن عمر رضى الله عنه يرى أنه لا يجوز أن يؤخذ على البيعة الدراهم، لأنها من باب الرشوة، فإن كانت البيعة حقًا فلا يجوز له أن يأخذ على الحق أجرًا، وإن كانت باطلاً، فلا يجوز له أن يقبل البيعة لمن لا يستحقها من أجل المال[1]. موقف ابن عمر رضى الله عنه هو عدم الرضا بالأسلوب الوراثى للحكم أو أخذ البيعة عن طريق المال[2].

ب ـ عبد الرحمن بن أبى بكر فى مجلس معاوية رضى الله عنهم: وخرج ابن عمر ـ من مجلس معاوية ـ واستدعى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، فأخذ معاوية فى الكلام، فقاطعه عبد الرحمن ورد عليه بلهجة شديدة، وذكر أنه يمانع بيعة يزيد، وطلب أن يكون الأمر شورى، وتوعد معاوية بالحرب[3]. ثم قام فقال معاوية: اللهم اكفنيه بما شئت، وطلب منه أن يتمهل وألا يعلن رفضه أمام أهل الشام فيقتلوه، فإذا جاء العشى وبايع الناس ثم يكون بعد ذلك على ما عنده من رأى[4]. وكان الأولى لمعاوية رضى الله عنه أن يطلب من أهل الشام ألا يتعرضوا لمن خالفه.

جـ ـ عبد الله بن الزبير رضى الله عنه: ثم استدعى ابن الزبير، واتهمه معاوية بأنه السبب فى منع البيعة، وأنه وراء ما حدث من ابن عمر وابن أبى بكر، فردّ عليه ابن الزبير وطلب منه أن يتنحى عن الإمارة إن كان ملّها، ثم طلب من معاوية أن يضع يزيد خليفة بدلاً منه فيبايعه. ثم استدل على عدم موافقته على المبايعة بما استنبطه من حديث الرسول ﷺ بأنه لا يجوز مبايعة اثنين فى آن واحد[5]، ثم قال: وأنت يا معاوية أخبرتنى أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان فى الأرض خليفتان فاقتلوا أحدهما»[6].

د ـ الحسين بن على رضى الله عنه: ومن الملاحظ أن الرواية السابقة لم تذكر الحسين بن على ضمن من استشارهم معاوية فى بيعة يزيد، ولعل السبب يعود إلى

---

(١) موسوعة فقه ابن عمر، ص (١٥٣)، قلعجى . (٢) الفقهاء والخلفاء، ص (٥٩).

(٣) تاريخ خليفة، ص (٢١٣، ٢١٤) بسند صحيح، مواقف المعارضة، ص (١٠٣).

(٤) تاريخ خليفة، ص (٢١٤)، تاريخ أبى زرعة (١/ ٢٢٩)، بإسناد صحيح.

(٥) تاريخ خليفة، ص (٢١٤) بإسناد حسن، حلية الأولياء (١/ ٣٣٠، ٣٣١) .

(٦) المعجم الكبير للطبرانى (١٩/ ٣١٤)، مجمع الزوائد (٥/ ١٩٨)، قال الهيثمى: ورجاله ثقات .

أن معـاوية أدرك العلاقة بين أهل العراق والحسين وأنهم كانوا يكتبون له ويمنونه بالخلافة من بعد معاوية، ثم إن الحسين قد قابل معاوية بمكة فكلمه طويلاً -كما يبدو- فى أمر الخلافة؛ الأمر الذى أغضب يزيد فقال لأبيه: لا يزال رجل قد عرض لك، فأناخ بك، قال: دعه لعله يطلبها من غيرى فلا يسوغه فيقتله[1].

ويتبين لنا من خلال الحوار الذى دار بين معاوية وكل من عبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهم أنهم يمانعون البيعة لسببين:

- اعتراضهم على تولية يزيد للعلاقة بين الأب والابن، وأن هذه لم تكن طريقة الخلفاء الراشدين.

- الاستدلال على بطلان هذه البيعة ورفضها لمخالفتها النص الصريح الذى ورد فى الحديث النبوى، والذى لا يجيز البيعة لشخصين فى آن واحد. والملاحظ هنا أن المعارضين لم يذكروا قدحًا فى يزيد وإلا كيف يمكن أن يتجاهلوا صفات يزيد التى اتهم بها فيما بعد، خاصة فى ذلك الموقف الذى يتطلب حشد أى دليل فى مقابل الخصم[2]. والحقيقة أنه كان هناك شعور قوى بين بعض الناس -خاصة بين أبناء المهاجرين- هو كيف أن معاوية الذى أسلم فى فتح مكة يتولى خلافة المسلمين، وهناك من هو أقدم إسلامًا وأحق منه؟![3]، وكان البعض معترضًا على تقديم يزيد خوفًا من القيصرية والهرقلية -على حد تعبير عبد الرحمن بن أبى بكر- ولما رأى معاوية أوجه الانتقادات التى انتقد فيها أبناء الصحابة بيعة يزيد، ورأى أنها لا تمس يزيد شخصيًا، بل إنها وجهات نظر ارتأوها ورأى معاوية خلافها، فهؤلاء مدفوعون بحرصهم على جعل منصب الخلافة لا تتطرق إليه العلاقات الأسرية والرغبات الشخصية، ومن ثم تكون قيمة الخليفة واختياره مبنية على علاقته بالخليفة الذى قبله[4]. قام معاوية بعد اجتماعه مع ابن عمر وابن الزبير وابن أبى بكر، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار زعموا

---

(١) الطبقات، الطبقة الخامسة، ص (٣٥٧) إسناد حسن نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (١٠٦).

(٢) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (١٠٤). (٣) مصنف ابن أبى شيبة (١١١/ ٩٠) بسند صحيح.

(٤) مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام، د. الدورى، ص (٦٤).

أن ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبى بكر الصديق لم يبايعوا يزيد، قد سمعوا وأطاعوا وبايعوا له. فقال أهل الشام: لا والله لا نرضى حتى يبايعوا على رءوس الناس وإلا ضربنا أعناقهم، فانتهرهم معاوية، وقال: مه! سبحان الله ما أسرع الناس إلى قريش بالسوء! لا أسمع هذه المقالة من أحد بعد اليوم، ثم نزل، فقال الناس: بايع ابن عمر وابن الزبير وابن أبى بكر ويقولون: لا والله ما بايعنا، ويقول الناس: بلى لقد بايعتم، وارتحل معاوية ولحق بالشام[1].

وبهذه الرواية الصحيحة يتبين لنا كذب تلك الرواية التى تتهم معاوية رضى الله عنه بأنه أقام على رأس كل رجل من الصحابة الأربعة -وهم عبد الله بن عمر، -عبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر، والحسين بن على رضوان الله عليهم رجلين، وأعطى الإشارة لكل حارس بقتل من يمانع البيعة، فبايع الناس وبايع ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبى بكر تحت تهديد السلاح فبالإضافة إلى ضعف الرواية سندًا، فإن متنها لا يقل عن سندها من حيث الضعف ولا يقف أمام النقد الدقيق[2]، فمثلاً فى بداية الرواية: أن معاوية لما كان قريبًا من مكة قال لمرقال صاحب حرسه: لا تدع أحدًا يسير معى إلا من حملته أنا، فخرج يسير وحده حتى إذا كان وسط الأراك لقيه الحسين بن على، فوقف وقال: مرحبًا وأهلاً بابن بنت رسول الله ﷺ، سيد شباب المسلمين دابة لأبى عبد الله يركبها، ثم طلع عبد الرحمن بن أبى بكر فقال: مرحبًا وأهلاً بصاحب رسول الله ﷺ وابن الصديق وسيد المسلمين، ودعا له بدابة فركبها، ثم طلع ابن الزبير فقال: مرحبًا وأهلاً بابن حوارى رسول الله ﷺ وابن الصديق وابن عمة رسول الله ﷺ؛ ثم دعا له بدابة فركبها، ولم يعرض لهم شىء حتى قضى نسكه[3]. وأما ما يتعلق بباقى الرواية التى تذكر أن معاوية أوقف على رأس كل رجل حارسين وأمرهما بقتل من يحاول الاعتراض على البيعة، إذا بويع يزيد، فهذا مستبعد لأمرين أحدهما: أليس من الغريب جدًا على معاوية أن يستخدم العنف بهذه الصفة مع أبناء الصحابة،

(١) تاريخ خليفة بسند حسن، ص (٢١٤).

(٢) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (١٠٦)، تاريخ خليفة، ص (٢١٥) بسند جويرية بن أسماء، قال: سمعت أشياخ أهل المدينة يتحدثون، والرواية ضعيفة لا يمكن الاعتماد عليها.

(٣) تاريخ خليفة، ص (٢١٥) رواية ضعيفة لا يمكن الاعتماد عليها.

والصحابة أنفسهم ومن ثم يتسبب فى توسيع الخلاف ويباعد الشقة بينه وبين يزيد من جهة، وبين الصحابة وأبنائهم من جهة أخرى؟.

والأمر الآخر: عندما يقف الحراس على رءوس الأربعة، ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبى بكر، والحسين، أليس هذا المنظر أمام الناس يجعل الشك عند الناس يتضاعف حول مكانة يزيد، ويعرف الناس أن أولئك الحراس الذين يقفون على رأس كل شخص إنما يتربصون به ويبغونه شرًا، ثم يصبح لدى الناس اقتناع كامل بأن هذه البيعة بيعة إكراه وخديعة فيمانعوا؟!(١).

ثالثًا: تاريخ ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد:

اختلفت المصادر حول تاريخ ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد على النحو التالى:

١ ـ ذكر خليفة بن خياط(٢)، والذهبى(٣)، أنه كان فى سنة ٥١هـ .

٢ ـ ذكر ابن عبد ربه(٤)، أن ذلك كان فى سنة ٥٥هـ .

٣ ـ ذكر الطبرى(٥)، وابن الجوزى(٦)، وابن الأثير(٧)، وابن كثير(٨)، أن ذلك كان فى سنة ٥٦هـ.

هذا وبعد دراسة التواريخ السابقة اتضح عدم صحة ترشيح يزيد بن معاوية سنة ٥١هـ(٩) للأسباب التالية:

أ ـ أن وفاة الحسن بن على رضى الله عنه كانت فى السنة نفسها. أى فى سنة ٥١هـ واتخاذ قرار الترشيح يحتاج لوقت من طرف معاوية لكى يدرسه ويستشير فيه، كما أنه ليس من الحكمة إعلان قرار الترشيح بعد وفاة الحسن رضى الله عنه مباشرة.

---

(١) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (١١٠).
(٢) تاريخ خليفة، ص (٢١٣).
(٣) تاريخ الإسلام (عهد معاوية)، ص (١٤٧).
(٤) العقد الفريد (٤/ ٣٣٨).
(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٢١٩).
(٦) المنتظم (٥/ ٢٨٥).
(٧) البداية والنهاية (١١/ ٣٠٥).
(٨) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٠٨).
(٩) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٤٥٠).

ب ـ قتل حجر بن عدى رضى الله عنه فى السنة نفسها -أى فى سنة ٥١هـ- لذا فإنه أيضًا ليس من الحكمة إعلان ترشيح يزيد بن معاوية فى هذه السنة، لأن الأنفس لم تكن مهيأة لمثل هذه القرارات الجريئة، التى يعد توقيت إعلانها على الناس من أهم عوامل نجاحها.

جـ ـ إن ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد كان أثناء ولاية مروان بن الحكم على الحجاز[1]، وهى -بلا شك- الفترة الثانية من ولاية مروان بن الحكم والتى امتدت من سنة ٥٤هـ ـ ٥٧هـ وذلك أن الفترة الأولى من ولاية مروان بن الحكم كانت من سنة ٤٢ـ ٤٩هـ.

بعد ذلك يتبقى تاريخان لإعلان ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد، وهما ٥٥هـ وسنة ٥٦هـ، وهذان التاريخان يكمل أحدهما الآخر ـ كما سيتضح لاحقًا ـ ولكن يرد فى هذا المقام سؤال حول السبب الذى جعل معاوية رضى الله عنه يؤخر ترشيح ابنه يزيد وليًا للعهد إلى سنة ٥٥هـ أو سنة ٥٦هـ مع أن الحسن بن على رضى الله عنه توفى سنة ٥١هـ، وجواب هذا السؤال يكمن فى معرفة أهم حدث وقع فى سنة ٥٥هـ حيث توفى فى هذه السنة سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه، آخر الستة الذين رضيهم ورشحهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه للخلافة من بعده[2].

رابعًا: وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد:

حاول بعض الإخباريين أن يوجدوا علاقة بين وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وبيعة يزيد بن معاوية، فذكر البعض أن معاوية رضى الله عنه لما رأى مكانة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد عند أهل الشام ـ بسبب مآثر عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ولغنائه عن المسلمين فى أرض الروم وبأسه ـ خافه معاوية، فأمر ابن أثال الطبيب النصرانى فدس إليه السم[3]، فى حين يرجع ابن الكلبى سبب القتل إلى أمر آخر وهو: أن معاوية لما أراد أن يولى الأمور رجلاً من بعده قال

(١) صحيح البخارى مع فتح البارى (٨/٤٣٩).

(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (٤٥٢)، سير أعلام النبلاء (١/١٢٣) .

(٣) تاريخ الطبرى (٦/١٤٣)، رواية ضعيفة .

لأهل الشام: إن أمير المؤمنين يريد أن يستخلف عليكم، فماذا ترون؟ فقالوا: عليك بعبد الرحمن بن خالد، وكان فاضلاً فسكت معاوية وأضمرها فى نفسه، ثم إن عبد الرحمن اشتكى، فدعا معاوية طبيبه بن أثال وأمره بدس السم لعبد الرحمن[١]. فهذه الروايات بالإضافة إلى ضعف سندها يوجد اختلاف فى متنها مع الواقع الملموس، فمعاوية رضى الله عنه بيده عزل الأمراء أو توليتهم كما هو معروف، وليس بالصعوبة على معاوية أن يطلب من عبد الرحمن بن خالد أن يتنحى عن قيادة الصوائف على الثغر الرومى، ويهمل عبد الرحمن بن خالد، ثم لا يكون له أى مكانة يُخشى منها، وقد ورد أن معاوية عزله وولى بدلاً منه سفيان بن عوف الغامدى[٢] على إحدى الصوائف[٣]، وليس هذا يشكل صعوبة على معاوية، بل إن معاوية كان يعزل عن الإمارة من هو أعظم وأقوى من عبد الرحمن بن خالد، ثم كيف يقوم معاوية بقتله، وقد أورد الطبرى ذكر غزوة البحر سنة ٤٨هـ وكان قائد أهل مصر عقبة بن عامر الجهنى، وعلى أهل المدينة المنذر بن زهير، وعلى جميعهم خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد[٤]، فكيف يرضى معاوية أن يكون ولده قائدًا كبيرًا من بعد أبيه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كيف يرضى أن يقوم ولده بقيادة الجيش لمعاوية إن كان معاوية قاتل أبيه، وهل يمكن أن يخفى على ولده هذا الأمر وهو أقرب الناس إليه؟[٥] فهذه أكاذيب واضحة حاولت أن توجد علاقة بين موت عبد الرحمن بن خالد بن الوليد والبيعة ليزيد، ومثلها مثل الأكاذيب التى حاولت أن تربط بين موت الحسن بن على والبيعة ليزيد ـ كما مرّ ذكره-.

إن خبر وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بالسم أورده القاسم بن سلام، وابن حبيب البغدادى[٦]، وذكر أن الدافع هو الخوف من منافسة عبد الرحمن ليزيد فى ولاية العهد[٧]، كذلك أورد الخبر البلاذرى[٨]، وأبو الفرج الأصفهانى[٩]،

(١) كتاب الأمثال، ص (١٩٢) للقاسم بن سلام، ضعيف الإسناد. (٢) تهذيب تاريخ دمشق (٦/ ١٨٥).
(٣) أنساب الأشراف (٤/ ١٠٤)، مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (٩٢).
(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ١٤٧).
(٥) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (٩٣). (٦) المنمق فى أخبار قريش، ص(٣٦٠).
(٧) هذا تعليل فاسد، لأن ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد ظهر فى عام ٥٦هـ بعد وفاة الحسن بن على، وسعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد رضى الله عنهم.
(٨) أنساب الأشراف (٤/ ١٠٩). (٩) الأغانى (١٦/ ١٩٧).

وأبو هلال العسكرى[1]، وخبر اتهام معاوية رضى الله عنه بحادثة سم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد لم ترد بإسناد صحيح، بل هو من الأخبار المكذوبة على هذا الصحابى الكريم[2]، وفى ذلك يقول ابن كثير: وقد ذكر ابن جرير وغيره، أن رجلاً يقال له: ابن أثال ـ وكان رئيس الذمة بأرض حمص ـ سقاه شربة فيها سم فمات، وزعم بعضهم أن ذلك عن أمر معاوية له فى ذلك، ولا يصح[3].

خامسًا: أسباب ترشيح معاوية لابنه يزيد:

١ ـ الحفاظ على وحدة الأمة:

نظر معاوية رضى الله عنه إلى ابنه يزيد على أنه المرشح الذى سيحظى بتأييد أهل الشام الذين يمثلون العامل الأقوى فى استقرار الدولة، وقد أبرز معاوية رضى الله عنه السبب الذى دعاه لاختيار ابنه يزيد، وذلك أثناء جمع التأييد له من كبار أبناء الصحابة أثناء رحلته الأخيرة للحج إذ كان الدافع لمعاوية ـ رضى الله عنه ـ عندما سارع فى أخذ البيعة ليزيد هو خوفه من الاختلاف[4]، الذى قد يطرأ على الأمة بعد موته، وربما تنخرط فى قتال جديد لا يعلم سعته ومداه إلا الله عز وجل[5]. كان معاوية يرهب أن يدع أمة محمد ﷺ كالضأن لا راعى لها[6]، ولذلك عمل على اختيار من يخلفه، وكان الأولى بمعاوية رضى الله عنه أن يعين من أفاضل المجتمع الإسلامى رجالاً يجعلهم موضع شورى يختارون من كان أهلاً للخلافة ويبتعد عن ترشيح ابنه يزيد، لأن اختيار يزيد لم يكن أمانًا من الاختلاف والقتال وسفك الدماء ولقد وقع المحظور بعد وفاة معاوية، وسفكت الدماء ولم يزح اختيار معاوية ليزيد ما تعلل به من المخاوف، ويبدو أنه وقع ما وقع بسبب شخصية يزيد، وإتباع الوراثة بديلاً من الشورى فى اختيار الخليفة، ولأسباب أخرى، وعلى كل حال فمعاوية رضى الله عنه اجتهد ولم يكن مصيبًا فى تولية يزيد لولاية العهد، فقد كان بوسعه وقدراته السياسية الفائقة أن يطمئن فى حياته على اجتماع كلمة المسلمين فى أمر الخلافة من بعده باختيار واحد من قريش يشهد

---

(١) جمهرة الأمثال (٢/ ٣٨٥) .
(٢) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص(٣٨٤).
(٣) البداية والنهاية (١١/ ١٧٤) .
(٤) دراسات فى النظم، ص(٤١)، د. توفيق اليوزكى.
(٥) مواقف المعارضة من خلافة يزيد، ص(١٣١).
(٦) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢٢).

له الناس بحسن السيرة أكثر من يزيد ابنه، ويجتمع عليه أعيان المجتمع الإسلامى فى الشام والعراق وبلاد الحجاز وغيرها.

٢ ـ قوة العصبية القبلية:

خاض معاوية رضى الله عنه الحرب وتولى الخلافة بنصرة من أهل الشام، وكانوا من أشد الناس طاعة لمعاوية رضى الله عنه ومحبة لبنى أمية، ومن الدلائل على تلك الطاعة والمحبة أن معاوية رضى الله عنه لما عرض خلافة يزيد بن معاوية على أهل الشام وافقوا موافقة جماعية ولم يتخلف منهم أحد، وبايعوا ليزيد بولاية العهد من بعد أبيه[١]، ومن الدلائل على قوة العصبية فى بلاد الشام لبنى أمية أن مروان بن الحكم تمكن من الانتصار بأهل الشام على عمال عبد الله بن الزبير، ثم تبعه بعد ذلك ابنه عبد الملك بن مروان، حتى تمكن من الانتصار بأهل الشام على ابن الزبير وقتله سنة ٧٣هـ رضى الله عنه، ومع ذلك لم نجد أهل الشام انقادوا لابن الزبير، بل إن أهل العراق غدروا بأخيه مصعب بن الزبير ومالوا مع عبد الملك بن مروان، فلماذا لم تجتمع الأمة على ابن الزبير وهو فى ذلك الحين لا يشاركه أحد فى فضائله ومكانته؟ بل نجد العكس؛ أن عبد الملك بن مروان -الذى يُعد فى السن كأحد أبناء عبد الله بن الزبير- تمكن من تولى زعامة المسلمين[٢]، فعصبية أهل الشام كانت سببًا مهمًا فى تولية يزيد وليست عصبية بنى أمية فإن أسرة بنى أمية لم تكن ذات تأثير كبير على الأحداث فى مجىء معاوية رضى الله عنه إلى منصب الخلافة، وقد بنى ابن خلدون دفاعه عن صنيع معاوية فى ولاية العهد أن المصلحة تقتضى ذلك حيث قال: والذى دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه إنما هو مراعاة المصلحة فى اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد حينئذٍ من بنى أمية، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم، فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصًا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذى شأنه أهم عند الشارع، وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحبته مانعة سوى ذلك، وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل

---

(١) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (١٣١).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٣٢).

على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزة فى قبول الحق، فإنهم كلهم أجلّ من ذلك[1]، وقال أيضًا: عهد معاوية إلى يزيد خوفًا من افتراق الكلمة، بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم، فلو قد عهد إلى غيره لاختلفوا عليه[2]. أى أن قوة عصبية بنى أمية وسطوتهم، ونفورهم من الانقياد لغيرهم، جعلت معاوية رضى الله عنه يختار مرشحًا من بنى أمية، فكان ابنه يزيد، خوفًا منه على الأمة من الفرقة والاختلاف[3]، ومما لا شك فيه أنه لو جاء معاوية برجل من ذوى الكفاءة من قريش غير ابنه يزيد واستفتى ذوى الرأى والنهى بشأنه، ثم وقف وراءه بثقله الكامل وتأييده الصريح، وطلب من أهل الحل والعقد فى الأمة مبايعته بولاية العهد، فهل كان يعترض أحد؟ طبعًا لا، ذلك لأن أمير المؤمنين هو الداعى، ولأن المرشح لولاية العهد رجل أريد بترشيحه ومبايعته مصلحة الأمة والدولة مجردة من كل شبهة أو عاطفة، ألا ترى معى أن ذلك كان ممكنًا وأنه كان محققًا للغرض القائل بأن القصد من ولاية العهد هو سد أبواب الخلاف بين المسلمين، وتجنيب الأمة أخطار التنازع والفتن من جديد؟ ولكن معاوية رضى الله عنه -على كل حال- اجتهد، فإن كان مصيبًا فله أجران، وإن كان مخطئًا فله أجر[4].

٣ ـ محبة معاوية لابنه وقناعته به:

قال ابن كثير: وقد كان معاوية لما صالح الحسن، عهد للحسن بالأمر من بعده، فلما مات الحسن قوى أمر يزيد عند معاوية، ورأى أنه لذلك أهل، وذاك من شدة محبة الوالد لولده، ولما كان يتوسم فيه من النجابة الدنيوية، وسيما أولاد الملوك، ومعرفتهم بالحروب، وترتيب الملك والقيام بأبهته،وكان ظن ألا يقوم أحد من أبناء الصحابة فى هذا المعنى[5]. وقال معاوية رضى الله عنه لعمرو بن حزم الأنصارى -الذى كان معارضًا للبيعة، فذكّر معاوية بالله، وطلب منه أن ينظر فى عاقبة الأمور،فشكره معاوية-: إنك امرؤ ناصح. ثم أخذ معاوية يبيّن له بصراحة أنه لم

(١) مقدمة ابن خلدون (١/ ٢٦٢، ٢٦٣) . (٢) المصدر نفسه (١/ ٢٥٧، ٢٥٨) .

(٣) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٤٦٢).

(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١٢٦).

(٥) البداية والنهاية نقلاً عن مرويات خلافة معاوية، ص (٤٥٩، ٤٦٠).

يبق إلا ابنه وأبناؤهم وابنه، أحق من أبنائهم[1]، وكانت ليزيد بعض الصفات التى شجعت معاوية على جعله وليًا للعهد، قال الذهبى فى ترجمة يزيد: كان قويًا شجاعًا، ذا رأى وحزم، وفطنة وفصاحة[2]، وقال ابن كثير: وكان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم، والحلم، والفصاحة، والشعر، والشجاعة، وحسن الرأى فى الملك[3]. ربما كانت هذه الصفات دافعة لمعاوية وكافية ليزيد ليكون صالحًا للخلافة[4]، ولا شك أن الصحابة وأبناءهم أفضل من يزيد وأصلح، ولكن مع ذلك فإن معاوية ربما رأى فى ولده مقدرة لم تكن لغيره فى قيادة الأمة، بسبب عيشته المتواصلة مع أبيه، ومناصرة أهل الشام وولائهم الشديد له، ثم اطلاعه عن قرب على معطيات ومجريات السياسة فى عصره، وقد أنس معاوية رضى الله عنه من ولده يزيد حرصًا على العدل وتأسيًا بالخلفاء الراشدين، فقد كان يسأله عن الكيفية التى سيسير بها فى الأمة فيرد عليه يزيد بقوله: كنت والله يا أبت عاملاً فيهم عمل عمر بن الخطاب[5]. وغير ذلك من الأسباب. فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضررًا فيها، فيقدم فى إمارة الحرب، الرجل القوى الشجاع، وإن كان فيه فجور، على الرجل الضعيف، وإن كان أمينًا[6]. فالواجب فى كل ولاية الأصلح بحسبها، وسئل الأمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين فى الغزو أحدهما قوى فاجر، والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يغزو؟ فقال: أما الفاجر القوى، فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين، يُغزى مع القوى الفاجر[7]. ومعظم المقصود من نصب الأئمة حياطة المسلمين، ودفع عدوهم، والأخذ على يد ظالمهم، وإنصاف مظلومهم، وتأمين سبلهم، وتفريق بيت مالهم فيهم، على ما أوجبه الشرع، فمن كان ناهضًا بهذه الأمور ونحوها فبه يحصل مقصود الإمامة، ويطيب عيشهم، ويأمنون فيه على أنفسهم وأموالهم وحرمهم، وإن كان غيره أكثر علمًا منه، أو أوسع عبادة، أو

---

(١) مجمع الفوائد (٧/٢٤٨، ٢٤٩)، رجاله رجال الصحيح، الإصابة (٤/٦٢١)، رجاله ثقات .

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٣٧). (٣) البداية والنهاية (١١/٦٤٦) .

(٤) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص (٢٠٤). (٥) الأشراف لابن أبى الدنيا، ص (١٢٧)، سنده ضعيف.

(٦) السياسة الشرعية لابن تيمية، ص (٢٢). (٧) المصدر نفسه، ص (٢٢).

أعظم ورعًا فإنه إذا كان غير ناهض بالقيام بهذه الأمور، فلا يعود على المسلمين من علمه أو ورعه وعبادته فائدة، ولا ينفعهم كونه مريدًا للصلاح وإجراء الأمور مجاريها الشرعية مع عجزه عن ذلك وعدم قدرته على إنفاذه[1]. فقد كان معاوية رضى الله عنه يرى بولاية المفضول مع وجود الفاضل.. هذه أهم أسباب ترشيح معاوية رضى الله عنه لابنه.

سادسًا: الانتقادات التى وجهت لمعاوية بشأن البيعة ليزيد:

لقد حمّل كثير من المؤرخين السابقين والمعاصرين معاوية رضى الله عنه مسئولية البيعة الكاملة، وبالتالى حملوه جميع الأخطاء التى يقع فيها الحكام من زمان معاوية حتى عصرنا الحاضر، فمنهم من اتهمه بالخروج على نظام الشورى فى الإسلام فكان أول محطم لنظام الإسلام[2]. ومنهم من اتهم معاوية بأنه أقر النظام الذى يعتمد على السياسة أولاً وإلى الدين ثانيًا[3]، والبعض شبه معاوية بالملوك الأقدمين من الفرس والروم[4]، والبعض يجعل معاوية بهذه البيعة هو رائد المدرسة (المكيافيلية) فى السياسة القائمة على تسويغ الوسيلة من أجل الغاية[5]، والبعض حكم على معاوية بارتكابه كبيرة أضافها إلى كبائره السابقة[6]، والبعض اعتبر معاوية خارجًا على إجماع المسلمين بهذه البيعة[7]. ولمعرفة صحة هذه الاتهامات من عدمها يجدر بنا أن نعرف ماهية الشورى وكيفية تطبيقها، فالشورى دعامة من دعائم الحكم فى الإسلام، وقاعدة صلبة من قواعده، كما أن اختيار الحاكم فى الإسلام وتولى أمر الأمة المسلمة لا يعطيه صفة مقدسة، أو سلطة مطلقة[8]، بل إنه مسئول عن كل عمل يقوم به وينفذ فيه ما ينفذ فى شعبه وأما طريقة الشورى فلم يحدد لها نظام خاص، فتطبيقها -إذن- متروك للظروف والمقتضيات الجارية[9]، فقد

---

(١) العبرة مما جاء فى الغزو والشهادة، ص (٣٥)، صديق حسن خان .

(٢) إسلام بلا مذهب، مصطفى الشكعة، ص (٥٨).

(٣) نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب، على إبراهيم حسن، ص (٥٨).

(٤) عائشة والسياسة، ص (٢٧٨)، مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (١٤١).

(٥) ملامح التيارات السياسية، إبراهيم بيضون، ص (١٤٧).

(٦) الأعمال العربية الكاملة (٦/ ٣٦) أمين الريحانى .

(٧) زعماء الإسلام، ص (٢١٩)، حسن إبراهيم حسن.

(٨) مواقف المعارضة، ص (١٤٢)، النظرية الإسلامية للصعيدى، ص (٤٦٨).

(٩) مواقف المعارضة، ص (١٤٣).

كان رسول الله ﷺ يستشير المسلمين فيما لم ينزل فيه وحى، ويأخذ برأيهم فيما هم أعرف به من شئون دنياهم، وكذلك سار الخلفاء الراشدون فى استشارة المسلمين. . وإليك استعراضًا موجزًا لكيفية انعقاد إمامة الخلفاء الراشدين:

١ ـ طريقة انعقاد بيعة أبى بكر رضى الله عنه:

قام أهل الحل والعقد فى سقيفة بنى ساعدة ببيعة الصديق بيعة خاصة ثم رشحوه للناس فى اليوم التالى وبايعته الأمة فى المسجد البيعة العامة[١]، وقد أفرز ما دار فى سقيفة بنى ساعدة مجموعة من المبادئ منها: أن قيادة الأمة لا تقام إلا بالاختيار، وأن البيعة هى أصل من أصول الاختيار وشرعية القيادة، وأن الخلافة لا يتولاها إلا الأصلب دينًا والأكفأ إدارة، فاختيار الخليفة يكون وفق مقومات إسلامية، وشخصية، وأخلاقية، وأن الخلافة لا تدخل ضمن مبدأ الوراثة النسبية أو القبلية، وأن إثارة (قريش) فى سقيفة بنى ساعدة باعتبارها واقعًا يجب أخذه فى الحسبان، ويجب اعتبار أى شىء مشابه ما لم يكن متعارضًا مع أصول الإسلام، وأن الحوار الذى دار فى سقيفة بنى ساعدة قام على قاعدة الأمن النفسى السائد بين المسلمين حيث لا هرج ولا مرج، ولا تكذيب ولا مؤامرات، ولا نقض للاتفاق، ولكن تسليم للنصوص التى تحكمهم، حيث المرجعية فى الحوار إلى النصوص الشرعية[٢].

أ ـ وأول ما قرره اجتماع يوم السقيفة هو أن (نظام الحكم ودستور الدولة) يقرر بالشورى الحرة، تطبيقًا لمبدأ الشورى الذى نص عليه القرآن الكريم، ولذلك كان هذا المبدأ محل إجماع، وسند هذا الإجماع هو النصوص القرآنية التى فرضت الشورى، أى أن هذا الإجماع كشف وأكد أول أصل شرعى لنظام الحكم فى السلام وهو الشورى الملزمة، وهذا أول مبدأ دستورى تقرر بالإجماع بعد وفاة رسولنا ﷺ، ثم إن هذا الإجماع لم يكن إلا تأييدًا وتطبيقًا لنصوص الكتاب والسنّة التى أوجبت الشورى.

ب ـ تقرر يوم السقيفة أيضًا أن اختيار رئيس الدولة -أو الحكومة الإسلامية- وتحديد سلطاته يجب أن يتم بالشورى، أى البيعة الحرة التى تمنحه تفويضًا ليتولى

---

(١) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص (٦٦، ٦٧).

(٢) دراسات فى عهد النبوة للشجاع، ص (٢٥٦).

الولاية بالشروط والقيود التى يتضمنها عقد البيعة الاختيارية الحرة ـ الدستور فى النظم المعاصرة ـ وكان هذا ثانى المبادئ الدستورية التى أقرها الاجتماع، وكان قرارًا إجماعيًا كالقرار السابق.

جـ ـ تطبيقًا للمبدأين السابقين قرر اجتماع السقيفة اختيار أبى بكر ليكون الخليفة الأول للدولة الإسلامية[1]، ثم إن الترشيح لم يصح نهائيًا إلا بعد أن تمت له البيعة العامة، أى موافقة جمهور المسلمين فى اليوم التالى بمسجد الرسول ﷺ، ثم قبوله لها بالشروط التى ذكرها فى خطابه[2] المشهور الذى جاء فيه: أما بعد، أيها الناس، فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمّهم الله بالبلاء، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[3].
وقال عمر لأبى بكر يومئذ: اصعد المنبر، فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة[4]، وتعتبر هذه الخطبة الرائعة من عيون الخطب الإسلامية على إيجازها، وقد قرر الصديق فيها قواعد العدل والرحمة فى التعامل بين الحاكم والمحكوم، وركز على أن طاعة ولى الأمر مترتبة على طاعة الله ورسوله، ونص على الجهاد فى سبيل الله لأهميته فى إعزاز الأمة، وعلى اجتناب الفاحشة لأهمية ذلك فى حماية المجتمع من الانهيار والفساد[5].

٢ ـ طريقة انعقاد بيعة عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

لما اشتد المرض بالصديق رضى الله عنه جمع الناس إليه، فقال: إنه قد نزل بى ما قد ترون، ولا أظننى إلا ميت لما بى، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتى، وحل عنكم عقدتى، ورد عليكم أمركم، فأمّروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمّرتم فى

(١) فقه الشورى والاستشارة، د. توفيق الشاوى، ص(١٤٠). (٢) المصدر نفسه، ص (١٤٢).
(٣) البداية والنهاية (٦/ ٣٠٥، ٣٠٦) . (٤) البخارى، الأحكام رقم (٧٢١٩).
(٥) التاريخ الإسلامى (٩/ ٢٨) .

حياة منى كان أجدر ألا تختلفوا بعدى[1]، وقد قام أبو بكر رضى الله عنه بعدة إجراءات لتتم عملية اختيار الخليفة القادم.

أ ـ استشارة أبى بكر كبار الصحابة: تشاور الصحابة رضى الله عنهم وكل يحاول أن يدفع الأمر عن نفسه ويطلبه لأخيه إذ يرى فيه الصلاح والأهلية، لذا رجعوا إليه، فقالوا: رأينا يا خليفة رسول الله رأيك، قال: فأمهلونى حتى أنظر لله ولدينه ولعباده، فدعا أبو بكر عبد الرحمن بن عوف فقال له: أخبرنى عن عمر بن الخطاب، فقال له: ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى، فقال أبو بكر: وإن فقال عبد الرحمن: هو -والله- أفضل من رأيك فيه، ثم دعا عثمان بن عفان فقال: أخبرنى عن عمر بن الخطاب. فقال: أنت أخبرنا به. فقال: على ذلك يا أبا عبد الله، فقال عثمان: اللهم علمى به أنْ سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله. فقال أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته ما عدتك. ثم دعا أسيد بن حضير فقال له مثل ذلك، فقال أسيد: اللهم أعلمه الخيرة بعدك، يرضى الرضا، ويسخط للسخط، والذى يسر خير من الذى يعلن، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه. وكذلك استشار سعيد بن زيد وعدداً من الأنصار والمهاجرين، وكلهم تقريبًا كانوا برأى واحد فى عمر إلا طلحة بن عبيد الله خاف من شدته، فقد قال لأبى بكر: ما أنت قائل لربِّك إذا سألك استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر: أجلسونى، أبالله تخوفونى؟ خاب من تزوَّد من أمركم بظلم، أقول: اللهم استخلفت عليهم خير أهلك[2]. وبين لمن نبهه إلى غلظة عمر وشدته فقال: ذلك لأنه يرانى رقيقًا ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما عليه[3].

ب ـ نص العهد الذى كتبه أبو بكر لكى يقرأ على الناس: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إنى أستخلف عليكم بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، وإنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظنى به وعلمى به

---

(١) تاريخ الطبرى (٤/٢٣٨)، التاريخ الإسلامى (٩/٢٥٨) .

(٢) الكامل لابن الأثير (٢/٧٩)، التاريخ الإسلامى شاكر، ص (١٠١).

(٣) الكامل لابن الأثير (٢/٧٩) .

وعلمى فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب، الخير أردت ولا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

جـ- إبلاغ الناس بنفسه: إنه أراد إبلاغ الناس بلسانه واعيًا مدركًا حتى لا يحصل أى لبس، فأشرف أبو بكر على الناس وقال لهم: أترضون بما أستخلف عليكم، فإنى والله ما ألوت من جهد الرأى ولا وليت ذا قربة، وإنى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا: سمعنا وأطعنا[١].

د- التوجه بالدعاء لله: إنه توجه بالدعاء إلى الله يناجيه ويبثه كوامن نفسه، وهو يقول: اللهم وليته بغير أمر نبيك، ولم أرد بذلك إلا إصلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، واجتهدت لهم رأيى، فولَّيت عليهم خيرهم وأحرصهم على ما أرشدهم، وقد حضرنى من أمرك ما حضر، فاخلفنى فيهم فهم عبادك[٢].

هـ- تكليف عثمان بقراءة العهد على الناس: كلف أبو بكر رضى الله عنه عثمان ابن عفان أن يتولى قراءة العهد على الناس، وأخذ البيعة لعمر قبل موت أبى بكر بعد أن ختمه لمزيد من التوثيق والحرص على إمضاء الأمر، دون أى آثار سلبية، وقال عثمان للناس: أتبايعون لمن فى هذا الكتاب؟ فقالوا: نعم. فأقروا بذلك جميعًا ورضوا به[٣].

و- وصية الصديق لعمر بن الخطاب رضى الله عنهما: اختلى الصديق بالفاروق وأوصاه بمجموعة من التوصيات لإخلاء ذمته من أى شىء، حتى يمضى إلى ربه خاليًا من أى تبعة بعد أن بذل قصارى جهده واجتهاده[٤]، وقد جاء فى الوصية: اتق الله يا عمر، واعلم أن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة بإتباعهم الحق فى دار الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الحق غدًا أن يكون ثقيلاً، وإنما خفَّت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل غدًا أن يكون خفيفًا، وإن الله تعالى ذكر أهل الجنة فذكرهم

---

(١) تاريخ الطبرى (٤/٢٤٨).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/١٩٩)، تاريخ المدينة (٢/ ٦٦٥ - ٦٦٩).

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٠٠).

(٤) أبو بكر الصديق، على الطنطاوى، ص (٢٣٧).

بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئه،فإذا ذكرتهم قلت: إنى أخاف ألا ألحق بهم، وإن الله تعالى ذكر أهل النار، فذكرهم بأسوأ أعمالهم، ورد عليهم أحسنه، فإذا ذكرتهم، قلت: إنى لأرجو ألا أكون مع هؤلاء، ليكون العبد راغبًا راهبًا، لا يتمنى على الله ولا يقنط من رحمة الله، فإن أنت حفظت وصيتى فلا يك غائب أبغض إليك من الموت، وليس تعجزه[1].

ونلاحظ أن عمر رضى الله عنه ولى الخلافة باتفاق أصحاب الحل والعقد وإرادتهم، فهم الذين فوضوا لأبى بكر انتخاب الخليفة، وجعلوه نائبًا عنهم فى ذلك، فشاور ثم عين الخليفة، ثم عرض هذا التعيين على الناس فأقروه وأمضوه، ووافقوا عليه، وأصحاب الحل والعقد فى الأمة هم النواب (الطبيعيون) عن هذه الأمة، وإذن فلم يكن استخلاف عمر رضى الله عنه إلا على أصح أساليب الشورى وأعدلها[2]. إن الخطوات التى سار عليها أبوبكر الصديق فى اختيارخليفته من بعده لاتتجاوز الشورى بأى حال من الأحوال، وإن كانت الإجراءات المتبعة فيها غير الإجراءات المتبعة فى تولية أبى بكر نفسه[3]. وهكذا تم عقد الخلافة لعمر رضى الله عنه بالشورى والاتفاق، ولم يورِدْ التاريخ أى خلاف وقع حول خلافته بعد ذلك، ولا أن أحدًا نهض طوال عهده لينازعه الأمر، بل كان هناك إجماع على خلافته وعلى طاعته فى أثناء حكمه، فكان الجميع وحدة واحدة[4].

٣ ـ طريقة انعقاد بيعة عثمان رضى الله عنه:

استطاع الفاروق رضى الله عنه فى اللحظات الأخيرة وهو على فراش الموت - رغم ما يعانيه من آلام جراحاته البالغة- أن يبتكر طريقة جديدة لم يسبق إليها فى اختيار الخليفة الجديد، وكانت دليلاً ملموسًا، ومعلمًا واضحًا على فقهه فى سياسة الدولة الإسلامية، لقد مضى قبله الرسول ﷺ ولم يستخلف بعده أحدًا بنص صريح، ولقد مضى أبو بكر الصديق واستخلف الفاروق بعد مشاورة كبار الصحابة، ولما طلب من الفاروق أن يستخلف وهو على فراش الموت، فكر فى

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٦٤، ٢٦٥) . (٢) أبو بكر الصديق، على الطنطاوى، ص (٢٣٧).

(٣) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص (٢٣٧).

(٤) النظرية السياسية الإسلامية، ضياء الريس، ص (١٨١).

الأمر مليًا وقرر أن يسلك مسلكًا آخر يتناسب مع المقام، فرسول الله ﷺ ترك الناس وكلهم مقر بأفضلية أبي بكر وأسبقيته عليهم، فاحتمال الخلاف كان نادرًا، وخصوصًا أن النبي ﷺ وجه الأمة قولاً وفعلاً إلى أن أبا بكر أولى بالأمر من بعده، والصديق لما رشح عمر كان يعلم أن عند الصحابة أجمعين قناعة بأن عمر أقوى وأقدر وأفضل من يحمل المسئولية بعده،فاستخلفه بعد مشاورة كبار الصحابة، ولم يخالف رأيه أحد منهم وحصل الإجماع على بيعة عمر[1]، وأما طريقة انتخاب الخليفة الجديد فتعتمد على جعل الشورى في عدد محصور، فقد حصر ستة من صحابة رسول الله، كلهم بدريون، وكلهم توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وكلهم يصلحون لتولي الأمر -ولو أنهم يتفاوتون- وحدد لهم طريقة الانتخاب ومدته وعدد الأصوات، وأمر مجموعة من جنود الله لمراقبة سير الانتخابات في المجلس ومنع الفوضى، بحيث لا يسمحون لأحد يدخل أو يسمع ما يدور في مجلس أهل الحل والعقد[2]. وبهذا يكون أمير المؤمنون أرسى نظامًا صالحًا للشورى لم يسبقه إليه أحد، ولا يشك أن أصل الشورى مقرر في القرآن والسنة القولية والفعلية، وقد عمل بها رسول الله ﷺ وأبو بكر، ولم يكن عمر مبتدعًا بالنسبة للأصل، ولكن الذي عمله عمر هو تعيين الطريقة التي يختار بها الخليفة وحصر عدد معين جعلها فيهم، وهذا لم يفعله الرسول ﷺ ولا الصديق - رضي الله عنه - بل أول من فعل ذلك عمر ونعم ما فعل، فقد كانت أفضل الطرق المناسبة لحال الصحابة في ذلك الوقت[3].

وبهذا جعل أمير المؤمنين هيئة سياسية عليا، وهم أهل الشورى، وأناط بهم وحدهم اختيار الخليفة من بينهم، ومن المهم أن نشير إلى أن أحدًا من أهل الشورى لم يعارض هذا القرار الذي اتخذه عمر، كما أن أحدًا من الصحابة الآخرين لم يثر أي اعتراض عليه، ذلك ما تدل عليه النصوص التي بين أيدينا، فنحن لا نعلم أن اقتراحًا آخر صدر عن أحد من الناس في ذلك، أو أن معارضة ثارت حول أمر عمر خلال السَّاعات الأخيرة من حياته، أو بعد وفاته وإنما رضي الناس كافة هذا التدبير، ورأوا فيه مصلحة لجماعة المسلمين، وفي وسعنا أن نقول: إنَّ عمر قد

---

(١)، (٢) أوليات الفاروق، ص (١٢٢).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٢٧).

أحدث هيئة سياسية عليا مهمتها انتخاب رئيس الدولة أو الخليفة، وهذا التنظيم الدستورى الجديد، الذى أبدعته عبقرية عمر، لا يتعارض مع المبادىء الأساسية التى أقرها الإسلام، ولاسيما فيما يتعلق بالشورى، لأن العبرة من حيث النتيجة العامة التى تجرى فى المسجد الجامع. وعلى هذا لا يتوجّه السؤال الذى قد يرد على بعض الأذهان، وهو: من أعطى عمر هذا الحق؟ ما مستند عمر فى التدبير؟ ويكفى أن نعلم أن جماعة من المسلمين قد أقرت هذا التدبير، ورضيت به ولم يُسمع صوت اعتراض عليه حتى نتأكّد أنّ الإجماع - وهو مصدر من مصادر التشريع - قد انعقد على صحته ونفاذه[1]، ولا ننسى أن عمر خليفة راشد، كما ينبغى أن نؤكّد أن أهل الشورى أعلى هيئة سياسية قد أقرّها نظام الحكم فى الإسلام فى العهد الراشدى، كما أنّ الهيئة التى سمّاها عمر، تمتّعت بمزايا لم يتمتع بها غيرها من جماعة المسلمين، وهذه المزايا منحت لها من الله وبلغها الرسول، فلا يمكن عند المؤمنين أن يبلغ أحد من المسلمين مبلغ هؤلاء العشرة من التقوى، والأمانة[2].

ومن الأمور المهمة حرص الفاروق على إبعاد الإمارة عن أقاربه، مع أن فيهم من هو أهل لها، فهو يبعد قريبه سعيد بن زيد عن قائمة المرشحين للخلافة[3]، وقد أوصى بأن يحضر عبد الله بن عمر مع أهل الشورى وألا يكون له من الأمر شىء، ولكن قال لهم: فإن رضى ثلاثة رجلاً منهم، وثلاثة رجلاً منهم، فحكّموا عبد الله بن عمر، فأى الفريقين حكم له، فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر، فيكون مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، فوصف عبد الرحمن بن عوف بأنه مسدد رشيد، له من الله حافظ فاسمعوا له[4]. وقد أشرف على العملية الانتخابية عبد الرحمن بن عوف وشاور الناس فى أمر على وعثمان رضى الله عنهما، وكان يشاور كل من يلقاه فى المدينة من كبار الصحابة، وأشرافهم، ومن أمراء الأجناد، ومن يأتى للمدينة، وشملت مشاوراته النساء فى خدورهنّ، وقد أبدين رأيهنّ، كما شملت الصبيان، والعبيد فى المدينة، وكانت نتيجة مشاورات عبد الرحمن بن عوف أن معظم المسلمين كانوا يشيرون بعثمان بن

---

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (١/ ٢٢٧، ٢٢٨). (٢) المصدر نفسه (١/ ٢٢٩).
(٣) الخلفاء الرّاشدون للخالدى، ص (٩٨). (٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٥).

عفـان، ومنهم من كان يشيـر بعلى بن أبى طالب -رضى الله عنهمـا-.. ثم بعد ذلك أعلن عبد الرحمن بعد صلاة الصبح من اليوم الأخير من شهر ذى الحجة ٢٣ هـ النتيجـة التى وصل إليها، فبعد أن تـشهَّد عبد الرحمن قـال: أما بعد، يا على إنى قد نظرت فـى أمر الناس فلم أرهم يعدلـون بعثمـان، فلا تجعل عـلى نفسك سبيـلاً ثم بايع عثمان على سنة الله ورسولـه والخليفتين من بعده. فـبايعه الناس: المهاجـرون ، والأنصار، وأمراء الأجـناد والمسلمون[١]، وجاء فى روايـة صاحب التمهيد والبيان: أن على بن أبى طالب أوّل من بايع عبد الرحمن بن عوف[٢]، وقد اعتبر الذهبى ما قام به عبد الرحـمن بن عوف من أفضل أعماله، حيث قال: ومن أفضل أعمال عبد الرحمن عزله نفسه من الأمر وقت الشورى، واختياره للأمة من أشـار به أهل الحلِّ والعـقد، فنهض فـى ذلك أتمَّ نهوض على جـمع الأمَّـة على عثمان، ولو كان محابيًا فيهـا، لأخذها لنفسه، أو لولاها ابن عمّه وأقرب الجماعة إليه سعد بن أبى وقاص[٣]، وبهذا تحققت صورة أخرى من صور الشورى فى أحد الخلفاء الراشدين، وهى الاسـتخلاف عن طريق مجلس الشورى، ليـعينوا أحدهم بعد أخذ المشورة العامّة، ثم البيعة العامّة[٤].

٤ ـ طريقة انعقاد بيعة على بن أبى طالب رضى الله عنه:

تمت بيعة على رضى الله عنه بالخلافة بطريقة الاخـتيار، وذلك بعد أن استشهد الخليفة الراشد عثمان بن عـفان رضى الله عنه على أيدى الخارجين المارقين الشذاذ الذين جاءوا من الآفاق ومن أمصار مختلفة وقبائل متباينة، لا سابقة لهم، ولا أثر خير فـى الدين، فبعد أن قـتلوه رضى الله عنه ظلمًا وزورًا وعدوانًا، يوم الجـمعة لثمانى عـشرة ليلة مضت من ذى الحجـة سنة خمس وثلاثين[٥]، قام كل من بقى بالمدينة من أصحاب رسول الله بمبايعة على رضى الله عنه بالخلافة، وذلك لأنه لم يكن أحد أفـضل منه على الإطلاق فى ذلك الوقت، فلم يدع الإمامة لنفـسه أحد بعد عـثمـان، ولم يكن أبو السـبطين رضى الله عنه حريصًـا عليهـا، ولذلك لم

(١) البخارى، ك الأحكام رقم (٧٢٠٧).
(٢) التمهيد والبيان، ص (٢٦).
(٣) سير أعلام النبلاء (١/٨٦).
(٤) دراسة فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص (٢٧٨).
(٥) الطبقات لابن سعد (٣/٣١).

يقبلها، إلا بعد إلحاح شديد ممن بقى من الصحابة بالمدينة، وخوفًا من ازدياد الفتن وانتشارها، ومع ذلك لم يسلم من نقد بعض الجهال إثر تلك الفتن كموقعة الجمل وصفين التى أوقد نارها وأنشبها الحاقدون على الإسلام كابن سبأ وأتباعه الذين استخفهم فأطاعوه لفسقهم ولزيغ قلوبهم عن الحق والهدى، وقد روى الكيفية التى تم بها اختيار على رضى الله عنه للخلافة بعض أهل العلم[1]، فقد روى أبو بكر الخلال بإسناده إلى محمد بن الحنفية قال: كنت مع على رحمه الله وعثمان محصور قال: فأتاه رجل فقال: إن أمير المؤمنين مقتول الساعة، قال: فقام على رحمه الله، قال محمد: فأخذت بوسطه تخوفًا عليه فقال: خل لا أم لك، قال: فأتى على الدار وقد قتل الرجل رحمه الله، فأتى داره فدخلها وأغلق بابه، فأتاه الناس فضربوا عليه الباب فدخلوا عليه، فقالوا: إن هذا قد قتل، ولا بد للناس من خليفة، ولا نعلم أحدًا أحق بها منك، فقال لهم على: لا تريدونى فإنى لكم وزير خير منى لكم أمير، فقالوا: لا والله لا نعلم أحدًا أحق بها منك، قال: فإن أبيتم علىَّ فإن بيعتى لا تكون سرًا، ولكن أخرج إلى المسجد، فبايعه الناس[2].

٥ ـ طريقة انعقاد بيعة الحسن بن على رضى الله عنه:

كانت بيعة الحسن بن على رضى الله عنه فى شهر رمضان من سنة ٤٠هـ، وذلك بعد استشهاد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، وقد اختار الناس الحسن بعد والده، ولم يعين أمير المؤمنين أحدًا من بعده، فعن عبد الله بن سبع قال: سمعت عليًا يقول: لتخضبن هذه من هذا[3]، فما ينتظر بى الأشقى[4] قالوا: يا أمير المؤمنين، فأخبرنا به نبير عترته[5]، قال: إذن تالله تقتلون بى غير قاتلى. قالوا: فاستخلف علينا، قال: لا، ولكن أترككم إلى ماترككم إليه رسول الله ﷺ، قالوا: فما تقول لربك إذا أتيته؟ قال: أقول: اللهم تركتنى فيهم ما بدا لك، ثم قبضتنى إليك وأنت فيهم، فإن شئت أصلحتهم، وإن شئت أفسدتهم وفى رواية: أقول اللهمّ استخلفتنى فيهم ما بدا لك، ثم قبضتنى وتركتك فيهم.

---

(١) عقيدة أهل السنة فى الصحابة الكرام (٢/ ٦٧٧) . (٢) كتاب السنة لأبى بكر الخلال، ص (٤١٥).

(٣) أى لتخضبن لحيته من دم رأسه .

(٤) مجمع الزوائد (٩/ ٩٢١)، مسند أحمد (٢/ ٣٢٥) حسن لغيره.

(٥) نبير عترته: نهلك أقرباءه، لسان العرب (٤/ ٥، ٥٣٨).

وبعـد مقـتل على صلى عليه الحـسن بن على وكـبر عليـه أربع تكبيـرات، ودفن بالكوفة، وكان أول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى، قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله عـز وجل وسنة نبيه، وقتال المُحلين، فـقال له الحسن رضى الله عنه: على كـتاب الله وسنة نبـيه، فإن ذلك يأتى من وراء كل شـرط، فبـايعه وسكت وبايعه الناس[1]. وقد اشترط الحسن بن علىّ على أهل العراق عندما أرادوا بيـعتـه فقال لـهم: إنكم سامـعون مطيـعون، تسـالمون من سالمت، وتحـاربون من حاربت[2]، وفى رواية قال لهم: والله لا أبايعكم إلا على ما أقول لكم، قالوا: ما هو؟ قال: تسالمون من سـالمت وتحاربون من حاربت[3]، وفى رواية ابن سعد: إن الحسن بن على بن أبى طالب بايع أهل العراق بعد علىّ على بـيعتين، بايعهم على الإمرة، وبايعهم على أن يدخلوا فيما دخل فيه ويرضوا بما رضى به[4].

٦ ـ طريقة انعقاد بيعة معاوية رضى الله عنه:

تمت بيعة معاوية بتنازل الحـسن بن على رضى الله عنه عن الخلافة، وتهيأت له جميع أسبابها، فبويع أميرًا للمؤمنين عام واحد وأربعين للهجرة، وسمى هذا العام بعام الجماعة[5]، وقد بايع معاوية رضى الله عنه كل الصحابة الأحياء، وأجمعت الأمة عليـه، وعدوا خلافـته شرعيـة ورضوا إمامـته، ورأوا أنه خيـر من يلى أمر المسلمين ويقوم به خير قيام.

٧ ـ المآخذ على فكرة ولاية العهد فى عهد معاوية:

صحـيح أن النظام الإسلامى للحكم لم ينص على طريقـة معينة لاختـيار ولى الأمر، ولكنه وضـع الأساس التى لا تجوز الحـيدة عنه، إلا فى حـالات الضرورة والاضطرار، وهو الشورى، وليـس للشورى أسلوب خاص، وطريقـة واحدة، لا تتحقق إلا بها، ولكن تتحقق بأساليب شتى كـما مرّ معنا فى اختيار الأمة للخلفاء الراشدين، ولئن قصد معـاوية رضى الله عنه بإحداث ولاية العهد فى نظام الحكم الإسلامى جمع كلمة المسلمين، وحقن دمـائهم، فهو -إن شاء الله تعالى- مأجور

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٧٣) .

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٧٧) .

(٣) الطبقات، تحقيق د. محمد السلمى (١/ ٢٨٦، ٢٨٧) .

(٤) المصدر نفسه (١/ ٣١٦، ٣١٧) .

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣٧)، تاريخ خليفة، ص (٢٠٣).

على أنه كـان قادراً على أن يـجعل العـهد بـعده لغـير ولده من كـبـار الصحـابة الموجودين فى تلك الفـترة، وكان فـيهم كفاءات لو أسـند إليهم الأمر، فقـد كان الحسين بن على، وعبد الله بن الزبير، وعـبد الرحمن بن أبى بكر، وعبد الله بن عمـر وغيرهم موجـودين فى هذا الوقت، ولكن معـاوية رضى الله عنه عدل عن هؤلاء وقصـد لولده ليكون خليفة بعـده، وبذلك حصل التغـير الحقـيقى فى نظام الحكم الإسلامى، فليس التغيير فى إيجـاد نظام ولاية العهد. . . ولكن التغيير فى أن يكون ولى العهد ولد الخليفة أو أحد أقاربه، حتى أصبحت الحكومة ملكية بعد أن كانـت خلافـة راشدة[1]، وإذا كنا مـأمورين باتبـاع سنة الرسول وسنة الخلـفاء الراشديـن المهديين من بعـده، فإن التزام نظـام الوراثة ليس من سنة النبى ولا من سنة خلفائه الـراشدين، كما أن تـرشيح يزيد لم يكن موفـقًا لأسبـاب، منها: أن المجتـمع الإسلامى يومئذ كـان فيه من أحق وأولى بالخـلافة من يزيد فى سابقـته وعلمه وعمله ومكانه وصـحبته؛ كعبـد الله بن عمر وابن عباس وغيـرهما، فأين الثرى من الثريا؟[2] ومنها: مبدأ توريث الحكم من الأب لابنه.

وعلى كل تقدير فهـذا لا يقدح فيما عليه أهل السنة، فـإنهم لا ينزهون معاوية ولا من هو أفضل منه من الذنوب، فضلاً عن تنزيههم عن الخطأ فى الاجتهاد، بل يقولون إن للذنوب أسباب تدفع عقوبتها، من التوبة والاستغفار والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، وغير ذلك، وهذا أمر يعم الصحابة وغيرهم[3]، ومعاوية رضى الله عنه من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم وما هو ببرىء من الهنات والله يعفو عنه[4]، والذى يجب أن نعتـقده فى معاويـة أن قلوبنا لا تنضوى على غل لأحد من أصحاب مـحمد ﷺ، بل نقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشـر: ١٠] ونقول إن مـعاوية اجتـهد للأمة خـوفًا عليـها من الانقـسام والفتن، ولا يمكن أن يحـمل تبـعات كل أخطاء الملوك والأمـراء الذين جاءوا من بعده، كـما قرره عبد القـادر عودة ـ رحمه الله ـ: حـيث يقول: وأقام

(١) الأمويون بين الشرق والغرب، للوكيل (١/ ١٨٠). (٢) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوى، ص(٢٥٠).
(٣) منهاج السنة (٤/ ٣٨٥). (٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٦).

معاوية أمر الأمة الإسلامية على المحجات والظلم وإهدار الحقوق، وقضى على الشورى وعطل قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وحوّل الحكم العادل النظيف إلى حكم قذر قائم على الأهواء والشهوات، ووجه الناس إلى النفاق والذلة والصغار، ولا شك فى أن كل من جاءوا بعده إلى عصرنا هذا قد عمل بسنته وتثبتوا ببدعته -حاشا عمر بن عبد العزيز- فعلى معاوية -وقد استن هذه السنة السيئة- إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة[1]. وإذا كان معاوية أو الخلفاء الأمويون قد حوّل الخلافة من الشورى إلى الملك، فإن حفيده معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، ثالث خلفاء الأمويين قد أعاد الخلافة من الملك العضوض إلى الشورى الكاملة.. وإنه لما يستوجبه الإنصاف أن تصاغ القضية على هذا النحو بدلاً من التركيز على الشق الأول الخاص بتوريث الخلافة فقط ولم تستطع الأمة التى أعطيت حقها فى اختيار خليفتها أن تعود إلى شكل من أشكال الاختيار السابق فى عصر الراشدين، وبرز بوضوح دور العصبية الإقليمية والقبلية، وحُسم فى النهاية الصراع الدائر حول منصب الخلافة لمصلحة البيت الأموى، واستطاعت الشام أن تحقق الحسم التاريخى بعمق الالتحام بين بنائها القبلى والوجود الأموى بها[2]، وسيأتى -بإذن الله- التفصيل عند حديثنا عن معاوية الثانى. والحقيقة أن بيعة يزيد قد قبلها الكثير حتى الصحابة رضوان الله عليهم فقد بايعه ستون من أصحاب محمدﷺ فيهم ابن عمر[3] خوفًا من الفتنة وحرصًا على وحدة الصف، فقد توفى عبد الرحمن بن أبى بكر بعيد خروج معاوية من المدينة ولم يبق من المعارضين إلا ثلاثة هم ابن عمر وابن الزبير والحسين بن على، أما ابن عمر فلما رأى الناس مجتمعة على يزيد بايعه، وأرسل بيعته بعد وفاة معاوية رضى الله عنه وقال: إن كان خيرًا رضينا به وإن كان بلاءً صبرنا[4]، وانحصرت المعارضة فى شخص ابن الزبير والحسين بن على رضى الله عنهما، وقد حاول بعض الناس أن يلفقوا على معاوية رضى الله عنه تحسره من بيعة يزيد فنقلوا عنه أنه قال: لولا هواى فى يزيد لأبصرت رشدى[5]. والسند من طريق الواقدى وهو

(١) الإسلام وأوضاعنا السياسية، ص (١٥٩). (٢) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٢٩٣- ٢٩٥).

(٣) القيد الشريد ورقة ١٧، نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (١٥٣).

(٤) مصنف ابن أبى شيبة (١١/ ١٠٠) بسند صحيح. (٥) أنساب الأشراف (٤/ ٢٨).

متروك[1]، ونسبوا إليه أيضًا أنه قال ليزيد: ما ألقى الله بشيء أعظم فى نفسى من استخلافك[2]. والسند من طريق الهيثم بن عدى وهو كذاب[3]، ولقد اعتمد محمد رشيد رضا -رحمه الله- على هذه الرواية وتحامل على معاوية تحاملاً قاسيًا[4]، ولقد تورط الكثير من الباحثين فى الروايات الضعيفة والموضوعة فيما يتعلق بتاريخ صدر الإسلام، وبنوا عليها تصورات وأفكارًا وأحكامًا تحتاج إلى إعادة نظر من جديد.

ومع ما وقع من انحراف فى تغيير النموذج الأعلى لنظام الحكم الإسلامى، الذى تتمثل فيه روح الإسلام كاملة -وهو الخلافة- واستبدال الملك العضوض به[5]، إلا أن الطابع الإسلامى هو الصفة الغالبة على مظهر الدولة، وتصرفات الحكام، فالصلاة تؤدى فى أوقاتها، والزكاة تحصَّل من أربابها والصوم فريضة لا يُعارض فى أدائها، وإقامة الحدود دون هوادة لم يقف شيء دون تنفيذها، والجهاد فى سبيل الله فريضة ماضية بين رجالها، وبالجملة كانت تعاليم الإسلام مطبقة بحذافيرها[6].

سابعًا : الأيام الأخيرة فى حياة معاوية:

١ ـ وصية معاوية رضى الله عنه ليزيد:

لما حضر معاوية الموت وذلك سنة ٦٠هـ وكان يزيد غائبًا، دعا بالضحاك بن قيس الفهرى ـ وكان صاحب شرطته ـ ومسلم بن عقبة المرى، فأوصى إليهما فقال: بلغا يزيد وصيتى: انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم وتعهد من غاب، وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إلى من أن يشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإن أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم

(١) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (١٥٢). (٢) أنساب الأشراف (٤/ ٦٠) .
(٣) مواقف المعارضة، ص (١٥٢).
(٤) مواقف الصحابة فى خلافة يزيد، ص (١٥٢)، الخلافة، محمد رشيد، ص (٥٢).
(٥) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١١٢). (٦) الأمويون بين المشرق والمغرب (١/ ٩٤، ٩٥).

أخذوا بغـير أخلاقهـم، وإنى لست أخاف من قريش إلا ثلاثة: حـسين بن على، وعبد الله بن عـمر، وعبد الله بن الزبيـر، فأما ابن عمر فـرجل قد وقذه الدين، فليس ملتمسًا قِبَلك، وأما الحسين بن على فإنه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيه الله بمن قتل أباه، وخذل أخاه، وإن له رحمًا ماسّة، وحقًا عظيمًا، وقرابة محمد ﷺ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإنى لو أنى صاحبه عـفوت عنه، وأما ابن الزبير فإنه خَبٌّ ضَبٌّ، فإذا شـخص لك فالبد له، إلا أن يلتـمس منك صلحًـا، فـإن فـعل فـاقـبل، واحقـن دماء قـومك مـا استطعت[١]. تظهر فى هـذه الوصية كـفاية معـاوية ودهاؤه السيـاسى من خلال تشخيـصه لأهمية الأمصـار ومدى تأثيرها المستقـبلى على أوضاع الدولة الأموية، فذكر فى وصيـته ثلاثة أقاليم فقط هى الحجاز والـعراق والشام، ذلك أن الأوضاع السياسية خارج دائرة هذه الأقاليم، لم تكن تثير أى هموم جدية لدى معاوية[٢].

أ ـ الحجاز: فبالنسبـة للحجاز يوصى معاوية ابنه قائلاً: انظـر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكـرم من قدم عليك منهم وتعهـد من غاب[٣]، ويأتى اهتمـام معاوية بالحجاز فضلاً عن كونه محل أهله وعشيرته فهو من الناحية السياسية كان -ولوقت قريب- مركز الثقل السياسى للدولة الإسلامـية (مقر الخلافة)، ومن الناحية الدينية لم يزل يحتل مـركز الصدارة لاحـتضانه جل مـا تبقى من صحـابة الرسول ﷺ، وبإمكانه تقويض حكم بنى أمية فيما لو اجتمعت كلمته وأتيحت الفرصة له، وهو بعد ذلك لايزال المكان الحقيقى للبيعة[٤]، والأهم من ذلك كله فإنه يضم عددًا من الشخصيات المعارضة للحكم الأموى، أمثال الحسين بن على رضى الله عنه، وعبد الله بن عمر وعبـد الله بن الزبير وابن عباس رضى الله عنهم جميـعًا، كما سنرى ذلك فى الفـقرات اللاحـقـة من الوصيـة، ولذلك نرى مـعـاوية يحث يزيد على استخدام مختلف الوسائل لاستقطاب الحجاز بما فى ذلك إغداق الأموال[٥]، ولهذه الأسباب أيضًا وضع مـعاوية السلطة فى هذا الإقليم تحت مراقبتـه المباشرة، حيث

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤١).
(٢) الوصية السياسية فى العصر العباسى، حقى إسماعيل، ص (٤٦).
(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤١).
(٤) الوصية السياسية فى العصر العباسى، ص (٤٦).
(٥) المصدر نفسه، ص (٤٦).

قام بتنفيذ سياسته فى البيت الأموى، وقام بتشجيع مختلف النشاطات غير السياسية المناهضة له فيه[١]، واهتم بأهله اهتمامًا خاصًا.

ب ـ العراق: أما الإقليم الثانى الذى يثير اهتمام معاوية فهو العراق، لذا يوصى ولى عهده أن يعامل أهل العراق معاملة خاصة، فيقول: انظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إلىّ من أن يشهر عليك مائة ألف سيف[٢]. ومن الجدير بالذكر أن شكاية أهل العراق من ولاتهم كانت منذ عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

جـ ـ الشام: أما الإقليم الثالث فهو الشام، فإن وصية معاوية به تأتى من باب رد الجميل لأهل الشام لدورهم الكبير فى مساندته بالوصول إلى الحكم وتأييدهم المستمر لسياسته، لذا يوصى ابنه أن يجعلهم محل ثقته وعنايته وأن يدخرهم للمهمات الجسام فى قوله: وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شىء من عدوك فانتصر بهم فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم؛ فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم[٣]. وتظهر الفقرة الأخيرة من هذا النص بعد نظر معاوية السياسى، فهو يسدى مخاوفه من اختلاط أهل الشام[٤]، ببقية سكان الأقاليم الأخرى فتتبدل أخلاقهم نتيجة مكوثهم مدة طويلة، ولربما استطاع المعارضون للحكم الأموى التأثير على جند الشام، على الرغم من التقاء مصالحهم مع مصالح البيت الأموى، فتسقط من يد الخلافة الأموية الورقة الرابحة التى طالما استخدمها معاوية وقطف ثمارها، ولهذا يوصى معاوية ابنه بأن يسرع فى إعادة جند الشام إلى بلادهم حال انتهاء مهمتهم[٥]، ومن أهم ما فى وصية معاوية خطته التى رسمها لولى عهده فى مواجهة الأحداث المقبلة، وأوكل إليه تنفيذها بعد أن عجز هو عن إقناع نفر من قريش بالبيعة ليزيد، على الرغم من أن الروايات تذكر أن معاوية ذهب إلى الحجاز لهذا الغرض، والتقى بالشخصيات التى رفضت البيعة ليزيد، كلٍ على انفراد، فى محاولة للحصول منهم على وعود بالبيعة[٦]، إلا أن

---

(١) الوصية السياسية فى العصر العباسى، ص (٤٦). (٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤١).

(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢٤١). (٤) الوصية السياسية فى العصر العباسى، ص (٤).

(٥) المصدر نفسه، ص (٤٨). (٦) المصدر نفسه، ص (٤٨).

هذه الجهود لم تثمر فى تذليل المصاعب قبل ظهورها[1]، والوصية تظهر أن الحجاز، وتحديدًا المدينة، هى أكثر البلدان معارضة لحكم بنى أمية، ولهذا يوصى معاوية ابنه أن يكون حذرًا ودقيقًا فى تعامله معها، وأن يكون حازمًا شديدا حين يتطلب الأمر ذلك، ومرنًا لينًا مع من لا يشكلون خطرًا حقيقيًا عليه، لما للحجاز من أهمية بالغة فى تقرير وتثبيت الحكم[2].

وكان معاوية رضى الله عنه مصيبًا فى رأيه بعبد الله بن عمر من أنه رجل قد وقذه الدين، ولا خطر على يزيد منه، وذلك أن الوليد بن عتبة حين طلبه للبيعة قال: إذا بايعَتْ الناس بايعتُ، فتركوه لثقتهم بزهادته فى الأمر وشغله بالعبادة[3]، وكان مصيبًا فى حدسه من أهل العراق لن يتركوا الحسين بن على رضى الله عنه حتى يخرجوه، ويبدو أنه كان متأكدًا من وقوع الاصطدام بينهما، لذلك طلب من يزيد أن يعفو عنه إذا تمكن منه، أما الخطر الحقيقى والذى يتطلب الحزم والشدة فإنه يأتى من عبد الله بن الزبير الذى كان يتمتع -على ما يبدو- بتأييد واسع النطاق بين معظم المعارضين للحكم الأموى، ولأنه كان رجل سياسة وحرب من الطراز الأول، وعلى الجملة فإن وصية معاوية تعكس سياسته ودهاءه فى تصريف الأمور، فنراه من خلال الوصية يتعامل مع الأحداث التى تتطلب الشدة حزمًا، وفيما عدا ذلك فهو يستخدم خبرته وتجربته السياسية الطويلة فى مواجهة الأحداث، وقد وصف معاوية نفسه مشيرًا إلى هذه السياسة بقوله: إنى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت أبدًا. فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدوها أرخيتها وإذا أرخوها مددتها[4]، وكان على الدوام يوصى يزيد بهذه السياسة فيقول له: عليك بالحلم، والاحتمال، حتى تمكنك الفرصة فإذا أمكنتك فعليك بالصفح، فإنه يدفع عنك معضلات الأمور، ويقيك مصارع المحذور[5]. وفى هذه الوصية يلخص معاوية رضى الله عنه منهجه وخبرته فى السياسة والإدارة لابنه يزيد فى كلمات قليلة جامعة، تنم عما يتمتع به هذا الصحابى الكريم من حنكة سياسية وبراعة إدارية[6].

---

(١) الوصية السياسية فى العصر العباسى، ص(٤٨). (٢) المصدر نفسه، ص (٤٩).
(٣) أنساب الأشراف (٤/ ١٤). (٤) نهاية الأرب (٦/ ٤٤)، العقد الفريد (١/ ٢٥).
(٥) نهاية الأرب (١/ ٢٥٦). (٦) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص(٩٥).

٢ ـ آخر خطبة لمعاوية رضى الله عنه واشتداد مرضه ووفاته:

كانت آخر خطبة خطبها معاوية رضى الله عنه قوله: أيُّها الناس، إن من زرع قد استحصد، وإنى قد وليتكم ولن يليكم أحد بعدى إلا من هو شر منى، كما كان من وليكم قبلى خيراً منى، ويا يزيد، إذا وفى أجلى فولِّ غسلى رجلاً لبيبًا، فإن اللبيب من الله بمكان، فليُنعم الغسل وليجهر بالتكبير، ثم اعمد إلى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب رسول الله ﷺ، وقُراضة من شعره وأظفاره، فاستودع القراضة أنفى وفمى وأُذُنىَّ وعينىَّ، واجعل الثوب يلى جلدى دون أكفانى، ويا يزيد، احفظ وصية الله فى الوالدين، فإذا أدرجتمونى فى جريدتى، ووضعتمونى فى حفرتى، فخلوا معاوية وأرحم الراحمين[1].

ولما احتضر معاوية جعل يقول:

لعمرى لقد عُمِّرتُ فى الدهر بُرهة	ودانت لى الدنيا بوقع البواتر
وأعطيت حُمْرَ المال والحكم والنّهى	وسلْمَ قماقيم[2] الملوك الجبابر
فأضحى الذى قد كان مما يَسُرُّنى	كحلم مضى فى المزمنات الغوابر
فيا ليتنى لم أعن فى الملك ساعة	ولم أُعْنَ فى لذات عيشٍ نواضر
وكنت كذى طمرين عاش ببُلْغة	من العيش حتى زار ضيق المقابر[3]

وقد أوصى معاوية بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال كأنه أراد أن يُطيِّب له، لأن عمر بن الخطاب قاسم عمّاله[4]. وذكروا أنه فى آخر عمره اشتد به البَرْدُ، فكان إذا لبس أو تغطَّى بشىء ثقيل يَغُمُّه، فاتُّخذ له ثوب من حواصل الطير[5]، ثم ثقل عليه بعد ذلك، فقال: تبّاً لك من دار ملكتك أربعين سنة؛ عشرين أميراً، وعشرين خليفة، ثم هذا حالى فيك، ومصيرى منك، تبّاً للدنيا ومُحبِّيها[6]، ولما اشتد المرض وتحدث الناس أنه الموت، قال لأهله: احشوا عينىَّ إثمداً، وأوسعوا

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٤) .

(٢) القماقم والقُماقِم من الرجال: السيد الكثير الخير، الواسع الفضل، ويجمع قياسًا على قماقيم .

(٣)، (٤) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٥) .

(٥) الحواصل: جمع حوصلة، وحوصلة الطائر بمنزلة المعدة للإنسان . (٦) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٥).

رأسي دُهنًا. ففعلوا ويرّقوا[1] وجهه بالدهن، ثم مُهِّد له فجلس. وقال: أسندوني. ثم قال: ائذنوا للناس فليُسلموا عليَّ قيامًا ولا يحبس أحد. فجعل الرجل يدخل فيُسلم قائمًا فيراه متكحِّلاً مُتدهِّنًا، فيقول متقوِّل الناس: هو لما به[2]، وهو أصح الناس، فلما خرَجوا من عنده[3] تمثل معاوية بقول أبي ذؤيب الهذلي الشاعر:

وتجلدي للشامتين أريهم	أني لريب الدهر لا أتضعضع
وإذا المنية أنشبت أظفارها	ألفيت كلَّ تميمة لا تنفع

وكان به النقابة[4]، فمات من يومه ذلك[5]، وكان يقول لما نزل به الموت: يا ليتني كنت رجلاً من قريش بذي طوى ولم ألِ من هذا الأمر شيئًا[6]، ومن الشعر الذي تمثل به أيضًا قول الشاعر:

إن تناقش يكن نقاشك يا ربِّ	عذابًا لا طوق لي بالعذاب
أو تجاوز تجاوز العفو فاصفح	عن مسيءٍ ذنوبه كالتُّراب[7]

وقال رضي الله عنه وهو يُقَلب في مرضه، وقد صار كأنه سعفة محترقة: أي شيخ تقلِّبون إن نجاه الله من النار غدًا؟[8]، وقال الحسن البصري: دُخل على معاوية وهو بالموت، فبكى، فقيل: ما يبكيك؟

قال: ما أبكي على الموت أن حل بي، ولا على دنيا أخلفها، ولكن هما قبضتان: قبضة في الجنة، وقبضة في النار، فلا أدري في أي القبضتين أنا[9].

وأغمي على معاوية رضي الله عنه في سكرات الموت ثم أفاق فقال لأهله: اتّقوا الله، فإن الله يَقي من اتَّقاه ولا يَقي من لا يَتَّقي[10]، وجعل معاوية رضي الله عنه لما احتضر يضع خده على الأرض ثم يُقلِّب وجهه ويضع الخد الآخر ويبكي ويقول: اللهم إنك قلت في كتابك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] اللهم اجعلني ممَّن تشاء أن تغفر له[11]، ومن دعائه في ذلك اليوم:

---

(١) برّقوا: لمّعوا. (٢) لما به: اقترب أجله.

(٣) البداية والنهاية (١١/٤٥٦). (٤) النقابة: قرحة تخرج في الجنب وتهجم الجوف.

(٥)، (٦)، (٧) البداية والنهاية (١١/٤٥٦). (٨) المصدر نفسه (١١/٤٥٧).

(٩) كتاب المحتضرين، ص (١٩٩)، سكب العبرات (١/ ١٩٠).

(١٠) تاريخ الطبري (٦/ ٢٤٥). (١١) البداية والنهاية (١١/٤٥٧).

اللهم أَقِلْ العثرة، واعف عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يَرْجُ غيرك، فإنك واسع المغفرة، ليس لذى خطيئة من خطيئته مهرب إلا إليك ثم مات[1]. وجاء فى رواية: اللهم إنى قد أحببت لقاءك فأحبب لقائى[2]. رحم الله معاوية رضى الله عنه.

٣ ـ سنة وفاة معاوية، ومن صلى عليه:

قال الطبرى: فى هذه السنة هلك معاوية بن أبى سفيان بدمشق، فاختلف فى وقت وفاته بعد إجماع جميعهم على أن هلاكه كان فى سنة ستين من الهجرة وفى شهر رجب[3]، وقال ابن حجر: مات معاوية فى رجب سنة ستين على الصحيح[4]، وصلى على معاوية الضحاك ابن قيس الفهرى، وكان يزيد غائبًا حين مات معاوية[5]، فقد خرج الضحاك حتى صعد المنبر وأكفان معاوية على يديه تلوح، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن معاوية كان عود العرب[6]، وحدّ العرب[7]، قطع الله عز وجل به الفتنة وملَّكهُ على العباد، وفتح به البلاد. ألا إنه قد مات، فهذه أكفانه فنحن مدرجوه فيها، ومدخلوه قبره، ومُخَلُّون بينه وبين عمله، ثم هو البرزخ إلى يوم القيامة، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضر عند الأولى[8]. وبعث البريد إلى يزيد بوجع معاوية، وقد اختلف المؤرخون هل حضر يزيد وفاة أبيه أم لا؟ والصحيح أن يزيد لم يدرك والده حيًا وإنما جاء بعد موته[9]. ولما وصل يزيد الخبر قال:

جاء البريد بقرطاس يخب به	فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا: لك الويل ماذا فى كتابكم؟	قالوا: الخليفة أمسى مثبتًا وجعا
فمادت الأرض أو كادت تميد بنا	كأن أغبر من أركانها انقطعا
من لا تزال نفسه توفى على شرف	توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا
لما انتهينا وباب الدار منصفق	وصوت رملة[10] ريعَ القلب فانصدعا[11]

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٧).
(٢) تاريخ ابن خلدون (٣/ ٢١).
(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤١).
(٤) الإصابة (٦/ ١٥٥).
(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤٥).
(٦) العود: الرجل المسن، لسان العرب (٣/ ٣٢١).
(٧) حد كل شيء: منتهاه.
(٨) أى عند صلاة الظهر كما ورد فى بقية المصادر.
(٩) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤٦).
(١٠) رملة بنت معاوية بن أبى سفيان، زوجة عمرو بن عثمان بن عفان.
(١١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤٦).

٤ ـ عمر معاوية رضى الله عنه عند وفاته:

على القول الراجح: توفى معاوية وهو ابن ثمان وسبعين سنة[١]، بدليل قول ابن حجر: إن مولده كان قبل البعثة بخمس سنوات على الأشهر[٢]، وكما هو معروف فإن بعثة الرسول ﷺ قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة، وبذلك يكون مولد معاوية قبل الهجرة بثمانى عشرة سنة، ولما كانت وفاته سنة ستين، فهذا يعنى أن عمره عند وفاته كان ثمانى وسبعين سنة[٣].

٥ ـ مدة خلافته:

تنازل الحسن بن على لمعاوية بالنخيلة وتمت بيعته فى شهر ربيع الأول من عام ٤١هـ، ومات بدمشق سنة ٦٠هـ يوم الخميس لثمان بقين من رجب، وكانت ولايته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يومًا[٤].

٦ ـ ما قيل فيه من رثاء:

قال أبو الورد العنبرى يرثى معاوية رضى الله عنه:

ألا أنعى معاوية بن حرب ... نعاه الحل للشهر الحرام

نعاه الناعجات[٥] بكل فجٍّ ... خواضع فى الأزمَّةِ كالسِّهام

فهاتيك النجوم وهنَّ خُرْسٌ ... ينحن على معاوية الشآم

وقال أيمن بن خزيم يرثيه أيضًا:

رمى الحدثان نسوة آل حرب ... بمقدار سمدن له سُمودا

فردَّ شعورهنَّ السُّود بيضًا ... ورد وجوههن البيض سُودا

فإنك لو شهدت بكاء هند ... ورملة إذ يُصَفِّقْنَ الخُدودا

بكيت بكاء مُعْوِلةٍ قريح[٦] ... أصاب الدهر واحدها الفريدا[٧]

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/٢٤٣) .
(٢) الإصابة (٦/١٥١) .
(٣) تاريخ الطبرى (٦/٢٤٣) .
(٤) المصدر نفسه (٦/٢٤٣) .
(٥) الناعجات: جمع ناعجة وهى المرأة الحسنة اللون . (٦) المعولة: الرافعة صوتها بالبكاء، القريح: الجريح.
(٧) البداية والنهاية (١١/٤٦٢) .

٧ ـ ما قاله ابن عباس في موت معاوية رضي الله عنهم :

قال عامر بن مسعود الجهني: مرّ بنا نعيُ معاوية ونحن في المسجد، فأتينا ابن عباس، فوجدناه جالسًا وقد وضع خوانه[1]، وعنده نفر، ولم يوضع الطعام، فقلنا: يا ابن عباس، أما علمت بهذا الخبر؟ فقال: وما هو؟ قلنا: هلك معاوية. فقال: ارفع خوانك يا غلام، وسكت ساعة هاجمًا[2]، ثم قال: جبل تزعزع ثم زال بجمعه في البحر[3]. قال القاضي أبو يعلى بعدما ذكر القصة: اللهم أنت أوسع لمعاوية كنفًا، وأحسن من تجاوز عنه وعنّا[4].

٨ ـ نقش خاتمه:

كان نقش خاتمه: لكل عمل ثواب[5]، وقيل: لا قوة إلا بالله[6].

٩ ـ التبرك بآثار الرسول ﷺ:

عن عبد الأعلى بن ميمون، عن أبيه أن معاوية قال في مرضه الذي مات فيه: إن رسول الله ﷺ كساني قميصًا فرفعته، وقلّم أظفاره يومًا، فأخذت قلامته فجعلتها في قارورة، فإذا مت فألبسوني ذلك القميص، وقطّعوا تلك القلامة واسحقوها وذرُّوها في عيني، وفي فيّ[7]، فعسى الله أن يرحمني ببركتها[8].

ويعتبر تبرك الصحابة رضوان الله عليهم بآثار النبي ﷺ الحسية المنفصلة عنه، من أنواع التبرك المشروع حيث فعله الصحابة رضوان الله عليهم أثناء حياته ﷺ وبعد مماته[9]، كما فعله السلف الصالح رحمهم الله تعالى ومن الأدلة على ذلك:

أ ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ، وصب عليَّ من وضوئه فعقلت[10].

ب ـ عن عثمان بن عبد الله بن وهب قال: أرسلني أهلي إلى أم سلمة بقدح من ماء.. فيها شعر من شعر النبي ﷺ، وكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء بعث

---

(١) الخوان: ما يوضع عليه الطعام عند الأكل. (٢) هاجماً: ساكتًا مطرقًا.
(٣) تنزيه خال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، ص(١١٣). (٤) المصدر نفسه، ص (١١٣).
(٥) تاريخ القضاعي، ص (٣٢٦). (٦) المصدر نفسه، ص (٣٢٦).
(٧) فيّ: الفم. (٨) تاريخ الطبري (٦/ ٢٤٥).
(٩) مرويات معاوية في تاريخ الطبري، ص (٩٣). (١٠) صحيح البخاري مع فتح الباري (١/ ٣٦٠).

إليها مخضبة[1]. قال ابن حجر: بعث إليها مخضبة ـ وهو من جملة الآنية ـ والمراد أنه كان من اشتكى أرسل إناء إلى أم سلمة فتجعل فيه تلك الشعرات وتغسلها فيه وتعيده فيشربه صاحب الإناء أو يغتسل بعده استشفاءً بها فتحصل له[2].

جـ ـ وعن أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنها قالت في جبة رسول الله ﷺ: هذه كانت عند عائشة حتى قبضت، فلما قبضت قبضتها، وكان النبي ﷺ يلبسها فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها[3].

وقد فرّع العلماء على مسألة التبرك بآثار الرسول ﷺ مسألة التبرك بفضلات الصالحين، وآثارهم ففي حديث عروة بن مسعود وهو يصف أصحاب رسول الله ﷺ حوله، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده... وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه[4]، وقد علق الشاطبي على هذا الحديث، وأحاديث أخرى تماثله، فقال: فالظاهر في مثل هذا النوع أن يكون مشروعًا في حق من ثبتت ولايته، واتباعه لسنة رسول الله ﷺ وأن يتبرك بفضل وضوئه، ويُتدلَّك بنخامته، ويُستشفى بآثاره كلها، إلا أنه عارضنا في ذلك أصل مقطوع به في متنه مشكل في تنزيله، وهو أن الصحابة رضى الله عنهم بعد موته عليه السلام لم يقع أحد منهم في شيء من ذلك بالنسبة إلى مَنْ خلَفَه، إذ لم يترك النبي ﷺ بعد موته، أفضل من أبي بكر الصديق رضى الله عنه، فهو خليفته، ولم يفعل به شيء من ذلك، ولا عمر رضى الله عنه وهو كان أفضل الأمة بعده، ثمّ كذلك عثمان بن عفان، ثمّ علي، ثمّ سائر الصحابة الذين لا أحد أفضل منهم في الأمة، ثمّ لم يثبت لواحد منهم من طريق صحيح معروف أن متبركًا تبرك به على أحد تلك الوجوه، أو نحوها، بل اقتصروا على الاقتداء بالأفعال، والأقوال، والسير التي اتبعوا فيها النبي ﷺ، فهو -إذًا- إجماع منهم على ترك تلك الأشياء[5].

---

(1) صحيح البخاري مع فتح الباري (١٠/٣٦٤) . (2) فتح الباري (١٠/٣٦٥) .

(3) صحيح مسلم بشرح النووي(١٤/٤٣).

(4) زاد المعاد (٣/ ٢٩٠)، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص (٤٨٨).

(5) غزوة الحديبية للحكمي، ص (٣٠٥).

الفصل الخامس

عهد يزيد بن معاوية بن أبى سفيان

المبحث الأول

اسمه ونسبه وكنيته ونشأته وحياته وتوليه الخلافة

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته:

هو يزيد بن معاوية بن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشى، يكنى «أبا خالد»[١]، وجدته من جهة أبيه: هند بنت عتبة بن ربيعة، أسلمت يوم الفتح، وكانت من أعقل النساء، حازمة شاعرة ذات نفس وأنفة[٢]، وأمه ميسون بنت بحدل الكلبية، شاعرة من شاعرات العرب، وكانت امرأة لبيبة وأبوها من أشراف قبيلة كلب[٣].

ثانيًا: ولادته ونشأته:

كانت ولادة يزيد بن معاوية فى خلافة عثمان رضى الله عنه[٤] فى سنة ست وعشرين[٥]، وقيل إن ولادته وولادة عبد الملك بن مروان فى سنة واحدة سنة ست وعشرين من الهجرة[٦]، نشأت والدته فى البادية، حيث طلقها أبوه، فعاش مع أمه وأخواله وهم زعماء قبيلة كلب، فأثرت فى طباعه تلك النشأة، فتراه يتميز بالفصاحة، والخطابة والكرم، والشجاعة[٧]، واستمر متعلقًا بالبادية، حتى إنها أثرت فى لباسه وعدم التكلف فى حياته، فقد تلقاه أهل الشام بعد موت أبيه عائدًا من عند أخواله ليس له عمامة ولا سيف، فقال الناس: هذا الأعرابى الذى ولى أمر هذه الأمة[٨]، واهتم به والده وعين له مؤدبًا ليعلمه وهو دغفل بن حنظلة

---

(١) الاستيعاب (١٤١٦/٣)، تاريخ خليفة، ص (١٠) .

(٢) الطبقات (٨/ ١٧٠)، التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢١٨) .

(٣) مواقف المعارضة، ص (٤٠)، نسب قريش، ص (١٢٧). (٤) تهذيب التهذيب (٣١٦/١١ ، ٣١٧).

(٥) فوات الوفيات (٣٢٨/٤) .

(٦) تاريخ أبو زرعة (١٩١/١)، مواقف المعارضة، ص (٣٩).

(٧) مواقف المعارضة،ص(٤٣)، مآثر الإنافة (١/ ١١٥، ١١٦). (٨) سير أعلام النبلاء (٣٦/٤ ، ٣٧).

السدوسي الشيباني[1]، وجعل معاوية ابنه يحضر في مجالسه ويستفيد من سياسته وتدبيره للملك[2]، واستفاد يزيد من عبيد بن شرية الجرهمي الذي استقدمه معاوية من صنعاء اليمن، وكان عالمًا بأيام العرب وأحاديثها، وله كتاب الأمثال، وكتاب الملوك وأخبار الماضين[3]، وقد تأثر يزيد بهذا الشيخ الحكيم الذي حنكته التجارب والسنون، وقد توفي عبيد بن شرية سنة ٧٠هـ[4]، وأصبح يزيد يتحدث عن الأنساب تحدث الخبير[5]، قال الذهبي في ترجمة عبد الصمد بن علي الهاشمي: وكان في تعدد النسب نظير يزيد الخليفة[6]، وقد توافر ليزيد ما لم يتوفر لغيره إضافة إلى أن أباه هو أحد الصحابة الأجلاء رضي الله عنهم وكاتب الوحي لرسول الله ﷺ، وقد روى عن أبيه أحاديث منها: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[7]، وقد ذكره أبو زرعة الدمشقي في الطبقة التي تلي الصحابة، وقال: له أحاديث[8]، وقد كان معاوية رضي الله عنه يحاول دومًا أن يوجه يزيد نحو الاستفادة من مجالس الوفود التي تفد عليه، فقد ذكر ابن المبارك أن معاوية قال لبعض رجالات الوفود: ما تعدون المروءة فيكم؟ قالوا: العفاف في الدين، والإصلاح في المعيشة، فقال معاوية: اسمع يا يزيد[9]، فقد كان معاوية رضي الله عنه منذ أن استقر له الأمر في الشام شديد الاهتمام بتربية ولده، فأشركه منذ وقت مبكر في الصوائف وتحمل المسئوليات[10]، وكان معاوية دائم الاتصال بمؤدبي ولده، كي يتعرف على ما أحرزه ابنه من تقدم، كما كان يسأل ابنه عن أحواله مع المؤدبين، فتشير إحدى الروايات إلى أن معاوية سأله في أحد الأيام قائلاً: أيضربك معلمك يا يزيد؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، قال: ولم؟ قال: لأنه استن بسنة أمير المؤمنين بالعدل[11]، وعلاوة على ذلك فإننا نجد روايات أخرى تشير إلى أن بعض المناظرات الثقافية كانت تقع بين معاوية وولده، على الرغم من صغر سنه، مما يدل

---

(١) المعجم الكبير (٤/ ٢٢٦)، مواقف المعارضة، ص (٤٣) .

(٢) مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص (٤٣).

(٣) الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني، ص (١٩٧)، مواقف المعارضة في خلافة يزيد، ص (٤٥).

(٤) إرشاد الأريب (١٢/ ٧٠ ـ ٧٨)، مواقف المعارضة، ص (٤٤) .

(٥) أنساب الأشراف (٤/ ٢٩٥ ، ٢٩٦) .

(٦) سير أعلام النبلاء (٩/ ١٣٠) .

(٧) صحيح مسلم (٢/ ٧١٨) رقم (١٠٣٧) .

(٨) البداية والنهاية (١١/ ٦٣٨) .

(٩) تاريخ دمشق، نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (٤٥).

(١٠) تاريخ الدولة العربية، سهيل زكار، ص (٤٥).

(١١) أنباء نجباء الأبناء، ص (٦٩)، يزيد بن معاوية حياته وعصره، للعقيلي، ص (١٢).

على مدى إهتمام أبيــه به، فيروى ابن ظفر الصُّقلّى أن معاوية بن أبى سـفيان قال لابنه يزيد، وقـد أتت عليه سـبع سنين: يا بنى، فى أى سـورة أنت؟ فقـال: فى السورة التى تلى يا أمير المؤمنين. فقـال: يا بنى إن هذه السورة تليها سورتان وهى بينهمـا، ففى أيهمـا أنت؟ قال: فى السـورة التى فى أولها ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[محمد: ٢]. فتمثل معاوية بقول حذافة بن غانم العدوى حيث يقول:

ملـوك وأبنـاء الملـوك وســـادة ... تفلّق عنهم بيـضـة الطائر الصّقـر

مـتى تلقَ منهم ناشـئًـا فى شبـابه ... تجـده على أعـــراق والده يجـرى

فـهم يغـفـرون الذَّنب ينقم مـثله ... وهم تركوا رأى السَّفاهة والهجر[١]

وكان مـعاوية يوجه ابـنه ويرشده وينصحـه ويدله على الصواب فـقد رأى ابنه يضرب غلامًـا له، فقال له: سوأة لك، أتضرب من لا يـستطيع أن يمتنع عليك؟ والله لقد منعتنى القدرة من ذوى الإحن، وإنَّ أحقَّ من عفا لمن قدر[٢]، وقد ثبت فى الصحـيح: أن رسول الله ﷺ رأى أبا مـسعود يضـرب غلامًا له، فـقال له: «اعلم أبا مسـعود للهُ أقدر علـيك منك عليه»[٣]، وذات يوم غضب معاوية على ابنه يزيد فهـجره، فقال له الأحنـف بن قيس: يا أمير المؤمنـين، أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظلـيلة، وأرض ذليلة، إن غضبوا فأرضهم، وإن طلبوا فأعطهم، ولا تكن عليهم ثقلاً فيملّوا حـياتك ويتمنّوا موتك، فقال معاوية: لله درُّك يا أبا بحـر، يا غلام، ائت يزيد فـأقْرِئه منى السـلام، وقل له: إن أمـير المؤمنين قـد أمـر لك بمائه ألف درهم ومـائة ثوب. فـقـال يزيد: من عند أمـيـر المؤمنين؟ فقال: الأحنف. فقال: لا جرم لأُقاسـمنه، فبعث إلى الأحنف بخمسين ألفًا وخمسين ثوبًا[٤]، وكان يزيد حاضر البديهة، قـال العتبى: وقدم زياد بأموال عظيمة، وبسفط مملوءة جواهر على معاوية، فسـرَّ بذلك معاوية، فقام زياد فصعد المنبر، ثم افتخر بما يفعله بأرض العراق من تمهيد الممالك لمعاوية، فقام يزيد فقال:

---

(١) أبناء نجباء الأبناء، ص (١٣)، يزيد بن معاوية للعقيلى، ص (١٣) .

(٢) البداية والنهاية (١١/ ٦٤٠).

(٣) مسلم رقم (١٦٥٩) .

(٤) البداية والنهاية (١١/ ٦٤١).

إن تفعل ذلك يا زياد فنحن نقلناك من ولاء ثقيف إلى قريش، ومن القلم إلى المنابر، ومن زياد بن عُبيد إلى حرب بن أمية. فقال له معاوية: اجلس فداك أبى وأمى، وكان معاوية يربى يزيد على القيام بالواجبات الاجتماعية مع أعيان المجتمع، فعندما وفد عبد الله بن عباس إلى معاوية، أمر ابنه يزيد أن يأتيه فيعزيه فى الحسن بن على، فلمّا دخل على ابن عباس رحّب به وأكرمه وجلس بين يديه، فأراد ابن عباس أن يرفع مجلسه، فأبى وقال: إنما أجلس مِجلس المُعزِّى لا المُهنِّى، ثم ذكر الحسن فقال: رحم الله أبا محمد أوسع الرحمة وأفسحها، وأعظم الله أجرك وأحسن عزاءك، وعوّضك عن مُصابك ما خير لك ثوابًا وخيرٌ عقبى. فلمّا نهض يزيد من عنده قال ابنُ عباس: إذا ذهب بنو حرب ذهب حلماء الناس. ثم أنشد متمثلاً:

مَغَاضٍ عن العوراءِ لا ينطقونها وأهلُ وِراثات الحلوم الأوائل[1]

وكان معاوية رضى الله عنه يختبر ابنه بين الفينة والأخرى، فذات يوم سأله: كيف تُراك فاعلاً إن وُلّيت؟ قال: يُمتعُ الله بك. قال: لتُخبرنى، قال: كنت -والله يا أبة- عاملاً فيهم عمل عمر بن الخطاب. فقال معاوية: سبحان الله! سبحان الله! والله يا بُنىَّ لقد جهدت على سيرة عثمان فما أطقتها[2].

ثالثًا: زوجاته وأولاده:

تزوج يزيد أم هاشم بنت أبى سفيان بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فأنجبت له:

١- معاوية بن يزيد: ويكنى أبا عبد الرحمن، كما يعرف باسم أبى ليلى، وهو الذى يقول فيه الشاعر:

إنى أرى فِتنة قد حان أوّلها والملك بعد أبى ليلى لمن غلب[3]

٢- خالد بن يزيد: ويكنى أبا هاشم، وقد انصرف إلى عمل الكيمياء.

٣- أبو سفيان بن يزيد: وبعد وفاة يزيد تزوج أم هاشم مروان بن الحكم[4].

(١) البداية والنهاية (١١/ ٦٤٢). (٢) المصدر نفسه (١١/ ٦٤٤).

(٣)، (٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٣٤).

وتزوج أيضًا يزيد أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر، فأنجبت له عبد الله بن يزيد، ويعرف بلقب «الأسوار»[١]. وكان من أرمى العرب وهو الذى يقول فيه الشاعر:

زعم الناسُ أن خيرَ قريش كلُّهم حين يُذكرُ الأُسوار[٢]

وكان له عدد من الأولاد من أمهات أولاد كثيرة، ومن أبنائه هؤلاء: عبد الله الأصغر، وأبو بكر، وعمر، وعتبة، وعبد الرحمن، وحرب، والربيع، ومحمد[٣]، ويبدو أن لمحمد هذا الأخير عقبًا لا يزال موجودًا حتى الآن فى شبه جزيرة العرب فى المنطقة المعروفة باسم عسير، إذ فرّ أحد أحفاده إلى هذه البقعة عند قيام الدولة العباسية وملاحقة الأمويين، واستطاع بعد مدة تأسيس إمارة بسطت نفوذها على المنطقة واستمرت فى أمرها حتى العصر الحديث، وكان منها آل عائض بن مرعى الذين كان لهم حكم المنطقة قبل سيطرة عبد العزيز آل سعود على أكثر الجزيرة[٤].

رابعًا: أهم أعمال يزيد فى عهد والده.. غزو القسطنطينية:

تكمن أهمية هذه الغزوة بذكرها فى الحديث الشريف، وفضيلتها وفضيلة أهلها المجاهدين، فقد ثبت فى الصحيح من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: كان رسول ﷺ إذا ذهب إلى قباء يدخل إلى أم حرام بنت ملحان فتطعمه ـ وكانت تحت عبادة بن الصامت ـ فدخل يومًا، فأطعمته، فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ فقال: «ناس من أمتى عُرضوا علىّ غزاة فى سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكًا على الأسرة، أو قال: مثل الملوك على الأسرة، قلت: ادع الله أن يجعلنى منهم، فدعا ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ يضحك، فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ فقال: ناس من أمتى عُرضوا علىّ غزاة فى سبيل الله يركبون ثبج البحر ملوكًا على الأسرة ـ أو: مثل الملوك على الأسرة، فقلت: ادع الله أن يجعلنى منهم قال: أنت من الأولين»، فركبت البحر زمن

(١) الأسوار، بالضم والكسر، وهو الجيد الرمى بالسهام .

(٢) ، (٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٣٤)، البداية والنهاية (١١/ ٦٦١) .

(٤) التاريخ الإسلامى، العهد الأموى، (٤/ ١٢٧).

معاويــة، فصرعت عن دابتهــا حين خرجت من البحــر، فهلكت[1]. وفى رواية: «أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم»[2].

قال ابن كثير فى تعليقه على هذا الحديث: وقد كان ذلك فى سنة سبع وعشرين مع معــاوية حين استأذن عــثمان فى غــزو قبرص، فأذن له، فــركب المسلمون فى المركب حين دخلهــا وفتحــها قسراً، وتوفــيت أم حرام فى هذه الغزوة فى البــحر، وكانت مع معاوية فاختة بنت قرظة، وأما الثانية فكانت فى سنة اثنين وخمسين فى أيام ملك معاوية، بعث ابنه يزيد ومعه الجنود إلى غزو القسطنطينية ومعه فى الجيش جماعة من سادات الصحابة منهم أبو أيوب الأنصارى خالد بن زيد رضى الله عنه، فمات هناك وأوصى إلى يزيد بن معــاوية، وأمره أن يدفنه تحت سنابك الخيل، وأن يوغل إلى أقــصى ما يمكن أن تنتــهى به إلى نحو جــهة العــدو، ففــعل ذلك[3]، وفضيلة غزو القسطنطينية ليزيد، جعلت الذهبى -مع شدة حمله على يزيد- يقول: يزيد بن معــاوية أبو خالد الأموى له هنات حــسنة، وهى غزو القسطنطينيــة، وكان أمير ذلك الجيش وفــيهم مثل أبى أيوب الأنصارى[4]، وما أجمل قول ابــن تيمية: ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيحمد ويذم، ويثاب ويعاقب، ويحب من وجه ويبغض مــن وجه، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعــة، خلافًا للخوارج والمعتــزلة ومن وافقهم[5]، ويبدو أن يزيد قــد قام ببعض الحمــلات حتى وصل إلى خليج القــسطنطينية ومعــه زوجتــه أم كلثوم[6]، ويبدو أن معــرفة يزيد بحرب الروم، وإدراكــه بخطرهم الداهم، وأخذه بــنصيحــة والده رضى الله عنه، فكان آخر ما أوصى به معاوية أن قال: شد خناق الروم[7]، كل هذه الأمور جعلته بعد أن تولى الخلافة يسير على خطتــه فى جهاد الروم، ولــم تمنعه أحداث ابن الزبير وشيعة العــراق من قتالهم[8]، وقد كانت وفــاة يزيد فيما بعد مــتنفسًا للروم، ليس فقط فى وقف الهجمات الحربيــة عليهم من قبل المسلمين، بل بلغت بهم الجرأة إلى

---

(١) مسلم، الصحيح مع شرح النووى (٥٨/١٣ ، ٥٩) .

(٢) فتح البارى (٦/ ١٢٠) .

(٣) البداية والنهاية، نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (٦٢).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣٦/٤) .

(٥) منهاج السنة (٤/ ٥٤٤).

(٦) أنساب الأشراف (٤/ ٢٨٩) .

(٧) تاريخ خليف، ص (٢٣٠).

(٨) خطط الشام (١/ ١١٢) .

الإكثار من الغارات على بلاد الشام ومنطقة الثغور[1]،ولما عاد يزيد من غزوة القسطنطينية فى نفس السنة حج بالناس[2]، وهذه الأعمال التى قام بها يزيد فى غاية الأهمية فى ذلك العصر، فكان يزيد يقود جيشًا من أعظم الجيوش فى عصره، ويضم نخبة من الصحابة وأكابرهم وساداتهم وأبنائهم، ويتجه هذا الجيش بقيادة يزيد إلى أهم جبهة فى الدولة الإسلامية، وغير هذه الاعتبارات تدل على أن يزيد الذى بلغ من العمر حين قيادة هذا الجيش ما بين (٢١ ـ ٢٣ عامًا) يملك روحًا قيادية وكفاءة حربية[3]، ولم يعترض أحد من الصحابة أو غيرهم على قيادة يزيد فى تلك المرحلة، كما أن هذا التصرف من معاوية رضى الله عنه فى تولية يزيد هذا الجيش ـ والذى يضم أكابر الصحابة وأبنائهم وفقهائهم وسادات المسلمين، فيه دلالة على أن معاوية رضى الله عنه، يرى فى ولده يزيد ملامح النجابة والكفاءة التى تؤهله لقيادة هذا الجيش[4].

خامسًا: أهم صفات يزيد بن معاوية:

إن المصادر التاريخية والأدبية على حد سواء تزودنا بأخبار قليلة عن صفات يزيد المكتسبة والموروثة، إلا أنها تحدد لنا بعض الملامح من شخصية يزيد بن معاوية[5] فمنها:

١ ـ القوة والشجاعة: قال عنه الذهبى: كان قويًا شجاعًا، ذا رأى وحزم وفطنة وفصاحة[6]، وكان يتمنى أن يوليه أبوه فى الغزو على الصائفة بالمسلمين. وكان يحرص على إقامة السباقات بين الخيل، ويجعل الجوائز، لرفع مستوى الفروسية عند المسلمين[7]، علاوة على تمكنه من قيادة الجيش الإسلامى الذى حاصر القسطنطينية وسيطرته على مجريات القتال[8]، وذكر صفوان بن عمرو أن المسلمين لما جاوزوا بالأسارى من الروم، ضرب أعناقهم يزيد بن معاوية والروم تنظر

(١) فتوح البلدان للبلاذرى، ص (٢٢٤)، مواقف المعارضة، ص (٦٣).
(٢) تاريخ خليفة، ص (٢١١)، مواقف المعارضة، ص (٦٣).
(٣) مواقف المعارضة، ص (٦٣).
(٤) المصدر نفسه، ص (٦٤).
(٥) المصدر نفسه، ص (٤٦).
(٦) سير أعلام النبلاء (٤/٧).
(٧) الأقوال الكافية فى الفصول الشافية فى الخيل، ص (٣١٢).
(٨) مواقف المعارضة، ص (٤٧).

إليهم[١]، كما أن من حـزمه ما حكاه العتبى بـإسناد أن أبا أيوب الأنصارى مرض فى غزوة القسطنطينية، فأتاه يزيد عائدًا فقال: ما حاجتك يا أبا أيوب؟ قال: ادفنى عند أسوار القـسطنطينية. . . فلما مـات أمر يزيد بتكفينه وحُـمل على سريره، ثم أخرج الكتـائب فجعل قيـصر يرى سريرًا والناس يقتـتلون، فأرسل إلى يزيد: من هذا الذى أرى؟ قال: صاحب نبينا، وقـد سألنا أن ندفنه فى بلادك ونحن منفذون وصيتـه أو تلحق أرواحنا بالله. قال: العجب كـيف ينسب أبوك للدهاء ويرسلك فتأتى بصـاحب نبيك، وتدفنه فى بلادنا، فإن وليت أخرجـناه إلى الكلاب، فقال يزيد: إنى والله مـا أردت إيداعه بلادكم حـتى أودع كلامى آذانكـم، فإنك كـافر بالذى أكـرمت هذا له، لئن بلغنى أنه نبش من قـبره أو مـثل به، لا تركت بأرض العرب نصرانيًا إلا قتلته، ولا كنيسة إلا هدمتها فبعث إليه قيصر: أبوك أعلم بك، فوحق المسيح لأحفظنه بيدى[٢].

٢ ـ الفصاحة والشعر: ذكر الذهبى أنه صاحب فصاحة[٣]. ولما تكلم الخطباء عند معـاوية قال: والله لأرمـينهم بالخطيب الأشـدق، قم يا يزيد تكلم[٤]، وقد ذكـر المدائنى بإسناده أن رجلاً قال لسعيد بن المسـيب: أخبرنى عن خطباء قريش، قال: معـاوية، وابنه يزيد، ومـروان بن الحكم، وابنه عبـد الملك، وسعـيد بن الـعاص وابنه، وما ابن الزبير بدونهم[٥]، وأما شعـره، فقد كان شاعرًا مـجيدًا[٦]، جعل الناس يقـولون: بدئ الشعـر بملك، وختم بملك، إشـارة إلى امرئ القـيس وإلى يزيد[٧]، ومن شعره ما كان ينشده هارون الرشيد ليزيد بن معاوية:

إنهـا بيـن عـــامــــر بــن لؤَىٍّ	حـين تَنْـمِى وبين عـبــد مناف
ولهـا فى المُطَـيَّـبِــين جـدودٌ	ثم نـالت مـكـارم الأخْـــلاف
بـنـتُ عمِّ الـنـبـى أكــرمُ مــن	يمـشى بنعل على التُّراب وحـافى

(١) تاريخ مدينة دمشق، نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (٤٧) .
(٢) الاستبصار بنسب الصحابة من الأنصار، ص (٧٠، ٧١) للمقدسى.
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٧) .
(٤) البيان والتبيين للجاحظ (١/ ١٢٢).
(٥) أنساب الأشراف (٤/ ٢٨٩).
(٦) مواقف المعارضة، ص (٤٩).
(٧) الفخرى فى الآداب السلطانية، ابن طباطبا، ص (١١٣).

لن تـراها على الـتَّـبَـــذُّل والـ ـغلـظة إلا كـــدرة الأكـــداف[1]

٣ ـ الكرم: اشتهر عن يزيد الكرم فكان يجزل العطاء لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب[2]، وليس غريبًا عنه وهو الذي يقول: حفظ النديم والجليس وإكرامهما من كرم الخليفة، وقضاء حق النعمة[3]، ولقد حازت هذه الأعطيات إعجاب عبد الله ابن جعفـر وقال له: فداك أبي وأمي فوالله ما قلتهـا لأحد قبلك[4]،وكان يقول: أتلومونى على حـسن الرأى فى يزيد؟![5]. ومن كـرمه أيضًـا: أن عبـد الله بن حنظلة عندما قدم عليه من المدينة هو وبنوه أعطاه مائة ألف وأعطى كل واحد منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم وحملانهم[6]، وقصته مع الأحنف فى مقاسمته الجائزة التى أمر بها معاوية قد مرت معنا.

وأما صـفاته الخَلْقية: فـقد كان ضـخم الجسم سميـنًا طويلاً، غليظ الأصابع، كثيف الـشعر جعده، أسـمر البشرة فى وجـهه أثر الجدرى، أحور العـينين حسن اللحية خفيفها، وبالجملة كان جميلاً[7].

سادسًا: بيعة يزيد:

كان يزيد غائبًا حين حضر معاوية الموت، فلما حضر يزيد كان قد دفن، فقصد يزيد باب الصغـير حيث دفـن أبوه، وهناك صلى على أبيه ومن خلفـه المسلمون، فكبر أربعًا[8]، ولما خرج من المقـبرة أُتى بمراكب الخلافـة فركب، ثم دخل البلد، وأمر فنودى فى الناس أن الصلاة جامعة، ودخل الخضراء ـ وهو قصر بناه معاوية ـ فاغتـسل ولبس ثيابًا حسنة، ثم خرج فـخطب الناس أول خطبة خطبهـا وهو أمير المؤمنين، فقال -بعـد أن حمد الله وأثنى عليه-: أيها الناس، إن معـاوية عبد من عبيـد الله، أنعم الله عليه، ثم قبـضه إليه، وهو خير ممن بعـده، ودون من قبله،

(١) البداية والنهاية (١١/٦٥٥).
(٢) المصدر نفسه (١١/٦٤٦) .
(٣) أنساب الأشراف (٤/٢٩٧) .
(٤) المصدر نفسه (٤/٢٩٧)، القيد الشريد، ابن طولون ورقة ٣ .
(٥) البداية والنهاية (١١/٦٤٦) .
(٦) تاريخ خليفة، ص (٢٣٧)، البداية والنهاية (١١/٥٣).
(٧) سير أعلام النبلاء (٤/٣٧)، البداية والنهاية (١١/٦٣٨).
(٨) البداية والنهاية (١١/٤٥٩) .

ولا أزكيه على الله ـ عز وجل ـ فإنه أعلم به، إن عفا عنه فبرحمته، وإن عاقبه فبذنبه، وقد وليت الأمر من بعده، ولست آسى على طلب، ولا أعتذر من تفريط، وإذا أراد الله شيئًا كان.. وقال لهم في خطبته هذه: إن معاوية كان يغزيكم في البحر، وإني لست حاملاً أحدًا من المسلمين في البحر، وإن معاوية كان يشتيكم بأرض الروم، ولست مشتيًا أحدًا بأرض الروم، وإن معاوية كان يخرج لكم العطاء أثلاثًا، وأنا أجمعه لكم كله.. فافترق الناس، وهم لا يفضلون عليه أحدًا[1].

وفي هذه الخطبة شرح يزيد سياسته في قيادة الأمة، ووضح خطته التي سيلتزمها أثناء خلافته، وهي سياسة استطاع أن يكسب بها قلوب أهل الشام. وقد أجمعت غالبية الأمة على بيعة يزيد، أو بمعنى آخر جددت له البيعة بعد وفاة أبيه، ولم يعارض إلا الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما[2]. وسيكون لكل منهما مع يزيد شأن ـ، كما سنرى بإذن الله تعالى ـ أما بقية الصحابة فقد بايعوا يزيد جمعًا للكلمة وحفظًا لوحدة الأمة وخوف الفتنة، مثل عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، ومحمد ابن الحنفية[3]، أما أهل الشام والعراق وغيرهما من الأقاليم فقد بايعوا، وكانت المعارضة ليزيد في أهل الحجاز يتزعمها الحسين بن علي وابن الزبير، ومما قيل من الشعر في بيعة يزيد ما قاله عبد الله بن همَّام يعزِّيه في أبيه:

اصبر يزيد فقد فارقت ذا مقة[4]	واشكر حُباء الذي بالملك حاباكا
لا رُزءَ أعظم في الأقوام نعلمه	كما رُزِئت ولا عُقَبى كعُقباكا
أصبحت راعي أهل الدِّين كلهم	فأنت ترعاهم والله يَرْعاكا
وفي معاوية الباقي لنا خلف	إذا نعيت و لا نسمع بمنعاكا

يعني معاوية بن يزيد[5]

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٦٠).

(٢) البداية والنهاية (١١/٤٦٧)، العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (١٣٠).

(٣) العالم الإسلامي في العصر الأموي، ص (١٣٠).

(٤) المقة: المحبة، الحباء بكسر الحاء وضمها: العطاء بلا منٍّ ولا جزاء.

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢/ ٦٥٢).

تولى يزيد الأمر بعد أبيه فى رجب سنة ٦٠هـ - ٦٨٠م فأقر عمال أبيه على ولاياتهم، فكان على المدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان، وأمير مكة عمرو بن سعيد بن العاص، وأمير الكوفة النعمان بن بشير، وأمير البصرة عبد الله بن زياد[١]، وركز يزيد فى أخذ البيعة من النفر الذين لم يبايعوه فى حياة أبيه، وكان أهمهم عنده الحسين بن على، فكتب إلى أميرها الوليد بن عتبة كتابًا يخبره فيه بوفاة معاوية، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة؛ أما بعد، فإن معاوية كان عبدًا من عباد الله، أكرمه الله واستخلفه، وخوّله ومكّن له، فعاش بقدر، ومات بأجل، فرحمه الله، فقد عاش محمودًا، ومات برًا تقيًا، والسلام[٢]. ونظرًا لتساهل الوليد بن عتبة بن أبى سفيان فى أخذ البيعة من الحسين وابن الزبير لأنه كان رجلاً يحب العافية[٣]، وأنه كان رجلاً رفيقًا سريًا كريمًا[٤]، كما أنه كان يخشى عذاب الله وعقابه، فقد امتنع عن سجن الحسين أو قتله وقال: . . . والله ما أحب أن لى ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وإنى قتلت حسينًا، سبحان الله! أقتل حسينًا أن قال: لا أبايع؟ والله إنى لا أظن أمرًا يحاسب بدم الحسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة. فقال مروان: فإذا كان هذا رأيك فقد أصبت فيما صنعت[٥].

كان إصرار يزيد على طلب البيعة من الحسين وابن الزبير - رضى الله عنهما - هو الشرارة الأولى فى الفتنة التى اندلعت بين المسلمين، فقد شعر كل منهما بأنه مطلوب، وأنه إذا لم يبايع فسيكون ضحية طيش يزيد، وأن سيوف أعوان الخليفة الجديد أصبحت مسلولة عليهما، فعادا إلى البيت الحرام، ولجآ إلى مكة المكرمة يطلبان فيها الأمان، ويحتميان بحمى الله فيها، ولئن أصاب يزيد حين أبقى عمال أبيه على الولايات، ليضمن استقرار الأمور فيها، فقد خانته عبقريته فى إصراره على طلب البيعة من الحسين وابن الزبير، حيث كان إصراره هذا موحيًا بعدم تأمين الحياة لهما، وبأن بقاءهما فى عهد يزيد محفوف بالمخاطر، وذلك أدى بهما إلى أن يبحثا عن الأمان، ولم يجداه إلا فى تجييش أنصارهما، وحشدهم فى مكان

---

(١) البداية والنهاية (١١/٤٦٧). (٢) المصدر نفسه (١١/٤٦٧).

(٣) الأخبار الطول، ص (٢٢٨)، يزيد بن معاوية، العقيلى، ص (٢٨).

(٤) تاريخ خليفة، ص (٢٣٣)، يزيد بن معاوية، ص (٢٨). (٥) تاريخ الطبرى (٦/٢٥٩).

يصعب على يزيد وأعوانه أن يقتحموه وكان ذلك في مكة المكرمة، في جوار بيت الله الذي قال فيه: ﴿ومن دخله كان آمنا﴾ [آل عمران: ٩٧]. ولم يكن لهذا التجمع وذلك الحشد نتيجة سوى المواجهة التي أودت بحياة الآلاف من المسلمين، وكان على رأس هؤلاء جميعًا الحسين بن علي - رضي الله عنهما - حيث قتل في كربلاء - شهيدًا - على يد فئة ظالمة من جيوش يزيد[١].

لقد كانت غلطة من يزيد، بدأ بها حياته، وظلت تلاحقه حتى مماته، ولم يستطع التخلص منها، وبدأت سلسلة الأخطاء تتوالى في حياة الخليفة، وكلما ادلهمت الأمور من حوله، عظمت الأخطاء، وتضخمت المشكلات، وكلما أراد حل مشكلة، عرض لها بمشكلة أخطر منها وأفظع، فمن الإصرار على عدم البيعة إلى تكوين جبهة معارضة تستعد للقتال، ومنها إلى معركة كربلاء، ثم تتمخض هذه المعركة عن قتل ابن بنت رسول الله ﷺ، وتؤدي إلى غضب المسلمين، وإعلان ابن الزبير الخروج على الخليفة، وتستمر العداوة والبغضاء حتى تكون وقعة الحرة، وتتشوه صورة الخليفة في أعين المسلمين، ثم يتوفى بعد ذلك بقليل، أين غاب حلم معاوية عن ولي عهده؟ أغلب الظن أن الذي ورط يزيد في هذه الأخطاء الشنيعة هو غياب المستشارين الحكماء عن مجلسه، وحداثة سنه، وقلة خبرته. كما أن يزيد كان يفتقد حِلم أبيه، وتنقصه قوة إرادته في الحلول السلمية، لقد كانت الكوارث الكبرى في عهد يزيد: مقتل الحسين رضي الله عنه، ووقعة الحرّة بالمدينة، وحصار مكة لابن الزبير، لقد وصم يزيد عهده بوصمة لن يمحوها ماء البحار، ولن تزيل مرارتها عذوبة الأنهار[٢].

إن أهل السنة والجماعة يعتبرون بيعة يزيد صحيحة ولكنهم عابوا عليها أمرين:

١ - قالوا إن هذه بدعة جديدة وهي أنه جعل الخلافة في ولده، فكأنها صارت وراثة بعد أن كانت شورى وتنصيصًا على غير القريب، فكيف بقريب وابن مباشر؟! فمن هذا المنطلق رُفض المبدأ بغض النظر عن الشخص فهم رفضوا مبدأ أن يكون الأمر وراثة.

---

(١) الأمويون بين الشرق والغرب (١/١٩٨).

(٢) المصدر نفسه (١/١٩٩) بتصرف كبير .

٢ ـ أنه كان هناك من هم أولى من يزيد بالخلافة كابن عمر وابن الزبير والحسين وغيرهم هذا من وجهة نظر أهل السنة[١].

أما من وجهة نظر الشيعة فإنهم يرون الإمامة والخلافة في علي وأبنائه فقط، فهم لا يعيبون بيعة يزيد بذاتها وإنما يعيبون كل بيعة لا تكون لعليّ وأولاده، فهم يعيبون بيعة أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية كلها بغض النظر عن المبايع له، لأنهم يرون أنها نص لعليّ وأبنائه إلى أن تقوم الساعة[٢]، وقد ناقشت معتقد الشيعة في الإمامة في كتابي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبينت بطلانه.

---

(١)، (٢) حقبة من التاريخ، ص (١٢٤).

المبحث الثاني

خروج الحسين بن على رضى الله عنه

أولاً : اسمه ونسبه وشىء من فضائله:

هو أبو عبد الله الحسين بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم، سبط رسول الله ﷺ، وريحانته ومحبوبه، ابن بنت رسول الله ﷺ، فاطمة رضى الله عنها، كان مولده سنة أربع للهجرة، ومات رضى الله عنه قتيلاً شهيدًا، فى يوم عاشوراء من شهر المحرم سنة إحدى وستين هجرية بكربلاء من أرض العراق، فرضى الله عنه وأرضاه[1].

وقد وردت فى مناقبه وفضائله أحاديث كثيرة منها:

١ ـ ما رواه أحمد بإسناده إلى يعلى العامرى رضى الله عنه أنه خرج مع رسول الله يعنى إلى طعام دعوا له -قال: فاستمثل رسول الله ﷺ أمام القوم، وحسين مع غلمان يلعب، فأراد رسول الله ﷺ أن يأخذه، فطفق الصبى يفر هنا مرة وهاهنا مرة، فجعل النبى ﷺ يضاحكه حتى أخذه قال: فوضع إحدى يديه تحت قفاه الأخرى تحت ذقنه، ووضع فاه وقبله وقال: «حسين منى وأنا من حسين، اللهم أحب من أحب حسينًا، حسين سبط من الأسباط»[2].

٢ ـ ما رواه البخارى بإسناده إلى ابن عمر أنه قد سأله رجل من العراق عن المحرم يقتل الذباب، فقال رضى الله عنه: أهل العراق يسألون عن المحرم يقتل الذباب وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ، وقال النبى ﷺ: «هما ريحانتاى من الدنيا»[3].

٣ ـ وروى أحمد بإسناده إلى أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[4].

وغير ذلك من الأحاديث، وفى النية إفراد كتاب مستقل عن أبى عبد الله الشهيد الحسين بن على رضى الله عنهما بإذن الله تعالى.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨٠)، الإصابة (١/ ٣٣١ ـ ٣٣٤) .

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد (٢/ ٧٧٢) إسناده حسن .

(٣) البخارى رقم (٣٧٥٣).

(٤) سنن الترمذى (٥/ ٦٥٦) حديث رقم (٣٧٦٨) صححه الألبانى فى الأحاديث الصحيحة (٢/ ٤٤٨) .

ثانيًا: الأسباب التى أدت إلى خروج الحسين، والفتوى التى بنى عليها خروجه رضى الله عنه:

كان موقف الحسين من بيعة يزيد بن معاوية هو موقف المعارض، وشاركه فى المعارضة عبد الله بن الزبير، والسبب فى ذلك حرصهما على مبدأ الشورى، وأن يتولى الأمة أصلحها. وتلك الممانعة الشديدة من قبل الحسين وابن الزبير، قد عبرت عن نفسها بشكل عملى فيما بعد، فالحسين رضى الله عنه -كما مر معنا- كان معارضًا للصلح، والذى حمله على قبوله هو متابعة أخيه الحسن بن على، ثم إن الحسين بن على استمر على صلاته بأهل الكوفة، وقد كان يعدهم بالمعارضة ولكن بعد وفاة معاوية، والدليل على ذلك أنه بمجرد وفاة معاوية سارع زعماء الكوفة بالكتابة إلى الحسين، وطلبوا منه المسير إليهم على وجه السرعة[1] ومن الأسباب التى أدت إلى خروج الحسين رضى الله عنه:

١ - إرادة الله عز وجل وأن ما قدره سيكون وإن أجمع الناس كلهم على رده فسينفذه الله، لا راد لحكمه ولا لقضائه سبحانه وتعالى[2].

٢ - قلب الحكم من الشورى إلى الملك الوراثى: ومن الأسباب: ما كان من عدم التزام معاوية بشروط الحسن فى الصلح، والتى من ضمنها ما ذكره ابن حجر الهيثمى: .. بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين[3].

ورأى الحسين فى محاولة معاوية توريث الحكم من بعده لابنه يزيد مخالفة واضحة لمنهج الإسلام فى الحكم، ومع ذلك فإنه لم يهتم بالخروج على معاوية، نظرًا لمبايعته له بالخلافة، فظل على عهده والتزامه[4]. ولكن بعد وفاة معاوية تغير الموقف، فالحسين لم يعد فى عنقه بيعة توجب عليه السمع والطاعة، ويدل على ذلك محاولة والى المدينة الوليد بن عتبة أخذ البيعة من الحسين بن على وعبد الله ابن الزبير وخروجهما بعد ذلك إلى مكة دون أن يأخذ بيعتهما[5].

إن موقف الحسين وفتواه ضد الحكم الأموى مرت بمرحلتين:

---

(١) مواقف المعارضة، ص (١٨٠).
(٢) المصدر نفسه، ص(٢٤٠).
(٣) الصواعق المرسلة (٢/٢٩٩).
(٤) أنساب الأشراف (٣/ ١٥٢)، مواقف المعارضة، ص (١٨٠).
(٥) مواقف المعارضة، ص (١٨٠).

المرحلة الأولى: مرحلة عدم البيعة ليزيد، وذهابه إلى مكة، وهذه المرحلة أسس فيها الحسين موقفه السياسى من حكم يزيد، بناء على نظرته الشرعية لحكم بنى أمية، فهو يرى عدم جواز البيعة ليزيد، وذلك لسببين: فعلى الصعيد الشخصى فإن يزيد لا يصلح خليفة للمسلمين، نظراً لانعدام توافر شرط العدالة فيه[1]، كما أن الحسين أفضل وأحق منه بمنصب الخلافة، فهو أكثر منه علماً، وصلاحًا، وكفاءة، وأكثر قبولاً لدى الناس من يزيد، أما الصعيد السياسى فلانعدام شرط الشورى، والاستئثار بالسلطة للحكم الأموى، والذى يخالف المنهج الإسلامى فى الحكم. ولم يغب عن الحسين رضى الله عنه قول النبى ﷺ: «من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[2]، ولكن فهمه لهذا الحديث أنه فى حق من كان صالحًا للخلافة وأهلاً لها وكان عن شورى المسلمين[3]. وعدم مبايعة الحسين ليزيد كانت تعنى عدم إعطاء الشرعية للحكم الأموى وهو أمر كان الأمويون يحرصون عليه أشد الحرص، وقد كتب يزيد إلى واليه فى المدينة بأخذ البيعة من الحسين وابن عمر وابن الزبير، وأن يأخذهم بالشدة حتى يبايعوا[4]، وفى نفس الوقت فإن عدم البيعة يسهل له حرية العمل السياسى واتخاذ القرار الذى يراه مناسبًا لمقاومة الحكم الأموى.

المرحلة الثانية: وهى مرحلة العمل على مقاومة الحكم الأموى وطرح نفسه بديلاً للسلطة الأموية فى دمشق، وهو ما يعبر عنها الفقهاء بالخروج على الإمام. وهنا لابد من الإشارة إلى أن الحسين قد مكث فى مكة بضعة أشهر قبل خروجه إلى العراق، فقد قدم إلى مكة فى الثالث من شعبان سنة ٦٠هـ، وخرج إلى العراق فى الثامن من ذى الحجة من نفس السنة[5]. وفى هذه الفترة كان رضى الله عنه يراسل أهل العراق، وتقدم إليه الوفود، حتى رأى أنه لابد من مقاومة الظلم وإزالة المنكر، وأن هذا أمر واجب عليه، وكانت شيعته بالعراق على اتصال به، وتمت بينهم مراسلات[6]، وقد وصل الحسين بن على إلى قناعة راسخة وبنى قراره السياسى على فتوى اقتنع بها فى مقاومته للحكم الأموى، فهو يرى أن بنى أمية لم

(١) الفقهاء والخلفاء، سلطان حثيلين، ص (٢١).
(٢) مسلم رقم (١٨٥١).
(٣) الفقهاء والخلفاء، ص (٢٢).
(٤) تاريخ الطبرى (٦/٢٥٩).
(٥) تاريخ الطبرى (٦/٣٠٤)، البداية والنهاية (١١/٤٩٤).
(٦) تاريخ الطبرى (٦/٢٧٣، ٢٧٤).

يلتزموا حدود الله فى الحكم، وخالفوا منهج رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، وبنى الحسين رضى الله عنه فتواه بتسلسل منطقى شرعى، فاستبداد بنى أمية، والشك فى كفاءة وعدالة يزيد، توجب عدم البيعة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على علماء الأمة، ومن أكبر المنكر حكم بنى أمية واستبدادهم، وبما أن الحسين ليس فى عنقه بيعة، وهو أحد علماء الأمة وسادتها، فهو أحق الناس بتغيير هذا للمنكر، وعلى ذلك فليس موقفه خروجًا على الإمام، بل هو تغيير للمنكر، ومقاومة للباطل، وإعادة الحكم إلى مساره الإسلامى الصحيح[1]، ومما يدل على حرص الحسين رضى الله عنه على أن تكون فتواه وتحركاته السياسية فى مقاومته للحكم الأموى متماشية مع تعاليم الإسلام وقواعده، امتناعه عن البقاء فى مكة عندما عزم على مقاومة يزيد؛ حتى لا تستحل حرمتها وتكون مسرحًا للقتال وسفك الدماء، فيقول لابن عباس: لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلى من أن أقتل بمكة وتستحل بى[2].

ثالثًا: عزم الحسين على الخروج إلى الكوفة ونصائح الصحابة والتابعين ورأيهم فى خروجه إليها:

١ ـ عزم الحسين على الخروج إلى الكوفة:

بعد توافد الرسائل من زعماء الكوفة على الحسين رضى الله عنه، والتى تطلب منه المسارعة فى القدوم إليهم، ولما كان العدد مشجعًا أراد أن يطلع على حقيقة الأمر، فبعث ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب ليستجلى له حقيقة الخبر، ثم يكتب إليه بواقع الحال، فإن كان ما يقولون حقًا قدم عليهم[3]، خرج مسلم بن عقيل بصحبة عبد الرحمن بن عبد الله الأرحبى، وقيس بن مسهر الصيداوى، وعمارة بن عبيد السلولى، فلما وصل مسلم المدينة أخذ معه دليلين، وفى الطريق إلى الكوفة تاهوا فى البرية ومات أحد الدليلين عطشًا، وكتب مسلم إلى الحسين يستعفيه، وذلك بسبب إحساسه النفسى بمدى الصعوبات التى تنتظره فى الكوفة، ولكن الحسين رفض طلبه، وأمره بمواصلة المسير نحو الكوفة[4]، ولما وصل مسلم

---

(١) الفقهاء والخلفاء، ص (٢٣).

(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الخلفاء ص (٢٥).

(٣)، (٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٦٧).

ابن عقيل إلـى الكوفة نزل عند المختار بن أبى عـبيد[1] فى أول قدومه، فلما جاء ابن زياد وتولى إمارة الكوفة، وأخذ يشـدد على الناس، انتقل مسلم عند هانئ بن عروة وذلك خشية انكشاف أمره ثم لمكانة هانئ وأهمـيته كأحد أعيان الكوفة، ولما بدأ الشك يساور ابن زياد مـن هانئ بن عروة خشى مـسلم بن عقيل على نفـسه، وانتقل أخـيراً ولفـترة قـصيرة جـداً عند مسلم بن عـوسجـة الأسدى أحـد دعاة الشيعة[2]، ولما بلغ أهل الكوفة قدوم مسـلم بن عقيل قدموا إليه فبـايعه اثنا عشر ألفاً[3]، وتمت تلك المبـايعة بصـورة سرية مع تحـرص شديد، ولما تأكـد لمسلم بن عقيل رغبة أهل الكوفة فى الحسين وقدومـه إليهم كتب إلى الحسين: أما بعد، فإن الرائد لا يكذب أهله، إن جميع أهل الكوفة معك فـأقبل حين تنظر فى كتابى[4]، وهنا تأكد للحسـين صدق نوايا أهل الكوفة، وأنه ليس عليهم إمام كـما ذكروا من قبل[5]، فلا بـد فى هذه الحالة أن يفى لهم بما وعـدهم به، حين كـتب إلى أهل الكوفة: وقد بعثت إليكم أخى وابن عمى وثقـتى من أهل بيتى، وأمرته أن يكتب إلىّ بحـالكم وأمـركم ورأيكم، فإذا كـتب إلىّ أنه قـد أجـمع رأى ملئكم وذوى الفضل والحجا منكم على مثل ما قدمت به رسلكم وقرأته فى كتبكم، أقدم عليكم إن شاء الله[6]. فلما وصل إلى الحسن بن على كتاب مسلم بن عقيل والذى طلب منه القدوم إلى الكوفة وأن الأمر مهيأ لقدومه، تجهز الحسين وعزم على المضى إلى الكوفة بأهله وخاصته[7].

٢ ـ مواقف الصحابة والتابعين من خروج الحسين:

أ ـ محمد بن الحنفية: لما بلغ محمد بن الحنفية عزم أخيه الحسين على الخروج إلى الكوفـة قدم عليـه وقال: يا أخى، أنت أحب الناس إلىّ، وأعـزهم علىّ، ولست أدخر النصـيحة لأحد من الخلق أحق بهـا منك، تنح ببيعتك عن يزيد بـن معاوية وعن الأمصار مـا استطعت، ثم ابعث رسلك إلى الناس فادعهـم إلى نفسك، فإن بايعـوا لك حمـدت الله على ذلك، وإن أجمع الـناس على غيـرك لم ينقص الله

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٦٧).
(٢) المصدر نفسه (٦/ ٢٨٣، ٢٨٤).
(٣) تهذيب الكمال (٢/ ٣٠١)، مواقف المعارضة، ص (٢٣٢).
(٤) أنساب الأشراف (٣/ ١٦٧).
(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٧٢).
(٦) المصدر نفسه (٦/ ٢٧٤).
(٧) المصدر نفسه (٦/ ٣٠٥).

بذلك دينك ولا عقلك، ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك، إنى أخاف أن تدخل مصراً من هذه الأمصار وتأتى جماعة من الناس فيختلفون بينهم، فمنهم طائفة معك، وأخرى عليك، فيقتلون فتكون لأول الأسنة، فإذا خير هذه الأمة كلها نفساً، وأباً، وأماً، أضيعها دماً، وأذلها أهلاً.. فقال الحسين: فإنى ذاهب يا أخى، قال: فانزل مكة، فإذا أطمأنت بك الدار فسبيل ذلك، وإن نبت بك لحقت بالرمال وشعف الجبال، وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنتظر إلامَ يصير أمر الناس وتعرف عند ذلك الرأى فإنك أصوب ما تكون رأياً وأحزمه عملاً حين تستقبل الأمور استقبالاً، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكل منها حين تستدبرها استدباراً قال: يا أخى قد نصحت فأشفقت وأرجو أن يكون رأيك سديداً[1]. وجاء فى رواية:.. فإن الحسين حين عزم على الخروج بعث إلى بنى عبد المطلب فى المدينة يدعوهم للخروج معه، فقدم عليه من خف منهم، وتبعهم محمد بن الحنفية فأدرك الحسين بمكة، فأعلمه أن الخروج ليس له برأى يومه هذا، فأبى الحسين أن يقبل فى نفسه على أخيه محمد وقال: ترغب بولدك عن موضع أصاب فيه؟ فقال محمد: وما حاجتى أن تصاب ويصابوا معك، وإن كانت مصيبتك أعظم عندنا منهم[2].

ب ـ عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: ولما بلغ خبر عزمه على الخروج إلى ابن عمه عبد الله بن عباس أتاه وقال: يا ابن عم، إنه قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق، فبيّن لى ما أنت صانع. قال: قد أجمعت المسير فى أحد يومى هذين إن شاء الله تعالى، فقال له ابن عباس: أخبرنى إن كانوا دعوك بعد ما قتلوا أميرهم ونفوا عدوهم وضبطوا بلادهم فسر إليهم، وإن كان أميرهم حيًا وهو مقيم عليهم، قاهر لهم، وعماله تجبى بلادهم، فإنهم إنما دعوك للفتنة والقتال، ولا آمن عليك أن يستفزوا عليك الناس ويقلبوا قلوبهم عليك، فيكون الذى دعوك أشد الناس عليك. فقال الحسين: إنى أستخير الله وأنظر ما يكون. ولكن ابن عباس أدرك من كلام الحسين واستعداده أنه عازم على الخروج ولكنه يحاول إخفاء الأمر عنه لعلمه بعدم رضاه عن ذلك، لذا جاء ابن عباس إلى الحسين من الغد فقال: يا ابن عم، إنى أتصبر ولا أصبر، وإنى أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك، إن أهل العراق

---

(1) أنساب الأشراف (٤/ ١٥، ١٦).

(2) الطبقات (١/ ٤٥١) تحقيق السُّلمى.

قوم غدر فلا تغترن بهم، أقم فى هذا البلد حتى ينفى أهل العراق عدوهم ثم أقدم عليهم، وإلا فسر إلى اليمن فإن به حصونًا وشعابًا، ولأبيك به شيعة، وكن عن الناس بمعزل، واكتب إليهم وبث دعاتك فيهم، فإنى أرجو إذا فعلت ذلك أن يكون ما تحب. فقال الحسين: يا ابن عم، والله إنى لأعلم أنك ناصح شفيق، ولكنى قد أزمعت المسير. فقال له: فإن كنت ولا بد سائراً فلا تسر بأولادك ونسائك، فوالله إنى لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه، إلى أن قال: فوالله الذى لا إله إلا هو، لو أعلم أنك إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع على وعليك الناس أطعتنى وأقمت لفعلت ذلك[1]. وهكذا نجد أن محاولات ابن عباس لم تجد فى إقناع الحسين على الرغم من أنه أظهر له - لما علم تصميمه على عدم رضاه بيزيد وضرورة العمل على تغييره - أنه لا يقف عند فكرة الحسين تمامًا، ولكنه يوضح له عوامل فشل ما هو سائر لتحقيقه، ويطرح له البدائل التى ربما تكون أقرب لتحقيق ما يصبو إليه، وذلك بالانتظار حتى يقوم أهل العراق بالسيطرة التامة على إقليمهم ويحرروه من سلطان بنى أمية، وهو يدرك أنهم عاجزون عن ذلك؛ فبالتالى هم عاجزون عن حماية الحسين، أو أن يذهب إلى اليمن ويعمل بما أرشده إليه، فإن عوامل النجاح فيه أكثر وعوامل الفشل فيه أقل من رحيله إلى العراق ولعل ابن عباس قد لا يريد للحسين لا هذا ولا ذاك، ولكن أراد تأخير الحسين عن اتخاذ تلك الخطوة السريعة بخروجه إلى العراق والتى لا ينفع معها تدارك الأمر، أما لو اقتنع برأى ابن عباس من الانتظار حتى يتهيأ له الأمر فى العراق، أو يعدل عنه إلى اليمن، وهذا سيأخذ وقتاً طويلاً لترتيب الأمور هناك، وبهذا أو ذاك فإنه يمكن أن يكون لعامل الوقت أثر فى حل الوضع وإطفاء الفتنة[2]. ويفهم من كلام ابن عباس أنه لا يخالف الحسين فى خروجه على يزيد من الناحية الشرعية، ولكن كان يخالفه من الناحية الاستراتيجية، فكان يرى ألا يخرج الحسين للعراق حتى يتأكد من قوة شيعته وأنصاره هناك، وأن الأمويين لم يعد لهم نفوذ، وإلا فإن اليمن بعيد عن النفوذ الأموى وله فيه أنصار، وبه أماكن كثيرة للتخفى، حتى يتمكن من جمع القوى الكافية لمقاومة الأمويين[3].

---

(١) الكامل فى التاريخ (٢/٥٤٦) .

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٤٧٥).   (٢) الفقهاء والخلفاء، ص (٢٥).

ج ـ عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: فقد نصح الحسين رضى الله عنه فى أكثر من موقف، فحين بلغه خروج ابن الزبير والحسين إلى مكة رافضين بيعة يزيد لقيهما وقال: أذكركما الله إلا رجعتما فدخلتما فى صالح ما يدخل فيه الناس وتنظران، فإن اجتمع عليه الناس لم تشذا، وإن افترق عليه كان الذى تريدان[1]، ولما قدم المدينة وبلغه خروج الحسين لأهل الكوفة لحقه ابن عمر على مسيرة ليلتين فقال: أين تريد؟ قال: العراق، ومعه طوامير وكتب، فقال: لا تأتهم، قال: هذه كتبهم وبيعتهم. فقال: إن الله خيَّر نبيه بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، وإنكم بضعة منه، لا يليها أحد منكم أبدًا، وما صرفها الله عنكم إلا للذى هو خير لكم، فارجعوا. فأبى، فاعتنقه ابن عمر، وقال: أستودعك الله من قتيل[2].

وكان ابن عمر يقول بعد ذلك: غلبنا الحسين بن على بالخروج، ولعمرى لقد رأى فى أبيه وأخيه عبرة، ورأى من الفتنة وخذلان الناس لهم ما كان ينبغى له ألا يتحرك ما عاش، وأن يدخل فى صالح ما دخل فيه الناس، فإن الجماعة خير[3].

د ـ عبد الله بن الزبير رضى الله عنه: اتهمته بعض الروايات الضعيفة أنه أحد المتسببين فى إقناع الحسين بالخروج إلى الكوفة، هو نفسه ثبت عنه أنه قد أسدى النصائح للحسين، وحذره من مغبة مغادرة مكة والذهاب إلى الكوفة، وقد نصح الحسين قائلاً: أين تذهب؟ إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك؟! فقال له الحسين: لئن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلى من أن تستحل بى ـ يعنى مكة[4]. . .

وقد نظر بعض الصحابة إلى العمل الذى سيقدم عليه الحسين بأنه فى حقيقته خروج على الإمام صاحب البيعة، كما نظروا إلى خروج الحسين وما يحمله خروجه على أنه نذير شر وبلاء على الأمة مهما كانت النتائج لأى من الطرفين؛[5] منهم:

هـ ـ أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه: حيث قال: غلبنى الحسين على الخروج وقد قلت له: اتق الله فى نفسك والزم بيتك، ولا تخرج على إمامك[6].

---

(1) الطبقات الكبرى، تحقيق السلمى (1/ 444) .
(2) سير أعلام النبلاء (3/ 292) .
(3) مختصر تاريخ دمشق (7/ 138).
(4) مصنف ابن أبى شيبة (15/ 95) بسند حسن.
(5) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (236).
(6) تهذيب الكمال (6/ 461)، الطبقات (1/ 445) تحقيق السلمى.

و ـ جابر بن عبد الله رضى الله عنه: قال: كلمت حسينًا فقلت له: اتق الله ولا تضرب الناس بعضهم ببعض، فوالله ما حمدتم ما صنعتم فعصانى[1].

ولم تتوقف المحاولات الهادفة للحيلولة بين الحسين وبين خروجه إلى الكوفة فكتب إليه ابن جعفر:

ز ـ عبد الله بن جعفر رضى الله عنه: كتب إلى الحسين وأرسل كتابه مع ابنيه محمد وعون: أما بعد، فإنى أسألك بالله لما انصرفتَ حين تنظر فى كتابى، فإنى مشفق عليك من الوجه الذى توجهت له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك[2]، ولكن الحسين رفض الرجوع، وهنا ظن عبد الله بن جعفر أن سبب خروج الحسين هو خوفه من الوالى عمرو بن سعيد بن العاص، فذهب إلى عمرو ابن سعيد بن العاص وطلب منه أن يكتب كتابًا إلى الحسين يؤمنه فيه ويعده بالخير، وكان رد عمرو بن سعيد أن قال لعبد الله بن جعفر: اكتب ما شئت وائت به أختمه.[3] فكتب ابن جعفر: «بسم الله الرحمن الرحيم من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن على، أما بعد، فإنى أسأل الله أن يصرفك عما يوبقك، وأن يهديك لما يرشدك، بلغنى أنك قد توجهت إلى العراق، وإنى أعيذك بالله من الشقاق، فإنى أخاف عليك فيه الهلاك، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر، ويحيى بن سعيد، فأقبل إلىّ معهما، فإن لك عندى الأمان والبر والصلة وحسن الجوار لك، والله بذلك شهيد وكفيل، ومراع ووكيل، والسلام عليك[4]. ولكن الحسين رضى الله عنه رفض هذا الرجاء أيضًا وواصل مسيره.

ح ـ أبو واقد الليثى رضى الله عنه: فقد روى عنه أنّه قال: بلغنى خروج الحسين، فأدركته بملل، فناشدته الله ألا يخرج، فإنّه يخرج فى غير وجه خروج، إنما يقتل نفسه، فقال: لا أرجع[5].

ط ـ عمرة بنت عبد الرحمن: فقد كتبت إليه تعظّم عليه ما يريد أن يصنع، وتأمره بالطاعة ولزوم الجماعة، وتخبره أنّه إنّما يساق إلى مصرعه[6].

---

(١) الطبقات الكبرى (١/ ٤٤٥) تحقيق السُّلمى .
(٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٣١١) .
(٣) المصدر نفسه (٦/ ٣١١) .
(٤) المصدر نفسه (٦/ ٣١٢) .
(٥) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٣٩) .
(٦) المصدر نفسه (٧/ ١٤٠) .

ى ـ أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث: قال له: يا ابن عَمِّ إن الرحم تظأرُنى[1] عليك، وما أدرى كـيف أنا عندك فى النصيحة لك؟ قـال: يا أبا بكر ما أنت ممن يُستـغشُّ ولا يُتَّهمُ، فـقل. قال: قد رأيـت ما صنع أهل العراق بأبـيك وأخيك، وأنت تريد أن تسير إلـيهم وهم عبيد الدنيـا، فيُقاتلك من قـد وعدك أن ينصرك، ويخذلك من أنت أحب إليه ممن ينصره، فأُذكِّرك الله فى نفسك. فقال: جزاك الله يا ابن عمٍّ خيراً، ومهما يقضى الله من أمر يكن. فقال أبو بكر: إنا لله، عند الله نحتسب أبا عبد الله[2].

ك ـ عبد الله بن مطيع: فقد قـال: إنى فداك أبى وأمى! متعنا بنـفسك، ولا تسر إلى العراق، فوالله لئن قتلك هؤلاء القوم ليتخذنا خولا وعبيداً[3].

ل ـ سعـيد بن المسيـب: فقـد نقل عنه الذهبى أنه قال: لو أن الحسـين لم يخرج لكان خيراً له[4].

م ـ عمرو بن سعـيد بن العاص: فقد كتب إليـه يقول: إنى أسأل الله أن يلهمك رشدك وأن يصـرفك عمّـا يرديك، بلغنى أنك قد اعـتزمت على الشـخوص إلى العراق، فإنى أعيذك بالله من الشّقاق[5].

س ـ الفرزدق: فقد لقيه بالصّفاح[6]، فسأله الحسين عمّا وراءه فقال: أنت أحب النّاس إلى النّاس، والقضاء فى السمـاء، والسيوف مع بنى أمية[7]. وفى خبر آخر أنّه قال: قلت له: يخذلونك، لا تذهب إليهم، فلم يطعنى[8].

هذه أقوال الصّحابة والتّـابعين فى موقفهم من خروج الحسـين، وهذه فلسفتهم فى هذه القـضية المهـمة، فـهم لم يبايعوا يـزيد لأنّهم يرونه أفضل من غـيره من الصّـحابة والتّـابعين، ولـكنهم فعلوا ذلك درءاً لمفـسـدة التّفـرق والاختـلاف بين المسلمين، ودليل ذلك ما رواه خلـيفة بن خياط وابن سعـد، عن داود بن عبد الله

---

(١) تظأرنى: تعطفنى عليك.
(٢) البداية والنهاية (١١/٥٠٤) .
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٧/١٣٩) .
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/٢٩٦) .
(٥) تاريخ دمشق (١٤/٢٠٩)، أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص (٢١٢).
(٦) موضع بين حنين وأنصاب الحرم، على يسرة الدّاخل إلى مكة من مشاش.
(٧) مختصر تاريخ دمشق (٧/١٤٤) .
(٨) تاريخ دمشق (١٤/٢١٤).

الأودى، عن حميد بن عبد الرحمن قال: دخلنا على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ حين استُخلف يزيد بن معاوية، فقال: أتقولون إن يزيد ليس بخير أمة محمد، ولا أفقه فيها فقهًا، ولا أعظمها فيها شرفًا؟ قلنا: نعم. قال: وأنا أقول ذلك، ولكن - والله - لأن تجتمع أمة محمد أحب إلىَّ من أن تفترق، أرأيتم بابًا لو دخلت فيه أمة محمد وسعهم، أكان يعجز عن رجل واحد لو دخل فيه؟ قلنا: لا. قال: أرأيتم لو أن أمّة محمد قال كل رجل منهم: لا أهريق دم أخى، ولا آخذ ماله، أكان هذا يسعهم؟ قلنا: نعم. قال: فذلك ما أقول لكم[1]. ومن الملاحظ إجماع كل من نصح الحسين - حتى من لم ير بأسًا برفضه البيعة - على ألا يخرج للعراق ولا يثق فى أهل الكوفة، فقد كتب إليه المسور بن مخرمة رضى الله عنه بألا يغتر بكتب أهل العراق، ونصحه بألا يبرح الحرم فإن كانت لهم حاجة فسيضربون إليه آباط الإبل حتى يوافوه فيخرج فى قوة وعدة[2]. ومما يلفت الانتباه - زيادة على إجماع الناصحين للحسين على خيانة أهل الكوفة ووجوب عدم الثقة بوعودهم - إجماعهم فى توقعهم مقتل الحسين كما يبدو ذلك من أسفهم عليه وكلمات التوديع له. وما ذلك إلا دليل على معرفة أولئك الناصحين من العلماء بالأوضاع، ووعيهم لما سبق من أحداث جرت إبان الفتنة بين على ومعاوية عرفوا من خلالها الدوافع والأهواء التى تدفع ببعض الأقوام للاستفادة من إثارة الإحن ودوام الفتن[3].

رابعًا : موقف يزيد من أحداث الكوفة:

لما تأكد ليزيد تصميم الحسين على الاستجابة لدعوة أهل الكوفة، كتب لابن عباس لأنه شيخ بنى هاشم فى عصره وعالم المسلمين قائلاً: ونحسب أن رجالاً أتوه من المشرق فمنّوه الخلافة، فإنهم عندك منهم خبرة وتجربة، فإن كان فعل فقد قطع وشائج القرابة، وأنت كبير أهل بيتك والمنظور إليه، فاكففه عن السعى فى الفرقة[4]. ثم كتب بهذه الأبيات إليه وإلى مكة والمدينة من قريش:

---

(١) الطبقات (٧/ ١٤٧)، تاريخ خليفة، ص (١٦٤). (٢) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٤٠).

(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٤٨١).

(٤) تهذيب الكمال (٦/ ٤١٩)، مواقف المعارضة، ص (٢٤٣).

يا أيها الراكب الغادى لطيته	على عُذَافِرةٍ فى سيرها قحم
أبلغ قريشًا على نأى المزار بها	بينى وبين حسين الله والرحم

إلى أن قال:

يا قومنا لا تشبوا الحرب إذ خمدت	وأمسكوا بحبال السلم واعتصموا
لا تركبوا البغى إن البغى مصرعه	وإن شارب كأس البغى يتخم
فقد غرّت الحرب من كان قبلكم	من القرون وقد بادت بها الأمم
فأنصفوا قومكم لا تهلكوا بذخًا	قرب ذى بذخ زلت به القدم[1]

فكتب إليه ابن عباس: إنى لأرجو ألا يكون خروج الحسين لأمر تكرهه، ولست أدع النصيحة له فى كل ما يجمع الله به الألفة وتطفى بها الثائرة[2].

وفى تلك الأثناء كانت الأحداث تتسارع، وذلك بعدما أخذ الشيعة يختلفون على مسلم بن عقيل ويبايعونه، وعندما أحس النعمان بن بشير الأنصارى والى الكوفة بخطورة الوضع قام فخطب فى الناس وقال: اتقوا الله عباد الله ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة، فإن فيها يهلك الرجال، وتسفك الدماء، وتغصب الأموال، وقال: إنى لم أقتل من لم يقاتلنى ، ولا أثب على من لا يثب على، لا أشاتمكم ولا أتحرش بكم، ولا آخذ بالقرف ولا الظنة والتهمة، ولكن إن أبديتم صفحتكم لى، ونكثتم بيعتكم، وخالفتم إمامكم، فوالله الذى لا إله غيره لأضربنكم بسيفى ما ثبت قائمه فى يدى، ولو لم يكن لى منكم ناصر، أما إنى أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل[3].

وأشارت سياسة النعمان بن بشير رضى الله عنه مع أنصار الحسين حفيظة الناصحين للأمويين، وأحد الموالين لهم فى الكوفة وهو عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمى، حليف بنى أمية، فقام إلى النعمان بن بشير وبين له أن طريقته هذه إنما هى طريقة المستضعفين، وأنه يجب عليه أن ينهج سياسة البطش والقوة

(١) البداية والنهاية (١١/٥٠٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/٣٠٤)، مواقف المعارضة، ص (٣٤٤).

(٣) تاريخ الطبرى (٦/٢٧٧) .

حيال المتربصين بأمن الكوفة، ولكن رد النعمان بن بشير رضى الله عنه كان واضحًا بأنه يراقب الله فى سياسته[1].

ولم تعجب يزيد سياسة النعمان فعزله من ولاية الكوفة وعيَّن بدله عبيد الله بن زياد وكتب إليه: إن شيعتى من أهل الكوفة كتبوا إلىّ يخبروننى أن ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع ليشق عصا المسلمين، فسر حين تقرأ كتابى هذا حتى تأتى أهل الكوفة فتطلب ابن عقيل كطلب الخرزة، حتى تثقفه فتوثقه أو تقتله أو تنفيه، والسلام[2]، وغادر ابن زياد البصرة بعد أن اتخذ عدة احتياطات خوفًا من حدوث اضطرابات وأناب عنه أخاه عثمان بن زياد على البصرة[3] ثم خرج من البصرة ومعه وجوه أهل البصرة أمثال مسلم بن عمرو الباهلى، وشريك بن الأعور الحارثى وحشمه وأهل بيته[4]. وأقبل ابن زياد إلى الكوفة ودخلها متلثمًا والناس قد بلغهم إقبال الحسين إليهم، فهم ينظرون قدومه، فظنوا حين قدم عبيد الله أنه الحسين بن على، فأخذ لا يمر على جماعة من الناس إلا سلموا عليه وقالوا: مرحبًا بك يا ابن رسول الله، قدمت خير مقدم، فلما أكثروا عليه صاح فيهم مسلم بن عمرو وقال: تأخروا، هذا الأمير عبيد الله بن زياد، فلما نزل فى القصر نودى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فخرج إليهم ثم خطبهم ووعد من أطاع منهم خيراً وتوعد من خالف وحاول الفتنة منهم شراً[5].

خامسًا: عبيد الله بن زياد وخطواته للقضاء على مسلم بن عقيل وأنصاره:

١ ـ اختراق تنظيم مسلم بن عقيل:

حرص عبيد الله بن زياد على جمع المعلومات بواسطة جواسيسه على الفئات المعارضة واستطاع أن يخترق أتباع مسلم بن عقيل، وقد كلّف أحد رجاله بهذه المهمة فأعطاه مبلغًا من المال، وكان الرجل من أهل الشام يقال له معقلاً وكان مقدار المبلغ ثلاثة آلاف درهم، وقال: خذ هذا المال، وانطلق فالتمس مسلم بن عقيل، وتأتّ له بغاية التأتى[6]، فانطلق الرجل حتى دخل المسجد الأعظم، ثم

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٧٧).

(٢) المصدر نفسه (٦/ ٢٧٨).

(٣)، (٤) المصدر نفسه (٦/ ٢٧٩).

(٥) المصدر نفسه (٦/ ٢٨٠).

(٦) التأتى: التهيّؤ والتسهل.

نظر إلى رجل يكثر الصلاة إلى سارية من سوارى المسجد، فجلس الرجل حتى إذا انفتل[1] من صلاته، فدنا منه وجلس، فقال: جعلت فداك، إنى رجل من أهل الشام مولى لذى الكلاع، وقد أنعم الله علىّ بحب أهل بيت رسول الله ﷺ، وحب من أحبهم، ومعى هذه الثلاثة الآلاف درهم، أحب إيصالها إلى رجل منهم، بلغنى أنه قدم هذا المصر داعية للحسين بن على، فهل تدلنى عليه لأوصل هذا المال إليه ليستعين به على بعض أموره ويضعه حيث أحب من شيعته؟ قال له الرجل: وكيف قصدتنى بالسؤال عن ذلك دون غيرى ممن هو فى المسجد؟! قال: لأنى رأيت عليك سيما[2] الخير فرجوت أن تكون ممن يتولى أهل بيت رسول الله ﷺ. قال له الرجل: ويحك! قد وقعت علىّ بعينك، أنا رجل من إخوانك، واسمى مسلم بن عوسجة، وقد سُرِرت بك وساءنى ما كان من حسى قبلك، فإنى رجل من شيعة أهل هذا البيت، خوفًا من هذا الطاغية ابن زياد، فأعطنى ذمة الله وعهده أن تكتم هذا عن جميع الناس، فأعطاه من ذلك ما أراد، واستطاع الشامى فى نهاية المطاف الوصول إلى مسلم بن عقيل، فكان يغدو إلى مسلم بن عقيل فلا يحجب[3] عنه، فيكون نهاره كله عنده فيتعرّف جميع أخبارهم، فإذا أمسى وأظلم عليه الليل دخل على عبيد الله بن زياد، فأخبره بجميع قصصهم، وما قالوا وما فعلوا فى ذلك، وأعلمه نزول مسلم بن عقيل فى دار هانئ بن عروة[4]. وهكذا استطاع ابن زياد أن يعرف أخبار مسلم بن عقيل وتحركاته[5].

٢ ـ سجن هانئ بن عروة:

كان محمد بن الأشعث وأسماء بن خارجة يدخلان على ابن زياد مُسلّمين، فقال لهما: ما فعل هانئ بن عروة؟ فقالا: أيها الأمير، إنه عليل[6] منذ أيام، فقال ابن زياد: وكيف؟. بلغنى أنه يجلس على باب داره عامّة نهاره، فما يمنعه من إتياننا وما يجب عليه فى حقّ التسليم؟ قالا: سنعلمه ذلك، ونخبره باستبطائك إياه، فخرجا من عنده، وأقبلا حتى دخلا على هانئ بن عُروة، فأخبراه بما قال

(١) انفتل من الصلاة: لوى وجهه أى ختم صلاته. (٢) سيما الخير: سمته وعلامته.
(٣) حجب عنه: منع من رؤيته.
(٤) الأخبار الطوال، ص (٢١٨)، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٨٤).
(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٨٤). (٦) عليل: مريض.

لهما ابن زياد، وما قالا له، ثم قالا له: اقسمنا عليك إلاّ قمت معنا إليه الساعة لَتُسلُ سخيمة[1] قلبه. فدعا ببغلته فركبها ومضى معهما، حتى إذا دنا من قصر الإمارة خبُثت[2] نفسه، فقال لهما: إن قلبى قد أوجس[3] من هذا الرجل خيفة. قالا: ولم تحدث نفسك بالخوف وأنت برىء الساحة؟

فمضى معهما حتى دخلوا على ابن زياد، فأنشأ ابن زياد يقول متمثلاً:

أريد حياته ويريد قتلى عَذيرَك من خَلِيلكَ من مراد

قال هانئ: وما ذاك أيها الأمير؟

قال ابن زياد: وما يكون أعظم من مجيئك بمسلم بن عقيل وإدخالك إياه منزلك، وجمعك له الرجال ليبايعوه؟ فقال هانئ: ما فعلت وما أعرف من هذا شيئًا، فدعا ابن زياد بالشامى، وقال: يا غلام، ادع لى معقلاً. فدخل عليهم. فقال ابن زياد لهانئ بن عروة: أتعرف هذا؟ فلما رآه علم أنه إنما كان عينًا عليهم. فقال هانئ: أصدُقُك والله أيها الأمير، وإنى والله ما دعوت مسلم بن عقيل وما شعرت به، ثم قصّ عليه قصّته على وجهها. ثم قال: فأمّا الآن فأنا مخرجه من دارى لينطلق حيث يشاء، وأعطيك عهدًا وثيقًا أن أرجع إليك. قال ابن زياد: لا والله لا تفارقنى حتى تأتينى به. فقال هانئ: أو يجمل بى أن أسلم ضيفى وجارى للقتل، والله لا أفعل ذلك أبدًا. فاعترضه ابن زياد بالخيزرانة، فضرب وجهه، وهشم[4] أنفه، ، وكسر حاجبه، وأمر به فأدخل بيتًا[5]. فبلغ الخبر عمرو بن الحجاج الزبيدى أن هانئًا قد قتل، فأقبل فى قبيلة مذحج، وأحاط بالقصر، ونادى بأنه لم يخلع الطاعة، وإنما أراد الاطمئنان إلى سلامة هانئ، فأمر ابن زياد القاضى شريح بأن يدخل على هانئ، وينظر إليه ويخبرهم أنه حى. ففعل[6]. فقال لهم سيدهم عمرو بن الحجّاج: أما إذا كان صاحبكم حيًا فما يعجلكم الفتنة؟ انصرفوا، فانصرف.

---

(١) سخيمة القلب: حقده الدفين. (٢) خبثت: صارت خبيثة، أى رديئة ماكرة.

(٣) أوجس خيفة: أحس بالخوف، فزع. (٤) هشم أنفه: حطّمه.

(٥) الأخبار الطوال، ص (٢١٩)، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٨٨).

(٦) الأخبار الطوال، ص (٢١٩).

٣ ـ استخدام ابن زياد للأشراف للقضاء على تمرد الكوفة:

لما بلغ مسلم بن عقيل خبر ضرب وجه هانئ بن عروة، أمر أن ينادى فى أصحابه الذين بايعوه، واستخدم كلمة السر وهى: يا منصور أمت، فتنادى أهل الكوفة فاجتمعوا إليه وكان عدد الذين حضروا أربعة آلاف رجل[١]، فعقد مسلم لعبيد الله بن عمرو بن عزيز الكندى على ربع كندة وربيعة، وأمره أن يسير أمامه بالخيل، ثم عقد لمسلم بن عوسجة الأسدى على ربع مذحج وأسد وأمّره على الرجّالة، وعقد لأبى ثمامة الصائدى على ربع تميم وهمدان، وعقد لعباس بن جعدة الجدلى على ربع المدينة، ثم قدم نحو القصر، ولما بلغ ابن زياد إقباله تحرّز وتمنّع بالقصر[٢]، وكان ابن زياد يملك قدرًا كبيرًا من الدهاء والمكر والخداع، حيث أنه بمجرد دخوله القصر جمع وجوه الكوفة واحتفظ بهم عنده حتى يكونوا وسيلة ضغط مهمة عنده ستثمر عن نتائج إيجابية جدًا لصالح ابن زياد[٣]. وتقدم مسلم بهذه الجموع، صوب قصر الإمارة التى يتحصن بها ابن زياد، وهنا طلب ابن زياد من أشراف الناس وزعماء الكوفة الذين معه أن يعظوا الناس ويخذلوهم ويخوفوهم بقرب أهل الشام، وصار هؤلاء الأمراء والزعماء يثبطون الناس، ويذكرونهم بالسلامة والأمن، وأنهم إن لم ينصرفوا سيحرمون من العطاء، وسيساقون إلى الثغور وسينالهم العقاب الشديد[٤]، ولم يكن التثبيط مقصورًا على الأمراء فقط، بل إن النساء كان لهن دور كبير فى إضعاف عزيمة المناصرين لمسلم، إضافة إلى الآباء وكبار السن فقد كان لهم نفس الدور. وكانت المرأة تأتى أبنها وأخاها وتقول: انصرف، الناس يكفونك، ويجيء الرجل إلى ابنه وأخيه ويقول: غدًا يأتيك أهل الشام فما تصنع بالحرب والشر؟ انصرف[٥]. وأخذت هذه الحرب النفسية التى جوبه بها المؤيدون لمسلم بن عقيل من التهويل والتخويف تعمل عملها بين صفوف الناس، فبدأوا ينصرفون عن مسلم بن عقيل، وأخذ العدد يتضاءل سريعًا حتى أنه لما قرب المساء لم يبق مع مسلم بن عقيل إلا عدد بسيط يتراوح بين الثلاثمائة والخمسمائة رجل[٦]، وكان غالبية الذين بقوا مع مسلم بن عقيل من

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٨٩).
(٢) المصدر نفسه (٦/ ٢٩١).
(٣) مواقف المعارضة، ص (٢٥٥).
(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٩٣).
(٥)، (٦) المصدر نفسه (٦/ ٢٩٣).

مذحج فأمر ابن زياد، عبيد الله بن كثير بن شهاب الحارثى أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج ويسير بالكوفة ويخذل الناس عن ابن عقيل، ويخوفهم بالحرب وعقوبة السلطان[1]، ثم أمر ابن زياد محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة وحضرموت ويرفع راية الأمان لمن يأتيه من الناس، وقال مثل ذلك للقعقاع بن شور الذهلى، وشبث بن ربعى التميمى، وحجار بن أبجر العجلى، وشمر بن ذى الجوشن العامرى، وأبقى سائر وجوه الناس معه[2]، وأمام هذه الإجراءات السريعة من ابن زياد، وأمام الشد النفسى الذى نازع غالبية من انضموا إلى مسلم بن عقيل أخذ هذا العدد يتضاءل حتى وصل إلى ستين رجلاً[3] ، ثم حدثت معركة بين مسلم وأتباعه وبين ابن الأشعث، والقعقاع بن شور، وثبت بن ربعى عند الرحبة، ويبدو أن هذه المعركة لم تدم طويلاً عندما تنبه القعقاع بن شور إلى أن المقاتلين إنما يقاتلون لأجل النجاة، عند ذلك أمر بإفساح الطريق لهم، فهربوا نحو المسجد، ولما أمسى المساء تفرق الناس، وبقى مسلم بن عقيل وحيداً فى طرقات الكوفة[4].

٤ ـ القبض على مسلم بن عقيل وقتله:

أصبح مسلم بن عقيل وحيداً يتردد فى طرق الكوفة، فأتى بيتًا فخرجت إليه امرأة، فقال: اسقنى، فسقته، ثم دخلت، ومكثت ما شاء الله، ثم خرجت، فإذا به على الباب، فقالت: ياهذا، إن مجلسك مجلس ريبة، فقم، فقال: أنا مسلم ابن عقيل، فهل عندك مأوى؟ قالت: نعم فأدخلته، وكان ابنها مولى لمحمد بن الأشعث، فانطلق إلى مولاه فأعلمه، فبعث عبيد الله الشُّرَط إلى مسلم، فخرج وسل سيفه، وقاتل فأعطاه ابن الأشعث أمانًا فسلم نفسه[5]، وفى الطريق نحو ابن زياد بكى مسلم فقيل له: إن من يطلب مثل ما تطلب لا يبكى إذا نزل به مثل الذى نزل بك. قال: إنى والله ما لنفسى أبكى، ومالها من القتل أرثى، وإن كنت لم أحب لها طرفة عين تلفًا، ولكنى أبكى لأهلى المقبلين إلى الكوفة، أبكى حسينًا وآل الحسين. وأقبل مسلم على محمد بن الأشعث فقال: يا عبد الله،

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٩١).

(٢) المصدر نفسه (٦/ ٢٩١).

(٣) مواقف المعارضة، ص (٢٥٧)، الطبقات (٥/ ٣٧٤).

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٩٣).

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ٨-٣٠٣)

إنى -والله- أراك ستعجز عن أمانى، فهل عندك خير تستطيع أن تبعث رجلاً على لسانى يبلغ حسينًا عنى رسالة؟ فإنى لا أراه إلا قد خرج إليكم اليوم أو غدًا هو وأهل بيته، وإن ما تراه من جزعى لذلك، فتقول: إن ابن عقيل بعثنى إليك وهو فى أيدى القوم أسير لا يدرى أيصبح أم يمسى حتى يقتل، وهو يقول لك: ارجع بأهلك ولا يغرنك أهل الكوفة، فإنهم أصحاب أبيك الذى كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل، إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبونى وليس لكاذب رأى. فقال محمد بن الأشعث: والله لأفعلن ولأعلمن ابن زياد أنى قد أمنتك ودعا ابن الأشعث إياس بن العباس الطائى، وقال له: اذهب فالْقَ حسينًا فأبلغه هذا الكتاب، ثم أعطاه راحلة وتكفل له بالقيام بأهله وداره[1]، وأدخل محمد بن الأشعث مسلم بن عقيل على ابن زياد، وأخبره بما أعطاه من الأمان، فقال ابن زياد: ما بعثناك لتؤمنه ولم يقبل أمانه[2]، واستسقى مسلم وهو بباب القصر، فجاءه عمار بن عقبة بماء بارد، ولكنه لم يستطع أن يشرب لما كان يختلط به من دمه، فتركه ودخل على! بن زياد فقال له: إنى قاتلك. قال: كذلك؟ قال: نعم. قال: فدعنى أوصى إلى بعض قومى، قال: أوصِ: فنظر مسلم فى جلسائه وفيهم عمر بن سعد بن أبى وقاص، فقال: عمر، إن بينى وبينك قرابة، ولى إليك حاجة، وهى سر، فقم معى إلى ناحية القصر حتى أقولها لك، فأبى أن يقوم معه حتى أذن له ابن زياد، فقام فتنحى قريبًا من ابن زياد، فقال له مسلم: إن علىَّ دينًا فى الكوفة سبعمائة درهم، فأقضها عنى، واستوهب جثتى من ابن زياد فوارها، وابعث إلى الحسين، فإنى كنت قد كتبت إليه أن الناس معه، ولا أراه إلا مقبلاً، فقام عمر، فعرض على ابن زياد ما قال له، فأجاز ذلك كله، وقال: أما حسين فإنه لم يردنا ولا نرده، وإن أرادنا لم نكف عنه، ثم أمر ابن زياد بمسلم بن عقيل، فأصعد إلى أعلى القصر، وهو يكبر ويهلل ويسبح ويستغفر ويصلى على ملائكة الله ويقول: اللهمّ احكم بيننا وبين قوم غرونا وخذلونا، ثم ضرب عنقه رجل يقال له بكير بن حمران، ثم ألقى رأسه إلى أسفل القصر، وأتبع رأسه بجسده[3].

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٨٨)، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٩٧). (٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٩٨).

(٣) البداية والنهاية (١١/ ٤٩٠).

٥ ـ قتل هانئ بن عروة:

واتخذ ابن زياد إجراءً يدل على قسوته وجبروته وظلمه، فقد أمر بهانئ فأخرج إلى السـوق وقتل وظل هانئ يصـيح لقبـيلته مـذحج ولكن لم ينصره أحـد، ثم صلب هانئ ومسلم فى سوق أمام الناس[(١)]، ثم أمر بضرب أعناق اثنين من الذين كانوا يخططون لنصر مسلم بن عقيل وصلبهما فى السوق أيضًا[(٢)]. وكان فى وسع ابن زياد أن يرسل مـسلم بن عـقيل وهانئ بن عـروة إلى الخليـفة بدمـشق، وربما يسجنان أو يعفى عنهـما فيما بعد بدلاً من إراقة الـدماء وإيجاد الإحن والعداوات بين المسلمين. وقـد برهن ابن زياد على بطش الدولة وعسـفها وأنهـا لا تبالى إلا بالحفاظ على سلطانها مهما كلفها ذلك من سفك الدماء، ويبدو أن مسلمًا ـ رحمه الله ـ لم يكن بالسياسـى المحنك الذى ينظر للمستقبل بحـذر، ويزن الأمور بميزان الوقائع السـابقة ويقيس الأحـداث القائمة على نظيراتـها الماضية، لهـذا غرّه تكاثر المبايعين، وبكاؤهم بين يديـه ووعودهم الموثقة بنصرة الحسين، فـأسرع وكتب إلى الحسين يستقدمـه، ويحثه على سرعة الحضور فقد تمهدت لـه البيعة والحضور[(٣)]. فـالعواطف وحـدها لاتكفى فى قلب الأنظمـة وإزالة الدول، فـلا بد من القيـادة الراشدة، والتنظيم المحكم، والتـخطيط البعيد، وتوثيق الأفـراد، والإعداد المعنوى والمادى معًا جنبًا إلى جنب، ونستطيع أن نقول بأن ما اعـتمد عليه مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة من حـسابات كانت خاطئـة وغير صحـيحة، فقـد ظن مسلم بن عقيل أن العاطفة المحركة لكثير من العامة هى السبيل الوحيد للنصر، ولم يأخذ فى الاعتبار تأييد زعماء الكوفـة أو الاتصال بهم، ولم يحاول مسلم بن عقيل أن ينظم تلك الجموع، وفق اختصاصات معينة تسيطر عليها منظمة سرية تستطيع أن تتحرك فى الخفـاء وبدون قيود، كـما أنه أخفق فى توظيف الإمكـانات التى توافرت له، حيث إن العاطفـة المسيطرة على المجتمع الكوفى كفيلة بأن تقـلب الأمور لصالحه، وذلك بعد إرادة الله، فيمـا لو استخدمت وأرشدت تلك العاطفة إرشادًا صـحيحًا مميزًا، ونجد الطرف الآخر النصـير، -وهو هانئ بن عروة الذى يعد من أبرز الناس

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٩٠)، تاريخ الطبرى (٦/ ٣٠٢).

(٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٠٢).　　(٣) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٢٠٥).

الذين أيدوا مسلمًا وناصـروه - اعتمد على قوة وكثرة قـبيلته، وظن أنه بمنأى عن العقاب، وذلك بـاعتباره زعيـمًا لمراد التى ذكر المؤرخون أنه كـان يركب فى أربعة آلاف دارع وثمانيـة آلاف راجل، وإذا انضاف لهذه القـبيلة أحلافـها من كندة بلغ العدد ثلاثين ألف دارع، سـوى الرجالة[1]، ولكن حسابات هـانئ بن عروة كانت خاسرة، فالناس قـد ضعفت بينهم الروابط القديمة التى تعـتبر فيها القـبيلة محور الارتكاز، وزعيم القبيلة هو القائد المهيمن الذى ينصاع لأوامره الجميع بدون تردد، وكان لتقـسيمات الأرباع فى ولاية زياد بن أبيه أثر فى هذا الضـعف، كما أن نظام العطاء ربط مصالح القبائل بالسلطة الأموية، لقد كانت الحسابات التى ارتكز عليها هانئ والتى اعتمد فيها على القـبيلة قد أثبتت خسارتها[2]، ومما قيل من الشعر فى مقتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة:

فإن كنتِ لا تدرين ما الموت فانظرى ... إلى هانئ فى السُّـوقِ وابن عقـيل

أصابهـما أمر الإمـــام فأصبـحا ... أحـاديث من يسـعى بكل سـبـيل

إلى بطل قـد هَشَّم السيف وجـهه ... وآخـر يَهـوِى من طمـار[3] قتـيل

ترى جسـدًا قـد غيَّـر الموت لـونه ... ونضح دمٍ قـد سـال كلَّ مَـسـيل

فـإن أنـتم لـم تثـأروا بأخـيــكم ... فكونوا بـغـيـا أُرضـيت بـقليل[4]

سادسًا : وصول خبـر مقتل مسلم بن عقيل للحسـين ، وملاقاته طلائع جيش ابن زياد :

خرج الحسـين رضى الله عنه من مكة يوم التروية الموافق لثمـان من ذى الحجة سنة ستين، أدرك والى مكة عـمرو بن سعيد بن الـعاص خطورة الموقف، فأرسل وفدًا إلى الحسين وعلى رأسهم أخوه يحيى بن سعيد بن العاص، فحاولوا أن يثنوه عن عـزمه ولكنه رفض فنادوه: يا حـسين، ألا تـتـقى الله؟! تخـرج عن جمـاعة المسلمين وتفـرق بين هذه الأمة؟ فـردَّ الحسين بقـول الله تعالى: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]. فخرج الحسين

(١) مروج الذهب (٣/٦) .

(٢) مواقف المعارضة، ص (٢٥٩- ٢٦١).

(٣) البداية والنهاية (١١/ ٤٩٠، ٤٩١) . المكان المرتفع .

(٤) المصدر نفسه (١١/ ٤٩١).

متوجهًا إلى العراق فى أهل بيتـه وستين شيخًا من أهل الكوفة[١]. وكتب مروان بن الحكم إلى ابن زياد: أما بعد، فإن الحسين بن على قد توجه إليك، وهو الحسين ابن فاطمـة، وفاطمـة بنت رسول الله ﷺ، وتالله مـا أحد يسلمـه الله أحب إلينا من الحسـين، وإياك أن تهيج على نفسك مـا لا يسده شيء ولا ينساه العـامة، ولا يدع ذكره، والسلام عليك[٢]، وكتب إليه عمرو بن سعـيد بن العاص ينهاه عن التعرض للحسـين ويأمره بأن يكون حذرًا فى تعـامله مع الحسين، قـائلاً له: أما بعد، فـقد توجه إليك الحسين وفى مثلها تعتق أو تعود عبدًا تسترق كما يسترق العبيد[٣]. وفى الطريق إلى الكوفـة قابل الحسـين الفرزدق الشاعـر المشهـور بذات عرق[٤]. فسأله الحسين بن على عن تصوره لما يقوم به أهل الكوفة حياله، ثم أراد أن يعطى الفرزدق إيضاحًا أكثر وقال: هذه كتبهم معى، فرد عليه الفرزدق: يخذلونك فلا تذهب فإنك تأتى قومًـا قلوبهم معك وأيديهم عليك[٥]. وعندما عـلم يزيد بن معـاوية بخروج الحسين من مكة واتجاهه للكوفة، كتب إلى ابن زياد يحذره ويقول: بلغنى أن حسينًا قد سار إلى الـكوفة، وقد ابتلى به زمانك من بين الأزمـان، وبلدك من بين البلاد، وابتليت به من بين العمال، وعندها تعتق أو تعود عبدًا كما تعتبد العبيد[٦].

١ ـ ابن زياد يتخـذ التدابيـر الأمنية: اتخذ ابن زياد بعض التدابـير لكى يحول بين أهل الكوفة وبين الحسين، ويحكم سيطرته على الكوفـة، فقام بجمع المقاتلة وفرق عليهم العطاء حتى يضمن ولاءهم[٧]. ثم بعث الحصين بن تميم الطهوى صاحب شرطته حتى نزل بالقـادسية، وقام بتنظيم الخيل ما بين القادسـية إلى خفضان[٨]، وما بين القادسية إلى القطقطان[٩]، وإلى لعلع[١٠]. ثم أصدر أوامره إلى الحسين

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٩-٣٠)، مواقف المعارضة، ص (٢٦٢).

(٢) الطبقات (٥/ ١٦٧)، تهذيب الكمال (٦/ ٤٢٢)، مواقف المعارضة، ص (٢٦٣).

(٣) تهذيب الكمال (٦/ ٤٢٢)، مواقف المعارضة، ص (٢٦٣).

(٤) ذات عرق على مرحلتين من مكة.

(٥) البداية والنهاية (١١/ ٥١٠).

(٦) مجمع الزوائد (٩/ ١٣٩)، المعجم الكبير (٣/ ١١٥).

(٧) الطبقات (٥/ ٣٧٦)، مواقف المعارضة، ص (٢٦٤).

(٨) خفضان: لعلها خفان: موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج أحيانًا.

(٩) القطقطان: موضع قرب الكوفة، من جهة البرية بالقرب من القادسية.

(١٠) لعلع: منزل بين البصرة والكوفة بينها وبين البصرة عشرون ميلاً.

ابن تيم بأن يقبض على كل من ينكره[1]، ثم أمر ابن زياد بأخذ كل من يجتاز بين واقصة[2] إلى طريق الشام ، إلى طريق البصرة، فلا يترك أحد يلج ولا يخرج[3]، وأراد ابن زياد من الإجراء الأخير قطع الاتصال بين أهل الكوفة وبين الحسين بن على، ومضى الحسين بن على فى طريقه إلى الكوفة ولم يكن يعلم بتلك التغيرات التى حدثت فى الكوفة بعد خروجه من مكة، ولما بلغ الحاجز من بطن الرمة بعث قيس بن مسهر الصيداوى إلى الكوفة وكتب معه إليهم برسالة يخبرهم فيها بقدومه[4]، ولكن الحصين بن تميم قبض على قيس بن مسهر مبعوث الحسين حين وصوله إلى القادسية[5]. ثم بعث به إلى ابن زياد فقتله مباشرة[6]. ثم بعث الحسين مبعوثًا إلى مسلم فوقع فى يد الحصين بن تميم وبعث به إلى ابن زياد فقتله[7]، وكان لتلك الإجراءات الصارمة التى اتخذها ابن زياد أثر كبير على نفوس أتباع الحسين، فهم يرون أن من كان له علاقة بالحسين فإن مصيره القتل وعلى أبشع صوره، فأصبح من يفكر فى نصرة الحسين فإن عليه أن يتصور نهايته على ذلك النحو المؤلم[8]، وكان الحسين رضى الله عنه يحس أن الأمور تسير سيراً غير طبيعى فى الكوفة، خاصة عندما أخبره الأعراب أن أحدًا لا يلج ولا يخرج من الكوفة مطلقًا[9]. واستمر التحذير من بعض رجال القبائل العربية الذين مرّ بهم، وبينوا له ذلك الخطر الذى يقدم عليه، ولكن الحسين كان يدلل على نجاح مهمته بالإشارة إلى ذلك العدد الهائل من أسماء المبايعين التى كانت بحوزته[10]، ولما بلغ الحسين زبالة[11]، -وقيل شراف[12]- جاءه خبر مقتل مسلم بن عقيل

---

(١) أنساب الأشراف (٣/ ١٦٦)، الطبقات (٥/ ٣٧٦) .

(٢) واقصة: منزل بطريق مكة لابن شهاب من طىء وهو دون زبالة بمرحلتين.

(٣) أنساب الأشراف (٣/ ٥٧٣)، مواقف المعارضة، ص (٢٦٥).

(٤) البداية والنهاية (١١/ ٥١٢) .

(٥) تاريخ الطبرى، نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (٢٦٦).

(٦) الطبقات (٥/ ٣٧٦)، أنساب الأشراف (٣/ ١٦٧) .

(٧) أنساب الأشراف (٣/ ١٦٨)، مواقف المعارضة، ص (٢٦٦).

(٨) مواقف المعارضة، ص (٢٦٦).

(٩) أنساب الأشراف (٣/ ١٦٨)، مواقف المعارضة، ص (٢٦٦).

(١٠) الطبقات (٥/ ٣٧١).

(١١) زبالة: منزل معروف بطريق مكة من الكوفة.

(١٢) شراف: بين واقصة والقرعاء على ثمانية أميال من الإحساء.

وهانئ بن عروة وعبد الله بن بقطر، إضافة إلى تخاذل أهل الكوفة عن نصرته[1].
وكان لهذا الخبر المفجع المؤلم وقعه الشديد على الحسين رضى الله عنه، فهؤلاء أقرب الناس إليه قد قتلوا والشيعة فى الكوفة تخاذلوا فى نصرته[2].

٢ ـ الحسين يعطى الإذن لأصحابه بالانصراف: لما بلغ الحسين مقتل ابن عمه مسلم بن عقيل وتخاذل الناس عنه أعلم الحسين من معه بذلك، وقال: من أحب أن ينصرف فلينصرف. فتفرق الناس عنه يمينًا وشمالاً[3]، وقال له بعض من ثبتوا معه: ننشدك الله إلا ما رجعت من مكانك، فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة، بل نتخوف أن يكونوا عليك. فوثب بنو عقيل -إخوة مسلم ـ وقالوا: والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم[4].

٣ ـ ملاقاة الحر بن يزيد التميمى ومعه طلائع جيش الكوفة: انصرف الناس عن الحسين ـ رضى الله عنه ـ فلم يبق معه إلا الذين خرجوا معه من مكة، واستمر فى سيره حتى بلغ شراف، وهناك أمر فتيانه أن يستقوا ويكثروا، ثم سار حتى إذا كان منتصف النهار كبَّر رجل من أصحابه، فقال الحسين: الله أكبر ما كبّرت! قال الرجل: رأيت النخل، فقال رجلان: إن هذا المكان ما رأينا به نخلة قط، فقال الحسين: فما تريانه رأى؟ قالا: نراه رأى هوادى الخيل، فقال الرجل: وأنا -والله- أرى ذلك[5]... وبالفعل كانت طلائع خيل ابن زياد عليها الحر بن يزيد وكان عددها ألف فارس، وقد أدرك الحر بن يزيد الحسين ومن معه قريبًا من شراف. ولما طلب منه الحسين الرجوع منعه وذكر له أنه مأمور بملازمته حتى الكوفة، وقام الحسين وأخرج خرجين مملوءين بالكتب التى تطلب منه القدوم إلى الكوفة، فأنكر الحر والذين معه أى علاقة لهم بهذه الكتب[6]، وهنا رفض الحسين الذهاب مع الحر إلى الكوفة وأصر على ذلك، فاقترح عليه الحر أن يسلك طريقًا يجنبه الكوفة ولا يرجعه إلى المدينة، وذلك من أجل أن يكتب الحر إلى ابن زياد بأمره، وأن يكتب الحسين إلى يزيد بأمره[7]. وبالفعل تياسر الحسين عن طريق العذيب

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٢٢).
(٢) مواقف المعارضة، ص (٢٦٧).
(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٢٣).
(٤) المصدر نفسه (٦/ ٣٢٢).
(٥) المصدر نفسه (٦/ ٣٢٥).
(٦) المصدر نفسه (٦/ ٣٢٧).
(٧) المصدر نفسه (٦/ ٣٢٨).

والقادسية واتجـه شمالاً على طريق الشام[1]. وأخذ الحر يساير الحسين وينصحه بعدم المقـاتلة ويذكّره بالله، وبيّن له أنه إذا قـاتل فسـوف يقتل[2]، وكان الحسين يصلى بالفريقين إذا حضرت الصلاة[3].

٤ ـ ملاقاة عمر بن سعد بن أبى وقاص والمفاوضات: ولما وصل الحسين إلى كربلاء أدركته خيل عمر بن سعد ومعه شمر بن ذى الجوشن، والحصين بن تميم[4]، وكان هذا الجيش الذى يقوده عمر بن سعد مكـونًا من أربعة آلاف مقاتل، وكانت وجهة هذا الجيش فى الأصل إلى الرى لجهـاد الديلم، فلما طلب منه ابن زياد أن يذهب لمقاتلة الحسين رفض عمر بن سعد فى البداية هذا الطلب، ولكن ابن زياد هدده إن لم ينفذ أمره بالعزل وهدم داره وقتله، وأمام هذا الخيار رضى بالموافقة[5].

ولما وصل الحسين كربـلاء أحاطت به الخـيل، ويطلق على المنطقة كلهـا اسم الطف[6]. وبدأ الحسين بن على بالتفاوض مع عـمر بن سعد، وبيّن الحسين أنه لم يأت إلى الكوفـة إلا بطلب من أهلهـا. وأبرز لعمـر بن سعـد الدليل على ذلك، وأشار إلى حقيبتين كبيرتين تضمان أسماء المبايعين والداعين للحسين، وكتب عمر ابن سعـد لابن زياد بما سمعه من الحسين وقال: بسم الله الرحمن الرحـيم، أما بعد، فـإنى حيث نزلت بالحسين بعثت إليـه رسولى، فـسألته عـما أقدمـه وماذا يطلب، فقال: كتب إلىَّ أهل هذه البلاد وأتتنى رسلهم، فسألونى القدوم ففعلت، فأما إذا كرهونى، فبدا لهم غيـر ما أتتنى به رسلهم فأنا منصرف عنهم. فلما قرئ على ابن زياد تمثل قول الشاعر:

الآن إذ علـقت مـــخـــالبنـا به يرجـو النجـاة ولات حـين مناص

ثم كتب ابن زياد لعـمر بن سعـد: بسم الله الرحمن الرحـيم، أما بعد، فـقد بلغنى كتابك، وفهمت ما ذكرت، فاعـرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية وجميع أصحابه، فإذا فعل ذلك رأْينا رأْينا، والسلام. ولما اطلع عمر بن سعد على

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٢٨).
(٢) المصدر نفسه (٦/ ٣٢٩).
(٣) المصدر نفسه (٦/ ٣٢٦).
(٤) أنساب الأشراف (٣/ ١٦٦).
(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٣٥).
(٦) الطف: ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق، وهى بناحية الكوفة.

جواب ابن زياد ساءه ما يحمله الجواب من تعنت وصلف، وعرف أن ابن زياد لا يريد السلامة[1]. رفض الحسين هذا العرض، ثم لما رأى جهامة الموقف وخطورته طلب من عمر بن سعد مقابلته[2]، وعرض عليه عرضًا آخر يتمثل فى إجابته واحدة من ثلاث نقاط[3]:

أ ـ إما أن يتركوه فيرجع من حيث أتى.

ب ـ وإما أن يتركوه ليذهب إلى الشام فيضع يده فى يد يزيد بن معاوية.

جـ ـ وإما أن يسيّروه إلى أى ثغر من ثغور المسلمين فيكون واحدًا منهم، له ما لهم وعليه ما عليهم[4]. وقد أكد الحسين رضى الله عنه موافقته على الذهاب إلى يزيد[5]. وكتب عمر بن سعد إلى ابن زياد بكتاب أظهر فيه أن هذا الموقف المتأزم قد حُلّ، وأن السلام قد أوشك، وما على ابن زياد إلا الموافقة[6]. وبالفعل فقد أوشك ابن زياد أن يوافق ويرسله إلى يزيد، لولا تدخل شمر بن ذى الجوشن - الذى كان جالسًا فى المجلس حين وصول الرسالة- فقد اعترض على رأى ابن زياد فى أن يرسله إلى يزيد، وبيّن لابن زياد أن الأمر الصائب هو أن يطلب من الحسين أن ينزل على حكمه ـ أى ابن زياد ـ حتى يكون هو صاحب الأمر المتحكم فيه[7]. فلما وصل الخبر إلى الحسين رضى الله عنه رفض الطلب، وقال: لا -والله- لا أنزل على حكم عبيد الله بن زياد أبدًا[8]، وقال لأصحابه الذين معه: أنتم فى حل من طاعتى، ولكنهم أصرّوا على مصاحبته والمقاتلة معه: حتى الشهادة[9]، واتخذ ابن زياد إجراءً احترازيًا حين خرج إلى النخيلة[10]، واستعمل على الكوفة عمرو بن حريث، وضبط الجسر، ولم يترك أحدًا يجوزه، خاصة أنه علم أن بعض الأشخاص بدأوا يتسللون من الكوفة إلى الحسين[11].

---

(1) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٣٧).
(2) للمحن لأبى العرب، ص (١٥٤).
(3) المصدر نفسه، ص (١٥٤).
(4) المصدر نفسه، ص (١٥٤).
(5) أنساب الأشراف (٣/ ١٧٣، ٢٢٤) بإسناد صحيح وتوبع عند الطبرى بإسناد صحيح.
(6) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٤٠).
(7) المصدر نفسه (٦/ ٣٤٠، ٣٤١).
(8) حقبة من التاريخ، ص (١٣٢)، تاريخ الطبرى (٦/ ٣٤٢).
(9) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٤٦).
(10) النخيلة: تصغير نخلة ـ موضع قرب الكوفة.
(11) الطبقات (٥/ ٣٧٨).

سابعًا: المعركة الفاصلة؛ استشهاد الحسين رضى الله عنه ومن معه:

فى صباح يوم جمعة من عـام ٦١هـ نظم الحسين رضى الله عنه أصحابه وعزم على القتـال، وكان معـه اثنان وثلاثون فارسًا، وأربعـون راجلاً، فجـعل زهير بن القين فى ميـمنته، وحبيب بن مظاهر فى الميسرة، وأعطى رايتـه العباس بن على، وجـعل البـيوت وراء ظهـورهم، وأمـر الحسن بـحطب وقصب فـجـعله من وراء البيوت، وأشعل فيه النار مخافة أن يأتوهم من خلفهم[١]. وأما عمر بن سعد فقد نظم جيشه، وجعل على الميمنة عـمرو بن الحجاج الزبيدى -بدلاً من الحر بن يزيد الذى انضم إلى الحسين- وجـعل على الميسرة شمـر بن ذى الجوشن، وعلى الخيل عزرة بن قـيس الأحمسى، وعلى الرجال شـبث بن ربعى الرياحى، وأعطى الراية ذويدًا مولاه[٢]. وبدأت المعركـة سريعة، وكـانت مبارزة فى بداية الأمـر، وجوبه جيش عمر بن سعـد بمقاومة شديدة من قبل أصحاب الحسـين، حيث إن مقاتلتهم اتسمت بالفدائية، فلـم يعد لهم أمل فى الحياة[٣]، وكان الحسين رضى الله عنه، فى البداية لم يشترك فى الـقتال، وكان أصحابه يدافعـون عنه ولما قتل أصحابه لم يجرؤ أحد على قتله، وكان جيش عمر بن سعد يتدافعون ويخشى كل فرد أن يبوء بقتله، وتمنوا أن يسـتسلم، ولكن الحسين رضـى الله عنه لم يبد شيئًـا من الليونة، بل كان رضى الله عنه يقاتلهم بشجاعـة نادرة، عندئذ خشى شمر بن ذى الجوشن من انفلات زمام الأمور، فصاح بالجند وأمرهم بقتله، فحملوا عليه، وضربه زرعة بن شريك التـميمى، ثم طعنـه سنان بن أنس النخعى واحتـز رأسه[٤]، ويقال إن الذى قتلـه عمرو بن بطار التـغلبى، وزيد بن رقـادة الحينى[٥]، ويقال إن المـتولى الإجهاز عليـه شمر بن ذى الجوشن الضبى، وحـمل رأسه إلى ابن زياد خولى بن يزيد الأصبحى[٦]، وكان قتله رضى الله عنه فى المحرم فى العاشر منه سنة إحدى وستـين[٧]. وقـتل مع الحسـين رضى الله عنه اثنان وسـبعـون رجلاً، وقـتل من

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٤٩). (٢) المصدر نفسه (٦/ ٢٤٩).

(٣) المصدر نفسه (٦/ ٣٥٠).

(٤)، (٥) تاريخ الطبرى، نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (٢٧٦).

(٦) تاريخ الطبرى (٣٨٥). (٧) المصدر نفسه (٣٢٥).

أصحاب عمر ثمانية وثمانون رجلاً[1]، وبعد إنتهاء المعركـة أمر عمر بن سعد بألا يدخل أحد على نساء الحسين وصبيانه، وألا يتعـرض لهم أحد بسوء[2]، وأرسل عمر بن سعد برأس الحسين ونسائه ومن كان معه من الصبيان إلى ابن زياد[3].

وكان الذين قتلوا مع الحسين رضى الله عنه من آل أبى طالب، فمن أولاد على ابن أبى طالب: الحسين نفسـه، وجعفر والعباس وأبو بكر ومحمـد وعثمان، ومن أولاد الحسين: على الأكبر -غيـر علىّ زين العابدين لأنه كان عنده على الأصغر، وعلى الأكبر وعبد الله-. ومن أبناء الحسن قتل عبد الله والقاسم وأبو بكر. ومن أولاد عقيل قتل جعـفر وعبد الله وعبد الرحمن ومسلم بن عـقيل -قتل بالكوفة- وعبد الله بن مسلم. ومن أولاد عبد الله بن جعـفر: قتل عون ومحمد[4]، ثمانية عشـر رجلاً كلهم من بـيت رسول الله قـد قتلوا فى هذه المعـركة غـير المتكافـئة، والعجيبه أن ممن قتل بين يـدى الحسين بن على رضى الله عنهما: أبو بكر بن على وعثـمان بن عـلى وأبو بكر بن الحسن، ولا تجـد لهم ذكرًا عندمـا تسمع أشـرطة الشيـعة وتقرأ كـتبهم الـتى أُلفت فى مقتل الحـسين حتى لا يـقال إن على بن أبى طالب سمى أولاده بأسمـاء أبى بكر وعمر وعثمـان، أو أن الحسن سمى باسم أبى بكر، وهذا أمر عجـيب جدًا منهم[5]. وعن أنس قال: ولما أُتى عبـيد الله بن زياد برأس الحسـين جعل ينكث بالقـضيب ثناياه يقول: لقـد كان -أحسـبه جمـيلاً-. فقلت: والله لأسـوءنَّك؛ إنى رأيت رسول الله ﷺ يلثم[6] حيث يقع قـضيبك. قال: فانقبض[7]. وفى رواية البخارى عن أنس قال: أتى عبيد الله بن زياد برأس الحسين فجعله فى طست، فجعل ينكث عليـه وقال فى حسنه شيئًا فقال أنس: إنه كان أشبههم برسول الله ﷺ، وكـان مخضوبًا بالوسمة[8]. ولما وصل نساء الحسين وصبـيانه صنع بهم، ابـن زياد أن أمر لهم بمنزل فى مكان مـعتـزل فأجرى علـيهم

(١) الطبقات (٥/ ٣٨٦)، إسناد جمعى، تاريخ الطبرى (٦/ ٣٨٥).
(٢) الطبقات (٥/ ٣٨٥)، مواقف المعارضة، ص (٢٧٧).
(٣) تاريخ الطبرى، نقلاً عن مواقف المعارضة، ص(٢٧٦).
(٤) تاريخ خليفة بن خياط، ص (٢٣٤).
(٥) حقبة من التاريخ، ص (١٣٥، ١٣٦).
(٦) مسند أبى يعلى رقم (٣٩٨١). يلثم: يقبل.
(٧) المصدر نفسه رقم (٣٩٨١).
(٨) البخارى رقم (٣٧٤٨).

الرزق، وأمر لهن بالكسوة والنفقة[1]. وتذكر بعض الروايات التى لها ميول شيعية أن ابن زياد أمر بقتل كل من أنبت، ولعل مما يظهر كذب هذه الروايات -حينما تذكر- أن على بن الحسين كشفوا عنه فوجدوه قد أنبت، فأمر ابن زياد بقتله، ولكن شفاعة أخته زينب وتعلقها به حالت دون قتله[2]، وليس صحيحًا كذلك أن ابن زياد قد أساء معاملة نساء الحسين بعد قتله، أو فى ترحيله لهن إلى الشام، فالروايات التاريخية تخبرنا أن أحسن شيء صنعه ابن زياد أنه أمر لهن بمنزل فى مكان معتزل، وأجرى عليهن رزقًا، وأمر لهن بنفقة وكسوة[3]، ويقول ابن تيمية فى رده على بعض كذابى الشيعة: وأما ما ذكره من سبى نسائه والدوران بهن على البلدان، وحملهن على الجمال بغير أقتاب، فهذا كذب، وباطل، وما سبى المسلمون -ولله الحمد- هاشمية قط، ولا استحلت أمة محمد ﷺ هاشمية قط، ولكن أهل الهوى والجهل يكذبون كثيرًا[4]. بل المرجح أن ابن زياد بعد أن ذهبت عنه نشوة النصر، أحس فداحة خطئه، وكان ذلك الشعور هو المسيطر على بعض أفراد أسرته القريبين منه، فقد كانت أمه تقول له: ويلك! ماذا صنعت، أو ماذا ركبت؟![5].

وكان أخوه عثمان بن زياد يقول: لوددت -والله- أنه ليس من بنى زياد رجل إلا وفى أنفه خزامة إلى يوم القيامة، وأن حسينًا لم يقتل. فلا ينكر عليه عبيد الله قوله[6].

ثامنًا: مواقف رائعة بجانب الحسين رضى الله عنه:

كانت هناك مواقف رائعة هزت مشاعرنا، وقد سطر التاريخ هذه المواقف لأصحابها لكى يتبين للناس أن فى كل زمان شخصيات تقف إلى جوار الرجال تقديرًا لمقامهم، ورعاية لحرمتهم، وإظهارًا للحق فى مقارنة الرجال إذا واجه بعضهم بعضًا، فهم يقدرون الرجال لمكانتهم الاجتماعية ويفضلونهم على غيرهم، لما يتصفون به من العلم والشجاعة والتقوى، ولو كان غيرهم هم الحكام والأمراء، فلا الخوف من الحاكم ينسيهم قدر الرجال، ولا ظلم الحكام ينحرف بهم إلى

---

(١) أنساب الأشراف (٣/٢٢٦) إسناد صحيح.

(٢) أبو العرب، ص (١٥٧)، تاريخ الطبرى (٦/٣٨٨).

(٣) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٣٢٢).

(٤) منهاج السنة (٢/٢٤٩).

(٥) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٣٢٢).

(٦) الكامل فى التاريخ (٢/٥٨٢).

النفاق والمجاملة، ولا المناصب التى يشغلونها تلهيهم عما يجب أن يكونوا عليه من الصراحة والشجاعة الأدبية[1]، ومن هذه المواقف:

١- موقف الوليد بن عتبة بن أبى سفيان رحمه الله: فقد امتنع عن استخدام الشدة والقسوة مع الحسين وإلزامه بالقوة أو قتله وقال: . . . والله ما أحب أن لى ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وأنى قتلت حسينًا، سبحان الله! أقتل حسينًا أن قال: لا أبايع؟! والله إنى لأظن امرأً يحاسب بدم حسين لخفيف الميزان عند الله يوم القيامة[2]. وهكذا يقف الوليد هذا الموقف الرائع، وهو أمير المدينة يومئذ، وهو يعلم تمامًا أن ذلك الموقف سيؤدى -لا محالة- إلى عزله عن إمارة المدينة، بل قد يزيد على ذلك، فيؤدى إلى قتله وهلاكه، وهو مع هذا يفضل هلاك الدنيا وزوال الملك والسلطان، على أن يلقى الله بدم الحسين[3] ـ رضى الله عنه ـ.

٢- موقف النعمان بن بشير ـ رضى الله عنه ـ: وكان أمير الكوفة؛ فإنه بلغه خروج الحسين بن على رضى الله عنهما ـ ووصول مسلم بن عقيل إلى الكوفة يأخذ البيعة للحسين، قام فخطب فى الناس وحذرهم الخروج على الإمام وأرهبهم من السعى فى الفتنة، وذكرهم بما يجره على العامة والخاصة من الخراب والدمار، ومع ذلك كان لينًا مع الناس، وأخبرهم أنه لن يأخذ أحدًا بظنه، ولن يقاتل أحدًا لم يقاتله، ولكن شدد فى نهاية الخطبة، وقال للناس: ولكنكم إن أبديتم صفحتكم لى، ونكثتم بيعتكم، وخالفتم إمامكم، فوالله الذى لا إله غيره، لأضربنكم بسيفى ما ثبت قائمه بيدى، ولو لم يكن لى منكم ناصر. ومع هذا فقد عاب عليه محبو الأمويين هذا الموقف ووسموه بالضعف، وقالوا: إن هذا الذى أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأى المستضعفين، فقال رضى الله عنه: أن أكون من المستضعفين فى طاعة الله، أحبَّ إلى من أن أكون من الأعزِّين فى معصية الله[4].

إن رضا الله ـ تبارك وتعالى ـ غاية يضحى المسلم فى سبيلها بكل غاية، ويبذل فى سبيل الحصول عليها كل غالٍ ونفيس، فرضوان الله هو النعمة العظمى التى

---

(١) الأمويون بين الشرق والغرب (٢٤٩/١).
(٢) تاريخ الطبرى (٢٥٩/٦).
(٣) الأمويون بين الشرق والغرب (٢٤٩/١).
(٤) تاريخ الطبرى (٢٧٧/٦).

سيتجلى الله بهـا على عباده المؤمنين فى الجنة[1]، يقول الحق -عز وجل-: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

٣ ـ موقف الحر بن يزيد رحمه الله: وهو أول من لقى الحسين فى جيش الكوفة، وهو الذى حـال بينه وبين الرجـوع إلى المكان الذى أتى منه، ولكنه مع ذلك كـان نبيلاً فى مـعاملته للحسـين ـ رضى الله عنه ـ؛ فقد قال له: أنا لم أؤمـر بقتالك، ولكنى أمرت أن أخرج بك إلى الكوفة إن وجدتك، ولكنى أقول لك: اختر مكانًا لا يؤدى بك إلى الكوفة ولا يعود بك إلى المدينة، ثم اكتب بعد ذلك إلى يزيد بن معاوية أو إلى ابن زياد إن شئت. ولم يكد يصل الجيش وعلى رأسه عمر بن سعد ابن أبى وقـاص، وتواجه كلا الـفريقين، وتـأكد الُحرّ أن الحـرب دائرة بينهـما لا محـالة، قال الحـر لعمـر بن سعد: أصلحك الـله! أمقاتل أنت هـذا الرجل؟ قال عمر: إى والله قـتالاً أيسره أن تسقط الرءوس وتطيح الأيـدى. عندئذ ضرب الحر فرسه، وانـطلق به نحو الحسين، وانضم إلى جـماعته، ثم قـال: يا أهل الكوفة، لأمكم الهَبل، أدعوتم الحسين إليكم حتى إذا أتاكم أسلمتموه، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه، ثم عـدوتم عليه لتقـتلوه، ومنعتمـوه التوجه فى بلاد الله العـريضة الوسيـعة التى لا يمنع فـيهـا الكلب والخنزير وحلتم بينه وبين الماء الفـرات الجارى الذى يشرب منه الكلب والخنزير، وقد صرعهم العطش؟! بـئس ما خلفتم محمداً فى ذريته، لا أسقاكم الله يوم الـظمأ الأكبر إن لم تتوبوا وتتراجعـوا عما أنتم عليه من يومكم هذا، فى ساعتكم هذه. واعتذر الحر عن موقفه الأول من الحسين وقبل الحسين عذره، فلما لامه بعض أصـحابه على الذهاب إلى الحسين قال: والله إنى لأخـيـر نفسـى بين الجنة والنار، ووالله لا أختـار على الجنة غـيـرها ولو قطعت وحرّقت[2].

إن الحر بن يزيد ـ رحمه الله ـ غيَّر موقفه من الحسين ـ رضى الله عنه ـ بعد أن جنح الحسـين إلى السلم، ورأى أن موقـفه ضده ليـس فيه إنصـاف ولا عدل، إذ كيف يقـاتل رجلاً يدعـو إلى السلم، ويطلبه، ويمـد يده إلى عدوه ليصـالحه، إن

---

(١) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٢٥٠).
(٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٥٥، ٣٥٦).

الرجولة تقتضى أن يكون الموقف مع هذا المسالم موقف العون وشد الأزر، وإن العقل يحكم بأن الحق مع من يطلب السلم وينشده، والحر يعلم أن الوقوف مع الحسين والميل إليه ليس له معنى إلا الموت، ولكنه اختار الموت الذى يوصل إلى الجنة[1]، ومما قيل فى الحر بن يزيد التميمى من شعر ما قاله جعفر بن عفان الطائى:

ولم يك فيهم رجل رشيد   سوى الحر التميمى الرشيد
فواحزناه إن بنى علىّ   وفاطم قد أبيدوا بالحديد[2]

٤ ـ موقف النّوار بنت مالك الحضرمية: وهى امرأة خولىّ بن يزيد الذى بعثه عمر ابن سعد برأس الحسين إلى عبيد الله بن زياد، فلما بلغ خولى الكوفة قصد القصر، فوجد بابه مغلقًا، فتوجه بالرأس الشريف إلى بيته، فوضعه هناك تحت إجانة ـ والإجانة إناء تغسل فيه الثياب ـ ثم دخل على زوجته، وأوى إلى فراشه فقالت له زوجته: ما الخبر عندك؟

قال: جئتك بغنى الدهر، هذا رأس الحسين معك فى الدار، فقالت: ويلك! جاء الناس بالذهب والفضة، وجئت برأس ابن رسول الله ﷺ! لا والله لا يجمع رأسى ورأسك بيت[3] أبدًا. هذه امرأة انتظرت زوجها طويلاً، ولكن زوجها جاءها بما عكر عليها صفوها، وكدر عليها حياتها، وأفسد عليها انتظارها الطويل، لقد كانت ترجو أن يعود إليها زوجها بأخبار سارة تشرح صدرها، وتملأ عليها نفسها سرورًا، نعم إن عودة زوجها إليها سالمًا هى أحسن خبر يحمله لها، ولكنه لم يعد إليها خالى الوفاض من الذهب والفضة اللذين يعود بهما المحاربون عادة فقط، ولو كان الأمر كذلك لسُرّت بعودته، وسلامته، ولكنه حمل إليها رأس الحسين ابن رسول الله ﷺ، ثم إنه يبلغها الخبر بفرحة تدل على رضاه وسروره، أفتفرح هى بذلك؟ إنه لو جاءها بالخبر دون أن يكون مصحوبًا بالرأس كان ذلك كفيلاً بزيادة حزنها وأسفها، فكيف وهو يحدثها بالخبر مقرونًا برأس الحسين ـ رضى الله عنه ـ إن كل مؤمن يحزنه الخبر، ويهدّ نفسه سماعه، لهذا غادرت النوار فراش زوجها، وأقسمت ألا تجتمع معه فى بيت أبدًا[4].

(١) الأمويون للوكيل (١/ ٢٥٢).
(٢) كتاب المحن، ص (١٥٧).
(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٨٥).
(٤) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٢٥٣).

تاسعًا: موقف يزيد من قتل الحسين، ومن أبناء الحسين وذريته:

كتب عبيد الله بن زياد إلى يزيد بن معاوية يخبره بما حدث، ويستشيره في شأن أبناء الحسين ونسائه، فلما بلغ الخبر يزيد بن معاوية بكى وقال: كنت أرضى من طاعتكم - أي أهل العراق - بدون قتل الحسين، كذلك عاقبة البغي والعقوق، لعن الله ابن مرجانة، لقد وجده بعيد الرحم منه، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه، فرحم الله الحسين[1]، وفي رواية أنه قال: . . . أما والله لو كنت صاحبه، ثم لم أقدر على دفع القتل عنه إلا ببعض عمري لأحببت أن أدفعه عنه[2]، فجاء رد يزيد على ابن زياد يأمره بإرسال الأسارى إليه، وبادر ذكوان أبو خالد فأعطاهم عشرة آلاف درهم فتجهزوا بها[3]، ومن هنا يعلم أن ابن زياد لم يحمل آل الحسين بشكل مؤلم أو أنه حملهم مغللين، كما ورد في بعض الروايات[4]، وقد مر معنا كيف أن ابن زياد قد أمر للأسارى بمنزل متعزل وأجرى عليهم الرزق والنفقة وكساهم[5].

وتذكر رواية عوانة أن محفز بن ثعلبة هو الذي قدم بأبناء الحسين على يزيد[6]، ولما دخل أبناء الحسين على يزيد قالت فاطمة بنت الحسين: يا يزيد، أبنات رسول الله ﷺ سبايا؟! قال: بل حرائر، كراما، ادخلي على بنات عمك تجديهن قد فعلن ما فعلت. قالت فاطمة: فدخلت إليهن فما وجدت فيهن سفيانية إلا ملتزمة تبكي[7]. وعندما دخل علي بن الحسين قال يزيد: إن أباك قطع رحمي وظلمني فصنع الله به ما رأيت - وكان علي بن الحسين لم يشترك في معركة كربلاء بسبب المرض الذي كان ملازمه، وكان أثناء احتدام المعركة طريح الفراش فحمل إلى ابن زياد مع بقية الصبيان والنساء[8]- فرد علي بن الحسين على يزيد: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

(١) أنساب الأشراف بسند حسن (٣/ ٢١٩، ٢٢٠)، مواقف المعارضة، ص (٢٨٢).
(٢) الأباطيل والمناكير (١/ ٢٦٥) للجوزجاني بسند كل رجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعًا بين الشعبي والمدائني.
(٣) الطبقات (٥/ ٣٩٣)، مواقف المعارضة، ص (٢٨٢).
(٤) المحن، ص (١٥٥)، مواقف المعارضة، ص (٢٨٢).
(٥) مواقف المعارضة، ص (٢٨٣).
(٦) تاريخ الطبري (٦/ ٣٩٤).
(٧) المصدر نفسه (٦/ ٣٩٥).
(٨) الطبقات (٥/ ٢١١)، مواقف المعارضة، ص (٢٧٨).

[الحديد: ٢٢]. ثم طلب يزيد من ابنه خالد أن يجيبه، فلم يدر خالد ما يقول، فقال يزيد: قل له: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]

وتحاول بعض الروايات -ذات النزعات والميول الشيعية- أن تصور أبناء الحسين وبناته وكأنهن في مزاد علني، جعل أحد أهل الشام يطلب من يزيد أن يعطيه إحدى بنات الحسين[١]. فهذا من الكذب البين الذي لم يدعمه سند صحيح، ثم أنها مغايرة لما ثبت من إكرام يزيد لآل الحسين، ثم إن يزيد لم يستعرض النساء ويجعلهن عرضة للجمهور من أراد فليختر من يشاء[٢]. وأرسل يزيد إلى كل امرأة من الهاشميات يسأل عن كل ما أخذ منهن، وكل امرأة تدعي شيئًا -بالغًا ما بلغ- ضاعفه لها في العطية[٣]، وكان يزيد لا يتغدى ولا يتعشى إلا دعا عليًّ بن الحسين[٤]. وذُكر أن رأس الحسين أرسل إلى يزيد، فهذا لم يثبت، بل إن رأس الحسين بقي عند عبيد الله في الكوفة[٥].

عاشرًا: رجوع أهل الحسين وأبنائه إلى المدينة:

بعث يزيد إلى المدينة فقدم عليه ذوو السن من موالي بني هاشم ومن موالي بني علي[٦]، وبعد أن وصل الموالي أمر يزيد بنساء الحسين وبناته أن يتجهزن، وأعطاهن كل ما طلبن، حتى لم يدع لهم حاجة بالمدينة إلا أمر بها[٧]، ثم أمر النعمان بن بشير أن يقوم بتجهيزهم[٨]، وقبل أن يغادروا قال يزيد لعلي بن الحسين: إن أحببت أن تقيم عندنا فتصل رحمك وتعرف لك حقك فعلت[٩]. ولكن علي بن الحسين قد اختار الرجوع إلى المدينة، وأكرم أبناء الحسين وخيّرهم

---

(١) تاريخ الطبري (٦/ ٣٩٢) رواية أبي مخنف.

(٢) البدء والتاريخ (٦/ ١٢)، وقال المؤلف: أن للروافض في هذه القصة من الزيادات والتهاويل شيئًا غير قليل.

(٣) الطبقات (٥/ ٣٩٧)، تاريخ الطبري (٦/ ٣٩٥).

(٤) الطبقات (٥/ ٣٩٧).

(٥) حقبة من التاريخ، ص (١٤١).

(٦) الطبقات (٥/ ٣٩٧).

(٧) المصدر السابق (٥/ ٣٩٧)، تاريخ الطبري (٦/ ٣٩٣).

(٨) تاريخ الطبري (٦/ ٣٩٢).

(٩) المصدر نفسه (٦/ ٣٩٣)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٨٦).

بين المقـــام عنده والذهاب إلى المدينـة فـاختـاروا الرجـوع إلى المدينة[1]، وعند مـغادرتهم دمـشق كرّر يـزيد الاعتـذار إلى على بن الحـسين وقـال: لعن الله ابن مرجانة، أما والله لو أنى صـاحبه -أى الحسين- ما سألنى خـصلة أبدًا إلا أعطيتها إياه، ولدفـعت الحتف عنه بكل مـا استطعت ولو بهـلاك بعض ولدى، ولكن الله قضى ما رأيت، كاتبنى بكل حاجة تكون لك[2].

وأمر يزيد بأن يرافق ذرية الحسين وفـد من موالى بنى سفيان[3]، وكان عددهم ثلاثين فارسًـا، وأمر المصـاحبين لهم أن ينزلوا حـيث شاءوا ومـتى شاءوا، وبعث مـعهم أيضًـا محـرز بن حريث الكلـبى ورجلاً من بهـرا، وكانا من أفـاضل أهل الشام[4] وخرج آل الحـسين من دمشق محفوفـين بأسباب الاحترام والتـقدير حتى وصلوا إلى المدينة[5]. قال ابن كثـير فى يزيد: وأكرم آل بيت الحسـين ورد عليهم جميع ما فقد لهم وأضعفـه، وردهم إلى المدينة فى محامل وأبهة عظيمة، وقد ناح أهله على الحسين[6].

الحادى عشر: من المسئول عن قتل الحسين رضى الله عنه؟:

إن المسئول عن قتل الحسين أطراف متعددة منها:

١ ـ أهل الكوفة: إن أهل الكوفة هم الذين كاتبوا الحسين بن على وهو فى المدينة ومنّوه بالخروج حـتى خرج إليهم بالرغم من تحـذيرات الصحابة له بعـدم الخروج، ولما عين ابن زياد أميـرًا على الكوفة تأخر الناس عن نصرة الحـسين وعن تأييده بل وانخرطوا فى الجـيش الذى حاربه وقتله، ولذا عـبّر الحافظ ابن حجـر عن موقف أهل الكوفة من الحسين بقوله: فخُذِل غـالب الناس عنه فتأخروا رغبة ورهبة، ولما تقابل الحسين ومن معه مع جند الكوفة نادى الحسين زعماء أهل الكوفة قائلاً لهم: يا شـبث بن ربعى، وياحـجـار بن أبجـر، ويـا قيـس بن الأشـعث، ويا يزيد بن الحارث، ألـم تكتـبوا إلى أنه قد أينعت الثـمار، واخضر الجناب، وطمت الجـمام،

---

(١) منهاج السنة (٤/٥٥٩). (٢) تاريخ الطبرى (٦/٣٩٣).

(٣) الطبقات (٥/٣٩٧)، مواقف المعارضة، ص (٢٨٦).

(٤) الحجة فى بيان المحجة (٢/٥٢٥، ٥٢٦)، مواقف المعارضة، ص (٢٨٦).

(٥) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (٢٨٦).

(٦) البداية والنهاية، نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (٢/٢٨٧)..

وإنما تقدم على جند لك مجند، فأقبل؟ قالوا: لم نفعل، فقال: سبحان الله! بلى -والله- لقد فعلتم، ثم قال: أيها الناس، إذا كرهتمونى فدعونى أنصرف عنكم إلى مأمنى[1]. وبالنظر إلى أقوال الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فإن الاتهام موجه إلى أهل العراق، وذلك فى المسئولية المتعلقة بقتل الحسين رضى الله عنه، فهذه أم سلمة رضى الله عنها لما جاء نعى الحسين بن على لعنت أهل العراق وقالت: قتلوه قتلهم الله عز وجل غروه ودلوه لعنهم الله[2]. وابن عمر رضى الله عنهما يقول لوفد من أهل العراق حينما سألوه عن دم البعوض فى الإحرام: عجبًا لكم يا أهل العراق، تقتلون ابن بنت رسول الله ﷺ وتسألون عن دم البعوض[3].

ويقول البغدادى فى كتابه «الفرق بين الفرق»: روافض الكوفة موصوفون بالغدر والبخل، وقد سار المثل بهم فيها، حتى قيل: أبخل من كوفى، وأغدر من كوفى، والمشهور من غدرهم ثلاثة أمور هى:

أ- بعد مقتل على رضى الله عنه، بايعوا الحسن، وغدروا به فى ساباط المدائن، فطعنه سنان الجعفى.

ب- كاتبوا الحسين رضى الله عنه، ودعوه إلى الكوفة لينصروه على يزيد، فاغترَّ بهم، وخرج إليهم، فلما بلغ كربلاء غدروا به وصاروا مع عبيد الله يدًا واحدة عليه. حتى قتل الحسين وأكثر عشيرته بكربلاء.

جـ- غدرهم بزيد بن على بن الحسين، نكثوا بيعته، وأسلموه عند اشتداد القتال[4].

إن جزءًا كبيرًا من المسئولية يقع على أهل الكوفة، الذين جبنوا ونقضوا عهودهم.

٢ ـ عبيد الله بن زياد: استمد عبيد الله جبروته وبطشه بالمعارضين من موافقة الخليفة يزيد بن معاوية، فعندما أقدم على قتل مسلم بن عقيل النائب الأول عن الحسين بالكوفة، وداعيته هانئ بن عروة الزعيم لقبيلة مراد المشهورة، استحسن

---

(١) أنساب الأشراف (٣/ ٢٢٧)، مواقف المعارضة، ص (٢٨٨).

(٢) فضائل الصحابة (٢/ ٧٨٢) بإسناد حسن.

(٣) مسند أحمد رقم (٥٥٦٨)، إسناده صحيح.

(٤) الفرق بين الفرق، ص (٣٧).

يزيد هذا الفعل ولم يعترض عليه، بل إنه لم يخف إعجابه به وببطشه وعسفه، فقد قال في ردّه على رسالته: أما بعد، فإنك لم تعد أن كنت كما أحببت، عملت عمل الحازم، وصلت صولة الشجاع الرابط الجأش، فقد أغنيت وكفيت، وصدقت ظني بك، ورأيي فيك[1]. . فهذا التشيع دفع ابن زياد للشر أكثر، خصوصًا أن نفسه كانت ميالة للشر بطبيعتها، متطلعة إلى الغلو في مسيرتها، متعطشة إلى الدماء في سلطانها، وإلا فماذا كان عليه لو أنه نهر شمر وعنفه وردعه على قوله، واستمر في قبول خطة السلم التي عرضها الحسين رضي الله عنه. إن النفوس الدنية التي ارتفعت بعد انحطاط، وعزت بعد ذل، وتمكنت بعد حرمان، يعزّ عليها أن ترى الشرفاء الأمجاد، يتمتعون باحترام الناس وتقديرهم؛ فتحاول أن تضع من مكانتهم، وتحط من منزلتهم إشباعًا لعقدة النقص التي تطاردهم في حياتهم، ولم يكن ابن زياد إلا واحدًا من أصحاب هذه النفوس الدنية، فمن ابن زياد هذا ـ مهما كانت منزلته ـ إذا قورن بالحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ؟! لهذا رفض الحسين أن يضع يده في يد ابن زياد، وقال: لا أعطيهم بيدي إعطاء العبد الذليل، وقال عمر بن سعد لما وصله كتاب ابن زياد: لا يستسلم -والله- الحسين، إن نفسًا أبية لبين جنبيه[2]، لقد كان عبيد الله بن زياد واليًا ظالمًا قبيح السريرة، وهو الذي دخل عليه عائذ بن عمرو المزني، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال لعبيد الله: أي بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن شر الرِّعاء الحُطمة»، فإياك أن تكون منهم، فقال له: اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ، فقال: هل كانت لهم نخالة[3]؟ إنما كانت النخالة بعدهم، وفي غيرهم[4].

لقد كان يتوجب على ابن زياد أن يلبي مطالب الحسين، وأن يتركه يذهب إلى يزيد، أو أي مكان آخر، خاصة أنه لن يدخل الكوفة[5]، وقد قال ابن الصلاح في فتاويه: والمحفوظ أن الآمر بقتاله المفضي إلى قتله إنما هو ابن زياد[6]،وقال يوسف العشي: وينبغي لنا أن نقول إن المسئول عن قتل الحسين هو أولاً شمر، وثانيًا عبيد

---

(1) تاريخ الطبري، نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (٢٩٣).
(2) تاريخ الطبري (٦/ ٣٤٢).
(3) نخالة: ما بقي في المنخل مما ينخل.
(4) البخاري رقم (٧١٥٠).
(5) مواقف المعارضة، ص (٢٩٧).
(6) القيد الشريد ورقة ١٣، مواقف المعارضة، ص (٢٩٥).

الله بن زياد[1]. والصحيح أن المسئولية الأولى والإثم الأكبر فى هذه المذبحة تقع على عاتق ابن زياد، لأنه مدبر هذا الأمر كله وهو الذى رفض عروض الحسين، والتاريخ يستنكر كل ما فعله، ويذمه أشد الذم، ويدمغه بالبغى والطغيان[2]. ويقول الذهبى فى نهاية ترجمة عبيد الله: الشيعى لا يطيب عيشه حتى يلعن هذا ودونه، ونحن نبغضهم فى الله، ونبرأ منهم، ولا نلعنهم، وأمرهم إلى الله[3].

٣ ـ عمر بن سعد بن أبى وقاص قائد الجيش: ومن المسئولين عن قتل الحسين رضى الله عنه قائد جيشه عمر بن سعد بن أبى وقاص، وبئس الخلف للسلف أو الابن لأبيه ثم الجنود الذين نفذوا أوامرهم فى غير رحمة، وكان لهم مندوحة أن ينأوا عن ذلك، أو ينضموا إلى جانب الحسين، كما فعل الحر بن يزيد التميمى القائد الأول الذى أرسله ابن زياد، ثم رأى أن ابن زياد وصحبه اعتدوا وطغوا حين رفضوا عروض الحسين المنصفة، فتحول إلى معسكر الحسين وقاتل معه حتى قتل شهيداً[4].

إن عمر بن سعد لم يخرج ابتداءً لقتال الحسين، ولكنه كان خارجًا لقتال الديلم فى أربعة آلاف مقاتل، فلما بلغ ابن زياد أمر الحسين سيَّره إليه، وقال له: قاتل حسينًا فإذا انتهيت فانصرف إلى الديلم، وكان قد ولاه إمارة الرَّىّ ـ واستعفى عمر ابن زياد من قتال الحسين، ولكن ابن زياد هدده بخلعه عن إمارة الرّى فتراجع عمر، وقال له: حتى أنظر، وأخذ يستشير الناس، وكلهم نصحوه بعدم الخروج إلى الحسين، وقال له ابن أخته ـ حمزة بن المغيرة بن شعبة ـ: أنشدك الله يا خال ألا تسير إلى الحسين فتأثم بربك، وتقطع رحمك، فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كلها لو كان لك، خير لك من أن تلقى الله بدم الحسين[5]. فقال عمر بن سعد: فإنى أفعل إن شاء الله، وبرغم نصح الناصحين، وترهيب المرهبين، فإن نفس ابن سعد كانت متعلقة بالدنيا وحب الإمارة، ومشغولة بالمنصب وتقلد الإدارة.. والحق يقال: إنه اجتهد فى محاولة إيجاد مخرج يبتعد منه عن قتال الحسين ومن معه، ولكنه لم يوفق فى شىء.

---

(١) الدولة الأموية، ص (١٧٢).

(٢)، (٣)، (٤) عبد الملك بن مروان والدولة الأموية، ص (١٠٥).

(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٣٥).

إن النفـوس المتطلعة إلى الدنيـا، تنسى فى سـبيلهـا شهـامة الرجـال، ومروءة الكرام، بل تنسى مـا هو أعظم من ذلك: موقفـها بين يدى الله عـز وجل، وأنها ستحاسب على كـل عمل تعـمله، بل تنسى بديهيـات الأمور، حـيث تنسى فناء الدنيا، وزوال المنصب، وضيـاع الجاه والسلطان، لقد كان عمـر بن سعد فى غنى عن أن يقـرن اسمـه بأسـماء الخـونة الغـادرين، وأن يسـجل فى سجـل المعتـدين الآثمين، لو أنه ضـحى بالمنصب، وقبل طاعـة الله ورسوله، ولو أنه فعل مـا فاته شيء مما كتب له من متاع الدنيا، ولكان عند الله من الأبرار الصالحين[1].

٤ ـ يزيد بن مـعاوية: وأما يزيد، فظاهر الأمـر أنه كره قتل الحـسين ـ رضى الله عنه ـ وحاول أن يمنعه من الخروج، فكتب إلى ابن عباس، يسأله أن يكف الحسين عن الخروج، وحـين وضع الرأس الشريف بين يـديه قال: لعن الله ابن مـرجانة، كنت أرضى من طاعـتكم بدون قتل الحـسين، أمـا والله لو أنى صاحـبه لعـفوت عنه[2]. وهذا البكاء على الحـسين، وسب ابن مرجـانة، لا يرفع اللوم عن يزيد، ولا يخليه من تبعة قتل الحسين وأصحابه، ذلك لأنه كان قادرًا على أن يوجه أوامر صريحة لابـن زياد بعدم قتل الحسـين رضى الله عنه، والتصرف معـه بكل حكمة وتعقل، حفظًا لرحمه وقرابته من رسول الله ﷺ ومكانته فى قلوب المسلمين[3].

إن تحمل يزيد لمسئولية قتل الحسين ـ رضى الله عنه ـ قائمة، كيف وقد قتل فى خلافته وعلى أرض تسيطر عليها جيـوشه، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحمّل نفســه مسئولية بغلة عثرت فى الـعراق أو فى الشام، لم يسو لها الطريق، فكيف إذا كان القتلة هم جند أمير المؤمنين[4]؟ إن مقتل الحسين رضى الله عنه سيظل وصمة عار ونقطة سوداء فى عهد يزيد بن معاوية بن أبى سفيان.

الثاني عشر: أقوال الناس فى يزيد، وهل يجوز لعنه؟

افتـرق الناس فى يزيد بن معـاوية بن أبى سفـيان ثلاث فـرق: طرفان ووسط، فأحد الطرفين قالوا: إنه كان كافرًا منافقًا، وأنه سعى فى قتل سبط رسول الله ﷺ تشفيًا من رسول الله ﷺ، وانـتقامًا منه، وأخذًا بثأر جده عتبـة وأخى جده شيبة،

(١) الأمويون بين المشرق والمغرب (١/ ٢٤٤).

(٢) أنساب الأشراف (٣/ ٢١٩، ٢٢٠)، سند حسن.

(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٤٧٨).

(٤) الأمويون بين المشرق والمغرب (١/ ٢٤٥).

وخاله الوليد بن عتبة، وغيرهم ممن قتلهم أصحاب النبى ﷺ بيد على بن أبى طالب وغيره يوم بدر، وقالوا: تلك أحقاد بدرية، وآثار جاهلية وأنشدوا عنه:

لما بدت تلك الحمول وأشرفت تلك الرءوس على ربى جيرونى

نعق الغراب، فقلت: نُحْ أو لا تنح فلقد قضيت من النبى ديونى

وقالوا: إنه تمثل بشعر ابن الزبعرى الذى أنشده يوم أحد:

ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

قد قتلنا الكثير من أشياخهم وعدلناه ببدر فاعتدل[1]

وأشياء من هذا النمط، وهذا القول سهل على الرافضة الذين يكفرون أبا بكر، وعمر، وعثمان، فتكفير يزيد أسهل.

والطرف الثانى: يظنون أنه كان رجلاً صالحًا وإمام عدل، وأنه كان من الصحابة الذين ولدوا على عهد النبى ﷺ، وحمله على يديه وبرّك عليه، وربما فضله بعضهم على أبى بكر وعمر، وربما جعله بعضهم نبيًا، ويقولون عن الشيخ عدى أو حسن المقتول ـ كذبًا عليه ـ إن سبعين وليًا صرفت وجوههم عن القبلة لتوقفهم فى يزيد، وهذا قول غالية العدوية ونحوهم من الضّلال، فإن الشيخ عديًا كان من بنى أمية وكان رجلاً صالحًا عابدًا فاضلاً، ولم يحفظ عنه أنه دعاهم إلا إلى السنة التى يقولها غيره كالشيخ أبى الفرج المقدسى، فإن عقيدته موافقة لعقيدته، لكن زادوا فى السنة أشياء كذب وضلال، من الأحاديث الموضوعة، والتشبيه الباطل، والغلو فى الشيخ عدى وفى يزيد، والغلو فى ذم الرافضة، بأنه لا تقبل لهم توبة وأشياء أخر. وكلا القولين ظاهر البطلان عند من له أدنى عقل وعلم بالأمور وسير المتقدمين، ولهذا لا ينسب إلى أحد من أهل العلم المعروفين بالسنة، ولا إلى ذى عقل من العقلاء الذين لهم رأى وخبرة[2].

والقول الثالث: أنه كان ملكًا من ملوك المسلمين، له حسنات وسيئات، ولم يكن كافرًا، ولكن جرى بسببه ما جرى من مصرع الحسين، وفعل ما فعل بأهل الحرة، ولم يكن صاحبًا ولا من أولياء الله الصالحين، وهذا قول عامة أهل العقل

---

(١) الفتاوى (٤/ ٢٩٤). (٢) المصدر نفسه (٤/ ٢٩٥).

والعلم والسنة والجماعة. ثم افترقوا ثلاث فرق: فرقة لعنته، وفرقة أحبته، وفرقة لا تسبه ولا تحبه، وهذا هو المنصوص عن الإمام أحمد وعليه المقتصدون من أصحابه وغيرهم من جميع المسلمين.

قال صالح بن أحمد: قلت لأبى: إن قومًا يقولون إنهم يحبون يزيد، فقال: يا بنى، وهل يحب يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر؟ فقلت: يا أبت، فلماذا لا تلعنه؟ فقال: يا بنى، ومتى رأيت أباك يلعن أحدًا؟ وقال: سألت أحمد عن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان. فقال: هو الذى فعل بالمدينة ما فعل. قلت: وما فعل؟ قال: قتل من أصحاب رسول الله ﷺ وفعل. قلت: وما فعل؟ قال: نهبها. قلت: فيذكر عنه الحديث؟ لا يذكر عنه حديث. وهكذا ذكر القاضى أبو يعلى وغيره[1]، وقال أبو محمد المقدسى لما سئل عن يزيد: فيما بلغنى لا يُسَبّ ولا يُحَبّ.

وقال ابن تيمية: وبلغنى ـ أيضًا ـ أن جدنا أبا عبد الله بن تيمية سئل عن يزيد فقال: لا تنقص ولا تزيد. وهذا أعدل الأقوال فيه وفى أمثاله وأحسنها، وأما ترك سبه ولعنته فبناء على أنه لم يثبت فسقه الذى يقتضى لعنه، أو بناء على أن الفاسق المعين لا يلعن بخصوصه، إما تحريمًا، وإما تنزيهًا. فقد ثبت فى صحيح البخارى عن عمر فى قصة «حمار» الذى تكرر منه شرب الخمر وجلده لما لعنه بعض الصحابة قال النبى ﷺ : «ولا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله»[2]. وقال: «لعنُ المؤمن كقتله»[3]، هذا مع أنه قد ثبت عن النبى ﷺ لعنه عمومًا شارب الخمر، ونهى فى الحديث الصحيح عن لعن هذا المعين، كما أن نصوص الوعيد عامة فى آكل أموال اليتامى، والزانى والسارق، فلا نشهد بها عامة على معين بأنه من أصحاب النار، لجواز تخلف المقتضَى عن المقتضِى لمعارض راجع: إما توبة، وإما حسنات ماحية، وإما مصائب مكفرة، وإما شفاعة مقبولة، وإما غير ذلك[4].

ومن اللاعنين من يرى أن ترك لعنته مثل ترك سائر المباحات من فضول القول، لا لكراهة فى اللعن، وأما ترك محبته، فلأن المحبة الخاصة إنما تكون للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وليس واحدًا منهم، وقد قال النبى ﷺ : «المرء مع من أحب»[5]،

---

(١) الفتاوى (٤/ ٢٩٥)

(٢) البخارى رقم (٦٧٨٠).

(٣) المصدر نفسه رقم (٦٦٥٢).

(٤) الفتاوى (٤/ ٢٩٦).

(٥) البخارى رقم (٦١٦٩).

ومن آمن بالله واليوم والآخـر، لا يختار أن يكون مع يزيد ولا مع أمـثاله من الملوك، الذين ليسوا بعادلين. ولـترك المحبة مأخذان: أحدهما: أنـه لم يصدر عنه من الأعمال الصالحة ما يوجب محبته، فبقى واحدًا من الملوك المسلطين، ومحبة أشخاص هذا النوع ليست مشروعة، وهذا المأخذ مأخذ من لم يثبت عنده فسقة أعتقد تأويلاً. والثانى: أنه صدر عنه ما يقتضى ظلمه وفسقه فى سيرته من أمر الحسين وأمر أهل الحرة[1].

وأما الذين لعنوه من العلماء كأبى الفرج الجوزى، والكيا الهراس[2] وغيرهما، فلما صدر عنه من الأفعال التى تبيح لعنته، ثم قد يقولون: هو فاسق، وكل فاسق يلعن، وقد يقـولون بلعن صاحب المعصـية وإن لم يحكم بفسقـه، . . . وقد يلعن لخصوص ذنوبه الكبار، وإن كان لا يلعن سـائر الفساق، كما لعن رسول الله ﷺ أنواعًا من أهل المعاصى، وأشخاصًا من العصاة وإن لم يلعن جميعهم، فهذه ثلاثة مآخذ للعنته[3].

وأما الـذين سوغـوا محبـته أو أحـبوه، كـالغزالى، والدسـتى فلهم مـأخذان: أحدهما: أنه مسلم ولى أمر الأمة على عهد الـصحابة وتابعه بقاياهم، وكانت فيه خصال محـمودة وكان متأولاً فيـما ينكر عليه من أمر الحرة وغيـره، فيقولون: هو مجتهد مخطئ، ويقولون: إن أهل الحـرة هم الذين نقضوا بيعته أولاً، وأنكر ذلك عليهم ابن عمـر وغيره، وأما قتل الحسيـن فلم يأمر به ولم يرض به، بل ظهر منه التـألم لقتـله، وذم من قتله، ولم يـحمل الرأس إليـه، وإنما حـمل إلى ابن زياد. والمأخذ الثانى: أنه قد ثبت فى صحـيح البخارى عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «أول جيش يغـزو القسطنطينيـة مغـفور له»[4]. وأول جيش غزاها كـان أميره يزيد. والتحقيق أن هذين القـولين يسوغ فيهما الاجتهاد، وكـذلك محبة من يعمل حـسنات وسيـئـات، بل لا يتنافى عندنا[5] أن يجـتمع فى الـرجل الحمـد والذم، والثواب والعـقاب، كذلك لا يتنافى أن يصلى عليـه ويدعى له، وأن يلعن ويشتم أيضًا باعتبار وجهين؛ فـإن أهل السنة متفقون على أن فساق أهل الملة ـ وإن دخلوا

---

(١) الفتاوى (٤/٢٩٦).

(٢) هو على بن محمد الطبرى الملقب بعماد الدين توفى ٥٠٤هـ.

(٣) الفتاوى (٤/٢٩٧).

(٤) البخارى رقم (٢٩٢٤).

(٥) الفتاوى (٤/٢٩٧).

النار، أو استحقوا دخولها- فإنهم لا بد أن يدخلوا الجنة، فيجتمع فيهم الثواب والعقاب، ولكن الخوارج والمعتزلة تنكر ذلك، وترى أن من استحق الثواب لا يستحق العقاب ومن استحق العقاب لا يستحق الثواب[1]. وأما جواز الدعاء للرجل وعليه.. فإن موتى المسلمين يُصلى عليهم، برهم وفاجرهم، وإن لعن الفاجر مع ذلك بعينه أو بنوعه، لكن الحال الأول أوسط وأعدل، وبذلك أجاب ابن تيمية -رحمه الله- مقدم المغول بولاى، لما قدموا دمشق فى الفتنة الكبيرة وجرت بينهما وبين غيره مخاطبات، فسأل ابن تيمية: ما تقولون فى يزيد؟ فقال: لا نسبه ولا نحبه، فإنه لم يكن رجلاً صالحًا فنحبه ونحن لا نسب أحدًا من المسلمين بعينه، فقال: أفلا تلعنونه؟ أما كان ظالمًا؟ أما قتل الحسين؟ فقلت له: نحن إذا ذكر الظالمون ـ كالحجاج بن يوسف وأمثاله ـ نقول كما قال الله فى القرآن: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨] ولا نحب أن نلعن أحدًا بعينه، وقد لعنه قوم من العلماء، وهذا مذهب يسوغ فيه الاجتهاد، لكن هذا القول أحب إلينا وأحسن، وأما من قتل الحسين أو أعان على قتله، أو رضى بذلك، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً. قال: فما تحبون أهل البيت؟ قلت: محبتهم عندنا فرض واجب يؤجر عليه، فإنه قد ثبت عندنا فى صحيح مسلم عن زيد بن أرقم قال: خطبنا رسول الله ﷺ بغدير يدعى خمًا، بين مكة والمدينة فقال: «أيها الناس إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله -فذكر كتاب الله وحض عليه، ثم قال:- وعترتى أهل بيتى»[2]. قال ابن تيمية لمقدم المغول: ونحن نقول فى صلاتنا كل يوم: اللهم صلى على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد. قال مقدم المغول: فمن يبغض أهل البيت؟ قال: من أبغضهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً. ثم قال ابن تيمية للوزير المغولى: لأى شىء قال عن يزيد وهذا تترى؟ قال: قد قالوا له: إن أهل دمشق نواصب، قال ابن تيمية بصوت عال: يكذب الذى قال هذا، ومن قال هذا فعليه لعنة الله، والله ما فى أهل دمشق

---

(١) الفتاوى (٤/ ٢٩٧).	(٢) مسند أحمد (٤/ ٣٦٧).

نواصب، وما علمت فيهم ناصبيًا ولو تنقص أحد عليًا بدمشق لقام المسلمون[١] عليه، وعلينا أن نعرف أن لعن يزيد لم ينتشر إلا بعد أن قامت الدولة العباسية وأفسحت المجال للنيل من بنى أمية[٢]، وأما الحديث الذى ورد مرفوعًا: «لا يزال أمر أمتى قائمًا، حتى يثلمه رجل من بنى أمية يقال له: يزيد»، فهو حديث غير صحيح، لأن فيه أكثر من علة[٣]، فقد رواه أبو يعلى فى مسنده من طريق صدقة السمين، عن هشام، عن مكحول عن أبى عبيدة مرفوعًا وفيه علتان:

أ ـ ضعف صدقة السمين، وهو أبو معاوية، صدقة بن عبد الله السمين، الدمشقى، ضعفه ابن معين والبخارى وأبو زرعة والنسائى، وقال أحمد: ما كان من حديثه مرفوعًا فهو منكر، وما كان من حديثه مرسلاً عن مكحول فهو أسهل وهو ضعيف جدًا، وقال أيضًا: ليس يسوى شيئًا، أحاديثه مناكير، وقال الدّارقطنى: متروك[٤].

ب ـ أن هناك انقطاعًا بين مكحول وأبى عبيدة لأنه لم يدركه[٥].

وقد تحدث ابن كثير عن الأحاديث فى ذم يزيد فقال: وقد أورد ابن عساكر أحاديث فى ذمّ يزيد بن معاوية كلها موضوعة لا يصح منها شىء، وأجود ما ورد ما ذكرناه على ضعف أسانيده وانقطاع بعضه، والله أعلم[٦].

الثالث عشر: التحذير من أساطير حول مقتل الحسين رضى الله عنه:

إن الشيعة بالغوا فى نقل أخبار تلك الحادثة، وامتلأت كتب التاريخ بحوادث عجيبة قيل إنها وقعت إثر مقتل الحسين، من احمرار الأفق، وتدفق الدماء من تحت الحجارة، وبكاء الجنّ، إلى غير ذلك من الخيال الذى نسجته عقول الشيعة يومئذ، وما زالوا يردّدونه إلى اليوم تضخيمًا لهذا الحادث على حساب غيره من الأحداث الأخرى[٧]، وإن الذى يدرس أسانيد تلك الأخبار والرّوايات لا يرى إلا

---

(١) الفتاوى (٤/ ٢٩٧، ٢٩٨).
(٢) مواقف المعارضة، ص (٥٠١).
(٣) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص (٢٠٤)، مسند أبى يعلى رقم (٨٧٠).
(٤) تهذيب التهذيب (٤/ ٣٨١).
(٥) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص (٢٠٤).
(٦) البداية والنهاية، نقلاً عن أحداث وأحاديث، ص (٢٠٤).
(٧) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص (٢٠٤).

ضعفًا هالكًا، أو مجهولاً لا يعرف أصله، أو مدلسًا يريد تعمية الأبصار عن الحقائق[1]، ومن أكاذيب مؤرخي الشيعة على سبيل المثال في هذه الموقعة أن السبايا حملن على نجائب الإبل عرايا حتى إن الإبل البخاتي[2] إنما نبتت لها الأسنمة من ذلك اليوم لتستر عوراتهن من قبلهن ودبرهن[3]. وقال ابن كثير: ولقد بالغ الشّيعة في يوم عاشوراء، فوضعوا أحاديث كثيرة وكذبًا فاحشًا، من كون الشمس كسفت يومئذ حتى بدت النجوم، وما رفع يومئذ حجر إلا وجد تحته دم، وأن أرجاء السماء احمرّت، وأن الشمس كانت تطلع وشُعاعُها كأنه الدم وصارت السماء كأنها علقة، وأن الكواكب صار يضرب بعضها بعضًا، وأمطرت السماء دمًا أحمر، وأن الحمرة لم تكن في السماء قبل يومئذ.. وأن رأس الحسين لما دخلوا به قصر الإمارة جعلت الحيطان تسيل دمًا، وأن الأرض أظلمت ثلاثة أيام، ولم يُمسّ زعفران ولا ورس مما كان معه يومئذ إلا احترق مسّه، ولم يرفع حجر من حجارة بيت المقدس إلا ظهر تحته دم عبيط، وأن الإبل التي غنموها من إبل الحسين حين طبخوها صار لحمها مثل العلقم. إلى غير ذلك من الأكاذيب والأحاديث الموضوعة التي لا يصح منها شيء[4].

* انتقام الله من قتلة الحسين: وأما ما رُويَ من الأمور والفتن التي أصابت من قتله فأكثرها صحيح، فإنَّه قَلَّ من نجا منهم في الدنيا إلا أُصيب بمرض، وأكثرهم أصابه الجنون، وللشيعة والرافضة في صفة مصرع الحسين رضي الله عنه، كذب كثير وأخبار طويلة، وفيما ذكرناه كفاية، وفي بعض ما أوردنا نظر، ولولا أن ابن جرير وغيره من الحفاظ الأئمة ذكروه ما سُقته، وأكثره من رواية أبي مخنف لوط ابن يحيى، وقد كان شيعيًا وهو ضعيف الحديث عند الأئمة ولكنه إخباري حافظ عنده من هذه الأشياء ما ليس عند غيره، ولهذا يترامى عليه كثير من المصنِّفين ممَّن بعده والله أعلم[5]. ويقول ابن تيمية رحمه الله: وأما السؤال عن سَبْي أهل البيت وإراكابهم حتى نبت لها سنامان وهي البخاتي ليستروا بذلك، فهذا من أقبح الكذب وأبينه، وهو مما افتراه الزنادقة والمنافقون، الذين مقصودهم الطعن في

---

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص (٢١٣).
(٢) البخت: الإبل الخراسانية.
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٥٦٤، ٥٦٥).
(٤) المصدر نفسه (١١/ ٥٧٦).
(٥) المصدر نفسه (١١/ ٥٧٧).

الإسلام وأهله من أهل البيت، وغيرهم، فإن من سمع مثل هذا وشهرته وما فيه من الكذب قد يظن أو يقول إن المنقول إلينا من معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء هو من الجنس، ثم إذا تبين أن الأمة سَبَّتْ أهل بيت نبيها، كان فيها من الطعن فى خير أمة أخرجت للناس ما لا يعلمه إلا الله، إذ كل عاقل يعلم أن الإبل البَخَاتى كانت مخلوقة موجودة قبل أن يبعث الله النبى ﷺ، وقبل وجود أهل البيت، كوجود غيرها من الإبل والغنم، والبقر والخيل والبغال[1]، وللأسف الشديد، فقد شحنت المصادر التاريخية الإسلامية، مثل تاريخ الطبرى، وتاريخ ابن عساكر وغيرهما بمثل هذه الأباطيل والأكاذيب، مما يتطلب تحقيقًا علميًا لهذين الكتابين خاصة، ولغيرهما من كتب التاريخ[2].

الرابع عشر: ما قيل من رثاء فى الحسين رضى الله عنه:

قال سليمان بن قَتَّة التيمى:

وإن قتيل الطَّف من آل هاشم	أذل رقابًا من قريش فذلّتِ
مررت على أبيات آل محمد	فألفيتها أمثالها حين حُلّت
وكانوا لنا غُنْمًا فعادوا زريّةً	لقد عظمت تلك الرزايا وجَلّت
فلا يبعد الله الديار وأهلها	وإن أصبحت منهم برغمى تخلت
إذا افتقرت قيسٌ جبرنا فقيرَها	وتقتلنا قيس إذا النّعلُ زلّت
وعند غِنىٍّ قطرة من دمائنا	سنجزيهم يومًا بها حيث حَلّت
ألم تر أن الأرض أضحت مريضة	لفقد حسين والبلاد اقشعرتِ[3]

وقال أبو الأسود الدِّيلى فى قتل الحسين رضى الله عنه:

أقول وذاك من جزع ووجد:	أزال الله ملك بنى زياد
وأبعدهم بما غدروا وخانوا	كما بعدت ثَمود وقوم عاد

(1) الفتاوى (٤/٣٠٦).

(2) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص (٢١٣).

(3) الطبقات (١/٥١٢)، تحقيق السُّلمى.

همو خَشَمُوا الأنوف وكُنَّ شُمًّا	لقتل ابن القُعَاسِ أخى مراد[1]
قتيل السوق يا لك من قتيل	به نضحٌ من احمر كالجِساد
وأهل نبينا من قبل كانوا	ذوى كرم دعائم للبلاد
حسين ذو الفضول وذو المعالى	يزين الحاضرين وكلٍّ باد
أصاب العِزَّ مَهْلِكُهُ فأضحى	عميدًا بعد مصرعه فؤادى[2]

وقال عبيد الله بن الحر أيضًا:

يا لكِ حسرة ما دمت حيا	تردّد بين حلقى والتّراقى
حسينًا حين يطلب بذل نصرى	على أهل العداوة والشّقاق
ولو أنى أواسيه بنفسى	لنلت كرامة يوم التّلاق
مع ابن المصطفى نفسى فداه	فولّى ثم ودّعَ بالفراق
غداة يقول لى بالقصر[3] قولا:	أتتركنا وتُزمع بانطلاق؟
فلو فلق التَلهّفُ قلب حَيّ	لهمَّ اليومَ قلبى بانطلاق
فقد فاز الأُلى نصروا حسينًا	وخاب الآخرون أولو النفاق[4]

وقال شاعر الإسلام محمد إقبال:

وحسين فى الأبرار والأحرار	ما أزكى شمائله وما أنداها
فتعلموا رىّ اليقين من الحسين	إذا الحسين وقد أجاب نداها
الأمهات يلدن للشمس الضياء	وللجواهر حسنها وصفاها[5]

(1) ابن القُعَاس: وصف لهانئ عروة، يقال: رجل أقعس: ثابت عزيز منيع، لسان العرب (٦/١٧٧).
(2) الطبقات، تحقيق السُّلمى (١/٥١٢).
(3) القصر هو قصر بنى مقاتل، وهو المكان الذى التقى فيه مع الحسين.
(4) الطبقات (١/٥١٦). (5) اللوحة النبوية، ص (١٣٠).

المبحث الثالث

أهم الدروس والعبر والفوائد

أولاً: يوم عاشوراء:

وهو اليوم العاشر من محرم الحرام، وقد ابتدع فيه بدع منكرة، وهلك فيه طائفتان بين إفراط وتفريط، طائفة تجعله يوم فرح وسرور، وأخرى تجعله يوم حزن ونياحة[١].

لقد غلت الشيعة فى مقتل الحسين رضى الله عنه غلواً مفرطًا، فجعلوا يوم استشهاده رضى الله عنه العاشر من محرم مأتمًا وحزنًا ونياحة يكررونه فى كل عام إلى يومنا هذا، ورتبوا على هذا الفعل الأجر والثواب، فهو جالب للمغفرة والرحمة، مكفر للذنوب والخطايا فى زعمهم[٢]. فقد روى الطوسى فى أماليه بسنده عن الرضا عليه السَّلام أنه قال: من ترك السعى فى حوائجه يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة، ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه وبكائه جعل الله عز وجل يوم القيامة يوم فرحه وسروره، وقرت بنا فى الجنان عينه[٣]، وبسنده أيضًا عن أبى عمارة الكوفى قال: سمعت جعفر بن محمد عليه السلام يقول: من دمعت عينه دمعة لدم سفك لنا أو حق لنا أُنقصناه أو عرض انتهك لنا أو لأحد من شيعتنا بوأه الله تعالى بها فى الجنة أحقابًا[٤]. وروى البرقى بسنده عن جعفر الصادق أنه قال: من ذكر عنده الحسين فخرج من عينه دمع مثل جناح بعوضة غفر له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر[٥]. وقد بوب المجلسى بابًا قال فيه: «باب ثواب البكاء على مصيبته ومصائب سائر الأئمة»، وفيه أدب المأتم يوم عاشوراء، وساق فيه أكثر من ثمان وثلاثين رواية[٦] منها ما رواه بسنده عن أبى عبد الله عليه السلام قال: كل الجزع والبكاء مكروه سوى الجزع والبكاء على

---

(١) الأعياد وأثرها على المسلمين، سليمان السحيمى، ص (٢٦١).

(٢) العقيدة فى أهل البيت بين الإفراط والتفريط، ص (٤٩٠).

(٣) أمالى الطوسى، ص (١٩٤)، بحار الأنوار (٤٤/ ٢٨٤).

(٤) البحار (٤٤/ ٢٧٩)، أمالى المفيد، ص (١١٢). (٥) المحاسن، ص (٣٦)، البحار (٤٤/ ٢٨٩).

(٦) البحار (٤٤/ ٢٧٨ ـ ٢٩٦).

الحسين عليه السلام[1]. بل زعموا أن السماء والأرض بكت لقتله فأمطرت السماء دمًا وترابًا أحمر، كما بكت الملائكة والجن وسائر المخلوقات[2]، ولم يكتفوا بذلك حتى قالوا بتحريم يوم عاشوراء، وأن من صامه فهو عدو للحسين وأهل بيته رضى الله عنهم أجمعين[3]، فقد روى الكليني بسنده عن جعفر بن عيسى قال: سألت الرضا عليه السلام عن صوم يوم عاشوراء وما يقول الناس فيه، فقال: عن صوم ابن مرجانة تسألني؟ ذلك يوم صامه الأدعياء من آل زياد لقتل الحسين عليه السلام، وهو يوم يتشاءم به آل محمد ﷺ ويتشاءم به أهل الإسلام، لا يصام ولا يتبرك به، ويوم الاثنين يوم نحس قبض الله عز وجل فيه نبيه، وما أصيب آل محمد إلا في يوم الاثنين، فتشاءمنا به وتبرك به ابن مرجانة وتشاءم به آل محمد ﷺ، فمن صامهما أو تبرك بهما لقى الله تبارك وتعالى ممسوخ القلب وكان حشره مع الذين سنوا صومهما والتبرك بهما[4]. والأكاذيب في هذا الباب كثيرة.

وهذه المآتم تظهر علنًا كلما قويت شوكة الشيعة أو ظهرت لهم دولة، ففى دولة بنى بويه الشيعية في سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة ألزم معز الدولة ابن بويه يوم عاشوراء أهل بغداد بالنواح على الحسين رضى الله عنه، وأمر بإغلاق الأسواق ومنع الطباخين من عمل الأطعمة، وخرجت نساء الشيعة؛ منشرات الشعور مضحمات الوجوه يلطمن ويفتن الناس، وهذا أول ما نيح عليه[5]، كما اتخذت الدولة العبيدية الفاطمية، على كثرة أعيادها ومناسباتها، يوم عاشوراء يوم حزن ونياحة، فكانت تتعطل فيه الأسواق ويخرج فيه المنشدون في الطرقات، وكان الخليفة يجلس في ذلك اليوم متلثمًا يرى به الحزن، كما كان القضاة، والدعاة، والأشراف، والأمراء يظهرون وهم ملثمون حفاة، فيأخذ الشعراء بالإنشاد ورثاء أهل البيت وسرد الروايات والقصص التي اختلقوها في مقتل الحسين رضى الله عنه[6]. ومن مظاهرهم في هذه الأيام خروج المواكب العزائية في الطرقات والشوارع مظهرين اللطم بالأيدى على الخدود والصدور، والضرب بالسلاسل والحديد على الأكتاف حتى تسيل الدماء[7]. وقد وصف

(١) البحار (٤٤/ ٢٨٠) . (٢) المصدر نفسه (٤٤/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦) .

(٣) العقيدة في أهل البيت، ص (٤٩٢) .

(٤) الكافي (١٤٦/٤) الاستبصار (٣٥/٢)، البحار (٥٩/٤٥) .

(٥) العبر للذهبي (٨٩/٢)، البداية والنهاية (٥٧٧/١١) . (٦) الخطط للمقريزى (١/ ٤٣١) .

(٧) العقيدة في أهل البيت، ص (٤٩٤).

ابن كثير ما يفعل الشيعة من تعد لحدود الكتاب والسنة في دولة بني بويه في حدود الأربعمائة وما حولها فقال: فكانت الدبادب[1] تضرب ببغداد ونحوها من البلاد في يوم عاشوراء، ويُذَرّ الرماد والتبن في الطرقات والأسواق، وتعلق المسوح على الدكاكين، ويظهر الناس الحزن والبكاء، وكثير منهم لا يشرب الماء ليلتئذ موافقته للحسين، لأنه قتل عطشان، ثم تخرج النساء حاسرات عن وجوههن ينحن ويلطمن وجوههن وصدورهن حافيات في الأسواق إلى غير ذلك من البدع الشنيعة والأهواء الفظيعة والهتائك المخترعة، وإنما يريدون بهذا وأشباهه أن يُشنّعوا على دولة بني أمية، لأنه قتل في أيامهم[2].

وقد جوّز علماء الشيعة ما يسمونه بالمواكب العزائية، فقد أجاب محمد حسين الغروي النائيني عندما وجهت إليه أسئلة حول المواكب العزائية إذ قال:

١ ـ خروج المواكب العزائية في عشرة عاشوراء ونحوها إلى الطرقات والشوارع مما لا شبهة في جوازه ورجحانه وكونه من أظهر مصاديق ما يقوم به عزاء المظلوم، وأيسر الوسائل لتبليغ الدعوة الحسينية إلى كل قريب وبعيد.

٢ ـ لا إشكال في جواز اللطم بالأيدي على الخدود والصدور إلى حد الاحمرار والاسوداد، بل يقوى جواز الضرب بالسلاسل أيضًا على الأكتاف والظهور إلى الحد المذكور، بل وإن تأدى كل من اللطم والضرب إلى خروج دم يسير على الأقوى، وأما إخراج الدم من الناحية بالسيوف والقامات فالأقوى جوازه ما كان ضرره مأمونًا.

٣ ـ الظاهر عدم الإشكال في جواز التشبيهات والتمثيلات التي جرت عادة الشيعة الإمامية باتخاذها لإقامة العزاء والبكاء والإبكاء منذ قرون وإن تضمنت لبس الرجال ملابس النساء على الأقوى، فهذه الفتوى المعمول بها اليوم لدى الشيعة وعليها الإجماع وقد فرضها أكثر من اثني عشر من علمائهم[3]، وفي وصف هذه

---

(١) الدبادب: جمع الدّبدب وهو الطبل .

(٢) البداية والنهاية (١١/٥٧٧) .

(٣) مقتل الحسين وفتاوى العلماء الأعلام للشيخ مرتضى عياد، ص (١٢ ـ ٤٠) وممن فرضها وأقرّها، العقيدة في أهل البيت، ص (٤٩٥)

المظاهر يقول ناصر الدين شاه: وفي الهند وباكستان وإيران والعراق تكتسي هذه المآتم حللاً مركبة، إذ يخرج الرجال في الطرقات وهم يسيرون وراء هودج قد يبالغون في ارتفاعه حتى يبلغ بضعة أمتار، وهم عراة وفي أيديهم جنازير من حديد وفي رءوسها شفرات صغيرة حادة يضربون بها صدورهم وظهورهم حتى تسيل الدماء منهم، وفي كثير من الأحيان يموت بعضهم، أما النساء فإنهن يجلسن في دورهن يتحن ويبكين ويلطمن صدورهن بأيديهن، كل هذا تكريمًا للحسين الذي قتل مظلومًا بزعمهم[1]، ويقول السيد محسن الأمين الحسيني العاملي معللاً إقامة المآتم: ونريد بإقامة المآتم البكاء لقتله (عليه السلام) بإخراج الدمع بصوت وبدونه، والتعرض لما يسبب ذلك، وإظهار شعار الحزن والتأسف والتألم لما صدر عليه، وتذكر مصابه ونظم الأشعار في رثائه، وتلاوتها واستماعها وتهييج النفوس بها للحزن والبكاء[2]. ولم يكتفوا بذلك، يقول الخميني: إن البكاء على سيد الشهداء عليه السلام وإقامة المجالس الحسينية هي التي حفظت الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا[3]. فمتى كان البكاء دعوة، ومتى كان العويل جهادًا، فهذا معتقد الشيعة الإمامية في مقتل الحسين وفي يوم عاشوراء، فهل هذا الفعل من الإسلام في شيء؟!

إن الحسين رضي الله عنه بريء من تلك الأفعال المذكورة؛ لأن الإسلام الذي جاء به جده عليه الصلاة والسلام لا يجوّز تلك الأفعال، فقد قال ﷺ: «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»[4] وقال ﷺ: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال[5] من قطران[6]، ودرع من جرب»[7]، وقال ﷺ: «أنا بريء من الصالقة والحالقة والشاقة»[8]، كما أن ما يفعله الشيعة في الحسينيات والمآتم تحت مسمى الشعائر الحسينية مثل: اللطم والنياحة ولبس السواد، والتطبير وغيرها؛ والتي أفتى علماؤهم وعظماؤهم بجوازها، فإنها محرمة على لسان الرسول ﷺ، وعلى ألسنة أئمة أهل البيت الكرام في المصادر الشيعية القديمة

---

(١) العقائد الشيعية، ص (١٣٥). (٢) إقناع اللائم على إقامة المآتم، ص (٢).

(٣) عقيدة أهل السنة في أهل البيت، ص (٤٩٦) نقلاً عن كشف الأسرار.

(٤) البخاري رقم (١٢٩٤). (٥) السربال: القميص.

(٦) القطران: هو النحاس المذاب شديد الحرارة. (٧) مسلم رقم (٩٣٤).

(٨) الصالقة التي تصيح، والحالقة التي تحلق شعرها، والشاقة التي تشق جيبها، مسلم، ك الإيمان رقم (١٦٧).

والحديثة، واعترف بهذا التحريم شيوخ وأعلام المذهب الشيعي الاثنى عشرى[1]، فهذا محمد بن على بن الحسين بن بابويه القمى الملقب عند الشيعة بالصدوق قال: من ألفاظ رسول الله ﷺ التى لم يسبق إليها: «النياحة من عمل الجاهلية»[2]. ورواه محمد باقر المجلسى بلفظ: «النياحة عمل الجاهلية»[3]، فالنوح الذى استمرت عليه الشيعة جيلاً بعد جيل بعد جيل من عمل الجاهلية كما أخبر به النبى ﷺ[4]. ومن هذه الروايات التى تنهى عما يقترفه الشيعة فى الحسينيات ما قاله أمير المؤمنين على رضى الله عنه: وإياك والنواح على الميت ببلد يكون لك به سلطان[5]، وقوله: ثلاث من أعمال الجاهلية لا يزال فيها الناس حتى تقوم الساعة: الاستسقاء بالنجوم، والطعن فى الأنساب، والنياحة على الموتى[6]، ومن الأدلة قول الإمام الباقر: أشد الجزع الصراخ بالويل والعويل، ولطم الوجه والصدر، وجز الشعر من النواصى، ومن أقام النواحة فقد ترك الصبر وأخذ فى غير طريقه[7]، وقد أنكر ما يحدث من ضرب الرءوس بالخناجر والسيوف وإسالة الدماء الشيخ حسن مغنية فقال: والواقع أن ضرب الرءوس بالخناجر والسيوف وإسالة الدماء ليست من الإسلام فى شىء، ولم يرد فيها نص صريح، ولكنها عاطفة نبيلة تجيش فى نفوس المؤمنين لما أريق من الدماء الزكية على مذابح فاجعة كربلاء[8]، ولا شك إن هذه الأمور من المنكرات والبدع الشنيعة[9]. إن الإسلام علمنا آداب المصائب، ومقتل الحسين رضى الله عنه مصيبة عظيمة، فمن آداب الإسلام فى المصائب.

١ ـ الصبر عليها: وهذا أعظم آدابها، أن يصبر المؤمن على المصيبة التى تنزل به، ومن هذا الصبر حبس القلب عن التسخط، وحبس اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عمّا يغضب الله تعالى من لطم الخدود، وشق الجيوب وخمش الوجوه، ونتف الشعر والدعاء بدعوة الجاهلية وينبغى أن يكون هذا الصبر عند سماع الإنسان خبر المصيبة لأول مرة وذلك لقوله ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[10].

---

(١) من قتل الحسين؟، ص (٧٣) .
(٢) من لا يحضره الفقيه (٤/ ٢٧١ ـ ٢٧٢) .
(٣) بحار الأنوار (٨٢/ ١٠٣) .
(٤) من قتل الحسين؟، ص (٧٣) .
(٥) مستدرك الوسائل للنورى (١/ ١٤٤) .
(٦) بحار الأنوار (٨٢/ ١٠١) .
(٧) الكافى للكلينى (٣/ ٢٢٢ ، ٢٢٣) .
(٨) آداب المنابر، ص (١٨٢) .
(٩) من قتل الحسين؟، ص (٨٣) .
(١٠) البخارى رقم (١٢٨٣) .

٢ ـ احتساب المصيبة والصبر عليها: فينبغى أن يلتمس الأجر من الله تعالى فى هذا الصبر، فيصبر ابتغاء موعود الله من الأجر والثواب، ويصبر لأن الله أمره بالصبر، فقال عز وجل: ﴿واصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧]، ويتذكر إن فقد عزيزاً لديه، قول النبى ﷺ: «يقول الله تعالى: ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفيَّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة»[١]، وصفيُّه: أى حبيبه من ولد أو والد أو نحوه. وهكذا فإن الله تعالى وعد بالأجر العظيم على الصبر على المصائب، ولكن بشرط أن يكون الصبر ابتغاء وجه الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿والَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢]، فينبغى أن يكون الصبر لله تعالى، ولا صبر المغلوب. بل صبر الراضى بقضاء الله، المسلِّم به[٢].

٣ ـ الاسترجاع ودعاء المصيبة: فيقول المرء عند نزول المصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اجرنى فى مصيبتى، واخلف لى خيراً منها. فقد قال الله عز وجل: ﴿وبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧]. وقال ﷺ: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها»[٣]، قالت أم سلمة: فلما مات أبو سلمة قلت: أى المسلمين خير من أبى سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ. ثم إنى قلتها، فأخلف الله لى رسول الله[٤].

ويقول كذلك: الله ربى لا شريك له، فإن ذلك يكشف عنه المصائب والبلاء بإذن الله، وقد قال ﷺ: «من أصابه هم أو غم، أو سقم، أو شدة فقال: الله ربى لا شريك له. كشف ذلك عنه»[٥]، ويدعو كذلك بدعاء المكروب الذى ذكره النبى ﷺ حيث قال: «دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين، وأصلح لى شأنى كله لا إله إلا أنت»[٦]، ويقول كذلك كما

---

(١) البخارى رقم (٦٤٢٤).

(٢) موسوعة الآداب الإسلامية، عبد العزيز فتحى (٢/ ٧٨٦).

(٣)، (٤) مسلم رقم (٩١٨). (٥) صحيح الجامع رقم (٦٠٤٠).

(٦) سنن أبى داود رقم (٥٠٩٠)، صحيح الجامع رقم (٣٣٨٨).

كـان النبي ﷺ يقـول، فإنه ﷺ، كـان إذا كـربه أمر قـال: «يا حي يا قيـوم، برحمتك أستغيث»(١).

٤ ـ اجـتناب كل مـا يغـضب الله: وذلك من جنس الجـهر بـالسوء من القـول، واللطم، وشق الجيـوب، وحلق الشعـور، والنياحة والشكـوى إلى الناس والدعاء بالموت والويل والثبور، وغـير ذلك، فهذا كله يغضب الله تعـالى، وينافي الصبر على المصائب والرضا بها(٢).

٥ ـ تهـوين المصيبـة على النفس بتـذكر وفـاة النبي ﷺ: فإن وفـاته وانقطاع وحي السماء من أعظم المصائب التي نزلت بالأمـة، وبكـل مسلم، وإذا تـذكر المصاب -بمصيبة ما- تلك المصـيبة العظيمة بوفاة النبي ﷺ، هوَّن ذلك عليه مـصيبته التي نزلت به، فإن المصيبة العظيمـة لا تهون إلا بالنظر إلى ما هو أعظم منها، وقد قال ﷺ: «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها من أعظم المصائب»(٣).

٦ ـ مشاهدة النعمـة في المصيبة: فمن أدب المسلم مع المصيبة أن يشـاهد فيها نعمة الله تعالى، ولئن كـان قتل الحسـين ـ رضي الله عنه ـ عظيمًا وشـراً كبيـراً، فإنه بالنسبة له خيـر وإكرام، يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: فلمـا قتل الحسين بن علي -رضي الله عنهما- يوم عـاشوراء، قتلته الطائفة الظالمة الباغـية، وأكرم الله تعالى الحسين بالشـهادة، كما أكـرم بها من أكرم من أهل بيته. أكـرم بها حمزة وجـعفر وأباه عليًا وغيرهم، وكانت شهـادته مما رفع الله بها منزلته وأعلى درجته، فإنه هو وأخوه الحسن سيـدا شباب أهل الجنة، والمنازل العالية لا تنال إلا بالبـلاء كما قال ﷺ لما سئل: أي الناس أشد بلاء؟ فقال: «الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي الرجل على حسـب دينه، فإن كان في دينه صـلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خُفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة»(٤).
فكان الحسن والحسين قـد سبق لهما من الله -تعالى- ما سـبق من المنزلة العالية، ولم يكن حصل لهـما من البلاء ما حصل لسلفـهما الطيب، فإنهـما وُلِدا في عز

---

(١) سنن الترمذي رقم (٣٥٢٤)، صحيح الجامع. (٢) موسوعة الآداب الإسلامية (٢/ ٧٨٨).
(٣) البيهقي في شعب الإيمان رقم (١٠١٥٢)، صحيح الجامع (٣٤٧).
(٤) الترمذي رقم (٢٣٩٨)، حسن صحيح.

الإسلام، وتربيا فى عز وكرامة، والمسلمون يعظمونهما، ويكرمونهما، ومات النبى ﷺ ولم يستكملا سن التميـيز، فكانت نعمة الله عليهما أن ابتلاهمـا بما يُلحقهما بأهل بيتـهما، كـما ابتلى من كان أفـضل منهما، فـإن على بن أبى طالب أفضل منهما، وقد قُتل شهيدًا[1].

٧ ـ تذكر القضاء السـابق: فإن المسلم مـتى ما أيقن أن هذه المصـائب مكتوبة، ومقدرة، ومتى مـا استحضر فى ذهنه أن كل ما قدره الـله فهو لابد كائن واقع لا محيد عنه، وأن لله تعالى حكمة فى تـقدير هذه المصائب، كلما تذكر هذه الأمور هانت عليه المصائب[2]، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

٨ ـ رأى ابن تيمية وابن كثير فيما يحدثه الشيعة يوم عاشوراء:

أ ـ قال ابن تيمية: وصار الشيطان بسبب قتل الحسين رضى الله عنه يحدث للناس بدعتيـن: بدعة الحزن والنوح يوم عاشـوراء من اللطم والصراخ والبكاء والعطش، وإنشاد المراثى وما يفضى إلى ذلك من سب السلف الصالح، ولعنهم، وإدخال من لا ذنب له من ذوى الذنوب حتى يسب السابقون الأولون وتقرأ أخـبار مصرعه التى كثير منهـا كذب، وقصد من سن ذلك فتح باب الفتنة والفـرقة بين الأمة، فإن هذا ليس واجبًـا ولا مستحـبًا باتفاق المسلمين، بل إحـداث الجزع والنياحة للمـصائب القـديمة من أعظم مـا حرم الله ورسـوله[3]. والذى أمر الله بـه ورسوله ﷺ فى المصيبة إذا كانت جديدة إنما هو الصبر والاحـتساب والاسترجاع. . وإذا كان الله قد أمر بالصبر والاحتساب عند حـدثان العهد بالمصيبة، فكيف مع طول الزمان؟ فكان ما زينه الشيطان لأهل الضـلال والغى من اتخاذ يوم عاشور مأتمًا وما يصـنعون فيه من الندب والنياحة، وإنشاد قـصائد الحزن، ورواية الأخبار التى فيها كـذب كثير، والصدق فيها ليس فيه إلا تجـديد الحزن والتعصب، وإثارة الشحناء والحرب، وإلقاء

(١) الفتاوى (٢٥/ ١٦٢) . (٢) موسوعة الأداب الإسلامية (٢/ ٧٩٠) .

(٣) منهاج السنة (٤/ ٥٥٤) .

الفتن بين أهل الإسلام، والتوسل بذلك إلى سب السابقين الأولين، وكثرة الكذب والفتن في الدنيا[1].

ب ـ وأما ابن كثير فيقول: فكل مسلم ينبغي له أن يحزنه هذا الذي وقع من قتله رضي الله عنه، فإنه من سادات المسلمين وعُلماء الصحابة، وابن بنت رسول الله ﷺ التي هي أفضل بناته، وقد كان عابداً وشجاعاً وسخيًا، ولكن لا يحسن ما يفعله الشيعة من إظهار الجزع والحزن الذي لعل أكثره تصنع ورياء، وقد كان أبوه أفضل منه وهم لا يتخذون مقتله مأتمًا كيوم مقتل الحسين، فإن أباه قتل يوم الجمعة وهو خارج إلى صلاة الفجر في السابع عشر من رمضان سنة أربعين، وكذلك عثمان كان أفضل من علي عند أهل السنة والجماعة، وقد قُتل وهو محصور في داره في أيام التشريق من شهر ذي الحجة سنة ست وثلاثين، وقد ذبح من الوريد إلى الوريد، ولم يتخذ الناس يوم مقتله مأتمًا، وكذلك عمر بن الخطاب، وهو أفضل من عثمان وعلي، قُتل وهو قائم يُصلي في المحراب صلاة الفجر وهو يقرأ القرآن، ولم يتخذ الناس يوم قتله مأتمًا، وكذلك الصديق كان أفضل منه، ولم يتخذ الناس يوم وفاته مأتمًا، ورسول الله ﷺ سيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، وقد قبضه الله إليه كما مات الأنبياء قبله، ولم يتخذ أحد يوم موته مأتمًا يفعلون فيه ما يفعله هؤلاء الجهلة من الرافضة يوم مصرع الحسين، ولا ذكر أحد يوم موتهم وقبلهم شيء مما ادّعاه هؤلاء يوم مقتل الحسين من الأمور المتقدمة مثل كسوف الشمس والحمرة التي تطلع في السماء وغير ذلك، وأحسن ما يقال عند ذكر هذه المصائب[2] وأمثالها ما رواه الحسين بن علي عن جدّه ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يصاب بمصيبة فيتذكرها وإن تقادم عهدها، فيُحدثُ بها استرجاعًا إلا أعطاه الله من الأجر مثل يوم أصيب بها»[3]. يقول ابن تيمية تعليقًا على هذا الحديث: هذا حديث رواه عن الحسين ابنته فاطمة التي شهدت مصرعه، وقد علم أن المصيبة بالحسين تذكر مع تقادم العهد، فكان من محاسن الإسلام أن بلغ هو هذه السنة

---

(١) الفتاوى (٢٥/ ١٦٥، ١٦٦) . (٢) البداية والنهاية (١١/ ٥٧٩).

(٣) سنن ابن ماجه رقم (١٦٠٠)، في إسناده ضعف، ضعيف سنن ابن ماجه رقم (٣٤٩).

عن النبى ﷺ وهو أنه كلما ذكرت هذه المصيبة يسترجع لها، فيكون للإنسان من الأجر يوم أصيب بها المسلمون، وأما من فعل مع تقادم العهد بها ما نهى عنه النبى ﷺ عند حدثان العهد بالمصيبة فعقوبته أشد مثل لطم الخدود وشق الجيوب، والدعاء بدعوى الجاهلية[1].

٩ ـ من يتخذ عاشوراء عيدًا :هم من النواصب، والنواصب إحدى طوائف أهل البدع التى أصيبت فى معتقدها بعدم التوفيق للاعتقاد الصحيح فى الصحابة الكرام رضى الله عنهم، فقد زين لهم الشيطان عدم محبة أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وحملهم على التدين ببغضه وعداوته والقول فيه بما هو برىء منه، كما تعدى بغضهم إلى غيره من أهل البيت كابنه الحسين بن على رضى الله عنهما وغيره، فالنصب هو بغض على رضى الله عنه والنيل منه والانحراف عنه، وسمى من كانت هذه صفته ناصبيًا، فالنصب كالرفض لأن الرفض هو بغض أصحاب رسول الله ﷺ والنيل منهم بالشتم والسب، وكلاهما ضلال وابتعاد عن منهج الله، فى وجوب حب أصحاب رسول الله ﷺ ومعرفة سابقتهم فى الإسلام وجهادهم بأنفسهم وأموالهم مع رسول الله ﷺ[2]، فإذا كانت الشيعة اتخذت يوم عاشوراء مأتمًا وحزنًا، اتخذته طائفة أخرى عيدًا وموسمًا للفرح والسرور وهم إما من النواصب المتعصبين على الحسين وأهل بيته رضى الله عنه، وإما من الجهال الذين قابلوا الفاسد بالفاسد، والكذب بالكذب، والشر بالشر، والبدعة بالبدعة، فوضعوا الآثار فى شعائر الفرح والسرور يوم عاشوراء كالاكتحال والاختضاب، وتوسيع النفقات على العيال، وطبخ الأطعمة الخارجة عن العادة ونحو ذلك مما يفعل فى الأعياد والمواسم، فصار هؤلاء يتخذون يوم عاشوراء موسمًا كمواسم الأعياد والأفراح مقابلة لأولئك وهى بدعة ثانية، ومما ورد فى ذلك من أحاديث موضوعة ومكذوبة ما يلى:

أ ـ حديث: من وسع على عياله يوم عاشوراء وسع الله عليه سنته[3].

---

(١) الفتاوى (٤/ ٣١٢) .

(٢) عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة الكرام (٣/ ١١٩٣، ١١٩٤) .

(٣) الموضوعات لابن الجوزى (٢/ ٢٠٣)

ب ـ ابتداع صلاة مخصوصة في يومه وليلته: روى عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «من صلى لله يوم عاشوراء ما بين الظهر والعصر أربعين ركعة يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب مرة وآية الكرسي عشر مرات، وقل هو الله أحد إحدى عشرة مرة، والمعوذتين خمس مرات، فإذا سلم استغفر سبعين مرة أعطاه الله في الفردوس قبة بيضاء»[1]، وغير ذلك من البدع التي أحدثت في ذلك اليوم والتي لا أصل لها في دين الله عز وجل[2]. وقد سئل ابن تيمية عما يفعله الناس في عاشوراء من الكحل والاغتسال والحناء والمصافحة وطبخ الحبوب وإظهار السرور وعزوا ذلك إلى الشارع، فهل ورد عن النبي ﷺ في ذلك حديث صحيح أم لا؟ وإذا لم يرد حديث صحيح في شيء من ذلك، فهل يكون فعل ذلك بدعة أم لا؟ فأجاب: الحمد لله رب العالمين لم يرد في شيء من ذلك حديث صحيح عن النبي ﷺ، ولا عن أصحابه، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين ولا الأئمة الأربعة ولا غيرهم، ولا روى أهل الكتب المعتمدة في ذلك شيئًا لا عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة ولا عن التابعين لا صحيحًا ولا ضعيفًا. ولا في كتب الصحيح ولا في السنن ولا في المسانيد، ولا يعرف شيء من هذه الأحاديث على عهد القرون الفاضلة، وإنما حصلت هذه البدع في يوم عاشوراء، لأن الكوفة كان فيها طائفتان: طائفة رافضة يظهرون موالاة أهل البيت وهم في الباطن إما ملاحدة زنادقة وإما جهال وأصحاب هوى، وطائفة ناصبة تبغض عليًا وأصحابه لما جرى من القتال في الفتنة ما جرى[3]. فوضعت الآثار في الاحتفال بعاشوراء لما ظهرت العصبية بين الناصبة والرافضة، فإن هؤلاء اتخذوا يوم عاشوراء مأتمًا، فوضع أولئك آثار تقتضي التوسع فيه واتخاذه عيداً وكلاهما باطل. فهؤلاء فيهم بدع وضلال وأولئك فيهم بدع وضلال[4]. فمن جعل يوم عاشوراء مأتمًا وحزنًا ونياحة، أو جعله يوم عيد وفرح وسرور فقد ابتدع في الدين وخالف سنة سيد المرسلين[5].

---

(١) الموضوعات (٢/ ١٢٢، ١٢٣) .

(٢) المدخل لابن الحاج (١/ ٢٩٠ ، ٢٩١)، الأعياد، ص (٢٧٤) .

(٣) الفتاوى (٢٥/ ١٦١) .

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٢٢، ٦٢٣) .

(٥) الأعياد وأثرها على المسلمين، ص (٢٧٦) .

١٠ ـ هدى الرسول ﷺ في يوم عاشوراء: يوم عاشوراء من الأيام الفاضلة التى حث النبى ﷺ على صيامها، فجاء فى الحديث الصحيح عن أبى قتادة رضى الله عنه أنه قال: «ثلاث من كل شهر ورمضان إلى رمضان فهذا الدهر كله، وصيام عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله والتى بعده، وصيام عاشوراء احتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله»[١]، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: ما رأيت النبى ﷺ يتحرى صيام يوم فضله على غيره إلا هذا اليوم يوم عاشوراء وهذا الشهر -يعنى شهر رمضان-[٢]، فالسنة إذًا فى هذا اليوم الصيام فحسب، وقد صامه ﷺ وأخبر بفضل صيامه كما فى الحديث السابق وأمر بقيامه، فقد جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة:

أ ـ فعن ابن عمر رضى الله عنهما: أن أهل الجاهلية كانوا يصومون عاشوراء، وأن رسول الله ﷺ صامه والمسلمون قبل أن يفترض رمضان فلما افترض رمضان قال ﷺ: «إن عاشوراء من أيام الله فمن شاء صامه ومن شاء تركه»[٣].

ب ـ وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قدم النبى ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منكم فصامه» وأمر بصيامه. وعنه أيضًا قال: أمر رسول الله ﷺ بصوم يوم عاشوراء العاشر[٤].

جـ ـ وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا: يا رسول الله يوم، تعظمه اليهود والنصارى، فقال رسول الله ﷺ: «إذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا يوم التاسع». قال: فلم يأت العام المقبل حتى توفى رسول الله ﷺ. وفى رواية: «لئن بقيت إلى قابل لأصومنّ التاسع»[٥]. وعنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «صوموا يوم عاشوراء وخالفوا فيه اليهود صوموا قبله يومًا وبعده يومًا»[٦].

ولقد ذكر العلماء أن صوم يوم عاشوراء على ثلاث مراتب:

أ ـ صوم التاسع والعاشر والحادى عشر لحديث: «صوموا قبله يومًا وبعده يومًا»

---

(١) مسلم رقم (١١٦٢) . (٢) البخارى رقم (٢٠٠٦) .
(٣) مسلم رقم (١١٢٦) . (٤)، (٥) مسلم رقم (١١٣٤) .
(٦) السنن الكبرى للبيهقى، ك الصيام (٤/٢٨٧) .

ب ـ صوم التاسع والعاشر لحديث: «إذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا التاسع».

جـ ـ إفراده بالصوم أى صوم يوم عاشوراء وحده، للأحاديث الدالة على تأكيد صومه[1].

فهذا هدى رسول الله ﷺ فى يوم عاشوراء، ومن هنا تتجلى وسطية أهل السنة والجماعة فلا إفراط ولا تفريط، إنما هو تمسك بهدى الرسول ﷺ وامتثال لأمره رجاء لثواب الله تعالى.

ثانيًا: التحقيق فى مكان رأس الحسين رضى الله عنه:

إن سبب الاختلاف فى موضع رأس الحسين رضى الله عنه عند عامة الناس إنما هو ناتج عن تلك المشاهد المنتشرة فى ديار المسلمين، والتى أقيمت فى عصور التخلف الفكرى والعقدى، وكلها تدعى وجود رأس الحسين، ثم إن الجهل بموضع رأس الحسين جعل كل طائفة تنتصر لرأيها فى ادعاء وجود الرأس عندها، وإذا أردنا التحقيق فى مكان الرأس فإنه يلزمنا تتبع وجود الرأس منذ انتهاء معركة كربلاء[2]. لقد ثبت أن رأس الحسين حمل إلى ابن زياد فجعل الرأس فى طست وأخذ يضربه بقضيب كان فى يده، فقام إليه أنس بن مالك رضى الله عنه وقال: لقد كان أشبههم برسول الله ﷺ[3]. ثم بعد ذلك تختلف الروايات والآراء اختلافًا بينًا بشأن رأس الحسين رضى الله عنه، ولكن بعد دراسة الروايات التى ذكرت أن ابن زياد أرسل الرأس إلى يزيد بن معاوية، وجدت أن الروايات على النحو التالى: هناك روايات ذكرت أن الرأس أرسل إلى يزيد بن معاوية، وأخذ يزيد ينكث بالقضيب فى فم الحسين، الأمر الذى حدا بأبى برزة الأسلمى رضى الله عنه أن ينكر على يزيد فعلته، ولكن هذه الرواية التى ذكرت وصول الرأس وتعامل يزيد معه بهذا النحو ضعيفة[4]. وقد استدل ابن تيمية على ضعف هذه الرواية بأن الذين

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٧٦)، فتح البارى (٤/ ٢٤٦) .
(٢) مواقف المعارضة، ص (٣٠٦) .
(٣) سنن الترمذى (٥/ ٦٥٩)، حسن صحيح غريب .
(٤) المجمع (٩/ ١٩٥)، فيه انقطاع.

حضروا نكثه بالقضيب من الصحابة لم يكونوا بالشام، وإنما كانوا بالعراق[١]، ومما يدل على فساد متن هذه الرواية أنه مخالف لتلك الروايات الصحيحة، والتى بينت حسن معاملة يزيد لآل الحسين وتألمه وبكائه على قتل الحسين رضى الله عنه[٢]، وقد قال ابن تيمية: ورأس الحسين إنما حمل إلى ابن زياد وهو الذى ضربه بالقضيب كما ثبت فى الصحيح[٣]، وأما حمله إلى يزيد فباطل، وإسناده منقطع[٤]، وقد ذهب ابن كثير إلى ذهاب الرأس إلى يزيد فقد قال: وقد اختلف العلماء فى رأس الحسين هل سيّره ابن زياد إلى الشام أم لا؟ على قولين: الأظهر منهما أنه سيّره إليه، ، فقد ورد فى ذلك آثار كثيرة والله أعلم[٥]، وهو ما ذهب إليه الذهبى[٦].

وقد ذُكر بأن رأس الحسين مقبور فى ست مدن وهى:

١ ـ دمشق: ذكر البيهقى فى المحاسن والمساوئ أن يزيد أمر بغسل الرأس وجعله فى حرير وضرب عليه خيمة ووكل به خمسين رجلا[٧]، وساق ابن عساكر بإسناده عن ريا حاضنة يزيد بن معاوية أن الرأس مكث فى خزائن السلاح حتى ولى سليمان، فبعث فجىء به فبقى عظمًا فطيبه وكفّنه، فلما وصلت المسودّة[٨]، سألوا عن موضع الرأس ونبشوه، فالله أعلم ما صنع به[٩]، وراوية القصة (ريا) هذه ذكرها ابن عساكر ولم يذكر فيها جرحًا، ولا تعديلاً وتكون بذلك مجهولة[١٠]، وبذلك تكون رواية ساقطة لا يعتمد عليها بأى حال من الأحوال[١١]، وقد أورد الذهبى بإسناده عن أبى كريب قال: كنت فيمن توثب على الوليد بن يزيد بدمشق، فأخذت سفطًا وقلت: فيه غنائى، فركبت فرسى، وخرجت من باب توما، قال: ففتحته، فإذا فيه رأس مكتوب عليه: هذا رأس الحسين بن على،

---

(١) منهاج السنة (٥٥٧/٤) .
(٢) موقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (٣٠٨) .
(٣) منهاج السنة (١٤١/٨) .
(٤) المصدر نفسه (١٤٢/٨) .
(٥) البداية والنهاية (١١/ ٥٨٠) .
(٦) تاريخ الإسلام، ص (١٠٦) .
(٧) المحاسن والمساوئ، ص (٨٤) بدون إسناد .
(٨) المسودّة: جنود العباسيون وهو الشعار الذى رفعه العباسيون .
(٩) تاريخ ابن عساكر، تراجم النساء نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (٣١١) .
(١٠) مواقف المعارضة، ص (٣١٣).
(١١) المصدر نفسه، ص (٣١٣) .

فحفرت فيه بسيفى فدفنته[١]. وهى رواية ضعيفة جداً[٢]. ومن ناحية أخرى ما هى فائدة يزيد فى احتفاظه برأس الحسين وجعله فى خزائن سلاحه؟![٣].

٢ ـ كربلاء: لم يقل أحد بأن الرأس فى كربلاء إلا الشيعة الإمامية، فإنهم يقولون: إن الرأس أعيد إلى كربلاء بعد أربعين يومًا من القتل، ودفن بجانب جسد الحسين[٤] رضى الله عنه، وهو يوم معروف عندهم يسمون فيه زيارة الأربعين، ويكفى أن هذا القول إنما تفرد به الشيعة الإمامية وهم ليس عندهم فى ذلك أى دليل ولكن أقاويل عارية من الحجة والبرهان، وقد أنكر أبو نعيم الفضل بن دكين على من زعم أنه يعرف قبر الحسين رضى الله عنه[٥]، وقد ذكر ابن جرير وغيره أن موضع قتله عفى أثره حتى لم يطلع أحد على تعيينه[٦].

٣ ـ الرقة: لقد انفرد سبط بن الجوزى بإيراد خبر يذكر أن الرأس قبر بالرقة وقال: إن الرأس بمسجد الرقة على الفرات، وأنه جئ به بين يدى يزيد بن معاوية فقال: لأبعثن إلى آل أبى معيط رأس عثمان وكانوا بالرقة، فدفنوه فى بعض دورهم ثم دخلت تلك الدار بالمسجد الجامع، وهو إلى جانب سور هناك[٦]. وهذا خبر مستبعد، فالرواية ليست مسندة، ثم إن الخبر فيه نكارة واضحة لمخالفته النصوص الصحيحة، والتى ثبت فيها حسن معاملة يزيد لأسرة الحسين وتحسّره وندمه على قتله[٨]، ثم إن سبط بن الجوزى هذا قال عنه الذهبى: ورأيت له مصنفًا يدل على تشيعه[٩].

٤ ـ عسقلان: لقد أنكر جمع من المحققين الخبر القائل بأن رأس الحسين دفن فى عسقلان، قال القرطبى: وما ذكر أنه فى عسقلان فشىء باطل[١٠]، وأنكر ابن تيمية وجود الرأس بعسقلان[١١]، وتابعه على ذلك ابن كثير[١٢].

---

(١) السير (٣/٣١٦)، سمط النجوم العوالى (٣/٨٦).
(٢)، (٣) مواقف المعارضة، ص (٣١٣).
(٤) المصدر نفسه، ص (٣١٣)، نور الأبصار، ص (١٢١).
(٥) تاريخ بغداد (١/١٤٣، ١٤٤) ترجمة الحسين (٢٧٦).
(٦) البداية والنهاية (١١/ ٥٨٠).
(٧) شخصيات إسلامية (٣/٢٩٨) للعقاد، مواقف المعارضة، ص (٣١٤).
(٨) مواقف المعارضة ص (٣١٤).
(٩) السير (٢٣/٢٩٧).
(١٠) التذكرة (٢/٢٩٥).
(١١) تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية، ص (٢٦٤).
(١٢) البداية والنهاية (١١/٥٨٢).

٥ ـ القاهرة: يبدو أن اللعبة التى قام بها العبيديون (الفاطميون) قد انطلت على الكثير من الناس، فبعد أن عزم الصليبيون الاستيلاء على عسقلان سنة تسع وأربعين وخمسمائة خرج الوزير الفاطمى صالح طلائع بن رزيك هو وعسكره حفاة إلى الصالحية، فتلقى الرأس ووضعه فى كيس من الحرير الأخضر على كرسى من الأبنوس وفرش تحته المسك والعنبر والطيب، ودفن فى المشهد الحسينى قريبًا من خان الخليلى فى القبر المعروف. وكان ذلك فى يوم الأحد الثامن من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة[1]، وقد ذكر الفارقى أن الخليفة الفاطمى نفسه قد خرج وحمل الرأس[2]، وذكر الشبلنجى أن الوزير الصالح طلائع افتدى الرأس من الإفرنج ونجح فى ذلك بعد تغلبهم على عسقلان وافتداه بمال جزيل[3]، ولقد حاول بعض المؤرخين أن يؤكدوا أن الرأس قد نقل فعلاً من عسقلان إلى مصر، وأن المشهد الحسينى فى مصر إنما هو حقيقة مبنى على رأس الحسين رضى الله عنه[4]، وقد أثبت أحد المتأخرين -وهو حسين محمد يوسف- أن الرأس الموجود فى المشهد الحسينى هو حقيقة رأس الحسين وخطأ من يقول بغير ذلك، وكان الاستدلال الذى جاء به هى تلك المنامات والكشوفات التى تجلت لبعض الصوفية والتى جاء فيها أن الرأس هو فى الحقيقة رأس الحسين ثم أورد تأييدًا لهذا القول، باستحداث قاعدة قال فيها: إن الرأس يوجد فى القاهرة وذلك بسبب الشك الذى تعارض مع اليقين، واليقين هم أصحاب الكشف[5]. وهذا الاستدلال لا يخضع لعقل أو منطق أو حجة علمية، أو برهان علمى ـ فضلاً عن قواعد المنهج الإسلامى فى الاستدلال- إن الاستدلال على وجود رأس الحسين فى القاهرة كان مبنيًا على استناده بأن الرأس كان فى عسقلان، وقد أثبتنا قبل قليل بطلان وجود الرأس بعسقلان، وبالتالى يكون الرأس الذى حمل إلى القاهرة، والمشهد المعروف اليوم والمقام عليه والمسمى بالمشهد الحسينى هو كذب، وليس له علاقة برأس الحسين رضى الله عنه، وإذا ثبت أن الرأس الذى كان مدفونًا

---

(١) المقريزى (١/٤٢٧)، بدائع الزهور (١/٢٢٧) . (٢) تاريخ ميارفين، ص (٧٠).

(٣) نور البصائر، ص (١٢١)، مشاهد الصفا، ص (٣١٦)، مواقف المعارضة، ص (٣١٦).

(٤) مواقف المعارضة، ص (٣١٧).

(٥) الحسين سيد شباب أهل الجنة، ص (١٤٩ - ١٥٣).

بعسقلان ليس فى الحقيقة برأس الحسين، فإذًا متى ادّعى أن رأس الحسين بعسقلان وإلى من يعود ذلك الرأس؟ يقول النويرى: إن رجلاً رأى فى منامه -وهو بعسقلان- أن رأس الحسين فى مكان بها، عيّن له فى منامه، فنبش ذلك الموضع، وذلك فى أيام المستنصر بالله العبيدى صاحب مصر، ووزارة بدر الجمالى، فابتنى له بدر الجمالى مشهدًا بعسقلان[1]، وقام الأفضل بعد ذلك بإخراجه وعطّره ووضعه فى مكان آخر من عسقلان، وابتنى عليه مشهدًا كبيرًا[2]، ولعلك تعجب من إسراع العبيديين لإقامة المشهد على هذا الرأس، لمجرد رؤيا رجل فقط؟ ولكن إذا عرفت تاريخ العبيديين فإن الأمر لا يستغرب لهذا الحد، فإحساسهم بأن الناس لا يصدقون نسبتهم إلى الحسين، جعلهم يلجأون إلى تغطية هذا الجانب، باستحداث وجود رأس الحسين بعسقلان، ويظهرون من الاهتمام به وبناء المشهد عليه والإنفاق على ترميمه وتحسينه من الأموال الشىء الكثير حتى يصدقهم الناس، ويقولوا: إنه لو لم يكن لهم نسب فيه لما اهتموا به إلى هذا الحد؟ ثم إن هناك بعدًا سياسيًا آخر باستحداث وادعاء وجود رأس الحسين بعسقلان دون غيرها من المناطق التى تقع تحت سيطرتهم وهو محاولة مجابهة الدويلات السنية التى قامت فى بلاد الشام، ومن المعروف أن حكومة المنتصر بالله العبيدى قد صادفت قيام دولة السلاجقة السنية التى تمكن قائدها طغرلبك السلجوقى من دخول بغداد سنة سبع وأربعين وأربعمائة[3]. ومما يدل على أن استحداث وجود رأس الحسين بعسقلان ونقله إلى مصر ما هو إلا خطة عبيدية، أنه لم يرد أن رأس الحسين وجد فى عسقلان فى أى كتاب قبل ولاية المنتصر الفاطمى. وهذا مما يعزز كذب العبيديين وتحقيق أغراض خاصة لهم بذلك[4]، وقد ذكر ابن تيمية أن هذا الرأس المزعوم بأنه رأس الحسين ليس فى الأصل سوى رأس راهب[5]. وقد نقل ابن دحية فى كتابه (العلم المشهور) الإجماع على كذب وجود الرأس بعسقلان أو بمصر، ونقل الإجماع أيضًا على كذب المشهد الحسينى الموجود فى القاهرة، وذكر أنه من وضع العبيديين، ولأنه لأغراض فاسدة وضعوا ذلك المشهد وقد أزال الله تلك الدولة

---

(١) نهاية الأرب (٢٠/ ٤٧٨) .
(٢) اتعاظ الحنفا (٣/ ٢٢) للمقريزى.
(٣) النجوم الزاهرة (٥/ ٥٧)
(٤) مواقف المعارضة، ص (٣١٩).
(٥) رأس الحسين، ص (١٨٧)، نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (٣٢٠).

وعاقبها بنقيض قصدها[1]. وقد أنكر وجود الرأس في مصر كل من: ابن دقيق العيد، وأبو محمد بن خلف الدمياطي، وأبو محمد بن القسطلاني، وأبو عبد الله القرطبي وغيرهم[2]. وقال ابن كثير: وادعت الطائفة المسماة بالفاطميين الذين ملكوا مصر قبل سنة أربعمائة إلى سنة ستين وخمسمائة أن رأس الحسين وصل إلى الديار المصرية ودفنوه بها وبنوا عليه المشهد المشهور بمصر، الذي يقال له تاج الحسين، بعد سنة خمسمائة، وقد نص غير واحد من أئمة أهل العلم على أنه لا أصل لذلك وإنما أرادوا أن يروجوا بذلك بطلان ما ادعوه من النسب الشريف، وهم في ذلك كذبة خونة، وقد نص على ذلك القاضي الباقلاني وغير واحد من أئمة العلماء في دولتهم، قلت: والناس أكثرهم يروّج عليهم مثل هذا، فإنهم جاءوا برأس فوضعوه في مكان هذا المسجد المذكور، وقالوا: هذا رأس الحسين، فراج ذلك عليهم واعتقدوا ذلك، والله أعلم[3].

٦ ـ المدينة النبوية: إن المدن التي مرّ ذكرها لم يثبت لدينا أدنى دليل على وجود الرأس بها، ولم يبق أمامنا سوى المدينة، فقد ذكر ابن سعد بإسناد جمعي: أن يزيد بعث بالرأس إلى عمرو بن سعيد والي المدينة، فكفنه ودفنه بالبقيع، حيث قبر أمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ[4]، وقال ابن تيمية: ثم إن دفنه بالبقيع هو الذي تشهد له عادة القوم، فإنهم كانوا في الفتن، إذا قتل الرجل منهم -لم يكن منهم- سلموا رأسه وبدنه إلى أهله، كما فعل الحجاج بابن الزبير لما قتله وصلبه، ثم سلموه إلى أهله، وقد علم أن سعي الحجاج في قتل ابن الزبير، وأن ما كان بينهما من الحروب أعظم بكثير مما كان بين الحسين وخصومه[5]. كما أننا لا نجد انتقاداً واحداً انتقد فيه يزيد سواءً من آل البيت أو من الصحابة أو من التابعين فيما يتعلق بتعامله مع الرأس، فظني أن يزيد لو أنه تعامل مع الرأس، كما تزعم بعض الروايات من الطوفان به بين المدن والتشهير برأسه، لتصرف الصحابة والتابعون تصرفًا آخر على أثر هذا الفعل، ولما رفض كبارهم الخروج عليه يوم الحرة،

---

(١) رأس الحسين، ص (١٨٦)، مواقف المعارضة، ص (٣٢٠).

(٢) رأس الحسين ص (١٨٦، ١٨٧).

(٣) البداية والنهاية (١١/ ٥٨٢).

(٤) الطبقات (٥/ ٢٣٨)، تاريخ الإسلام، ص (٢٠) حوادث (٦٠ ـ ٨١هـ).

(٥) رأس الحسين، ص (١٨٣).

ولرأيناهم ينضمون مع ابن الزبير المعارض الرئيسى ليزيد[1]، ويؤيد هذا الرأى قول الحافظ أبى يعلى الهمداني: إن الرأس قبر عند أمه فاطمة رضى الله عنهما وهو أصح ما قيل فى ذلك[2]، وهو ما ذهب إليه علماء النسب مثل الزبير بن بكار ومحمد بن الحسن المخزومى[3]، وذكر ابن أبى المعالى أسعد بن عمار فى كتابه (الفاصل بين الصدق والمَيْن، فى مقر رأس الحسين) أن جمعًا من العلماء الثقات كابن أبى الدنيا وأبى المؤيد الخوارزمى، وأبى الفرج بن الجوزى قد أكدوا أن الرأس مقبور فى البقيع بالمدينة[4]، وتابعهم على ذلك القرطبى[5]، وقال الزرقانى: قال ابن دحية: ولا يصح غيره[6]، وابن تيمية يميل إلى أن الرأس قد بعث به يزيد إلى واليه على المدينة عمر بن سعيد وطلب منه أن يقبره بجانب أمه فاطمة رضى الله عنها، والذى جعل ابن تيمية يرى ذلك هو أن الذى ذكر أن الرأس نقل إلى المدينة هم من العلماء والمؤرخين الذين يعتمد عليهم مثل الزبير بن بكار، صاحب كتاب الأنساب، ومحمد بن سعد كاتب الواقدى صاحب الطبقات ونحوهما من المعروفين بالعلم والثقة والاطلاع، وهم أعلم بهذا الباب، وأصدق -فيما ينقلونه- من المجاهيل والكذابين، وبعض أهل التاريخ، الذين لا يوثق بعلمهم، وقد يكون الرجل صادقًا، ولكن لا خبرة له بالأسانيد، حتى يميز بين المقبول والمردود أو يكون سيئ الحفظ أو متهمًا بالكذب أو بالتزوير فى الرواية، كحال كثير من الأخباريين والمؤرخين[7].

وقال أبو عمر عبد الله بن محمد الحمادى: وهكذا اختلفوا فى موقع رأس الحسين على ثلاثة أماكن وكل واحد منهم يريد أن يكون الرأس عنده حتى تكثر الزيارات فيكثر رمى الأموال على القبر ليتقاسمه السدنة، وحرّاس القبور، وبهذا الاختلاف جعلوا للحسين ثلاثة رءوس، ومعلوم يقينًا أنه كان رضى الله عنه له

---

(1) مواقف المعارضة، ص (٣٢٣).
(2) التذكرة (٢/ ٢٩٥).
(3) المصدر السابق (٢/ ٢٩٥) .
(4) الرد على المتعصب العنيد، نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (٣٢٣).
(5) التذكرة (٢/ ٢٩٥)، مواقف المعارضة، ص (٣٢٤).
(6) مشاهد الصفا -ورقة ١٠- نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (٣٢٤).
(7) رأس الحسين، ص (١٧٠).

رأس واحد[1]. ومن خلال البحث، فإنه يتضح أن جسد الحسين رضى الله عنه بكربلاء وأما رأسه فبالبقيع فى المدينة، والله أعلم.

ثالثًا: تقديس أضرحة الأئمة وزيارة قبر الحسين رضى الله عنه عند الشيعة:

بالغ الشيعة فى تعظيم مراقد الأئمة ومنحوها من القداسة والشرف ما لم تحظ به الكعبة المشرفة والمدينة المنورة، فقد نسبوا زورًا وبهتانًا إلى على بن الحسين أنه قال: اتخذ الله أرض كربلاء حرمًا آمنًا مباركًا قبل أن يخلق الله أرض الكعبة ويتخذها حرمًا بأربعة وعشرين ألف عام، وقدسها وبارك عليها، فما زالت قبل خلق الله الخلق مقدسة مباركة، ولاتزال كذلك حتى يجعلها الله أفضل أرض الجنة وأفضل منزل ومسكن يسكن فيه أولياؤه فى الجنة[2]. كما نسبوا إلى جعفر الصادق -وهو برىء مما نسبوا إليه-: أن أرض الكعبة قالت: من مثلى وقد بُنى بيت الله على ظهرى يأتينى الناس من كل فج عميق، وجعلت حرم الله وأمنه؟ فأوحى الله إليها: أن كفّى وقرّى ما فضل ما فضلت به فيما أعطيت أرض كربلاء إلا بمنزلة الإبرة غرست فى البحر فحملت من ماء البحر، ولولا تربة كربلاء، ما فضلتك، ولولا ما تضمنه أرض كربلاء ما خلقتك ولا خلقت البيت الذى به افتخرت، فقرى واستقرى وكونى ذنبًا متواضعًا ذليلاً مهينًا غير مستنكف ولا مستكبر لأرض كربلاء وإلا سخت بك وهويت بك فى نار جهنم[3]. وهذه البقعة بالطبع لم تنل ما نالت إلا بكونها -فى معتقدهم- مدفن الحسين رضى الله عنه.

وقد جرت على ألسنة الشعراء وأقلام الكتاب من بعد الواقعة وإلى يومنا هذا المقارنة بينها وبين الكعبة، وتفننوا بمختلف أساليب النثر والنظم فى إثبات فضلها وقداستها وشرفها واستطالة أرضها على جميع الأقطار بالفضل والشرف، كقولهم: «وهذه الأرض المباركة لم تنل هذا الشرف العظيم فى الإسلام إلا بالحسين -رضى الله عنه- كما نص عليه الحديث: وزادها فى تواضعها وشكرها لله بالحسين (ع) وأصحابه»[4]، وبناء على غلوهم واعتقادهم فى الأئمة ـ وقد مرّ بيان معتقدهم فى

---

(١) شرح الصدور ببيان بدع الجنائز والقبور، ص (١٢٧).

(٢) بحار الأنوار (١٠١/١٠٧)، أصول مذهب الشيعة .

(٣) كامل الزيارات، ص (٢٧٠)، بحار الأنوار (١٠١/١٠٩)، أصول مذهب الشيعة (٢/ ٤٦٤) .

(٤) أصول مذهب الشيعة (٢/ ٤٦٤).

ذلك فى كـتـابى عن أمـيـر المؤمنيـن على رضى الله عنه - ولأجـل ربط الناس بأضرحـتهم ومشاهدهم، وضـعوا الفضائـل الكبيرة والأجور الكثـيرة لمن زار تلك المشـاهد، ومع الكثرة الكاثرة من النصـوص فى هذا الجانـب والتى تتفـاوت فيـها الأجـور والمقارنة بيـن زيارة كربلاء والحج والعـمـرة لبيت الـله الحرام، فـإننى[1] سأقـتصر على نصين فـقط لاحتوائهمـا على معظم تلك النصوص وتصـوير مدى الكذب والافتـراء عند القوم واستخـفافهم بعـقول أتباعهم وجـرأتهم على الله عز وجل فيمـا نسبوه إلى أبى عبـد الله جعفر الصادق أنه قـال: لو يعلم الناس ما فى زيارة الحسين عليه السلام من الفضل لماتوا شـوقًا وانقطعت أنفسهم عليه حسرات، قلت: وما فيه؟ قال: من زاره تشوقًا إليه كتب الله له ألف حجة متقبلة وألف عمرة مبرورة، وأجر ألف شـهيد من شهداء بدر، وأجر ألف صـائم، وثواب ألف صدقة مقبولة وثواب ألف نـسخة أريد بها وجه الله، ولم يزل محفـوظًا سنته من كل آفة أهونها الشـيطان، وكل به ملك كريم يحفظه من بين يديه ومن خلفـه، وعن يمينه وعن شماله، وفوق رأسه وتحت قدمه، فـإن مات من سنته حضرته ملائكة الرحمن يحضرون غسله وأكفانه والاستغفار له، ويشـيعونه إلى قبره بالاستغفار، ويفسح له فى قبره مـد بصره، ويؤمنه الله من ضغطة القبر ومن منكر ونكيـر يروعانه، ويفتح له باب إلى الجنة ويعطى كتابه بيمينه، ويعطى له يوم القيامة نور يضيء لنوره ما بين المشرق والمغرب، وينادى مناد: هذا من زوار الحسين شـوقًا إليه، فلا يبقى أحد يوم القيـامة إلا تمنى يومـئذ أنه كان من زوار الحـسين عليـه السلام[2]. وقد سوّغ هذه المبالغـات أحد أئمتهم بـذكر فضائلهم ومـا أعطوا من صفات فـوق مستوى البـشر فقال: إن هذا ليس بكثير على من جعله الـله إمامًا للمؤمنين، وله خلق السماوات والأرضين، وجـعله صراطـه وسبيله وعـينه ودليله وبابه الذى يؤتى منه، وجـعله المتصل بينه وبين عباده من رسل وأنبياء وحجج وأولياء، هذا مع أن مقابرهم رضى الله عنهم فيها أيضًا إنفاق أموال، ورجاء آمال، وأشخاص أبدان، وهجران أوطان، وتحمل مـشاق، وتجديد ميـثاق، وشهود شـعائر وحضور مـشاعر[3]. ومبالغة فى تقديس تلك القبور جعلوا لها مناسك خاصة بها، وهذه المناسك ليست خاصة بقبر

---

(١) تاريخ كربلاء، ص (١٠٢)، القبورية فى اليمن ص (١٥٥).

(٢) وسائل الشيعة، (٣٥٣/١)، بواسطة أصول مذهب الشيعة (٤٥٦/٢) .

(٣) قائل ذلك الفيض الكاشانى (٢٥٤/٢) القبورية فى اليمن، ص (١٥٦).

الحسين فقط، بل إنها عامة بجميع مشاهد أئمتهم[1]، وقد قال آغا بزرك الطهراني أحد شيوخ الشيعة: إن ما صنفه شيوخهم في المزار، ومناسكه قد بلغ ستين كتابًا[2]، وإليك منسكًا من تلك المناسك التي يؤدونها عند المشاهد باختصار: قال الصادق عليه السلام: إذا أردت المسير إلى قبر الحسين عليه السلام فصُم يوم الأربعاء والخميس والجمعة، فإذا أردت الخروج فاجمع أهلك وولدك وادع بدعاء السفر، واغتسل قبل خروجك، وقل حين تغتسل كذا، وكذا، فإذا خرجت فقل كذا وكذا، ولا تدّهن ولا تكتحل حتى تأتي الفرات، وأقِلْ من الكلام والمزاح، وأكثر من ذكر الله تعالى، وإياك والمزاح والخصومة، فإذا كنت راكبًا أو ماشيًا.. فإذا خفت شيئًا فقل.. فإذا أتيت الفرات فقل قبل أن تعبره... ثم اعبر الفرات.. ثم تفصيل إلى أن يقول: واصنع هذه المناسك.. ثم ضع خدك على القبر (قبر علي بن الحسين) وقل:.. ثم تدور من خلف الحسين عليه السلام إلى عند رأسه وصلّ عند رأسه ركعتين.. ثم تنكب على القبر وتقول.. ثم تخرج من السقيفة وتقف بحذاء قبور الشهداء وتومئ إليهم أجمعين[3]، إلى غير ذلك من تفاصيل لبعض ما يفعلون عند المشاهد من طواف بها واستقبال لها حال الصلاة، وغير ذلك آثرت تركها اختصاراً[4]، وانظر بعضها في أصول مذهب الشيعة[5]، كما أن الشيعة تعتقد أن بناء الأضرحة والقباب على مراقد الأنبياء والأئمة والشخصيات الإسلامية من أفضل المقربات لله سبحانه وتعالى، وإليك ـد على كل من:

١ ـ قدسية كربلاء: لا يوجد نص في كتاب الله ولا صح شيء عن رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين أو علماء الأمة في خير القرون يدل على قدسية كربلاء أو الفضائل المزعومة لها وغيرها كالنجف وما يسمى بالعتبات المقدسة، وأما الذي جاء في كتاب الله وسنة رسوله من قدسية وفضائل فهي: المسجد الحرام، والمشاعر المقدسة داخل المسجد الحرام وخارجه، كالكعبة، ومقام إبراهيم، بئر زمزم، والصفا

---

(١) القبورية في اليمن، ص (١٥٧).

(٢) الذريعة إلى تصانيف الشيعة، نقلاً عن أصول الشيعة (٢/٤٦٧).

(٣) تاريخ كربلاء، ص (١٢٩ ـ ١٣١)، القبورية في اليمن، ص (١٥٨).

(٤) القبورية في اليمن، ص (١٥٨).

(٥) أصول مذهب الشيعة (٢/٤٦٧-٤٧٧).

والمروة، ومنى، ورحاب عرفات، ورحاب مزدلفة، والمسجد النبوى وفضل الصلاة فيه، وفضل ما بين بيت الرسول ومنبره، وجواز شد الرحال إليه، وإلى المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وفضائل المدينة، وفضائل مسجد قباء، ودعاء النبى ﷺ بالبركة للمدينة، ووجود البركة فى صاع أهل المدينة والبقاء بها، وتحريم الرسول ﷺ المدينة وتحريم صيدها وشجرها، وفضل وادى العقيق وبركته ،وفضائل المسجد الأقصى وبركاته، وفضل الصلاة فيه، وجواز شد الرحال إليه، ووجود البركة حوله، وأنه ثانى مسجد وضع فى الأرض بعد المسجد الحرام، الإسراء بالرسول ﷺ. . وجاءت الآيات والأحاديث فى فضل سائر المساجد وبيوت الله عز وجل، فبين رسول الله ﷺ كون المساجد بيوت الله فى الأرض، وفضل السعى إلى المساجد وملازمتها وفضل بناءها[1]. . إلخ. . أما ما نسب إلى رسول الله ﷺ فى قدسية كربلاء وفضائلها فإنه لا يصح فى ذلك، وهذا يجرى حكمه على البلاد والمقابر والقبور والأضرحة مما يزعم الشيعة أو جهّال السنة.

٢ ـ هدى الإسلام فى زيارة القبور: كما هو فى سائر شرائع الإسلام أنها تكون فى غاية من الاعتدال والسماحة، وصادرة عن حكمة بالغة تضمن لمن عمل بها على بصيرة الفوز، والنجاح، والسعادة، دون أن يتعرض بسببها لأى نوع من أنواع الضلال والشقاء فى الدنيا والآخرة، كذلك كانت شرعية زيارة القبور فى الإسلام حينما كان الناس حدثاء عهد بالكفر والشرك وعبادة غير الله فنهاهم الرسول ﷺ عن الزيارة حتى يكون هناك برزخ فاصل بين العهدين: عهد الشرك وعهد التوحيد؛ وعهد الجاهلية، وعهد الإسلام حتى يذهب ما فى النفوس من الالتفات إلى الأرض وما عليها مّما يقدّسه الناس، وعهد السمو الروحى والصفاء القلبى والذهنى الذى لا يبقى معه إلتفات إلى غير الله عز وجل[2]، وفعلاً حينما حصل ذلك، خاطب النبى ﷺ أمته قائلاً: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها[3] فإنها تذكر الموت». وفى رواية: «فإن فى زيارتها تذكرة»، وفى أخرى: «فإنها تذكر الآخرة»[4]، وفى ثالثة: «فزوروها ولتزدكم زيارتها خيراً»[5]، وفى رواية رابعة:

---

(١) من قتل الحسين؟ ص (١١٣).
(٢) القبورية فى اليمن، ص (٧٣).
(٣) مسلم، ك الجنائز، شرح النووى على صحيح مسلم (٤٦/٧) .
(٤) المصدر نفسه (٤٦/٧) .
(٥) سنن الترمذى (٣٦١/٣)، صححه الألبانى فى صحيحه (٣٠٧/١).

«فإن فيهـا عبرة»[1]، ومن حديث أنس رضى الله عنه: ثم بدا لى أنها تُرقّ القلب وتُدمع العين وتُذكر الموت، والدار الآخرة، وتزهِّـد فى الدنيا، وينبغى أن يحرص الزائر أن تزيده زيارته للمقابر خيراً، وهذا كله فيما يخص الزائر[2]، وأما الأموات فإن لهم فيـها نصيبًـا أيضًا فعنعائشـة -رضى الله عنها- أنه كلما كان ليـلتها من رسول الله ﷺ يخـرج من آخر الليل إلى البـقيع فيـقول: «السلام علـيكم دار قومٍ مؤمنين، وأتاكـم ما توعدون، غـداً مؤجَّلون وإنا إن شاء الله بكم لـلاحقون اللهم اغـفر لأهل بقيع الغرقد»[3].

ففى هذه الأحـاديث بيان أن من مقـاصد الزيارة وعللها السـلام على الأموات والدعاء والاستغـفار لهم، قال الإمام الصنعانى - فى سبل السـلام - بعد ما شرح أحاديث الإذن بالزيارة: والكل دالّ على مشـروعية زيارة القبور وبيان الحكمـة فيها وأنها لـلاعتبـار.. فإذا خلت من هـذه لم تكن مرادة شـرعًا[4]. فهذه هى زيارة القبور فى هدى الإسلام كما عـلمهم إيّاها رسول الله ﷺ، فمن أتى بها على هذا الوجه ولهذه الغاية ظفر بالأجر والفائدة المتـرتبة عليها، ومن زارها لغير ذلك فهى ردٌّ عليه. ثم إنها إما أن تكون بدعية وإما أن تكون شركية، بحسب ما يحصل فيها من أعمال ويقارنـها من اعتقاد، وقصد ذلك هو هدى الإسـلام فى زيارة القبور، وتلك هى أهداف وغايات الزيارة واضـحة ناصعة بعيـدة عن كل ذريعة تؤدى إلى الشرك بأربابهـا والغلوّ فى أصحابها، وقـد جاءت بعض القيود التى تسـد الثغرات الموصلة إلى ذلك[5]:

القيد الأول: ألا تتـخذ أعياداً، قال ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبـوراً، ولا تجعلوا قبرى عـيداً، وصلوا علىّ، فـإن صـلاتكم تبلغنى حـيث كنتم»[6]. فليس من هدى الإسلام تعيين يوم معـين من سنة أو شهر، أو أسبوع يخصص لزيارة القبـور كما هو شأن بعض الناس[7].

(١) مسند أحمد (١٧/ ٢٤٩)، حديث صحيح . مؤسسة الرسالة .

(٢) القبورية فى اليمن، ص (٧٤).

(٣) مسلم مع شرح النووى (٧/ ٤٠، ٤١) ك الجنائز.

(٤) سبل السلام شرح بلوغ المرام (٢/ ٢٣٠، ٢٣١). (٥) القبورية فى اليمن، ص (٧٥).

(٦) مسند أبى يعلى (١/ ٣٦١) رقم (٤٦٩)، صحيح بشواهده وطرقه حسنة.

(٧) القبورية فى اليمن، ص (٧٥).

القيد الثانى: ألا تُشَدّ إليها الرحال، فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ولا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام ومسجد الأقصى ومسجدى»[1]. فهذا النهى عن شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة مقصود به أن يشد رحله مسافراً إلى مكان بعينه لعبادة الله تعالى فيه[2]، ولم يثبت أن أحداً من الصحابة أو التابعين، أو علماء أتباع التابعين سافر إلى قبر، أو مشهد لمجرد الزيارة، ولم يصرح أحد منهم باستحباب ذلك العمل[3]، وقال العلامة صديق حسن خان فى كتابه «السراج الوهاج من كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج» وبعد إيراد مختلف الأقوال ومناقشتها قال: وأما السفر لغير زيارة القبور كما تقدم نظائره، فقد ثبت بأدلة صحيحة، ووقع فى عصره ﷺ وقرره النبى ﷺ فلا سبيل إلى المنع منه والنهى عنه، بخلاف السفر إلى زيارة القبور، فإنه لم يقع فى زمنه ولم يقر أحداً من أصحابه، ولم يشر فى حديث واحد إلى فعله واختياره، ولم يشرعه لأحد من أمته لا قولاً ولا فعلاً [4].

٣ ـ البناء على القبور واتخاذها مساجد: نهى رسول الله ﷺ أمته عن البناء على القبور وتعظيمها بأى نوع من أنواع التعظيم، وأخبر ﷺ أنه لا يفعل ذلك إلا شرار الخلق عند الله تعالى، فعن جندب بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس يقول: «.. ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إنى أنهاكم عن ذلك»[5]، وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه ويبنى عليه[6]. وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من شرار الناس من تدركه الساعة وهم أحياء ومن يتخذ القبور مساجد»[7]. ففى هذه الأحاديث التى مرت النهى الصريح عن أى نوع من أنواع التعظيم للقبور، ومن ذلك النهى عن اتخاذها مساجد، والنهى عن مجرد البناء عليها، وعن تجصيصها، والكتابة عليها، وقد توجه النهى أول ما توجه إلى قبور

---

(١) مسلم مع شرح النووى (٩/ ١٠٤ ـ ١٠٦).
(٢) القبورية فى اليمن، ص (٧٦).
(٣) المصدر نفسه، ص (٧٧).
(٤) السراج الوهاج (٥/ ١١٦)، القبورية فى اليمن، ص(٧٧).
(٥) شرح النووى على مسلم (٥/ ١٣).
(٦) المصدر نفسه (٧/ ٣٧).
(٧) المصدر نفسه (٧/ ٣٧).

الأنبياء والصالحين، لماذا؟ لأنها هى التى يخشى الغلو فى أربابها عكس قبور سائر الناس، والفتنة لها أعظم من غيرها. وهذا هو الواقع المشاهد، فإنه ما من مشهد إلا ويزعم أنه بنى على ولى صالح، ذى مناقب وكرامات عظيمة يرجى نفعه ويخاف انتقامه، أو يزعم أنه على نبى من أنبياء الله، كما ظهر ذلك تخمينًا فى أماكن كثيرة من بلاد الله، ولكثير من الأنبياء، مع تصريح العلماء أنه لا يُعلم على التحقيق واليقين إلا قبر نبينا محمد ﷺ، وزاد بعضهم قبر الخليل عليه السلام فى الموضع المشهور باسمه فى فلسطين[1]. وقد قال النووى فى تعليقه على حديث رسول الله السابق: قال العلماء: إنما نهى النبى ﷺ عن اتخاذ قبره مسجدًا خوفًا من المبالغة فى تعظيمه، والافتتان به، فربما أدى ذلك إلى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية، ولما احتاجت الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين والتابعون إلى الزيادة فى مسجد رسول الله ﷺ حين كثر المسلمون وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة رضى الله عنها، مدفن رسول الله ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، بنوا على القبر حيطانًا مستديرة حوله لئلا يظهر فى المسجد، فيصلى إليه العوام ويؤدى إلى المحذور، ثم بنوا جدارين من ركنى القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر، ولهذا قال فى الحديث: «ولولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشى أن يتخذ مسجدًا». والله أعلم بالصواب[2]، وقد أمر رسول الله ﷺ بتسوية القبور المشرفة مع قرن ذلك بطمس التماثيل، فعن أبى الهيّاج الأسدى ـ رحمه الله ـ قال: قال لى على بن أبى طالب: ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ؟ ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلا سوّيته[3]. فهذا أمير المؤمنين على رضى الله عنه يبعث رئيس شرطته أبا الهياج الأسدى لطمس القبور كما بعثه رسول الله ﷺ أى أنه يطبق ما عرفه وفهمه من أمر رسول الله ﷺ بذلك[4]. وقد صرّح العلماء بخلوّ القرون المفضلة من وجود المشاهد، قال ابن تيمية وهو يتكلم عن مشهد رأس الحسين رضى الله عنه: ... دع خلافة بنى العباس فى أوائلها

(1) الفتاوى (٢٧/ ١٤٠).
(2) شرح النووى على مسلم (٥/ ١٢، ١٣).
(3) المصدر نفسه (٧/ ٣٦).
(4) القبورية فى اليمن، ص (٥٤).

وفى حال استقامتها فإنهم حينئذ فى قوتهم وعنفوانهم، ولم يكن على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم من ذلك شيء فى بلاد الإسلام لا فى الحجاز ولا اليمن ولا الشام والعراق ولا مصر ولا خراسان ولاط المغرب، ولم يكن قد أحدث مشهد لا على قبر نبى ولا صاحب ولا من أهل البيت وصالح أصلاً، بل عامة هذه المشاهد محدثة بعد ذلك، وكان ظهورها وانتشارها حين ضعفت خلافة بنى العباس وتفرقت الأمة وكثر فيهم الزنادقة والملبسون على المسلمين، وفشت فيهم كلمة أهل البدع وذلك فى دولة المقتدر فى أواخر المائة الثالثة، فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القداحية بأرض المغرب ثم جاءوا بعد ذلك إلى أرض مصر، وقريبًا من ذلك ظهر بنو بويه فى كثير منهم زندقة وبدع قوية، وفى دولتهم قوى بنو القداح بأرض مصر، وفى دولتهم أظهر المشهد المنسوب إلى على رضى الله عنه بناحية النجف، وإلا فقبل ذلك لم يكن أحد يقول إن قبر على هناك وإنما دفن على رضى الله عنه بقصر الإمارة بالكوفة، وإنما ذكروا أن بعضهم حكى عن الرشيد أنه جاء إلى بقعة هناك، وجعل يعتذر إلى المدفون فيها، فقالوا إنه على وإنه اعتذر إليه مما فعل بولده، فقالوا: هذا قبر على، وقد قال قوم: إنه قبر المغيرة بن شعبة[1] . ويقول الذهبى فى ترجمة عضد الدولة البويهى: وكان شيعيًا جلدًا أظهر بالنجف قبراً زعم أنه قبر الإمام على، وبنى عليه المشهد، وأقام شعار الرفض ومأتم عاشوراء والاعتزال، ثم قال: وبه ختم ترجمة عضد الدولة، قلت: فنحمد الله على العافية، فلقد جرى على الإسلام فى المائة الرابعة بلاء شديد بالدولة العبيدية بالمغرب، وبالدولة البويهية بالمشرق وبالأعراب القرامطة فالأمر لله تعالى[2].

وقال ابن كثير فى حوادث سنة ٣٤٧هـ: وقد امتلأت البلاد رفضًا وسبًا للصحابة من بنى بويه وبنى حمدان والفاطميين، وكل ملوك البلاد -مصرًا وشامًا وعراقًا وخراسان وغير ذلك من البلاد- كانوا رفضًا وكذلك الحجاز وغيره، وغالب بلاد المغرب، وكثر السب والتكفير منهم للصحابة[3]. ويؤيده كذلك ما ذكره السمهودى ـ رحمه الله ـ فى كتابه «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى»، وهو يتحدث عن قبر فاطمة رضى الله عنها قال: وإنما أوجب عدم العلم بعين قبر فاطمة رضى الله عنها

---

(١) الفتاوى (٢٧/ ٢٤٥). (٢) سير أعلام النبلاء (١٦/ ٢٥٠ ـ ٢٥٢) .

(٢) البداية والنهاية (١١/ ٢٣٣)، نقلاً عن القبورية فى اليمن، ص (١١٨).

وغيرها من السلـف ما كانوا عليه من عدم البناء عـلى القبور وتجصيـصها[1]. وقال الشافعى ـ رحمه الله-: ولم أر قبور المهاجرين والأنصار مجصصة، قال الراوى عن طاووس: إن رسول الـله ﷺ نهى أن تبنى القبـور أو تجصص قـال الشافـعى: وقد رأيت من الولاة من يهدم بمكة ما يبنى فيها فلم أرَ الفقهاء يعيبون ذلك[2].

إن الحقيـقة التاريخية تقـول إن القرون الثلاثة المفضلة مـضت وليس هناك قبور معظمة ولا مشاهد أو قبـاب ولا غيرها من مظاهر القبورية، ولا شيء من طقوس ومراسيم العبادات القبورية، وما حاول فـعله الشيعة من ذلك فقد جُوبه بردع قوى من خلفاء المسلمين وأمرائهم، كأبى جعفر المنصور العباسى، وهارون الرشيد[3].

رابعًا : خروج الحسين رضى الله عنه فى الميزان الشرعى:

إن عدم التمعن فـى معارضة الحسين ليزيد، وعـدم التأمل فى دراسة الروايات التاريخية الخاصة بهذه الحادثة، قد جـعل البعض يجنح إلى اعتبار الحسين خارجًا على الإمـام، وأن ما أصابه كـان جزاءً عـادلاً، وذلك وفق ما ثبت مـن نصوص نبوية تدين الخروج على الولاة، فقد قال ﷺ: «من أراد أن يفرق بين المسلمين وهم جميع فاضربوه بالسيف كـائنًا من كان»[4]. قال السيوطى: أى فـاضربوه شريفًا أو وضيعًا على إفـادة معنى العموم[5]. وقال النووى معلقًا على هذا الحديث: الأمر بقتـال من خرج على الإمام أو أراد تفـريق كلمة المسلميـن ونحو ذلك وينهى عن ذلك، فإن لم ينتـه قوتل، وإن لم يندفع شره إلا بالقتل قـتل وكان دمه هدراً[6]، وفى هذا الحديث وغـيره من الأحاديث المشـابهة له جاء تأكـيد النبى ﷺ على أن الخارج على سلطان المسـلمين يكون جزاؤه القـتل، وذلك لأنه جاء ليفـرق كلمة المسلمين، والتعلق المبدئى بهذه النصوص جعل الكثير يظنون أن أبا بكر بن العربى يقول: إن الحسين قتل بسيف جده ﷺ[7]. وإن الجمود على هذه الأحاديث جعل

---

(١) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (٣/٦ ٠ ٩).

(٢) الأم للشافعى، نقلاً عن القبورية فى اليمن، ص (١١٩).

(٣) القبورية فى اليمن، ص (١٣٢، ١٣٣).

(٤) شرح النووى على صحيح مسلم (١٢/ ٢٤١) .

(٥) عقد الزبرجد للسيوطى (١/ ٢٦٤) .

(٦) شرح النووى على صحيح مسلم (١٢/ ٢٤١).

(٧) العواصم من القواصم، ص (٢٤٤، ٢٤٥).

الكرامية مثلاً يقولون: إن الحسين رضى الله عنه باغ على يزيد، فيصدق بحق ما ناله من جزاء وقتل[1]. وأما البعض فقد ذهبوا إلى تجويز خروج الحسين رضى الله عنه واعتبر عمله هذا مشروعًا، وجعلوا المستند فى ذلك إلى أفضلية الحسين وإلى عدم التكافؤ مع يزيد[2]، وأما البعض فقد جعل خروج الحسين خروجًا شرعيًا بسبب ظهور المنكرات من يزيد[3]. ولكن إذا أتينا لتحليل مخرج الحسين رضى الله عنه ومقتله، نجد أن الأمر ليس كما ذهب إليه هؤلاء ولا هؤلاء، فالحسين لم يبايع يزيد أصلاً، واعترض على فكرة التوريث دفاعًا عن الشورى ومبادئ الإسلام الداعمة لحق الأمة فى اختيار من تريد، وخرج معه إلى مكة عبد الله بن الزبير وذهبا لأجل جمع الأتباع وحث المسلمين على الوقوف فى وجه الانحراف الذى أحدث فى نظام الحكم وقلبه من الشورى إلى الوراثة، واستنهاض الهمم لتصحيح هذا الخلل الذى استجد فى عالم الإسلام، وبدأت رحلة الحسين لجمع الأتباع والأنصار نحو التصحيح وإعادة نظام الشورى ومنهاج الخلافة الراشدة والمبادئ الكريمة، لا كما يزعم البعض من كونه خرج طمعًا فى الحكم والسلطة لأنه ينبغى أن تكون فيه وفى ذريته. فتلك النظرة فيها بخس للحسين ومنهجه ولأهل البيت ومنهج القرآن وهدى جده عليه الصلاة والسلام[4].

إن القول بنظرية النص فى على وذريته قول باطل ولا توجد أية آثار صحيحة لنظرية النص فى قصة كربلاء ـ ولا فى غيرها ـ وقد تحدث عن ذلك الأستاذ أحمد الكاتب فى كتابه «تطور الفكر السياسى الشيعى من الشورى إلى ولاية الفقيه»[5]، وقد ناقشت نظرية النص على ولاية على وذريته وأدله الشيعة فى ذلك فى كتابى عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه.

إن الحسين رضى الله عنه لم يبايع يزيد بن معاوية وشرع فى إعداد العدة ولم يخرج عن تعاليم الإسلام التى تشترط الإعداد الجيد لإزاحة الحاكم الجائر حتى

---

(١) نيل الأوطار (٧/ ٣٦٢). (٢) المصدر نفسه (٧/ ٣٦٢).

(٣) الدرة فيما يجب اعتقاد، ص (٣٧٦)، المقدمة (١/ ٢٧١).

(٤) عمر والحسين، علاء الدين المدرس، ص (٥٢).

(٥) تطور الفكر السياسى الشيعى من الشورى إلى ولاية الفقيه، ص (١٨).

يغلب الظن على القـدرة على ذلك، فهو قـد أعد القوة كـما تصورها حـتى ظنها كافية لتـحقيق غرضه، ولكن حساباتـه ـ بلا شك ـ كانت خاطئة[1]، فالحسين لم يقم بخطأ شرعى مخالف للنصوص، خـاصة إذا عرفنا أن بعض الأحاديث جاءت مبينة لنـوع الخروج، فعن ابن عمر رضى الله عـنه قال: رسول الله ﷺ: «الصلاة المكتوبة إلى الصلاة التى بعدها كفارة لما بينهما، والجمـعة إلى الجمعة، والشهر إلى الشهر -يعنى رمضان- كفـارة لما بينهـما» قال: ثم قـال بعد ذلك: «إلا من ثلاث» قال: فعرفت أن ذلك الأمر حدث ـ «إلا من الإشراك بالله، ونكث الصـفقة، وترك السنة»، قال: «أما نكث الصفـقة: أن تبايع رجلاً ثم تخـالف إليه تقاتله بسيـفك، وأما ترك السنة فالخروج من الجماعة»[2].

والحسين رضى الله عـنه ما خرج يريد القتال، ولكن ظن أن الـناس يطيعونه، فلما رأى انصـرافهم عنه، طلب الرجوع إلى وطنه أو الذهاب إلى الثـغر، أو إتيان يزيد[3]، ولقد تعنّت ابن زياد أمام مرونة الحسين وسهولته، وكان من الواجب عليه أن يجيـبه لأحد مطالبه، ولكن ابن زيـاد طلب أمرًا عظيمًا من الحـسين، وهو أن ينزل على حكـمه، وكـان من الـطبيـعى أن يـرفض الحـسيـن هذا الطلب، وحُقّ للحسين أن يرفض ذلك، لأن النزول على حـكم ابن زياد لا يعلم نهايته إلا الله، ولربما كان حكمـه فيه القتل، ثـم إن هذا العرض إنما كان يعرضـه رسول الله ﷺ على الكفـار المحـاربين أعـداء الإسـلام، والحـسين رضـى الله عنه ليس من هذا الصنف، بل هو من أفاضل المسلمين وسيدهم[4]، ولهذا قال ابن تيمية: وطلبه أن يستأسر لهم، وهذا لـم يكن واجبًا عليه[5]. والحقيقـة أن ابن زياد خالف الوجهة الشرعية والسياسيـة حين أقدم على قتل الحسين رضى الله عنه[6]. فالظالم هو ابن زياد وجيشه الذين قدموا على قتل الحـسين رضى الله عنه بعد أن رفضوا ما عرض الحسين من الصلح. ثم إن نصح الصحابة للحسين يجب ألا يفهم على أنهم يرونه خارجًا على الإمام كما ذهب لذلك يوسف العش[7]. بل إن الصحابة رضوان الله

---

(1) الدولة والمجتمع فى العصر الأموى، ص (١٦٥).
(2) مسند أحمد (٩٨/١٢)، إسناد صحيح.
(3) منهاج السنة (٤٢/٤).
(4) مواقف المعارضة، ص (٣٢٩).
(5) منهاج السنة (٤/ ٥٥٠).
(6) مواقف المعارضة، ص (٣٢٩).
(7) الدولة الأموية، ص (١٦٨).

عليهم أدركوا خطورة أهل الكوفة على الحسين وعرفوا أن أهل الكوفة كَذَبَة، وقد حملت تعابير نصائحهم هذه المفاهيم[1]. يقول ابن خلدون: فتبين بذلك غلط الحسين، إلا أنه فى أمر دنيوى لا يضره الغلط فيه، وأما الحكم الشرعى فلم يغلط فيه، لأنه منوط بظنه، وكان ظنه القدرة على ذلك[2]. وأما الصحابة رضوان الله عليهم الذين كانوا بالحجاز ومصر والعراق والشام والذين لم يتابعوا الحسين رضوان الله عليه، فلم ينكروا عليه، ولا أثَّموه، لأنه مجتهد، وهو أسوة للمجتهدين به[3]. قال ابن تيمية: وأحاديث النبى ﷺ التى يأمر فيها بقتل المفارق للجماعة لم تتناوله، فإنه -رضى الله عنه- لم يفارق الجماعة، ولم يقتل إلا وهو طالب للرجوع إلى بلده، أو إلى الثغر، أو إلى يزيد، داخلاً فى الجماعة، معرضًا عن تفريق الأمة، ولو كان طالب ذلك أقل الناس لوجبت إجابته إلى ذلك، فكيف لا تجب إجابة الحسين[4]، ولم يقاتل وهو طالب الولاية، بل قتل بعد أن عرض الانصراف بإحدى ثلاث... بل قتل وهو يدفع الأسر عن نفسه، فقتل مظلومًا[5].

خامسًا: بعض الرؤى فى قصة الحسين رضى الله عنه:

ومن هذه الرؤى المتعلقة بقصة مقتل الحسين رضى الله عنه، عن ابن عباس رضى الله عنه قال: رأيت النبى ﷺ فى المنام بنصف النهار أشعث أغبر معه قارورة فيها دم يلتقطه، قلت: يا رسول الله ما هذا؟ قال: دم الحسين وأصحابه لم أزل أتتبعه منذ اليوم. قال عمار راوى ذلك الحديث: فحفظنا ذلك فوجدناه قُتِل ذلك اليوم[6]، وهذا سنده صحيح عن ابن عباس[7]، وروى ابن سعد بأسانيده، قالوا: وأخذ الحسين طريق العُذيب[8] حتى نزل قصر أبى مقاتل[9]، فخفق خفقة، ثم استرجع، وقال: رأيت كأن فارسًا يُسايرنا، ويقول: القوم يسيرون، والمنايا تسرى إليهم[10]، وقال بعض الناس إن الحسين رضى الله عنه بنى خروجه على

---

(1) مواقف المعارضة، ص (٣٣٠).
(2) مقدمة ابن خلدون (١/ ٢٧١).
(3) المصدر نفسه (١/ ٢٧١).
(4) منهاج السنة (٤/ ٥٥٦) بتصرف.
(5) المصدر نفسه (٦/ ٣٤٠)، بتصرف.
(6) فضائل الصحابة رقم ١٣٨٠ إسناده صحيح.
(7) حقبة من التاريخ، ص (١٣٧).
(8) العُذيب: ماء بين القادسية والمغيثة.
(9) كان بين عين التمر والشام، معجم البلدان (٤/ ٣٦٤).
(10) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٨).

يزيد على رؤيا رآها لرسول الله ﷺ، وبأن رسول الله أمره بأمر وهو ماضٍ له[١]، وقد اعتمد على الرؤى قوم فى أخذهم الأحكام، ويقول الشاطبى: وأضعف هؤلاء احتجاجًا قوم استندوا فى أخذ الأعمال إلى المقامات، وأقبلوا وأعرضوا بسببها؛ فيقولون: رأينا فلانًا الرجل الصالح، فقال لنا: اتركوا كذا واعملوا كذا، ويتفق مثل هذا كثيرًا للمترسمين برسم التصوف، وربما قال بعضهم: رأيت النبى ﷺ فى النوم، فقال لى كذا وأمرنى بكذا، فيعمل بها ويترك بها، معرضًا عن الحدود الموضوعة فى الشريعة، وهو خطأ، لأن الرؤيا من غير الأنبياء لا يحكم بها شرعًا على حال إلا أن تعرض على ما فى أيدينا من الأحكام الشرعية فإن سوغتها عمل بمقتضاها، وإلا وجب تركها والإعراض عنها، وإنما فائدتها البشارة أو النذارة خاصة، وأما استفادة الأحكام فلا[٢]. وعليه؛ فلا عصمة فيما يراه النائم، بل لا بد من عرضه على الشرع فإن وافقه فالحكم بما استقر، لأن الأحكام ليست موقوفة على ما يرى من المنامات، وإن خالف رُد مهما كان حال الرائى أو المرئى، ويحكم على تلك الرؤيا بأنها حلم من الشيطان وأنها كاذبة وأضغاث أحلام[٣]. ولكن يبقى أن يقال: ما فائدة الرؤيا الموافقة للشريعة، إذا كان الحكم بما استقر عليه الشرع؟[٤]. فائدتها التنبيه والبشرى كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات». قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»[٥]، فإن الرجل الصالح قد يرى فى النوم ما يؤنسه أو يزعجه فيكون ذلك دافعًا له إلى فعل مطلوب أن ترك محظور[٦].

سادسًا : إخبار الرسول ﷺ بمقتل الحسين رضى الله عنه:

عن أم سلمة قالت: كان جبريل عند النبى ﷺ والحسين معى، فبكى الحسين، فتركته فدخل على النبى ﷺ، فدنا من النبى ﷺ فقال جبريل: أتحبه يا محمد؟

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٧) .

(٢) الاعتصام (١/ ٢٦٠)، دراسة فى الأهواء والفرق والبدع، ص (٣٠١).

(٣) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد (٢/ ٦٨٧) .

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٦٨٧) .

(٥) البخارى رقم (٦٩٩٠).

(٦) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد (٢/ ٦٨٧).

فقال: نعم. قال: إن أمتك ستقتله، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التى يقتل بها، فأراه إياها فإذا الأرض يقال لها كربلاء[1]، وقد وقع الأمر كذلك بعد مضى سنين طويلة، وهذه معجزة من معجزاته ﷺ الدالة على نبوته وأنه رسول الله حقًا وصدقًا، فقد أخبر النبى ﷺ بذلك عن طريق الوحى[2].

سابعًا: انتقام الله من قتلة الحسين رضى الله عنه:

لقد انتقم الله للحسين الشهيد رضى الله عنه من قاتليه وعلى رأسهم عبيد الله بن زياد، ويزيد بن معاوية، وكل من شارك فى قتله لم يَسلم، أما عبيد الله بن زياد فقد قتله إبراهيم بن الأشتر وحز رأسه وأرسل به إلى المختار بن أبى عبيد الثقفى. يقول ابن عبد البر: قتل الحسين -رضى الله عنه- يوم الأحد لعشر مضين من المحرم يوم عاشوراء سنة إحدى وستين . . . وقضى الله - عز وجل - أن قتل عبيد الله بن زياد يوم عاشوراء سنة سبع وستين، قتله إبراهيم بن الأشتر فى الحرب، وبعث برأسه إلى المختار، وبعث به المختار إلى بن الزبير وبعث به ابن الزبير إلى على بن الحسين[3]، وقد صحّ من حديث عمار بن عمير قال: جىء برأس عبيد الله بن زياد وأصحابه فأتيناهم وهم يقولون: قد جاءت قد جاءت، فإذا حية تخلل الرءوس حتى دخلت منخر عبيد الله فمكثت هُنيهة ثم خرجت وغابت. ثم قالوا: قد جاءت، قد جاءت، ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثًا[4]. أما يزيد بن معاوية فقد مقته الناس وأبغضوه لمقتل الحسين وثار عليه غير واحد، وثار عليه أهل المدينة النبوية الشريفة، فارتكب جريمة أخرى هى موقعة الحرة بالمدينة، فلم يمهله الله تعالى، وكانت دولته أقل من أربع سنين[5]، وجاء عن أبى رجاء العطاردى قال: لا تسبوا عليًا ولا أحدًا من أهل البيت، كان لنا جار من بلهجيم قال: ألم تروا إلى هذا الفاسق الحسين بن على قتله الله؟ فرماه الله بكوكبين فى عينيه فطمس بصره[6]. قال ابن كثير: وأما ما روى من الأحاديث والفتن التى

---

(1) فضائل الصحابة، رقم (1391) بسند حسن.

(2) سير الشهداء، ص (244).

(3) الاستيعاب، حاشية الإصابة (1/ 382).

(4) سير أعلام النبلاء (3/ 549).

(5) الدوحة النبوية، ص (129).

(6) المعجم الكبير للطبرانى (3/ 119) ورجاله رجال الصحيح.

أصابت من قتله فأكثرها صحيح، فإنه قلّ من نجا من أولئك الذين قتلوه من آفة أو عاهة في الدنيا، فلم يخرج منها حتى أصيب بمرض وأكثرهم أصابه الجنون[1].

ثامنًا : القوى المضادة للإسلام ومصيبة كربلاء:

نجحت القوى المضادة للدولة الإسلام في إحداث واقعة كربلاء ثم وجدوا فيها الفرصة السانحة لتمزيق الجماعة الإسلامية، وتفريق الكلمة بتحويل النزاع بين المسلمين، فقد كانت الكوفة مجمع شذاذ الناس وأشرارهم مع خيارهم؛ فقد أتى إليها الصحابة، كما أتى النصارى واليهود، وأقبلت القبائل العربية، كما أقبل الموالي وانتشرت الزندقة والسحر، وانتشرت الحلقات المتعارضة والمجامع المتنافرة، وشرع اليهود بالكوفة في نشر التلمود، والنصارى كانوا ينادون بتجسيد الألوهية، فأطلت رءوس مجامعهم السرية مع المراكز المنطلقة الخفية، واستغلوا دم الحسين واعتبروه ذا قيمة في التضحية تشبه دم المسيح عند النصارى، وتسللوا إلى نفوس من أسلم من الفرس من هذا الطريق يستثيرونهم ضد الدولة بحجة أن الحسين كان قد تزوج جيهان شاه ابنة يزدجرد أم علي بن الحسين[2]، فارتفعوا بهذه الفاجعة عن مصائب البشر الاعتيادية فشبهوها بمصائب الأنبياء[3]، وتسللت من خلالها أفكار أهل الكتاب بسهولة.. واعتبروا أن الحسين لم يتألم لما أصاب أهله ونفسه من القتل والإيذاء بل إنه تألم لأن أمة جده المسئول عن هدايتها بصفته الإمام والحجة ضلت بحربها إياه[4]، وهذا يذكرنا بفكرة النصارى عن صلب المسيح وتعذيبه؛ فكان من السهل بذر هذه الفكرة من قبل أهل الكتاب في نفس من أسلم حديثًا، فأقبل الموالي على التشيع، ورأوا في الحسين إنسانًا روحانيًا قدر له الله منذ الأزل أن يفتدي الإسلام بدمه ويحفظه بتضحية نفسه، فقرن بدور المسيح المخلص[5]... وكان لمستشاري يزيد من النصارى -مثل سرجون- أثر في تلك الأحداث الدامية وما ترتب عليها من نكبات ومصائب[6].

---

(١) البداية والنهاية، نقلاً عن الدوحة النبوية، ص (١٢٩).

(٢) فرق الشيعة، ص (٥٣)، الطبقات (٥/١٥٦).

(٣) أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية، ص (٤٩١)، تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة، ص (٥٤).

(٤) أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية، ص (٤٩٢).

(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (٤٩٤).

تاسعًا : استشهاد الحسين -رضى الله عنه- نقطة تحول فى التاريخ الفكرى والعقدى للتشيع:

يُعد استشهاد الحسين رضى الله عنه نقطة تحول فى التاريخ الفكرى والعقدى للتشيع، إذ لم يقتصر أثر هذه الحادثة الأليمة على إذكاء التشيع فى نفوس الشيعة وتوحيد صفوفهم، بل ترجع أهمية هذه الحادثة إلى أن التشيع كان قبل مقتل الحسين مجرد رأى سياسى لم يصل إلى عقائد الشيعة، فلما قتل الحسين امتزج التشيع بدمائهم وتغلغل فى أعماق قلوبهم، وأصبح عقيدة راسخة فى نفوسهم[1]. لقد نظر الشيعة إلى استشهاد الحسين على أنه أهم من استشهاد على بن أبى طالب نفسه، لأن الحسين ابن بنت رسول الله ﷺ[2]، وقد اعتنق الفرس مبدأ التشيع وبذلك تمركزت العقيدة الشيعية حول الحسين وسلالته دون الحسن وذريته، وإلى اعتناق مبدأ حق الحسين بن على الإلهى وذريته فى الخلافة،وأن الإمامة بالنص لا بالاختيار[3]، بل اعتبر الشيعة سفك دم الحسين فى سهل كربلاء ذا قيمة فى التضحية تشبه سفك دم المسيح المزعوم عند المسيحية[4]، ولم يقتصر التمايز الفكرى والعقدى بين أهل السنة والشيعة بعد مقتل الحسين، بل إن الشيعة أنفسهم قد أثر فيهم مصرع الحسين، وانقسموا على أنفسهم، وافترقوا بعد مقتله إلى فرق[5]، ولكى يكون لمقتل الحسين أهمية خاصة عند الشيعة فقد أكدوا على أهمية يوم عاشوراء، وتفننوا فى إظهار الحزن فى ذلك اليوم، كما ابتدعوا لفضائل ذلك اليوم من الأحاديث والآثار ما لا يقع عليه الحصر، وقد جعلوا البكاء على الحسين يوم عاشوراء يمسح الذنوب ويغفر ما تقدم منها، مما جعل الاحتفال بيوم عاشوراء واجبًا دينيًا يقوم به الحكام والمحكومون على السواء، ويبالغون فى إظهار عواطفهم المذهبية فى هذا اليوم الحزين[6]، لقد أراد واضعو التشيع وعقائده التأكيد على يوم عاشوراء[7]، ويكون التشيع عقيدة ملتهبة فى نفوس أتباعهم، وكانت دولهم تهتم

(١) نظرية الإمامة، ص (٤٧)، مواقف المعارضة، ص (٣٣٨) .

(٢) الخوارج والشيعة، ص (١٨٨)، فلها وزن، مواقف المعارضة، ص (٣٣٩).

(٣) الوثائق السياسية للجزيرة العربية، ص (١٩، ٢٠).

(٤) مواقف المعارضة، ص (٣٣٩)، التاريخ السياسى، عبد المنعم ماجد (٢/ ٧٧).

(٥) فرق الشيعة، ص (٢٣) للنوبختى، مواقف المعارضة، ص (٣٣٩).

(٦) إيران فى ظل الإسلام، عبد المنعم حسنين، ص (١٠٤)، مواقف المعارضة، ص (٣٣٩).

(٧) مواقف المعارضة، ص (٣٤٠).

بهذا الأمر، كالدولة البويهية بالعراق والدولة العبيدية الفاطمية بمصر[1]، وقد تعرضت لعقائد الشيعة بنوع من التفصيل فى كتابى عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه.

عاشراً: من دعاء الحسين رضى الله عنه:

دعا الحسين -رضى الله عنه- بهذا الدعاء قبل المعركة: اللهم أنت ثقتى فى كل كرب، ورجائى فى كل شدة، وأنت لى فى كل أمر نزل بى ثقة وعدة، كم من همّ يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك وشكوته إليك، رغبة منى إليك عمن سواك، ففرجته وكشفته، فأنت ولى كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة[2]. إن الحسين رضى الله عنه يعلمنا حسن الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى والثقة به والتوكل عليه والرغبة إليه، فجدّه ﷺ، قال: «ليس شىء أكرم على الله من الدعاء»[3]، وقد تعلم الحسين رضى الله عنه من تعاليم جدّه ﷺ، بأن الاستعانة لا تكون إلا بالله، والشكوى لا تكون إلا إليه سبحانه، فلا يستعين المرء ولا يشكو إلا إلى الله وحده دون غيره من نبى أو إمام أو صالح.. ويعلمنا الحسين رضى الله عنه أن الدعاء لا يصرف إلا لله وحده دون سواه، فهذا الحسين رضى الله عنه لم يدعُ رسول الله ﷺ أو أباه عليًا، وهو فى هذا الموقف العصيب الذى يودع فيه الحياة، بل دعا الله وحده وتوسل إليه فقط، وفى هذا يعلمنا الحسين رضى الله عنه منهجًا يجب ألا نحيد عنه، وهو أنه عند الدعاء لحاجة المرء أو طلب رزق أو شفاء مريض أو غيرها عليه أن يدعو الله وحده ولا يشرك فى دعائه أحدًا كائنًا من كان هذا المدعو[4]، فمن أحب الحسين رضى الله عنه فعليه أن يدعو الله كما دعا الحسين رضى الله عنه، ولا يقول يا حسين أو يا على، فإن دعاء المخلوقين انحراف عظيم عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وهدى العلماء الربانيين وعلى رأسهم أئمة أهل البيت الأطهار.

قال الشاعر:

وأفنية الملوك محجبات ... وباب الله مبذول الفِنَاء

فما أرجو سواه لكشف ضُرِّى ... ولا أفزعُ إلى غير الدُّعاء[5]

---

(١) مواقف المعارضة، ص (٣٤٠). (٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٣٥٠).

(٣) سنن الترمذى رقم (٣٣٧٠)، حسنه الألبانى فى صحيح الجامع.

(٤) الحسين بن على بين الحقائق والأوهام، عبد الرحمن بن عبد الله جميعان، ص (٥٦).

(٥) الأخلاق، ص (٣٨).

المبحث الرابع

وقعة الحرة (٦٣هـ)

إن ثورة أهل المدينة ومعارضتهم للحكم الأمـوى وخلافة يزيد بن معاوية ما هى إلا امتداد طبيعى لمعارضـة ابن الزبير التى بدأها في مكة، ثم إن قرب فترة يزيد بن معاوية (٦٠هـ) بالخـلافة الراشدة جعل أبناء الصـحابة أكثر شوقًـا لإعادة الشورى وتمكينها بين الناس، وعندما قتل الحسين رضى الله عنه بتلك الصورة الشنيعة ومعه إخوته وأبناء عمه على يد عبيد الله بن زياد، أحس الكثير من أبناء الصحابة بحجم الاستبداد والتسلط الذى بدأت تمارسـه الدولة؛ الأمر الذى جعل الناس فى الحجاز يتعاطفون مع ابن الزبير رضى الله عنه، ورفعه شعار الشورى، فى الوقت الذى لم يحاكم يزيد عبيـد الله بن زياد كأحد المسئولين المباشـرين عن الجريمة النكراء التى لحقت بالحسين وأهله فى كربلاء، واعتـبر الناس هذا التصرف محاباة لابن زياد من قبل ابن عمه يزيد بن معاوية[1].

ومما لا شك فيه أن مقتل الحسين ومن معـه بتلك الصورة قد أهاج الناس جميعًا، وولَّد لديهم شعورًا بالحزن والأسى العميق على فقدانه بتلك الطريقة البشعة[2].

أولاً : وفد المدينة يزور يزيد بدمشق:

أراد والى المدينة عـثمـان بن محمـد بن أبى سفـيان أن يثـبت ولاء أهل المدينة ليزيد، فـاختار منهـا وفدًا وأرسلهم إلى دمشـق، وهناك استقـبلهم يزيد استقـبالاً حسنًا، فأكرم وفادتهم، وأحسـن جوائزهم، وأجزل عطاءهم، وكان فى وفد المدينة عبد الله بن حنظلة الغسـيل الأنصارى، وعبد الله بن أبى عمـرو بن حفص المغيرة الحضرمى، والمنذر بن الزبير، ورجال كثير من أشراف أهل المدينة، وبعد أن أخذوا جوائزهم انصـرفوا إلى المدينة، وهناك عـابوا يزيد وشتـموه، وأظهـروا العداء له، وخلعوه[3]، وأخرج أهل المدينة عـامل يزيد عثـمان بن محـمد من المدينة، كـما

---

(١) مواقف المعارضة، ص (٣٦١) .

(٢) المصدر نفسه، ص (٣٦٢) .

(٣) البداية والنهاية (١١/ ٦٢٤، ٦٢٥) .

أخرجوا مروان بن الحكم وسائر بنى أمية، وبلغ الأمر يزيد، وعلم بما كان من أهل المدينة من خلعه، والميل إلى ابن الزبير، فأعد جيشًا لغزو المدينة أسند قيادته لمسلم ابن عقبة المرى[1].

ثانيًا: موقف علماء أهل المدينة المعارضين للخروج:

١ ـ عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: اعترض بعض علماء المدينة على خلع يزيد والخروج عليه، ولم يؤيدوا من قام بالخروج، وقاموا بنصح إخوانهم واعتزلوا الفتنة وكان أغلب هذا الرأى من أهل العلم والفقه فى الدين، وفى مقدمة هؤلاء العالم الجليل الإمام القدوة عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما؛ فقد اشتهر عنه إنكاره على الذين رفضوا البيعة ليزيد وسعوا فى خلعه[2]، فعندما أراد عبد الله بن مطيع الفرار من المدينة تهربًا من البيعة ليزيد وسمع ذلك عبد الله بن عمر خرج إليه حتى جاءه فقال له: أين تريد يا ابن عم؟ فقال: لا أعطيهم طاعة أبدًا. فقال له: أين تريد يا ابن عم؟ لا تفعل فإنى أشهد أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات ولا بيعة عليه مات ميتة جاهلية»[3] وعندما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه وولده فقال: إنى سمعت النبى ﷺ يقول: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة» وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله، وإنى لا أعلم غدرًا أعظم من أن يبايع رجل على بيعة الله ورسوله ثم ينصب له القتال، وإنى لا أعلم أحدًا منكم خلعه ولا تابع فى هذا الأمر إلا كانت الفيصل بينى وبينه[4]. فقد عارض ابن عمر من خرج من أهل المدينة لسببين:

الأول: نقضهم البيعة، وهو يرى أنهم أعطوا البيعة عن رضى واختيار، ولم يفعلوا مثل الحسين رضى الله عنه، حيث كان موقفه واضحًا منذ البداية، ولم يعط البيعة، وذلك عند ابن عمر خيانة وغدر، ويتضح ذلك فى قوله لعبد الله بن

---

(١) تاريخ خليفة ص (٢٣٧)، أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٥٠٤).

(٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٥٠٦).

(٣) مسلم، ك الإمارة (١٤٧٨/٣)، سير أعلام النبلاء (٣٢٣/٣) .

(٤) مسلم (١٤٧٨/٣) ك الإمارة .

مطيع: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعة لقى الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[1]. وأوجب على أهله الوفاء بالبيعة مذكراً لهم بقول رسول الله ﷺ: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة». وإنا قد بايعنا هذا الرجل، ولا أعلم غدراً أعظم من أن يبايع رجل على بيعة الله ورسوله، ثم ينصب له القتال[2].

الثانى: هو تعظيم حرمة دماء المسلمين وحرمة الاقتتال بينهم، وتزداد هذه الحرمة فى الأماكن المقدسة كمكة والمدينة، ولقد استدل ابن حجر بموقف ابن عمر السابق والأحاديث التى أُستشهد بها على وجوب طاعة الإمام الذى انعقدت له البيعة، والمنع من الخروج عليه، ولو جار فى حكمه، وأنه لا ينخلع بالفسق[3]. والواقع أن موقف ابن عمر لا يدل على جواز بيعة رئيس الدولة الفاسق الظالم، ولا على تحريم خلعه بسبب فسقه وظلمه، وإنما يدل على تحريم الغدر بكل أشكاله، وفى جميع مواضعه، بما فيها غدر الأمة برئيس الدولة الذى اختارته وبايعته[4]، وكأن لسان حال ابن عمر يقول: إذا كنتم تعلمون من يزيد الفسق والظلم فلماذا بايعتموه فى أول الأمر وجعلتمونى أبايعه؟ -لأن ابن عمر لم يبايع حتى بايع أهل المدينة جميعهم - أما وقد بايعتموه فيلزمكم الوفاء بالبيعة، وكان ابن عمر يشك فى أقوالهم عن فسق يزيد، ولم يكن وحده فى هذا الشك، بل كان محمد بن الحنفية ينكر عليهم اتهام يزيد بترك الصلوات وشرب الخمر[5]، ولعل ذلك هو ورع ابن عمر فى أن يتهم أحداً فى دينه ما لم يبلغ عنده ذلك الأمر مرحلة اليقين، ومع ذلك فإنه -مع بقائه على بيعة يزيد- اعتزل القتال ولم يشارك أيًا من الطرفين[6] فهذا موقف شيخ الصحابة فى عصره، وأورع الناس وأزهدهم وأفقههم فى دين الله، وقد شهد له النبى ﷺ بالصلاح والتقوى[7]. وقالت عنه عائشة: ما رأيت ألزم للأمر الأول من عبد الله بن عمر[8]، وقال عنه سعيد بن المسيب: لو شهدت على أحد أنه من أهل الجنة لشهدت على ابن عمر[9]، وقال عنه على بن الحسين:

---

(١) البخارى، ك الفتن، باب (٢١).
(٢) الفقهاء والخلفاء، ص (٦٠).
(٣) فتح البارى (١٣/ ٦٠).
(٤)، (٥) الفقهاء والخلفاء، ص (٦٠).
(٦) المصدر نفسه، ص (٦١).
(٧) مسلم (٤/١٩٢٧)، رقم (٢٤٧٨).
(٨) المستدرك للحاكم (٣/٥٥٩).
(٩) المصدر نفسه (٣/٥٥٩)، فضائل الصحابة (٢/٨٩٥)، رقم (١٧٠٣).

إن ابن عمر أزهد القوم وأصوب القوم[1]، وقال عنه مالك: أقام ابن عمر بعد النبى ﷺ ستين سنة يفتى الناس فى الموسم، وكان من أئمة الدين[2].

٢ ـ محمد بن على بن أبى طالب (ابن الحنفية): فإنه لم ير خروج أهل المدينة على يزيد ولم يستجب لدعوتهم إياه بالخروج معهم، بل جادلهم فى نفى التهم التى أشاعوها عن يزيد، ولما رجع وفد أهل المدينة من عند يزيد مشى عبد الله بن مطيع وأصحابه إلى محمد بن الحنفية، فأرادوه على خلع يزيد فأبى عليهم، فقال ابن مطيع: إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب. فقال لهم: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظبًا على الصلاة، متحريًا للخير، يسأل عن الفقه، ملازمًا للسنة، قالوا: فإن ذلك كان منه تصنعًا لك. فقال: وما الذى خاف منى أو رجا حتى يظهر لى الخشوع؟ فأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا. قالوا: إنه عندنا لحق، وإن لم يكن رأيناه، فقال لهم: أبى الله ذلك على أهل الشهادة، فقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] ولست من أمركم فى شىء[3]. قالوا: فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك فنحن نوليك أمرنا. قال: ما أستحل القتال على ما تريدون عليه تابعًا ولا متبوعًا. قالوا: فقد قاتلت مع أبيك، قال: جيئونى بمثل أبى أقاتل على ما قاتل عليه، فقالوا: فمر ابنيك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا، قال: لو أمرتهما قاتلت. قالوا: فقم معنا مقامًا تحض الناس فيه على القتال، قال: سبحان الله! آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه؟! إذًا ما نصحت لله فى عباده. قالوا: إذًا نكرهك. قال: إذًا آمر الناس بتقوى الله ولا يرضون المخلوق بسخط الخالق. ولما رأى محمد بن الحنفية الأمور تسير فى الاتجاه الذى لا يريده، وبدأ يظهر له سوء عاقبة تصرفات المخالفين له من أهل المدينة حينما ترامى إلى الأسماع قدوم جيش أهل الشام إلى المدينة، لذلك قرر ترك المدينة وتوجه إلى مكة[4]،

---

(١) المستدرك (٣/ ١٦٠) . (٢) طبقات الفقهاء للشيرازى صـ٥٠، مواقف المعارضة، ص (٤٥٧).

(٣) البداية والنهاية (١١/ ٦٥٤)، وذكر الدكتور عبد العزيز دخان أن السند صحيح لأنه من طريق صخر بن جويرية، وهو من الثقات عن نافع، أحداث وأحاديث، ص (٢٠٣).

(٤) البداية والنهاية (١١/ ٦٥٤).

وسار أهل بيت النبوة على هذا المنوال ولزموا الطاعة، ولم يخرجوا مع أهل المدينة ضد يزيد، فعلى بن الحسين بن على بن أبى طالب لم يخرج مع أهل المدينة ولزم الطاعة ليزيد[1]، وهو الذى قال فيه الزهرى: كان أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة، وقال عنه: لم أدرك من آل البيت أفضل من على بن الحسين[2]، وكذلك ابن عباس رضى الله عنهما- وهو فقيه الأمة وحبرها وعالمها، لم ينقل عنه تأييد لأهل المدينة، كما أنه لم يذكر عنه أنه نزع بيعة يزيد بن معاوية، فهؤلاء أفضل آل بيت النبوة فى زمانهم، ومع ذلك لم يخرجوا مع أهل المدينة، ومسوغات الخروج على يزيد عندهم أكثر من غيرهم[3].

٣ ـ النعمان بن بشير الأنصارى رضى الله عنه: وممن عاب على أهل المدينة خروجهم وعارضه: الصحابى الجليل النعمان بن بشير الأنصارى، وقد كان إبان خروج أهل المدينة فى الشام، فاستغل يزيد فرصة وجوده فبعثه إلى أهل المدينة لعله يفلح فى صدهم عن الخروج ويعيدهم إلى الطاعة ولزوم الجماعة، فاستجاب النعمان لذلك وقدم المدينة فجمع عامة الناس، وأمرهم بالطاعة ولزوم الجماعة، وخوّفهم الفتنة وقال لهم: إنه لا طاقة لكم بأهل الشام، فقال له عبد الله بن مطيع: ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا، وفساد ما أصلح الله من أمرنا؟ فقال النعمان: أما والله لكأنى بك -لو قد نزلتْ تلك التى تدعو إليها، وقامت الرجال على الركب تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيوف، ودارت رحى الموت بين الفريقين- قد هربتَ على بغلتك تضرب جبينها إلى مكة، وقد خلفت هؤلاء المساكين[4] يقتلون فى سككهم ومساجدهم وعلى أبواب دورهم، فعصاه الناس، فانصرف، وكان -والله- كما قال[5].

٤ ـ عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنهما: فقد كان بالشام عندما عزم يزيد أن يبعث جيشًا إلى المدينة، فحاول عبد الله بن جعفر أن يتدخل فى الأمر ليجنب أهل المدينة شر القتال، فكلم يزيد وطلب منه الرفق بأهل المدينة ورققه

(١) مواقف المعارضة، ص (٤٥٨). (٢) تاريخ ابن عساكر (١٢/ ٣٥)، مواقف المعارضة ص (٤٥٨).
(٣) مواقف المعارضة، ص (٤٥٨). (٤) المساكين: يعنى الأنصار.
(٥) تاريخ الطبرى نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٥١٣).

عليهم، وقال: إنما تقتل بهم نفسك. وقد تجـاوب معه يزيد حين قال: فإنى أبعث أول جيـش وآمرهم أن يمـروا بالمدينة إلى ابن الزبير -فـإنه قد نصب لنـا الحرب- ويجعلوها طريقًا ولا يقـاتلهم، فإن أقر أهل المدينة بالسمع والطاعـة تركهم، وقد وجد عبد الله بن جعفـر مدخلاً لكف القتال والأذى عن أهل المدينة، فكتب على الفور إلى زعـماء أهل المدينة يخبـرهم بذلك ويقول: اسـتقبلوا مـا سلف واغنموا السلامة والأمن، ولا تعرضوا لجنده ودعوهم يمضون عنكم[١]. وكان ردهم عليه: لا يدخلها علينا أبدًا[٢].

٥ ـ سعيد بن المسيب رحمه الله: فإنه قد اعتزل فتنة خروج أهل المدينة ولم يدخل فيما دخلوا فيه، ولم يكن يحضر لهم أمرًا من أمورهم إلا الجمعة والعيد، وقد لزم المسجد نهاره لا يبرحه إلى الليل والناس فى قتالهم أيام الحرة[٣].

ومن كل ما سـبق ندرك أن أهل المدينة انقسـموا تجاه البـيعة ليـزيد والدخول فى طاعته إلى قـسمين: القسم الأول منهم تزعمـه عدد ممن دفعه الحمـاس والغيرة على الدين إلى خلع يزيد، ولقد اشترك بعض الفقـهاء فى موقعة الحرة، وانضم إلى أهل المدينة وخلع يزيـد، وقاتل الجـيش الأمـوى، ومن أبرزهم مـحـمد بن عـمـرو بن حزم[٤]، وهذا يعطى لحركة أهل المدينة خـصوصية الارتكاز على المرجعيـة الشرعية للفقهاء فى مقاومة حكم يزيد بن معاوية، ولقد اعتمدت ثورة أهل المدينة على فتوى هؤلاء العلماء ومن قبلهـم الحسين بن على فى وجوب مقـاومة المنكر، ويتضح ذلك فى خطاب عـبد الله بن حنظلة حـين قال: يا قـوم اتقوا الله وحـده لا شريك له، فوالله ما خـرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بحجـارة من السماء[٥]، وقد شارك فى ثورة أهل المدينة عدد من صغار الصحابـة هم: عبد الله بن زيد، وعبد الرحمن ابن أزهر، وعبد الله بن حنظلة[٦]، إلا أن معظم الصحابة ممن عاش إلى وقعة الحرة لم يشتركوا فيها، وحاولوا إقناع الثائرين بعدم خلع يزيد والخروج على حكمه[٧].

---

(١) الطبقات (٥/ ١٤٥). (٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٥١٤).

(٣) الطبقات (٥/ ١٣٢)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٤) الطبقات الكبرى (٥/ ٦٩ ، ٧٠). (٥) المصدر السابق (٦/ ٦٦).

(٦) قيم المجتمع للعمرى (٢/ ٤٧)، الفقهاء والخلفاء، ص (٣١).

(٧) الفقهاء والخلفاء، ص (٣١) سلطان حثلين.

ومع أن الأسس الشـرعية التـى قامت عليـها حركـة أهل المدينة وفتـاويهم فى الخروج على يزيد هى نفس الأسـس التى بنى عليها الحـسين موقفـه، وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، واجب على علمـاء الأمة وقادتها، وأن بنى أمـية قد تجاوزوا فى حكمهم حـدود الشريعة، سواء على الصعيد السـياسى وطريقة الحكم كالانفـراد بالسلطة وغياب الشـورى، والاستبداد. . أو علـى الصعيد الشـخصى، كانعـدام الكفاءة والعدالة فى شخص يـزيد، فإن هناك اختلافًـا كبيرًا من الناحـية الشرعيـة فى الأصل الذى بنى عليه الحسين فـتواه ومن ثم اتخذ قراره فى مـقاومة يزيد، فالحسين لم يعط البيعة ليزيد منذ البداية، وعلى ذلك فإنه كان يرى أنه يحق له ـ من هذا المنطق ـ حرية التصرف فى مقاومة الحكم، الأموى، بينما نجد أن أهل المدينة قد أعطـوا البيعـة ليزيد، ومن بعد ذلك رأوا أنهم يجـوز لهم نقض البيـعة وخلع يزيد نظرًا لعدم كـفاءته وصلاحه لـلحكم، فأضافوا بذلك بعـدًا جديدًا إلى فتوى الحـسين، وهى أنه يجوز خلع الحاكم المسلم الذى يعـتقد بفساده وفـسوقه، وهو أمر خالفهم فيه بقيـة الصحابة -أى القسم الثانى من أهل المدينة- ولعل ذلك هو السبب الرئيسى الذى جعل فقهاء المدينة من الصحابة يندّدون بقوة بخروج أهل المدينة؛ فهم يرون أن نقض البيعة لا يجـوز، وأن فسوق الحاكم لا يوجب الخروج عليه[1]، يضاف إلى ذلك خوف كثير من فقهاء ومـفتى الصحابة ممن حضر موقعة الحرة على أهل المديـنة من القتل، والخوف على انتـهاك قدسـية مـدينة رسول الله ﷺ، وقد وقع ذلك بالفعل[2]، ومع ذلك فإن جميع الصحابة وفقهاء المسلمين لم يرضوا عن تصـرف يزيد وقتله أهل الحرة واسـتباحـته المدينة،[3] بل إن ابن تيمية يعتبر هذا التصرف من كبائر الذنوب التى اقترفها يزيد[4].

ثالثًا : معركة الحرّة:

اشتـد الأمر علـى يزيد حين علم بأن بنى أمـية فى المدينـة محاصـرون فى دار مروان بن الحكم، فـأرد أن يخلصهم من هذا الحـصار قبل أن يقـتلوا أو يحل بهم مكروه ـ وكانوا ألف رجل ـ فعز عليـه أن يقتل هؤلاء، فى سلطانه، دون أن يقدم

---

(١) الفقهاء والخلفاء، ص (٣٢). (٢) تاريخ خليفة، ص (٢٣٨، ٢٣٩)، الفقهاء والخلفاء، ص(٣٢).

(٣) حركة النفس الزكية، ص (٣٠)، الفقهاء والخلفاء، ص (٣٠).

(٤) الفتاوى، نقلاً عن الفقهاء والخلفاء، ص (٣٢).

لهم عونًا، فأمر بتجهيز جيش ليذهب إلى المدينة، فيخلص بنى أمية، ويرد هؤلاء المتمردين إلى الطاعة، وطلب عمرو بن سعيد ليقود الجيش فأبى، وأرسل إلى عبيد الله بن زياد ليرد أهل المدينة إلى الطاعة ثم يغزو ابن الزبير، فقال: لا أجمعهما للفاسق أبدًا، أقتل ابن بنت رسول الله ﷺ وأغزو البيت؟![1] ثم استقر الرأى على إرسال مسلم بن عقبة المرى[2].

١ ـ وصية يزيد لمسلم : اجتمع الجيش، وهمّ مسلم بن عقبة أن ينطلق بهم إلى المدينة، فقال له يزيد: ادع القوم ثلاثًا، فإن رجعوا إلى الطاعة، فاقبل وكف عنهم، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا ظهرت عليهم فأبح المدينة ثلاثًا، ثم اكفف عن الناس، وانظر إلى على بن الحسين فاكفف عنه، واستوص به خيرًا، وأدن مجلسه فإنه لم يدخل فى شىء مما دخلوا فيه، وأمر مسلمًا إذا فرغ من المدينة أن يذهب لحصار ابن الزبير، وقال له: إن حدث بك أمر فعلى الناس حصين بن نمير السكونى[3].

٢ ـ مسلم يستعرض الجيش: ركب مسلم بن عقبة فرسه واستعرض جيشه الذى سيحارب به أهل المدينة، فجعل على أهل دمشق عبد الله بن مسعدة الفزارى، وعلى أهل حمص حصين بن نمير السكونى، وعلى أهل الأردن حبيس بن دلجة القينى، وعلى أهل فلسطين روح بن زنباع الجذامى، وشريك الكنانى، وعلى أهل قنسرين طريف بن الحسحاس الهلالى، وعليهم جميعًا مسلم بن الوليد بن عقبة المرّى الغطفانى[4]، وسار مسلم إلى المدينة فوجد بنى أمية وقد أخرجوا منها، وساروا فى اتجاه الشام، فاستوقفهم وسألهم عن الوضع فى المدينة، فلم ينطقوا بجواب، وكان أهل المدينة قد أطلقوا حصارهم بعد أن أخذوا عليهم العهود والمواثيق ألا يدلوا على عورة ولا يعاونوا عدوًا، وطلب مسلم منهم أن يدلوه على ما وراءهم فلم يستجيبوا، فغضب مسلم منهم غضبًا شديدًا، فلم يبرد غضبه إلا عبد الملك بن مروان الذى دلَّه على الخطة التى يجب اتباعها فى حرب المدينة، فأشار إليه بأن يأتيها من جهتها الشرقية، ويلحق فى الجنوب منها، يواجه أهل

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/٤١٧).
(٢) المصدر نفسه (٦/٤١٦).
(٣) البداية والنهاية (١١/٦١٧).
(٤) المصدر نفسه (١١/٦١٦).

المدينة، فى مكان يسمى الحرَّة، وتأتى الشمس أمام جيش الشام فتلمع خوذهم وسلاحهم فيرهبون عدوهم، ويكون لهم السيطرة من الوجهة الحربية[1].

٣ ـ بدء المعركة: وفى يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر ذى الحجة ٦٣هـ وقعت المعركة المشئومة، فوجه مسلم خيله نحو أهل المدينة والتقى الجيشان، وحمل عبدالله بن حنظلة الغسيل على خيل الشام، فانكشفت الخيل، وانهزموا، حتى انتهوا إلى مسلم، فنهض بمن معه وقاتلوا قتالاً شديدًا، وانكشف أهل المدينة من كل جانب، وجاء الفضل بن عباس بن ربيعة إلى ابن الغسيل فقاتل معه، وطلب منه أن يجمع الفرسان ليقاتلوا معه وكان قد عزم على الوصول إلى مسلم بن عقبة ليقتله، فأمر ابن الغسيل أن يجتمع الفرسان حول الفضل، وحمل الفضل بهم على أهل الشام فانفرجوا وجثت الرجال أمامه على الركب، ومضى نحو راية مسلم فقتل صاحبها وهو يظنه مسلمًا[2]، وكان الذى قتله الفضل غلامًا لمسلم اسمه رومى، وأخذ مسلم الراية ونادى فى جيشه يحضهم على القتال وأمر أحد قادته أن ينضحوا ابن الغسيل بالنبل ونادى مسلم: يا أهل الشام، أهذا هو قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم، وأن يُعزّوا به نصر إمامهم؟! قبح الله قتالكم منذ اليوم، ما أوجعه لقلبى، وأغيظه لنفسى! أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تُحرموا العطاء، وأن تجمروا[3] فى أقاصى الثغور، شدوا مع هذه الراية. ومشى برايته، وشدت الرجال أمام الراية، وصرع الفضل بن عباس بن ربيعة وما بينه وبين أطناب مسلم إلا عشر أذرع، وقتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف وإبراهيم بن نعيم العدوى فى رجال من أهل المدينة كثير[4]، ثم إن خيل مسلم ورجاله أقبلت نحو عبد الله ابن حنظلة الغسيل ورجاله حتى دنوا منه، وركب مسلم بن عقبة فرسًا له، فأخذ يسير فى أهل الشام ويحرضهم ويقول: يا أهل الشام إنكم لستم بأفضل العرب فى أحسابها وأنسابها، ولا أكثرها عددًا، ولا أوسعها بلدًا، ولم يخصكم الله بالذى خصكم به من النصر على عدوكم وحسن المنزلة عند أئمتكم إلا بطاعتكم واستقامتكم، وإن هؤلاء القوم وأشباههم من العرب غيَّروا فغير الله بهم، فتموا

---

(١) الدولة الأموية، د.العش، ص (١٧٦)، الخلافة الأموية للهاشمى، ص (٨٥).

(٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٢٢).

(٣) تجمروا: تحبسوا.

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٢٣).

على أحسن مـا كنتم عليه من الطاعة يتـمم الله لكم أحسن ما يـنيلكم من النصر والظفر[١]. وأمر مسلم أجدر رمـاته أن يصوب رميه نحو ابن الغـسيل، فقال ابن الغسيل: علام تـستهدنون لهم؟ من أراد التعجل فليلزم هذه الراية، فـقام إليه كل مستميت، فقال: الغـدوَّ إلى ربكم. فوالله إنى لأرجو أن تكونوا عن ساعه قريرى عين، فنهض القوم واقتتلوا أشد قتال رئى فى ذلك الزمان، وأخذ ابن الغسيل يقدم بنيه أمامه واحداً بعد واحد حتى قتلوا بين يديه، وقتل هو وقتل معه أخوه[٢].

٤ ـ نهاية المعركة : انتهت المعركة لصـالح جيش الشام، وهزم أهل المدينة هزيمة ماحقة، قتل فيها خلق كثير من القادة ووجوه الناس، ولم يخف مروان أسفه على ابن حنظلة ومحمد بن عمرو بن حزم، وإبراهيم بن نعيم بن النحام، وغيرهم، بل كان يثنى عليهم ويذكرهم بأحسن صفاتهم التى اشتهروا بها[٣]، وكان القتل ذريعًا فى المدنيـين، وقد شبهتـهم الرواية بنعام الشـرد، وأهل الشام يقـتلونهم فى كل وجه[٤]، وقد قتل فى هذه المعركة، عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، ويشهد لذلك ما ذكـره سعيد بن المسـيب حينما قـال: وقعت الفتنة الأولى -يعنى مـقتل عثمان ـ فلم تبق من أصحاب بدر أحدًا، ثم وقعت الفتنة الثانية ـ يعنى الحرَّة ـ فلم تبق من أصحـاب الحديـبـية أحدًا، ثم وقـعت الثالثة فلم ترتفـع وللناس طبّاخ[٥]، ولقد أورد خليفة فى تاريخـه قوائم بأسماء قتلى الحرَّة ثم قال: فـجميع من أصيب من قـريش والأنصار ثلاثمـائة رجل وسـتة رجـال[٦]، وقد تابعـه على ذلك أبو العرب[٧]، والأتابكى[٨]، وهناك رواية مسندة عن الإمام مالك قـال فيها: إن قتلى الحرَّة سـبعمـائة رجل من حملة القرآن، وقـال الراوى: وحسبت أنّه قـال: وكان معـهم ثلاثة أو أربعـة من أصحاب رسـول الله ﷺ[٩]. ورواية مالـك أقرب إلى الصحة من الذى ذكر خليفة[١٠].

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٢٣). (٢) المصدر نفسه (٦/ ٤٢٤).

(٣) الطبقات (٥/ ٦٨، ٧١)، المحن، ص (١٧٩). (٤) الطبقات (٥/ ٦٨).

(٥) المراد: لم تبق فى الناس من الصحابة أحداً، فتح البارى (٧/ ٣٧٥).

(٦) تاريخ خليفة، ص(٢٥٠)، مواقف المعارضة، ص (٤٢٢). (٧) المحن، ص (١٨٧ ـ ٢٠٠).

(٨) النجوم الزاهرة (١/ ١٦٠).

(٩) المحن، ص(٢٠٠)، بإسناد صحيح،مواقف المعارضة، ص (٤٢٣). (١٠) مواقف المعارضة، ص (٤٢٣).

٥ ـ المبالغات التى أوردها البعض فى تقدير عدد القتلى من المدنيين: ومن الغريب تلك المبالغات التى أوردها البعض فى تقدير عدد القتلى من المدنيين، فمثلاً هناك رواية الواقدى -والتى أخذ بها غالب المتقدمين والمتأخرين- عن عبد الله بن جعفر قال: سألت الزهرى: كم بلغ القتلى يوم الحرة؟ قال: أما من قريش والأنصار ومهاجرة العرب ووجوه الناس فسبعمائة، وسائر ذلك عشرة آلاف، وأصيب بها نساء وصبيان بالقتل[١]. والسند عن الواقدى وهو متروك، ثم إنه عورض بسند أصح منه، وهى رواية مالك، فتعتبر رواية الواقدى رواية منكرة لا يعتمد عليها فى تقدير عدد القتلى[٢]، ولقد أنكر ابن تيمية صحة ما ذكر الواقدى، واستبعد أن يصل العدد إلى هذا الحد[٣].

٦ ـ نهب المدينة: لقد اشتهر أن مسلم بن عقبة المرى، أمر بانتهاب المدينة، فمكثوا ثلاثة أيام من شهر ذى الحجة ينتهبون المدينة حتى رأوا هلال المحرم، فأمر الناس فكفوا، وذلك لأن معركة كانت لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وستين للهجرة، وتعتبر رواية نافع مولى ابن عمر هى أصح رواية نصت على حدوث الانتهاب، فقد قال: . . وظفر ـ مسلم بن عقبة ـ بأهل المدينة وقتلوا وانتهبت المدينة ثلاثاً[٤]. وقد وردت لفظة الاستباحة عند السلف لتعنى النهب، كما ورد على لسان عبد الله بن يزيد بن الشخير حين قال: ولما استبيحت المدينة -يعنى الحرة- دخل أبو سعيد الخدرى غاراً[٥]، ومن هنا يعلم أن الاستباحة والنهب جاءت بمعنى واحد حيث جاءت هاتان اللفظتان فى غالب المصادر المتقدمة[٦]، وقرار انتهاب المدينة الذى اتخذه هو يزيد بن معاوية، وقد حمله الإمام أحمد مسئولية انتهاب المدينة، فعندما سأله مهنا بن يحيى الشامى السلمى عن يزيد قال: هو الذى فعل بالمدينة ما فعل. قلت: وما فعل؟ قال: نهبها[٧]. وقال ابن تيمية: فبعث إليهم ـ أى أهل المدينة ـ جيشاً وأمره إذا لم يطيعوه بعد ثلاث أن يدخلها بالسيف ويبيحها ثلاثا،[٨] وذهب إلى ذلك ابن حجر[٩]. ولا يشك أن انعدام

---

(١) المحن، ص (١٨٤)، وفاء الوفاء (١/ ١٣٢)، مروج الذهب (٣/ ٧٩)، مواقف المعارضة، ص (٤٢٤).

(٢) مواقف المعارضة، ص (٤٢٤). (٣) منهاج السنة (٤/ ٧٧٥).

(٤) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٨)، بإسناد حسن . (٥) الطبقات الكبرى نقلا مواقف المعارضة، ص (٤٢٧).

(٦) الطبقات(٥/ ٢٢٥)، مجمع الزوائد(٧/ ٢٤٩). (٧) السنة للخلال، ص (٥٢٠)، طبقات الحنابلة (١/ ٣٤٧).

(٨) الوصية الكبرى، ص (٤٥٢). (٩) تهذيب التهذيب (١١/ ٣١٦) .

الأمن والخوف فى المدينة، قد أدّى بالبعض إلى الهروب منها والالتجاء إلى الجبال المجاورة، كما حدث لأبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، فقد هرب من المدينة ودخل غاراً والسيف فى عنقه؛ ودخل عليه شامى فأمره بالخروج، فقال: لا أخرج وإن تدخل قتلتك، فدخل عليه فوضع أبو سعيد السيف وقال: بُؤْ بإثمى وإثمك، قال: أنت أبو سعيد الخدرى؟ قال: نعم، قال: فاستغفر لى. فخرج[1]. وقد ذكر الواقدى أنّ أهل الشام نتفوا لحيته انتقامًا منه، ولكن هذا لم يرد من طريق صحيحة[2]. ولكن الشىء الذى يجب التنبه إليه هو أن النهب لم يمثل كل أهل المدينة، فلم نسمع أن ابن عمر قد انتهبت داره، أو على بن الحسين، أو غيره من الذين لم يقفوا بجانب المعارضين، وإنما كان الانتهاب فى الأماكن التى يدور فيها القتال، وتعرف المعارضة للحكم الأموى[3].

لقد أخطأ يزيد خطأً فاحشًا فى قوله لمسلم بن عقبة أن يبيح المدينة ثلاثة أيام، وهذا خطأ كبير، فإنه وقع فى هذه الأيام الثلاثة من المفاسد العظيمة فى المدينة النبوية ما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ، مما لا يعلمه إلا الله عز وجل، وقد أراد بإرسال مسلم بن عقبة توطيد سلطانه وملكه ودوام أيامه، فعاقبه الله بنقيض قصده، فقصمه الله قاصم الجبابرة وأخذه أخذ عزيز مقتدر[4]، قال رسول الله ﷺ: «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح فى الماء»،[5] ومن الأحاديث التى تدل على شناعة جريمة إخافة أهل المدينة وتبين سوء عاقبة فاعلها[6] قوله ﷺ: «من أخاف أهل المدينة أخافه الله عز وجل، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً»[7].

٧ ـ ما قيل حول انتهاك الأعراض: لم نجد فى كتب السنة أو فى تلك الكتب التى ألفت فى الفتن[8]، وكذلك لم نجد فى المصدرين التاريخيين المهمين عن هذه الفترة وهما (الطبرى والبلاذرى) أى إشارة لوقوع شىء من ذلك، وهما قد اعتمدا على روايات الإخباريين المشهورين مثل عوانة بن الحكم وأبى مخنف الشيعى

---

(١) تاريخ خليفة، ص (٢٣٩) إسناد صحيح. (٢) مجمع الفوائد (٧/ ٢٥٠)، مواقف المعارضة، ص (٤٣١).

(٣) مواقف المعارضة، ص (٤٣١). (٤) البداية والنهاية (١١/ ٦٢٧).

(٥) البخارى رقم (١٨٧٧). (٦) من تصلى عليهم الملائكة ومن تلعنهم؟، ص (٦٨).

(٧) مسند أحمد (٢٧/ ٩٤)، إسناده صحيح، مؤسسة الرسالة.

(٨) انظر الفتن لنعيم بن حماد، والفتن لأبى عمرو الدانى.

وغيرهما[1]، وأول من أشار إلى انتهاك الأعراض، المدائنى المتوفى سنة ٢٢٥هـ، حيث قال المدائنى عن أبى قرة عن هشام بن حسان قال: ولَدت بعد الحرة ألف امرأة من غير زوج. ويعتبر ابن الجوزى هو أول من أورد هذا الخبر فى تاريخه[2]، وفى رسالته الخاصة التى ألفها فى الطعن على يزيد بن معاوية وإظهار مثالبه[3]، وقد نقلها عن ابن الجوزى السمهودى مؤرخ المدينة المتوفى فى القرن العاشر الهجرى[4]، ويبدو أن الطبرى، والبلاذرى، وخليفة بن خياط وغيرهم، لم يقتنعوا بصحة هذا الخبر، فإنهم قد أعرضوا عنه ولم يدخلوه فى كتبهم، ولا يوجد خبر صحيح الإسناد فى حادثة الاغتصاب المزعومة. وقد ورد فى دلائل النبوة للبيهقى من طريق يعقوب بن سفيان قال: حدثنا يوسف بن موسى: حدثنا جرير بن المغيرة قال: أنهب مسرف بن عقبة المدينة ثلاثة أيام، فزعم المغيرة أنه افتض فيها ألف عذراء[5]، ومن الجدير بالذكر أن كل من أورد خبر انتهاك أعراض أهل المدينة فى معركة الحرةً قد اعتمد على رواية يعقوب أو رواية المدائنى فقط[6]، وكلتاهما لا تصح ولا تثبت، وقد ذكر العصامى فرية لم يسبق إليها حيث قال: وافتض فيها ألف عذراء وإن مفتضها فعل ذلك أمام الوجه الشريف، والتمس ما يمسح به الدم فلم يجد ففتح مصحفًا قريبًا منه ثم أخذ من أوراقه ورقة فمسح بها، نعوذ بالله ما هذا إلا صريح الكفر وأنتنه[7]، وقد أطلق العنان بعض الكتّاب لرغباتهم وأهوائهم ولم يستندوا إلى أى دليل، والروايات المتعلقة بالاغتصاب لا يمكن الاعتماد عليها[8]، ثم إن القرائن المصاحبة لمعركة الحرّة تنفى وجود أى نوع من الاغتصاب، وقد رأينا أن الروايات الحسنة التى ذكرت انتهاب المدينة -وأثبتناها فى موضعها- لم يرد فيها ذكر لانتهاك الأعراض[9].

إن انتهاك أعراض نساء المدينة لا أساس له من الصحة، وإنها روايات جاءت متأخرة، وبدافع حزبى بغيض، يتخذ من الكره والتعصب ضد التاريخ الأموى

---

(١) مواقف المعارضة، ص (٤٢٢).
(٢) المنتظم (٦/ ١٥) .
(٣) رسالة فى جواز لعن يزيد، نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (٤٣٣) .
(٤) وفاء الوفا (١/ ١٣٤).
(٥) دلائل النبوة (٦/ ٤٧٥)، مواقف المعارضة، ص (٤٣٤) .
(٦) مواقف المعارضة، ص (٤٣٧).
(٧) سمط النجوم العوالى (٣/ ٩٢)، مواقف المعارضة، ص (٤٣٨) .
(٨)، (٩) مواقف المعارضة، ص (٤٣٩).

دافعًا له، وتهدف إلى إظهار جيش الشام -الذى يمثل الجيش الأموى- جيشًا بربريًا لا يستند لأسس دينية أو عقائدية أو أخلاقية، وهذا الاتهام لا يقصد به اتهام الجيش الأموى فقط، بل إنَّ الخطورة التى يحملها هذا الاتهام تتعدى إلى ما هو أعظم من مجرد اتهام الجيش الأموى، إلى اتهام الجيش الإسلامى الذى فتح أصقاعًا شاسعة فى تلك الفترة[1]، وقد ذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى إنكار ذلك مثل د. نبيه عاقل[2]، ود. العرينان[3]، ود. العقيلى[4]، وكذلك فلهاوزن[5]، وقام الشيبانى بدراسة عميقة حول الموضوع وأثبت بطلان هذه الأكاذيب[6].

٨ ـ أخذ البيعة من أهل المدينة ليزيد بن معاوية: تُعد الكيفية التى تمّ بها أخذ البيعة من المدنيين من أكبر الأمور التى انتقد فيها يزيد بن معاوية، فقد وردت الروايات لتبين أن مسلم بن عقبة أخذ البيعة من أهل المدينة على أنّهم عبيد ليزيد بن معاوية، يتصرف فى دمائهم وأموالهم كيفما يشاء، فهناك رواية مجملة تفيد بذلك، وذلك بعد انتهاء معركة الحرّة، وتضيف الرواية: على أن البيعة تضمنت الحرية الكاملة ليزيد بن معاوية للتصرف فى دمائهم وأموالهم وأهلهم[7]، وتضيف إحدى الروايات صيغة أخرى لأخذ البيعة من أهل المدينة، فتذكر الرواية: أنهم بايعوا كعبيد ليزيد فى طاعة الله ومعصيته. وهذه الروايات أسانيدها ضعيفة جدًا، ثم إن متونها يكتنفها الغموض، فليس هناك تفصيل وبيان عمن بايع على هذه الصفة، وهل كل المدنيين بايعوا هذه البيعة بمن فيهم ابن عمر وعلى بن الحسين وأبو سعيد الخدرى وسعيد بن المسيب، وغيرهم من الذين لم يشتركوا فى محاربة أهل الشام؟ والذى يبدو من خلال مجمل الروايات أنه فور انتهاء معركة الحرّة دعا مسلم بن عقبة الناس للبيعة، كما يبدو أن البيعة أخذت من جميع الناس[8]، حتى إن على بن الحسين قد أتى به إلى مسلم بن عقبة فأكرمه مسلم، وذلك بسبب

---

(١) المصدر نفسه، ص (٤٣٩ - ٤٤٦).
(٢) تاريخ خلافة بنى أمية، ص (١٢).
(٣) إباحة المدينة وحريق الكعبة.
(٤) خلافة يزيد بن معاوية للعقيلى، ص (٦٩).
(٥) تاريخ الدولة العربية، فلها وزين، ص(١٥٤، ١٥٥). (٦) مواقف المعارضة، ص (٤٣٢ - ٤٤٤).
(٧) تاريخ خليفة، ص (٢٣٩)، بإسناد صحيح حتى جويرية بن أسماء، أنساب الأشراف (٤/ ٣٣٥).
(٨) تاريخ ابن عساكر، ترجمة معقل بن سنان، نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (٤٤٥).

وصيــة يزيد لمسلم بوجوب حسن مــعاملة الحســين بن على، مما يدل على أن أهل المدينة ـ الخــارج على طاعــة يزيد والمقر بطــاعتــه- كلهم قــد دعوا إلى مــسلم بن عقــبة[1]، ولقد وردت روايات أخــرى تفصل وتبــين هذه البيــعة، وتجــعلها لفــئة مخصوصة، وكان الدافع لذلك هو غضب مسلم بن عقبة على هذه الفئة ومحاولته الخلاص إلى قــتلهم بتلك البيــعة[2]، يقول الدكــتور يوسف العش: وبعد انتــهاء معركة الحرّة أحضر مسلم مدبرى الفتن واستعرضهم، وطلب إليهم أن يبايعوه على أنّهم خول ليزيــد، ويحكم فى أهلهم ودمائهم وأموالهم ما يشــاء، فلم يقبلوا بأن يبايعوا هذه البيــعة فقتلهم، وكان يريد أن يقضى على فــتنتهم بالصغار، والحط من منزلتهم والتحقــير من شأنهم، بحيث يعتبرون عــبيدًا، هم وما يملكون[3]. وهذا انحراف عظيم عن شرع الله تــعالى، ودليل على عسف الدولة وظلمها وجــبروتها وقسوتها وتجاوزها الحدود المعقولة والمنقولة بسبب غضبها وحنقها على أهل المدينة.

٩ ـ وفاة مسلم بن عقبة: (٦٤هـ): نفذ مسلم وصية يزيد بحذافيرها، فلم يفاجئ أهل المدينة بالقتــال، ولكنه أنذرهم وحذرهم، ولما مضت الثلاث، حــاول إقناعهم وألحّ عليهم أن يقبلوا السلام، وأن يكفوا عن القتال، ولكنهم سبوه وشتموه وردوا عليه أمانه، ويا ليت مــسلمًا تروى واستمر فى حصار المدينــة المحرمة، ولكن غلبه حبه لسفك الدمــاء، فدخل المعركة وأنزل بأهل المدينة روعًا عظيمًــا، وأعمل فيهم السيــوف وقتل خيارهــم، وشتت شملهم، ولم ينج منهم إلا أســير أو هارب إلى مكة لينضم إلى ابن الزبير، وقــد أسرف مسلم فى قــتل المسلمين حتى بعد انــتهاء المعركة؛ فقتل رجالاً خرجوا من المعركة سالمين، ولـم يكن له أن يقتلهم وقد انتهت المعركة، واستــسلمت المدينة، ولكن غلب عليه طبعه، وجرى فــى عروقه دم الشر الذى فطر عليه، فكان يقــتل الرجل لمجرد أن يقول إنه يبايع على كــتاب الله وسنة رســوله، أو يبايع على سنة أبى بكــر وعمــر، وبالطبع لم يكن هذا -أبدًا- مبــررًا لسفك دماء وإزهاق أرواح[4]، ولكنه الظلم والعسف والتجبر والطغيان.

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/١٢٥)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٢٠ ، ٣٢١) .

(٢) مواقف المعارضة، ص (٤٤٦).

(٣) الدولة الأموية، ص (١٧٦).

(٤) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٢٨٣).

وفى أوّل المحرم من عام ٦٤هـ بعد فـراغ مسلم من حرب المدينة، سار إلى مكة قاصدًا قتـال ابن الزبير، ولما بلغ ثنيَّة هرْش[١]، بعث إلى رءوس الأجناد فجمعهم فقـال: إنّ أمير المؤمنـين عهد إليَّ إن حـدث بى حدث الموت أن أستـخلف عليكم حصين بن نمير السَّكونى، ووالله لو كان الأمر لى ما فعلت. ثم دعا به فقال: انظر يا ابن بردعة الحـمار فاحـفظ ما أوصيك به. ثم أمـره إذا وصل مكة أن يناجز ابن الزبير قبل ثلاث، ثم قـال: اللهم إنى لم أعمل عملاً قط بعـد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله أحب إلىّ من قتلى أهل المدينة ولا أرجى عندى فى الآخـرة، وإن دخلت النار بعـد ذلك إنى لشـقىٌ. ثم مـات -قبـحـه الله- ودفن بالمُشلل[٢]. انظر إلى شدة جهله وحماقته وكيف كـان يعتقد أنه يتقرب بقتل هؤلاء إلى الله، وأنه يزداد بقتلهم قربى منه ـ سبحانه ـ والناظر فى دعـائه يستشعر الأسباب التى جعلت مسلمًا يدير المعركة بشراسة، ويسرف فى دماء المسلمين من غير وازع ولا رادع، فقد كان مـسلم يعتقد أن قتل أهل المدينة قربى إلى اللـه، فأسرف فى القتل، وكان يؤمن بأن قتلهم هو السبيل إلى الجنة، فأمعن فى سفك الدماء، ولو أن الأحمق الجاهل الذى كان حـريصًا أشد الحرص على طاعة أمـير المؤمنين ولم يحرص -قط- على طاعة الله، وكان يكره معصية أمير المؤمنين عند الموت، بقدر ما كان يكره طاعة الله فى عباده، لو أنـه فقه أن زوال الدنيا عند الله أهون من سـفك دم امرئ مسلم، ولو أنه علم أن ما فعله أهل المدينة لا يبيح دمـاءهم ولا تستباح أموالهم، لو أنه علم ذلك لكان يكفيه من إدارة المعركة القدر الذى يخضع الناس ليزيد[٣].

١٠ ـ كيف استقبل يزيد خـبر موقعة الحرّة؟ ولما بلغ يزيد خبر أهل المدينة وما وقع بهم قال: واقومْاه! ثم دعـا الضحَّاك بن قيس الفهرى فـقال له: ترى ما لقى أهل المدينة، فما الرأى الذى يجبرهم؟ قال: الطعام والأعطية، فأمر بحمل الطعام إليهم وأفاض عليهم أعطيـته. وهذا خلاف ما ذكره كَذَبَة الشيـعة عنه من أنه شمت بهم وتَشفَّى بقتلهم[٤]، وأنه أنشد من شعر ابن الزِّبَعْرَى:

(١) هرْش: مكان مرتفع من طريق مكة، قريبة من الجحفة.

(٢) بين مكة والمدينة، البداية والنهاية (١١/ ٢٦٣).

(٣) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٢٨٥).

(٤) البداية والنهاية (١١/ ٦٥٥).

ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسَلْ

حين حكَّت بقُباء بَرْكها واستحرَّ القتل فى عبد الأشَلْ

وقد قتلنا الضّعف من أشرافهم وعَدَلْنا ميل بدر فاعتدل

وقد زاد بعض كذبة الشيعة فيها:

لعبت هاشم بالملك فلا مَلَكٌ جاء ولا وحىٌ نزل[١]

قال ابن كثير: فهذا إن قاله يزيد بن معاوية فلعنة الله عليه ولعنة اللاعنين، وإن لم يكن قاله فلعنة الله على من وضعه عليه لِيُشَنِّع عليه به وعلى ملوك المسلمين[٢]، وقال ابن تيمية على أبيات الشعر: ويعلم بطلانه كل عاقل[٣]. لقد وقع يزيد فى خطأ مروّع، لا تهون منه الاعتذارات والمواساة، وهو الأمر باستباحة المدينة للمحاربين ثلاثة أيام ينهبون ويسرقون، مما أدى إلى فساد خطير وشر مستطير، وفتح على يزيد بابًا أدى إلى تشويه سمعته، وبغض المسلمين فى خلافته، وبخاصة أن المسلمين لم ينسوا -بعد- مقتل الحسين بن على ـ رضى الله عنه ـ حيث لم تجف دماؤه على ثرى كربلاء[٤].

رابعًا : أهم الدروس والعبر والفوائد:

١ ـ دواعى فشل أهل المدينة: لقد كان محكومًا على حركة المدينة بالفشل، لأنهم لم يوحّدوا صفوفهم، ولم يكن لهم قائد واحد، لأن تعدد القوّاد فى المعركة من دواعى الهزيمة، وهذا ما تنبأ به عبد الله بن عباس عندما سأل عن حالهم فقيل: استعملوا عبد الله بن مطيع على قريش، وعبد الله بن حنظلة على الأنصار. فقال ابن عباس: أميران؟ هلك القوم[٥]، ولو حصل الانتصار، فدواعى اشتعال الفتنة موجودة ممن يكون الخليفة؟ هل يتولاها رجل من قريش أم من الأنصار؟ فهم لم يعلنوا أنهم تبع لابن الزبير[٦]، ومن دواعى الفشل: قلة ما تحت أيديهم من

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٦٣١).

(٢) المصدر نفسه (١١/ ٦٣١) .

(٣) منهاج السنة (٤/ ٥٥٠).

(٤) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٢٨٣).

(٥) العقد الفريد (٤/ ٣٨٨)، المدينة فى العصر الأموى، ص (١٣٤) .

(٦) المدينة فى العصر الأموى، ص (١٣٤).

الأرزاق، ولو استمر الحصار مدة طويلة لهلك الناس من الجوع، لأن ما بها من الميرة لا يكفيها لسد حاجتها أيامًا وجل طعامها يأتيها من التجارة، أو من بساتين خارج حدود المدينة، فكيف يغادر هؤلاء فى حرب ليس عندهم مؤونة لها، يقفون أمام جند الشام المدعمين بالسلاح والمال؟ ومن دواعى فشلهم: عدم بروز هدف يريدون تحقيقه بعد خلع يزيد والنصر، وإذا كان هدفهم خلع يزيد؛ فهل كانوا يريدون أن تكون إمارة مستقلة؟ وهذا غير ممكن. وإذا كان هدفهم تولية ابن الزبير، لماذا لم يرفعوا راية واحدة باسم ابن الزبير، ولماذا لم يطلبوا المدد منه؟ ولو ضم ابن الزبير جنده إلى جند المدينة، لتكونت قوة تستطيع أن تقف أمام جيش مسلم بن عقبة، ولكنهم عندما وزعوا قواتهم وعددوا معاركهم استطاع الأمويون أن ينتصروا عليهم وهم متفرقون[1].

٢ ـ موقف زعامة المدينة المنورة: لم تكن زعامة المدينة المنورة راضية عن هذه الثورة، فهناك أسرتان كبيرتان من المهاجرين عارضتا أهل المدينة، وهما آل الخطاب، وآل هاشم، وعلى رأس آل الخطاب، شيخ الصحابة فى زمانه وفقيههم عبد الله بن عمر، ومن آل هاشم عبد الله بن العباس وعلى بن الحسين ومحمد بن الحنفية[2].

٣ ـ رأى ابن تيمية: . . وقلّ من خرج على إمام ذى سلطان إلا وكان ما تولد على فعله من الشرّ أعظم مما تولد من الخير، كالذين خرجوا على يزيد بالمدينة، فإنهم هزموا وهزم أصحابهم، فلا أقاموا دنيا، ولا أبقوا دينا، والله تعالى لا يأمر بأمر لا يحصل فيه صلاح الدين ولا صلاح الدنيا. . وكان أفاضل المسلمين ينهون عن الخروج والقتال فى الفتنة، كما كان عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب، وعلى بن الحسين، وغيرهم، ينهون عام الحرّة عن الخروج على يزيد[3].

٤ ـ عناية المؤرخين بمعركة الحرّة: لم تجد معركة الحرّة من المؤرخين كما لاقى غيرها من الحوادث التى حصلت أيام يزيد بن معاوية، ولم يفرد المؤرخون المحدثون عنها أبحاثا، كما أفردوا عن الحركات الأخرى، ولو قارنا بينها وبين حركة الحسين لوجدنا فرقًا كبيرًا فى النتائج، فمجموع ما قتل فى معركة الحرّة أضعاف ما قتل مع

---

(١)، (٢) المدينة فى العصر الأموى، ص (١٣٥). (٣) منهاج السنة (٢/ ٢٤١).

الحسين، وقتل فى معركة الحرّة رجال مشاهير لهم منزلة صحبة وجهاد، من هؤلاء عبد الله بن زيد حاكى وضوء رسول الله ﷺ[1]، ومعقل بن سنان[2] وفيه يقول الشاعر:

وأصبحت الأنصار تبكى سراتها وأشجع تبكى معقل بن سنان

وعبد الله بن حنظلة الغسيل مع ثمانية من بنيه، وهؤلاء الرجال مكانتهم فى الإسلام عالية، ومصيبة المسلمين فيهم عظيمة، وهى مصيبة تضاف إلى مصيبة المسلمين فى الحسين رضى الله عنه- على مكانته وفضله وسيادته عند المسلمين، وهذا ما يجعل معركة الحرّة فاجعة كبيرة كما هى معركة كربلاء.

(١) عبد الله بن زيد بن عاصم بن كعب الأنصارى، صحابى شهد بدراً، وله ثمانية وأربعون حديثًا، الإصابة رقم (٤٦٨٨).

(٢) معقل بن سنان، صحابى من القادة الشجعان، كانت معه راية قومه يوم حنين وفتح مكة.

المبحث الخامس

حركة عبد الله بن الزبير في عهد يزيد

كان ابن الزبير رضى الله عنه قد عقد العزم على عدم البيعة ليزيد، واختار الذهاب والاستقرار بمكة.

أولاً: أسباب اختيار ابن الزبير لمكة:

اجتمعت عدة أسباب جعلت مكة أنسب مكان يمكن أن يتجه إليه ابن الزبير- في نظره - ومن أهمها ما يلى:

١ - أنها المكان الوحيد الذى يمكن اللجوء إليه فى هذه الفترة؛ وذلك لأن الأقاليم الأخرى ليست مناسبة، فالعراق -بمصريه الكوفة والبصرة- لا يمكن ضمان ولاء أهله لأى زعيم معارضة ضد بنى أمية، وما فعلوه مع الحسين خير دليل على ذلك، وكان ابن الزبير يعى ذلك تمامًا حينما نصح الحسين بعدم الذهاب إلى العراق[1]، فقال له: أين تذهب؟! إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك؟ أما مصر واليمن فقد كانتا بعيدتين عن مسرح الأحداث، ولم يكن لابن الزبير فى هذين الإقليمين أنصار ومؤيدون يمكن أن يعتمد عليهم، وأما الشام فكما هو معروف كان معقل الأمويين.

٢ - إن مكة - لوجود بيت الله فيها - كانت بلدًا حرامًا ولا يجوز سفك الدماء بها، وهذا يكفل لمن يعتصم بها حماية من القتل إلا إذا ارتكب حدًا يوجب ذلك، وعلى أقل تقدير فوجود هذا الحكم الخاص بمكة يجعل التفكير باستخدام القوة آخر حل يُلجأ إليه.

٣ - وكما أن مكة بلد له مكانته وقدسيته فى نفوس المسلمين، فإن من يتعرض له بالإيذاء سيواجه معارضة من قبل العديد من المسلمين الذين سيهبون للدفاع عن بيت الله الحرام بغض النظر عمن يعتصم به، وقد أفاد ابن الزبير من هذه النقطة كثيراً.

(١) نسب قريش، ص (٢٣٩)، للزبيرى .

٤ ـ أنه يجتمع بمكة فى موسم الحج كل عام الألوف من المسلمين من مختلف الأقاليم،ويمكن من خلال هذا الموسم التأثير على الرأى العام وتوجيهه، وهو ما لا يمكن توافره فى أى إقليم.

٥ ـ أن مكة بدأت منذ هجرة النبى ﷺ والصحابة إلى المدينة تفقد دورها السياسى، وبالتالى فإن قبضة الأمويين عليها لم تكن قوية بعكس وضع المدينة.

٦ ـ وأخيراً فإن معارضة ابن الزبير مرتبطة بأهل المدينة الذين يقفون معه الموقف نفسه ضد بنى أمية،وبالتالى كان من المناسب أن يكون ابن الزبير قريبًا من المدينة ليضمن استمرار تأييد أهلها له، ولكى يتمكن من الاتصال المستمر بهم[١].

ثانيًا: أسباب خروج ابن الزبير ومن معه:

كان مقصد ابن الزبير رضى الله عنه ومن معه -ومن بينهم بعض الصحابة والتابعين كالمسور بن مخرمة، وعبد الله بن صفوان، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وغيرهم من فضلاء عصرهم- هو تغيير الواقع بالسيف لما رأوا تحول الخلافة إلى وراثة وملك، ولما أشيع حول يزيد من شائعات أعطت صورة سيئة للخليفة الأموى فى دمشق، والذى ينبغى أن يفهم أن ابن الزبير قام لله، وليس كما يقول البعض، مثل محمد ماهر حمادة عندما قال: وعلى الرغم من أن حركة ابن الزبير لم تكن سوى مزيج عجيب، من عدد من العناصر، يحركها طموح شخصى، وصراع قبلى، التقتا فى نفس ابن الزبير، وشخصيته[٢]. لقد كان رضى الله عنه يهدف من وراء المعارضة أن تعود الأمة إلى حياة الشورى، ويتولى الأمة حينئذ أفضلها، وكان يخشى من تحول الخلافة إلى ملك، وكان يرى رضى الله عنه أنه باستعماله للسيف وتغييره للمنكر بالقوة يتقرب إلى الله ويضع حدًا لانتقال الخلافة إلى ملك ووراثة، ولهذا لم يدعُ لنفسه حتى توفى يزيد بن معاوية[٣]. وكان ابن الزبير يخطب ويقول: والله لا أريد إلا الإصلاح وإقامة الحق، ولا ألتمس جمع مالٍ ولا ادخاره[٤] وكان يقول: اللهم إنى قد أحببت لقاءك فأحبب لقائى،

(١) عبد الله بن الزبير والأمويون، ص (٧٠، ٧١) عبد الله بن عثمان.

(٢) الوثائق السياسية للجزيرة العربية، ص (١٨).

(٣) الطبقات (٥/١٤٧).

(٤) أنساب الأشراف (١/٣١٥).

وجاهدت فيك عـدوك فأثبنى ثواب المجاهدين[1]. وقال عبـد الله بن صفوان بن أمية لابن الزبير: إني -والله- ما قاتلت معك إلا عن ديني[2]، والروايات في هذا المجال كثيرة جداً، وهي تدل على النظرة الحقيقية لمعارضة ابن الزبير -وكذلك أهل المدينة- حيث اعـتبروها جهاداً في سـبيل الله[3]، إن الحسين بن علي وابن الزبير وأهل الحرَّة -رضي الله عنهم- كان خروجهم من أجل الشـورى لأسباب مشروعة منها:

١ ـ دفاعًا عن حقهم الذي جعله الله لهم ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

٢ ـ أن هذا الاغتصاب منكر وظلم تجب إزالته.

٣ ـ تمسكًا بالسنة وهدى الخلفاء الراشدين في باب الخلافة[4].

وساعد في تحقيق أهداف ابن الزبير والتفاف الناس من حوله عدة أمور منها: رد الفعل الذي أحـدثته معـركة كربلاء، سوء سـيرة يزيد، سرعـة يزيد في عزل ولاة الحجاز مركز الثقل السياسي كما كان زمن الرسول والخلفاء الراشدين[5].

ثالثًا: الجهود السلمية التي بذلها يزيد لاحتواء ابن الزبير:

كان ابن الزبير يدرك الخطورة التي ستلحق بالحـسين إذا خرج إلى الكوفة، ولذا ناشده عـدم الذهاب إلى الكوفة قـائلاً: أين تذهب؟! إلى قوم قـتلوا أباك وطعنوا أخاك؟![6]. وكان ابن الزبيـر يدرك أن الحسين إذا أصيب في العراق، فـإن النتائج ستنعكس عليـه وسيكون المنفرد في السـاحة، وبالتالي يسـهل القضاء عليـه، وقد حرص ابن الزبير على إشعار الحسين بمكانته وأن وجوده في مكة يحظى بالتأييد من أهلها وبالأخص من ابن الزبير نفسه، ولذا فقـد بادره بفكرة جريئة فقال للحسين: إن شئت أن تقيم أقمت فوليت هذا فآزرناك وساعدناك ونصحنا لك، وبايعناك[7]،

---

(١) تاريخ ابن عساكر نقلا عن عبد الله بن الزبير والأمويون، ص (٦٧).

(٢) أخبار مكة للفاكهي (٢/ ٣٦٤) . (٣) عبد الله بن الزبير والأمويون، ص (٦٧).

(٤) انظر: الحرية والطوفان، ص (١٢٤، ١٢٥).

(٥) عبد الله بن الزبير د. شحادة الناطور، ص (٩٦ - ٩٨).

(٦) مصنف ابن أبي شيبة (١٥/ ٩٥)، بسند حسن.

(٧) أنساب الأشراف (٤/ ١٣)، مواقف المعارضة، ص (٥١٨).

ويبدو أن ابن الزبير رغب أن تكون القيادة العامة بيد الحسين نظرًا لمكانته ووجاهته، واحترام المسلمين له. ويكون بيده التخطيط لمجابهة يزيد بن معاوية، وبالأخص أنه يملك رصيدًا كبيرًا من المشاركات الحربية الناجحة فى عمليات الجهاد الإسلامى، وكان يرغب فى جعل ركيزة الانطلاق فى المعارضة هى بلاد الحجاز، وذلك نظرًا لصدق أهلها، ووجود العُبَّاد والصالحين والعلماء من الصحابة وكبار التابعين بها، ثم وجود الحرمين ومكانتهما، فإذا تمت لهما السيطرة على بلاد الحجاز، فإن قضيتهما ستكسب بعدًا كبيرًا فى الأقاليم الإسلامية، فالناس تؤم الحرمين للعمرة والحج والزيارة، وبالتأكيد سينقلون أخبار المعارضين ومكانتهما، مما سيؤدى إلى تعاطف وتأييد وأنصار من تلك الأقاليم، ولما خرج الحسين رضى الله عنه إلى الكوفة وقتل يوم عاشوراء من سنة إحدى وستين بكربلاء كان لذلك وقع كبير على ابن الزبير، فالذى يخشاه ابن الزبير -وهو انفراد الأمويين به- قد حدث، ثم إن الرجل الذى كان يضفى مكانة ومنزلة على المعارضة قد قتل، ومع ذلك لم يحدث تحرك من الناس ضد الأمويين بسبب قتل الحسين رضى الله عنه[١]، ولعل انفراده بالمعارضة ضد يزيد هو الذى جعل ابن خلدون يقول: ولم يبق فى المخالفة لهذا العهد ـ الذى اتفق عليه الجمهور ـ إلا ابن الزبير، ونُدور المخالف معروف[٢]، وقد أحس ابن الزبير بخطورة موقفه، ولكنه حاول أن يستفيد من دوافع الكره والمقت التى تعتلج فى نفوس الناس ضد الأمويين بسبب قتل الحسين[٣].

١ ـ أول هجوم مباشر وصريح من ابن الزبير على يزيد: عندما سمع ابن الزبير بمقتل الحسين رضى الله عنه قام خطيبًا فى مكة وترحم على الحسين وذم قاتليه وقال: أما والله لقد قتلوا طويلاً قيامه، وكثيرًا فى النهار صيامه، أحق بما هم فيه منهم، وأولى بما هم فيه منهم، وأولى به فى الدين والفضل، أما والله ما كان يبدّل بالقرآن الغناء ولا البكاء من خشية الله الحداء، ولا بالصيام شراب الحرام، ولا بالمجالس فى حلق الذكر الركض فى طلب الصيد ـ يعرّض بيزيد ـ فسوف يلقون غيًا[٤]. ونظرًا للمشاعر العاطفية التى أثرت على أهل الحجاز عمومًا بسبب قتل الحسين رضى الله عنه فقد أبدى البعض استعداده لبيعة ابن الزبير[٥]، ولاحظ

---

(١) مواقف المعارضة، ص (٥١٩). (٢) مقدمة ابن خلدون (١/ ٢٦٥).
(٣)، (٤) مواقف المعارضة، ص (٥٢٠). (٥) أنساب الأشراف (٤/ ٣٠٤).

ابن الزبير مشاعـر السخط التى عمّت أهل الحجاز بسبب قـتل الحسين رضى الله عنه، فأخـذ يدعو إلى الشورى وينال من يزيد ويشـتمه[1]، ويذكر شربه لـلخمر، ويثبط الناس عنه، وأخذ الناس يجتمعون إليه فيقـوم فيهم، فيذكر مساوئ بنى أمية ويطنب فى ذلك[2].

٢ ـ مساعى يزيد السلمية: لم يحاول يزيد فى بداية الأمر أن يعمل عملاً من شأنه أن يعقّد النزاع مع ابـن الزبير، ولهذا فلقد أرسل إليه رسـالة يذكّره فيهـا بفضائله ومآثره فى الإسلام، ويحذره من الفتنة والسعى فيها، وكان مما قال له: أذكرك الله فى نفسك فإنك ذو سن من قريش، وقد مضى لك سلف صالح، وقدم صدق من اجتهاد وعـبادة، فاربب صالح ما مضى، ولا تبطل مـا قدمت من حسن، وادخل فـيمـا دخل فـيه الـناس، ولا تردهم فى فـتنة، ولا تحل ما حـرم الله، فـأبى أن يبايع[3].

٣ ـ غضب يزيد على ابن الزبير: لم يستـجب ابن الزبير لـدعوة يزيد السلمـية، ورفـض بيـعتـه، وأقـسم يزيد على أنه لا يقبـل بيعـة ابن الزبيـر حتى يأتى إلـيه مغلولاً [4]، ولقـد حاول مـعـاوية بن يزيد أن يثنى والده عن هذا القـسم، وذلك لمعرفته بابن الزبير، وأنه سيرفض القدوم على يزيد وهو فى الغل، وكان معاوية بن يزيد صـالحًا تقيًـا ورعًا يجنح للسلـم ويخشى من سفـك دماء المسلميـن، وساند معاوية فى رأيه عبد الله بن جعفر، ولكن يزيد أصر على رأيه، وحتى يخفف يزيد من صـعوبة الموقف على ابن الزبيـر، فقـد بعث بعشـرة من أشراف أهل الـشام، وأعطاهم جامعة من فضة، وبرنس خز[5]، وفى رواية أخرى: أن يزيد بعث لابن الزبير بسلسلة من فضة وقيد من ذهب، وجامعة من فضة[6]. وعند وصول أعضاء الوفد إلى مكة تكلم ابن عضاة الأشعرى، وقال: يا أبا بكر، قد كان من أثرك فى أمر الخليفة المظلوم ـ يعنى عثمـان بن عفان ـ ونصرتك إياه يوم الدار ما لا يجهل،

---

(١) أنساب الأشراف (٣٠٤/٤). (٢) أخبار مكة (٢٠١/١) بسند كل رجاله ثقات.

(٣) أنساب الأشراف (٣٠٣/٤، ٣٠٤).

(٤) أنساب الأشراف (٣٠٤/٤)، أخبار مكة (٣٥١/٢) إسناده حسن.

(٥) تاريخ خليفة، ص (٢٥١)، إسناده حسن، مواقف المعارضة، ص (٥٢١).

(٦) الآحاد والمثانى (٤١٦/١) بسند صحيح لابن أبى عاصم.

وقد غضب أمـير المؤمنين بما كان من إبائك مما قـدم عليك فيه النعمـان بن بشير، وحلف أن تأتيه في جامعـة خفيفة لتحل يمينه، فالبس عليـها برنسًا فلا ترى، ثم أنت الأثير عند أمير المؤمنين الذي لا يخالف في ولاية ولا مال[1].

٤ ـ ابن الزبير يفكر ويستـشير في عرض يزيد: استأذن ابن الزبير الـوفد بضعة أيام يفكر ويستـشير، فـعرض الأمـر على والدته أسماء بنت أبي بكر رضـي الله عنها فقالت: يا بني، عش كريمًا ومت كريمًـا، ولا تمكن بني أمية من نفسك، فتلعب بك، فالموت أحسن من هذا[2].

وكان مروان بن الحكم قـد بعث ابنه عبد العزيز وقـال له: قل لابن الزبير: إن أبي أرسلني عناية بأمرك وحفظًا لحـرمتك، فابرر يمين أميـر المؤمنين، فإنما يجعل عليك جامعة من فضة أو ذهب وتكسى عليه برنسًا فلا تبدو إلا أن يسمع صوتها، فكتب ابن الزبير إلى مروان يشكره[3]، وجاء رد ابن الزبير على الوفد بالمنع[4].

٥ ـ تهديد الوفد لابن الزبير ورده عليهم: بعدما أجاب ابن الزبير على الوفد بالمنع قال لابن عضاة: إنما أنا بمنزلة حمام من حمام مكة، أفكنت قاتلاً حمامًا من حمام مكة؟ قال: نعم، ومـا حرمة حـمام مكة؟ يا غلام ائـتني بقوسي وأسهـمي، فأتاه بقوسه وأسـهمه، فأخذ سهـمًا فوضعه في كـبد القوس ثمّ سدده نحو حـمامة من حمام المسـجد وقال: يا حمـامة، أيشرب يزيد الخمر، قـولي: نعم. فوالله، لئن فعلت لأرمـينك. يا حمامة، أتخلعـين يزيد بن معاوية وتفـارقين أمة محـمد ﷺ وتقيمين في الحرم حتى يستـحل بك؟ والله لئن فعلت لأرمينك. فقال ابن الزبير: ويحك أو يتكلم الطائر؟ قال: لا، ولكنك يا ابن الزبير تتكلم، أقسم بالله لتبايعن طائعًا أو مكرهًا، أو لتعـرفن راية الأشعريين في هذه البطحاء، ولئن أمـرنا بقتالك ثم دخلت الكعبة لنهـدمنها أو لنحرقنها عليك، أو كما قـال. فقال ابن الزبير: أو تحل الحرم البيت؟ قال: إنما يـحله من ألحد فيه[5]. ثم قال ابن الزبيـر: إنه ليست

---

(١) أنساب الأشراف (٤/٣٠٨)، مواقف المعارضة، ص (٥٢٣).

(٢) أخبار مكة (١/٢٠١) بسند كل رجاله ثقات.

(٣) نسب قريش، ص (٤٤٩)، مواقف المعارضة، ص (٥٢٤).

(٤) مواقف المعارضة، ص (٥٢٤).

(٥) أنساب الأشراف (٤/٣٠٩).

فى عنقى بيعة ليـزيد. فقال ابن عضاة: يا معـشر قريش قد سمعـتم ما قال، وقد بايعـتم، وهو يأمركم بالرجـوع عن البيـعة[1]، وأخذ ابن الزبـير يبسط لسـانه فى تنقص يزيد وقال: لقـد بلغنى أنه يصبح سكران ويمسى كـذلك، ثم قال: يا ابن عضاة، والله ما أصبـحت أرهب الناس ولا البأس، وإنى لعلى بينة من ربى، فإن أقتل فهو خير لى، وإن أمـت حتف أنفى فالله يعلم إرادتى وكراهتى لأن يعمل فى أرضه بالمعـاصى، وأجاب الباقين بنحـو جوابه[2]. ثم قال ابن الزبير: اللهم إنى عائذ ببيتك[3]، ولقب نفسه عائذ الله[4]، وكان يسمى العائذ[5].

رابعًا: الجهود الحربية ضد ابن الزبير:

١ ـ حملة عمرو بن الزبير:

رأى يزيد أنه لابد من القيـام بعمل عـسكرى، يكون الهـدف منه القـبض أو القضاء على ابن الزبير أو حمله على الامتثال لقسم يزيد ووضع الأغلال فى عنقه، ولما حج عـمرو بن سـعيـد بن العاص والى المدينة فـى تلك السنة ـ والمرجح سنة إحـدى وستـين ـ حج ابن الزبـير مـعـه، فلم يصل بصـلاة عـمرو، ولا أفـاض بإفاضـته[6]، وهذا العمل مـن ابن الزبير يعنى المفـارقة الواضحـة لسلطة الدولة، وعدم الاعـتراف بها، خصـوصًا أن إقامـة الحج تمثل الدليل الأقوى على شرعـية الدولة وقوة سلطانها، مثله مثل إقامـته الجهاد فى سبيل الله[7]، ثم منع ابن الزبير الحـارث بن خالـد المخزومى من أن يصلـى بأهل مكة، وكان الحـارث بن خـالد المخزومى نائبًا لعمـرو بن سعيد على أهل مكة[8]، وكان ابن الزبير يتصرف وكأنه مستقل عن الدولة، وكان لا يقطع أمرًا دون المسور بن مخرمة[9]،ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وجبـير بن شيبة، وعبد الله بن صفـوان بن أمية، وكان يريهم أن الأمر شورى فـيما بينهم، وكان يـلى بهم الصلوات والجمع، ويحج بهم[10]،

---

(١) عيون الأخبار (١/١٩٦) .
(٢) أنساب الأشراف (٤/٣٠٩).
(٣) مواقف المعارضة، ص (٥٢٥) نقلا عن ابن عساكر .
(٤) الإصابة (٤/٤٩) سند صحيح.
(٥) تاريخ الطبرى نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (٥٢٥).
(٦) أنساب الأشراف (٤/٣٠٧).
(٧) مواقف المعارضة، ص (٥٢٦).
(٨) تاريخ ابن عساكر ترجمة ابن الزبير (٣٠/ ٢٠٠) .
(٩) التقريب ٥٣٣ .
(١٠) تاريخ ابن عساكر (٣٠/ ٢٠٠٠)، مواقف المعارضة، ص (٥٢٧).

فكتب يزيد إلى عمــرو بن سعيــد بن العاص واليه على المــدينة أن يوجه له جُندًا، فعين عمرو بــنُ سعيد بن العاص على قيادة هذه الحملة عــمرو بنَ الزبير بن العوام أخا عــبد الله بن الزبير، وكــان عمرو بن الزبيــر قد ولى شرطة المدينة لعــمرو بن سعيد، وكان شديد العداوة لأخيه عبد الله، وقام بضرب كل من كان يتعاطف مع عبد الله بن الزبيــر، وكان ممن ضرب المنذر بن الزبير، وابنه محمــد بن المنذر وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث[1]، وعثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام[2]، وخبيب بن عبد الله بن الزبير[3]، وفر منه عبد الرحمن بن عثمان، وعبد الرحمن بن عمــرو بن سهيل وغيــرهما إلى مكة فالتجــأوا إلى ابن الزبير[4]، وكان تعيين عمرو بن الزبيــر على قيادة الجيش المتــجه لمحاربة عبد الله بن الزبــير جاء بناءً على طلب من عمرو بن الزبيــر نفسه[5]، واتجه جــيش عمرو بن الزبيــر إلى مكة وكان قوامه ألف رجل، وجعل على مــقدمته أنيس بن عمرو الأسلمى فى ســبعمائة من الجند[6]، فســار أنيس بن عمرو الأسلمــى حتى نزل بذى طوى، وسار عــمرو بن الزبير حتى نزل بالأبطح[7]، وأرسل عمــرو بن الزبير إلى أخيه (عــبد الله) يطلب منه الامتثــال ليمين يزيد بن معاوية، وحذره من القــتال فى البلد الحرام[8]، وكان عمرو بن الزبير يخرج من معسكره فيــصلى بالناس خلال المفاوضات مع أخيه عبد الله. وكان عــبد الله يسير مــعه ويلين له، ويقول: إنى ســامع مطيع وأنت عامل يزيد، وأنا أصلى خلفك، وما عندى خلاف، فأمــا أن تجعل فى عنقى جامعة، ثم أقاد إلى الــشام، فإنى نــظرت فى ذلك، فرأيت أنه لا يحل لى أن أحله بنــفسى، فراجع صاحبك واكتب إليه، ولكن عمــرو بن الزبير اعتذر من عدم الكتابة ليزيد، وذلك لأنه جاء فى مهمة محددة مطلوب منه تنفيذها. وكان عبد الله بن الزبير قد أرسل عــبد الله بن صــفوان الجــمحى ومــعــه بعض الجند، وأخذوا أســفل مكة، وأحاطــوا بأنيس بن عمــرو الأسلمى، ولم يشعــر بهم أنيس إلا وقد أحــاطوا به،

---

(1) نسب قريش، ص (214 ـ 215).
(2) المصدر نفسه، ص (233).
(3) المصدر نفسه، ص (239، 240).
(4) الطبقات (5/ 185).
(5) أنساب الأشراف (4/ 312)، مواقف المعارضة، ص (528).
(6) تاريخ الطبرى نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (528).
(7) الأبطح: ما حاز السيل إلى الحناطين يميناً من البيت الحرام.
(8) تاريخ الإسلام (حوادث 61 ـ 80)، ص (199).

فقـتل أنيس وانهزم أصـحابه، وفى الوقت الذى قتل فـيه وانهـزم جيش أنيس بن عمرو الأسلمى، كان مـصعب بن عبد الرحمن بن عوف، يقـود طائفة أخرى من الجند نحـو عمرو بن الزبيـر، الذى كان مـعسكرًا فى الأبطح، فـانهزم عـمرو بن الزبير، ودخل دار رجل يقـال له علقمة، فـجاءه أخوه عبـيدة بن الزبير فـأجاره، فأخذه إلى عبد الله، وذكر له أنه أجاره، فقال عبد الله: أما حقى فنعم، وأما حق الناس فـلأقتـصن مـنه لمـن آذاه فى المدينـة[1]، وأقـام عبـدُ الله عمـرو بنَ الزبيـر ليقتص الناس منه، فكل من ادعى على عمرو بأنه فعل به كذا وكذا، وكذا قال له عبد الله بـن الزبير: افعل به مثلمـا فعل بك. وتذكر المصادر أن عمـرو بن الزبير تعرض لتعذيب شديد من جراء ذلك ومات تحت الضرب[2]، لقد أثبت ابن الزبير رضى الله عنه أنه يملك ذكاء ودهـاء بارزين، الأمر الذى مكّنه من تحويل القضـية لصالحه، بعدمـا كانت فى يد يزيد بن معاوية، وكان ابن الزبير فى بداية مـعارضته يعتمد على أن البيعة الـتى تمت ليزيد بن معاوية لم تكن بموافقة الناس، ولا بد من مشاركة الناس، وكـان يدعو إلى الشورى، ولم تحقق معارضـة ابن الزبير أى نجاح يذكر، فخلال سنتيـن أو أكثر من معارضته ليزيد لم يحدث أى تغـير بشأن هيمنة الدولة على الحجاز، فضلاً عن غـيره من الأقطار، ولكن ابن الزبير كان يهدف من التحرش بالأمويين إلى إيقاع يزيد فى مأزق المواجهة، لقد ارتكب يزيد خطأً فادحًا عندما أقـسم أن يأتيه ابن الزبير إلى دمشق فى جـامعة، فكيف يعقل مـن صحابى جليل تجاوز الستين من عمـره أن يرضخ لطلب يزيد بن معاوية، ولقد استطاع ابن الزبيـر أن يظهـر يزيد أمـام أهل الحجـاز بأنه شـخص مـتسـلط ليس أهلاً لولاية المسلمين، وجعلت هذه الحادثة من ابن الزبير ـ فى نظر الكثير من المتمردين طالب حق يواجه خليفة يحمل الظلم فى أحـكامه والتعسف فى قراراته، والذى مكّن ابن الزبير وأكسبه الكثير من التعاطف هـو موقف أمير المدينة ـ عمرو بن سعيد ـ فكان هذا الأميـر ـ كما تذكـر الروايات ـ شديدًا على أهل المدينة مـعرضًا عن نصـحهم متكبرًا عليهم[3]. ثم ذلك الخطأ الكبير الذى وقع فيه عمرو بن الزبير، الذى تصفه

---

(١) الطبقات (٥/ ١٨٥)، أنساب الأشراف (٤/ ٣١٢) .

(٢) أنساب الأشراف (٤/ ٣١٦)، تاريخ الإسلام حوادث سنة ٦١ .

(٣) الموفقيات للزبير بن بكار، ص (١٥٢) نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (٥٣١).

الروايات أيضًا بأنه عظيم الكبر، شديد العجب، ظلوم قد أساء السيرة وعسف الناس، وأخذ من عرفه بموالاة عبد الله والميل إليه، فضربهم بالسياط. ويقال: عمرو لا يُكلم، ومن يكلمه يندم[1]، ومن الأخطاء التى وقع فيها يزيد بن معاوية، وعمرو بن سعيد بن العاص والى المدينة -واستطاع ابن الزبير أن يوظفها لصالحه- غزو مكة بجيش، فمكة لها حرمتها وخصوصيتها فى الجاهلية ثم جاء الإسلام فزادها مكانة وقداسة على مكانتها تلك التى كانت فى الجاهلية، وقام عمرو بن سعيد يتحدى مشاعر المسلمين فى المدينة حين رقى المنبر فى أول يوم من ولايته على المدينة، فقال عن ابن الزبير: تعوَّذ بمكة، فوالله لنغزونه، ثم والله لئن دخل الكعبة لنحرقنها عليه، على رغم أنف من رغم[2]. ولما جهّز الحملة التى سيوجهها لابن الزبير فى مكة، نصحه بعض الصحابة وحذّروه وذكّروه بحرمة الكعبة وبحديث رسول الله ﷺ فى بيان حرمتها، ولكنه رفض السماع لنصحهم[3]، وكان مروان بن الحكم -وهو الأمير المحنك والسياسى الداهية- قد حذّر عمرو بن سعيد من غزو البيت وقال له: لا تغزُ مكة، واتق الله ولا تحل حرمة البيت، وخلوا ابن الزبير فقد كبر، هذا له بضع وستون سنة، وهو رجل لجوج، والله لئن لم تقتلوه ليموتن، فقال له عمرو: والله لنقاتلنّه، ولنغزونّه فى جوف الكعبة على رغم أنف من رغم، فقال مروان: والله إن ذلك يسوؤنى[4].

وكان عبد الله بن الزبير قد اختار لقبًا مؤثرًا حين أطلق على نفسه (العائذ بالله) فأصبح المساس بحرمة مكة أمرًا لا يوافق عليه الصحابة والتابعون، وكان لا بد من الدفاع عن مكة، فى وجه جيش يريد استحلال حرمتها، وحتى الذى لا يستطيع أن يدافع عن مكة فسوف يكون متعاطفًا مع ابن الزبير بصفته يدافع عن بيت الله[5]، وتدافع الناس نحو ابن الزبير من نواحى الطائف يعاونونه ويدافعون عن الحرم[6]، وهذه القضايا المعنوية والحسية كان لها الأثر البالغ فى تعاظم مكانة ابن الزبير لدى أهل الحجاز الأمر الذى جعله يحقق نصرًا ساحقًا وسهلاً على جيش عمرو بن الزبير[7].

---

(1) أنساب الأشراف (٤/ ٣١١)، مواقف المعارضة، ص (٥٣١).

(2) تاريخ خليفة، ص (٢٣٣).

(3) أنساب الأشراف (٤/ ٣١٢)، مواقف المعارضة، ص (٥٣٢).

(4) أنساب الأشراف (٤/ ٣١٣).

(5) مواقف المعارضة، ص (٥٣٢).

(6) أنساب الأشراف (٤/ ٣١٣).

(7) مواقف المعارضة، ص (٥٣٣).

٢ ـ حملة الحصين بن نمير وحصار ابن الزبير وحريق الكعبة:

هلك مسلم بن عقبة النميرى فى طريقه لابن الزبير، وتولى القيادة من بعده الحصين بن نمير السكونى، ووصل إلى مكة قبل انقضاء شهر محرم بأربع ليال. وعسكر الحصين بن نمير بالحجون[١] إلى بئر ميمون[٢]، وبذلك فقد عمل الحصين ابن نمير على نشر جيشه على مسافة واسعة؛ والذى دفعه إلى ذلك طبيعة الحرب التى ستدور فى مكة، وقام ابن الزبير يحث الناس على قتال جيش أهل الشام، وانضم المنهزمون من معركة الحرّة إلى ابن الزبير، وقدم على ابن الزبير أيضًا نجدة بن عامر الحنفى فى ناس من الخوارج، وذلك لمنع البيت من أهل الشام[٣]، وكان عدد المقاتلين الذين اشتركوا مع ابن الزبير أقل بكثير من المقاتلين الذين اشتركوا فى معركة الحرّة، ولم تكن القوات متكافئة، وتحول الوضع لصالح الحصين بن نمير، بعد أن منى ابن الزبير بفقد خيرة أصحابه، مثل أخويه المنذر وأبى بكر ابنى الزبير، ومصعب بن عبد الرحمن، وحذافة بن عبد الرحمن بن العوام، وعمرو بن عروة بن الزبير[٤]، وبعد ثلاثة أيام من ربيع الأول سنة ٦٤هـ قام الحصين بن نمير بنصب المنجنيق على جبل أبى قبيس[٥]، وجبل قعيقعان[٦] وفقد ابن الزبير أهم مستشاريه ومناصريه، وهو المسور بن مخرمة بعد أن أصابه بعض أحجار المنجنيق، وانكشفت مواقع ابن الزبير أمام الحصين بن نمير، ولم يبق مأمن لابن الزبير من أحجار المنجنيق سوى الحجر[٧]، وحوصر ابن الزبير حصارًا شديدًا ولم يعد يملك إلا المسجد الحرام فقط، بعد أن فقد مواقعه المتقدمة فى الأبطح[٨]، وفى أثناء احتدام المعارك بين ابن الزبير والحصين بن نمير احترقت الكعبة، وهذه مصيبة أضيفت إلى مصائب المسلمين التى نتجت عن استحلال القتال فى البلد الحرام الذى حرم الله ورسوله ﷺ القتال فيه[٩]، وكان يزيد بن معاوية قد مات فى منتصف شهر ربيع

---

(١) الحجون: الجبل المشرف بينه وبين الحرم ميل ونصف.

(٢) بئر ميمون: حفرها ميمون بن الحضرمى.

(٣) أنساب الأشراف (٤/٣٣٨)، مواقف المعارضة، ص (٥٤٥). (٤) جمهرة نسب قريش، ص (٣٦٢).

(٥) جبل أبى قبيس: هو أحد أخشبى مكة، وهو جبل مطل على الصفا.

(٦) قعيقعان: جبل بمكة. (٧) المحن لأبى العرب، ص (٢٠٣).

(٨) تاريخ خليفة، ص (٢٥١)، بإسناد صحيح حتى ابن جريج. (٩) مواقف المعارضة، ص (٥٤٨).

الأول[1]، ولم يعلم أحد بموته نظرًا لبعد المسافة بين مكة ودمشق، وقد جاء الخبر بموت يزيد إلى مكة لهلال شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين[2].

ولم تكن الكعبة مقصودة فى ذاتها بالإحراق، والدليل على ذلك ما أحدثه حريق الكعبة من ذهول وخوف من الله فى كلتا الطائفتين[3]: جيش الحصين بن نمير، وجيش ابن الزبير، فقد نادى رجل من أهل الشام بعد أن احترقت الكعبة وقال: هلك الفريقان والذى نفس محمد بيده[4]، وأما أصحاب ابن الزبير، فقد خرجوا كلهم فى جنازة امرأة ماتت فى صبيحة ليلة الحريق خوفًا من أن ينزل العذاب بهم، وأصبح ابن الزبير ساجدًا ويقول: اللهم إنى لم أتعمد ما جرى فلا تهلك عبادك بذنبى، وهذه ناصيتى بين يديك[5]. وأهل الشام بالرغم من جهل بعضهم بابن الزبير ومكانته[6]، إلا أنه من المستحيل أن يجهل أحد منهم مكانة الكعبة وأهميتها، كيف وهم يتجهون إليها فى صلاتهم عندما كانوا يحاصرون ابن الزبير، فمن المستحيل أن يعمد أحدهم إلى حرق الكعبة، أو كان ذلك يدور فى تفكير الحصين بن نمير، وقد وردت تصريحات لبعض أقارب ابن الزبير وبعض السلف والعلماء المحققين بأنهم لم ينسبوا إلى أحد من الطائفتين قصد حريق الكعبة، فهذا هشام بن عروة يقول: .. فقاتلوا ابن الزبير واحترقت الكعبة أيام ذلك الحصار[7]، وقال ابن عبد البر: وفى هذا الحصار احترقت الكعبة[8]، وقال ابن حجر: ثم سارت الجيوش إلى مكة لقتال ابن الزبير، فحاصروه بمكة وأحرقت الكعبة[9]. ولا شك أن أحدًا من أهل الشام لم يقصد إهانة الكعبة، بل كل المسلمين معظمون لها، وإنما كان مقصودهم حصار ابن الزبير، والضرب بالمنجنيق كان لابن الزبير لا للكعبة، ويزيد لم يهدم الكعبة، ولم يقصد إحراقها لا هو ولا نوابه باتفاق المسلمين[10]. وهكذا كانت إحدى نتائج تلك الحرب التى دارت بين

(١) أنساب الأشراف (٤/٣٤٤)، تعجيل المنفعة، ص (٤٥٣).

(٢) مواقف المعارضة، ص (٤٨)، أخبار مكة (١/١٩٧).

(٣) أخبار مكة (١/٢٠٣).

(٤) تاريخ خليفة، ص (٢٥٢) بإسناد صحيح.

(٥) مواقف المعارضة، ص (٥٥٢)، الأغانى (٣/٢٢٧).

(٦) مواقف المعارضة، ص (٥٥٢)، حلية الأولياء (١/٣٣٦).

(٧) الإصابة (٤/٩٤) عن الزبير بن بكار بسند صحيح.

(٨) الاستيعاب (٣/٢٤٣).

(٩) تعجيل المنفعة، ص (٤٥٣)، مواقف المعارضة ص (٥٥٣).

(١٠) منهاج السنة (٤/٤٧٧) مواقف المعارضة، ص (٥٥٣).

ابن الزبير والحصين بن نمير إحراق البيت الحرام[1]. ولما وصل الحصين خبر موت الخليفة بعث إلى ابن الزبير فقال: موعد ما بيننا الليلة الأبطح، وكان يريد أن يجتمع به ويفاوضه في الخلافة، فالتقيا وتحادثا طويلاً واشتد بينهما الجدل، وكان فيما قال الحصين لابن الزبير وهو يدعوه للخلافة: إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، هلم فلنبايعك، ثم اخرج معي إلى الشام، فإن هذا الجند الذي معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم، فوالله لا يختلف عليك اثنان، وتؤمن الناس، وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك، والتي كانت بيننا وبين أهل هذه الحرة. فقال عبد الله: أنا أهدر تلك الدماء؟ أما والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم، وكان الحصين يكلمه سراً، وهو يجهر جهراً ويقول: لا والله لا أفعل. فقال له الحصين: قبح الله من يعدك بعد هذه داهيًا قط أو أديبًا، قد كنت أظن لك رأيًا، ألا أراني أكلمك سراً وتكلمني جهراً وأدعوك للخلافة وتعدني للقتل والهلكة[2]، وبعد أن افترقا، أدرك عبد الله خطأه في موقفه مع الحصين عندما عرض عليه الخلافة ومرافقته إلى بلاد الشام، وأراد أن يصحح هذا الموقف، وكان الحصين يستعد للعودة بجنده إلى دمشق، فأرسل إليه يقول: أما أن أسير إلى الشام فليس فاعلاً وأكره الخروج من مكة، ولكن بايعوا لي هناك فإني مؤمنكم وعادل فيكم، فرد الحصين بقوله: أرأيت إن لم تقدم بنفسك، ووجدت هناك أناسًا كثيراً من أهل هذا البيت يطلبونها ويجيبهم الناس، فما أنا صانع؟[3] وذكر البلاذري أن عبد الله بن الزبير طلب من الحصين مهلة لاستشارة أصحابه عندما عرض عليه الحصين الأمر، ولكن أصحابه رفضوا الخروج إلى الشام[4]. ويصعب على المرء أن ينفذ إلى أعماق ابن الزبير ويعرف ما كان يدور في خلده والأسباب التي دفعته لرفض عرض الحصين، ولكن هناك مؤشرات عديدة تؤخذ بعين الاعتبار من الواقع السياسي في بلاد الحجاز[5]، منها:

أ ـ لم تكن للحصين صفة رسمية عندما عرض الخلافة على ابن الزبير، ولم يكن يمثل الأمويين كلهم، رغم أنه قال إن الجند الذين معه هم وجوه أهل الشام

---

(١) مواقف المعارضة، ص (٥٥٤). (٢) تاريخ الطبري (٦/ ٤٣٦).

(٣) المصدر نفسه (٦/ ٤٣٦) .

(٤) أنساب الأشراف (٤/ ٥٧، ٥٨)، عبد الله بن الزبير، د. شحادة الناطور، ص (١٠٧).

(٥) عبد الله بن الزبير، ماجد لحام، ص (١١٥).

وفرسانهم. فكيف يثق ابن الـزبير بقائد حملة كان يقـاتله قبل أيام ويريد أن يفتك به، وقد ظهرت المناقضة عند الحصـين بقوله بعد ذلك: أرأيت إن لم تقدم بنفسك ووجدت هناك أناسًا كثيرًا من أهل هذا البيت يطلبونها ويجيبهم الناس[1].

ب ـ إن الذى عرض عليه الخلافة هو أحـد قادة معركة الحرّة، وكان حول ابن الزبير عدد من أهل المدينة الذين هربوا من وحشية تلك المعركة، لذلك كان ابن الزبير يرد على الحصـين بصوت جهـورى، يسمعـه من حوله مَن أنصـاره ليدفع الشك عن نفوسهم، ويطمـئنهم على موقفه من الحـصين، فقال إنه لا يرضى قـتل عشرة من جيش الحصين بكل واحد من أهل المدينة[2].

جـ ـ عـدم وجود أنصار ـ حـتى الآن ـ له فى بلاد الشام يمـكن أن يعتمـد عليهم وينصرونه كما هو الحال فى بلاد الحجـاز، فأهل الشام كانوا يدينون بالولاء والمحبة والتقدير للأمويين.

د ـ عدم وجود جيش منـظم حقيقى -كالجيش الأمـوى- عند ابن الزبير، وكل ما نستطيع أن نـسمى به المدافعـين عن ابن الزبير عن مكة، أنهم من المقـاتلين الذين يجتمعون وقت الشدة ويتفرقون عند زوالها، وهل هناك شدة أكبر من غزو الكعبة؟ وأعتقد أنه لو كان لابن الزبير جيش منظم حـقيقى ومدرب مسلح -بحيث يستطيع هذا الجيش نصرة ابن الزبير- لتوجه مع الحصين بن نمير، ولتم له النجاح[3].

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٣٦) .

(٢) عبد الله بن الزبير، ماجد لحام، ص (١١٦).

(٣) عبد الله بن الزبير، د. شحادة الناطور، ص (١٠٩، ١١٠).

المبحث السادس

وفاة يزيد بن معاوية وخلافة معاوية بن يزيد

أولاً: وفاة يزيد بن معاوية:

فى عام ٦٤هـ توفى يزيد بن معاوية، وكانت وفاته بقرية من قرى حمص يقال لها حوّارين من أرض الشام، لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٦٤هـ، وهو ابن ٣٨سنة فى قول بعضهم، وعن هشام بن الوليد المخزومى، أن الزهرى كتب لجده أسنان الخلفاء، فكان فيما كتب من ذلك: ومات يزيد بن معاوية وهو ابن تسع وثلاثين، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر فى قول بعضهم، ويقال: ثمانية أشهر[(١)]، وعن أبى معشر أنه قال: توفى يزيد بن معاوية يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، وكانت خلافته ثلاث سنين وثمانية أشهر إلا ثمان ليالٍ، وصلى على يزيد ابنه معاوية بن يزيد[(٢)]، وقيل: وكانت خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر إلا أيامًا[(٣)]، وكان نقش خاتمه: ربنا الله[(٤)].

ثانيًا : خلافة معاوية بن يزيد:

معاوية بن يزيد هو ثالث الخلفاء الأمويين، وكنيته أبو يزيد أو عبد الرحمن، أبوه يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، وأمه أم هاشم بنت أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة[(٥)]، ويسمى معاوية الأصغر[(٦)]. ولد سنة ٤٤هـ ونشأ فى بيت الخلافة، بويع له بالخلافة بعد موت أبيه، فى الرابع عشر من ربيع الأول سنة أربع وستين هجرية، وكان -رحمه الله- أبيض شديد البياض، كثير الشعر، كبير العينين، جعد الشعر، أقنى الأنف، مدور الرأس، جميل الوجه، كثير شعر الوجه، دقيقه، حسن الجسم، وكان رجلاً صالحًا ناسكًا[(٧)].

---

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٦/٤٣٣) .

(٣) تاريخ القضاعى، ص (٣٢٩).

(٤) المصدر نفسه، ص (٣٣٢).

(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٣٤) .

(٦) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٢٨٦) .

(٧) البداية والنهاية (١١/ ٦٦٣) .

١ ـ مدة حكمه: يختلف المؤرخون كثيـراً فى المدة التى حكمها معاوية بن يزيد، ويتراوح الخلاف بين عـشرين يومًا[1] وثلاثة أشهر، ويبدو أن مـدة الثلاثة الأشهر هى الأرجح، ويرجع بعض المؤرخين مدة الأربعين يومًا وكـان مريضًا مدة ولايته، ولهذا لم يؤثر له عمل مـا مدة خلافته، حتى الصلاة، فـإن الضحاك بن قيس هو الذى كان يصلى بالناس، ويسـيّر الأمور، وظل الضحاك يصلى بـالناس حتى بعد وفاة معاوية، حتى استقر الأمر لمروان بالشام[2].

٢ ـ تنازله عن الخلافة وتركه الأمر شورى : ولما أحس معاوية بن يزيد بالموت نادى فى الناس: الصلاة جـامعـة، وخطب فيهم، وكـان مما قال: أيهـا الناس، إنى قد وليت أمركم وأنا ضعيف عنه، فإن أحببتم تركتها لرجل قوى، كما تركها الصديق لعمر، وإن شئتم تركتها شورى فى سـتة كما تركها عمر بن الخطاب، وليس فيكم من هو صالح لذلك، وقـد تركت أمركم، فـولوا عليكم من يصلح لكم: ثم نزل ودخل منزله، فلم يخرج حتى مات رحمه الله تعالى[3]. لقد أراد معاوية بن يزيد أن يقول لهم أنه لـم يجد مثل عـمر، ولا مثل أهل الشـورى، فتـرك لهم أمرهم يولون من يشاءون، وقد جاء ذلك صريحـًا فى رواية أخرى للخطبة عند ابن الأثير قال فيها: أمـا بعد، فإنى ضعفت عن أمركم فابتغيـت مثل عمر بن الخطاب حين استخلفـه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت سـتة مثل ستة الشـورى فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا له من أحببتم، ثم دخل منزله وتغيب حتى مات[4].

واعتبر هذا الموقف منه دليلاً على عـدم رضاه عن تحويل الخلافة من الشورى إلى الوراثة[5]، فقد رفض أن يعهد لأحد من أهل بيته حينما قالوا له: اعهد إلى أحد من أهل بيتك، فقـال: والله ما ذقت حلاوة خلافتكم، فكيف أتـقلد وزرها، وتتعجلون أنتم حلاوتها، وأتعـجل مرارتها، اللهم إنى برىء منها، مُـتخلٌ عنها[6]، وجاء فى رواية: قيل له: ألا توصى؟ فقال: لا أتزوّد مرارتها وأترك حلاوتها لبنى أمية[7].

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٦٦٢) .

(٢) المصدر نفسه (١١/ ٦٦٣).

(٣) المصدر نفسه (١١/ ٦٦٣، ٦٦٤).

(٤) الكامل فى التاريخ (٢/ ٦٠٥).

(٥) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١٣٧).

(٦) مروج الذهب (٣/ ٨٢).

(٧) البداية والنهاية (١١/ ٦٦٣).

وتعتبر حادثة تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة حادثة نادرة فى التاريخ الإنسانى؛ لقد عرفت استقالات، فيها إكراه مادى أو معنوى. أما أن ملكًا استقال، لأن فى أمته من هو خير منه، فهذا ما لم نقع عليه، وأية محاسبة للنفس أرفع من هذه؟! [1].

وإذا كان معاوية بن أبى سفيان -أول الخلفاء الأمويين- قد حول الخلافة من الشورى إلى الملك، فإن حفيده معاوية الثانى، ثالث خلفاء الأمويين أيضًا، قد أعاد الخلافة من الملك العضوض إلى الشورى الكاملة، وإنه لمما يستوجب الإنصاف أن تصاغ القضية على هذا النحو بدلاً من التركيز على الشق الأول الخاص بتوريث الخلافة فقط[2].

٣ ـ كم كان عمره لما مات؟ ومن صلى عليه؟: مات معاوية بن يزيد عن إحدى وعشرين سنة وقيل: ثلاث وعشرين سنة وثمانية عشر يومًا. وقيل: تسع عشرة سنة. وقيل: عشرين سنة. وقيل: ثلاث وعشرين سنة. وقيل: إنما عاش ثمانى عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة سنة. فالله أعلم. وصلى عليه أخوه خالد، وقيل: عثمان بن عنبسة. وقيل: الوليد بن عُتبة. وهذا هو الصحيح، فإنه أوصى إليه بذلك وشهد دفنه مروان بن الحكم[3]، فلما فُرغ منه قال مروان: أتدرون من دفنتم؟ قالوا: نعم، معاوية بن يزيد. فقال مروان: هو أبو ليلى الذى قال فيه أَزْنَمُ الفزارى:

إنى أرى فتنة تغلى مراجلها ... والملك بعد أبى ليلى لمن غلبا[4]

٤ ـ أزمة خطيرة بعد وفاة معاوية بن يزيد: كان معاوية بن يزيد قد أحدث أزمة خطيرة، فقد كان أخوه خالد بن يزيد صبيًا صغيرًا. وكان أمر ابن الزبير قد استفحل وبايع له الناس من أنحاء الدولة، فرأى فريق من جند الشام -على رأسهم الضحاك بن قيس أمير دمشق- أن يبايعوا لابن الزبير، وحتى مروان بن الحكم كبير بنى أمية فكر فى الذهاب إلى ابن الزبير ليبايعه ويأخذ منه الأمان، ولكن سائر الجند والقادة بزعامة حسان بن مالك زعيم القبائل اليمنية -الذين كانوا أقوى المؤيدين لبنى أمية وهم أخوال يزيد- رفضوا أن يخرج الأمر عن بنى أمية وأن

---

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ (١/ ١١٦). (٢) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٢٩٣).
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٦٦٣، ٦٦٢). (٤) المصدر نفسه (١١/ ٦٦٤).

يبايعوا لابن الزبير، فحدث خلاف شديد ولبث الشام ستة أشهر بدون إمام، وأخيرًا اتفق القوم على أن يعقدوا مؤتمرًا للشورى، يبحثون فيه عمن يصلح للخلافة ويصلون في ذلك إلى قرار[1]. ويعد معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان آخر خلفاء الفرع السفياني، وانتقلت الخلافة بعده إلى الفرع الثاني من بني أمية «المروانيين»، وأولهم مروان بن الحكم، ولا يُعد عند كثير من المحققين والمؤرخين خليفة، حيث يعتبرونه باغيًا خرج على أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير، وكذلك ولده عبد الملك لا يُعد خليفة إلا بعد موت ابن الزبير، واجتماع المسلمين عليه[2]، وبوفاة معاوية بن يزيد انتهت الدولة السفيانية، وظهرت الدولة الزبيرية، ولكنها لم تستمر، فقد استطاع بنو مروان القضاء عليها، وسيأتي التفصيل في الصفحات القادمة بإذن الله تعالى.

---

(١) النظريات السياسية الإسلامية، محمد ضياء الدين الريس، ص (٢٠٢).

(٢) الأمويون بين الشرق والغرب، ص(٢٩٠).

الفصل السادس

عهد أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضى الله عنه

المبحث الأول

اسمه ونسبه وكنيته ونشأته وبيعته

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته:

هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة، أمير المؤمنين، أبو بكـر، وأبو خبيب، القرشى الأسدى المكى، ثم المدنى، أحد الأعلام، ولد حوارى رسول الله وابن عمته[1].

ثانيًا: مولده ومبايعته لرسول الله ﷺ:

عن أسماء بنت أبى بكـر رضى الله عنها: أنها حملت بعبـد الله بن الزبير فى مكة، قالت: فـخرجت وأنا مُـتمٌ فأتيت المدينة، فنزلت قـباء، فولدت بقـباء، ثم أتيت به رسول الله ﷺ، فوضعتـه فى حجره، ثم دعا بتمرة، فمـضغها، ثم تفل فى فيه، فكان أول شىء دخل جـوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بالتمرة، ثم دعا له، فبـرّك عليه، وكان أول مولود ولد فى الإسـلام، ففرحوا به فـرحًا شديدًا لأنهم قيل لهم: إن اليهود قـد سحرتكم، فلا يولد لكم[2]. وسماه عبد الله، ثم جاء بعـد وهو ابن سبع، أو ابن ثمان سنيـن، يبايع النبى ﷺ، أمره الزبير رضى الله عنه بذلك، فتبسم النبى ﷺ حين رآه مقبـلاً، وبايعه. وكان أول من ولد فى الإسلام فى المدينة بعد مقدم رسول الله ﷺ، وكانت اليهود تقول: قد أخذناهم، فلا يولد لـهم بالمدينة ولد ذكر، فكبّـر أصحـاب رسول الله ﷺ حين ولد عـبد الله[3]، وقد طاف به الصديق رضى الله عنه بالمدينة بعد ولادته ليشتهر أمر ميلاده على خـلاف ما زعـمت اليهـود[4]. وهذا أسلوب إعـلامى عملى للقـضاء على

---

(1) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٣) .

(2) البخارى رقم ٥٤٦٩، اليهود فى السنة المطهرة (١/ ٢٦٥).

(3) الحاكم (٣/ ٥٤٨) .

(4) البداية والنهاية (١١/ ١٨٨) .

شائعات اليهود التى روجوا لها بالمدينة، وكان ابن الزبير ملازمًا للدخول على رسول الله ﷺ لكونه من آله، فكان يتردد إلى بيت خالته عائشة[1] زوج الرسول ﷺ .

ثالثًا: الزبير بن العوام والد عبد الله رضى الله عنهما:

هو أبو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب القرشى الأسدى[2]، ويجتمع مع النبى ﷺ فى قصى، وهو حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته، وأمه صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد أصحاب الشورى[3]، أسلم وهو حدث وله ست عشرة سنة[4]، ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ[5]، وقد تعرض بعد إسلامه للتعذيب، فقد روى أن عم الزبير، كان يعلق الزبير فى حصير، ويدخن عليه بالنار وهو يقول: ارجع إلى الكفر، فيقول الزبير: لا أكفر أبدًا[6]، وقال فى حقه رسول الله ﷺ : «لكل نبى حوارى، وحواريى الزبير»[7]. أى خاصتى من أصحابى وناصرى، ومنه الحواريون أصحاب عيسى عليه السلام أى خلصاءه وأنصاره، فالحوارى هو الناصر المخلص. فالحديث اشتمل على هذه المنقبة العظيمة التى تميز بها الزبير رضى الله عنه، ولذلك سمع عبد الله بن عمر رضى الله عنهما رجلاً يقول: أنا ابن الحوارى فقال: إن كنت من ولد الزبير، وإلا فلا[8]. وكان الزبير بن العوام فى عهد رسول الله ﷺ رجل المهمات الصعبة، وكان فى عهد الراشدين من أعمدة الدولة، وشارك فى فتوحاتها الكبيرة[9]. وقد عرض عليه عمر بن الخطاب ولاية مصر فى عهده فقال الزبير: لا حاجة لى فيها، ولكنى أخرج مجاهدًا وللمسلمين معاونًا، فإن وجدت عمرو بن العاص فتحها (مصر) لم أعرض لعمله، وقصدت إلى بعض السواحل فرابطتُ به، وإن وجدته فى جهاد كنت معه[10]، وقد تحدثت عن سيرته

---

(1) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٤،٣٦٥) .

(2) الإصابة (١/ ٥٢٦ - ٥٢٨) .

(3) الطبقات (٣/ ١٠٠) .

(4) سير أعلام النبلاء (١/ ٤١) .

(5) سير السلف (١/ ٢٢٦) .

(6) الطبرانى فى الكبير (١/ ١٢٢) .

(7) مسلم رقم (٢٤١٤).

(8) مصنف بن أبى شيبة رقم (١٢٢١٩)، صحيح .

(9) أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب، ص (٥٤١).

(10) فتوح البلدان، ص (٢٩٩)، نظام الحكم للقاسمى (١/ ٥٤٤) .

فى كـتابى عن أمـير المؤمنـين على بن أبى طالب، فمـن أراد المزيد فليرجع إليـه مشكوراً[1].

رابعًا: أسماء بنت الصديق والدة عبد الله بن الزبير رضى الله عنهم جميعًا:

هى أسماء بنت عبـد الله بن أبى قحافة بن عثمان بن عامـر بن عمرو بن كعب بن سعـد بن تميم بن مرة[2]، وكانت من أوائل المسلمـات حيث أسلمت وأختـها عائشة وهى يومئـذ صغيرة[3]. ولها مواقف مشهـودة، وآثار محمودة فى تاريخنا الإسلامى المجيد، ومن هذه المواقف:

١ ـ فى الهجرة النبوية: قالت السيـدة عائشة فى حديث طويل منه: فـبينما نحن يومًا جلوس فى بيت أبى بكر، عند الظهيرة، قال قائل لأبى بكر: هذا رسول الله متقنعًا[4]، فى ساعة لم يكن يأتينا فيهـا، فقال أبو بكر: فداء له أبى وأمى، والله ما جاء به فى هذه السـاعة إلا أمر... إلى أن قالت: ..فجهزنـاهما أحث الجهاز (من الحثّ وهو الإسراع)، وضعنا لهم سفرة فـى جراب، فقطعت أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهـما قطعـة من نطاقهـا، فربطت به علـى فم الجراب، فبـذلك سميت بذات النطاقين[5].

فقد أسهمت السيـدة أسماء -رضى الله عنها- فى تموين الرسول ﷺ وصاحبه فى الغار بالماء والغذاء، وكيف تحملت الأذى فى سـبيل الله، فقد حدثتنا عن ذلك فقـالت: لما خرج رسـول الله ﷺ، وأبو بكر رضى الله عنه أتانا نفـر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبى بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبى بكر؟ قـالت: قلت: لا أدرى والله أين أبـى، قالت: فـرفع أبو جـهل يده ـ وكان فـاحشًـا ـ فلطم خدّى لـطمة، طرح منهـا قرطى، قـالت: ثم انصرفوا[6]. فهـذا درس من أسماء والـدة عبد الله بن الزبيـر رضى الله عنهم، تعلّمه لنساء المسلمـين جيلاً بعد جيل، كيف تخفى أسـرار المسلمين عن الأعداء،

---

(١) أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب، ص (٥٣٥ - ٥٥٠).

(٢) الطبقات الكبرى (٣/١١٩) .

(٣) السيرة النبوية (١/٢٧١)، عبد الله بن الزبير للناطور، ص (١٧).

(٤) متقنعاً: مغطياً رأسه .

(٥) البخارى رقم ٣٩٠٥، السيرة النبوية للصلّابى (١/٤٦٣).

(٦) تاريخ الطبرى (٢/٣٧٩ ـ ٣٨٠)، السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٣١ - ١٣٢).

وكيف تقف صامدة شامخة أمام قوى البغى والظلم. وأما درسها الثانى البليغ، فعندما دخل عليها جدها أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إنى لأراه قد فجعكم بماله ونفسه. قالت: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً، قالت: فأخذت أحجاراً فوضعتها فى كوة فى البيت كان أبى يضع فيها ماله، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت بيده فقلت: ضع يديك على هذا المال، قالت: ووضع يده عليه فقال: لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا، فقد أحسن. وفى هذا بلاغ لكم، قالت: ولا -والله- ما ترك لنا شيئًا، ولكنى أردت أن أسكت الشيخ بذلك[1]. وبهذه الفطنة، والحكمة، سترت أسماء أباها، وسكنت قلب جدها الضرير، من غير أن تكذب، فإن أباها قد ترك لهم حقًا هذه الأحجار التى كومتها، لتطمئن لها نفس الشيخ! إلا أنه قد ترك لهم معها إيمانًا بالله لا تزلزله الجبال، ولا تحركه العواصف الهوج، ولا يتأثر بقلة أو كثرة فى المال، وورثهم يقينًا، وثقة بلا حد لها، وغرس فيهم همة تتعلق بمعالى الأمور ولا تلتفت إلى سفاسفها[2]، فضرب بهم للبيت المسلم مثالاً عز أن يتكرر، وقل أن يوجد نظيره. لقد ضربت أسماء رضى الله عنها بهذه المواقف لنساء وبنات المسلمين مثلاً هن فى أمس الحاجة إلى الاقتداء به، والنسج على منواله[3].

٢ ـ صلة أسماء لأمها المشركة: عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها قالت: قدمت أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: إن أمى قدمت وهى راغبة، أفأصل أمى؟ قال: «نعم، صلى أمك»[4]، قال ابن حجر: وفى قولها: وهى راغبة أقوال، والذى عليه الجمهور من هذه الأقوال أنها قدمت طالبة من بر ابنتها لها، خائفة من ردها إياها خائبة. وفى هذا الحديث من الفوائد ما ذكره الخطابى: إن الرحم الكافرة توصل بالمال ونحوه، كما توصل المسلمة[5]. وقد قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٠٢)، إسناده صحيح .
(٢) السفساف: الردئ الحقير من كل شىء، والجمع سفاسف .
(٣) الهجرة النبوية المباركة، ص (١٢٨).
(٤) البخارى رقم (٢٦٢٠).
(٥) فتح البارى (٥/٢٧٧) .

اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩]. وهاتان الآيتان رخصة فى الذين لم ينصبوا الحرب للمسلمين، وجواز برهم، وإن كانت الموالاة منقطعة(١).

٣ ـ شجاعتها وجهادها فى اليرموك مع زوجها: وأما شجاعتها وجرأتها وجهادها فى سبيل الله فأمر يفوق الخيال؛ فمن ذلك خروجها مع الجيش يوم اليرموك، فلقد شهدت اليرموك مع زوجها الزبير وابنها عبد الله(٢)، ومن شجاعتها استعدادُها التام لمواجهة اللصوص الذين كثروا فى يوم من الأيام بالمدينة، عن فاطمة بنت المنذر أن أسماء بنت أبى بكر اتخذت خنجرًا للصوص زمن سعيد بن العاص ـ أى فى زمن إمارته المدينة- وكانوا قد كثروا فى المدينة، فكانت تجعله تحت رأسها(٣).

٤ ـ علاقتها بالقرآن الكريم : كانت رضى الله عنها قد تربت على كتاب الله وهدى النبى ﷺ، وإليك هذه الصورة المشرقة من حياتها مع القرآن الكريم، فذات يوم دخل عليها ابنها وهى تُصلى فسمعها تقرأ هذه الآية ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧] فبكت واستعاذت. . . فقام وهى تستعيذ. فلما طال عليه أتى السوق وقضى منه حاجته. . ثم رجع فوجدها ما تزال فى بكائها تستعيذ(٤). وكانت إذا أُصيبت بالصُّدَاع تضع يدها على رأسها وهى تقول: بذنبى وما يغفر الله أكثر(٥). وهذا فهم عميق لقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقد أفرد الدكتور محمد بن لطفى الصبّاغ رسالة قيمة فى حياة السيدة أسماء رضى الله عنها، وسيأتى الحديث عن بعض الدروس والعبر فى حصار الحجاج لابنها عبد الله بمكة بإذن الله.

خامسًا: أولاد ابن الزبير وزوجاته:

كان له من الولد خُبيبُ وحمزة وعباد وثابت وأمهم تماضر بنت منظور الفزارى، وهاشم وقيس وعروة ـ قتل مع أبيه ـ والزبير، وأمهم أم هاشم بنت حلة

---

(١) شرح منظومة الآداب (١/ ٢٩٧)، بر الوالدين أم حفص عبير بنت محمد، ص (٣٦).

(٢)، (٣) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٥٣)، أسماء بنت أبى بكر للصبّاغ، ص (٣٣).

(٤) الحلية (٢/ ٥٥) أسماء بنت أبى بكر، ص (٩).

(٥) الحلية (٢/ ٥٥)،أسماء بنت أبى بكر، ص (٣٣).

ابن منظور وعامر وموسى وأمّ حكيم وفاطمة وفاختة، وأمهم جثيمة بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وبكر ورقية وأمهما عائشة بنت عثمان بن عفان، وعبد الله ومصعب من أم ولد[1].

سادسًا: عبد الله بن الزبير فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية رضى الله عنهم:

١ - فى اليرموك: لا نجد فى كتب السيرة أى خبر عن اشتراك عبد الله بن الزبير فى الحروب والغزوات رغم حضوره مع والده غزوة الأحزاب وفتح مكة، فقد كان فى مقتبل العمر ولم يتجاوز عمره عند وفاة الرسول ﷺ إحدى عشرة سنة. وكان الرسول ﷺ لا يجيز أحدًا من الغلمان لم يبلغ الخامسة عشر، وأول ما يرد من أخبار تتعلق بخروجه مع الجيوش، ومرافقته لوالده فى تحرير بلاد الشام وحضوره معركة اليرموك إذ يقول عبد الله: كنت مع أبى عام اليرموك، فلما تعبأ المسلمون للقتال، لبس الزبير لامته ثم جلس على فرسه، ثم قال لموليين له: احبسا عبد الله ابن الزبير معكما فى الرحل، فإنه غلام صغير[2]. وبعد انتهاء القتال شارك عبد الله فى علاج الجرحى بعد انهزام المشركين،[3] وإن لم يشارك فى القتال لصغر سنه، فإنه ألف القتال والعراك وصليل السيوف منذ نشأته، مما زاد فى شجاعته وخبرته العسكرية[4].

٢ - ابن الزبير مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنهم: مرّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وابن الزبير يلعب مع الصبيان، ففروا ووقف ابن الزبير، فقال له عمر: مالك لم تفر معهم، فقال: لم أجرم فأخافك، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك[5]، وتروى المصادر حادثة أخرى تبين شجاعته منذ صباه الباكر، فقد ذكرت المصادر التاريخية إنه كان ذات يوم يلعب مع الصبيان وهو صبى، فمر بهم رجل فصاح عليهم ففروا، ومشى ابن الزبير القهقرى وقال: يا صبيان اجعلونى أميركم وشدوا بنا عليه ففعلوا[6].

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٢١٣) .

(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن عبد الله بن الزبير، ماجد لحام، ص (٤١).

(٣) تاريخ ابن عساكر نقلاً عن عبد الله بن الزبير، ص(٤١). (٤) عبد الله بن الزبير، ص (٤١).

(٥)، (٦) الكامل فى التاريخ (٢/ ٧٥) .

٣ ـ كتابة المصاحف في عهد عثمان : عن أنس: أن عثمان أمر زيدًا، وابن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوا المصاحف، وقال: إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم[(١)]، ومن أراد التفصيل في جمع سيدنا عثمان رضي الله عنه للمصاحف فليراجع كتابي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

٤ ـ جهاده في شمال إفريقية في عهد عثمان رضي الله عنه: انقطع خبر المسلمين في إفريقية عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، فسيّر إليهم عبد الله بن الزبير في جماعة ليأتيهم بأخبارهم، فسار مُجدًا ووصل إليهم، وأقام معهم، ولما وصل، كثر الصِّياح، والتكبير في المسلمين، فسأل جرجير عن الخبر، فقيل: قد أتاهم عسكر، ففتَّ ذلك في عضده، ورأى عبد الله بن الزبير قتال المسلمين كلّ يوم من بكرة إلى الظُّهر، فإذا أُذِّن بالظهر عاد كل فريق إلى خيامه، وشهد القتال من الغد فلم ير ابن سعد معهم فسأل عنه فقيل: إنه سمع منادي جرجير يقول: من قتل عبد الله بن سعد، فله مئة ألف دينار، وأزوِّجه ابنتي، وهو يخاف فحضر عنده، وقال له: تأمر مناديًا ينادي: من أتاني برأس جرجير، نفّلته مئة ألف، وزوجته ابنته واستعملته على بلاده، ففعل ذلك فصار جرجير يخاف أشدّ من عبد الله[(٢)].

ثمّ إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد: إنّ أمرنا يطول مع هؤلاء؛ وهم في أمداد متصلة وبلاد هي لهم، ونحن منقطعون عن المسلمين، وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غدًا جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهِّبين، ونقاتل نحن الروم في باطن العسكر إلى أن يضجروا ويملُّوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون، ركب من كان في الخيام من المسلمين، ولم يشهدوا القتال، وهم مستريحون، ونقصدهم على غرّة فلعلّ الله أن ينصرنا عليهم، فأحضر جماعة من أعيان الصّحابة، واستشارهم، فوافقوه على ذلك، فلمّا كان الغد، فعل عبد الله ما اتفقوا عليه وأقام جميع شُجعان المسلمين في خيامهم، وخيولهم عندهم مُسَرَّجة، ومضى الباقون، فقاتلوا الرّوم إلى الظهر قتالاً شديدًا، فلما أُذِّن بالظهر همّ الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزُّبير، وألح عليهم بالقتال، حتى أتعبهم، ثم عاد عنهم، هو والمسلمون، فكل من الطائفتين

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٧٠).

(٢) التاريخ الإسلامي (١٢/ ٣٨٨).

ألقى سلاحه، ووقع تعبًا، فعند ذلك أخذ عـبد الله بن الزير من كان مستريحًا من شجعـان المسلمين وقصد الرّوم فلم يشـعروا بهم حتى خالطوهم، وحـملوا حملة رجل واحد، وكبّروا فلم يتمكن الرّوم من لبس سلاحـهم حتى غشيهم المسلمون، وقُتل جرجير، قتله ابن الزبير، وانهـزم الروم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأخذت ابنة الملك جرجير سبـية، ونزل عبد الله بن سعد المدينة، وحاصرها حـتى فتحها، ورأى فيـها مـن الأموال ما لـم يكن في غيـرها، فكان سهم الفـارس ثلاثة آلاف دينار، وسهم الرّاجل ألف دينار، ولما فـتح مدينة سبيطلة، بثّ جيـوشه في البلاد فبلغت قفصـة، فسبوا، وغنموا، وسيّر عسكرًا إلى حـصن الأجم، وقد احتمى به أهل تلك البلاد، فحصـره، وفتحه بالأمان، فصالحه أهل إفريقـية، ونفّل عبد الله ابن الزبير ابنة الملك، وأرسله ابن سعـد إلى عثمان بالبشارة بفـتح إفريقية[١]. قال ابن كثير: فكان هذا أول مـوقف اشتهر فيه أمر عـبد الله بن الزبير رضي الله عنه وعن أبيه، وأصحابهما أجمعين[٢]، وكان الشاعر أبو ذؤيب الهذلي قد خرج مع ابن الزبير في مغزّى نحو المغرب ـ في عهد عثمان ـ فمات، فدلاّه عبد الله بن الزبير في حفرته، وقد قال الشاعر أبو ذؤيب في تلك الغزاة في عبد الله بن الزبير:

وصاحبِ صدق كسيد[٣] الضَّرَاءِ[٤] ينهض في الغزو نهـضًا نجيـحا[٥]

وشيكِ الفـصول بطيءٍ القفـول إلا مـشـاحًا بـه أو مُشـيـحـا[٦]

٥ ـ دفاعـه عن عثـمان يوم الدار: كان ابن الزبيـر من الذين كانوا مع عثـمان بن عفـان يوم حصـر من قبل الغـوغاء، وكان يلح على عـثمـان أن يسمح له بقـتال الغوغاء، ولكن عثمان كان يرفض ذلك[٧]، ولما أمر عثمان من في الدار بالخروج أصر ابن الزبير ومروان بن الحكم على البـقاء معه والدفاع عنه[٨]، وقد أصيب ابن الزبير أثناء الحصار بإصابات بالغة كادت تودي بحياته، فقد روى المدائني أن كنانة ـ مولى صفيـة بنت حيي ـ أخرج أربعة محمـولين، وكان ابن الزبير منهم[٩]، وكان

---

(١) الكامل في التاريخ (٢/٢٣٦، ٢٣٧) . (٢) البداية والنهاية (٧/١٥٨) .

(٣) السـيد: الذئب. (٤) الضراء: ما واراك من الشجر.

(٥) نجيحاً: سريعاً.

(٦) الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢/٦٥٣)، وشيك الفصول: أي سريع الغزو .

(٧) الطبقات (٣/ ٧٠)، عبد الله بن الزبير للخراشي، ص (٤١). (٨) تاريخ خليفة، ص (١٧٤).

(٩) أنساب الأشراف (١/ ٥٦٤)، عبد الله بن الزبير للخراشي، ص (٤٢).

ابن الزبير يخطب بمكة ويقول فى خطبته: فجرحت بضعة عشر جرحًا، وإنى لأضع يدى اليوم على تلك الجراحات التى جرحت مع عثمان، فأرجو أن تكون خير أعمالى[1]، وفى هذا وضوح موقف ابن الزبير من عثمان، وأنه يراه إمام حق ورشد، وأن المعتدين عليه مجرمون، وأن قتالهم من أفضل الأعمال عند الله، ومنها نستفيد أن الدفاع عن أولياء الله الصالحين بأى وسيلة شرعية من الذب عن أعراضهم وشدّ أزرهم من الأعمال الصالحة. ومما يدل على أهمية الدور الذى كان يقوم به ابن الزبير فى الذود عن عثمان ما ذكرته الروايات من أن عثمان أمّر ابن الزبير يوم الدار وقال: من كانت لى عليه طاعة فليطع عبد الله بن الزبير[2]. وفى رواية: أنه أمره أن يصلى بأهل داره فترة الحصار، وكان ابن الزبير يصلى بهم فى صحن الدار[3].

٦ ـ فى معركة الجمل :كان ابن الزبير يوم الجمل على الرجّالة، وجُرح يومئذ تسع عشرة جراحة، وقد تبارز يومئذ هو ومالك بن الحارث بن الأشتر، فاتّحدا، فصرع الأشتر ابن الزبير فلم يتمكن الأشتر من القيام عنه، بل احتضنه ابن الزبير وجعل ينادى ويقول: اقتلونى ومالكًا واقتلوا مالكًا معى[4]. فأرسلها مثلاً. ثم تفرّقا ولم يقدر عليه الأشتر، وقد قيل: إنه جرح يومئذ بضعًا وأربعين جراحة، ولم يوجد إلا بين القتلى وبه رمق، وقد أعطت عائشة لمن بشّرها بأنه لم يقتل عشرة آلاف درهم وسجدت لله شكرًا، وقد كانت تحبه حبًا شديدًا، لأنّه ابن أختها، وكان عزيزًا عليها، وقد رُوِىَ عن عُروة أنّه قال: لم تكن عائشة تحب أحدًا بعد رسول اللهِ ﷺوأبى بكر مثل حُبِّها عبد الله بن الزبير، وقال عروة: وما رأيت أبى وعائشة يدعوان لأحد من الخلق مثل دعائهما لابن الزبير[5].

٧ ـ جهاده أيام معاوية رضى الله عنهما:تولى أمر إفريقية معاوية بن حديج، فكان عبد الله بن الزبير ساعده الأيمن بالفتح والجهاد، وقد سار معاوية بن حديج فى جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، وفتح بنزرت سنة إحدى وأربعين، كما دخل (القيروان) سنة خمس وأربعين، وبث السرايا فى البلاد، وبعث إلى (سوسة) عبد

---

(١) الطبقات نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشى.

(٢) الطبقات (٣/ ٧٠).

(٣) الطبقات نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (٤٢).

(٤) البداية والنهاية (١١/ ١٩٦)

(٥) المصدر نفسه (١١/ ١٩٧).

الله بن الزبير ففتحها[1]. وكان عبد الله بن الزبير كذلك فى جيش يزيد بن معاوية الذى سار نحو القسطنطينية، وكان فـى ذلك الجيش عدد من الصحابة أيضًا منهم: أبو أيوب الأنصارى، والحسين بن على، وعبد الله بن عمر، وابن عباس[2].

سابعًا: وصف ابن الزبير وأهم صفاته:

كان آدم[3] نحيفًـا ليس بالطويل، وكان بين عينيه أثر الـسجود، كثيـر العبادة، مجتهدًا شهمًا فصيحًا، صوامًا قوامًا، شديد البأس، ذا أنفة، له نفس شريفة وهمة عالية، وكان خـفيف اللحية ليس فى وجهه من الشعـر إلا قليل، وكانت له جُمة وكان له لحيـة صفراء[4]، وكان عالمًا عـابدًا مهيبًا وقـورًا، كثير الصـيام والصلاة، شديد الخشوع، قوىّ الـسياسية[5]، وكان لأبيه الزبيـر وأمه أسماء وخالتـه عائشة وجده أبى بكر، وجدته صفـية عمه رسول الله ﷺ أكبر الأثر على شخـصيته من جميع النواحى، وهذا ما نلمسه من صفات ابن الزبير التى أهمها:

١ ـ فقهـه وعلمه: كان عبـد الله بن الزبير رضى الله عنه أحد العـبادلة الأربعة الذين تفقهـوا فى أمور الدين فى المدينة المنورة، وهم عبد الله بن الزبيـر وعبد الله ابن عبـاس وعبد الله بن عمـرو بن العاص وعبد الله بن عـمر رضى الله عنهم، ولابن الزبير فى الصحيـحين أحاديث اتفقا له على حديث واحـد وانفرد البخارى بستة أحاديث، ومـسلم بحديثين[6]، حدث عن رسول الله وهو صـغير، وكذلك حدث عن أبيه الزبير وعن جـده أبى بكر وعمر وعثمان وخالـته أم المؤمنين عائشة وغيرهم رضى الله عنهم، وروى عنه مشاهير التابعين منهم أخوه عروة، وطاووس بن كيسـان وعمرو بن دينار، وابن أبى مليكة، وثابت البنانى، وغيرهم كـثير[7]، وقد كان رضى الله عنه فـقيهًا، وقد قال عبـد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما مات العبادلة عبـد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير وعبـد الله بن عمرو بن العاص،

---

(١) البيان المغرب (١/١٦، ١٧)، عبد الله بن الزبير، محمود شاكر، ص (٤٣).

(٢) تاريخ الطبرى (٦/١٤٨)، عبد الله بن الزبير، محمود شاكر، ص (٤٣).

(٣) آدم: أسمر.

(٤) البداية والنهاية (١١/١٩٣).

(٥) المصدر نفسه (١١/٢٠٤).

(٦) سير أعلام النبلاء (٣/٣٦٣).

(٧) المصدر نفسه (٣/٣٦٣)، عبد الله بن الزبير، محمد عبد الرضا هادى، ص (٩).

وعبد الله بن عـمر صار الفقه فى جـميع البلدان إلى الموالى[1]، وعرف ابن الزبير بأنه واسع المعرفة بالقرآن والسنة، وكان رضى الله عنه من العلماء المجتهدين، عالمًا عابدًا، ولا غـرو فى ذلك إذ كان كثيـر الدخول على خالته عـائشة، أم المؤمنين، رضى الله عنها، وهى العالمة الفقيهـة وكانت تحدثه وهو من أحب الناس إليها بعد رسول الله ﷺ، وبعد أبيـها أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، وعنهـا، وكانت مدة خلافة عـبد الله بن الزبير تسع سنوات، وقد حج خلالهـا ثمانى مرات، وفى السنة الأخيرة كان محاصرًا فلم يستطع الحج. خطب ابن الزبير مرة الحُجّاج فقال: يا معشر الحـجاج سلونى، فعلينا كان التنزيل، ونحن حضـرنا التأويل، فقال رجل من أهل العراق: انحلّ جرابى فدخلت فيه فأرة فقـتلتها، وأنا محرم، فقال: اقتلوا الفويسقـة، فقال: أخبرنا بالشفع والوتر والليـالى العشر، فقال: العشـر: الثمانى وعرفـة والنحر، والشفـع من تعجّل فى يومين فـلا إثم عليه، ومن تأخـر فلا إثم عليه، والوتر: هو هذا اليوم (يعنى عـرفة)، ولم يكن أحد أعلم بالمناسك من ابن الزبير فى عهده[2]. وقال عنه ابن عباس رضى الله عـنه: كان قارئًا لكتاب الله، متبعًا لسنة رسول الله ﷺ، قانتًا لله صائمًا فى الهواجر من مخافة الله ابن حوارى رسول الله وأمه بنت الصديق، وخـالته عائشة حبيبة حـبيب الله زوجة رسول الله ﷺ، فلا يجهل حقه إلا من أعمى الله بصيرته،[3] وكتب فى فقهه رسالة علمية للطالب محمد عبد الرضا هادى بالعراق.

٢ ـ عبادته وتقواه: تواترت الروايات التى تصور لنا حرص ابن الزبير على العبادة من صلاة وصـيام وغيـرها، حتى أنهـا أصبحت مـعالم شـخصيـته[4]، قال عنه مجاهد: لم يكن أحـد يطيق ما يطيقه ابن الزبيـر من العبادة[5] (رضى الله عنه)، وقال: جاء سيل مرة فطبق أبنية الكعبة، فجعل ابن الزبير يطوف سباحة[6]، وكان ابن الزبير رضى الله عنه كـثير العـبادة إذا قام إلى الصـلاة انقطع عن الدنيا ونسى مشـاغلها وما فيـها من حلو ومر، وخـرج من كل شىء إليها، فـقد روى أن ابن

---

(١) معجم البلدان نقلاً عن عبد الله بن الزبير، الناطور، ص (٣١).

(٢) تهذيب تاريخ ابن عـساكر نقلاً عن عبد الله بن الزبير، محمود شاكر، ص (٢٠٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٣٦٧)، البداية والنهاية (١١/ ١٩١).

(٤) عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (٣٢).   (٥)، (٦) البداية والنهاية (١١/٣، ١٩) .

الزبير كان يومًا يصلى فسقطت حية من السقف فطوقت بطن ابنه هاشم، فصرخ النسوة وانزعج أهل المنزل واجتمعوا على قتل تلك الحية، فقتلوها وسلم الولد، فعلوا هذا كله وابن الزبير فى الصلاة لم يلتفت، ولا درى بما جرى حتى سلّم[1]. وقال عنه ثابت البنانى: كنت أمر بابن الزبير وهو خلف المقام يصلى كأنّه خشبة منصوبة لا تتحرك[2]، وقال يزيد بن إبراهيم عن عمرو بن دينار، قال: كان ابن الزبير يصلى فى الحجر والمنجنيق يصيب ثوبه، فما يلتفت -يعنى: لما حاصروه-[3]، وعن ابن أبى مليكة: قال لى عمر بن عبد العزيز: إن فى قلبك من ابن الزبير؟ قلت: لو رأيته ما رأيت مناجيًا ولا مصليًا مثله[4]، وعن ابن أبى مليكة قال: كان ابن الزبير يواصل سبعة أيام، ويصبح فى اليوم السابع وهو أليثُنا[5]. وعلق الذهبى على ذلك فقال: لعله ما بلغه النهى عن الوصال ،النبى ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم، وكل من واصل، وبالغ فى تجويع نفسه، انحرف مزاجه، وضاق خلقه، فاتباع السنة أولى، ولقد كان ابن الزبير مع مُلكه صنفًا فى العبادة[6].

٣- جرأته وشجاعته: كان عبد الله بن الزبير فارس قريش فى زمانه، وكان يشتد بالسيف، وقد ناهز السبعين كأنه فتى فى ربيع العمر، قال عنه عثمان بن طلحة: كان ابن الزبير لا ينازع فى ثلاثة؛ لا شجاعة ولا عبادة ولا بلاغة[7]، وعن هشام ابن عروة قال: كان أول ما أفصح به عمى عبد الله بن الزبير وهو صغير، السيف، فكان لا يضعه من فيه، فكان أبوه إذا سمع ذلك منه يقول: أما والله ليكونن لك منه يوم ويوم وأيام[8]، وكان مشهودًا له بالشجاعة منذ كان صغيرًا، وقد مرّت شجاعته فى اليرموك وفى حصار القسطنطينية وفى فتح إفريقية، وفى دفاعه عن عثمان يوم الدار، وفى قتاله فى الجمل. وسيأتى الحديث عن شجاعته أكثر بإذن الله فى حصار الحجاج له بمكة، وكان يقول: والله إنى لا أبالى إذا وجدت ثلاث مئة يصبرون صبرى لو أجلب علىَّ أهل الأرض[9]، وكان يضرب بشجاعته المثل[10]،

---

(١) البداية والنهاية (١١/١، ١٩) .
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/٣٦٩) .
(٣) المصدر نفسه (٣/٣٦٩).
(٤)، (٥)، (٦) المصدر نفسه (٣/٣٦٨).
(٧) المصدر نفسه (٣/٣٧٠) .
(٨) عبد الله بن الزبير فقيهًا، ص (١٤)، البداية والنهاية (١١/٢٠٨).
(٩) سير أعلام النبلاء (٣/٣٧٦).
(١٠) المصدر نفسه (٣/٣٧٧).

وكان ابن الزبير متأثراً بشجاعة أبيه وإقدامه، وشجاعة جده الصديق، وأمه وأخواله وعلى رأسهم عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق.

٤- فصاحته وخطابته: كان ابن الزبير رضى الله عنه لا ينازع، وكان من خطباء قريش المعدودين، وكان إذا خطب يشبه بجده أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) فى حركاته وإشاراته ونبرات صوته، وكان صيتًا إذا خطب، ويروى أن المسلمين عندما انتصروا على البربر فقتلوا منهم خلقًا كثيراً وغنموا أموالاً وغنائم كثيرة جدًا، بعث ابن أبى السرح بالبشارة مع ابن الزبير إلى عثمان، فقص على عثمان الخبر وكيف جرى، فقال له عثمان: إن استطعت أن تؤدى هذا للناس فوق المنبر؟، قال: نعم، فصعد ابن الزبير فوق المنبر فخطب، وذكر لهم كيفية ما جرى، قال عبد الله: فالتفت فإذا أبى الزبير فى جملة من حضر، فلما تبينت وجهه كاد يرتج علىّ فى الكلام من هيبته فى قلبى، فرمزنى بعينه وأشار إلى ليحضنى، فمضيت فى الخطبة كما كنت، فلما نزلت قال: والله لكأنى أسمع خطبة أبى بكر الصديق حين سمعت خطبتك يا بنى[1]، وعن محمد بن عبد الله الثقفى قال: شهدت ابن الزبير بالموسم خرج علينا قبل التروية بيوم، وهو محرم، فلبى بأحسن تلبية سمعتها قط، ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنكم جئتم من آفاق شتى وفودًا إلى الله عز وجل فحق على الله أن يكرم وفده، فمن كان منكم يطلب ما عند الله فإن طالب ما عند الله لا يخيب، فاصدقوا قولكم بفعل، فإن ملاك القول الفعل، والنية النية، القلوب القلوب، الله الله فى أيامكم هذه، فإنها أيام تغفر فيها الذنوب، جئتم من آفاق شتى فى غير تجارة ولا طلب مال ولا دنيا، ترجون هاهنا، ثم لبى ولبى الناس، فما رأيت باكيًا أكثر من يومئذ[2]، وقال سعيد بن المسيب خطباء قريش فى الإسلام: معاوية وابنه وسعيد وابنه وعبد الله بن الزبير[3]، ومن خطبه المشهورة، خطبته فى أهل مكة بعد مقتل الحسين رضى الله عنه، وخطبته فى الخوارج حين ناظرهم وخطبته بعد مقتل أخيه مصعب فى العراق[4]، ومن مواعظه المشهورة ما كتبه لوهب بن كيسان حيث قال: كتب إلىّ عبد الله بن الزبير بموعظة: أما بعد فإن

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ١٩٤). (٢) المصدر نفسه (١١/ ٢١٨).

(٣) تاريخ ابن عساكر نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (٣٤).

(٤) الكامل فى التاريخ (٣/ ٥٨).

لأهل التقوى علامات يُعرفون بها، ويعـرفونها من أنفسهم: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وكظم الغـيظ، وصبر على البـلاء ورضا بالقضاء، وشكر للنعـماء، وذلّ لحكم القرآن، وإنما الأيام كالسوق ما نفق فيها حمل إليها، إن نفق الحق عنده حمل إليه وجـاءه أهله، وإن نفق الباطل حمل إليـه وجاءه أهله[1]. ولا شك أن صفة الخطابة والقدرة على الإقنـاع من أهم الأمور التى يجب أن يتحلى بهـا أى زعيم، وقد أفاد ابـن الزبير من ذلك كثيـرًا، وكانت فصاحـته وقدرته الخطابية عـاملاً من عوامل نشر أفكاره والقيم التى آمن بها فى حياته.

٥ ـ كرم عـبد الله بن الزبير رضـى الله عنه وجوده: كان عبد الله بن الـزبير كريمًا يعطى حقوق الرعية كاملة، ويزيد إلى من يستحق، ولا يدفع إلا بطرق مشروعة، ولكن اتهمه بعضهم بالبخل، إذ لم يـكن مبذرًا يعطى عن يمين وعن شمال من لا يستحق، ولم يكـن مسـرفًا فـلا يدفع إلا قـدر الحاجـة، ولا يُقـدّم للمدّاحـين والمتزلّفين، وهم عادة أصحاب ألسنة حادة ومنهـا تخرج الشائعات الهادفة، غير أن ابن الزبير لم يكن يُبالى بما يُقـال، ما دام أنه على الجادة[2]، وقد انساق كـثير من الباحثين وراء روايات الخصوم، واتهموا ابن الزبير بالبخل، وهذا الوصف فيه تجن على حقيـقة ابن الزبير، وللأسف فإن أصـحاب الدراسات الحديثة لم يلتـفتوا إلى الروايات الأخرى التى تنفى صفـة البخل عن ابن الزبير[3]، والذى يظهر أن صفة البخل التى وصف بها ابن الزبير كانت بسبب سـياسته المالية المتشددة، ذلك أن ابن الزبير كان يتـأسى بالخلفاء الراشدين، وينظر إلى ما بيـده من مال أنه ليس ملكًا له وإنما هو للمسلمين، ومن ثمّ لا ينفقـه إلا فى وجوهه الشرعية[4]، فالذين عاشوا فى ذلك العصـر ورأوا سياسة ابـن الزبير المتشددة وقـارنوها بسياسـة الأمويين فى الإنفاق لكسب الأنصار والمؤيدين والشعراء، اتهم بعضهم ابن الزبير بالبخل. وهذه الآثار تدل على كرم وجُود ابن الزبير رضى الله عنه وحرصه على أموال المسلمين:

أ- شهادة السيدة عائشة فى كرم ابن الزبير: قالت عائشة بنت طلحة: خرجت مع أم المؤمنين عائشة -وهى خالة عائشة بنت طلحة- فبينما نحن كذلك إذا براجز يقول:

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٢١٩).

(٢) عبد الله بن الزبير، محمود شاكر، ص (٢).

(٣) عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (٣٦).

(٤) المصدر نفسه، ص (٣٧).

أنشد من كان يعيد الهمّ

يدلني اليوم على ابن أمّ

له أب في باذخ أشَمّ

وأمه كالبدر ليل تمّ

مقابل الخال كريم العمّ

جرّعه أكوسه بسمّ

قالت: فلما سمعت أم المؤمنين أبياته دعت به، فقالت له من وراء حجابها: يا عبد الله سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الدّال على الخير كفاعله». فحاجتك رجل بين يديك، فسأل عن عبد الله بن الزبير، فإنه شرطك، فخرج الرجل حتى أدرك عبد الله بن الزبير فحمله على راحلة وصنع إليه معروفًا[1].

ب ـ شهادة معاوية بن أبي سفيان في ابن الزبير رضي الله عنهم: سمع معاوية رضي الله عنه رجلاً وهو يقول:

ابن رقاش ماجد سَمَيْدع

يأتي فيعطي عن يدٍ أو يمنع

فقال: ذاك عبد الله بن الزبير[2].

جـ ـ نابغة بني جعدة وابن الزبير: عن عبد الله بن عروة قال: أقحمت السنة نابغة بني جعْدة، فدخل على عبد الله بن الزبير المسجد الحرام فأنشده:

حكيت لنا الصديق لما وليتنا	وعثمان والفاروق فارتاح مُعْدِمُ
وسويت بين الناس في الحق فاستووا	فعاد صباحًا حَالك اللون مظلم
أتاك أبو ليلى يجوب به الدُّجى	دُجى الليل جوّاب الفلاة عَشمثمُ
لتجبر منه جانبًا دعدعتْ به	صُروف الليالي والزمان المُصَمّم

فقال ابن الزبير: هوّن عليك أبا ليلى، فإن الشعر أهون وسائلك عندنا، أمّا صفوة مالنا فلآل الزبير، وأمّا عفوته فإن بني أسد تشغلها عنك، وتيمًا، ولكن لك

(1) تاريخ دمشق الكبير (٣٠/١٤٧).

(2) المصدر نفسه (٣٠/١٤٧).

فى مال الله حقان: حق برؤيتك رسول الله ﷺ، وحق لشركتك أهل الإسلام فى فيئهم، ثم أخذ بيده فدخل به دار النَّعَم، فأعطاه قلائص سبعًا وجملاً رحيلاً، وأوقر له الركاب براً وتمراً وثيابًا، فجعل النابغة يستعجل ويأكل الحب صِرْفًا، فقال ابن الزبير: ويح أبى ليلى، لقد بلغ الجهد[1]. فهذا الخبر ينفى ما روى عن بخل ابن الزبير ففرق بين البخل والحفاظ على مال المسلمين، فقد بدا واضحًا من كلام عبد الله بن الزبير تبريره حق النابغة الجعدى فيما منحه إياه دون أى اعتبار لما مدحه به من شعر[2].

د - عبد الله بن عروة ابن أخى ابن الزبير: جاء فى رواية للزبير بن بكار أن عبد الله ابن الزبير زوّج ابنته أم حكيم - من ابن أخيه عبد الله بن عروة، فأرسل عروة إلى أخيه عبد الله عشرين ألف درهم فردها عبد الله قائلاً: لو أردت المال لوجدته عند غيرك[3].

هـ- حمزة بن عبد الله بن الزبير فى سجن أبيه: قدم حمزة بن عبد الله بن الزبير على أبيه بعد أن عزل من العراق، فلما سأله أبوه عن المال أخبره بأنه وزعه على قومه فوصلهم به، فقال له ابن الزبير: مال ليس لك ولا لأبيك، ثم سجنه[4]، وهكذا يتضح حرص ابن الزبير على المال العام، وإنفاقه وكرمه الذى لا تجاوز فيه لشرع الله فى الإنفاق.

ثامنًا: بيعة ابن الزبير بالخلافة:

بعد موت يزيد بن معاوية لم يكن هناك من خليفة، وإذا كان يزيد قد أوصى لابنه معاوية فإن هذا لا يكفى للبيعة، إذ لا بيعة دون شورى، إضافة إلى أن الذين قد بايعوا معاوية بن يزيد لا يزيدون على دمشق وما حولها وأعيان بنى كلب. هذا مع أن معاوية بن يزيد لم يعش طويلاً، وترك الأمر شورى ولم يستخلف أحدًا، ولم يوص إلى أحد، وكان عبد الله بن الزبير، رضى الله عنهما، قد بويع له فى الحجاز، وفى العراق وما يتبعه إلى أقصى مشارق ديار الإسلام، وفى مصر وما يتبعها إلى أقصى بلاد المغرب، وبايعته الشام أيضًا إلا بعض جهات منها، ففى

---

(١) تاريخ دمشق (١٤٦/٣٠).
(٢) موقف الشعر من الحركة الزبيرية، ص (٤٧).
(٣) جمهرة نسب قريش، ص (٢٦٥).
(٤) المصدر نفسه، ص (٤٠).

دمشق بايع الضحاك بن قيس الفهرى لابن الزبير، وفى حمص بايع النعمان بن بشير، وفى قنسرين زفر بن الحارث الكلابى، وفى فلسطين بايع ناتل بن قيس، وأخرج منها روح بن زنباع الجذامى، ولم يكن رافضًا بيعة ابن الزبير فى الشام إلا منطقة البلقاء وفيها حسان بن مالك بن بحدل الكلبى[١]، وهكذا تمّت البيعة لعبد الله بن الزبير فى ديار الإسلام وأصبح الخليفة الشرعى[٢]، وعين نوّابه على الأقاليم، وتكاد تجمع المصادر على أن جميع الأمصار قد أطبقت على بيعة ابن الزبير خليفة المسلمين، ولذلك صرّح العديد من العلماء والمؤرخين بأن بيعة ابن الزبير بيعة شرعية، وأنه أولى بها من مروان بن الحكم[٣]، فيروى ابن عبد البر عن مالك أنه قال: إن ابن الزبير كان أفضل من مروان، وكان أولى بالأمر منه، ومن ابنه عبد الملك[٤]. ويقول ابن كثير: ثم هو - أى ابن الزبير - الإمام بعد موت معاوية بن يزيد لا محالة، وهو أرشد من مروان بن الحكم حيث نازعه بعد أن اجتمعت الكلمة عليه، وقامت البيعة له فى الآفاق وانتظم له الأمر[٥]، ويؤكد كل من ابن حزم[٦] والسيوطى[٧] شرعية ابن الزبير، ويعتبران مروان بن الحكم وابنه عبد الملك باغيين عليه، خارجين على خلافته، كما يؤكد الذهبى شرعية ابن الزبير ويعتبره أمير المؤمنين[٨].

١- بيعة ابن الزبير بالحجاز: كان من الطبيعى أن يكون الحجاز أولى المناطق خضوعًا وولاء لبيعة ابن الزبير، لكونه مركز المعارضة ضد بنى أمية وقد سارع أهل الحجاز إلى مبايعة ابن الزبير، ويروى ابن سعد أن من الأوائل الذين سارعوا إلى مبايعة ابن الزبير عبد الله بن مطيع العدوى، وعبد الله بن رضوان بن أمية الجمحى والحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة، وعبيد بن عمير، وعبيد الله بن على بن أبى

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٧٣)، عبد الله بن الزبير، محمود شاكر، ص (٦٦).
(٢) عبد الله بن الزبير، محمود شاكر (٦٨).
(٣) عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١١٧).
(٤) الاستيعاب (٣/ ٩١٠).
(٥) البداية والنهاية نقلا عن عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١١٧).
(٦) المحلى (١١/ ٩٨)، عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١١٧).
(٧) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص (٢١٢)، ابن الزبير للخراشى، (١١٨).
(٨) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٣).

طالب، وعبد الله بن جعفر[1]، وكان هناك بعض العناصر الذين امتنعوا عن بيعة ابن الزبير وعلى رأسهم ثلاث شخصيات لها مكانتها وتأثيرها لاسيما فى الحجاز وهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وابن عباس، ومحمد بن الحنفية، وتكاد تجمع المصادر أن أيًا من هؤلاء لم يبايع ابن الزبير طيلة حياته[2].

أ- موقف ابن عمر من بيعة ابن الزبير: بايع ابن عمر يزيد بالخلافة، والتزم ببيعته، وحاول اقناع ابن الزبير بذلك، ونهاه عن إثارة الفتنة والخروج على خلافة يزيد[3]، وبعد وفاة معاوية بن يزيد بويع ابن الزبير بالخلافة، وطلب من ابن عمر أن يبايع له، فرفض ابن عمر البيعة معللاً ذلك بقوله: لا أعطى صفقة يمينى فى فرقة ولا أمنعها فى جماعة[4]. ولم يحاول ابن الزبير إجبار ابن عمر على البيعة، كما أن المصادر لم تشر إلى أى صدام أو مواجهة وقعت بين الاثنين[5]، وكان لامتناع ابن عمر عن بيعة ابن الزبير تأثير سلبى، فقد كان ابن عمر يتمتع بمكانة عالية وبالأخص فى الحجاز، وكان تأثيره على الناس، فامتناعه عن البيعة يجعل البعض يقتدى به ويتخذ الموقف نفسه، ومما يزيد من تأثيره السلبى على حركة ابن الزبير أن ابن عمر كان يجبر من له طاعة عليهم أن يتخذوا الموقف نفسه الذى يتخذه، ومع كل ذلك فلم يكن ابن عمر يشكل خطرًا حقيقيًا على ابن الزبير، فهو لم يكن ذا طموح للخلافة، كما أنه لا يملك أتباعًا يستطيع أن يواجه بهم ابن الزبير كما هو الحال عند محمد بن الحنفية[6].

ب ـ ابن عباس وبيعة ابن الزبير: كان ابن عباس يختلف عن ابن عمر فى مواقفه إزاء الفتن التى جرت فى عصره، حيث خاض فيها وشهد مع على صراعه ضد خصومه فى موقعتى الجمل وصفين، ولما جاء الأمويون للحكم واستخلف معاوية يزيد بادر ابن عباس إلى بيعته، والتزم بها ولم يعرف أنه أيّد ابن الزبير الذى رفض البيعة، وفى الوقت نفسه، لم يعلن عداءه لابن الزبير، وبدأت العلاقة بين الاثنين تدخل طورًا جديدًا بعد وفاة يزيد بن معاوية، حيث بويع ابن الزبير بالخلافة سنة

---

(١) أنساب الأشراف (١/ ٣٥٢)، عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١١٩).

(٢) عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١١٩).

(٣) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/ ٨٤).

(٤) أنساب الأشراف (١/ ٣٥٢)، عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١٢٠).

(٥) عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١٢١).

(٦) المصدر نفسه، ص (١٢٢).

٦٤هـ، وعندما طلب ابن الزبيـر من محمد بن الحنفـية وابن عباس المبـايعة قالا: حتى تجتمع لك البلاد ويتسق لك الناس[١]، ووعداه بعدم إظهار الخلاف له[٢]. لم يحاول ابن الزبيـر فى بداية الأمر إجبـارهما على البـيعة، وبدأت العـلاقة بين ابن الزبير وابن عباس فى تحـسن، نلمس ذلك فى العديد من الروايات التى تدلل على شعور ابن عباس تجاه ابن الزبير والمتـمثل فى تأييده لبعض مواقفه[٣]، أو فى الثناء المباشر عليه[٤]، ويروى عبد الرزاق فى مصنفه أن ابن عباس كان قاضيًا لابن الزبير بمكة، إلا أن العـلاقة بينهمـا تعكرت، وقد وردت عـدة روايات تدل على مظاهر تردى العلاقة بين الاثنين، وإن كانت فى مجمـوعها لا تخرج عن نطاق المناقشات الحادة[٥]. ونظرًا لتوافق ابن عباس مع محمـد بن الحنفية فى رفض بيعة ابن الزبير وتنامى خطر الأخير، فـقد انتهى الأمر بخروج ابن عـباس إلى الطائف وبقى هناك إلى أن توفى[٦]. وكان ابن عباس يثنى على ابن الزبيـر، فعندما ذكر عنده قال ابن عباس: قارئ لكتـاب الله، عفيف فى الإسلام، أبوه الزبير، وأمـه اسماء، وجده أبو بكر، وعمّته خديجة، وخالته عائشة وجدّته صفية[٧].

جـ- ابن الحنفية وبيـعة ابن الزبير : كان المبدأ الذى صرح به ابن الحنفـية بعد وفاة يزيد ألا يبايع أحدًا إلا فى حالة اجـتماع الناس عليه[٨]، لم يحاول ابن الزبير فى بداية الأمر إكراه ابن الحنفية على البيعة، ولم يستمر ابن الزبير فى سياسته اللينة مع ابن الحنفية، فبـعد أن علا شأن ابن الزبير وجاءته بيعة الأمـصار، وكادت الأمة أن تجتمع عليه، أحس أن الوقت قد حان لأن يبايع ابن الحنفية بناء على وعده، فعاود الكرّة مرّة أخرى ودعاه إلى البيعة سنة ٦٥هـ، ولكن ابن الحنفية أبى أن يبايع فلجأ ابن الزبير إلى حبسه فى الشعب[٩]، ويبدو أن ابن الزبير تخـوّف من دعوة المختار

---

(١) الطبقات (٥/ ١٠٠).

(٢) البداية والنهاية نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١٢٥).

(٣) عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١٢٥)، الفتح الربانى للساعاتى (٣/ ١٦٧).

(٤) تاريخ ابن عساكر نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١٢٥).

(٥) الفتح الربانى للساعاتى (١٢/ ٩٨)، أخبار مكة (٢/ ٧٢).

(٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٥٨). (٧) المصدر نفسه (٣/ ٣٦٧).

(٨) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/ ٧٣)، عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١٢٧).

(٩) تاريخ خليفة، ص (٢٦٢).

ابن أبى عبيد الثقفى بالكوفة، فقد كان المختار من أشد المدافعين عن ابن الزبير أيام حصاره فى مكة سنة ٦٤هـ من قبل جيش الحصين بن نمير السكونى، وكان المختار بالإضافة إلى شجاعته وجرأته يتمتع بمكر ودهاء كبيرين، ويحمل بين جنبيه طموحات عالية للزعامة[١]، لم يجد المختار عند ابن الزبير ما يحقق طموحاته، فأخذ يبحث عن مكان آخر يمكن أن يحقق فيه ما تصبو نفسه إليه، فترك مكة بعد ستة أشهر من نهاية الحصار الأول، ووصل العراق فى رمضان ٦٤هـ، واستطاع عن طريق ادعائه نصرة آل البيت ورفع شعار الأخذ بثأر الحسين أن يجمع حوله الأنصار والمؤيدين والناقمين على حكم بنى أمية، واستطاع أن يستولى على الكوفة[٢]، وكان المختار على علم بما جرى بين ابن الزبير وابن الحنفية فى أمر البيعة، وأراد أن يستغل هذا الموقف لصالحه وادعى أنه موفد من محمد بن الحنفية للأخذ بثأر آل البيت، والواقع أن ابن الحنفية تبرأ من المختار، وأنكر أن يكون قد أرسله إلى العراق[٣]، ودعت الشيعة بالكوفة إلى ابن الحنفية، فخاف ابن الزبير أن تفتح بذلك جبهة جديدة عليه مما يزيد الأمر خطورة وتعقيداً[٤]، وأرسل المختار جيشًا فى عام ٦٦هـ إلى مكة فى موسم الحج، واستطاع أن يخلص ابن الحنفية من سجنه، ومنع ابن الحنفية الجيش من قتال ابن الزبير لكونه لا يستحل القتال فى الحرم[٥]، والواقع إن ابن الحنفية أصبح يشكل خطراً على ابن الزبير بعد وصول نجدة العراق، وتروى المصادر أنه كان لابن الحنفية لواء فى الحج ينافس فيه لواء ابن الزبير[٦]، أما بالنسبة لابن الزبير فقد أحس أن مصدر قوة ابن الحنفية يكمن فى مساندة المختار بن أبى عبيد له، ولذلك فكر فى القضاء عليه، فأرسل أخاه مصعبًا واليًا على البصرة، وأمره أن يقاتل المختار، وفعلاً استطاع مصعب بن الزبير أن يقضى على المختار فى الرابع عشر من رمضان سنة ٦٧هـ[٧] وأدى مقتل المختار إلى تضعضع موقف ابن الحنفية بمكة، ويروى ابن سعد أن ابن الزبير أرسل إلى ابن

---

(١) تاريخ الطبرى نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١٢٩).

(٢) تاريخ خليفة، ص (٢٦٣).

(٣) الطبقات (٥/٩٨).

(٤) عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١٣٠).

(٥) أنساب الأشراف نقلاً عن عبد الله بن الزبير، ص(١٣١).

(٦) الطبقات (٥/٣)، تاريخ خليفة، ص (٢٦٣).

(٧) تاريخ خليفة صـ٢٦٤، عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١٣١).

الحنفية أخاه عروة يطلب منه أن يبايع وهدده بالحرب إن هو أصر على رفض البيعة[1]. ولاحت لابن الحنفية فى هذه الأثناء فرصة رأى فيها مخرجًا من ضغوط ابن الزبير تمثلت فى دعوة عبد الملك بن مروان له بأن يقدم إلى الشام، فاغتنم ابن الحنفية هذه الفرصة وتوجه إلى الشام هو وأتباعه، واختاروا المقام بأيلة[2]، وهذه البلدة، وإن كانت من بلاد الشام منطقة نفوذ عبد الملك بن مروان، إلا أنها فى أطرافها نحو الحجاز، وأصبح تقريبًا فى منطقة بعيدة عن الاثنين معًا، ولكن اتضح أن نوايا عبد الملك لم تكن تختلف عن نوايا ابن الزبير، فعرض عليه البيعة مقابل أموال وأعطيات سخية أو الخروج من بلاد الشام، وآثرا بن الحنفية الخروج على البيعة حيث اشترط ذلك على ابن الزبير من قبل. وأراد ابن الحنفية العودة إلى مكة ولكن ابن الزبير منعه من دخولها، فتوجه بمن معه إلى الطائف وقيل المدينة، وبقى بها إلى أن قتل ابن الزبير سنة ٧٢هـ[3].

٢ ـ بيعة ابن الزبير فى العراق: أدت وفاة يزيد بن معاوية إلى اضطراب الوضع فى العراق ونشوب النزاع بين قبائله المختلفة حول السلطة، وهرب عبيد الله بن زياد إلى الشام، وخرج الخوارج قبل هروبه من السجن، وبدأوا بإشاعة الفوضى والفساد، وبعد فتن وقتال اتفقت القبائل بالبصرة على أن يتولى عبد الله بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب الأمر[4]، ثم شرع ابن الزبير فى تعيين نوابه بعد بيعة أهل البصرة له إلى أن استقر على ولايتها أخوه مصعب، وعين أهل الكوفة عامر بن مسعود بن خلف القرشى[5]، وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير فأقره. وهذا التصرف يعد فى حقيقته إقرارًا من أهل الكوفة بخلافة ابن الزبير[6]، وتعامل أهل البصرة وأهل الكوفة مع ابن الزبير، كخليفة للمسلمين[7]، وقد ساعدت عوامل عديدة على نشر بيعة ابن الزبير بالعراق، من أهمها: الفراغ السياسى فى السلطة، بعد وفاة يزيد بن معاوية، وهروب عبيد الله بن زياد إلى الشام، كما أن التنافس

---

(١) الطبقات (٥/١٠٦). (٢) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام.

(٣) الطبقات (٥/١٠٧، ١٠٨).

(٤) تاريخ خليفة، ص (٢٥٨)، عبدالله بن الزبير للخراشى، ص (١٣٥).

(٥) أنساب الأشراف (١/ ٤٠٠)، عبد الله بن الزبير، ص (١٣٤).

(٦) عبد الله بن الزبير، ص (١٣٤). (٧) تاريخ الطبرى نقلاً عن عبد الله بن الزبير، ص (١٣٦).

القبلى على السلطة، واشتداد شوكة الخوارج وتهديدهم للأمن، أسهم فى حث أهل العراق على توحيد كلمتهم، والانضواء تحت لواء ابن الزبير[1].

٣ - بيعة ابن الزبير فى الشام: بعد وفاة معاوية بن يزيد، وفى مناخ الشام المشوب بالفوضى والاضطراب وجدت بيعة ابن الزبير منفذًا لها فى بلاد الشام، لاسيما أن أخبار صمود ابن الزبير أمام جيش الحصين بن نمير فى الحصار الأول، وبيعة أهل الحجاز له، قد تنامت إلى بلاد الشام، ويصور لنا البلاذرى موقف أهل الشام من بيعة ابن الزبير فى تلك الظروف فيقول: فلما مات معاوية بن يزيد، مال أكثر الناس إلى ابن الزبير وقالوا: هو رجل كامل السن، وقد نصر أمير المؤمنين عثمان ابن عفان، وهو ابن حوارى رسول الله ﷺ، وأمه بنت أبى بكر بن أبى قحافة، وله فضل فى نفسه ليس لغيره، وتكاد تجمع المصادر على بيعة جميع أقاليم أهل الشام ما عدا الأردن، فقد بايع زفر بن الحارث الكلابى[2] بقنسرين، وبايع النعمان ابن بشير الأنصارى[3]، بحمص، واستطاع نائل بن قيس الجذامى[4] أن يسيطر على فلسطين، ويدعو فيها لابن الزبير، ودعا الضحاك بن قيس الفهرى لابن الزبير فى دمشق[5]، وعين ابن الزبير الضحاك بن قيس واليًا على الشام[6]، هذه أهم الأقاليم التى بايعت ابن الزبير.

٤ - موقف الخوارج من بيعة ابن الزبير: تحالف الخوارج مع ابن الزبير فى الدفاع عن مكة حتى وفاة يزيد، فلما زال الخطر، دخل عليه قادتهم فأرادوا معرفة رأيه فى عثمان بن عفان رضى الله عنه، فأجابهم فيه بما يسوؤهم وذكر لهم ما كان متصفًا به من الإيمان والتصديق، والعدل والإحسان والسِّيرة الحسنة، والرُّجوع إلى الحق إذا تبين له، فعند ذلك نفروا منه وفارقوه، وقصدوا بلاد العراق وخراسان، فتفرقوا فيها بأبدانهم وأديانهم ومذاهبهم ومسالكهم المختلفة المنتشرة، التى لا تنضبط ولا تنحصر، لأنها مفرّعة على الجهل وقوة النُّفوس والاعتقاد الفاسد، ومع

---

(١) عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١٣٦).
(٢) الاعلام للزركلى (٣/ ٤٥).
(٣) المصدر نفسه (٨/ ٣٦).
(٤) المصدر نفسه (٧/ ٣٤٣).
(٥) الطبقات (٥/ ٣٨) الاعلام (٢/ ٢٤٤).
(٦) أنساب الأشراف (٥/ ١٣٢)، عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١٤١).

هذا استحوذوا على كثير من البُلدان[1]، وتصدّى لقتالهم الفارس الهمام، البطل الكبير المهلب بن أبى صفرة، فقد كتب ابن الزبير له بأن يتولى حربهم فاستجاب لذلك، وكان على رأس الخوارج الأزارقة نافع بن الأزرق، واستطاع المهلب أن يهزمهم وقتل أميرهم نافع بن الأزرق، وانهزمت الخوارج نحو فارس[2]، وتسربت شائعات إلى أهل البصرة بأن المهلب قُتل، فاضطرب المصر وهمّ أميرهم الحارث بن أبى ربيعة أن يهرب، وأقبل البشير إلى أهل البصرة بسلامة المهلّب، فاستبشروا بذلك واطمأنّوا وأقام أميرها، بعد أن همّ بالهرب، وبلغ عبد الله بن الزبير ما كان من عزم عامله بالبصرة على الهرب، فعزله وولى أخاه مصعبًا، فسار مصعب حتى قدمها وتولّى أمر جميع العراقين وفارس والأهواز. ومما قيل من الأشعار فى قتال المهلب للخوارج الأزارقة:

إنّ ربا أنجى المهلَّب ذا الطول ... لأهلٌ أن تحمدوه كثيراً

لايزال المهلّب بن أبى صفرة ... ما عاش بالعراق أميراً[3]

وقال رجل من الخوارج فى قتل نافع بن الأزرق:

إن مات غير مداهن فى دينه ... ومتى يمر بذكر نار يصعق

والموت أمر لا محالة واقع ... من لا يصبحه نهاراً يطرق

فلئن منينا بالمهلب إنّهُ ... لأخو الحروب وليث أهل المشرق[4]

---

(١) البداية والنهاية (١١/٦٦٧، ٦٦٨).

(٢) الأخبار الطوال، ص (٢٤٩، ٢٥٠).

(٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (٢٥١).

المبحث الثانى

خروج مروان بن الحكم على ابن الزبير

أولاً : اسمه ونسبه وحياته قبل خروجه على ابن الزبير:

هو مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الملك أبو عبد الملك القرشى الأموى[1]، يكنى أبا القاسم وأبا الحكم، ولد بمكة وهو أصغر من ابن الزبير بأربعة أشهر، روى عن عمر وعثمان وعلى وزيد، وروى عنه سهل بن سعد، وسعيد بن المسيب، وعلى بن الحسين، وعروة، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعبيد الله بن عمر، ومجاهد بن جبر، وابنه عبد الملك. وكان كاتب ابن عمه عثمان، ودافع عن عثمان يوم الدار، وسأل عنه على بن أبى طالب يوم الجمل وقال: يعطفنى عليه رحم ماسة، وهو مع ذلك سيد من شباب قريش[2]، وكان يتتبع قضاء عمر[3]، وتولى ولاية المدينة فى عهد معاوية، وكان الحسن والحسين يصليان خلف مروان ولا يعيدان[4]، وكان إذا وقعت معضلة - أثناء ولايته على المدينة - جمع من عنده من الصحابة فاستشارهم فيها، وهو الذى جمع الصيعان فأخذ بأعدلها، فنسب إليه فقيل: صاع مروان[5]، وكان ذا شهامة وشجاعة ومكر ودهاء[6]، وقد ذكرت شيئًا فى سيرته فى كتابى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه، وكان شديد الحب لبنى أمية، وكان متحمساً لبيعة يزيد بن معاوية، ولما توفى يزيد خرج مروان وبنو أمية من المدينة إلى الشام بصحبة الجيش الأموى الراجع من حصار مكة الأول، وكان خروج بنى أمية برغبتهم[7]، ولم يبايع مروان ابن الزبير، والتف زعماء القبائل وبنو أمية الموجودون بالشام حوله وبايعوه، وكان يحمل بين جنبيه طموحات للزعامة، وكانت هذه الطموحات مع رغبته فى بقاء الخلافة فى البيت الأموى هو الدافع لخروجه على ابن الزبير، وخير

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/٤٧٦). (٢)، (٣) المصدر نفسه (٣/٤٧٧).

(٤) المصدر نفسه (٣/٤٧٨).

(٥) البداية والنهاية، نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١٤٠).

(٦) سير أعلام النبلاء (٣/٤٧٧). (٧) عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١٤٦).

دليل على ذلك إقدامه على مبايعة ابنيه من بعده - عبد الملك، وعبد العزيز - بولاية العهد[1]، وهناك روايات تذكر أن مروان بن الحكم كان قد عزم على مبايعة ابن الزبير لولا تدخل عبيد الله بن زياد وغيره في آخر لحظة وثنوه عن عزمه، وأقنعوه أن يدعو لنفسه[2]، والواقع وإن كنا لا نستبعد أن يكون مروان قد فكر في ذلك الأمر، لاسيما بعد انتشار بيعة ابن الزبير في معظم الأقاليم مع تفرق كلمة بني أمية في بلاد الشام، وضعف موقفهم، إلا أننا لا نعتبر ذلك مناقضاً لما ذهبنا إليه، لأن العبرة ليست فيما عزم عليه مروان بن الحكم، وإنما في الموقف الذي اتخذه، وهو رفض بيعته لابن الزبير ومحاربته[3] والخروج عليه، ولقد سار مروان في محاربته لابن الزبير على الخطوات التالية:

١ـ القضاء على أنصار ابن الزبير بالشام، وأهم الأحداث بالشام كان مؤتمر الجابية ومعركة مرج راهط.

٢ـ إعادة مصر إلى الأمويين.

٣ـ محاولة إعادة العراق والحجاز.

٤ـ تولية العهد لعبد الملك وعبد العزيز.

ثانياً : القضاء على أنصار ابن الزبير بالشام وأهمية مؤتمر الجابية ومعركة مرج راهط:

بدأ مروان بن الحكم - بعد أن تزعم المعارضة الأموية - بتوحيد صفوفه والدخول في صراع ضد ابن الزبير، ولم يبدأ مروان بمواجهة ابن الزبير في الحجاز، وإنما لجأ إلى انتزاع الأقاليم البعيدة، وذلك ليحسر نفوذه أولاً، ومن ثم يتيسر له القضاء عليه[4]، وجاء مروان بن الحكم إلى الحكم بعد عقد مؤتمر الجابية لأهل الشام، ولأهمية مؤتمر الجابية إليك تفصيل ما جرى فيه.

---

(١) الطبقات (٥/٢٢٦)، عبد الله بن الزبير للخراشي، ص (١٥١).

(٢) الطبقات (٥/ ٤٠)، عبد الله بن الزبير للخراشي، ص (١٥٢).

(٣) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص (١٥٢).

(٤) المصدر نفسه، ص (١٥٢).

١ ـ مؤتمر الجابية:

ظلت الأردن -موطن الكلبيين- على ولائها للأسرة الأموية، وكان بعض زعماء الشام حريصين على الاحتفاظ بالخلافة فى الشام دون غيرها، ومثال ذلك الحصين بن نمير الذى عرض على ابن الزبير مبايعته بشرط الانتقال للشام، ويبدو أن تمسك بعض زعماء أهل الشام باستمرار دمشق مركزاً للخلافة لم يكن أمراً عاطفياً غير مبرر، بل كان يستند إلى قناعة أكيدة، آثبت الأيام صدقها، بمقدرة أهل الشام على تحقيق الحسم التاريخى، وبعمق الالتحام بين بنائها القبلى اليمانى، والوجود الأموى بها، رغم ما تعرضت له الوحدة القبلية لأبناء الشام من هزات عنيفة، وتشقق مريع، حيث أفرزت الأحداث السياسية السريعة آنذاك صراعًا عنيفًا بين القبائل القيسية واليمانية، ظل يرسل انعكاساته على الحياة السياسية بعد ذلك، فقد بايع القيسيون فى شمال الشام ابن الزبير المرشح الوحيد الظاهر القوة والقبول فى هذه المرحلة، وازدادت قوة القيسيين بانضمام الضحاك بن قيس الفهرى إليهم، وهو الرجل الذى أمضى تاريخه كله فى الشام، وفى خدمة معاوية وابنه يزيد، والذى كان يُشرف آنذاك على شئون دمشق منذ وفاة معاوية الثانى، بينما تشبث الكلبيون، رغم الضعف الظاهرى لمواقفهم فى ظل هذه البيعة الجماعية لابن الزبير حتى من إخوانهم الشماليين والمصاهرة بينهم وبين الأمويين منذ تزوج معاوية منهم[١]، وتربى فيهم يزيد[٢].. ولكن الكلبيين فيما عدا ذلك يختلفون، فبينما يهوى بعضهم البيعة لخالد بن يزيد بن معاوية، وهو غلام صغير السن، يستنكف بعضهم من البيعة لغلام، فى الوقت الذى يدعو فيه الآخرون إلى شيخ قريش عبد الله بن الزبير، ويفضل هذا الفريق البيعة لمروان بن الحكم، وبعد محاولات لرأب الصدع بين القيسية واليمنية اتفق الطرفان على الالتقاء فى الجابية[٣]، للتشاور والاتفاق، فسار الكلبيون والأمويون إلى هناك، على حين غلب بعض أنصار ابن الزبير الضحاك بن قيس على رأيه، فأطاعهم ومال نحو مرج راهط[٤].

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤٦). (٢) المصدر نفسه (٦/ ٢٤٦).

(٣) الجابية: بلدة من أعمال دمشق من ناحية الجولان الحموى (٣٣/ ٣٣).

(٤) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٢٦٦).

أ - الممارسة الشورية فى مؤتمر الجابية: فى الجابية عقد الكلبيون مؤتمرهم، وتشاوروا فى أمر البيعة والخلافة، وكان مؤتمر الجابية مؤتمرًا تاريخيًا يمكن أن يوصف بلغة السياسة بأنه كان مؤتمرًا دستوريًا، وقد حضره أصحاب الشوكة والقوة والرأى من أهل الشام، وتمت الدعوة إليه بالرضا من عناصر أهل الشام المؤثرة فى القرار المصيرى، ونستطيع أن نلاحظ صورة لهذه التجربة الشورية النادرة حين نتصور أن أسماء المرشحين الآخرين للخلافة غير بنى أمية قد عرضت للبحث، ولكن رجحت كفة مروان لعوامل، كما يصور ذلك روح بن زنباع الجذامى أحد زعماء الشام. حيث قال: أيها الناس إنكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب وصحبته من رسول الله ﷺ، وقدمه فى الإسلام، وهو كما تذكرون، ولكن ابن عمر رجل ضعيف، وليس بصاحب أمة محمد الضعيف، وأما ما يذكر الناس من عبد الله بن الزبير، ويدعون إليه من أمره، فهو والله كما يذكرون، إنه لابن الزبير، حوارى رسول الله ﷺ، وابن أسماء ابنة أبى بكر الصديق، ذات النطاقين، وهو بعد -كما تذكرون- فى قدمه وفضله، ولكن ابن الزبير منافق قد خلع خليفتين، يزيد وابنه معاوية بن يزيد، وسفك الدماء، وشق عصا المسلمين، وليس بصاحب أمر أمة محمد منافق، وأما مروان بن الحكم فوالله ما كان فى الإسلام صدع قط إلا كان مروان بن الحكم ممن يشعب ذلك الصدع، وهو الذى قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار، وهو الذى قاتل على بن أبى طالب يوم الجمل، وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير، ويستشبّوا الصغير، يعنى بالكبير مروان بن الحكم وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية، فاجتمع رأى الناس على البيعة لمروان، ومن بعده لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص بعد خالد[1]، فكانت تلك المعادلة هى التى جمعت بين مختلف الآراء وأرضت جميع الاتجاهات[2]. وقد دارت نقاشات كثيرة، وكان العديد من زعماء القبائل وقادة بنى أمية قد حضروا. ومن هؤلاء الزعماء، حسان بن مالك بن بحدل الكلبى، والحصين بن نمير السكونى، وروح بن رنباع الجذامى[3]، ومالك بن هبيرة السكونى، وعبد الله بن مسعدة الفزارى، وعبد الله بن عضاة الأشعرى، وغيرهم من الشخصيات المؤثرة[4]، والمعارضة لابن الزبير، وقد قُلبت آراء عديدة وكثيرة

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٧٢).
(٢) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٢٩٦).
(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٧٢).
(٤) عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١٤٧).

حتى استقر الرأى على مروان[1]، ولم يمتنع مروان عن تقديم امتيازات لقبائل كلب وكندة لكى يستميلهم، وكانت له اتفاقات سرية وخاصة مع بعض الزعماء، مما كان له الأثر الكبير فى كسب المؤيدين له، فمروان خطط واستطاع بشتى الطرق الوصول إلى الحكم فى بلاد الشام رغم الظروف الصعبة آنذاك[2].

ب - أهم قرارات مؤتمر الجابية: كانت أهم قرارات مؤتمر الجابية، عدم مبايعة ابن الزبير، واستبعاد خالد بن يزيد من الخلافة، لأنه غلام، والعرب لا تحب مبايعة الأطفال من ناحية، ومن الناحية الأخرى هم الآن فى أزمة وهم أحوج إلى الرجل المجرب الخبير، علّه يقودهم إلى النصر وينقذهم من وضعهم المتدهور، ومبايعة مروان بن الحكم وهو الشيخ المحنك، وأن يتولى الخلافة بعد مروان على هذا الشرط شفويًا، والاستعداد لمجابهة وقتال المخالفين أتباع ابن الزبير فى الشام بادى الأمر[3].

جـ- زعامة مروان لمعارضى أهل الشام قامت على الشورى: قامت زعامة مروان لمعارضى ابن الزبير على أساس الشورى، إذ انتخب بالاختيار الحر من الذين شهدوا المؤتمر، وهم أهل الحل والعقد والشوكة والقوة فى الشام، وبويع بإجماع الحاضرين، فكانت طريقة توليته شورية دستورية، اتخذتها المعارضة لتقوية صفها، وبذلك صار فى العالم الإسلامى إذ ذاك خليفتان: عبد الله بن الزبير الخليفة الشرعى والمنتخب من قبل الأغلبية الساحقة للأمة، والزعيم المعارض لابن الزبير والمنتخب من أهل الشوكة والقوة فى عاصمة الخلافة. ولما كان لابد من توحيد الدولة الإسلامية فقد كان على أحدهما أن يتغلب على الآخر، ويتم التوحيد ويجمع كلمة الأمة، فكانت الحروب والمعارك الطاحنة فيما بعد حتى استقر الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل الخليفة الشرعى عبد الله بن الزبير رضى الله عنه، ويبدو أن أهل الشام الذين عارضوا ابن الزبير، واجتمعوا بالجابية قد ذهبوا إلى أن بيعة أهل الشوكة والقوة من عاصمة الخلافة ملزم لبقية الأقطار والأمصار كلها،

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٧١، ٤٧٢).

(٢) الدور السياسى لأهل اليمن فى الشام، إسماعيل الجبورى، ص (٤٦، ٤٧).

(٣) عبد الله بن الزبير للناطور، ص (١٣٢).

وعلى الآخرين أن يسلموا لمن بايعوه لئلا ينتشر الأمر باختلاف الآراء وتباين الأهواء[1]، وقد نسب ابن حزم هذا الرأى لأهل الشام قائلاً: كانوا قد ادعوا ذلك لأنفسهم، حتى حملهم ذلك على بيعة مروان وابنه عبد الملك، واستحلوا بذلك دماء أهل الإسلام[2].

والصحيح بالنسبة لعهد ابن الزبير هو الأخذ بمبدأ الأكثرية أو الأغلبية، وإن كان حجية إقرار بيعة أهل عاصمة الخلافة أخذ بها فى بيعة الصديق والفاروق وذى النورين والحسن بن على، إلا أن الأمور قد تغيرت كثيراً، فالأخذ بمبدأ الأكثرية للترجيح فى التنازع قد قرره الإمام الغزالى حيث قال: يتم الترجيح بينهم بتقديم من انعقدت له البيعة من الأكثر، والمخالف للأكثر باغٍ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق[3]. وذلك هو الرأى الذى نؤيده، لأن حسم النزاع بترجيح أكثرهم حوزاً لرضا المسلمين هو ما يقضى به مبدأ حق الأمة الإسلامية فى اختيار الخليفة[4]، فضلاً عن الأدلة الشرعية المؤكدة لترجيح رأى الأكثرية أو الأغلبية، نذكر منها: إن الرسول ﷺ قد أخذ بما انعقد عليه رأى أغلبية المسلمين، وإن بدا مخالفاً لرأيه، وذلك حيث علم بتحريك قوات المشركين فى اتجاه المدينة لحربهم، فاستشار المسلمين، فرأى فريق منهم -وكان أكثرهم- الخروج إليهم، وفريق آخر رأى ما رآه الرسول نفسه وهو أن يظلوا بالمدينة، فلما رأى الرسول أن رأى الأغلبية مع الخروج أخذ برأيهم، ووافق على الخروج للمشركين فى أحد[5]، وغير ذلك من الأدلة. وقد أخذ مشروع الدستور الإسلامى الذى أعده مجمع البحوث الإسلامية والأزهر بفكرة الإلزام برأى الأغلبية حيث نصت المادة (٤٦) منه على أن تكون البيعة بالأغلبية المطلوبة لأصوات المشتركين فى البيعة[6].

٢ ـ معركة مرج راهط:

تمخض مؤتمر الجابية عن انتقال الخلافة الأموية من البيت السفيانى إلى البيت المروانى، وانعقدت البيعة لمروان، وحل مؤتمر الجابية مشكلة الخلافة بين بنى أمية،

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى، ص (٦). (٢)،(٣) الفصل فى الملل والنحل (١٦٨/٤).

(٤) نظام الحكم فى الإسلام، د. أحمد عبد الله، ص(١٣١). (٥) المصدر نفسه، ص (١٣١).

(٦) نحو دستور إسلامى، محمد سيد أحمد، ص(١٧٣)، نظام الحكم فى الإسلام د. أحمد عبد الله، ص(١٣٢).

وكانت هذه خطوة حاسمة، ولكن لم يكن تثبيت هذا الأمر سهلاً، فلا زالت تعترضه صعوبات كبيرة، فالضحاك بن قيس، زعيم القيسيين المناصر لابن الزبير، قد ذهب إلى مرج راهط وانضم إليه النعمان بن بشير الأنصارى والى حمص، وزفر بن الحارث الكلابى، أمير قنسرين، وكان واضحًا أنهم يستعدون لمواجهة الأمويين، فكان على مروان أن يثبت أنه أهل للمسئولية وحمل أعباء الخلافة، والدفاع عنها، وقد حقق أنصار مروان أول نجاح لهم بالاستيلاء على دمشق، وطرد عامل الضحاك عنها، وكان أول فتح على بنى أمية -على حد تعبير ابن الأثير[1]-، ولم يضيع مروان وقتًا، فقد عبأ أنصاره من قبائل اليمن فى الشام -كلب وغسان والسكاسك والسكون- وجعل على ميمنته عمرو بن سعيد، وعلى ميسرته عبيد الله ابن زياد، واتجه إلى مرج راهط، فدارت المعركة الشهيرة التى حسمت الموقف فى الشام لبنى أمية ومروان، حيث هزم القيسيون، أنصار ابن الزبير، وقتل الضحاك بن قيس، وعدد كبير من أشراف قيس فى الشام، واستمرت المعركة حوالى عشرين يومًا، وكانت فى نهاية سنة ٦٤هـ، وقيل: فى المحرم سنة ٦٥هـ[2].

أ ـ نتائج مرج راهط:

ـ أعادت هذه المعركة الملك لبنى أمية بعد أن كان مهددًا بالزوال، وحولت السلطة من الفرع السفيانى إلى الفرع المروانى.

ـ تخلص الأمويون من الضحاك بن قيس الذى كان يعتبر معارضًا قويًا للأمويين، وتابعًا مخلصًا لابن الزبير.

ـ سقطت قنسرين فى يد الأمويين، وهرب واليها زفر بن الحارث، فتوجه إلى قرقيسيا وكان عليها عياض الحرثى حسب قول ابن الأثير.

ـ سقطت فلسطين، وهرب ناتل بن قيس الجذامى إلى ابن الزبير.

ـ سقطت حمص، وقتل واليها النعمان بن بشير[3].

---

(١) الكامل لابن الأثير (٢/٦١٨).

(٢) تاريخ الطبرى (٦/٤٧٣)، العالم الإسلامى فى العصر الاموى، ص (١٤٣).

(٣) الكامل لابن الأثير (٢/٦١٨)، ابن الزبير للناطور، ص (١٣٧).

- اندلع الصراع بين اليمنية والقيسية، ودخلت العصبية القبلية مسرح السياسة العليا للدولة، وإذا كان يوم مرج راهط قد انتصر فيه الكلبيون فقد كان نصراً مؤقتًا، وكان الصراع بين العصبتين القيسية واليمنية من أسباب انهيار الدولة الأموية(١).

ب - أسباب هزيمة القيسيين:

- لم يرم ابن الزبير بثقله فى تلك المعركة، وكان عليه أن يجيش الجيوش، ويمد أتباعه بالرجال والأموال والسلاح؛ ليقضى على المعارضين بالشام عندما كانت المعارضة لم توحد صفوفها بعد.

- اعتماد مروان على رجال دهاة خبراء فى الحرب من أمثال حصين بن نمير وعمرو ابن سعيد.

- عدم اشتراك أتباع ابن الزبير فى الشام كلهم، فقد شارك ولاة الشام التابعون لابن الزبير بأعداد من الجنود فقط.

- ترك الضحاك مدينة دمشق بدون قوة تستطيع المحافظة عليها، رغم أهميتها، وهذا سهل للأمويين الاستيلاء عليها، وعلى ما فيها من أموال مكنت الأمويين من الاستفادة من هذا الخطأ(٢).

جـ - بكاء مروان بن الحكم فى مرج راهط:

وروى أن مروان بن الحكم لما جيء برأس الضحاك إليه ساءه ذلك، وقال: الآن حين كبرت سنى ودق عظمى، وصرت فى مثل ظمء الحمار(٣)، أقبلت بالكتائب أضرب بعضها ببعض(٤)، وروى أنه بكى على نفسه يوم مرج راهط(٥) وقال: أبعد ما كبرت وضعفت صرت إلى أن أقتل بالسيوف على الملك(٦)، وفى رواية عن مالك قال: قال مروان: قرأت كتاب الله منذ أربعين سنة، ثم أصبحت فيما أنا فيه من إهراق الدماء، وهذا الشأن(٧).

إن ندم مروان فى مثل هذا الموقف وبعد ما تحقق له، وتأكدت له طرق الحكم، وتمهدت له سبل الوصول إلى غايته، لدليل قاطع على ما كان يجيش به قلب

---

(١) تاريخ خلافة بنى أمية، نبيه عاقل، ص (١٣٠).
(٢) عبد الله بن الزبير للناطور، ص (١٣٨).
(٣)، (٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٤٧٤).
(٥) البداية والنهاية(١١/ ٦٧٦).
(٦) المصدر نفسه (١١/ ٦٧٦).
(٧) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٧٩).

مروان من عوامل الخير، لقد كان هذا النصر جـديراً أن ينسيه كل منغصات الحياة، وكان فوزه بالخلافة حقيـقًا بأن ينفى عنه كل ما يسبب له الندم، ويعكر له الصفو، فـما بال مـروان يندم، وهو فى هذه الظروف التى تزيل الهـم عن النفس، وتبعـد الندم[1] لطالبى المـلك والزعـامـة والسلـطان. وأغلب الظن أنه تورط فـى طلبـه للخلافة، ودفعه إلى هذا المستنقع الآسن أناس لهم مصالح دنيوية لا تخفى، فشعر بوخز الضـميـر، وخاف على نفـسه من سـوء الخاتمة بعد أن ولغـت يده فى دماء المسلمين من أجل الحطام الزائل.

ثالثًا: ضم مصر إلى الدولة الأموية ومحاولة إعادة العراق والحجاز:

مكّن انتصار مروان فى معركة مرج راهط لدولـته فى الشام فبسط نفوذه عليها، وكانت خطواته التـالية المسير إلى مـصر لاستردادها من عامل ابن الـزبير، وكانت هذه خطوة تدل على ذكاء مروان، فلمصر أهميتهـا الكبيرة، واستيلاؤه عليها يدعم موقفه فى مواجـهة ابن الزبير، ولـم يكن استيلاؤه عليها صعـبًا، فمعظم المصريين هواهم مع بنى أمـية، وبيـعتـهم لابن الزبير لـم تكن خـالصة، وإنما كـانت بيـعة ضرورة[2]، ودعا مـروان شيعـة بنى أمية بمصـر سراً[3]، وهذا ما يفـسر سـهولة استيلاء مروان على مصر فقد سار إليها بجيشه، ومعه عمرو بن سعيد، وخالد بن يزيد بن مـعاوية، وحسـان بن مالك، ومـالك بن هبيـرة، وابنه عبـد العزيز[4]، ودارت بين مروان وابن جحدم عدة معارك انتصر فيها مروان، وهرب ابن جحدم، ثم جاء إلى مـروان طالبًا العفـو على أن يخرج إلى مكة، فـعفا عنه، وكـان نجاح مروان فى استرداد مصر من جمادى الآخرة سنة ٦٥هـ[5]، وأقام فى مصر شهرين لترتيب الأوضـاع والاطمئنان عليها، ولما عـزم على العـودة إلى الشـام عـين ابنـه عبد العزيز واليًا عليـها، وأوصاه وصية تدل على حنكة سياسيـة، وخبرة واسعة، وكان عبد العزيز قد توجس وأخذته وحشة من بقائه فى مصر، فقال لأبيه: يا أمير المؤمنين كـيف المقـام ببلد ليس به أحـد من بنى أبى؟ فـقال له: يا بـنى، عُمَّـهم

---

(١) الأمويون، محمد الوكيل (٣٠٧/١). (٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١٤٤).
(٣) الولاة والقضاه للكندى، ص (٤١، ٤٢). (٤) المصدر نفسه، ص (٤٢).
(٥) المصدر نفسه، ص (٤١)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١٤٤).

بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك، واجعل وجهك طلقاً تَصْفُ لك مودتهم، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره، يكن لك عينًا على غيره، وينقاد قومه إليك، وقد جعلت معك أخاك بشرًا مؤنسًا، وجعلت موسى بن نصير وزيرًا ومشيرًا، وما عليك يا بنى أن تكون أميرًا بأقصى الأرض، أليس أحسن من إغلاق بابك وخمولك فى منزلك[1]؟

بعد رجوع مروان بن الحكم قافلاً من مصر أقدم على تجهيز حملتين ضد ابن الزبير فى محاولة منه لإعادة العراق والحجاز، فكانت الحملة ضد العراق بقيادة عبيد الله بن زياد، وكانت مهمتها الأولى هى محاصرة زفر بن الحارث الكلابى والتخلص منه، ثم التقدم نحو العراق، حيث مصعب بن الزبير، ولكن هذه الحملة لم تحقق شيئًا من أهدافها فى عهد مروان، إذ سارع إليه الأجل وتوفى وهى فى طريقها لمحاصرة زفر بن الحارث فى قرقيسيا. وعند مجىء عبد الملك أقر هذه الحملة التى سوف نعرض للحديث عنها فيما بعد، أما ما يتعلق بالحجاز فقد جهز مروان جيشًا من فلسطين يقدر بستة آلاف وأربعمائة فارس بقيادة حبيش بن دلجة القينى، وكان فى الجيش الحجاج بن يوسف ووالده، اتجه هذا الجيش نحو الحجاز ولما وصل إلى وادى القرى هرب عامل ابن الزبير على المدينة[2]، واستمرت الحملة إلى عهد عبد الملك بن مروان[3].

رابعًا : تولية العهد لعبد الملك ووفاة مروان بن الحكم:

ختم مروان بن الحكم أعماله بعقد البيعة لولديه عبد الملك بن مروان وعبد العزيز بن مروان مجسدًا لمبدأ التوريث، وكان ذلك قبل وفاته بأقل من شهرين[4]، وبعد نجاحه بإعادة مصر إلى الحكم الأموى، بدأ مروان بالتخطيط لاستبعاد خالد ابن يزيد وعمرو بن سعيد الأشدق من ولاية العهد الذى قرر فى مؤتمر الجابية، فتزوج أم خالد بن يزيد، وعمل للحصول على موافقة حسان بن مالك بن بحدل الكلبى بتولية العهد لولديه، وإبعاد خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد الأشدق،

---

(١) الولاة والقضاة، ص (٤٧).

(٢) أنساب الأشراف (٥/ ١٥٠- ١٥١)، الدور السياسى لأهل اليمن، ص (٥٧).

(٣) الدور السياسى لأهل اليمن، ص (٥٧)، عبد الملك للريس، ص (٦٠).

(٤) عبد الملك بن مروان، ص (٦٠)، نقلاً عن تاريخ خليفة.

فوافقه حسان على ذلك، وقد كان عـمرو بن سعيد الأشدق هو الذى كان يطالب بولاية العهـد بعد مروان، وأعلن ذلك بعـد رجوعه من قـتال مصـعب بن الزبير عندمـا حاول إعـادة ناتل بن قيس الجـذامى إلى فلسطين[1]، مما دعا مـروان بن الحكم إلى أن يعهـد لابنيه عبد الملك وعبـد العزيز، وذلك سنة ٦٥هـ، مسـتعيناً بحسان بن مالك بن بحـدل، بعد أن أخبره بما يردده عمرو بن سـعيد بن الأشدق بأن الأخيـر هو ولى العهد فـقال حسـان: أنا أكفيـك عمرو. لهـذا جمع الناس وخطبهم، فبايع الجـميع لعبد الملك ثم لعبد العـزيز ولم يتخلف أحد[2]، ويعتبر بعض المؤرخـين أن من أهم أعمـال مروان بن الحكم توليـة ولديه ولاية العـهد، وذلك لحـفظ الخلافـة فى البـيت المروانى من جهـة، ولوضع حـد للتنافس على الخلافـة بين بنى أمـية من جهـة ثانية، ولتـفادى المشـاكل التى ربما تحـدث بشأن الخلافة، كـما حدثت بعد موت مـعاوية الثانى[3]، والملاحظ أن مروان بن الحكم نقض بعض مقررات مؤتمر الجـابية المتعلقة بولاية العهد، ولم يلتـزم بعهوده وكان راغبًا فى حصر الخلافة فى أبنائه، فآثر إسـقاط وعوده ونقضها على المحافظة على طموحاته ورغباته، وأوجد معادلة فيها مطامع ومصالح مشتركة مع المعارضين له، مما جعلهم يسـتجيبـون لدعوته إلى تولية أبنائه ولاية العـهد من بعده، فقـد عمل على التحرش بخالد بن يزيد وتـعمّد إهانته أمام الآخرين، بغية تحـجيمه، وإعطاء صورة للناس بعدم صلاحـيته للخلافة، ثم خطا الخطوة التالية فأخـذ البيعة لولديه عبد الملك وعبد العزيز فى بداية سنة ٦٥هـ[4]، لقد استطاع مروان بدهائه ومكره وجهوده المتوالية الخروج بأزمة الحكم الأمـوى من حالة الضياع إلى مركز الصدارة والقيادة، وهذا لم يكن حدثًا عاديًا محـدود التأثير، وإنما هو عودة جديدة للحكم بعد تثبيتـه فى الشام ومصر من جهة، وتجريد السـفيانيـين من الخلافة وتحويلها إلى المروانيين من جهة ثانية، ولم يكن ثمة ما يحول دون استمرار التقدم عند ابنه عبد الملك لنزع الخلافة من الخليفة الشرعى عبد الله بن الزبير، ثم يتفرغ للقيام بالعديد من الإصلاحات التى جـعلته المؤسس والمجدد الحقيقى لمؤسـسات الدولة الأموية،

---

(١) أنساب الأشراف (٥/ ١٤٩).

(٢) الأنساب للبلاذرى (٥/ ١٥٠)، الدور السياسى لأهل اليمن، ص (٥٨).

(٣) الدور السياسى لأهل اليمن فى الشام، ص (٥٨).

(٤) البداية والنهاية (١١/ ٧١٥).

وتعميق الحكم العضوض بها مع وجود بعض الحسنات التى لا تنكر للملك الأموى الجديد.

توفى مروان بن الحكم بدمشق لثلاث خلون من شهر رمضان سنة ٦٥هـ، وهو ابن ثلاث وستين سنة، وصلى عليه ابنه عبد الملك، وكانت مدة حكمه تسعة أشهر وثمانية عشر يومًا، ودفن بين باب الجابية وباب الصغير[١]، وكان آخر ما تكلم به مروان: وجبت الجنة لمن خاف النار. وكان نقش خاتمه: العزة لله، وفى رواية: آمنت بالله العزيز الرحيم[٢]، وقد اختلف فى سبب وفاته إذ وردت ثلاث روايات فيه: الأولى ترى أنه توفى بالطاعون[٣]؟، وتذهب الأخرى إلى أن زوجته أم خالد ابن يزيد سقته سمًا فمات أو وضعت وسادته على رأسه حتى مات[٤]، وثالثة ترى أنه توفى وفاة طبيعية[٥].

إن تناقض الروايات تدل على أن الحقيقة غير معروفة، وأما الرواية التى تتهم زوجته بالقتل فتبدو كأنها أسطورة مختلقة ردّدتها الألسن، إما حبًا فى الثرثرة وإما طعنًا فى الأسرة الأموية، وهذه الرواية غير مقبولة للأسباب الآتية:

١- أنه لم يعرف عن نساء العرب مثل هذا الفعل فضلاً عن كونها سيدة حرة شريفة تلتقى وإياه فى عبد شمس.

٢- مكانة مروان بن الحكم من قومه، وتوليته الخلافة يجعل من الصعوبة بمكان الإقدام على مثل هذا الفعل له، وذلك للنتائج المترتبة عليه فيما بعد.

٣- لم يظهر أى أثر لهذا الاغتيال فى الأسرة الأموية وخاصة بين خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان، مما يدل على أن هذه الرواية غير صحيحة، أما الرواية التى تشير إلى موته الطبيعى وإصابته بالطاعون فإنها محتملة لأنه كان قد تجاوز الستين من العمر[٦]، فضلاً عن الجهد الذى بذله فى أواخر أيامه مما رجح التعويل على موته الطبيعى[٧].

---

(١) البداية والنهاية (٧١٤/١). (٢) المصدر نفسه (٧١٣/١١).

(٣) مروج الذهب (٨٩/٣)، الدور السياسى لأهل اليمن فى الشام، ص(٥٩).

(٤) نفس المصدر، ص (٦٠). (٥) الطبقات (٢٢٦/٥).

(٦) الأخبار الطوال، ص (٢٨٦). (٧) الدور السياسى لأهل اليمن فى الشام، ص (٦٠).

المبحث الثالث

عبد الملك بن مروان وصراعه مع ابن الزبير

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته وشيء من حياته:

١ ـ اسمه ونسبه وكنيته: هو عبد الملك بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو الوليد الأموي، وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية[١].

٢ ـ مولده ووصفه: كان مولده ومولد يزيد بن معاوية في سنة ستٍّ وعشرين، وقد كان عبد الملك قبل الخلافة من العباد الزهاد، الفقهاء، الملازمين للمسجد، التالين للقرآن، وكان ربعة من الرجال أقرب إلى القصر، وكانت أسنانه مشبكة بالذهب، وكان أفوه مفتوح الفم، فربَّما غفل فينفتح فمه فيدخل فيه الذباب، فلهذا كان يقال له: أبو الذِّبان، وكان أبيض ربعة ليس بالنحيف ولا البادن، مقرون الحاجبين، أشهل[٢] كبير العينين، دقيق الأنف، مشرق الوجه، أبيض الرأس واللحية، حسن الوجه لم يخضب، ويقال: إنه خضب بعد ذلك[٣].

٣ ـ طلبه للعلم وعبادته قبل الإمارة وثناء الناس عليه: قال نافع: لقد رأيت المدينة ما فيها شاب أشدُّ تشميرًا، ولا أفقه، ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان[٤]. وقال الأعمش عن أبي الزناد: كان فقهاء المدينة أربعة، سعيد بن المسيِّب، وعروة، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك قبل أن يدخل الإمارة[٥]، وعن ابن عمر أنه قال: ولد الناس أبناء وولد مروان أبًا ـ يعني عبد الملك[٦] ـ ويقصد ابن عمر أن عبد الملك كان يفوق سنه، ويعلو فوق أقرانه[٧]، وعن يحيى بن سعيد قال: أول من صلّى ما بين الظهر والعصر عبد الملك بن مروان وفتيان معه. فقال سعيد بن المسيب: ليست العبادة بكثرة الصلاة والصيام، إنما العبادة التفكر، في أمر الله، والورع عن محارم الله[٨]. وقد صدق رحمه الله. وقال الشعبي: ما

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٣٧٧).
(٢) أشهل: أي يشوب سواد عينه زرقة.
(٣)، (٤)، (٥)، (٦) البداية والنهاية (١١/ ٣٧٩).
(٧) الخلافة الأموية للهاشمي، ص (١١٦).
(٨) المصدر نفسه (١١/ ٣٨٠)، البداية والنهاية (١١/ ٣٨٠).

جالست أحدًا إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان، فإنّنى ما ذاكرته حديثًا إلا زادنى فيه، ولا شعرًا إلا زادنى فيه[1].

٤ ـ تعظيمه لاسم الله تعالى: روى البيهقى: أن عبد الملك وقع منه فلس فى بئر قذرة، فاكترى عليه بثلاثة عشر دينارًا حتى أخرجه منها، فقيل له فى ذلك، فقال: إنه كان عليه اسم الله عز وجل[2].

٥ ـ التسبيح والتكبير فى الأسفار: روى ابن أبى الدنيا، أن عبد الملك كان يقول لمن يسايره فى سفره إذا رفعت له شجرة: سبِّحوا بنا حتى نأتى تلك الشجرة، وكبِّروا بنا حتى نأتى ذاك الحجر، ونحو ذلك[3].

٦ ـ هل يصح هجره للقرآن الكريم؟ قيل: إنه لما وضع المصحف فى حجره قال: هذا آخر العهد منك[4]. وهذه رواية ضعفها ابن كثير ورواها بصيغة التمريض قيل[5]، كما أن عبد الملك قال لمؤدِّب أولاده -وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر-: علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن[6].

٧ ـ ما آدب هذا الفتى وأحسن مرءته: روى ابن سعد ما يدل على أن عبد الملك كان محبوبًا مرغوبًا من عمومته كبار بنى أمية، فذكر أن معاوية بن أبى سفيان كان جالسًا يومًا، ومعه عمرو بن العاص رضى الله عنهما، فمر بهما عبد الملك بن مروان فقال معاوية: ما آدب هذا الفتى وأحسن مروءته فقال، عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، إن هذا الفتى أخذ بخصال أربع وترك خصالاً ثلاثًا: أخذ بحسن الحديث إذا حدّث، وحسن الاستماع إذا حُدِّث، وبحسن البشر إذا لقى، وخفة المؤونة إذا خولف، وترك من القول ما يعتذر عنه، وترك مخالطة اللئام من الناس، وترك ممازحة من لا يوثق بعقله ولا مروءته[7].

٨ ـ وصيته لمؤدب أولاده: قال عبد الملك لمؤدِّب أولاده ـ وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر ـ: علمهم الصِّدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السِّفْلَةَ فإنهم أسوأ الناس رِعة[8]، وأقلهم أدبًا، وجنِّبهم الحشم، فإنَّهم بهم مفسدة، وأحفِ

(١) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٠).
(٢)، (٣) المصدر نفسه (١١/ ٣٨٥) .
(٤)، (٥) المصدر نفسه (١١/ ٣٨١) .
(٦) المصدر نفسه (١١/ ٣٨٨).
(٧) الطبقات لابن سعد (٥/ ٢٢٤).
(٨) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٩)، الرعة: قلة الورع.

شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يقْوَوا، وعلمهم الشعر يمجُدُوا وينجُدُوا، ومُرْهم أن يستاكوا عَرْضًا، ويمصوا الماء مصاً ولا يُعبُّوا عباً، وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك فى سرٍّ لا يعلم بهم أحد من الحاشية فيهونوا عليهم[1].

٩ ـ موقفه من ابن الزبير قبل الإمارة وبعدها: كان لعبد الملك من ابن الزبير موقفان متناقضان: أما الأول: فكان قبل أن يتولى الخلافة يستعيذ بالله أن يبعث خليفة إلى مكة جيشًا ليقتل ابن الزبير ومن معه، وكان يرى فى ذلك إثمًا كبيرًا[2]، قال يحيى الغسانى: لما نزل مسلم بن عقبة المدينة، دخلت مسجد رسول الله ﷺ فجلست إلى جنب عبد الملك، فقال لى عبد الملك: أمن هذا الجيش أنت؟ فقلت: نعم، قال: ثكلتك أمك!! أتدرى إلى من تسير؟ إلى أول مولود ولد فى الإسلام (بعد الهجرة)، وإلى ابن حوارى رسول الله ﷺ، وإلى ابن ذات النطاقين، وإلى من حنكه رسول الله ﷺ، أما والله لو جئته نهارًا لوجدته صائمًا، ولئن جئته ليلاً لوجدته قائمًا، فلو أن أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكَبَّهم الله جميعًا فى النار[3]. وأما موقفه الثانى: فكان بعد الخلافة ويأتى عكس الأول تمامًا، عندما جهز عبد الملك جيشًا يقوده الحجاج بن يوسف الثقفى، وبعث به إلى مكة حيث كان يتحصن ابن الزبير بالكعبة، وظل محاصرًا مكة حتى قُتل عبد الله بن الزبير[4].

ثانيًا: حياته السياسية قبل الإمارة:

كان أول حادث سياسى أثر فى حياته عندما كان عمره عشر سنوات، فقد شهد مقتل عثمان رضى الله عنه، وكان لهذا الحادث أثر فى سياسته لما تولى الإمارة، فقد خطب فى إحدى خطبه: أيها الناس إنا نحتمل لكم كل اللغوبة ما لم يكن عقد رأية أو وثوبًا على منبر[5]. وأول منصب إدارى تولاه فى الدولة فى عهد معاوية بن أبى سفيان، فقد كان عاملاً على هجر[6]، ثم تولى ديوان المدينة بعد وفاة زيد بن ثابت[7]، وشارك فى الجهاد فقد خرج على رأس حملة إلى أرض

(١) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٩).
(٢) الخلافة الأموية للهاشمى، ص (١١٦).
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص (٢١٧).
(٤) المصدر نفسه، ص (٢١٧).
(٥) الدور السياسى لأهل اليمن فى الشام، ص (٦٤).
(٦) المعارف لابن قتيبة، ص (٣٥٥)، الدور السياسى لأهل اليمن فى الشام، ص (٦٤).
(٧) الطبقات (٥/ ٢٢٥).

الروم وشتى هناك فى سنة ٤٢هـ[١]، كما يذكر أنه غزا إفريقية مع معاوية بن حديج، وكلفه بفتح «جلولا» فى بلاد الشمال الإفريقى. وفى عهد يزيد كان يقول عن ابن الزبير: ما على الأرض اليوم خيراً منه[٢]، كما أن علاقته بمصعب بن الزبير كانت حسنة، وأما عن دوره السياسى فى عهد مروان بن الحكم، فقد تولى فلسطين وكان يبعث نائبًا عنه روح بن زنباع[٣]، ويمكن أن يكون ذلك ليبقى فى دمشق قريبًا من إدارة الدولة لمساعدة والده هناك، لاسيما أن الفترة التى تولى فيها والده الحكم كانت الدولة محاطة فيها بالأعداء من الداخل والخارج، وتولى إمرة دمشق عند ذهاب والده لفتح مصر[٤]، وهذه المهمة تدل على كفايته الإدارية وحزمه[٥].

ثالثًا: العلماء الذين كانوا مع عبد الملك:

بايع بعض العلماء لعبد الملك بن مروان بالشام، وكانوا قلة لا يعدون شيئًا أمام العلماء الذين بايعوا ابن الزبير، أو الذين اعتزلوا حتى تجتمع الأمة على خليفة، وانحصر وجود هؤلاء فى إقليم الشام، وقد ذكر من هؤلاء العالم الجليل قبيصة بن ذؤيب - رحمه الله - فكان من المبايعين لعبد الملك وأحد المقربين إليه[٦]، ومنهم يزيد بن الأسود الجرشى - رحمه الله -، فورد أنه كان مع عبد الملك فى خروجه لقتال مصعب بن الزبير، وروى عنه أنه حين رأى الجيشين قد التقيا قال: اللهم احجز بين هذين الجبلين ولِّ الأمر أحبهما إليك[٧].

رابعًا: حركة التوابين ومعركة عين الوردة (٦٥هـ):

عندما عمّ الاضطراب أنحاء البلاد بعد موت يزيد، وفرار عبيد الله بن زياد، شرع أنصار الحسين يتصلون ببعضهم البعض، بهدف وضع خطة للثأر لدمه، إذ بعد استشهاده هزتهم الفاجعة وندموا على تقاعسهم عن نصرته، والدفاع عنه، معترفين بخطيئتهم، بحماسة شديدة، لذلك لم يجدوا وسيلة يكفرون بها عن هذا

(١) تاريخ خليفة (١/٦٩) . (٢) الطبقات (٥/٢٢٦) .

(٣) أنساب الأشراف (٥/١٢٧) .

(٤) الكامل فى التاريخ نقلاً عن الدور السياسى لأهل اليمن، ص (٦٥).

(٥) الدور السياسى لأهل اليمن، ص (٦٥).

(٦) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، (٥٤٢). (٧) سير أعلام النبلاء (٤/١٣٧).

التقصير ويتوبون إلى الله بها من هـذا الذنب الكبير سوى الثأر للحسين[1]، وأخذ الشيعة يعقدون الاجتماعات برئاسة سليمان بن صرد الخزاعى لدراسة الموقف، وأسلوب العمل الذى سيتبعونه، وغلب على هذه الاجتماعات موضوع التوبة والغفران، ثم شرعوا فى تجييش الناس، وخرج التوابون من معسكرهم فى النخيلة فى شهر ربيع الأول ٦٥هـ وهو الموعد الذى حددوه لخروجهم، وكانت المحطة الأولى فى مسيرتهم الانتقامية فى كربلاء حيث بلغوا قبر الحسين فاسترحموا عليه، وبكوا وتابوا عن خذلانهم له، وبعد يوم وليلة من البكاء كان الحماس قد أخذ منهم حق العمق، فقرروا السير إلى الشام لقتال عبيد الله بن زياد باعتباره الرجل الذى أصدر الأمر بقتل الحسين، لأنهم وجدوا أنه الطريق الأجدى لتحقيق الانتقام[2]، ومرّ جيش التوابين ببلدة هيت على الفرات، ثم صعد مع النهر إلى أن وصل إلى قرقيسياء[3]. وكانت هذه المدينة هى أبعد المناطق فى هذا الاتجاه التى اعترفت، ولو اسميًا ببيعة ابن الزبير[4]، واستقبل أمير قرقيسياء زفر بن الحارث الكلابى، جيش التوابين بحماسة خاصة أنه قد جمعت بين الفريقين مصلحة مشتركة هى مقاتلة الأمويين. واقترح زفر عليهم توحيد صفوفهم مع أنصار ابن الزبير، إلا أنهم اعتذروا عن عدم قبول اقتراحه كما رفضوا نصيحته بالعدول عن قرارهم الانتحارى، واكتفوا بالتزود بما يحتاجون إليه من المدينة ثم مضوا إلى مصيرهم[5]، والتقى التوابون بالجيش الأموى فى عين الوردة من أرض الجزيرة إلى الشمال الغربى من صفين فى عام ٦٥هـ، وخاضوا ضده معركة ضارية غير متكافئة، بفعل قلة عددهم بالمقارنة مع عدد أفراد الجيش الأموى، أسفرت عن تدميرهم ومقتل زعمائهم باستثناء رفاعة بن شداد الذى تراجع بالبقية القليلة منهم إلى الكوفة[6].

وقد علق الذهبى على سليمان بن صرد زعيم جيش التوابين بقوله: كان دينًا عابدًا، خرج فى جيش تابوا إلى الله من خذلانهم الحسين الشهيد، وساروا للطلب بدمه، وسموا جيش التوابين[7]. وعلق ابن كثير على جيش التوابين بقوله: لو

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٦٣٥) . (٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن تاريخ الدولة الأموية، طقوش، ص (٧١) .

(٣) الكامل فى التاريخ (٢/ ٦٣٨) . (٤) تاريخ الطبرى نقلاً عن تاريخ الدولة الأموية، طقوش، ص (٧١).

(٥) تاريخ الدولة الأموية، طقوش، ص (٧٢)، الكامل فى التاريخ (٢/ ٦٣٩).

(٦) تاريخ الطبرى، نقلاً عن تاريخ الدولة الأموية، ص (٧٢) .

(٧) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٩٥) .

كان هذا العزم والاجتماع قبل وصول الحسين إلى تلك المنزلة، لكان أنفع له وأنصر من اجتماعهم لنصرته بعد أربع سنين[1]، وكان عُمر سليمان بن صرد رضى الله عنه -يوم قتل- ثلاثًا وتسعين سنة[2].

والحق أن الإنسان يقف مبهورًا أمام شجاعة التوابين وجرأتهم، فقد كان عددهم لا يتجاوز أربعة آلاف رجل، وخاضوا هذه المعركة بإيمان صادق، وعقيدة راسخة، وشجاعة نادرة، وصبر فائق، مع عشرين ألف جندى على أقل تقدير من أهل الشام، وأنزلوا بهم خسائر فادحة فى الأرواح، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى خاضوا فى الدماء، ولولا كثرة جيش الشام، حتى استطاعوا أن يلتفوا حولهم، ويضربوا عليهم طوقًا، وأحاطوا بهم من كل جانب، ثم رموهم بالنُّبل لما استطاعوا الانتصار عليهم[3]، ولكننا إزاء هذا الإعجاب بشجاعتهم، وإخلاصهم وتقانيهم فى القتال، لا نملك إلا أن نتساءل، أين كانت هذه الشجاعة يوم تركوا الحسين -رضى الله عنه- يواجه الموت هو وأهل بيته، دون أن يتحرك منهم أحد؟[4] وأما أهم أسباب فشل التوابين فهى:

١ ـ قلة عددهم إذا قورنوا بجيش الشام، فكان عدد التوابين أربعة آلاف مقاتل، بينما كان جيش خصمهم الذين اشتبكوا معهم عشرين ألفًا، عدا من كان ينتظر مع عبيد الله بن زياد على سبيل الاحتياط.

٢ ـ ضعف التوابين من الناحية العسكرية، فلا نستطيع أن نقارن أى واحد من قادة التوابين بقدرة ابن زياد أو حصين بن نمير من حيث الخبرة والقدرة العسكرية، وهذا يتفق مع وصف المختار الثقفى لسليمان بن صرد: إن سليمان رجل لا علم له بالحرب وسياسة الرجال[5].

٣ ـ تخاذل التوابين عن الاشتراك، فعندما أحصى ابن صرد من بايعوا وجدهم ستة عشر ألفًا عدا أهل المدائن والبصرة، الذين لم يتم تنسيقهم مع الآخرين مع أن المشتركين فى القتال هم أربعة الآف.

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٦٩٧) .
(٢) المصدر نفسه (١١/ ٧٠٣) .
(٣) الأمويون للوكيل (١/ ٣١٥).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٣١٥).
(٥) أنساب الأشراف (٥/ ٢٠٧) .

٤ ـ عدم اشتراك المختار الثقفى فى القتال -وليت الأمر كذلك- ولكنه كان يثبط الناس عن سليمان بن صُرد[١].

خامسًا: حركة المختار بن أبى عبيد الثقفى:

هو المختار بن أبى عبيد الثقفى الكذَّاب، كان والده الأمير أبو عبيد بن مسعود ابن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة الثقفى، أسلم فى حياة النبى ﷺ، ولم نعلم له صحبة. استعمله عمر بن الخطاب على جيشٍ، فغزا العراق، وإليه تنسب وقعة جسر أبى عبيد، ونشأ المختار، فكان من كبراء ثقيف، وذوى الرأى، والفصاحة، والشجاعة والدّهاء وقلة الدين[٢]! وقد قال النبى ﷺ: «يكون فى ثقيف كذاب ومبير»[٣]، فكان الكذاب هذا، ادَّعى أنَّ الوحى يأتيه، وأنه يعلم الغيب، وكان المبير الحجاج، قبّحهما الله[٤]. ظهر المختار بن أبى عبيد الثقفى على مسرح الأحداث بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ، وهو من الشخصيات التى حفل بها العصر الأموى، والتى كانت تسعى لهـا عن دور، وتسعى إلى السلطان بأى ثمن، فتقلب من العداء الشديد لآل البيت إلى ادعاء حبهم والمطالبة بثأر الحسين[٥]. فقد مر بنا فى كتابى عن الحسن بن على بن أبى طالب بأنه أشار على عمه سعد بن مسعود الثقفى بالقبض على الحسن بن على وتسليمه إلى معاوية، لينال بذلك الحظوة عنده[٦]، ثم حاول الاتصال بعبد الله بن الزبير والانضمام إليه، وشرط عليه شروطًا، منها أن يكون أول داخل عليه، وألا يقضى الأمور دونه، وإذا ظهر استعان به على أفضل أعماله[٧]، وباختصار أراد أن تكون له كلمة فى دولته، ولكنه لم يجد تجاوبًا من ابن الزبير، فانصرف عنه إلى الكوفة[٨]، حيث كان الأمر فيها مضطربًا، فأراد أن يصطاد فى المياه العكرة، ولم يجد فيها ورقة رابحة سوى الادعاء بالمطالبة بدم الحسين وآل البيت، وادعى أن لديه تفويضًا بذلك من محمد بن على

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٤٠)، عبد الله بن الزبير للناطور، ص (١٤٨) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٩) .

(٣) مسلم رقم (٢٥٤٥) .

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٩).

(٥) البداية والنهاية (١١/ ٦٦) .

(٦) تاريخ الطبرى نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٤٨٢).

(٧) الكامل فى التاريخ نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٤٨٢) .

(٨) البداية والنهاية (١١/ ٦٦).

ابن أبى طالب، الملقب بابـن الحنفيـة، ولكنه لم يكن صـادقًا فى ذلك، بل قـرر أن يركب تيار الشيعة ليصل إلى هدفه وهو الحكم والسلطان. وقد عبر هو نفسه عن ذلك فى حواره مع رجـال من رجاله الذين أخلصوا لـه، وكانوا يظنونه صادقًـا فى دعوته للثأر لآل البيـت، وهو السائب بن مالك الأشعرى. فـقد قال له المختـار عندما ضُيِّق عليه الخناق واقتربت نهايته: مـاذا ترى؟ فقال له السائب: الرأى لك؟ قال: أنا أرى أم الله يرى؟ قال: الله يرى، قال: ويحك، أحمق أنت؟! إنما أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز، ورأيت نجدة انتـزى على اليمامة، ومروان على الشام، فلم أكن دون أحد من رجال العرب، فأخذت هذه البلاد، فكنت كأحدهم إلا أنى قد طلبت وبالغت فى ذلك إلى يومى هذا، فقاتل على حسبك إن لم تكن لك نية، فقال السائب: إنا لله وإنا إليه راجعون[1]. قال السائب ذلك لما تبين له أن المختار صنع كل مـا صنع مـن أجل السلطان وحـده، ولذلك يـصف الذهبى المختـار بـالكذب وقلة الدين[2]، وقد ظهـر المختار فى الكوفـة فى الوقت الذى كان فـيه سليمـان بن صرد الخزاعى زعيم التـوابين يستعد للذهاب إلى الشـام، لقتال عبيـد الله بن زياد، فحاول تثبـيط الناس عنه، وقد نجحت دعايتـه، وتجمع حوله نحـو ألفين من الشيعـة وبقيت غالبيتهم مع سليمان بن صرد، وكانت نتيـجة معركة عين الوردة من مصلحة المختار، فقـد جاءت مصدقـة لتوقعـاته، كما أنه انفـرد بزعامة الشيـعة ولجأ إليـه الفارون من المعركة، فقويت حـركته وكثر أتباعه، ثم ازداد مركزه قـوة بانضمام إبراهيم بن الأشتر النخعى إليـه، وهو من زعماء الكوفـة، فثار على عـبد الله بن مطيع العدوى، أمـير الكوفة من قبل عبد الله بن الزبير فأخرجه منها، وأحكم سيطرته عليها.

- قضاء المختار على قتلة الحسين:

ولكى يثبت دعواه فى صحة دعوته فى المطالبة بدم الحسين، فقد تتبع قتلته، فقتل مـعظمهم فى الكوفة[3]، ثم أعد جيـشًا جعل على قيـادته إبراهيم الأشتر، وأرسله إلى قتال عبيد الله، فالتقى به عند نهر الخازر بالقرب من الموصل، وحلت الهزيمة بجيش ابن زياد، الذى خرّ صريعًا فى ميدان المعركة سنة ٦٧هـ[4].

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٦٧٧).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٩).
(٣) العراق فى العصر الأموى، ثابت الراوى، ص(٢٥٠، ٢٥١).
(٤) الكامل فى التاريخ (٢/ ٧).

وقد قال ابن مفرّغ حين قتل ابن زياد:

إن المنـــايا إذا مـــا زُرن طاغـــية هتّكن أســـتـار حُـجـاب وأبواب

أقول بُعداً وسـحقًا عنـد مـصرعه لابن الخبيثة وابنِ الكوْدن الكابى[1]

لا أنت زُوحِمت عن مُلك فـتمنعهُ ولا مـتَـتَّ إلى قـوم بأسبـاب[2]

وقد شرع المختار فى تتبع قتلة الحسـين ومن شهد الوقعة بكربلاء من ناحية ابن زياد، فقتل منهم خـلقًا كثيراً، وظفـر برءوس كبار منهم، كعمـر بن سعد بن أبى وقاص أمير الجيش الذى قتل الحسين، وشمر بن ذى الجـوشن أمير الألف، الذين وَلُوا قتل الحسـين، وسنان بن أبى أنس، وخولىّ بن يزيد الأصبـحىّ، وخلق غير هؤلاء[3]. وكان مقـتل عبيد الـله بن زياد فى يوم عاشوزاء سنة سبع وسـتين، ثم بعث إبراهيم بن الأشر برأس بن زياد إلى المخـتار[4]، وتعاظم نفـوذ المختـار بعد انتصار جيـشه على جيش ابن زياد، وسيطر على شمـال العراق والجزيرة، وجعل يولى العمال من قبله على الولايات[5]، ويجبى الخراج، وانضم إليه عدد كبير من الموالى لبغـضهم بنى أمـية من ناحـية[6]، ولأنه أغدق عليـهم الأموال من ناحـية ثانية[7]. وبدا كما لـو أنه أقام دولة خاصة به فى العـراق بين دولتى ابن الزبير فى الحجاز، وعبد الملك بن مروان فى الشام[8].

١ ـ أسباب نجاح حركة المختار فى مرحلتها الأولى:

نجحت حركة المختار فى بداية الأمر للأسباب الآتية:

أ ـ الأرضيـة الملائمة، حيث العـواطف ثائرة، والنفوس مـشحونـة فى وقت كانت حركة التوابـين تلقى مصيرها الذى اختارته، عـبر عملية استشـهادية فى نظر التوابين كان لهـا صداها المأساوى فى الكوفة، ومن نـاحية أخرى، فـإن ابن الزبير لم يدعم

---

(١) الكودن: البرذون الهجين أو البغل، الكابى: المنكب على وجهه.

(٢) الكامل فى التاريخ (٢/٩) . (٣) البداية والنهاية (٦٦/١١) .

(٤)، (٥) تاريخ الطبرى ،نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٤٨٤).

(٦) الدولة الأموية فى المشرق للنجار، ص (١٤٣).

(٧) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٤٨٤) .

(٨) المصدر نفسه، ص (٤٨٤).

وجوده بالكوفة بالجيوش، وإغداق الأموال والتلطف للأعيان والأشراف والزعماء، وكانت وجهة نظره معتمدة على ترك تطاحن الأمويين مع أتباع المختار، وما يترتب على ذلك من استنزاف لهما، بكون ابن الزبير هو المستفيد من نتائج ذلك التطاحن[١].

ب ـ تودد المختار لبنى هاشم، فكان يرسل الهدايا لهم، وعمل على كسبهم[٢].

جـ ـ الشخصية القيادية البارزة التى تمتع بها المختار، فى الوقت الذى غابت فيه عن الكوفة الزعامة السياسية المحورية، القادرة على توحيد اتجاهات الحركة الشيعية واستيعاب التطورات المتلاحقة، ولا نهمل المكر والدهاء والمرونة، والقدرة على استثمار الأحداث من مقتل الحسين، وحجر بن عدى، والتوابين وتوظيف ذلك، كما امتازت شخصية المختار بقدرتها على المناورة[٣].

د ـ البرنامج العملى الذى تقدم به، كان المدخل الاستقطابى لشريحة عريضة فى المجتمع، كانت مضطهدة ومسحوقة، وهى شريحة الموالى التى وجدت فى حركته المتنفس لتحقيق أهدافها فى المساواة، وتحسين أوضاعها الاجتماعية[٤].

هـ ـ سوء اختيار ابن الزبير لعماله فى الكوفة، ويبدو أنهم لم يكونوا على قدر المرحلة، ولذلك انفلتت الأمور من أيديهم فى الكوفة[٥].

٢ ـ نهاية المختار على يد مصعب بن الزبير:

كان من المتوقع أن تكون نهاية المختار على يد عبد الملك الذى وتره بقتل ابن زياد أبرز أعوانه، ولكن عبد الملك كان من الدهاء بحيث أدرك أن ابن الزبير، وإن كان قد أسعده ظهور المختار فى البداية وقهره لجيش عبد الملك[٦]، إلا أنه لن يسمح لنفوذه أن يتسع ويهدد دولته، وأنه لا بد أن يتحرك للقضاء عليه، فآثر الانتظار وترك ابن الزبير يواجه المختار، لأن نتيجة المواجهة ستكون فى صالحه، فسوف يقضى أحدهما على صاحبه، ومن يبقى تكون قوته قد ضعفت، فيسهل له القضاء عليه، وقد حدث ما توقعه عبد الملك، فإن المختار لم يكتف بانتصاره على

(١) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص(٢٠٤، ٢٠٥).
(٢) عبد الله بن الزبير للناطور، ص(٨١٥).
(٣) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص (٢٠٥).
(٤) المصدر نفسه، ص (٢٠٥).
(٥) عبد الله بن الزبير للناطور، ص (٢٠٥).
(٦) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٤٨٤).

جيش عـبد الملك وبسط نفوذه على شـمال العراق والجـزيرة، بل أخذ يعد نفـسه للسير إلى البصرة لانتزاعها من مـصعب بن الزبير الذى أصبح واليًا عليها من قبل أخيه عـبد الله بعد أن بايعـه أهلها، وهنا أصبح الصدام مـحتومًا بيـن المختار وآل الزبير[1]، فسار مصعب بن الزبير بنفسه إلى قتال المختار فى جيش هائل، فحاصره بالكوفة وضيق عليه، ومازال حتى أمكن الله منه، فقتله واحتزَّ رأسه، وأمر بصلب كفِّـه على باب المسجـد، وبعث مصـعب برأس المختار مع رجل من الـشُّرَط على البريد إلى أخيه عبد الله بن الزبير، فوصل مكة بعدَ العشاء فوجد عبد الله يتنفَّل، فما زال يصلِّى حتى أسحر، ولم يلتـفت إلى البريد الذى جاء بالرأس، فقال: ألقه على باب المسجد، فألقـاه ثم جاء فقال: جائزتى يا أميـر المؤمنين. فقال: جائزتك الرأس الذى جئت به تأخذه معك إلى العراق. ثم زالت دولة المختار كأن لم تكن، وكذلك سائر الدول، وفرح المسلمون بزوالها، وذلك لأنّ الرجل لم يكن فى نفسه صادقًا، بل كـان كاذبًا، وكاهنًا، وكان يزعم أن الوحى ينزل عليـه على يد جبريل يأتى إليه[2]، وعن رفاعة بن شدّاد قال: كنت أقوم على رأس المختار، فلمّا عرفت كذبه هممت أن أسُلَّ سيفى فأضرب عنقه، فذكرت حديثًا حدّثناه عمرو بن الحمق قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أمَّن رجلاً على نفسه فقتله، أعطى لواء غدر يوم القيـامة»[3]، وقد قـيل لابن عمر: إن المخـتار يزعم أن الوحى يأتيه. فـقال: صدق، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وعن عكرمة قال: قـدمت على المختار، فأكرمنى وأنزلنى حـتى كان يتعهد مـبيتى بالليل، قال: فقال لى: اخرج فحدِّث الناس. قال: فخرجت فجاء رجل فقال: ما تقول فى الوحى؟ فقلت: الوحى وحـيان، قال الله تعالى: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] قال: فـهمُّوا بى أن يأخذونى، فقلت: مـا لكم وذاك، إنِّى مفتيكم وضيفكم، فـتركونى، وإنما أراد عكرمة أن يعـرّض بالمختار وكذبه فى ادّعـائه أن الوحـىّ ينزل عليـه[4]. قـال

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٤٨٥)، البداية والنهاية (٦٧/١١).

(٢) البداية والنهاية (٦٨/١١).

(٣) سنن ابن ماجة رقم (٢٦٨٨)، حديث صحيح.

(٤) البداية والنهاية (٦٩/١١).

ابن كثيـر: وذكر العلماء أن الكذَّاب هو المختـار بن أبى عبيد، وكان يظهـر التشيع ويبطن الكهانة، ويُسّرُ إلى أخصّـائه أنّه يوحى إليه. ولكن ما أدرى هل كان يدّعى النبوة أم لا؟، وكان قد وُضع له كرسى يُعَظَّـمُ، ويُحَفُّ بالرجال، ويُسْتَرُ بالحرير، ويحمل على البغال، وكان يضـاهى به تابوت بنى إسرائيل المذكور فى القرآن، ولا شك أنَّه كان ضَالاً مُـضلاً، أراح الله المسلمين منه بعد ما انتـقم به من قوم آخرين من الظالمين[1]، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعـــام: ١٢٩]، وتسليط الظالــم على الظالم سنة مــن سنن الله فى حــركـة المجتمعات واضحة المعالم فى دراسة تاريخ الإنسانية.

٣ ـ أسباب فشل حركة المختار:

أ ـ نفور أشراف العرب فى الكوفة، وما يمثلون من حول وقوة، وقتالهم له، ثم توجه من سلم إلى مصعب بن الزبـير فى البصرة، واشتراكهم معـه فى القتال ضد المختار.

ب ـ إصابته بالغرور بحيث أنه طرد عمـر بن على بن أبى طالب لأنه لم يحضر له كتابًا من ابن الحنفية، حيث قــال له: انطلق حيث شئت فلا خير لك عندى[2]، فتركه وذهب إلى مصعب ليعود معه ليقاتله.

جـ ـ تجهيز مصعب جيشًا كبيرًا، وانضمام المهلب بن أبى صفرة واشتراكه معه فى القتــال. بينما لم يشتـرك قائد المختــار إبراهيم بن الأشتر، ولذلك لم يكن القـتال متعادلاً.

د ـ اكتشاف كذب المختار: فقد قال الشعـبى بأن ابن الحنفية لم يرسل مع المختار كتابًا لابن الأشتر[3]، ولم تخف الرسالة عليه، فقد شك فـيها لولا من شهد مع المختار، وقد عرف أشراف العرب ذلك وقالوا: هذا كذاب[4].

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٧١) .

(٢) تاريخ الدولة الإسلامية ابن الطقطقى، ص (١٢١)، عبد الله بن الزبير للناطور، ص (١٥٩).

(٣) تاريخ الطبرى نقلاً عن عبد الله بن الزبير للناطور، ص (١٥٩).

(٤) إمبراطورية العرب، ص (١٥٦)، غلوب نقلاً عن ابن الزبير للناطور ص (١٥٩) .

هـ ـ تخلى ابن الحنفية عن المختار، فقد قام على باب الكعبة وقال: إنه كان كذابًا يكذب على الله ورسوله[1]، بل أكثر من ذلك، فقد روى الطبرى إن ابن الحنفية كتب إلى شيعته: فاخرجوا إلى المجالس والمساجد فاذكروا الله علانية وسرًا، ولا تتخذوا من دون المؤمنين بطانة، فإن خشيتم على أنفسكم فاحذروا على دينكم الكذابين[2].

و ـ ابتداع المختار لأمر غريب فى الإسلام ألا وهو الكرسى، فقد جاء بكرسى ثم قال لأصحابه: إنه لم يكن فى الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن فى هذه الأمة مثله، وإنه كان فى بنى إسرائيل التابوت فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، وإن هذا فينا مثل التابوت، اكشفوا عنه، فكشفوا عنه أثوابه، وقامت السبئية، فرفعوا أيديهم فكبّروا ثلاثًا[3].

ز ـ حاجة ابن الزبير الماسة إلى العراق؛ فهو مصدر المال والرجال الوحيد بعد ضياع الشام ومصر، وبقاء المختار فى العراق يهدد مكانته، ويقطع عليه الوصول إلى بلاد فارس التى لاتزال على طاعته[4].

٤ ـ الفرقة الكيسانية وعلاقتها بالمختار:

أما كيسان المنسوبة إليه فمختلف فيه[5]، لكن الذى لا خلاف عليه أن المختار ابن أبى عبيد الثقفى تزعم الفرقة سنة ٦٦هـ بالكوفة، وكانت الفرقة الكيسانية من الشيعة الغلاة، وكان المختار الثقفى أول من أكد فكرة المهدية فى شخص محمد بن الحنفية، حيث أطلق عليه لقب المهدى، كما استخدم فكرة (البداء)، وقد اشتهرت هذه المقولة قبيل قتل المختار ٦٧هـ. وكان المختار ـ أيضًا ـ يقول بالبداء الذى هو من أصول الرافضة الأولى، فإن المختار كان قد تكهن بنصر أصحابه، فلما انهزموا

---

(١) الطبقات الكبرى (٥/١٥٨) .

(٢)، (٣) تاريخ الطبرى نقلاً عن عبد الله بن الزبير للناطور، ص (١٥٩).

(٤) عبد الله بن الزبير للناطور، ص (١٥٩) .

(٥) أهو كيسان مولى على بن أبى طالب الذى قتل يوم صفين؟ أم كيسان تلميذ محمد بن الحنفية؟ أم كيسان رئيس حرس المختار بن عبيد الثقفى؟ أم هو المختار نفسه لأنه كان يسمى كيسان، ويكنى أبا عمرة، وأبا إسحاق؟ (الملل والنحل ١/١٣٣) .

زعم أن الله بدا له[1]، وهذه الفكرة الشيطانية مكنته من تغيير آرائه من حين لآخر، هذا فضلاً عن إظهار نفسه بمظهر النبى وإقراره لفكرة الكرسى الذى ادعى أنه يعود للإمام على رضى الله عنه وإلى غير ذلك من الآراء المبتدعة[2]، وقد تطورت معتقدات الكيسانية ودخلوا فى النفق الشيطانى المظلم، وكانوا يقولون بإمامة محمد بن على المعروف بابن الحنفية، لأنه دفع إليه الراية بالبصرة[3]. وقالوا بالتناسخ ويزعمون أن الإمامة جرت فى على ثم فى الحسن ثم فى الحسين ثم فى محمد بن الحنفية، ومعنى ذلك أن روح الله صارت فى النبى ﷺ، وروح النبى ﷺ صارت فى على، وروح على صارت فى الحسن، وروح الحسن صارت فى الحسين، وروح الحسين صارت فى محمد بن الحنفية، وروح ابن الحنفية صارت فى ابنه أبى هاشم[4]. ويعتقدون فى ابن الحنفية اعتقادًا فوق حده ودرجته، من: إحاطته بالعلوم كلها، واقتباسه من (السيدين) الأسرار بجملتها من علم التأويل والباطن وعلم الآفاق والأنفس[5]. والحق أن ابن الحنفية لم يقر الغلو الذى قيل فيه، ولم يعترف بأنه المهدى المنتظر، وروى ابن سعد حديثًا رفعه إلى أبى العريان المجاشعى قال: فبلغ محمدًا أنهم يقولون: إن عندهم شيئًا أى من العلم. قال: فقام فينا وقال: إنا والله ما ورثنا من رسول الله ﷺ إلا ما بين هذين اللوحين. ثم قال: اللهم خلا هذه الصحيفة فى ذؤابة سيفى، فسألت: وما كان فى الصحيفة؟ قال: من أحدث حدثًا أو آوى محدثًا[6]. وقال محمد للرجل الذى قابله وسأله عن أشياء سرية نُميت إلى الرجل عن محمد: أما بعد، فإياكم وهذه الأحاديث، فإنها عيب عليكم، وعليكم بكتاب الله، فإنه به هُدِى أولكم، وبه يُهدى آخركم[7].. ويظهر أن المختار هو الذى روّج فكرة مهدية محمد لأسباب سياسية أى أنه أراد يحكم باسمه دون إشراكه بالسلطة الفعلية. وعندما هم ابن الحنفية أن يقدم إلى الكوفة، وبلغ ذلك المختار فثقل عليه قدومه فقال: إن فى المهدى علامة، يقدم بلدكم هذه فيضربه رجل فى السوق بالسيف فلا تضره.. فبلغ ذلك ابن الحنفية فأقام[8].

---

(١) الفَرق بين الفِرق، ص (٥٥، ٥٦)، دراسات فى الأهواء والفرق، ص (٢٤٨).

(٢) نشأة الحركات السياسية والدينية فى الإسلام د. فاروق فوزى، ص (١٠١).

(٣) المقالات والفرق، ص (٢٦)، الشيعة العربية والزيدية، ص (٢٥٨).

(٤) الملل والنحل (١/ ١٣١).

(٥) المصدر نفسه (١/ ١٣١).

(٦) الشيعة العربية والزيدية، ص (٢٥٩).

(٧) الطبقات (٥/ ٧٠).

(٨) سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٨).

وقال كثير عزّة فى ابن الحنفية:

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحقٌ أربعة سواء

علىٌ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء

فسبط سبط إيمان وبرٍّ ... وسبط غيَّبته كربلاء

وسبط لا تراه العين حتى ... يقود الخيل يقدمها لواء

تغيب لا يُرى عنهم زمانا ... برضوى عنده عسل وماء[1]

سادسًا: حركة عمرو بن سعيد بن العاص (الأشدق) ومقتله:

نصت مقررات مؤتمر الجابية -كما أشرنا- على أن تكون الخلافة لعمرو بن سعيد الأشدق بعد مروان بن الحكم، وخالد بن يزيد بن معاوية، وتجاوز مروان عمرًا وبايع لابنيه عبد الملك، وعبد العزيز، الأمر الذى أثار نقمة عمرو، بعكس خالد بن يزيد الذى انصرف إلى العلم لاسيما الكيمياء[2]، وفى أول سنة ٦٩ هـ خرج عبد الملك بجنوده يريد قرقيسيا، ليحاصر فيها زفر بن الحارث، واستخلف على دمشق عمرو بن سعيد بن أبى العاص، ولم يكد عبد الملك يخرج بجيشه من دمشق، حتى تحصن بها عمرو بن سعيد، وأخذ ما فى بيت المال من الأموال. وتذكر رواية أخرى أن عمرو بن سعيد كان مع عبد الملك حين خرج إلى قرقيسيا ولكنه استغل فرصة الليل، وانخذل هو وجماعة معه من الجيش، ورجعوا إلى دمشق ففر والى دمشق من قبل عبد الملك عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفى، ودخلها عمرو بن سعيد واستحوذ على ما فيها من الخزائن[3]، وبعث عمرو إلى عبد الرحمن بن أم الحكم فلم يجده، فأمر بهدم بيته، واجتمع الناس وصعد عمرو المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنه لم يقم أحد من قريش قبلى على هذا المنبر إلا زعم أن لـه جنة ونارًا، يدخل الجنة من أطاعه، والنار من عصاه، وإنى أخبركم أن الجنة والنار بيد الله، وأنه ليس إلىَّ من ذلك شىء، غير أن لكم علىّ حسن المواساة والعطية[4]، وأصبح عبد الملك فسأل عن عمرو بن

(١) سير أعلام النبلاء (٤/١١٢).

(٢) تاريخ خلافة بنى أمية، نبيه عاقل، ص (١٥٢).

(٣) البداية والنهاية (١١/١١٤).

(٤) المصدر نفسه (١١/١١٥).

سعيد فلم يجده، فكرّ راجعًا إلى دمشق، فوجد عمراً وقد تحصن بها، ودارت بينهما معركة استمـرت ستة عشر يومًا[١]، ويبدو أن عبد الملك قـد رأى موقف عمرو قويًا حيث كان متحصنًا بقلعة رومية منيعة، فعرض الصلح فتصالحا على ترك القتال[٢].

١ - شروط عمرو بن سعيد بن العاص: كانت شروطه كالآتى: أن لعمرو بن سعيد الخلافـة بعد عـبد الملك[٣]، وأن يكون له عـامل مع كل عامل لعـبد الملك، وأن يستشيره فى كل صغيرة وكبيرة[٤]، ويوليه الديوان وبيت المال[٥].

وتبرز كتب التاريخ أسبابًا عديدة دعت عبد الملك للقبول بهذه الشروط منها:

أ- انقسام قـبيلة كلب ذات القوة والتأثير السـياسى فى الأحداث آنذاك، بين عبد الملك وعمرو الأشدق، مما جـعل كسب المعركة بالقوة يؤدى إلى خسـائر فادحة لكلا الطرفين، ولم يكن لصالح كلب التى فرضت الصلح[٦].

ب- سيطرة عمرو الأشدق على مدينة دمشق التى تعد العاصمة آنذاك، وفيها بيت المال وديوان الجند اللذان يعدان عصب الحياة وكسب المؤيدين آنذاك.

جـ- وقوف أكثـر القبائل اليمانية الأخـرى على الحياد، وعدم تدخلها فى الصراع مما يجعل القرار الفعلى للصلح بيد قبيلة كلب ذاتها[٧].

د- قوة عـمرو الأشدق فى الشـام وخاصـة فى دمشق، فقد أيدته دمـشق فضلاً عن زعيم بجيلة عبد الله بن كريز القسرى الذى كان مع شرطته[٨].

هـ- ويمكن أن يكون قبـول الاتفاقية من قـبل عبد الملك لحل النزاع سلمـيًا، ثم القيام بقتل عمرو الأشدق بعد اتفاقه مع بعض زعماء الشام وبنى أمية[٩].

٢ ـ غدر عبد الملك بابن عمه عمرو بن سعيد: وبعد عقد الصلح ودخول عبد الملك دمشق بأربعة أيام، أرسل إلى عـمرو أن ائتنى. . فلما كان بعد الظهـر لبس عمرو

(١) البداية والنهاية (١١/ ١١٥).
(٢) الأمويون للوكيل (١/ ٣٦٩).
(٣) الدور السياسى لأهل اليمن فى الشام، ص (٨٥).
(٤) تاريخ خليفة نقلا عن الدور السياسى لأهل اليمن، ص (٨٥) .
(٥) أنساب الأشراف (٤/ ١٣٩) .
(٦) نهاية الأرض (٢١/ ١٠٢)، الدور السياسى لأهل اليمن، ص (٨٦) .
(٧) الدور السياسى لأهل اليمن، ص (٨٧) .
(٨) المصدر نفسه، ص (٨٧).
(٩) الكامل فى التاريخ نقلاً عن الدور السياسى لأهل اليمن، ص (٨٧).

درعًا بين ثيابه، وتقلد سيفه، فلما نهض عثر فى البساط، فقالت امرأته وبعض من كان حاضراً عنده: إنا لا نرى أن تذهب إليه، فلم يعبأ بكلامهم، ومضى فى مائة من عبيده، وكان عبد الملك قد أمر بنى مروان بالحضور عنده، وأمر حاجبه أن يدخل ابن سعيد ويغلق الباب دون من معه.. ثم غُلقت الأبواب واقترب عمرو من عبد الملك، فرحب به وأجلسه معه على السَّرير، ثم جعل يحدثه طويلاً. ثم إن عبد الملك قال: يا غلام، خذ السيف عنه، فقال عمرو: إنا لله يا أمير المؤمنين، فقال له عبد الملك: أو تطمع أن تتحدَّث معى متقلِّدًا سيفك؟ فأخذ الغلام السيف عنه، ثم تحدَّثا ساعة، ثم قال له عبد الملك: يا أبا أمية. قال: لبيك يا أمير المؤمنين قال: إنك حيث خلعتنى آليت بيمينى إن ملأتُ عينى منك وأنا مالك لك أن أجمعك فى جامعة. فقال بنو مروان: ثم تطلقه يا أمير المؤمنين؟ قال: ثم أطلقه، وما عسيت أن أفعل بأبى أميّة؟ فقال بنو مروان: أبرَّ قسم أمير المؤمنين، فقال عمرو: فأبرَّ قسمك يا أمير المؤمنين. فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة فطرحها إليه، ثم قال: يا غلام، قم فاجمعه فيها. فقام الغلام فجمعه فيها، فقال عمرو: أُذكِّرُك الله يا أمير المؤمنين أن تُخرجنى فيها على رؤوس الناس، فقال عبد الملك: أمكرًا يا أبا أمية عند الموت؟ لاها الله إذًا، ما كنّا لنخرجك فى جامعة على رؤوس الناس ولما نخرجها منك إلا صعدًا[1]. ثم اجتذبه اجتذابة أصاب فمه السرير فكسر ثنيَّته، فقال عمرو: أُذكِّرُك الله يا أمير المؤمنين ألا يدعوك كسر عظمى إلى ما هو أعظم من ذلك. فقال عبد الملك: والله لو أعلم أنّك إذا بقيت تفى لى وتصلح قريش لأطلقتك، ولكن ما اجتمع رجلان قطّ فى بلد على ما نحن عليه إلا أخرج أحدهما صاحبه[2]، وجاء فى رواية: أن عبد الملك كلّف أخاه عبد العزيز بقتله. وخرج لصلاة العصر ولما رجع من صلاته وجد أخاه لم يقتله فلامه وسبّه وسبّ أمه ـ ولم تكن أم عبد العزيز أم عبد الملك ـ فقال: إنه ناشدنى الله والرحم، وكان ابن عمة عبد الملك بن مروان، ثم إن عبد الملك قال: يا غلام ائتنى بالحربة، فأتاه بها فهزها وضربه بها، فلم تغن شيئًا، ثم ثنى فلم تغن شيئًا، فضرب بيده إلى عضد عمرو فوجد مس الدرع فضحك،

---

(١) الصعد: المشقة، وعذاب صعد: شديد.

(٢) البداية والنهاية (١١/ ١١٧) .

وقال: ودارعٌ أيضًا، إن كنت لُمعِداً، يا غلام ائتنى بالصمصامة، فأتاه بسيفه ثم أمر بعمرو فصُرِع فجلس على صدره فذبحه، وهو يقول:

يا عمرو إن لا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حيث تقول الهامة اسقونى

وانتفض عبد الملك بعد ما ذبحه، كما تنتفض القصبة برعدة شديدة جدًا بحيث إنهم ما رفعوه عن صدره إلا محمولاً، فوضعوه على سريره وهو يقول: ما رأيت مثل هذا قط قبله، صاحب دنيا ولا طالب آخرة. ودفع الرأس إلى عبد الرحمن بن أمّ الحكم، فخرج به للناس فألقاه بين أظهرهم، وخرج عبد العزيز بن مروان ومعه البدر[1] من الأموال تحمل، فألقيت بين الناس فجعلوا يختطفونها، ويقال: إنها استرجعت بعد ذلك إلى بيت المال، ويقال: إن الذى ولى قتل عمرو بن سعيد مولى عبد الملك أبو الزّعيزعة بعد ما خرج عبد الملك فى الصلاة[2]. وهكذا تخلص عبد الملك من منافس قوى له، ولم يبال بنقض العهود، وسفك الدماء، فالطريق نحو الملك جعله يتخلص من ابن عمته عمرو بن سعيد، ومن أحب الأصدقاء إليه مصعب بن الزبير، ومن أفضل أهل الأرض فى زمانه على حد تعبيره عبد الله بن الزبير.

سابعًا: مصالحة عبد الملك للروم والتضييق على الجراجمة:

نظرًا للاضطرابات الداخلية فى دولته اضطر عبد الملك إلى مصالحة الروم على أن يدفع لهم ٣٦٥ ألف قطعة ذهبية، و٣٦٠ عبدًا و٣٣٠ جوادًا أصيلاً سنويًا، وأن تقتسم الدولة البيزنطية والدولة الأموية خراج قبرص وأرمينيا[3]، وارتهن منهم رهائن وضعهم فى بعلبك[4] فى مقابل ذلك يسحب ملك الروم الجراجمة إلى وسط الإمبراطورية البيزنطية[5]، ولم يمتنع عبد الملك عن مصالحة الجراجمة فى جبل اللكام، ووافق على أن يدفع لهم ألف دينار كل جمعة[6]، ولكن سرعان ما

---

(١) البدر: جمع بدرة: وهى كيس فيه مقدار من المال يتعامل به ويقدم فى العطايا .

(٢) البداية والنهاية (١١/ ١١٩).

(٣) الدولة البيزنطية، ص (١٥٨)، الدور السياسى لأهل اليمن، ص (٩٠).

(٤) فتوح البلدان (١/ ١٩٠) . (٥) المصدر نفسه (١/ ١٩٠)، الدور السياسى لأهل اليمن، ص (٩٠).

(٦) أنساب الأشراف (٥/ ٢٩٩، ٣٠٠)، الدور السياسى، ص (٩٠).

سنحت الفرصة لعبد الملك للتخلص من الجراجمة، فبعد أن عقد الصلح معهم أرسل أحد قادته الثقات سحيم بن المهاجر إلى القائد البيزنطى والذى كان على رأس الجراجمة، ونجح فى كسب ثقته، ثم كاده بقوات دبرها لهذا الشأن، فقتل القائد البيزنطى وهرب أصحابه وأمّن الباقين، فرجع العبيد إلى أسيادهم والأنباط إلى قراهم[1]، كما أن الاتفاقية مع الدولة البيزنطية لم تدم طويلاً، لأن الروم نقضوا العهد، كما أن عبد الملك استطاع القضاء على ابن الزبير وتوحيد الدولة تحت زعامته مما جعله يفكر بالرد على تحديات البيزنطيين المتكررة، فعين أخاه محمد بن مروان سنة ٧٣ هـ[2]، فشرع فى غزوهم سنة ٧٤ هـ[3].

ثامنًا: زفر بن الحارث الكلابى:

ظل القيسيون الموتورون فى مرج راهط على ولائهم لابن الزبير، وكان أحد كبار زعمائهم ـ زفر بن الحارث الكلابى ـ قد فر إلى قرقيسيا، وتحصن بها، وثابت إليه قيس، وأصبح تجمعه هناك مركزًا لشن الغارات على كلب فى المناطق المجاورة له، مما كان يسبب إحراجًا بالغًا لعبد الملك الذى كان يطمح إلى استعادة بقية بلدان العالم الإسلامى تحت سيادته وسلطانه، وكان فى هذه الفترة يوجه كل جهوده لاستعادة العراق من سيطرة مصعب بن الزبير، وكان لابد لعبد الملك إذا أراد أن يضم إليه العراق، وينهى سيطرة الزبيريين عليه، أن ينهى اعتصام زفر بن الحارث فى قرقيسيا، فسار إليه فى جيشه الذى كان جهزه لحرب مصعب بن الزبير، وبدأ بزفر أولاً فحاصره، ولكن رجال زفر أبدوا بطولة عجيبة وانتزعوا إعجاب عبد الملك الذى قال: لا يبعد الله رجال مضر، والله إن قتلهم لذل، وإن تركهم لحسرة[4]، ولجأ عبد الملك إلى المسالمة، وكتب إلى زفر يدعوه إلى طاعته ويرغبه فيها، ويهدده إن لم يقبل ذلك، وبعد جهود ومفاوضة أرسل إليه زفر يجيبه إلى طلبه، ويشترط عليه أن يبقى له الخيار فى أن يظل مخلصًا لابن الزبير، أو ينضم إلى عبد الملك، ورغم ذلك فقد وافق على شرطه، وأعطاه الأمان هو وابنه وقائده الهذيل بن زفر، وجميع أتباعهما، ولم يأخذ بمال أو دم أهدره، بل أعطى عبد

---

(١) أنساب الأشراف (٥/ ٣٠١).
(٢) الكامل لابن الأثير نقلاً عن الدور السياسى، ص (٩٢).
(٣) الكامل فى التاريخ (٣/ ٨٤).
(٤) الكامل فى التاريخ (٣/ ٦١).

الملك الزعيم القيسى مبلغًا من المال يوزعه بين أتباعه، ثم اختتم ذلك العمل بأن زوَّج ابنه مسلمة بن عبد الملك بالرباب بنت زفر بن الحارث، كما أمر زفر ابنه الهذيل أن ينضم إلى جيش عبد الملك المتجه إلى حرب مصعب بن الزبير، إذ لم يكن على ولده ما عليه هو من بيعة ابن الزبير[1]، وحرص عبد الملك إلى تحقيق التوازن بين القبائل اليمانية والقيسية، وجعل فى أصحابه زفر بن الحارث الكلابى وابنيه الهذيل وكوثرًا وعبد الله بن مسعدة الفزارى وغيرهم من زعماء قيس، كما كان فى أصحابه حسان بن مالك الكلبى، وروح بن زنباع الجذامى، ورجاء بن حيوه، الكندى وغيرهم من زعماء اليمانية، وكما عدل بين الفريقين فى مجلسه عدل بينهم فى وظائفه، فكان يختار ولاته على الأمصار من القيسية غالبًا، بينما يختار موظفى بلاطه من اليمانية وهكذا[2].

تاسعًا: ضم العراق والقضاء على مصعب بن الزبير:

بعد أن استعاد ابن الزبير نفوذه على العراق أصبحت المواجهة محتومة بينه وبين عبد الملك، الذى قرر أن يقود المعركة بنفسه بعد أن شاور خاصته فى ذلك، فمنهم من أشار عليه أن يقيم فى الشام، ويرسل واحدًا من أهله ليقود الجيش، ومنهم من أشار عليه بأن يسير بنفسه، فمال هو إلى هذا الرأى. وقال: إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشى له رأى، ولعلى أبعث من له شجاعة ولا رأى له، وإنى بصير بالحرب، شجاع بالسيف إن احتجت إليه، ومصعب شجاع من بيت شجاعة ولكنه لا علم له بالحرب، ومعه من يخالفه، ومعى من ينصح لى[3].

عزم عبد الملك إذن على السير إلى العراق لانتزاعه من ابن الزبير وكان ذلك فى سنة ٧١ هـ أى بعد أربع سنين من القضاء على المختار. ولعله أخَّر الصدام مع ابن الزبير إلى هذا الوقت متعمدًا، فهو لم يشأ أن يسير إلى العراق إلا بعد أن يوطد دعائم حكمه فى الشام، فقضى هذه السنين فى تحقيق هذا الهدف، فقد حل مشاكله مع زفر بن الحارث الكلابى الذى كان معتصمًا فى قرقيسيا[4]، مهددًا بذلك إقليم الجزيرة كله، وقد عالج عبد الملك مشكلة زفر بالحكمة والسياسة،

---

(١) الكامل فى التاريخ (٣/ ٦٢).
(٢) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٣٨٦).
(٣) الكامل فى التاريخ (٣/ ٥١).
(٤) المصدر نفسه (٣/ ٥٩).

واصطلح معه، وأنهى بذلك مسألة قرقيسياء التى استمرت حوالى سبع سنين، كالشوكة فى جنب دولته، وأحكم سيطرته على إقليم الجزيرة[1]، ثم تخلص من منافسه الخطير، وهو عمرو بن سعيد الأشدق[2]، ولما أراد الخروج للعراق ودّع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فبكت وبكى جواريها لبكائها، فقال: قاتل الله كثير عزة؛ لكأنه يشاهدنا حين قال:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همَّهُ حَصانٌ عليها عِقدُ دُرٍ يزينها
نهته فلما لم تر النّهى عاقه بكت وبكى ممّا عناها قطينها[3]

وسارع عبد الملك إلى العراق بجيشه، وجعل على مقدمته أخاه محمد بن مروان، ونزل بمسكن، وكان مصعب قد علم بمسيره، ونزل بمسكن مقدمته إبراهيم ابن الأشتر، ونزل باجميرا[4]، وأخذ عبد الملك يكاتب زعماء أهل العراق من جيش مصعب يعدهم ويمنيهم، وكان إبراهيم بن الأشتر قائد جيوش المختار الثقفى قد انضم إلى مصعب بعد مقتل المختار، وكتب إليه عبد الملك أيضًا، فأخذ الكتاب مختومًا ودفعه إلى مصعب، فقال له: ما فيه؟ فقال له: ما قرأته، فقرأه مصعب فإذا هو يدعوه إلى نفسه، ويجعل له ولاية العراق، فقال لمصعب: إنه والله ما كان من أحد آيس منه منى، ولقد كتب إلى أصحابك كلهم بمثل الذى كتب إلىَّ، فأطعنى فيهم فاضرب أعناقهم، قال: إذًا لا تنصحنا عشائرهم، قال: فأوقرهم حديدًا، وابعث بهم إلى أبيض كسرى فاحبسهم هناك، ووكل بهم على عشائرهم، فقال: يا أبا النعمان إنى لفى شغل عن ذلك، يرحم الله أبا بحر - الأحنف بن قيس - إنه كان ليحذرنى غدر أهل العراق، كأنه ينظر إلى ما نحن فيه[5]. وهذا ليس غريبًا على أهل العراق، فلهم فى الغدر وتغيير المواقف سجل حافل. بل لقد صرح عبد الملك بأن كتبهم كانت تأتيه يدعونه إليهم قبل أن يكتب هو إليهم[6]. ولم يكن هذا خافيًا فى معسكر مصعب، فعندما استدعى المهلب بن أبى صفرة

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٥٠١)، نقلاً عن الكامل فى التاريخ.
(٢) البداية والنهاية (١١/ ١١٩).
(٣) الكامل فى التاريخ (٣/ ٥١)، قطينها: خدمها.
(٤) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٣).
(٥) الكامل فى التاريخ (٣/ ٥٢)
(٦) المصدر نفسه (٣/ ٥٢).

ـ وكان من رجاله فى ذلك الوقت ـ يستشيره، قال له: أعلم أن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم، فلا تبعدنى عنك. فقال له مصعب: إن أهل البصرة قد أبوا أن يسيروا حتى أجعلك على قتال الخوارج، وهم قد بلغوا سوق الأهواز، وأنا أكره إذا سار عبد الملك إلىّ ألا أسير إليه، فاكفنى هذا الثغر[1]. فى الوقت الذى كان عبد الملك يكاتب فيه زعماء أهل العراق من قواد مصعب والذين قبلوا التخلى عنه والانضمام إليه[2]. كان حريصًا على ألا يقاتل مصعبًا، للمودة والصداقة القديمة، التى كانت بينهما فأرسل إليه رجلاً من كلب، وقال له: أقرئ ابن أختك السلام ـ وكانت أم مصعب كلبية ـ وقل له يدع دعاءه إلى أخيه، وأدع دعائى إلى نفسى، ويجعل الأمر شورى، فقال له مصعب: قل له السيف بيننا[3].

ثم حاول عبد الملك محاولة أخرى: فأرسل إليه أخاه محمد ليقول له: إن ابن عمك يعطيك الأمان، فقال مصعب: إن مثلى لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالبًا أو مغلوبًا[4]. ثم دارت المعركة فبدأت خيانات أهل العراق تظهر، فقد أمد مصعب إبراهيم بن الأشتر بعتاب ابن ورقاء، وهو من الذين كانوا كاتبوا عبد الملك، فاستاء إبراهيم من ذلك وقال: قد قلت له لا تمدنى بعتاب وضربائه، إنا لله وإنا إليه راجعون، فانهزم عتاب بالناس. فلما انهزم صبر ابن الأشتر فقتل[5]، فكان مقتله خسارة كبرى لمصعب، لأنه، فوق شجاعته، كان مخلصًا له غاية الإخلاص، ولذلك لما اشتد القتال على مصعب وتحرج موقفه صاح قائلاً: يا إبراهيم ولا إبراهيم لى اليوم[6]، تخلى أهل العراق عن مصعب وخذلوه، حتى لم يبق معه سوى سبعة رجال[7]، ولكنه ظل يقاتل فى شجاعة وبسالة، حتى أثخنته الجراح، وأخيرًا قتله زياد بن ظبيان. وكان مقتله فى المكان الذى دارت فيه المعركة على قصر دجيل عند دير الجاثليق[8]، فى جمادى الآخرة سنة٧٢هـ. فلما بلغ عبد الملك مقتله قال: واروه، فقد والله كانت الحرمة بيننا قديمة، ولكن هذا الملك عقيم[9]،

---

(١) الكامل فى التاريخ (٣/ ٥١).
(٢) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٤) . .
(٣) الكامل فى التاريخ (٣/ ٥٢) .
(٤) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٥) .
(٥) الكامل فى التاريخ (٣/ ٥٣) .
(٦) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٥) .
(٧) الكامل فى التاريخ (٣/ ٥٤، ٥٣) .
(٨) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٤) .
(٩) المصدر نفسه (٧/ ٤٧).

وبمقتل مصعب انتهت المعركة، فدخل عبد الملك الكوفة، وبايعه أهلها، وعادت العراق إلى حظيرة الدولة الأموية. وعين عبد الملك أخاه بشرًا واليًا عليها، وقبل أن يغادرها أعد جيشًا للقضاء على ابن الزبير بمكة.

١ - أسباب هزيمة مصعب بن الزبير: هناك أسباب كثيرة أسهمت في هزيمة مصعب بن الزبير منها:

أ - عدم اشتراك المهلب بن أبي صفرة، ومن معه من الجنود، وهو المقاتل العنيد والخبير في شئون الحرب، وإصرار مصعب بن الزبير على بقائه في قتال الخوارج بناء على رغبة أهل البصرة، علمًا بأن المهلب قال: لا تبعدن عنك[١]، ولو لم يبعد مصعب المهلب لتمَّ الاستفادة من جيشه، ومن قدرة وخبرة هذا القائد.

ب - خيانة قادة الفصائل من الجيش الزبيري من العراقيين بناء على الأماني التي مناهم إياها عبد الملك، وعدم قدرة مصعب على ثنيهم بعد اكتشاف خيانتهم.

جـ - عدم إغداق أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير الأموال، والأعطيات على أعيان وأشراف أهل العراق لما جاءوا إلى مكة مع مصعب.

د - غضب بعض الشيعة لمقتل المختار، فلقد رأوا فيه أنه هو الذي انتقم من قتلة الحسين، بحيث لم يترك أحدًا، ولهذا عبَّر زائدة بن قدامة عن ذلك عندما طعن مصعب وقال: يا لثارات المختار[٢].

هـ - قلة الخبرة العسكرية لدى مصعب على الرغم من شجاعته وإقدامه وبطولته التي اعترف بها خصمه.

و - إنهاك جيش الزبيريين، فقد خاضوا معارك عدة في العراق، بينما كان جيش الأمويين مرتاحًا، فلما رأوا جنود خصمهم تواكلوا وشملهم الرعب[٣].

ز - عدم مد الخليفة -عبد الله بن الزبير- أخاه بالقوات والجند، وكان الأجدر به أن يمده بكل ما يستطيع، لأن ضياع العراق من يديه يعني فقدان الموارد المالية وبداية الانهيار السياسي[٤].

---

(١) الكامل في التاريخ (٣/ ٥١) .
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٥٤) .
(٣) تجديد الدولة الأموية للناطور، ص (٨٠) .
(٤) المصدر نفسه، ص (٨٠).

٢ ـ أثر مقتل مصعب على ابن الزبير وخطبته: ولما بلغ عبد الله بن الزبير قتل أخيه مصعب، قـام فخطب فى الناس، فقال: الحمـد لله الذى له الخلق والأمر، يؤتى الملك من يشاء، وينزع المـلك ممن يشاء، ويعز من يشـاء، ويذل من يشاء، ألا أنه لن يُذل الله من كـان الحق معه، وإن كـان فردًا، ولم يعـز من كان وليه الـشيطان وحزبه وإن كان معه الأنام طُرًا، ألا وإنه قد أتانا مـن العراق خبر أحزننا وأفرحنا، أتانا قتل مصعب -رحمه الله-، فأما الذى أفرحنا؛ فعلمنا أنه قتله له شهادة، وأما الذى أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حـميمه عند المصيبة، ثم يرعوى بعدها ذوو الرأى إلى جميل الصبر، وكريم العزاء ولئن أصبت بمصعب لقد أصبت بالزبير قبله، وما أنا من عثمـان بخلو مصيبة، وما مصعب إلا عبـد من عبيد الله؛ وعون من أعوانى، إلا إن أهل العـراق أهل الغدر والنفاق، أسلموه وباعـوه بأقل الثمن، فإن يقتل فإنا واللـه ما نموت على مضاجعنا، كما تموت بنـو العاص، والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى الجاهلية ولا الإسلام، ومـا نموت إلا قعصًا[1] بالرماح، وموتًـا تحت ظلال السيـوف. ألا إنما الدنيا عـارية من الملك الأعلى الذى لا يزول سلطانه، ولا يبيد ملكه، فإن تقبـل لا آخذها أخذ الأشِر البَطِر، وإن تدبر لا أبك عليها بكاء الحَرِقَ المَهين. أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم[2].

٣ ـ رأى عبـد الملك فى مصـعب بن الزبير: لما وضع رأس مصعب بـين يدى عبد الملك، بكى وقال: ما كنت أقـدر أن أصبر عليه ساعة واحـدة من حبى له، حتى دخل السيف بيننا، ولكن الملك عقيم[3]. لقد نسى عبد الملك كل ما كان بينه وبين مصعب، ولم يذكر إلا الكرسى وسلـطة الحكم، حتى إذا ما تم له الأمر، وخلص له الحكم، أخذ يتحدث عما كـان بينهما من المودة والخُلة، وراح يذكر محاسنه فى مجالسه، وهو يعلم أن ذلك لن يضـر ملكه شيئًا[4]. روى ابن كثير أن عبد الملك قال يومًـا لجلسائه: من أشجع العرب قـالوا: شبيب، قطرىٌ بن الفـجاءة، فلان، فلان. فقـال عبد الملك: إن أشجع العرب لرجل جمع بـين سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة، وأمة الحميد بنت عبد الله بن عامر بن كُريز، وأمّه رباب بنت

---

(١) القعص: الموت السريع.
(٢) تاريخ الطبرى (٧/ ٥٣).
(٣) المصدر نفسه (٧/ ٤٧).
(٤) الأمويون للوكيل (١/ ٣٨٠).

أُنيف الكلبي، سيد ضاحية العرب، وولى العراقين خمس سنين فأصاب ألف ألف، وألف ألف، وألف ألف، وأعطى الأمان فأبى، ومشى بسيفه حتى مات.. ذلك مصعب بن الزبير، لا من قطع الجسور مرة هاهنا ومرّة هاهنا[1]. إن مدح مصعب الآن لا يضر عبد الملك شيئًا، فقد مضى إلى ربه، وترك له الدنيا بزخارفها، فهو الآن، وبعد أن لم يعد مصعب يشكل خطرًا على ملك عبد الملك، فلا بأس بأن يذكر محاسنه، ولا بأس بأن يؤبنه، ولهذا لما جيء برأس مصعب إلى عبد الملك قال: واروه فقد والله كانت الحرمة بيننا قديمة، ولكن هذا الملك عقيم، وأمر به وابنه عيسى فدفنا[2].

٤- ما قيل من رثاء فى مصعب بن الزبير: اشتهر عبيد الله بن قيس الرقيات بالدفاع عن الحركة الزبيرية، وكان شاعرها الأول، ومما قاله فى رثاء مصعب بن الزبير:

نَعَتِ السحائبُ والغمام بأسرها ... جسدًا بمسكِنَ عارى الأوصال

تُمسى عوائده السِّباع وداره ... بمنازل أطلالهن بَوَالى

رحل الرِّفاق وغادروه ثاويًا ... للرِّيح بين صَبا وبين شمالِ[3]

٥ ـ سكينة بنت الحسين زوجة مصعب بن الزبير: كتب مصعب إلى زوجته سكينة بنت الحسين بن على بن أبى طالب بعد خروجه من الكوفة بليال:

وكان عزيزًا أن أبيت وبيننا ... حجاب فقد أصبحت منى على عشر

وأبكاهما للعين والله فاعلمى ... إذا ازددت مثليها فصرت على شهر

وأبكى لقلبى منهما أننى ... أخاف بألاَّ نلتقى آخر الدهر

وقيل: دخل مصعب على سكينة يوم قتل، فنزع ثيابه ولبس غلالة، وتوشح بثوب، وأخذ سيفه، فعلمت سكينة أنه لا يريد أن يرجع، فصاحت: واحزناه عليك يا مصعب، فالتفت إليها وقد كانت تخفى ما فى قلبها عنه، فقال: أو كل

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ١٥٢) .
(٢) تاريخ الطبرى، الأمويون للوكيل (١/ ٣٨١) .
(٣) البداية والنهاية (١١/ ١٥٦) .

هذا لى فى قلبك؟ قالت: وما أخفى أكثر، فقال: لو كنت أعلم هذا كانت لى ولك حال، ثم خرج فلم يرجع، ولما قتل مصعب خرجت سكينة تطلبه فى القتلى فعرفته بشامة فى خده، فأكبت عليه، وقالت: يرحمك الله، نعم والله حليل المسلمة كنت أدرك والله ما قال عنترة:

وحليل غانية تركت مجندلاً ... بالقاع لم يعهد ولم يتكلم

فهتكت بالرمح الطويل إهابه ... ليس الكريم على القنا بمحرم[1]

وقالت سكينة فى رثاء مصعب:

فإن تقتلوه تقتلوا الماجد الذى ... يرى الموت إلا بالسيوف حرامًا

وقبلك ما خاض الحسين منية ... إلى القوم حتى أوردوه حماما[2]

---

(١) المنتظم لابن الجوزى (٦/ ١١٤، ١١٥).

(٢) موقف الشعر من الحركة الزبيرية، ص (٦٠).

المبحث الرابع

نهاية أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضى الله عنه

أولاً: محاولات الأمويين إخضاع الحجاز قبل حصار ابن الزبير الأخير:

كانت المناوشات مستمرة بين ابن الزبير وعبد الملك بن مروان على الجبهة الحجازية، ومن أهم الحملات التى شنها الطرفان.

١ـ حملة حبيش بن دلجة القينى: تكاد تجمع الروايات على أن مروان بن الحكم هو الذى أرسل هذه الحملة إلى الحجاز، وذلك بعد مقدمه من مصر[١]. والذى يظهر أن هذه الحملة أرسلت فى أواخر عهد مروان بن الحكم حيث توفى مروان قبل أن تكمل مهمتها، الأمر الذى حدا ببعض المؤرخين أن يذكروا أن عبد الملك بن مروان هو الذى أرسل هذه الحملة[٢]، وكان عدد أفراد هذه الحملة يتراوح ما بين ٦٤٠٠ و ٧٠٠٠ رجل[٣]، واستطاع ابن الزبير أن يتغلب على هذا الجيش، فقد أرسل الحارث بن أبى ربيعة -وكان واليًا على البصرة- جيشًا بقيادة الحنتف بن السجف التميمى لمواجهة جيش حبيش بن دلجة، ومن جهته أرسل ابن الزبير جيشًا آخر بقيادة عباس بن سهل بن سعد الأنصارى ليلتقى بجيش الحنتف ويتحدا للقضاء على جيش حبيش، وهذا ما تمّ فعلاً[٤] بالربذة[٥].

٢ـ حملة نائل بن قيس الجذامى: أرسل ابن الزبير نائلاً بحملة بعد وفاة الحنتف ابن السجف بوادى القرى وأمره أن يعبر إلى نواحى الشام، وأن يكون مسلحة بها[٦]، وفى رواية أخرى أن ابن الزبير بعث نائلاً بعد وفاة مروان، وأمره أن يأتى فلسطين[٧]، وعلى أية حال فكلا الروايتين تتفقان على أن عبد الملك بن مروان استطاع أن يقضى على نائل بن قيس (بأجنادين)[٨]، وقد قتل نائل وأصحابه بفلسطين سنة ٦٦هـ.

---

(١) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١٨١).

(٢) عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١٨١).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٨١).

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٥٥٣).

(٥) أنساب الأشراف (٥/ ١٥١ ـ ١٥٣).

(٦) المصدر نفسه (٥/ ١٥٨).

(٧) المصدر نفسه (٥/ ١٥٩).

(٨) أجنادين: من نواحى فلسطين، ياقوت، معجم البلدان (١/ ١٠٣).

٣ـ حـملة عـروة بن أنيف: بعث عـبد الملك عـروة بن أنيف فى ستـة آلاف إلى المدينة، وأمرهم أن لا ينزلـوا على أحد، ولا يدخلوا المدينة إلا لحاجـة ضرورية أو يعسكروا «بالعرصة»[١]. وسار عروة بن أنيف وعسكر بالعرصة، وتشير الرواية إلى أن الحارث بـن حاطب ـ عـامل ابن الزبير على المدينة ـ هرب مـنها، وكـان عروة يدخلها ويصلى الجـمعة بالناس، ثـم يعود إلى معسـكره، ومكث عروة على هذا الوضع شهرًا، ولم يبعث إليه ابن الزبير أحدًا، ولم يحدث أى مواجهة بين جيشى عروة وابن الزبير، عندها أمر عبد الملك هذا الجيش بالعودة إلى الشام فرجع[٢].

٤ـ حـملة عـبـد الملـك بن الحـارث بن الحكم: أرسل عـبد الملك بن مـروان هذه الحملة، وقوامها أربعة آلاف إلى المدينة، وكانت مهمتها الحفاظ على المنطقة ما بين الشام والمدينة. عسكر عبد الملـك بن الحارث بوادى القرى، ومن هناك أرسل فرقة قوامها خمـسمائة رجل بقيادة أبى القمقام إلى سليمـان بن خالد ـ عامل ابن الزبير على خيبر وفـدك ـ للقضاء عليه، وقد حاول سليمـان الهرب منهم لكنهم أدركوه وقتلوه[٣]. ولم يستطع ابن الـزبير عمل شىء حـيال ذلك سوى عـزله الحارث بن حاطب، وتولية جابر بن الأسود مكانه، وأرسل جـابر بن الأسود من جهته حملة بقيـادة أبى بكر بن أبى قيس إلى أبى القمـقام بخيبـر، واستطاع أبو بكر أن يلحق بخصمه الهزيمة[٤].

٥ـ حملة طارق بن عمرو: كانت هذه الحملة هى آخر حملة وجهها عبد الملك بن مروان تجاه الحجاز، وكان الهدف منهـا أن يسيطر فيما بين «أيلة» و«وادى القرى»، ويكون مددًا لمن يحـتاج إليه من عـمال عبـد الملك بن مروان، وفى الوقت نفـسه تكون سدًا أمام تحركات ابن الزبير، وطلب ابن الزبير من واليه على البصرة إرسال قوات لحمـاية المدينة، فأرسل إليه ألفى رجل بقيـادة ابن رواس، واستطاعت تلك القوات حماية المدينة، ولكن ما لبث ابن الزبير أن أمر ابن رواس بالمسير إلى طارق بن عمرو، وكانت نتيجة الصـدّام انتصار طارق بن عمرو وعاد طارق إلى أم القرى ملتزمًا بالمهمة التى أوكلها له عبد الملك[٥].

(١) العرصة: وهما عرصتان بنواحى المدينة بالعقيق.

(٢) الطبقات نقلاً عن عبد الله ابن الزبير للخراشى، ص (١٨٥).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٨٥).

(٤) المصدر نفسه، ص (١٨٦)، نقلا عن الطبقات.

(٥) المصدر نفسه، ص (١٨٧).

ثانيًا: الحصار الثانى وسقوط خلافة ابن الزبير:

كان انتصار عبد الملك بن مروان على مصعب بن الزبير فى معركة دير الجاثليق إيذانًا بانتهاء دولة عبد الله بن الزبير، فقد استقرت له الأمور فى جميع الأمصار الإسلامية، وانحصرت دولة ابن الزبير فى الحجاز، ولم يكن فى استطاعته الصمود، لافتقاره إلى المال والرجال، كما أن مقتل أخيه مصعب قد فت فى عضده، وأصابه الإحباط، ولكنه لم يُلق رايته، وظل يقاوم حتى النهاية. لم يضيع عبد الملك بن مروان وقتًا بعد انتصاره على مصعب، وقرر أن يقضى نهائيًا على دولة ابن الزبير[١]، ووقع الخيار لقيادة الجيش للقضاء على ابن الزبير على الحجاج ابن يوسف، وتوجه بجيشه إلى الحجاز، واستقر بالطائف، وبدأ يرسل بعض الفرق العسكرية إلى مكة، وكان ابن الزبير يرسل إليه بمثلها، فيقتتلون وتعود كل فرقة إلى معسكرها[٢]، وأمر عبد الملك طارق بن عمرو الذى كان مرابطًا بوادى القرى أن ينضم إلى جيش الحجاج، فتوجه طارق إليه وكان معه خمسة آلاف رجل[٣].

١ـ الحصار الاقتصادى: وفى محاولة لإنهاك ابن الزبير قام الحجاج بفرض حصار اقتصادى على مكة، ويروى ابن حزم أن عبد الملك بن مروان كان يساهم فى فرض هذا الحصار، فقد أوكل إلى خالد بن ربيعة بمهمة قطع الميرة عن ابن الزبير وأهل مكة[٤]، وقد أثر هذا الحصار على ابن الزبير، وأصابت الناس مجاعة شديدة حتى إن ابن الزبير اضطر إلى ذبح فرسه ليطعم أصحابه[٥]، وفى الوقت نفسه كانت العير تحمل إلى أهل الشام من عند عبد الملك السويق، والكعك، والدقيق[٦]، وقد ترتب على تردى الأحوال داخل مكة، أن بدأ التخاذل يدب بين أنصار ابن الزبير، وبدأوا ينسحبون واحدًا تلو الآخر، ومما شجع على تخاذل هؤلاء إعطاء الحجاج الأمان لكل من كف عن القتال، وانسحب من جيش ابن الزبير[٧].

٢ـ نصب المنجنيق على جبال مكة: أراد الحجاج بن يوسف الثقفى أن ينهى أمر ابن الزبير، فكتب إلى عبد الملك بن مروان يطلب منه الإذن بقتاله ومناجزته فأجابه

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر الاموى، ص (٥٠٣). (٢) عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١٨٩).
(٣) المصدر نفسه، ص (١٨٩) نقلاً عن الطبقات لابن سعد. (٤) جمهرة أنساب العرب، ص (٢٤٤).
(٥) أنساب الأشراف (٥/ ٣٦١)، عبد الله بن الزبير الخراشى، ص (١٩٠).
(٦) أنساب الأشراف (٥/ ٣٦٠).
(٧) المصدر نفسه (٥/٣٦٦)، عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١٩٠).

عبد الملك بقوله: افعل ما ترى[1]. وهذه الإجابة تحمل في مضمونها الموافقة على طلب الحجاج المتحفـز لقتال ابن الزبير. وتوجه الحجاج بن يوسف بجـميع جيشه إلى مكة ونصب المنجنيق على جبـالها، وبدأ يضرب ابن الزبيـر داخل الحرم ضربًا متواصلاً، وفي الوقت نفسه كان بقية جيشه يقاتلون البقية الباقية مع ابن الزبير[2]، وتوسط بعض أعيان مكة وعلى رأسهم ابن عمر لدى الحجاج طالبين إليه أن يكف عن استعـمال المنجنيق فأجابهم: والله إني لكاره لما ترون، ولـكن ماذا أصنع ولقد لجـأ هذا إلى البـيت، وكـانت وفـود الحج قـد جـاءت إلى مـكة من كل الأقطار الإسلامية، وقـد منعهم من الطواف حول البيت ما يتـعرض له الطائفون من خطر المنجنيق، ولما كان في ذلك تعطيل لركن من أركان الحـج فقد تدخل في الأمر ابن عمر فكتب إلى الحـجاج يقول له: اتق الله فإنك في شهر حـرام، وبلد حرام وقد قدمت وفـود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويـزدادوا خيرًا[3]، فأرسل الحجاج إلى طارق ابن عمرو بأن يكف عن استـعماله حتى ينتهي الناس من الحج، وقال لهم: والله إنـي لكاره لما ترون، ولكن ابن الزبير لجـأ إلى البيت[4]، وأيًا ما كان، فقـد كف عن استعمال المنجنيق حـتى انتهى الناس من الطواف[5]، وبعدما انتـهى موسم الحج نادى الحـجاج في الـناس بالانصراف إلى البـلاد، وأن القتـال سيستـأنف ضد ابن الزبير[6]، ويروى البلاذري أن العديد ممن كـانوا مع ابن الزبير حاولوا إقناعه بقبول أمان الحجاج بن يوسف، فلم يستجب ابن الزبير لمحاولاتهم، وأصر على القتـال. وقد سطرت الروايات مواقف بطولية رائعـة لابن الزبير رضي الله عنه في مواجهة كتائب الحجاج، ولم يمنعه خذلان من حوله، من الثبات على مبدئه الذي قاتل من أجله[7].

٣ـ أسماء بنت الصـديق ترسم لابنها طريق الأحرار: بعد انتهاء موسم الحج نادى الحـجـاج في الناس أن يعـودوا إلى بـلادهم، لأنه سـيـعـود إلى ضـرب البـيت

---

(١) أنساب الأشراف (٥/٣٥٨). (٢) المصدر نفسه (٥/٣٥٨).

(٣) المصدر نفسه (٥/٣٧٦)، الحجاج بن يوسف المفترى عليه، ص (٥٣).

(٤) المنتقى في أخبار أم القرى، ص (٢٦)، الحجاج المفترى عليه، ص (٥٣).

(٥) الحجاج بن يوسف المفترى عليه، ص (٥٤).

(٦) أنساب الأشراف (٥/٣٧٦)، الحجاج بن يوسف المفترى عليه، ص (٥٤).

(٧) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص (١٩١).

بالحجارة[1]، وبالفعل بدأ يضرب الكعبة، وشـدد على ابن الزبير، وتحرج موقفه، وانفض عنه معظم أصحـابه، ومنهم ابناه حمزة وخبيب، اللذان ذهبـا إلى الحجاج وأخذا منه الأمـان لنفسيهـما[2]. فلما رأى ذلك دخل على أمـه فقال لهـا: يا أمه خذلـنى الناس حتى ولدى وأهلى، فلم يـبق معى إلا اليـسيـر ممن ليس عنده من الدفع أكثـر من صبـر ساعـة، والقوم يعطوننى مـا أردت من الدنيا، فـما رأيك؟ فقـالت: أنت والله يا بنى أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليـه تدعو فامض له، فـقد قُتل عليه أصـحابك، ولا تمكن من رقبتك يلعب بهـا غلمان بنى أمية، وإن كنت إنما أردت الدنـيا فبئس العبـد أنت، أهلكت نفسك، وأهلكت من قتل مـعك، وإن قلت: كنت على حق فلما وهن أصحـابى ضعفت، فـهذا ليس فـعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك فى الـدنيا، القـتل أحسن. فـدنا ابن الزبير فقبل رأسها وقـال: هذا والله رأيى، والذى قمت به داعيًا إلى يومى هذا ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيـها، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستـحل حرمه، ولكنى أحـببت أن أعلم رأيك، فـزدتنى بصيرة مع بصـيرتى، فانظرى يا أمه فـإنى مقتول من يومى هذا، فلا يشتـد حزنك، وسلمى الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمد منكرًا، ولا عمل بفاحشة، ولم يَجُرْ فى حكم الله، ولم يغدر فى أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به بل أنكرته، ولم يـكن شىء آثر عندى من رضـا ربى، اللهم إنى لا أقـول هذا تزكيـة منى لنفسى، أنت أعلم بى، ولكن أقـوله تعزية لأمى لتسلو عنى، فـقالت أمه: إنى لأرجـو من الله أن يكون عزائى فيك حـسنًا إن تقدمتنى، وإن تقـدمتك ففى نفسى، اخرج حـتى أنظر إلى ما يصير أمرك. قال: جـزاك الله يا أمه خيرًا، فلا تدعى الدعاء لى قـبل وبعد. فقالت: لا أدعه أبدًا، فمن قـتل على باطل فقد قُتلتَ على حق ثم قالت: اللهم ارحم طـول ذلك القيام فى الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ فـى هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبى، اللهمّ قد سلمـته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثبنى فى عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين[3]، فتناول يديها ليقبّلهـا فقالت: هذا وداع فلا تبعد. فقال لهـا: جئت مودعًا لأنّى أرى هذا

---

(١) الكامل فى التاريخ (٣/ ٦٩).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٧٠).

(٣) تاريخ الطبرى (٧/ ٧٦).

آخر أيامي من الدنيـا، قالت: امض على بصيرتك وادن مني حـتى أودّعك. فدنا منها فعانقـها وقبّلها فوقعت يدها على الدرع، فقـالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد. فقال: ما لبسته إلاّ لأشـدّ منك. قالت: فإنّه لا يشدّ مني، فنزعها ثمّ أدرج كميه، وشـد أسفل قميصه، وجـبة خز تحت القميص فأدخل أسـفلها في المنطقة، وأمه تقول: البس ثيابك مشمّرة، ثم انصرف ابن الزبير وهو يقول:

إني إذا أعـرف يـومي أصـبـر ... وإنما يـعـرف يومـه الحُـرّ

فسمـعت والدته قوله فقالت: تصبر واللـه إن شاء الله، أبوك أبو بكر والزبير، وأمك صفية بنت عبد المطلب[1].

٤ـ استـشهاد ابن الزبيـر رضي الله عنه: إن الثبـات على المبدأ، وإن كـان يعارض مصالح الشخص، ويعـرضها للخطر، يعتبر من أنبل الـصفات، وقد تأصلت هذه الصفة في ابن الزبير، فما وهن، وما ضـعف، وما استكان في سبيل المبادىء التي نادى من أجلهـا؛ ففي آخر يوم من حـياته صلّى ركـعتي الفـجر ثم تقـدم، وأقام المؤذن فصلى بأصـحابه فقرأ: «ن والقلـم» حرفًا حرفًـا، ثم سلم فقام فحـمد الله وأثنى عليه ثم خطب خطبة بليغة جاء فيها: . . . فلا يرعكم وقع السيوف فإني لم أحضر مـوطنًا قط إلا ارتثثت فيه من القـتل، وما أجد من أدواء جراحـها أشد مما أجد من ألم وقعهـا. صونوا سيوفكم كما تصونون وجـوهكم، لا أعلم أمرًا كسر سيفـه، واستبقى نفسه، فإن الرجل إذا ذهب سلاحـه فهو كالمرأة أعـزل، غضوا أبصاركم عن الـبارقة، وليـشغل كل امـرئ قرنه، ولا يلهينكـم السؤال عني، ولا تقولن: أين عبد الله بن الزبير؟ ألا من كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول.

أبى لابن سلمـى أنه غـيـر خـالد ... مـلاقي المنايا أي صـرف تيـمّـمـا

فلست بـمُـبـتـاع الحـيـاة بسُـبَّـة ... ولا مُرتَقٍ من خـشيـة الموت سُلَّما

احملوا على بركة الله. ثـم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجـون، فرُمي بآجُرَّة فأصابته في وجهه، فأرعش لها، ودمي وجهه، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه ولحيته قال:

---

(١) تاريخ الطبري (٧/ ٧٧)

فلسنا على الأعقـاب تدمى كلومنا ولكن على أقـدامنا تقطر الدمـا[1]

وقاتلهم قتالاً شديدًا، فتعاونوا عليه، فقتلوه يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة وله ثلاث وسبـعون سنة[2]، وتولى قتله رجل من مـراد، وحمل رأسه إلى الحـجاج، وسار الحـجّاج وطارق بن عمرو حـتى وقفا عليـه، فقال طارق: مـا ولدت النساء أذكر من هذا. فـقال الحجّاج: أتمدح مـخالف أمير المؤمنين؟ قـال: نعم هو أعذر لنا، ولولا هذا لما كان لنا عذر، إنّا محاصروه منذ سـبعة أشهر، وهو فى غير جند ولا حصن ولا منَعـة، فينتصف منا، بل يفـضل علينا. فبلغ كـلامهما عـبد الملك فصوّب طارقًا[3]، ولما صلب ابن الزبير ظهرت منه رائحة المسك[4]، وقد ذكر أن ابن الزبير فى يوم استـشهاده قال: ما أرانى اليوم إلا مقـتولاً، لقد رأيت فى ليلتى كأنَّ السماء فرجت لى، فدخلتها، فقد والله مللت الحياة وما فيها[5].

٥ـ أسماء رضى الله عنها تقـيم الحجة على الحجّاج: لما قتل عبد الله خرجت إليه أمُّه حـتى وقفت عليه، وهى على دابة، فـأقبل الحجّاج فـى أصحابه فسـأل عنها فأُخبر بهـا، فأقبل حتى وقف عليها، فقـال: كيف رأيت نصر الله الحق وأظهره؟ قالت: ربما أُديل الباطل على الحق، وإنك بين فرشها والجيّة. فقال: إنّ ابنك ألحد فى هذا البـيت، وقد قال الله تـعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] وقد أذاقه الله ذلك العـذاب الأليم، قالت: كذبت، كان أوّل مـولود ولد فى الإسلام بالمديـنة، وسُرّ به رسـول الله ﷺ، وحنكه بيـده، وكبّـر المسلمون يومئـذ حتى ارتجت المدينة فرحًا به، وقد فرِحتَ أنت وأصـحابك بمقتله، فمن كـان فرح يومئـذ خيـرًا منك ومن أصحابك، وكـان مع ذلك برًا بالوالدين، صوّامًا قوّامًـا بكتاب الله، معظمًا لحُرُم الله، يُبـغِضُ أن يُعصى الله عز وجل[6]، وقد دافعت عـن ابنها دفاعًا مـجيدًا، فانكسر الحـجّاج وانصرف، فبلـغ ذلك عبد الملك، فكتب إليـه يلومـه فى مـخـاطبـته أسـمـاء وقـال: مـالك ولابنة الرجل الصالح[7].

---

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٧٩).
(٢) الكامل فى التاريخ (٣/ ٧٣).
(٣)، (٤) المصدر نفسه (٣/ ٧٣).
(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٧٨).
(٦) البداية والنهاية (١١/ ٢٠٩).
(٧) المصدر نفسه (١١/ ٢٠٩).

٦ـ ابن عمر وثناؤه على ابن الزبير بعد استشهاده: مرّ عبد الله بن عمر على ابن الزبير بعد صلبه فقال: السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خُبيب، السلام عليك أبا خبيب، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله إن كنتَ ما علمتُ صوّامًا قوّامًا وصولاً للرحم، أما والله لأمّة أنت شرُّها لأمة خير، ثم نفذ عبد الله بن عمر فبلغ الحجّاج وقوف ابن عمر عليه وقوله، فأرسل إليه فأنزله عن جذعة[1].

٧ـ بيعة ابن عمر لعبد الملك: لما أجمع الناس على البيعة لعبد الملك بن مروان كتب إليه ابن عمر: أما بعد، فإنى قد بايعت لعبد الملك أمير المؤمنين بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله، فيما استطعت، وإن بنيّ قد أقرّوا بذلك[2]، وجاء فى رواية أن ابن عمر كتب إلى عبد الملك بن مروان فبدأ باسمه، فكتب إليه: أما بعد، فالله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه... إلخ». وقد بلغنى أن المسلمين اجتمعوا على البيعة لك، وقد دخلت فيما دخل فيه المسلمون والسلام[3]، وحاول بعض بطانة الخليفة أن يوغروا صدره على ابن عمر لأنه بدأ باسمه قبل اسم الخليفة، فقال عبد الملك: إن هذا من أبى عبد الرحمن كثير؟[4]. وكان مما كتب به عبد الملك إلى الحجّاج بن يوسف ألا يخالف عبد الله ابن عمر فى الحج[5] لما يعرفه من فضله وفقهه[6].

٨ ـ ابن عمر رضى الله عنه والحجاج: بقى الحجّاج بن يوسف الثقفى واليًا على مكة بعد مقتل ابن الزبير، وكان عبد الله بن عمر يترك المدينة، ويأتى مكة حاجًا أو معتمرًا، ويرى أو يسمع من أفعال الحجاج وأقواله المخالفة للشرع؛ فيأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، يرد عليه بكل جرأة وشجاعة[7]. وبعدما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير وتمت له السيطرة على مكة خطب الناس، وكان مما قال: إن ابن الزبير حرّف كتاب الله، وفى رواية: غيّر كتاب الله، فقام ابن عمر وقال: كذبت

(١) البداية والنهاية (١١/ ٢١٠). (٢) الطبقات (٤/ ١٥٢).
(٣) المصدر نفسه (٤/ ١٥٢).
(٤) عبد الله بن عمر، محى الدين مستو، ص (١٠٨)، الطبقات (٤/ ١٥٢).
(٥) نسب قريش، ص (١٠٨). (٦) عبد الله بن عمر، محى الدين مستو، ص (١٠٨).
(٧) المصدر نفسه، ص (١٠٨).

كذبت كـذبت، ما يستطيع ذلك، ولا أنت مـعه[1]. وخطب الحجـاج الناس يوم الجمعـة، فأطال حتى كاد يذهب وقت الصـلاة، فقام ابن عمر فـقال: أيها الناس قوموا إلـى صلاتكم، فقام الناس، فنزل الحـجاج فصلى، فلما انصـرف قيل لابن عمـر ما حـملك على ذلك؟ فقال: إنما نجـيء للصلاة فصلِّ الصـلاة لوقتـها، ثم بقبق[2] بعد ذلك ما شئت من بقبقة[3]، كما أنكر ابن عمر على الحجّاج تهاونه فى إشـاعة حـمل السلاح فى مكة، وتركـه لرجال جـيـشه يضـايقون به المسلمـين، ويعرضون حياتهم بذلك للخطر، ففى الصحيح عن سعيد بن جبير قال: كنت مع ابن عمر حين أصابه سنان الرمح فى أخمـص قدمه، فلزقت قدمه بالركاب فنزلت فنزعتـها، وذلك بمنى فـبلغ الحجّاج فـجعل يعوده، فـقال الحجّـاج: لو نعلم من أصابك، فقال: ابن عـمر: أنت أصبتنى، قال: وكيف؟ قـال: حملت السلاح فى يوم لم يكن يحمل فيه، وأدخلت السـلاح الحرم، ولم يكن السلاح يدخل الحرم. وفى رواية عن إسحاق ابن سـعيد عن أبيه قال: دخل الحجّـاج على ابن عمر وأنا عنده فقال: كيـف هو؟ فقال: صالح. فقال: من أصابك؟ قـال: أصابنى من أمر بحمل السلاح فى يوم لا يحل فيه حمله. يعنى الحجّاج[4]. ولما خرج الحجّاج قال ابن عمر: مـا آسى على شىء من هذه الدنيا إلا على ثلاث وذكر منـها: ألا أكون قاتلت هذه الفئة البـاغية التى حلت بنا[5]، يقول الذهبى فى تعليقـه: يعنى بالفئة الباغية الحجّاج[6]، وأنا أزيد ومن أرسله.

٩ـ منهج ابن عمر فى الفتن: لم يكن ابن عمر بمنأى عن الأحداث السـياسية من حوله، بل كـانت له نظراته وتحليلاته لتلك الأحداث، وتمـيز ابن عمر بمواقـفه فى الفتن تميزًا واضـحًا، فقـد عايش عددًا من الفتن التى ابتليت بـها الأمة الإسلامـية آنذاك، وقد كشـفت تلك الفتن عن حكمة بالغة، ونظرة ثاقبة للأحـداث مما جعلته

---

(١) الطبقات الكبرى (٤/ ١٨٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٣٠).

(٢) بقبق الرجل: كثر كلامه.

(٣) الطبقات (٤/ ١٨٦، ١٨٥)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٣٠).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٣٢). (٥) الطبقات (٤/ ١٨٥).

(٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٣٢).

بحق مدرسة مليئة بالدروس المفيدة، والآداب الجمة التى اهتدى بها كثير من الناس فى عصره، وأصبحت بعده معلمًا يقتدى به من بعده[١]، كما قال سفيان الثورى ـ رحمه الله ـ: يقتدى بعمر فى الجماعة وبابنه فى الفرقة[٢]، ومن أبرز ما يميز منهج ابن عمر فى التعامل مع الفتن ما يلى:

أ ـ تجنب القتال والحرص على حقن دماء المسلمين: وقد وردت عدة روايات توضح موقف ابن عمر -رضى الله عنهما- من ذلك القتال الدائر فى الفتنة الأولى والثانية، فعن القاسم بن عبد الرحمن قال: قالوا لابن عمر فى الفتنة الأولى: ألا تخرج فتقاتل؟ فقال: قد قاتلت والأنصاب بين الركن والباب حتى نفاها الله عز وجل من أرض العرب، فأنا أكره أن أقاتل من يقول لا إله إلا الله. قالوا: والله ما رأيك ذلك، ولكنك أردت أن يفنى أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم بعضًا، حتى إذا لم يبق غيرك قيل: بايعوا لعبد الله بن عمر بإمارة المؤمنين. قال: والله ما ذلك فىَّ، ولكن إذا قلتم: حى على الفلاح أجبتكم، وإذا افترقتم لم أجامعكم، وإذا اجتمعتم لم أفارقكم[٣]، وجاءه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر وصاحب رسول الله ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعنى أن الله حرم علىَّ دم المسلم، قال: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ [البقرة: ١٩٣] فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يرد قال: فما قولك فى على وعثمان؟ قال ابن عمر: ما قولى فى على وعثمان!! أما عثمان فكان الله قد عفا عنه فكرهتم أن تعفوا عنه، وأما على، فابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأشار بيده، وهذا بيته حيث ترون[٤].

ولم يكتف ابن عمر رضى الله عنه بالحرص على كف نفسه وتجنيبها إراقة دماء المسلمين، بل سلك بعض السبل التى تؤدى إلى تجنب المسلمين إراقة الدماء فيما بينهم، من ذلك محاولته الجادة ـ خلال الخلاف بين ابن الزبير وعبد الملك بن مروان ـ لإنهاء القتال بينهما حقنًا لدماء المسلمين[٥]. فروى المدائنى أن عبد الله بن

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٣٢٥).
(٢) عبد الله بن عمر، محيى الدين مستو، ص (٢١٢).
(٣) حلية الأولياء (١/ ٢٩٤).
(٤) هناك رواية وهذه بنته أو بنتيه ولعل ذلك تصحيف.
(٥) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٣٢٨).

عمر كتب إلى عبد الملك بن مروان يأمره بتقوى الله وأن يكف نفسه، فكتب إليه عبد الملك أنه سيخرج نفسه ويجعل الأمر شورى، فلما كتب ابن عمر إلى ابن الزبير بذلك لم يلتفت إليه[1].

ب ـ الحث على السمع والطاعة للإمام القائم، ونهيه عن إثارة الفتنة وتفريق الكلمة:
قال ابن عمر رضي الله عنهما: جاءني رجل في خلافة عثمان، فإذا هو يأمرني أن أعتب على عثمان، فلما قضى كلامه قلت له: إنا كنا نقول ورسول الله ﷺ حي: أفضل أمة محمد بعده؛ أبو بكر وعمر ثم عثمان، وإنا والله ما نعلم عثمان قتل نفسًا بغير حق، أو جاء من الكبائر شيئًا، ولكنه هذا المال، إن أعطاكموه رضيتم وإن أعطاه قرابته سخطتم. إنما تريدون أن تكونوا كفارس والروم، لا يتركون أميرًا إلا قتلوه، ففاضت عيناه بأربع من الدمع، ثم قال: اللهم لا تُرِد ذلك[2]، وروى سالم ابن عبد الله بن عمر أن أباه قال: لقد عتبوا على عثمان أشياء لو فعلها عمر ما عتبوا عليه[3]. فانظر إلى أي مدى كان حرص عبد الله بن عمر رضي الله عنه في الدفاع عن عثمان والذب عن عرضه والتصدي لما يثيره أهل الفتنة ضد عثمان بن عفان رضي الله عنه، لما كان يعلم من خطورة مثل هذا المنحى، وما يؤدي إليه النيل من الخليفة والطعن فيه من فساد وفرقة، لذا فإن عثمان منحه ثقته فكان يستشيره إبان محنته مع الغوغاء، فحين دخل عليه ابن عمر قال له عثمان: انظر ما يقول هؤلاء يقولون: اخلع نفسك أو نقتلك. قال له ابن عمر: أمخلد أنت في الدنيا؟ قال: لا. قال: هل يزيدون على أن يقتلوك؟ قال: لا، قال: هل يملكون لك جنة أو نارًا؟ قال: لا. قال: فلا تخلع قميص الله عليك فتكون سنة، كلما كره قوم خليفتهم خلعوه أو قتلوه[4]. وهذا الرأي من ابن عمر ينم عن بعد نظره وتقديره لعواقب الأمور، وقد أبدى استعداده لحمل السلاح للدفاع عن أمير المؤمنين عثمان والتصدي للغوغاء المحاصرين لعثمان في داره، فقد ذكر ابن سعد عن نافع أن ابن عمر لبس الدرع يوم الدار مرتين. ولما قُتل عثمان رأى ابن عمر أن

(١) أنساب الأشراف (٥/ ١٩٥).

(٢) المعجم الكبير للطبراني (١٢/ ٢٨٥)، ابن عمر، محيي الدين، ص (٨٢).

(٣) العواصم من القواصم، ص (١٠٤، ١٠٥)، ابن عمر، محيي الدين مستو، ص (٨٣).

(٤) العواصم من القواصم، ص (١٣٠).

الأمة وقعت فى محنة، وأن قتل الخليفة بهذه الصورة معصية شؤمها على الأمة خطيرة، لذا لما عرض عليه الغوغاء الخلافة بعد مقتل عثمان قال: إن لهذا الأمر انتقامًا، والله لا أتعرض له فالتمسوا غيرى[1]، وكان ابن عمر رضى الله عنه كثيرًا ما يركز فى نصائحه للعامة على لزوم الجماعة، والإعراض عن دماء المسلمين وأموالهم. فكتب له رجل: اكتب إلىَّ بالعلم كله، فكتب إليه: إن العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء الناس، خميص البطن من أموالهم، كافًا لسانك عن أعراضهم، لازمًا لأمر جماعتهم فافعل، والسلام[2].

جـ ـ استجابته لكل من دعاه إلى خير وتعاونه مع أطراف الخلاف فيما يخدم المصلحة: ورد أنه كان لا يأتى أميرًا ـ فى زمان الفتنة ـ إلا صلى خلفه، وأدى إليه زكاة ماله[3]. وقيل له: أتصلى مع هؤلاء ومع هؤلاء وبعضهم يقتل بعضنا؟ فقال: من قال: حى على الصلاة أجبته، ومن قال: حى على الفلاح أجبته، ومن قال: حى على أخيك المسلم وأخذ ماله قلت: لا[4]، وكان ابن عمر يتبوأ مكانة رفيعة فى الأمة لصحبته لرسول الله ﷺ وعلمه وعبادته وزهده، وكان عبد الله بن محيريز ـ رحمه الله ـ يراه أمانًا فى الأرض حيث قال: والله إن كنت أعد بقاء ابن عمر أمانًا لأهل الأرض[5].

إن ابن عمر رضى الله عنه لم يدعُ إلى وجوب الخضوع المطلق للسلطان، أو جواز البيعة القهرية، ولم يكن فى حياته ما يدل على عدم اهتمامه بأمور المسلمين السياسية أو عدم المشاركة فيها، بل على العكس، فهو كان دائمًا أحد الأطراف الرئيسية فى المعادلة السياسية فى العهد الأموى، وكان أسلوبه هو الحوار واللجوء إلى الشورى، والابتعاد عن الاقتتال، وعندما بدأت الانشقاقات تظهر بين المسلمين اختار أن يكون محايدًا وأن يعتزل الاقتتال، لا أن يعتزل الحياة السياسية، وكان حياده واعتزاله نوعًا من التأمل والتفكر، والإطلاع على مواقف الفئات المختلفة، والبعد عن المشاركة فى سفك الدماء بسبب التصارع على السلطة، مع العمل على

(١) تاريخ الطبرى نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٣٣٢).

(٢) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٣٣٤).

(٣) الطبقات الكبرى (١٤٩/٤).

(٤) المصدر نفسه (٤/ ١٧٠).

(٥) تهذيب التهذيب (٣٣١/٥)، أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٣٣٧).

تهيئة الظروف، والمناخ السياسى الملائم الذى يجمع شمل الأمة. فموقف ابن عمر المحايد كان فى البداية بسبب صعوبة تكوين رأى قاطع، فضلاً عن خشية الوقوع فى الفتن[1]، وكان يقول: كففت يدى عن القتال فلم أندم، والمقاتل على الحق أفضل[2]، وهناك دلائل وحقائق تاريخية تثبت أن ابن عمر عندما رأى ما يقوم به الحجّاج من مظالم عظيمة فى الحرم المكى، وسفك الدماء به، والتعدى على حرمته غيّر رأيه فى اعتزال الفتنة، بل وندم على أنه لم يقاتل فى جيش على بن أبى طالب ضد معاوية، الذى كان فى نظره خارجًا عن شرعية على وباغيًا عليه، فقد روى حبيب بن ثابت أن ابن عمر عندما حضرته الوفاة قال: ما أجد فى نفسى شيئًا إلا أنى لم أقاتل الفئة الباغية مع على[3]، وقد مرّ معنا قول ابن عمر: ما آسى على شىء من هذه الدنيا إلا على ثلاث، ظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، وأنى لم أقاتل الفئة الباغية التى نزلت بنا[4]، قال الذهبى: يعنى الحجّاج[5]. وقد جاء فى كتب التاريخ أن ابن عمر كان يرى عبد الله بن الزبير أيضًا يندرج تحت مسمى الفئة الباغية، وأنه ندم على عدم قتاله لخروجه على بنى أمية وبغيه عليهم ونكثه لعهدهم[6]، وهذه الرواية يؤخذ عليها عدة أمور:

- أن عبد الله بن عمر لو كان يعتقد بأحقية بنى أمية بالخلافة من ابن الزبير فى وقت الفتنة لبايعهم، ولكنه لم يفعل، فكيف يندم على عدم قتاله معهم، وهو لم يبايعهم فى الأصل.

- أن أقوال عبد الله بن عمر الأخرى، التى تؤكد أن الفئة الباغية هى بنو أمية ورجالاتهم، وخاصة الحجّاج، كانت آخر أقواله، وهى ما يعتمد عليها، وأسانيدها صحيحة[7].

إن مواقف ابن عمر السابقة تدحض وتبين ضعف الرأى الذى يعتبره رائدًا لمدرسة الخضوع السياسى للسلطان، وخاصة أن ابن عمر هو الذى روى عن رسول الله ﷺ الحديث: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره إلا أن يؤمر فى

(1) مع المسلمين، مصطفى حلمى، ص (54). (2) الطبقات (4/ 164).
(3) سير أعلام النبلاء (3/ 232). (4)، (5) المصدر نفسه (3/ 232).
(6) المصدر نفسه (3/ 229). (7) الفقهاء والخلفاء، سلطان بن حثلين، ص (66).

معصية فلا سمع ولا طاعة»[1]، والحديث يدل على عدم طاعة الحاكم إذا أمر بمعصية أو خرج عن حكم الله، ولا يمكن لابن عمر أن يخالف حديثًا رواه، وعلى ذلك فإن نظرة ابن عمر تقوم على أن الطاعة للخليفة الشرعى، الذى بويع بالإجماع أو اتفاق الأغلبية، واجبة ما لم يأمر بمعصية، فإن ظلم أو جار فلا طاعة له، بل يجب مناصحته، فإن لم تُجْدِ المناصحة يجب عندئذ اللجوء إلى المعارضة الصريحة، ولكنه كان يكره اللجوء إلى العنف والاقتتال، لما فى ذلك من سفك الدماء وإضعاف لوحدة الجماعة[2].

١٠ ـ منهج أهل الحق فى ابن الزبير: قال النووى فى شرح مسلم: مذهب أهل الحق أن ابن الزبير كان مظلومًا، وأن الحجّاج ورفقته خارجون عليه. ودخل الحجّاج على أمّه بعد قتله فقال: كيف رأيتنى صنعت بابنك؟ فقالت: أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ، أن فى ثقيف مُبيراً وكذّابًا، فأما الكذّاب فرأيناه ـ يعنى المختار ـ وأما المبير[3]، فلا أخالك إلا إياه[4].

١١ ـ هدم الكعبة وبناؤها فى عهد ابن الزبير: فى سنة ٦٤هـ هدم ابن الزبير الكعبة وكانت قد مال حيطانها[5]، وتهدمت، وتشعّثت من حجر المنجنيق الذى كان يرمى به الحصين بن نمير وأصحابه[6]، ولما أراد ابن الزبير هدم البيت شاور الناس فى هدمها، فأشار عليه جابر بن عبد الله وعبيد بن عمير بذلك، وقال ابن عباس: أخشى أن يأتى بعدك من يهدمها، فلا تزال تهدم حتى يتهاون الناس بحرمتها، ولكن أرى أن تصلح ما وهى منها، وتدع بيتًا أسلم الناس عليه، وأحجاراً بُعث رسول الله ﷺ عليها. فقال ابن الزبير: لو احترق بيت أحدكم ما رَضى حتى يُجَدِّده، فكيف ببيت ربكم[7]؟، ثم إن ابن الزبير استخار الله ثلاثة أيام[8]، ثم عزم فى اليوم الرابع على ذلك، فخاف الناس وخرج بعضهم هاربًا إلى الطائف وإلى عرفات ومنى، وطلع ابن الزبير بنفسه واتخذ معه عبدًا حبشيًا دقيق السّاقين

---

(١) مسلم رقم (١٨٣٩).
(٢) الفقهاء والخلفاء، ص (٦٦).
(٣) المبير: المُهْلِكُ.
(٤) مسلم رقم (٢٥٤٥).
(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٥٢٠).
(٦) شذرات الذهب (١/ ٣٠٨).
(٧) البداية والنهاية (١١/ ٦٩١).
(٨) المصدر نفسه (١١/ ٦٩١).

رجاء أن يكون ذا السُّويقـتين الحبشى الذى يهـدم الكعبة[1]، فبدأ ينقض الرُّكن إلى الأساس فلمّـا وصلوا إلى الأساس وجـدوا أصلاً بالحجـر مشبكًا كـأصبع اليدين، فـدعا ابن الزبير خمـسين رجلاً وأشهـدهم على ذلك، ثم بنى البيت وأدخل الحجـر فيه[2]، وجعل للكعـبة بابين موضـوعين بالأرض، باب يدخل منه، وباب يُخرج منه، ووضع الحجـر الأسود بيده وشدَّه بفضـة، لأنه كان قد تصدّع، وجعل طـول الكعبة سبعـة وعشرين ذراعًا، وكـان طولها سبعـة عشر ذراعًا فاستـقصروه، وزاد فى وسع الكعبة عشـرة أذرع ولطخ جدرانها بالمسك، وستـرها بالدِّيباج، ثم اعـتمر من مـساجد عـائشة[3]، وطاف بالبيت، وصلَّى وسعى، وأزال ما كـان حول البيت وفى المسجد من الحجـارة والزّبالة، وما كان حولها من الدماء، وكـانت الكعبة قد وهت من أعلاها إلى أسـفلها من حجارة المنجنيق واسـودَّ الركن، وانصـدع الحـجر الأسـود من النار التى كـانت حـول الكعبة. وكان سـبب تجديد ابن الزبير لها ما ثبت فى الصحيحـين وغيرهما من المسـانيد والسُّنن من طرق، عن عـائشـة أم المؤمنين، أن رسول الله ﷺ قـال: «لولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة ولأدخلت فـيها الحجر، فإن قومك قصَّرت بهم النَّفقةُ، ولجعلت لهـا بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا يدخل الناس من أحـدهما ويخرجون من الآخـر، ولألصقت بابهـا بالأرض، فإن قـومَك رفـعوا بابهـا ليدخلوا من شـاءُوا ويمنعوا من شاءُوا»[4]، فبناها ابن الزبير على ذلك كما أخـبرته به خالته عائشة أم المؤمنين، عن رسـول الله ﷺ، فجـزاه الله خيـرًا، ثم لما غلبه الحـجّاج بن يوسف فى سنة ٧٣هـ وقتله وصلبـه، هدم الحائط الشمالى وأخرج الحجـر كما كان أولاً، وأدخل الحجارة التى هدمـها إلى جوف الكعبة فرضًا فـيها، فارتفع البابُ، وسدَّ الغربىَّ وتلك آثاره إلى الآن، وذلك بأمـر عبد الملك بن مروان له فى ذلك، ولم يكن بلغه الحـديث، فلمّا بلغه الحديث بعـد ذلك قال: وددنا أنّا تركناه، وما تولى من ذلك[5].

---

(١) شذرات الذهب (١/ ٣٠٩).
(٢) البداية والنهاية (١١/ ٦٩٢).
(٣) مساجد عائشة المقصود بها التنعيم.
(٤) البخارى رقم (١٥٨٣، ٤٤٨٤).
(٥) البداية والنهاية (١١/ ٦٩٣).

ثالثًا: أسباب سقوط خلافة ابن الزبير:

من خلال الدراسة تظهر للباحث أسباب عديدة فى أسباب سقوط خلافة ابن الزبير وانتصار الأمويين، ومن أهم هذه الأسباب:

١- اتخاذ ابن الزبير الحجاز مقرًا لخلافته: يجمع عدد من الباحثين[١] على أن بقاء ابن الزبير فى مكة كان من أهم أسباب إخفاقه، ولئن كان توجه ابن الزبير إلى مكة فى بداية الأمر له مبرراته[٢]، فإن إصراره على البقاء فيها واتخاذها عاصمة لخلافته لم يكن فى مصلحته، وذلك لأن مكة بصفة خاصة والحجاز بصفة عامة لم يعد مكانًا صالحًا ليكون مركزًا لدولة كبيرة مترامية الأطراف، فمكة بعد هجرة النبى ﷺ وأصحابه منها، فقدت دورها السياسى الذى قامت به المدينة إلى عهد عثمان ابن عفان، ولما نشبت الفتنة وانتقل على بن أبى طالب إلى الكوفة، واتخذها عاصمة له، ثم اتخذ معاوية بن أبى سفيان دمشق عاصمة له، بعد أن آلت إليه الخلافة ولم يعد للحجاز - خاصة المدينة ومكة - دوره السياسى السابق، ويمكن أن نجمل أثر بقاء ابن الزبير فى مكة على حركته فى النقاط التالية[٣]:

أ- الموقع: فمكة ـ كما هو معروف ـ من حيث الموقع بعيدة عن الشام والعراق، وهما الإقليمان اللذان شهدا أهم مراحل الصراع بين ابن الزبير وبنى أمية، فهذا البعد لم يتح لابن الزبير الاطلاع ومتابعة ما يحدث من صراع بين الموالين وخصومه، لاسيما مع ضعف إمكانات الاتصال، وبالتالى فإن ذلك لا يتيح لابن الزبير اتخاذ القرارات المناسبة، إزاء ما يجرى على الساحة، بعكس خصومه الأمويين الذين كانوا يعيشون الأحداث مباشرة، ومن جانب آخر فإن مكة تقع فى واد محصور بين عدة جبال شاهقة، وهى أشبه ما تكون بالمصيدة لمن يعتصم بها، حينما تحاصرها الجيوش من كل الجوانب، ويقطعون عنها الإمدادات، وكادت حركة ابن الزبير تخمد منذ وقت مبكر حينما حاصر الحصين بن نمير ابن الزبير داخل مكة سنة ٦٤هـ لولا أن الله أنقذه بوفاة يزيد بن معاوية وانسحاب جيش الحصين إلى الشام.

---

(١) مثل، الناطور، والقبلان والخراشى وغيرهم. (٢) عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١٩٣).
(٣) المصدر نفسه، ص (١٩٣).

ب- الناحية الاقتصادية: تعتمد مكة ـ بشكل خاص ـ والحجاز بشكل عام في مواردهما الاقتصادية على ما يأتيهما من خارجهما وخاصة من الشام ومصر، وانقطاع هذه الموارد يتسبب في إحداث مجاعة ترهق المقيمين فيهما، وقد أفاد بنو أمية من هذا العامل إفادة كبيرة في صراعهم مع ابن الزبير، فبعد سقوط مصر والشام في أيدي الأمويين، انقطعت الإمدادات التي تصل إلى المدينة[1]، وبطبيعة الحال فإن مكة فسينالها ما نال المدينة كما لجأ الأمويون إلى هذا السلاح أيام الحصار الأول والثاني[2].

جـ- الموارد البشرية: تبع قيام حركة الفتوح الإسلامية هجرة العديد من القبائل إلى الأقاليم المفتوحة، وتركزت معظم هذه القبائل في العراق، والشام ومصر[3]، وقد ترتب على ذلك اختلال معادلة التوزيع السكاني لترجيح كفة هذين الإقليمين على الحجاز، الذي عاني من نقص الكوادر البشرية، وهذا النقص في الواقع لم يتح لابن الزبير تكوين جيش قوي يكون مستعداً في أية لحظة لمهاجمة الخصم، أو على أقل تقدير لصد هجومه، ولذلك نجد أن ابن الزبير إزاء هذا الوضع يلجأ دائمًا إلى طلب الإمدادات من العراق، وهو بذلك يربط تحركاته بما يكون عليه الوضع في هذا الإقليم من حيث استقراره، واستعداد واليه لإرسال المدد، وهذا مما يفوت على ابن الزبير الكثير من الفرص[4].

٢- سياسة ابن الزبير الإدارية والمالية: لئن وفق ابن الزبير في تعيين بعض ولاته فإن هذا التوفيق لم يكن حليفه في جميع الأحوال، ويبدو أن بقاء ابن الزبير في الحجاز وعدم خروجه إلى الأقاليم الإسلامية لم يتح التعرف على أهل هذه الأقاليم، وطبائعهم واتجاهاتهم، وتكوين تصور عام عنهم يعينه على اختيار الولاة المناسبين، ولعل أبرز مثال على اضطراب سياسة ابن الزبير في هذا المجال هو العراق ـ بمصريه الكوفة والبصرة ـ، ذلك الإقليم الذي كان يعج بالتيارات المختلفة -العقدية والقبلية ـ والذي يحتاج إلى نوعية خاصة من الولاة تحسن التعامل مع أهله، فلو نظرنا إلى ولاة ابن الزبير على إقليمي العراق وسيرتهم، لوجدنا ما يدلل

---

(١) فتوح البلدان، ص (٢١٨) للبلاذري، عبد الله بن الزبير للخراشي، ص (١٩٤).

(٢) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص (١٩٤).

(٣) هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة للعلي، ص (٢٣، ٥٧).

(٤) عبد الله بن الزبير للخراشي، ص (١٩٥).

على ذلك، ومن ولاته على الكوفة عبـد الله بن مطيع العدوى الذى لم يستطع أن يواجه المختار بـن أبى عبيد الثقفى، وهرب من أمـامه وخلى بينه وبين الكوفة[1]، وبشكل عام لم يستطـع ولاة ابن الزبير ضبط هذا الإقليم الحيوى، والاسـتفادة من طاقات أهله فى حرب الأمـويين، فقد كان فيـه الرجال والأموال، بل على العكس من ذلك فقـد كان هذا الإقليم سببًـا مباشـرًا فى سقوط خلافـة ابن الزبير، وذلك حينما تواطأ أهله مع الأمويين ضد مصعب بن الزبير.

أما فيـما يتعلق بصلة ابن الزبيـر بولاته، فيلاحظ أن ابن الزبيـر كان يخلى بين واليه والإقليم الذى حـكمه ويكل إليه إدارته والقـيام بشئـونه حتى فى القتـال ضد الخصوم، ولم يكن ابن الزبير يتدخل فى ذلك، فالصلة بين ابن الزبير وبعض ولاته تكاد تكون مـقطوعة، مما ترتب عليـه سقـوط بعض الأقاليم فى يد الأمـويين، فى الوقت الذى كان ابن الـزبير يقيم فى مكة، ولعل مـا حدث لقـرقيسـياء يدل على ذلك، فقـد كان زفر بن الحارث الكلابى واليًـا على هذا الإقليم، وكان يقاتل عـبد الملك بن مروان عدة سـنوات، وأعاق تقدمه إلى العراق، ولما طـال عليه الأمد ولم يقدم له ابن الزبير أى عون، اضطر فى النهاية إلى التسليم لعبد الملك بن مروان بعد أن أقنعه ابنه الهذيل بن زفر بأن عبد الملك بن مروان خيرًا له من ابن الزبير[2].

وأما عن سيـاسة ابن الزبير الاقـتصادية فبالإضـافة إلى قلة موارده الاقـتصادية، يلاحظ أنه كان مـتأثرًا فى نظرته لما بين يديه من المال بـأسلافه من الخلفـاء الراشدين وخـاصـة عمـر بن الخطاب رضى اللـه عنه، وأراد أن يسلك مـسلكهم فى طريقـة الإنفاق، فأصبح ينظر إلى هذا المال على أنه مال الله، وهو حق المسلمين، ولا يجوز أن يصرف إلا فى أوجهه الشرعية، وتشدد فى ذلك، وهذه السياسة لم ترق للكثيرين فى ذلك العصر لأن الناس ـ كمـا يقول د. العش ـ لم يكونوا قادرين على فهم هذه السياسة وقبولها[3]، فلم يسخر ابن الزبير هذا المال فى توطيد حكمه، وتقوية صفه، وكسب الأنصـار، من الأعيان والمؤيدين، واستـمالتهم لمشـروعه الشورى، وبطبيـعة الحال لقد خسر ابن الزبير الكثير من المناصرين، خصوصًا إذا عرفنا أن الأمويين كانوا يغدقون الأموال على الشعراء والأعيان والزعماء لكسبهم.

(١) الطبقات (٥/١٤٨).

(٢) أنساب الأشراف (٥/٣٠٥).

(٣) الدولة الأموية، ص (٢٠٧).

٣ ـ عدم استيعابه لزعماء العراق: كثير من زعماء القبائل يمكن للحكام أن يستوعبوهم بالأموال والعطايا، فسلاح المال خطير يجذب القلوب ويؤثر فى النفوس، فقد روى أن أخاه مصعبًا ذهب إليه بعد مقتل المختار بزعماء أهل العراق وقال له: يا أمير المؤمنين، قد جئتك بزعماء أهل العراق وأشرافهم، كل مطاع فى قومه، وهم الذين سارعوا إلى بيعتك، وقاموا بإحياء دعوتك، ونابذوا أهل معصيتك، وسعوا فى قطع عدوك، فأعطهم من هذا المال، فقال له: . . . جئتنى بعبيد أهل العراق وتأمرنى أن أعطيهم مال الله، لا أفعل، وايم الله لوددت أن أصرفهم كما تصرف الدنانير بالدراهم، عشرة من هؤلاء برجل من أهل الشام[١]، وجاء فى رواية: فقال له أبو حاضر الأسيدى ـ وكان قاضى الجماعة بالبصرة ـ: إن لنا ولكم مثلاً مضى يا أمير المؤمنين، وهو ما قال الأعشى:

عُلِّقتُها عرضًا وعُلِّقَت رجلاً غيرى وعُلِّقَ أُخرى غيرها الرَّجل

عُلِّقناك يا أمير المؤمنين وعُلِّقت أهل الشام، وعُلِّق أهل الشام إلى مروان، فما عسانا أن نصنع؟ قال الشعبى: فما سمعت جوابًا أحسن منه[٢]، ثم بعد ذلك خلعوا ابن الزبير، وكتبوا إلى عبد الملك بن مروان: أن أقبل إلينا[٣].

٤ - عدم بيعة زعماء بنى هاشم له ومعارضتهم لدولته: فقد امتنع عن بيعته عبد الله بن عباس، ومحمد بن على بن أبى طالب ـ ابن الحنفية ـ وغيرهما. ولم يعاملهم بالرفق واللين، بل اشتد عليهم فى بعض الأحيان[٤].

٥ - إسراف أخيه مصعب فى الدماء بعد القضاء على المختار: فقد جاء مصعب إلى ابن عمر فسلم عليه فقال: من أنت؟ قال: أنا ابن أخيك مصعب بن الزبير. قال: صاحب العراق؟ قال: نعم. وقال لابن عمر: أسألك عن قوم خالفوا وخلعوا الطاعة وقاتلوا حتى إذا غلبوا دخلوا قصرًا وتحصنوا فيه، وسألوا الأمان على دمائهم فأعطوا، ثم قتلوا بعد ذلك، وقال: . . يا مصعب لو أن امرأ أتى ماشية الزبير فذبح منها خمسة آلاف شاة فى غداة أكنت تعده مسرفًا؟ فسكت مصعب.

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٥٠٦).
(٢) البداية والنهاية (١١/١٤٦، ١٤٧).
(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٥٠٦).
(٤) المصدر نفسه ص، (٥٠٥)، مروج الذهب (٣/٨٥، ٨٦).

فقال: أجبنى، قـال: نعم، إنى لأعد رجلاً يذبح خمسة آلاف شـاة فى يوم مسرفًا. قال: أفتـراه إسرافًا فى البهـائم؟! لا تعبد الله وما تدرى ما اللـه، وقتلت من وحد الله؟ أما كان فيهم مستكره يراجع به التوبة، أو جاهل ترجى رجعته؟[1]. فهذا القتل الكثير فى أهل العراق أوغـر عليه صدور عشائرهم، وليس ببعيـد أن يكون موقفهم منه فى معركة دير الجاثليق له علاقة بهـذه الأحداث، فالذى قتل مصعبًا هو زياد بن ظبيـان، فلما ذهب إلى عبد الملك أمـر له بألف دينار، فرفض ابن ظبيـان أن يأخذ شيئًـا وقال لعبد الملك: لم أقـتله على طاعتك فإنما قتلتـه عل قتل أخى النابىء[2]، وقيل: اشترك فى قتله زائدة بن قدامة الثقفى وقال حين قتله: يا لثارات المختار[3].

٦- تهاون ابن الزبيـر فى أمر الأمويين: كان الأولى أن يعـمل ابن الزبير على منع الأمويـين من الخروج من المدينة إلى الشـام وبخاصـة مروان بن الحكم وابنه عـبد الملك، ولو فعل ابن الزبير ذلك لما وجد الأمويون من يلم شـعثهم، ويعيد السلطة ثانيـة، فلم يفكر مـروان بن عبـد الملك فى الخـلافة إلا بعـد أن خـرج من المدينة ووصل الشام، ولم يبـذل الجهد المطلوب فى دعم مناصـريه فى الشام، كخـروجه على جيش كبير لضبط الأمور بها، والقضاء على فتنة الأمويين عند ظهورها.

٧- إهماله الدعاية والإعلان: وأقصد بذلك عدم اهتمامه بالشعراء وإغداق الهدايا عليهم، صحيح أن دعوة عبد الله بن الزبير أيدها مجـموعة من الشعراء كعبيد الله ابن قيس الرقيات[4]، الذى قال:

أنت ابـن مـعـتـلج البـطاح ... كُـديِّـهـا فـكَدَائِـهـا

فـالبـيـت ذى الأركـان ... فـالمستن من بـطحـائـهـا

إلى أن قال:

ولـدت أغرَّ مـبـاركًـا ... كـالبـدر وسـط سـمـائهـا

فـى ليلـة لا نحـس فـيـه ... سـحـريهـا وعـشـائهـا

إن البـلاد سـوى بلادك ... ضـاق عـرض فـضـائهـا

(١) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/ ٨٥). (٢)، (٣) الكامل فى التاريخ (٣/ ٥٤).

(٤) ديوان عبيد الله بن قيس، تحقيق محمد يوسف، ص (١١٧).

فـــاجـــمـع بنى إلـى بنـيك فـــأنـت خـــيـــر رعـائـهـــا
نشــــهــدك مـنـا مـــشـهـــداً ضـنكًـا عـلـى أعـــدائهــــــا
نحـن الفـــوارس من قـــريش يــوم جــد لقـــــائهـــــا[1]

إلا أن المعركة الإعلامية انتصر فيهـا الأمويون انتصاراً كبير على ابن الزبير، فقد كانوا يعطون الشـعراء ويشتـرون الناس بالأموال، فهذا أعـشى ربيعة من الشـعراء الأمويين يقول:

آل الزبيـــر من الخـلافـة كـــالتى عـجل النتاج بـحملهـا فـأحالهـا
أو كالضعاف من الحـمولة حُملت مـالا تطيق فـضـيعـت أحمـالهـا
قـومـــوا إليـهم لا تنامـــوا عنهم كم للـغـواة أطـلتم إمـــهـــالهـــا
إن الخـــلافـة فــيكم لا فـيـــهم مـــا زلتم أركـــانهـا وثـمـالهـــا
أمســوا على المعروف قـفلا مـغلقًا فانهض بيـمنك فافـتح أقفـالها[2]

وسيأتى الحديث عن اهتـمام عبد الملك بالشعر والشعراء فى الصـفحات القادمة بإذن الله تعالى.

٨ ـ استـخدام الشدة والقوة مع أخيه عمـرو بن الزبير: إن الطريقة التى اتبـعها ابن الزبير فى القضاء على أخيه عمرو بن الزبير، بعد ما وقع فى الأسر، جعلت الناس ينظرون إليه على أنه رجل تنقصه العاطفة والشـفقة، وكان لذلك مرده السيئ على تعاطف الناس مع قضيته، فـعمرو بن الزبير كان يضرب الناس فى المدينة بناء على تهم موجـهة إليهم بشأن تعـاطفهم وتعاملهم مع ابـن الزبير، وكان معـينًا من قبل الدولة، وكانت قـراراته يتخـذها بطبيعـة عمله، وإن كان فـيها شـىء من التجنى والخطأ والظلم، وبالتأكـيد كان الكثيـر من الناس يتمنون أن يقوم ابن الزبيـر نفسه بحبـسه، أو أن يطلب من كل الذين يدّعون عـلى عمرو بن الزبيـر بأنه ظلمهم أن يسامحوه ويصفـحوا عنه، ويغفروا له خطأه[3]، لقـد اعتبـر البعـض أن ابن الزبير

(١) موقف الشعر من الحركة الزبيرية، ص (٢٦). (٢) المصدر نفسه، ص (٨٧).
(٣) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (٥٣٥).

ما هو إلا طالب سلطة ودولة وإلا لما تعامل مع أخيه بتلك القسوة[1]، واستغل تلك الحادثة الشعراء الخصوم، فقد قال الضحاك بن فيروز الديلمى ساخرًا من ادّعاء عبد الله بن الزبير الزهد والصلاح:

تخبرنا أن سوف تكفيك قبضة وبطنك شبرٌ أو أقلُّ من الشبر

وأنت إذا ما نلت شيئًا قضمته كما قضمت نار الغضا حطب السدر

فلو كنت تجزى أو تبيت بنعمة قريبًا لردتك العطوف على عمرو[2]

وقال عبد الله بن الزبير الأسدى مؤلّبًا على ابن الزبير داعيًا عليه:

تحدث من لاقيت أنك عائذ وصرّعت قتلى بين زمزم والركن

قتلتم أخاكم بالسياط سفاهة فيالك للرأى المُشَلَّلِ والأفْن[3]

إلى أن قال:

قطعت من الأرحام ما كان واشجًا على الشَّيب وابتعت المخافة بالأمن[4]

٩ ـ تفوق خصوم ابن الزبير: ليس بمستغرب أن يتفوق بنو أمية على ابن الزبير، الذى لم تتح له الفرصة لأن يتولى إقليمًا من الأقاليم ليكتسب الخبرة، فى حين أن بنى أمية تهيأت لهم العديد من الفرص خاصة بعد أن آلت الخلافة إليهم فى عهد معاوية بن أبى سفيان، وفى الجانب العسكرى، نلمس تفوق بنى أمية على ابن الزبير من حيث التكتيك الحربى، وقيادة الجيوش، ولعل من أبرز ما يلاحظ فى ذلك أن مروان بن الحكم قد خرج بنفسه على جيش كبير لضم مصر ثم باشر ابنه عبد الملك حرب العراق بنفسه، وهذا أتاح لهما التعرف على ما يدور فى ساحة القتال عن كثب، كما أنه يعطى المقاتلين دفعة معنوية كبيرة، وفى المقابل نجد ابن الزبير يعتمد على قواده، أو ولاة الأقاليم فى حروبه، ولم يغادر مكة قط. وقد انتقد عبد الملك بن مروان هذه السياسة فقال: إن عبد الله بن الزبير لو كان خليفة

(١) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (٥٣٥).

(٢) الحزب الزبيرى فى أدب العصر الأموى، ثريا ملحس، ص (٢٢٥).

(٣) المصدر نفسه، ص (٢٢٨)، الأفن: ضعف الرأى.

(٤) المصدر نفسه، ص (٢٢٨).

كمـا يزعم لأبدى صفحـته، وآسى أنصاره بنفـسه، ولم يغرز ذنبـه فى الحرم[1]، ويلاحظ أيضًـا أن بنى أميـة منذ صراعـهم مع ابن الزبير كـانوا دائمًا فى مـوضع المهاجم بعكس ابن الزبير الذى ظل فى موقف الدفاع[2].

١٠- الظروف التى نشـأت فيـها حـركة ابن الزبيـر: إن من الإنصـاف أن نذكر أن الظروف السيئة التى وجدت فيها حركة ابن الزبير أسهمت إلى حد كبير فى سقوط خلافـته، وتمثلت هذه الظروف بظهـور التيارات والاتجـاهات المذهبية، والقـبلية، وانعدام الاسـتقرار السيـاسى الذى هو من أهم الشروط لقيـام حكم مستقـر، لقد أشغل الخوارج ابـن الزبير كثيرًا، كـما أن حركة المخـتار أخذت من جهـده ووقته ورجاله، فـهذه الحركـات ذات المنطلقات العـقائدية أشغلت ابـن الزبير كثـيرًا عن التفكير فى تنظيم دولته، كما استنزفت الكثير من طاقاته المادية والبشرية[3].

رابعًا: رثاء عبد الله بن الزبير:

رُثى ابن الزبير بقـصائد كثـيرة مبكيـة حزينة حفظهـا لنا التاريخ، ولم تهـملها الليالى، ولم تفصلها عنّا حواجـز الزّمن، ولا أسوار القرون، ومما قيل فى رثائه ما قاله عبد الله بن أبى مسروح:

لقـد أدركت كتـائب أهل حـمص	لعـبـد الله طرفًـا غيـر وعـل
شـجـاع الحرب إذ شـدّت وقـودًا	وللحـادين خـيرُ مـحلّ رحـل
ومـن ذا يـكـره الأبطـال مـنـه	إذا اعـتنشـوا طريقًـا غيـر سـهل
فـمـال الشـامـتين بـنـا أصيـبـوا	وقلُّـوا مـن سـراتـهم لمثـلِ[4]

وقال قيس بن الهيثم السلمى:

فـقـدنا مـصـعـبًـا وأخـاه لما	نَفَـتْ سـمـاؤهمـا المحُولا
وكنـا لا يـرام لنـا حـريـم	تُسـحّـبُ فى مـجـالسـنا الذيولا
إذا أمن الجـنـاب وإن فـزعـنا	ركـبنا الخـيل واجـتنبنا الـشّليـلا

(١) الطبقات (٥/ ٢٣٢).
(٢) عبد الله بن الزبير للخراشى، ص (١٩٩).
(٣) المصدر نفسه، ص (١٩٩).
(٤) تاريخ ابن عساكر (٣٠/ ١٩٣).

ونرمى بالعـــدواة مـن رمـــانا	ونوطئـــهـم بهـا وطـأ ثقـيــلاً
فــيـا لهــفى ولهـف أبى وأمى	لقـد أصـبـحت بعــدهمـا ذليـلا
ويا لهــفًـا عـلى مـا فــات منى	ألا أصـبـحت فى القـتلى قتـيـلا
ولم أصـبح لأهل الـشـام نَصْـبًـا	يذكــرنى ابن مــروان الذُّحـــولا
فـــــلا رفـدًا يـعــدّ ولا غنـاء	ولا إذنًا ولا حــبــسًـا جـمــيـلا
ولـكـــن بـيــن ذلـك بـين بـيــن	لقـد ضلّ ابن مـروان الـسـبيـلا[1]

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٠/١٩٣، ١٩٤).



الفصل السابع
عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان دون الفتوحات

اجتمعت الأمة بعد مقتل عبد الله بن الزبير على عبد الملك بن مروان، وأصبح الخليفة الشرعى، وهـو أول خليفة ينتزع الخلافة بقوة السـيف والقتال، مما أثر على الفقه السياسى بـعد ذلك أكبر الأثر، فإذا كان معاوية قد أصـبح خليفة بعد الصلح مع الحسن بن على واجتماع الأمة عليه طواعـية، عام الجماعة، وإذا كان ابنه يزيد قد بويع من الأمصار فى حياة أبيه ثم بعـد وفاته، وإذا كان ابن الزبير قد بويع بعد وفاة يزيد وهو بمكة من عامة الأمصار عن رضا واختيار، فإن عبد الملك أول خليفة انتزع الخلافـة انتزاعًا وبايعه كثيـر من الناس، بعد أن قتل عبد الله بن الزبيـر ليبدأ عصر الخليفة المتغلب، وهو ما لم يكن للأمة به عهد من قبل، لقد أجمع الصحابة - رضى الله عليهم - على أن الإمامة إنما تكون بعقد البيعة بعد الشورى والرضا من الأمة، كـما أجازوا الاستـخلاف بشرط الشـورى ورضا الأمة بمن اختـاره الإمام، وعقد الأمة البيعة له بعد وفاة من اختاره دون إكراه، كما أجمعوا على أنه لا يسوغ فيها التوارث، ولا الأخذ لها بالقـوة والقهر، وأن ذلك من الظلم المحرم شرعًا[1]. قال ابن حزم: لا خلاف بين أحد من أهل الإسـلام أنه لا يجوز التوارث فيها[2]، غيـر أن الأمر الواقع بدأ يفرض نفـسه، وصار بعـض الفقهـاء - بحكم الضرورة - يتأولون النصـوص لإضفاء الشـرعية على توريثهـا وأخذها بالقوة، لتـصبح هاتان الصـورتان بعـد مرور الزمن همـا الأصل الذى يمـارس على أرض الواقع، ومـا عداهما نظريات لا حظ لها من التطبيق العملى[3]، إلا فى حالات نادرة.

وأصبحت سنة هرقل وقيصر بديلاً عن سنة أبى بكر وعمر![4].

وقد أجـاز كثـير مـن الفقـهاء طريق الاسـتيـلاء بالقوة من باب الضـرورة مع إجماعهم على حرمتها مراعـاة لمصالح الأمة وحفاظًا على وحدتها، وأصبح الواقع يفرض مفـاهيمه على الفقه والفقـهاء، وصارت الضرورة والمصلحة العامـة تقتضى

---

(١) الحرية أو الطوفان، ص (١١٩).
(٢) الفصل بين الملل والنحل (٤/ ١٦٧).
(٣) الحرية أو الطوفان، ص (١١٩).
(٤) المصدر نفسه، ص (١١٩).

تسويغ مثل هذه الطرق. إن الاستبداد والاستيلاء على حق الأمة بالقوة، وإن كان يحقق مصلحة آنية، إلا أنه يفضى إلى ضعف الأمة مستقبلاً، وتدمير قوتها وتمزيق وحدتها، كما هو شأن الاستبداد فى جميع الأعصار والأمصار وأن ما يُخشى من افتراق المسلمين بالشورى خير من وحدتهم بالاستبداد على المدى البعيد[1]، وإن الاستمرارية فى ممارسة الشورى مع ما يعتريها من عوائق ومصاعب تثرى الأمة فى الفقه السياسى، وتقطع بها مسافات كبيرة فى هذا المجال، ولهذا تعثر الفقه السياسى فى مسيرته التاريخية ولم ينطلق الانطلاقة المطلوبة منه بسبب النظام الوراثى والاستبدادى.

إن عبد الملك بن مروان شق طريقه نحو الملك بسفك الدماء، وقتل الأبرياء، والخروج على الخليفة الشرعى عبد الله بن الزبير، فلم يراع حرمته كصحابى جليل، ولم يلتمس عذرًا لابن عمه عمرو بن الأشدق، ويحرص على الوفاء لعهده، ولم يحترم الزمالة والصداقة مع مصعب بن الزبير، ولا ننكر بأن عبد الملك بن مروان كان من عقلاء الرجال ودهاتهم، ومن أكثرهم حزمًا وشجاعة وإقدامًا[2]، وقد أثبت عبد الملك كفاءة عالية فى إدارة الدولة وسياستها، وكان غير هياب يمضى إلى هدفه بعزيمة ثابتة، ولا يعرف اليأس إلى نفسه سبيلاً، ولا يتردد عن قيادة المعارك بنفسه، ولقد استطاع بعد جهود جبارة أن يعيد الوحدة ويجمع شمل الأمة الإسلامية، وأن يصفى خصومه الواحد بعد الآخر، بالصبر والجلد والمثابرة، وعمل على توطيد دعائم دولته ونجح فى ذلك نجاحًا فائقًا، ولم تكن تأخذه هوادة أو رحمة بكل من يحاول أن يعكر صفو الدولة أو يخرج عليها وقد استحق عبد الملك عن جدارة لقب المؤسس الثانى للدولة الأموية، بعد معاوية مؤسسها الأول[3]، وقد عمل على توطين الأمن فى البلاد وتفرغ للخوارج وقمع الثورات، ومن أشهر الحركات التى خرجت فى عهده، حركة الأزارقة والصفرية وابن الأشعث، واستطاع أن ينتصر عليها جميعًا، إن عبد الملك بن مروان أصبح أمير المؤمنين بعد مقتل ابن الزبير وبيعة المسلمين له، ومذهب عامة أهل السنة

---

(١) الحرية أو الطوفان، ص (١٢٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٢٤٩).

(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى.

والجماعـة، أن الإمامة يصح أن تنعـقد لمن غلب الناس، وقعد بالقـوة فى موضع الحكم[1]، إلا أنه يجب أن يفـهم أن هذه حـال ضـرورة، والضـرورات تبـيح المحظورات، فهذه حال إلجاء واضطرار كأكل الميتة ولحم الخنزير، وقبولها لأنها خير من الفوضى الـتى تعم الناس. وعلى هذا فإنه يجب ألا توطن الأمـة نفسـها على دوام هذا الوضع، بل يجب عليها أن تعمل على تغيير الإمامة الناقصة بإمامة كاملة مستـوفاة الشروط المطلوبة فى الإمـام الحق؛ بالوسائل التى لا يكون فيهـا فتنة بين الناس، ويجب السعى دائمًا لأن يكون الإمام آتـيًا عن الطريق الصحيح وهو طريق أهل الحل والعقد، ومع إن إمامة المتغلب تنعقد نظرًا إلى حال الضرورة، كما قلنا، إلا أن الغالبية العظمى من علماء المسلمين لم يجيزوا أن يكون القهر طريقًا لانعقاد إمامة الكافر للمسلمين[2]، وإذا كانت حال القهر يمكن أن يتسامح فيها فى بعض شروط الإمـامة كالعـلم أو العدالة أو البلوغ، إلا أن شرط الإسـلام لا يمكن أبدًا إسقاطه عن الإمام، وعلى هذا، فلو تغلب كافر على هذا المنصب فلا يجوز شرعًا ـ كمـا يرى ذلك الجمـهور ـ السكوت على هذا الوضع ويجب خلع هذا المـتغلب بقوة السلاح[3]، لأن الله سبحـانه يقول: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١].

---

(١) الأحكام السلطانية لأبى يعلى، ص (٧، ٨)، رياسة الدولة، ص (٣٠٤) .

(٢) حاشية نور الدين الشبراملسى على شرح الرملى (٧/ ٣٩٢).

(٣) رياسة الدولة فى الفقه الإسلامى، ص (٣٠٥).

المبحث الأول

القضاء على حركة الخوارج

ظل الخوارج فرقة واحـدة يتبنون أفكارًا ومبادئ واحدة بصفة عـامة إلى ما بعد وفاة يزيد، ثم بدأوا ينشقون على أنفـسهم وكلما اخـتلف أحدهم مع رفـاقه فى الرأى، انشق عنهم مكونًا له فـرقة خاصة، حـتى وصل عدد فرقهم إلى أكـثر من ثلاثين فرقة[1]، ومن أشهر فرق الخوارج التى قاتلها عبد الملك: الأزارقة والصفرية.

أولاً: الأزارقة:

هم أتباع نافع بن الأزرق، الذين يعـدون أشد فرق الخـوارج تطرفًا فى الأفكار والمبادئ وجنوحًا إلـى العنف، وكان زعيم هذه الفرقـة هو أول من أحدث الخلاف بين الخوارج لتطرفه، فقد برئ من القاعدين، الذين لا يخـرجون معه للقتال، كما قال بكفر من لم يهاجر إليه[2]. فضلاً عن إباحته أموال ودماء مـخالفيه، وتكفيره لمرتكب الكبيرة وحكمه بخلوده فى النار[3]، ومن أهم ما تميزت به هذه الفرقة:

- الانفصال الكامل عن المجتمع المسلم، حيث زعم نافع وأتـباعه أن دار مخالفيهم دار كفر.
- إيمانهم بمبدأ الاستعراض، فكانوا يتعـرضون للناس بالقتل والنهب، فقد أباحوا لأنفسهم قتل الرجال والنساء والصبيان «من المسلمين».
- أنهم كفروا القعدة، ونافع أول من أظهر البراءة من القعدة عن القتال، وإن كانوا موافقين له على دينه، وكفر من لم يهـاجر إليه. فهذه من أهم البدع التى فارق بها الأزارقة بقية الخوارج[4].

وقد فارق الأزارقة بقيادة نافع بن الأزرق عبد الله بن الزبير عند ما تبين لهم أنه لم يكن على رأيهم فـيما يذهبون إليـه، وقد انبث أفراد هذه الفـرقة الخارجـية فى

---

(١) مقالات الإسلاميين للأشعرى (١/١٥٧)، رياسة الدولة فى الفقه الإسلامى، ص (٣٠٥).

(٢) مقالات الإسلاميين (١/١٥٧). (٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٤٥٦).

(٤) الخوارج.. دراسة ونقد لمذهبهم، ناصر السعوى، ص (٧٦).

مناطق البصـرة والأهواز وما وراءها من بلاد فـارس وكرمان فى أيام عـبد الله بن الزبيـر وصاروا يحاربون المـسلمين جـهاراً[١]، وجاءت توليـة المهلب على حرب الأزارقـة بناء على اختـيار أهل البـصرة لـه، واقتـران ذلك بموافقـة عبـد الله بن الزبير[٢]، إلا أن المهلب لم يخرج لـقتالهم إلا بعـد أن اشترط على أهل البـصرة جملة شروط أجابوه إليها، فخوّل الحق باختيار من يشاء من المقاتلة، وأن تكون له إمرة وخراج كل بلد يقع فى حوزته[٣]، وانتخب المهلب اثنى عشر ألف رجل من أخماس البصرة، ولم يكن ببيت المال سوى مائتى ألف درهم، عجزت عن عطاء الجند وعن تجهيزاتهم، فبعث المهلـب إلى التجار وقال لهم: إن تجارتكم منذ حول قد كُسِـرت بانقطاع موارد الأهواز وفارس عنكم، فـهلمّ فبايعونى واخـرجوا معى أوفيكم إن شاء الله حـقوقكم، فأخذ منهم من المال ما يـصلح به عسكره، واتخذ لأصحابه مـا يلزم من التجهيزات، فلمـا انتصر المهلب على الخوارج، قـام بجباية الخراج من الكور حتى قضى للتجار ما أخذ منهم[٤].

استمر المهلب يقاوم الخوارج ما يقرب من عامين، ثم استدعاه مصعب بن الزبير الذى أصبح والى البصـرة من قبل أخيه عبـد الله، ليشترك معه فى حـرب المختار الثقـفى سنة ٦٧هـ، وبعد هزيمـة المختار عـين مصعب المهلب والـيًا على الموصل والجزيرة وأذربيجـان وأرمينية[٥]، ولكن أحدًا لم يستطع أن يقـوم مقام المهلب فى مقـاومة الخوارج، مما اضطر مـصعبًا أن يسـتدعيـه من الموصل ليتولى قـتالهم من جديد[٦]، وبينما المهلب يقاوم الخوارج فـى الأهواز تمكن عبد الملك بن مروان من سيطرة الدولة الأمـوية على العراق، بعد مـقتل مصـعب بن الزبير سنة ٧٢هـ[٧]، وولى أخاه بشر بن مـروان على العراق، وأمره بإبقاء المهـلب على حرب الخوارج ومساعدتـه، فعمل بشر بما أمره به أخوه، وبرهن المهلب على إخـلاصه فى حرب

---

(١) آل المهلب بن أبى صفرة ودورهم فى التاريخ، ص (٣٧).

(٢) تاريخ الطبرى، نقلاً عن آل المهلب بن أبى صفرة، ص (٣٧) .

(٣) الكامل فى التاريخ، نقلاً عن آل المهلب بن أبى صفرة، ص (٣٧) .

(٤) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٨٣) .

(٥) تاريخ الطبرى نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٤٦٢).

(٦) المصدر نفسه، ص (٤٦٢) . (٧) المصدر نفسه، ص (٤٦٢) .

الخوارج الأزارقة مهما كانت السلطة التى تصدر إليه الأوامر[1]، فكما قاتلهم تحت لواء آل الزبير استمر يقاتلهم تحت لواء عبد الملك، ولما أسندت ولاية العراق إلى الحجّاج بن يوسف الثقفى سنة ٧٥هـ جدّ فى مساعدة المهلب وحشد له العراقيين وشد أزره، فاشتد فى مقاومتهم حتى تمكن من القضاء على خطرهم، وقد أتاح له الخوارج أنفسهم فرصة كسر شوكتهم عندما انقسموا على أنفسهم قسمين، قسم تزعمه رجل اسمه عبد ربه فقد قضى عليه المهلب نهائيًا[2]، وأما قطرى بن الفجاءة زعيم القسم الثانى ومجموعته فقد رحلوا إلى طبرستان، ولكن المهلب تمكن من القضاء عليهم سنة ٧٧هـ بمساعدة جيش أرسله إليه الحجّاج بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبى[3]، وهكذا قضى المهلب على خطر من أكبر الأخطار التى هددت الدولة الأموية فى عهد عبدالملك بن مروان، وهم الخوارج الأزارقة الذين كان مسرح عملياتهم العراق وبلاد فارس وكرمان والأهواز، واستمرت حركتهم ثلاثة عشر عامًا ٦٥ ـ ٧٨هـ[4].

١ ـ وصف المهلب بن أبى صفرة الأزدى وشىء من أقواله:

وصف المهلب بأنه كان نزر الكلام وجيزه، يفضل فعله على لسانه[5]، متلطفًا فى إجاباته[6]، كاتمًا للسر[7]، حليمًا فى موضع الحلم، شديدًا فى موضع الشدة، وإن كان الحلم أغلب عليه، فيروى أن رجلاً شتمه فلم يرد عليه، فقيل له: لم حلمت عنه؟ قال: لم أعرف مساويه وكرهت أن أبهته بما ليس فيه[8]، واتصف المهلب بصبره وأناته فى أعماله وحروبه، وكان يقول: أناة فى عواقبها فوت خير من عجلة فى عواقبها درك[9]، وعندما كان الحجّاج يستعجله بمناجزة الأزارقة الخوارج، أجابه بقوله: إن البلاء كل البلاء أن يكون الرأى لمن يملكه دون من يبصره[10]، ومما اشتهر به المهلب فى حروبه هو إعداده للبيات وإحكامه الأمور[11]، أى أنه كان

(١) العراق فى العصر الأموى، ص (٢٣٣، ٢٣٤). (٢) تاريخ الطبرى (٧/ ٨٣ - ٨٩) .
(٣) المصدر نفسه، نقلاً عن العالم الإسلامى، ص (٢٦٤). (٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص(٤٦٤).
(٥) الأخبار الطوال، ص (٢٨١) . (٦) المصون فى الأداب، ص (١٨٧).
(٧) المحاسن والأضداد، ص (١٤)، آل المهلب ص (٢٢).
(٨) الكامل فى اللغة والأدب (٢/ ٣١٤)، آل المهلب، ص (٢٢).
(٩) المحاسن والمساوئ (٢/ ٩١) . (١٠) العقد الفريد (١/ ٨٧) .
(١١) البيان والتبيين (١/ ٢٥٣).

يباغت أعداءه بشن الهجوم عليهم ليلاً فيحرز انتصارات مؤزرة، واشتهر المهلب بكرمه وسخائه، ومن أقواله لأبنائه في هذا الباب: ما رأيت أحدًا بين يدي قط إلا أحببت أن أرى ثيابي عليه، واعلموا يا بني أن ثيابكم على غيركم أحسن منها عليكم[١]، وكان يحرص على شراء ود الناس، وله قول مأثور في ذلك: عجبت لمن يشتري المماليك بماله، ولا يشتري الأحرار بمعروفه[٢]، وقيل له: بما ظفرت؟ قال: بطاعة الحزم، ومعصية الهوى[٣].

٢ ـ من أساليب المهلب في قتال الخوارج:

كانت سياسة المهلب تقوم على النفس الطويل في محاربة الخوارج، وكان ينتظر تفجيرهم من الداخل، حتى يهون عليه أمرهم ويسهل القضاء عليهم، فقد كتب إلى الحجّاج: إني انتظر منهم ثلاث خصال: موت صاحبهم قطري بن الفجاءة، أو فرقة وتشتيتًا، أو جوعًا قاتلاً[٤]، ولم تخطىء تقديرات المهلب للخوارج إذ سرعان ما دبّ الشقاق في صفوف الأزارقة، فما كان من المهلب إلا أن انتهز الفرصة فصعّد الخلاف في صفوفهم، فعمد إلى حيلة ناجحة، فقد عرف بين الخوارج رجلاً يصنع السهام المسمومة، فأرسل المهلب أحد أصحابه، بكتاب أمره أن يلقيه بين عساكر قطري سرًا كتب فيه: أما بعد، فإن نصالك وصلت وقد أنفذت إليك ألف درهم. فلما استوضح عن الصانع أنكر، فقام قطري بن الفجاءة بقتله، فخالفه بذلك عبد ربه الكبير ووقع خلاف جديد[٥]. وتعميقًا للخلاف في صفوف الخوارج جنّد المهلب رجلاً نصرانيًا وأمره أن يسجد لقطري بن الفجاءة، فلما شاهده الخوارج أنكروا ذلك عليه وقتلوا النصراني واتهموا زعيمهم بتأليه نفسه[٦]. وأخذ الخوارج يقتتلون فيما بينهم، بينما المهلب ينتظر النتائج النهائية، التي تسفر عنها هذه التصفيات، ليتفرغ لها مما جعله لا يمتثل لأمر الحجّاج عندما طالبه بمقاتلتهم، بل كتب له: إني لست أرى أن أقاتلهم ما دام يقتل بعضهم بعضًا، فإن تمّوا على ذلك، فهو الذي تريد وفيه هلاكهم، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رقق بعضهم بعضًا، فأناهضهم حينئذ، وهم أهون ما كانوا وأضعفهم شوكة إن

(١) قلائد العقيان في محاسن الأعيان ص (١٩٨) .
(٢) آل المهلب بن أبي صفرة، ص (٢٤).
(٣) سرح العيون لابن نباته، ص (١١٣).
(٤) الفتوح (٧/١٤).
(٥) الكامل في الأدب (٣/١١٣٩، ١١٤٠) .
(٦) الكامل في التاريخ (٣/١٢٨) .

شاء الله تعالى[١]، فكف عنه الحجّاج، وتركهم المهلب يقتتلون شهراً لا يحركهم[٢]، ثم سار إليهم المهلب وتهيأت له الخوارج بقيادة عبد ربه الكبير، ثم تلا ذلك قتل شديد تمكن المهلب فى نهايته من طردهم من جيرفت، ثم لاحقهم حتى هزمهم هزيمة منكرة، وقتل زعيمهم عبد ربه، ولم ينج منهم إلا عدد قليل[٣]، ولعل نجاح المهلب يعود إلى أسلوبه الحربى، الذى يعتمد على المطاولة ويتجنب العجلة، بجانب قيادته الحكيمة وشجاعته وخبرته العسكرية ومكره فى الحروب[٤]. قال الشاعر:

قد يدرك المرء بالتدبير ما عجزت	عنه الكمأة ولم يحمل على بطل

ونتيجة انتصاراته ضد الخوارج، فقد رأى فيه الخليفة عبد الملك بأنه قادر على إيجاد التوازن بين الأطراف القبلية المتنازعة فولاّه على خراسان، فمكث فيها خمس سنوات إلى أن توفى عام ٨٢هـ[٥].

٣ـ قطرى بن الفجاءة التميمى:

خرج زمن مصعب بن الزبير، فبقى عشرين سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة[٦]ـ عند الخوارج الأزارقة ـ وهزم الجيوش، واستفحل بلاؤه، جهز إليه الحجّاج جيشًا بعد جيش فيكسرهم، وغلب على بلاد فارس، وله وقائع مشهودة، وشجاعة لم يسمع بمثلها وشعر فصيح سائر[٧]، فله:

أقول لها وقد طارت شعاعًا	من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم	على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبرًا فى مجال الموت صبرًا	فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب الحياة بثوب عزٍّ	فيطوى عن أخى الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حيٍّ	وداعية لأهل الأرض داعى
ومن لم يُعتبط يهرم ويسأم	وتُسلمه المنون إلى انقطاع

(١) الكامل فى التاريخ (٣/١٢٩).
(٢) الأخبار الطوال، ص (٢٧٦).
(٣) الكامل فى التاريخ (٣/١٢٩).
(٤) تجديد الدولة الأموية، ص (٩٥).
(٥) الكامل فى التاريخ (٣/١٥٢).
(٦) شذرات الذهب (١/٣٢٥).
(٧) سير أعلام النبلاء (٤/١٥٢).

ومـا لـلمـرء خـيـرٌ فى حـيـاة إذا مـا عُـدَّ من سـقط المتـاع[1]

وقد أرسل الحجّاج لحربه سفيان بـن الأبرد الكلبى، فانتصر عليه وقتله، وقيل: عثـر به الفرس، فانكسرت فـخذه بطبرسـتان، فظفروا به وحُـمل رأسه سنة تسع وسبعين إلى الحجّاج، وكان خطيبًا بليغًا كبير المحلِّ من أفراد زمانه[2].

ثانيًا: الخوارج الصفرية:

الخوارج الصفرية هم أحد فرق الخوارج الرئيسية، وفى تعيين نسبتهم أقوال عدة، فقيل: إنهم أتباع زياد بن الأصفر، وقيل: ابن عـبد الله بن صفار، وقيل: عبد الله ابن قـبيصة وأطلق علـيهم ذلك اللقب لأن العبادة أنهكتـهم فاصفـرت وجوههم، فنسبوا إلى تـلك الصفرة[3]، وأيًا كان ذلك الـسبب فقد بـدأت خطورة أمرهم من الصالحـية أو أتباع صـالح بن مسرح التـميمى، ذلك الرجل الذى كـان موطنه بين نصيـبين ومسـاروين، وهو مؤسس فـرقة الخوارج الصـالحية، وسـمت هذا الرجل الصمت والهـدوء، وعدم التعجل، لذا ظل يعلم الناس فى هدوء وسكيـنة عشرين سنة[4]، وكـان من أهم أتباعـه وأنصاره، ذلك الرجل المقـدام الذى دوّخ جيـوش الحجّـاج فى مواقع عـدة، وهو شبـيب بن يزيد الشيـبانى، والذى كـان يسكن فى الجانب الأيمن من الفرات فى صـحراء الكوفة، وبدأ أمر الخوارج يعلو، ولاسـيما بعد محاولة شبيب اغتيـال عبد الملك بن مروان فى موسم الحج، لولا وصول الخبر إلى عبد الملك فأخذ حذره وانقضى الموسم بـسلام، وبدأ الحجاج فى التضييق على صالح وأتبـاعه، فنزلوا جميـعًا وبعثوا إلـى إخوانهم واستعـدوا للخروج على دولة الخلافة. وكان الرجل من الخـوارج كأنه جيش بمفرده بعدته وعتـاده، وكان وقعات الخوارج مع جيوش الحـجّاج كثيرة العدد وقد بدأت هذه الـفرقة بالخروج على دولة الخلافـة وهم مائة وعـشرون[5]. وكانت بدايـة هذه الثورة من الموصل فى شـمال العراق وكانت ثورة خطيرة جدًا، فقد تمكن قائدها شبيب بن يزيد من هزيمة العديد من جيوش الحجّاج الجـرارة وهى فى عدد قليل، وتمكن من دخول الكوفة[6]، بعد

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٥٢).
(٢) المصدر نفسه (٤/ ١٥٢).
(٣) الخوارج، ناصر عبد الله، ص (٨١)، الحجاج بن يوسف، جمال محمود، ص (٨١).
(٤) تاريخ الطبرى (٧/ ١٠٤ ـ ١١٢).
(٥) تاريخ الطبرى (٧/ ١٠٨).
(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٤٦).

أن قتل خمسة قوّاد أرسلهم الحجّاج لحـربه واحداً بعد واحد، وكانت زوجته غزالة عديمة النظيـر فى الشجاعة[1]، وكانت نذرت أن تصلى فى جامع الكوفـة ركعتين تقرأ فيهما بالبقرة وآل عمران[2]، ووفت بنذرها[3]، وعيّر عمران بن حطان شاعر الخوارج الحجّاج فقال:

أسـد علىّ وفـى الحـروب نعـامـة ... فـتخـاء تنفُرُ من صـفيـر الصافـر

هلاّ كررت على غـزالة فى الوغى ... بل كـــان قلبك فى جنـاحى طائر

قـــرعت غـزالة قـلبـه بفـــوارس ... تركت منـاظره كـأمس الغـــابر[4]

وقد قتل شبيب عدداً من أشراف الكوفة، ولكنه لم يتمكن من البقاء فيها فخرج منها، ثم عاد إليـها ثانية وضرب عليها الحـصار بعد أن هزم جيشًا للحـجاج عدته ألوف، وقتل قائده عتاب بن ورقاء، وهو وستمائة رجل[5]، ولما يئس الحجّاج من أهل الكوفة لتقاعـسهم عن القتال، وهالته هزائمهم المتكررة وهم فى أعـداد كبيرة أمام شبـيب وهو فى أعداد قليلة، أرسل إلى عبد الملك بن مـروان يطلب مدداً من أهل الشام واضطر الحـجاج أن يقود الجيش بنفـسه، واستطاع هزيمة شـبيب لأول مرة، فلاذ بالأهواز، فأرسل الحجّاج خلفه جـيشًا التقى به هناك، ولم تكن النتيجة حاسمة لأى من الفريقـين، غير أن شبيب غرق بينما كان يعـبر أحد الأنهار، فلما سقط قال: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾ [الأنفال: ٤٢] وانغمس فى الماء، ثم ارتفع وقال: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦] وغرق[6]، وبهذا تخلص منه الحجّاج بعد أن كبد الدولة كثيراً من الأموال والأرواح[7]، ولولا الله ثم تدخل عـبد الملك لكان من المـكن أن تتغـير الأوضـاع السيـاسـية فى العـراق والمناطق الشرقـية، فـقد استطـاع أن يسوى المشكلة، ووضع لهـا الحل المناسب من تجهـيز الجيوش وإرسالهـا، وتولية القادة المحنكين ليواجهوا شـبيبًا[8]. ومن اللطائف التى تذكر: حضر عتبان الحرورى عند عبد الملك بن مروان فقال: أنت القائل:

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٤٥، ١٤٦). (٢) الكامل فى التاريخ (٣/ ١٢١).
(٣) شذرات الذهب (١/ ٣١٦). (٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٤٧) تاريخ ابن عساكر (٤٦/ ٣٣٨).
(٥) العراق فى العصر الأموى، للراوى، ص (٢٣٨).
(٦) الكامل فى التاريخ (٣/ ١٢٣). (٧) انظر: تاريخ الطبرى (٤ ١٠٠ - ١١٢).
(٨) تجديد الدولة الأموية فى عهد الخليفة عبد الملك، ص (١٠٦).

فإن يك منكم كان مروان وابنه ... وعمرو ومنكم هاشم وحبيب

فمنّا حُصينُ والبطينُ وقعنبٌ ... ومنا أميرُ المؤمنين شبيب

فقال: إنما قلت: ومنا أميرَ المؤمنين شبيبُ. على النداء فأعجبه وأطلقه[1]. وهذا الجواب فى نهاية الحسن، فإنه إذا كان «أمير» مرفوعًا كان مبتدأ فيكون شبيب أمير المؤمنين، وإذا كان منصوبًا فقد حذف منه حرف النداء ومعناه: يا أمير المؤمنين منا شبيب، فلا يكون شبيب أمير المؤمنين، بل يكون منهم[2].

١ ـ من شعراء الخوارج عمران بن حطان: هو عمران بن حطّان بن ظبيان، السدوسى البصرى، من أعيان العُلماء، لكنّه من رؤوس الخوارج، حدّث عن عائشة وأبى موسى الأشعرىّ وابن عباس، قال أبو داود: ليس فى أهل الأهواء أصحُّ حديثًا من الخوارج ثم ذكر عمران بن حطان، وأبا حسَّان الأعرج[3]، وقد تميزت حياته أول الأمر بأنه فقيه ومحدث على منهج أهل السنة ثم تزوج قريبة له ـ كانت على مذهب الخوارج ـ يريد أن يصرفها عن مذهبها، لكنها استمالته إلى مذهبها، كان ذلك وقد كبرت سنه وطال عمره، فضعف عن الحرب، وقنع بالدعاية إلى مذهبه بلسانه، ولم يستطع أن يشارك فى الحرب بسيفه ورضى القَعدة من الصفرية منه بهذا البيان، وطارده الحجّاج، ففر من العراق إلى الشام وجعل يتنقل من مدينة إلى مدينة فى استخفاء وتمويه وتغيير للأسماء، ونزل على روح بن زنباع الجذامى وأنس إلى كرمه وأخلاقه، وادّعى أنه أزدىّ، فاستضافه روح سنة كاملة كان فيها معجبًا بتقوى ضيفه الأزدى وعلمه وأدبه، وكان روح لا يسمع شعرًا نادرًا أو حديثًا غريبًا عند عبد الملك ثم يقصه على صاحبه، أو يسأله عنه، إلا وجده عليمًا به، وزائدًا عليه، وذات يومٍ حدّث روح عبد الملك بن مروان بمزايا ضيفه الأزدى فقال عبد الملك إنه عمران بن حطان فأحضره[4]، وكان عبد الملك بن مروان قد أهدر دمه لما بلغ شعره عبد الملك فى على رضى الله عنه، وأدركته حمية لقرابته من على رضى الله عنه ووضع عليه العيون. وشعر عمران فى على قوله:

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/١٠٦). (٢) المصدر نفسه (٤/٤٥٦).

(٣) المصدر نفسه (٤/٢١٤).

(٤) أدب السياسة فى العصر الأموى، ص (٥٢٦)، سير أعلام النبلاء (٤/٢١٦).

يا ضـــربة من تقىٍّ مـا أراد بـهـا إلا ليـبلغ من ذى العرش رضـوانا

إنِّى لأذكـــره حـينًا فـــأحـسـبـه أوفـى البـرية عنـد الله مـيـزانا

أكـرم بقوم بـطون الطير قـبـرهم لم يخلطوا دينهم بغيًـا وعدوانا[1]

وعندما عـلم عمران بطلـب عبد الملك له هـرب إلى الجزيرة، ثم لحق بعـمان فأكرموه[2] وقال شعرًا فى روح بن زنباع لما فارقه حيث قال:

يا روح كم من كريـم قد نزلت به قـد ظنّ ظنّك مـن لخم وغـسـان

حـتـى إذا خـفـتـه زايلــت منزله من بعد ما قيل: عمران بـن حطان

قد كنت ضيـفَكَ حولاً ما تُروّعُنى فـيه طـوارق مـن إنـس ولا جـان

حتى أردْتَ بـى العظمى فأوحشنى ما يوحش الناس من خوف ابن مروان

لو كنـت مـستغـفرًا يومـًا لطاغـية كنت المقـــدَّم فــى ســرٍّ وإعـلان

لكن أبـــت لـى آيـات مُـــفـــصَّلَةٌ عقد الولاية فى «طه» و«عمران»[3]

فهو فى ثنائه على ابن زنباع لم يبح لنفسه أن يستغفر له، لأنه ليس فى رأيه ممن يستـحقـون المغفـرة، فهو طاغـية وكـافر، على طريقـة أكثـر الخوارج فى تكفـير مخالفيهم[4]،وكان من فحـول الشعراء، وقد شهد له بذلك الفـرزدق، فقد وقف عمران بن حطان ذات يوم على الفرزدق وهو ينشد الناس فقال له:

أيهـــا الـســـــائل لـيُـــعطـــى إن للـه مـــــا بأيــدى العـبـــاد

فـــسل الـله مـــا طلبت إلـيـــهم وارجُ فـــضـل المـقـــسّم العـــواد

لا تقل لـلئـيـم مـا ليـس فـيـــه وتسـمّى البخـيل باسم الجـواد[5]

وجاء فى رواية أن الفرزدق قـال: الحمد لله الذى شغل عنا هذا ببـدعته، ولولا ذلك للقينا منه[6] عنتًا، ومن شعر عمران فى الزهد فى الدنيا والتزود للآخرة، فعن قتادة قال: لقينى عمران بن حطان، فقال: يا أعمى، احفظ عنى هذه الأبيات:

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢١٥).
(٢) المصدر نفسه (٤/ ٢١٦).
(٣) المصدر نفسه (٤/ ٢١٥).
(٤) أدب السياسة فى العصر الأموى، ص (٥٣٠).
(٥)، (٦) تاريخ دمشق (٤٦/ ٣٣٦).

حتى متى تُسقى النُّفوس بكأسها ريب المنون وأنت لاه ترتع

أفقد رضيت بأن تُعلل بالمُنى وإلى المنيَّة كلَّ يوم تُدفَعُ

أحلامُ نوم أو كظل زائلٍ إن اللبيب بمثلها لا يُخْدَعُ

فتزوّدنَّ ليوم فقرك دائمًا واجمع لنفسك لا لغيرك تجمع[1]

ومن شعره فى الموت ورثاء مرداس قوله:

إن كنت كارهة للموت فارتحلى ثم اطلبى أهل أرضٍ لا يموتون

فلست واجدة أرضًا بها بشر إلاَّ يروحون أفواجًا ويغدون

إلى القبور فما تنفك أربعة بذى سرير إلى لحد يمشونا

يا حمز قد مات مرداسَ وأخوته وقبل موتهم مات النبيونا[2]

وقد شهد له النقّاد فى الشعر بأن شعره كان يتسم بانتقاء مفرداته فى غير توعر وإغراب، وبجزالة عباراته فى نسق لا تعقيد فيه، ولا التواء، ولا اعتساف بتقديم وتأخير، وكان يبتعد عن الخيال وما يجره من تهويل وتضخيم[3]، ومما يذكر فى سيرة عمران بن حطان أن الحجّاج ظل يطارده ويطلبه طويلاً حتى ظفر به، فقال للحرس: اضرب عنق ابن الفاعلة، فقال عمران: بئس ما أدبك به أهلك يا حجّاج، أبعد الموت منزلة أمانعك عليها على ما كان منك أن ألقاك بمثل ما لقيتنى به؟ فقال الحجّاج: صدق، أطلقوا عنه، فلما انطلق إلى الخوارج قالوا له: ارجع إلى قتال الحجاج، فوالله ما هو أطلقك، الله الذى أطلقك، فقال: هيهات، غلّ يدًا مطلقها واسترق رقبة معتقها ثم قال:

أأقاتل الحجّاج عن سلطانه بيد تقر بأنها مولاته

ماذا أقول إذا وقفت حياله فى الصف واحتجت له فعلاته

وتحدث الأقوام أن صنيعه غرست لدى فحنظلت نخلاته

تالله لو جئت الأمير بآلة وجوارحى وسلاحى آلاته[4]

---

(١) تاريخ دمشق (٤٦/ ٣٣٩). (٢) المصدر نفسه (٤٦/ ٣٤٠).

(٣) أدب السياسة فى العصر الأموى، ص (٥٢٨، ٥٢٩). (٤) الحجّاج بن يوسف الثقفى المفترى عليه ص (٣٧٥).

هذا وقد توفى عمران بن حطان سنة ٨٤هـ[١].

٢ ـ أسباب فشل الخوارج فى عهد عبد الملك:

فشلت ثورات الخوارج فى تحقيق الهدف الذى كانت تسعى إليه لأسباب منها:

أ- أن الخوارج كانوا يخرجون فى أعداد قليلة وفى أوقات متباعدة مما، سهل على ولاة الدولة الأموية القضاء عليهم.

ب- طغيان مذهب التشيع على أهل الكوفة ومناقضة ذلك المذهب لمبدأ الخوارج، وكره أهل الكوفة والشيعة عامة للخوارج لخروجهم على أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وتكفيرهم إياه فساعد هؤلاء ولاة الدولة فى غالب الأحيان على قتال الخوارج.

جـ- موقف أهل البصرة واندفاعهم إلى مقاومة الخوارج والقضاء عليهم ليحافظوا على تجارتهم واستمرارها.

د- تفرق الخوارج إلى فرق متعددة مما أدى إلى إضعافهم وتفتيت وحدتهم، فسهل على ولاة الدولة القضاء عليهم.

هـ- الأعمال التخريبية التى كانوا يحدثونها من قتل النساء والأطفال وقتل مخالفيهم وإحراق القرى وكسر الخراج وقطع طرق التجارة مما أدى إلى كرههم من جانب الناس عامة، فاندفعوا إلى مساعدة ولاة الدولة فى القضاء عليهم.

هذه هى أهم الأسباب التى جعلت الخوارج يفشلون فى التخلص من الحكم الأموى، وتطبيق أفكارهم ومعتقداتهم التى يؤمنون بها[٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٢١٦).

(٢) العراق فى العصر الأموى، ثابت الراوى، ص (٢٤٣، ٢٤٤).

المبحث الثانى

ثورة عبد الرحمن بن الأشعث

هذه واحدة من الثورات العديدة التى قام بها أهل العراق ضد الدولة الأموية، ولم يكن نشوبها على أساس مذهبى، كما هو الحال بالنسبة لثورات الخوارج والشيعة، بل دفعت إليها الكراهية المتبادلة بين قائدها وبين والى العراق الحجّاج بن يوسف. وقائد هذه الثورة هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى[1]، وقد بدأت هذه الثورة العارمة من إقليم سجستان، ذلك الإقليم الذى أتعب الأمويين، وكان كثير الانتقاض والتمرد عليهم[2]، فلما كانت ولاية الحجّاج بن يوسف على العراق (٧٥هـ - ٩٥هـ) صبر على مضض على تجاوزات رتبيل ملك سجستان ضد الدولة، واستغلاله الظروف الصعبة التى كانت تمر بها، ومنعه الجزية، فلما انتهت مشاكل العراق الخطيرة، وكسرت شوكة الخوارج سنة ٧٨هـ قرر أن يؤدب رتبيل[3]، فأرسل الحجّاج إليه جيشًا بقيادة عبيد الله بن أبى بكرة سنة ٧٩هـ، وأمره الحجّاج أن يتوغل فى بلاد رتبيل وأن يدك حصونهم وقلاعهم، ففعل ما أمر به الحجّاج، وتمكن من هزيمة رتبيل، واجتياح بلاده، وغنم غنائم كثيرة، ولكن رتبيل أخذ فى التقهقر فأطمع المسلمين فى اللحاق به حتى وصلوا قريبًا من مدينته العظمى، عند ذاك بدأ الترك يغلقون على المسلمين الطرق والشعاب وحصروهم وقتل عامة جيش المسلمين[4].

أولاً: إعداد وإرسال جيش الطواويس إلى سجستان بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث:

أراد الحجّاج تأديب رتبيل وعقابه، فاستأذن عبد الملك بن مروان فى أن يبعث جيشًا كبيرًا بلغ عدده أربعين ألف مقاتل من أهل الكوفة وأهل البصرة، وأنفق عليه، ألفى ألف (مليونين) سوى أعطيات المقاتلين، وبالغ فى تجهيزه بالخيول الروائع والسلاح الكامل[5]، وبلغ من فخامة الجيش أن سماه الناس جيش الطواويس[6]،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٣).

(٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٥٠٧).

(٣) تاريخ الطبرى (٧/ ٢١٨).

(٤) المصدر نفسه (٧/ ٢١٩)، تاريخ خليفة، ص (٢٧٧).

(٥) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٢٤).

(٦) تاريخ الطبرى نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٥٠٨).

وأسند قيادته إلى عبد الرحمن بن الأشعث، والحجّاج بإسناده قيادة هذا الجيش الكبير عدة وعددًا لابن الأشعث وهو يعلم موقفه منه، يهيئ للثورة عليه وعلى الدولة الأموية، وقد نبه الحجّاج إلى هذا الخطأ الفادح، عم ابن الأشعث -إسماعيل بن الأشعث- حيث قال له: لا تبعثه فإنى أخاف خلافه، والله ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطانًا[1]، ولكن يبدو أن الحجّاج قد خانه ذكاؤه هذه المرة، أو كان مفرطًا فى ثقته بنفسه، فلم يسمع نصيحة إسماعيل ورد مستخفًا بعبد الرحمن، فقال: هو لى أهيب، وفى أرغب من أن يخالف أمرى، أو يخرج عن طاعتى[2]. ومضى عبد الرحمن بهذا الجيش العظيم إلى سجستان لتأديب رتبيل، وكان ذلك فى سنة ٨٠هـ، فلما بلغته الأخبار، كتب إلى عبد الرحمن يعتذر إليه مما حل بالمسلمين فى بلاده، ويطلب منه الصلح ولكن عبد الرحمن لم يقبل[3]، وأخذ يتوغل فى بلاده، وهنا حاول رتبيل أن يكرر مع عبد الرحمن ما صنعه مع عبيد الله بن أبى بكرة، فأخذ يخلى البلاد والحصون أمامه ليوقعه فى شرك، ولكن ابن الأشعث فطن إلى ذلك، وكان كما يقول الطبرى: كلما حوى بلدًا بعث إليه عاملاً وبعث معه أعوانًا، ووضع البريد فيما بين كل بلد وبلد، وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب، ووضع المسالح بكل مكان مخوف، حتى إذا جاز من أرضه أرضًا عظيمة، وملأ يديه من البقر والغنم والغنائم العظيمة، حبس الناس عن الدخول فى أرض رتبيل، وقال: نكتفى بما أصبناه العام فى بلادهم، حتى نجبيها ونعرفها، ويجترئ المسلمون على طرقها، ثم نتعاطى فى العام المقبل ما وراءها، ثم لم نزل ننتقصهم فى كل طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم، وفى أقصى بلادهم وممتنع حصونهم، ثم لا نزايل بلادهم حتى يهلكهم الله[4].

وهذه خطة سديدة وعملية، وتدل على ذكاء وحنكة وتجربة، وقد كتب إلى الحجّاج بما حققه من فتوحات وبخطته التى اعتزم تنفيذها[5]، ولكن الحجّاج - ودون أن يستشير أحدًا من أهل الحرب - رفض هذا الرأى واستهجنه، وكتب إلى ابن الأشعث ثلاثة كتب على التوالى سفه فيها رأى ابن الأشعث، وهدده فيها بالعزل إن لم يفعل ما يأمره به، ورماه فيها ببعض الأوصاف المقذعة[6].

---

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٢٤) .　　(٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه (٧/ ٢٢٥).

(٦) المصدر نفسه (٧/ ٢٣١).

ثانيًا: تمرد عبد الرحمن بن الأشعث بجيشه على الحجّاج:

وبرفض الحجّاج رأى ابن الأشعث، وبأسلوبه القاسى، وتعامله السيء، أذكى نار الفتنة وعجل بأسباب الثورة عليه، وقد أعماه فرط ثقته بنفسه، واحتقاره لغيره عما ستؤدى إليه تلك التصرفات الهوجاء من عواقب خطيرة، وأثارت مكاتبات الحجّاج حفيظة عبد الرحمن بن الأشعث وحركت ما فى نفسه من كره للحجّاج، فجمع الناس وخطبهم مبينًا لهم نصحه لهم ومعرضًا برأى الحجّاج، وطلب منهم الرأى، فثار إليه الناس فقالوا: بل نأبى على عدو الله، ولا نسمع له، ولا نطيع[1] وانفتح الباب لكل من أراد أن يتكلم، فتكلم عامر بن واثلة الكنانى -وكان شاعرًا خطيبًا- فكان مما قال: فإن الحجاج والله ما يرى بكم إلا ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه: احمل عبدك على الفرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك. وبعد كلامه دعا الناس إلى خلع الحجّاج ومبايعة عبد الرحمن بن الأشعث، فبايعهم ابن الأشعث على خلع الحجّاج والقتال معه حتى ينفى الله الحجّاج من العراق، ولم يذكر خلع عبد الملك[2]، ومن هنا بدأت ثورة ابن الأشعث، وهذه الثورة وإن لم تكن لها جذور بعيدة وإن لم تسبقها خطوات إعداد كبيرة إلا أنها كانت من أخطر الثورات التى قامت على الدولة الأموية أو أخطرها، حيث هددت كيان الخلافة بالزوال، واضطرت الخليفة إلى مساومة أصحابها بما لم يساوم به غيرهم من أصحاب الثورات السابقة[3]، وانحدر ابن الأشعث بجيشه وانضم إليه خلق كبير فى طريقه إلى العراق قاصدًا الحجّاج، فلما جاء الخبر الحجّاج أصيب بالهلع والذعر، فكتب إلى عبد الملك يخبره بالأمر ويطلب منه المدد، فتوالت الكتب بينه وبين عبد الملك وتوالى إرسال الجيوش من عبد الملك فى كل يوم إلى الحجّاج[4].

١ ـ موقف المهلب بن أبى صفرة من الأحداث:

كان المهلب بن أبى صفرة قد نهى ابن الأشعث عن فعلته قائلاً: إنك وضعت رجلك يا ابن محمد فى غرز طويل الغى على أمة محمد ﷺ الله الله فانظر

---

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٣٢).

(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٥٤٧). (٤) المصدر نفسه، ص (٥٤٧).

لنفسك لا تهلكها، ودماء المسلمين فلا تسفكها، والجماعة فلا تفرقها، والبيعة فلا تنكثها. فإن قلت: أخاف الناس على نفسى فالله أحق أن تخافه عليها من الناس، فلا تعرضها لله فى سفك دم، ولا استحلال محرم. وكتب المهلب كذلك إلى الحجّاج بما يجب عليه أن يفعله فى مواجهة ابن الأشعث حيث قال: فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك مثل السيل المنحدر من علٍ، وليس شىء يرده حتى ينتهى إلى قراره، وإن لأهل العراق شرة فى أول مخرجهم، وصبابة إلى أبنائهم ونسائهم، فليس شىء يردهم حتى يسقطوا إلى أهليهم، ويشموا أولادهم، ثم وافقهم عندها، فإن الله ناصرك عليهم إن شاء الله[1]. ولكن لم يعر ابن الأشعث نصح المهلب أدنى اهتمام، فتقدم نحو العراق، وفى وسط الطريق أقدم ابن الأشعث ومن معه على خطوة خطيرة وهى خلع الخليفة عبد الملك بن مروان والسعى إلى تنحيته[2]، كما أن الحجّاج نظر إلى نصح المهلب من منظوره المتشكك فيمن حوله، فعده غشًا من المهلب، فقد قال عندما قرأ كتابه: فعل الله به وفعل، والله مالى نظر، ولكن لابن عمه نصح[3].

٢ ـ معركة الزاوية[4]:

قرر الحجاج مواجهة ابن الأشعث، ومن معه قبل دخولهم العراق، فأرسل الكتائب تلو الكتائب، ولكن لم تستطع إيقاف زحف ابن الأشعث فهزمها، وتقدم حتى دخل البصرة بعد أن خرج منها الحجّاج فاراً بنفسه، ومن معه من أهل الشام، ونزل بالزاوية، عند ذلك أيقن الحجّاج بصدق المهلب فى نصحه له فقال: لله أبوه، أى صاحب حرب هو! أشار علينا بالرأى فلم نقبل[5]، وانضم إلى ابن الأشعث جموع كثيرة من أهل البصرة، والتقى ابن الأشعث بالحجّاج فى الزاوية، وتوالت الهزائم بجيش الحجّاج، إلا أنه سنحت فرصة لفرقة من فرق الحجّاج حيث تمكنت من إلحاق الهزيمة بإحدى فرق ابن الأشعث، فاستغل الحجّاج الفرصة وكثف الهجوم على خصمه، فاضطر ابن الأشعث إلى التراجع وسار نحو الكوفة

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٣٥). (٢) المصدر نفسه (٧/ ٢٣٤).

(٣) المصدر نفسه (٧/ ٢٣٥).

(٤) الزاوية: لفظ يطلق على عدة أماكن، والمراد به هنا موضع قرب البصرة، معجم البلدان (٣/ ١٢٨).

(٥) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٣٧).

تاركًا البـصرة، فبايعه أهـل الكوفة ولحق به أهل البصرة، وانضم إليـه أهل المسالح والثغور[١]، وبلغ عـدد من معه مـائة ألف ممن يأخذ العطـاء، ومعهم مـثلهم من مواليهم[٢]، وقد دفعت الموالىَ أسباب كثيرة للاشتراك فى ثورة ابن الأشعث، منها:

أ ـ السياسـة المالية التى اتبعها الحـجّاج نحوهم وإجبارهـم على دفع الجزية بعد إسلامهم.

ب ـ حرمانهم من الأعطيات والأرزاق عند اشتراكهم فى الفتوح.

جـ ـ حـرمانهم من المسـاواة وشعـورهم بالظلم من ممارسـة بعض ولاة الدولة الأموية[٣]، وغير ذلك من الأسـباب. اغتم عبد الملك لما حـدث، ولما وصله الخبر نزل عن سريره وبعث إلى خالد بن يزيد بن معـاوية، ودعاه فأقرأه الكتاب، ورأى ما به من الجزع، فقـال: يا أمير المؤمنين، إن كان هذا الحدث من قبل سـجستان، فلا تخفه، وإن كـان من قبل خراسان تخوفته، وخرج عـبد الملك إلى الناس فقام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن أهل العـراق طال عليهم عمرى فاستعجلوا قدرى، اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام حتى يبلغوا رضاك، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك[٤]. ثم نزل.

٣ ـ استعداد عبد الملك أن يضحى بالحجّاج ومعركة دير الجماجم:

لما رأى أهل الشـام وبنو أميـة قـوة ابن الأشعث أشـاروا على عـبد الملك بعـزل الحجّاج، وقالوا: إن كان إنما يرضى أهل العراق أن تنزع عنهم الحجّاج فانزعه عنهم، تخلص لك طاعتهم، فإن عزلك له أيسر من حـربهم، فبعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمد بن مروان بالجيش إلى العراق، وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق نزع الحجّـاج عنهم، وأن يجرى عليـهم العطاء، وأن ينزل ابن الأشعث أى بـلد شاء من العراق ويكون واليًـا، فإن قبلوا ذلك نزعنا عنهم الحـجّاج ويكون محمـد بن مروان مكانه على العراق، وإن أبوا فـالحجّاج أمـير الجميع وولى القـتال[٥]، ولم يكن أمر

(١) تاريخ الإسلام للذهبى، ص (٩).

(٢) تاريخ الطبرى، نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٥٤٩).

(٣) العراق فى العصر الأموى، ثابت الراوى، ص (٢٤٥).

(٤) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٣٦).

(٥) المصدر نفسه (٧/ ٢٤٥).

أشق على الحجّاج ولا أغيظ له ولا أوجع لقلبه من هذا الأمر، وكان من الطبيعى أن يستاء الحجّاج من هذا، وعزّ عليه أن يضحى به عبد الملك بن مروان، بعد كل ما قدمه له من خدمات[1]، وكتب إليه يذكره بما حدث من أهل العراق مع عثمان بن عفان رضى الله عنه، قال له: يا أمير المؤمنين، والله لئن أعطيت أهل العراق نزعى لا يلبثون إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك، ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على عثمان بن عفان، فلما سألهم ما يريدون قالوا: نزع سعيد بن العاص، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه، إن الحديد بالحديد يفل، خار الله لك فيما رأيت والسلام عليك[2]. غير أن عبد الملك كان مقتنعًا بالفكرة، وأن مصلحة الدولة عنده فوق كل اعتبار ورأى فى ذلك منع الحرب[3]. ولكن من حسن حظ الحجّاج أنه لما عرضت الفكرة على أهل العراق رفضوها بقوة، مع أن ابن الأشعث قبلها، وحثهم على قبولها، لكنهم لم يوافقوه، بل جددوا خلع عبد الملك، وظنوا الفرصة قد واتتهم للتخلص من الحكم الأموى[4]، وكان الأولى بابن الأشعث أن لا ينساق لما تطلبه الجماهير، فقد ضاعت فرصة كبيرة فى التخلص من الحجّاج، وكان يمكنهم رفع سقف المطالب والضغط على عبد الملك حتى يستجيب لرفع المظالم، وإقامة العدل، والتقيد بالكتاب والسنة،وإن انحرف عن شروطهم أمكنهم بعد ذلك عزله، ولكن يبدو أن الحس السياسى لدى زعماء ثورة ابن الأشعث كان غائبًا، كما أن مبايعة أهل العراق لابن الأشعث جاءت فى لحظات عاطفية ثورية ولم تكن نتيجة لمعرفة تامة به، وهل يستحق عن جدارة أن يكون أميرهم؟[5]. رفض ابن الأشعث تنازل عبد الملك فى خلع الحجّاج وغيرها فعندها سلم محمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك قيادة الجيوش الأموية للحجّاج وقالا: شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك، فإنا قد أمرنا أن نسمع ونطيع لك[6].

وبدأ الفريقان يستعدان للقتال، فاشتبكا فى أشهر وقائعهم ـ التى زادت عن ثمانين موقعة ـ فى دير الجماجم،[7] والتى استمرت مائة يوم حتى حلت الهزيمة

(1) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٥١٥).
(2) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٤٥) .
(3) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٥١٥).
(4) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٤٦).
(5) حركة النفس الزكية، ص (٣٨).
(6) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٤٦).
(7) تقع دير الجماجم على سبعة فراسخ من الكوفة من طريق البصرة.

بابن الأشعث فى الرابع من جمادى الآخرة سنة ٨٣هـ[١]، ثم دارت معركة أخرى بعدها فى مسكن فى شعبان من نفس السنة، فهزم ابن الأشعث أيضًا، ثم ولى هاربًا إلى سجستان[٢]، حيث كان تصالح مع رتبيل على أن يسقط عنه الخراج إن ظفر، وإن هزم يأوى إليه ويحميه[٣]، ولكن الحجّاج هدد رتبيل إن لم يسلم إليه ابن الأشعث ليغزون بلاده بألف ألف مقاتل[٤]، فرضخ للتهديد وعزم على تسليمه إليه، فلما أحسَ ابن الأشعث بغدر رتبيل ألقى بنفسه من فوق القصر الذى كان فيه، فمات، فأخذ رأسه وأرسله إلى الحجّاج وكان ذلك سنة ٨٥هـ[٥]. وهكذا انتهت حياة ابن الأشعث الذى قاد أخطر ثورة ضد عبد الملك بن مروان، أريقت فيها دماء عشرات الألوف من المسلمين، وهى ثورة دفعت إليها الأحقاد الشخصية المتأصلة فى نفس ابن الأشعث والحجّاج كل منهما للآخر من ناحية، وبغض أهل العراق للحكم الأموى من ناحية ثانية[٦]، ومظالم الحجّاج العظيمة التى دفعت بجمهور كبير من العلماء للانضمام للثورة والتخلص من الطاغية الحجّاج.

ثالثًا: موقف العلماء من ثورة ابن الأشعث:

يختلف موقف العلماء من حركة ابن الأشعث اختلافًا كثيرًا عن موقفهم تجاه الحركات الأخرى ضد الدولة الأموية، إذ شارك جمهور غفير من العلماء فى حركة ابن الأشعث هذه، سواء بتحريض الناس على المشاركة فيها، أو بمشاركتهم المباشرة فى القتال مع ابن الأشعث ضد الحجّاج، وقد استفاضت المصادر المتقدمة فى ذكر تأييد العلماء ومشاركتهم فى هذه الحركة، كما اجتمعت على كثرة عدد العلماء المشاركين، ولكن على اختلاف بينهم فى تقدير هذا العدد، فيذكر خليفة بن خياط، أن عددهم بلغ خمسمائة عالم، وعد منهم خمسة وعشرين عالمًا[٧]، ولعل من أسباب كثرة تلك الأعداد المذكورة إدخال غير العلماء فيها من أهل العبادة والصلاح، وإن لم يشتهر عنهم العلم، حيث تردد إطلاق اسم القراء على هؤلاء المشاركين، ولعله يشمل العلماء وأهل الصلاح، والزهادة والمشهورين بكثرة التعبد[٨].

---

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٥٤). (٢) المصدر نفسه (٧/ ٢٨٧).
(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٥٥١)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٤).
(٤) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٨٧). (٥) المصدر نفسه (٧/ ٢٨٩).
(٦) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٥١٦). (٧) تاريخ خليفة، ص (٢٨٦، ٢٨٧).
(٨) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٥٥٢).

١ - من أشهر العلماء المشاركين فى حركة ابن الأشعث:

وبتتبع كثير من المصادر أمكن حصر العديد من أسماء العلماء المشاركين فى تلك الحركة منهم:

أ- أنس بن مالك رضى الله عنه: العالم الجليل والصحابى الكريم، فقد كان ممن يؤلب على الحجّاج، ويدعو إلى الانضمام إلى ابن الأشعث، ولكنه لم يشارك مشاركة فعالة فى القتال لكبر سنه[1].

ب- وأبو الشعثاء سليم بن أسود المحاربى: فقد شارك مع ابن الأشعث، وقيل: قُتل يوم الزاوية[2].

جـ- وعبد الرحمن بن أبى ليلى، كان من كبار المشاركين فى تلك الحركة المحرضين على القتال فيها، وتوفى بوقعة الجماجم حيث اقتحم به فرسه الفرات فغرق -رحمه الله-[3].

د- الإمام الشعبى: ولكن فى مشاركته شىء من الإكراه إذ لم يكن فى بداية الأمر على قناعة بالمشاركة، حيث روى عنه أنه قال: فلم أزل عنده ـ أى الحجّاج ـ بأحسن منزلة حتى كان شأن ابن الأشعث، فأتانى أهل الكوفة، فقالوا: يا أبا عمرو، إنك زعيم القراء، فلم يزالوا حتى خرجت معهم[4].

هـ- سعيد بن جبير، ممن شارك مع ابن الأشعث، وكان يحضض على القتال، ونجا من القتل وتوارى عن الحجّاج مدة، ولكن تمكن منه عندما قبض عليه والى مكة وأرسله إليه فقتله الحجّاج سنة أربع وتسعين[5]. وغير ذلك من العلماء وهذا يدل على أن حركة بن الأشعث لقيت من الدعم والمشاركة من العلماء ما لم تلقه أى حركة قامت ضد الدولة الأموية. وقد كان لمشاركة العلماء فى هذه الحركة - بهذا الحجم - أثر كبير على الحركة، فقد كانت مشاركتهم وراء انضمام كثير من الناس لتلك الحركة، ولا سيما أن بعض الفقهاء والقراء كانوا يسعون لإقناع أكبر

---

(١) أنس بن مالك، طهماز، ص (١٦٠ ـ ١٦١).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٧٩).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٦٤، ٢٦٧)، الطبقات (٦/ ١١٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢٧، ٣٣٦)، الطبقات (٦/ ٢٦٥).

(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢٧، ٣٣٦).

عدد للانضمام إلى القتال خاصة من فئة العلماء[1]، كما كان للعلماء المشاركين أثر كبير فى ميـدان القتال، فكانت لهم كتيبة خاصة بهم تسمى كـتيبة القراء[2]، وكان بعض العلمـاء يبعـثون الحمـاس فى أتباع ابن الأشـعث بما يلقونه من خـطب وما يصدرونه من نداءات أثناء القتال، كان لها أثر فى غـرس الثقة فى النفوس والثبات فى مواطن اللقاء[3]، وقد لقى الحجّاج وجيـشه عنتًا ومشقة من كتيـبة القراء، فقد كان أصحابها يحملون حملة صادقة على جيش الحجّاج فما يصمد لها، ويضربون الكتائب حتى يفرقوها[4]، لذا عبأ الحجّاج لهذه الكتيبة ثلاث كتائب توقف زحفها والتقليل من خطرها عليه[5].

٢ ـ أسباب مشاركة العلماء فى ثورة ابن الأشعث:

انضم إلى حركـة ابن الأشعث فئـات وطوائف شتى، كل فـئة مدفـوعة بدافع تسعى لتحقـيقه من خلال المشاركة فى هذه الحركة، فـهناك دوافع إقليمية، ودوافع عرقية، وأخرى اجتماعية، ولم يكن شيء من هذه حرّك العلماء للمشاركة فى هذه الفتنة، وإنما انطلقوا من دوافع دينية وشرعية بحسب ما وصل إليه اجتهادهم، وقد كان القـاسم المشتـرك لكل هذه الدوافع شخـصية الحـجّاج[6] الظالمة، المتعـسفة، الجائرة، والمتعطشة لسفك الدماء، ولذلك كان الـعلماء ينقمون على الحجّاج تعديه لبعض حدود الإسلام، وانتهاكه لبعض حرمـاته، وكانوا ينقمون عليه سوء معاملته وسوء نظرته للعلماء.

أ ـ تعدى الحجّاج لبعض حدود الدين وانتهاكه لحرماته:

كان الحجّـاج يملك جرأة عجيـبة تعدى بها إلـى غير مواضعـها، مما أدى إلى إحداث شرخ كبير فى جانب من حيـاته المتعددة الجوانب؛ فأسهم بذلك فى تشويه صورته وصورة الحكم الأموى، وقد حرص بعض المولعين بشخصية الحجّاج إخفاء

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٥٥٧).
(٢) تاريخ الطبرى نقلا عن أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٥٥٨).
(٣) الكامل فى التاريخ (٢/ ١٥٤)، تاريخ الطبرى (٧/ ٢٥٤، ٢٥٥).
(٤) الكامل فى التاريخ (٤/ ١٥٠).
(٥) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٥٥٨)، الكامل فى التاريخ (٣/ ١٥٤).
(٦) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٥٦٢).

هذا الجانب المشوه من حياته، والدراسة الواعية المنصفة تأبى هذا المنهج، وما من شك فى أنه ورد الكثير من المبالغات عن انتهاكات الحجاج لحرمات الدين، وكثير منها لا يصح، ودخل الدس من أعداء الحجّاج وبنى أمية فى صياغة كثير من هذه المبالغات، لذا فقد استبعدت[1] النقل والاعتماد فى هذا الأمر على الكتب التى اشتهر عن أصحابها التهاون فى إيراد الروايات دون تمحيص، ولاسيما كتب الأدب، كالعقد الفريد لابن عبد ربه، والأغانى للأصفهانى، أو كتب الفرق المغالية فى عداوتها لبنى أمية كالشيعة، وحاولت[2] النقل والاعتماد على كتب السنة المشهورة بحفظ الأحاديث النبوية الشريفة، وما يخدمها من روايات، وكذلك على الكتب المعتبرة التى اشتهر عن أصحابها التحرى والدقة كالذهبى فى سيره وتاريخه[3].

ويأتى فى مقدمة تجاوزات الحجّاج الشرعية إسرافه فى القتل وأمره به بأدنى شبهة، حيث كان الحجّاج يرى وجوب الطاعة العمياء من الرعية له، وأن مخالفة أمره - فى أى شأن كان، صغر أم كبر - تبرر له القتل، فقد روى أبو داود بسند صحيح عن عاصم قال: سمعت الحجّاج يقول: اتقوا الله ما استطعتم ليس فيها مثنوية، واسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير المؤمنين عبد الملك، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب من أبواب المسجد فخرجوا من باب آخر لحلت لى دماؤهم وأموالهم، والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لى من الله حلالاً[4]، وقال ابن كثير معلقًا على بعض تجاوزات الحجّاج مما يبين سبب استهانته بالقتل: . . فإن الحجّاج كان عثمانيًا أمويًا، يميل إليهم ميلاً عظيمًا، ويرى خلافهم كفرًا، ويستحل بذلك الدماء ولا تأخذه فى ذلك لومة لائم، وقال فى موضع آخر: أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء وكفى به عقوبة عند الله[5] عز وجل، بسبب هذا المعتقد الذى استقر فى نفس الحجّاج استهان بالقتل واشتهر إسرافه فيه لمخالفة أوامره صغرت أم كبرت، ومع ما ورد من مبالغات فى الإحصاءات التى ذكرت عدد قتلى الحجّاج، فما من شك فى تعديه الحدود المشروعة فى القتل، ويؤيد ذلك ما صح عن المصطفى ﷺ بروايات متعددة تصف الحجّاج بأنه مبير، فعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه قالت للحجّاج بعد قتله لابنها عبد الله بن الزبير رضى الله عنه:

---

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٥٦٥).
(٢)، (٣) المصدر نفسه، ص (٥٦٥).
(٤) سنن أبى داود (٤/ ٢١٠) صحيح الإسناد.
(٥) البداية والنهاية (١٢/ ٥٠٧ - ٥٥٤).

أما إن رسول الله ﷺ حدثنا أن في ثقيف كذابًا ومبيرًا، فأما الكذاب فرأيناه وأما المبير فلا أخالك إلا إياه[1]، وقد أنكر العلماء على الحجّاج هذا الإسراف في القتل، فروى عن الإمام عبد الرحمن بن أبي أنعم أنه قال للحجّاج: لا تسرف في القتل إنه كان منصورًا، فقال الحجّاج: والله لقد هممت أن أروي الأرض من دمك. فقال: إن من في بطنها أكثر ممن في ظهرها[2]، وكان جواب سعيد بن جبير للحجّاج عندما سأله عن رأيه فيه فقال: نعم ظهر منك جور في حد الله، وجرأة على معاصيه بقتلك أولياء الله[3].

– ومن التجاوزات التي كان العلماء ينكرونها على الحجّاج تأخيره للصلاة عن وقتها: وتأخير الصلاة عن وقتها ليس خاصًا بالحجّاج بل كانت عادة عند بعض خلفاء بني أمية وسار ولاتهم على نهجهم ولكن الذي يؤخذ على الحجّاج مع تأخيره الصلاة عدم قبوله تنبيه أحد من العلماء أو إبداء النصح منهم له في ذلك، وهذا مأخذ آخر أخذه العلماء على الحجّاج وهو عدم قبوله لقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[4]، ومن ذلك أن الحجّاج أنكر يومًا أن يكون الحسين بن علي رضي الله عنه من ذرية رسول الله ﷺ لأنه ابن ابنته، فقال له العالم الجليل يحيى بن يعمر: كذبت. فقال الحجّاج: لتأتيني على ما قلت ببينة من كتاب الله أو لأضربن عنقك فقال: قال الله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ إلى قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٤، ٨٥]. فعيسى من ذرية إبراهيم، وهو إنما ينسب إلى أمه مريم، والحسين ابن بنت رسول الله ﷺ، فقال الحجاج: صدقت، فما حملك على تكذيبي في مجلسي، قال: ما أخذ الله على الأنبياء ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، فنفاه إلى خراسان[5].

ـ ومن تجاوزات الحجّاج الشرعية تطاوله على أصحاب رسول الله ﷺ وسوء تعامله مع العلماء: ومرّ معنا معاملته القبيحة لابن عمر، وابن الزبير والسيدة أسماء بنت الصديق

---

(١) مسلم، ك فضائل الصحابة (٤/ ١٩٧١) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٦٣)، المعرفة والتاريخ للفسوي (٢/ ٥٧٤).

(٣) صفة الصفوة (٣/ ٤٥) .

(٤) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص (٥٦٩). (٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٤٢).

رضى الله عنهم جميعًا، ومن ذلك تطاوله على عبد الله بن مسعود وهو متوفى رضى الله عنه فقد قال: والله لو أدركت عبد هذيل لضربت عنقه[١]، وفى أخرى أنه قال: ابن مسعود رأس المنافقين، لو أدركته لأسقيت الأرض من دمه[٢]، وقد علق الذهبى على أقوال الحجّاج فى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه بقوله: قاتل الله الحجّاج، ما أجرأه على الله؟! كيف يقول هذا فى العبد الصالح عبد الله بن مسعود[٣].

ومن تطاوله على أصحاب رسول الله ﷺ وسوء أدبه معهم ما حدث منه لكل من أنس بن مالك ـ خادم رسول الله ﷺ- وجابر بن عبد الله وسهل بن سعد الساعدى رضى الله عنهم، فقد ورد أنه ختم على كل واحد منهم بختمه المشهور «عتيق الحجّاج» أنس وسهل فى عنقيهما وجابر فى يده[٤]، أما فعله ذلك بأنس فلأنه بايع ابن الزبير وتولى له البصرة، ولأنه كان يحرص على المشاركة مع ابن الأشعث، لذا ناله ما ناله من أذى الحجّاج، ولم ينقذه من إهانة الحجّاج إلا تدخل الخليفة عبد الملك حيث كتب كتابًا وبخ فيه الحجّاج على فعله بأنس، وأمره بعدم التعرض له[٥]، وأما سهل فقد ورد أن الحجّاج أرسل إليه يقول: ما منعك من نصر أمير المؤمنين عثمان؟ قال: قد فعلت. قال: كذبت ثم أمر به فختم فى عنقه[٦]. وهذه عقدة عند الحجّاج حيث كان متعصبًا للأمويين أكثر من تعصبهم لأنفسهم، ففى الحين الذى نجد معاوية وعبد الملك توددوا لكثير من الرجال الذين وقفوا ضدهم مع على أو مع ابن الزبير وعفوا عما سلف منهم واستلوا بذلك ضغائن نفوسهم، نجد الحجاج يخالف هذا المنهج السديد فيصر على محاسبة الرجال على ما سلف منهم أيام الفتن، فأوغر صدور الكثير عليه وعلى بنى أمية بهذا المسلك[٧]، وأذكر مثالاً يوضح الفرق بين نظرة عبد الملك ونظرة الحجّاج للرجال وطريقة التعامل معهم، فقد كان محمد بن الحنفية ممن امتنع عن مبايعة عبد الملك أو ابن الزبير حتى يجتمع المسلمون على واحد منهما، فلما تم قتل عبد الله ابن الزبير بعث الحجّاج على الفور لابن الحنفية يسأله البيعة ويقول: قد قتل عدو الله،

---

(١) المستدرك على الصحيحين (٣/٦٤١)، تهذيب تاريخ دمشق (٤/٧٢).

(٢) تهذيب تاريخ دمشق (٤/٧٢) .

(٣)، (٤) تهذيب الكمال (١٢/١٨٨)، أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٥٧٥).

(٥) المستدرك على الصحيحين (٣/٦٦٤)، أثر العلماء، ص (٥٧٦). (٦) تهذيب الكمال (١٢/١٨٨).

(٧) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٥٧٧).

فقال ابن الحنفية: إذا بايع الناس بايعت. قال: والله لأقتلنك. ومع أن ابن الحنفية بايع لعبد الملك لما رأى اجتماع كلمة المسلمين عليه، إلا أن الحجّاج استمر فى مضايقة ابن الحنفية، فلما قدم على عبد الملك أكرمه عبد الملك وقضى كل حوائجه، ثم اشتكى إليه سوء معاملة الحجّاج له، وكان حاضراً عند عبد الملك فقال: إن هذا - يعنى الحجّاج - قد آذانى واستخف بحقى، ولو كانت خمسة دراهم أرسل إلىَّ فيها. فقال عبد الملك: لا إمرة لك عليه، وطلب منه أن يستل سخيمة ابن الحنفية ويترضاه[1].

ب- سوء معاملة الحجّاج ونظرته للعلماء:

وقد كان لتجاوزات الحجّاج وسوء تعامله مع أهل العلم والفضل فى مكة والمدينة أثر فى عزله عن الحجاز بعدما كثرت الشكوى منه عند عبد الملك، فلما تولى العراق استمر فى سوء تعامله، فوجد كثير من العلماء المضايقة والشدة منه، فضرب بعض العلماء فى ولايته وسجن بعضهم، ونُفى بعض آخر، وقد يظن بعض الكتاب أن هذا الضرب والسجن بل والقتل للعلماء إنما حدث بعد فتنة ابن الأشعث فحسب فيكون تعامل الحجّاج هذا جاء ردة فعل على مشاركة العلماء فى هذه الحركة، ولكن الأمر على غير هذا الظن فقد حدثت بعض تلك المضايقات والمعاملة السيئة قبل حركة ابن الأشعث، فمعاملته لابن عمر وجابر رضى الله عنهما كانت قبل ذلك حيث توفيا قبل حركة ابن الأشعث[2]، وقد تعدت مضايقة الحجّاج للعلماء للذين لم يشاركوا فى هذه الحركة، ومن عُرف عنهم النهى عن الخروج على الولاة ولا يرون استخدام السيف لتغيير المنكر، ومن هؤلاء الحسن البصرى فقد اشتهر عنه النهى عن حمل السيف ومقاومة ظلم الولاة به، وعندما أكره على المشاركة فى القتال تخلص وهرب من الصف، ومع ذلك فقد كان الحجّاج يطلبه وحاول قتله مراراً، ولكن الله عصمه منه[3]، حتى اضطر الحسن أن يتخفى عن الحجّاج فى منزل بعض أصحابه وهو أبو خليفة الحجّاج بن عتاب[4]،

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٤٨/٩).

(٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٥٧٨، ٥٧٩).

(٣) تاريخ الإسلام للذهبى نقلاً عن أثر العلماء، ص(٥٨٠).

(٤) كتاب المتوارين للأزدى، ص (٤٥).

فكان أصحابه وطلابه يغشونه لمدارسته العلم والتلقى عنه فى مكان تواريه[1]. ومن الذين لم يشاركوا فى فتنة ابن الأشعث: إبراهيم النخعى، ومع ذلك فقد عاش مدة مختفيًا عن الحجّاج، والحجّاج يطلبه، حتى كان لا يصلى جماعة مدة اختفائه مخافة من الحجّاج[2]، وكذلك شأن الإمام مجاهد بن جبر، فإنه كان ممن يطارده الخوف من ظلم الحجّاج حتى اضطر إلى التوارى عنه[3].

ومن هذا العرض السابق يتضح مدى ما وصلت إليه تجاوزات الحجّاج الشرعية وطبيعة علاقته مع العلماء وعلاقة العلماء به، والجدير بالذكر أنه لم تصل علاقة العلماء بأى والٍ من ولاة الدولة الأموية فى سوئها كما وصلت إليه علاقتهم مع الحجّاج، بل كانت علاقتهم مع ولاة الدولة فى عمومها حسنة يعينونهم على الحق، ويجاهدون معهم ويأمرونهم بالمعروف ويبدون لهم النصح فيسمع منهم فى كثير من الأحيان[4]. ومن كل ما سبق يتضح أنه كان للحجّاج الأثر الكبير فى مشاركة العلماء فى حركة ابن الأشعث، بل وفى قيام تلك الحركة من وجهين: **الأول:** أنه بأسلوب الشدة والقسوة أضرم نيران الحقد والكراهية فى قلوب مختلف الفئات من الناس فى العراق - بمن فيهم العلماء - عليه وعلى بنى أمية، والوجه **الآخر:** أنه كان سببًا مباشرًا لإعطاء ابن الأشعث الفرصة فى القيام بتلك الثورة، حيث جنده بكل ما يملك من جنود وسلاح ومال، وهو يعلم ما بينهما من كره متبادل، وقد حذر من ذلك بأسلوبه المتعنت فى التعامل مع ابن الأشعث وجنوده فى رسائله التى تفوح بالحمق حيث ملأها بالشتائم لابن الأشعث ولم يراع مصلحة الجنود كما لم يشعرهم بأهميتهم لديه، بل العكس فى ذلك كأنما أراد بتصرفه معهم التخلص من حياتهم، وهذا يمثل ما وصل إليه غرور الحجّاج بنفسه[5].

٣ - معارضة بعض العلماء لثورة ابن الأشعث:

كان هناك عدد من العلماء عارضوها أو اعتزلوها، ولم يروا المشاركة فيها، ومن أبرز هؤلاء أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدى[6]، فهو من الذين لم يشاركوا فى هذه

---

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٥٨١).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٢١)، أثر العلماء، ص (٥٨١).
(٣) كتاب المتوارين للأزدى، ص (٥٣).
(٤) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٥٨٣).
(٥) المصدر نفسه، ص (٥٨٦).
(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٨٢).

الثورة، وأبو قلابة الجرمى، فلم يشارك وكان يعتب على غيره ممن شارك[1]، ومنهم إبراهيم النخعى، فلم يشارك وكان يعيب على سعيد بن جبير مشاركته فيها[2]، وقد قيل له: أين كنت يوم الزاوية؟ قال: فى بيتى. قالوا: فأين كنت يوم الجماجم؟ قال: فى بيتى. قالوا: فإن علقمة شهد صفين مع على، فقال: بخ بخ من لنا مثل على بن أبى طالب ورجاله[3].

وممن لم يشارك فى حركة ابن الأشعث أيوب السختيانى، فروى عنه أنه يقول فى العلماء الذين خرجوا مع ابن الأشعث: لا أعلم أحدًا منهم قُتل إلا رغب له عن مصرعه، أو نجا إلا ندم على ما كان منه[4]، ومنهم طلق بن حبيب، فكان معتزلاً الفتنة وكان يقول: اتقوها بالتقوى[5]، ومنهم مطرف بن عبد الله الشخير فقد امتنع عن المشاركة فى هذه الفتنة، وحين جاءه ناس يدعونه للمشاركة امتنع، فلما أكثروا عليه قال: أرأيتم هذا الذى تدعونى إليه، هل يزيد على أن يكون جهادًا فى سبيل الله؟ قالوا: لا. قال: فإنى لا أخاطر بين هلكة أقع فيها وبين فضل أصيبه[6]، ومنهم مجاهد بن جبر، فإنه لم يشارك وحين دعى للمشاركة، قال لمن دعاه: عده بابًا من أبواب الخير تخلفت عنه[7]، ومنهم خيثمة بن عبد الرحمن الجعفى ومحمد بن سيرين، فقد ورد ذكرهما مع الذين لم يشاركوا فى فتنة ابن الأشعث[8].

٤ ـ موقف الحسن البصرى من ثورة ابن الأشعث:

يعد الحسن البصرى واحدًا من أولئك العلماء الذين اعتزلوا القرب من الولاة والأمراء، وابتعدوا عن المناصب ورغبوا عن وجاهتها، فقد كان ينهى العلماء عن طرق أبواب الأمراء والتزلف لهم، لأن فى ذلك إهانة للعلم وحطًا من قدر العلماء ومكانتهم[9]، وبقى الحسن معتزلاً القرب من الولاة بعيدًا عن تولى مناصبهم حتى توفى ـ رحمه الله ـ. إلا أن ذلك لم يكن سببًا فى انزوائه عما يجرى فى عصره

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٥١٣).
(٢) الطبقات(٦/٢٦٦)، أثر العلماء، ص (٥٥٩).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/٥٢٦).
(٤) المصدر نفسه (٤/٥١٣).
(٥) المصدر نفسه (٤/٦٠١)، الحلية (٣/٦٤).
(٦) المعرفة والتاريخ للفسوى (١/٧١١)، أثر العلماء، ص(٥٦٠).
(٧) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٥٦١).
(٨) المصدر نفسه، ص (٥٦١).
(٩) المصدر نفسه، ص (٣٣٨).

من أحداث سياسية، بل كان علمًا بارزًا يهتدى كثير من الناس بتوجيهاته المفيدة وآرائه السديدة، لاسيما فى أوقات الفتن وفترات الخلاف، لذا قال فيه الثقات: كان -والله- الحسن من رءوس العلماء فى الفتن والدماء والفروج[1]، وكان ينحى فى نصحه للعامة إلى جمع الكلمة وتوحيد الصف، وينهى عن الإثارة والفرقة، ويدعو إلى السمع والطاعة للولاة، وكان يرى وجوب الموازنة بين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ووحدة الجماعة، ولقد عاصر الحسن البصرى معظم فترات الحكم الأموى، وتأثر بالواقع السياسى فى هذه الفترة، فأصبح يمثل مدرسة سياسية فى عصره، فهو يرى أن حكم بنى أمية فيه ظلم وجور، ولكنهم فى نفس الوقت يملكون القوة العسكرية، وموازين القوى فى صالحهم، كما أن الفئة الراغبة فى التغيير والشاكية من الظلم، ينقصها التنظيم والإعداد والقوة والصبر، ويرى أن الذين يحملون راية الخروج على حكم بنى أمية إما مخلص لدينه، ولكنه لا يصلح للحكم ولا يقدر على إحداث التغيير، وإما رجال يستخدمون الدين والدعوة للتغيير لأغراض دنيوية، منها حبهم للسلطة والحكم، فليسوا بأحسن حالاً من الأمويين[2]، وعلى ذلك أصبح موقفه من الحكم الأموى يقوم على أمور منها:

أ- عدم الخروج على حكم بنى أمية:لما فى ذلك من سفك الدماء، وتقويض لقوة المسلمين، وازدياد الجور والظلم[3]، فقد دخل عليه رجل فقال: يا أبا سعيد إنى أريد أن أسألك عن الولاة، فقال الحسن: سل عما بدا لك. فقال: ما تقول فى أئمتنا هؤلاء؟ فسكت الحسن مليًا ثم قال: وما عسى أن أقول فيهم وهم يلونا من أمورنا خمسًا: الجمعة والجماعة، والفىء والثغور، والحدود، والله ما يستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا وإن ظلموا، والله ما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون، والله إن طاعتهم لغبطة، وإن فرقتهم لكفر، فقال الرجل: يا أبا سعيد والله إنى لذو مال كثير، وما يسرنى أن يكون لى أمثاله وإنى لم أسمع منك الذى سمعت، فجزاك الله عن الدين وأهله خيرًا، وحين سئل عن الحجّاج قال: يتلو كتاب الله، ويعظ وعظ الأبرار، ويطعم الطعام، ويؤثر الصدق، ويبطش بطش الجبارين. قالوا: فما ترى فى

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٧٥) وفيه زيادة لفظة الفروج، والمقصود بها الثغور.

(٢) موسوعة فقه الحسن البصرى، قلعجى (١/ ١١).

(٣) الفقهاء والخلفاء، ص (٧٨، ٧٩).

القيام عليه؟ فقال: اتقوا الله، وتوبوا إليه يكفكم جوره[1]. وكان إذا قيل له: ألا تخرج فتغير؟ قال: إن الله إنما يغير بالتوبة ولا يغير بالسيف[2]. وكان يرى أن جور الحكام بسبب ما يحدثه الناس من ذنوب ومعاص، وإن من أهم أسباب دفع الجور والظلم هو الرجوع إلى الله، وكان يحث الناس على تجنب الفتن والبعد عن أسباب إشعالها، وحين بلغ السخط على الحجّاج أوجه وثار عليه الناس مع ابن الأشعث، وكان فى جملتهم عدد من العلماء لزم الحسن موقفه من الفتن، فلم يخرج مع من خرج بل كان يكره ذلك وينهى الناس عنه، وكان أخوه سعيد ممن يرى الخروج على الحجّاج ويدعو له، فعن حماد بن زيد بن أبى التياح قال: شهدت الحسن وسعيد بن أبى الحسن[3] حين أقبل ابن الأشعث، فكان الحسن ينهى عن الخروج على الحجّاج ويأمر بالكف، وكان سعيد بن أبى الحسن يحضض، فقال سعيد فيما يقول: ما ظنك بأهل الشام إذا لقيناهم غدًا فقلنا: والله ما خلعنا أمير المؤمنين ولا نريد خلعه، ولكنا نقمنا عليه استعمال الحجّاج فاعزله عنا؟ فلما فرغ سعيد من كلامه تكلم الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إنه -والله- ما سلط الله عليكم الحجّاج إلا عقوبة، فلا تعارضوا عقوبة الله بالسيف ولكن عليكم السكينة والتضرع، وأما ما ذكرت من ظنى بأهل الشام فإن ظنى بهم أن لو جاءوا فألقمهم الحجّاج دنياه لم يحملهم على أمر إلا ركبوه، هذا ظنى بهم[4] وقدم عليه جماعة من العلماء يناقشونه فى الخروج مع ابن الأشعث على الحجّاج، ويحاولون إقناعه بالخروج، ولكنه رفض الخروج وقال: أرى أن لا تقاتلوه، فإنها إن تكن عقوبة من الله فما أنتم برادى عقوبة الله بأسيافكم، ولكنهم لم يسمعوا كلامه ولم يأخذوا برأيه، فخرجوا مع ابن الأشعث فقتلوا جميعًا[5]، وعندما أفتى رجلاً بعدم جواز الخروج على الحجّاج قال له الرجل: لقد كنت أعرفك سيئ القول فى الحجّاج غير راضٍ عن سيرته، فقال الحسن: وأيم الله إنى اليوم لأسوأ فيه رأيًا، وأكثر عتبًا، وأشد ذمًا ولكن لتعلم -عفاك الله- أن جور الملوك نقمة من نقم الله تعالى، ونقم الله لا تلاقى بالسيوف، وإنما تتقى وتستدفع

(١) آداب الشيخ الحسن البصرى لابن الجوزى، ص (١٢٠، ١٢١).

(٢) الطبقات الكبرى (٧/ ١٧٢).

(٣) هو أخو الحسن البصرى.

(٤) الطبقات الكبرى (٧/ ١٦٤).

(٥) المصدر نفسه (٧/ ١٦٤).

بالدعاء والتوبة والإنابة والإقلاع عن الذنوب[1]، ولما تُوفى الحجّاج وجاء خبر وفاته سجد الحسن وقال: اللهم عقيرك وأنت قتلته فاقطع عنا سنته وأرحنا من سنته وأعماله الخبيثة[2]، وكان يوضح للناس حقيقة ما يعيشه بعض الولاة من تقلبه فى عيش الفتنة بزخرف الحياة الفانية حتى لا يغتر بهم الناس، فكان يقول: هؤلاء ـ يعنى الملوك ـ وإن رقصت بهم الهماليج[3]، ووطىء الناس أعقابهم، فإن ذل المعصية فى قلوبهم، إلا أن الحق ألزمنا طاعتهم، ومنعنا الخروج عليهم، وأمرنا أن نستدفع بالتوبة والدعاء مضرتهم، فمن أراد به خيرًا لزم ذلك وعمل به، ولم يخالفه[4]. وكان ينهى العامة عن القتال وحمل السلاح حين تقبل الفتن، فعن سلم بن أبى الذيال قال: سأل رجل الحسن وهو يسمع وأناس من أهل الشام فقال: يا أبا سعيد ما تقول فى الفتن مثل: يزيد بن المهلب وابن الأشعث؟ فقال: لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، فقال رجل من أهل الشام: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد؟ فغضب ثم قال بيده فخطر بها، ثم قال: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد، نعم ولا مع أمير المؤمنين[5]، فكان يرى أنه يجب على المسلم الاعتزال وعدم المشاركة فى سفك دماء المسلمين، فلا يقاتل فى صفوف الخارجين على السلطة، ولا مع جيش الخليفة، إذا كان ظالمًا[6].

ب ـ وبالرغم من قوله بعدم الخروج على حكم بنى أمية، إلا أنه كان يرى وجوب الإنكار عليهم لظلمهم، واستئثارهم بالأموال، وتوليتهم الولاة الظلمة، كأمثال الحجّاج، وكان شديد الانتقاد للحكم الأموى، وخاصة سياسات الحجّاج فى العراق، وكان يواجه الحجّاج بانتقاداته غير خائف من بطشه[7]، وعن ميمون بن مهران قال: بعث الحجّاج إلى الحسن وقد همّ به، فلما قام بين يديه قال: يا حجّاج، كم بينك وبين آدم من أب؟ قال: كثير، قال: فأين هم؟ قال: ماتوا. قال: فنكس الحجاج رأسه وخرج الحسن، وقال أيوب السختيانى: إن الحجّاج أراد قتل الحسن مرارًا فعصمه الله منه[8]، وكان يحذر العلماء من مخالطة السلاطين

---

(1) آداب الحسن البصرى لابن الجوزى، ص (118).

(2) حلية الأولياء (2/159).

(3) الهماليج: من البراذين. الكلمة فارسية معربة .

(4) آداب الحسن البصرى، ص (121).

(5) الطبقات (7/164).

(6) الفقهاء والخلفاء، ص (79).

(7) موسوعة فقه الحسن البصرى (1/13) .

(8) البداية والنهاية (12/543، 544) .

والحكام لكى لا يوهموا المسلمين برضاهم عن حكمهم، ولكى يشعروا الحكام بعدم رضاهم عن سياساتهم الجائرة، وكان يرى أن فى مخالطة العالم والمفتى للحاكم إذلالاً لمكانته العلمية، والاجتماعية، وكان يقول لبعض الفقهاء ممن كانوا يخالطون الأمراء: والله لو أنكم زهدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم وهابوكم، ولكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيكم[١]، ومع حرصه الشديد على عدم مخالطة الأمراء والحكام إلا أنه تولى القضاء فى البصرة فى عهد عمر بن عبد العزيز[٢]، نظراً لعدل وحسن سيرة عمر بن عبد العزيز[٣]. إن منهج الحسن فى التعامل مع الحكام منهج وسط معتدل، فهو مع نهيه عن الخروج على الولاة وكرهه للمواجهة معهم لما يترتب على ذلك من مفاسد عظيمة من سفك الدماء، وتفريق الأمة، وتعطيل الجهاد. .الخ. إلا أن ذلك لا يفهم منه تبريره لأخطاء الولاة أو عدم إنكارها، بل كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

٥ - أسباب فشل ثورة ابن الأشعث:

أ- عدم تمكن العلماء من السيطرة على مسار تلك الحركة: وذلك حين تطور الأمر وخلع الثائرون الخليفة عبد الملك بن مروان، فلم يتمكن العلماء من إقناع الناس بالحفاظ على الهدف الذى قامت الثورة لأجله، وهو خلع الحجّاج، بل ربما جر بعض العلماء إلى القناعة بهذا المسار الجديد، وتأكد فشل العلماء فى عدم محافظتهم على الهدف الرئيس للحركة، وذلك حينما عرض عبد الملك على الثائرين عزل الحجّاج، ولكن الزهو والعجب بما تحقق من انتصارات أدى إلى رفض ذلك العرض من الخليفة، ولم يتمكن العلماء من إقناع الثائرين بقبوله.

ب- تحكم أصحاب الدوافع الإقليمية والمذهبية فى مسارها: استطاع أصحاب الدوافع الإقليمية والميول المذهبية أن يسيروا بالحركة نحو التخلص من بنى أمية.

ج- عدم امتلاك الثورة لرؤية كاملة: فقد أصبح العلماء يسيرون فى طريق غير واضح المعالم، سوى تحقيق الانتصار على جيوش الأمويين، ولكن ماذا بعد؟ هل بالإمكان تغيير الخليفة بالانتصار على جيوش الأمويين فى العراق، وهل يستسلم

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٦) . (٢) الفقهاء والخلفاء، ص(٨٠)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٢).
(٣) الفقهاء والخلفاء، ص (٨٠).

الشام بهذه السهولة، أو تقـر الأقطار الإسلامية ذلك؟ وهل يكون ابن الأشعث هو الخليفة للمسلمين فى حالة القضاء على عبد الملك، لقد دخلت الثورة فى طريق شائك معقد بمجرد رفضها عرض الخليفة بعزل الحجّاج، واضطربت أهدافها مما أدى إلى وأدها وفشلها، وانتصار جيوش الخليفة عليها[1].

د- ذكاء الخليفة عبد الملك ودعمه المستمر بالجيوش للحجّاج: فقد مال للصفح والمسالمة والمسامحة، ولبى طلب أهل العراق فى عزل الحجّاج من أجل حقن الدماء وتوفير الجهود والحفاظ على الجبهة الداخلية الواحدة المتراصة، وكان عرضه على ابن الأشعث فى عزل الحجّاج كسبا سياسيًا له حيث تبلبل صف ثورة ابن الأشعث واختلفت الآراء، وكان عبد الملك فى نفس الوقت قد أعد جيشين من أهل الشام، وسلم القيادة لأقرب الناس إليه، إلى أخيه وولده وأمرهما بالتقيد بأوامر والى العراق[2]، إن إعداد العساكر المقاتلة والقادة وتزويدهم بكل ما يحتاجون ثم تكليفهم بالمفاوضة مع ابن الأشعث، منحت الثقة لابنه وأخيه، وهزت قرارة نفوس العراقيين، وهذا من رباطة جأش الخليفة، فكأنما قد قدّم جرعة كبيرة من الحرب النفسية، الأمر الذى أدخل الرهبة فى نفس المفاوض الأول حتى مالت نفس ابن الأشعث للرضوخ لولا أصحابه، كما أكسبت الثقة للجنود الشاميين فكانوا يقاتلون ببسالة، ومن هنا يظهر دور الخليفة فى كبح الحجّاج حينًا، وفى إعداد الجيش حينًا آخر، فلولاه لما كان بالإمكان القضاء على هذه الانتفاضة، وبهذا القدر من الجهد، ويعود ذلك إلى السياسة المتجددة، القائمة على أصول من الفهم الكامل لخطط الخليفة البعيدة المدى، فقد كان رجل دولة من الطراز الأول يملك خطة مستقبلية لدولة قادرة على وضع أهدافها التكتيكية والاستراتيجية من أجل بناء دولة القوة والمنعة[3] على أسس راسخة من الملك العضوض.

هـ- القيادة لم تكن بيد العلماء وإنما بيد الأشعث.

و- عدم وجود تنظيم قوى يتحكم فى توجيه الثوار وفق الأهداف المرسومة من القادة.

---

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٥٨٧).

(٢) تجديد الدولة الأموية فى عهد الخليفة عبد الملك، ص (١٣٢). (٣) المصدر نفسه، ص (١٣٣).

ز- شخصية بن الأشعث وطبيعة جيشه: لم تكن شخصية ابن الأشعث تملك الصفات القيادية من بعد نظر، وثاقب فكر، وتقدير للأمور، وثبات فى المواقف، فقد وقع فى شباك رتبيل، وباعه للحجّاج مقابل مصالحه وتحالف مع الكفّار ضد المسلمين، ولم يستطع أن يقود جيشه كما يريد بل انقاد لعواطف ومشاعر الجنود، فأودت به إلى حتفه، كما أن جيشه لم يكن ينقصه عدد أو عدة، ولكن حماسهم خفّ بسبب طول انتظارهم، ولم تكن لهم طاعة قوية لرؤسائهم، بعكس أهل الشام الذين كانوا جندًا نظاميين بكل ما لهذه الكلمة من معان[1]، وهذه أبيات من الشعر تصوّر حزنهم واعترافهم بأنهم لم يصبروا ويدافعوا حق المدافعة عن دنياهم التى أضاعوها بتفريطهم:

أيا لهفًا ويا حزنًا جميعًا	ويا حر الفؤاد لما لقينا
تركنا الدين والدنيا جميعًا	وأسلمنا الحلائل والبنينا
فما كنا أناسًا أهل دين	فنصبر فى البلاء إذا ابتلينا
وما كنا أناسًا أهل دنيا	فنمنعها ولو لم نرجُ دينا
تركنا دورنا لطغام عَكٍ	وأنباط القرى والأشعَرينا[2]

٦ ـ من نتائج فشل ثورة ابن الأشعث:

أ ـ ازدياد تسلط الحجّاج: ترتب على فشل نتائج ثورة ابن الأشعث نتائج خطيرة وسيئة، فقد زاد انتصار الحجّاج فى النهاية على الثوار من تسلطه وتجبره، واشتد أكثر فى تضييقه على العلماء، فقتل من قتل منهم، وسجن من سجن منهم، وهرب من وجهه من استطاع[3].

ب ـ ندم الكثير من العلماء: وندم الكثير من العلماء المشاركين فى ثورة ابن الأشعث، فهذا طلحة بن مصرف يقول: شهدت الجماجم، فما رميت، ولا طعنت، ولا ضربت، ولوددت أن هذه سقطت هنا ولم أكن شهدتها[4]، وعن محمد بن طلحة قال: رآنى زبيد اليامى مع العلاء بن عبد الكريم ونحن نضحك

---

(١) تاريخ خلافة بنى أمية، ص (١٧٧).
(٢) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٦٦).
(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٥٨٨).
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٩٢).

فقال: لو شهدت الجماجم ما ضحكت، ولوددت أن يدى - أو قال: يمينى - قطعت من العضد وأنى لم أكن شهدت[١]، كما ندم عقبة بن عبد الغافر على مشاركته فى القتال كذلك، وغيرهم من العلماء.

جـ - انتصار رأى العلماء القائلين بعدم الخروج: علت منزلة العلماء الذين اعتزلوا تلك الفتنة ولم يشاركوا فيها، فعن ابن عون قال: كان مسلم بن يسار أرفع عند أهل البصرة من الحسن حتى خف مع ابن الأشعث وكف الحسن، فلم يزل أبو سعيد - يعنى الحسن - فى علو منها[٢]، وقد أسهمت حركة ابن الأشعث - بنهايتها بتلك الصورة - فى إقناع كثير ممن كان يرى استخدام القوة وحمل السيف لتغيير الجور والظلم الواقع من الولاة بعدم جدواها ولذلك قال ابن تيمية عقب الحديث عما حدث من فتن وقعت باجتهاد من بعض أهل العلم والصلاح، كخروج الحسين بن على رضى الله عنه، وفتنة خروج أهل المدينة، ووقعة الحرّة، وفتنة ابن الأشعث قال: ولهذا استقر مذهب أهل السنة على ترك القتال فى الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبى ﷺ، وصاروا يذكرون هذا فى عقائدهم، ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم[٣]، وقال ابن حجر فى ترجمة أحد هؤلاء الذين كانوا يرون السّيف: كان يرى الخروج بالسّيف على أئمة الجور، وهذا مذهب للسّلف قديم، لكن استقر الأمر على ترك ذلك؛ لما رأوه أفضى إلى أشدّ منه، ففى وقعة الحرّة ووقعة ابن الأشعث - يعنى: دير الجماجم - وغيرهما عظة لمن تدبر[٤].

د- ظهور بدعة الإرجاء: أو نوع منه وهو ما يسمى «إرجاء الفقهاء» نسبة إلى بعض الفقهاء الذين يقولون بأن الإيمان قول بلا عمل، وأنه لا يزيد ولا ينقص، فالإيمان عندهم واحد يستوى فيه كل من اعتقده بقلبه وقال بلسانه، حيث يخرجون الأعمال - التى يتفاضل فيها المؤمنون - عن الإيمان، فيستوى عندهم إيمان الصادقين الأولين كأبى بكر وعمر، وإيمان أفجر الناس كالحجّاج، وأبى مسلم الخراسانى وغيرهما[٥]، والذى دعا إلى الربط بين ظهور ذلك النوع من

---

(١) تاريخ خليفة، ص (٢٨٧).
(٢) الطبقات الكبرى (٧/ ١٦٥).
(٣) منهاج السنة (٤/ ٥٢٩، ٥٣٠)، الإمامة العظمة، ص (٥١٢).
(٤) تهذيب التهذيب (٢/ ٢٥٠).
(٥) الفتاوى (٧/ ١٩٥).

الإرجاء وحركة ابن الأشـعث ما يشير إليه كثير من الذين كـتبوا عن تاريخ الفرق، حيث اشتهـر عندهم قول قتادة: إنما أحدث الإرجاء بعـد هزيمة ابن الأشعث[١]، وذكروا أن الكوفة كانت موطن الإرجـاء الأول ثم انتشر منها إلى سائر الأقطار[٢].

ويقول الدكتور ناصـر العقل: أول ما ظهرت بدعة الإرجاء بعـد فتنة ابن الأشعث سنة (٨٣هـ)[٣]، وهو إرجاء العمـل عن الإيمان ويسمى «إرجاء الفـقهاء»، وأول من قال به هو: ذر بن عـبد الله المرهبى الهمدانى، مـات قبل المائة[٤]، ثم ظهور القـول بأن الإيمـان قـول، وأول من قال ذلـك حمـاد بن أبى سليـمـان[٥]، ت ١٢٠هـ، واستقر إرجاء الفقهاء على ثلاثة أسس كلها مخالفة لقول السلف وهى:

- زعمهم أن العمل لا يدخل فى مسمى الإيمان، وأن الإيمان هو التصديق.
- زعمهم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.
- زعمهم أنه لا يجوز الاستثناء فى الإيمان[٦].

ويقال أن ذرًا بن عبد الله المرهبى ـ وكان ممن شارك فى فتنة ابن الأشعث ـ بعد الهزيمة أصيب بردة فعل جعلته يتحول من تكفير الحجّاج وقتاله إلى اتجاه معاكس، وهو الإرجاء الذى يسوى فيه أصحابه بين إيمان الحجّاج وإيمان غيره، ولو كان من أعبـد الناس وأتقاهم لله[٧]. ويقول طاووس بن كـسيان ـ منتـقدًا ذرًا المرهبى ومن سلك مسلـكه من الفقهـاء-: عجبـت لإخواننا من أهل العراق يـسمون الـحجّاج مؤمنًا. قـال الذهبى معلقًا على قـول الطاووس: قلت: يشير إلى المرجـئة منهم، الذين يقولون: هو مؤمن كامل الإيمان مع عسفه وسفكه الدماء وسبه الصحابة[٨]، وهكذا دأب الفتن فإنها غـالبًا ما تفرز بعدها بعض التوجهـات المنحرفة أو المواقف المتضاربة تجاه أمر معيـن، حيث لا يسلم من ذلك إلا من عصمه الله بنور الإيمان ورسوخ العلم، جعلنا الله منهم[٩].

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٨٨٩).

(٢) الفتاوى (٧/ ٣١١)، القدرية والمرجئة للعقل، ص (٨٦، ١١٦).

(٣) السنة لعبد الله بن حنبل (١/ ٣٠٩).

(٤) المصدر نفسه، (١/ ٣٢٩).

(٥) الفتاوى (٧/ ٢٩٧، ٣١١).

(٦) دراسات فى الأهواء والفرق والبدع، ص (٢٤٨).

(٧) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٥٩٢).

(٨) سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٤).

(٩) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٥٩٣).

٧ ـ ممن عفا الحجاج عنهم الشعبى وأسيرين:

أمر الحجّاج بعد انتهاء دير الجماجم مناديه أن يقول: من لحق بقتيبة بن مسلم بالرى فهو آمن، فكان الشعبى من الذين توجهوا إلى الرى فذكره الحجّاج يومًا وسأل عنه فعلم بلحوقه بالرى، فكتب إلى قتيبة بن مسلم يأمره بإرسال الشعبى إليه، فأرسله إليه فلما قدم على الحجّاج لقيه يزيد بن أبى مسلم ـ حاجب الحجّاج ـ وكان صديقًا للشعبى ـ فقال للشعبى: أشر علىَّ. فقال يزيد: اعتذر ما استطعت، وقال الشعبى: وأشار بمثل ذلك إخوانى ونصحائى، فلما دخلت على الحجّاج رأيت غير ما ذكروا لى، فسلمت عليه بالإمرة وقلت: أيها الأمير، إن الناس قد أمرونى أن أعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق، وأيم الله لا أقول فى هذا المقام إلا الحق، قد والله مردنا عليك، وحرّضنا وجهدنا، فما كنّا بالأقوياء الفجرة ولا بالأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا وما جرّت إليه أيدينا، وإن عفوت عنا فبحلمك، وبعد، فالحجة لك علينا[1]. فقال الحجاج: أنت والله أحبّ إلىّ قولاً ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا، ثم يقول: ما فعلت ولا شهدت، وقد أمنت يا شعبى، كيف وجدت الناس بعدَنا؟ فقلت: أصلح اللهُ الأمير، اكتحلت بعدك السحر، واستوعرت الجناب، واستحلست الخوف، وفقدت صالح الإخوان، ولم أجد من الأمير خلفًا. قال: انصرف يا شعبى، فانصرفت[2]. ولم يقتصر العفو على الشعبى لأنه فقيه أهل العراق فقد عفا عن أشخاص من عامة الناس لصدقهم فيروى أنه أُتى بأسيرين، فأمر بقتلهما فقال أحدهما، إن لى عندك يدًا، قال: ما هى؟ قال: ذكر ابن الأشعث يومًا أمك بسوء فنهيته، فقال الحجّاج: ومن يعلم ذلك؟ قال: هذا الأسير الآخر، فسأله الحجّاج فصدقه، فقال له الحجّاج: لم لم تفعل كما فعل؟ قال: ينفعنى الصدق عندك؟ قال: نعم، قال: منعنى البغض لك ولقومك. فقال الحجّاج: خلوا عن هذا لفعله، وعن هذا لصدقه[3].

---

(١) الكامل فى التاريخ (٣/ ١٦٥).

(٢) المصدر نفسه (٣/١٦٦) .

(٣) عيون الأخبار (١/٩٨)، الحجاج بن يوسف المفترى عليه، ص (٢٩٢).

٨ ـ توحيد الدولة والقضاء على الثورات الداخلية:

استطاع عبد الملك أن يقضى على كل الحـركات الداخلية، وقد ذكرت أهم هذه الثـورات، كثورة الأزارقـة، والصفـرية، وابن الأشعـث، وهناك حركـات أخرى ذكرتها كـتب التاريخ كحركة مطرف بن المغـيرة بن شعبة، وعـبد الله بن الجارود، وحركـة الأزد فى عمـان، وفى نهاية المطاف تغـلب عبد الملـك عليها واحـدة تلو الأخرى ووضع الأسـاليب المناسبة لتـحقيق الأهداف المخططة لذلك، وقـد أثبتت الأحداث قدرة الخليفة عبد الملك بن مروان على مـعرفة الأحداث معرفة جيدة، ثم السيطرة على هذه الأحـداث والقدرة على احتـوائها، باستئـصال خصومـه حينًا، والتسامح معهم حينًا آخر، ضمن خطة سياسية ومنهج قائم على أهداف واضحة، أدت إلى النتائج المتـوخاة، وهى إعادة الوحدة السـياسية مـرّة أخرى، مما أدى إلى إيجاد علاقـات جديدة مع الدولة البيزنطيـة، والقيام بفتوحـات جديدة فى الشرق والغرب، ثم القـيام بالعديد من الإصـلاحات الجديدة، منحت سـياستـه الداخلية والخارجية قدرة على التخطيط الشامل الذى يؤدى إلى تحقيق الأهداف المنشودة[١].

---

(١) تجديد الدولة الأموية، ص (١٣٤).

المبحث الثالث

النظام الإدارى فى عهد عبد الملك

اهتم عبد الملك بن مروان اهتمامًا خاصًا بإدارة شئون الدولة، وسار على نهج معاوية فى تطوير المؤسسات والاهتمام بالإصلاحات، وقد قام بتطوير الجهاز الإدارى وتنشيطه، وقام بتعريب الإدارة والنقد، وهو ما يعرف بحركة التعريب، كما استعان بنخبة من أمهر رجال عصره فى الإدارة والسياسة، فقد كرّس عبد الملك كل وقته وجهده لتوطيد أركان الدولة وتنظيمها والسهر على سلامتها، حتى تركها قوية غنية مرهوبة الجانب مرعية السلطان[١]، وقد أعاد عبد الملك تنظيم الحكم الأموى على أسس جديدة، واستفاد من سياسة معاوية ومن الأنظمة التى وضعها، ولكنّ نزعته للتفرد بالسلطان والحكم جعلته يخالف معاوية رضى الله عنه فى كثير من الأمور، فمعاوية كان يُشعر جلساءه وقواده وولاته على الأقطار أن لهم الحرية فى النقد والقول، والرأى، أما عبد الملك فلا يشعرهم بشىء من ذلك، فهم بين يديه ليسيروا على هواه، وليقدم إليهم الأوامر فينفذوها، فما كان يسمح لجلسائه بأن يجتزئوا من سلطانه شيئًا، وقد نظم دولته على هذا الأساس من التمسك بالسلطان والسيادة والانفراد ونظم وسائل الحكم تنظيمًا جعله السيد المتفرد فى دولته، ويبدو أن نظرته للنظام شملت النواحى الآتية:

- دواوين الدولة، فهى الأسلاك التى تدير دفة الحكم والأمة.
- الولاة، فهم الذين ينفذون سياسة الدولة ويضبطون الملك.
- البريد فهو الذى يوصل بين أطراف الدولة[٢].

وتلك النظرة تشير إلى مبدأ فى السيطرة، فالأمور المذكورة إنما هى أسلاك وخيوط فى يده يحرك بها أجزاء خلافته ويستخدمها لسلطانه[٣]، وإليك أهم معالم التطوير الإدارى فى عهد عبد الملك.

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١٥٣).   (٢) الدولة الأموية، يوسف العش، ص (٢٢٩).
(٣) المصدر نفسه، ص (٢٢٩).

أولاً: الدواوين:

١ ـ ديوان الرسائل: وقد تطور هذا الديوان كثيـرًا فى عهد عبد الملك، وازدادت أهميـته بشكل واضح ولا سيـما أثناء ولاية الحجاج للعـراق، نظرًا للمستـجدات السياسية والعسكرية ووجود المتمـردين والخارجين على الدولة، مما استوجب متابعة أخبارهـم، فكان الخليفة عبـد الملك يكتب للحجاج بشأنهـم، مما كان باعثًا مـهمًا لازدهار ديوان الرسـائل والكتابة، فكانت هـذه الرسائل تصـدر من الديوان بشكل مستمر إلى من يهمـه الأمر لمعالجة أوضاع تلك الإضطرابات[1]، حيث إن الخليفة عبد الملك كـان غالبًا ما يلجأ إلى المكاتـبات السياسية فـى محاولة منه أن يفت فى عضد قـادة الحركات، فقد راسل -وقبل اجـتماع الأمة عليه- مـصعب بن الزبير، وابن الأشتر[2]، كما كان يرسل التوجـيهات الإدارية والعسكرية إلى ولاته وقادته، وكان من الطبـيعى أن تزداد مراسلات الحـجاج إلى ولاته وقادته ومراسـلاتهم إليه كالمهلب بن أبى صفـرة مثلاً[3]، ويلاحظ كثرة التواقيع[4]. فى مراسلات الخليفة عـبد الملك مع الحـجاج بن يوسف الثـقفـى، والتى تؤكد أهمـية ديوان الرسـائل وتطوره، وتوضح فى جانب منهـا طبيعة سيـاسة الخليفة الإدارية، فـوقع مثلاً فى كتـاب أرسله إلى الحجـاج: جنبنى دمـاء ابن عبد المـطلب فليس فيـها شـفاء من الطلب[5]، وجاء فى كتـاب للحجاج: ارفق بهم فـإنه لا يكون مع الرفق ما تكره ومع الخرق ما تحب[6]، ونظرا لأهمية الرسائل فإن الخليـفة عبد الملك بن مروان، وكـذلك الحجـاج لم يسـتخـدمـا فى هذا الديوان إلا من هو مـوضع ثقة وأمـانة وإخلاص كمـا اختير الكتاب الحاذقـون الذين يجمعون بين الخبـرة الإدارية وكتابة الرسائل وإجادة أسلوب المخـاطبة، ومن أشهر من اسـتخدمهم الخليفـة عبد الملك قبـيصـة بن ذؤيب، وبلغ من علو مكانتـه أنه كـان يطلع على الكتب الواردة إلى الخليفة قبل أن يعرضها على الخليفة نفسه[7]. ومن كتابه المشهورين روح بن زنباع

---

(١) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٣٧).

(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (١٣٧).

(٣) الأخبار الطوال، ص (٢٧٧ـ ٢٨٠)، نهاية الأرب (٧/ ٢٤٦، ٢٤٧).

(٤) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٣٧). (٥) العقد الفريد (٤/ ٢٠٧).

(٦) خاص الخاص، للثعالبى، ص (٨٧). (٧) أنساب الأشراف للبلاذرى (٥/ ٣٥٦).

الجذامى، وكان روح هذا علـى جانب كبير من العلم والأمـانة إذ كان يقول فيـه عبد الملك: ما أعطى أحد ما أعطى أبو زرعة ـ وكان يقال عنه: أعطى فقه الحجاز، ودهاء أهل العراق، وطاعـة أهل الشام[1]، والحق أن عبـد الملك سلسل الأمور فى أعـمال الدولة تسلسـلاً دقيـقًا ووضع فى ديوان الـرسائل مـوظفين عـارفين، وعلى رأسـهم مستشاره الخاص، يستشيره فى الرسائل التى يرسلها إلى الأقطار والتى ترد منها[2].

٢ ـ ديوان العطاء: أدرك الخليفة عبد الملك بن مروانِ أهمية العطاء، وبدأ العطاء فى عهده يرتبط بشكل واضح بـالنواحى العسكرية والسياسيـة، ففى سنة ٦٩ هـ، خرج عبد الملك لقتـال مصعب بن الزبير، فتخلف بعض من أهل الشـام عن الخروج معه، فأخذ خمس أموالهم من عطاء سنة ٧٠ هـ على الرغم من حبه العميق لهم[3]، كما كان عبـد الملك يضطر أحيانًا وتحت ضـغط الظروف إلى زيادة العطاء أو إدخال أناس آخرين فى الديوان، كما فـعل حين تمرد الجراجمة، إذ أعلن قائده سـحيم بن المهاجر على لسان الخليفة: من أتانا من العبيد فهو حر ويثبت فى الديوان، فانفض إليه خلق كثير[4]، كما استخدم سلاح زيادة العطاء أيضًـا ضد عبد الله بن الزبير، حينما نادى الحجاج جنده قائلاً: يا أهل الشام قاتلوا على أعطيات عبد الملك[5].

وقد حدث تطور مهم لديوان الجند فى عهد عبد الملك فى العراق خاصة وذلك حينما بدأ الجند يتـقاعسون عن الخروج لقـتال الخوارج، فعين عبـد الملك الحجاج على العراق، وأمـره أن يعيد تنـظيم ديوان الجند، وتنظيم العطاء فيـه على أساس المقدرة والكفاءة، فـأعاد الحجاج تنظيم ذلك على أسس دقـيقة[6]، ثم أمر بإعطاء الناس عطاءهم، والتوجه لجـبهات القتال، وتوعـد المتخلفين منهم بالموت[7]، كما لم يقبـل إعفاء جندى من الخـروج للقتـال مقابل تـركه عطاءه[8]، وقد استـخدم الخليفة عبد الملك العطاء وسيلة للقضـاء على الفتنة، فقد كتب يومًا إلى الحجاج،

---

(١) البيان والتبيين (٢/ ٧٧) الإصلاحات المالية، ص (١٣٨).

(٢) الدولة الأموية، يوسف العشى، ص (٢٣).

(٣) سراج الملوك للطرطوش، ص (١١٨).

(٤) الكامل فى التاريخ نقلاً عن الإصلاحات المالية والإدارية، ص (١٣١).

(٥) الإصلاحات المالية والإدارية، ص (١٣١).

(٦) العراق فى عهد الحجاج، طه عبد الواحد، ص (١٢٦، ١٢٧) .

(٧) تاريخ الطبرى نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (١٣٢).

(٨) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٣٢).

أن يصف له الفتنة فوصفها له: فكتب إليه عبد الملك: فإن أردت أن يستقيم لك من قبلك فخذهم بالجماعة وأعطهم عطاء الفرقة[1]، وكان الحجاج يصرف العطاء بأكمله لجنده فى أوقات الأزمات السياسية أو الاستعداد للقتال، كما فعل حينما أعطى الناس أعطياتهم كاملة عند تجهيز جيش الطواويس لقتال رتبيل[2]، ومن ناحية أخرى، فإن الخليفة عبد الملك بن مروان، كان يكرم من أسدى خدمة عسكرية للدولة أو أظهر بطولة وشجاعة فى جبهات القتال، فقد كرّم موسى بن نصير حينما حرر إفريقية سنة ٨٣هـ[3]، كما كرّم الحجاج المهلب بن أبى صفرة وأصحابه لجهودهم فى القضاء على الخوارج الأزارقة، إذ أحسن عطاياهم وزاد فى أعطياتهم ثم قال: هؤلاء أصحاب الفعال وأحق بالأموال، هؤلاء حماة الثغور وغيظ الأعداء[4]، وأما إدارة هذا الديوان، فكان من أشهر من تولاه للخليفة عبد الملك بن مروان هو سرجون بن منصور الذى تولى ديوانى الجند والخراج فى دمشق[5]، ثم عزله الخليفة وعين بدله سليمان بن سعد الخشنى[6].

٣ ـ ديوان الخراج: كما ذكرنا قبل قليل، أن سرجون بن منصور كان قد تولى إدارة ديوان الخراج والجند على عهد الخليفة عبد الملك[7]، ثم عزله وعين بدله سليمان بن سعد الخشنى[8]، وكان يساعد صاحب الخراج عدد غير قليل من الكتّاب والموظفين، إذ كان بديوان خراج مصر حوالى أربعة وأربعين موظفًا[9]، ويبدو أن متولى الخراج كان يحصل على أموال طائلة من عمله، مثل «أثيناس» متولى الخراج فى مصر على عهد عبد الملك، حيث كان واسع السلطات عظيم النفوذ[10]، وكان أشهر من تولى ديوان خراج العراق هو (زادان فروخ)[11] ثم صالح بن عبد الرحمن[12].

---

(١) مروج الذهب (٣/١٢٦). (٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الإصلاحات المالية ص (١٣٢).

(٣) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٣٢).

(٤) تاريخ الطبرى نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (١٣٣).

(٥) الوزراء للجهشيارى، ص (٤٠).

(٦) الوزراء للجهشيارى، ص (٤٥) نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (١٣٣).

(٧) الوزراء للجهشيارى، ص (٤٥) نقلاً عن الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٣٤).

(٨) التنبيه للمسعود، ص (٢٧٣)، الإصلاحات المالية، ص (١٣٤).

(٩) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٣٥).

(١٠)، (١١) المصدر نفسه، ص (١٣٥). (١٢) المصدر نفسه، ص (١٣٥) نقلاً عن الكامل فى التاريخ.

٤ ـ ديوان الخاتم: فى عصر الخليفة عبد الملك بن مروان تطور ديوان الخاتم، فأصبح إدارة منظمة، كما نشأت فى هذه الفترة دار للمحفوظات الحكومية فى دمشق[(١)]، ومن المحتمل أن هذا الديوان لم يقتصر على العاصمة دمشق، بل ربما وجد فى باقى الولايات خصوصًا بعد التنظيم الإدارى الواسع الذى قام به الخليفة عبد الملك بن مروان، وكذلك لكثرة المراسلات مع الولايات المختلفة وأهميتها السياسية، ولا سيما مع العراق، وكان الخليفة عبد الملك لا يولى هذا الديوان إلا أوثق الناس عنده[(٢)].

٥ ـ ديوان الطراز: يراد بالطراز فى الأصل التطريز، ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير ورجال حاشيته، لا سيما إذا كان فيها شىء من التطريز، وعليه أشرطة من الكتابة، ثم اتسع مدلول الطراز، فأصبح يطلق على المصنع والمكان الذى تصنع فيه مثل هذه المنسوجات[(٣)]، وفى العصر الأموى ارتفع المستوى المعيشى، فزادت عناية الناس بمظاهر الترف والأبهة، لذلك أنشأ الأمويون عددًا من المصانع عرفت بدور الطراز[(٤)]، وقد أهتم الخليفة عبد الملك بن مروان بالطراز، فنظمت صناعته بشكل واسع وأصبح أساسًا لما حدث من نهضة فى صناعة النسيج، وبخاصة زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك[(٥)].

٦ ـ ديوان البريد: عندما تولى الخلافة عبد الملك طوّر الأجهزة التى تساعده على جمع المعلومات، ولذلك اعتنى بشكل كبير بالبريد بوصفه وسيلة مهمة من وسائل ضبط دولته وانتظام أمورها، فطوّره ونظمه وأرسى قواعده[(٦)]، فلم يعد وسيلة لنقل الأخبار والرسائل بين العاصمة والولايات، بطريقة تبادل الخيل وحسب، بل أصبح وسيلة مهمة فى العمليات العسكرية، ونقل الأشخاص المهمين والمواد المختلفة، باستخدام الرحلات السريعة والمنظمة، كما أصبح عينًا للخليفة فى نقل أخبار الإقليم والعمال وشكاوى الناس من عمالهم وموظفى الدولة هناك، ومن أجل تسهيل عمل البريد وانتظامه وسرعته، قام الخليفة عبد الملك بن مروان بتنظيم

---

(١) الإدارة العربية للحسينى، ص (٦٩) .

(٢) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٤١).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٥٦).

(٤) المدخل، ناجى معروف، ص (١١٥).

(٥) النسيج الإسلامى سعاد ماهر، ص (٢٥) .

(٦) الأوائل للعسكرى، ص (١٩١).

طرق البريد، وتحديدها وتثبيتها، فقام ببناء الأميال فى الطرقات[1]، كعلامات دلالة للطرق وتحـديد مسـافاتهـا، ومما يؤكد ذلك، مـا وصل إلينا من نقـوش معـاصرة للخليفة عبـد الملك، كشفت بالقرب من بيت المقدس تشـير إلى أوامره بعمل هذه الأميال[2]، فقد بذل الخلـيفة عبد الملك عناية فـائقة فى تنظيم الطرق وصيـانتها، فأصبحت تخترق الدولة طرق عـديدة أقيمت على طولها محطات للبريد[3]، وقد أفاد الخليفة عبد الملك فائدة كبيرة من البريد خصوصًا فى الجوانب العسكرية، سواء كان ذلك بإرسـال الجند، والإمدادات والأوامر إلى قادة جنده، أو فى نقل أخـبار المعارك والتحركات العسكرية إليه[4]، وإدراكًا من الخليفة عبد الملك لأهمية البريد وكسبًا للوقت فـقد جعل على هذا الديوان أخص خاصته وهو قـبيصة بن ذؤيب، وأمر بألا يُحجب أى ساعـة جاء من ليل أو نهار[5]، وتأكيدًا لذلك فـقد منع عبد الملك حـاجبـه أن يحجـب صاحب البـريد، قائلاً لـه: وليتك مـا خلف بابى إلا أربعة: . . والبـريد متى جاء من ليل أو نهـار فلا يُحجب، وربما أفسـد على القوم تدبير سُنَتهم[6]، حبسهم الـبريد ساعة[7]، ونتيجـة ذلك أن انتظم البريد وأصبح الخليفة يطلع بشكل يومى على تفاصيل الأحداث[8]، وقد استخدم البريد فى عصر عبد الملك أيـضًا فى حمل الأشخاص، ومن مـختلف المستويات كـالولاة والكتاب والشعـراء وغيرهم، كمـا حمل كتب التأيـيـد والرضا عن الخليفة مـن الأشخاص المهمين[9]، وكان الحجّاج هو أيضًا دائم الصلة بقواده فى جـبهات القتال، ويتسمع أخبارهم بواسطة البريد، فكانت كتب الحجّاج ترد على محمد بن القاسم الثقفى، وكتب محـمد ترد عليه بصفة مـا قبله واستطلاع رأيه فيمـا يعمل به فى كل ثلاثة أيام[10]، ووصول الكتب بهذه السرعة يدل على التنظيم الرائع للبريد[11].

---

(١) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٤٥) .

(٢) المصدر نفسه، ص (١٤٥) .

(٣) تاريخ القدس للعارف، ص (٥٢).

(٤) الإصلاحات المالية، ص (١٤٦).

(٥) الطبقات (٥/ ١٧٦)، (٥/ ٢٣٤).

(٦) سنتهم: طريقتهم .

(٧) الأوائل، ص (١٩١)، الإصلاحات المالية، ص (١٤٧).

(٨) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٤٧).

(٩) الأخبار الطوال، ص (٣٢٤)، الإصلاحات المالية، ص (١٤٨). (١٠) فتوح البلدان للبلاذرى ص (٤٢٤).

(١١) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٤٨).

ومن وسائل الاتصـال والمخابرة الجديدة التى اسـتخدمـها الحجّـاج فى الأحوال العسكرية خاصة لإيصال الأخبار بين واسط وقزوين بسرعة، هو بناء المناظر والمنائر التى توضع على المرتفعات العالية حيث تنقل الإشارات بواسطتها عن طريق إشعال النار أو الدخان، فـيصل الخبر بسـرعة عن طريق انتقاله من منظـرة لأخرى، وقد وضح ياقوت الحموى ذلك بقـوله: . . وكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر إن كان نهاراً، وإن كان ليلاً أشعلوا نيرانًا وتجـرد الخيل إليه، وكانت المناظر متصلة بين قزوين وواسط[1]، ويبدو أن ما كان ينفقه عبد الملك على إدارة البريد لم يكن قليلاً لاسيما أنه قد بذل جهودًا كبيرة لتطويره وتنظيمه[2]، ويمكن القول بأن الخليفة عبد الملك بن مروان هو أول من عمل ديوان البريد مؤسسة إدارية منظمة مستقلة، وهذا لا يعنى عدم وجود البريد المنتظم فى عهد الخليـفة معاوية بن أبى سفيان إلا أنه لم يكن ديوانًا متكامـلاً مستـقلاً، خصوصًـا أن مصادرنا التـاريخية، لا تذكـر البريد بوصفـه ديوانًا إلا فى عهد عبـد الملك بن مروان[3]، فالبريد فى نـظر عبد الملك عصب الدولة الحساس، ولذلك أقام له المحطات وفتح له المسالك ونظم مواعيده[4].

ثانيًا: تعريب الدواوين وأسبابه والنتائج التى ترتبت عليه:

جاءت عملية تعريب الدواوين ضمن الخطة المرسومـة لسياسة الدولة الإصلاحية التى بدأها الخليفة عـبد الملك بن مروان، وأكملها الخلفـاء الذين جاءوا من بعده، والتى تضمنت نقل الدواوين من اللغات الأجنبية، الفارسـية، واليونانية، والقبطية إلى اللغـة العربيـة لإزالة النفوذ الأجـنبى من مؤسـسات الدولة الإدارية والماليـة، وعملية التعـريب التى ابتدأها عبد الملك تعتبر من الأحـداث العظيمة والجليلة التى قام بها عبد الملك وفق خطة شاملة.

وكان لتعريب المؤسسات الإدارية (الدواوين) أسباب كثيرة منها:

١- إن دخول شعوب وأقوام مختلفة اللغات والديانات إلى الإسلام يعنى حاجة هؤلاء الماسة إلى التـفقه بالدين وقـراءة القرآن الكريم، مما شدد الصـراع بين اللغة العربيـة واللغات الأخـرى، ومن ثم إلى شيـوع اللحن، لذلك اعتنى عـبد الملك

---

(١) معجم البلدان (٥/ ٣٥٠).
(٢) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٤٩).
(٣) المصدر نفسه، ص (١٤٩).
(٤) الدولة الأموية، العشى ص (٢٣٦).

وواليه الحجّاج بن يوسف، بضبط قراءة القرآن، عن طريق تمييز الحروف المتشابهة بوضع النقط عليها[1]، لذلك كان التعريب ضرورة ملحة، وكان الحرص على سلامة اللغة العربية من العوامل المهمة التى أدت تعريب الدواوين فى عصر الخليفة عبد الملك بن مروان[2].

٢-كان الخليفة عبد الملك يهدف من وراء التعريب إلى تحقيق وحدة الدولة وتماسكها، إذ أن اختلاف لغات الدواوين يكرّس اختلاف النظم المالية والإدارية، ويعيق عملية تنظيم وتوحيد إدارة الدولة، كما أن تعريب الدواوين يعنى إنهاء التأثيرات الشعوبية والعنصرية، مما يؤكد سيادة الدولة سياسيًا على البلاد المفتوحة.

٣-إن استعمال اللغات الأجنبية فى الدواوين يعنى بقاء هذه اللغات حية وكأنها رسمية، فيتعلمها الناس لحاجة الدولة إليها لكونها طريقًا لتولى الوظائف الكبيرة، وينتج عن ذلك استمرار منافسة هذه اللغات اللغة العربية، مما يضعف من شأنها، ويضعف كيان الدولة الأموية، ولذلك كان التعريب جزءًا من سياسة عبد الملك بن مروان الهادفة إلى إعادة تنظيم جهاز الدولة الإدارى، وتحقيق شخصية الدولة واستقلالها عن النفوذ الأجنبى[3].

٤-كان للعوامل الاقتصادية أثر مهم فى تعريب الدواوين، فقد كان متولى هذه الدواوين يحصلون على أموال طائلة من عملهم هذا، لذلك كان تعريب دواوين الخراج خطوة أولى باتجاه إعادة تنظيم طريقة جباية الضرائب فى الأقاليم، وبذلك يمكن ضبط أعمال تلك الدواوين والإشراف بدقة عليها، فيمنع الغش والتزوير، أى أن تعريب الدواوين هو جزء من خطة الإصلاح المالى الذى كانت الدولة بحاجة شديدة إليه إذ ذاك[4]، ولاسيما فى العراق أهم أقاليم الدولة الأموية اقتصاديًا، حيث حاول الحجّاج بن يوسف الثقفى معالجة الأوضاع الاقتصادية وذلك بالسيطرة على الشئون الإدارية عن طريق السيطرة على سجلات الدواوين المالية[5]، هذه هى أهم الأسباب التى دعت عبد الملك ليعرّب الدواوين.

---

(١) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٦٩).
(٢) المصدر نفسه، ص (١٦٩).
(٣) المصدر نفسه، ص (١٦٨).
(٤) المصدر نفسه، ص (١٦٨).
(٥) المصدر نفسه، ص (١٦٨).

* نتائج تعريب الدواوين:

حققت حركة تعريب الدواوين على يد الخليفة عبد الملك بن مروان نتائج ذات آثار عظيمة فى جميع الميادين السياسية والإدارية والثقافية واللغوية، ما زالت نتائجها شاخصة للعيان حتى اليوم ويمكن تحديد نتائج حركة التعريب بما يأتى:

١- تحقيق سيادة لغة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وتعزيز مكانتها، وانتصارها على اللغات الأجنبية فى الدولة، كالفارسية واليونانية، والقبطية، إذ أصبحت لغة الدين الإسلامى، لغة السياسة والدين والعلم، وأصبحت مادة التفاهم اليومى فى كل أنحاء الدولة، فانتشرت الثقافة العربية التى طغت على الثقافات الأخرى، وتفاعلت معها وأذابتها وحلت محلها، إذ اعتبر التعريب من الأحداث الكبيرة والإنجازات الضخمة فى المجال الثقافى والسياسى وقد تمّ وفق خطة مدروسة.

٢- ظهور فئة مهمة من الكتاب العرب أو الموالى حلّوا محل الكتّاب الفرس والروم فى إدارة الدواوين، إذ كان لصالح بن عبد الرحمن مهمة كبيرة فى ذلك، حيث يقول عبد الحميد بن يحيى المعروف بعبد الحميد الكاتب للخليفة مروان بن محمد: لله در صالح، ما أعظم منّته على الكتّاب[١]، وبذلك كان عامّة كتاب العراق تلامذة صالح، ومن هؤلاء قحذم بن أبى سليم وشيبة بن أيمن، والمغيرة وسعيد ابنا عطية ومروان بن إياس[٢].

٣- ظهور حركة الترجمة، من اللغات الأجنبية إلى العربية، حيث كانت حركة تعريب الدواوين أول عملية ترجمة منظمة أدت إلى نقل الكثير من المصطلحات الأجنبية، وظهر من اهتم بالترجمة، مثل خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان المتوفى ٨٥هـ، فهو أول من أمر بنقل بعض كتب الكيمياء والطب من اليونانية إلى العربية[٣].

٥- كان تعريب الدواوين سبيلاً إلى تعريب الأقاليم والجاليات غير العربية، فكان هذا من أكبر العوامل فى انتشار اللغة العربية[٤]، كما أن أجزاء كثيرة من

(١) الفهرست لابن النديم، ص (٣٠٣).
(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى، ص (٣٩).
(٣) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٧٩).
(٤) عبد الملك بن مروان للريس، ص (٢٨٦).

العالم الإسلامى ما زالت إلى وقتنا الحاضر عربية ثمرة لجهود عبد الملك[1]، فاللغة العربية هى الأداة التى جعلت مجتمع العرب يتسع رويدًا رويدًا حتى صارت حدوده تمتد من الخليج العربى شرقًا إلى المحيط الأطلسى غربًا[2].

٦- تمكنت الدولة من تحقيق الإشراف التام على النواحى المالية والإدارية وضبط أعمال الدواوين وسجلات الضرائب، أى أسهم ذلك فى نجاح الدولة بخطه الإصلاحى.

٧- اتجه الموالى لتعليم اللغة العربية لكونها الطريق التى تؤدى إلى الوظائف والمناصب العالية، كما أدى من جهة أخرى إلى إشاعة اللحن فى اللغة، مما دعا الحجّاج إلى معالجة ذلك، ثم اندفع الموالى للتخلص من اللحن والخطأ وتعلم النحو ودراسته، فحدثت نهضة لغوية واسعة، وهذا يفسر لنا ظهور علماء كبار من الموالى فى العصر الأموى ثم العصر العباسى.

٨- إيجاد نظام إدارى موحد وشامل، وللدلالة على حسن هذا النظام أن اتخذه العباسيون، فقد كانت الإدارة عندهم تطورًا للإدارة عند الأمويين[3]، هذه هى أهم نتائج حركة التعريب التى قام بها عبد الملك بن مروان.

ثالثًا: إدارة الأقاليم فى عهد الخليفة عبد الملك:

عندما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان (٧٣ ـ ٨٦هـ) قام بتنظيم دواوين الدولة ومؤسساتها، كما قام بتنظيم إدارة الأقاليم، وأعاد النظر فى تقسيمها وترتيبها، آخذًا بنظرة تغير الحياة وتطورها بمختلف أوجهها، وكانت الدولة الأموية مقسمة إلى عدة أقاليم، ويرأس كل إقليم أمير، يكون تعيينه وعزله من الخليفة، ويملك هذا الأمير سلطات واسعة فى إدارة إقليمه، فهو الذى يعين العمال على الولايات والمدن التابعة لإقليمه، كما يعين الموظفين أيضًا، وهو المسئول عن تنظيم الجند، وتجهيز الحملات العسكرية، وغالبًا ما يقودها بنفسه أو ينيب عنه قائدًا لذلك، وكان له الإشراف على سك النقود أيضًا، وكان بجانب الأمير[4]، موظف

(١) التاريخ السياسى، عبد المنعم ماجد (٢/ ١٦٢). (٢) الحضارة الإسلامية، عبد المنعم ماجد، ص (١٥).

(٣) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٨٠).

(٤) كان حكام الأقاليم يسمون فى أول الأمر: عمالاً ثم استعملت فيما بعد كلمة والٍ، ثم أطلقت عليهم=

له أهميـة كبيـرة هو صاحب الخراج، فـالوالى: يدير الشئـون السياسـية للولاية، وعامل الخراج يتولى إدارة الشئون المالية، ويكون صاحب الخراج بمثابة الرقيب على الوالى، ويعين صـاحب الخراج هذا من الخليفة، وقـد تحصل مواجهـة تصادم بين الوالى وصاحب الخـراج، وكذلك كان يساعـد الأمير فى عمله عـدد من الموظفين منهم القاضى، وصـاحب الشرطة، ورئيس الحـرس، والكاتب والحاجب(١)، وقد بلغت الدولة الإسلامية فى العهد الأموى أقصى اتساعها وكانت مقسمة إداريًا، فى عهد عبد الملك إلى أقاليم كبرى هى:

١ ـ بلاد الشام العاصمة للدولة:

وكانت بلاد الشام فى عصر الخليفة عـبد الملك بن مروان قد استقرت إداريًا إلى خمـسة أجناد وهى جند دمـشق، وحاضرتـها دمشق، وجند حـمص وحاضـرتها حمص، ومن مدنها تدمر، وجند قنسرين، وحاضرتها قنسرين، ومن مدنها حلب ومـرعش، وجند فلسطين، وحـاضرتهـا اللد، ومن مـدنها تبـوك وجند الأردن، وحاضرتها طبرية، ومن مدنها عكا(٢)، وكان لنظام الأجناد أهمية إدارية وعسكرية كبيرة، إذ كان من أهم أسـباب قوة الدولة الأموية، فقد كان الجند مـستعدين دومًا للقضـاء على أعداء الدولة فـى الداخل، والخارج(٣)، ولم يعـين عبد الملـك واليًا خاصًا على بلاد الشام، لأنها كانت تحت إشرافه المباشر، إلا أنه عين على الأجناد ولاة خاصـين بها، وكان جند دمـشق يقع تحت إدارة عبد الملك مـباشرة بوصفـها حاضرة الدولة الأموية(٤).

٢ ـ إدارة الحجاز وأواسط الجزيرة العربية واليمن:

أ- الحجـاز: فى سنة ٧٣هـ، حـدث تطور إدارى مهم، إذ جمع الخليـفة عـبد الملك أعمال الحجاز واليمن للحجّاج بن يوسف الثقفى(٥)، فكان الحجّاج يستخلف

= كذلك كلمة أمير وتطور هذا اللفظ على هذا النحو: عامل فوال، فأمير، يدل على أن سلطة هؤلاء الحكام بدأت محدودة ثم أخذت تتسع حتى أصبحت سلطاتهم عظيمة، فالعامل لم يكن مطلق السلطة، والوالى كان نفوذه واسعًا، والأمير كان نفوذه أوسع.

(١) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٨٤).

(٢) المسالك والممالك، ص (٤٣)، معجم البلدان (٢/ ١٧٠).

(٣) الوليد بن عبد الملك للكاشف، ص (٥٠،٥١). (٤) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٨٦).

(٥) أخبار مكة (٢/ ١٧٤) الإصلاحات المالية، ص (١٩٩).

على المدينة -إذا أتى مكة- عبـد الله بن قيس بن مخرمـة الذى ولاه قضاء المدينة، وقد أدرك عبد الملك أهمية الحجاز المعنوية والمـؤثرة، فانتهج لذلك سياسة حكيمة، فقد أحسن إلى الناس واستجاب لطلبهم فى عزل الحجّاج عن الحجاز، أدت بالتالى هذه السياسة إلى نجاحه فى الحصول على بيعة كبار أهله. وفى سنة ٧٥هـ نقل عبد الملك بن مروان الحجّـاج من الحجاز وولاه العراق[١]، ثم ولى الخليفـة عبد الملك بعد ذلك على المدينة عمه يحيى بن الحكم بن أبى الـعاص ثم عين أبان بن عثمان سنة ٧٦هـ. وفى عام ٨٢هـ عزل الخـليفة أبان بن عثمـان عن ولايته المدينة، وقبل سنة ٨٣هـ ولى مكانه هاشم بن إسماعيل المخزومى[٢]، فبقى فى منصبه حتى وفاة الخليفة عـبد الملك[٣]، ومن الجدير بالملاحظة أن الولاة الذيـن عينهم الخليفة عـبد الملك بن مروان على المدينة إمـا من أفراد الأسرة الأموية، أو ممن لهم صلة عـائلية بالأسرة مثل هشام بن إسماعيل المخـزومى، ويبدو أن هذا الاختيار كان الهدف منه ضمـان الولاء والإخلاص التامـين للخليفـة، لاسيمـا أن المدينة كانت من مـراكز المعارضة القوية للأمويين[٤].

ب- مكة: بعد مـقتل ابن الزبيـر ولى الخليفـة ابنه مسلمـة بن عبد المـلك واليًا عليها، وفى السنة نفـسها جمع عبد المـلك الحجاز وأعماله واليمن للحـجّاج حتى سنة ٧٥هـ، ثم ولى مكانه الحـارث بن خالد المخـزومى[٥]، ولا بد من القول أنه تعاقب على مكة ولاة تخـتلف المصادر فى تسميتـهم وسنى حكمهم، وربما يرجع ذلك إلى كثرة عددهم من جهة، وإلى قصر فترة ولاية بعضهم من جهة أخرى[٦]، وكان عبد الملك يعـتنى بتعمير الكعبـة والمحافظة على سلامتها، وكـان يبعث إليها بالهدايا والديباج كل سنة[٧].

ج - أواسط الجزيرة العربية: كانت أهم مناطقها اليمامة، وكانت اليمامة منذ سنة ٦٥هـ مقـرًا لنجدة الحنفى زعيم فـرقة النجدات الخارجـية[٨]، والذى بدأ تحركاته

(١) تاريخ الطبرى نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (٢٠٢). (٢) الطبقات (٥/ ١٥٢) .
(٣) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٠٤).
(٤) المصدر نفسه، ص (٢٠٤) . (٥) أخبار مكة (٢/ ١٧١) .
(٦) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٠٧). (٧) الأوائل، ص (٢٠٤).
(٨) الملل والنحل للشهرستانى (١/ ١٩٣)، الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٠٨).

العسكرية منطلقًا من اليمامة حتى تمكن من تأسيس دولة النجدات فى اليمامة والبحرين، وقد حاول عبد الملك استخدام الأساليب الدبلوماسية مع نجدة إذ وعده أن يوليه على اليمامة مقابل الدخول فى طاعته[١]، فكان هذا أحد أسباب انشقاق النجدات بعد ذلك، إلا أن اليمامة ظلت خارج سيطرة الدولة الأموية حتى تمكن الخليفة عبد الملك من القضاء على دولة النجدات فى اليمامة والبحرين سنة ٧٣هـ[٢]، فولى عبد الملك يزيد بن هبيرة المحاربى، ثم عزله وولى مكانه إبراهيم ابن عربى، وبقى الأخير إلى أن مات عبد الملك[٣].

د ـ **اليمن**: وفى عهد عبد الملك بن مروان أصبح لليمن والٍ واحد بعد أن كانت مقسمة إلى عدة عمال، فى الحقب السابقة[٤]، ومن أشهر ولاة عبد الملك على اليمن محمد بن يوسف الثقفى - وهو أخو الحجّاج بن يوسف - وظل محمد على ولاية اليمن إلى ما بعد وفاة الخليفة عبد الملك بن مروان[٥]، ومحمد بن يوسف لم يحسن السيرة مع أهل اليمن. كما أنه زاد ضريبة الخراج على الأراضى الزراعية[٦].

٣ ـ إدارة العراق والمشرق الإسلامى:

أ- **العراق**: وجه الخليفة كل اهتمامه نحو العراق، واستطاع أن ينزع الحكم من مصعب بن الزبير، سنة ٧٢هـ، وبايعه أهل الكوفة، وأحسن إلى زعمائها وولى عليها أخاه بشر بن مروان وأمره باللين لأهل الطاعة والشدة على أهل المعصية[٧]، وفرق العمال على المدن، أما البصرة فقد ولىّ عليها خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد[٨] الذى فشل فى قتال الخوارج فى البحرين والعراق، فعزله عبد الملك، وجمع العراق لبشر بن مروان، فقدم البصرة سنة ٧٤هـ، واستخلف على الكوفة

(١) الكامل فى التاريخ، نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (٢٠٨) .
(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (٢٠٨) .
(٣) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٠٨). (٤) المصدر نفسه، ص (٢٠٩).
(٥) تاريخ اليمن، ص (١٧) ابن عبد المجيد اليمانى. (٦) فتوح البلدان للبلاذرى، ص (٨٤).
(٧) أنساب الأشراف (٥/ ٣٥٤)، الإصلاحات المالية، ص (٢١١).
(٨) تاريخ الطبرى نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (٢١١).

عمرو بن حريث المخزومى، فأقام بشر بالبصرة شهرًا ثم مات[1]، ثم أسند عبد الملك ولاية العراق إلى الحجّاج إلى أن مات الخليفة عبد الملك[2].

ب ـ الولايات التابعة للعراق فى شرق الجزيرة العربية: كانت الأجزاء الشرقية من شبه الجزيرة العربية، والمطلة على بحر الخليج، تابعة إداريًا فى العصر الأموى إلى أمير العراق، وهو الذى يعين عليها ولاة، يتولون إدارتها، وأهم هذه الأقاليم هى البحرين، وعمان، وتشمل البحرين الإقليم الممتد على ساحل الخليج العربى، بين البصرة وعمان، فهو يشمل ما نعده اليوم: الكويت والإحساء وقطر وجزر البحرين الحالية المعروفة قديمًا باسم «أوال»[3]، ودولة الإمارات العربية المتحدة[4].

جـ ـ خراسان والمشرق الإسلامى: بعد أن تمكن عبد الملك من قتل مصعب وضم العراق عام ٧٢هـ، بدأ يخطط لاسترجاع خراسان ونجح فى ذلك،وفى عام ٧٨هـ ضم عبد الملك ولاية خراسان، وسجستان وكل المشرق الإسلامى إلى ولاية العراق للحجّاج بن يوسف، فولى الحجّاج على خراسان «المهلب بن أبى صفرة» سنة ٧٩هـ[5]، ويبدو أن نجاح الدولة فى القضاء على كل منافسيها فى الداخل، وجه الاهتمام بجهاد العدو فى الثغور، فكانت خراسان بحاجة إلى رجل عسكرى قوى كالمهلب يمكن أن يحقق أهداف حركة الجهاد هناك، ومما يؤكد ذلك بقاء المهلب فى ولايته حتى وفاته، كما يمكن اعتبار هذا التعيين بمثابة تكريم لجهوده فى القضاء على الخوارج الأزارقة، وفى ولاية المهلب هذه نشطت حركة الفتوحات، وسيأتى الحديث عنها عند كلامنا عن الفتوحات فى عهد عبد الملك وعين الحجّاج على سجستان عبيد الله بن أبى بكرة وذلك سنة ٧٨هـ[6]، وكتب عبد الملك إلى الحجّاج: لا تستعمل عبيد الله بن أبى بكرة على الخراج والجباية فإنه أريحى[7]، وهذا يعنى أن الحجّاج أصبح هو الذى يعين الولاة على الأقاليم التابعة لولايته

---

(١) الفتوح لابن أعثم نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (٢١٢).

(٢) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢١٣).

(٣) البحرين فى ص در الإسلام،ص(٢٢١).

(٤) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٢١) .

(٥) تاريخ اليعقوبى (٣/ ١٧)، الإصلاحات المالية، ص (٢٢٧).

(٦) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (٢٣٠) .

(٧) أنساب الأشراف (١/ ٤٩٩، ٥٠٥).

كخراسان وسجستان فى الغالب، وهى جـزء من سياسة عبد الملك فى الاتجاه نحو اللامركزية الإدارية(١).

٤ ـ إدارة الجزيرة الفراتية وأرمينيا وأذربيجان:

تقع الجزيرة الفراتية بين نهرى دجلة والفـرات، وتشمل ديار ربيعة وديار مضر، وديار بكر، وتمتد على نهر الفرات من شمال ملقية بمسيرة يومين شمالاً إلى الأنبار جنوبًا، وعلى دجلة من تكريت جنوبًا إلى شمال جزيرة ابن عمر شمالاً(٢)، وتقع أرمينيا وأذربيجان إلى الشرق والشمال الشرقى للجزيرة الفراتية(٣)، وكانت الموصل فى -عهد عـبد الملك- جزءًا من ولاية الجزيرة الـفراتية(٤)، وقد أدرك عبد الملك أهمية الجـزيرة هذه فعمل جاهدًا علـى تنظيمها لتـقف بمواجهة الخزر والبيـزنطيين أعداء الدولة، فشجع على استيطان العرب هناك وأقطعهم الأراضى(٥)، وأمر بنقل بعض القبـائل القيسـية إلى هناك(٦)، كما نقـل بعضًا من قبائل الأزد وربـيعة من البصرة إلى الموصل وحديثة(٧)، كما نظم الإدارة فيهـا، حيث فصلها عن قنسرين وجعلها -فضـلاً عن أرمينيا وأذربيجان- إقليمًا إداريًا مـستقلاً(٨)، ولأهميتـها فقد عين على إدارتها أخـاه محمد بن مروان سنة ٧٣هـ، والذى يعتـبر من أقدر الولاة الأمويين، وأوكل عليها مـهمة مقاتلة الأعداء من البيزنطيـين والخزر، والقيام بفتح المناطق المحاذية للجزيرة(٩)، وكانت هذه الولايات، الجزيرة، وأرمينيا، وأذربيجان، فضلاً عن الموصل، غـالبًا ما تجمع تحت إمرة أميـر واحد، ولاسيما فى عهـد عبد الملك بن مـروان، ويبـدو أن مـحمـد بن مـروان هو الذى كـان يعـين ولاة على أرمينيا(١٠)، أما الموصل فـإن الخليفة عـبد الملك بن مروان، هو الذى كـان يعين ولاتها فى الغالب(١١).

---

(١) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٣٠).

(٢) المسالك والممالك، ص (٥٢)، ص ورة الأرض لابن حوقل (١/٢٠٨).

(٣) بلدان الخلافة الشرقية، ص (١١٤).

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى، ص (٣٢٧).

(٥) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٣٣).

(٦) المصدر نفسه، ص (٢٣٣).

(٧) الروض المعطار، ص (١٩٠)، تاريخ اليعقوبى (٣/١٧).

(٨) معجم البلدان (١/١٠٣) .

(٩) الكامل فى التاريخ نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (٢٣٤).

(١٠) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٣٤).

(١١) فتوح البلدان، ص (٣٢٨)، الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٣٤) .

٥ ـ إدارة مصر:

كان والى عبد الملك على مصر أخاه عبد العزيز، وقد أوصى عبد الملك أخاه حين ولاه مصر بوصية تنم عن عقلية كبيرة، حيث بين له الأسس الناجحة لإدارة ولايته، وكيفية اختيار موظفيه، قائلاً له: أبسط بشرك، وألف كنفك، وآثر الرفق فى الأمور فأنه أبلغ بك، وانظر حاجبك، فليكن من خير أهلك.. وإذا خرجت إلى مجلسك فابدأ بالسلام.. وإذا انتهى إليك مشكل فاستظهر عليه بالمشاورة، فإنها تفتح مغاليق الأمور، وإذا سخطت على أحد فأخر عقوبته[١]. ولم تقتصر مسئولية عبد العزيز الإدارية على مصر فقط بل امتدت إلى إفريقية أيضًا، فهو المسئول عن إدارة إفريقية، فقد كان يعين عليها الولاة ويعزلهم فى بعض الأحيان، كما فعل حين عزل حسان بن النعمان سنة ٧٨هـ وولى مكانه موسى بن نصير[٢]، فأقرّ عبد الملك هذا التعيين، وقد توفى عبد العزيز عام ٨٦هـ، ودامت ولايته على مصر أكثر من عشرين عامًا[٣].

٦ ـ إدارة إفريقية:

كانت أوضاع إفريقية الإدارية والسياسية قبل تولى عبد الملك الخلافة مضطربة، نتيجة عدم استقرار الأحوال السياسية فى الحجاز والعراق خاصة، فارتد عن الإسلام قسم من البربر فى إفريقية[٤]، كما تمكن كسيلة ومن معه من البربر والروم من دخول القيروان، فسيطر كسيلة على شمال إفريقية[٥]، واستطاع عبد الملك أن يبسط نفوذ الدولة الأموية على شمال أفريقية بعد أن تخلص من الصراعات الداخلية. ومن أشهر ولاة إفريقية فى عهد عبد الملك: حسان بن النعمان الغسانى، وموسى بن نصير وسيأتى الحديث عنهما بإذن الله تعالى فى الفتوحات فى عهد عبد الملك.

---

(١) الفخرى فى الآداب، ص (١٢٦).

(٣) ولاة مصر، ص (٧٤)، الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٣٩) .

(٣) الخطط للمقريزى (١/ ٣٠٢).

(٤) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (١/ ٧٥).

(٥) تاريخ افريقية والمغرب، ص (٤٦) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٤٢) .

رابعًا: الخطوط العامة لسياسة الخليفة عبد الملك فى إدارة شئون الدولة:

١ ـ المشاورة: كان يعتمد على المشاورة فى إنجاز مهمات الدولة، وبخاصة فى الأمور المهمة، فهو القائل: المشاورة تفتح مغاليق الأمور[١]، فقد استشار أصحابه فى المسير إلى مصعب بن الزبير فى العراق[٢]، كما قبل مشورة روح بن زنباع بتولية الشعبى قضاء البصرة، حينما استشار الخليفة أصحابه بذلك[٣]، وكان من أكبر مستشاريه ربيعة الجرشى، وروح بن زنباع[٤]، وعلى الرغم من ذلك لم يكن يأخذ بكل استشارة، فكان يشاور يحيى بن الحكم، ثم يخالفه، ويقول: من أراد صواب الرأى فليخالف يحيى بن الحكم فيما يشير به عليه[٥].

٢ ـ اعتماده على أهل الشام: كان الخليفة عبد الملك يعتمد على أهل الشام، لأنهم اخلصوا له، فكان يخاطبهم: يا أهل الشام إنما أنا لكم كالظليم الرامح[٦] على فراخه يتقى عنهم القذر، ويباعد عنهم الحجر، ويكفهم من المطر، ويحميهم من الضباب، ويحرسهم من الذئاب، يا أهل الشام أنتم الجبة والرداء، وأنتم العدة والجداء[٧]، ولا غرابة فى ذلك فملك بنى أمية قام على أكتاف قبائل الشام وجنودها.

٣ ـ الشخص المناسب فى المكان المناسب: وقد حرص على تحقيق هذا المبدأ، وكان يوكل المهمات لأصحابها، ففى رسالة جوابية أرسلها الخليفة عبد الملك إلى خالد بن عبد الله أمير البصرة، سنة ٧٢هـ قال له فيها: .. فقبح الله رأيك حين تبعث أخًا أعرابيًا من أهل مكة على القتال، وتدع المهلب إلى جنبك يجبى الخراج، وهو الميمون النقيبة، الحسن السياسة البصير بالحرب، المقاسى لها ابنها، وابن أبنائها... فإذا أنت لقيت عدوك فلا تعمل برأى حتى تحضره المهلب وتستشيره فيه[٨]، كما

---

(١) الفخرى فى الآداب، ص (١٢٦) .
(٢) أنساب الأشراف (٥/ ٣٣٥) .
(٣) العقد الفريد (١/ ٢٠) .
(٤) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى، ص (٩٤).
(٥) أنساب الأشراف (٥/ ٣٣٥) .
(٦) معنى الظليم الرامح: كذكر النعام الذى يدافع عن فراخه.
(٧) سراج الملوك، ص (١١٨)، الإصلاحات المالية، ص (١٩٥).
(٨) تاريخ الطبرى نقلاً عن الإصلاحات المالية، ص (١٩٥).

كان يحسن معاملة قادته وحاشـيته، ويكرمهم ويمن عليهم، ويواسيهم، ويزورهم إذا مرضوا[1].

٤ ـ متـابعة أخـبار العـمال والولاة: فقـد كان يقظًا وحريصًا على نزاهة عـماله، واستقامـة أخلاقهم وبعدهم عن الشبهـات، فعندما بلغه أن عاملاً من عـماله قبل هدية فاستدعاه إليه، ثم سأله: أقبلت هدية منذ وليت؟ قال: يا أمير المؤمنين بلادك عامرة، وخـراجك موفور، ورعيتك على أفـضل حال، قال: أجب فيـما سألتك عنه، أقبلت هدية منذ وليـتك؟ قال: نعم، قال: إن كنت قـبلت ولم تعوض إنك للئيم، ولئـن كنت أنلت مهديهـا من غير مـالك، أو استكفيـته ما لـم يكن مثله مستكفاه، إنك لخائن جائر، ومـا أتيت أمر، لا تخلو فيه من دناءة، أو خيانة، أو جهل مصطنع، وأمر بصرفه عن عمله[2].

٥ ـ تقديم الأقرباء فى المناصب وحـفظ التوازن القبلى: كان الخليفة عبد الملك فى اخـتيـاره لعـمـاله قد قـرَّب أقـرباءه من أفـراد البيت الأمـوى بالدرجـة الأولى، واستعـملهم فى المناصب المختلفة، إلا أنه كان يراقبـهم مراقبة دقيـقة، ويعزل من أظهر عجزًا أو أخـفق فى عمله، كما أنه استـخدم ولاته على الأقاليم فى الأغلب من قبائل عرب الشمال «مضر»، بينما اخـتار موظفى إدارته إلى حد كبير من قبائل عرب الجنوب «اليـمن»، ويبدو أن هذه كانت إحدى الوسـائل التى اتبعها الخلـيفة لحفظ التوازن القبلى[3].

٦ ـ تسامحه مع أهل الكتاب: كان عهد عبـد الملك عصر تسامح مع أهل الذمة، فلم يحاول الخليفـة عبد الملك الاستيلاء على كنيسـة يوحنا عندما رفض أهل الذمة تسليـمها إلـيه[4]، كمـا أنه سمح لهم بممـارسة طقـوسهم الدينية بحـرية، وبناء الكنائس والأديرة، فقـد شيّد أثيناس ـ كـاتب ديوان خراج مصـر على عهد عـبد العزيز ـ كنيسة «أم الإله» فى الرها، كما شيّد فى مصر أيضًا كنيستين وديرًا، فضلاً عن شغلهم مناصب عالية فى إدارة الدولة[5]، إذ كان الخليفة يثق بهم[6].

---

(١) الإصلاحات المالية والترتيبات الإدارية، ص (١٩٥).
(٢) مروج الذهب (٣/ ١٢٥) .
(٣) الإصلاحات المالية والترتيبات الإدارية، ص (١٩٦) .
(٤) فتوح البلدان، ص (١٣١) .
(٥) الدعوة إلى الإسلام، ص (٨٥) أرنولد .
(٦) تاريخ القدس، عارف، ص (٥٢).

٧ ـ **التحقيق مع العمال المشتبه فيهم ومقاسمة أموالهم:** وقد قام عبد الملك بمقاسمة بعض عماله وقد أراد التشبه بالخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى هذا الشأن، فقد جعل الضحاك بن عبد الرحمن الأشعرى بمثابة المسئول عن مراقبة ومتابعة القضايا المالية فى الأقاليم، فقد أرسله إلى الجزيرة الفراتية لدراسة وإصلاح الضرائب هناك[١]، كما قاسم «أثيناس» كاتب خراج مصر أمواله[٢]، وبذلك اتبع نظامًا دقيقًا للاستخراج أو التكثيف، حيث كان يحقق مع الجباة وعمال الخراج ـ المشكوك فى أمرهم ـ عند اعتزالهم عملهم، ويستنطقون حتى يعترفوا بما ارتكبوا من مخالفات، وكان التحقيق مع هؤلاء يتم فى أماكن خاصة تسمى «دار الاستخراج»[٣].

٨ ـ **الإحسان لمن ندم وبايع من أصحاب ابن الأشعث:** وبعد انتهاء تمرد ابن الأشعث كتب الخليفة إلى الحجّاج، فى أخذ البيعة له من الناس قائلاً: أن ادع الناس إلى البيعة، فمن أقرّ بذنبه وندم على فعله فخل سبيله[٤]، وعند ذلك أمر عبد الملك الحجّاج بإعطاء الناس عطاءهم، فكتب إليه الحجّاج: أنهم نكثوا العهد ونقضوا البيعة، وفارقوا الجماعة، وطعنوا على الأئمة، فكتب إليه عبد الملك: إنما تجب طاعتنا عليهم بأن نعطيهم حقوقهم[٥]. وحين حاول الحجّاج أن يأخذ فضول «فروق العملة» -أموال السواد، كتب الخليفة إليه يمنعه من ذلك قائلاً له: لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك، وابق لحومًا يعقدون بها شحومًا[٦].

٩ ـ **احترام وتقدير الشخصيات البارزة فى المجتمع:** أدرك الخليفة عبد الملك أهمية توثيق العلاقة واحترامها مع الشخصيات البارزة فى المجتمع، فقد حرص على كسبها وتأييدها، فحين بايع محمد بن الحنفية لعبد الملك أعطاه الخليفة ميثاقًا، وكتب إليه: إنك عندنا محمود.. فلك العهد والميثاق، وذمة الله ورسوله، أن لا تهاج ولا أحد من اصحابك بشيء تكرهه، كما قضى حوائجه[٧]، وكتب عبد

(١) عبد الملك القائد للعسلي، ص (١٢٢)، الاصلاحات المالية، ص (١٩٨).

(٢) الوزراء للجهشيارى، ص (٣٤، ٣٥).

(٣) النظم الإسلامية، ص (١٩٦)، حسن إبراهيم.

(٤) المصدر نفسه، ص (١٩٦).

(٥) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢١٩).

(٦) واسط فى العصر الأموى، ص (٧٩).

(٧) الطبقات (٥/١١١، ١١٢).

الملك للحجّاج: لا تعرض لمحمد ولا لأحد من أصحابه[1]. فلم يتعرض الحجّاج لأحد من آل أبي طالب خلال ولايته، كما عزز عبد الملك الصلات مع آل العباس، فكان يكرم على بن عبد الله بن العباس، ويعرف له حقه ويستوصى به خيرًا، وكانت كتبه ترد إلى الحجّاج يأمره فيها أن لا يسيء إلى عروة بن الزبير[2]. وبذلك نجح عبد الملك في الاحتفاظ بصلات حسنة بين الأمويين وبنى هاشم - علويين وعباسيين - فلم يُقتل أحدًا من العلويين في عهده، فكانت هذه ثمرة حسن سياسته وبعد نظره[3].

١٠ - تحجيم الولاة إذا أرادوا تجاوز الخطوط الحمراء: كان عبد الملك لا يسمح لولاته مجاوزة الخطوط الحمراء، فعندما أساء الحجّاج لأنس بن مالك كان رد عبد الملك على الحجّاج قاسيًا، وقصة ذلك: دخل أنس بن مالك على الحجّاج بن يوسف، فلمّا وقف بين يديه، سلمّ عليه فقال له: إيهٍ إيهٍ يا أُنيس، يوم لك مع عليٍّ، ويوم لك مع ابن الزبير، ويوم لك مع ابن الأشعث، والله لأستأصلنَّك كما تستأصل الشأفة[4]، ولأدمغنك كما تُدمغ الصمغة. فقال أنس: إيَّاى يعنَى الأمير، أصلحه الله؟ قال: إياك، سك الله سمعك. قال أنس: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أيَّ قتلة قُتلتُ، ولا أيَّ ميتة متُّ. ثم خرج من عند الحجّاج، فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما قال الحجَّاج. فلمّا قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضبًا وصَفَّقَ عجبًا، وتعاظم ذلك من الحجّاج، وكان كتاب أنس: إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك. أما بعد: فإن الحجّاج قال لي هُجرًا[5]، وأسمعنى نُكرًا، ولم أكن لذلك أهلاً، فخذ لى على يديه، فإنى أمُتُّ بخدمتى رسول الله، وصحبتى إياه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[6]، فقرأ عبد الملك الكتاب وهو يبكى وبلغ به الغضب ما شاء الله، ثم كتب إلى الحجّاج بكتاب غليظ[7]، فبعث عبد الملك إسماعيل بن عبيد الله بن

(١) العقد الفريد (٤/ ٤٠٠) الإصلاحات المالية، ص (٢٠٠).
(٢) أخبار العباس وولده، ص (١٣١، ١٥٤).
(٣) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (٢٠١).
(٤) الشأفة: قرحة تخرج من أسفل القدم فتقطع أو تكوى.
(٥) هجرًا: يعنى فحشًا.
(٦) البداية والنهاية (١٢/ ٥٤٠).
(٧) المصدر نفسه (١١/ ٣٨٦).

أبى المهاجر ـ وكان مصادقًا للحجّاج ـ فقال له: دونك كتابىَّ هذين فخذهما، وأركب البريد إلى العراق وابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ، فادفع كتابى إليه وأبْلغه منى السلام، وقال له: يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجّاج الملعون كتابًا، إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك، وكان كتاب عبد الملك إلى أنس بن مالك: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان إلى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، أما بعد فقد قرأت كتابَك وفهمت ما ذكرت من شكايتك الحجاج، وما سلطته عليك ولا أمرته بالإساءة إليك، فإن عاد لمثلها فاكتب إلىَّ بذلك أُنزل به عقوبتى، وتَحْسُن لك معونتى والسلام. فلما قرأ أنس كتابه وأُخبر برسالته قال: جزى الله أمير المؤمنين عنِّى خيرًا، وعافاه وكفاه وكافأه بالجنة، فهذا كان ظنى به والرجاء منه[1]، أما كتاب عبد الملك إلى الحجّاج وكان فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى الحجّاج بن يوسف، أما بعد، فإنَّك عبد طمَتْ[2] بك الأمور فسموت فيها، وعدوت طورَك، وجاوزت قدرَك، وركبت داهية إداً وأردت أن تَبُورنى[3]، فإن سوَّغتكها مضيت قُدمًا، وإن لم أُسوغها رجعت القهقرى، فلعنك الله عبدًا أخفش العينين، منقوص الجاعرتين[4]، أنسيت مكاسب آبائك بالطائف، وحفرهم الآبار، ونقلهم الصخور، على ظهورهم فى المناهل؟ يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب، والله لأغمزنك غمز الليث الثعلب، والصقر الأرنب، وثبت على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بين أظهرنا، فلم تقبل له إحسانه، ولم تجاوز له إساءته، جُرأة منك على الربِّ عز وجل، واستخفافًا منك بالعهد، والله لو أنَّ اليهود والنصارى رأت رجلاً خدم عُزير بن عزرا، وعيسى ابن مريم لعظمته وشرَّفته وأكرمته، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ثمانى سنين، يطلعه على سرِّه ويشاوره فى أمره، ثم هو مع هذا بقية بقايا أصحابه، فإذا قرأت كتابى هذا فكن أطوع له من خُفِّه ونعله، وإلا أتاك منى سهم مثِكل[5]، بحتف قاضٍ، ولكل نبإٍ مستقر وسوف تعلمون[6]. ولما

---

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٥٤٠).
(٢) طمَت: ارتفعت وسمت .
(٣) تبورنى: تختبرنى .
(٤) الجاعرتين: هما حرفا الوركين المشرفين على الفخذين .
(٥) ال[illegible]نهاية (١١/ ٥٤٢) .
(٦) المصدر نفسه (١٢/ ٥٤٢).

علم الحجّاج بأن عبد الملك غاضب عليه استوى جالسًا مرعوبًا، ولما قرأ الكتاب اعتذر لأنس ولم يزل مكرمًا له حتى مات[1]، وكتب الحجّاج خطابًا يعتذر فيه عما حدث منه فى حق أنس[2].

١١ ـ محاربته للمداهنة والنفاق بين الناس: لم يكن عبد الملك يسمح لأحد أن يداهنه، أو ينافقه، أو يضيع وقته فيما لا يفيد، فقد طلب رجلاً من عبد الملك أن يخلو به فأمر من عنده بالانصراف، فلما أراد الرجل أن يتكلم بادره عبد الملك قائلاً: احذر فى كلامك ثلاثًا، إياك أن تخدعنى، فأنا أعلم بنفسى منك، أو تكذبنى فإنه لا رأى لكذوب، أو تسعى إلىّ بأحد من الرعية، فإنهم إلى عدلى وعفوى أقرب منهم إلى جورى وظلمى[3].

١٢ ـ مفهوم السياسة عند عبد الملك: أدرك الخليفة عبد الملك معنى السياسة بشكل دقيق واستوعب دروسها، كما أدرك السبل العملية لسياسة الناس ومن مختلف منازلهم، فحين سأله الوليد وقال: يا أبت ما السياسة؟ قال: هيبة الخاصة مع صدق مودتها، واقتياد قلوب العامة بالإنصاف واحتمال هفوات الصنائع[4].

١٣ – سيرة أبى بكر وعمر ورعيتهما: قال عبد الملك: أنصفونا يا معشر الرعية تريدون منا سيرة أبى بكر وعمر ولا تسيرون فينا ولا فى أنفسكم بسيرة رعية أبى بكر وعمر، نسأل الله أن يعين كلاً على كل، إنى رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس، فلا بد للوالى أن يسير فى كل زمان بما يصلحه، وهذا الكلام لا يسلم له به على إطلاقه، لأن السلطان المطلوب منه أن يسير مع القرآن الكريم وهدى النبى ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين ويعمل على نشر سير الصالحين ويقتدى بهم، لا أن ينهى عن ذكر عمر ويقول: .. فإنه مرارة للأمراء، مفسدة للرعية[5]. والحقيقة تقول: إن الكثير من الأمراء فى العهد الأموى لا يستطيع أن يقتفى أثر عمر ولا أن يسير بسيرته، فيحز ذلك فى نفوسهم، ويترك الحسرة والمرارة فى قلوبهم، وأما الرعية فإنهم يسرعون إلى المقارنة بين ما هم فيه، وبين ما كان عليه الناس فى عهد

---

(١) العقد الفريد (٣/ ١٣)، الحجاج المفترى عليه، ص (١٦٨).

(٢) العقد الفريد (٣/ ١٣/ ١٤).

(٣) البداية والنهاية (١٢/ ٣٨٧).

(٤) عيون الأخبار (١/ ٩)، الإصلاحات المالية، ص (١٩٦).

(٥) الطبقات الكبرى (٥/ ٢٣٣).

عمر، ومـا كانوا يتمـتعون به من العدل والمسـاواة، والحرية والتمتع بكـل حقوق الإنسان، فيدفعهم ذلك إلى التمرد على أمرائهم، والسخط على أوضاعهم، وعدم الرضا بما هم فيه[1]. وأمثال عـبد الملك يريد الأمور أن تستقـر على منهاج الملك العضوض، وأما منهاج الخلافة الراشدة فيضيق عليه الخناق، وفى الحقيقة، إن سوء حال الحكم فى مـجتمع ما كـان ذلك لنقص فى الراعى والرعية مـعًا[2]، كما أن العودة إلى صفـاء الحياة فى عصر الخلفـاء الراشدين ليس أمر مستـحيلاً، ولكن لا يأتى به الحاكم وحـده وإن صلحت نيته، وعظمت عـزيمته، بل لا بد من تحـقيق ذلك القدر من التوافق بين الراعى والرعية، حيث يتـعاون الجميع على تحقيق ذلك المجتـمع الطيب، وطريق ذلك طويل وشاق، ويحـتاج ربما إلى أجيـال من الدعاة والحكام الذين يبذلون جهـدهم لتربية الرعية على مـعانى الإيمان ويعطون فى ذلك القدوة والمثل، ويستفرغون فى ذلك وذاك وقتهم وجهدهم[3].

هذه هى أهم الخطوط العامة لسياسة عبد الملك فى إدارة شئون الدولة.

خامسًا: من أهم ولاة عبد الملك: الحجّاج بن يوسف الثقفى:

هو الحجّـاج بن يوسف بن الحكم الثقـفى، أبو محمـد، سمع من ابن عـباس وروى عن أنس وسـمُرة بن جـندب، وعبـد الملك بن مـروان، وأبى بردة بن أبى مـوسى، وروى عن أنس بن مالك وثابت البـنانى، وحمـيد الطويل، ومـالك بن دينار، وقتيبة بن مسلم[4].

١ ـ بداية ظهوره: كان الحجّاج وأبوه يعلمـان الغلمان بالطائف، ثم قدم دمشق، فكان عند روح بن زنباع وزير عبد الملك، فـشكا عبد الملك إلى روح أنَّ الجيش لا ينزلون لنزله، ولا يرحلون لرحـيله، فقـال روح: عندى رجلٌ توليه ذلـك، فولى عبـد الملك الحجّاج أمـر الجيش، فكان لا يتأخـر أحد فى النزول والرحـيل، حتى اجتـاز إلى فسـطاط روح بن زنباع وهم يأكلون، فـضربهم وطوّف بهـم، وأحرق الفسطـاط، فشكا روح ذلك إلى عـبد الملك، فقـال للحجّـاج: لم صنعت هذا؟

---

(١) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٣٢٩).
(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٠).
(٣) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٢٧٧).
(٤) البداية والنهاية (١٢/ ٥٠٧).

فقـال: لم أفعله إنما فعلتـه أنت، فإنَّ يدى يدُك وسوطى سوطك، ومـا ضرّك إذا أعطيت روحًـا فسطاطين بدل فـسطاطه، وبدل الغلام غـلامين، ولا تكسـرنى فى الذى وليّتنى؟ ففعل ذلك وتقدم الحجّاج عنده[1].

٢ ـ رأى الذهبى فيه: كان ظلومًا، جبارًا خبيثًا، سـفّاكًا للدماء، وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء، وفـصاحة وبلاغـة، وتعظيم للقرآن إلى أن قال: فنسـبه ولا نحبه، بل نبغضه فى الله، فإن ذلـك من أوثق عرى الإيمان، وله حسنات مغمورة فى بحر ذنوبه، وأمـره إلى الله وله توحيد فـى الجُملة، ونظراء من ظلمة الجـبابرة والأمراء[2].

٣ ـ رأى ابن كثير فـيه: وكانت فـيه شهامـة عظيمة وفى سيـفه رهق[3]، وكان يغضب غضب الملوك، وكان ـ فـيما يزعم ـ يتشبه بزياد بن أبيه، وكـان زياد يتشبّه بعمر بن الخطاب فيمـا يزعم أيضًا، ولا سواء ولا قريب[4]، وقال: وبالجملة فقد كان الحـجّاج نقـمة على أهل العـراق بما سلف من الذنوب والخروج علـى الأئمة وخذلانهم لهم وعصيانهم ومخالفتهم، والافتيات عليهم[5]، وقال: . . وكان جبارًا عنيدًا مـقدامًا على سفك الدمـاء بأدنى شبهة. وقـد رُوِى عنه ألفاظ بشعة شنـيعة ظاهرها الكفر، فـإن كان قد تاب مـنها وأقلع عنها، وإلا فـهو باقٍ فى عهـدتها، ولكن يخشى أنَّها رويت عنه بنوع من زيادة عليـه، فإن الشيعة كان يـبغضونه جدًا لوجـوه، وربّما حـرّفـوا عليه بعض الكلـم، وزادوا فيـما يحكـونه عنه بشاعـات وشناعات، وقـد روينا عنه أنه كـان يتدين بترك المـسكر، وكان يكثـر تلاوة القرآن ويتجنب المحارم، ولـم يُشتهر عنه شىء من التلطخ بـالفروج، وإن كان متسرعًا فى سفك الدمـاء، فالله تعالى أعلم بالـصواب وحقائق الأمـور وسرائرها، وخفـيّات الصدور وضمائرها[6].

فلا نكفر الحجّـاج، ولا نمدحه، ولا نسبه، ونبغضـه فى الله بسبب تعديه على بعض حدود الله وأحكامه وأمره إلى الله.

---

(١) البداية والنهاية (١٢/٥٠٩).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٣٤٣).
(٣) البداية والنهاية (١٢/ ٥١٠)، الرهق: الهلاك والظلم.
(٤) المصدر نفسه (١٢/ ٥١٠).
(٥) المصدر نفسه (١٢/٥٣٦).
(٦) المصدر نفسه (١٢/٥٣٦).

٤- من خطب ومواعظ الحجّاج: قال الشعبي: سمعت الحجّاج تكلم بكلام ما سبقه إليه أحد، يقول: أما بعد، فإن الله تعالى كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما كتب عليه البقاء، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء. فلا يَغُرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة[1]، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل. وعن أبي عبد الله الثقفي عن عمّه، قال: سمعت الحسن البصريَّ يقول: وقذتني كلمة سمعتها من الحجّاج، سمعته يقول على هذه الأعواد: إن امرأ ذهب ساعة من عمره في غير ما خلق له لحريٌّ أن تطول عليها حسرته إلى يوم القيامة[2].

٥- صدق الله وكذب الشاعر: جاء رجل إلى الحجّاج فقال: إن أخي خرج مع ابن الأشعث، فضُرب على اسمي في الديوان، ومُنعتُ العطاء، وقد هُدمت داري.

فقال الحجّاج: أما سمعت قول الشاعر:

جانيك من يَجْني عليك وقد ... تُعدي الصِّحاح مبارك الجُرْب

ولربَّ مأخوذٍ بذنب قريبه ... ونجا المقارف صاحب الذنب

فقال الرجل: أيها الأمير، إني سمعت الله يقول غير هذا، وقول الله أصدق من هذا. قال: وما قال؟ قال: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٨، ٧٩]. قال: يا غلام أعد اسمه في الديوان، وابْن داره، وأعطاه عطاءه، ومُرْ مناديًا ينادي: صدق الله وكذب الشاعر[3]. فهذه القصة تدل بوضوح على أن الشريعة الإسلامية؛ سلطانها وهيبتها، حتى على طغاة الحكام، وهذه خصيصة فريدة تتميز بها الشريعة الربانية عن الأنظمة والقوانين الوضعية، كما تدلنا على أن أطغى الطغاة في العصور الأولى، لم يكن ليجرؤ على رفض شريعة الله أو تحدي نصوصها، ولو كان هو الحجّاج بن يوسف، المشهور بالقسوة والجبروت[4].

٦- الحجّاج مع أعرابي: حجّ الحجّاج مرّة، فمر بين مكة والمدينة، فأُتي بغدائه فقال لحاجبه: انظر من يأكل معي، فذهب، فإذا أعرابي نائم فضربه برجله وقال:

---

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٥٢٢).
(٢) المصدر نفسه (١٢/ ٥٢٢).
(٣) المصدر نفسه (١٢/ ٥٢٣).
(٤) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوي، ص (٢٢).

أجب الأمير. فقام، فلمّا دخل الحجّاج قال له: اغسل يديك ثم تغدَّ معى. فقال: إنَّه دعانى من خيـر منك، فأجبته. قال: ومن هو؟ قـال: الله دعانى إلى الصوم، فأجـبته. قـال: فى هذا الحرِّ الشديد؟ قـال: نعم، صمت ليوم هو أشـدُّ حراً منه قال: فأفطر وصُم ليوم غد، قال: إن ضـمنت لى البقاء إلى غد. قال: ليس ذلك إلىَّ. قـال: فكيف تسألنى عـاجلاً بآجل لا تقـدر عليه؟ قـال: إن طعامنا طـعام طيب.. قال: لم تُطَيِّبه أنت ولا الطباخ، إنّما طيَّبته العافية[1].

٧- زواج الحجّاج من بنت عبد الله بن جعفر بن أبى طالب: قال الشافعى: لما تزوج الحجّـاج بنت عبـد الله بن جعـفر قـال خالد بن يزيد بن مـعاوية لعبـد الملك بن مروان: أتُمكنه من ذلك؟ فـقال: وما بأس بذلك؟ قال: أشدُّ الـبأس والله، قال: وكيف؟ قـال: والله يا أمير المؤمنين لـقد ذهب ما فى صـدرى على آل الزبير منذ تزوجت رملة بنت الزبير. قال: فكأنه كان نائمًـا فأيقظه، فكتب إلى الحجّاج يعزم عليه فى طلاقهـا فطلقَّها[2]، وجاء فى رواية: يا أميـر المؤمنين إنما خفت أن يميل الحجّاج إليهم فيسعى لمحل سلطانه، فإنه لم يكن بين أهل بيتين من شحناء ما كان بيننا وبين آل الزبير، فلما تزوجت برملة بنت الزبير انقلب ذلك البغض محبة حتى إنى ما أحب أكثر منهم[3]، حتى قلت:

تجـول خـلاخـيل النسـاء ولا أرى ... خلـخـالاً يجـول ولا قُلْبـا

فـلا تكثـروا فـيـهـا الملام فـإننى ... تخـيـرتهـا منـهم زبيـرية قـلبـا

أحب بنى العـوام من أجل حبِّـها ... ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا[4]

وكان الحجّـاج يحترم أهل البـيت ويكرمهم، وما زواجه ببنت عـبد الله بن جعفر إلا مظهـر من ذلك ليتقرب منهم ويصلهم، وعلى الرغم من أنه طلقـها فما زال واصلاً لعبـد الله حتى مات، فكان يرسل له فى كل شـهر عيرًا تحـمل كسوة وتحفًا ومـيرة، وكل ما يحتـاج إليه[5]، وقد تجلى ذلك فى أنه قـال مرة: ليقم كل رجل منك يذكر بلاءه لنعطيـه، فقام رجل فقـال: أنا قاتل الحسين. فـقال: كيف

(١) البداية والنهاية (١٢/٥١٨).
(٢) المصدر نفسه (١٢/٥١٧).
(٣) الحجّاج بن يوسف المفترى عليه، ص (١٣٧).
(٤) وفيات الأعيان (٢/٢٢٤، ٢٢٥).
(٥) المستطرف من كل فن مستظرف (٢/٣٢١).

قتلتـه؟ قال: دسرته بالرمح دسراً، وهبـرته بالسيف هبراً. فقـال: أما -والله- لا يجتمع الحسين وقاتله فى الجنة، وحرمه من العطاء[١]، وما يذكر فى كتب التاريخ من كون الحـجّاج نصب العـداء لأهل البيت غيـر صحيح، وخـصوصًـا إذا عرفنا معاملة عبد الملك لأهل البيت وحرصه على عدم مساسهم من قريب أو بعيد ما لم يتقربوا من كرسى الخلافة ويعملوا على الوصول إليه.

٨ ـ الحجّاج والشعراء: وكان الحجّاج يقرب الشعراء ويستمع لشعرهم، وكثيراً ما كان ينقد الشعـر بملكة الأديب، كما يحفظ الكثير من جيد الشـعر ويقتبس منه فى خطبه بما يناسب المقـام، ومن الشعراء الذين أحسن لهـم الحجّاج جرير بن عـطية، فقد أطنب فى مدح الحجّاج وأنشده قصيدة من عيون الشعر منها:

مـن سَـدَّ مُـطَّلَع النفـاق علـيـهم ... أم من يصـول كصـولة الحجّـاج؟

أم من يغـار على النسـاء حفـيظة ... إذ لا يثـــقن بـغـــيـرة الأزواج

إن ابن يوسف فـاعلمـوا وتيـقنوا ... ماضى البـصيـرة واضح المنهاج[٢]

ومدحه بقصيدة أخرى من غرر الشعر جاء فيها:

ترى نصـــر الإمـام عليك حـــقـا ... إذا لبـــســوا بدينـهم ارتـيـــابًا

عـفـاريت العـراق شـفـيت منهم ... فـأمسـوا خـاضعـين لك الرقـابا

وقـالـوا لــن يجـامـعنا أمـيـر ... أقـام الحـد واتبـع الكتـــابا[٣]

وصار جرير يقول فـى الحجّاج قصائد من عيون الشـعر، وطال بقاؤه فى بلاطه، فخشى الحجّـاج أن يكون فى ذلك سبيل لدسيسة يـتقرب بها بعض الناس لأمير المؤمنين، فـرأى أن يرسله لدمشق ليمدح عـبد الملك وأجزل له العطاء[٤]، ومن الشعـراء الذين مدحـوا الحجّـاج ليلى الأخيليـة، والفرزدق والأخطل وغيرهـم.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبى، سرح العيون لابن نباته، ص (١٠٨)، الحجّاج بن يوسف المفترى عليه، ص (٣٩٩).

(٢) ديوان جرير، ص (٩٠، ٩١).

(٣) الكامل فى الادب نقلاً عن الحجّاج بن يوسف المفترى عليه، ص (٣٦٥).

(٤) الحجّاج بن يوسف المفترى عليه، ص (٣٦٨).

٩ ـ رؤية رآها الحجّاج: رأى أن عينيه قُلعتا: وكان تحته هند بنت المُهلَّب، وهند بنت أسماء بن خارجة؛ فطلَّقهما ليتأوَّل رؤياه بهـما، فمات ابنه محمد، وجاءه نعيُ أخيه محمد من اليمن، فقال: هذا -والله- تأويل رؤياى محمد ومحمد فى يوم واحد، إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم قال من: يقول شعراً فيُسليينى به، فقال الفرزدق:

إن الـرَّزيَّـة لارزيَّـــة بـعـــدهـا فـقـدان مثـل مـحـمد ومـحمـد

مَلكان قـــد خلت المنابر منهـــمـا أخـذ الحمـام عليهـما بالمرصـد[١]

١٠ ـ مقتـل سعيد بن جبير: فى عام ٩٥هـ قتل الحـجّاج سعيد بن جبـير المقرئَ المفسِّر المحدث الفقيه، أحد الأعلام، وله نحو من خمسين سنة أكثر روايته عن ابن عبّاس، وحدّث فى حياته بإذنه، وكان لا يكتب الفتاوى مع ابن عبَّاس، فلمّا عَمِىَ ابن عباس كتب وروى أنه قرأ القرآن فى ركـعة فى البيت الحرام، وكان يؤمّ الناس فى شهر رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة ابن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وأخرى بقراءة غيرهمـا، وهكذا أبدًا، وقيل: كان أعلم التابعين بالطَّلاق سعيـد بن جبير، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاووس وبالتفسير مجاهد، وأجمعهم لذلك سعيد بن جبير، وقتله الحجّاج وما علـى وجه الأرض أحد إلاَّ وهو مفتقر إلى علمه[٢]، وقـال الحسن يوم قـتله: اللهمّ أَعِنْ على فـاسق ثقـيف، والله لو أنّ أهل الأرض اشتـركوا فى قتله لأكـبهم الله فى النار[٣]، وعندما أمر الحـجّاج بقتل سعـيد قال سعيد: اللهم لا تحل له دمى ولا تُمهله من بعدى[٤]، وأصيب الحجاج بفزع عظيم وجعل يقول: مالى ولك يا سـعيد بن جبير، وكان فى جـملة مرضه كلما نام رآه آخذاً بمجامع ثوبه يقول: يا عـدو الله فيم قتلتنى، فيستيقظ مـذعوراً ويقول: مالى ولابن جبير[٥].

١١ ـ مرض الحجاج وموته:

أ ـ خطبته قبل موته: لما مرض الحجّاج أرجف الناس بموته: فقال فى خطبته: إنَّ طائفة من أهل الشقـاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم، فقالوا: مـات الحجّاج، ومات الحجّـاج، فمه، وهل يرجـو الحجّاج الخـير إلا بعد الموت؟ والله مـا يُسرُّنى أن لا

(١) شذرات الذهب (١/ ٣٨٢).
(٢)، (٣) المصدر نفسه (١/ ٣٨٣).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٣٨٦).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٣٨٦) .

أموت وأنَّ لى الدنيا وما فيهـا، وما رأيت الله رضى التخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس، قـال الله له: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الأعـراف: ١٥]، فـأنظره إلى يوم الدين، ولقد دعا الله العبد الصالح فقال:﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، فأعطاه الله ذلك إلا البقاء، فـما عسى أن يكون أيها الرجل، وكلُّكم ذلك الرجل، كـأنِّى والله بكل حىٍّ منكم ميـتًا، وبكل رطبٍ يابسًـا، ثم نُقِلَ فى ثياب أكفانه إلى ثلاثة أذرع طولاً فى ذراع عرضًـا، فأكلت الأرض لحمه، ومصَّت صديده، وانصرف الحـبيب من ولده يُقسِمُ الحبيب مـن ماله. إن الذين يعقلون. . يعقلون ما أقول[١].

ب ـ الآلام الشـديدة التى تعـرض لهـا الحـجّاج فى مـرضـه: كان مـوت الحجّـاج بالأكلة[٢] فى بطنه، سوَّغـه الطبيب لحـمًا فى خيط، فـخرج مملوءًا دودًا، وسُلط عليه أيضًا البرد، فكان يوقد النَّار تحته وتتأجَّجُ حتى تحرق ثيابه وهو لا يُحسُّ بها، فشكا ما يجـده إلى الحسن البصرى ـ كما جـاء فى بعض الروايات ـ فقال له: ألم أكن نهيتُك أن تـتعرّض للصالحين، فلججت، فقـال له: يا حسن، لا أسألك أن تسأل الله أن يفرج عنى، ولكنى أسألك أن تسأله أن يعجل قبض روحى ولا يطيل عذابى، فبكـى الحسن بكاءً شديدًا، وأقام الحـجّاج على هذه العلة خمسـة وعشر يومًا، فلما أُخبـر الحَسَنُ بموته سجد شكرًا، وقال: اللهمَّ كمـا أمته أمت سنته[٣]، وعن الأصمعى، قال: لما حضرت الحجّاج الوفاة أنشأ يقول:

يا ربٍّ قد حلف الأعداء واجتهدوا	بأنـنى رجل مـن سـاكنى الـنار
أيحلفـون علـى عـمياء ويحـهم	ما علـمهم بعظيم العـفو غـفار[٤]

وقال عند موته: الـلهم اغفر لى، فإن الناس يزعـمون أنك لا تفعل[٥]، وعن عمر بن عبـد العزيز أنَّه قال: ما حسدتُ الحجّـاج عدو الله على شىء حسدى إياه على حبِّـه للقرآن وإعطائه أهله، وقوله حين حـضرته الوفاة: اللهم اغـفر لى فإنَّ الناس يزعمون أنك لا تفعل[٦]، ولما قيل للحسن البصـرى: إن الحجّاج قال عند

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٥٩٤).
(٢) الأكلة: داء يقع فى العضو فيتآكل منه .
(٣) شذرات الذهب (١/ ٣٨١).
(٤) البداية والنهاية (١٢/ ٥٥٠).
(٥) المصدر نفسه (١٢/ ٥٥٠) .
(٦) المصدر نفسه (١٢/ ٥٥٠) .

الموت كذا وكذا. قال: أقالها؟ قالوا: نعم. قال: عسى[1]، وقد فرح أهل العراق بموت الحجّاج، وسمى يوم موته: عرس العراق[2].

ج ـ عمره لما مات وما تركه من مال: قال العماد في سنة ٩٥هـ: فيها أراح الله العباد والبلاد بموت الحجاج بن يوسف الثقفي في ليلة مباركة على الأمة، ليلة سبع وعشرين من رمضان، وله ثلاث وقيل: أربع أو خمس وخمسون سنة أو دونها[3]، وزعموا أنّ الحجّاج مات ولم يترك إلا ثلاثمائة درهم ومصحفًا وسيفًا وسرْجًا ورحلاً ومائة درع موقوفة[4].

د ـ ما رُئي له بعد موته: وقال الأصمعي عن أبيه قال: رأيت الحجّاج في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: قتلني بكل قتلة قتلت بها إنسانًا.

وكان الحسن لا يجلس مجلسًا إلا ذكر فيه الحجّاج فدعا عليه، قال: فرآه في منامه فقال له: أنت الحجّاج؟ قال: نعم قال: ما فعل الله بك؟ قال: قُتلت بكل قتيل قتلته ثم عُزلت مع الموحِّدين. قال: فأمسك الحسن بعد ذلك عن شتمه[5].

هـ ـ حزن الوليد بن عبد الملك عليه: لما مات الحجّاج تفجع عليه الوليد، وجلس للعزاء فيه محزونًا عليه، ومازال مهمومًا، حتى دخل عليه الفرزدق ـ الشاعر ـ فرثى الحجّاج رثاءً أرضى الوليد وأقر عينه فقد قال:

لبيك على الإسلام من كان باكيا ... على الدين من مستوحش الليل خائف

وأرملة لما أتاها نعيه ... فجادت له بالواكفات الزوارف

إلى أن قال:

فما ذرفت عيناي بعد محمد ... على مثله إلا نفوس الخلايف[6]

وتتابع الناس في دخولهم على الوليد يعزونه في الحجّاج ويثنون عليه خيرًا، وقد وجد الوليد على عمر بن عبد العزيز لأنه لم يقل في الحجّاج شيئًا، وألجأه

---

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٥٥٠).

(٢) المنتظم (٧/ ٤).

(٣) شذرات الذهب (١/ ٣٧٧).

(٤) البداية والنهاية (١٢/ ٥٥٢).

(٥) المصدر نفسه (١٢/ ٥٥٤).

(٦) العقد الفريد (٣/ ١٩)، ديوان الفرزدق، ص (٢١٢).

إلى الكلام فقال: وهل كان الحجّاج إلا رجلاً من أهل البيت، فنحن نُعزى فيه ولا نُعَزِّى[١]، وقال الوليد: لأشفعن فى الحجّاج عند الله[٢]، ووفاء لذكرى الحجّاج أقرّ الوليد العمال الذين استخلفهم[٣].

و ـ أقوال العلماء فى موت الحجّاج: عن معمر عن ابن طاووس، عن أبيه أنه أخبر بموت الحجّاج مرارًا، فلما تحقّق وفاته قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

ولما أخبر إبراهيم النخعى بموت الحجّاج بكى من الفرح[٤]، ولما بشر الحسن بموت الحجّاج سجد شكرًا لله وقال: اللهم أَمَتَّه، وأذهب عنا سنته[٥]، وخرّ عمر ابن عبد العزيز ساجدًا حينما بلغه النبأ[٦].

---

(١) مناقب عمر بن عبد العزيز، ص (٢٤) .

(٢) المحاسن والأضداد، ص (١٢٦)، النجوم الزاهرة (١/ ٢١٨).

(٣) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الحجّاج المفترى عليه، ص (١٥٠) .

(٤) المصدر نفسه (١٢/ ٥٥١). (٥) المصدر نفسه (١٢/ ٥٥١) .

(٦) العقد الفريد (٣/ ١٨).

المبحث الرابع

النظام المالى فى عهد عبد الملك

أولاً: مصادر دخل الدولة:

كانت من أهم مصادر دخل الدولة: الزكاة، والخراج، والجزية، وخمس الغنائم والعشور والصوائف، وقد تعرضت بعض هذه المصادر للانحراف عن الشريعة من قبل القائمين عليها وعلى سبيل المثال:

١- الجزية: صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ما يعادل ٨٠٠٠٠ درهم سنويًا، ولما تولى عثمان بن عفان شكوا إليه قلة عددهم وتفرقهم فى البلاد فخفضها عنهم إلى ٧٢٠٠٠ درهم[١]، فلما تولى معاوية بن أبى سفيان، شكوا إليه نفس الشكوى فخفضها عنهم إلى ٦٤٠٠٠ درهم، فلما تولى الحجّاج بن يوسف على العراق اتهمهم بمعاونة خصوم الدولة السياسيين فرفعها إلى ٧٢٠٠٠ درهم، ويمكن القول بأن رفع نظام الجزية فى العصر الأموى شهد بصفة عامة انحرافات فى طريقة الجباية، والتى منها ما قيل إن المهلب بن أبى صفرة، حينما صالح أهل خوارزم على ما يزيد على عشرين مليون درهم كان يأخذ بدل النقد سلعًا عينية لعدم توافر السيولة النقدية لدى أهلها، لكنه أجحف فى ذلك حيث كان يأخذ الشيء بنصف قيمته، فبلغ ما أخذه منهم خمسين مليون درهم[٢]، كما شهد انحرافات أخرى متمثلة فى استمرار فرض الجزية على من أسلم، وقد برز هذا الأمر بصفة خاصة فى ولاية الحجّاج[٣]. ومع ذلك يمكن القول بأن التأثير الاقتصادى لهذا الانحراف كان محدودًا، وذلك لأن قرار الحجّاج فى العراق قوبل بثورة أوقفت تطبيقه[٤]، وأيضًا كان الانحراف الذى وقع فى خراسان محدودًا، وعولج سريعًا بمجيء عمر بن عبد العزيز، ولكن للأسف لم يكتب لهذا الإصلاح الاستمرار حيث انتهى مفعوله بانتهاء عهد عمر بن عبد العزيز[٥].

---

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٦٩).

(٢) البداية والنهاية نقلاً عن التطور الاقتصادى، ص (٧٠).

(٣) تاريخ الطبرى نقلاً عن التطور الاقتصادى، ص (٧٠).

(٤) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية للريس، ص (٢١٩).

(٥) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٧١).

٢- الخراج: تدنى الخـراج كثيـراً فى عهـد الحجّـاج حتى وصل طبـقًا لبـعض الروايات إلى ١٨ مليـون درهم وقـيل إنه وصل إلى ٢٥ مليـون درهم عند مـوت الحجّاج[١]، بعد ما كان فى عهـد معاوية قد بلغ ١٣٥ مليون درهم[٢]. وقام عبد الملك بمسح أرض الشام والجـزيرة ويبدو أنه استقل مـا كان يجبى من خراجـهما، وكان معياره فى التقدير هو مدى القـرب والبعد من الأسواق، وكانت مسيرة اليوم واليومين فـأكثر هى غاية البعـد عنها، وما نقص عن اليوم فـهو من القرب، وبناء على ذلك كـان الخـراج المفـروض على الأرض القـريبـة يزيد عن المفـروض على الأرض البعيدة[٣]، وقد أحدث هذا المسح زيادة فى حـصيلة الخراج[٤]، ويبدو أن عبد الملك أراد أن يعوض ما حدث من نقص فى خراج العراق بسبب الثورات.

٢- الصوافى: وبمجىء عبـد الملك أقطع جميع الصوافى للأشـراف حتى لم يُبق منها شيئًا، إلا أن هؤلاء الملاكين الكبـار لم يتوقفوا عن المطالبة بمزيد من القطائع، وأمام إلحاحهم المستمر، قام الخليـفة بالتصرف ببعض الأراضى الخراجية التى توفى أصحابها ولـم يكن لهم ورثة، فأقطعهم جميع هذه الأراضى، وجعـل لأصحابها حق ملكيتها التامة، بما فى ذلك توريثـها على أن يدفعوا عن هذه الأراضى ضريبة العشـر، ورفع ضريبة الخـراج عن هذه الأراضى. وقد اعتبـر الخليفة تصـرفه هذا عملاً مشـروعًا شبيهًا بإخراجـه من بيت المال الجوائز الخاصة[٥]. أى أن الخليفة قد برر موقـفه معتـبراً أن ما قام به وكـأنه نوع من المكافأة التى يحق للخليفـة أن يأمر بهـا، بحيث أن ذلك يـقع ضمن صـلاحيـاته التى تتـيح له أن يقـدم المساعـدات والمكافآت التى يراها مناسبة من بيت المال. ولكن هذا الموقف، لم تكن تدعمه أية سوابق إسلامية فى العهد الراشدى بل هو يـخالف صراحة ما قرّره المسلمون بشأن أرضى الصوافى والأراضى الخراجيـة، حيث اعتبر فيئًا للمسلمـين ووقفًا لهم، فلا يحق لأحد التـصرف فـيها بأى شكـل من الأشكال، إن كان بالبيـع أو بالشراء أو بمنحها قطائع، حتى وإن كان أصحـابها -أى العاملين على هذه الأرض- قد توفوا

---

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٧٤) . (٢) الأحكام السلطانية للماوردى، ص (١٧٥).

(٣) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٧٦). (٤) المصدر نفسه، ص (٧٦).

(٥) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١١٧).

وليس لهم وارث، ولهذا فلا يـصحّ ولا يجوز أن تعتبر هذه الأراضى مـتساوية مع الجوائز الخاصة[1]. هذه بعض الانحرافات التى حدثت فى مصادر الدولة وكان لها الأثر البالغ على النظام المالى.

ثانيًا: النفقات العامة:

١- النفقـات العسكرية: فى عهد عبـد الملك زادت عطاءات الجنود العرب حتى بلغ حـدها الأدنى ١٢٠٠ درهم، وحدها الأوسط ١٦٠٠ درهم، وحـدها الأعلى ١٨٠٠ درهم[2]، فى ولاية العـــراق، والغـريـب أن هذا لا يتـلاءم مع الحـــالة الاقتصادية فى عـهد الحجّاج والتى انخفضت فيهـا إيرادات المال بشكل كبير، لكن يفسر ذلك كثرة من خرج على الحجّاج من جنده، وكان يلغى عطاء من خرج عليه ويزيد فى عطاء الباقين[3].

٢- نفقـات الصناعات الحـربية: كان اهتـمام الدولة الأموية منصـبًا على تطوير سلاح البحرية، وسيأتى الحديث عن ذلك فى الصناعات بإذن الله.

٣- النفـقات الإدارية: كان الحـد الأقصى لرواتب الكتّاب طوال العصـر الأموى وطرفًا من العباسى حتى عهد المأمون هو ٣٦٠٠ درهم سنويًا، وكان حدها الأدنى ٧٢٠ درهمًا سنويًا[4]، وكان كـاتب ديوان رسائل الحجّـاج مرتبـه ثلاثمائة درهم شهريًا، وقد كان يوزعها فيجـعل لامرأته خمسين درهمًا، وينفق على شراء اللحم خمسة وأربعين درهمًا، وما تبـقى ينفقه على الدقيق، وإن فضل شىء تصدق به، وقد عاده الحجّاج من علة، فوجد بين يديه كانون من طين ومنارة من خشب فقال له: ما أرى رزقك يكـفيك. قال: إن كـانت ثلاثمائة لا تكفـينى فثـلاثون ألفًا لا تكفينى[5]. ويمكن اعتبار متوسط الدخل الفردى المناسب فى العصر الأموى هو ما بين مائتـين وخمسـين إلى ثلاثمائة درهم شـهريًا[6]، ويدخل من ضمن النفـقات الإدارية، مرتبات الولاة والقضاة وموظفى الدولة عـمومًا، فقد كانت الدولة تتكفل بمرتباتهم.

---

(١) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى، ص (١١٨).
(٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٠٠).
(٣) المصدر نفسه، ص (١٠٠).
(٤) المصدر نفسه، ص (١٠٧).
(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (١٠٨).

ثالثا: تطور القطاع الزراعى:

كـان تطور القطاع الزراعى للدولة الأمـوية فى الجانـب الغربى، وذلك بسـبب عوامل عديدة منها:

١- الاستقرار السياسى لتلك المنطقة خلال معظم العصر الأموى.

٢- الاسـتقـرار النقدى الذى كـانت تتـمتع به المنطقـة حـتى قبل سك النقـود الإسلامـية، ذلك أنهـا ورثت الدنانير البـيزنطيـة، والتى ظلت عملة مـستـقرة لم تتعرض لما تعرضت له الدراهم الفارسية من غش.

٣- أن المنطقة الغربية من الدولة الأموية لم تعان مما كانت منه المنطقة الشرقية من تركز فى الثروة، ووجود عدد كبير نسبيًا من أفراد المجتمع دخولهم منخفضة نسبيًا، ويعود ذلك إلى أن مـادة الجيش الأموى السياسـية كانت من جند الشـام، وقد تميز أهل هذه المنطقة فى العطاء[١]، مما جعل الدورة الاقتصـادية فى المنطقة الغربية تدور بسرعة أكبـر، وبالتالى ينشط القطاع الزراعى فيها بشكل أكبـر وينمو بشكل أسرع، بينما كان معظم سكان المنطقة الشرقية هم من أصحاب الدخول المنخفضة «الموالى».

٤- استبدال الضـرائب العينية فى كل من الجزيرة والشام بضـرائب نقدية خلال المسح الذى تمّ فى عهـد عبد الملك[٢]، وهذا أثر فى العطاء، فـزاد الطلب النقدى لساكنى المدن على السلع الزراعية، ومنتجات الريف، وأحدث نوعًا من الاستقرار، وأحدث زيادة فى دخول المزارعين مكنتهم من تحقيق تنمية زراعية[٣].

وقد ظهـرت دلائل التطور الزراعى بالمنطقـة الغربية كـثمـرة لتلك العوامل وغـيرها، وكان من أبرز تلك العوامل:

١- زيادة حصيلة خـراج منطقتى الجزيرة والشام نتيجـة المسح الذى تم لهما فى عهد عبد الملك بن مروان.

٢- تطور نظام الرى من خلال توزيع المياه بين الأنهار الفرعية[٤]، مما أدى إلى زيادة إنتاجية الأراضى الزراعية، فهذه بعض الدلائل التى تشير إلى التطور الزراعى بالمنطقة الغربية من الدولة الأموية.

---

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٩٢). (٢)، (٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (١٩٣).

* التدهور الزراعى فى القسم الشرقى من الدولة الأموية:

كان الطابع العام لـقطاع الزراعة فى هذا القسم السير نحـو التدهور، ولعل من أبرز الأسبـاب التى أدت إلى تدهور القطاع الزراعى فى المنطقة الشرقـية من الدولة الأموية ما يلى:

١- الاضطراب السياسى، وفقدان الأمن بالمنطقة، فـانعكس ذلك على مستوى الإنتاجية الزراعية.

٢ ـ تركز الثروة فى يد قلة من سكان المنطقة، حيث كانت معظم التركيبة السكانية من الموالى، مما ترتب عليـه ضعف حركـة النقود داخل المنطقة، فـضعفت حـركة تبادل السلع، أى حدوث كساد اقتصادى بالمنطقة[١].

٣- قـرار بيع الأراضى الخراجـية وجـعل ثمنهـا فى بيت المال، جاء ذلك لمواجـهة النقص فى إيرادات الدولة[٢]. فأدى إلى توفير السـيولة النقدية اللازمة للدولة على المدى القصـير، لكنه على المدى الطويـل كانت له آثار عكسيـة على إيرادات بيت المال، فقد تحولت هذه الأراضى الخراجية إلى أراض عشرية، وبينما لا تقل ضريبة الخـراج عن (٢٥٪) وقد تصل إلـى (٥٠٪) من حصـيلة الإنتـاج الزراعى سنويًا، أصبـح الحد الأقـصى بما تدره لبيت المال هو (١٠٪) سنويًا، وقـد أدى انخـفاض إيرادات الدولة على هذا النحـو إلى إضعاف مقـدرة الدولة فى المدى الطويل على تمويل المشاريع العامة، والتى كان غالبها يدعم قطاع الزراعة، إلى جانب ذلك كان لهذا القـرار أثر مباشر علـى الإنتاجية الزراعـية، فقـد كان البائعون هم أصـحاب الأرض الأصليين الذين عرفوا كـيف يتعاملون معها، وأسلوب زراعتهـا، واكتسبوا الخبرة الزراعية من طول مكثهم فيها، بينما كان المشترون من العرب وهم ذوو خبرة قليلة بالزراعة، خاصة إذا ما قورنت بالنسبة لخبرة المزارعين الأصليين.

٤- إخـضاع المشـاريع الزراعيـة للضغـوط السيـاسيـة، فقد أدت مـحاربة الدولة لخصومـها السياسـيين إلى تخريب أو تحجـيم مشاريعهم الزراعيـة، فانعكس ذلك

---

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٩٦).

(٢) الخراج والنظم المالية، ص (٢٠٣، ٢٠٤).

بنتائج سلبية على اقتصاد الدولة ككل، ومن صور ذلك ما حدث فى عهد الحجّاج من أن بثوقًا انبثقت على الأرض المحياة من أرض البطائح، فلم يعمل الحجّاج - بوصفه والى المنطقة - على سد تلك البثوق مضارة لأهلها - لاتهامهم بمساعدة ابن الأشعث فى الخروج عليه - فغرقت أراضيهم الزراعية وتحولت إلى موات[1].

٥- حدوث مواجهة عسكرية بين المزارعين المهاجرين من الأرياف إلى المدن من الموالى والدولة الأموية، وذلك حينما حاول والى العراق إعادتهم إلى أراضيهم بالقوة وإعادة فرض الجزية عليهم، وقد وافق ذلك خروج ابن الأشعث على الدولة الأموية، فانضموا تحت لوائه[2].

ونتيجة لتلك الأسباب وغيرها فقد بدت علامات تدهور القطاع الزراعى العام فى المنطقة الشرقية من الدولة الأموية، وكان أبرز تلك العلامات ما يلى:

١- تدهور غلة الخراج ، حيث أخذت فى التناقص المستمر[3].

٢- هجرة الفلاحين للأراضى الزراعية والاتجاه نحو المدن ، وذلك لزيادة حجم ضريبة الخراج - بالضرائب الإضافية - وعنف الجباية، فتركوا أراضيهم وهاجروا إلى المدن[4].

٣- حالة القلق التى انتابت المزارعين الذين بقوا فى أراضيهم مما دفعهم لتسجيل أراضيهم لأسماء الأمراء والأشراف، وهو ما يعرف بالإلجاء طلبًا للحماية، ومن أمثلة ذلك إلجاء كثير من المزارعين أراضيهم بمسلمة بن عبد الملك للتعزز به[5].

٤- حدوث نقص كبير فى الإنتاج الحيوانى ، وبالذات حيوانات الحرث، مما دفع والى العراق إلى إصدار أمر يقضى بمنع ذبح الأبقار[6]، فى إحدى خطوات علاج الأزمة، كما قام بتوريد كمية من الجواميس من إقليم السند لسد العجز الحاصل فى دواب التنمية الزراعية[7].

---

(١)، (٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٩٨). (٣) المصدر نفسه، ص (١٩٩).

(٤) تطور ملكية الأراضى فى منطقة السواد حتى نهاية العصر الأموى، ص (١٩٥).

(٥) الخراج والنظم المالية للريس، ص(٢٦٠).

(٦) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٩٩). (٧) فتوح البلدان للبلاذرى، ص (٣٦٨) .

ومع ذلك فقد كانــت خلال هذه الفترة مجموعــة من الإجراءات والمشاريع التى خففت من حدة التدهور الزراعى بالمنطقة خــلال عهد عبد الملك، وكان من أبرزها ما يلى:

١- عمليــة نقل الأيدى العاملة الزراعيــة من منطقة إلى منطقة أخــرى، بهدف إحداث تنمية زراعية فى الجهة المنقول إليها، ومن أمثلة:

أ- نقل الحجّاج بن يوسف عددًا من مزارعى بلاد السند بأهلـيهم وجواميسهم، وإسكانهم فى أرض موات، فأحيوها[١].

ب- نقل رؤوس الأموال إلى مناطق فقيرة لتنميتها، ومثال ذلك إسكان قتيبة بن مسلم لمجـموعــة من العرب فى ســمرقند[٢]، ومعلوم أن العــرب كانوا من أعلى الناس ثروة فى العصر الأموى[٣].

رابعًا: تطور التجارة:

مر تطور التجارة الداخلية فى عهد عبد الملك بمرحلة ضعف بسبب عوامل أثرت على حجم التجارة الداخلية، كان من أبرزها ما يلى:

١ ـ كثرة الفتن والقلاقل الداخلية التــى عصفت بمعظم أركان الدولة الأموية، ومن المعلوم بداهة أن الاستــقرار السيــاسى والأمن الداخلى هى من أولويات ازدهار التجارة الداخلية ونموها، ومع افتقادهمــا فى الدولة الأموية بشكل كبير تعثرت التجارة الداخلية.

٢ ـ نقص السيولة النقدية.

٣ ـ صعــوبة دفع الأثمان للصفـقات التــجارية، وعلى جهــة الخصوص الكبــيرة منها.

٤ ـ ارتفاع نسبة الضرائب على التجارة حيث روى أنها وصلت[٤] إلى ٣٣٪.

---

(١) الخراج والنظم المالية للدولة الأموية، ص (٢١٥).

(٢)، (٣) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٠٠).

(٤) المصدر نفسه، ص (٢١٦) .

ومع بداية ٧٧ هـ نمت التجارة الداخليـة وازدهرت، وكان وراء ذلك العديد من الأسباب، من أبرزها:

١- زيادة السيـولة النقدية الداخلية، وذلك بإصـدار العملة الإسلاميـة الجديدة الموحدة، والتى تطورت من حيث الدقـة والانضباط والعيار، حتى أصـبحت محل ثقة المتعاملين فى الأسـواق، وأصبحت تلقى قبولاً عامًا مما سـهل عملية المبادلات بشكل كبير، وحل عدد النقود محل وزنـها، وبذلك كانت عملية الإصدار النقدى نقطة تحول فى تـطور التجارة الداخليـة بشكل خاص، سواءً مـن حيث الزيادة فى حجمها أو الاتساع فى أرجائها.

٢- حـدوث هدوء واستـقرار نسـبى داخل الدولة الأمـوية بعـد القضـاء على الثورات الداخلية.

٣- تمت فى هذه المرحلة بـعض الإصلاحـات التى كـان من شـأنهـا تيسـيـر الصفقات التجارية، ومن الأمثلة على ذلك ما يلى:

أ- توحيد وحدة الكيل والميزان من قبل الحجّاج بإقليم العراق[١].

ب- تنظيم الأسواق مما يسهل ويخدم الحركة التجارية[٢].

ج- وجود خدمات لراحة التجار، كالفنادق والحمامات داخل الأسواق[٣].

وأما التجارة الخارجـية فى عهد عبد الملك، فقد كانت متـعلقة بالدولة البيزنطية ودول المشرق الأقصى.

١ ـ العلاقة مع الدولة البيزنطية: وقد مرّت العلاقة التجارية معها بمرحلتين:

* مرحلة نمـو وقوة وازدهار: وقد نشـأ هذا النمو والقـوة والازدهار نتيجـة عدة عوامل لعل من أهمها:

أ - كثـرة الاضطرابات والحروب فى المـنطقة الشرقـية من الدولة الأمـوية، مما خفض من حجم المبـادلات التجارية بينها وبين دول المشـرق، ولو بشكل جزئى، وبالتالى زيادة حجم المبادلات التجارية مع الدولة البيزنطية بالغرب.

---

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢١٧) .

(٢)، (٣) المصدر نفسه، ص (٢١٧).

ب- الاستقرار الأمنى فى المناطق الغربية مع الدولة الأموية، دفع بكثير من رؤوس الأموال للهجرة من مناطق التوتر فى الشرق إلى إقليم الشام، بحثًا عن فرص استثمارية آمنة.

ج- الاعتماد الكلى لكل من الدولتين على الأخرى فى مجال هام وحيوى بالنسبة لها، فكما كانت الدولة البيزنطية تعتمد كليًا على أوراق البردى، كانت الدولة الأموية تعتمد كليًا فى حجم النقد الذهبى داخلها على ما يردها من الدولة البيزنطية[1].

* مرحلة تدهور المبادلات التجارية بين البلدان:

وقد شهدت هذه المرحلة انخفاضًا كبيرًا فى المبادلات التجارية بين الدولتين، ويعود ذلك إلى عدة عوامل من أبرزها ما يلى:

١- تدهور العلاقات السياسية بين الدولتين بشكل كبير.

٢- حدوث هدوء نسبى فى الأقاليم الشرقية - بعد القضاء على الثورات الداخلية - مما أدى إلى رفع معدلات التبادل التجارى مع دول الشرق الأقصى.

٣- دخول معظم دول المشرق تحت مظلة الدولة الإسلامية، فتهيأ لها نوع من الاكتفاء الذاتى لتلك الدولة، لا سيما بعد دخول بلاد الهند والسند.

٤- تزايد اعتماد الدولة الأموية فى تجارتها مع دول الشرق الأقصى على التجارة البحرية عن طريق الخليج العربى، لا سيما بعد تطور صناعة السفن بها[2]، بشكل أصبحت معه قادرة على الخوض فى المحيطات، مما جعل معظم تجارة الدولة الأموية مع دول الشرق الأقصى تتم بواسطة الطرق البحرية[3]، فنتيجة لتلك العوامل وغيرها تدهورت التجارة بين البلدين.

٢- العلاقات التجارية مع دول المشرق الأقصى:

كانت تعتمد التجارة بين الدولة الأموية ودول المشرق على نوعين من الخطوط، وهما خطوط التجارة البرية، وخطوط التجارة البحرية.

---

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٠٨).

(٢) المصدر نفسه، ص (٢٠٩). (٣) المصدر نفسه، ص (٢٠٩).

أ- التجارة عن طريق الخطوط البرية: دخلت كثير من دول المشرق تحت مظلة الدولة الإسلامية لا سيما بلاد الهند، والسند، والتى كانت تحتل صادراتها نسبة كبيرة من واردات الدولة الأموية، ومعنى ذلك تحول جزء من التجارة الخارجية مع الشرق إلى تجارة داخلية بين أرجاء الدولة الإسلامية[١].

ب ـ التجارة عن طريق الخطوط البحرية: اهتمت الدولة بالتجارة البحرية، وأكدت على عنصر الأمن للطرق التجارية، ومن صور ذلك إرسالها جيش للقضاء على قراصنة كانوا يقطعون الطريق على تلك الخطوط البحرية فقضى عليهم[٢]، واهتم الحجاج بتحصين المدن التجارية[٣]، كما طور صناعة السفن التجارية وأصبحت وسائل النقل البحرى والرحلات التجارية أكثر أمنًا، وسرعة، وأعلى كفاءة مما شجع على رواج التجارة[٤].

خامسًا: الحرف والصناعات:

من أشهر الصناعات فى عهد عبد الملك:

١- صناعة المنسوجات: وقد تطورت صناعة النسيج فى الدولة الأموية كثيرًا، وأصبحت لها مصانع خاصة بها سميت دور الطراز، وكان دورها إنتاج الملابس الخاصة بموظفى الدولة الكبار، كالأمراء والولاة، وقد تحدثت عن ذلك فى كلامنا عن ديوان الطراز.

٢- التشييد وصناعة مستلزمات البناء: شهدت الدولة الأموية اهتمامًا بالعمران، وتشييد المساكن، وزخرفتها، ومن أبرز هذه المظاهر المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وقد أدى الإقبال على تزيين البيوت والتأنق فيها إلى ظهور صناعات تلبى تلك الرغبات، فظهرت على سبيل المثال صناعة قطع الرخام وزخرفته، وكذا استخدام الزخارف الجبسية لتزيين المبانى[٥].

٣ ـ الصناعات الحربية: توسعت هذه الصناعة فى عهد عبد الملك بن مروان وفتح دارًا بتونس لصناعة السفن الحربية، وكانت نواة تلك الدار ألف عامل متخصص فى صناعة السفن ثم نقلهم من دار الصناعة ـ المنطقة الصناعية ـ بمصر، وقد تم

---

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢١١) . (٢) المصدر نفسه، ص (٢١٢) .
(٣) الحجاج بن يوسف وجه حضارى فى تاريخ الإسلام، ص (٥٩).
(٤) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢١٣) . (٥) تاريخ الموصل (١/ ٢٢٣).

وضع التنظيم اللازم وطريقة إمداد تلك الدار بالأخشاب من الغابات الإفريقية الداخلية، واختيار جماعات من البربر من سكان تلك المناطق للقيام بتلك المهمة، حيث هم أخبر الناس بمناطق وجود الأخشاب الجيدة الملائمة لتلك الصناعة[1]، وفى إرسال دار الصناعة بمصر لألف عامل ليكونوا نواة التصنيع بتونس ما يدل على مدى تطور تلك الصناعة بمصر، وكبر حجمها. وفى تطور لاحق لصناعة السفن الحربية بتونس، قام والى تونس بتوسيع دار الصناعة بها فشق قناة بين الميناء وبين المدينة بطول اثنى عشر ميلاً[2]، وشكلت هذه القناة ما يماثل اليوم أحواض بناء السفن أو الأحواض الجافة[3]، وأصبحت مناطق دور صناعة السفن الحربية مناطق جذب سكانى[4]، ولم تكن السفن الحربية تختلف كثيرًا عن السفن التجارية، وقد تطورت صناعة السفن التجارية فى ولاية الحجّاج بصفة عامة[5]، وكان من أشهر أماكن صناعتها البحرين ومدينة واسط بالعراق[6].

٤- صناعة البردى فى مصر: كان لهذه الصناعة أهميتها الخاصة، ذلك لأن البردى كان يستخدم قبل ظهور صناعة الورق آنذاك فى المكاتبات وأعمال الدولة، وكانت الدولة تشرف على الإنتاج إشرافًا مباشرًا لأهمية تلك الصناعة، وكانت صادرات البردى تدر أرباحًا طيبة، وما ذكر عنها من تطور أنها استبدلت العبارات البيزنطية التى كانت تطبع على البردى المخصص للتصدير بعبارات دينية إسلامية، وكان ذلك فى عهد عبد الملك[7].

٥- صناعات وحرف أخرى: ومن أهمها: حرفة الحدادة والصناعات الخشبية، وصناعة الحلى والمجوهرات[8].

سادسًا: إحداث دور ضرب العملة وتعريب النقد:

كانت عوامل عديدة تتجمع فى الأفق كلها تشير إلى وجوب حدوث تطور كبير فى نظام العملة المتعارف عليه فى العالم الإسلامى بعد أن اتسعت رقعته ذلك الاتساع الكبير، واستقرت أحواله الداخلية بعد مضى فترة من خلافة عبد الملك بن

(١) تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، ص (١١٥، ١١٦).
(٢) الإدارة فى العصر الأموى، ص (٢٢٢).
(٣) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٤٠).
(٤) المصدر نفسه، ص (٢٤٠).
(٥) المصدر نفسه، ص (٢٤٢).
(٦) المصدر نفسه، ص (٢٤٢).
(٧) المصدر نفسه، ص (٢٤٣).
(٨) المصدر نفسه، ص (٢٤٤).

مروان، فقد كـان العالم الإسلامى يتعامل حتى ذلك الوقت بالعـملة المالية لفارس والروم من دراهم، ودنانير. وهذه العـملات المالية قد تناقـصت كمياتهـا المتداولة بشكل يثـير القلق بعـد انهيـار الإمبـراطورية الفارسـية، واضطراب الأحـوال فى إمبـراطورية الروم، فلم يعد حـجم هذه العمـلات المتوافـر يكفى لتغطيـة النشاط التجارى والاقتصادى، والحاجة الماليـة للدولة الإسلامية الواسعة والنشيطة[١]، وقد قام عبد الملك بتعـريب النقد تعريبًا نهائيًا، وأحدث دور الضـرب التى تضرب فيها الدنانير، وجعلها بإشراف الخلافـة، ويود المؤرخون أن يشعرونا بأنه فعل ذلك لأنه تخـاصم مع ملك الروم فـيقـولون: إن الروم كـانوا يأخـذون من البـلاد العربيـة صحائف البَردى، وأمر عبد الملك أن يكتب على رأس صحائف البردى «شهد الله أنه لا إله إلا هو»، فغضب لذلك ملك الروم[٢]، وكان محتاجًا إلى البردى، فهدد بأن يطبع على الدنانير عبارات القذف بحق الرسول ﷺ، إن استمرت تلك العبارة على صحف البردى، فـاعتمد عبد الملك أن يضـرب السكة فى بلاده ويستغنى عن الدنانير التى تأتيه من بلاد الروم.

على أن الأمر يبـدو أوسع من هذا، فقـد كان فى بلاد المسلمـين نقود فارسـية ونقود حـميرية قديمـة، وغيرها، وقد حـاول الخلفاء من قبله ضـرب النقود، بل يرجع إلى عـمر بن الخـطاب أنه ضرب الدراهم لكنـه استـبقى علـيهـا العبـارات الفارسـية، وأضاف بعض العبـارات العربية فـيها كقـول «جائز»، واستمـر ضرب النقود فى عـهد عثمـان ومعاوية وابن الزبير، فكان من الطبـيعى أن يستأنـف عبد الملك عمـله، وهو ما فعله. عـلى أن عبد الملك يمـتاز بأنه وضع لذلك مـخططًا واضحًـا، فليست القضـية قضـية إنشـاء مصنع للنقود، ونقل السـكة من اللغات الأجنبيـة إلى اللغـة العـربيـة فـحـسب، بل يدخل فى هذا الأمـر وزن النقـود وشكلها[٣]. وقد تحدث المؤرخون عن أسباب دينية وسيـاسية واقتصادية قد لعبت دوراً أساسيًا فى بناء موقف الخليفة، تتلخص هذه الأسباب على الشكل التالى:

١- كان الخليـفة حـريصًا على صـبغ الدولة الأموية بصـبغة إسـلاميـة، ولذا فإن الإصلاح النقدى يندرج ضمن خطة شاملة لتعريب مؤسسات الدولة[٤].

---

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤٢٨). (٢) حياة الحيوان للدميرى (١/ ٩١ ـ ٩٤).

(٣) الدولة الأموية: يوسف العشى، ص (٢٣٤).

(٤) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى، ص(٣٢٠).

٢- حرص الخليفة على إنهاء التبعية الاقتصادية للدولة البيزنطية التى كانت تسيطر دنانيرها الذهبية على الجانب النقدى من اقتصاديات الدولة[١].

٣- توقف حجم السيولة النقدية للدولة الأموية على ما يرد عليها من الدولة البيزنطية، مما يعرضها لأزمات اقتصادية حادة، خاصة فى حالات انقطاع هذه السيولة بسبب ممارسة ضغوط اقتصادية، أو نشوب معارك حربية أو نحوها.

٤- سيطرة الدولة على مصادر عرض النقود، وضمان تخليصها من الغش وكسب ثقة الناس فى النقود المتداولة.

٥- حاجة الدولة الفعلية إلى عملة داخلية موحدة ومنضبطة حتى تستوفى بها حقوقها لدى الأفراد، وتسهل لها القيام بوظائفها الاقتصادية[٢].

٦- إن إصدار النقود يعبر عن السيادة الكاملة للدولة الإسلامية، ويحررها من النفوذ الأجنبى[٣]، فقد أراد عبد الملك بن مروان أن يقيم سلطانه على أساس اقتصادى مستقل عن بيزنطة وعدم الارتباط بنقدها، كما أن إصدار أول دينار إسلامى يرتبط بحالة الصراع مع البيزنطيين حيث استطاع الخليفة أن يوجه ضربة اقتصادية موجعة للدولة البيزنطية.

٧- يعتبر سك النقود الإسلامية وتوحيدها فى الدولة اتجاهًا نحو الدولة المركزية وضبط جهازها المالى[٤].

٨- ومن المعلوم الأكثر أهمية التى جعلت الخليفة يقدم على إصدار النقود الإسلامية، توافر كميات كبيرة من الذهب والفضة لدى المسلمين فى البلاد المفتوحة، فاستند على قاعدة هذا المخزون الكبير من المعادن فى إصدار النقد الإسلامى الجديد[٥].

أهم خصائص النقود الإسلامية فى عهد عبد الملك:

١ ـ أنه ألغى العبارات والإشارات التى تشير إلى العقيدة المسيحية المحرفة، واستبدلها بعبارات تدل على عقيدة التوحيد الإسلامية.

---

(١)، (٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٤٥).

(٣) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى، ص (٣٢١) . (٤)، (٥) المصدر، نفسه ص (٣٢٢).

٢ ـ أنها موافقة فى أوزانها النسبية لنصاب زكاة النقدين ومقدارها.

٣ ـ أنه حدد وزن الدينار باثنين وعشرين قيراطًا إلا حبة[١]، وجعل الدرهم خمسة عشر قيراطًا أو ستة دوانق[٢].

٤ ـ أنه حدد بناء على الوزن السابق سعر الصرف بين الدرهم والدينار، فكانت كل عشرة دراهم تساوى سبعة دنانير[٣].

٥ ـ تحددت تواريخ إصدار النقود الأموية بالتاريخ الهجرى المتسلسل، أى وفق المتعارف عليه، بينما افتقرت النقود الساسانية والبيزنطية إلى التواريخ التقويمية، إذ اعتمدت تواريخها على بداية حكم كل ملك[٤].

محاربة تزييف العملة: تشدد عبد الملك وخلفاؤه من بعده وولاتهم فى تعقب أية محاولة لغش النقود وتزييفها، ومعاقبة من يثبت عليه ذلك، فقد روى أنه أخذ رجلاً يضرب على غير سكة المسلمين فأراد قطع يده، ثم ترك ذلك وعاقبه، فاستحسن ذلك شيوخ المدينة[٥].

سابعًا: العمارة والبناء فى عهد عبد الملك:

اقتضت أهداف دولة عبد الملك إنشاء مدينة واسط، وتونس.

١- بناء واسط: اختطها الحجّاج بن يوسف الثقفى فى أرض كسكر[٦]، وهى تتوسط عدة مدن، فهى تبعد عن الكوفة أربعين فرسخًا، وكذلك عن المدائن والأهواز والبصرة، وهى إحدى مدن العراق الكبرى قبل بناء بغداد[٧]، وقد بدأ الحجّاج فى بنائها عام ٨٣هـ وانتهى منها سنة ٨٦هـ[٨]، وكان شروعه فى البناء بعد موافقة عبد الملك، وقد أنفق على بنائها خراج العراق كله لخمس سنوات[٩]، كانت رؤية تخطيطها تتضح فيها الملامح الأساسية للتخطيط للمدينة الإسلامية، فاشتملت المدينة على المسجد ـ الجامع ـ ودار الإمارة فى الوسط، وتضمينها

---

(١) التطور الاقتصادى فى العهد الأموى، ص (١٤٦). (٢)، (٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (١٤٦).

(٥) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤٤١). (٦) تجديد الدولة الأموية، ص (١٩٥).

(٧)، (٨) فتوح البلدان، ص (٧-٤٠)، تجديد الدولة الأموية، ص (١٩٥).

(٩) تاريخ واسط، بحشل، ص (٣٨، ٣٩)، تجديد الدولة الأموية، ص (١٩٧).

الأسواق اللازمة لحياة مدينة مستقرة، وفيها كذلك من الملامح الجديدة ما يعكس ملامح النظام الأموى الجديد. ولعبت واسط دوراً سياسيًا مهمًا، فكانت هناك المناظر المتصلة بينها وبين قزوين، وكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر إن كان نهاراً وإن كان ليلاً أشعلوا نيرانًا، فتجرد الخيل إليهم، فكانت قزوين ثغراً[1]، فمنها كانت تتحرك الجيوش، وفيها ضربت النقود[2]، وازدهرت واسط من الناحية الاقتصادية فكثرت فيها المحلات التجارية، وتقدمت فيها الزراعة، وكانت عاصمة العراق فى عهد الحجّاج.

٢ ـ بناء تونس: اختط هذه المدينة القائد حسان بن النعمان الغسانى عام ٨٢هـ، لتكون قاعدة عسكرية بحرية، ولتحول دون تكرار البيزنطيين الهجوم على قرطاجة عام ٧٨هـ[3]، بنى حسان بن النعمان مدينة تونس على أنقاض قرية قديمة عرفت باسم ترشيش القديمة[4]، وإنما سميت تونس فى أيام الإسلام لوجود صومعة الراهب، وكانت سرايا المسلمين تنزل بإزاء صومعته، وتأنس لصوت الراهب، فيقولون: هذه الصومعة تؤنس، فلزمها هذا الإسم فسميت باسم تونس[5]، واختط حسان تونس غربى البحر المتوسط بنحو عشرة أميال[6]، فقام بحفر قناة تصل المدينة بالبحر لتكون ميناء بحريًا، ومركزاً للأسطول الإسلامى بعد أن أنشأ فيها صناعة المراكب[7]، بخبراء فى هذه الصناعة زوده بها والى مصر عبد العزيز بن مروان بناء على توجيه الخليفة عبد الملك[8]. وقد بنيت مدينة تونس طبقًا لأهداف سياسية استراتيجية، وأهداف اقتصادية اجتماعية، تبناها الخليفة عبد الملك، أما الأهداف السياسية البعيدة المدى، فيتضح ذلك بوضع حد لاعتداءات الروم والمتمثلة بإغارتهم على الساحل الإفريقى، والسبيل الأمثل هو إيجاد قاعدة بحرية، وصناعة بحرية قادرة على إنشاء أسطول مهمته صد العدوان الرومى بادئ

---

(١) معجم البلدان (٥/ ٣٥٠). (٢) المصدر نفسه (٥/ ٣٥٠).

(٣) رياض النفوس للمالكى نقلاً عن تجديد الدولة الأموية، ص (٢٠٠).

(٤) معجم البلدان (٢/ ٦٠١).

(٥) الروض المعطار، ص (١٤٤) نقلاً عن تجديد الدولة الأموية، ص (٢٠٠).

(٦) تقويم البلدان نقلاً عن تجديد الدولة، ص (٢٠٠). (٧) دائرة المعارف الإسلامية (٦/ ٣٢).

(٨) تجديد الدولة الأموية، ص (٢٠٠).

الأمر، ثم الانتقال من مرحلة التصدى إلى الغزو والفتح فيما بعد، وقد تمثل تطبيق هذه المرحلة من قبل الخليفة عبد الملك فقام بالإيعاز لشقيقه والى مصر: عبد العزيز بن مروان، لإرسال ألفى قبطى من مهرة الصناع لإقامة صناعة مراكب بحرية، وقام هؤلاء بالمهمة الموكلة إليهم خير قيام، وأما الهدف الثانى: فيتمثل بإيجاد حياة اجتماعية بايجاد المؤسسات القادرة على خدمة الأفراد، فأقام فى المدينة المسجد الجامع ودار الإمارة وثكنات للجند للمرابطة، وأخذ يقوم بتدوين الدواوين[1]، تنظيم الخراج، والعناية بالدعوة الإسلامية بين البربر، فقام بإرسال الفقهاء ليعلموهم اللغة العربية والدين الإسلامى[2]، وسارت المدينة لتكون معسكرًا حربيًا فى البداية، ومركز استيطان وإدارة لدعم الفتوحات، وأخيرًا مركزًا حضاريًا ومركز إشعاع فكرى وعلمى وثقافى[3]. وهكذا رسخ الخليفة عبد الملك بن مروان أقدام الدولة الأموية بتأسيس مدينة تونس، وقطع دابر الغارات البيزنطية بإيجاد مدينة إسلامية مرتبطة بالأهداف العليا للدولة[4].

٣ ـ بناء مسجد قبة الصخرة: بنى هذا المسجد الخليفة عبد الملك بن مروان وسماه الأوربيون خطأ مسجد عمر، وقد رصد الخليفة لإعماره أموالاً طائلة[5]، قال ابن كثير: ولما أراد عبد الملك عمارة بيت المقدس وجه إليه بالأموال والعمال، ووكل بالعمل رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام مولاه، وجمع الصناع من أطراف البلاد وأرسلهم إلى بيت المقدس، وأرسل إليه بالأموال الجزيلة الكثيرة، وأمر رجاء بن حيوة ويزيد أن يفرغا الأموال إفراغًا، ولا يتوقفا فيه، فبثوا النفقات وأكثروا، فبنوا القبة فجاءت فى أحسن البناء، وفرشاها بالرخام الملون، وحفّاها بأنواع الستور، وأقاما لها سدنة وخدامًا بأنواع الطيب والمسك والعنبر وماء الورد والزعفران، يعملون منه غاليه، ويبخرون القبة والمسجد من الليل، وجعلا فيها من قناديل الذهب والفضة والسلاسل الذهبية والفضية شيئًا كثيرًا، وفرشاها بأنواع البسط الملونة، وكانوا إذا أطلقوا البخور شمَّ من مسافة بعيدة، وقد عملوا فيها من الإشارات والعلامات المكذوبة شيئًا كثيرًا مما فى الآخرة، فصوروا فيه صورة

(١) البيان المغرب (٣٨/١).
(٢) المصدر نفسه (٣٨/١).
(٣) تجديد الدولة الأموية، ص (٢٠٣).
(٤) المصدر نفسه، ص (٣٢٠).
(٥) المصدر نفسه، ص (٢٠٦).

الصـراط وباب الجنة وقـدم رسـول الله ﷺ ووادى جـهـنم، وكـذلك فى أبوابه ومواضع منه، فاغتر الناس بذلك إلى زماننا. . . وبالجملة فإن صخرة بيت المقدس لما فرغ من بنائها لم يكن لها نظير على وجه الأرض بهـجة ومنظرًا، وقد كان فيها من الفصوص والجواهر والفـسيفساء وغير ذلك شىء كـثير وأنواع باهرة، ولما فرغ رجاء بن حـيوة ويزيد بن سلام من عمـارتها على أكمل الوجـوه، فضل من المال الذى أنفقاه على ذلك ستـمائة ألف مثقال، وقيل ثلاثمائة ألف مثـقال، فكتبا إلى عبد الملك يخبرانـه بذلك، فكتب إليهما قد وهبته لكما، فكتـبا إليه إنا لو استطعنا لزدنا فى عمارة هذا المسجد من حلى نسائنا، فكتب إليـهما: إذا أبيتمـا أن تقبلاه فأفرغـاه على القبة والأبواب، فما كـان أحد يستطيع أن يتأمل القبـة مما عليها من الذهب القديم والحديث[1].

وهناك عـدة أسئلة تطرح نفـسهـا: ما سـبب بناء هذا المسجـد وبهذا الإتـقان والإبداع؟ ولماذا تزامن مع حركـة ابن الزبير فى الحجـاز؟، إن أول المؤرخين الذين حاولوا إيجاد التسويـغ لبناء مسجد قبة الصخرة المشرفـة هو اليعقوبى (ت ٢٨٤هـ) وقد ربط ذلك بالحكم والخـلافة حينئذ، وأوجـد صيغة مـشتركة فى التـعامل بين السلطة الأموية والمجـتمع، لأن معظم العـالم الإسلامى كان قد بايع عـبد الله بن الزبير بالخلافـة (٦٤ ـ ٧٣هـ) ما عدا إقليم الأردن[2]، فقد قـال فى كتابه: ومنع عـبد الملك أهل الشـام من الحج، وذلك لأن ابن الزبيـر كان يأخـذهم إذا حجـوا بالبيعة، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة فضج الناس وقالوا: تمنعنا من حج بيت الله الحـرام، وهو فرض علينا، فقال: هذا ابن شـهاب الزهرى يحدثكم أن رسـول الله ﷺ قال: «لا تشـد الرحال إلا إلى ثلاثة مـساجـد: المسجـد الحرام، ومـسجدى، ومـسجـد بيت المقدس». وهو يقوم لكم مـقام المسجـد الحرام، وهذه الصخرة التى يروى أن رسول الله ﷺ وضع قدمـه لما صعد إلى السماء[3].
واليعقوبى راوى الأثر السابق مؤرخ شيـعى إمامى كان يعمل فى كتابة الدواوين فى الدولة العباسـية حتى لقب بالكاتب العـباسى، وقد عرض اليعـقوبى تاريخ الدولة

---

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٤٠، ٤١). (٢) تجديد الدولة الأموية، ص (٢١٢).
(٣) تاريخ اليعقوبى (٢/ ٣٦١).

الإسلامية من وجهة نظر الشيعة الإمـامية، فهو لا يعترف بالخلافة إلا لعلى بن أبى طالب وأبنائه حسب تسلسل الأئمـة عند الشيعة، ويسـمى على بالوصى، وعندما أرخ لخلافة أبـى بكر وعمر وعثـمان لم يضف إليهم لقب الخلافـة إنما تولى الأمر فلان، ثم لم يتـرك واحداً منهم دون أن يطعن فيه، وكـذلك كبار الصحـابة، وقد ذكر عن عـائشة رضى الله عنهـا أخبـاراً سيئـة وكذلك عن خالـد بن الوليد[1]، وعمرو بن العاص[2]، ومعاوية بن أبى سـفيان[3]، وعرض خبـر السقيفـة خبراً مشيناً[4]، ادعى فيـه إنه قد حصلت مـؤامرة على سلب الخـلافة من على بن أبى طالب الذى هو الوصى فى نظره، وطريقـته فى سيـاق الاتهامـات ـ الباطلة ـ هى طريقة قـومه من أهل التـشيع وهى إمـا اختـلاق الخبر بالـكلية[5]، أو التزيد فى الخبر[6]، والإضافة عليه أو عرضه فى غير سياقه ومحله حتى يتحرف معناه، ومن الملاحظ أنه عندمـا ذكر الخلفاء الأمـويين وصفـهم بالملوك وعندما ذكر خـلفاء بنى العـباس وصـفهم بالخلفـاء، كمـا وصف دولتهـم فى كتـابه البلدان باسم الدولة المبـاركة[7]، مما يعكس نفـاقه وتسـتره وراء شـعار التـقيـة، وهذا الكتاب يمـثل الانحراف والتـشويه الحاصل فى كتـابة التاريخ الإسلامى، وهو مرجع لكثـير من المستشرقين والمستغربين الذين طعنوا فى التاريخ الإسلامى وسيرة رجاله، مع أنه لا قـيمـة له من الناحيـة العلمـية إذ يغلب علـى القسم الأول القـصص والأساطيـر والخرافات، والقسم الثـانى كتب من زاوية نظر حزبية، كما أنه يفتـقد من الناحية المنهجية لأبسط قواعد التوثيق العلمى[8]. هذا هو اليعقوبى الذى اعتمده المؤرخون المتأخرون فى روايته قصة بناء مسجد قـبة الصخرة أو مسجد بيت المقدس على حد تعبيره، وعلينا أن نتـحفظ من رواية اليعقوبى الآنفة الذكر، ونعتـبرها خارجة عن الإطار المقبـول لأنه لا يعقل أن رجلاً بمستوى عبد الملـك فى دهائه ومكره وعقله وفقـهه يضع نفـسه مـوضع شبهـة الكفر، فـيصـد الناس عن الحج إلى بيت الله الحرام[9]، هذا من ناحـية العقل والمنطـق، وأما من ناحيـة السند فقـد بينا أننا لم

---

(1) تاريخ اليعقوبى (٢/ ١٣١) .

(2) المصدر نفسه (٢/ ٢٢٢) .

(3) المصدر نفسه (٢/ ٢٣٢، ٢٣٨) .

(4) المصدر نفسه (٢/ ١٢٣، ١٢٦) .

(5) منهج كتابة التاريخ الإسلامى، ص (٤٣١) .

(6) المصدر نفسه، ص (٤٣١).

(7) كتاب البلدان لليعقوبى، ص (٤٣٢) .

(8) منهج كتابة التاريخ الإسلامى، ص(٤٣٢) .

(9) تجديد الدولة الأموية، ص (٢١٤) .

نسمع أن أحـدًا من خصوم الأمـويين أوردوا ذلك فى مطاعنهم على عـبد الملك ـ سوى الشـيعـة ـ. كما أن الإمـام الزهرى لم يلتق بعبـد الملك إلا بعد مـقتل ابن الزبير، فـقد نقل الذهبى عن الليث بن سعد أنه قـال: قدم ابن شهاب علـى عبد الملك سنة اثنين وثمانين[1]. وقد نص على أن ابن الزبير قُتل سنة ٧٢هـ[2]، وبعد مقتله استـوثقت الممالك لعبد الملك[3]، فليس هو فى حاجة لمن يضع له أحاديث لصرف الناس عن الحج. والزهرى لم يكن عند مقـتل ابن الزبير ذائع الصيت عند الأمة الإسـلامية بحيث تـتقبل منه حديثًـا موضوعًـا يلغى به فريضة الحج الثـابتة بالقرآن والأحـاديث الصحـيحة وذلك لصغـر سنه، فإنه قـد ولد بعـد الخمسين من الهجـرة[4]، وصـداقته بعبد الملك وتردده عليه لا يقـدح فى أمانتـه ودينه، وأما حديث شـد الرحال فهو صـحيح رواه البخـارى ومسلم وأصحـاب السنن الأربعة وغيرهم من العلماء، قال عنه ابن تيمية: وهو حـديث مستفيض، متلقى بالقبول، أجمع أهل العلم على صـحته وتلقـيه بالقبول والتـصديق[5]، ولم ينفرد الزهرى رحمـه الله برواية هذا الحديث حتى يتـهم بوضعه، والحديـث ليس فيه فضل قـبة الصخرة وليس فيـه الدعوة إلى الحج إليها والطواف حولها بدلاً عن الكعـبة، كما يدعى بعض المزورين، وغاية ما فيه فضل الصلاة فى بيت المقدس وزيارته[6]، وأما الصخـرة فقد ذكر ابن القـيم أن كل حديث فيهـا فهو كذب مـفترى[7]، وقد قام الدكتـور حارث بن سليمان الـضارى بنسف هذه الشبهـة فى كتابه القـيم: «الإمام الزهرى وأثره فى السنة»[8] فى ثلاث عشرة صـفحة، وأتى بحجج دامـغة قوية لمن يبحث عن الحقيقة العلمية، وسـيأتى الحديث عن الإمام الزهرى فى عهد هشام بن عبد الملك بإذن الله تعالى.

---

(١) موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية، ص (١٣٦). (٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٤٧).
(٣) المصدر نفسه (٤/ ٢٤٧) . (٤) السنة ومكانتها فى التشريع، ص (٢١٨).
(٥) الفتاوى (٢٧/ ٥، ٦) . (٦) السن ومكانتها فى التشريع، ص (٢١٩).
(٧) المنار المنيف، ص (٨٧) .
(٨) الإمام الزهرى وأثره فى السنة، ص (٤٥٧ ـ ٤٧٠).

المبحث الخامس

النظام القضائى والشرطة

أولاً: القضاء:

كان القضاء على عهد عبد الملك استمرارًا لما كان عليه زمن من سبقه من الخلفاء، فضلاً عن إسهاماته الرائدة بتنظيم جوانب متعددة منه، فهو أول من أفرد للمظالم[(١)] يومًا، كما أوجب أن تقرأ عهود القضاة، أى أوامر تعيينهم، فى المسجد الجامع أولاً، ثم يتوجهون إلى دار الأمير حيث يُتلى أمامه عهد تولية القاضى[(٢)]، وكان الخليفة عبد الملك يختار من القضاة من يتصف بالتقوى والنزاهة، فقد ولى على القضاء بلال بن أبى الدرداء[(٣)].

١- أشهر قضاة عبد الملك: وكان من أشهر قضاة عبد الملك أبا أدريس الخولانى وذلك سنة ٧٤هـ، وكانت له المظالم أيضًا حتى أعفاه عبد الملك بطلب منه[(٤)]، ثم ولى عامر الأشعرى[(٥)]، ثم عبد الله بن عامر اليحصبى[(٦)]، وعبد الله بن قيس، ثم سليمان المحاربى، ومعظم هؤلاء القضاة من الفقهاء ومن رواة الحديث[(٧)].

٢- رزق القاضى: ولما قدم عبد الملك بن مروان النخيلة سنة ٧٢ هـ قال: ما فعل شريح العراقى؟ قيل: حى، قال: علىَّ به. فجاءه فقال: ما منعك من القضاء؟ فقال: ما كنت أقضى بين اثنين فى فتنة[(٨)]. قال: وفقك الله عُد إلى قضائك، فقد أمرنا لك بعشرة الاف درهم، وثلاثمائة جريب، فأخذها بالفلوجة وقضى إلى سنة ثمان وسبعين[(٩)].

---

(١) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٨٨).

(٢) الإسلام والحضارة الإسلامية، كرد على، ص (١٦١).

(٣) أخبار القضاة (٣/٢٠٢).

(٤) المصدر نفسه (٣/٢٠٢)، الإصلاحات، ص (١٨٩).

(٥) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٨٩).

(٦) أخبار القضاة (٣/٢٠٣).

(٧) إدارة بلاد الشام، ص (١٣٢، ١٣٣).

(٨) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٢/٢١١).

(٩) المصدر نفسه (٢/٢١١).

٣ ـ مراقبة القضاة: كان عبد الملك يراقب قضاته ويتابع أخبارهم، فقد أخبر أن زوجة قاضية الحارث الأشعرى، كلمت زوجها فى رجل يقضى له بقضية، وأن الرجل أهدى إلى زوجة القاضى هدية، فقال عبد الملك:

إذا رشوة من باب بيت تقحمت لتسكن فيه والأمانة فيه
سعت هربًا منه وولت كأنها حليم تولى عن جوار سفيه[(١)]

٤ - عدم التدخل فى أحكامهم وأعمالهم. فقد كان موقف عبد الملك من القضاء والقضاة مبنى على الاحترام وعدم التدخل فى عملهم وأحكامهم[(٢)].

٥ - احترامه لقضاء عبد الله بن الزبير رضى الله عنه: أرسل أبان بن عثمان عامل عبد الملك على المدينة رسالة يسأله عن موقفه من أقضية وأحكام عبد الله بن الزبير، قائلاً له: إن عبد الله بن الزبير قضى بين الناس بأقضية، فما يرى أمير المؤمنين، أمضيها أم أردها؟ فكتب عبد الملك إلى إبان بن عثمان: إنا والله ما عبنا على ابن الزبير أقضيته، ولكن عبنا عليه ما تناول من الأمر، فإذا أتاك كتابى هذا، فأنفذ أقضيته، فإن ترداد الأقضية عندنا يتعسر[(٣)]. وهذه الرسالة تبين لنا جانبًا مهمًا من سياسة عبد الملك الحازمة، وحكمته فى عدم التدخل فى المؤسسة القضائية، إذ سد بابًا على الحكام والولاة كان فتحه يمكن أن يعرض أحكام القضاة إلى النقض المستمر[(٤)].

٦ - تحديد مهور النساء. قام عبد الملك بتحديد المهور وجعلها (٤٠٠) أربعمائة دينار، حدًا أعلى، وهو أول من فعل ذلك اقتداء بما فعله رسول الله ﷺ عندما خطب أم حبيبة بنت أبى سفيان[(٥)]، وربما قام عبد الملك بذلك منعًا للمغالاة فى المهور، وتشجيعًا للزواج والإنجاب[(٦)].

٧ ـ ديوان المظالم: كان الخليفة عبد الملك أول من أفرد يومًا للنظر فى المظالم، حيث جلس فى يوم محدد يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر فيها،

---

(١) أخبار وكيع (٥٦/١)، الإصلاحات المالية، ص (١٩٠).
(٢) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٩٠)
(٣) أخبار القضاة (١/ ١٣٠) .
(٤) الإصلاحات المالية، ص (١٩١).
(٥) الطبقات (٩٩/٨)، الإصلاحات المالية، ص (١٩٠).
(٦) الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية، ص (١٩٠).

فكان إذا وقف منها على مشكل، أو احتاج فيها إلى حكم منفذ رده إلى قاضيه[1] أبى إدريس الخولانى، فنفذ فيه أحكامه، وقد قام للجلوس بنفسه حتى يرتدع الناس، فكان أبو إدريس هو المباشر وعبد الملك الآمر[2]، وكان عبد الملك حين يجلس للمظالم يستعد لها، فكان يلبس جبة ورداء[3]، كما يقام على رأسه بالسيوف[4]، ويأمر شخصًا من هؤلاء القائمين على رأسه بإنشاد شعر لسعية بن عُريض وهو:

إنا إذا ما دعا الهوى ... وأنصت السامع للقائل

واصطرع القوم بألبابهم ... نقضى بحكم عادل فاصل

لا نجعل الباطل حقًا ولا ... نلفظ دون الحق بالباطل

نخاف أن تسفه أحلامنا ... فنخمل الدهر مع الخامل[5]

ثم يجتهد عبد الملك فى الحق بين الخصمين[6]. وهذا يعنى أن جلوس الخليفة عبد الملك للمظالم كان جلوسًا منظمًا ومتكاملاً، ولا بد أن جلسات الخليفة هذه كان يحضرها كتاب يدونون هذه الجلسات وأحكامها، كما أن تحديد الخليفة عبد الملك يومًا معينًا من كل أسبوع للنظر فى المظالم، وتعيين قاضٍ لذلك، وتعيين من يقوم على رأسه بالسيوف وهم من الحماة والأعوان، وارتداء الخليفة ملابس معينة، وانعقاد هذه الجلسات فى مكان محدد، كل هذا يعنى وجود الأسس لديوان مستقل. لكل ذلك يمكننا أن نقول بأن الخليفة عبد الملك ربما كان أول من أسس ديوان النظر فى المظالم فى الدولة[7].

ثانيا: [illegible]

ومن الأجهزة المهمة التى كان لها أثر فاعل فى إدارة بلاد الشام، جهاز الشرطة، وعلى رأسه صاحب الشرطة، ولابد أن الخليفة عبد الملك كان لا يختار لهذا

---

(١) الإصلاحات المالية والتراتيب الإدارية، ص (١٥١) .

(٢) نهاية الإرب (٦/ ٢٦٩) .

(٣) الإصلاحات المالية والتراتيب الإدارية، ص (١٥٢).

(٤) الإسلام والحضارة العربية، كرد على، ص (١٦٧).

(٥) الإصلاحات المالية والتراتيب الإدارية، ص (١٥٢).

(٦) البداية والنهاية (١٢/ ٣٨٥).

(٧) الإصلاحات المالية، ص (١٥٣).

المنصب إلا من توافرت فيه شروط صحبة التوافر[1]، وعين الخليفة عبد الملك بن مروان على شرطته: عبد الله بن هانى الأزدى[2]، ثم استبدل به يزيد بن كبشة السكسكى ثم عزل الكثير من هذا المنصب وآخرهم فى عهد عبد الملك، كعب بن حامد العبسى[3]، ولم تكن مهمة الشرطة فى عهد عبد الملك هى الجناة واللصوص فحسب، بل مارست الشرطة عملاً مهمًا، إلا وهو عملية تنظيم وضبط نزول جيوش الخلافة ورحيلها أثناء الحملات العسكرية، فقد قلد الخليفة الحجّاج بن يوسف الثقفى هذه المهمة، فنجح فيها فى عدة مناسبات، وتمكن من ضبط جيش الخليفة وتأدية مهمته على أحسن وجه[4]، وكانت الشرطة موجودة فى كل أقاليم الدولة وتابعة لولاتها. واتخذ الخليفة عبد الملك بن مروان حرسًا خاصًا به[5]، ويرأس هؤلاء الحرس رئيس، يعين ويعزل من الخليفة، وهو المسئول عن أفراد حرسه أمام الخليفة. ويبدو أن أعدادهم لم تكن قليلة، وكانت مهمة الحرس الأساسية، هى حماية الخليفة، والمحافظة على سلامته، فى حله وترحاله، وتنفيذ أوامره، ومن الجدير بالذكر أن جميع رؤساء حرس عبد الملك كانوا من الموالى وبخاصة من موالى الخليفة نفسه، ويبدو أن ذلك راجع إلى طبيعة أعمال هؤلاء المرتبطة دومًا بالخليفة، والتى تستوجب أن يكونوا موضع ثقة الخليفة للاطمئنان على سلامته، وكان الخليفة يتنقل فى مدن بلاد الشام، ونظم إقامته على هذا الأساس، فلن يكن يقيم بدمشق طوال العام، بل كان يشتو بالصَنبرة من الأردن، وإذا انتهى الشتاء نزل الجابية، وفرّق الأرزاق على أصحابه، فإذا مضت أيام من آذار دخل دمشق، حتى إذا اشتد الحر أتى بعلبك فقام بها حتى تهيج رياح الشتاء فيرجع إلى دمشق، فإذا اشتد البرد خرج إلى الصنبرة، وهذه التنقلات كانت تخضع لنظام حراسة مشدد، ومن أراد التفصيل فليراجع كتاب الشرطة فى العصر الأموى، للدكتور أرسن موسى رشيد.

(1) عيون الأخبار (١/١٦) .
(2) الإصلاحات المالية، ص (١٩١).
(3)، (4) المصدر نفسه، ص (١٩٢).
(5) المصدر نفسه، ص (١٩٢).

المبحث السادس

العلماء والشعراء فى عهد عبد الملك

أولاً: العلماء:

اختلف موقف العلماء من عبد الملك، فهناك من خرج عليه، كعبد الرحمن بن أبي ليلى، وسعيد بن جبير، وهناك من ابتعد عنه والتزم بالبيعة كالحسن البصرى وغيره، وهناك من كان قريبًا منه ناصحًا له كقبيصة بن أبي ذؤيب. وقد اخترت مجموعة من العلماء ممن كانت لهم قربة ومنزلة من عبدالملك، أو نصحوه أو ذكّروه، ولم يكن عبد الملك بعيدًا عن أجواء العلماء وطلاب العلم، فقد كان فى المدينة فى مقبل شبابه مشمراً فى طلب العلم وعرف عنه أنه كان يلزم المسجد ولا يكاد يبرحه حتى سمى حمامة المسجد لعبادته، وطول انقطاعه للدراسة، مقبلاً على طلب العلم مجلاً لشيوخه، ولما كان متوقد الذكاء، شديد الفطنة، قوى الذاكرة، فقد وعى كل ما سمع منهم، وأتقنه لمجالسته لهم[1]، وهذا أكسبه قدرة بحيث صار حجة فى المعارف الدينية كقراءة القرآن التى كان يطيل فى تلاوتها بالمدينة[2]، كما كان يحضر دراسته بدمشق[3]، وعرف بروايته للحديث، وإن كان مقلاً[4]، على الرغم أنه كان ثقة فيما رواه[5]، وروايته مثبتة فى الصحيحين البخارى ومسلم[6]، وكان فقيهًا من الفقهاء، ومن أهل العلم بالمغازى والسير[7]، وإخباريًا له علم واسع بأحاديث العرب وآثارهم فى الجاهلية والإسلام، كثير المحاورة لرواة وسادة القبائل، ونسابة له معرفة دقيقة بأنساب العرب وبخاصة أنساب قريش[8]، ولذلك كان عارفًا بنفسية العلماء قادرًا على التعامل معهم، ومن أشهر العلماء الذين احتك بهم، أو كانت له مواقف وعظ أو تذكير له هم:

---

(١) أنساب الأشراف نقلاً عن تجديد الدولة الأموية، ص (٢٩٠).

(٢) تهذيب التهذيب (٦/ ٤٢٢)، شذرات الذهب (١/ ٩٧).

(٣) البداية والنهاية نقلاً عن تجديد الدولة الأموية، ص (٢٩٠).

(٤) الطبقات (٥/ ٢٢٦)، تهذيب التهذيب (٦/ ٤٢٢).

(٥) تهذيب التهذيب (٦/ ٤٢٣).

(٦) المصدر نفسه (٦/ ٤٢٣).

(٧) تجديد الدولة الأموية، ص (٢٩١).

(٨) المصدر نفسه، ص (٢٩١).

١ ـ قبيصة بن ذؤيب: نشأ قبيصة في المدينة وكـان في عداد علمائها ولكنه انتقل إلى الشام بجـانب عبد الملك، وأصبح من خـاصته، واختـاره عبد الملك لعـلاقته القديمة به في المدينة، ولما يتـمتع به قبيصة من روح مـرونة تراعي الأحوال، وتقدر المواقف، وتوازن بين المصالح، وصاحب هذه الروح هو القادر على الصبر والقرب من الخلفاء والسلاطين، وهو من يرغب الخلفاء في تقريبه عادة، ومن المواقف التي ظهرت فيـها هذه الروح عند قبيصة مـا ذكره ابن سعد في طبقـاته، حيث ذكر أن الصحـابي الجليل جابر بن عبـد الله رضي الله عنه دخل على عبـد الملك وقربه، فقال جـابر: يا أمير المؤمنين إن المدينة حـيث ترى، وهي طيبة سمـاها النبي عليه الصلاة والسـلام، فأهلها مـحصورون، فـإن رأى أمير المؤمنين أن يصل أرحـامهم ويعرف حقـهم فعل، قال: فكره ذلك عبد الملك وأعـرض عنه، وجعل جابر يلح عليه حتى أومأ قبيصة إلى ابنه ـ وهو قائده وكان جابر قد ذهب بصره ـ أن أسكته، قال: فجـعل ابنه يسكته، قال جابر: ويحك؟ ما تصـنع بي؟ قال: اسكت فسكت جابر، فلما خـرج أخذ قبيصـة بيده فقال: يا أبا عبـد الله إن هؤلاء القوم صاروا ملوكًا. فقال: جابر: أبلى الله بلاءً حسنًا فإنه لا عذر لك وصاحبك يسمع منك. قال يســمع ولا يُسمع وما وافقـه سمع، وقد أمـر لك أمير المؤمنين بخمـسة آلاف درهم، فاستعن بها على زمانك فقبضها جابر[١].

فمن هذا الموقـف يتضح كيف أدرك قـبيـصة عدم رضـا الخليفـة عن فتح هذا الموضوع معـه من قبل جابر، وكيف أنهى الموضوع حتى لا يتطور إلـى ما لا تحمد عقبـاه للطرفين، فأشار على ابن جابر بإيقـاف والده عن الكلام، ثم يطيب خاطر جابر بأخذه بيـده، والاعتذار إليه بألا يسـتغرب هذا التصرف من عـبد الملك، فلا يتعـامل معه على أنه عبـد الملك العالم، وإنما على أنه عبـد الملك الذي صار ملكًا ينظر إلى الأمور من نافذة الملك ومـصالحه، ثم هو يعتذر لنفسـه عندما وجه جابر اللوم له بأنه ليس له عذر في عدم المطالبـة بحقوق أهل المدينة ما دام له هذه المكانة عند عبد الملك، لكن الأمر ليس كما يتصـور جابر وغيره بأنه قادر على تحقيق كل ما يريده من عبد الملك بل الواقع أنه يُسمع ولا يسمع، وفي هذا دليل على مراعاة قبيصة للأحوال والأشخاص[٢].

---

(١) الطبقات (٥/ ٢٣١) . (٢) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص (١٢٤).

أ ـ مكانته من عبد الملك: **جمع قبيصة عددًا من المهام في عهد عبد الملك، وتعددت مسميات مهامه عند عبد الملك، فيذكر ابن سعد[1]، وابن عساكر، وابن عبد الهادي: إن قبيصة كان على الخاتم والبريد، وأما الذهبي، فقد ذكر هذه المهام السابقة وأضاف أخرى حيث ذكر أنه كان كاتبًا لعبد الملك، ووصفه بأنه الوزير[2]. وكان يدخل على عبد الملك طروقًا[3]، وأن عبد الملك تقدم إلى حاجبه فقال: لا يحجب قبيصة أي ساعة جاء من ليل أو نهار إذا كنت خاليًا أو كان عندي رجل واحد، أو كنت عند النساء، أدخل المجلس ثم أعلمت مكانه. وكانت تأتيه الأخبار قبل عبد الملك فيقرأ الكتب قبله ثم يأتي بها منشورة إلى عبد الملك فيقرأها إعظامًا لقبيصة[4]، فقبيصة بهذا كان وزيرًا لعبد الملك ومستشارًا له وساعده الأيمن في إدارة الدولة وتصريف شئونها، وكان ملازمًا له في سفره وإقامته[5].**

ب- موقف قبيصة من محاولة عبد الملك خلع أخيه عبد العزيز: **كان مروان بن الحكم قد عقد ولاية العهد لابنيه عبد الملك ومن بعده عبد العزيز[6]، وبعد وفاة مروان تمت البيعة بالخلافة لعبد الملك وبولاية العهد لأخيه عبد العزيز بن مروان من قبل المؤيدين لبني أمية، ثم تأكدت تلك البيعة من الأمة بعد مقتل ابن الزبير ونهاية سلطانه، ولكن عبد الملك بعدما استقرت له الأمور، وتذوق حلاوة الملك في دنياه ورغب في استمرار الذكر له بعد الوفاة، لاسيما وقد رأى أن كلاً من ابنيه الوليد وسليمان قد بلغ من الرشد مبلغه، وتحركت فيه عاطفة الأبوة تجاههما، وأحب أن يصرف ولاية العهد من بعده لهما دون أخيه عبد العزيز، وكان قد عزم على ذلك إلا أن قبيصة بن ذؤيب نهاه عن ذلك، فقد أورد ابن سعد هذا الخبر: قالوا: كان عبد الملك بن مروان قد همّ أن يخلع أخاه عبد العزيز بن مروان ويعقد لابنيه الوليد وسليمان بعده بالخلافة، فنهاه قبيصة بن ذؤيب وقال: لا تفعل هذا، فإنك تبعث عليك صوتًا نعارًا[7]، ولعل الموت يأتيه فتستريح منه، فكف عبد الملك عن ذلك ونفسه تنازعه أن يخلعه، فدخل عليه ليلة روح بن زنباع الجذامي وكان يبيت عند عبد الملك، وكان**

---

(1)، (2) الطبقات الكبرى (5/ 234).

(3) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (125).

(4) الطبقات الكبرى (5/ 234) .

(5) المصدر نفسه (5/ 230) .

(6) تاريخ خليفة، ص (261).

(7) النعار: العاصي والخرّاج السعّاء في الفتن.

أحلى الناس كلامًا عند عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين لو خلعته ما انتطحت فيه عنزان، قال: ترى ذلك يا أبا زرعة؟ قال: أى والله وأنا أول من يجيبك إلى ذلك، فقال: نصبح إن شاء الله، فبينما هو على ذلك، وقد نام عبد الملك بن مروان وروح ابن زنباع إلى جنبه إذ دخل عليهما قبيصة بن ذؤيب.. فقال: آجرك الله يا أمير المؤمنين فى أخيك. فقال: فهل تُوفى؟ قال: نعم. فاسترجع عبد الملك بن مروان ثم أقبل على روح فقال: أبا زرعة كفانا الله ما كنا نريد وما أجمعنا عليه[1].

ومن خلال هذا الموقف لقبيصة يمكن أن نستشف منهجه فى التعامل مع عبد الملك كمشير ووزير، ويتمثل ذلك المنهج فى صدقه فى النصيحة ومراعاة المصلحة العامة للأمة والدولة، فهو لم يجامل عبد الملك بموافقته له فيما يوده ويهواه، بل دفعه إخلاصه لله وتقديره لمصلحة، الأمة بعامة والبيت الأموى بخاصة، أن يقول رأيه بصراحة، وإن كان يعلم أنه يخالف ما فى نفس عبد الملك ويضاد رغباته وعواطفه تجاه بنيه[2].

ج - بعد وفاة عبد العزيز بن مروان

عقد عبد الملك البيعة من بعده لابنيه الوليد وسليمان، وبعث إلى البلدان لأخذ البيعة لهما، ففى المدينة دعا واليها هشام بن إسماعيل المخزومى الناس إلى البيعة فبايعوا إلا سعيد بن المسيب فإنه أبى وقال: أنظر، فضربه هشام وطاف به ثم سجنه، وبعث إلى عبد الملك يخبره بما فعل[3]. وكانت الرسائل تصل إلى قبيصة بن ذؤيب ويقرؤها قبل عبد الملك، فلما وصل كتاب هشام واطلع على ما فيه كان له موقف من تصرف هشام مع سعيد بن المسيب يصور لنا ابن سعد هذا الموقف:... دخل قبيصة بن ذؤيب على عبد الملك بن مروان بكتاب هشام بن إسماعيل يذكر أنه ضرب سعيدًا وطاف به، قال قبيصة: يا أمير المؤمنين يفتات عليك هشام بمثل هذا؟ يضرب ابن المسيب ويطوف به؟ والله لا يكون سعيد أبدًا أمحل وألج[4] منه حين يضرب، سعيد لو لم يبايع ما كان يكون منه؟ ما سعيد مما يخاف فتقه ولا غوائله

(١) الطبقات الكبرى (٥/ ٢٣٣، ٢٣٤).

(٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٣٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣٠)، الطبقات (٥/ ١٢٦).

(٤) المحل: المكر والكيد، وماحله مماحلة ومحلاً: قاومه حتى تبين أيهما أشد، واللجاجة: الخصومة.

على الإسلام وأهله، وإنه لمن أهل الجماعة والسنة. وقال قبيصة: اكتب إليه يا أمير المؤمنين في ذلك. فقال عبد الملك: اكتب أنت إليه عني تخبره برأيي فيه ومخالفتي من ضرب هشام إياه. فكتب قبيصة إلى سعيد بذلك. فقال: سعيد حين قرأ الكتاب: الله بيني وبين من ظلمني[1]، وكتب إلى والي المدينة كتابًا باسم عبد الملك: سعيد كان والله أحوج إلى أن تصل رحمه من أن تضربه، وإنا لنعلم ما عند سعيد شقاق ولا خلاف[2]. ويتضح من هذا أثر قبيصة الكبير في صياغة موقف عبد الملك وقراره في مثل هذه القضايا المهمة والخطيرة، كما يظهر أثره الفعال في إطفاء الفتن وحسن معالجته لها معالجة تنم عن بعد نظره ومعرفته بعواقب الأمور من منطلق إرضاء الله أولاً، ثم الحرص على مصلحة الأمة والدولة ثانية[3].

د ـ محاولته إصلاح بطانة عبد الملك: كانت له محاولات تستهدف إصلاح بطانة عبد الملك، وذلك بتقريب العلماء له وجعلهم ضمن جلسائه؛ ليكثر بذلك سوادهم عنده، ويكون تأثيرهم أقوى وأنفع، ومن ذلك محاولته تقريب الإمام الزهري إلى عبد الملك فتير بعض الروايات التي ذكرت صلة الزهري بعبد الملك أن الزهري خرج من المدينة لما اشتد به ضيق ذات اليد، وساءت أحوال أهله، وليس له مورد فرحل إلى الشام، وذكرت بعض الروايات أنه اتصل بقبيصة وجالسه مدة قبل اتصاله بعبد الملك[4]، وقد أكرم قبيصة الزهري وقال له: ائتني في المنزل، فلحق به الزهري، فلما بلغ منزله كساه ومنحه بغلة ومائة دينار وغلامًا[5]، وعمل على تعريف عبد الملك بمكانة الزهري العلمية حتى أصبح من أصحابه وفرض له العطاء، وتوطدت العلاقة بين الزهري وعبد الملك، وتكرر الدخول على عبد الملك بانتظام شأنه شأن أصحابه وجلسائه، ولكن حرص الزهري على العودة إلى المدينة لمواصلة طلب العلم، وتولي مؤونة أهله وذويه جعله يرحل وينقطع عن عبد الملك. فكانت صلته هذه على يد قبيصة بداية اتصال الزهري بخلفاء بني أمية بعد عبد الملك،[6]

---

(1) الطبقات (٥/١٢٦، ١٢٧).
(2) المصدر نفسه (٥/١٢٦) إثر العلماء، ص(١٤٠).
(3) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (١٤١).
(4) سير أعلام النبلاء (٥/٣٢٩)
(5) المصدر نفسه (٥/٣٢٩).
(6) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (١٤٣).

وقد قال ابن سعد فى أثر قبيصة لتقريب الزهرى لبنى أمية بقوله: وهو الذى أدخل الزهرى على عبد الملك بن مروان فـفرض له ووصله وصار من أصحابه[1]. وكان هذا من قبيصة حرصًا على مصلحة الزهرى، كما كان همه إصلاح بطانة عبد الملك وتكثير سواد أهل العلم والصلاح فى بلاطه مما سيكون له أثر فى توجيه سياسة الدولة نحو الأصلح بالتأثير على عبد الملك من قبل جلسائه وبطانته[2].

وقال الذهبى عن قبيصة: الإمام الكبير، الفقيه، أبو سعيد الخزاعى، وعن الشعبى قال: كان قبيصة أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت، وعن ابن شهاب، قال: كان قبيصة بن ذؤيب من علماء هذه الأمة. وعن مكحول قال: ما رأيت أحدًا أعلم من قبيصة. وقد توفى سنة ٨٦ هـ، وقيل: ٨٧ هـ، وقيل: ٨٨ هـ[3].

٢ ـ عطاء بن أبى رباح ونصيحته لعبد الملك: دخل عطاء بن أبى رباح على عبد الملك، وهو جالس على السرير وحوله الأشراف وذلك بمكة فى وقت حجه فى خلافته، فلما بَصُر به عبد الملك قام إليه، فسلم عليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال: يا أبا محمد، حاجتك؟ قال: يا أمير المؤمنين اتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله فى أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسئول عنهم، واتق فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق دونهم بابك. فقال له: أفعل، ثم نهض، وقام فقبض عليه عبد الملك وقال: يا أبا محمد، إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها، فما حاجتك؟ فقال: مالى إلى مخلوق حاجة، ثم خرج، فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك السؤدد[4]. وكان بنو أمية فى عهدهم يأمرون مناديًا يصيح فى الحج: لا يُفتى الناس إلا عطاء بن رباح، فإن لم يكن عطاء، فعبد الله بن أبى نجيح[5]، وقد فاق عطاء أهل مكة فى الفتوى[6]. وكان المسجد فراش عطاء عشرين سنة، وكان من أحسن الناس صلاة[7]، وكان معاشه صلة الإخوان ونيل السلطان[8]. ومن أقوال عطاء: إن من قبلكم كانوا يعدون

---

(١) الطبقات (٧/ ٤٤٧).
(٢) أثر العلماء، ص (١٤٣).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣٨، ٢٨٢).
(٤) المصدر نفسه (٥/ ٨٤، ٨٥).
(٥)، (٦) المصدر نفسه (٥/ ٨٢).
(٧)، (٨) المصدر نفسه (٥/ ٨٤)

فضول الكلام ما عدا كتاب الله، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، أو أن تنطق فى معيشتك التى لابد لك منها، أتنكرون أن عليكم حافظين، كراما كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحى أحدكم لو نشرت صحيفته التى أملى صدر نهاره وليس فيها شىء من أمر آخرته[1]، وعن عطاء: إن الرجل ليحدثنى بالحديث، فأُنصتُ له كأنى لم أسمعه، وقد سمعته قبل أن يولد[2]. وعطاء هذا الذى كان مرجع الأمة فى موسم الحج كان أسود أعرج، أفطس، أعور، ثم أعمى، من الموالى. فهذا الذى تجمعت فيه كل العاهات الجسدية جعلته الحضارة الإسلامية رأس الفتوى فى أقدس بقعة عند المسلمين فى مكة، فضلاً عن كونه من أشهر علماء الحجاز الذين يستقطبون طلبة العلم من مختلف أرجاء المعمورة[3].

سأل عبد الملك يزيد بن الأصم عن معنى

قوله تعالى:

[القصص: ٨٣] فأجاب بكل صراحة بقوله: التجبر فى الأرض، والأخذ بغير الحق - أى من العلو والفساد فى الأرض - فنكس عبد الملك برأسه، وجعل ينكت فى الأرض، وكان إطراق عبد الملك وتنكيسه لرأسه حياء من يزيد لإدراكه أنه المعنى لذلك بالتوجيه[4].

كان عبد الملك بن مروان راويًا للشعر ناقدًا له، كثير الاستشهاد به فى كثير من المناسبات، يكثر من الأسئلة والمحاورة منه فى مجلسه، فضلاً عن اهتمامه بمعانيه، كما كان يعلم خطورته فى التأثير الإعلامى فى كسب الأنصار والهجوم على خصومه، ولذلك اهتم بالشعراء اهتمامًا كبيراً ووظفهم لمدحه ودولته وبنى أمية، ولم يبخل عليهم بالعطاء، ولذلك كان كبار شعراء عصره من الأمويين مثل الأخطل، والفرزدق، وجرير، وغيرهم، كما أنه عمل على كسب خصومه حتى إنهم مدحوه بعد أن هجموا عليه بقصائد قوية فى سبه وذمه مثل عبيد الله الرقيات، وإليك شيئًا من شعر شعراء الدولة الأموية:

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء.(٥/٨٦) . (٣) رعاية الفئات الخاصة، ص (٩).

(٤) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٢٧٥).

١ - الأخطل: هو غياث بن غوث التغلبي النصراني، شاعر زمانه، وقد قيل للفرزدق: من أشعر الناس؟ قال: كفاك بي إذا افتخرت، وبجرير إذا هجا، وبابن النصرانية إذا امتدح[1]، وكان عبد الملك بن مروان يجزل عطاء الأخطل، ويفضله في الشعر على غيره[2]، فقد كان شاعر الدولة الرسمي الذي أكثر من مدح خلفائها، والدعاية لها، والترويج لسادتها نحو ربع قرن[3]، ومن مدحه في بني أمية:

تمت جدودهم والله فضلهم	وجد قوم سواهم خامل نكد
وأنتم أهل بيت لا يوازنهم	بيت إذا عدت الأحساب والعدد[4]

ومن شعره المتميز في بني أمية قوله:

حشدٌ على الحق عيَّافو الخنا أُنُفٌ	إذا ألَمَّت بهم مكروهة صبروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم	وأعظم الناس أحلامًا إذا قدروا[5]

وكان كثير المديح لعبد الملك والتنويه بصلاح السياسة في عهده كقوله:

إلى امرئ لا تعدينا نوافله	أظفره الله فليهنأ له الظفر
الخائض الغمر والميمون طائره	خليفة الله يستسقى به المطر
والمستمر به أمر الجميع فما	يغتره بعد توكيد له غرر
نفسي فداء أمير المؤمنين إذا	أبدى النواجذ يومًا عارم ذكر[6]

وعرف الأخطل بأنه يعاود شعره بالتنقيح والصقل، حتى لقد قالوا إنه كان ينظم القصيدة تسعين بيتًا، ثم يضرب عن ستين ويبقي ثلاثين، وهذا هو السبب في جودة تعبيره، وندرة سقطه، وهو بهذا يشبه المنهجين القدماء، مثل زهير والحطيئة وأضرابهما، مما سماهم الأصمعي عبيد الشعر[7]. ومن أحسن ما قال من الشعر قوله:

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٥٨٩).
(٢) المصدر نفسه (٤/٥٨٩).
(٣) أدب السياسة في العصر الأموي، ص (٤٩٤).
(٤) ديوان الأخطل، ص (١٧٤).
(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/٤٩٥).
(٦) عارم ذكر: نكبة شديدة وأذى مهلك، أدب السياسة، ص (٥٠٠).
(٧) أدب السياسة في العصر الأموي، ص (٥٠١).

والناس همهم الحياة ولا أرى	طول الحياة يزيد غير خبال
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد	ذخراً يكون كصالح الأعمال[1]

٢ ـ الفرزدق: هو همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن مجاشع[2]، وكان ممن مدح بنى أمية، وقال فى عبد الملك بن مروان:

فالأرض لله ولأها خليفته	وصاحب الله فيها غير مغلوب
بعد الفساد الذى قد كان قام به	كذاب مكة من مكر وتخريب
راموا الخلافة فى غدر فأخطأهم	منها صدور وفازوا بالعراقيب
والناس فى فتنة عمياء قد تركت	أشرافهم بين مقتول ومحروب
دعوا ليستخلف الرحمن خيرهم	والله يسمع دعوى كل مكروب
فأصبح الله ولّى الأمر خيرهم	بعد اختلاف وصدع غير مشعوب
تراث عثمان كانوا الأولياء به	سربال ملك عليهم غير مسلوب[3]

وكان للفرزدق أخٌ شاعر وهو هميم وهو القائل:

لعمر أبيك فلا تكذبن	لقد ذهب الخير إلا قليلا
وقد فتن الناس فى دينهم	وخلّى ابن عفان شراً طويلا[4]

٣ ـ جرير: هو جرير بن عطية بن الخطفى التميمى البصرى مدح خلفاء بنى أمية، وشعره مدون[5]، وقد مدح عبد الملك ووصفه بأنه ركن الدين، والحفيظ على أحكام الشرع، ولولاه ما اجتمع المسلمون فى صلواتهم فى المساجد فى الجمع، ثم يصفه بأنه أمين الله، والمبارك الذى يهدى به الله عباده، ويقول: إن أوامره ميمونة مطاعة، وإن الله فضل بنى أمية على غيرهم من أهل البدع، يريد الأحزاب المعادية لبنى أمية[6]، حيث قال:

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٩٠) . (٢) الشعر والشعراء (١/ ٤٧١) .

(٣) أدب السياسة فى العصر الأموى، ص (١٤٩)، الديوان (١/ ٢٥) .

(٤) الشعر والشعراء (١/ ٤٧٢). (٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٩١).

(٦) أدب السياسة فى العصر الأموى، ص (١٤٧، ١٤٨).

لولا الخليفة والقرآن يقرأه ما قام للناس أحكام ولا جُمُع
أنت الأمين أمين الله لا سرف فيما وليت ولا هيابة ورع[1]
أنت المبارك يهدى الله شيعته إذا تفرقت الأهواء والشيع
فكل امرئ على يمن أمرت به فينا مطاع ومهما قلت يستمع
يا آل مروان إن الله فضلكم فضلاً عظيمًا على من دينه البدع[2]

ومدح عبد الملك بقصيدة جاء فيها:

سأشكر إن رددت على ريشى وأنبت القوادم من جناحى
ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فقال عبد الملك: من مدحنا فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت، ووهبه مائة ناقة، فسأله الرعاء، فوهبه ثمانية أعبد، ورأى صحاف ذهب بين يديه فقال: يا أمير المؤمنين والمحلب[3]، وأشار إليها، فنحاها إليه بالقضيب وقال: خذها لانفعتك[4]. وكان فى جرير على هجائه للناس عفة ودين، وحسن خلق، ورقة طبع، اتفق علماء الأدب وأئمة نقد الشعر، على أنه لم يوجد فى الشعراء الذين نشأوا فى ملك بنى أمية أبلغ من جرير والفرزدق والأخطل، وإنما اختلفوا فى أيهم أشعر[5]. وإن لجرير فى كل باب من الشعر أبياتًا سائرة، هى الغاية التى يضرب بها المثل:

أ ـ فيقال إن أغزل شعر قالته العرب هو قوله:

إن العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهنَّ أضعف خلق الله إنسانا

ب ـ أفخر بيت قوله:

إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضابا

---

(1) سرف: متجاوز الحد . ورع: جبان .
(2) ديوان جرير، ص (٣٥٥).
(3) المحلب: الإناء.
(4) شذرات الذهب (٢/ ٥٧).
(5) جواهر الأدب (٢/ ١٥١).

جـ ـ أهجى بيت مع التصون عن الفحش قوله:

فـغـض الطرف إنك من نمـيـر ... فـلا كـعب بلـغت ولا كـلابا

د ـ أصدق بيت قوله:

إنى لأرجـو منك خـيراً عـاجـلاً ... والنفس مـولعـة بحب الـعـاجل

هـ ـ أشد بيت تهكمًا قوله:

زعم الفـرزدق أن سيـقـتل مربعًـا ... أبشـر بطول سـلامـة يا مـربع[1]

ومن جيد شعره قوله من قصيدة يرثى به امرأته:

لولا الحـيـاء لهـاجنى اسـتـعـبـار ... ولزرت قـبـرك والحـبـيب يزار

ولقـد نظـرت ومـا تمَتُّع نـظرة ... فى اللحـد حـيث تمكن الإحـفـار

ولَهْتِ قـلبى إذ عـلْتنى كـبـرة ... وذوو التـمـائم من بنيك صـغـار

لا يلبث الـقـرناء أن يتـفـرقـوا ... ليـل يكرُّ عـليـهم ونهـار[2]

صـلـى الملائكة الذين تـخـيَّـروا ... والطـيِّـبـون عليكِ والأبـرار

فلقـد أراكِ كـسـيت أحـسن منظر ... ومع الجـمـال سكـينة ووقـار

كـانت إذا هجر الحـبيبُ فـرَاشَهـا ... خُزِنَ الحـديث وعَفَّـتِ الأسرار[3]

وكان قد افـتخر على الأخطل فى قصـيدة، وبيَّن أن عبد الملك ابـن عمه، ولو شاء ساق إليه قبيلة الأخطل حيث قال:

إن الذى حـرم المكارم تـغلبـا ... جـعـل الـنبـوة والخـلافـة فـينا

هل تملكون من المشـاعـر مـشعـرا ... أو تشـهـدون مـع الأذان أذينا؟

مـضـر أبى وأبو الملوك فـهل لكم ... يا خُـرزَ تغلب مـن أب كـأبـينا

هذا ابن عـمى فى دمـشق خليفـة ... لو شـئت سـاقكم إلىَّ قـطينا[4]

---

(١)، (٢)، جواهر الأدب (٢/ ١٥١)

(٣) الشعر والشعراء (١/ ٤٩١).

(٤) القطين: العبيد والإماء فى هذا الموضع.

قال الذهبي عن جرير: كان عفيفًا منيًا توفي ١١٠هـ بعد الفرزدق بشهر.[1]

٤ ـ الراعي: من كبار الشعراء هو أبو جندل، عبيد بن حصين النُّميري، وإنما لقب بالراعي لكثرة ما يصف الإبل في شعره، وقد امتدح عبد الملك[2]، وانضم إلى الفرزدق على جرير، فقال فيه جرير قصيدته المشهورة التي صارت وبالاً على بني نمير:

أقلِّيَ اللوم عاذل والعتابا ... وقولي إن أصبت لقد أصابا

وفيها يقول له:

فغض الطرف إنك من نُمير ... فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

وأهم ما بقي للراعي لاميته التي مدح بها عبد الملك بن مروان ويشكو له العريف أو الجابي، ويرجو التخفيف عن قومه، ويتبرأ من الخوارج النجدية والزبيريين، ويعد نفسه بذلك مخلصًا للأمويين[3]، ويبدو أن الراعي كان أمويًا لأجل قومه، ورغبة في عبد الملك أن يرفع عن قومه ظلم الجباة، ومن شعر الراعي لعبد الملك:

إنّي حلفت على يمين برَّةً ... لا أكذب اليوم الخليفة قيلا

ما إن أتيت نُجيدة بن عويمر ... أبغي الهدى فيزيدني تضليلا[4]

إلى أن قال في رواية أخرى:

أخليفة الرحمن إنا معشر ... حُنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عُربٌ نرى لله في أموالنا ... حق الزكاة منزلاً تنزيلا

إن السُّعاة عصوك يوم أمرتهم ... وأتوا دواهي لو علمت وغُولا[5]

أخذوا العريف فقطعوا حيزومه ... بالأصبحية قائمًا مغلولا[6]

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٥٩١).

(٢) المصدر نفسه (٤/٥٩٨).

(٣) تاريخ الشعر السياسي، ص (٣٧١).

(٤) طبقات فحول الشعراء (٢/٥٠٨).

(٥) الغول: الهلكة والداهية.

(٦) العريف: شيخ القبيلة. حيزومه: وسطه. الأصبحية: جمع أصبحي وهو السوط نسبة إلى ذي أصبح، وهو ملك يمني.

إن الذين أمــــرتهم أن يعـــدلوا لم يفــعلوا مما أمــرت فـتــيـلا
فــادفـع مظالم عـــيَّلَت أبـناءنا عنا وأنـقِـذْ شِلْونـا المأكــولا[1]

هؤلاء من أشهر شـعراء عهد عـبد الملك، وكان يهتم بهم ويسـمع لهم ويجزل لهم فى العطاء، وكسـبـهم فى صفـه، وأصبحـوا من أبرز المدافعـين عن الخليـفة ودولته، وكان لا يتورع عن دفع الأموال للشعراء ما داموا يمدحون ويبجلون خلفاء بنى أمية.

(١) عيلت: أجاعت، شلو: عضو. أدب السياسة فى العصر الأموى، ص (١٧٢).

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الفصل الأول

معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه من مولده حتى نهاية عهد الخلافة الراشدة

الفصل الثانى

بيعة معاوية وأهم صفاته ونظام حكمه

الفصل الثالث

السياسة الداخلية لمعاوية رضى الله عنه

المبحث الثانى: مباشرة معاوية للأمور بنفسه وحرصه على توطيد الأمن

الفصل الرابع

الفتوحات فى عهد معاوية رضى الله عنه

الفصل الخامس

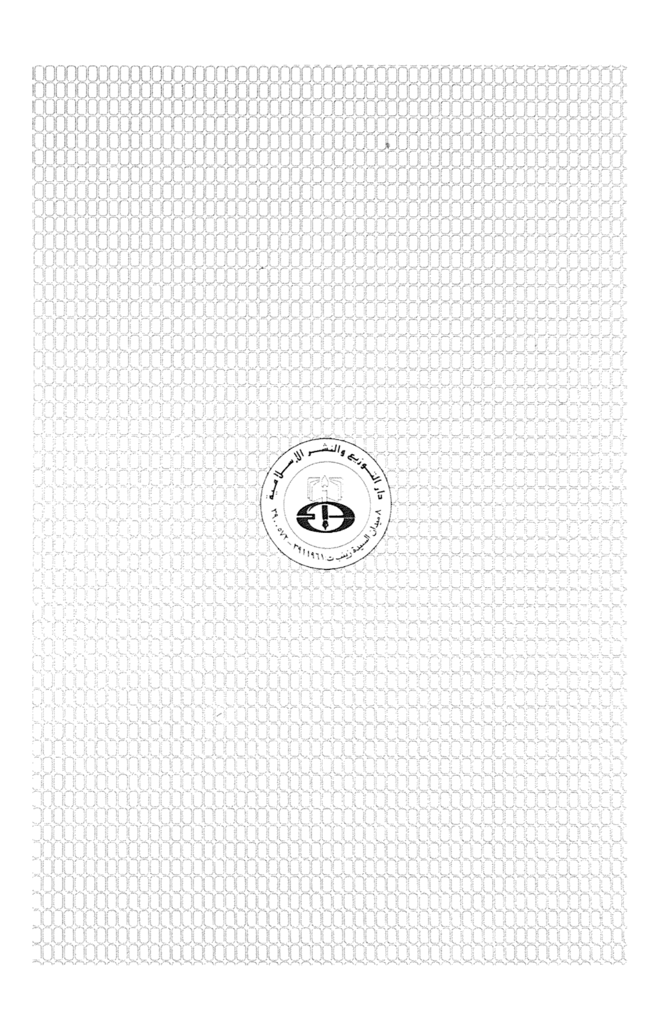
عهد يزيد بن معاوية بن أبى سفيان

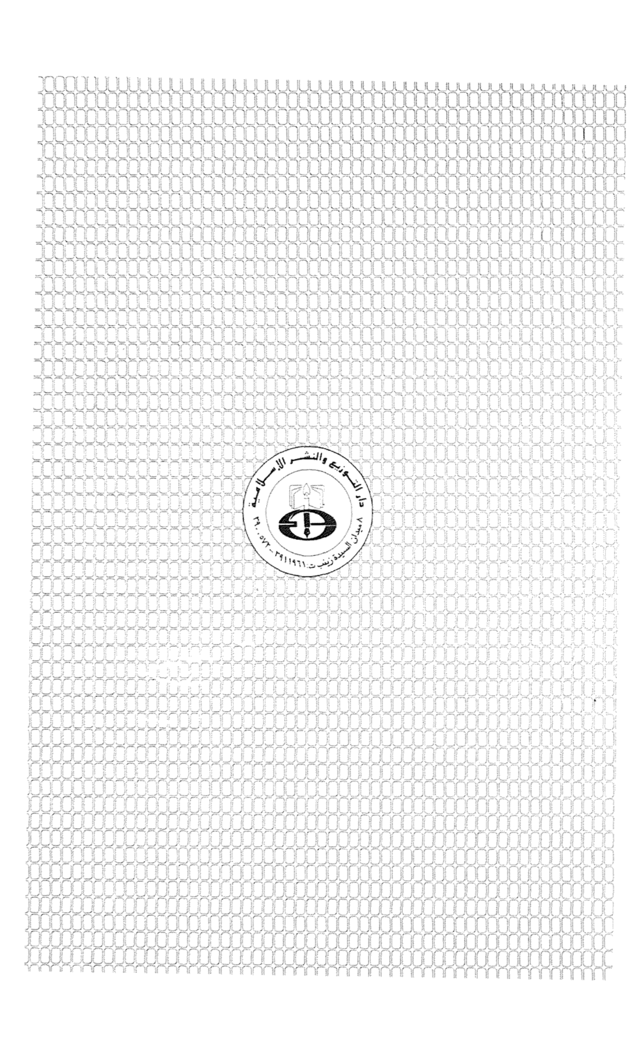
الفصل السادس

عهد أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضى الله عنه

الفصل السابع

عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان دون الفتوحات


دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢


دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢



دار التوزيع والنشر الإسلامية

٢٥١ش بورسعيد ت: ٢٩٠٠٥٧٢ فاكس: ٢٩٣١٤٧٥

email:info@eldaawa.com www.eldaawa.com